BOBST LIBRARY
3 1142 01158 9614

NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

54 F

DATE DUE

NEW YORK UNIVERSITY
BOBST LIBRARY
CIRC
DEC 13 1985
CIRC
70 WASHINGTON SQ. S.
NEW YORK, N.Y. 10012

54 F 1 Tarikh

تاريخ الإسلام السياسي

والديني والثقافي والاجتماعي

v.3

الجزء الثالث

العصر العباسي الثاني

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس

من عهد المتوكل إلى قيام الدولة السلجوقية

(٢٣٢ – ٤٤٧ هـ = ٨٤٧ – ١٠٥٥ م)

Ḥasan, Ḥasan Ibrāhīm

تأليف

حسن ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة فؤاد الأول

D. Litt. (Cairo), Ph.D., D.Lit. (London).

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا – تليفون ٥١٣٩٤

[1946]

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر لصاحبها محمد الخفيف

Near East
DS
223
.H34
v.3
c.1

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

يسرنى أن أقدم إلى قراء العربية الجزء الثالث من كتابى ، «تاريخ الإسلام : السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى» ، بعد الجزء الأول منه الذى نشرته فى سنة ١٩٣٥ ، ويتناول تاريخ العرب فى الجاهلية ، والبعثة النبوية ، وعصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، والجزء الثانى الذى نشرته فى سنة ١٩٤٥ ، ويتناول تاريخ العصر العباسى الأول (١٣٢ — ٢٣٢هـ) الذى يسميه بعض المؤرخين العصر الذهبى للإسلام .

ويتناول هذا الجزء الثالث تاريخ الإسلام فى مدة قرنين وخمس عشرة سنة (٢٣٢ — ٤٤٧ هـ) ، من السنة التى ولى فيها الخلافة المتوكل العباسى ، الذى يعتبر عهده بدء عصر انحلال الدولة العباسية ، إلى أن زال سلطان بنى بويه من بغداد .

على أن هذا العصر كانت له ميزاته ومظاهر حضارته ، فقد ظهرت فيه دول كثيرة كان لها أثر كبير فى تقدم الحضارة الإسلامية . ذلك أن بغداد ، بعد أن كانت مركزا لهذه الحضارة ، ظهرت مراكز أخرى مثل قرطبة والقاهرة وبخارى وغزنة وحلب ، تنافس حاضرة العباسيين فى الحضارة والعلوم والآداب ، بفضل تشجيع الخلفاء والأمراء والسلاطين رجال العلم والأدب ، واتساع أفق الفكر الإسلامى ، وذيوع الثقافة الإسلامية . كما ساعد قيام هذه الدول على تدفق الثروة واتساع العمران ورقى المجتمع الإسلامى .

وقد قسمت هذا الجزء إلى عشرة أبواب : بحثت فى الباب الأول منها أثر استبداد الأتراك بالسلطة (٢٣٢ — ٣٣٤هـ) ، وكيف أصبح فى أيديهم تولية الخلفاء وعزلهم ، وكيف كان ذلك من أهم عوامل ضعف الدولة العباسية وزوالها فى النهاية على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) . وتكلمت فى الباب الثانى على عصر إمرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤هـ) ، وبينت كيف استبد أمير الأمراء بالسلطة دون الخليفة ، حتى أصبح ينظر فى جميع أمور الدولة ، وعلت مرتبته على مرتبة الوزير الذى لم يبق له سوى الاسم . وعالجت فى الباب الثالث حالة الدولة العباسية ، وخاصة بلاد العراق والأهواز وكرمان فى عهد بنى بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) . وكانوا من الشيعة المغالين فى عقائد هذا المذهب ، ومن ثم لم يعترفوا بحق الخليفة العباسى السنى فى السيادة على العالم الإسلامى ، ولم يتورعوا عن التعدى على شخصه وإضعاف سلطته .

وبحثت فى الباب الرابع الولايات الإسلامية التى استقلت عن الدولة العباسية، حيث قامت فى بلاد الفرس وبلاد ما وراء النهر دويلات ، يرجع قيامها إلى انتعاش روح القومية التى ظهرت منذ أيام المأمون : فقد قامت الدولة الطاهرية (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ) فى خراسان ، ومنها انتقلت السلطة إلى دولة جديدة هى الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) على يد يعقوب بن الليث الصفار ، والدولة السامانية (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) ، وقد تفرعت عنها الدولة الغزنوية (٣٥١ — ٥٨٢ هـ) التى نبغ فيها السلطان محمود الغزنوى صاحب الفتوح المشهورة فى بلاد الهند . كما قويت شوكة بنى بويه فى فارس (٣٢٠ — ٤٤٧ هـ) ، وفى الرى وهمذان وأصبهان (٣٢٠ — ٤١٤ هـ) . وفى هذا العصر استقل الحمدانيون بالموصل (٣١٧ — ٣٨٦ هـ) وحلب (٣٣٣ — ٣٩٤ هـ) ، وقامت فى مصر الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) ، والدولة الإخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) والدولة الفاطمية (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) ، وقوى فى المغرب نفوذ الأدارسة (١٧٢ — ٣٧٥ هـ) ، والأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦ هـ) ، كما قوى نفوذ الأمويين بالأندلس (١٣٨ — ٤٠٧ هـ) ، ثم انتزع منهم السلطة بنو حمود العلويون (٤٠٧ — ٤٤٧ هـ).

وبحثت فى الباب الخامس الحركات السياسية والدينية واتجاهاتها المختلفة ، وما كان لها من أثر فى السياسة والدين والأدب والاجتماع وغير ذلك ؛ فتكلمت على طائفة الاثنا عشرية ، ثم على طائفة الإسماعيلية أو السبعية فى دور الستر ، وعلى القرامطة فى بلاد الكوفة ، وفى شمال العراق الغربى ، وبلاد الشام والبحرين . ثم تكلمت على نشر الدعوة الإسماعيلية على يد ابن حوشب فى اليمن ، وعلى يد أبى عبدالله الشيعى فى المغرب . ثم تتبعت علاقة الفاطميين بالحمدانيين والعقيليين والصليحيين ، وعلاقتهم بالأمويين فى الأندلس والزيريين فى المغرب . ثم بحثت تنظيم الدعوة الفاطمية ومراتبها وداعى دعاتها ومجالس دعوتها . ثم تكلمت على طائفة الدرزية ودعاتها وأهم مميزاتها ، وعلى الخوارج ، والزنج ، والمعتزلة ، وانتعاش مذهبهم وتأثره بالفلسفة الإغريقية ، وانتعاش أهل السنة ، والتصوف والمتصوفين المعتدلين والغلاة .

وفى الباب السادس تكلمت على العلاقات الخارجية للدولة العباسية فى الشرق ، والدولة الفاطمية فى مصر ، والدولة الأموية فى الأندلس ، مع البيزنطيين ، ومع الدول الغربية فى أوربا ، ومع صقلية والروس . وعرضت فى الباب السابع لنظم الحكم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية فى الدولة العباسية فى عهد نفوذ الأتراك ، وفى عهد إمرة الأمراء ، ثم فى عهد بنى بويه ، ثم فى مصر فى عهد الطولونيين والإخشيديين والفاطميين ، ثم فى الأندلس فى عهد الأمويين ، وبينت كيف كانت تدار الحكومة الإسلامية فى ذلك العصر . ثم عرضت فى الباب الثامن للحالة الاقتصادية وما بلغه المسلمون من تقدم ورقى فى مضمار الزراعة والصناعة والتجارة .

وفى الباب التاسع ألممت بحالة الثقافة والفن ، فعالجت مراكز الثقافة ، وأنواع العلوم النقلية كعلوم التفسير ، والحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، وعلم اللغة ، والأدب من نظم ونثر ، فتكلمت

على أمراء الشعر العربى كالبحترى ، وابن الرومى ، وأبى الطيب المتنبى ، وأبى العلاء المعرى ، ثم على مشهورى شعراء الفرس ، ثم على شعراء مصر والأندلس ، كأبى حامد الأنطاكى ، وابن هانىء الأندلسى . كما تكلمت على أمراء النثر العربى ، كالجاحظ ، وأبى إسحق الصابى ، والصاحب إسماعيل ابن عباد ، وأبى بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمذانى ، وأبى الفتح البستى . ثم بحثت أنواع العلوم العقلية وما كان من اهتمام الخلفاء والسلاطين والأمراء بالفلسفة والطب ، وعلم الفلك والنجوم ، والرياضيات ، والتاريخ والجغرافية . كما ألممت بتاريخ الفنون ، وخاصة فن العمارة الذى يعتبر بحق مقياساً لحضارة الأمم فى كل عصر .

ثم تناولت فى الباب العاشر الحالة الاجتماعية ، فبحثت فى طبقات المجتمع فى عهد العباسيين ، وفى عهد الفاطميين فى مصر والأمويين فى الأندلس ، ومجالس الغناء والطرب ، وقصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ، وألوان الطعام واللباس ، والأعياد والمواسم والمواكب والحفلات ، وأنواع التسلية ، وما كان للمرأة من أثر فى المجتمع الإسلامى .

وقد سرت فى هذا الجزء على النهج الذى سرت عليه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، فبحثت هذا العصر من نواحيه المختلفة ، سياسية ودينية وثقافية واجتماعية ، مما ييسر على القارىء الإحاطة بتاريخ ذلك العصر . كما يجد القارىء فى الهوامش وفى آخر الكتاب تنبيها على المصادر ، لمن أراد التوسع فى مسأله من المسائل التى لم يسمح المجال بالتوسع فيها فى هذا الجزء ، لكبر حجمه وغزارة مادة الموضوعات التى تناولناها . وذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر مرتبة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، كما ذيلته بفهارس شاملة لأسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة .

وستظهر الطبعة الثانية من الجزء الأول قريبا فى عشرة أبواب بدلا من خمسة ، بعد إدخال كثير من الإضافات والتعديلات الهامة التى تجعله مسايراً للجزئين الثانى والثالث فى مادته وترتيبه . كما أرجو أن يظهر فى القريب الجزء الرابع ، ويتناول تاريخ العالم الإسلامى مدة قرنين وتسع سنين ، من سنة ٤٤٧ هـ ، إلى أن زالت الدولة العباسية من بغداد على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

ولا يفوتنى أن أقدم فى هذا المقام أجزل الشكر وأعطر الثناء ، لحضرة الأستاذ مصطفى السقا الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، وحضرة الأستاذ طه أحمد شرف المدرس بمدرسة الحلمية الثانوية ، لما أسدياه من كريم المعاونة فى سبيل إخراج هذا الكتاب . كما أقدم أخلص الشكر والتقدير لكل من تلاميذى الأستاذ أحمد الغوابى المفتش بوزارة الشئون الاجتماعية ، وكمال محمد الصيرفى أفندى ، وإبراهيم أحمد العدوى أفندى الطالبين بقسم الماجستير بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول على جميل مساعدتهم .

القاهرة فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٤٦

حسن ابراهيم حسن

موضوعات الكتاب

صفحة

مقدمة الكتاب ٣

موضوعات الكتاب ٦

الباب الأول

عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ)

المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧هـ) :

تمهيد ١٩

جدول خلفاء العصر العباسى الثانى ٢٠

جدول يمثل تسلسل الخلفاء فى الحكم ٢١

١ — المتوكل منذ ولد إلى أن ولى الخلافة ٢١

٢ — ميله إلى أهل السنة ٢٢

٣ — حالة الدولة فى عهده ٢٣

٤ — صفات المتوكل ٢٤

٥ — تولية المتوكل أولاده العهد ٢٥

٦ — قتل المتوكل ٢٦

المنتصر بالله (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) :

١ — بيعته ٢٨

٢ — خلع أخويه من ولاية العهد ٢٩

٣ — صفات المنتصر ٣٠

٤ — وفاة المنتصر ٣١

المستعين بالله (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) ٣٢

المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) ٣٥

المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) ٣٧

صفات المهتدى ٣٨

المعتمد على الله (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ)

١ — ازدياد نفوذ الموفق ٣٩

٢ — أحمد بن طولون والموفق ٤٠

٣ — وفاة المعتمد والموفق ٤٥

صفحة

المعتضد بالله (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) ٤٧
صفات المعتضد ٤٨
وفاة المعتضد ٥٠
المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) ٥١
المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠هـ) ٥٣
عوامل ضعف الدولة فى عهد المقتدر ٥٦
القاهر بالله (٣٢٠ — ٣٢٢هـ) ٦٧

الباب الثانى

عصر إمرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤هـ)

الراضى بالله (٣٢٢ — ٣٢٩هـ) ٦٣
١ — مرداويج بن زيار ٦٣
٢ — وشمكير بن زيار ٦٤
٣ — تولية ابن رائق إمرة الأمراء ٦٥
٤ — بجكم ٦٧
٥ — بين ابن رائق وبجكم ٦٩
٦ — صفات الراضى ٧١
المتقى (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) ٧٣
البريديون ٧٥
ظهور ابن رائق ٧٧
الحمدانيون ٧٨
توزون ٨٠
المستكفى بالله (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ) ٨٥
ابن شيرزاد ٨٧

الباب الثالث

عصر بنى بويه (فى العراق) (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ)

١ — حالة الدولة العباسية قبيل استيلاء بنى بويه على بغداد ٩٣
٢ — أصل بنى بويه ٩٤

صفحة

بنو بويه : جداول السلاطين
١ — فى فارس ٩٦
٢ — فى العراق والأهواز وكرمان ٩٦
٣ — فى الرى وهمذان وأصبهان ٩٧
جدول يمثل تسلسل أمراء بنى بويه فى الحكم ٩٨
٣ — بنو بويه قبل استيلائهم على بغداد ٩٩
بنو بويه فى العراق . . . . . .
١ — معز الدولة (٣٣٤ — ٣٥٦ هـ) ١٠١
إقرار نفوذ معز الدولة فى العراق ١٠٤
٢ — بختيار (٣٥٦ — ٣٦٧ هـ) ١٠٦
الخليفة الطائع وبنو بويه ١٠٨
٣ — عضد الدولة (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) ١١١
صفات عضد الدولة ١١٢
٤ — صمصام الدولة (٣٧٢ — ٣٧٦ هـ) ١١٥
٥ — شرف الدولة (٣٧٦ — ٣٧٩ هـ) ١١٧
٦ — بهاء الدولة (٣٧٩ — ٤٠٣ هـ) ١١٨
الخليفة القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) ١٢١
٧ — سلطان الدولة ومشرف الدولة ابنا بهاء الدولة (٤٠٣ — ٤١٦ هـ) . . . ١٢٥
٨ — جلال الدولة (٤١٦ — ٤٣٥ هـ) ١٢٧
الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) ١٢٩
٩ — أبو كاليجار (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) ١٣١
١٠ — أبو نصر الملك الرحيم (٤٤٠ — ٤٤٧ هـ) ١٣٤

الباب الرابع

الدول المستقلة

تمهيد ١٤١
الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) ، يعقوب بن الليث الصفار (٢٥٤ — ٢٦٥ هـ) ، ١٤٢
عمرو بن الليث الصفار (٢٦٥ — ٢٨٧ هـ) ١٤٨
الدولة السامانية (٢٦١ — ٣٨٩ هـ)
البيت السامانى — تسلسل آل البيت السامانى ١٥١
إسماعيل بن أحمد السامانى (٢٧٩ — ٢٩٥ هـ) ١٥٢

صفحة

أحمد بن إسماعيل (٢٩٥ — ٣٠١هـ) ، السعيد نصر الثانى بن أحمد (٣٠١ — ٣٣١ هـ) ١٥٤

الحميد نوح بن نصر (٣٣١ — ٣٤٣ هـ) ١٥٧

عبد الملك ومنصور ابنا نوح (٣٤٣ — ٣٦٦ هـ) ١٥٨

نوح الثانى بن منصور (٣٦٦ — ٣٨٧ هـ) ١٥٩

زوال الدولة السامانية وأسبابه ١٦١

الدولة الغزنوية (٣٥١ — ٥٨٢ هـ)

البيت الغزنوى — جدول الأمراء الغزنويين ١٦٣

سبكتكين (٣٦٦ — ٣٨٧ هـ) ١٦٤

يمين الدولة محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١ هـ) ١٦٦

فتوح محمود الغزنوى فى بلاد الهند ١٦٩

مسعود الأول (٤٢١ — ٤٣٢ هـ) ١٧٧

مودود بن مسعود (٤٣٢ — ٤٤١ هـ) ١٨٠

عبد الرشيد وفروخ زاد (٤٤١ — ٤٥١ هـ) ١٨٢

بنو بويه — (ا) فى فارس :

على بن بويه (٣٢٠ — ٣٣٨ هـ) ١٨٤

عضد الدولة (٣٣٨ — ٣٧٢ هـ) ١٨٧

شرف الدولة وصمصام الدولة (٣٧٢ — ٣٨٨ هـ) ١٨٨

بهاء الدولة وسلطان الدولة (٣٨٨ — ٤١٥ هـ) ١٩٠

عماد الدولة أبو كاليجار (٤١٥ — ٤٤٠) ١٩١

(ب) فى الرى وهمذان وأصبهان

ركن الدولة (٣٣٠ — ٣٦٦ هـ) ١٩٤

صفات ركن الدولة ١٩٧

أولاد ركن الدولة (٣٦٦ — ٤٢٠ هـ) ١٩٩

الدولة الحمدانية ، أمراء الحمدانيين فى الموصل ، وفى حلب ٢٠٢

جدول يمثل أمراء الحمدانيين ٢٠٣

١ — فى الموصل — تمهيد ٢٠٣

ناصر الدولة (٣١٧ — ٣٥٨ هـ) ٢٠٤

أبو تغلب بن ناصر الدولة (٣٥٨ — ٣٦٩ هـ) ٢٠٧

٢ — فى حلب

صفحة

سيف الدولة (٣٣٣ — ٣٥٦ هـ) ٢١٠
سعد الدولة (٣٥٦ — ٣٨١ هـ) ٢١٣
سعيد الدولة أبو الفضائل (٣٨١ — ٣٩٢ هـ) ٢١٧
الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) — أحمد بن طولون (٢٥٤ — ٢٧٠ هـ)
أحمد بن طولون منذ ولد إلى أن ولى مصر ٢١٨
تولية ابن طولون مصر ٢١٩
الفتن والثورات ٢٢٠
ابن طولون والخلافة ٢٢٤
وفاة ابن طولون ٢٢٨
خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٠ — ٢٨٢ هـ) ٢٣٠
زوال الدولة الطولونية ٢٣١
مدينة القطائع فى عهد الطولونيين ٢٣٣
الدولة الإخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) — محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ)
الإخشيد منذ ولد إلى أن ولى مصر ٢٣٤
تولية الإخشيد مصر ٢٣٦
علاقة الإخشيد بالخلافة ٢٣٧
وصاية كافور على أولاد الإخشيد (٣٣٤ — ٣٥٥ هـ) ٢٣٨
تولية كافور على مصر (٣٥٥ — ٣٥٧ هـ) ٢٤١
صفات كافور ، وفاة كافور ٢٤٣
الدولة الفاطمية (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) — الخلفاء الفاطميون ٢٤٥
جدول الخلفاء الفاطميين ٢٤٦
عبيد الله المهدى (٢٩٦ — ٣٢٢ هـ) ٢٤٧
القائم والمنصور (٣٢٢ — ٣٤١ هـ) — ثورة أبى يزيد ٢٤٩
المعز لدين الله (٣٤١ — ٣٦٥ هـ)
المعز قبل فتح مصر ، فتح مصر ٢٥١
امتداد سلطان الفاطميين ، قدوم المعز إلى مصر ٢٥٤
العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ)
اتساع الدولة الفاطمية ، حالة الدولة الفاطمية ، موت العزيز ٢٥٧
الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ هـ)
أدوار خلافة الحاكم ، وفاة الحاكم ٢٦٠
الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ — ٤٢٧ هـ) ٢٦٣
المستنصر بالله (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) ٢٦٤

صفحة
دولة الأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦ هـ) ، أمراء الأغالبة — جدول يمثل تسلسل نسب الأغالبة ٢٦٧
إبراهيم بن الأغلب (١٨٤—١٩٦ هـ) ٢٦٨
عبد الله الأول (١٩٦ — ٢٠١ هـ) ٢٧٠
زيادة الله الأول (٢٠١—٢٢٣ هـ) ٢٧١
فتح جزيرة صقلية ٢٧٢
محمد الأول (٢٢٦ — ٢٤٢ هـ) ٢٧٤
إبراهيم الثانى (٢٦١—٢٨٩ هـ) ٢٧٦
صفات إبراهيم الثانى ٢٧٧
زيادة الله الثالث (٢٩٠ — ٢٩٦ هـ) ٢٧٨
دولة الأدارسة (١٧٢—٣٧٥ هـ) ، أمراء الأدارسة ٢٧٩
إدريس بن عبد الله (١٧٢ — ١٧٧ هـ) ٢٧٩
إدريس الثانى (١٧٧ — ٢١٣ هـ) ٢٨٠
على بن عمر بن إدريس ٢٨١
يحيى الرابع بن إدريس بن عمر (٢٩٢ — ٣١٠ هـ) ٢٨٢
الحسن بن محمد (٣١٠ — ٣١٢ هـ) ٢٨٣
زوال دولة الأدارسة ٢٨٥
الأمويون فى قرطبة (١٣٨ — ٤٢٢ هـ) ، جدول يمثل نسب الأمويين فى قرطبة . ٢٨٧
الأندلس من عبد الرحمن الأول إلى عبد الرحمن الأوسط(١٣٨—٢٣٨ هـ) . ٢٨٨
عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) ٢٩٠
عبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) ٢٩٢
عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ)
١ — عبد الرحمن منذ ولد إلى أن ولى الإمارة ٢٩٤
٢ — سياسة عبد الرحمن الداخلية ٢٩٥
٣ — سياسة عبد الرحمن الخارجية ٢٩٧
الحكم الثانى المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) ٢٩٩
هشام الثانى المؤيد (٣٦٦—٣٩٩ هـ) ٣٠١
محمد بن أبى عامر المنصور الحاجب ٣٠١
صفات المنصور الحاجب ٣٠٥
الأندلس بعد وفاة المنصور الحاجب ٣٠٧
بنو حمود (٤٠٧ — ٤٤٩ هـ) ، تسلسل نسب بنى حمود ، على بن حمود . ٣٠٨
خلفاء على بن حمود ، زوال دولة بنى حمود ٣٠٩

صفحة

الباب الخامس

الحركات السياسية والدينية

تمهيد : ١ — الاثنا عشرية ٣١٧
٢ — الإسماعيلية أو السبعية ٣٢٠
(ا) دور الستر : ٣٢٠
١ — رياسة الدعوة ٣٢١
٢ — القرامطة (ا) فى سواد الكوفة ٣٢٤
(ب) فى شمال العراق الغربى وبلاد الشام (ج) فى البحرين . ٣٢٧
٣ — ابن حوشب فى اليمن ٣٣١
٤ — أبو عبد الله الشيعى فى بلاد المغرب ٣٣٤
٢ — دور الظهور (ا) نشر الدعوة الفاطمية فى الدور المغربى . ٣٣٧
١ — فى اليمن ٢ — فى البحرين ٣٣٧
٣ — فى فارس ٤ — فى مصر ٣٤٠
(ب) نشر الدعوة الفاطمية فى الدور المصرى
١ — علاقة الفاطميين بالقرامطة ، (ا) فى عهد المعز ، (ب) فى عهد العزيز . ٣٤٤
٢ — علاقة الفاطميين بالعباسيين وبنى بويه ٣٤٩
٣ — علاقة الفاطميين بالحمدانيين والعقيليين والصليحيين . . . ٣٥٤
٤ — علاقة الفاطميين بالأمويين فى الأندلس والزيريين فى المغرب . ٣٥٦
(ج) تنظيم الدعوة الفاطمية ، ١ — مراتب الدعوة ٣٥٨
٢ — داعى الدعاة ، ٣ — مجالس الدعوة ٣٦٢
(د) الدرزية ، ١ — دعاة الدرزية ٣٦٤
٢ — أهم مميزات الدرزية ٣٦٨
٣ — الخوارج ٣٧٢
٤ — ثورة صاحب الزنج ٣٧٥
٥ — المعتزلة ، (ا) انتعاش مذهب المعتزلة ٣٧٩
(ب) تأثر المعتزلة بالفلسفة الإغريقية ٣٨٢
٦ — انتعاش السنة ٣٨٣
٧ — التصوف ، (ا) المتصوفون المعتدلون ٣٨٥
(ب) المتصوفون الغلاة ، الحسين بن منصور الحلاج ، الشلمغانى . . . ٣٨٨

صفحة

الباب السادس

العلاقات الخارجيـــة

تمهيـد : ١ — مع البيزنطيين ٣٩٧
(ا) من المتوكل إلى المعتمد (٢٣٢ — ٢٥٦ هـ) ٣٩٨
(ب) من المعتمد إلى المطيـع (٢٥٦ — ٣٣٤ هـ) ٤٠١
علاقة الإخشيديين بالبيزنطيين ٤٠٣
(ج) من المطيع إلى القائم (٣٣٤ — ٤٢٢ هـ) ٤٠٥
علاقة الفاطميين بالبيزنطيين ٤٠٩
علاقة الأمويين فى الأندلس بالبيزنطيين ٤١٢
٢ — مع صقلية ٤١٤
٣ — مع الدول الغربية فى أوربا ٤١٦
٤ — مع الروس ٤١٨

الباب السابع

نظم الحكم

تمهيـد : ١ — النظام السياسى ٤٢١
(ا) الخلافة ١ — الخلافة العباسية
(ا) الخلافة العباسية فى عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢ — ٣٢٤ هـ) . . . ٤٢١
(ب) الخلافة العباسية فى عصرة إمرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤ هـ) . . . ٤٢٤
(ج) الخلافة العباسية فى عصر بنى بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) . . . ٤٢٥
٢ — الخلافة الفاطمية ٤٢٩
٣ — إحياء الخلافة الأموية فى الأندلس ٤٣١
(ب) الوزارة ، ١ ـ الوزارة فى الدولة العباسية (٢٣٢ — ٣٢٤ هـ) . . . ٤٣٤
٢ — الوزارة فى عهد بنى بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) . . . ٤٣٩
٣ — الوزارة فى مصر ، (ا) فى عهد الطولونيين والإخشيديين . . . ٤٤١
(ب) فى عهد الفاطميين ، سجل تقليد الجرجرائى الوزارة . . . ٤٤٢
٤ — الوزارة فى الأندلس ٤٤٧
(ج) الكتابة ، ١ ـ فى الدولة العباسية ، ٢ — فى مصر والأندلس . . . ٤٤٨

صفحة

(د) الحجابة ٤٥١
٢ — النظام الإدارى ، (ا) الإمارة على البلدان ، (ب) الدواوين . ٤٥٢
(ج) البريد ، محطات البريد ، حمام الزاجل ٤٦٠
(د) الشرطة ، ١ — فى الدولة العباسية (٢) — فى مصر والأندلس . ٤٦٣
٣ — النظام الحربى — (ا) الجيش
١ — فى الدولة العباسية ، عناصر الجيش ، تنظيم الجيش ، تعبئة الجيش . ٤٦٥
٢ — فى مصر ، فى عهد الطولونيين والإخشيديين ، فى عهد الفاطميين . ٤٧٢
(ب) البحرية ٤٧٣
٤ — النظام المالى (ا) فى الدولة العباسية ٤٧٦
موارد الدولة ، نظام الإقطاع ، مصروفات الدولة ٤٧٦
(ب) فى مصر ، فى عهد الطولونيين والإخشيديين ، فى عهد الفاطميين . . ٤٨٦
(ج) فى الأندلس ٤٨٨
٥ — النظام القضائى ، (ا) القضاء
فى الدولة العباسية ، فى مصر ، فى الأندلس ٤٨٩
(ب) المظالم ٤٩٨
(ج) الحسبة ٥٠٠

الباب الثامن

الحالة الاقتصادية

الزراعة ، الصناعة ٥٠٥
التجارة ، (ا) طرق التجارة ، (ب) أشهر مراكز التجارة ٥١٠

الباب التاسع

الثقافة والفن

تمهيد : ١ — الثقافة ٥١٧
مراكز الثقافة . أصبهان — البلاط السامانى فى بخارى — بلاط شمس المعالى قابوس ابن وشمكير فى طبرستان — بلاط خوارزم فى خيوة — بلاط السلطان محمود الغزنوى فى غزنة — بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين فى مصر — بلاط الأمويين فى قرطبة ٥١٨

صفحه

(ا) العلوم النقلية
التفسير ، الحديث ، الفقه ، علم الكلام ، علم اللغة ٥٢٣
تمهيد : الأدب ، (ا) النظم ٥٤٠
١ — أمراء الشعر العباسى : البحترى ، ابن الرومى ٥٤٢
أبو الطيب المتنبى ، أبو العلاء المعرى ٥٤٦
٢ — شعراء الفرس ٥٥٠
٣ — شعراء مصر والأندلس ، ابن هانىء الأندلسى ٥٥١
أبو حامد الأنطاكى ٥٥٣
(ب) النثر ، الجاحظ ، أبو إسحق الصابى ٥٥٤
الصاحب إسماعيل بن عباد ، أبو بكر الخوارزمى ٥٥٧
بديع الزمان الهمذانى ، أبو الفتح البستى ٥٦٠
(ب) العلوم العقلية ١ — الفلسفة ٥٦٢
أبو إسحق الكندى ، إخوان الصفا ٥٦٣
أبو نصر الفارابى ، أبو على بن سينا ٥٦٥
٢ — الطب ، تمهيد : أبو بكر الرازى ٥٦٧
على بن العباس المجوسى ، أبو على بن سينا ٥٧١
الطب فى مصر ، فى عهد الطولونيين ٥٧٢
فى عهد الفاطميين ، على بن رضوان ٥٧٣
علم الفلك والنجوم ، الرياضيات ٥٧٥
التاريخ ، الجغرافيا ٥٨١
٣ — الفن (ا) العمارة فى المشرق ٥٨٩
١ — العمارة عند العباسيين ، (ا) تأسيس مدينة الجعفرية ٥٨٩
(ب) العمارة فى عهد بنى بويه ٥٩١
٢ — العمارة فى مصر ، (ا) تأسيس مدينة القطائع ٥٩٢
(ب) تأسيس مدينة القاهرة ٥٩٤
٣ — العمارة فى المغرب والأندلس ، (ا) تأسيس مدينتى المهدية والمنصورية ٥٩٧
(ب) تأسيس مدينتى الزهراء والزاهرة ٥٩٩

الباب العاشر

الحالة الاجتماعية

صفحة

١ — طبقات الشعب ، (ا) فى عهد العباسيين ٦٠٩
(ب) فى عهد الفاطميين ، (ج) فى عهد الأمويين بالأندلس ٦١٣
٢ — مجالس الغناء والطرب ، (ا) فى الدولة العباسية ٦١٧
(ب) فى مصر والأندلس ٦٢٣
٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ، (ا) فى الدولة العباسية . . ٦٢٧
(ب) فى مصر ، (ج) فى الأندلس ٦٢٩
٤ — الطعام والشراب ، (ا) عند العباسيين ٦٣٣
(ب) عند الطولونيين والإخشيديين ٦٣٧
(ج) عند الفاطميين ٦٣٨
٥ — الملابس ٦٤١
٦ — المرأة ، (ا) فى الدولة العباسية ٦٤٤
(ب) فى مصر والأندلس ٦٤٦
٧ — الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات
(ا) الأعياد والمواسم ، (ب) المواكب ، فى مصر ٦٥٠
(ج) الحفلات ، زواج قطر الندى من الخليفة المعتضد ٦٥٨
٨ — أنواع التسلية ٦٦٤
مصادر الكتاب ٦٦٦
فهارس الكتاب . . . . . .
١ — الأعلام ٦٧٧
٢ — الأماكن . . . . . .
٣ — الأسماء التى تدل على حوادث تاريخية هامة . . . . . .
الخرائط :
الدولة العباسية فى القرن الرابع الهجرى أمام صفحة : ٩٧
اتساع الدولة الفاطمية « « ٢٥٧
الحروب بين العباسيين والبيزنطيين فى القرن الرابع الهجرى
القاهرة فى عهد الفاطميين « « ٥٩٣
مؤلفات الدكتور حسن ابراهيم حسن « «

الباب الأول

عصر نفوذ الاتراك

(٢٣٢ - ٣٢٤ هـ)

المتوكل على الله

٢٣٢ – ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ – ٨٦١ م

تمهيد :

يعتبر عهد الخليفة المتوكل العباسى بدء عصر انحلال الدولة العباسية الذى انتهى بسقوطها على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ . ويرجع ضعف هذه الدولة إلى عدة عوامل ، نذكر منها اعتماد العباسيين على الفرس ثم على الأتراك ، وإيثارهم إياهم بالمناصب المدنية والعسكرية على العرب الذين كانوا مادة الإسلام وقوام الدولة العربية ، فضعفت عصبيتهم وانحطت منزلتهم وانصرفت قلوبهم عن تأييد الدولة .

ومما أثار حقد العرب على العباسيين ، فتك هؤلاء ببنى أمية ، وتمثيلهم بهم ، ومناصبتهم العلويين العداء . فقام العلويون فى وجههم ، لأنهم استأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحق بها منهم ، إذ أن الدولة إنما قامت باسمهم وبسيوف أشياعهم .

ذلك إلى ضعف قيمة العهود والمواثيق فى نظر الخلفاء العباسيين ونقضهم لها إذا عارضت مصالحهم ، مع مخالفة ذلك لقوله تعالى : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) .

ومن ذلك ظهور كثير من بدع الملاحدة والزنادقة ، كالراوندية والخرمية وأصحاب المقالات وطوائف المتكلمين كالمعتزلة وغيرهم ، مما أدى إلى انقسام المسلمين شيعاً وطوائف يناهض بعضها بعضاً ، بل يحاول بعضها القضاء على الدولة نفسها .

وعلى الرغم من هذه العوامل ، كان للعصر العباسى الثانى ميزاته ومظاهر حضارته ، فقد اشتهر فيه كثير من الخلفاء الذين حاولوا إعادة الدولة العباسية إلى ما كانت عليه من قوة ومجد ، كما ظهر فيه بعض الدويلات الصغيرة المتنافسة ، كالسامانية والبويهية والحمدانية والغزنوية والسلجوقية . فكان لتلك الدويلات أثر محمود فى تقدم الحضارة الاسلامية وتشجيع العلوم والآداب والفنون وغيرها ، مع أنها كانت من عوامل ضعف الدولة العباسية .

وسيتضح من ترجمة حياة خلفاء هذا العصر مدى استبداد الأتراك بالسلطة فى جميع أمور الدولة ، وكيف أصبح فى أيديهم تولية الخلفاء وعزلهم .

كان المعتصم أول الخلفاء العباسيين الذين استعانوا بالأتراك وأسندوا إليهم مناصب الدولة ، وأقطعوهم الولايات الإسلامية . وقد كان هذا الانقلاب من الحكم العربى الى الحكم التركى مظهراً

من مظاهر الثورة التى أحس بها معظم أجزاء الخلافة ، وأدت الى إضعاف سلطة الخليفة ، وزوالها فى النهاية » (١) .

وقد أدرك المعتصم خطر هؤلاء الأتراك الذين آذوا أهل بغداد ، ففكر فى نقلهم الى سامرا التى اتخذها قاعدة لخلافته . وبلغ من ازدياد نفوذهم أن حقد عليهم العرب والفرس ، وتآمروا على المعتصم وكبار رجال دولته من الأتراك ، الذين أصبحوا خطراً على الخلفاء العباسيين ، وعلى الدولة العباسية ، حتى إن المعتصم نفسه قد شكا منهم فى أواخر أيامه ، وعبّر عن أسفه لأحد أعوان أخيه المأمون ، لاعتماده عليهم فى هذه العبارة : « فى قلبى أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة : نظرت الى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم . قلت : ومن الذى اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت ، وعبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذى لم يُر مثله ، وأنت والله الذى لا يعتاض السلطان منك أبداً ، وأخوك محمد بن ابراهيم ، وأين مثل محمد ؟ وأنا فاصطنعت الأفشين ، فقد رأيت الى ما صار أمره ، وأشناس ففشل أيّه ، وإيتاخ فلا شىء ، ووصيف فلا مغنى فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين أعزك الله! نظر أخوك الى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا ، فلم تنجب اذ لا أصول لها : قال : يا إسحاق ! لمقاساة ما مرّ بى فى طول هذه المدة أسهل علىّ من هذا الجواب » . (٢)

خلفاء العصر العباسى الثانى

٢٣٢ — ٤٤٧ هـ = ٨٤٧ — ١٠٧٥ م

	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١) المتوكل	٢٣٢	٨٤٧	١٠) القاهر	٣٢٠	٩٣٢
٢) المنتصر	٢٤٧	٨٦١	١١) الراضى	٣٢٢	٩٣٤
٣) المستعين	٢٤٨	٨٦٢	١٢) المتقى	٣٢٩	٩٤٠
٤) المعتز	٢٥٢	٨٦٦	١٣) المستكفى	٣٣٣	٩٤٤
٥) المهتدى	٢٥٥	٨٦٩	١٤) المطيع	٣٣٤	٩٤٦
٦) المعتمد	٢٥٦	٨٧٠	١٥) الطائع	٣٦٣	٩٧٤
٧) المعتضد	٢٧٩	٨٩٢	١٦) القادر	٣٨١	٩٩١
٨) المكتفى	٢٨٩	٩٠٢	١٧) القائم	٤٢٢	١٠٣١
٩) المقتدر	٢٩٥	٩٠٨	١٨) المقتدى	٤٦٧	١٠٧٥

(١) Stanley Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 29.

(٢) الطبرى جـ ١١ ص ٨ — ٩ انظر كتاب تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى للمؤلف جـ ٢ ص ١٧٤ .

جدول يمثل تسلسل الخلفاء فى الحكم

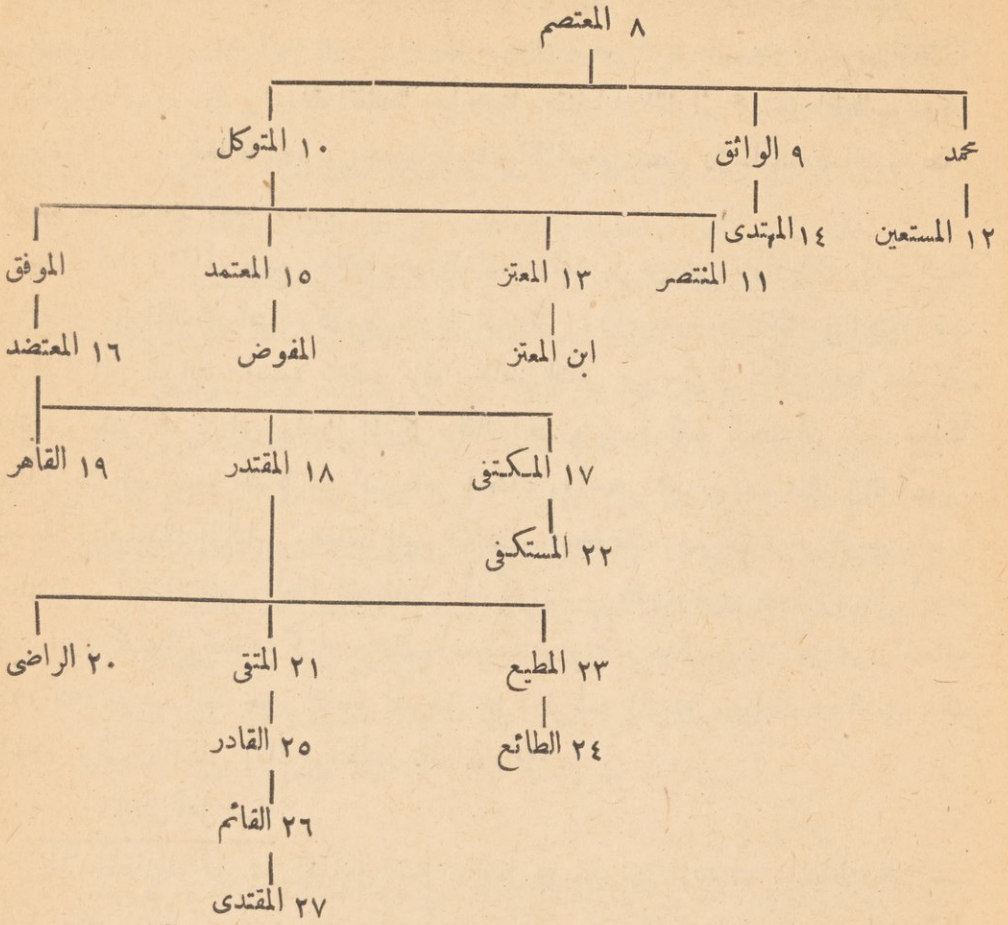

١ — المتوكل منذ ولد الى أن ولى الخلافة :

ولد جعفر بن المعتصم فى سنة ٢٠٦ هـ بفم الصلح ، وهى بلدة على نهر دجلة على مقربة من مدينة واسط ، ويكنى أبا الفضل . وأمه أم ولد يقال لها شجـــاع ، « كانت — كما يقول الخطيب البغدادى(١) — من سروات النساء سخاء وكرما » . قيل إنها تركية ، وقيل أيضاً انها خوارزمية أو رومية . وقد تربت منذ حداثة سنها فى بيت المعتصم واشتركت فى تربية ابنها واعداده لاعتلاء العرش العباسى .

وقد ولاه أخوه الواثق امارة الحج فى سنة ٢٢٧ هـ . ولما عاد المتوكل غضب الواثق عليه ، وحد من نفوذه . فقد ذكر المؤرخون أن أم الواثق كانت أم ولد تسمى قراطيس ، وكانت

(١) تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٦٦ .

شجاع أم المتوكل أم ولد كما تقدم، فلم يكن الأخوان شقيقين. وذكر الطبرى [١] أن جعفراً رأى فى المنام كأن سكراً سليمانيا يسقط عليه من السماء مكتوب عليه جعفر المتوكل على الله، فقال له بعض خاصته: «هى والله أيها الأمير أعزك الله الخلافة»، وبلغ الواثق ذلك، فحبسه وضيق عليه.

مات الواثق ولم يعهد لابنه محمد. وقد سئل وهو فى مرضه الذى مات منه أن يوصى بالخلافة فقال كلمته المأثورة: «لا يرانى الله أتقلدها حيا وميتا، مقتفيا فى ذلك أثر عمر بن الخطاب. وكان محمد صغيراً لا يصلح للخلافة، ولم يكن جعفر طامعا فيها لانحراف بعض رؤساء الدولة الدوله عنه، وخوفهم منه أن يثأر لنفسه منهم.

وذكر الطبرى [٢] أنه بويع بالخلافة وهو فى السادسة والعشرين من عمره، وأن الذى كتب البيعة هو محمد بن عبد الملك الزيات، وكان يلى ديوان الرسائل. «واجتمعوا بعد ذلك على اختيار لقب له، فقال ابن الزيات: نسميه المنتصر بالله، فخاض الناس فيها حتى لم يشكوا فيها. فلما كان غداة يوم بكّر أحمد بن أبى دواد إلى المتوكل، فقال: قد روّيت فى لقب أرجو أن يكون موافقاً حسناً إن شاء الله، وهو المتوكل على الله. فأمر بامضائه، وأحضر محمد بن عبد الملك (الزيات)، فأمر بالكتاب بذلك إلى الناس، فنفذت إليهم الكتب. نسخة ذلك: بسم الله الرحمن الرحيم. أمر، أبقاك الله، أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، أن يكون الرسم الذى يجرى به ذكره على أعواد منابره، وفى كتبه إلى قضاته وكتابه وعماله وأصحاب دواوينه وغيرهم من سائر من تجرى المكاتبة بينه وبينه: من عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين، فرأيك فى العمل بذلك وإعلامى بوصول كتابى إليك موفّقاً إن شاء الله» [٣].

٢ — ميله الى أهل السنة:

وكان الخليفة المتوكل يميل إلى أهل السنة، ويعمل على نصرتهم، وضرب بالسياط رجلا سب أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة. وقد بدأ حكمه بنهى الناس عن القول بخلق القرآن، الذى شغل الدولة العباسية فى عهد المأمون والمعتصم والواثق. وقد أشاد بذلك أحد الشعراء فأخذ يذم ابن أبى دُواد المعتزلى، ويمدح المتوكل فى هذه الأبيات:

أمير المؤمنين لقد سكنا ... إلى أيامك الغر الحسان
رددتَ الدين فذا بعد ما قد ... أراه فرقتين تخاصمـان
قصمتَ الظالمين بكل أرض ... فأضحى الظلم مجهول المكان
وفى سنة رَمَتْ مُتَجَبِّريهم ... على قدَرٍ بداهية عَوان
فما أبقت من ابن أبى دُواد ... سوى جسد يخاطب بالمعانى
تحيَّر فيه سابور بن سهلٍ ... فطاوله ومناه الأمانى

(١) جـ ١١ ص ٢٧.
(٢) جـ ١١ ص ٢٦
(٣) نفس المصدر جـ ١١ ص ٢٦ — ٢٧.

إذا أصحابه اصطحبوا بليل أطالوا الخوض فى خلق القرآن
يديرون الكئوس وهم نشاوى يحدثنا فلان عن فلان (١)

وقد ذكر المسعودى (٢) أن المتوكل « أمر بترك النظر والمباحثة فى الجدال ، والترك لما كان عليه الناس فى أيام المعتصم والواثق ، وأمر الناس بالتسليم والتقليد ، وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة » .

كتب المتوكل بذلك إلى الأمصار الاسلامية ، وكان لعمله هذا أثر حسن فى نفوس المسلمين ، فاولوه احترامهم ، وبالغوا فى تعظيمه والثناء عليه ، حتى قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر الصديق يوم الرّدة ، وعمر بن عبد العزيز فى رده المظالم ، والمتوكل فى إحياء السنة .

لكن المتوكل أساء إلى نفسه بسياسة العنف التى انتهجها فى معاملة العلويين ، فأمر فى سنة ٢٣٦هـ بهدم قبر الحسين بن على وماحوله من الدور ، « وأن يُحرث ويُبذر ، ويسقى موضع قبره ، وأن يمنع الناس من إتيانه ، فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى فى الناحية : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة أيام بعثنا به إلى المُطبِق (سجن) ، فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه ، وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه (٣) . وقد أثار المتوكل بهذه السياسة حفيظة المسلمين ، وخاصة أهل بغداد الذين ردوا على الاهانات التى ألحقها بالعلويين بسببه فى المساجد والطرقات .

بالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوماً
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله هذا لعمرى قبره مهدوما
أسِفوا على ألا يكونوا شاركوا فى قتله فتتبعوه رميما (٤)

٣ — حالة الدولة فى عهده :

استوزر المتوكل محمد بن عبد الملك الزيات . ولما قتله اتخذ أحد كتابه ، وكان يسمى أبا الوزير ، كاتباً ولم يلقبه بلقب الوزير ، ثم نكبه واستوزر أبا جعفر محمد بن الفضل الجرجرائى ، ثم عزله واستوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان .

ومن الآفات الطبيعية التى وقعت فى عهد المتوكل هبوب عاصفة شديدة على بغداد والبصرة والكوفة وغيرها من مدن العراق ، فاحترق الزرع والماشية ، وانقطعت المواد الغذائية عن الأسواق فى بغداد وغيرها ، فانتشرت المجاعة وهلك كثير من الناس .

وقد انتهز الروم فرصة الضعف الذى طرأ على الدولة العباسية ، فاستأنفوا إغاراتهم على أراضيها ، فأغاروا على دمياط وفتكوا بأهلها وأحرقوا دورهم ، ثم غزوا قالى قلا (قيلقيا) فى جنوبى آسيا الصغرى

(١) الخطيب البغدادى : كتاب تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٦٩ — ١٧٠ .
(٢) كتاب مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٩ .
(٣) ج ١١ ص ٤٤ .
(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣٠ .

وهزموا أهلها هزيمة منكرة ، إلى غير ذلك من الحروب التى سيأتى الكلام عليها فى باب العلاقات الخارجية .

ويظهر أن المتوكل كان يروم نقل الخلافة إلى الشام ويجعل العرب عمادها وأعوانها ، تبرماً بالترك وكثرة ما أحدثوا فى الدولة من فوضى وإفساد للشئون العامة ، حتى ضاق بهم أهالى العراق ولم ينج من شرهم الخلفاء .

٤ — صفات المتوكل :

كان المتوكل منهمكا فى ملاذه مدمنا لشرب الخمر ، وكان مشغوفا بقُبيحة أم ولده المعتز . وقد سميت بذلك لحسنها وجمالها كما كان يسمى الأسود كافورا . روى المسعودى[1] عن على بن الجهم قال : « لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله ، أهدى إليه الناس على أقدارهم ، وأهدى إليه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف . وفى الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم . وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس ، فحسن موقعها من المتوكل وحلت من قلبه محلا جليلا لم يكن أحد يعدلها عنده . قال على : فدخلت عليه يوما للمنادمة . فلما استقر بى المجلس قام فدخل بعض المقاصير ثم خرج وهو يضحك ، فقال : ويلك ياعلىّ ! دخلت فرأيت قينة قد كتبت فى خدها بالمسك جعفرا ، فما رأيت أحسن منه ، فقل فيه شيئا ، فقلت : ياسيدى أنا وحدى أو أنا ومحبوبة ؟ قال : لا بل أنت ومحبوبة . قال : فدعوت بدواة وقرطاس ، فسبقتنى إلى القول ، ثم أخذت العود فترنمت ثم خفقت عليه حتى صاغت له لحنا ، وتضاحكت مليا ثم قالت : يا أمير المؤمنين : تأذن لى ، فأذن لها فغنت :

وكاتبة فى الخد بالمسك جعفرا ... بنفسى محط المسك من حيث أثرا
لئن أودعت خطا من المسك خدها ... لقد أودعت قلبى من المسك أسطرا
فيا من لمملوك يظل مليكه ... مطيعا له فيما أسر وأجهرا
ويا من لعينى من رأى مثل جعفر ... سقى الله صوب المستهلات جعفرا

وقد عرف المتوكل بالسخاء والجود . مدحه البحترى فى هذه الأبيات فقال :

بسر من را لنا إمام ... تغرف من بحره البحار
خليفة يُرتجى ويُخشى ... كأنه جنّةٌ ونار
كلتا يديه تفيض سحاً ... كأنها ضرّةٌ تغارُ
فليس تأتى اليمين شيئاً ... إلا أتت مثله اليسار
فالمُلك فيه وفى بنيه ... ما اختلف الليل والنهار

واشتهر المتوكل بالحلم . فقد ذكر محمد بن أبى عون أنه لما أتى بمحمد بن المُغيث إلى

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .
(١) الخطيب البغدادى : كتاب تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

المتوكل ، وقد دعا له بالسّطع والسيف قال له : يا محمد ! مادعاك إلى المشاقّة ؟ قال: الشّقوة ياأمير المؤمنين ، وأنت ظل الله الممدود بينه وبين خلقه . إنّ لى فيك لظنّين أسبقهما إلى قلبى أولاهما بك ، وهو العفو عن عبدك ، وأنشأ يقول :

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلى ... إمامَ الهدى والعفو بالحر أجملُ
وهل أنا إلا جِبِلّة من خطيئة ... وعفوُك من نور النبوة يجمل ؟
تضاءل ذنبى عند عفوك قلةً ... فمن لى بفضل منك والمنُّ أفضل
لأنك خير السابقين إلى العلا ... وأنك خير الفعلتين ستفعل

فقال المتوكل : أفعل خيرهما وأمنّ عليك ، ارجع إلى منزلك . قال ابن المغيث : يا أمير المؤمنين : الله أعلم حيث يجعل رسالته .

٥ — تولية المتوكل أولاده العهد :

وفى سنة ٢٣٥ هـ ولى المتوكل العهد أولاده : محمداً وسماه المنتصر ، وأبا عبد الله بن قبيحة ولقبه المعتز ، وابراهيم وسماه المؤيد ، وعقد لكل واحد منهم لواءين ، أحدهما أسود وهو لواء العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل »(١). وقد مدحه الشعراء على أثر توليته العهد أولاده فقال مروان ابن أبى الجنوب :

ثلاثة أملاك : فأما محمد ... فنور هدى يهدى به الله من يهدى
وأما أبو عبد الإله فانه ... شبيهك بالتقوى ويجدى كما تجدى
وذو الفضل ابراهيم للناس عصمة ... تقى وفى بالوعيد وبالوعد
فأولهم نور وثانيهم هدى ... وثالثهم رشد وكلهم مَهدى(٢)

على أن المتوكل رأى أن يقدم ابنه المعتز على أخويه المؤيد والمنتصر ، لمحبته لقبيحة أم المعتز . ويظهر أن ذلك كان راجعاً إلى ما حاكه رجال بلاطه من دسائس لإقصاء المنتصر والمؤيد. فقد ذكر الطبرى(٣) أنه « كان قد شاع فى الناس فى أول رمضان أن أمير المؤمنين يصلى فى آخر جمعة من الشهر بالناس ، فاجتمع الناس لذلك واحتشدوا ، وخرج بنو هاشم من بغداد لرفع القصص وكلامه إذا ركب . فلما كان يوم الجمعة أراد الركوب للصلاة ، فقال له عبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان : يا أمير المؤمنين ! إن الناس قد اجتمعوا وكثروا من أهل بيتك ، وبعضٌ متظلم وبعض طالب حاجة ، وأمير المؤمنين يشكو ضيق الصدر ووعكه ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بعض ولاة العهود بالصلاة ونكون معه جميعاً فليفعل ، فقال : قد رأيت ما رأيتما ، فأمر المنتصر بالصلاة . فلما نهض المنتصر ليركب للصلاة قالا : يا أمير المؤمنين ! قد رأينا رأيا وأمير المؤمنين أعلى عيناً ، قال : وماهو ؟

(١) الطبرى جـ ١١ ص ٣٨ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠٢ .
(٣) جـ ١١ ص ٦٢ — ٦٣ .

أعرضاه علىّ . قالا : يا أمير المؤمنين ! مر أبا عبد الله المعتز بالصلاة لتشرفه بذلك فى هذا اليوم الشريف ، فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعاً ، فقد بلغ الله به . وقد كان ولد للمعتز قبل ذلك بيوم ، فأمر المعتز فركب وصلى بالناس ، فأقام المنتصر فى منزله — وكان بالجعفرية — وكان ذلك مما زاد فى إغرائه . فلما فرغ المعتز من خطبته قام اليه عبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان فقبلا يديه ورجليه ، وفرغ المعتز من الصلاة ، فانصرف وانصرفا معه ، ومعهم الناس فى موكب الخلافه ، والعالم بين يديه ، حتى دخل على أبيه وهما معه . ودخل معه داود بن محمد بن أبى العباس الطوسى ، فقال داود : يا أمير المؤمنين ! إيذن لى فأتكلم ، قال : قل ، فقال: والله ياأميرالمؤمنين ! لقد رأيت الأمين والمأمون والمعتصم صلوات الله عليهم ، ورأيت الواثق بالله ، فوالله ما رأيت رجلا على منبر أحسن قواماً ، ولا أحسن بديها ، ولا أجهر صوتاً ، ولا أعذب لساناً ، ولا أخطب من المعتز بالله أعزه الله يا أمير المؤمنين ببقائك ، وأمتعك الله وإيانا بحياته . فقال له المتوكل : أسمعك الله خيراً ، وأمتعنا بك . فلما كان يوم الأحد ، وذلك يوم الفطر ، وجد المتوكل فترة فقال : مروا المنتصر فليصل بالناس ، فقال له عبيد بن يحيى بن خاقان : يا أمير المؤمنين ! قد كان الناس تطلعوا إلى رؤية أمير المؤمنين فى يوم الجمعة ، فاجتمعوا واحتشدوا ، فلم يركب أمير المؤمنين ، ولا نأمن إن هو لم يركب أن يرجف الناس بعلته ، ويتكلموا فى أمره ، فان رأى أمير المؤمنين أن يسرّ الأولياء ويُكْبت الأعداء بركوبه فعل ، فأمرهم بالتأهب والتهيؤ لركوبه ، فركب ، فصلى بالناس ، وانصرف إلى منزله ، فأقام يومه ذلك ، ومن الغد لم يدع بأحد من ندمائه » .

٦ — قتل المتوكل :

ولكن المنتصر غضب لذلك فدبر مع الأتراك مؤامرة لاغتيال أبيه . ولا غرو ، فقد حاول بعض الأتراك الملتفين حول المنتصر قتل المتوكل غِيلة بدمشق ، ولكنهم أخفقوا فى تدبيرهم بفضل بُغا الكبير والفتح بن خاقان[1] .

(١) ذكر المسعودى (مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨٩ — ٣٩٠) : « وقد كان الأتراك قد رأوا أنهم يقتلون المتوكل بدمشق ، فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب بغا الكبير ، فانهم دبروا فى إبعاده عنه ، فطرحوا فى مضرب المتوكل الرقاع يقولون فيها إن بغا دبر أن يقتل أمير المؤمنين ، والعلامة فى ذلك أن يركب فى يوم كذا فى خيله ورجله فيأخذ عليه أطراف عسكره ، ثم يأخذ جماعة من الغلمان العجم يدخلون عليه فيفتكون به . فقرأ المتوكل الرقاع فبهت مما تضمنته ودخل فى قلبه من بغا كل مدخل ، وشكا إلى الفتح ذلك وقال له فى أمر بغا والاقدام عليه وشاوره فى ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إن الذى كتب الرقاع قد جعل للأمر دلائل فى وقت بعينه من ركوب الرجل الأطراف من العسكر وتوكيله بنواحيه ، وبعد ذلك يتبين الأمر . وأنا أرى أن تمسك ، فان صح هذا الدليل نظرنا كيف يفعل ، وإن بطل ما كتب به فالحمد لله ، وأقبلت الرقاع تطرح فى كل وقت على جهة النصح والصدق . فلما علموا بما علم به الخليفة وتمكن به ما عندهم من الأمر كتبوا رقاعا فطرحوها فى مضرب بغا يقولون فيها إن جماعة من الغلمان والأتراك قد عزموا على الفتك بالخليفة فى عسكره ودبروا ذلك واتفقوا عليه وتعاقدوا على أن يأتوه من نواحى كذا ونواحى كذا . فالله الله إلا ما احترست لأمير المؤمنين وحرسته فى هذه الليلة من هذه المواضع وحصنتها بنفسك ومن تثق به ، فانا قد نصحنا وصدقنا . وأكثروا طرح الرقاع بهذا =

على أن بغا الصغير اتفق مع باغر التركى على قتل المتوكل . ويقول المسعودى[١] : « ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل ، فأقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم متلثمون ، والسيوف فى أيديهم تبرق فى ضوء تلك الشموع ، فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الأتراك على السرير ، فصاح بهم الفتح : ويلكم مولاكم . فلما رآه الغلمان ومن كان حاضراً من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم ، فلم يبق أحد فى المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم . قال البحترى : فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذى كان المتوكل دفعه إليه على جانبه الأيمن فقده إلى خاصرته ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك . وأقبل الفتح يمانعهم عنه فيعجزه واحد منهم بالسيف الذى كان معه فى بطنه فأخرجه من متنه وهو صابر لا يتنحى ولا يزول . فما رأيت أحداً كان أقوى نفسا ولا أكرم منه ، ثم طرح بنفسه على المتوكل فماتا جميعاً . فلفا فى البساط الذى قتلا فيه وطرحا ناحية ، فلم يزالا على حالتهما فى ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمنتصر ، فأمر بهما فدفنا جميعاً » .

ومن هنا نتبين مدى تغلغل نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية وأثرهم فى تصريف شئونها فيما بعد ، حتى إن الخليفة العباسى قد أصبح مسلوب السلطة مهيض الجانب ضعيف الإرادة .

« وكانت أيام المتوكل — كما يقول المسعودى[٢] — فى حسنها و نضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء كما قال بعضهم : كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص الشعر وأمانى الحب وأيام الشباب » .

ويقول ميور[٣] « إن مدح المؤرخين لعهد المتوكل الذى دام خمس عشرة سنة أعاد فى خلالها المذهب السنى إلى ما كان عليه ، وشجع الشعراء والعلماء ، يخفف بعض الشىء مما اشتهر به هذا العهد من الظلم المنطوى على القسوة والانغماس فى الملاذ والتطرف فى الآراء الدينية » .

= المعنى والتوكيد فى حراسة الخليفة . فلما وقف بغا عليها وتتابعت عليه لم يأمن أن يكون ما كتب إليه فيها حقا مع ما كان وقع عليه من الأمر قبل ذلك . فلما كانت الليلة التى ذكروها جمع جيوشه وأمرهم بالركوب بالسلاح وركب بهم إلى المواضع التى ذكرت ، فاخذها على المتوكل وحرسها ، واتصل الخبر بالمتوكل ، فلم يشك أن ما كتب له حق ، فأقبل يتوقع من يوافيه فيفتك به . وسهر ليلته وامتنع من الأكل والشرب ، فلم يزل على هذه الحال إلى الغداة ، وبغا يحرسه والامر عند المتوكل على خلاف ذلك . واتهم بغا واستوحش من فعله . . فخلفه على الشام وانصرف ، فاحدث الموالى عليه ما أحدثوا ، فلم يعلم المتوكل وجه الحيلة ، ولم يعلم كل واحد منهما الحيلة فى ذلك إلى أن تمت الحيلة » .

(١) جـ ٢ ص ٣٩٣ .

(٢) جـ ٢ ص ٣٩٤ .

(٣) Muir : The Caliphate, p. 530.

المنتصـــر بالله

٢٤٧ — ٢٤٨ هـ = ٨٦١ — ٨٦٢ م

١ — بيعته :

خلف المتوكل ابنه وقاتله المنتصر بالله فى شوال سنة ٢٤٧ هـ ، وادعى أن الذى قتل أباه هو الفتح بن خاقان ، وأنه قتله أخذا بثأر أبيه . وبايعه الناس بالخلافة ، وبعث بنسخة البيعة إلى الأمصار وهاك نصها نقلا عن الطبرى[1] : بسم الله الرحمن الرحيم : تبايعون عبد الله المنتصر بالله أمير المؤمنين بيعةَ طوع واعتقاد ورضاً ورغبة باخلاص من سرائركم وانشراح من صدوركم وصدق من نياتكم ، لا مكرهين ولا مجبرين ، بل مقرّين عالمين بما فى هذه البيعة وتأكيدها من طاعة الله وتقواه وإعزاز دين الله وحقه ، ومن عموم صلاح عباد الله ، واجتماع الكلمة ولمّ الشَّعَث ، وسكون الدَّهْماء ، وأمن العواقب وعز الأولياء وقمع الملحدين ، على أنّ محمداً الامام المنتصر بالله عبدُ الله وخليفته المفترَض عليكم طاعته ومناصحته والوفاء بحقه وعَقْده ، لا تشكون ولا تدهِنون ولا تميلون ولا ترتابون . وعلى السمع له والطاعة والمسالمة والنصرة والوفاء والاستقامة والنصيحة فى السر والعلانية ، والخفوف والوقوف عند كل ما يأمر به عبد الله الإمام المنتصر بالله أمير المؤمنين ، وعلى أنكم أولياء أوليائه وأعداء أعدائه من خاص وعام ، وأبعد وأقرب ، وتتمسكون ببيعته بوفاء العقد وذمة العهد ، سرائركم فى ذلك مثل علانيتكم ، وضمائركم مثل ألسنتكم ، راضين بما يرضاه لكم أمير المؤمنين فى عاجلكم وآجلكم ، وعلى إعطائكم أمير المؤمنين بعد تجديدكم بيعته هذه على أنفسكم وتأكيدكم إياها فى أعناقكم صَفْقَةَ أيْمانكم ، راغبين طائعين عن سلامة من قلوبكم وأهوائكم ونياتكم ، وعلى أن لا تسعوا فى نقض شىء مما أكد الله عليكم ، وعلى أن لا يميل بكم ميل فى ذلك عن نُصرة وإخلاص ونصح وموالاة ، وعلى أن لا تبدلوا ولا يرجع منكم راجع عن نيته وانطوائه إلى غير علانيته ، وعلى أن تكون بيعتكم التى أعطيتم بها ألسنتكم وعهودَكم بيعة يطلع الله من قلوبكم على اجتبائها واعتقادها ، وعلى الوفاء بذمته بها ، وعلى إخلاصكم فى نصرتها وموالاة أهلها ، لا يشوب ذلك منكم دَغل ولا إدهان ولا احتيال ولا تأول حتى تلقوا الله موفين بعهده ومؤدين حقه عليكم ، غير مستشرفين ولا ناكثين ، إذ كان الذين يبايعون منكم أمير المؤمنين إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما . عليكم بذلك وبما أكدت هذه البيعة فى أعناقكم ، وأعطيتم بها من صفقة أيمانكم وبما اشترط عليكم بها من وفاء ونصر وموالاة واجتهاد ونصح . وعليكم عهد الله إن عهده كان مسئولا ، وذمة الله وذمة رسوله وأشد ما أخذ على أنبيائه ورسله وعلى أحد من عباده من متأكد وثائقه أن تسمعوا ما أخذ

(١) جـ ١١ ص ٧١ — ٧٢ .

عليكم فى هذه البيعة ولا تبدّلوا ولا تعصوا ، وأن تخلصوا ولا ترتابوا ، وأن تتمسكوا بما عاهدتم عليه تمسّك أهل الطاعة بطاعتهم وذوى العهد والوفاء بوفائهم وحقهم ، لا يلفتكم عن ذلك هوًى ولا ميل ولا يزيغ بكم فيه ضلال عن هدى ، باذلين فى ذلك أنفسكم واجتهادكم ، ومقدمين فيه حق الدين والطاعة بما جعلتم على أنفسكم ، لا يقبل الله منكم فى هذه البيعة إلا الوفاء بها . فمن نكث منكم ممن بايع أمير المؤمنين هذه البيعة عما أكد عليه مُسرا أو معلناً أو مصرحا أو محتالا ، فادهن فيما أعطى الله من نفسه ، وفيما أخذت به مواثيق أمير المؤمنين وعهود الله عليه ، مستعملا فى ذلك الهوينى دون الجد والركون إلى الباطل دون نصرة الحق ، وزاغ عن السبيل التى يعتصم بها أولو الوفاء منهم بعهودهم ، فكل ما يملك كل واحد ممن خان فى ذلك بشىء نقض عهده من مال أو عقار أو سائمة أو زرع أو ضرع ، صدقةٌ على المساكين فى وجوه سبيل الله ، محرم عليه أن يرجع شىء من ذلك إلى ماله عن حيلة يقدمها لنفسه أو يحتال بها . وما أفاد فى بقية عمره من فائدة مال يقل خطرها ، أو يجل قدرها ، فتلك سبيله إلى أن توافيه منيته ، ويأتى عليه أجله . وكل مملوك يملكه اليوم إلى ثلاثين سنة من ذكر أو أنثى أحرار لوجه الله ، ونساؤه فى يوم يلزمه الحِنْث ومن يتزوجه بعدهن إلى ثلاثين سنة طوالق البتة طلاق الحرج والسنة لا مثنوية فيه ولا رَجعة ، وعليه المشى إلى بيت الله الحرام ثلاثين حِجة ، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بها وهو برىء من الله ورسوله ، والله ورسوله منه بريئان ، ولا قبِل الله منه صَرْفا ولا عَدْلا . والله عليكم بذلك شهيد ، وكفى بالله شهيداً » .

٢ — خلع اخويه من ولاية للعهد :

ولما تمت البيعة للمنتصر حسن إليه الأتراك خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد ، إذ كانوا يخشون بأسهما . وقال أحمد بن الخصيب الذى استوزره المنتصر ، ولم يكن ملما بشئون الدولة حتى ساءت حالة البلاد فى عهده ، وفقد محبة الشعب له ، لكثرة من لحقهم من الأذى بسببه : « إنا لا نأمن من الحدثان وأن يموت أمير المؤمنين ، فيلى الأمر المعتز ، فلا يبقى منا باقية ، ويُبيد خضراءنا . والرأى أن نعمل فى خلع هذين الغلامين قبل أن يظفرا بنا . فجد الأتراك فى ذلك وألحوا على المنتصر وقالوا : يا أمير المؤمنين ، تخلعهما من الخلافة وتبايع لابنك عبد الوهاب ، فلم يزالوا به حتى قبل . ولم يزل مكرما المعتز والمؤيد على ميل منه شديد إلى المؤيد . فلما كان بعد أربعين يوما من ولايته ، أمر باحضار المعتز والمؤيد بعد انصرافهما من عنده ، فأحضرا وجعلا فى دار ، فقال المعتز للمؤيد : يا أخى ! لم ترانا أحضرنا ؟ فقال : ياشقى للخلع ، فقال : لا أظنه يفعل بنا ذلك . فبيناهم كذلك إذ جاءهم الرّسُل بالخلع ، فقال المؤيد : السمع والطاعة ، وقال المعتز : ما كنت لأفعل ، فان أردتم القتل فشأنكم ، فرجعوا إليه فأعلموه ، ثم عادوا بغلظة شديدة فأخذا المعتز بعنف وأدخلوه إلى بيت ، وأغلقوا عليه الباب[1] » ، ثم أصغى إلى نصيحة أخيه المؤيد ، وأجاب إلى النزول عن ولاية العهد ؛ وكتب كل من المؤيد والمعتز كتابا بخلع نفسه أملاه عليه كاتب من قبل الخليفة[2] . « وكتب كل واحد

(١) الطبرى جـ ١١ ص ٧٥ — ٧٦ .

(٢) المصدر نفسه جـ ١١ ص ٧٦ . راجع نسخة الخلع فى الطبرى جـ ١١ ص ٧٧ — ٧٩ .

منهما رقعة بخطه أنه خلع نفسه من البيعة التى بويع له ، وأن الناس فى حِل من حلها ونقضها وأنهما يعجزان عن القيام بشىء منها » .

ويقول المؤيد : « وخرجنا فدخلنا وهو (الخليفة المنتصر) فى مجلسه والناس على مراتبهم ، فسلمنا فردوا ، وأمر بالجلوس ، ثم قال : هذا كتابكما ؟ فسكت المعتز ، فبدرتُ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، هذا كتابى بمسألتى ورغبتى ، وقلت للمعتز : تكلم ، فقال مثل ذلك ، ثم أقبل علينا والأتراك وقوف ، وقال : أتريانى خلعتكما طمعا فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له ؟ والله ما طمعت فى ذلك ساعة قط ، وإذا لم يكن فى ذلك طمع ، فوالله لأن يليها بنو أبى أحب إلىَّ من أن يليها بنو عمى ، ولكن هؤلاء ، وأومأ إلى سائر الموالى ممن هو قائم وقاعد ، ألحوا علىَّ فى خلعكما ، فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتى عليكما ، فما تريانى صانعا ؟ أقتله ، فوالله ما تفى دماؤهم كلهم بدم بعضكم ، فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل علىَّ ، فأكببا عليه فقبَّلا يده ، فضمهما إليه ثم انصرفا » .

. . .

كان المنتصر بخلاف أبيه يحسن إلى العلويين ، فأزال عنهم ما كانوا فيه من الخوف ، وسمح لهم بزيارة قبر الحسين ، وكان أبوه قد منعهم من ذلك ، فأنشد يزيد المهلبى .

ولقد بَرَرْتَ الطالبية بعد ما ذموا زمانا بعدها وزمانا
ورددت ألفة هاشم فرأيتهم بعد العداوة بينهم إخوانا

٣ ــ صفات المنتصر :

« كان المنتصر ــ على ما وصفه ابن الأثير[1] ــ عظيم الحلم راجح العقل غزير المعروف راغبا فى الخير جوادا كثير الإنصاف حسن العشرة » .

وقد روى المسعودى[2] أن على بن يحيى المنجم قال : « ما رأيت أحدا مثل المنتصر ، ولا أكرم أفعالا بغير تبجح منه ولا تكلف . لقد رآنى يوما وأنا مغموم شديد الفكر بسبب ضيعة مجاورة لضيعتى ، وكنت أحب شراءها ، فلم أزل أعمل الحيلة على مالكها حتى أجابنى إلى بيعها ، ولم يكن عندى فى ذلك الوقت قيمة ثمنها . فصرت إلى المنتصر وأنا على تلك الحال ، فتبين الانكسار فى وجهى وشغل القلب فقال لى : أراك مفكرا فما قضيتك ؟ فجعلت أزوى عنه خبرى وأستر قصتى ، فاستحلفنى فصدقته عن خبر الضيعة فقال لى المنتصر : فكم مبلغ ثمنها ؟ فقلت ثلاثون ألف درهم . قال: فكم عندك منها ؟ قلت : عشرة آلاف ، فأمسك عنى ولم يجبنى وتشاغل عنى ساعة ، ثم دعا بدواة وبطاقة ثم وقع فيها بشىء لا أدرى ما هو ، وأشار على خادم كان على رأسه بما لم أفهم . فمضى الغلام

(١) جـ ٧ ص ٣٩ .

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠٣ ــ ٤٠٤ .

مسرعا، وأقبل يشغلنى بالحديث ويطاعمنى الكلام إلى أن أقبل الغلام فوقف بين يديه ، فنهض المنتصر وقال : ياعلى إذا شئت فانصرف إلى منزلك . وقد كنت قدرت عند مسألته أنه سيأمر لى بالثمن أو نصفه . فأتيت وأنا لا أعقل غما . فلما وصلت إلى دارى استقبلنى وكيلى ، فقال : إن خادم أمير المؤمنين صار إلينا ومعه بغل عليه بدرتان ، فسلمهما إلىّ وأخذ خطى بقبضهما . قال : فداخلنى من الفرح والسرور ما لم أملك به نفسى ، ودخلت وأنا لا أصدق قول الوكيل حتى أخرج إلىّ البدرتين ، فحمدت الله تعالى على ما حباه لى ، ووجهت فى وقتى إلى صاحب الضيعة فوفيته الثمن وتشاغلت سائر يومى بتسليمها والإشهاد بها على البائع ، ثم بكرت إلى المنتصر من الغد ، فما أعاد علىّ حرفا ولا سألنى عن شىء من خبر الضيعة حتى فرق الموت بيننا » .

٤ — وفاة المنتصر :

وعلى الرغم من أنّ المنتصر كان يعطف على الأتراك قبل قتل أبيه ، إلا أنه لم يلبث أن غضب عليهم وصار يسبهم ويقول : « هؤلاء قتلة الخلفاء » ، ففكروا فى قتله وأغروا طبيبه ابن طيفور بذلك وأعطوه ثلاثين ألف دينار ، ففصده بريشة مسمومة ، فمات فى ٥ ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ وله من العمر ست وعشرون سنة . يقول صاحب الفخرى[1] : « كان المنتصر شهماً فاتكا سفاكا للدم . لما قتل أباه تحدث الناس بأنه لا يطول له العمر بعده ، وشبهوه بشيرويه بن كسرى حين قتل أباه ولم يستمتع بالملك بعده . قالوا : لما قتل المنتصر أباه وبويع له بالخلافة ، جلس على بساط لم ير الناس مثله ، وعليه كتابة عجيبة بالفارسية ، فنظر اليها المنتصر واستحسنها ، وقال لمن حضر : هل تعرفون معناها ؟ فأحجموا وقالوا لا نعرف ، فاستحضر رجلا عجميا غريبا وأمره بقراءتها فأحجم الرجل ، فقال له المنتصر : قل وما عليك بأس ، فليس لك ذنب . فقال الرجل : على هذا البساط مكتوب أنا شيرويه بن كسرى قتلت أبى فلم أتمتع بالملك بعده إلا ستة أشهر . فتطيّر المنتصر من ذلك ، ونهض من مجلسه مغضبا ، فلم تتم ستة أشهر حتى مات » .

---

(١) ص ٢١٧

المستعين بالله

٢٤٨ — ٢٥٢ هـ = ٨٦٢ — ٨٦٦ م

ولما مات المنتصر اجتمع القواد وتشاوروا فيمن يولونه الخلافة بعده ، وأجمعوا رأيهم على تولية أحمد بن محمد بن المعتصم وبايعوه وله من العمر ثمان وعشرون سنة ، ولقب المستعين بالله . وكان العباسيون لا يأمنون جانب الأتراك ، كما كان هؤلاء يعملون على تولية الخلافة من يطمئنون إليه من أمراء البيت العباسى . لذلك لم يرضوا بأن يولوا أحدا من أولاد المتوكل حتى لا يثأر منهم لقتل أبيه المتوكل وسم أخيه المنتصر . يدل على صحة هذا القول ما ذكره ابن الأثير[1] « أن المنتصر لما توفى اجتمع الموالى على الهارونية . . . وفيها بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش وغيرهم ، فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بمن رضى به بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش ، وذلك بتدبير أحمد بن الخصيب ، فحلفوا وتشاوروا وكرهوا أن يتولى الخلافة أحد من ولد المتوكل لئلا يغتالهم ، وأجمعوا على أحمد بن محمد بن المعتصم ، وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم ، فبايعوه » .

على أن الأتراك ، وعلى رأسهم باغر التركى الذى اشترك فى قتل الخليفة المتوكل ، سَرْعان ماقلبوا للمستعين ظهر المجن ، ولا سيما بعد أن اتصل بمسامعهم أنه عول على القضاء عليهم . وهنا انقسم الأتراك على أنفسهم : فريق منهم ، وعلى رأسه وصيف وبغا ، صحب الخليفة إلى بغداد ، وفريق آخر طلب إليه العودة إلى سامرا ، واعتذروا عما بدر منهم ، فامتنع عن تلبية طلبهم[2] . وفى هذه الفتنة يقول أحمد بن الحارث اليمامى :

لعمرى لئن قتلوا باغراً لقد هاج باغرُ حرباً طَحُونا
وفرّ الخليفة والقائدا نِ بالليل يلتمسان السفينا
فألزمهم بطن حرّاقة وصرّت مجاديفهم سائرينا
وصاحوا بميْسَانَ ملاحِهم فجاءهمُ يسبِق الناظرينا
وما كان قدْر ابنِ مارمَّة (٣) فتكسِبَ فيه الحروب الزُّبونا
ولكنْ دليل سعى سَعْيَةً فأخزى الإله بها العالمينا
فحل ببغدادَ قبل الشروق فحل بها منه ما يكرهُونا
فليت السفينة لم تأتنا وغرّقها الله والراكبينا

---

(١) جـ ٧ ص ٤٠ (٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠٧ — ٤٠٨

(٣) لما قدموا (الأتراك) بغداد اعتل ابن مارمة فعاده دليل بن يعقوب فقال له : ما سبب علتك ؟ قال : عقر القيد انتقض علىّ ، فقال دليل : لئن عقرك القيد لقد نقضتَ الخلافة وبعثتَ فتنة . الطبرى جـ ١١ ص ٩٧

وأقبلت الترك والمغربون وجاء الفراعنة الدار عونا
تسير كراديسهم فى السلاح يروحون خيلا ورجلا تُبينا
فقام بحربهم عالمٌ بأمر الحروب تولاه حيناً
فجدد سوراً على الجانبين حتى أحاطهم أجمعينا
وأحكم أبوابها المصمتات على السور يحمى بها المستعينا
وعبّى قروضا وجيشية ألوفَ ألوفٍ إذا تحسبونا
وهيّا مجانيق خطّارةً تُفيتُ النفوس وتحمى العرينا
وعبّى المجانيق منظومة على السور حتى أعار العيونا(١)

ولما رأى الأتراك تنكر المستعين بن محمد بن المعتصم لهم وامتناعه عن العودة إلى سامرا، خلعوه وبايعوا ابن عمه المعتز بن المتوكل. ومن ثم قامت الحرب بينهما ودامت عدة أشهر، وأثر ذلك فى حالة البلاد الاقتصادية، فغلت الأسعار، وعظم البلاء. ويقول ابن الأثير (٢) عن حصار المستعين ببغداد: «ثم إن المعتز عقد لأخيه أبى أحمد بن المتوكل، وهو الموفق، لسبع بقين من المحرم على حرب المستعين ومحمد بن عبد الله، وولاه ذلك وضم اليه، وضم إليه الجيش وجعل إليه الأمور كلها وجعل التدبير إلى كلباتكين التركى، فسار فى خمسين ألفاً من الأتراك والفراغنة وألفين من المغاربة. فلما بلغ عكبرا صلى بها وخطب للمعتز وكتب بذلك إلى المعتز، فذكر أهل عكبرا أنهم كانوا على خوف شديد من مسير محمد بن عبد الله إليهم ومحاربتهم، فانتهبوا القرى ما بين عكبرا وبغداد فخربت الضياع وأخذ الناس فى الطريق. ولما وصل أبو أحمد إلى عكبرا هرب إليه جماعة من أصحاب بغا الصغير. ووصل أبو أحمد وعسكره باب الشماسية لسبع خلون من صفر، فقال بعض البصريين، ويعرف بياذنجانة:

يا بنى طاهر أتتكم جنود اللـــــه والموت بينها مشهور
وجيوش إمامهم أبو أحمـــــد نعم المولى ونعم النصير

وقد ذكر المسعودى(٣) أن الخليفة المستعين لما انهزم، استجار بمحمد بن عبد الله بن طاهر فخذله ومال إلى المعتز. وقال فى ذلك أحد شعراء بغداد فى ذلك العصر:

أطافت بنا الأتراك حولا مُحَرَّماً وما برحت فى جحرها أم عامر
أقامت على ذل بها ومهانة فلما بَدَت أبْدت لنا لؤم غادر
ولم ترع حق المستعين فأصبحت وأبقت لها عاراً على آل طاهر
لقد جمعت لؤماً وخبثاً وذلة وأبقت لها عارا على آل طاهر

ولما خلع المستعين انصرف أبو أحمد الموفق من بغداد إلى سامرا، فخلع عليه المعتز وتوج ووشح

(١) الطبرى جـ ١١ ص ٩٦ — ٩٧. (٢) جـ ٧ ص ٤٩ — ٥٠.
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٢٠.

بوشاحين ، وخلع على من كان معه من قواده ، وقدم على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبرد والقضيب والسيف ، وبجوهر الخلافة .

بويع المعتز بالخلافة وله من العمر تسع عشرة سنة . وقد وصف أحد الشعراء حالة الخلافة العباسية فى ذلك العصر وما وصلت إليه من ضعف ووهن ، وكيف استبد الأتراك بالسلطة وتسلطوا على أرواح الخلفاء ، حتى أصبحت توليتهم وعزلهم من مميزات ذلك العصر فقال :

خلع الخليفة أحمدُ بن محمد وسيقتل التالى له أو يخلع
ويزول ملك بنى أبيه ولا ترى أحدا بملك منهم يتمتع
إيها بنى العباس انّ سبيلكم فى قتل أعبدكم سبيل مَهْيَع (١)
رقّقتم دنياكم فتمزّقت بكم الحياة تمزقا لا يُرْقَع (٢)

أخرج الخليفة المعزول إلى واسط واختار الأتراك أحمد بن طولون ليصحبه ، فأحسن اليه ، وأطلق له الحرية فى التنقل والصيد . وعلى الرغم من ذلك الفوز الذى أحرزه الأتراك بخلع المستعين ونفيه ، أوجسوا شرا من بقائه حياً ، وأوعزوا إلى المعتز أن خلافته لن تثبت إلا إذا قتل المستعين ، ووافقتهم على ذلك قبيحة أم المعتز التى خافت على حياة ولدها أن تمتد إليه يد الأعداء ، فكتبوا إلى ابن طولون يطلبون اليه قتل المستعين ويمنونه ولاية واسط ، فلم يرض أن يقتل خليفة له فى رقبته بيعة ، فأرسلوا سعيدا الخادم أحد حجاب القصر فى شرذمة من الجيش إلى واسط ، فتولى قتل الخليفة بنفسه (٣) .

وصفوة القول أن موقف المستعين من الأتراك كان كما وصفه أحد الشعراء :

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

وقال البحترى فى قتله :

لله در عصابة تركية ردوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد وكسَوْا جميع الناس ثوب الخوف
وطغوا فأصبح ملكنا متقسما وإمامنا فيه شبيه الضيف (٤)

ويقول صاحب الفخرى (٥) : « واعلم أن المستعين كان مستضعفاً فى رأيه وعقله وتدبيره . وكانت أيامه كثيرة الفتن ودولته شديدة الاضطراب ، ولم يكن فيه من الخصال المحمودة ، إلا أنه كان كريماً وَهوباً » .

---

(١) واضح . (٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ٥٩ . (٣) المصدر نفسه جـ ٧ ص ٦٠ — ٦١ .
(٤) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٢٠ و ٤٢٣ . (٥) ص ٢٢٢ .

المعتز

٢٥٢ - ٢٥٥ هـ = ٨٦٦ — ٨٦٩ م

كان المعتز بن المتوكل كما يصفه صاحب الفخرى(١) « جميل الشخص ، حسن الصورة . ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس . إلا أن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه » . ومما يدل على مدى تغلغل الأتراك فى أمور الدولة وتسلطهم على حياة الخلفاء أنفسهم هذه العبارة التى رواها صاحب الفخرى(٢) قال : « لما جلس المعتز على سرير الخلافة قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم : انظروا كم يعيش وكم يبقى فى الخلافة ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا : فكم تقول إنه يعيش وكم يملك ؟ قال : مهما أراد الأتراك ، فلم يبق فى المجلس إلا من ضحك » .

وكان المعتز يخاف الأتراك ويخشى بأسهم ولا يأمن جانبهم . وكان بغا الصغير أشد هؤلاء خطراً عليه يقول المسعودى(٣) : « وكان المعتز فى حياة بغا لا يلتذ بالنوم ولا يخلع سلاحه لا فى ليل ولا فى نهار خوفا من بغا وقال : لا أزال على هذه الحالة حتى أعلم : لبغا رأسى أو رأسه لى . وكان يقول : إنى لأخاف أن ينزل علىّ بغا من السماء أو يخرج علىّ من الأرض » . ولا غرو فقد عزم بغا على أن ينحدر سرا فيصل إلى سامرا فى الليل ويصرف الأتراك عن المعتز . على أن المعتز قد عمل على التخلص من نفوذ زعماء الأتراك ، فاصطنع المغاربة والفراغنة دونهم ، وأخذ يعمل الحيلة فى قتلهم ، فاتخذ الأتراك من ذلك فرصة للخروج عليه فطالبوه برواتبهم ، فعجز عن دفعها إليهم وطلب إلى أمه قبيحة — وكانت غنية — أن تمده ببعض المال لتهدئة ثورة الجند ، فأبت واستنجدت بموسى بن بغا. ولكن ثورة الجند اشتدت وتفاقمت وقبضوا عليه بزعامة صالح بن وصيف وقتلوه .

ويصف لنا ابن الأثير (٤) قتل المعتز فى هذه العبارة « فدخل اليه جماعة منهم فجروه برجله الى باب الحجرة ، وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه ، وأقاموه فى الشمس فى الدار ، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر . وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ، وأدخلوه حجرة ، وأحضروا ابن أبى الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه ، وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز وأمه وولده وأخته الأمان . وكانت أمه قبيحة قد اتخذت فى دارها سرداباً فخرجت منه هى وأخت المعتز . وكانوا قد

---

(١) ص ٢٢٠ .
(٢) ص ٢٢١ .
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٢٨ .
(٤) جـ ٧ ص ٦٨ — ٦٩ .

أخذوا عليها الطريق ومنعوا أحدا يجوز اليها ، وسلموا المعتز الى مَنْ يعذبه ، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حَسوة[١] من ماء البئر فمنعوه ، ثم أدخلوه سردابا وحصحصوا عليه[٢] فمات . »

استخفت قبيحة بعد موت ابنها المستعين خوفاً على حياتها من شر صالح بن وصيف ، وأخفت ما عندها من المال وقدره ١,٨٠٠,٠٠٠ دينار ، عدا كثير من الجواهر والحلى والزمرد واللؤلؤ والياقوت الذى لا تعرف له قيمة . ومن الغريب أنها عرّضت ابنها للقتل ورفضت أن تدفع للثائرين خمسين ألف دينار فقط .

وقد رثى الشعراء المعتز بقصائد تبين لنا مدى تغلغل نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية وانتهاكهم حرمة الخلافة . من ذلك قول أحدهم :

عين لا تبخلى بسفح الدموع واندبى خير فاجع مفجوع
خانه الناصح السفيه ونالتـــه أكف الردى بحتف سريع
بكر الترك ناقمين عليه خلعته ، أفديه من مخلوع
قتلوه ظلما وجورا فألفو ه كريم الأخلاق غير جزوع
لم يهابوا جيشا ولا رهبوا السيـ ـف فلهفى على القتيل الخليع
أصبح الترك مالكى الأمر والعا لم ما بين سامع ومطيع
وترى الله فيهم مالكَ الأمـ ـر سيجزيهم بقتل ذريع

وقال شاعر آخر :

أصبحت مقلتى تسح الدموعا إذ رأت سيد الأنام خليعا
لهف نفسى عليه ما كان أملا ه وأسراه تابعا متبوعا
ألزموه ذنباً على غير جُرْم فثوى فيهم قتيـــلا صريعا
وبنـو عمـه وعم أبيـه أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا
ما بهذا يصح ملك ولا يغـ ـزى عدو ولا يكون جميعا[٣]

---

(١) جَرْعة .
(٢) ذكر صاحب الفخرى (ص ٢٢١) أنهم جعلوه فى بيت وسدوا بابه حتى مات .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢٩ — ٤٣٠ .

المهتـــدى

٢٥٥ — ٢٥٦ هـ = ٨٦٩ — ٨٧٠ م

ولى المهتدى بن الواثق الخلافة بعد قتل أخيه المعتز سنة ٢٥٥ هـ .

واستوزر جماعة من الوزراء ، منهم سليمان بن وهب الذى امتاز بالفضل والكرم وحسن الادارة ، وعيسى بن فرخان شاه . وظهرت فى أيامه قُبيحة أم المعتز بعد أن استخفت مدة ، كما قام العامة فى مستهل خلافته بثورة فى بغداد وأبوا مبايعته ، ولكنه استعمل المال فى إخماد هذه الثورة فبايعوه . ثم لم يلبث أن ثار الجند عليه بسبب استيلاء سليمان بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد على رواتبهم ، وعبث الخراسانيون بالعامة فعولوا جميعاً على التخلص من قائدهم وطردوه . كما أذكى العلويون نار الثورة فى كثير من البلاد الإسلامية . فقد ثار الحسن بن زيد العلوى بطبرستان ، كما بدأت ثورة الزنج التى هددت الدولة العباسية زهاء أربع عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، وشق الخوارج بزعامة مساور الشاورى عصا الطاعة فى الموصل .

ومن أهم هذه الثورات ثورة أحمد بن عيسى بن الشيخ . وكان أبوه عيسى والياً على فلسطين والأردن . ولما مات تغلب ابنه أحمد على دمشق وامتنع عن حمل المال إلى دار الخلافة ، وانتهز فرصة اضطراب حبل الأمور فى حاضرة الدولة ، فحدثته نفسه بالعصيان والاستيلاء على سائر بلاد الشام وطمع فى مصر .

وقد عمد الخليفة المهتدى إلى التخلص منه بالمكايد والخدع ، فولاه إرمينية على أن يستخلف من ينوب عنه فى ولاية الشام ليقصيه عنها ، وندب أحمد بن طولون لقتاله على أن يتقلد بلاد الشام بعد إخضاعه(١) . ولكن سرعان ما وافى ابن طولون وهو فى الطريق كتاب من العراق يأمره بالعودة إلى مصر . وقدم ماجور التركى من العراق وهزم قوة ابن الشيخ واستولى على دمشق ، ولحق ابنُ الشيخ بنواحى إرمينية فتولى ماجور أعمال الشام كلها .

وكان المهتدى — كغيره من الخلفاء الذين جاءوا بعد المتوكل — ألعوبة فى أيدى الأتراك . وليس أدل على ما وصل إليه الخليفة من الضعف وما بلغته الخلافة من الوهن والانحلال من هذه العبارة التى رواها الطبرى : « رفع المهتدى يديه إلى السماء ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : اللهم إنى أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا وإخلاله بالثغر وإباحته العدو ، فانى قد أعذرت فيما بينى وبينه . اللهم تولّ كيد من كايد المسلمين ! اللهم انصر جيوش المسلمين حيث كانوا ! اللهم إنى شاخص بنيتى واختيارى إلى حيث نكب المسلمون فيه ، ناصراً لهم ودافعاً عنهم ، اللهم فآجرنى بنيتى إذ عدمتُ

---

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٢١٤ ، المقريزى : خطط ج ١ ص ٣١٥ .

صالح الأعوان ، ثم انحدرت دموعه يبكى . »[١]

نعم ! لقد أصبح الخليفة العباسى فى ذلك العصر ألعوبة فى أيدى هؤلاء الجند الذين كانوا تحت إمرة موسى بن بغا ، ولكن المهتدى اتخذ من هذا الضعف قوة لأخذ الثأر . وكيف يثأر لنفسه ولا جيش يحميه ؟ لقد لجأ إلى الحيلة والدهاء وحاول أن يستميل إليه باكباك أحد قواد الجيش ، فطلب إليه أن يقوم بقتل موسى بن بغا على أن يؤمره على الجيش من بعده . على أن باكباك لم يثق بالخليفة ووعوده وسار إلى موسى وعرض عليه الكتاب ، واتفقا فيما بينهما على أن يسير باكباك إلى المهتدى متظاهراً بالإخلاص له حتى يدبر قتله .

وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على قتل الخليفة ، على أثر قتله بعض الموالى ، فثاروا عليه ، ثم أسروه وخلعوه ، ولم يكتفوا بذلك بل عذبوه حتى مات فى رجب سنة ٢٥٦[٢] هـ .

صفات المهتدى :

وقد وصف المسعودى[٣] الخليفة المعتمد فى هذه العبارة : « وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ، ونهى عن القيان وأظهر العدل . وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويخطب الناس ويؤم بهم ، فثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله إياهم على الطريق الواضحة ، فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه وعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه » .

وكان المهتدى أحسن الخلفاء العباسيين سيرة وأظهرهم ورعا وأكثرهم عبادة . وكان يتشبه بعمر ابن عبد العزيز ويقول : إنى استحيى أن يكون فى بنى أمية مثله ولا يكون مثله فى بنى العباس وكان يجلس للمظالم فيحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم ، كما كان يتقلل فى مأكله وملبسه[٤] .

قال أبو العباس بن هاشم بن القاسم الهاشمى : « كنت عند المهتدى بعض عشايا شهر رمضان ، فقمت لأنصرف ، فأمرنى بالجلوس فجلست حتى صلى المهتدى بنا المغرب ، وأمر بالطعام فأحضر ، وأحضر طبق خلاف عليه رغيفان ، وفى إناء ملح وفى آخر زيت وفى آخر خلّ ، فدعانى إلى الأكل فأكلت مقتصراً ، ظناً منى أنه يحضر طعاما جيداً . فلما رأى أكلى كذلك قال : أما كنت صائما ؟ قلت : بلى ! قال : أفلست تريد الصوم غدا ؟ قلت : وكيف لا وهو شهر رمضان ؟ قال : كل واستوف عشاءك فليس هاهنا غير ما ترى . فعجبت من قوله وقلت : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قد أسبغ الله عليك النعمة ووسع رزقه ، فقال : إن الأمر على ما وصفت والحمد لله ، ولكنى فكرت فى أنه كان من بنى أمية عمر بن عبد العزيز ، فغرت لبنى هاشم أن لا يكون فى خلفائهم مثله وأخذت نفسى بما رأيت .

قال إبراهيم بن مخلد بن محمد بن عرفة عن بعض الهاشميين : إن المهتدى وجدوا له سَفَطا فيه جبة صوف وكساء وبرنس كان يلبسه فى الليل ويصلى فيه ويقول : أما تستحى بنو العباس أن لا يكون فيهم مثل عمر بن عبد العزيز ، وكان قد اطرح الملاهى وحرم الغناء والشراب ومنع أصحاب السلطان عن الظلم ؟ »[٥]

---

(١) الطبرى ج ١١ ص ١٧٣ (٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢ .
(٣) مروج الذهب ٢ ص ٤٣١ (٤) الفخرى ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .
(٥) ابن الأثير ج ٧ ص ٨٣ — ٨٤ .

المعتمد على الله

٢٥٦ — ٢٧٩ = ٨٧٠ — ٨٩٢ م

تكلمت على الخليفة المتوكل أول خلفاء العصر العباسى الثانى ، وذكرت أن ابنه المنتصر دبّر مؤامرة لقتله ، وأن الأتراك بايعوه بالخلافة من بعده ، وأنه أزال ما تركه أبوه من أثر سيء فى نفوس العلويين فأحسن إليهم . ولكنه لم يتمتعْ بالخلافة غير ستة أشهر ، وقُتل على أيدى الأتراك ، الذين استولوا منذُ قتل المتوكل على الدولة العباسية ، واستضعفوا الخلفاء ، حتى كان الخليفة فى يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه .

وقد جلس على سرير الخلافة بعد المنتصر أحمد بن محمد بن المعتصم ، ولُقب المستعين بالله ، فكانت أيامه كثيرة الفتن ودولته شديدة الاضطراب ، ولم يلبث أن عُزل وقتل على يد هؤلاء الأتراك ، الذين تغلغلوا فى أمور الدولة العباسية ، وتسلطوا على حياة الخلفاء وبايعوا المعتز . ولم تطل خلافته ، فقد قتله الأتراك وبايعوا المهتدى بن الواثق بالخلافة سنة ٢٥٥ هـ . وكان من أحسن الخلفاء سيرة وأظهرهم ورعاً وأكثرهم عبادة .

١ — ازدياد نفوذ الموفق :

وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على قتل الخليفة المهتدى فى شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ ، وبايعوا المعتمد بن المتوكل بالخلافة ، وكان إذ ذاك محبوساً بالجوسق . يقول صاحب الفخرى[1] : « وقد غلب أخوه الموفَّق ، حتى لم يبق له من الخلافة إلا اسمها » . وذلك أن صاحب الزَّنج أو دعىّ آل على ، لما ثار فى وجه الخلافة العباسية واستفحل أمره فى هجر وبلاد البحرين ، وقدم البصْرة ، أنفذ الخليفةُ المعتمدُ إلى مكة ، رسولا أحضر أخاه أبا أحمد طلحة (سنة ٢٥٧ هـ) — وكان الخليفة المهتدى قد نفاه إليها — وولى عهده ابنه جعفر ، وسماه المفوّض إلى الله ، وولى أخاه أبا أحمد طلحة من بعده وسماه الموفق ، وقسم الدولة العباسية بين ابنه وأخيه ، فخص الموفق بالبلاد الشرقية ، وولى المفوض البلاد الغربية ، وضم إليه موسى بن بغا ، وولاه إفريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وإرمينية وطريق خراسان وغيرها ، فحكمها باسمه . واتخذ موسى بن عبيد الله بن سليمان ابن وهب كاتباً له . وشرط الخليفة أن يختص كلٌّ من المفوض والموفق بعمله ، فلا ينظر أحدهما فى عمل الآخر ، وأن يقوم كلٌّ منهما بالنفقة على قسمه من خراج ذلك القسم . وأمر بكتاب البيعة فحُفظ فى الكعبة . على أن هذا العمل لم يرُض الموفق ، لما كان يضمره لأخيه من حسد ، وما كان يراه من عدم أهليته للخلافة ، وزاد فى حقده عليه تقديمه ابنه المفوض عليه فى الخلافة . يقول

(١) ص ٢٢٦ .

صاحب الفخرى[١] : « كان المعتمد مستضعفاً ، وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره . وكانت دولة المعتمد ، دولة عجيبة الوضع ، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة : للمعتمد الخطبة والسكة ، والتسمى بامرة المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقود العساكر ، ومحاربة الأعداء ، ومرابطة الثغور ، وترتيب الوزراء والأمراء . وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته » . ويقول السيوطى[٢] « وانهمك المعتمد فى اللهو واللذات واشتغل عن الرعية ، فكرهه الناس وأحبوا أخاه طلحة » .

أما موسى بن بغا فهو من أحسن الأمثلة ، التى تبين لنا مدى اتساع نفوذ الأتراك فى ذلك العصر . كان بغا الكبير أبو موسى من قواد الجيش العباسى أيام الخليفة المعتصم . وقد اشترك فى كثير من الحروب التى شبت للذود عن الخلافة ، وأبدى فيها شجاعة ممتازة ، رفعته فوق غيره من القواد ، حتى سمح له أن يتزوج من بيت الخلافة . وفى ذلك يقول الطبرى : « وموسى هذا هو ابن خالة المتوكل » . وقد بدأ موسى حياته فى الجندية ، ودرج فى الجيش حتى أصبح من أكبر قواده ، وقام بدور هام فى الثورات التى أقامها الأتراك فى وجه الخلفاء : فطوراً نراه يذب عن عرش الخلافة ، وطوراً يتآمر مع المتآمرين لشل هذا العرش ، كما نرى الخلفاء يندبونه لتهدئة الثائرين على الدولة . ولما ولى المعتمد الخلافة صانع الأتراك وخاصة قائدهم موسى بن بغا وبالغ فى إكرامه ، فأرسله فى سنة ٢٥٩ هـ لقتال صاحب الزنج ، وشيعه إلى خارج مدينة سامراً وخلع عليه . ولما ولى ابنه المفوض العهد ضم إليه موسى ، فغدا الساعد الأيمن لكل من المفوض والموفق ، يستعينان به على إخماد ثورة الزنج تارة ، وعلى كبح جماح الخارجين على الدولة تارة أخرى ، حتى وافته منيته سنة ٢٦٤ هـ .

٢ — أحمد بن طولون والموفق :

وقد وقع فى عهد الخليفة المعتمد أحداث هامة كان لها أثر كبير فى تاريخ الدولة العباسية : أهمها ثورة الزنج ، واختفاء الإمام الثانى عشر عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية ، وتأسيس طائفة الاسماعيلية التى تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق .

وقد أثارت ثورة الزنج الطاحنة عداء الموفق لابن طولون والى مصر . ولم يكن الموفق بعيد النظر ؛ فلو أنه استمال ابن طولون الذى لبى نداءه أول الأمر وأمده بما يعينه على حرب هذا الخارجى — على الرغم من أنه لم يكن تابعاً له — لاستطاع أن يوجه همه ويبذل كل جهوده فى محاربة صاحب الزنج والقضاء عليه وعلى أتباعه ، قبل أن يستفحل خطرهم ويتفاقم شرهم فى بلاد الدولة العباسية الشرقية التى كان يليها الموفق .

نعم ! لقد نفدت موارد الشرق أو كادت ، لما حل به من البلاء على أثر هذه الحروب المتصلة التى شنها الموفق على الزنج . هذا إلى ما كان من تثاقل الأهالى عن حمل الخراج وانصراف

(١) ص ٢٢٦ . (٢) كتاب تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ٢٤٢ .

الخليفة إلى ملاذه ، فأقبل على الصيد واللعب ومنادمة النساء ، فضاعت حرمة الخلافة واستبد العمال بالولايات .

ولم ير الموفق الذى ندبه الخليفة لمحاربة الزنج بدا من الالتجاء إلى أحمد بن طولون ، فأرسل اليه مع نحرير خادم الخليفة المتوكل كتاباً يشكو فيه سوء الحالة المالية فى بلاده ، وطلب اليه أن يمده بالمال الذى يساعده على الاستمرار فى محاربة صاحب الزنج . ولما علم الخليفة المعتمد بذلك أرسل إلى ابن طولون كتابا يأمره فيه بضرورة حمل مال مصر إلى دار الخلافة وكل ما جرى الرسم بحمله مع المال فى كل سنة من الرقيق والخيل والشمع والطراز(١) وغير ذلك ، كما أرسل إليه أيضا كتاباً سريا يقول فيه إن أبا أحمد الموفق إنما أرسل رسوله ليستقصى أخباره وليكون عينا عليه ، ويشير على ابن طولون بأن يأخذ الحيطة لنفسه ، لأن الموفق كاتب قواد مصر ليفسدهم عليه(٢) .

وقد بعث ابن طولون مع رسول الموفق مليوناً ومائتى ألف دينار ، وشيعه بنفسه حتى وصل إلى العريش . وبذلك خالف ابن طولون الخليفة وأرسل المال إلى الموفق ، لأنه كان يعلم حقيقة الحال فى البلاد الشرقية ، كما وقف على مدى الخطر الذى هدد سلامة الدولة العباسية من ناحية الزنج . على أن الموفق لم يحمد لابن طولون هذ الصنيع وعاود الكتابة إليه ، وألح فى الطلب وأظهر الجفاء فى كتاب طويل أرسله إليه ، ثم عمد إلى اختيار رجل يصرف به ابن طولون عن مصر ، فلم يظفر بأحد لما كان من استمالة ابن طولون القواد ورجال البلاط بالهدايا . وبذلك أثار الموفق حنق ابن طولون الذى كتب إليه يقول إن فى ولايته مائه ألف جندى قد يدفعه سلوكه معه إلى مناهضته ومناهضة سلطان الخليفة بقوة جنده التى دأب على إعلاء شأنها ليذود بها عن حياض الخلافة ودفع خطر العدو عنها والمحافظة عليها من الضعف الذى ألمّ بها(٣) .

ولما وصل هذا الكتاب إلى الموفق غاظه غيظاً شديداً ، فأوعز إلى موسى ابن بغا — وكان عون الدولة وأشد أهلها بأساً وإقداماً — بصرف ابن طولون عن مصر وتقليدها ماجور والى الشام . فكتب موسى إلى ما جور كتاب التقليد وأنفذه إليه . ولما وصل هذا الكتاب إليه توقف عن

---

(١) الطراز من شارات السلطان وهو كتابة اسم الخليفة مع كلمات أخرى يتفاءلون بها فى أثوابهم الخاصة . وقد سميت الدور التى يصنع بها الطراز «دور الطراز» كما كان القائم عليها يسمى «صاحب الطراز» — انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٢ — ٢٩٣ ؛ الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٧٩ و ٢١٢ و ٤٠٧ ؛ كتاب أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية للدكتور أدولف جروهمان ترجمة المؤلف ص٣ — ٤ ؛ Encyclopaedia of Islam, Tiraz, s. v. .

(٢) سيرة ابن طولون لابن الداية ص ١٩ — ٢٠ ؛ الخطط للمقريزى ج٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

(٣) راجع نص هذا الكتاب فى كتاب سيرة أحمد بن طولون لابن الداية ص ٢١ — ٢٤ .

إرساله إلى ابن طولون ، لما كان بينهما من النسب ، ولأنه آنس فى نفسه العجز عن مناهضته ، لأن ابن طولون قد أصبح فى قوة لا يستهان بها ، وقد خشى موسى بن بغا أن يزداد نفوذ ابن طولون لأن فى ولايته على مصر والشام تهديداً لسلطة الخليفة والأتراك معا . وسرعان ما سار إلى الرقة وأخذ يستعد لقتاله ؛ فأخذ ابن طولون فى تحصين مدينة الفسطاط ، فبنى حصنا منيعا بجزيرة الروضة بين الفسطاط والجيزة ، كما بنى أسطولا يتألف من مائة مركب حربى سوى كثير من المراكب الأخرى والزوارق والقوارب(١). وأقام موسى بن بغا بالرقة عشرة أشهر يتحين الفرص لقتال ابن طولون ، لكن أحواله اضطربت لتألب الجند عليه ومطالبتهم بدفع أرزاقهم ، فعاد إلى بغداد حيث عرضت له علته ، فحمل إلى سامرا وأقام بها شهرين ومات فى شهر صفر من سنة ٢٦٤ هـ (٢) .

على أن الحروب الأهلية لم تقم بعد بين والى مصر والخلافة ، أو بعبارة أخرى بين ابن طولون والموفق أخى الخليفة العباسى وصاحب الأمر والنهى . فقد ضاق الموفق ذرعا بابن طولون ، ولم يستطع الكيد له والنيل منه بعزله عن مصر ، فعمد الى عزله عن ولاية الثغور الشآمية ، فأجابه الخليفة إلى ما أراد وهو مكره ، لأنه كان يميل إلى ابن طولون . بيد أن أحوال هذه البلاد ما لبثت أن اضطربت ، فأمر الخليفة بردها إلى ابن طولون ؛ فاستقرت أحوالها ، وغزا بلادالروم ، وأصبحت ولاية الثغور شجا فى حلق الدولة البيزنطية . وسرعان ما وردت الأخبار بوفاة ماجور وإلى الشام ، فوجد ابن طولون الفرصة سانحة للاستيلاء عليها ، لاشتغال الموفق بحرب الزنج ، ووقوع بلاد الشام بين مصر وولاية الثغور . واستخلف ابن طولون على مصر ابنه العباس وسار بجيشه نحو بلاد الشام ، فدانت له أمهات مدنها ودعى له على منابرها (سنة ٢٦٤ — ٢٦٥ هـ) وجعل الرقة مقر ولايته الجديدة . ولكن ابن طولون اضطر إلى العودة إلى مصر لإخماد ثورة ابنه العباس ، فانتهز لؤلؤ والى الرقة هذه الفرصة ، فاستولى على الخراج لنفسه وانضم إلى الموفق هو ومن معه من الجند . ولما بلغ ابن طولون خروج لؤلؤ عليه خرج ثانية إلى الشام (جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ) واستخلف على مصر ابنه خمارويه . وبينما هو فى طريقه إلى الشام إذ بلغه خروج أهل طَرَسوس وعزلهم واليه عليهم ، فعول على السير إليها . ولما وصل إلى دمشق جاءه كتاب الخليفة المعتمد ينبئه فيه بمسيره إليه والاحتماء به .

ويقول ستانلى لينپول(٣): لا شك أن ابن طولون رحب بفكرة إيواء الخليفة لأن هذا يعود عليه بالنفع من عدة وجوه :

---

(١) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ١٨٠ .

(٢) كتاب الولاة للكندى ص ٢١٧ — ٢١٨ .

(٣) Stanley Lane-Poole: History of Egypt in the Middle Ages, p. 68.

أولا — لأنه يعفيه من الجزية السنوية التى كان يدفعها لدار الخلافة .

ثانياً — لأنه يقلل من نفوذ أبى أحمد الموفق طلحة أخى الخليفة العباسى .

ثالثاً — لأن وجود الخليفة تحت حمايته فى مصر يزيد فى نفوذ كل وال طموح ، وربما غير هذا مستقبل الخلافة ، ومستقبل مصر إلى حد كبير .

وقد انتهز الخليفة فرصة اشتغال الموفق بحرب صاحب الزنج ، وخرج من سامرا متظاهراً بالصيد (جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ) ، وأرسل ابن طولون قائدين من قواده لانتظار الخليفة بالرقة . « وأراد الخليفة أن يمر على إسحق بن كُنداج عامل الموصل والجزيرة . وكان الموفق قد أرسل إليه صالح بن مَخْلد يأمره برد الخليفة والقبض على من معه من القواد ويمنيه بأطيب الأمانى . ولما وصل المعتمد إلى الحديثة لقيه ابن كنداج وتظاهر بموالاته له (١) وقال له : يا أمير المؤمنين ! أخوك فى وجه العدو ، وأنت تخرج عن مستقرك ودار ملكك ؟ ومتى صح هذا عنده رجع عن مقاومة الخارجى ، فيغلب عدوك على ديار آبائك . . . ثم وكل بالمعتمد جماعة ورسم على طائفة من خواصه ، ثم بعث إلى المعتمد يقول : ما هذا بمُقام فارجع . فقال المعتمد : فاحلف لى أنك تنحدر معى ولا تسلمنى ، فحلف له وانحدر إلى سامرا ، فتلقاه صاعد بن مخلد كاتب الموفق فسلمه اسحق إليه ، فانزله فى دار أحمد بن الخصيب ومنعه من نزول دار الخلافة ، ووكل به خمسمائة رجل يمنعون الناس من الدخول إليه . ولما بلغ الموفق ذلك بعث إلى إسحق بخلع وأموال ، وأقطعه ضياع القواد الذين كانوا مع المعتمد ، ولقّبه ذا السندين ، ولقب صاعدا ذا الوزارتين . فاقام صاعد فى خدمة المعتمد . ولكن ليس للمعتمد حل ولا ربط » . ولا غرو فقد شل الموفق يده عن مباشرة أمور الدولة حتى أصبح مسلوب السلطة . وقد قيل إنه احتاج يوما إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها فقال :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قلّ ممتنعـــا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شىء فى يديه
إليه تحمل الأموال طرًّا ويمنع بعض ما يجبى إليه؟(٢)

ومن شعر المعتمد لما حجر عليه :

أصبحت لا أملك دفْعا لما أسام من خَسْف ومن ذلة

---

(١) راجع سيرة ابن طولون لابن الداية ص ٦٨ — ٦٩ ؛ والطبرى جـ ١١ ص ٣٠٠ ؛ والكندى كتاب الولاة ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ؛ والمقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢١٩ .

(٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٥٨ ، ١٨١ ، السيوطى ص ٢٤٣ .

تَمْضى أمور الناس دونى ولا يشعرنى فى ذكرها قلتى
إذا اشتهيت الشىء ولوا به عنى وقالوا ههنا عِلتى (١)

انتهز ابن طولون التجاء الخليفة إليه وحَصر الموفق له مع أنه صاحب الحق الشرعى ، وجعل ذلك سببا لاقامة الحجة على الموفق بانه نكث عهد البيعة وخرج على حرمة الخلافة . وسرعان ما أرسل ابن طولون إلى أهل مصر كتابا قرىء عليهم وفيه : « أن أبا أحمد نكث بيعة المعتمد وأسره وحرّش عليه . . . وأن المعتمد قد صار من ذلك إلى ما لا يجوز ذكره ، وأنه يبكى بكاء شديدا . وخطب الخطيب بمصر يوم الجمعة ، فذكر ما آل إليه أمر المعتمد وقال : اللهم فاكفه منْ حَصره ومن ظلمه (٢) .

على أن عداء ابن طولون للموفق لم يقف عند هذا الحد . فقد عقد مجلسا فى دمشق حضره القضاة والفقهاء والأشراف من أهل الشام والثغور ومصر . وفى هذا الاجتماع شهد المجتمعون على كتاب فيه خلع الموفق من ولاية العهد لخلافه على الخليفة المعتمد وحَصره إياه . وقد جاء فيه « أن أبا أحمد خلع الطاعة وبَرِىء من الذمة ، فوجب جهاده على الأمة » ، وشهد على ذلك جميع من حضر إلا ثلاثة من رجالات مصر منهم القاضى بكار بن قتيبة ، وكان من أبرز قضاة المسلمين وأعلمهم بالفقه الاسلامى . وقد أبى إقرار الخلع (١٢ من ذى القعدة سنة ٢٦٩ هـ) . وقد رد فى كتاب القضاة للكندى(٣) أن بكارا وافق على خلع الموفق وسماه الناكث ، ولكنه لم يوافق على لعنه. ويقول السيوطى(٤) : ولما بلغ ابن طولون ذلك جمع الفقهاء والقضاة والأعيان وقال : قد نكث الموفق بأمير المؤمنين ، فاخلعوه من العهد ، فخلعوه إلا القاضى بكار بن قتيبة فانه قال: أنت أوردتَ علىّ من المعتمد كتابا بولايته العهد ، فأورد علىّ كتابا آخر منه بخلعه ، فقال إنه محجور عليه ومقهور (يعنى الخليفة) ، فقال : لا أدرى ، فقال ابن طولون : غرَّك الناس بقولهم ما فى الدنيا مثل بكار . أنت شيخٌ قد خَرفت ، وحبسه وقيده وأخذ منه جميع عطاياه . « وكان قبل ذلك مُكْرِما معظما له عارفا بحقه . وكان يجيزه فى كل سنة بألف دينار ، فلما غضب عليه أرسل اليه أين جوائزى ؟ فقال : على حالها ، فأحضرها من منزله بخواتيمها ستة عشر كيساً ، فقبضها أحمد بن طولون »(٥) .

وصفوة القول أن الخليفة المعتمد كان على حد قول السيوطى(٦) : « هو أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به » .

ولما بلغت وفاة ابن طولون سنة ٢٧٠ هـ الخليفة المعتمد حزن عليه وقال يَرثيه :

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٥ .
(٢) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٢٦ .
(٣) ص ٥١٢ .
(٤) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .
(٥) الكندى : كتاب القضاة ص ٥٠٩ — ٥١٤ .
(٦) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٣ .

إلى الله أشكو أسى عرانى كوقع الأسل
على رجل أروع يرى فيه فضل الرجل
شهابٌ خبا وَقده وعارض غيثٍ أفلْ
شكتْ دولتى فقده وقد كان زين الدول

ولم يزل العداء مستحكما بين الموفق والطولونيين فى مصر بعد وفاة أحمد بن طولون ، فقد واصل خمارويه بن أحمد بن طولون لعن الموفق على المنابر ، وبعث الواسطى كاتب أبيه إلى الشام بجيش كثيف ، وعزّزه من البحر بأسطول قوى . وخرج الموفق من بغداد ، وانضم إليه ابن كنداج والى الموصل ، ومحمد بن أبى الساج والى إرمينية والجبال ، واستولوا على دمشق . فلم ير خمارويه بدا من الخروج بنفسه ، فدخل دمشق سنة ٢٧٣ هـ ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداج فى أعماله ، وتم الصلح بين والى مصر ودار الخلافة ، وكتب الموفق والخليفة المعتمد وابنه المفوض كتاب الصلح بأيديهم ، ويتضمن تولية خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة . هنا أمر خمارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر وبالدعاء له مع الخليفة .

٣ — وفاة المعتمد والموفق :

كانت أيام المعتمد أيام محن وخطوب . فقد ذكر ابن الأثير(١) أن الحرب اشتعلت فى أوائل سنة ٢٧٨ هـ بين أصحاب وصيف الخادم والبربر وغيرهم ، وأنه قتل من الفريقين جماعة كبيرة . وفى هذه السنة توفى أبو أحمد الموفق بعد أن أعياه النقرس الذى ألمّ به وهو فى بلاد الجبل ، حتى إنه لم يقدر على الركوب ، فعمل له سرير عليه قبة . فكان يقعد عليه وخادم له يبرد رجله بالأشياء الباردة حتى إنه يضع عليها الثلج ، ثم صارت علة رجله داء الفيل(٢) . . وكان يحمل سريره أربعون رجلا بالنوبة ، فقال لهم يوما : قد ضجرتم من حملى . بودى أن أكون كواحد منكم أحمِلُ على رأسى وآكل وأنا فى عافية . وقال فى مرضه : أطْبِق ديوانى على مائة ألف مرتزق ما أصبح فيهم أسوأ حالا منى » .

وصل الموفق إلى داره فى الثانى من شهر صفر سنة ٢٧٨ هـ ومات ، فحمل أنصاره الخليفة المعتمد وأولاده من المدائن ، ومات الموفق فى ٢٣ من صفر من هذه السنة ، ودفن بالرصافة بعد أن قبض على أزمة الأمور فى الدولة العباسية وغلب على أخيه المعتمد حتى لم يبق له من الخلافة إلا اسمها . وكان الموفق — مع ذلك — « عادلا حسن السيرة يجلس للمظالم وعنده القضاة وغيرهم ، فينتصف

(١) جـ ٧ ص ١٥٨ .
(٢) هو ورم فى الساق يسيل منه ماء .

الناسَ بعضهم من بعض » . وقد وصفه ابن الأثير(١) فى هذه الكلمات فقال : « وكان عالما بالأدب والنسب والفقه وسياسة الملك وغير ذلك . قال يوما إن جدى عبدالله بن العباس قال : إن الذباب ليقع على جليسى فيؤذينى ذلك — وهذا نهاية الكرم — وأنا والله أرى جلسائى بالعين التى أرى بها إخوانى . والله لو تهيأ لى أن أغير أسماءهم لنقلتها من الجلساء إلى الأصدقاء والإخوان » . وكان الموفق يميل إلى الأبهة والترف . ذكر صاحب الفخرى (٢) بصدد كلامه على الحسن بن مخلد الذى اجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق فقال :

« وكان الحسن أحد كتاب الدنيا . قالوا كان له دفتر صغير يعمله بيده فيه أصول أموال الممالك ومحمولاتها بتواريخها ، فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحقق ما فيه ، لو سئل فى الغد عن أى شىء كان منه ، أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور . قال الحسن بن مخلد : كنت واقفا بين يدى الموفق بن المتوكل فرأيته يلمس ثوبه بيده وقال لى : ياحسن أعجبنى هذا الثوب ، كم عندنا فى الخزائن منه ؟ فأخرجت فى الحال من خفى دستورا فيه جمل ما فى الخزائن من الأمتعة والثياب مفصلة ، فوجدت فيها من جنس ذلك الثوب ستة آلاف ثوب ، فقال لى ياحسن نحن عراة . اكتب إلى البلاد فى استعمال ثلاثين ألف ثوب من جنسه وحملها فى أسرع مدة » .

جلس أبو العباس بن الموفق للعزاء . واجتمع القواد وبايعوه بولاية العهد بعد المفوض إلى الله ابن المعتمد ولقبوه المعتضد بالله ، وتحولت إليه سلطة أبيه . فضعف أمر الخليفة المعتمد ، فأشهد على نفسه أنه خلع ابنه المفوض من ولاية العهد وبايع لأبى العباس المعتضد . ومات المعتمد بعد أشهر فجأة حتى تواترت الإشاعات بأنه سم . وقد بقى فى الخلافة ثلاثا وعشرين سنة ، كانت عهد فتن واضطرابات ، على الرغم من ازدهار عصره بطائفة العلماء الأعلام كالبخارى ومسلم وأبى داود والترمذى وابن ماجه ومحمد بن عبد الحكم المؤرخ المصرى المشهور والقاضى بكار .

وعلى الرغم من سوء حال المعتمد واستئثار أخيه الموفق بالسلطة دونه واستبداد ابن أخيه العباس بن الموفق بالأمور وطاعة الجيش له ، مدحه بعض الشعراء ، فقال عبد الله بن المعتز :

ياخيرَ من تزجى(٣) المَطِىُّ له ... ويمرُ حبلَ العهد مُوثِقُهُ

أضحى عنانُ الملك مقتسرا(٤) ... بيديكَ تحبسه وتطلقه

فاحكم : لك الدنيا وساكنها ... ما طاشَ سهمٌ أنتَ مُوفِقه(٥)

---

(١) جـ ٧ ص ١٥٩ .
(٢) ص ٢٢٨
(٣) زجاه ساقه ودفعه .
(٤) قسره على الأمر واقتسره قهره .
(٥) السيوطى : كتاب الخلفاء ص ٢٤٥ .

المعتضـــــــد بالله

٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠٢ م

لما مات الموفق فى شهر صفر من سنة ٢٧٨ هـ ، اجتمع القواد وبايعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوض بن المعتمد ، ولقبوه المعتضد بالله ، وخطب له يوم الجمعة بعد المفوض [١] . ثم مات المعتمد فجأة بعد أن بايع لأبى العباس بن الموفق .

وقد أحسن الخليفة المعتضد الى آل على وأخذ يشيد بفضله ويذم الأمويين . على أن بعض خاصته نصح له بأن يعدل عن هذه السياسة حتى لا يمهد السبيل الى رعاياه بالالتفاف حول العلويين ، فتضيع هيبة العباسيين ويخرج الأمر من أيديهم . وفى ذلك يقول السيوطى [٢] : « عزم المعتضد على لعن معاوية على المنابر ، فخوفه عبيد الله الوزير اضطراب العامة ، فلم يلتفت وكتب كتابا فى ذلك ذكر فيه كثيراً من مناقب على ومثالب معاوية ، فقال له القاضى يوسف : يا أمير المؤمنين ! أخاف الفتنة عند سماعه فقال : ان تحركت العامة وضعت السيف فيها قال : فما تصنع بالعلويين الذين هم فى كل ناحية خرجوا عليك ؟ واذا سمع هذا من فضائل أهل البيت كانوا اليهم أميل ، فأمسك المعتضد عن ذلك » .

كذلك اكتسب المعتضد محبة الناس عند ما أصدر أوامره بابطال ديوان المواريث ، وبان يورث ذوو الأرحام . كما منع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها ، ومنع القصاص والمنجمين من الجلوس فى الطريق ، وصلى بالناس صلاة الأضحى ، فكبر فى الركعة الأولى ستا وفى الثانية واحدة ، ولم تسمع منه الخطبة [٣] .

وقد أقر المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب فى الوزارة . وفى عهده خرج عمرو بن الليث الصفّار أحد زعماء الصفارية واستولى على كثير من بلاد الفرس ، كما ظهر فى عهده القرامطة فى الكوفة على يد حمدان قرمط ، وفى البحرين على يد أبى سعيد الجنابى ، كما ظهر أيضاً ابن حوشب فى بلاد اليمن حيث نشر الدعوة للمهدى ، وأبو عبد الله الشيعى الذى نشر الدعوة الفاطمية فى بلاد المغرب ، وحارب كثيراً من زعماء البربر ومهد للقضاء على دولة الأغالبة فيما بعد . كذلك ظهر فى عهد المعتضد نصر ابن أحمد السامانى مؤسس الدولة السامانية فى بلاد ما وراء النهر على ما سيأتى الكلام على ذلك فى الباب الرابع .

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٥٩ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٧ .
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج (سنة ٢٧٨ هـ) والخليفة المعتمد (سنة ٢٧٩ هـ) على توثيق العلاقات بين خمارويه بن أحمد بن طولون والخليفة العباسى . ولا غرو فقد استطاع خمارويه أن يكسب رضا المعتضد بهداياه ، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة ، وجعلها لأولاده من بعده . ويذكر أبو المحاسن[١] « أن رسول الخليفة قدم على خمارويه يحمل إليه اثنى عشرة خلعة ، وسيفا وتاجا ووشاحا » . وكان من أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التى تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة العباسى ، ولكنه اختارها لنفسه .

صفات المعتضد :

كان المعتضد وافر العقل شديد الوطأة قليل الرحمة ، إذا غضب على قائد أمر بالقائه فى حفرة وردم عليه . « وكان شهما جلدا موصوفا بالرجلة ، قد لقى الحروب وعرف فضله ، فقام بالأمر أحسن قيام ، وهابه الناس ورهبوه أعظم رهبة ، وسكنت الفتن فى أيامه لفرط علته . وكانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاء ، وكان قد أسقط المكوس ونشر العدل ورفع الظلم عن الرعية ، كما كان يسمى السفاح الثانى لأنه جدد ملك بنى عباس . وفى ذلك يقول ابن الرومى يمدحه[٢] :

هنيئا بنى العباس إن إمامكم ... إمام الهدى والبأس والجود أحمد
كما بأبى العباس أنشئى ملككم ... كذا بأبى العباس أيضا يجدّد
إمام يظل الأمس يعمل نحوه ... تلهّف ملهوف ويشتاقه الغد

ويقول ابن المعتز :

أما ترى ملك بنى هاشم ... عاد عزيزا بعد ما ذلا؟
يا طالباً للملك كن مثله ... تستوجب الملك وإلا فلا

ويقول يحيى بن المنجم :

يا محيى الشرف اللباب ... ومجدد الملك الخراب
ومعيد ركن الدين فيـ ... ـنا ثابتا بعد اضطراب
فت الملوك مبرزا ... فوت المبرز فى الحلاب
أسعد بنيروز جمعـ ... ـت الشكر فيه إلى الثواب
قدمت فى تأخير ما ... قدقدموه إلى الصواب[٣]

وقد وصفه ابن الأثير [٤] فى هذه العبارة : « كان المعتضد أسمر نحيف الجسم معتدل الخلق .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٧٨ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٦ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٨٨ .
(٤) ج ٧ ص ١٨٣ .

وكان شهماً شجاعا مقداماً . وكان ذا عزم ، وكان فيه شح ، بلغه خبر وصيف خادم ابن أبى الساج وعليه قباء أصفر ، فسار من ساعته وظفر بوصيف وعاد فدخل أنطاكية وعليه القباء ، فقال بعض أهلها : الخليفة بغير سواد ، فقال بعض أصحابه إنه سار فيه ولم ينزعه عنه إلى الآن . وكان عفيفاً ، وكان مهيبا عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفا منه » .

وقد نبغ فى عهد المعتضد كثير من الكتاب والمفكرين والشعراء ، نخص بالذكر منهم ابن أبى الدنيا (+ ٢٨١ هـ = ٨٩٤ م) مثقف الخليفة المكتفى فى حداثته ، والبحترى (+ ٢٨٤ هـ = ٨٩٧ م) والمبرد اللغوى المشهور (+ ٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م) وابن قتيبة (+ ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) والبلاذرى (+ ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) وأبا حنيفة الدينورى (+ ٢٧٦ هـ = ٨٩٥ م) وابن واضح اليعقوبى الذى كتب فى هذا الوقت ، وكانوا من أكابر مؤرخى هذا العصر . كما نبغ أيضاً . ثابت بن قرة الحرانى الرياضى المشهور ، وابن الفقيه الهمذانى الجغرافى ، وكلاهما مات حول سنة ٢٨٧ هـ . ومن أفذاذ شعراء هذا العصر ابن المعتز وابن الرومى . وكان المعتضد نفسه شاعراً يجيد الشعر ، ماتت جارية له تسمى دُرَيْرة ، فوجد عليها وجداً شديداً وقال يرثيها :

يا حبيبا لم يكن يعـــد له عنـــدى حبيبُ
أنت عن عينى بعيد ومن القلب قريب
ليس لى بعدك فى شـــىء من اللهو نصيب
لك من قلبى على قلـــبى وإن بِنتَ رقيب
وخيالى منك مذ غبـــت خيـــال لا يغيب
لو ترانى كيف لى بعـــدك عـــول ونحيب ؟
وفؤادى حشوه من حرّق الحزن لهيب
ليتـــــقنّت بأنى فيك محزون كئيب
ما أرى نفسى وإن سلـــيتها عنـــك تطيب
لى دمع ليس يعصيـــنى وصبرٌ ما يخيب[1]

ومن شعر المعتضد فى الغزل :

أشكو إليك الذى لقيت من الـــوجدِ فهل لى إليك من فرج ؟
حللت بالطرْف والجمال[2] من النـــاس محل العيون والمهج

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٨
(٢) لعلها الجنان بمعنى القلوب

وروى الصولى له :

لم يلق من حر الفراق أحدٌ كما أنا منه لاقْ
يا سائلى عن بعضه ألفيته مرّ المذاق
جسمى يذوب ومقلتى عبرى وقلبى ذو احتراق
مالى أليفٌ بعدكم إلا اكتئابى واشتياق

وفاة المعتضد :

توفى المعتضد فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ . ولما حضرته الوفاة أنشد هذه الأبيات(١) :

تمتع من الدنيا فانك لا تبقى وخذ صفوها ما إن صفت ورع الرنقا(٢)
ولا تأمنن الدهر إنى أمنته فلم يبق لى خلا ولم يرع لى حقا
قتلت صناديد الرجال فلم أدعْ عدواً ولم أهمل على ضفيه خلقا
وأخليت دار الملك من كل نازع فشردتهم غرْبا ومزقتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزاً ورفعة وصارت رقاب الخلق أجمع لى رقا
رمانى الردى سهما فأخمد جمرتى فها أنا ذا فى حفرتى عاجلا ألقى
فيا ليت شعرى بعد موتى ما أرى إلى نعم الرحمن أم ناره ألقى ؟

ورثاه ابن المعتز بهذه الأبيات :

يا دهر ويحك ما أبقيت لى أحدا وأنت والد سُوء تأكلُ الولدا
أستغفر الله بل ذا كلُّه قدر رضيت بالله ربا واحداً صمدا
يا ساكن القبر فى غبراء مظلمة بالظاهرية مُقصى الدار منفردا
أين الجيوش التى قد كنت تنجبها ؟ أين الكنوز التى أحصيتها عددا ؟
أين السرير الذى قد كنت تملؤه ؟ مهابةً ، من رأته عينه ارتعدا
أين الأعادى الأولى ذللت مصعبهم ؟ أين الليوث التى صيرتها بددا ؟
أين الجياد التى حجلتها (٣) بدم ؟ وكن يحملن منك الضيغم الأسدا
أين الرماح التى غذيتها مهجا ؟ مذ مت ما وردت قلبا ولا كبدا

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٨٣
(٢) رنق الماء رنقا كدر أى تعكر
(٣) الحجل بكسر الحاء وفتحها ، ويسمى القيد حجلا على الاستعارة ، والمعنى المراد هنا قيدتها بالدماء .

أين الجنان التى تجرى جداولها ... وتستجيب اليها الطائر الغردا ؟
أين الوصائفُ كالغزلان راتعةً ... يسحبن من حُلل موشية جددا
أين الملاهى وأين الراح تحسبها ... يا قوته كسيت من فضة زردا ؟
أين الوثوب إلى الأعداء مبتغيا ... صلاح ملك بنى العباس إذ فسدا ؟
ما زلت تقسِرُ (١) منهم كل قسورة ... وتحطِم العالى الجبار معتمدا
ثم انقضيت فلا عـــين ولا أثر ... حتى كأنك يوما لم تكن أحدا (٢)

المكتفى

٢٨٩ — ٢٩٥ هـ = ٩٠٢ — ٩٠٨ م

لما مات المعتضد ولى الخلافة بعده ابنه أبو محمد على وتلقب المكتفى بالله . وأمه أم ولد تركية اسمها جيچك ، وكان يضرب المثل بحسنها . وكان عند موت أبيه بالرقة ، فقام بأخذ البيعة له أبو الحسن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب . وقد عاد الخليفة الجديد إلى بغداد ونزل بدار الخلافة ، وأقر أبا القاسم بن وهب فى الوزارة ، وسرعان ما أدركت هذا الوزير الوفاة ، فاستوزر المكتفى العباس ابن الحسن .

وقد عمل الوزير أبو القاسم بن وهب الذى أخذ البيعة للمكتفى على التخلص من بدر « صاحب جيش المعتضد والمستولى على أمره والمطاع فى خدمه و غلمانه » . وقد عزا الطبرى ذلك إلى أن هذا الوزير كان قد حاول تحويل الخلافة عن بيت المعتضد فى حياته ، ولكن بدرا غلام المعتضد لم يوافقه على ذلك ، فانتهز هذا الوزير فرصة تغيب بدر فى فارس ودبر مؤامرة انتهت باغتياله (٣)، لأنه خاف أن يفشى سر مؤامرته ضد أبناء المعتضد واتخذ من تغير المكتفى على بدر منذ عهد أبيه المعتضد وسيلة لإيغار صدره عليه ، وصور بدرا بصورة الثائر .

ويقول ابن الأثير (٤) : « وكان المكتفى أيضا مباعدا لبدر فى حياة أبيه ، وعمل القاسم فى هلاك بدر خوفا على نفسه أن يذكر ما كان منه للمكتفى ، فوجه المكتفى محمد بن كشتمر برسائل إلى القواد الذين مع بدر يأمرهم بالمسير اليه ومفارقة بدر ، ففارقه جماعة ، منهم العباس بن عمرو الغنوى ومحمد بن إسحق بن كنداج وخاقان المفلحى وغيرهم ، فأحسن اليهم المكتفى ، وسار بدر إلى واسط ،

(١) قسره على الأمر قهره . والقسورة العزيز والأسود .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .
(٣) الطبرى ج ١١ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .
(٤) ج ٧ ص ١٨٤ — ١٨٥

فوكل المكتفى بداره وقبض على أصحابه وقواده وحبسهم ، وأمر بمحو اسم بدر من التراس والأعلام ، وسير الحسين بن على كورة فى جيش إلى واسط ، وأرسل إلى بدر يعرض عليه أى النواحى شاء ، فأبى ذلك وقال : لابد لى من المسير إلى باب مولاى ، فوجد القاسم مساغا للقول ، وخوف المكتفى غائلته . وبلغ بدرا ما فعل بأهله وأصحابه ، وأرسل من يأتيه بولده هلال سرا ، فعلم الوزير بذلك فاحتاط عليه ، ودعا أبا حازم قاضى الشرقية وأمره بالمسير إلى بدر وتطييب نفسه عن المكتفى وإعطائه الأمان عنه لنفسه وولده وماله ، فقال أبو حازم : أحتاج إلى سماع ذلك من أمير المؤمنين ، فصرفه ودعا أبا عمر القاضى وأمره بمثل ذلك ، فأجابه ، وسار ومعه كتاب الأمان ، فسار بدر عن واسط نحو بغداد . فأرسل اليه الوزير من قتله . فلما أيقن بالقتل سأل أن يمهل حتى يصلى ركعتين ، فصلاهما ثم ضربت عنقه يوم الجمعة لست خلون من شهر رمضان ، ثم أخذ رأسه وتركت جثته هنالك ، فوجه عياله من أخذها سراً وجعلوها فى تابوت . فلما كان وقت الحج حملوها إلى مكة فدفنوها بها ، وكان أوصى بذلك ، وأعتق قبل أن يقتل كل مملوك كان له . ورجع أبو عمر إلى داره كئيبا حزينا لما كان منه ، وقال الناس فيه أشعاراً وتكلموا فيه . فمما قيل فيه :

قل لقاضى مدينـــة المنصور ... لم أحللت أخذ رأس الأمير
عند إعطائه المواثيق والعهـــد وعقد الأيمان فى منشور ؟
أين أيمانك التى شهد اللـــه على أنهـــا يمين فجور ؟
إن كفيك لا تفارق كفيـــه إلى أن ترى عليل السرير
يابنى يوسف بن يعقوب أضحى ... هل بغداد منكم فى غرور
بدد الله شملكم وأرانى ... أذلكم فى حياة هـــذا الوزير
فأعدوا الجواب للحكم العد ... ل ومن بعد منكر ونكير
أنتم كلكم فدى لأبى حا ... زم المستقيم كل الأمور ،

وفى عهد المكتفى كان الساما نيون أصحاب النفوذ المطلق فى فارس ، كما تفاقم شر القرامطة حول بغداد والبصرة وفى سورية واليمن بزعامة زكرويه ، وألقوا الرعب والفزع فى قلوب الأهلين . وقد ذكر المؤرخون أنهم هاجموا قوافل الحاج فى عودتهم من مكة وقتلوا منهم عشرين ألف .

وقد خرج القرامطة الشماليون الذين ثاروا فى العراق العربى وبادية السماوة وبلاد الشام بزعامة يحيى بن زكرويه ، فقتل فى سنة ٢٩٠ هـ ، ثم خرج أخوه الحسين . كما زالت الدولة الطولونية على يد محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة المكتفى ، وذلك سنة ٢٩٢ هـ ، وأزال نفوذ قرامطة الشمال بقتله يحيى بن زكرويه سنة ٢٩٤ هـ .

كان المكتفى حسن السيرة محبوبا عند الرعية « وسار سيرة جميلة فأحبه الناس ودعوا له » ، ولكنه كان مبذراً كثير البذل . روى السيوطى[1] عن الصولى قال : « سمعت المكتفى يقول فى

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٥١ .

علته : والله ما آسى إلا على سبعمائة ألف دينار صرفتها من مال المسلمين فى أبنية ما احتجت إليها ، وكنت مستغنيا عنها أخاف أن أسأل عنها ، وإنى أستغفر الله منها » ، كما كان يعنى ببناء المساجد ورد الحقوق إلى أهلها . ويقول السيوطى[1] إنه « هدم المطامير التى اتخذها أبوه المعتضد وسيرها مساجد ، وأمر برد البساتين والحوانيت التى أخذها أبوه من الناس ليعملها قصراً إلى أهلها . » ومن مآثر المكتفى المسجد الجامع بالرحبة والتاج بالدار الشاطئية ببغداد .

وقال ابن أبى دينار وكان أحد أساتذة المكتفى[2] : « لما أفضت الخلافة إلى المكتفى كتبت له بيتين :

إن حق التأديب حق الأبوه عند أهل الحجا وأهل المروه
وأحق الرجال أن يحفظوا إذا كبروا يرعو أهل بيت النبوه

فحمل إلىّ عشرة آلاف درهم » .

واشتهر فى أيام المكتفى من العلماء عبد الله بن أحمد بن حنبل ، وثعلب إمام العربية ، والبزاز صاحب المسند ، ومحمد بن نصر المروزى الإمام ، وأبو جعفر الترمذى شيخ الشافعيه فى العراق .

ولم يعمر المكتفى فى الخلافة ، فمات فى ريعان الشباب فى ١١ من ذى الحجة سنة ٢٩٥ هـ ، فخلفه أخوه المقتدر .

المقتـــدر

٢٩٥ — ٣٢٠ هـ = ٩٠٨ — ٩٣٢ م

خلف المكتفى أخوه أبو الفضل جعفر بن المعتضد وهو فى الثالثة عشرة من عمره وتلقب المقتدر . وكان هذا الخليفة الجديد كالريشة فى مهب الريح ، فقد قلده العباس بن الحسن وزير المكتفى ليكون أسلس قياداً من ابن المعتز ، وانتصح بنصيحة ابن الفرات الذى أشار عليه بتولية المقتدر وقال له : اتق الله ولا تنصب فى هذا الأمر من قد عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا وجارية هذا وضيعة هذا وفرس هذا ، ومن لقى الناس ولقوه وعرف الأمور وتحنك وحسب حساب نعم الناس . قال (ابن الفرات) : فاستعاد ذلك منى الوزير دفعات ثم قال : فبمن تشير ؟ فقلت : بجعفر ابن المعتضد فقال : ويحك ! جعفر صبى ، قلت : إلا أنه ابن المعتضد . ولم تجىء برجل يأمر وينهى ويعرف ما لنا وبمن يباشر التدبير بنفسه ويرى أنه مستقل ؟ ولم لا تسلم هذا الأمر إلى من يدعك تدبره أنت ؟[3] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥١ .

(٣) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٣ .

ولكن الوزير العباس بن الحسن لم يلبث أن عمل على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز الخلافة . ولما بلغ ذلك المقتدر أعطى ابن المعتز بعض المال ، فعدل عن رغبته فى الخلافة . غير أن هذا لم يمنع أنصاره من تحقيق سياستهم ، فلم ير المقتدر بدا من الهرب فى ٢٠ من ربيع الأول سنة ٢٩٦ هـ ، فحضر القواد والقضاة والأعيان وبايعوا عبد الله بن المعتز بالخلافة ولقبوه « المرتضى بالله (١) ، فاستوزر محمد بن داود بن الجراح ، وقلد على بن عيسى الدواوين ، وولى أبا المثنى أحمد بن يعقوب القضاء .

روى السيوطى (٢) أن محمد بن جرير الطبرى لما علم بخلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز قال : «ما الخبر ؟ قيل : بويع ابن المعتز . قال : فمن رشح للوزارة ؟ قيل : محمد بن داود . قال : فمن ذكر للقضاء ؟ قيل أبو المثنى ، فأطرق ثم قال : هذا الأمر لا يتم . قيل له : وكيف ؟ . قال : كل واحد ممن سميتهم متقدم فى معناه عالى الرتبة ، والزمان مدبر والدنيا محولية ، وماأرى هذا إلا الى اضمحلال وما أرى لمدته طولا» .

ولما تم الأمر لابن المعتز ، أرسل إلى المقتدر يأمره بالانصراف الى دار محمد بن طاهر حتى يتيسر له الانتقال الى دار الخلافة ، فعول أتباع المقتدر ، وعلى رأسهم مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال والحاشية على محاربة ابن المعتز ، واتجهوا الى المخرّم حيث كان يقيم ابن المعتز ، فهرب مع وزيره محمد بن داود وقاضيه احمد بن داود وحاجبه يمن . وسادت الفوضى بغداد ، ووقع النهب والقتل ، وحبس المقتدر عبد الله بن المعتز فظل فى حبسه الى أن مات ، وقبض على الفقهاء والأمراء الذين ناصروه وساعدوه على خلعه . وبذلك استقر الأمر للمقتدر من جديد (٣) .

كان المقتدر كما وصفه صاحب الفخرى (٤) — « سمحا كريما كثير الإنفاق ، رد رسوم الخلافة من التجمل وسعة الإدرارات والمعاش وكثرة الخلع والصلات » .

ولما توطدت سلطة المقتدر ، استوزر أبا الحسن على بن محمد بن الفرات ، واليه يرجع الفضل فى تهدئة الفتنة التى سادت بغداد على أثر انتقال الخلافة إلى المقتدر ، وتم له ذلك فى يوم واحد . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

ودبرت فى ساعة دولة تميل بغيرك فى أشهر (٥) .

على أن هذا الوزير لم يبق فى الوزارة مدة طويلة ، فقد قبض عليه المقتدر لأمور نسبت إليه ، واستوزر بعده أبا على محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وكان سيىء السيرة كثير التولية

---

(١) يقول الطبرى (ج ١١ ص ٤٠٥) إنه لقب الراضى بالله . ويقول السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢٥٢) إنه لقب الغالب بالله .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٢ .

(٣) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٦ — ٨ .

(٤) ص ٢٣٣ .

(٥) الفخرى ص ٢٣٨ .

والعزل [١] . وقد ساءت حالة الدولة فى عهد هذا الوزير ، حتى إن الخليفة المقتدر لم ير بدا من عزله وتعيين على بن عيسى بدله (٣٠١ هـ) .

على أن بقاء هذا الوزير المصلح لم يطل بسبب إسراف الخليفة المقتدر وعزله الوزراء والقبض عليهم ، وتدخل النساء فى أمور الدولة لصغر سنه وانصرافه إلى اللهو . وفى ذلك يقول صاحب الفخرى [٢] : « واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه . ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذته ، فخربت الدنيا فى أيامه ، وخلت بيوت الأموال ، واختلفت الكلمة ، فخلع ثم أعيد ثم قتل » .

ولا غرو فقد أصبح الأمر والنهى بيد أمه ، وكانت تسمى «السيدة» . فقد بلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت إذا غضبت هى أو قهرمانتها من أحد الوزراء كان مصيره العزل لا محالة .

وليس هذا كل ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ ، فقد اتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها « ثومال » صاحبة المظالم . وقد أدى تدخل النساء فى أمور الدولة إلى ضعفها وحرمانها من وزرائها الأكفاء واستهتار العامة بها .

انتشرت الفتن فى عهد المقتدر ، فخرج عليه مؤنس الخادم فى سنة ٣١٧ هـ ، بعد أن بلغه أن الخليفة فكر فى تولية هرون بن غريب مكانه ، وأرسل مؤنس إلى المقتدر ينبئه بتذمر الجيش من إسراف الحاشية والخدم ، وضياع الأموال وإفساد الحكم بسبب تدخلهم فى أمور الدولة ، ويلح على الخليفة فى إخراجهم من قصره والاستيلاء على ما فى أيديهم . فرد المقتدر عليه بكتاب ينفى فيه التهم التى وجهت إليه وإلى رجال حاشيته . فطلب القواد ، وعلى رأسهم أبو الهيجاء الحمدانى ونازوك إخراج هرون بن غريب عن بغداد ، فأجابهم الخليفة إلى ما طلبوه وولى هرون الثغور الشامية والجزرية ، وخلا الجو بذلك لهؤلاء ، فثاروا على الخليفة وأخرجوه من داره ، ونادوا بخلعه ، وبايعوا محمد بن المعتضد بالخلافة ولقبوه القاهر بالله [٣] .

على أن إقامة الحفلات بمناسبة تقليد القاهر الخلافة لم تشبع نهم الجند ، « فجاء العسكر يطلبون رزق البيعة ورزق السنة ، ولم يكن مؤنس حاضراً ، فارتفعت الأصوات فقتلوا الحاجب ومالوا إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر ليردوه إلى الخلافة ، فحملوه على أعناقهم من دار مؤنس إلى قصر الخلافة » [٤] .

---

(١) الفخرى ص ٢٤٠ . (٢) ص ٢٣٥ .

(٣) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ١٨٩ و ١٩٢ .

(٤) يقول مسكويه (ج ١ ص ١٩٩) إن الخليفة الجديد أحضر « القاهر بالله فأجلسه بين يديه ، واستدناه ثم جذبه إليه وقبل جبينه وقال له : يا أخى أنت لا ذنب لك ، وقد علمت أنك قهرت ، والقاهر بارك يقول : الله الله يا أمير المؤمنين ! فلما كرر ذلك قال له : وحق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا جرى عليك سوء منى أبدا ولا وصل أحد إلى مكروهك وأناحى ، ولأحرصن على انصرافك إلى منزلك من دار ابن طاهر فى هذه الليلة فطب نفسا ولا تجزع » .

يقول ابن الأثير (١) إن الأحوال قد هدأت بعودة المقتدر الذى أطلق للجند أرزاقهم وزاد فيها وباع ما فى خزانته من الأمتعة والجواهر .

عوامل ضعف الدولة فى عهد المقتدر :

كانت حالة الدولة العباسية فى عهد المقتدر مضطربة فى الداخل والخارج : ويرجع السبب فى ذلك إلى صغر سنه ، وعجزه عن مباشرة أمور الدولة ، وازدياد نفوذ الأتراك ، وتدخل النساء فى الحكم . وفى ذلك يقول ابن الأثير (٢) : « إن المقتدر أهمل من أحوال الخلافة كثيراً ، وحكم فيها النساء والخدم ، وفرط من الأموال ، وعزل من الوزراء ، وولى ما أوجب طمع أصحاب الأطراف والنواب وخروجهم عن الطاعة . وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيراً وتضييعاً فى غير وجه نيفا وسبعين ألف ألف دينار ، سوى ما أنفقه فى الوجوه الواجبة . وإذا اعتبرت أحوال الخلافة فى أيامه وأيام أخيه المكتفى ووالده المعتضد رأيت بينهم تفاوتاً بعيداً » .

وقد وصف ميور (٣) الدولة العباسية فى عهد المقتدر فقال : « إن عهد هذا الخليفة التعس قد هوى بالدولة إلى الحضيض . فقد ضاعت ممتلكاتها فى الخارج : فضاعت إفريقية ، وأوشكت مصر أن تضيع ، واستقل أمراء بنى حمدان بالموصل ، واستطاع البيزنطيون أن يشنوا إغاراتهم المتصلة على الحدود المتاخمة التى ضعف الدفاع عنها . ومع ذلك بقى شىء من الاعتراف بسلطان الخلافة فى البلاد الشرقية ، حتى بين أولئك الأمراء الذين نادوا أخيراً باستقلال ولاياتهم . أما فى الأراضى القريبة من حاضرة العباسيين فقد أخمدت ثورات القرامطة المخيفين إلى حين . وفى بغداد نفسها ، صار الخليفة المقتدر الذى كان آلة فى أيدى رجال البلاط المفسدين ذوى الأطماع الدنيئة ، تحت رحمة حراسة من الأجانب الذين أصبحوا يأتمرون إلى حد كبير بأوامر القواد من الأتراك وغيرهم الذين لا يمتون إلى العباسيين بصلة ، والذين كانوا يشعلون نار الثورة من حين إلى حين . وإذا علمنا أن هذا الخليفة قد غلب على أمره وخلع مرتين وذبح فى النهاية عند ما حاول مقاومة أحد قواده المخلصين لعرشه الذى استعان به ، فلا نعجب إذا تلاشت تلك الهيبة التى عمل أسلافه القريبون على استعادتها ، وغدا العرش مرة ثانية هدفاً للازدراء فى الداخل وفرصة سانحة تحمل على إغراء المغيرين على الدولة فى الخارج . أضف إلى ذلك أن الشعب قد فسدت أخلاقه ، ولم تعد بغداد بعد ذلك المكان الذى يضم رجالا أقوياء يدافعون عن بلادهم ، بل يحكمون أنفسهم إذا دعت الحالة إلى ذلك . أما الآن فقد أصبحوا أحزاباً وشيعاً متطاحنة تستطيع أن تخضب الطرق بالدماء . كما فعلوا فى ذلك الحين عند تفسير نص من النصوص ، وكما حدث أيضاً عند ما ثار الحنابلة ورموا الطبرى بالالحاد وحالوا

---

(١) ج ٨ ص ٧٠ .
(٢) ج ٨ ص ٨٣
(٣) Muir : The Caliphate, pp. 567—8

دون دفنه (١) . أما الرجولة والفضيلة والقدرة والبأس فقد ذهب كل ذلك تماماً » .

وفى عهد المقتدر نبغ كثير من العلماء ، نخص بالذكر منهم الفقيه محمد بن داود الظاهرى ، وابن شريح شيخ الشافعية ، والجنيد شيخ الصوفية ، والنسائى صاحب كتاب السنن ، والجبائى شيخ المعتزلة ، وابن جرير الطبرى ، والزجّاج النحوى ، والأخفش الصغير النحوى ، وأبوعوانة صاحب الصحيح ، وقدامة بن جعفر الكاتب ، وابن زكريا الطبيب .

لم يمض على عودة المقتدر إلى الخلافة للمرة الثانية سنة واحدة حتى خرج عليه مؤنس ثانية ، وانتهى الأمر بقتله ، وتركت جثته مكشوفة أياما ، ثم دفن بالموضع الذى مات فيه ، وذلك يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوال سنة ٣٢٠هـ . وكان ما فعله مؤنس سببا فى تجرؤ الولاة العباسيين على خلفائهم ، فقد « انخرقت هيبة الخلفاء وضعف أمر الخلافة » (٢) .

القـــــاهر بالله

٣٢٠ — ٣٢٢ هـ = ٩٣٢ — ٩٣٤ م

ولى الخلافة بعد المقتدر أخوه أبو منصور محمد بن المعتضد ولقب القاهر بالله . وفى عهده انتشرت الفتن الداخلية ، فلم تمض عليه فى الخلافة سنة واحدة حتى شغب عليه الجند ، واتفق بعض كبار رجال دولته وقائده مؤنس ووزيره ابن مقلة على خلعه وتولية أحد أولاد المكتفى . فلما علم بذلك القاهر عول على التخلص منهم : « فتحيل القاهر عليهم إلى أن أمسكهم وذبحهم وطين على ابن المكتفى بين حيطين » (٣) .

وقداشتهر القاهر بالقسوة ، « واتخذ حربة عظيمة يحملها بيده إذاسعى فى ذلك ، ويطرحها بين يديه فى حال جلوسه يباشر الحرب (٤) بتلك الحربة لمن يريد قتله ، فسكن من كان يستعدى على من كان

---

(١) يشير ابن الأثير (ج ٨ ص ٤٥ — ٤٦) إلى ذلك بقوله : دفن الطبرى « ليلا بداره لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهارا ، وادعوا عليه الرفض ثم ادعوا عليه الالحاد ... فليس الأمر كذلك ، وإنما بعض الحنابلة تعصبوا عليه ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم . ولذلك سبب هو أن الطبرى جمع كتابا فيه اختلاف الفقهاء — لم يصنف مثله — ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فقيل له فى ذلك فقال : لم يكن فقيها وإنما كان محدثا ؛ فاشتد ذلك على الحنابلة ، وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد ، فشغبوا عليه وقالوا ما أرادوا .

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالناس أعداء له وخصـوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسدا وبغضـا إنه لذميم

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٨٢ — ٨٣ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧ .

(٤) ولعله يريد الضرب .

قبله من الخلفاء والتشعب والوثب عليهم . وكان . . . مخوف السطوة[١] » . ويقول السيوطى[٢] : « وزيد فى ألقابه المنتقم من أعداء الله ، ونقش ذلك على السكة » .

وكان القاهر كما وصفه الصولى «أهوج سفاكا للدماء قبيح السيرة ، كثير التلون والاستحالة مدمن الخمر ، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل»[٣] .

وقد نجا الوزير ابن مقلة بنفسه ، إلا أن داره أحرقت ، ونهبت دور أتباعه . ولما هدأت الفتنة أعطى الخليفة القاهر الجند أرزاقهم ، فهدأت نفوسهم وسكنت ثائرتهم ، واستطاع أن يقبض على زمام الأمور من جديد[٤] . إلا أن جماعة الساجية أتباع ابن أبى الساج أحد قواد المعتمد والجرية[٥] خافوا بطش القاهر ، وشجعهم على شق عصا الطاعة دسائس ابن مقلة . وزاد شك هؤلاء الجند إقامة الخليفة القاهر المطامير[٦] فى داره للفتك بزعمائهم . ويقول ابن الأثير[٧] « إن القاهر لما تمكن من الخلافة أقبل ينقص الساجية والحجرية على مر الأيام ، ولا يقضى لأكابرهم حاجة ، ويلزمهم النوبة فى داره ويؤخر أعطياتهم ، ويغلظ لمن يخاطبه منهم فى أمر ويحرمه ، فأقبل بعضهم ينظر بعضاً ويتشاكون بينهم . ثم إنه كان يقول لسلامة حاجبه : يا سلامة ! أنت بين يدى كنز مال يمشى ، فأى شىء يبين فى مالك . لو أعطيتنى ألف ألف دينار فيحمل ذلك منه على الهزل . وكان وزيره الخصيبى أيضاً خائفاً لما يرى منه . ثم إنه حضر فى الدار نحو خمسين مطمورة تحت الأرض وأحكم أبوابها ، فكان يقال إنه عملها لمقدمى الساجية والحجرية ، فازداد نفورهم منه وخوفهم . ثم إن جماعة من القرامطة أخذوا بفارس وأرسلوا إلى بغداد ، فحبسوا فى تلك المطامير ، ثم تقدم سراً بفتح الأبواب عليهم والاحسان إليهم ، وعزم على أن يقوى بهم على القبض على مقدمى الحجرية والساجية وبمن معه من غلمانه . وأنكر الحجرية والساجية حال القرامطة وكونهم معه فى داره ، محسناً إليهم ، وقالوا لوزيره الخصيبى وحاجبه سلامة فى ذلك فقالا له ، فأخرجهم من الدار ، فسلمهم إلى محمد بن ياقوت وهو على شرطة بغداد ، فأنزلهم فى داره وأحسن إليهم . وكان يدخل إليهم من يريد ، فعظم استيحاشهم ، ثم صار يدمهم فى مجلسه ويظهر كراهتهم حتى يبينوا ذلك فى وجهه وحركاته معهم ، فأظهروا أن لبعض قوادهم عرساً ، فاجتمعوا بحجته ، وقرروا بينهم ما أرادوا ، وافترقوا

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٥١٤ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٨ .

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٨٣ — ٨٤ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧ .

(٥) هم جماعة من الشباب يقيمون فى حجر منفردة وهم فرقة من الحرس الخاص فى قصور الخلفاء .

(٦) المطمورة هى حفرة تحفر تحت الارض . وبنى مطمورة إذا بنى بيتا فى الارض ، ويقصد بذلك حجرا تحت الارض أعدت للسجن وللتعذيب .

(٧) ج ٨ ص ٩٧ .

وأرسلوا إلى سابور خادم والدة المقتدر فقالوا له : قد علمتَ ما فعله بمولاتك ، وقد ركبت فى موافقته كل عظيم . فان وافقتنا على مانحن عليه وتقدمت الى الخدم بحفظه ، فعفا الله عما سلف منك ، وإلا فنحن نبدأ بك . فأعلمهم ما عنده من الخوف والكراهة للقاهر ، وأنه موافقهم . وكان ابن مقلة مع هذا يصنع عليه ويسعى فيه إلى أن خلع» .

وقد اشتهر من العلماء فى عهد القاهر أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الذى نبغ فى الشعر واللغة حتى وصفه المسعودى[1] بقوله انه برع فى الشعر وانتهى فى اللغة وقام مقام الخليل بن أحمد فيها .

وقد ذكر صاحب الفخرى [2] أن القاهر «خرج يوماً ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس ، وقصد بذلك التشنيع على المستكفى ، فرآه بعض الهاشميين ، فمنعه من ذلك ، وأعطاه خمسمائة درهم» . ولما علم المستكفى بذلك منعه من الخروج ، وظل محبوساً الى أن مات فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٩ هـ ، وذلك فى عهد الخليفة الطائع لله (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) ، وله من العمر ثلاث وخمسون سنة .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥١٨ .

(٢) ص ٢٤٩ .

الباب الثانى

عصر إمرة الأمراء

(٣٢٤ - ٣٣٤ هـ = ٩٣٦ - ٩٤٥ م)

الراضى بالله

٣٢٢ — ٣٢٩ هـ = ٩٣٤ — ٩٤٠ م

ولى أبو العباس أحمد بن المقتدر الخلافة فى اليوم السادس من شهر جمادى الآخرة سنة ٣٢٢ هـ ، ولقب الراضى بالله ، وقد ضعفت الخلافة العباسية فى عهده واستقل كثير من الأمراء بولاياتهم .

١ — مرداويج بن زيار :

وكانت بلاد فارس وما جاورها بيئة صالحة لنمو كثير من العناصر التى ناوأت الخلافة العباسية ، فقد قامت فى هذه البلاد عدة دول كالطاهرية والصفّارية والسامانية ، كما قامت فيها أيضاً دول أسسها رجال من الديالمة من أمثال ما كان بن كالى ، ومرداويج بن زيار ، وأخيه وشمكير بن زيار . ثم قامت فيها دولة بنى بويه الذين استولوا على بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، ثم السلاجقة الذين استولوا عليها أيضاً سنة ٤٤٧ هـ ، ووضعوا الخلافة العباسية تحت حمايتهم واستبدوا بالسلطة دون الخلفاء . ثم قامت الدولة الخوارزمية التى تخلصت من نفوذ السلاجقة ، وناوأت الخلافة والمغول ، وكانت فى النهاية سبب ما حل بالخلافة من المصائب التى انتهت بسقوط بغداد وزوال الدولة العباسية فى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وفى سنة ٣٢٢ هـ عظم أمر مرداويج بن زيار الديلمى أحد قواد الأصفر أمير قزوين ، فطرد الأصفر واستولى على بلاده ، ثم فتح الرى وأصفهان ، وكانا من قبل تحت ولاية يوسف بن أبى الساج ، واستولى على طبرستان وجرجان والرى وهمذان وأصبهان ، وبلغت جيوشه نواحى حلوان . وقد عمل هذا القائد على الاستيلاء على بغداد وإعادة مجد الدولة الفارسية . ولم ير الخليفة العباسى المقتدر بدا من إقراره على ما بيده بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية (١) . قال صاحب الفخرى (٢) عند كلامه على حالة الدولة العباسية فى عهد الخليفة الراضى : « وفى أيامه سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة عظم أمر مرداويج بأصفهان ، وهو رجل خرج بتلك النواحى ، وقيل إنه يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب ، فورد الخبر فى أيام الراضى بأن غلمان مرداويج اتفقوا عليه فقتلوه (٣) » .

وذكر الصولى فى كتابه الأوراق ضمن أخبار الراضى بالله والمتقى لله (٤) أخبار مردويج فقال : « وعظم فى أيام الراضى أمر مرداويج الشّلمى بأصبهان ، وتحدث الناس عنه أنه يريد تشعيث الدولة وقصدَ بغداد ، وانه لمساهم لصاحب البحرين (يقصد أبا طاهر الجنّابى القرمطى) مجتمع له على ما يحاوله ، ثم ورد الخبر بان غلمانه قتلوه ، وأن رئيس الغلمان غلام يعرف ببجكم ، وأنه خرج عن

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٦٥ و ٧٢ — ٧٣ و ٨٤ — ٨٥ و ١١٣ — ١١٤ .
(٢) ص ٢٥١ (٣) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٧٣ .
(٤) ص ٢٠ — ٢٢

أصبهان ومعه جماعة من الأتراك قد رضوا به صاحباً لهم ورئيسا عليهم ؛ فزعم ابن ياقوت أنه هو الذى دبر ذلك ، وكاتب فيه الغلمان ، ووجه برسل إليهم يحضهم على ذلك ويرغبهم فى حسن الفائدة عليهم فى العاجل من جهة الخليفة ، وفى الثواب بطاعتهم للخليفة . ونفذت كتبه إلى بجكم والغلمان بتحقيق ظنونهم والتقدم إليهم لقصد مولاهم وقتله ليبلغ بهم ما أملوه . ودخل المنجم احمد بن يحيى وعلى بن هارون فأنشدوا الراضى شعراً يهنئانه فيه بهذا الفتح ؛ من ذلك :

ضحك الدهر بعد طول عُبوس ... طالعاً بالسعود لا بالنُّحوس
وأتتنا الأيامُ معتذراتٍ ... لابسات نعيمَها بعد بُؤسِ
بالإمامِ الراضى المطِلّ على الـ ... ـآداب شمسِ الملوك وابنِ الشموس
سبعة من خلائفٍ ولدُوه(١) ... لم يكن ذا لغيره من رئيس
رضِىَ الراضىَ الإله لِمُلكٍ ... أوضَح النَّهج منه بعد الدُّروسِ
يا نسيمَ الحياة أضْحكت دهراً ... كان لولاك دائم التَّعبيس
مرْدويجٌ بسيفِ حظك مقتـ ... ـولٌ فأوْهِن بذاك من مَرموس(٢)
قصفته رياح أيامك الغـ ... ـرِّ فأخمَدنَ منه نارَ المجوس
ثلَّ عرش اللعين أسرعَ ممَّا ... سلَب العرش من يدى بِلْقيس(٣)

٢ — وشمكير بن زيار :

ولما مات مرداويج بن زيار الديلمى خلفه أخوه وشمكير ؛ على أن نفوذه سرعان ما ضعف ، وانتزع منه ركن الدولة بن بويه بلاد الرى سنة ٣٣٠ هـ ، كما انتزع أبو على محمد بن المظفَّر بن محتاج ، والى نصر بن أحمد السامانى على بلاد خراسان بلاد طبرستان وجرجان ، وأرغمه على المسير إلى بلاد الجبل حيث أذعن لطاعة نصر بن أحمد السامانى ثم لابنه نوح بن نصر . ولما اعتلى عرش الدولة السامانية منصور بن نوح أنفذه على رأس جيش كبير لمحاربة ركن الدولة بن بويه ، ولكنه مات فى الطريق (٤) . ولم يقتصر أمر مرداويج على ذلك ، بل بعث الرسل يحملون المال الكثير لعبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب ، وأعلن رغبته فى الدخول فى طاعته (٥) .

---

(١) لا يقصد الصولى بذلك جميع الخلفاء العباسيين الذين ولوا الخلافة قبل الراضى ، وإنما يقصد الخلفاء الذين تسلسل نسبه عنهم وهم المقتدر والمعتضد والمتوكل والمعتصم والرشيد والمهدى ثم المنصور .

(٢) رمس الميت رمسا من باب قتل دفنه .

(٣) يقصد بذلك بلقيس ملكة سبأ التى أرسل إليها سيدنا سليمان رسالته المشهورة (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين — سورة النمل ٢٧ آية ٣٠ — ٣١ .

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٩١ و ٩٨ — ٩٩ و ١٠٣ — ١٠٥ و ١١٥ و ١٧٤ و ١٨٤ و ٢١٤ و ٢٢٨ .

(٥) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٧٣ .

استعان الراضى فى إدارة شئون دولته ببعض وزراء ضعاف ، كانوا يبذلون للخليفة كثيراً من المال ليرفعهم إلى مرتبة الوزارة . ولا أدل على ذلك مما بذله أبو على بن مقلة حين تقلد الوزارة للمرة الثالثة فى عهد الراضى ؛ فقد دفع للخليفة خمسمائة ألف دينار . غير أنه لم يتمتع بالوزارة طويلا ، إذ ثار عليه الجند ، وقامت فى البلاد فتنة انتهت بعزله ، وصرفه الراضى عن الوزارة واستوزر عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح ، فظهر عجزه عن إدارة البلاد ، وقلد الراضى أخاه الوزارة فاختلت أمور الدولة فى عهد وزارته ، ولم يلبث أن استقال من منصبه ، فحل محله أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخى . وكان كغيره من الوزراء الذين سبقوه ضعيف الجانب ، لم يقم بأى عمل فى سبيل إصلاح شئون البلاد وإقالتها من عثرتها ، بل لقد اشتد ضعف الدولة فى عهده ، واضطر أخيراً إلى الاختفاء حتى لا يلحق به أذى الأهلين . وقد وصفه صاحب الفخرى[1] فى هذه العبارة : « وكان قصيراً جداً فى غاية القصر ، فاحتاجوا أنهم قطعوا من قوائم سرير الخلافة أربع أصابع حتى يتمكن الكرخى الوزير من مشاورة الخليفة ، وتطيَّر الناس من ذلك وقالوا : هذا مؤذنٌ بنقص الدولة ، فكان الأمر كما قالوا عليه ، واختلفت الأحوال واضطربت الأمور لديه فاستتر » .

٣ — تولية ابن رائق إمرة الأمراء :

ولما رأى الراضى أن الكرخى قد عجز عن النهوض بأعباء الوزارة ، استوزر سليمان بن الحسن ابن مخلد ، فعجز هو أيضاً عن إدارة شئون البلاد ، لازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم فى أمور الدولة ، مما دعا الخليفة الراضى إلى استمالة ابن رائق — وكان يلى واسط والبصرة — وسلم إليه مقاليد الأمور ولقّبه « أمير الأمراء » ، فازدادت سلطته وأصبح بيده تولية الولاة وعزلهم . وزادت مكانته عند الخليفة وعلت على مرتبة الوزير . وفى ذلك يقول صاحب الفخرى[2] : « واستبد ابن رائق أمير الأمراء بالأمور ، ورد الحكم فى جميع الأمور إلى نظره ، ولم يبق للوزير سوى الاسم من غير حكم ولا تدبير » . ويقول مسكويه[3] : « فأنفذ إليه الراضى ماكرد الديلمى من الساجيَّة (أى أصحاب ابن أبى الساج) ، وعرّفه أنه قلده الإمارة ورياسة الجيش ، وجعله أمير الأمراء ، وردّ إليه تدبير أعمال الخراج والضياع وأعمال المعاون فى جميع النواحى ، وفوّض إليه تدبير المملكة ، وأمر بأن يُخطب له على جميع المنابر فى الممالك ، وبأن يُكنى ، وأنفذ إليه الخلع واللواء مع ماكرد الديلمى وخادم من خدم السلطان » .

---

(١) ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .
(٢) ص ٢٥٣ .
(٣) كتاب تجارب الامم ج ١ ص ٣٥١ .

ويظهر لنا أن محمد بن رائق لم يكن أول من تلقب بأمير الأمراء . فقد ذكر مسكويه[١] أنه لما ظهرت الوحشة بين الخليفة المقتدر ومؤنس الخادم ، قلد هذا الخليفة هرون بن غريب إمرة الأمراء سنة ٣١٦ هـ . وفى ذلك يقول مسكويه : « وكثر الناس عليه وأرجفوا (يعنى هرون بن غريب) بإمرة الأمراء . . وأقام هرون بن غريب فى دار السلطان منابذاً لمؤنس المظفر » . ويقول مسكويه[٢] أيضا : « ولما وصلت هذه الرقعة إلى مؤنس ووقف نازوك وأبو الهيجاء على ما تضمنت ، عدلوا إلى مكاتبته بإخراج هرون بن غريب عن بغداد ، فأجابهم إلى ذلك ، وقلد هرون الثغور الشامية والجزرية ، وخرج من يومه ومضى إلى قُطْرَبُّل فأقام بها . ولما كان يوم الاثنين العشر من المحرم (سنة ٣١٧ هـ) دخل مؤنس المظفر والجيش بغداد » .

ويقول مسكويه[٣] : « وبطل منذ يومئذ أمر الوزارة ، فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من أمر النواحى ولا الدواوين ولا الأعمال ، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط ، وأن يحضر فى أيام المواكب دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ، ويقف ساكتا . وصار ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمر كله ؛ وكذلك كل من تقلد الإمارة بعد ابن رائق الى هذه الغاية . وصارت أموال النواحى تُحمل الى خزائن الأمراء[٤] ، فيأمرون وينهون فيها وينفقونها كما يرون ، ويطلقون لنفقات السلطان ما يريدون ، وبطلت بيوت الأموال » . ويقول ابن الأثير : « وبطلت الدواوين من ذلك الوقت وبطلت الوزارة ، فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من الأمور ، انما كان ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها ، وكذلك كل من تولى امرة الأمراء بعده . وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون . وبطلت بيوت الأموال ، وتغلب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة » .

وإن حالة الخلفاء العباسيين فى عهد إمرة الأمراء لتشبه فى كثير من الوجوه حالة ملوك الميروفنچيين Merovingians المتأخرين مع نظار السراى .

كان أواخر ملوك الميروفنچيين أشبه شىء بالأعيب فى أيدى نظار السراى Mayors of the Palace ؛ ولم يكن لهم من الأمر شىء الا ما كان من ظهورهم فى الحفلات الرسمية ، وفيما عدا ذلك عاشوا معيشة العزلة فى احدى ضياعهم[٥] .

وقد أتى المؤرخ اينهارت (Einhard, Eginhard) سكرتير شرلمان ومؤرخ حياته بوصف لحالة ملوك الميروفنچيين المتأخرين ، وصفاً دقيقاً لا بأس من ايراده هنا . قال اينهارت : « ولقد ظل البيت

---

(١) كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ١٨٨ .
(٢) ج ١ ص ١٩٢ .
(٣) ج ١ ص ٣٥٢ .
(٤) يقصد بذلك من تولوا إمرة الأمراء .
(٥) Thatcher and Schwill, p. 42

الميروفنجى سنين طويلة خلوا من كل قوة ، ولم يحط بالملك شيء من مظاهر العظمة سوى اللقب الملكى ، لأن حكام قصرهم قد آلت إليهم ثروة البلاد ، وأصبح فى قبضة يدهم ما كان لهؤلاء الحكام من قوة . وكان يطلق على كل من هؤلاء الحكام اسم ناظر السراى (Mayor, maire) ، وهو المتصرف فى مهام الدولة جميعها ، ولم يبق للملك من سلطة سوى الرضا بلقبه الملكى ، وما كان من جلوسه على عرشه بشعره الطويل ولحيته المدلاة ، وهو فى ذلك أشبه شيء بتمثال لأحد الأمراء . فكنت تراه إذا ما سمع خطب سفراء الدول ، يرد على هذه الخطب بكلمات قد لُقنها من قبل ، فيبدو لك كأنه يحادث نفسه . ولم يكن لقبه الملكى ليجديه نفعاً . فقد كان المرتب المعين لشخصه موكولا لناظر السراى ، ولم يعد فى حوزته سوى منزله الملكى ، الذى لم يزد فى أبهته على منازل أصحاب الأملاك المتوسطى الحال ؛ وفى هذا المنزل أقامت أسرته وعبيده القليلون . فاذا ما أراد الملك السفر رحل فى عربة مغطاة ، يجرها ثوران ، ويسوقها رجل من رجال الريف . وكانت أسفاره لا تتعدى قصره والمكان الذى يتفقد فيه مجلس الأمة ، للنظر فى أمور الدولة ، ولم يزد ذلك على مرة واحدة فى كل عام . على أن ادارة شئون الدولة ، وكل ما يتعلق بأحوالها داخليا وخارجيا ، قد غدت فى يد ناظر السراى » (١) .

هكذا ضعف شأن الوزير فى عهد الراضى وحل محله أمير الأمراء الذى أصبح يتدخل فى تعيين الوزراء وعزلهم . فقد أشار ابن رائق على أثر تقلده هذا المنصب على الخليفة الراضى بأن يولى الوزارة الفضل بن جعفر بن الفرات ، حتى يصبح مطلق التصرف فى أموال الدولة . وغدا ابن رائق يشرف على الدواوين وصارت الأموال تُحمل إليه . (٢)

٤ — بجكم :

على أن نفوذ ابن رائق لم يلبث أن ضعف فى سنة ٣٢٦ هـ من جراء منافسة الأمراء له . فقد حاربه أبو عبد الله البريدى صاحب الأهواز ، كما خرج عليه أحد قواده واسمه بجكم ودخل بغداد سنة ٣٢٧ هـ وآلت إليه إمرة الأمراء ، واستولى بذلك على جميع شئون الدولة زهاء سنتين (٣٢٧ — ٣٢٩ هـ) . وقد وصف الصولى حالة بغداد فى الوقت الذى تقلد فيه بجكم إمرة الأمراء ، فقال إن العامة عاثوا فى الأرض فساداً ، وانقضوا على الحمامات العامة وأخذوا ثياب مَن فيها ، وكثرت المصادرات وتفاقم شر اللصوص الذين تسلحوا بالعدد لكبس الدور ليلا . وشكا الناس فى غير جدوى إلى بجكم ما أحله بهم أصحابه من بلاء ، وانتشرت الفوضى والمنازعات وساءت حالة العراق ، ولم تنته هذه المصائب إلا بوفاة بجكم .

---

(١) Oman: European History p. 268.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٦ .

عهد الخليفة الراضى بالله الى ابن رائق أن يجهز جيشاً يستعيد به نفوذ الدولة العباسية على مصر. وكان الإخشيد فى ذلك الوقت قد استقل بها، وظلت صلة الوفاق بينه وبين الخلافة على أحسن ما يكون من الصفاء إلى سنة ٣٢٨ هـ. غير أن هذه الصلة لم تلبث أن تبدّلت بمسير محمد بن رائق الخزرى إلى الشام يريد مصر بتقليد من الخليفة، مما حفز الإخشيد إلى إلغاء الخطبة للخليفة العباسى وذكر اسم الخليفة الفاطمى محل اسمه فى الخطبة، أو على الأقل إلى وقف الدعوة للخليفة العباسى ردحاً من الزمن. وفى هذه السنة وقعت الحرب فى العريش بين الإخشيد وابن رائق الذى استولى على دمشق من قبل؛ فمضى ابن رائق منهزماً إلى الرملة. وعلى الرغم من قتل الحسين بن طغج أخى الإخشيد، عقد الصلح على ما يحب ابن رائق؛ فتقلد ولاية الأراضى الشآمية شمالى الرملة، وتعهد الإخشيد أن يدفع اليه جزية سنوية مقدارها ١٤٠,٠٠٠ دينار، مما جعل بعض المؤرخين يرى أن عقد الإخشيد الصلح على هذه الصورة مع انتصاره على خصمه دليل على ضعف سياسته. على أننا نرى فى عمله ما يبرره نظراً للأحوال التى كانت تحيط به، لأنه كان يخشى أن تواصل الخلافة العباسية الحملات عليه، على الرغم من انتصاره فى هذه المرة، ولأنه كان يخشى خصماً آخر يهدده من ناحية مصر الغربية وهو الخليفة الفاطمى[1]، كما كان يخشى أيضاً سيف الدولة الحمدانى فى حلب.

وليس أدل على ما بلغته الدولة العباسية من ضعف ووهن فى عهد تولية ابن رائق وبجكم إمرة الأمراء مما رواه أبو بكر الصولى[2] عن الخليفة الراضى الذى عبر عما كان يجيش بنفسه من آلام لانصراف آبائه إلى اللهو واللعب، واعتمادهم على الموالى من الأتراك حتى ضاعت حرمة الخلافة: «وقال لنا الراضى بالله: كأنى بالناس يقولون أرضى هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركى، حتى يتحكم فى المال وينفرد بالتدبير؟ ولا يدرون أن هذا الأمر أفسد قبلى، وأدخلنى فيه قوم بغير شهوتى، فسلمت الى ساجية وحجرية يتسحبون علىّ ويجلسون فى اليوم مرات، ويقصدوننى ليلا، ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه، وأن يكون له بيت مال. وكنت أتوقى الدماء فى تركى الحيلة عليهم الى أن كفانى الله أمرهم. ثم دبر الأمر ابن رائق، فدبره أشد تسحباً فى باب المال منهم، وانفرد بشربه ولهوه. ولو بلغه وبلغ الذين قبله أن على فرسخ منهم فرسانا قد أخذوا الأموال واجتاحوا الناس، فقيل لهم أخرجوا إليهم فرسخا، لطلبوا المال وطالبوا بالاستحقاق، وربما أخذوه ولم يبرحوا. ويتعدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية، بل على أسبابى، وآمر فيه بأمر فلا يمتثل ولا ينفذ ولا يستعمل، وأكثر ما فيه أن يسألنى كلب من كلابهم فلا أملك رده، وإن رددته غضبوا وتجمعوا وتكلموا... وكان الأجود أن يكون الأمر كله لى كما كان لمن مضى قبلى، ولكن لم يجر القضاء بهذا لى!».

---

(١) أبو المحاسن: كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ٣ ص ٢٥٢ — ٢٥٣، انظر أيضا كتاب المجمل فى التاريخ المصرى للمؤلف ص ١٥٣

(٢) كتاب أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٤١ — ٤٢

لا نعجب إذن إذا انحرف الراضى عن ابن رائق . ويحدثنا الصولى أنه صرح بذلك لملأ من الناس . على أنه لم يكن من القوة بحيث يستطيع التخلص منه ، بدليل أن الراضى لما علم بأن ابن رائق اتهمه بالانحراف عنه دعاه « إلى الزبيدية فأكل مع ابنيه على مائدة كانت عن يمنة الراضى . . . وخلع عليه وقت الظهر خلعة وشّى [1] مثقلة بالذهب ومعممة كذلك ، فجلس فيها ساعة . ثم خلع عليه عند العصر وقت انصرافه خلعة أخرى » .

على أن أيام ابن رائق لم تطل ، فقد دعا الخليفة الراضى بجكم ليخلصه مما هو فيه . يقول الصولى [2] : « وكان دعا بجكم مرات ، ما منها مرة إلا وهو ينفق عليه فى خلعه ، وما يحمله معه عشرين ألف دينار وزيادة ، عليها من صوانى ذهب وفضة وعنبر وند ومسك وكافور وبلور . . . ولقد قبّل فى آخر دعوة دعاه فخذه ويده ، فضمه الراضى إليه وأخرج من إصبعه خاتمين فوضعهما فى إصبعه ، أحدهما يشبه الجبل فى حمرته وكبره (يقول الصولى) ، فنظر ابن حمدون إلى ونظرت إليه ، واغتممنا أن يكون الجبل فى يد غيره ، ففطن لنا ؛ فلما انصرف بجكم قال لنا : قد رأيت نظركما وقت الخاتم ، وأحسبكما ظننتماه الجبل ليس به ، ولكنه أقرب فص فى الدنيا شبهاً به » .

٥ — بين ابن رائق وبجكم :

دارت الحرب بين بجكم وابن رائق وانتهت بانهزام ابن رائق فى شهر ذى القعدة سنة ٣٢٦ هـ ، وخلع الخليفة الراضى على بجكم « سبع خلع وقال له : قد جعلتك أميراً ، وعقد له لواء فقال : يامولاى ما أريد إلا أن تزاح علتى فى أرزاق أصحابى وقت استحقاقهم . . . فما مضى لبجكم شهران حتى زاد أصحابه وزاد فيهم من أثبت بعشرين ألف دينار فى السنة وأكثر ، وجرى أمره على ذلك إلى أن قتل » [3] .

على أن حالة الدولة العباسية لم تكن فى عهد ولاية بجكم أقل سوءاً واضطراباً بسبب التنافس على إمرة الأمراء ، فقد عزم ابن رائق على الرجوع إلى بغداد ، وأثار سخط أهليها على بجكم . ويحدثنا أبو بكر الصولى أن الخليفة الراضى رحل إلى سامرا حتى تواترت الإشاعات بأنه عول على الإقامة فيها فراراً من عنت بجكم . يقول الصولى : « فقلت يا أمير المؤمنين إن العبد المتفق لا يملك كتمان ما بقلبه لمولاه ، ولا يدخره النصح . وما على المولى شىء من أن يسمع قول عبده ، فان كان صواباً أمضاه ، وإن كان خطأ جعله بمنزلة ما لم يسمعه . فضحك وقال : هات ماعندك ، فقلت : إن الناس يتحدثون بأن العسكر الذى قد رحلت لتزيله أشبه بعساكر الإسلام من العسكر الذى تقصده به ،

---

(١) ورد فى كتاب أخبار الراضى والمتقى لأبى بكر الصولى (ص ١٠٣) وشىء

(٢) المصدر نفسه ص ٤٢

(٣) الصولى ص ١٠٦ — ١٠٧

من قوم لا يرون طاعتك ، وأشبه بعساكر آبائك ، وقد تحدثوا بأن الحسن قد بذل أكثر مما أريد منه . فإن رأى سيدنا أن يقبل هذا ويرجع إلى دار ملكه ويزول ما يخافه من وثوب ابن رائق فانه غير مأمون[١] . . . فقلت يا أمير المؤمنين : بغداد دار المملكة ووطن الخلافة وفتقها لا يتلافى ، فقال : إنما كانت بغداد كذا حيث كان فى بيت المال بها عشرة آلاف ألف دينار فى أيام المعتضد ، وضعّف لها أيام المكتفى . فأما ولا مال بها فهى كسائر البلدان . فقلت فيها ما هو أجل من المال : الأمير إن بلغ الله سيدنا ما يأمله فى نفسه وفيهما ، وفيها حرَم الخلافة وذخائرهن[٢] » .

ازدادت قوة ابن رائق ودخل بغداد فى شهر صفر سنة ٣٢٧ هـ ، وأمّن أصحاب بجكم وولى أحد قواده وهو ابن يزداد شرطة بغداد[٣] . واستولى على بيت المال « وعظم أمر العيارين ببغداد وأخذوا ثياب الناس من المساجد والطرقات ، إلى أن ركب ابن يزداد وأخذ جماعة منهم فضربهم بالسياط »[٤] . وتبودلت الرسائل بين الخليفة الراضى (وكان فى تكريت) وابن رائق وبجكم « واتفق الرأى على خروج ابن رائق إلى الشام والياً عليها » ، وذلك فى يوم ٣ من شهر ربيع الآخر سنة ٣٢٧ هـ[٥] .

وصفوة القول أن حالة الدولة العباسية قد أصبحت من الضعف والانحلال بحيث إن الخليفة الراضى لم يتمكن من دفع أرزاق الجند ولا من أن يحصل على ما يكفيه . « ثم كثر عبث العامة وكبسوا الحمامات وأخذوا ثياب الناس ، وكذلك صنعوا بقوم شيعوا جنازة ، وغلت الأسعار »[٦] . وفكر الخليفة فى الاستنجاد بأبى عبد الله الحسن البريدى[٧] . وظلت الحال على ذلك حتى توفى الراضى ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٣٢٩ هـ بعد أن حكم الدولة العباسية ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وله من العمر إحدى وثلاثون سنة وستة أشهر . وكان الغالب على أمور دولته بجكم التركى . وكان قبل وفاته يقيم بواسط . ويظهر أنه كان لحبسه فى عهد الخليفة القاهر أثر كبير فى ضعف جسمه . وفى ذلك يقول أبو بكر الصولى[٨] : « أنا مذ حبسنى القاهر عليل إلى وقتى هذا . وتزايدت علته قبل وفاته بسنة وفسد مزاجه ، وكان ذلك أصعب علله . وكان يلقى من فمه دماً كثيراً ، حتى ألقى من فمه فى يومين وليلتين أربعة عشر رطلا . . وكان كثير الخلاف على من يُطبّبه لا يقبل مشورته . . . وما كان أكله بالكثير ولا شربه ، ولكن شهوته زادت على طاقة جسمه وقوته » .

---

(١) أبو بكر الصولى : ص ١٠٨ — ١١٠
(٢) المصدر نفسه ص ١١٥
(٣) المصدر نفسه ص ١١٩
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٠
(٥) المصدر نفسه ص ١٢١
(٦) المصدر نفسه ص ١٣٣
(٧) المصدر نفسه ص ١٣٣ — ١٣٥
(٨) المصدر نفسه ص ١٤٩ ، ١٨٣ — ١٨٤

٦ — صفات الراضى :

وقد وصف لنا صاحب الفخرى[١] ما امتاز به الخليفة الراضى فى هذه العبارة : « وهو آخر خليفة له شعر مدون ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند ، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء » . وقد « سئل الراضى أن يخطب يوم جمعة فصعد المنبر بسر من رأى ، فحضرت أنا وإسحق بن المعتمد ، فلما خطب شنف الأسماع وبالغ فى الموعظة »[٢] .

وقد ذكرنا أن أبا بكر الصولى ، على الرغم من عدم اهتمام « السيدة » أم الخليفة المقتدر بتنشئة الأمراء تنشئة قوامها التوافر على العلم ، استطاع أن يوجه الراضى وجهة صالحة ، حتى غدا بفضله مثقفاً مستنيراً وشاعراً أديبا حتى قال فيه المحاملى : « ما رأيت فى أهل هذا البيت شيخاً ولا كهلا ولا حدثاً يشبه هذا الفتى[٣] » . وليس أدل على تفوق الراضى فى الشعر والأدب والبلاغة ، وما اشتهر عنه من حسن الخلق والكرم والوفاء مما قال له مؤدبه أبو بكر الصولى[٤] : « وكان والله إذا جمع نفسه وأحضر خاطره كأنه ينطق بلسان المنصور إذا أراد الكلام فى معنى من المعانى ، كذلك خيل إلىّ ، أو المأمون من بلاغته وحسن سلوكه سبل المعانى ، وما أخطأه من شىء فلن يخطئه أن يكون أحسن الناس علماً بالشعر ونقدا له كما ينقده العلماء به . وإنه من أطبع ملوك بنى العباس فى الشعر ، وأكثرهم شعراً ، وأكرمهم عشرة لجلسائه . وما رأيت وما سمعت بخليفة أحسن منه أخلاقاً ، ولا أسمح بكل شىء بالمال والطعام حتى يفرط ، وبالثياب والطيب . ما بخل بشىء قط ولا تعاظمه شىء يهبه ، ولولا اتباعه لشهوته كثيراً ، عالماً بما فى ذلك من العيب محتملا له على بصيرة ، لظننت أنه لا يقدّم أحدٌ عليه » .

وكان الراضى بالله مشغوفا بالعلم متوفراً على الأدب والشعر وأيام العرب ، ذكياً فطناً عاقلا . وفى ذلك يقول مؤدبه أبو بكر الصولى[٥] . « وقد يعلم الله تعالى أن الراضى بالله فى حال إمارته وأخاه هارون لما أمر نصر الحاجب أن يتقدم إلى بخدمتهما ، وأن يجعل على نوبة لهما يومين فى كل أسبوع ففعل ذلك ، دخلت إليهما فرأيتهما ذكيين فطنين عاقلين ، إلا أنهما خاليان من العلوم ، فعاتبت ابن غالب مؤدبهما على ذلك . وكان الراضى أذكاهما وأحرصهما على الأدب ، فحببت العلم إليهما ، واشتريت لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة ، فتنافسا فى ذلك ، وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه . وقرأا على الأخبار والأشعار ، فقلت إن الحديث أولى بكما وأنفع لكما من هذه ، وهو أولى أن يبتدأ به . وجئتهما بأعلى ما بقى من الزمان إسنادا ، وهو أبو القاسم بن

---

(١) ص ٢٥١ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦١
(٣) الصولى ص ٥ — ٦ و ٢٦ .
(٤) ص ١٨ — ١٩ .
(٥) ص ٢٤ — ٢٥ .

بنت مَنيع ؛ واختلف إليهما مجالس ، ونسخت لهما علو حديثه ومشايخه ، مثل على بن الجعد وابن عائشة وأبى نصر التمار ، وجميع علومه[١] ومختار حديثه . . . وقرأ علىّ من كتب اللغة كتباً كثيرة منها خلق الإنسان للأصمعى » .

وكان الراضى وفيا ، حفظ لمؤدبه الصولى فضله عليه فى العلم والأدب . قال الصولى[٢] : « ولقد حدثنى بعض الخدم أن أحمد بن يحيى المنجم ثلبنى يوما عنده ، فقال له : أمسك عن هذا ، ولا تنظر إلى ما أفعله ، فانى أريد بما أجرى عليه إصلاحه لى كما أريد ، فقال له : فلو قومه سيدى بحجبته عنه أياما . فقال : قد هممت بذلك ، فخفت أن ينسبنى الناس إلى قلة وفاء لقدر خدمته لى ، ولأنه حبب إلى الأدب ، وسنى لى قول الشعر ، وعرفنى نقده وتعب معى فيه » .

قال الراضى يصف سامرا[٣] :

بسر مَن را بلاد الملك طاب لنا ... معرس عيشه باللهو منظوم
أرض متى اختلست ألحاظها نظراً ... اهتاجَ ذو طربٍ وارتاح مهموم
والحير والقصر والقاطول جنتها ... والجعفرى بكف الدهر مزموم
منازل آنستْ دهراً فأوحشها ... ظلم الزمان فمثلوم ومهدوم
وإن أحلك لا آسى على بلدٍ ... وحبله من حبالى فيك مصروم
وما شجانى كذكرى خلتها حلماً ... كأن قلبى لها بالذكر مكلوم

وقال يفخر بأسرته[٤] :

مَن ذا يقيم دعائم الإسلامِ ... ويعم بالإفضال والإنعام؟
فينا النبوة والخلافة حكمنا ... ماضٍ كما شئنا على الأيام
لا ينقص الأعداء مبرمَ أمرنا ... وبنا تمام النقض والإبرام
أمضى من الأجل المعجل أمرنا ... يأتيك قبل الفكر والأوهام

ومن شعره وهو على فراش الموت[٥] :

كل صفوٍ إلى كدَر ... كل أمنٍ إلى حذَر
ومصير الشباب للموتِ فيه ... أو الكبرَ
درّ در المشيبِ منْ ... واعظٍ ينذر البشرْ
أيها الآمل الذى ... تاه فى لجبة الغرَر

---

(١) وردت فى كتاب أخبار الراضى بالله والمتقى لله لأبى بكر الصولى وعلوه
(٢) ص ١٤٩ (٣) ص ١٨١ (٤) نفس المصدر ص ١٨٢
(٥) نفس المصدر ص ١٨٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٩١٢

أين من كان قبلنا ذهبَ الشخص والأثر
سير المعارُ من عمر كله خطرْ
رب إني ذخرت عندك أرجوك مدخر
أنني مؤمنٌ بما بَين الوَحى والسور
واعترافى بتركى نفعى وإيثارىَ الضرر
رَب فاغفرْ لىَ الخطِيةَ يا خير من غفرْ

« وكان الراضى — كما يقول مؤدبه أبو بكر الصولى[١] — أحسن الناس وفاء وأتمهم حلما وكرماً . ولم يكن يشرب النبيذ ، وربما شرب اليسير منه فيتأذى بذلك . وكان ذكيا فطنا لقناً لما يسمع ، يحضره ما يريده من غير فكر » [٢] .

ويصف ابن الأثير[٣] الدولة العباسية فى عهد الراضى فى هذه العبارة : « ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها ، والحكم فى جميعها لابن رائق ، ليس للخليفة حكم . وأما باقى الأطراف : فكانت البصرة فى يد ابن رائق ، وخوزستان فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمان فى يد أبى على محمد بن إلياس ، والرى وأصبهان والجبل فى يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخى مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج ، والمغرب وإفريقية فى يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموى[٤] ، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن أحمد السامانى ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى » .

المتقى

٣٢٩ — ٣٣٣ هـ = ٩٤٠ — ٩٤٤ م .

لما توفى الراضى بالله أمر بجكم بأن يجتمع مع أبى القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضى كل من تقلد الوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة والعباسيون ووجوه البلد ، ويشاورهم الكوفى (كاتب بجكم) فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضى مذهبه وطريقته ، فجمعهم الكوفى واستشارهم ، فذكر بعضهم ابراهيم بن المقتدر وتفرقوا على هذا . فلما كان الغد اتفق الناس عليه ، فأحضر فى دار الخلافة

---

(١) ص ١٤٩ (٢) نفس المصدر ص ٧ (٣) ج ٨ ص ١١٢ — ١١٣

(٤) أعلن عبد الرحمن الثالث بن محمد الأموى فى بلاد الاندلس (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) نفسه خليفة وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، فأصبح فى العالم الاسلامى وقتئذ ثلاث خلافات : الخلافة العباسية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب ، والخلافة الاموية فى الاندلس .

أنظر أيضا كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٩٨ .

وبويع له فى العشرين من ربيع الأول (٣٢٩ هـ) . وعرضت عليه ألقاب فاختار المتقى لله ، وبايعه الناس كافة ، وسير الخلع واللواء إلى بجكم بواسط [١] .

لم تستفد الخلافة العباسية فائدة من هذا النظام الذى أدخله الراضى بانشاء منصب أمير الأمراء لإقالة الخلافة من عثرتها ، بل ازدادت أحوالها سوءاً . وإن من يستقصى عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) والمتقى (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) والمستكفى (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ) — ذلك العهد الذى انتهى بدخول بنى بويه بغداد ، واستبدادهم بالأمر دون الخليفة وأمير الأمراء — فانه يجده عبارة عن سلسلة منازعات لا تكاد تنقطع بين رجالات الدولة العباسية ، الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولى إمرة الأمراء . نعم ! لقد قام النزاع بين ابن رائق وأبى عبد الله البريدى صاحب الأهواز ، وخرج بجكم على ابن رائق وانتزع من يده إمرة الأمراء وظل فيها إلى أن قتل سنة ٣٢٩ هـ ، ثم دخل ابن رائق بغداد ، ولحق به منافسه أبو عبد الله البريدى . وانتهى النزاع بينهما بخروج ابن رائق ومعه الخليفة المتقى إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل ، فقتل هذا ابن رائق حتى لا يقف فى وجهه ويحول بينه وبين منصب إمرة الأمراء . وسرعان ما دخل ابن حمدان بغداد ومعه الخليفة العباسى ، وتقلد أعباء هذه الوظيفة فى مستهل شهر شعبان سنة ٣٣٠ هـ . على أن بغداد فى عهد الحمدانيين (٣٣٠ — ٣٣١ هـ) لم تكن أحسن منها فى عهد من سبقهم من أمراء الأمراء [٢] ، فقد طردهم منها توزون التركى رئيس الشرطة فى شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ ، وطارد جيوشهم إلى الموصل ، وتقلد إمرة الأمراء وقبض على الخليفة وسمل عينيه (صفر سنة ٣٣٣ هـ) ، وخلعه وولى بدله المستكفى . ثم مات توزون سنة ٣٣٤ هـ ، وتولى إمرة الأمراء تركى آخر هو ابن شيرزاد صاحب الأمر والنهى فى عهد توزون . ولم تضع وفاة توزون حداً لتفاقم سلطة الأتراك ، ولم يخفف من شره إلا دخول بنى بويه بغداد بعد قليل — على ما سنرى .

وفى أوائل عهد المستكفى مات توزون ، فخلفه فى إمرة الأمراء أبو جعفر بن شيرزاد ، فلم يكن أقل عنتا ممن سبقوه [٣] .

كان أول ما قام به الخليفة المتقى أن عقد لواء لبجكم ولقبه أمير الأمراء ، وكان إذ ذاك بواسط . وكان صاحب الأمر والنهى فى أيامه تكينك التركى الذى لقى الأهلون منه عناء كبيراً . فقد اضطهدهم وغلا فى أذاهم وصادر أموالهم ، حتى إن كثيراً من تجار بغداد هربوا بأموالهم وأمتعتهم فراراً من جور تكينك . وأغار الأكراد على قافلة ذاهبة الى خراسان تحمل أموال أصحاب بجكم . ويحدثنا أبو بكر الصولى أنه « كان فيها من العين والورق ما مبلغه ثلاثة آلاف ألف دينار ،

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٩ — ١٣٠ .

(٢) أبو بكر الصولى ص ٢٣٣ .

(٣) حسن ابراهيم حسن ، وعلى ابراهيم حسن : كتاب النظم الإسلامية ص ٧٨ — ٧٩ .

ومن الأمتعة ما قيمتها نحو ذلك » . على أن بجكم كان لا يعلم شيئا من أمر تكينك واضطهاده الناس . وفى ذلك يقول الصولى الذى اتصل ببجكم ونال حظوته : « وأنا أجمل وصفه ووصف حسن أخلاقه وجميل عشرته وعلو همته ومحبته ، لأن تبقى آثاره بعده ، كما بقيت آثار أجلاء الملوك . فجملة أمره أن كان عقله أكثر شىء فيه . . . ولقد قال يوماً — وكان يفهم العربية كلها إذا خوطب ، ويحسن الجواب ولكنه كان يقول : أخاف أن أتكلم بالعربية فأخطىء فى لفظى ، والخطأ من الرئيس قبيح ؛ فلذلك أدع الكلام — . . . وإن كنت لأحسن العلوم والآداب ، أحب أن لا يكون فى الأرض أديب ولا عالم ولا رأس فى صناعة إلا كان جنبتى[٣] وتحت اصطناعى ، وبين يدى لا يفارقنى » .

هكذا ساءت حالة الخلافة واستأثر بالنفوذ رجال من الأتراك لم يحسنوا العربية ، وعلم الخليفة المتقى بأن يده قد غلت ، فزهد فى الدنيا ورغب عن مقابلة الناس ، حتى قيل إنه قال : « لا أريد جليساً ، أنا أجالس المصحف »[٤] .

٣ — البريديون :

ثم أحل جند بجكم الهزيمة بالبريديين بالمذار ، بين واسط والبصرة ، وأسر كثيراً من أصحابهم . وسرعان ما تتابعت المصائب على بجكم وأخذ نجمه يأفل ، فنهبت القافلة الذاهبة إلى خراسان — على ما تقدم — وأخذ الحزن منه كل مأخذ ، حتى امتنع عن الطعام أياماً . ثم ورد الخبر بقتل ماكان بن كالى التركى ، فاحتجب ثلاثة أيام غماً عليه ، وعبر عن حزنه بهذه الكلمات : « هو مولاى ، كنتُ أقدّر أن يرى ما صرت إليه ، ثم أجلسه فى مكانى وأكون معه . وما رأيت فارساً مثله قط »[٥] . ثم ورد الخبر بايقاع صاحب خراسان بأخى مرداويج بن زيار وهزيمته إياه . وانتهت هذه المصائب بقتل بجكم نفسه بيد بعض الأكراد الذين عول على انتهاب أموالهم . ويقول مسكويه[٦] إن قتل بجكم أدى إلى اضطراب عسكره وضعفهم ، وإلى تقوية البريديين بانضمام الديالمة الذين كانوا فى صفوف بجكم إليهم . وأمر الخليفة المتقى بنقل أمواله من واسط إلى بغداد . ويقول الصولى :[٧] « ووجد المتقى فى دار بجكم أموالا كثيرة مدفونة فى مواضع منها حول البستان فى خوابى كثيرة . . ووجد القاهر — وكان فيما زعم يعذب فى أيام الراضى — فصرفه إلى منزله ، وصرف أبا جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد إلى منزله بعد أن أدى مائتى ألف دينار » .

ولم يضعف موت بجكم نفوذ الأمراء . فقد دخل أبو الحسين البريدى واسط ، واستوزر الخليفة المتقى أبا الحسين أحمد بن محمد بن ميمون (١٠ شعبان سنة ٣٢٩ هـ) ، وولى يوسف بن عمر قضاء بغداد ، واشترط ألا يقبل أصحاب السيوف ، ولا يقبل فى حكم شفاعة ، ولا يركب إلا إلى دار

---

(١) ص ١٩٢ . (٢) ص ١٩٤ — ١٩٥ .
(٣) الجنبة هى الجانب أى شق الإنسان . (٤) أبو بكر الصولى ص ١٩٣ .
(٥) أبو بكر الصولى ص ١٩٧ . (٦) ج ٢ ص ٩ — ١١ . (٧) ص ١٩٧ — ١٩٨ .

الخليفة ودار وزيره فقط[١] . ثم دخل أبو الحسين البريدى بغداد فى جيش كثيف من الأتراك والديلم ، واستقبلهم الناس استقبالا حسناً . وكان أول ما قام به أن صرف الوزير ابن ميمون ، وتقلد الوزارة أبوعبد الله البريدى . على أن البريديين قد لاقوا فى بغداد مقاومة عنيفة ، وأن الخليفة المتقى وابنه ومحمد بن رائق (وكان قد عاد من الشام بعد موت بجكم) هربوا إلى الموصل ، وأن أصحاب البريدى قتلوا من وجدوه فى دار الخلافة من حاشية الخليفة ونهبوا دار الخلافة نفسها . وفى ذلك يقول ابن الأثير[٢] : « وسير أبو عبد الله البريدى أخاه أبا الحسين إلى بغداد فى جميع الجيش من الأتراك والديلم ، وعزم ابن رائق على أن يتحصن بدار الخليفة ، فأصلح سورها ونصب عليه العرّادات والمنجنيقات ، وعلى دجلة ، وأنهض العامة وجند بعضهم . فثاروا فى بغداد وأحرقوا ونهبوا ، وأخذوا الناس ليلا ونهاراً . وخرج المتقى لله وابن رائق إلى نهر ديالى منتصف جمادى الآخرة ، ووافاهم أبو الحسين عنده فى الماء والبر ، واقتتل الناس . وكانت العامة على شاطىء دجلة فى الجانبين يقاتلون مَنْ فى الماء من أصحاب البريدى ، وانهزم أهل بغداد ، واستولى أصحاب البريدى على دار الخليفة ودخلوا إليها فى الماء ، وذلك لتسع بقين من جمادى الآخرة (سنة ٣٣٠ هـ) . وهرب المتقى وابنه الأمير أبو منصور فى نحو عشرين فارساً ، ولحق بهمـــا ابن رائق فى جيشه ، فساروا جميعاً نحو الموصل ، واستتر الوزير القراريطى — وكانت مدة وزارته الثانية أربعين يوماً وإمارة ابن رائق ستة أشهر — وقتل أصحاب البريدى من وجدوا فى دار الخليفة من الحاشية ونهبوها ، ونهبوا دور الحرم ، وكثر النهب فى بغداد ليلا ونهاراً . . . ونزل أبو الحسين بدار مؤنس التى يسكنها ابن رائق وعظم النهب ، فأقام أبو الحسين توزون على الشرطة بشرقى بغداد ، وجعل نوشتكين على شرطة الجانب الغربى ، فسكن الناس شيئاً يسيراً . وأخذ أبو الحسين البريدى رهائن القواد الذين مع توزون وغيره ، وأخذ نساءهم وأولادهم ، فسيرهم إلى أخيه أبى عبد الله بواسط » .

وقد وصف أبو بكر الصولى[٣] حكم البريديين فقال : « ووافى البريديان أبو عبد الله وأبو الحسين ، ومعهما أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد ، وكاتب الخليفة عنهما بسمعهما وطاعتهما ، وأنهما جاءا ليصلح إليه أموره كلها ، بخدمتهما له . ثم نزلوا الشفيعى يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان ، ومعهما جيش عظيم فى الظهر والماء ، ولقيهما الناس مسلمين ، وظهر الناس جميعا . . . وطلب أبو عبد الله البريدى من الخليفة مالا لرجاله . ويظهر أن صلة الوفاق والمودة قد توثقت أول الأمر بين البريديين والخليفة المتقى ، بدليل زواج ابنة الوزير البريدى من عبد الواحد أبى منصور ابن الخليفة[٤] .

على أن البريديين لم يظفروا بمحبة الناس جميعا ، فقد عزم الديلم على اغتيال الوزير البريدى إذا

---

(١) أبو بكر الصولى ص ٢٠٠ .
(٢) ج ٨ ص ١٣٤ — ١٣٥ .
(٣) ص ٢٠٠ — ٢٠١ .
(٤) أبو بكر الصولى ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

دخل قصر الخلافة ، وسبوه وأساءوا إلى البريديين ، وأعانهم العامة وتجمعوا على جانبى نهر دجلة ، وأخذوا يصيحون ويهتفون هتافات تنم عن سخطهم عليه وكراهتهم له . وهكذا غدت الوزارة عبئا ثقيلا لا يحتمله كل الناس ، فقد رغب أبو الحسن على بن عيسى عن قبول الوزارة ، ورغب عنها أخوه أبو على عبد الرحمن ، وأخيراً استوزر الخليفة أبا إسحق الاسكافى المعروف بالقراريطى ، فأشار عليه بأن يعين رجلا يعهد إليه بأمرة الجيش على أن يتولى شئونه . وفى ٣ شوال سنة ٣٢٩ هـ عين كورتكين أميراً للجيش ، وخلع عليه ؛ وسرعان ما أرسل على رأس جيش كثيف أخرج البريديين من واسط(١) .

٤ — ظهور ابن رائق :

عاد ابن رائق إلى بغداد وخلع عليه الخليفة المتقى لله فى شهر ذى الحجة سنة ٣٢٩ ، « وطوقه وسوره بطوق وسوار مرصعين بالجوهر ، وعقد له لواء وقلده إمرة الأمراء ، وألزم أبو جعفر الكرخى (الوزير) بيته ، وكانت وزارته هذه ثلاثة وخمسين يوما . ودبر الأمور أبو عبد الله أحمد ابن على الكوفى كاتب أبى بكر بن رائق من غير تسمية للوزارة ، وأطلق أبو إسحق القراريطى إلى منزله»(٢) .

وفى ١١ المحرم سنة ٣٣٠ هـ سار ابن رائق إلى واسط ودخلها ، فسار البريديون إلى البصرة . وقداستبطأ ابن رائق البريديين فى البصرة والأهواز وواسط فى حمل الأموال ، فسار إلى واسط ، فهرب البريديون إلى البصرة ، وتبودلت الرسل بينهم ، وتم الاتفاق على أن يدفع البريديون ما تأخر من خراج واسط وأن يدفعوا ستمائة ألف دينار عن هذه البلاد فى كل سنة(٣) .

ولما عاد ابن رائق إلى بغداد ثار الجند عليه ، وهرب كثير من زعمائهم الى أبى عبد الله البريدى ، فاحتال ابن رائق الى مواراته ، فكاتب أبا عبد الله البريدى بالوزارة ، وأنفذ له الخلع . واستخلف أبا عبد الله بن شيرزاد ، ثم وردت الأخبار الى بغداد بعزم البريدى على الإصعاد الى بغداد ، فأزال ابن رائق اسم الوزارة عنه ، وأعاد أبا إسحق القراريطى (١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٠ هـ) ، ولعن بنى البريدى على المنابر بجانبى بغداد»(٤) .

بيد أن البريدى عزم على قصد بغداد فى جميع رجاله ، وخرج من واسط فى ٢ من جمادى الآخرة . ولما قرب من بغداد عمل ابن رائق على فتح السجون ، وحرض العامة والغوغاء على الوقوف فى وجهه ، وأمر الخليفة بلعن البريديين وتحريض العامة على قتالهم . ولكن الهزيمة حلت بجيش ابن رائق وخرج هو والخليفة من بغداد ، واستولى البريدى على دار الخلافة(٥) .

---

(١) أبو بكر الصولى ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .
(٢) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٢ . انظر أيضا ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٣ .
(٣) كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٢ — ٢٣ . (٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٤ .
(٥) مسكويه ج ٢ ص ٢٣ — ٢٤ .

أما عن أثر استيلاء البريديين على بغداد وما حل بأهلها من محن وخطوب فيقول الصولى(١) : « ولما ملك جيش البريدى الدار نهبوا جميع ما وجدوا فيها ، وداروا فى صحونها ، وفعلوا ما لم يفعله أحد قبلهم . فقد كان الخلفاء يقتلون بسر من رأى ودورهم محفوظة مصونة » . وقال ابن الأثير(٢) : « لما استولى البريدى على بغداد أخذ أصحابه فى النهب والسلب وأخذ الدواب ، وجعلوا طلبها طريقاً إلى غيرها من الأثاث ، وكبست الدور وأخرج أهلها منها ونزلت ، وعظم الأمر ، وجعل على كر من الحنطة والشعير وأصناف الحبوب خمسة دنانير ، وغلت الأسعار ، فبيع الكر الحنطة بثلثمائة وستة عشر دينار . وحبط أهل الذمة ، وأخذ القوى بالضعيف . . . ووقعت الفتن بين الناس . . . ووقعت حرب بين الديلم والعامة قتل فيها جماعة من حد نهر طابق إلى القنطرة الجديدة . وفى آخر شعبان زاد البلاء على الناس ، فكبسوا منازلهم ليلا ونهاراً ، واستتر أكثر العمال لعظيم ما طولبوا به مما ليس فى السواد ، فخرج الناس وأصحاب السلطان إلى قرب من بغداد ، فحصدوا ما استحصدوا من الحنطة والشعير وحملوه بسنبله إلى منازلهم . وكان مع ذلك ينهب ويعسف أهل العراق ويظلمهم ظلما لم يسمع بمثله قط . والله المستعان ؛ وإنما ذكرنا هذا الفصل ليعلم الظلمة أن أخبارهم تنقل وتبقى على وجه الدهر ، فربما تركوا الظلم لهذا إن لم يتركوه لله سبحانه وتعالى » .

٥ — الحمدانيون :

علم أبو عبد الله البريدى أن جماعة من الأتراك بزعامة توزون يريدون الفتك به ، وعلم توزون بذلك فاستولى على دار مؤنس ، وعاد الخليفة المتقى إلى بغداد فى ١٨ شوال سنة ٣٣٠ هـ بعد أن غاب عنها ثلاثة أشهر وعشرين يوما ، وقلد توزون شرطة بغداد ، واستوزر أبا إسحق القراريطى . ثم سطع نجم بنى حمدان فى أفق الدولة العباسية(٣) ، فخلع الخليفة على الحسن بن عبد الله ، وطوق وسور بسوارين وسمى ناصر الدولة . وخلع على أخيه أبى الحسن وعمل به مثل ذلك ، ولقب سيف الدولة . واستقر الأمر للحمدانيين ، فبدأ ناصر الدولة بن حمدان عهده باصلاح السكة ، وحال دون عبث العيارين والصيارف بعيارها ، وأضاف إلى عبارة محمد رسول الله « صلى الله عليه » ، ثم ضرب فى المحرم من سنة ٣٣١ هـ دنانير جديدة وهدد الصيارف بانزال العقاب بهم إذا لم يقلعوا عن الربا(٤) . ويقول ابن الأثير(٥) : « نظر (ناصر الدولة) فى العيار فرآه ناقصاً فأمر باصلاح الدنانير ، فضرب دنانير سماها الابريزية خير من غيرها ، فكان الدينار بعشرة دراهم ، فبيع هذا الدينار بثلاثة عشر درهماً » .

على أن حال بغداد فى عهد الحمدانيين (٣٣٠ — ٣٣١ هـ) الذين عرفوا بتشجيع الأدباء والشعراء بعطاياهم ، لم تكن أحسن منها فى عهد من سبقهم من أمراء الأمراء . فقد « كثرت المتلصصة ببغداد،

---

(١) ص ٢٢٥ . (٢) جـ ٨ ١٣٤ — ١٣٥ .
(٣) مسكويه ج ٢ ص ٢٨ . (٤) الصولى ص ٢٢٦ — ٢٢٩ و ٢٣١ (٥) جـ ٨ ص ١٣٦ .

وكبست دور المياسير ، وخرج الناس عن بغداد هاربين إلى كل وجه ، على انسداد طرقهم ، ولو أمنوا لخرج أضعاف من خرج . . . وسن (ناصر الدولة) من الضرائب على الناس ما لم يسمع بمثله . . . وغلت الأسعار فى جمادى الآخرة غلاء عظيما ، ومات الناس جوعاً ووقع فيهم الوباء ، فكانوا يبقون على الطريق أياماً لا يدفنون حتى أكلت الكلاب بعضهم . . . وكثر الجراد فى هذا الوقت فصاده الناس ، وانتفع الضعفاء بأكله وصيده ، وكان نعمة من نعم الله جل وعلا . . . وغلت الأسعار وعز كل شىء من سائر الأطعمة والملبوس »[١] . أضف إلى ذلك وقوع الخلاف بين سيف الدولة وبين توزون واستيلاء البريديين على الجامدة ، ثم وقوع الحرب بين البريديين وأحمد بن بويه على مقربة من البصرة[٢] .

على أن سوء العلاقات بين الخليفة وبنى حمدان لم يحل دون زواج أبى منصور بن المتقى من ابنة ناصر الدولة بن حمدان .

استوزر ناصر الدولة أبا العباس أحمد بن عبد الله الأصبهانى ، فلم يكن له من الوزارة إلا اسمها ، إذ كان أحمد بن على الكوفى ينظر فى كافة أمور الدولة . أما عن حال الخليفة فى عهد ناصر الدولة بن حمدان فيقول الصولى[٣] : « وضيق ناصر الدولة على المتقى لله فى نفقاته وعلى أهل داره ، وانتزع ضياعه وضياع والدته فجعلها فى جملته ، واقتصر به على أجزاء يسيرة . . . وتحدث الناس عن فعله هذا وصنعه بالخليفة ، ما كثر به الشاكى له والداعى عليه ، وتمنى الناس بنى البريدى وغيرهم ، مع ما نالهم من الضر والضرائب والغلاء ونكبات الناس وأخذ أموالهم » . فلا عجب إذا قامت الوحشة بين الخليفة وناصر الدولة . وقد زاد الصولى هذه المسألة بياناً فقال ، إن ناصر الدولة عزم على الرحيل إلى الموصل ، فأشار عليه الخليفة أن ينتظر ريثما يعد عدته للرحيل معه ، فلم يحفل ناصر الدولة بطلب الخليفة ، وكره المسير معه وسار إلى الموصل فدخلها . وبذلك مهد السبيل لدخول توزون بغداد فى شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ[٤] .

وقد علل ميور[٥] قصر عهد الحمدانيين فى بغداد فى هذه العبارة : « إن العرب لم تعد لديهم القدرة على مناوأة العناصر المتبربرة التى أصبحت لها السيادة فى بغداد فى ذلك الوقت . وإن الجند المرتزقة من الأجانب وقوادهم قد ألقوا منذ زمن طويل الاحترام والطاعة لرؤسائهم من العرب ، حتى إننا نرى أن الجند من العرب الذين أهمل شأنهم وطوح بهم فى زوايا النسيان ، لم يقووا بعد على التماسك والاحتفاظ بشخصيتهم ، أمام الجند من الأتراك الذين مرنوا على الحروب وألفوا حسن

---

(١) أبو بكر الصولى ص ٢٣٤ — ٢٣٧ . (٢) المصدر نفسه ص ٢٣٣ .

(٣) ص ٢٣٥ .

(٤) أبو بكر الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٤٠ و ٢٤٢ .

(٥) The Caliphate, p. 573 .

النظام » . وهكذا لم يستطع زعماء الحمدانيين من العرب البقاء فى بغداد أكثر من سنة واحدة ، واضطروا إلى العودة إلى الموصل ، فقد استطاع أحد القواد من الترك ، واسمه توزون ، أن يدخل بغداد بعد انتصاره على البريديين فى البصرة وواسط . ولم يستطع الحمدانيون أن يفرضوا نفوذهم على الأتراك فى بغداد التى أصبحت مرعى خصيباً للفوضى ومصادرة الأهلين » .

٦ — توزون :

دخل توزون بغداد فى شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ ، وخلع عليه الخليفة المتقى فى ٦ شوال من هذه السنة ، وجعله أمير الأمراء . وكانت سياسة توزون ترمى إلى مصالحة البريديين فى واسط والتفرغ لمحاربة الحمدانيين . ولكن الخليفة لم يقره على هذه السياسة . ويقول الصولى[١] : « وحرص توزون على أن يتركه المتقى لله يصالح البريديين على مال يحملونه ويفرغه لابن حمدان فأبى عليه . وكان البريديون قد صاروا إلى واسط . . . وكان (توزون) كاتبه (يعنى الخليفة) فى الحيلة على بنى حمدان ، فأخرج سيف الدولة عن واسط » .

على أن البريديين سرعان ما استولوا على واسط ، فطردهم توزون منها ، ثم استولى على تكريت ، واتخذ ابن شيرزاد الذى هرب من البريديين كاتبا له على غير رضا من الخليفة ، ثم سار ابن شيرزاد إلى بغداد ودخلها فى المحرم سنة ٣٣٢هـ[٢] ، فعزم الخليفة على الخروج من حاضرة ملكه[٣] على رغم نصيحة القاضى أبى عبد الله محمد بن عيسى . ويقول ابن الأثير[٤] فى سبب وقوع الوحشة بين الخليفة المتقى وبين توزون أمير الأمراء ، إن جماعة من حاشية المتقى « كتبوا إلى ابن حمدان لينفذ عسكراً يسيراً صحبة المتقى لله إليه ، وقالوا للمتقى : قد رأيت ما فعل بك البريدى بالأمس : أخذ منك خمسمائة ألف دينار ، وأخرجت على الأجناد مثلها ، وقد ضمنك البريدى من توزون بخمسمائة ألف دينار أخرى زعم أنها فى يدك من تركة بجكم ، وابن شيرزاد واصل ليتسلمك ويخلعك ويسلمك إلى البريدى ، فانزعج لذلك وعزم على الإصعاد إلى ابن حمدان ، وورد ابن شيرزاد فى ثلثمائة رجل جريدة » .

ويقول السيوطى[٥] : « فسار المتقى بأهله إلى تكريت ، وخرج ناصر الدولة بجيش كثير من الأعراب والأكراد إلى قتال توزون ، فالتقيا بعكبرة[٦] ، فانهزم ابن حمدان والمتقى إلى الموصل ، ثم تلاقوا مرة أخرى ، فانهزم ابن حمدان والخليفة إلى نصيبين » .

ولما اتصل بتوزون خبر هرب الخليفة من بغداد وتغيره عليه وعمله على التخلص منه ، اتفق مع البريدى وزوجه ابنته ثم سار إلى بغداد ، وسار سيف الدولة الحمدانى إلى تكريت حيث كان

---

(١) ص ٢٤٧ . (٢) أبو بكر الصولى ص٢٤٤ — ٢٤٥ . (٣) المصدر نفسه ص ٢٤٧ .
(٤) ج ٨ ص ١٤٢ . (٥) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٢ .
(٦) بضم العين وتسكين الكاف وفتح الباء ، بليدة من نواحى دجيل بينها وبين بغداد شمالا عشرة فراسخ .

يقيم الخليفة ، ولحق به أخوه ناصر الدولة بن حمدان . وعلى مقربة من تكريت وقعت الحرب بين الحمدانيين وبين توزون الذى انتصر عليهم ، ثم سار الحمدانيون مع الخليفة إلى الموصل(١) .

على أن انتصار توزون على الحمدانيين فى تكريت قد شجعه على المسير إلى الموصل لاستخلاصها منهم ، وكتب إلى الخليفة يستميله ، فلم يصغ إليه لأنه لم يكن يثق به . ثم قصد الحمدانيون بصحبة المتقى إلى نصيبين « ودخل توزون الموصل ، فسار الخليفة إلى الرقة ولحق به سيف الدولة ، وأرسل المتقى إلى توزون يذكر أنه استوحش منه لاتصاله بالبريدى وأنهما صارا يداً واحدة ، فان آثر رضاه يصالح سيف الدولة وناصر الدولة ليعودا إلى بغداد . . . فتم الصلح وعقد الضمان على ناصر الدولة لما بيده من البلاد ثلاث سنين ، كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم . وعاد توزون إلى بغداد وأقام المتقى عند بنى حمدان بالموصل ، ثم ساروا عنها إلى الرقة فأقاموا بها »(٢) .

ويقول أبو بكر الصولى(٣) : « وسفر فى الصلح بين توزون وناصر الدولة ، على أن يرجع الخليفة إلى داره ، ويحمل ابن حمدان إليه فضلا مما كان يحمله ، على أن الامارة تكون لعبد الواحد بن المتقى . فكان ناصر الدولة أسرع الناس إجابة وأشهاهم لتمامه ، فكره أخوه وأصحابه ذلك ، وكرهه الخليفة . . . وصح عزم الخليفة وناصر الدولة على محاربة توزون ثانية ، فسار سيف الدولة فى الجيش كله إلى تكريت لأيام خلت من رجب . وبلغ توزون خبرهم ، فشخص إليهم فى عدته . . . فحمل عليهم فى نحو ثلثمائة غلام وحققوا معه ، فما هابوا سيفاً ولا رمحاً حتى أزالوهم وهزموهم فولوا هاربين . . . ورأى توزون أن يمضى إلى الموصل ، وكاتب الخليفة بأنه عبده ولا خلاف عليه منه ، فما قبل ذلك ، فرحل الأمير توزون إلى الموصل لا يلوى على شىء . وبلغ الخليفة وابن حمدان ذلك ، فرحل إلى نصيبين ، وحوى توزون الموصل وما فيها من الأطعمة ، وعسكر خارجها على أن يقصد نصيبين ويوقع بمن فيها . وكتب إلى ابن حمدان فى إنفاذ الخليفة إليه ، فكره الخليفة أن يصير إليه بعد ما فعله ، فأسرع من نصيبين إلى الرقة فى أصحابه الذين خرجوا من بغداد معه ، مستنجداً بابن طغج وكتب بذلك إليه . . . وكان من رأى ناصر الدولة أن يرجع الخليفة إلى بغداد ، وأن يفارق هو الأمير توزون على مال يحمله ويصرفه إلى بغداد ، فخالفه المتقى لله ، وخرج من أعماله معتمداً على ابن طغج أبى بكر الإخشيد » .

وفى سنة ٣٣٢ هـ علم الإخشيد بما آل إليه أمر الخليفة المتقى ، وما كان من خروجه من بغداد ووقوعه فى يد الحمدانيين وقد استفحل أمرهم ، وتنازع السلطة بين توزون والبريدى وقد قوى بطشهما ، فلم يجد بداً من الاستنجاد بالاخشيد أقوى ولاته .

ويقول السيوطى(٤) : « فكتب الخليفة إلى الاخشيد صاحب مصر أن يحضر إليه ، ثم بان

---

(١) الصولى ص ٢٥٢ — ٢٥٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٤

(٢) ابن الاثير ج ٨ ص ١٤٤ (٣) أخبار الراضى بالله والمتقى لله : ص ٢٥٦ — ٢٥٧

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٢

له من بنى حمدان الملل والضجر ، فراسل الخليفة توزون فى الصلح ، فأجاب وبالغ فى الايمان . ثم حضر الإخشيد إلى المتقى وهو بالرقة ، وقد بلغه مصالحة توزون فقال : يا أمير المؤمنين ! أنا عبدك وابن عبدك . وقد عرفت الأتراك وفجورهم وغدرهم ، الله الله فى نفسك ، سر معى إلى مصر ، فهى لك ، وتأمن على نفسك . فلم يقبل ، فرجع الاخشيد إلى بلاده ، وخرج المتقى من الرقة إلى بغداد فى رابع المحرم سنة ثلاث وثلاثين (وثلثمائة) » .

سار الإخشيد إلى بلاد الشام . وفى مدينة الرقة لقى الخليفة وعرض عليه البقاء معه فى الشام أو الذهاب إلى مصر . إلا أن توزون تعهد بحماية الخليفة إذا ما بقى فى بغداد بعد مفاوضات دارت بينه وبين الاخشيد ، فعاد الخليفة إلى بغداد وسار الاخشيد إلى مصر .

على أن ما حدث فى الدولة العباسية من أحداث لا يرجع إلى توزون وحده ، فقد اعتمد الخليفة على معاونة الاخشيد ، ولم يثق بتوزون ، برغم إلحاحه عليه أن يعدل عن سياسة العداء وأن يعود إلى بغداد حيث يستطيع أن يجد الطمأنينة والسلام . ولكن بطانة الخليفة أوغرت صدره من ناحية أمير الأمراء ، وشجعته على انتهاج سياسة العداء نحوه . ولا غرو فقد كان توزون يرمى إلى مصالحة ناصر الدولة بن حمدان والخليفة بعد أن كان قد تصالح مع البريديين وأمن جانبهم ؛ حتى إذا تم له ذلك تفرغ لمناهضة بنى بويه الذين تفاقم شرهم وزاد خطرهم . وتم الصلح بين توزون وبين ناصر الدولة ، ورجع توزون إلى بغداد فى الوقت الذى دخل فيه بنو بويه واسط ، وجمعوا الضرائب وجبوا الخراج (رمضان سنة ٣٣٢ هـ) . على أن توزون لم يهدأ من ناحية الخليفة الذى كاتب بنى بويه ودعاهم إلى المسير إلى بغداد . وقامت المؤامرات فى بغداد لقتل توزون وتمهيد السبيل لدخول بنى بويه . ويصف أبو بكر الصولى حالة بغداد فى هذا الوقت والمصائب التى استهدفت لها الدولة العباسية ، فيقول بصدد كلامه على أبى جعفر بن يحيى . بن شيرزاد كاتب توزون والقابض على زمام الأمور فى بغداد : « منها مجىء الديلم إلى قرب بغداد فى الجيش الذى لا يقام لمثله ، ومعه كتب يقرؤها على الناس بمكاتبة المتقى لله له يأمره بقصد بغداد ، وذلك ما لا يكذب به أحد ممن سمعه ، لهرب الخليفة ، وما أظهره من عداوته للأمير :

فمنها علة الأمير توزون التى اشتدت فى هذا الوقت ، فما خرج عن بغداد إلا وهو عليل رقيد .

ومنها قلة المال وأنه لا يرجع إلى شىء معه ولا يقدر على استسلاف من التجار على شىء يرد ، ولا مطالبة للمستظهرين منهم بقرض ، لئلا تنفر عامة البلد مع حاجته إلى تسكينهم وإلى الرفق بهم .

ومنها مجىء القرامطة إلى الكوفة يطالبون بمائة وخمسين ألف دينار .

ومنها شذوذ الخليفة وتباعده إلى الرقة ، يورى الناس أن توزون قد عصاه وأراد إتلافه فهرب منه ، وأن الترجمان يهتف بذلك ويجاهد به ، ويكاتب الناس من أهل الشرق والغرب بمعونة الخليفة وإغاثته واستنقاذه قليلا قليلا .

ومنها أن ناحية ناصر الدولة التى كانت مغوثة (١) بالأموال الموكفة(٢) والأقوات الواردة قد أفسدها الخليفة ومن معه ، فانقطعت مواردها وغلت الأسعار بها ، ويئس الجند منها ؛ إلى أشياء بعد هذا لعله لا يجوز ذكرها . فصبر أبو جعفر (بن شيرزاد) على هذا كله ، حتى كشفه الله لمناصحته وبمن تدبيره (٣) » .

وقد أخطأ الخليفه المتقى بتركه بغداد ودعوته بنى بويه إلى دخولها ، وعدم وثوقه بتوزون على رغم هذه العهود والمواثيق التى أعطاها إياه . يقول أبو بكر الصولى(٤) : « ولا والله ما سمعت بأعجب من أفعال المتقى لله كلها ، أول خطئه ، وتركه الرأى ، وركوبه العوز : تركه دار مملكته وخروجه عنها برأى الترجمان وأشباهه لغير سبب أوجب ذلك ولا اضطرار دعا إليه . والأمير توزون إلى وقته ذاك مطيع له تابع لما يشتهيه ، عالم مع ذلك أن الصواب والرأى غيرُ ما تكلفه . فمن ذلك : أن الأمير أقام بواسط ليستنطف(٥) الأموال بها ، فكتب إليه : دع كل شىء وصر إلىَّ ولعن الله المال ! فراجعه فألح عليه فقدم ؛ فخلع عليه قبل استضرابه وأمَّره . وأشار الأمير عليه أن يصالح بنى البريدى إذ كانوا قد ظفروا بمجيئه بكثير من المال ، وقال : نستعجل الأموال منهم ، ونحن على أمرنا بعد ذلك ، فخالفه وقال : لا بد من محاربتك لهم وإزالة أمرهم . وكان رأى الأمير صواباً فى هذا ، فترك الرأى ولم يخالفه » .

عاد توزون إلى بغداد بعد أن انتصر على الديلم(٦) ، وقابله الأهالى بالترحاب . « وكانت ركبته هذه ركبة ما ركب أحد مثلها قط إلا خليفة ، لأنه كان بين يديه مائة جنيبة ودابة وبغل ، بالسروج المذهَّبة والمفضضة ، وبين يديه وخلفه من الغلمان الأتراك بألوان الثياب وأحسن السيوف والمناطق وأفره الدواب ، وهم عدة ، ما اجتمع لأحد منذ مدة طويلة مثلهم . وما من قائد من قواده بعد هذا إلا وهو مساو بعِدته وعُدَّته لأجل أمراء النواحى وأصحاب الأطراف الممتنعين بها(٧) .

ونجمل حالة بغداد فى العهد الذى تولى فيه توزون إمرة الأمراء ، فنقول نقلا عن أبى بكر الصولى : « ووقع على التجار ببغداد ظلم عظيم وخبط شديد ، وتهارب الناس وخرج عن بغداد جماعة من مياسير اليهود والمجوس إلى الشام ، وكاتب توزون البريدى ووافقه على مال بعينه ، فوجَّه إليه البريدى بمال ، ووافى جميع من كان من جيش توزون فى طريق واسط إلى معسكره بباب الشماسية ، وفر بعض غلمان توزون إلى تكريت ... وغلت الأسعار ببغداد وإمارة بغداد من قبل توزون(٨) . . . وكان أمير بغداد أبو العباس إسكورج قد اصطنع ابن حمدى ، وأمَّل أن يرتدع

---

(١) أغاثه إغاثة ومغوثة أعانه ونصره أى نجده .

(٢) وكف البيت بالمطر ووكفت العين بالدمع وكفا ووكوفا سال .

(٣) أبو بكر الصولى ص ٢٥٨ — ٢٦٤ (٤) ص ٢٨٠ — ٢٨١

(٥) نطف الماء سال ونطفت القربة إذا قطرت من وهى ، والنطفة الماء الصافى قل أو كثر . والناطف نوع من الحلوى سمى بذلك لأنه ينطف أى يقطر قبل استضرابه .

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٤ — ١٤٥ (٧) أبو بكر الصولى ص ٢٦٧

(٨) المصدر نفسه ص ٢٥١

ويقصر ويعرف به جميع المتلصصة. فكان يرسل أصحابه على الناس ، فلهم فى كل يوم حادثة عظيمة، وكبس وإغارة على الأموال . وقف إسكورج على أنه أصل ذلك كله ، وقيل لأمير توزون فيه غير مرة . وعرف أبو جعفر (بن شيرزاد) الأمير حقيقة خبره ، فأمر به فضرب وسطه فى دار الأمير توزون ، وحمل إلى الجسر على جمل ، ونودى عليه : هذا ابن حمدى اللص فاعرفوه . وظفر بجماعة من أصحابه فقتلوا وصلبوا ، فسر الناس بذلك وقالوا : ما أمنّا على أنفسنا وأموالنا إلا الآن ، بقتل ابن حمدى وأصحابه ، وكثر الدعاء للأمير توزون . وكان قتله برأى أبى جعفر بن يحيى بن شيرزاد الكاتب[1] . . . ووقع فى هذا الشهر بالكرخ حريق عظيم من حد طاق التك إلى السماكين ، وعطف على أصحاب الكاغد وأصحاب النعال ، وذهبت النيران بأمتعة البزّازين وأموال خطيرة . وكان وقوع الحريق ليلا ، فبادر الناس ليخلصوا أمتعتهم ، فكان كل من أخرج شيئاً نهبه الخرابون ومن يعينهم من العيارين ، فما وصل الناس إلى شىء من أمتعتهم »[2] .

حاول بنو بويه الاستيلاء على بغداد ، فصدهم توزون وأحل بهم الهزيمة على الرغم من اعتلال صحته .

ومهما يكن من شىء فان الجو لم يصف لتوزون بسبب غضب الخليفة عليه . فقد قامت المؤامرات لخلعه وتعبيد السبيل لدخول بنى بويه . على أن توزون قد بذل قصارى جهده فى مصالحة الخليفة ودعاه للعودة إلى بغداد ، وكتب على نفسه العهود والمواثيق بأن يكون وفياً مخلصاً له . وقدم القاضى أحمد ابن عبد الله بن إسحق إلى بغداد فى ٤ من شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ يحمل خلع الخليفة وطوقاً من ذهب ، « وأمر الأمير بعمارة دار الخليفة ، وبناء ما استهدم منها . وكان يركب بنفسه حتى يشاهد ذلك ويعاينه . وكان فى الرسالة أن يخرج الأمير إلى واسط ، فقال : هذا لا أجيب إليه ، يعمل على أن ابن طغج إذا قرب من بغداد خرجت وتلقّيته ، وأزلت كل ما فى نفسه ، فاذا صار فى داره أمرنى بما شاء حتى أفعله ؛ وإن خرجت ولم أره كنت عند الناس عاصياً ! وامتنع من أن يلبس الخلع إلا بحضرة الخليفة إذا رآه ، وكتب القاضى إلى الخليفة بإحكامه له جميع ما أراد ، وأشار عليه بالمبادرة إلى الحضرة » . وأقيمت الاستعدادات على قدم وساق لاستقبال الخليفة ، « ونصب الناس القباب بباب الطاق ، وأخرج الأمير توزون أثقاله وجماله إلى باب الأنبار »[3] .

بيد أن الصفاء لم يدم بين توزون والخليفة المتقى بسبب تآمره عليه وعمله على صرفه . فقبض توزون عليه فى شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ ، ونهب أصحابه عسكره ، وأخذ الخاتم من يده . « واستخرج عبد الله بن المكتفى بالله فألبسه ثيابا جاء بها معه ودفع إليه الخاتم . . . فصار إلى مضرب الأمير

---

(١) أبو بكر الصولى ص ٢٥٩ (٢) المصدر نفسه ص ٢٦١ — ٢٦٢

(٣) أبو بكر الصولى ص ٢٦٣و٢٧٩ — ٢٨٠ ، ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٨ — ١٤٩

فعقد له الأمر ، وكحّل[١] المتقى لله ، فصاح ، فأمر أصحاب الدَّبادب[٢] فضربوا بها ، فصاح فلم يسمع صياحه ، بعد أن خلع نفسه وسلم الأمر إلى الخليفة عبد الله . . . فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً[٣] . ويقول المسعودى فى كتابه مروج الذهب[٤] : «فبكى المتقى ، وصاح النساء والخدم لصياحه ، فأمر توزون بضرب الدَّبادب حول المضرب[٥] ، فخفى صراخ الخدم ، وأدخل إلى الحضرة مسمول العينين ، وأخذ منه البردة والقضيب والخاتم وسلمها إلى المستكفى بالله . وبلغ ذلك القاهر فقال : « قد صرنا بحقيق نحتاج إلى ثالث ، يُعَرِّض بالمستكفى بالله » . ويقول السيوطى[٦] : « ولما كحل (يعنى المتقى) قال القاهر » :

صرت وإبراهيمَ شيخَىْ[٧] عمىً ... لا بدَّ للشيخين من مَصْدَرِ
ما دام توزونُ له إمرةٌ ... مطاعةٌ فالميلُ فى المجمر

وظل المتقى مسجونا خمسة وعشرين سنة إلى أن مات فى شهر شعبان سنة ٣٥٧ هـ .

كانت الدولة العباسية فى الوقت الذى خلع فيه المتقى مضطربة ، إذ كانت السلطة كلها فى يد توزون أمير الأمراء ، وقد استعان بأبى جعفر بن شيرزاد الذى اتخذه كاتبا له ، وتولى الوزارة أبو الحسين على بن محمد بن مقلة . وتولى القضاء أحمد بن عبد الله بن اسحق الخرقى ، والشرطة ببغداد أبو بكر محمد بن جعفر النقيب ، والحسبة رجل يعرف بالأسمر ، كما اتخذ أبا العباس أحمد بن خاقان المفلحى حاجبا له . وولى مصر والشام أبو بكر محمد بن طغج الأخشيد ، وولى الحسن بن عبد الله بن حمدان الموصل وديار ربيعة وديار بكر ، ونوح بن نصر بن أحمد السامانى بلاد خراسان ، وعلى بن بويه فارس والأهواز ، وأصبهان الحسن بن بويه[٨] .

المستكفى بالله

٣٣٣ — ٣٣٤ هـ = ٩٤٤ — ٩٤٦ م

بويع عبد الله بن المكتفى فى شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ على ما تقدم ، ولقب المستكفى بالله ، وكان فى الحادية والأربعين من عمره . وأمه أم ولد اسمها أملح الناس[٩] . وقد أمدنا مسكويه[١٠] ، وعنه

---

(١) كناية عن سمل عينيه .
(٢) الدبادب : جمع دبداب ، وهو الطبل .
(٣) الصولى ص ٢٨٢ — ٢٨٣ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٤٩
(٤) ج ٢ ص ٥٣٢ .
(٥) المضرب : الفسطاط
(٦) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣
(٧) وردت فى السيوطى (ص ٢٦٣) شيخ وهو خطأ .
(٨) الصولى ص ٢٨٤ — ٢٨٥
(٩) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣
(١٠) ج ٢ ص ٧٢ — ٧٥

أخذ ابن الأثير ، بمعلومات طريفة عن خلع المتقى وأخذ البيعة للمستكفى ، وما كان للأتراك والنساء من أثر فى ذلك . وتبين لنا عبارته مبلغ الضعف الذى وصلت إليه الخلافة العباسية والخلاف الذى ساد بين أفراد البيت العباسى ، حتى إن هؤلاء كانوا لا يتورعون عن التآمر بعضهم على بعض ابتغاء الوصول إلى الحكم . وكان من أثر ذلك أيضاً أن « انخرقت الهيبة . . . وذهبت الرسوم التى كانت للخلافة ، وصارت الدار (دار الخلافة) طريقا لكل من لم يرها . وكان كل من وصل إلى المستكفى أجلسه بين يديه[1] » .

وهاك ما ذكره مسكويه : قال ثابت : حدثنى أبو العباس التيمى الرازى وكيله ، وكان خصيصا بتوزون مستوليا عليه ، قال : كنت أنا السبب فيما جرى على المتقى ؛ وذاك أن إبراهيم بن الربنبذ الديلمى لقينى يوما وسألنى أن أصير إلى دعوته ، فاستأذنت توزون فى ذلك ، فأذن لى فيه ومضيت إليه وهو ينزل فى دار القراريطى على دجلة ، فوجدت داره مفروشة منضدة ، فسألته عن السبب فى ذلك وقلت : أحسبك قد تزوجت فقال : أنا أحدثك عن أمرى : اعلم أنى خطبت إلى قوم وتجملت عندهم بأن ادعيت أن لى محلا من الأمير واختصاصا به ، فقالت لى المرأة : إذا كنت بهذه المنزلة ، فهل لك أن تسفر فى شىء يجمع صلاح الأمير وصلاحك وصلاح المسلمين ؟ فقلت لها : نعم ! قالت : هذا الخليفة (تعنى المتقى لله) قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم وكاشفتموه ، وليس يجوز أن تصفو نيته لكم آخر الدهر ، وقد اجتهد فى بواركم فلم يتم له ، فمرة ببنى حمدان ، ومرة ببنى بويه . وههنا رجل من ولد الخلافة من فهمه وعقله ودينه ورجلته كيت كيت ، تنصبونه فى الخلافة وتزيلون المتقى لله ، وهو يثير لكم أموالا جليلة لا يعرفها غيره ولا يقدر عليها سواه ، وتكونون أنتم قد استرحتم من عدو تريدون أن تحرسوه وتحترسون منه ، وتخافونه ويخافكم ، وتقيمون رجلا من قبلكم يرى أنكم قد أحسنتم إليه ، وأن روحكم مقرونة بروحه . وأطالت الكلام فى هذا المعنى ، فهوّ سَتنى ودار كلامها فى نفسى ، وعلمت أن محلى لا يبلغ الكلام فى مثله والسفارة فيه ، وكرهت أن أكذب نفسى عندها لما ادعيته من المحل والمنزلة ، فأطمعتها فى ذلك ، وعلمت أن هذا الأمر لا يتم إلا بك ولا يقدر عليه غيرك ، وقد أطلعتك عليه . فأى شىء عزمك أن تعمل ؟ فقلت : أريد أن أسمع كلام المرأة .

فجاءنى بامرأة تتكلم بالعربية والفارسية من أهل شيراز ، جزلة شهمة فهمة ، فخاطبتنى بنحو ما خاطب به الرجل ، فقلت لها : لا بد أن ألقى الرجل وأسمع كلامه ، فقالت : تعود غدا إلى ههنا حتى أجمع بينك وبينه . فلما كان من غد عدتُ فوجدت الرجل قد أخرج من دار ابن طاهر فى زى امرأة وحصل فى دار ابن الربنبذ فلقيته ، وعرفنى أنه عبد الله بن المكتفى بالله . وخاطبنى رجل حصيف فهم ، ووجدته مع هذا يتشيع ، ورأيته عارفا بأمر الدنيا ، وضمن لى ستمائة ألف دينار

---

(١) مسكويه ج ٢ ص ٣٦ نقلا عن كتاب العيون .

يستخرجها ويمشّى بها الأمر ، ومائتى ألف دينار للأمير توزون وقال : أنا رجل فقير ، وإنما أعرف وجوه أموال لا يعرفها غيرى ، وأعرف من ذخائر الخلافة فى يد قوم لا يعرفهم غيرى ، وذكر أن وجوهها صحيحة لا شك فيها ولا يقدر غيره عليها . فلما سمعت ذلك وعرفت صحته صرت إلى توزون ، وفكرت فى أن الأمر لا يتم بى وحدى ، فلقيت فى طريقى وأنا أصعد إلى توزون أباعمران موسى بن سليمان فى الحديدى الذى على باب توزون ، فأخذت بيده واعتزلنا ، واستحلفته على كتمان ما أطلعه عليه فحلف ، ثم حدثته به كله وسألته معاونتى على تمامه فقال : هذا أمر عظيم لا أدخل فيه . فلما آيسنى من نفسه سألته أن يمسك ولا يعارضنى فقال : أفعل ، فدخلت إلى توزون وأدخلته إلى حجرة وخلوت به ، واستحلفته بالمصحف وبإيمان مؤكدة أن يكتم ما أحدثه به ، فحلف . فلما حلف حدثته الحديث من أوله إلى آخره ، فوقع بقلبه وقال : صواب ، ولكنى أريد أن أرى الرجل وأسمع كلامه ، فقلت : على ّ ذلك ، ولكن إن أردت تمام هذا الأمر ، فلا تطلع عليه أبا جعفر بن شيرزاد ، فانه يفشأ عزمك ويصرفك عنه فقال : أفعل . وبلغ أباجعفر خلوتى بالأمير ، فاتهمنى أنى سعيت عليه . ومضيت إلى القوم ووعدتهم بحضور الأمير ليرى الرجل ويكون الاجتماع فى منزل موسى بن سليمان ، وتشددنا فى الطوف بالليل فى دجلة . فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صفر ، وافى عبد الله ابن المكتفى بالله إلى دار موسى بن سليمان ، ولقيه توزون هناك ، وخاطبه وبايع له فى تلك الليلة ، وكتمنا القصة . فلما وافى المتقى لله من الرقة ولقيه توزون وسلم عليه ، قلت لتوزون : عزمك على ما كنا اتفقنا عليه صحيح ؟ فقال : بلى ! قلت : فافعله الساعة ، فإنه إن دخل داره بعد عليك مرامه ، فوكل به وجرى ما جرى » .

وكان الخليفة المستكفى ، كغيره من الخلفاء الذين سبقوه ، ألعوبة فى أيدى الأتراك ، حتى إن توزون الذى أقره الخليفة فى إمرة الأمراء « ضم إليه غلاماً تركياً من غلمانه يقف بين يديه »[1]. ولا شك أن الدافع الذى حدا بتوزون إلى انتهاج هذه السياسة هو الوقوف على أسرار الخليفة وما يجرى فى دار الخلافة من أمور .

٧ — ابن شيرزاد

وفى أوائل عهد المستكفى مات توزون فى المحرم سنة ٣٣٤ هـ . وكانت مدة إمارته سنتين وأربعة أشهر ، فخلفه فى إمرة الأمراء أبو جعفر بن شيرزاد . وقد ذكر ابن الأثير[2] أن ابن شيرزاد عزم بعد وفاة توزون على نقل إمرة الأمراء إلى ناصر الدولة بن حمدان ، إلا أن الجند أبوا عليه ذلك وحلفوا له يمين الطاعة ، وأقرهم الخليفة المستكفى على ذلك .

وقد اختلف المؤرخون فى تقدير أعمال ابن شيرزاد . فالصولى يرى أنه كان من أحسن الأمراء سياسة ، فيقول : « سبحان الله ! ما أعجب أمر البركة والحظوظ ! هذا أبو جعفر محمد بن يحيى

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٤١ (٢) جـ ٨ ص ١٦٠

ابن شيرزاد ، ما كتب لأحد قط إلا بلغ أعلى المراتب وأجل المنازل . مازال جد ابن الخال[1] يعلو ما دام يكتب له . فلما تركه أدبر وانحل أمره . وكتب لبجكم فبلغه ما لم يبلغ أمير من المال والهيبة ، وأصلح له قلوب أصحابه . وكتب لتوزون ، فبلغ به ما لم يظن الناس أن توزون يبلغه أبدا . . . والله الذى لا إله إلا هو إنه بالرحمة له منها أولى من الاغتباط بها له ، ولا تعمل إلا على أن واحدا قام مقامه وفعل فعله ، من أين يملك مثل طبعه حتى يجلس سائر نهاره وأكثر ليله ، لا يأكل ولا يشرب ولا يتشاغل بشىء من جميع الملاذ التى لا يصبر الناس عن شىء واحد منها ، ولا يحجب واحد عنه ، ولا ينصرف ذو حاجة أتاه إلا راضيا ، إما بقضائها وإما بوعد فيها يقنع به ، وإما بولاية يرى نفعها على ما أقله من حاجته وملتمسه ، أو تعويض له من ماله ، بصدر رحب ووجه طلق وخلق واسع لا يقدر المتخلق عن مثله ؟ » . ولما اتخذ توزون أبا جعفر بن شيرزاد كاتبا له وقدم بغداد ، أنشد أبو بكر الصولى قصيدة طريلة يمدح فيها الكاتب الجديد نكتفى منها بهذه الأبيات :

على اليمن والتوفيق ألبستَ خِلعة ... بها المتقى لله بالحق يؤثرك
رآك أحقّ الناس بالإمرة التى ... يمازج فيها جوهرَ الملك جوهرك
طبعتَ على عقل وجودٍ ونجدة ... فما تستطيع الحادثات تغيّرك
وسيان فى الأعداء مخبرك الذى ... به ينصر الله الولىّ وينصرك
أبو جعفر فى الرأى والعقل وافر ... به الله بعد الانتقاص يوفرك
سيُوردُك العذب الزلال مجرب ... عليم بتدبير الورى كيف يُصدرك[2]

على أن ابن شيرزاد لم يكن أقل عنتا ممن سبقوه ، بل إنه زاد أرزاق الجند من الأتراك والديلم زيادة كبيرة ، وصادر الأموال لاسترضائهم ، وفرض الأموال الكثيرة على الكتاب والعمال والتجار وغيرهم من الناس على اختلاف طبقاتهم . وزادت الضرائب فى أيامه زيادة حملت التجار على الهرب من بغداد ، وضاعت هيبة الحكومة ، وعجز الشرطة عن الضرب على أيدى اللصوص والمفسدين. وفى ذلك يقول مسكويه[3] : « وزاد ابن شيرزاد الأتراك والديلم فى أرزاقهم زيادات كثيرة ، فاشتدت الاضاقة ، فأنفذ إلى ناصر الدولة يطالبه بحمل المال ويطمعه فى رد الامارة إليه ، فحمل إليه دقيقا وسفاتج[4] بخمسمائة ألف درهم ، فلم يكن لها موقع مع الاضاقة ، فنقض ما عزم عليه من عقد الامارة لناصر الدولة وأقام على أمره . وقلد أبا السائب القاضى مدينة المنصور ، وقلد جماعة القضاة

---

(١) يقصد هارون بن غريب خال المقتدر .

(٢) أبو بكر الصولى ص ٢٥٥ و٢٦٥ و٢٧٣ — ٣٧٥ (٣) جـ ٢ ص ٨٣

(٤) السفتجة بضم السين وفتحها وفتح التاء فارسى معرب هى كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالا قرضا يأمن به من خطر الطريق والجمع سفاتج .

فى نواحى بغداد ، وأخذ فى المصادرات ، وقسط على الكتاب والعمال والتجار وسائر طبقات الناس ببغداد مالا لأرزاق الجند .

وكان الغمازون يغمزون بمن عنده قوت من حنطة أو عدة لعياله ، فكبسه وأخذه . . وكذلك من الضرائب ، فإنها كثرت حتى تهارب التجار من بغداد ، وعاد هذا الفعل بالخراب وفساد الأمر وزيادة الإضافة » ؟

لم تطل خلافة المستكفى بالله ، فقد جلس على العرش سنة وأربعة أشهر ، استبد فيها بالسلطة توزون وابن شيرزاد الذى استخفى بعد أن تقلد إمرة الأمراء ثلاثة أشهر وعشرين يوما . ثم استولى معز الدولة بن بويه على بغداد ، فرحب به الخليفة ، وخلع عليه ولقبه بلقب معز الدولة ، وأخاه علياً عماد الدولة ، وأخاه الحسن ركن الدولة ، وكتب ألقابهم وكناهم على السكة . ولكن سرعان ما استبد معز الدولة بالسلطة وقوى أمره وحجر على الخليفة . يقول السيوطى[1] : « ثم إن معز الدولة تخيل من المستكفى ، فدخل عليه فى جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين فوقف ، والناس وقوف على مراتبهم ، فتقدم اثنان من الديلم إلى الخليفة ، فمد يديه إليهما ظناً أنهما يريدان تقبيلهما ، فجذباه من السرير حتى طرحاه إلى الأرض وجراه بعمامته . وهجم الديلم دار الخلافة إلى الحرم ونهبوها ، فلم يبق فيها شىء . ومضى معز الدولة إلى منزله وساقوا المستكفى ماشياً إليه ، وخلع وسُمِلت عيناه يومئذ . . . وأحضروا الفضل بن المقتدر وبايعوه ، ثم قدموا ابن عمه المستكفى فسلم عليه بالخلافة ، وأشهد على نفسه بالخلع ، ثم سجن إلى أن مات سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة ، وله ست وأربعون سنة وشهران » .

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٤

الباب الثالث

عصر بنى بويه (فى العراق)

٣٣٤ - ٤٤٧ هـ = ٩٤٥ - ١٠٥٥ م

١ — حالة الدولة العباسية قبيل استيلاء بنى بويه على بغداد

لم تكد فترة التنافس على إمرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤ هـ) تنتهى حتى كان الضيق قد استحكم بأهل بغداد، فصاروا يأكلون الكلاب والقطط والجيف، وانتشر النهب والسلب بينهم، وأدّى الجوع بهم إلى نهب الحوانيت والحصول على ما فيها من السلع، وفرّ كثير منهم من بغداد إلى البصرة وغيرها، ومات أكثرهم فى الطريق من جراء الضعف وشدة الفقر (١).

وكان من أثر تنازع بعض الأمراء مع بعض على إمرة الأمراء أن استعان بعضهم ببعض. فقد استعان أبو عبد الله البريدى بعلى بن بويه الذى أصبح صاحب النفوذ فى فارس، واستعان ابن رائق بالحمدانيين على البريدى عند ما عجز عن إخراجه من بغداد التى استولى عليها على أثر وفاة بجكم سنة ٣٢٩ هـ. وأدى هذا التنازع على إمرة الأمراء وما أعقبه من الفوضى والاضطراب إلى دخول معز الدولة بن بويه مدينة بغداد على أهون سبيل.

من ذلك نقف على مبلغ ضعف الدولة العباسية فى ذلك الوقت الذى انقسم المسلمون إلى شيع وطوائف، فاشتد خطر القرامطة وتفاقم شر البيزنطيين، وطمع فيها الولاة فاستبدوا بالسلطة، واستقل كثير منهم بالحكم. ولا غرو فقد ازدادت شوكة الموالى من الأتراك الذين اتخذهم الخلفاء العباسيون حرساً لهم، فما لبثوا أن أصبحوا سادة. واجتمعت السلطة كلها فى يد واحد منهم هو أمير الأمراء، الذى فوّض إليه الخليفة تدبير المملكة، فلم يعد للخليفة من الأمر شىء سوى السلطة الدينيه، ممثلة بذكر اسمه فى الخطبة، ونقشه على السكة، للتظاهر بالمحافظة على رسوم الخلافة أمام الجمهور.

وقد وصف المؤرخ جبون Gibbon (٢) الحالة التى وصلت إليها الدولة العباسية فى ذلك العصر فقال: «ولم تكن حالة الضعف التى وصلت إليها الخلافة العباسية راجعة إلى السياسة فحسب، بل تعدّتها إلى الدين أيضاً، فقد تفرع من المذهب الشيعى على مر الزمن مذاهب متعددة، أهمها المذهب الفاطمى، ومنه المذهب الدرزى فى لبنان، ثم المذهب البابى فى بلاد الفرس — وقد ظهر فى الأزمنة الحديثة. وكذلك ظهرت الاختلافات الدينية فى بغداد، فقام أنصار ابن حنبل وانقضوا على بيوت الأمراء وذوى اليسار، وكسروا أوانى الخمر، وحطموا الآلات الموسيقية، وضربوا المغنين، وأهانوا الفتيان والفتيات وأساءوا بهم الظنون. ولم يكن من سبيل للقضاء على هذه الفئة إلا بقوة حربية. ولكن من ذا الذى يمكنه أن يَسُد جشع طائفة المرتزقة، أو يؤيد النظام بالقوة

---

(١) Muir : The Caliphate, p. 573

(٢) Decline and Fall of the Roman Empire, vol. VI. pp. 54—5

بين أفرادها ؟ هذا إلى ما كان من العداء بين الجند من الأتراك والمغاربة ، وكل يسل سيفه فى وجه الآخر . وصار فى يد أمير الأمراء حبس الخليفة وخلعه وقتله ؛ فكان هذا تعدّياً على سلطة الخليفة الدينية وما لها من حرمة فى النفوس . ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به على نفسه الأذى إلا هربه إلى معسكر أحد الأمراء . فكان إنقاذه تحولا عما كان فيه من مذلة إلى مذلة أخرى ، حتى دفعه اليأس إلى دعوة بنى بويه إلى معونته وتخليصه ، حتى إذا وقع فى قبضتهم صار ألعوبة فى أيديهم » . وسرعان ما دخل أحمد بن بويه بغداد ، فاستخفى ابن شيرزاد ، ودخلت الدولة العباسية فى عهد جديد هو عهد بنى بويه .

٢ — أصل بنى بويه :

ظهر بنو بويه فى عالم التاريخ فى أوائل القرن الرابع الهجرى من خلال ذلك الغموض الذى اكتنف تاريخهم قبل ذلك . وقد نقل لنا مترجمو حياتهم أقوالا مختلفة عن أسلافهم . وإن سلسلة نسب هذه الأسرة مسألة يحوطها الشك ، شأن الملوك والأمراء الذين تظهر عظمتهم مرة واحدة .

يقول بعض المؤرخين إنهم ينتسبون إلى بهرام جور أحد ملوك ساسان ، ويلحقهم بعض آخر بالآلهة كما كان يفعل الرومان فى تمجيد أبطالهم ، ويقول غيرهم إنهم كانوا من دهماء الناس . ويرى زترشتين (١) أن نسبهم لا يرجع إلى بهرام جور ، ولكنه يرجع إلى كبير وزرائه مهرنرسى .

ويقول صاحب الفخرى(٢) : « أما نسبهم فيرتفع من بويه إلى واحد واحد من ملوك الفرس ، حتى يتصل بيهوذا بن يعقوب بن إسحق بن ابراهيم الخليل عليه السلام ، وكذلك إلى آدم أبى البشر . وليسوا من الديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم » (٣) . . . فان جدهم أبا شجاع بويه وأباه وجده كانوا كآحاد الرعية الفقراء ببلاد الديلم ، وكان بويه صياد السمك ، وقد كان معز الدولة بعد تملكه البلاد يعترف بنعمة الله تعالى ويقول : كنت أحتطب الحطب على رأسى (٤) » .

---

(١) أنظر لفظ بويه فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) ص ٢٤٩ .

(٣) تقع بلاد الديلم فى الجنوب الغربى من بحر قزوين (أو بحر الخزر أو بحر طبرستان لأنها أكبر البلاد الواقعة عليه) . وقد فتحت فى خلافة عمر بن الخطاب ، وخضع أهلها للحكم الاسلامى مع بقائهم على وثنيتهم إلى أن دخل بلادهم الحسن بن على الزيدى الملقب بالأطروش ، فأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الاسلام ، فأسلم على يديه كثير من الأهالى .

(٤) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٥٦) أن «معز الدولة المذكور كان فى أول أمره يحمل الحطب على رأسه ، ثم ملك هو وإخوته البلاد . . . وكان معز الدولة أصغر الاخوة الثلاثة » .

وتاريخ بنى بويه قبل ظهورهم فى عالم الدول أشبه بالخرافة . وكان لانتشار التنجيم والطلسمات فى ذلك الوقت أثره فى التنبؤ بما أضمره لهم القدر من التقدم فى معارج الرقى ، والوصول إلى درجة عظيمة من الملك ، واستبدادهم بالسلطة دون الخلفاء ، حتى خضعت لهم الرقاب ودانت لهم البلاد بعد ما كانوا يعانونه من الفقر والمسكنة . وفى ذلك يقول صاحب الفخرى[1] : «فكان من مبدأ دولتهم ما حدّث شهريار بن رستم الديلمى قال : كان أبو شجاع بويه فى مبدأ أمره صديقا لى ، فدخلت عليه وقد ماتت زوجته أم أولاده الثلاثة الذين تملكوا البلاد ، وهم عماد الدولة أبو الحسن علىّ ، وركن الدولة أبو علىّ الحسن ، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد ، وقد اشتد حزن أبى شجاع بويه على زوجته ، فعزّيته وسكّنت قلقه ، ونقلته إلى منزلى ، وأحضرت له طعاما وجمعت إليه أولاده الثلاثة . فبينا هم عندى إذْ مرّ بالباب شخص يقول المنجم المعزم ، مفسر المنامات ، كاتب الرُّقى والطلسمات ، فاستدعاه أبو شجاع بويه وقال له : قد رأيت البارحة رؤيا ففسرها لى ، ثم قص عليه الرؤيا ، فقال المنجم : هذا منام عظيم ولا أفسره إلا بخلعة وفرس ، فقال له بويه : والله ما أملك إلا الثياب التى على جسدى ، وإن أعطيتك إياها بقيت عُرْيانا . قال المنجم : فعشرة دنانير ، فقال له بويه : والله ما أملك دينارين فكيف عشرة ؟ ثم إنه أعطاه شيئاً يسيراً ، فقال المنجم : اعْلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها ، ويعلو ذكرهم فى الآفاق ، ويولد لهم جماعة ملوك ، فقال له بويه أما تستحى تسخر بنا ؟ أنا رجل فقير مضطر وأولادى هؤلاء فقراء مساكين ، فمن أين هم والملك ؟ فقال له المنجم : فأخبرنى عن وقت ولادة واحد من أولادك ، فأخبره بويه بذلك ، فجعل ينظر فى أصْطُرْلابه وتقاويمه ، ثم نهض المنجم وقبّل يد عماد الدولة أبى الحسن على وقال : هذا والله الذى يملك البلاد ، ثم يملك هذا من بعده وقبض على يد أخيه أبى علىّ الحسن ، فاغتاظ منه أبو شجاع بويه وقال لأولاده اصفعوه فقد أفرط فى السخرية بنا ، فصفعوه ونحن نضحك منه فقال المنجم : لا بأس بهذا إذا ذكرتم لى هذا الحال عند ولايتكم ، فأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم وانصرف » .

وإلى القارىء هذا الثبت الذى يبين مدى نشاط بنى بويه فى فارس وفى العراق والأهواز وكرمان ، وفى الرى وهمذان وأصفهان .

---

(١) ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

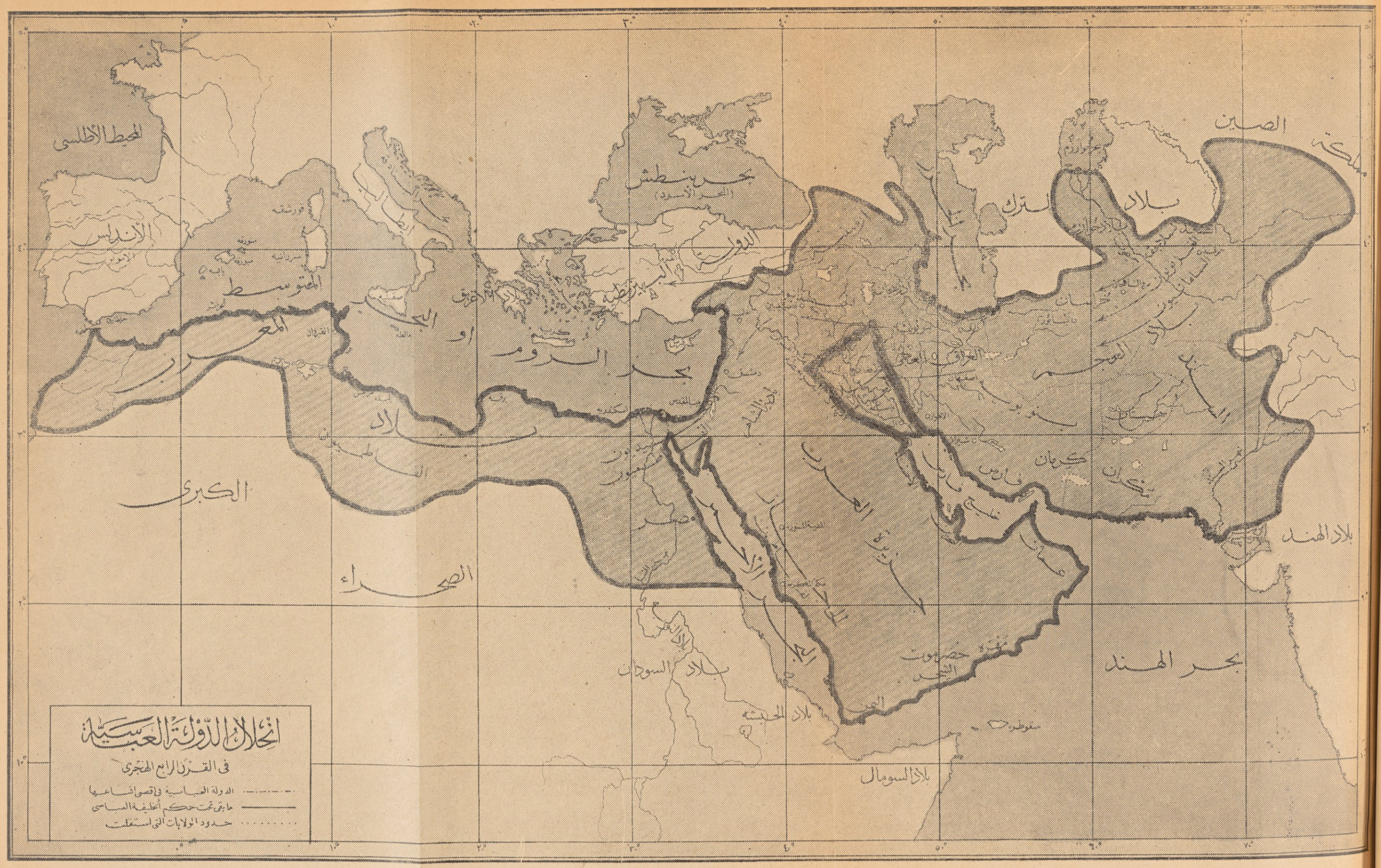

انحلال الدولة العباسية
فى القرن الرابع الهجرى
الدولة العباسية فى اقصى اتساعها
ما بقى تحت حكم الخليفة العباسى
حدود الولايات التى استقلت
المحيط الأطلسى
الأندلس
المتوسط
المغرب
بحر الروم
بحر بنطش
(البحر الأسود)
الدولة البيزنطية
بلاد الترك
مملكة الصين
بلاد العجم
بلاد الهند
بحر الهند
بلاد السودان
بلاد الحبشة
بلاد السومال
الصحراء الكبرى
مصر
الفاطميون
جزيرة العرب
البحر الأحمر
حضرموت
اليمن
عمان
كرمان
فارس
خليج فارس
مكران
خراسان
العراق العجمى

بنو بويه (١)

١ — فى فارس

	هجرية	ميلادية
١) عماد الدولة (أبو الحسن على)	٣٢٠*	٩٣٢
٢) عضد الدولة (أبو شجاع خسرو)	٣٣٨*	٩٤٦
٣) شرف الدولة (أبو الفوارس شيرزيد)	٣٧٢*	٩٨٢
٤) صمصام الدولة (أبو كالينجار المرزبان)	٣٧٩*	٩٨٩
٥) بهاء الدولة (الغراق)	٣٨٨*	٩٩٨
٦) سلطان الدولة (أبو شجاع)	٤٠٣*	١٠١٢
٧) عماد الدولة (أبو كالينجار المرزُبان)	٤١٥*	١٠٢٤
٨) أبو نصر خسرو (فيروز الرحيم)	٤٤٠—٤٤٧*	١٠٤٨—١٠٥٥

* هذه العلامة تدل على أنه كان يحكم بلاد العراق أيضاً

٢ — فى العراق والأهواز وكرمان

	هجرية	ميلادية
١) معز الدولة (أبو الحسين أحمد)	٣٢٠	٩٣٢
٢) عز الدولة (بختيار)	٣٥٦	٩٦٧
٣) عضد الدولة (فى فارس)	٣٦٧	٩٧٧
٤) شرف الدولة (فى فارس)	٣٧٢	٩٨٢
٥) بهاء الدولة (أبو نصر فيروز)	٣٧٩	٩٨٩
٦) سلطان الدولة (فى فارس)	٤٠٣	١٠١٢

(١) أنظر كتاب Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, p.p. 141—142.

ولايات منقسمة فى العراق

	هجريه	ميلاديه
١) مشرف الدولة	٤١١	١٠٢٠
٢) جلال الدولة	٤١٦	١٠٢٥
٣) عماد الدين (فى فارس)	٤٣٥	١٠٤٣
٤) أبو نصر خسرو فيروز (فى فارس)	٤٤٠ — ٤٤٧	١٠٤٨ — ١٠٥٥

كَرْمان

	هجريه	ميلاديه
١) قوام الدولة (أبو الفوارس)	٤٠٣	١٠١٢
٢) عماد الدين (فى فارس)	٤١٩	١٠٢٨
٣) أبو منصور فُلادستون	٤٤٠ — ٤٤٨	١٠٤٨ — ١٠٥٦

٣ — فى الرَّىِّ وَهَمذَان وأَصبَهان

	هجريه	ميلاديه
١) ركن الدولة أبو على حسن	٣٢٠	٩٣٢
٢) مؤيد الدولة أبو منصور (أصبهان فقط)	٣٦٦ — ٣٧٣	٩٧٦ — ٩٨٣
٣) فخر الدولة أبو الحسن على (ضم أصبهان سنة ٩٧٣م)	٣٦٦	٩٧٦
٤) مجد الدولة أبو طالب رستم	٣٨٧ — ٤٢٠	٩٩٧ - ١٠٢٩
(عزله محمود الغزنوى)		
٥) شمس الدولة أبو طاهر (همذان فقط)	٣٨٧	٩٩٧
٦) سماء الدولة أبو الحسن	٤١٢ —	١٠٢١ —
(عزله ابن كاكويه)	٤١٤	١٠٢٣

جدول يمثل تسلسل أمراء بنى بويه فى الحكم(١)

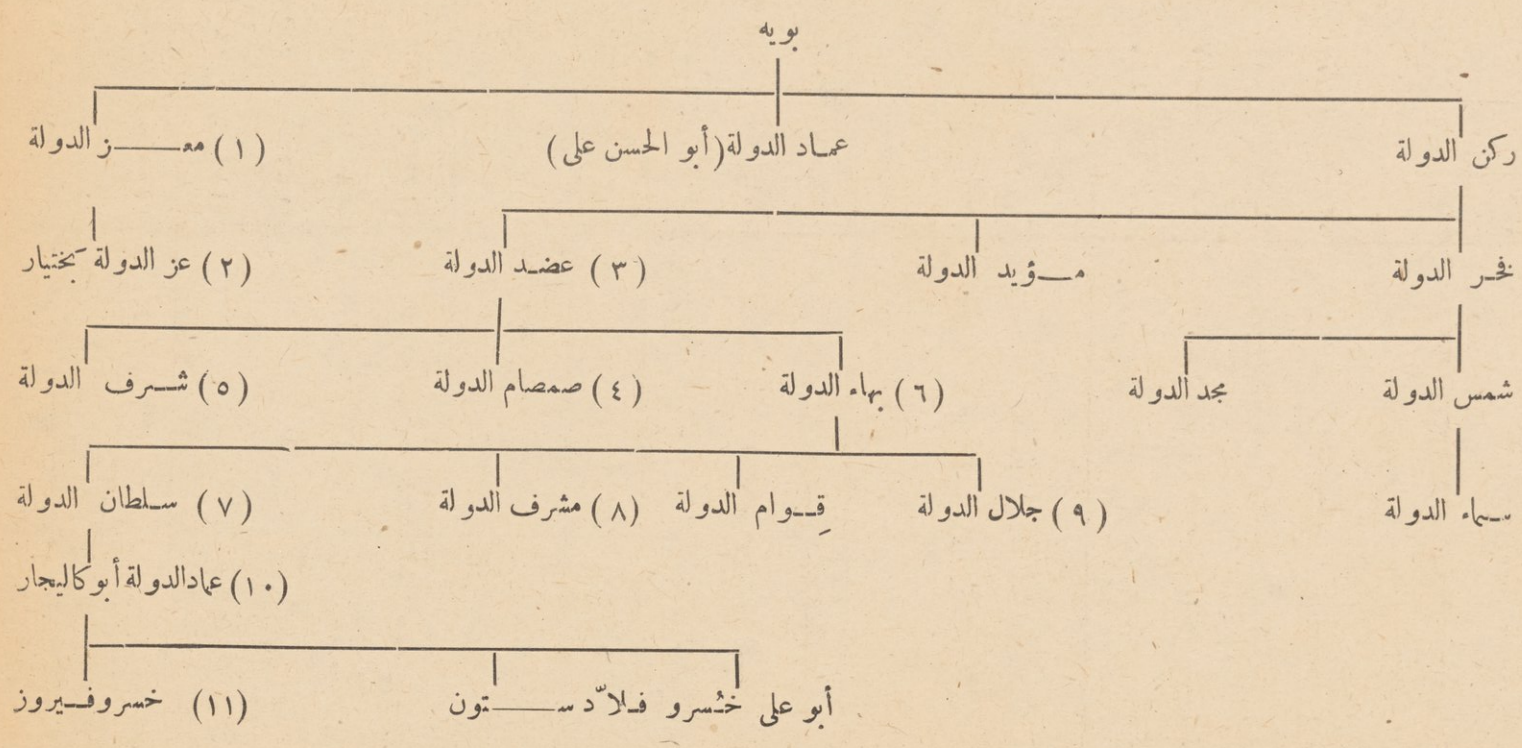

(١) نقلا عن Stanley Lane—Poole : Muhammadan Dynasties, p. 144

٣ — بنو بويه قبل استيلائهم على بغداد :

دخل بنو بويه فى زى الأجناد . وسرعان ما ارتقى على بن بويه وأخوه الحسن إلى مرتبة الأمراء فى جيش ماكان بن كالى . فلما قام النزاع بينه وبين مرداويج بن زيار ، الذى خرج على أسفار ابن شيرويه ، واستولى على كل بلاد جُرجان وطبرستان وقَزْوين وزَنجان وقُم والكرج[١] ، زاد نفوذه حول سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢م) ، وتحبب إلى الرعية فأحبته ، وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه ، وسريراً من فضة يجلس عليه أكابر قواده ، وامتدت سلطته إلى حدود العراق ، وأسس الدولة الزيارية ، وأراد أن يستولى على بغداد « وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب [٢] » .

ولما رأى أولاد بويه أن كفة مرداويج آخذة فى الرجحان انحازوا إليه ، وسر مرداويج أول الأمر بانحيازهم ، وولى على بن بويه بلاد الكرج [٣] . إلا أن مرداويج لم يلبث أن خشى خطرهم ، فأعاد إلى الخليفة مدينة أصبهان التى كان قد فتحها باسمه احمد بن بويه ، وجلب على نفسه بذلك عداوة البويهيين [٤] ؛ ثم أرسل إلى أخيه وشمكير فى الرى يأمره بصرف أولاد بويه إذا ما وصلوا إليه ، فصرفهم إلا على بن بويه لما رآه فيه من الكرم وحسن التدبير ، وساعده على الخروج سراً أبو عبدالله الحسين بن محمد الملقب بالعميد والد أبى الفضل بن العميد وزير ركن الدولة المشهور . ومضى على بن بويه إلى بلاد الكرج وآل إليه حكمها . يقول مسكويه [٥] : « وكتبت لهم العهود ووردوا الرى وبها وشمكير وأبو عبد الله الحسين بن محمد الملقب بالعميد ، وكان ناظراً فى الأمور بالرى ، فعرضت عليه بغلة حسنة كانت لعلى بن بويه أراد بيعها والاستعانة بثمنها ، وكان ثمنها ثلاثة آلاف درهم قيمتها مائتى (كذا فى الأصل وصحتها مائتا) دينار ، فاشتراها وحمل المـــال إليه ، فظهر لعلى بن بويه أنها تشترى لأبى عبد الله العميد ، وحلف ألا يأخذ ثمنها ، ثم تابع ذلك بملاطفات كثيرة إلى أن غمره بالبر . ثم أوجب الرأى عند مرداويج أن يتعقب ما أمر به من تولية أولئك القواد ، وكتب إلى أخيه وشمكير وإلى أبى عبدالله العميد بمنعهم من الخروج من الرى — وإن كان بعضهم خرج مُنع من بقى — وكانت الكتب تصدر أولا إلى العميد فيقف عليها ، ثم تعرض على وشمكير جُمَلها . فحين وقف على الكتاب تقدم إلى على بن بويه سراً أن يبادر إلى عمله ، فسار من وقته وساعته وطوى المنازل ، وأصبح العميد من الغد فأظهر الكتب ، فلما عرضها على وشمكير ، كان قد صار على بن بويه على مسافة بعيدة ، فمنع من لم يكن خرج من أولئك القواد ؛ وفاز على بن بويه بالولاية التى كانت سبب ملكه وتمكنه » .

---

(١) الكرج بفتح أوله وثانيه مدينة بين همذان وأصبهان .

(٢) الفخرى ص ٢٥١ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٠٠ .

(٤) أنظر لفظ بويه فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٥) كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٢٧٨ .

على أن الجو لم يصف لعلى بن بويه ؛ فقد عوّل مرداويج على طرده من بلاد الكرج ، وأرسل جيشاً كبيراً لإخراجه منها ، فقصد أصبهان ، فلم يحسن صاحبها المظفر بن ياقوت لقاءه ، فاضطر إلى محاربته وانتصر عليه واضطره إلى الهرب إلى فارس الذى كان يليها أبوه ياقوت[١] ، وانضم إليه أربعمائة من الديلم ، فبلغ عدد جنده سبعمائة [٢] . ثم علم على بن بويه بمسير وشمكير إليه فقصد أرجان [٣] ، واستخرج من مالها خراجاً يبلغ ألفى ألف درهم [٤] . ثم خاف أن يجتمع عليه مرداويج ووشمكير ، فسار إلى إصطخر وانتصر على المظفر بن ياقوت ، ثم دخل شيراز ، وذلك سنة ٣٢٢ هـ [٥] .

أخذ على بن بويه بعد ذلك يعمل على كسب رضاء مرداويج ، فتملق نائبه ، وأقام الخطبة له ، وأهدى إليه كثيراً من الطرف ، وأنفذ إليه أخاه الحسن بن بويه رهينة ، فقلده أرجان[٦] . ثم تبع ذلك قتل مرداويج (سنة ٣٢٣ هـ) ، فاطمأن على بن بويه من جهته ، ولم يبق أمامه إلا القضاء على مناوأة ياقوت الذى عاد إلى الظهور ، واتفق مع أبى عبد الله البريدى على طرده من شيراز ، فهزمه على بن بويه بنواحى أرجان ، ودانت له بلاد فارس بالطاعة ، وطلب البريدى الصلح منه . أرسل على بن بويه بعد ذلك إلى الخليفة الراضى يطلب اعترافه بسلطانه فى فارس ، فأرسل إليه الخلع مع عيسى المالكى ، وأمره ألا يسلمها إليه إلا بعد أن يرسل ثمانية آلاف ألف درهم إلى بغداد ويتعهد بدفع مثلها كل سنة . ولكن ابن بويه احتال على الرسول وأخذ الخلع منه ، وماطله حتى مات سنة ٣٢٣ هـ بشيراز . يقول صاحب الفخرى [٧] : ثم عرضت مملكته حتى كتب إلى الراضى الخليفة يسأله أن يقاطعه على أعمال فارس فى كل سنة بعد النفقات والإطلاقات بما يحمله إلى دار الخلافة ، وهو ثمانمائة ألف ألف درهم ، على أن يبعث الخليفة إليه بخلعة السلطنة والمنشور ، فبعث الراضى إليه بذلك على يد رسول أرسله إليه ، وأوصاه ألا يسلم الخلعة والمنشور إليه حتى يقبض منه المال . فلما وصل الرسول إليه غالطه وأخذ الخلعة منه فلبسها ، والمنشور فقرأه على رءوس الأشهاد ، وقويت نفسه بذلك ، ووعد الرسول بالمال ودافعه مدة . فمات الرسول عنده وتقلبت الأحوال بالخلافة ، فكسر المال واستبد بالأمر » .

وبعد أن قضى على بن بويه على ياقوت ، وملك أرجان ، وحصل على اعتراف الخليفة بسلطانه فى فارس ، أصبح يخشى بأسه . ويقول ابن خلطان [٨] : « وكان عماد الدولة سبب سعادتهم التامة

---

(١) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٢٩٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٩٣ حيث ترى اختلافا فى هذا العدد .

(٣) ذكر ياقوت فى معجمه أرّجان (بفتح أوله وتشديد الراء وجيم وألف ونون) ، هى مدينة كبيرة كثيرة الخير تقع على بعد ستين فرسخاً من كل من شيراز والاهواز .

(٤) مسكويه ج ١ ص ٢٩٧ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٠٢ .

(٧) ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

(٨) كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٤ .

وانتشار صيتهم ، واستولوا على البلاد ، وملكوا العراقين والأهواز وفارس ، وساسوا أمور الرعية أحسن سياسة » .

ولم يكن على بن بويه (عماد الدولة) هو وحده الذى سما إلى قمة المجد والعظمة من أولاد أبى شجاع بويه ؛ فقد فر أخوه ركن الدولة الحسن ، الذى كان رهينة عند مرداويج بعد قتله ، واستولى على أصبهان والرى وهمذان وبقية بلاد العراق العجمى ، واتخذ أبا الفضل بن العميد وزيراً له[١] ، كما نازع أحمد بن بويه (معز الدولة) على بن العباس على ولاية كرمان[٢] ، وانتصر عليه ، ولكنه تركها له ملبيا دعوة أخيه على بن بويه لمعاونة البريدى على ابن رائق (سنة ٣٢٦ هـ) ، واستولى على الأهواز ، ثم دعاه الخليفة المتقى إلى دخول بغداد حين ساءت العلاقة بينه وبين توزون ، فسار إليها سنة ٣٣٢ هـ ، ولكن توزون هزمه قبل أن يصل إليها[٣] .

معز الدولة (٣٣٤ — ٣٥٦هـ) :

خلع مرداويج على أولاد بويه على ماتقدم ، وتمكن على بن بويه من مد سلطانه من بلاد الكرج إلى الأهواز ، وتولى أخواه السلطة فى كل جهات فارس الجنوبية . ثم كاتبه قواد بغداد وطلبوا منه المسير إليهم والاستيلاء على هذه المدينة ، فقابله الخليفة المستكفى واحتفى به ، وخلع عليه ، ولقبه معز الدولة[٤] ، ولقب أخاه علياً عماد الدولة ، ولقب أخاه الحسن ركن الدولة ، « وضرب ألقابهم على السكة ، ولقب المستكفى نفسه إمام الحق ، وضرب ذلك على السكة . ومن ثم أصبح بنو بويه أصحاب الأمر والنهى فى بغداد[٥] .

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٦٤ .

(٢) بفتح أوله وقد يكسر ، وسكون ثانيه وآخره نون ، ولاية مشهورة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان ، تقع مكران شرقيها وفارس غربيها وخراسان شماليها وبحر فارس جنوبيها ، وهى بلاد كثيرة النخل والزرع والمواشى ، تشبه البصرة فى وفرة خيراتها . انظر لفظ كرمان فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) ابن الاثير جـ ٨ ص ١١٩ — ١٢٠ ، ١٤٤ — ١٤٥ .

(٤) ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ٥٦) أنه « كان يقال له الأقطع ، لأنه كان مقطوع اليد اليسرى وبعض أصابع اليمنى » .

(٥) ذكر ستانلى لينپول Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, p. 140 أن الخليفة المستكفى لم يلقب هؤلاء الأخوة الثلاثة بألقاب عماد الدولة ، وركن الدولة ، ومعز الدولة ، بل خلع على معز الدولة لقب « أمير الأمراء » الذى احتفظ به كثير من أفراد البيت البويهى فيما بعد . ويقول لينپول إن من الخطأ أن نقول إنهم تلقبوا بلقب سلطان ، لأنهم لم يتخذوا لأنفسهم هذا اللقب قط على السكة ، وإنما استعملوا ألقاب أمير وملك فحسب ، ومع ذلك فإن نفوذهم كان مطلقا كنفوذ أى سلطان فى بغداد . وكان الخلفاء فى عهدهم أشبه بالأعيب ، وإن كانوا قد عاملوهم معاملة تنطوى فى الظاهر على الإخلاص والولاء ، على الرغم من أن بنى بويه كانوا شيعيين مغالين فى عقائد المذهب الشيعى .

على أننا قد عثرنا فى كتاب السيرة المؤيدية للمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، وكان معاصرا لثلاثة من ملوك بنى بويه وهم : جلال الدولة (+٤٣٦هـ) ، وأبو كاليجار (+٤٤٠هـ) ، والملك الرحيم (+٤٤٧هـ) آخر =

وكان بنو بويه من الشيعة المغالين فى عقائد هذا المذهب ، وكانوا — كما يقول سير توماس أرنولد(١) . — « لا يعترفون بحق الخليفة العباسى السنى فى السيادة على جميع العالم الإسلامى » ، ولذلك لم يسلم الخلفاء العباسيون من عسف بنى بويه وسوء معاملتهم .

وقد أصبح بنو بويه فى عهد هؤلاء الخلفاء مطلق التصرف فى العراق ، ولم يتورعوا عن التعدى على أشخاص الخلفاء وانتقاص حقوقهم(٢) . فإن معز الدولة لما دخل بغداد فكر فى إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية مكانها ، ولكنه عدل عن هذه السياسة لما قد يتعرض له سلطانه من خطر ، بسبب وجود خلافة علوية ، يطيعها الجند ، ويعترف بها الديلم ، ويكونون أداة فى يد الخليفة يستغلها لمصلحته متى شاء(٣) .

وقد ذكر ابن الأثير(٤) أن معز الدولة بعدأن أهان الخليفة المستكفى ، وقبض عليه وسمل عينيه ، وأجلس المطيع (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) على العرش من بعده ، أصبح هذا الخليفة الجديد ألعوبة فى يده ، « فازداد أمر الخلافة إدبارا ، ولم يبق لهم من الأمر شىء البتة . وقد كانوا يراجَعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل ، والحرمة قائمة بعض الشىء . فلما كانت أيام معز الدولة زال ذلك جميعه ، بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير ، إنما كان له كاتب يدير إقطاعه وإخراجاته لاغير ، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد . وكان من أعظم الأسباب فى ذلك أن الديلم كانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع ، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها . فلم يكن عندهم باعث دينى يحثهم على الطاعة ، حتى لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيين ، والبيعة للمعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين ، فكلهم أشار عليه بذلك ، ما عدا بعضَ خواصه فإنه قال : ليس هذا برأى ، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ؛ ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه . ومتى أجلستَ بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه . . . فأعرض عن ذلك . فهذا كان من أعظم الأسباب فى زوال أمرهم ونهبهم مع حب الدنيا

= ملوك بنى بويه فى العراق ، أن بنى بويه كانوا يلقبون بألقاب متعددة منها : لقب « شاهنشاه المعظم ملك الملوك محيي دين الله وغياث عباد الله ... سلطان الدولة ، معز أمير المؤمنين ، ويمين خليفة الله » ، كما كانوا يلقبون أحيانا بلقب أمير الأمراء .

انظر كتاب السيرة المؤيدية ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول ، رقم ٢٦٠٥٦ عربى ، ورقة ١١٤ .

(١) The Caliphate, p. 61

(٢) Hitti : History of the Arabs, p. 411

(٣) Noëldeke, Sketches from Eastern History, p. 88.

(٤) جـ ٨ ص ١٦٢ .

وطلب التفرد بها . وتسلم عز الدولة العراق بأسره ، ولم يبق بيد الخليفة منه شيء ألبتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته » .

« ونحن نميل إلى ترجيح صحة هذا القول ؛ فقد انتصح بنو بويه بهذا النصح ، فعدلوا عن تحويل الخلافة إلى العلويين . »(١) ولكن مما لا ريب فيه أن بنى بويه كانوا على اتصال بالفاطميين ، وأنهم سمحوا لدعاة خلفائهم بنشر عقائد مذهبهم فى بلاد العراق وغيرها من البلاد التى كانت خاضعة لنفوذ بنى بويه .

ومهما يكن من شيء فقد أجلس المطيع على عرش الخلافة ، وحدد له معز الدولة إقطاعات يسيرة يعيش منها ، كما عين له كاتباً يتصرف فى شئونها (٢) . هذا ما ذكره الأستاذ سير توماس أرنولد . وقد زاد مسكويه(٣) هذه المسألة وضوحاً فقال ، إن هذا التضييق على الخليفة المطيع لم يستمر طويلا ، فانه بعد أن استتب الأمر لمعز الدولة ببغداد « زاد (سنة ٣٣٥ هـ) فى التوثق من أمير المؤمنين المطيع لله ، فاستحلفه بيمين عظيمة ألا يتغيب عن معز الدولة ولا يبغيه سوءاً ، ولا يمالىء له عدواً ، فلما حلف أزال عنه التوكيل وعاد إلى دار الخلافة » .

ولم يكن هذا كل ما قام به معز الدولة لتقوية نفوذه وإضعاف سلطة الخليفة ، فقد عين ابنه أبا منصور بختيار أميراً للأمراء فى سنة ٣٤٤ هـ (٤) .

وكان لسياسة بنى بويه أسوأ الأثر فى العراق ، فقامت الفتن الطائفية ، وثار الجند كل فى وجه الآخر ، وانتشرت الفوضى وعم الاضطراب ، وساد الفزع قلوب الأهلين . فقد أدى تعصب بنى بويه للشيعة أنهم أرغموا أهل السنة على الاشتراك فى أعياد الشيعيين .

ولم تنقطع هذه الثورات فى أواخر عهد الخليفة المطيع ، فان أهل السنة نهبوا حوانيت الكرخ بعد أن هاجموا الأحياء الشيعية تحت قيادة امرأة تركب جملا ، كما فعلت السيدة عائشة فى واقعة الجمل . ويقول ابن الأثير (٥) : فى حوادث سنة ٣٦٢ هـ : « احترق الكرخ حريقاً عظيما . وسبب ذلك أن صاحب المعونة قتل عامياً ، فثار به العامة والأتراك ، فهرب ودخل دار بعض الأتراك ، فأخرج منها مسحوباً ، وقتل وأحرق ، وفتحت السجون فأخرج من فيها ، فركب الوزير . . . لأخذ الجناة ، وأرسل حاجباً له يسمى صافيا فى جمع لقتال العامة بالكرخ ، وكان شديد العصبية للسنية ، فألقى النار فى عدة أماكن من الكرخ ، فاحترق حريقاً عظيما . وكان عدة من احترق سبعة عشر ألف إنسان وثلثمائة دكان وكثير من الدور وثلاثة وثلاثين مسجداً ، ومن الأموال مالا يحصى » .

---

(١) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ١٠٥ .

(٢) Annold: Preaching of Islam, p. 62

(٣) كتاب تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٤) مسكويه : كتاب تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٥٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣١٢ .

(٥) جـ ٨ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

ومما يدل على مبالاة معز الدولة ومن جاء بعده من بنى بويه للشيعيين هذه الحكاية التى ننقلها عن السيوطى[١] : « وفى سنة إحدى وأربعين (وثلثمائة) ظهر رجل من التناسخية ، فيهم شاب يزعم أن روح علىّ انتقلت إليه ، وامرأته تزعم أن روح فاطمة انتقلت إليها ، وآخر يدعى أنه جبريل ، فضربوا ، فتعززوا بالانتماء إلى أهل البيت ، فأمر معز الدولة باطلاقهم لميله إلى أهل البيت ، فكان هذا من أفعالهم الملعونة » .

وفى سنة إحدى وخمسين وثلثمائة « كتب عامة الشيعة ببغداد بأمر معز الدولة على المساجد ماهذه صورته : لعن الله معاويه بن أبى سفيان ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها فدكا ، ومن منع أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ، ومن نفى أباذر الغفارى ، ومن أخرج العباس من الشورى . فأما الخليفة فكان محكوماً عليه لا يقدر على المنع ، وأما معز الدولة فبأمره كان ذلك . فلما كان الليل حكه بعض الناس ، فأراد معز الدولة إعادته ، فأشار عليه الوزير أبو محمد المهلبى بأن يكتب مكان ما محى: لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يذكر أحداً فى اللعن إلا معاوية ، ففعل ذلك » . وفى يوم عاشوراء من « سنة اثنتين وخمسين (وثلثمائة) ألزم معز الدولة الناس بغلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبيخ ، ونصبوا القباب فى الأسواق ، وعلقوا عليها المسوح ، وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن فى الشوارع ويقمن المأتم على الحسين . وهذا أول يوم نيح عليه ببغداد ، واستمرت هذه البدعة سنين[٢] .

١ — إقرار نفوذ معز الدولة فى العراق :

لم تقتصر سياسة معز الدولة على الحد من نفوذ الخليفة العباسى ، بل عمل أيضاً على إقرار نفوذه فى البلاد التابعة للدولة العباسية . فنراه يعمل على إضعاف الحمدانيين فى الموصل ، ويرسل إليها فى سنة ٣٣٤هـ جيشاً لمحاربة ناصر الدولة بن حمدان الذى انتهز فرصة خروج معز الدولة بصحبة الخليفة المطيع ، ولقيهما فى عكبرة القريبة من سامرا . وهنا لحق بالحمدانيين ابن شيرزاد ، الذى تقلد منصب أمير الأمراء قبيل دخول بنى بويه بغداد ، على رأس جيش من الأتراك أنصار توزون ، ثم سار ابن شيرزاد على رأس هذا الجيش ، واستولى على بغداد وحكمها باسم ناصر الدولة الحمدانى . ثم سار ناصر الدولة إلى بغداد وأقام بها ، وسار معز الدولة إلى تكريت ، وكانت تحت نفوذ الحمدانيين ، ونهبها ، وعاد بصحبة الخليفة إلى بغداد ونزلا بالجانب الشرقى ، وكان ناصر الدولة وابن شيرزاد قد نزلا بالجانب الغربى منها . ولم يذكر اسم الخليفة العباسى المطيع على منابر بغداد فى ذلك الوقت . ثم قامت الحرب بين الفريقين فى بغداد ، وحال أنصار ناصر الدولة دون وصول الميرة إلى جند معز الدولة ، وأبطل السكة

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٥ .
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٦ .

التى تحمل اسم الخليفة المطيع ، وضرب السكة باسم المتقى على النحو الذى ضربت به فى سنة ٣٣١ هـ . واستمرت الحرب أربعة أشهر ، حتى تمكن معز الدولة بدهائه من طرد الحمدانيين من بغداد وإعادة الخليفة إلى داره . واستقر معز الدولة ببغداد ، على حين سار ناصر الدولة إلى عكبرة . ويقول ابن الأثير(١) . « وأقام ناصر الدولة بعكبرة وأرسل فى الصلح بغير مشورة من الأتراك التوزونية ، فهموا بقتله ، فسار عنهم مجداً نحو الموصل ، ثم استقر الصلح بينه وبين معز الدولة فى المحرم سنة خمس وثلاثين (وثلثمائة) » .

على أن ذلك الصلح لم يطل أمـــــده ، فقد عول معز الدولة على أخذ البلاد الواقعة تحت نفوذ الحمدانيين ، فسار فى شهر رمضان سنة ٣٣٧ هـ واستولى عليها ، ولكن اضطراب الأمور فى خراسان قد حال دون تحقيق هذه السياسة ، واضطر إلى إبرام الصلح مع ناصر الدولة على أن يؤدى عن الموصل والجزيرة والشام ثمانية آلاف ألف درهم ، وأن يخطب فى بلاده لعماد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة أولاد بويه(٢) . بيد أن تلك العلاقة الجديدة لم تستقر بين بنى بويه والحمدانيين ، بل أخذ النزاع يدب بينهم من حين إلى حين على ما سنرى عند كلامنا على الدولة الحمدانية .

كذلك عمل معز الدولة بن بويه على إخضاع البريديين لسلطانه حتى يصفو له الجو فى بلاد العراق ، فعول على انتزاع البصرة من أبى القاسم عبد الله بن أبى عبد الله البريدى ، وصحب معه الخليفة المطيع . ويقول مسكويه (٣) عند كلامه على حوادث سنة ٣٣٦ هـ ، إن معز الدولة والخليفة سارا إلى البصرة واستوليا عليها ، وكان أبو القاسم البريدى قد هرب إلى هجر قاعدة القرامطة الأساسية . وكان من أثر استيلاء معز الدولة على البصرة أن انخفضت الأسعار فى بغداد ، وقام النزاع بين معز الدولة والقرامطة ، « وقبض معز الدولة على جميع قواد البريدى بالبصرة ، واستخرج أمواله وودائعه ، وقبض خزائنه ، وأحرق كل ما وجد له من آلات الماء من الشذاءات(٤) والطيارات(٥) والزبازب(٦) ، واستدعى لؤلؤاً (أحد قواده) من بغداد فقلده أعمال البصرة والحرب » .

أما علاقة بنى بويه بالقرامطة فقد تقلبت فى أدوار مختلفة . وقد رأينا معز الدولة لا يحفل بتهديدات القرامطة ، وعبر الصحراء التى ادعى القرامطة أنها تحت نفوذهم ، وتحدوه ورحبوا بأبى القاسم البريدى حين لجأ إليهم هرباً من معز الدولة . ويقول مسكويه (٧) « فلما صاروا فى البرية ورد على على الأمير معز الدولة رسول الهجريين القرامطة بكتاب منهم إليه بالإنكار عليه فى سلوك البرية من غير أمرهم إذ كانت لهم ، فلم يجب عن الكتاب وقال للرسول : قل لهم : ومن أنتم حتى تستأذنوا فى سلوك البرية ؟ وكأنى أقصد البصرة ، إنما قصدى بلدكم ، واليكم بعد فتحى إياها ، وستعرفون خبركم » .

---

(١) جـ ٨ ص ١٦٢ — ١٦٣ و ١٦٧ . (٢) مسكويه جـ ٢ ص ١١٥ — ١١٦ .

(٣) جـ ٢ ص ١١٢ . (٤) الشذاءات جمع شذاة وهى سفينة معدة لنقل الحيوانات .

(٥) الطيار فرس ريسان الخولانى ، وقد اشتهر بسرعة العدو . والمراد هنا نوع من السفن السريعة .

(٦) الزبازب جمع زبزب دابة كالسنور سريعة العدو . والزبزب ضرب من السفن .

(٧) كتاب تجارب الامم جـ ٢ ص ١١٢ .

على أن معز الدولة لم ينفذ تهديده ووعيده للقرامطة ، بل نراه يستخدمهم فى جيوشه ، ويقيم علاقته بهم على أساس من المودة . بيد أن القرامطة كثيراً ما كانوا ينضمون إلى أعداء بنى بويه إذا رأوا فى انضمامهم فائدة تعود عليهم . ففى سنة ٣٤١ هـ نراهم ينضمون إلى أمير عمان فى الثورة التى أذكى نيرانها فى وجه معز الدولة بن بويه . ذلك أن ابن وجيه والى عمان لما أدرك فساد العلاقات بين القرامطة ومعز الدولة بن بويه استعان بهم ومناهم فتح البصرة ، وثاروا جميعاً على معز الدولة وكادوا يستولون عليها فى سنة ٣٤١هـ. ومن ذلك نرى أن معز الدولة لم يستطع النيل من القرامطة أو تحقيق سياسته التى كانت ترمى إلى القضاء عليهم.

ولا غرو ، فإن القرامطة لم يلبث أن امتد نفوذهم فى عمان ، وانتهزوا انقسام زعماء هذه البلاد بعضهم على بعض ، وثورة الأهالى عليهم ، فرصة لتثبيت أقدامهم فيها ، فأعد معز الدولة جيشاً سار حملة فى مائة مركب ، فلما وصلوا إلى سيراف ، انضم اليهم الجيش الذى جهزه عضد الدولة من فارس نجدة لعمه معز الدولة . فاجتمعوا وساروا إلى عمان ، ودخلها تاسع ذى الحجة ، وخطب لمعز الدولة فيها ، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة ، وأحرقت مراكبهم وهى تسعة وثمانون مركباً (١)» .

تربع معز الدولة بن بويه على دست السلطنة فى بغداد اثنتين وعشرين سنة (٣٣٤ – ٣٥٦ هـ) ، استأثر فيها بالسلطة دون الخليفة الذى لم يعد له من الخلافة إلا اسمها ، ومد نفوذه على جميع بلاد العراق وخطب له فى عمان . وكانت علاقته بأخويه عماد الدوله على فى فارس ، وركن الدوله حسن فى الرى وهمذان وأصبهان تقوم على أساس متين من المودة والصفاء . وما زال معز الدولة يعمل على تحقيق سياسته حتى اعتراه المرض الذى مات منه وهو فى طريقه لحرب صاحب البطائح على مقربة من البصرة ، فسار إلى واسط ومنها إلى بغداد حيث وافته المنية فى شهر ربيع الآخر سنة ثلثمائة وست وخمسين ، وهو فى الثالثة والخمسين من عمره ، فخلفه ابنه أبو منصور بختيار ، الذى تلقب بلقب عز الدولة ، وكان أبوه قد عهد إليه بالسلطنة من بعده حين شعر بدنو أجله (٢) .

٢ — بختيار (٣٥٦ — ٣٦٧ هـ) :

كان معز الدولة بن بويه ملماً بأحوال الدولة العباسية ، فعمل على دفع الخطر عنها ، وأمن شر أعدائه البريديين والحمدانيين وغيرهم كما تقدم . فلما شعر بدنو أجله أوصى ابنه عز الدولة بختيار باليقظة والتحرز من ناحية أعدائه ، وخاصة من ناحية الأتراك الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من جنده ، وأن يجريهم على أرزاقهم ، كما أوصاه بمداراة الديلم ليكتفى خطرهم ، وبطاعة عمه ركن الدولة والرجوع إليه فى الأمور الهامة ، وطاعة ابن عمه عضد الدولة لأنه أكبر منه سنا وأكثر تجربة وأحذق بالسياسة ، كما أوصاه بإقرار كاتبيه أبى الفضل العباس بن الحسين وأبى الفرج محمد بن العباس لإخلاصهما وكفايتهما .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٤ .

(٢) مسكويه ج ٢ ص ٢٣١

ولكن عز الدولة بختيار لم يعبأ بنصائح أبيه ولم يسر على وفق السياسة التى رسمها له ، بل انصرف إلى اللهو واللعب ومعاشرة النساء ، وأثار سخط كاتبيه وفرق بينهما ، وطمع فى إقطاعات كبار حاشيته وخاصة سبكتكين ، وكان معز الدولة يثق به ويعتمد عليه ، فأشار على بختيار ألا يقطع أمراً دونه لحسن سياسته وتمكن هيبته من قلوب الجند .

ولم يكتف عز الدولة بختيار بهذا ، بل أخذ يناوىء ابن عمه عضد الدولة وترك استشارة عمه ركن الدولة ، ونفى كبار الديلم طمعا فى أموالهم . ويقول مسكويه[١]: « وأما كبار الديلم ووجوههم ، فانه نفاهم من مملكته طمعا فى إقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم ، فتبسط أصاغرهم واستلانوا جانبه وتحالفوا عليه وطالبوه بزيادة فى رسومهم ، واضطر إلى النزول على حكمهم ثم عجز عن إرضائهم . وأما الأتراك فإنهم نظروا إلى ما تم للديلم من التحكم ، فعملوا مثل عملهم من الاشتطاط والتسحب والمواجهة بالمخاطبة الغليظة ، واضطر إلى التدبير عليهم والراحة منهم . وابتدأ بسبكتكين ، وكان متحرزاً متيقظا ، فما تم له عليه شىء من تدبيراته ، فتحزّب الأتراك وصاروا يداً واحدة . وتحركت الأحقاد والحفائظ التى كانت فى نفوس الديلم على معز الدولة ، فبرزوا إلى الصحراء مع الأسلحة والجنن ، وساموه أن يثبت من أسقطه معز الدولة ، وأن يعطيهم أرزاقهم ويعجل لهم رزقة منسوبة إلى البيعة غير محسوبة ، فجمع بختيار الأتراك إلى داره مع أسلحتهم ليعتصم بهم ، وترك الديلم فى الصحراء ثلاثة أيام ، فغاظهم ذلك وازدادوا تباعداً فى الاشتطاط عليه وفى الاشتداد بالمطالبة ، إلى أن نزل على بعض حكمهم وأعطاهم ثلث رزقه غير محتسب به » .

أما سبكتكين فانه لما رأى انصراف عز الدولة بختيار عنه وطمعه فى إقطاعاته وأمواله ، « انقبض عنه ، فصار لا يركب إليه ولا يثق به ، واقتصر على التراسل على أيدى المتوسطين . وكان لسبكتكين أصحاب أخبار فى المعسكر ، وفى دار بختيار خاصة ، وله عيون وجواسيس من خاصة حاشيته وبطانته ، فكان لا يخفى عليه شىء من حركاته »[٢] .

وقد ساءت حالة الدولة العباسية فى أواخر عهد الخليفة المطيع . « وكل ذلك لسوء نظر بختيار وإهماله الأمور ، وإقباله على الشهوات واستثقاله مباشرة التدبير ، حتى سقطت الهيبة وانبسطت العامة وأغار بعضها على بعض » .

ويقول مسكويه[٣]: « وظهرت الأهواء المختلفة والنيات المتعادية ، وفشا القتل حتى كان لا يُعدم فى كل يوم عدة قتلى لا يعرف قاتلوهم ، وإن عرفوا لم يتمكن منهم ، فانقطعت مواد الأموال ، وخربت النواحى المتباعدة بخراب دار المملكة ، وظهر فى كل قرية رئيس منها مسئول عليها ، وتباغوا بينهم ، وحصل السلطان صفر اليد ، والرعية هالكون والدور خراب والأقوات معدومة

---

(١) جـ ٢ ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .
(٢) مسكويه جـ ٢ ص ٢٣٥
(٣) جـ ٢ ص ٣١٤

والجند متهارجون » . ثم سعى ابن بقية فى الصلح بين بختيار وسبكتكين ، وسرعان ما عادا إلى التنافر .

وفى عهد بختيار استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٨ هـ ، وقطعت الخطبة للخليفة العباسى ، وذكر اسم الخليفة الفاطمى محله ، وأدخل الخطباء فى مساجد مصر عبارة « اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى علىّ المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً . اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، الهادين المهديين » . وفى سنة ٣٦٠ هـ أدخل المؤذنون بدمشق فى الأذان عبارة « حىّ على خير العمل [١] » .

الخليفة الطائع وبنو بويه :

وسرعان ما عزل الخليفة المطيع . قال السيوطى [٢] : « وفى هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وستين وثلثمائة ، حصل للمطيع فالج ، وثقل لسانه ، فدعاه حاجب عز الدولة (بختيار) الحاجب سبكتكين إلى خلع نفسه وتسليم الأمر إلى ولده الطائع لله ، ففعل ، وعقد له الأمر فى يوم الأربعاء ثالث عشرين ذى القعدة . فكانت مدة خلافة المطيع تسعاً وعشرين سنة وأشهرا . . . وصار بعد خلعه يسمى الشيخ الفاضل . قال الذهبى : « وكان المطيع وابنه مستضعفين مع بنى بويه ؛ ولم يزل أمر الخلفاء فى ضعف إلى أن استخلف المقتفى لله (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) فانصلح أمر الخلافة قليلا . وكان دست الخلافة لبنى عبيد الرافضة بمصر أميز ، وكلمتهم أنفذ ، ومملكتهم تناطح مملكة العباسيين فى وقتهم » .

ولما ولى الطائع الخلافة كانت أمور الدولة العباسية مضطربة غير مستقرة : فالشيعة فى نزاع متصل مع أهل السنة ، والجند من الأتراك والديلم وغيرهم يلحون فى طلب أرزاقهم ، وأصحاب الإقطاعات التى اغتصبها بختيار حانقون ساخطون يتربصون الدوائر للنيل منه . ولم يرَ بختيار بدأ من الاستنجاد بعمه ركن الدولة فى الرى وهمذان وأصبهان وابن عمه عضد الدوله فى فارس ، كما كتب إلى أبى تغلب بن حمدان يطلب معونته .

ومن هذه الرسالة التى بعث بها سبكتكين إلى بختيار ينصح له فيها بتقويم حاله واستصلاح أمره ، ويطلب إليه تقسيم البلاد بينهما ، نرى مدى الضعف الذى وصلت إليه الدولة العباسية فى أوائل عهد الخليفة الطائع ، وذلك فى عهد سلطنة عز الدولة بختيار . وهاك ما أورده مسكويه [٣] فى هذا الصدد : « ثم إن سبكتكين راسل بختيار : بأنك قد جنيت على نفسك جناية عظيمة بما ارتكبته ودبرته ، وأن كل ما تعمله وتتصرف فيه خطأ وغلط ، وأن الأمر الآن قد خرج عن اليد . فأفرج لى عن واسط حتى تكون هى وبغداد فى يدى بإزاء أموال الأتراك التى قد حصلت علىّ ، وتكون

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٧ ، حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٢٢ و ١٢٥ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٨ .
(٣) كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .

البصرة والأهواز ونواحيها فى يدك بازاء أموال الديلم . واجعل أمرى وأمرك واحداً ، ولا تدخلنّ بيننا أحداً ، ولا تفتح للحرب باباً فلستَ من رجالها . وأنا ناصحٌ لك مشفق عليك ، حافظ وصية مولاى فيك التى ما حفظتَ مثلها فىّ . فعرض بختيار هذه الرسالة على الديلم ، فأنكروها وأكبروها ، واستخفوا بقائلها والتحمل (كذا فى الأصل) له وردوه بالخيبة والمنابذة ، فجدّ سبكتكين واستعد للحرب » .

وكان من أثر تفاقم العلاقة بين بختيار من ناحية وبين سبكتكين والخليفة الطائع من ناحية أخرى ، أن قامت الحرب بين الفريقين فى المحرم سنة ٣٦٤ هـ (١) . « وفيها خرج الخليفة الطائع ومعه سبكتكين من بغداد فى المحرم يريدان واسطاً لقتال بختيار . فمات الخليفة المطيع الفضل فى يوم الاثنين لثمان بقين من المحرم . وكان المطيع قد خرج مع ولده الخليفة الطائع يريد واسطاً ، فرده ولده فى تابوت إلى بغداد فدفن بها ، ثم مات سبكتكين بعده بيوم واحد ، فحمل أيضاً إلى بغداد . وكان أصل سبكتكين من مماليك عز الدولة الأتراك . وخلع عليه الخليفة الطائع بالإمارة عوضاً عن أستاذه عز الدولة ، وخرج لقتاله فمات . وكانت مدة إمارته شهرين وثلاثة عشر يوما » (٢) .

وكان الطائع قد خلع على سبكتكين ؛ ويقول السيوطى (٣) : « خلع من الغد على سبكتكين خلع السلطنة ، وعقد له اللواء ولقبه نصر الدولة ، فدعا سبكتكين الأتراك لنفسه ، فأجابوه ، وجرى بينه وبين عز الدولة حروب » .

على أن عز الدولة بختيار لم يرَ بداً من الاستنجاد بابن عمه عضد الدولة ، وكانت الغلبة لعز الدولة وعضد الدولة . ولكن عضد الدولة لم يرع لابن عمه حرمة ، فاتصل سراً بجند بختيار وشجعهم على طلب أرزاقهم ، وحث بختيار من ناحية أخرى على مقاومتهم والضرب على أيديهم ، واتخذ من حقد الخليفة الطائع وكراهته لبختيار فرصة للوصول إلى السلطة ، « فتقدم عضد الدولة بعمارة دار الخلافة وتطريتها وتجديد فرشها وآلتها وترتيب أسباب الخدمة فيها ، والتزم فى ذلك مالا جليلا ، وأخرج الجيش إليه متلقين ، واستقبله بنفسه يوم الجمعة لثمان خلون من رجب سنة أربع وستين (وثلثمائة) . . . وأنفذ عضد الدولة إلى خزائنه مالا كثيراً وثياباً وفرشاً جليلا من جميع الأصناف ، وعدة من الخيل والمراكب والرقيق ، وقرر يده فى ضياع الخدمة المرسومة للخلفاء ، وقد كانت متشذبة قد تحيّفها أسباب معز الدولة ، ثم أسباب بختيار ، ومنهم من تغلب على حدودها ، ومنهم من استقطع الخليفة بعضها ، ومنهم من ضمن ما لا ينصفه من نفسه فيه . ولم يسهل إخراج يده عنه ، فرد عضد الدولة ذلك كله إلى حقه ، فأمر الطائع بالله بإنشاء الكتب عنه إلى النواحى باستقامة

---

(١) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٢ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٨ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٩ .

أحوال السلطان وتعفّى آثار الفتنة ، وتألف الشمل ، وكتبت وفرقت فى الممالك كلها »[١] .

وقد حفظ الخليفة الطائع لعضد الدولة صنيعه فقربه إليه ، وعقد فى نفس هذه السنة (٣٦٤ هـ) على ابنته على صداق مبلغه مائتا ألف دينار [٢] . ويحدثنا ابن العميد [٣] أنه تزوج بها فى سنة سبعين وثلثمائة .

ضعف شأن عز الدولة بختيار الذى عزله جنده من الأتراك بإيعاز عضد الدولة . ولولا تدخل أبيه ركن الدولة لآلت السلطنة إليه . يقول ابن العميد [٤] : « ولما استقرت قدم عضد الدولة ببغداد ، قبض على ابن عمه عز الدولة (بختيار) وعلى أستاذ جيشه ، وذلك لخمس بقين من جمادى الآخرة (سنة ٣٦٤ هـ) ، وكتب إلى والده ركن الدولة يخبره بذلك ، فأنكر عليه غاية الإنكار ، وكتب إليه يهدده بالمسير إليه إن لم يرد عز الدولة ابن عمه إلى ولايته . فأطلق عضد الدولة ابن عمه عز الدولة إلى ولايته بعد أن استحلفه أن يكون نائباً عنه بالعراق ، ولا يخالف أمره ولا أمر ركن الدولة ، واستحلفه على ذلك الطائع لله ، واستحلفه عضد الدولة لنفسه ولأبيه ركن الدولة ، وتوجه عضد الدولة إلى فارس » . وكان من أثر ذلك أن تزوج الخليفة الطائع لله بنت الأمير عز الدولة بختيار على صداق قدره مائة ألف دينار .

على أن عضد الدولة كان شديد الرغبة فى الاستيلاء على بغداد والاستئثار بالسلطنة دون بختيار . فلما توفى أبوه ركن الدولة فى سنة ٣٦٦ هـ ، قصد العراق وحارب بختيار فى واسط ، وانتصر عليه وأرغمه على الفرار من بغداد ، فقصد الحمدانيين فى الموصل ، واستعان بأبى تغلب بن حمدان ، والتقى الجيشان بنواحى تكريت . ولكن الهزيمة حلت بعز الدولة بختيار ، وأسر وسيق إلى بغداد ، فقتله عضد الدولة [٥] .

وقد ذكر ابن الأثير [٦] أن عضد الدولة قتل أيضاً ابن بقية وزير عز الدولة وصلبه ، فرثاه أبو الحسين الأنبارى بقصيدة مطلعها :

علو فى الحياة وفى الممات لحق أنت إحدى المعجزات

كان عز الدولة بختيار — على ما وصفه ابن العميد [٧] — « ملكا شهماً جلداً قوى الجسم والقلب ، فيقال إنه كان يصرع الثور بيديه من غير أعوان ولا حبال (فى الأصل والأحبال) ، يقبض على

---

(١) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ٣٤٤ .
(٢) أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٣٥ .
(٣) كتاب تاريخ المسلمين ص ٢٣٨ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .
(٥) ابن الأثير ج٨ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ و ٢٥٠ .
(٦) ج ٨ ص ٢٤٩ .
(٧) تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ .

قوائمه ويطرحه على الأرض . وكان يبرز الأسود ويصيدها (فى الأصل ويصيدهم) ، وكان كريما شجاعا » .

٣ — عضد الدولة[١] (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) :

بذلك صفا الجو لعضد الدولة فى العراق فى سنة ٣٦٧ هـ ، « وخلع عليه الخليفة (الطائع) الخلع السلطانية ، وتوجه وطوقه وسوّده ، وعقد له لواءين بيده ، وولاه ماوراء بابه[٢] » . ولكن العلاقة بين الخليفة وبين عضد الدولة لم تلبث أن تبدلت ، فأمر بحذف اسمه من الخطبة مدة شهرين ، وحمله على ضرب الدبادب أمام داره ثلاث مرات فى اليوم : فى وقت الصبح والمغرب والعشاء ، وأن يخطب له على منابر بغداد ، مع أن ذلك كان من الأمور التى انفرد بها الخليفة دون غيره . وقد كان معز الدولة أحب أن تضرب له الدبادب بمدينة السلام ، فسأل المطيع فى ذلك ، فلم يأذن له ، وما حظى عضد الدولة بذلك إلا لضعف أمر الخلافة[٣] » .

ونقرأ فى ابن العميد[٤] فى حوادث سنة ٣٦٨ هـ أن عضد الدولة استولى على الموصل وديار ربيعة وميافارقين وآمد وديار بكر وديار مضر ، وهرب أبو تغلب الحمدانى إلى الخليفة العزيز بالله الفاطمى ، كما نقرأ فى ابن العميد[٥] أن الخليفة الطائع أمر « بأن يخطب للملك عضد الدولة ببغداد فى خطبة الجمعة التالية لخطبة الطائع لله ، فابتدىء بذلك فى يوم الجمعة لأربع بقين من شعبان (سنة ٣٦٨ هـ) ، ولم يتقدم هذا لأحد قبله ولا لولاة العهود . وأمر أن يضرب على باب عضد الدولة بالدبادب فى أوقات الصلوات الخمس ، ولم يكن هذا لأحد قبله ولا لولاة العهود . وعضد الدولة هو أول من خوطب بالملك فى الإسلام ، وكان يخطب (له) على المنابر بشاهنشاه الأعظم ملك الملوك » . ولم يبلغ أحد من أمراء بنى بويه ما بلغه عضد الدولة من سعة الملك وبسطة السلطان ، حتى دان له سائر أمراء بنى بويه وكثير من أمراء المسلمين ، « ودانت له البلاد والعباد ، ودخل فى طاعته كل صعب القياد »[٦] . وقد امتد سلطانه — كما يقول ابن العميد[٧] — على « بغداد والعراق وكرمان وفارس وعمان وخوزستان والموصل وديار بكر وحران ومنبج » .

---

(١) كان عضد الدولة يسمى أبا شجاع فناخسرو . فلما نزل عمه عماد الدولة إليه عن فارس واستولى أبو شجاع عليها بعد موته ، تلقب بلقب عضد الدولة . ابن خلكان جـ ١ ص ٤١٦ .

(٢) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٥ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ .

(٤) تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤١٦ .

(٧) تاريخ المسلمين ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

قال أمدروز(١): « إن قوة بنى بويه قد تسنمت غاربها فى عهد عضد الدولة ، وإن قصره كان محط كبار رجال العلم والأدب ، فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب ، ومنها كتاب الإيضاح والتكملة فى النحو الذى صنفه له الشيخ أبو على الفارسى ، وكتاب التاجى فى أخبار بنى بويه لأبى إسحق الصابىء ، كما أقام البيمارستانات ، ومن أشهرها البيمارستان العضدى ببغداد الذى يقول فيه ابن خلكان(٢) : « ليس فى الدنيا مثل ترتيبه . . . وأعد له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه » .

صفات عضد الدولة :

« كان عضد الدولة — على ما وصفه أبو شجاع(٣) — « ملكا كامل العقل شامل الفضل ، حسن السياسة كثير الإصابة ، قليل السقطة شديد الهيبة بعيد الهمة ، ثاقب الرأى صائب التدبير ، محباً للفضائل مُجْتَنِباً للرذائل ، باذلا فى مواطن العطاء كأن لا سخاء بعده ، مانعاً فى أماكن الحزم حتى كأن لا جود عنده ، يستصغر الكبير من الأمر ويستهون العظيم من الخطب . وكان يقول على ما يحدّث عنه : الأرض أضيق عرصة من أن تسع ملكين » .

وقد ذكر أبو شجاع(٤) أعمال عضد الدولة ، فبين كيف كان يقضى يومه فى تصريف شئونها فقال: « فانه كان يباكر دخول الحمام ، فإذا خرج منه ولبس ثيابه أدى فرض الصلاة ، ودخل إليه خواصه وحواشيه ، فجلس منهم أبو القاسم المطهر بن عبد الله وزيره ومن قام مقامه بعده ، فسأله عما عمله فيما سبق التقدم به إليه ، فيخبره بذلك ثم يذكر له ما عرض من الأمور ويستأذنه فى كل أمر ، فيوعز إليه بما يعتمده فيه ، ويفعل مثل ذلك مع أبى الحسن على بن عمارة وأبى عبد الله بن سعدان عارضى الجيش : ذاك للديلم وهذا للأتراك والأعراب والأكراد . فاذا ترحّل النهار سأل عن ورود النوب المترددة بالكتب ، ولها وقت معلوم تصل فيه وتراعى من ساعات النهار ؛ فان اتفق أن تتأخر قامت القيامة ووقع البحث عن العارض العائق ، فان كان بعائق ظاهر فيه عذر قبل ، أو عن أمر يحتاج إلى إزالته أزيل ، أو من تقصير النوبيين أنزل العذاب بهم . ولقد ذكر بعض الطراد(٥) أن أحد المرتبين قالت له امرأته : قد طبخنا أرزاً فتوقف لتأكل منه وتمضى ، فتوقف بقدر ما أكل ، وتأخرت النوبة ذلك المدى ، فضرب الطراد والمرتبون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاثة آلاف عصا . لا جرم أن النوب كانت تصل من شيراز فى سبعة أيام ، وكان يحمل مع المرتبين بواكير الفواكه والمشموم من نواحى فارس وخوزستان فتصل طرية سليمة . وقيل أن بعض أصاغر الحواشى حمل فى النوبة من همذان فى كنانة(٦) ، دنانير يسيرة إلى منزله . وقد كان عادتهم جارية بذاك ، فقصرت عن أهلها ،

(١) Amedroz : Three Years of Buwaihid Rule of Baghdad, J.R.A.S. (1901), p. 779, Le Strange : Baghdad During the Abbasid Caliphate, p. 234 et Seq.

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤١٨ .

(٣) ذيل كتاب تجارب الأمم جـ ٣ ص ٣٩ — ٤٠ .

(٤) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٤٠ — ٤٢ و ٤٣ .

(٥) من المطاردة وهى الإجراء للسباق . والمراد هنا أحد المشرفين فى محاط البريد .

(٦) فى الأصل كتانة ، والصواب كنانة وهى جعبة السهام وتصنع من أدم .

وعرف عضـــــد الدولة الخبر ، فلم يزل يكشف عن ذلك إلى أن ظهر للخرائطى آخذ الدنانير فأمر بقطع يده .

فاذا وصلت النوبة كان فض ختومها وفتح خرائطها وإخراج الكتب منها بحضرته ، ويأخذ منها ما كان إلى مجلسه ويخرج الباقى إلى ديوان البريد فيفرق على أربابه . ثم يقرأ الكتب إليه كتابا كتاباً ويطرحه إلى أبى القاسم عبد العزيز . فاذا تكامل وقوفه عليها جدد أبو القاسم قراءتها عليه ، فيأمره فى جواب كل فصل بما يوقع به تحته ، وأخرج منها ما يامر بإخراجه ليواقف عليه المطهر ابن عبد الله أو من يجرى مجراه فى تذكرة ، وهى أبداً بين يديه ، يعلق فيها ما يعرض له . ثم يسأل عن الطعام عند فراغه من ذلك ، فاذا حضر الوقت الذى رسمه بالأكل فيه ، استدعاه فأصاب منه ، وطبيب النوبة قائم على رأسه ، وهو يسأله عن شىء شىء من منافع الأغذية ومضارها ، ثم يغسل يده وينام . فاذا انتبه جدد الوضوء وصلى الصلاة الوسطى ، وخرج إلى مجلس الشرب فجلس وحضر الندماء والملهون .

ووافى أبو القاسم بن عبد العزيز فقعد بحضرته على رسمه ، وعرض عليه ما كتبه الكتاب أو كتبه هو بنفسه من أجوبة الكتب الواردة ، فربما زاد فيها أو نقص منها ، ثم تصلح وتختم وتجعل فى إسكدارها ، وتحمل إلى ديوان البريد فتصدر فى وقتها . ومتى غاب أبو القاسم بن عبد العزيز لأمر يقطعه أو تأخر فى داره ، واحتيج إلى كتاب يكتب ، يستدعى كاتب النوبة ، فأجلس بين يديه ، وتقدم بمـــا يريده إليه ، وأملاه عليه ، وهو مع ذلك يشرب ويسمع الغناء ويسأل عما يمضى من أشعاره وما يجب معرفته من أخباره ، ولا يزال على ذلك إلى أن يمضى صـــــدر الليل ثم يأوى إلى فراشه .

وإذا كان يوم موكب برز للأولياء وليّنهم ببشر وتأنيس تعلوهما هيبة ووقار ، وأجاب كل ذى حاجة بما يجب فى السياسة من بذل ومنع ، وتفرق الناس عند انتصاف النهار ، وأقام أصحاب الدواوين وكتابهم إلى حين غروب الشمس . فأما عموم الأيام فان الأمر يجرى على ما تقدم ذكره . . .

فأما ما ذكر فى أمر تدبيره لجنده ، فقد كانت أموالهم مطلقة فى أوقاتها متتبعة فى تصرفاتها ، وأكثر كتابهم وأصحابهم عوناً له عليهم ، وطبل العطاء يضرب فى كل يوم ، ويحضر من ينتهى إليه الدعوة من القواد ، ومعه أصحابه بأحسن رتبة ، فقبض ماله ، والزيادات فى الأصول محظورة على العموم ، إلا عند الفتوح وما تدعو السياسة إليه من استمالة القلوب » .

ولا بأس من أن نأتى هنا بعبارة أبى شجاع[1] الذى وصف فيها عهد عضد الدولة وصفا شائقا عرض فيه لموقفه من الخليفة العباسى ، وما بلغته الدوله العباسية فى عهده ، كما شاد بعدله وحسن سياسته ، وعمله على استتباب الأمن وإذعان البلاد لطاعته فقال : « عضد الدولة المعظم من الأخوال

---

(١) ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ٧ — ٨ .

والأعمام ، الحامى حوزة الإسلام ، الملبى لدعوة الإمام ، الذى كرُم طرفاه ، وعظم شرفاه ، ودانت لصولته الأمم ، وانكشفت بدولته الظلم ، وجرت بنصرته الأقدار ، وانفتحت على يديه الفتوح الكبار . أطول الملوك باعا ، وأحسنهم فى الدين ذبا ودفاعا : فهو تاج على جبين الأيام الزاهرة المقتدية يزيد فى أنوارها ، وركن الدولة القاهرة العباسية يدفع عن أقطارها . زاد على أنوشروان بفضله وبعدله ، وأوفى على بهرام ببأسه ونجدته ، وفضل أزدشير بتدبيره وسياسته ، وساوى الإسكندر بملكه وبسطته . فالشرق والغرب مذعنان لطاعته ، والبدو والحاضر منقادان لتباعته ، كل ذلك ببركات مخالصته لإمامه ، وحسن نيته فى محبة أيامه » .

بيد أن عضد الدولة ، على الرغم مما اشتهر به من حسن السياسة ، رمى بالقسوة وسفك الدماء ، والغدر بمن أمنه(١) . ومما يدل على اغتراره بنفسه واعتزازه بقوته قوله :

عضد الدولة من سطوته ... مَلك الأملاك وغلاب القدر

وقوله وهو على فراش الموت :

قتلت صناديدَ الرجال فلم أدعْ ... عدواً ولم أهمل على جيشه خلقا
وأخليتُ دور الملك من بعد عزمهم ... فشردتهم غربا وبددتهم شرقا(٢)

وقد وصفه علماء عصره فقال أحدهم(٣) : « لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها ، وأعطاها فوق قيمتها ، وطلب الربح فيها فخسر روحه فيها . وقال الثانى : مَنْ استيقظ للدنيا فهذا نومه ، ومن حلم فيها فهذا انتباهه ، وقال الثالث : ما رأيت عاقلا فى عقله ولا غافلا فى غفلته مثله . لقد كان ينقض جانبا وهو يظن أنه مبرم ، ويغرم وهو يظن أنه غانم . وقال الرابع : من جد للدنيا هزلت به ، ومن هزل راغبا عنها جدت له . وقال الخامس : ترك هذا الدنيا شاغرة ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة . وقال السادس : إن ماء أطفأ هذه النار لعظيم ، وإن ريحا زعزعت هذا الركن لعصوف . وقال السابع : إنما سلبك مَنْ قدر عليك . وقال الثامن : أما أنه لو كان معتبراً فى حياته لما صار عبرة فى مماته . وقال التاسع : الصاعد فى درجات الدنيا إلى استفال ، والنازل فى دركاتها إلى تعال . وقال العاشر : كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك ؟ وهلا اتخذت دونه جُنَّة تقيك ؟ إن فى ذلك لعبرة للمعتبرين ، وإنك لآية للمستبصرين » .

توفى عضد الدولة فى الثامن من شهر شوال سنة ٣٧٢ هـ ، وله من العمر سبع وأربعون سنة وأحد عشر شهراً ، وحمل إلى مشهد الإمام على بن أبى طالب . وكانت ولايته خمس سنين ونصف سنة استبد فيها

---

(١) أبو شجاع جـ ٣ ص ٤٢ و ٥٦ .
(٢) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٩ .
(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ٧ — ٨ ؛ أنظر أيضا «أبو شجاع» جـ ٣ ص ٧٥ — ٧٧ .

بالسلطة ، وأمن شر أعدائه فى الداخل والخارج ، ووطد دعائم سلطانه ، فنشر العدل وشجع العلماء وعنى بالعمارة على ما رأينا .

٤ — صَمْصام الدولة (٣٧٢ — ٣٧٦ هـ) :

ولما مات عضد الدولة خلعه ابنه أبو كاليجار المرْزبان ، الذى بايعه الأمراء والقواد ولقبوه صمصام الدولة(١) ، ولقبه الخليفة الطائع شمس الملة(٢) « وخلع عليه الخلع السبع والعمة السوداء ، وسوِّر وطوق وتوّج ، وعقد له لواءان ، وحمل على فرس بمركب ذهب ، وقيد بين يديه مثله ، وقرىء عهده بتقليده الأمور فيما بلغت الدعوة (العباسية) من جميع الممالك ... وجددت له البيعة ، وأطلق رسومها ، وأقيمت الدعوة وغيرت السكة » .

ويظهر أن العلاقة بين الخليفة الطائع وبين صمصام الدولة كانت تنطوى على شىء من المودة والصفاء ، بدليل ما ذكره أبو شجاع(٣) عند كلامه على حوادث سنة ٣٧٥ هـ ، من أن الخليفة خلع « على صمصام الدولة ، وجدد له تشريفاً وإكراماً ، وخلع على أبى نصر أحد قواد صمصام الدولة فولاذ بن مانادر الخلع الجميلة ، وخوطب بالاسفهلارية (٤) بعد أن استحلف على الوفاء والمناصحة » .

على أن النزاع لم يلبث أن قام بين صمصام الدولة وأخيه شرف الدولة أكبر إخوته ، وكان يمتد نفوذه على أصفهان والرى وشيراز وغيرها (٥) وقد عزم شرف الدولة على أخذ بلاد العراق ، وتسللت جنود صمصام الدولة إلى أخيه ودخلوا فى طاعته(٦) .

وقد أدرك صمصام الدولة حرج مركزه ، ورأى ببعد نظره عجزه عن مناهضة أخيه شرف الدولة ، فأرسل إليه الكتب بطلب الصلح . « ولما ورد عليه (شرف الدولة) ما ورد من كتب صمصام الدولة ووالدته . . ببذل الطاعة والبخوع (٧) بالتباعة والإذعان بإقامة الدعوة والتظاهر بشعار النيابة ، وجد هذا القول من قلبه قبولا ، وأنفذ أبو النصر خواشاذة لإتمام هذه القاعدة رسولا ، وأصحبته تذكرة تشتمل على التماس الخلع السلطانية واللقب وإقامة الخطبة ، وإنفاذ الأمير أبى نصر (خواشاذة) مكرماً ، واستدعاء آلات وفرش وخدم وجوار ، عازماً على القناعة بذلك . فلما حصل (شرف الدولة) بالأهواز ، وأتته الدنيا طوعاً بإقبالها ، وألقت البلاد مفاتيح أقفالها ، بدا له من ذلك الرأى ، فعزم على قصد العراق مصمما ، وسار نحو بغداد متمماً »(٨) .

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٩ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧١ .
(٣) ذيل كتاب تجارب الأمم جـ ٣ ص ٨٤ .
(٤) بالأصفهلارية فى الأصل وهى بالسين .
(٥) ابن العميد ؛ تاريخ المسلمين ص ٤٢ .
(٦) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٢١ .
(٧) البخوع من بخع بخوعا انقاد وخضع .
(٨) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم جـ ٣ ص ١٢٠ .

وقد أورد أبو شجاع[١] نص الصلح الذى عقد بين صمصام الدولة وأخيه شرف الدولة فى الأهواز فقال : « قررت أقسام الصلح على أقسام ثلاثة : قسم منها يعم الفريقين ، وقسمان يخص كل فريق قسم منها . فأما الأمر الذى يعم فهو : تألف ذات البين حتى لا يدرك طالب نبوة مقصداً فى تنفير ، وتصافى العقائد حتى لا يجد جالب وحشة مطمعاً فى تكدير . فان ظهر عدو مباين لأحدهما ناضلاه جميعاً عن قوس الموافقة والمساعدة ، ودافعاه بمنكب المظاهرة والمعاضدة . وأن يمنع كل واحد من تعرض ببلاد الآخر ، ولا يطمع فيها جنداً ، ولا يقطع منها حداً ، ولا يجير منها هارباً ، ولا يأوى متحيزاً أو موازياً .

وأما ما يخص شرف الدولة ، فهو أن يوفيه صمصام الدولة فى المخاطبة ما يقتضيه فضل السن والتقديم ، ويلتزم من طاعته ما يوجبه حق الإجلال والتعظيم ، ويقيم له الخطبة على منابر مدينة السلام وسائر البلدان التى فى يديه ، ويقدم بعد إقامته دعوة الخليفة دعوته عليه . وأما مايخص صمصام الدولة : فهو أن يكف شرف الدولة عن سائر ممالكه وحدودها ، ويمنع أصحابه كافة عن طرقها وورودها ، وأن يراعيه فى كل أمر يستمد فضله فيه ، مراعاة الأخ الأكبر لأخيه وتاليه . . .

بسم الله الرحمن الرحيم : ثبت بحضرة سيدنا ومولانا الإمام الطائع لله أمير المؤمنين أطال الله بقاه ، وأعز نصره وأدام توفيقه وكبت عدوه ، ماتضمنه الاتفاق المكتوب فى باطن هذا الكتاب ، وصح عنده التزام شرف الدولة وزين الملة أبى الفوارس أمد الله تأييده ، لصمصام الدولة وشمس الملة أبى كاليجار مولى أمير المؤمنين أعز الله نصره ، ما شرح فيه بعد أن ألزم له مثله . فحكم مولانا أمير المؤمنين أعز الله نصره عليهما به ، وجمعهما إلى الائتلاف عليه فى طاعته وخدمته ، وقطع به بينهما الفرقة والاختلاف . وأمر بهذا التوقيع تأكيداً لما تصافيا عليه ، وإلزاما لهما الوفاء به ، وأنعم بعلامته بخط يده الكريمة فى أعلاه ، والحكم الشريف النبوى فى منتهاه . والله عون مولانا أمير المؤمنين على ما التزماه وتوخياه . . .

وأمر هذه النسخة عجيب ، لأن هذا الصلح لم يتم وما عاد به أبو نصر خواشاذة ، ونفذ فيه أبو على بن محمان لم يلتئم ؛ وربما يكون ذلك فيما كتب بالأهواز ، وأنفذ إلى بغداد ثم انتقض والله أعلم » .

على أن هذا الصلح بين صمصام الدولة وأخيه شرف الدولة لم يتم كما رأينا . ففى سنة ٣٧٦ هـ سار شرف الدولة من الأهواز إلى واسط فاستولى عليها ؛ ولما استشار صمصام الدولة أصحابه نصحوا له بالمسير إلى الموصل وبلاد الجبل ، حيث تتاح له فرصة مقاومة أخيه شرف الدولة وإحداث الشقاق بين أنصاره من الديلم والأتراك ، وأشار عليه بعض آخر بمكاتبة عمه فخر الدولة وطلب النجدة منه والمسير إلى قرميسين[٢] ،

---

(١) جـ ٣ ص ١٢٤ — ١٢٦ .

(٢) بفتح القاف وكسر الميم ، بلد بينه وبين همذان ثلاثون فرسخاً ، تقع بالقرب من دينور ، كما تقع بين همذان وحلوان على جادة الحاج . أنظر لفظ قرميسين فى معجم البلدان لياقوت .

ثم إلى أصبهان وفارس والاستيلاء على خزائن شرف الدولة فى أثناء غيبته عنها ، ومن ثم يضطر هذا إلى العودة إلى فارس وطلب الصلح من جديد(١) .

بيد أن صمصام الدولة لم يأبه لتلك النصائح وقصد أخاه فى بعض خاصته ، فأحسن شرف الدولة لقاءه ، ولكنه لم يلبث أن قبض عليه ، ثم سار إلى بغداد بصحبة أخيه ونزل بقصر الشفيعى .

ولم يقف وصول شرف الدولة إلى بغداد النزاع الذى قام بينه وبين أخيه ، فقد دب الشقاق بين الأتراك والديلم ، وتمت الغلبة لهؤلاء ، فنادوا بعودة صمصام الدولة إلى السلطنة . ولكن شرف الدولة هدد بقتل أخيه ، كما تمكن من توحيد صفوف الأتراك والديلم ، وأرسل أخاه إلى فارس فاعتقل فى إحدى قلاعها(٢) (سنة ٣٧٦ هـ) ، بعد أن حكم بالعراق ثلاث سنين وأحد عشر شهراً .

٥ — شرف الدولة (٣٧٦ — ٣٧٩ هـ) :

استقرت إمارة شرف الدولة بن عضد الدولة بالعراق . ثم قدم بغداد ، فتلقاه الخليفة الطائع وهنأه بالفتح والظفر ، وتوجه وطوقه وسوره ، وكتب له عهداً ، وولاه ما وراء بابه ، وعقد له لواءين ، ولقبه شاهنشاه » (٣) .

وكانت سياسة شرف الدولة ترمى إلى التودد إلى أخيه صمصام الدولة . حتى إنه أنكر على الشعراء تعريضهم به فى قصائدهم التى أنشدوها حين هنئوه بالسلطنة(٤) . ولكن بعض رجال حاشية شرف الدولة ما زالوا يوغرون صدره على أخيه ويخوفونه من خروجه عليه ، حتى إنه اعتقله فى إحدى قلاع فارس ، ثم سمله تحت تأثير نحرير الخادم الذى قال له : « إن لم تقتله فاسمله ، فأرسل فى ذلك محمداً الشيرازى الفراش ، فمات شرف الدولة قبل أن يصل الفراش إلى صمصام الدولة . فلما وصل الفراش إلى القلعة التى بها صمصام الدولة ، لم يقدم على سمله ، فاستشار أبا القاسم العلاء بن الحسن الناظر هناك ، فأشار بذلك فسمله . وكان صمصام الدولة يقول : ما أعمانى إلا العلاء ، لأنه أمضى فىّ حكم سلطان قد مات »(٥) .

وقد عمل شرف الدولة على تحقيق العدل بين الناس ، « ورفع أمر المصادرات وقطع أسبابها ، وذم طرق السعايات وسد أبوابها »(٦) . . . وانتظمت الأمور على يديه كل الانتظام ، وطالب العمال بعمل المصالح وأخذهم بإقامة العمارات ، ووجد الأسعار متزايدة والأقوات متعذرة ، فرتب نقل الغلات من بلاد فارس فى البحر ، وجد فى حملها من كل بلد »(٧) .

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٧ — ١٨ .
(٢) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم جـ ٣ ص ١٣٢ — ١٣٤ .
(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٤١ .
(٤) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم جـ ٣ ص ١٣٤ .
(٥) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٢ .
(٦) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٣٦ .
(٧) المصدر نفسه جـ ٣ ص ١٣٧ .

قلد شرف الدولة أحد رؤساء البطيحة (١) أميراً عليها ولقبه مهذب الدولة . وكانت البطيحة أرضاً واسعة بين واسط والبصرة غمرتها مياه دجلة والفرات منذ أيام كسرى أبرويز ، فتبطح الماء فى تلك الجهات ، فرحل أهلها عنها . ثم جاء الاسلام وتغلب الماء على النواحى المجاورة ، حتى كانت السفن تسير فيها ، وبنوا القرى فى المرتفعات التى لم يغمرها الماء وزرعوا الأرز فى بعض أرضها . ثم تمكن أهل هذه الجهات فى أوائل عهد بنى بويه من أن يؤمروا عليهم أميراً منهم ، وتحصنوا بالمياه والسفن ، وخرجت هذه الجهات عن طاعة الدولة العباسية (٢) .

ويقول ابن الأثير (٣) إن مهذب الدولة « أحسن السيرة وبذل الخير والإحسان ، فقصده الناس وأمن عنده الخائف ، وصارت البطيحة معقلا لكل من قصدها ، واتخذها الاكابر وطناً ، وبنوا فيها الدور الحسنة ، ووسعهم بره وإحسانه ، وكاتب ملوك الأطراف وكاتبوه ، وزوجه بهاء الدولة ابنته ، وعظم شأنه إلى أن قصده القادر بالله فجاه ، وبقى عنده إلى أن أتته الخلافة » .

وفى أيام شرف الدولة قامت المنافسة بينه وبين عمه فخر الدولة ؛ لذلك نراه يرسل مقدم عسكره أو قائد قواده ، ويسمى قراتكين الجهشيارى ، لقتال بدر بن حسنويه فى بلاد الجبل لميله إلى عمه . وعلى الرغم من كثرة عدد جند شرف الدولة وإحرازه النصر والظفر أول الأمر ؛ فإن بدراً أحل بهم الهزيمة ، ثم استولى على بلاد الجبل وما والاها ، وأصبح خطراً يهدد بلاد العراق (٤) .

ولم يطل عهد شرف الدولة ، فمات فى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٧٩ هـ ، بعد أن حكم ببغداد سنتين وثمانية أشهر (٥) ، ولما يتجاوز الثمانية والعشرين من عمره . وكان قد عهد قبل وفاته الى أخيه أبى نصر (بهاء الدولة) ، الذى قبل ذلك بعد تردد ، لاضطراب حبل إمارة بنى بويه فى العراق ، وجلس للعزاء ، وركب الخليفة الطائع للعزاء كذلك ، فتلقاه بهاء الدولة وقبّل الأرض بين يديه (٦)

٦ — بهاء الدولة (٣٧٩ — ٤٠٣ هـ) :

وبعد خمسة أيام من وفاة شرف الدولة ، ركب أبو نصر إلى دار الخلافة ، فخلع عليه الخليفة الطائع الخلع السلطانية ، ولقبه بهاء الدولة وضياء الملة ، وقرىء عهده بين يديه بالتقليد (٧) .

وقد أقر بهاء الدولة أبا منصور بن صالحان وزير شرف الدولة فى الوزارة ، ثم استوزر أبا نصر

---

(١) البطيحة والبطحاء من تبطح السيل إذا اتسع فى الأرض ، والمياه تبطحت إذا سالت واتسعت فى الأرض .

(٢) ياقوت : معجم البلدان : أنظر لفظ بطيحة .

(٣) ج ٩ ص ١٨ — ١٩ .

(٤) أبو شجاع ج ٣ ص ١٣٩ — ١٤١ .

(٥) يلاحظ أن ستانلى لينپول أغفل حكم صمصام الدولة فى العراق من سنة ٣٧٢ إلى سنة ٣٧٦ هـ ، وجعل سلطنة شرف الدولة فى العراق من سنة ٣٧٢ هـ إلى سنة ٣٧٩ هـ ، على حين أنه لم يحكم فى العراق إلا سنتين وتسعة أشهر (٣٧٦ — ٣٧٩ هـ) . انظر ص ٩٦ من هذا الجزء .

(٦) أبو شجاع ج ٣ ص ١٥٠ — ١٥٢ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٢٣ ، أبو المحاسن ج ٤ ص ١٥٤ — ١٥٥ و ١٥٦ .

(٧) أبو شجاع ج ٣ ص ١٥٣ ، وابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٤١ .

خواشاذة وخلع عليه ، وأقر أصحاب الدواوين وغيرهم فى مناصبهم . وتمكن ، بما أوتيه من الدهاء ، من القبض على الأمير أبى على ابن أخيه شرف الدولة وقتله ليصفو له الجو ؛ كما تمكن من استمالة الأتراك الذين التفوا حوله . ولما قامت الفتنة بين الأتراك والديلم فى مستهل إمارته ، إنضم بهاء الدولة إلى الأتراك ، واستطاع بذلك أن يضعف من نفوذ الديلم (١)

بين بهاء الدولة وفخر الدولة :

بيد ان استمالة بهاء الدولة الأتراك إليه وإضعاف نفوذ الديلم لم يضع حداً للمصاعب التى قامت فى وجهه ، فقد واجه صعوبة لاتقل خطراً من خارج بلاد العراق . فان فخر الدولة أبا الحسن على البويهى صاحب الرى وهمذان وأصبهان طمع فى الاستيلاء على بلاد العراق بعد موت شرف الدولة ، وشجعه على تحقيق هذه السياسة وزيره الصاحب بن عباد الكاتب المشهور ، الذى كان يرنو ببصره إلى بغداد والجلوس على دست الوزارة فيها ، ويترقب الفرص للوصول إلى غايته ، وأيقن أن الفرصة قد سنحت له بموت شرف الدولة ، « فوضع على فخر الدولة من يعظم فى عينيه ممالك العراق ويسهل عليه فتحها . وأحجم الصاحب عن تجريد رأى ومشورة بذلك ، نظراً للعاقبة وتبرؤا من العهدة ، إلى أن قال له فخر الدولة : ماالذى عندك أيها الصاحب فيما نحن فيه ؟ فقال : الأمر لشاهنشاه ، وما يذكر من جلالة تلك الممالك مشهور لاخفاء به ، وسعادته غالبة . فإذا هم بأمر خدمته فيه وبلغته أقصى مراميه. فعزم حينئذ على قصد العراق »(٢).

ولما علم بهاء الدولة بنبأ وصول فخر الدولة الى الأهواز ، عول على القضاء على جيوشه قبل أن يصل إلى بغداد ، والتقى الجيشان بالقرب من خوزستان ، وتم النصر لبهاء الدولة الذى سار بعد ذلك إلى واسط والبصرة(٣) ، وبعث بجيوشه الى أرّجان(٤) فاستولى على قلعتها المنيعة ، وكان بها من العين الف الف دينار ، ومن الورق ثمانية آلاف ألف (٥) .

والآن نعود إلى الكلام على صمصام الدولة (الذى بعث به أخوه شرف الدولة إلى فارس واعتقله فى إحدى قلاعها سنة ٣٧٦ هـ) . فنقول إنه تمكن من الهرب من معتقله ، فارسل اليه بهاء الدولة جيشاً ، ولكن صمصام الدولة انتصر عليه على مقربة من شيراز سنة ٣٨٠ هـ ، وتم الصلح بينهما على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان ، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق ، وحلف كل منهما لصاحبه على الوفاء ،وعاد بهاء الدولة إلى الأهواز .(٦) على أن هذا الصلح لم يطل أمده ، فان بهاء

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٣ .

(٢) أبوشجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم جـ ٣ ص ١٦٣ — ١٦٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٦ و ١٦٩ .

(٤) مدينة كبيرة بينها وبين شيراز ستون فرسخا . وبينها وبين سوق الاهواز ستون فرسخا . ويزرع بها الزيتون والنخيل والفواكه بكثرة .

(٥) ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٨ .

(٦) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

الدولة عمل على الاستيلاء على فارس ، وقابل صمصام الدولة هذا العمل باستيلائه على خوزستان فى سنة ٣٨٣ هـ ، وعلى الأهواز فى سنة ٣٨٥ هـ ، وساعده على ذلك موت نائب بهاء الدولة بها ورغبة جنده من الأتراك فى العودة إلى بغداد ، كما استولت جيوش صمصام الدولة على البصرة (سنة ٣٨٦ هـ) ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من إحراز النصر النهائى لولا تدخل مهذب الدولة صاحب البطيحة ، وانتهت هذه الحروب بعقد الصلح بين بهاء الدولة وصمصام الدولة ، على أن يخطب فى البصرة لكل من صمصام الدولة وبهاء الدولة ومهذب الدولة ؛ ولم ينجل الصراع الذى قام بين صمصام الدولة وبهاء الدولة إلا بقتل أولهما فى سنة ٣٨٨ هـ [١]

بين بهاء الدولة والخليفة الطائع

على أن العلاقة بين بهاء الدولة والخليفة الطائع لم تلبث أن ساءت . ولم يستفد الخلفاء العباسيون من سياسة بنى بويه الذين كانوا يتظاهرون بأنهم يستمدون نفوذهم من الخليفة ويتمتعون برضاه ليكتسبوا رضاء العامة . فقد قبض بهاء الدولة فى سنة ٣٨١ هـ على الخليفة الطائع وخلعه ، وبايع للقادر بالله . وقد عزا السيوطى [٢] ذلك إلى أن الخليفة حبس أحد خواص بهاء الدولة ، ولكن الواقع أن السلطان البويهى طمع فى أموال الخليفة . ويقول ابن الأثير [٣] إن أبا « الحسن بن المعلم قد غلب على بهاء الدولة وحكم فى مملكته ، فحسن له القبض على الطائع ، وأطمعه فى ماله ، وهوّن له ذلك وسهله ، فأقدم عليه بهاء الدولة ، وأرسل إلى الطائع وسأله الإذن فى الحضور فى خدمته ليجدد العهد به ، فأذن له فى ذلك ، وجلس له كما جرت العادة . فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير ؛ فلما أدخل قبّل الأرض وأجلس على كرسى ، فدخل بعض الديلم كأنه يريد (أن) يقبل يد الخليفة ، فجذبه فأنزله عن سريره ، والخليفة يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه . وأخذ ما فى دار الخليفة من الذخائر ، فمشوا به فى الحال ، ونهب الناس بعضهم بعضاً . وكان من جملتهم الشريف الرضى ، فبادر بالخروج فسلم » ، فقال يصف ما جرى فى ذلك اليوم ، وكيف نجا بنفسه بعد أن امتهن أكثر رجالات الدولة من القضاة والأشراف وسلبت ثيابهم ، وأنشد فى شهر شعبان سنة ٣٨١ هـ قصيدة طويلة ننقل منها هذه الأبيات [٤] .

أعجبْ لمسكة نفس بعد ما رميَتْ ... من النوائب بالأبكار والعون [٥]

ومن نجاتى يوم الدار حين هوى ... غيرى ولم أخْل من جزم ينجّينى

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٦ و ٤١ و ٤٦ و ٥٣ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٢ .
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٩ .
(٤) ديوان الشريف الرضى (طبعة بيروت سنة ١٣٠٧) ج ٢ ص ٨٦٧ .
(٥) العون جمع عوان وهى من النساء التى كان لها زوج .

مرقت منها مروقَ النجم منكدرا(١) وقد تلاقت مصاريع الردى دونى
وكنت أول طلاع ثنيتها ومن روائِىَ شرٌ غير مأمون
من بعد ما كان ربّ الملك مبتسما إلىّ أدنوه فى النجوى ويدنينى
أصبحت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون
ومنظرٌ كان بالسراء يضحكنى يا قرب ما كان بالضرّاء يُبكينى
هيهات أغتر بالسلطان ثانيـــة قد ضل وَلاّج أبواب السلاطين

ويقول أبو شجاع إن الخليفة الطائع أجبر على أن يخلع نفسه وينزل عن الخلافة إلى أبى العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر ، الذى تلقب القادر بالله ، وذلك بعد أن بقى فى الخلافة سبع عشرة سنة وثمانية شهور وخمسة أيام (٣٦٣ — ٣٨١ هـ) . ويقول ابن الأثير(٢) فى حوادث سنة ٣٨٢ هـ إن بهاء الدولة سلم الطائع بالله إلى الخليفة القادر ، فأنزله فى داره وأكرمه وأحسن إليه ، على الرغم من أنه كان قد حاول التخلص من القادر واتهمه بالعمل على الوصول إلى الخلافة ، فهرب إلى البطيحة (سنة ٣٧٩ هـ) ، وظل الطائع مكرماً حتى مات فى سنة ٣٩٣ هـ . وقد وصف ابن العميد (٣) الخليفة الطائع فقال : « كان جواداً كريماً ، إلا أن يده كانت قصيرة مع بنى بويه ، فإنهم كانوا الملوك ، وليس للخليفة إلا مجرد الإسم » .

الخليفة القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) :

كان القادر بالله أطول الخلفاء العباســيين حكما ، وقد بقيت خلافته أكثر من إحدى وأربعين سنة .

وقد أورد هلال بن الصابىء كتاب الخليفة القادر الذى رد فيه على كتاب بهاء الدولة حين دعاه إلى الخلافة وهو بالبطيحة ننقله بنصه (٤) : « من عبد الله أحمد الإمام القادر بالله أمير المومنين إلى بهاء الدولة وضياء الملة أبى نصر بن عضد الدولة مولى أمير المؤمنين سلام عليك . فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله . أما بعد : أطال الله بقاءك وأدام عزك وتأييدك ، وأحسن إمتاع أمير المؤمنين بك ، فان كتابك الوارد فى صحبة الحسن بن محمد بن نصر رعاه الله ، عرض على أمير المؤمنين ، تالياً لما تقدمه ، وشافعاً ما سبقه ، ومتضمناً مثل ماحواه قبله من إجماع المسلمين قبلك ، بمشهد منك على خلع العاصى المتلقب بالطائع عن الإمامة ونزعه عن الخلافه ، لبوائقه المستمرة وسوء نيته المدخولة وإشهاده على نفسه بعجزه ونكوله(٥) ، وإبرائه الكافة

(١) منكدرا : منقضا ومنتثراً .
(٢) حـ ٩ ص ٣٥ .
(٣) تاريخ المسلمين ص ٢٤٣ .
(٤) أبو شجاع جـ ٣ ص٢٠٣ — ٢٠٤ هامش ، نقلا عن ابن الصابئ .
(٥) النكول : الجبن والتأخر .

من بيعته ، وانشراح صدور الناس لبيعة أمير المؤمنين ؛ ووافق أمير المؤمنين على ذلك كله ، ووجدك ، أدام الله تأييدك ، قد انفردت بهذه المآثر واستحققت بها من الله جليل الأثرة ومن أمير المؤمنين سنيّ المنزلة وعليّ المرتبة . وفيه فقد أصبحتَ سيف أمير المؤمنين المبير لأعدائه الحاظى دون غيرك بحميد رأيه ، المستبد بحماية حوزته ورعاية رعيته والسفارة بينه وبين ودائع الله عنده فى بريته . وقد برزت راية أمير المؤمنين عن الصليق ، متوجهاً نحو سريره الذى حرسته ، ومستقر عزه الذى شيدته ، ودار مملكته التى أنت عمادها . . . إلى أن قال : فواصلْ حضرة أمير المؤمنين بالإنهاء والمطالعة إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

ثار الديلم والأتراك وطلبوا رسم البيعة على ما جرت به العادة ، ومنعوا الخطبة باسم الخليفة ، وترددت الرسل بين الجند وبهاء الدولة الذى أجاب طلبهم وأغدق عليهم ، ومنح كلا منهم ثمانمائة درهم ، وأقيمت الخطبة باسم أبى العباس أحمد القادر بالله ، وهنأه الناس بالخلافة ومدحه الشعراء . وقد أنشد الشريف الرضى[1] قصيدة طويلة ننقل منها هذه الأبيات :

شرف الخلافة يا بنى العباس ... اليوم جدده أبو العباس
هذا الذى رفعت يداه بنا ... ها العالى وذاك موطد الآساس
ذا الطود بقّاه الزمان ذخيرة ... من ذلك الجبل العظيم الراسى
ملك تطاوح مالكوه وأصبحوا ... منه وراء معالم أدراس
فاليوم لمّ العز بعد تشعث ... وأعيد ذكر الدين بعد تناسى
قد كان زعزعك الزمان فراعه ... عود على عجم النوائب عاس[2]
ما كان غير مجرب لك فى العلى ... لتكون راعى الأمر دون الناس

وقد علق أبو شجاع[3] على قصيدة الشريف الرضى ، مشيداً بفضل القادر فى هذه العبارة : « ولقد صدق الموسوى فى قوله إن القادر بالله جدد معاهد الخلافة وأنار أعلامها ، وكشف غمم الفتنة وجلا ظلامها . ويقولون لئن كان لكل من الأئمة ، رضوان الله عليهم ، مناقب مروية وطرائق مرضية ، فان لأربعة منهم فضائل أفردوا بمزاياها وحظوا بمرباعها وصفاياها ، قام أمير المؤمنين السفاح سفح دماء الأعداء وتأخى كشف الغماء وتفرّد وتفضل بفضيلة الابتداء ، والمنصور بالله أيد بالنصر فى توطيد قواعد الأمر فذللَ كل صعب وأزال كل شعب ، وثقف كل منآد ومهّد لمن بعده أحسن مهاد : ثم المعتضد بالله عضد الدولة بحسن تدبيره وسياسته ، وتلافاها بشرف نفسه وعلو همته ،

---

(١) ديوان الشريف الرضى ج ١ ص ٤١٧ .
(٢) عاس غليظ يابس .
(٣) ذيل تجارب الأمم ج ٣ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .
(٤) جلى فى الأصل ، والصواب جلا بمعنى كشف وأنار .

وأعادها بعد الضعف ، إلى القوة و بعد اللين إلى الشدة ، و بعد الأود[١] إلى الاستقامة ، و بعد الفتنة إلى السلامة : ثم القادر بالله قَدَرَ من صلاحها على ما لم يقدر عليه سواه وسلك من طريق الزهد والورع ما تقدمت فيه خطاه ، فكان راهب بنى العباس حقاً وزاهدهم صدقاً ، ساس الدنيا والدين وأغاث الإسلام والمسلمين ، واستأنف فى سياسة الأمر طرائق قويمة ومسالك مأمونة سليمة ، هى إلى الآن مستمرة والقاعدة عليها مستقرة ، لم تعرف منه زلة ولا ذمت له خلة : فطالت أيامه وطابت أخباره واقتفيت[٢] آثاره ، وبقيت على ذريته الشريفة أنواره ، رضى الله عنه رضاه عن الأئمة المتقين ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه إلى يوم الدين » .

وكان القادر — كما يقول الخطيب البغدادى —[٣] « من الستر والديانة وإدامة التهجد بالليل ، وكثرة البر والصدقات على صفة اشتهرت عنه ، وعُرف بها عند كل أحد ، مع حسن المذهب وصحة الاعتقاد . وكان صنف كتاباً فى الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث ، وأورد فى كتابه فضائل عمر بن عبد العزيز وإكفار المعتزلة والقائلين بخلق القرآن . وكان الكتاب يقرأ كل جمعة فى حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدى ويحضر الناس سماعه » .

ازداد نفوذ بهاء الدولة فى عهد القادر ، فاستبد بالسلطة دون الخليفة . ويقول ابن الأثير[٤] عند كلامه على حوادث سنة ٣٨١ هـ ، وهى السنة التى ولى فيها القادر الخلافة ، إنه عقد مجلس حلف فيه « بهاء الدولة للقادر بالله على الطاعه والقيام بشروط البيعة ، وحلف له القادر بالوفاء والخلوص ، وأشهد عليه أنه قلده ما وراء بابه » . وقد استمرت العلاقة بين الخليفة العباسى و بين بهاء الدولة على شىء من الصفاء ، بدليل زواج الخليفة من سكينة ابنة بهاء الدولة على صداق قدره مائة ألف دينار (سنة ٣٨٣ هـ)[٥] ، وإضافة هذه الألقاب إلى بهاء الدولة فى خطبة الجمعة بأمر الخليفة وهى : قوام الدين ، صفى أمير المؤمنين »[٦] .

وعلى الرغم من ضعف الخليفة القادر واستبداد بهاء الدولة بالسلطة دونه ، نرى هذا الخليفة يعمل على تولية ابنه العهد من بعده لبقاء الحكم فى بيته ، وإن كان ذلك الحكم قد انتقل فى الواقع إلى أيدى بنى بويه . وقد ذكر هلال بن الصابئ[٧] العوامل التى دفعت الخليفة القادر إلى تولية ابنه العهد ، وذلك أن أحد أحفاد الخليفة الواثق بالله ادعى أن القادر قد ولاه عهده ، وأنه سار إلى بلاد ما وراء النهر حيث صادفت دعوته أذناً مصغية ، فلم ير الخليفة القادر بدأ من التخلص من ذلك العباسى والقضاء على دعوته بتولية ابنه أبى الفضل العهد من بعده .

---

(١) الأود الاعوجاج .
(٢) أقفيت فى الأصل .
(٣) تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٧ — ٣٨ .
(٤) ج ٩ ص ٣٤ .
(٥) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٥٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٦٤ .
(٦) هلال بن الصابئ : كتاب التاريخ الجزء الثامن (بيروت ١٩٠٤) ص ٤٤٣ .
(٧) المصدر نفسه ص ٤٢٠ — ٤٢٤ .

وفى شهر ربيع الأول سنة ٣٩١ هـ عقد الخليفة القادر مجلساً حضره حجاج خراسان ، وأعلن فيهم أنه قد جعل ابنه الأمير أبا الفضل ولى عهده ولقبه الغالب بالله ، وقرئت كتب البيعة على الحاضرين . وقد وصف هلال بن الصابئ[1] مجلس الخليفة فى هذه العبارة فقال : « جلس على السدّة العالية بثياب سود ، متقلداً سيفاً بحمائل فى البيت المعروف ببيت الرصاص ، وبين يديه نهر يجرى الماء فيه إلى دجلة ، ودخل إليه الأشراف والقضاة والشهود والفقهاء وأهل خراسان العائدون من الحجّ . وقرئ فى المجلس على رءوس الملأ كتابٌ بتقليده أبا الفضل ولده العهد بعده وتلقيبه الغالب بالله تعالى ، ولا غالب إلا الله وحده لا شريك له وكان له من السنّ فى هذا الوقت ثمانى سنين وأربعة أشهر وأيام . وكتب إلى البلاد بأن يخطب له بعده على نسخة قررت بحضرته ، وكانت بعد إتمام الدعاء له :

اللهمّ وبلغه الأمل فى ولده أبى الفضل الغالب بالله تعالى ولىّ عهده فى المسلمين ، اللهمّ والِ من والاه من العباد وعادِ من عاداه فى الأقطار والبلاد ، وانصر من نصره بالحقّ والسداد ، واخذل من خذله بالغىّ والعناد . اللهمّ ثبت دولته وشعاره ، وانبذ إلى من نابذ الحقّ وأنصاره » .

* * *

حاول بهاء الدولة التخلص من أبناء بختيار ، وكانوا قد قتلوا صمصام الدولة ، واستولوا على فارس وعولوا على محاربته واستمالة الديلم الذين كانوا يحنقون على بهاء الدولة لاعتماده على الأتراك . إلا أن بهاء الدولة استمال زعيم الديلم إليه ، وحارب ابنى بختيار الذين انتقلت إليهما الزعامة فى فارس[2] ، واستطاع أن يحدث الشقاق فى صفوفهما ، وأن يوقع بهما الهزيمة ويستولى على فارس سنة ٣٨٩ هـ ، فلحق أحدهما بالبطيحة ، ولحق الثانى ببلاد الديلم . ولكنه عاد إلى فارس حيث التف حوله كثير من الزط والديلم والأتراك ، واستولى على أغلب بلاد كرمان ، على أن بهاء الدولة أرسل إليه جيشاً أحل به الهزيمة وقتله (٣٩٠ هـ)[3] .

وقد اضطربت أحوال البطيحة واستولى عليها أحد القواد ، واسمه أبو العباس بن واصل ، وطرد صاحبها مهذب الدولة (صهر بهاء الدولة) ، ثم استولى على البصرة وهدد جنوبى بلاد العراق ، وهزم جيوش بهاء الدولة (٣٩٤ هـ) الذى أرسل إليه من بغداد جيشاً بقيادة مهذب الدولة ، فتمكن من استردادها ، واتفق مع بهاء الدولة على أن يدفع له خمسين ألف دينار جزية سنوية . على أن خطر ابن واصل لم يزل باستيلاء بهاء الدولة على البطيحة وطرده منها ، فانه سار إلى البصرة ، وكانت فى قبضة

---

(١) ص ٤٢٠ .

(٢) هما أبو نصر الذى تلقب نور الدولة ومحيى الأمة ، وأبو القاسم الذى تلقب حسام الدولة سيد الأمة .

(٣) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ٣٢٦ — ٣٢٧ ، وهلال بن الصابئ : كتاب التاريخ ص ٣٧٩ — ٤٩٤ . راجع أيضا ابن الأثير ج ٩ ص ٥٦ — ٥٧ و ٦٠ — ٦١

يده ، وهدد الأهواز وانتصر على جيوش بهاء الدولة فيها . وعلى الرغم من انتصار ابن واصل ، فإنه راسل بهاء الدولة وصالحه وزاد فى إقطاعه ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه ، وعاد إلى البصرة (١).

وفى سنة ٤٠١ هـ تعرض نفوذ بنى بويه فى العراق للخطر ، حيث خطب قرواش بن المقلد أمير بنى عقيل ، الذى آلت اليه السيادة فى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة ، للخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، فأرسل الخليفة القادر أبا بكر الباقلانى الفقيه المشهور إلى بهاء الدولة ، وطلب إليه أن يعمل على قمع هذه الحركة ، فأرسل بهاء الدولة جيشاً اضطر قرواش إلى إعادة الخطبة للخليفة العباسى (٢) .

بيد أن بهاء الدولة أجاب الخليفة العباسى إلى طلبه احتفاظا بنفوذه هو فى بلاد العراق ، والوقوف فى سبيل كل من يعمل على الحد من هذا النفوذ ، لاسيما إذا علمنا أن الخليفة العباسى لم يكن له مع بنى بويه من الأمر شىء سوى ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة . ومع هذا فقد عرف بنو بويه بالتعصب للمذاهب الشيعية ، وبلغ من تعصبهم أن قامت الثورات من حين إلى حين بين الشيعيين والسنيين فى بغداد وفى غيرها من أمهات مدن العراق . ففى سنة ٣٩٨ هـ قامت بين الشيعيين والسنيين فى بغداد ثورة كاد يقتل فيها أبو حامد الأسفرايني ، وتعصب أهل الشيعة ببغداد للخليفة الحاكم الفاطمى وصاحوا : يا حاكم يا منصور !

وكان بهاء الدولة — على ما وصفه أبو المحاسن (٣) — «ظالما غشوما سفاكا للدماء ، حتى إنه كان خواصه يهربون من قربه ، وجمع من المال ما لم يجمعه أحد من بنى بويه ، ولم يكن فى ملوك بنى بويه أظلم منه ولا أقبح سيرة» .

وقد توفى بهاء الدولة فى الخامس من شهر جمادى الآخرة من سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، بعد أن حكم أربعا وعشرين سنة (٣٧٩ — ٤٠٣ هـ) وتسعة أشهر وأيام ، وكان فى الثانية والأربعين من عمره ، وحملت جثته من أرسجان إلى مشهد على بن أبى طالب بالكوفة ، فخلفه فى السلطنة ابنه سلطان الدولة أبو شجاع ، وكان قد عهد بالسلطنة من بعده .

٧ — سلطان الدولة ومشرف الدولة ابنا بهاء الدولة (٤٠٣ — ٤١٦ هـ) :

خلف بهاء الدولة فى السلطنة ابنه سلطان الدولة أبو شجاع (٤٠٣—٤١١هـ) . وكان أول ما قام به أنه ولى أخاه جلال الدولة أبا طاهر البصرة ، وولى أخاه الآخر قوام الدولة أبا الفوارس كرمان . ولكن عوامل الشقاق لم تلبث أن دبت بين سلطان الدولة وأخيه أبى الفوارس . ويعزو ابن

---

(١) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٥٧ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٨٣ ، ابن فضل الله العمرى : كتاب مسالك الأبصار ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ١٩ ورقة ٢٩٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٣ .

الأثير (١) ذلك الشقاق إلى إغراء الديلم أبا الفوارس بحرب أخيه وأخذ ما بيده من البلاد ، فبادر إلى امتلاك شيراز فى سنة ٤٠٧ هـ . ولكن جيوش سلطان الدولة لم تلبث أن أخرجته منها وطاردته إلى كرمان فاحتلتها ، ثم إلى خراسان حيث لجأ أبو الفوارس إلى يمين الدولة محمود بن سبكتكين ، الذى أمده بجيش استرد به كرمان (سنة ٤٠٨ هـ) . على أن هذا الجيش لم يقوَ على الوقوف فى وجه جند سلطان الدولة ، فاضطر أبو الفوارس إلى التقهقر واللحاق بشمس الدولة بن فخر الدولة بن بويه صاحب همذان ، ثم بمهذب الدولة صاحب البطيحة . وانتهى الأمر باعادة كرمان إلى أبى الفوارس الذى اعترف بزعامة أخيه سلطان الدولة .

ولم تقتصر مصاعب سلطان الدولة على مناوأة أخيه قوام الدولة أبى الفوارس، فقد شغب عليه الجند فى العراق وأرادوا تولية أخيه مشرف الدولة السلطنة فيها ، وأشار بعض خواص سلطان الدولة عليه بالقبض على أخيه ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، وعمل على الهرب إلى واسط فقال له الجند : « إما أن تجعل عندنا ولدك (أباكاليجار) أو أخاك مشرف الدولة ، فراسل أخاه بذلك ، فامتنع ثم أجاب بعد معاودة ، ثم إنهما اتفقا واجتمعا ببغداد . . . وفارق سلطان الدولة بغداد وقصد الأهواز (شهر ذى الحجة سنة ٤١١ هـ) ، واستخلف أخاه مشرف الدولة على العراق » (٢) (٤١١-٤١٦هـ) . إلا أن الحرب لم تلبث أن قامت بين هذين الأخوين ، وحلت الهزيمة بجيش سلطان الدولة الذى هرب من الأهواز إلى أرّجان ، وقوى أمر مشرف الدولة ، فلقب فى أواخر شهر ذى الحجة بلقب شاهنشاه ، واعترف أخوه جلال الدولة أبو طاهر صاحب البصرة بسلطانه ، وخطب له ببغداد فى أواخر المحرم سنة ٤١٢ هـ (٣) .

على أن سلطان الدولة لم يهدأ باله بعد إلحاق الهزيمة به وهربه إلى أرجان ثم عودته إلى الأهواز ، بل أخذ يعمل على استرداد نفوذه ، واتخذ من ثورة الديلم على وزير أخيه مشرف الدولة وقتلهم إياه فرصة سانحة لتحقيق أغراضه ؛ فأنفذ ابنه أباكاليجار إلى الأهواز فاستولى عليها سنة ٤١٢هـ ، وتم الصلح بينه وبين أخيه سلطان الدولة ، وحلف كل منهما لصاحبه على أن يكون العراق لمشرف الدولة ، وفارس وكرمان لسلطان الدولة (سنة ٤١٣ هـ) . وقد صفا الجو لمشرف الدولة بوفاة أخيه سلطان الدولة فى سنة ٤١٥هـ ، وله من العمر اثنتان وعشرون سنة وخمسة أشهر (٤) .

وفى أيام مشرف الدولة ازداد نفوذ الأتراك . ويرجع ذلك إلى ضعف سلاطين بنى بويه وتسنم الأطفال عرش السلطنة فى بغداد فى ذلك الوقت . ولا عجب فقد ولى سلطان الدولة السلطنة وهو

---

(١) جـ ٩ ص ٩٠ و ١٠٩ — ١١٠ .
(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ١١٨ .
(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١١٩ — ١٢١ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ١٥١ .
(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٢١ — ١٢٢ .

فى الثالثة عشرة من عمره ، ووليها أخوه مشرف الدولة وهو فى الثامنة عشرة . ويقول ابن الأثير (١) فى حوادث سنة ٤١٥ هـ إن مشرف الدولة اضطر إلى الهرب مع وزيره وجماعة من مقدمى الديلم إلى قرواش بن مقلد العقيلى ، ولم يعد إلا بعد أن استوثق منهم .

كان مشرف الدولة كثير الخير قليل الشر عادلا حسن السيرة ، ولم يعمر فى السلطنة سوى خمس سنين وخمسة وعشرين يوما ، ومات وله من العمر ثلاث وعشرون سنة .

٨ — جلال الدولة (٤١٦ — ٤٣٥ هـ) :

كان أبو طاهر جلال الدولة من أطول سلاطين بنى بويه عهداً فى الحكم ، فقد أقيمت له الخطبة بالعراق بعد أخيه مشرف الدولة ، وطلب إليه وهو بالبصرة الحضور إلى بغداد ، ولكنه سار إلى واسط ثم عاد إلى البصرة ، فقطعت الخطبة له وتحولت إلى ابن أخيه الملك أبى كاليجار بن سلطان الدولة ، وكان مشغولا بالحرب مع عمه أبى الفوارس صاحب كرمان ، فاتخذ جلال الدولة من ذلك فرصة للمسير إلى بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة لنفسه من جديد (٢) . ويقول أبو الفدا (٣) إن الخليفة القادر استدعى جلال الدولة ، وكان بالبصرة ، إلى بغداد « لما حصل من النهب والفتن . . . لخلوها من السلطان ، فدخلها ثالث رمضان (سنة ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ م) ، وخرج الخليفة القادر للقائه ، وحلفه واستوثق منه . واستقر جلال الدولة فى ملك بغداد » .

وقد أوضح ابن الأثير ازدياد نفوذ الأتراك وتأثيرهم فى تسيير أمور الدولة العباسية فى ذلك الحين ، حتى إنهم أخذوا يتدخلون فى تولية سلاطين بنى بويه وعزلهم ، ويحملونهم على أن يحلفوا لهم على الطاعة والوفاء ، والخليفة فى ذلك كله لا يملك إلا تنفيذ رغباتهم . وهاك عبارة ابن الأثير (٤) عند كلامه على حوادث سنة ٤١٨ هـ : « فى هذه السنة فى جمادى الأولى ، خطب للملك جلال الدولة أبى طاهر بن بهاء الدولة ببغداد ، وأصعد إليها من البصرة ، فدخلها ثالث شهر رمضان . وكان سبب ذلك أن الأتراك لما رأوا أن البلاد تخرب ، وأن العامة والعرب والأكراد قد طمعوا ، وأنهم ليس عندهم سلطان يجمع كلمتهم ، قصدوا دار الخلافة وأرسلوا يعتذرون إلى الخليفة من انفرادهم بالخطبة لجلال الدولة أولا ، ثم بردّه ثانياً ، وبالخطبة لأبى كاليجار ، ويشكرون الخليفة حيث لم يخالفهم فى شىء من ذلك ، وقالوا إن أمير المؤمنين صاحب الأمر ، ونحن العبيد ، وقد أخطأنا ونسأل العفو ، وليس عندنا الآن من يجمع كلمتنا . ونسأل أن ترسل إلى جلال الدولة ليصعد إلى بغداد ، ويملك الأمر ويجمع الكلمة ويُخطب له فيها ، ويسألون أن يحلفه الرسول السائر لإحضاره لهم . فاجابهم الخليفة إلى ما سألوا ، وراسله هو وقواد الجند فى الإصعاد واليمين للخليفة والأتراك ، فحلف لهم ،

---

(١) ج ٩ ص ١٢٥ .
(٢) ابن الاثير ج ٩ ص ١٢٩ .
(٣) المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٥٦ .
(٤) ج ٩ ص ١٣٥ .

وأصعد إلى بغداد ، وانحدر الأتراك إليه ، فلقوه فى الطريق . وأرسل الخليفة إليه القاضى أبا جعفر السمنانى ، فأعاد تجديد العهد عليه للخليفة والأتراك ، ففعل . ولما وصل إلى بغداد نزل النجمى ، فركب الخليفة فى الطيار ، وانحدر يلتقيه . فلما رآه جلال الدولة قبّل الأرض بين يديه ، وركب فى زبزبه ووقف قائماً ، فأمره الخليفة بالجلوس ، فخدم وجلس ، ودخل إلى دار المملكة بعد أن مضى إلى مشهد موسى بن جعفر ، فزار وقصد الدار فدخلها ، وأمر بضرب الطبل أوقات الصلوات الخمس ، فراسله الخليفة فى منعه ، فقطعه غضباً حتى أذن له فى إعادته ففعل » .

على أن الأتراك كانوا ينزعون دائماً إلى شق عصا الطاعة ، مدفوعين بعوامل الطمع وابتزاز الأموال . ففى سنة ٤١٩ هـ ثاروا على جلال الدولة ببغداد ونهبوا داره ودور أنصاره ، كما « نهبوا صياغات أخرجها جلال الدولة لتضرب دنانير ودراهم ، وفرق فيهم ، وحصروا جلال الدولة فى داره ومنعوه الطعام والماء ، حتى شرب أهله ماء البئر وأكلوا ثمرة البستان . . . ثم أرسل إلى الخليفة ليصلح الأمر مع أولئك القواد ، فأرسل إليهم الخليفة القادر بالله ، فأصلح بينهم وبين جلال الدولة . . . فلم يمض غير أيام حتى عادوا إلى الشغب ، فباع جلال الدولة فرشه وثيابه وخيمه ، وفرق ثمنها فيهم حتى سكنوا »[١] . ولكن ذلك السكون لم يبق طويلا ، بدليل ثورة الأتراك على جلال الدولة وانتهابهم دور الأمراء ببغداد ومناداتهم بأبى كاليجار سلطاناً عليهم . ولولا امتناع هذا عن الحضور إلى بغداد لتفاقم خطر هذه الثورة فيما وراء حاضرة العباسيين ، وذلك فى عهد الخليفة المقتدر (٤٢٣ هـ)[٢] .

ولم يكن هذا كلّ ما صادف جلال الدولة من صعاب فى سبيل إقرار ملكه بالعراق ؛ فقد قام فى وجهه أبو كاليجار بن سلطان الدولة الذى استمال إليه بعض أمراء العراق واستولى على البصرة ، ثم سار إلى واسط واحتلها ، فسار جلال الدولة إلى الأهواز وانتهبها فى غيبة أبى كاليجار ، وأحل الهزيمة بجنده واسترد واسط[٣] ، ثم استولى على البصرة من جند أبى كاليجار[٤] .

صفات الخليفة القادر ووفاته :

مات الخليفة القادر فى شهر ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ ، بعد أن بقى فى الخلافة إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً ، وكان فى السابعة والثمانين من عمره . وعلى الرغم من استبداد الأتراك والديلم بأمور الدولة ، فان القادر قد احتفظ بهيبة الخلافة . وفى ذلك يقول ابن الأثير[٥] : « وكانت الخلافة قبله قد طمع فيها الديلم والأتراك ؛ فلما وليها القادر بالله أعاد جدتها وجدد ناموسها ،

---

(١) ابن الاثير جـ ٩ ص ١٣٧ .
(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٥٨ .
(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٤٠ — ١٤١ .
(٤) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٥٣ .
(٥) جـ ٩ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

وألقى الله هيبته فى قلوب الخلق ، فأطاعوه أحسن طاعة وأتمها . وكان حليما كريما خيراً : يحب الخير وأهله ويأمر به ، وينهى عن الشر ويبغض أهله . وكان حسن الاعتقاد ، صنف فيه كتابا على مذهب السنة . . . وكان يقسم إفطاره كل ليلة ثلاثة أقسام : فقسم كان يتركه بين يديه ، وقسم يرسله إلى جامع الرصافة ، وقسم يرسله إلى جامع المدينة (يعنى مدينة بغداد) يفرق على المقيمين فيهما . فاتفق أن الفراش حمل ليلة الطعام إلى جامع المدينة ، ففرقه على الجماعة . فأخذوا ، الإشابا ، فإنه رده . فلما صلوا المغرب ، خرج الشاب وتبعه الفراش ، فوقف على باب ، فاستطعم ، فأطعموه كسيرات ، فأخذها وعاد إلى الجامع فقال له الفراش : ويحك ؟ ألا تستحى ؟ ينفذ إليك خليفة الله بطعام حلال فترده وتخرج وتأخذ من الأبواب ؟ فقال : والله ما رددته إلا لأنك عرضته علىّ قبل المغرب ، وكنت غير محتاج إليه ، فلما احتجت طلبت . فعاد الفراش فأخبر الخليفة بذلك ، فبكى الخليفة وقال له : راع مثل هذا ، واغتنم أخذه ، وأقم إلى وقت الإفطار . وقال أبو الحسن الأبهرى : أرسلنى بهاء الدولة إلى القادر بالله فى رسالة فسمعته ينشد :

سبق القضاءُ بكل ما هو كائن ... والله يا هذا لرِزْقك ضامن[1]
تعنى بما يَفنى وتترك ما به ... تُغنى كأنك للحوادث آمن
أوْ ما ترى الدنيا ومصرعَ أهلها ... فاعمل ليوم فراقها يا خائن ؟[2]
واعلم بأنك لا ينالك فالذى[3] ... أصبحتَ تجمعه لغيرك خازن
يا عامر الدنيا أتعْمُر منزلا ... لم يبق فيه مع المنية ساكن ؟
الموت شىء أنت تعلم أنه ... حقٌّ وأنت بذكره متهاون
إن المنية لا تؤامر من أتت ... فى نفسه يوما ولا تستأذن

فقلت الحمد لله الذى وفق أمير المؤمنين لإنشاد مثل هذه الأبيات فقال : بل لله المنة ، إذ ألزمنا بذكره ، ووفقنا لشكره . ألم تسمع قول الحسن البصرى فى أهل المعاصى ؟ هانوا عليه فعصوه ، ولو عزّوا عليه لعصمهم ، ومناقبه كثيرة » .

الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ = ١٠٣١ — ١٠٧٥ م) :

ولى الخلافة بعد القادر ابنه القائم بأمر الله ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، وأمه أم ولد رومية تسمى بدر الدجى (وقيل قطر الندى) . وكان أبوه القادر قد ولاه عهده فى سنة ٤٢١ هـ [4] .

---

(١) ورد هذا اللفظ فى كتاب تاريخ المسلمين لابن العميد (ص ٢٦٣) كاين .
(٢) فى الاصل يا جائن .وقد وردت فى المصادر الأخرى يا خائن .
(٣) وردت فى ابن الاثير لا أبالك فى الذى ، وصحتها لا ينالك فالذى (ابن العميد ص ٢٦٣) .
(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٤ .

وكان القائم — كما يقول أبو المحاسن —[١] « متدينا ورعا زاهداً عالما ، فى وجهه أثر صفار من قيام الليل . وكان يسرد[٢] الصوم » . وقد عمر فى الخلافة أربعا وأربعين سنة[٣] .

وكان الخليفة القائم فى عهد سلطنة جلال الدولة وأبى كاليجار والملك الرحيم كغيره من الخلفاء الذين سبقوه مسلوب السلطة ، فى الوقت الذى أصبح فيه بنو بويه أكثر قوة ونفوذاً ، وغدوا يديرون العالم الإسلامى من غير أن يشيروا أو يحفلوا بمن يدعى أنه أمير المؤمنين[٤] . على أن ما أصاب الدولة العباسية من ضعف ووهن فى ذلك الحين لم يكن راجعاً إلى ضعف الخلفاء فحسب ، بل كان راجعا أيضا إلى قيام النزاع والمنافسة بين بنى بويه من جهة ، وبينهم وبين الجند من جهة أخرى . ففى سنة ٤٢٤ هـ أصبحت البصرة مركزاً للصراع بين جلال الدولة وبين ابن أخيه أبى كاليجار (عماد الدولة) بن سلطان الدولة الذى خطب له على منابرها ؛ ولكن جند جلال الدولة استردوا هذه المدينة ثم جلوا عنها فى السنة التالية . كما شغب الجند على جلال الدولة وقبضوا عليه وأخرجوه من داره ؛ ولولا انقسام هؤلاء الجند على أنفسهم لزال ملك جلال الدولة الذى أفاد من جراء هذا الانقسام وعاد إلى بغداد بعد قليل[٥] .

وقد صور هارولد باون[٦] فى مقاله الذى نشره فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩٢٩ سوء مركز جلال الدولة منذ ولى السلطنة فى بغداد سنة ٤١٦ هـ فقال : « إن إدارة جلال الدولة منذ تولى مقاليد الحكم فى سنة ٤١٦ هـ كانت فى غاية الضعف ، فإن بغداد قد غدت منذ ذلك الحين مسرحاً للشغب والمنازعات الطائفية ، وزاد هذه المنازعات تعقيداً منافسات الجند الذين كانوا يتألفون من أجناس مختلفة أهمها العرب والديلم والأتراك . أضف إلى ذلك أن الأتراك قد عطفوا على دعوى أبى كاليجار بن سلطان الدولة ، الأخ الأكبر لجلال الدولة لتسنم عرش السلطنة فى العراق . وقد قام هؤلاء الجند ثلاث مرات بمحاولات عنيفة ترمى إلى خلع جلال الدولة وتنصيب ابن أخيه أبى كاليجار فى السلطنة من بعده . وكانت الحروب بين الفريقين لا تكاد تنقطع فى السنين الأولى من حكم جلال الدولة . وبلغت الفوضى ذروتها فى بغداد بعد سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣٧ م) ، وأرغم السلطان على الهرب من حاضرة العباسيين ثلاث مرات خوفاً على حياته . ولكن جلال الدولة وابن أخيه (أبو كاليجار) عقدا الصلح سنة ٤٢٨ هـ ، فساد الوفاق بينهما » .

---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ٥ ص ٩٨ . (٢) سرد الصوم تابعه .

(٣) يقول أبو المحاسن (جـ ٥ ص ٩٨) : « ومن الغرائب أن القائم هذا كان معاصراً للمستنصر العبيدى ... وكلاهما مكث فى الخلافة ما لم يمكثه غيره من آبائه وأجداده من طول المدة . فالقائم هذا كانت مدته أربعا وأربعين سنة ، والمستنصر ستين سنة » . وقد نسى أبو المحاسن أن عبد الرحمن الناصر الأموى فى الأندلس مكث فى الحكم أكثر من خمسين سنة (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) وإن لم يكن آباؤه من الخلفاء .

(٤) Arnold : The Caliphate, p. 68. (٥) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٦١ .

(٦) Harold Bowen : The Last Buwayhids, J. R. A. S. (1929), p. 229.

وقد ذكر ابن الأثير(١) فى حوادث سنة ٤٣٢ﻫ أن النزاع قام بين جلال الدولة البويهى وقرواش ابن المقلد العقيلى صاحب الموصل ، الذى لم يعبأ بأوامر جلال الدولة ، وأخذ يؤلب الجند من الأتراك عليه . وانتهت الحروب التى قامت بينهما بعودة قرواش إلى طاعة بنى بويه .

ولم تكن المصاعب التى صادفت جلال الدولة مقصورة على ذلك النزاع ، الذى كان يقوم من حين إلى حين بين أمراء بنى بويه ، وشغب الجند عليه ، بل كان راجعا أيضا إلى تذمر الخليفة القائم منه بسبب تدخله فى شئونه الخاصة . ففى سنة ٤٣٤ ﻫ خرج جلال الدولة ، على ماجرت به العادة من إرسال أموال الجوالى(٢) إلى الخلفاء العباسيين مباشرة ، دون الرجوع إلى سلاطين بنى بويه . ولكن جلال الدولة « أخذ ماتحصل منها ، وكانت العادة أن يحمل مايحصل منها إلى الخلفاء ، لاتعارضهم فيها الملوك . فلما فعل جلال الدولة ذلك ، عظم الأمر فيه على القائم بأمر الله واشتد عليه ، وأرسل مع أقضى القضاة أبى الحسن الماوردى فى ذلك ، وتكررت الرسائل ، فلم يصغ جلال الدولة لذلك ، وأخذ الجوالى . فجمع الخليفة الهاشميين بالدار والرجالة ، وتقدم بإصلاح الطيار والزبازب ، (٣) وأرسل إلى أصحاب الأطراف وللقضاة بما عزم عليه ، وأظهر العزم على مفارقة بغداد » .

توفى جلال الدولة فى شهر شعبان سنة ٤٣٥ ﻫ ، بعد أن حكم بغداد ست عشرة سنة وأحد عشر شهرا ، وكان فى الثانية والخمسين من عمره . وقد عرف بالضعف وسوء التدبير ، وامتاز عهده بازدياد نفوذ الجند والولاة . وكان ، كغيره من سلاطين بنى بويه ، مغاليا فى التشيع . وكان يكثر من زيارة مشهدى على بن أبى طالب وابنه الحسين ، حتى « إنه كان يمشى حافيا قبل أن يصل إلى كل مشهد منهما نحو فرسخ »(٤)

٩ — أبو كاليجار (٤٣٥ — ٤٤٠ ﻫ) :

عمل جلال الدولة على أن يخلفه فى السلطنة ابنه الأكبر أبو منصور فيروز . وقد ولاه أبوه البصرة فى حياته ، ثم ولاه واسط بعد أن خرجت البصرة من يده . ولم يكن فيروز ، الذى لقبه الخليفة « الملك العزيز » ، كلفا بشئون الدولة ، بل صرف وقته فى الانغماس فى الملاذ من ناحية ، وفى دراسة الأدب والتاريخ والنحو ونظم القصائد من ناحية أخرى(٥) .

ولم يستطع الملك العزيز الاحتفاظ بنفوذ أبيه فى بغداد . فقد استمال أبو كاليجار بن سلطان الدولة كبار القواد بالأموال ، فأقاموا الخطبة له ، واستقر أمره ببغداد ، على حين أخذ أنصار الملك العزيز ينفضون من حوله ، ولجأوا إلى الأمراء على غير جدوى ، حتى مات بميافارقين سنة ٤٤١ ﻫ

---

(١) جـ ٩ ص ١٨٢ — ١٨٣

(٢) الجوالى هى الأشياء المختارة ، من الممتلكات أو من الشاء أو غيرها يختارها الخليفة لنفسه

(٣) الطيار والزبازب : ضرب من السفن

(٤) Harold Bowen : The Last Buwayhids, j R. A. S.(1929), pp. 232 — 3

(٥) أبو الفدا جـ ٢ : ص ١٦٧ .

بذلك استطاع أبو كاليجار دخول بغداد ، ولكنه لم يجد من الخليفة القائم الذى لم يخرج للقائه الترحيب الذى كان يؤمله . ولما ضرب أبو كاليجار الدبادب على داره فى أوقات الصلوات الخمس ، وأمر الخليفة بقصرها على ثلاث مرات ، لم يحفل بأمر الخليفة(١) . وقد اعترف بنفوذ أبى كاليجار سائر أمراء العراق ، واستولى أنصاره على همذان ، وطردوا نائب طغرلبك السلجوقى منها . وأمر أبو كاليجار ببناء سور مدينة شيراز ، التى ظهر فيها إذ ذاك المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى (+ ٤٧٠ هـ) ، الذى شغل منصب داعى دعاة الفاطميين فى فارس وداعى دعاتهم فى مصر بعد ذلك . ويرجع سبب بناء سور مدينة شيراز فى سنة ٤٣٦ هـ ، إلى ما كان يخشاه أبو كاليجار من اتساع نفوذ السلاجقة الذين ازداد خطرهم فى الأربع السنين الأولى من حكمه .

وقد حارب أبو كاليجار صاحب أصبهان ، لنقضه العهد وانضمامه إلى طغرلبك السلجوقى ، واستيلائه على بعض نواحى كرمان ، وهزمه ، وطرده من هذه البلاد . ولكن أبا كاليجار نجح فى استمالة صاحب أصبهان الذى دعا له على منابرها فى سنة ٤٣٨ هـ . وبعد ذلك بسنتين عقد الصلح بين أبى كاليجار وبين طغرلبك ، الذى كتب « إلى أخيه (إبراهيم بن ينال) يأمره بالكف عما وراء ما بيده . واستقر الحال بينهما ، على أن يتزوج طغرلبك بابنة أبى كاليجار ، ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبى كاليجار بابنة الملك داود أخى طغرلبك »(٢).

وكان من أثر عقد الصلح الذى اقترن بربط البيتين البويهى والسلجوقى برباط المصاهرة ، أن تأجل استيلاء السلاجقة على بغداد إلى حين ، كما تأخر تهديد السلاجقة لأملاك الفاطميين فى الشام ومصر . ويظهر ذلك جليا من هذا الكتاب الذى بعث به أبو كاليجار فى سنة ٤٣٩ هـ إلى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى كما ورد فى كتابه السيرة المؤيدية(٣) :

« فيجب أن تحقق ما كنتَ تبذله ، وتصور لتلك الحضرة الشريفة — دامت بالعز مكنوفة — ما اطلعتَ عليه من شواهد صفاء عقيدتنا فى مخالصتها ، وإيثارنا انتظام شمل سعادتها ، واستقامة أمور مملكتها ، وتعلمها أن هؤلاء التركمان (سلاجقة طغرلبك) المستولين على أعمال خراسان والرى ، لا يقصر خطاهم عن بلادها المحروسة ، إلا ثباتُ عساكرنا المنصورة فى وجوههم ، وانصراف هممنا إلى قمعهم وفل غربهم(٤) ، وبذلنا الأموال فى كف عادياتهم ، وامتداد جيوشنا الموفورة لمقارعتهم أين نجموا وأين نبغوا »

من ذلك نرى أن البويهيين الشيعيين اتخذوا من التقرب إلى الفاطميين وسيلة لإثارة مخاوف العباسيين ، حتى لا يرتموا فى أحضان أعدائهم السلاجقة السنيين . وكأنهم بذلك رجعوا إلى السياسة التى أراد معز الدولة بن بويه أن يتبعها حيال الفاطميين ، بعد استيلائه على بغداد سنة ٣٣٤هـ ، ولكنه أشير عليه بالعدول عن هذه السياسة على ما رأينا (٥).

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٧ — ٣٨ .
(٢) ابن الاثير ج ٩ ص ١٩٩ .
(٣) مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٦٠٥٦ ص ١١٥ — ١١٦ .
(٤) الغرب حد السيف ، والمراد هنا بذل أقصى الجهد فى القضاء على محاولتهم فى سبيل امتلاك مصر .
(٥) انظر ص ١٠٢ — ١٠٣ من هذا الجزء .

ولولا أنّا ضربنا بينهم وبين تلك المملكة المحروسة بالأسداد ، وتجردنا لمانعتهم التى هى أكثر جهادنا ، لما سلمت أكنافها[١] من عوادى طغيانهم ، ولاضطرمت فيها نيران غيّهم وعداوتهم . وأنهم لا يتجسّرون إلا على حصولنا كالسد بيننا وبينهم ، ولا يتمنون إلا أن نسهل لهم السبيل إلى قصدها . ولن يتم لهم باذن الله هذا المرام ، ولا تسعفهم به الأيام ، فإنّنا متجردون للانقضاض عليهم متى تجاوزوا حدود أعمالهم قيس شبر ، وعازمون على تلقيهم إن ساقهم حينهم (حتفهم) إلى حيث تلى ممالكنا بقاصمة الظهر . ولتثق ... حرس الله نعمتها — أن لها من الانتفاع بمودتنا الحظ الأوفى والقسم الأوفر الأسنى . ومع ذلك فقد حدّث هؤلاء نفوسهم بقصد الموصل عن طريق أذربيجان ، وإن تم لهم ذلك ، لم يؤمن من استعارة الفتن من جهتهم » .

ولا غرو فقد قام هبة الله المؤيد فى الدين الشيرازى بدور هام فى نشر الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى بلاد العراق ، واعتمد فى نشر دعوته على تأييد السلطان أبى كاليجار البويهى الذى عرف كغيره من البويهيين بتشيعه وميله للفاطميين . أما الخليفة القائم العباسى فقد وجد فى هبة الله الشيرازى خطراً يهدد كيان دولته ومذهبه السنى فى فارس ، فعمل على القضاء على جهوده ، وبعث سفيراً من قبله إلى أبى كاليجار يطلب إليه تسليم داعى الفاطميين ، ويهدده بالاستغاثة بالسلاجقة ودعوتهم إلى دخول بغداد . وقد بين المؤيد فى الدين فى سيرته ما بذله من جهود فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية ، وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى فى شيراز ، وإحلال اسمه محل اسم الخليفة العباسى ، وكيف أثار هذا العمل غضب الخليفة العباسى الذى طلب من أبى كاليجار تسليم هذا الداعى الجرىء إليه ، فلم يحفل السلطان البويهى بذلك . وهاك عبارة المؤيد فى الدين[٢] التى تبين لنا حجة العباسيين على أبى كاليجار وتهديدهم إياه : « أنه إن كانت دعوة تعزى إليهم (الفاطميين) فى الأزمان المتقدمة ، فلقد كانت فى الخفاء والستر ، مثل خبيّات الصدور ومكنونات القلوب . وإن أحداً ما جسر على مثل ما جسر عليه هذا الرجل (يعنى هبة الله الشيرازى) الفاعل الصانع من الوقوف فى بعض مواقف إظهاره وإشهاره ، والتجرد لرفع معالم ذكرهم بالصلاة والخطبة ، وإزالة أسامينا بالكلية ، وأنه إذا سومح فى بابه وأهمل الاستيثاق وتسليمه فى يد صاحبنا ، فقد أخرجتمونا من عهدة الأيمان والعهود بيننا وبينكم (أى بين العباسيين والبويهيين) ، وأحوجتمونا إلى استنصار من ينصرنا عليكم ، يعنى التركمانية » .

وإذاً فقد كانت هناك علاقات مودة ووفاق بين أبى كاليجار والفاطميين ، يعمل على توثيقها مؤيد الدين الشيرازى داعى دعاة الفاطميين ، وأن أبا كاليجار اتخذ من تقربه إلى هبة الله الشيرازى

---

(١) أكناف الشىء جوانبه ونواحيه ، والمراد ممتلكات الفاطميين .

(٢) السيرة المؤيدية ص ٩٥ — ٦٩ .

وإلى والفاطميين سلاحاً يشهره فى وجه العباسيين ، حتى يحول بينهم وبين ما يبتغونه من التقرب إلى السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بنى بويه فى ذلك الحين(١) . وكان من أثر ذلك أن تقرب أبو كاليجار من المؤيد ، وأخذ يسمع محاضراته ويدرس كتب الاسماعيلية(٢) .

وقد نقل هارولد باون(٣) عن كتاب fárs- náméh أن الدعوة لطائفة الاسماعيلية أو السَّبعية ، الذين كانوا يعرفون بالباطنية فى ذلك الوقت ، قد وجدت طريقها إلى قلوب الديالمة فى فارس على يد ذلك الداعى القدير ، الذى نجح حتى فى تحويل هذا الأمير (أبى كاليجار) إلى عقائد هذا المذهب » .

وفى الحق أن الديالمة قد أصبحوا — كما يقول المؤيد فى الدين(٤) — « إلى صاحب مصر داعين وباسمه مبايعين » ، وأصبحوا « يتخذون المؤيد أباً لهم وأخاً وصاحباً ، واتخذه الكل سراً ومَفْزَعا فى كل شىء » (٥) . ولو أن أبا كاليجار « استقصى الأمر ، لوجد ندماءه أكثرهم بذلك « دائنين (أى آخذين بمذهبه) وبشعاره منادين » (٦) .

وفى سنة ٤٤٠ هـ ساءت العلاقة بين أبى كاليجار وبين واليه فى كرمان ، فقصده فى شهر ربيع الآخر من هذه السنة . ولكن المنية عاجلته وهو فى الطريق ، وتوفى فى شهر جمادى الأولى سنة ٤٤٠ هـ وله من العمر أربعون سنة ، ومدة سلطنته أربع سنين وشهران وأيام ، وحكم فارس والأهواز خمسا وعشرين سنة(٧) .

وكان أبو كاليجار — كما يصفه أبو المحاسن (٨) — « شجاعا فاتكا مشغولا بالشرب واللهو » .

١٠ — أبو نصر الملك الرحيم (٤٤٠—٤٤٧هـ) :

لما علم أبو نصر خسرو فيروز بموت أبيه أبى كاليجار ، وكان نائباً عنه فى العراق ، « أحضر الجند واستحلفهم ، وراسل الخليفة القائم بأمر الله فى معنى الخطبة له وتلقيبه بالملك الرحيم ، وترددت الرسل بينهم فى ذلك ، إلى أن أجيب إلى ملتمسه ، سوى « الملك الرحيم » ، فان الخليفة امتنع من إجابته وقال : لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى . واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة » (٩) .

وكان للملك الرحيم إخوة كثيرون هم : الأمير أبو منصور فلادستون ، وأبو طالب كامرو

---

(١) السيرة المؤيدية ، مخطوط ص ٩٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ١١٥ .
(٣) Harold Bowen : The Last Buwayhids, J. R. A. S. (1929), p. 234.
(٤) السيرة المؤيدية ص ٤ . (٥) المصدر نفسه ص ١٣ .
(٦) المصدر نفسه ص ١٩ . (٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٦ .
(٨) المصدر نفسه ج ٥ ص ٤٦ . (٩) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٤ .

وأبو المظفر بهرام ، وأبو على فناخسرو ، وأبو سعد خسرو شاه ، واسفنديار ، وبويه ، وأخ صغير وأختان ، تزوجت إحداهما الخليفة القائم وماتت سنة ٤٤٠ هـ ، وتزوجت الأخرى طغرلبك (١) .

وقد استولى أبو منصور أخو الملك الرحيم على شيراز ، فسير إليه أخاه أبا سعد خسروشاه ، فاستولى عليها ، وأقام الخطبة فيها للملك الرحيم . ثم سار الملك الرحيم إلى خوزستان ، فأذعنت له بالطاعة ، كما هزمت جيوشه الملك العزيز بن جلال الدولة الذى سار إلى البصرة طمعا فى امتلاكها ، فانقطع أمله فى العوده إلى السلطنة ، ومات فى السنة التالية (٤٤١ هـ) كما تقدم .

ولكن الأحوال تقلبت بالملك الرحيم ، فان أخاه أبا منصور صاحب فارس انتصر عليه وملك الأهواز (سنة ٤٤١هـ) ، ولم يلبث أن خرج منها بسبب شغب الجند عليه، وإعادة الخطبة للملك الرحيم الذى استرد الأهواز بنفسه فى السنة التالية . وفى سنة ٤٤٣ هـ أرسل الملك الرحيم أخاه أبا سعد فاستولى على قلعة إصطخر ومدينة شيراز ، وانتهز أخوه الأمير أبو منصور صاحب فارس انشغال أبى سعد بالحروب ، وعاد هو وأنصاره إلى الأهواز وانتصر على الملك الرحيم واضطره إلى التقهقر إلى واسط . وفى سنة ٤٤٤ هـ حارب الملك الرحيم أخاه أبا على فناخسرو فى البصرة وانتصر عليه (٢). وهكذا أصبحت مدن العراق وفارس مركزاً للنزاع بين الملك الرحيم وبين أخوته تارة ، وبينه وبين السلاجقة تارة أخرى .

وكانت هذه الحروب التى قامت بين أبناء أبى كاليجار من أهم عوامل ضعف بنى بويه ، فانه بدلا من أن يستعين الملك الرحيم بإخوته على دفع خطر السلاجقة عن بلاده ، فانه قلم أظفاره بيده ، وهيأ لمنافسيه السلاجقة الأقوياء سبيل الاستيلاء على بغداد ، كما كانت مناوأة أبى الحارث البساسيرى للخليفة المطيع من أهم العوامل التى عجلت بسقوط بنى بويه .

كان أبو الحارث البساسيرى من قواد بنى بويه الأتراك ، وقد زاد نفوذه وتفاقم خطره فى عهد الملك الرحيم ، حتى أصبح الخليفة العباسى والسلطان البويهى معه مسلوبَ السلطة ضعيفى الجانب . ويقول الخطيب البغدادى (٣) : « إن أرسلان التركى المعروف بالبساسيرى كان قد عظم أمره واستفحل شأنه ، لعدم نظرائه من مقدّمى الأتراك المسمون بالأسفهسلارية ، واستولى على البلاد ، وانتشر ذكره وطار اسمه ، وتهيبته أمراء العرب والعجم ، ودعى له على كثير من المنابر العراقية ، وبالأهواز ونواحيها ، وجبى الأموال ، وخرب الضياع . ولم يكن الخليفة القائم بأمر الله يقطع أمراً دونه ولا يحل ويعقد إلا عن رأيه » .

ويقول أبو المحاسن (ج ٥ ص ٤٦) إن الخليفة القائم بأمر الله لقبه « الملك الرحيم ، وخلع عليه خلعة السلطنة ، وكانت الخلع سبع جباب كاملة ، والتاج والطوق والسوارين واللواءين ، كما كان فعل بعضد الدولة » .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٤ ، Harold Bowen : J. R. A. S. (1929) , p. 227

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٦ — ٢٢٠ . (٣) كتاب تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٩٩ — ٤٠٠ .

وقد عزا ابن الأثير(١) تبدل العلاقة بين الخليفة القائم وبين أبى الحارث البساسيرى إلى تقريب الخليفة أبا الغنائم وأبا سعد صاحبا قريش بن بدران العُقيلى اللذين وصلا إلى بغداد سراً ، «فامتعض البساسيرى من ذلك وقال : هؤلاء وصاحبهم كبسوا حلل أصحابى ، ونهبوا وفتحوا البثوق وأسرفوا فى إهلاك الناس ، وأراد أخذهم فلم يمكن منهم . . . وعاد ولم يقصد دار الخلافة على عادته ، فنسب ذلك إلى رئيس الرؤساء (وزير القائم) . واجتازت به سفينة لبعض أقارب رئيس الرؤساء ، فمنعها وطالب بالضريبة التى عليها . وأسقط مشاهرات الخليفة من دار الضرب ، وكذلك مشاهرات رئيس الرؤساء وحواشى الدار . . . وقال : ما أشكو إلا من رئيس الرؤساء الذى قد خرب البلاد ، وأطمع الغز(٢) » ، وهم فرع من السلاجقة .

أما الخطيب البغدادى(٣) فيرى أن الخليفة القائم قد صح عنده سوء عقيدته (يعنى البساسيرى) ، وشهد عنده جماعة من الأتراك أن البساسيرى عرَّفهم ، وهو إذ ذاك بواسط ، عزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة ، فكاتب الخليفة طغرلبك يستنهضه على المسير إلى العراق .

وأما الذهبى (٤) فيرى أنه قد «تحقق عند القائم بأنه (البساسيرى) يكاتب المصريين (يعنى الفاطميين فى مصر) ، وكاتب الملك الرحيم يأمر بإبعاد البساسيرى فأبعده . وكانت هذه الحركة من أعظم الأسباب فى استيلاء طغرلبك على العراق» .

والواقع أن العداء الذى قام بين الخليفة العباسى وبين البساسيرى كان فى حقيقة الأمر عداء بين العباسيين والبويهيين ، وبعبارة أخرى بين السنيين والشيعيين . وقد كشف الخليفة القائم عن حقيقة تقرب بنى بويه من الفاطميين على يد المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، وأدرك الخطر الذى

---

(١) جـ ٩ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٢) كان ابن مسلمة المعروف برئيس الرؤساء قد وزر للخليفة القائم ، وكان يكره بنى بويه لتشيعهم ، ويسعى جهده فى إحلال السلاجقة السنيين محلهم فى حكم بغداد ، وبذلك يستطيع العباسيون القضاء على الفاطميين . يؤيد ذلك هذه الرسالة الممتعة التى بعث بها المؤيد هبة الله الشيرازى ، وكان سفيراً للفاطميين إذ ذاك فى العراق ، إلى وزير طغرلبك . ليوقع الخلاف بين السلاجقة والعباسيين من جهة ، ويقرب بين الفاطميين والسلاجقة من جهة أخرى . وهاك بعض ما جاء فى هذه الرسالة : « يعلم سيدى الاجل عميد الملك (أبو نصر محمد بن منصور الكندرى) أننى كنت خاطبت حضرته وهو يومئذ مقيم بالرى ، خاطبا لمودته وطالبا لاتشاج الحال (الاتشاج الاشتباك والمعنى المراد هنا الائتلاف) بينى وبينه ، لما كان يبلغنى من محاسن أوصافه وجميل خلاله وخصاله . ولأن يكون التعارف بيننا سلما إلى التعارف بين سلاطيننا ، خلد الله ملكهم ، وتأكد سبب المودة بينهم ، انتهاء منا إلى ما قال الله سبحانه وتعالى (لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) (سورة النساء آية ١١٤) واتفق من الأمر سبق ابن مسلمة إلى باطله ، حتى عمل سحره ونفذ كيده ، وحصل الركاب العالى (السلطان طغرلبك) ببغداد . وانبثت الكتب يميناً وشمالا بكون قصده لقضاء حق الخليفة (القائم) والسلام عليه والتبلغ بعده إلى مصر» . السيرة المؤيدية ، مخطوط ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٣) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٤٠٠ .

(٤) تاريخ الاسلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، مخطوط مصور رقم ٣٩٦ تاريخ جـ ٣ ورقة ٢٢٠ .

يهدد الخلافة العباسية السنية من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية . وليس من شك فى أنه كان بين صفوف جند بنى بويه من الديلم والأتراك عدد غير قليل على رأسهم البساسيرى ، يرى وجوب تحويل الخلافة إلى الفاطميين ، فعمل الخليفة العباسى القائم على الحد من نفوذ أبى الحارث البساسيرى وأنصاره وإبعادهم عن بغداد ، وتمهيد السبيل بذلك لدخول السلاجقة إليها . ولم يكن استنجاد الخليفة العباسى بالسلاجقة أمراً مستبعداً ؛ فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة ، فاستعانوا بالفرس على العرب فى تأسيس دولتهم ، ثم استعانوا بالأتراك على الفرس منذ عهد المعتصم ، وراسلوا « بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرلبك السلجوقى لينتشلهم من تحكم البساسيرى (وأنصاره) ، حينما أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين فى مصر ، بل أوفدوا الرسل إلى خوارزم شاه ليقيهم شر السلاجقة . وكانت العوامل التى دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستنجاد ببنى بويه والسلاجقة وخوارزم شاه ، هى نفس العوامل التى دفعتهم إلى الاستنجاد بالتتار »(١) .

ومهما يكن من شىء فقد أرسل الخليفة القائم إلى طغرلبك ، أبا محمد هبة الله بن محمد بن الحسن بن المأمون يدعوه إلى بغداد (٢) . ويقول ابن الأثير (٣) فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ إن طغرلبك « أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة ، والمسير إلى الشام ومصر ، وإزالة المستنصر العلوى صاحبها » . وقد أعد طغرلبك لذلك الأمر الخطير عدته . ولما وصل إلى حلوان هاجت بغداد وماجت ، وانتثر عِقد نظامها ، وأجفل الناس إلى غربيها ، وعسكر الأتراك بظاهرها . « وسمع الملك الرحيم بقرب طغرلبك من بغداد ، فأصعد من واسط إليها ، وفارقه البساسيرى فى الطريق لمراسلة وردت من القائم فى معناه إلى الملك الرحيم ، أن البساسيرى خلع الطاعة وكاتب الأعداء ، يعنى المصريين ، وأن الخليفة له على الملك عهود ، وله على الخليفة مثلها . فإن آثره فقد قطع ما بينهما ، وإن أبعده وأصعد إلى بغداد ، تولى الديوان تدبير أمره . فقال الملك الرحيم ومن معه : نحن لأوامر الديوان متبعون وعنه (يعنى البساسيرى) منفصلون »(٤) .

على أن الأتراك الذين رضوا بإبعاد البساسيرى ، أدركوا أن الخليفة لم يقصد بعمله هذا إلا إقصاءه ، ليفسح الطريق لدخول طغرلبك ؛ وأظهر هؤلاء تذمرهم للخليفة ووزيره . ثم وصل الملك الرحيم إلى بغداد فى منتصف شهر رمضان ، وأظهر إخلاصه للخليفة ، وقبل وساطته بينه وبين طغرلبك . فكان الملك الرحيم فى ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأن الخليفة قد عقد النية ووطد العزم على الاعتضاد بالسلاجقة وإزالة سلطان بنى بويه . فأشار الخليفة على الملك الرحيم وأنصاره بأن يبذلوا

---

(١) حسن ابراهيم حسن ، وعلى ابراهيم حسن : كتاب النظم الاسلامية ص ١٠٤ .
(٢) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨ — ٩ . (٣) جـ ٩ ص ٢٢٧ .
(٤) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

الطاعة ويخطبوا لطغرلبك ، الذى استطاع بذلك أن يدخل بغداد دون كبير عناء [١] .

ويصف البندارى [٢] كيف دخل طغرلبك بغداد واستقر بها ، وكيف استقبل فيها ، وكيف أسس سلطانه على أنقاض سلطان البويهيين فقال : « وقد خرج رئيس الرؤساء وزير الإمام القائم لاستقبال السلطان ، ومعه أرباب المناصب وأصحاب المراتب ، وقاضى القضاة والشهود والجنود والبنود . فلما وصل إلى نهر « بَيْن » لقيه صاحب للسلطان من المقربين ، وقدم للوزير فرسا ، وقال : هذا مركوب السلطان ، وقربه ، فنزل عن بغلته وركب . وجاءه بعد ذلك عميد الملك أبو نصر الكندرى فى موكب ضخم ، وفخر فخم . وقد وقف يتوقع مطلعه . فلما بصر به قصد عميد الملك أبو نصر (الوزير) أن يترجل فمنعه ، وتعانقا راكبين ، وخلطا الموكبين . ووصل السلطان إلى بغداد ونزل على دجلة عند مسناة [٣] عز الدولة ، رائع الهيبة رائق الهيئة ، قد ضاقت الأرض بجنودها ، وضاقت السماء عذبات [٤] بنوده ، فقبض على الملك الرحيم أبى نصر الديلمى من نسل عضد الدولة ، وسيره إلى الرى ، فقطع عليه الأجلُ الطريق ، وآذنت جموع ممالك الديلم بتفريقها ، وقبض عميد الملك أبو نصر الكندرى الوزير الأعز أبا سعد وزير الملك الرحيم » [٥] .

وهكذا قضى السلاجقة بزعامة طغرلبك على الملك الرحيم آخر سلاطين بنى بويه فى العراق ، بعد أن حكموا أكثر من قرن ، واشتهروا بمناصرة الفن والثقافة ، وروجوا للمذاهب الشيعية ، وشاع فى عهدهم الجدل والمناظرات الدينية بين السنيين والشيعيين ، ووقعت المنافسة بين أفراد البيت البويهى ، الأمر الذى مهد السبيل لدخول السلاجقة السنيين ، الذين قامت العلاقات بينهم وبين العباسيين على أساس متين من المودة والصفاء ، بسبب اتفاقهم معهم فى المذهب الدينى . وسيتضح ذلك فى الباب التالى الذى سنفرده للكلام على الدول المستقلة .

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٢٨ . (٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ — ١٠ .

(٣) المسناة بضم الميم وتشديد النون : العرم ، وهى سد يعترض به الوادى ، أو هو الأحباس ، أى القناطر ، تبنى فى الأودية . (٤) جمع عذبة وهى طرف الراية .

(٥) خالف ابن الأثير (جـ ٩ ص ٢٢٨ — ٢٢٩) البندارى فقال إن طغرلبك انتهز فرصة وثوب عامة بغداد بجنده ، واتهم الملك الرحيم بأن له ضلعاً فى ذلك . فلما ذهب هذا إلى معسكر طغرلبك يعتذر إليه ويبرىء نفسه أمر بالقبض عليه . وكان ذلك فى آخر شهر رمضان سنة ٤٤٧ هـ .

الباب الرابع

الدول المستقلة

تمهيد :

استبد أمير الأمراء بالسلطة على ما تقدم ، وتولى بحكم الحكم فى كافة أمور الدولة ، كما ذكر اسمه فى الخطبة على جميع المنابر . واستقل أكثر الولايات الإسلامية عن الدولة العباسية ، وقامت الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨ – ٨٩٧هـ = ٧٥٦ – ١٤٩٢م) زمن عبد الرحمن الأول الملقب بالناصر ، وتأسست دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى (١٧٢ – ٣١١هـ = ٧٨٨ – ٩٢٣م) ، أقامها إدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ، ودولة الأغالبة فى تونس (١٨٤ – ٢٩٦هـ = ٨٠٠ – ٩٠٨م) ، أقامها ابراهيم بن الأغلب . كذلك كانت سيادة الطولونيين (٢٥٤ – ٢٩٢هـ = ٨٦٨ – ٩٠٥م) والفاطميين (٣٦٢ – ٥٦٧هـ = ٩٧٤ – ١١٧١ م) فى مصر . كل ذلك كان ضربة شديدة فتّت فى عضد الدولة العباسية ، فتقلص نفوذها عن جزء كبير من ولاياتها فى الغرب .

أما فى الشرق فلم تكن الأمور أحسن حالا ؛ فقد قامت فى بلاد الفرس وبلاد ماوراء النهر عدة دويلات ، يرجع قيامها إلى انتعاش روح القومية التى ظهرت منذ أيام المأمون . فقد قامت الدولة الطاهرية (٢٠٥ – ٢٥٩هـ = ٨٢٠ – ٨٧٢هـ) فى خراسان ، ومنهم انتقلت السلطة إلى أسرة جديدة هى الدولة الصفّارية (٢٥٤ – ٢٩٠هـ = ٨٦٨ – ٩٠٣م) التى قامت على يد يعقوب بن الليث الصفّار ، والدولة السامانية (٢٦٦ – ٣٨٩هـ = ٨٧٤ – ٩٩٩م) ، وتفرعت عنها الدولة الغزنوية (٣٦٦ – ٥٧٩هـ = ٩٧٦ – ١١٨٣م) ، لأن ألبتكين مؤسس هذه الدولة كان من الموالى الأتراك الذين استخدموا فى البلاط السامانى .

وقد تفاقم خطر كثير من هذه الدويلات ، فقويت شوكة بنى بويه (٣٣٤ – ٤٤٧هـ = ٩٤٥ – ١٠٥٥م) ، وكانوا من الشيعة الغلاة ، وامتد شرهم إلى حياة الخلفاء أنفسهم . ومما يدل على مبلغ الضعف الذى وصلت إليه الدولة العباسية ، وعلى قوة هذه الدولة التى آل إليها الحكم ، أن الخليفة العباسى لم يعد له من الأمر شىء سوى سلطته الدينية ممثلة بذكر اسمه فى الخطبة ، ونقشه على السكة ؛ ولم يكن ذلك إلا لأغراض سياسية غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكزهم أمام الجمهور . أجل ! لقد غدت السلطة المركزية فى بغداد ملهى يلهو به المتنافسون ، وأصبحت من الضعف بحيث لم يعد الخليفة قادراً على المدافعة عن قاعدة الدولة ، وقد هددها الزنج الذين دامت ثورتهم زهاء أربع عشرة سنة (٢٥٥ – ٢٧٠هـ = ٨٦٩ – ٨٨٣م) عرّضوا فيها كيان الدولة للخطر ، وغدت دلتا الفرات تحت رحمة قطاع الطرق الذين أدخلوا الفزع والهلع فى قلوب الأهلين ، وتعدى بلاؤهم إلى محاصرة أمهات المدن الإسلامية كالبصرة والأهواز وواسط . ذلك إلى ما كان من قيام النزاع بين المسلمين والبيزنطيين ، فقد انكمشت الدولة العباسية فى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ – ٢٧٩هـ = ٨٧٠ – ٨٩٢م)

إلى حدود الجزيرة والعراق ، فانتهز البيزنطيون فرصة هذا الضعف وأغاروا على آسيا الصغرى ، وامتدت فتوحاتهم إلى قلب سورية ، وعبروا نهر الفرات ، واكتسحوا كثيراً من المدن العريقة فى الشهرة مثل الرها وميّا فارقين ونصيبين .

وكان لقيام هذه الدول أثر كبير فى تقدم الحضارة الإسلامية ، ذلك أنه بعد أن كانت بغداد مركزاً لهذه الحضارة ، ظهرت مراكز أخرى تنافس حاضرة العباسيين فى الحضارة ، وفى العلوم والمعارف ، مثل قرطبة والقاهرة وبخارى ، وأصبح كل منها قبلة للعلماء والشعراء والكتاب الذين تنقلوا بين هذه الحواضر طلباً للعلم أو ابتغاء الكسب . هذا إلى أن قيام هذه الدول لم يؤثر فى مظاهر الحضارة الإسلامية ، بل على العكس عاد عليها بفوائد كثيرة . ولنذكر الآن طرفاً عن هذه الدول التى قامت فى أيام الدولة العباسية ، وبخاصة فى العصر الثانى ، وهو عصر الضعف والانحلال .

الدولة الصفّارية

٢٥٤ — ٢٩٠ هـ = ٨٦٧ — ٩٠٣ م

تأسست الدولة الصفارية على يد يعقوب بن الليث الصفار (٢٥٤ — ٢٦٥ هـ) الذى أغار على بلاد الدولة الطاهرية فى خراسان (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ) التى أسسها طاهر بن الحسين فى عهد الخليفة المأمون (٢٠٥ هـ) . وقد استقل بنو طاهر بحكم هذه البلاد ، ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه يعترفون بسلطان الخليفة العباسى ، وامتد نفوذهم إلى حدود بلاد الهند ، ونقلوا قاعدتهم إلى نيسابور حيث بقوا فيها حتى سنة ٢٥٩ هـ .

كان يعقوب بن الليث وأخوه عمرو يشتغلان بعمل الصفر ، ويتظاهران بالزهد . وقد اشتهر أمر يعقوب ، وكان أحد زعماء المطوعة ، منذ سنة ٢٣٧ هـ . فقد استولى صالح بن النضر الكنانى على سجستان ، وكان يعقوب بن الليث أحد قواده . ولكن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان إذ ذاك استردها من هؤلاء المطوعة . وسرعان ما تغلب على هذه المدينة درهم بن الحسين زعيم المطوعة الذى ظهر عجزه ، فولى جنده قائده يعقوب بن الليث أمورهم ودانوا له بالطاعة « لما رأوا من تدبيره وحسن سياسته وقيامه بأمرهم . . . فاستبد يعقوب بالأمر وضبط البلاد ، وقويت شوكته ، وقصدته العساكر من كل ناحية »[1] . « تولى يعقوب أمر المطوعة وحارب الخوارج والشراة ، فرزق الظفر بهم حتى أفناهم وأخرب ضياعهم ، وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحداً كان قبله . ثم اشتدت شوكته وازدادت صولته ، فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما والاها »[2] .

---

(١) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣١٢

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣١٢ .

استولى يعقوب على بلاد سجستان كما تقدم ؛ ولم يكن فى أول أمره يريد أن يستقل عن الدولة العباسية ، وإنما كان يرغب فى أن يكون أميراً من قبل الخليفة العباسى ، ليتمكن بذلك من الاستيلاء على البلاد التى كانت خاضعة لنفوذ آل طاهر . ولم يلبث يعقوب أن ضم إلى بلاده مدينة هراة ، ثم احتلت جيوشه نيسابور (سنة ٢٥٩ هـ) قاعدة الدولة الطاهرية ، مخالفاً أوامر الخليفة . ومدعياً أن أهل خراسان قد بعثوا إليه لاستخلاصها من آل طاهر . ويقول الطبرى [١] : « ثم دخل نيسابور لأربع خلون من شوال بالعشى ، فنزل طرفا من أطرافها يعرف بداوداباذ ، فركب إليه محمد بن طاهر ، فدخل عليه فى مضربه ، فساءله ، ثم أقبل على تأنيبه وتوبيخه على تفريطه فى عمله ، ثم انصرف . وأمر عزيز بن السرى بالتوكيل به ، وصرف محمد بن طاهر ، وولى عزيز نيسابور . ثم حبس محمد بن طاهر وأهل بيته ، وورد الخبر بذلك على السلطان (يعنى الخليفة المعتمد) فوجه إليه حاتم بن زيرك بن سلام. ووردت كتب يعقوب على السلطان لعشر بقين من ذى القعدة (سنة ٢٥٩ هـ) ، فقعد ، فيما ذكر ، جعفر بن المعتمد وأبو أحمد (الموفق) بن المتوكل فى إيوان الجوسق . وحضر القواد ، وأذن لرسل يعقوب ، فذكر رسله ما تناهى إلى يعقوب من حال أهل خراسان ، وأن الشراة والمخالفين قد غلبوا عليها ، وضعف محمد بن طاهر . وذكروا مكاتبة أهل خراسان يعقوب ومسألتهم إياه قدومه عليهم واستعانتهم به ، وأنه صار إليها . فلما كان على عشرة فراسخ من نيسابور ، سار إليه أهلها فدفعوها إليه ، فدخلها . فتكلم أبو أحمد وعبيد الله بن يحيى ، وقالا للرسل : إن أمير المؤمنين لا يقارّ يعقوب على ما فعل ، وأنه يأمره بالانصراف إلى العمل الذى ولاه إياه ، وأنه لم يكن له أن يفعل ذلك بغير أمره . فليرجع ، فإنه إن فعل كان من الأولياء ، وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين » .

ولم يكن يعقوب بن الليث يرمى إلى القضاء على الدولة الطاهرية ، بل عمل على أن يمد نفوذه على بلاد فارس وخراسان . لذلك نراه يحارب الترك على تخوم سجستان ، « فرهبته الملوك الذين حوله ، منهم ملك المولتان ، وملك الرخج ، وملك الطبسين ، وملك زابلستان ، وملك السند ومكران ، وغيرهم ، وأذعنوا له [٢] » ، كما حارب يعقوب بن الليث الحسن بن زيد (٢٥٠ — ٢٧٠هـ) مؤسس الدولة العلوية فى طبرستان وهزمه [٣] .

وفى سنة ٢٦١ هـ بدأت أطماع يعقوب بن الليث الواسعة تظهر ظهوراً بيناً ، وأدرك الخليفة العباسى المعتمد مدى الخطر الذى تستهدف له دولته من جراء ازدياد نفوذ هذا الرجل ، فأضمر له العداء ، وجمع ببغداد حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان فى شهر صفر . وقرىء عليهم كتاب

---

(١) ج ١١ ص ٢٣٢ .
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٢ .
(٣) الطبرى ج ١١ ص ٢٣٣ — ٢٣٤

الخليفة بلعن يعقوب بن الليث الصفار ، وأرسلت عشرات النسخ من هذا الكتاب إلى الأمصار لتذاع بين الناس[١] . وقد أثار الخليفة العباسى بعمله هذا حنق يعقوب بن الليث ، فأعد عدته لقصد العراق ، ثم سار إلى الأهواز ، « وكاتب الخليفة وسأله ولاية خراسان وبلاد فارس ، وما كان مضموماً إلى طاهر بن الحسين الخزاعى من الكور ، وشرطتى بغداد وسر من رأى ، وأن يُعقد له على طبرستان وجرجان والرى وأذربيجان وقزوين ، وأن يُعقد له على كرمان وسجستان والسند ، وأن يحضر من قرئت عليهم الكتب التى نسخت فى دار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، ويقرأ عليهم خلاف ما قرىء عليهم أولا . . . ليبطل ذلك الكتاب بهذا الكتاب . ففعل ذلك الموفق بالله أبو أحمد طلحة بن المتوكل على الله أخو الخليفة المعتمد على الله . . . وأجابه إلى ماطلب ، وجمع الناس وقرأ عليهم ما أحبه الصفار ، وأجيب إلى الولاية التى طلبها »[٢] .

بيد أن أطماع يعقوب بن الليث لم تقف عند حد ، فلم يقنع بتولية الخليفة العباسى له على هذه البلاد ، بل عمل على قصد بغداد نفسها وحمل الخليفة على الإذعان لمطالبه . ويظهر أن يعقوب كان يعتمد على جيش قوى ، فقد ذكر ابن خلكان[٣] أن مساحة معسكره كانت ميلا فى ميل ، وأن دوابه كانت فى غاية الفراهية . ولكن ذلك كله لم يغنه شيئاً ، فقد ثار جنده عليه حين رأوا الخليفة المعتمد على رأس الجيش ، فحلت به الهزيمة . وقد وصف الطبرى فى حوادث سنة ٢٦٢ هـ كيف حلت الهزيمة بيعقوب ، وما غنمه الخليفة من غنائم فقال : « قد ظهر من كثير ممن مع يعقوب كراهة القتال معه ، إذ رأوا السلطان قد حضر لقتاله ، فحملوا على يعقوب ومن قد ثبت معه للقتال ، فانهزم أصحاب يعقوب ، وثبت يعقوب فى خاصة أصحابه حتى مضوا ، وفارقوا موضع الحرب . فذُكر أنه أخذ من عسكره من الدواب والبغال أكثر من عشرة آلاف رأس ، ومن الدنانير والدراهم ما يكل عن حمله ، ومن جُرب المسك أمر عظيم » .

وقد أنشد محمد بن على بن فيد الطائى على أثر هزيمة يعقوب بن الليث قصيدة يمدح فيها الخليفة المعتمد ، وأخاه أبا أحمد الموفق ، ننقل منها هذه الأبيات :

ولقد أتى الصفار فى عُدد لها ... حسُنٌ فوافتهن نكبةُ ناكب
جلب القضاء إليه حتفاً عاجلاً ... سقيا ورعيا للقضاء الجالب
حتى إذا احتلفوا وظن بأنه ... قد عزّ بين عساكر وكتائب
دلفت إليه عساكر ميمونة ... يلقَوْن زحفا باللواء الغالب
فى جحفل لجب ترى أبطاله ... من دارع أو رامح أو ناشب

---

(١) الطبرى جـ ١١ ص ٢٣٤ (٢) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣١٦
(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣١٧

وبدا الإمام براية منصورة لمحمد سيف الإله القاضب
وولىُّ عهد المسلمين موفقٌ بالله أمضى من شهاب ثاقب
وكأنه فى الناس بدرٌ طالع متهلل بالنور بين كواكب
لما التقوا بالمَشْرَفية والقنا ضرباً وطعنَ محارب لمحارب
فل الجموع بحزم رأى ثاقب منه وأفرد صاحبا عن صاحب
لله در موفق فى بهجة ثبت المقام لدى الهياج موائب
يا فارس العرب الذى ما مثلُه فى الناس يُعرف آخرٌ لنوائب(١)

على أن هذه الهزيمة لم تفتّ فى عضد يعقوب بن الليث، فانه لم يكتف بما استولى عليه من البلاد، بل أخذ يحارب بعض ولاة الخليفة. وفى أواخر سنة ٢٦٣ هـ، استولى على جنديسابور، ثم أخذ الأهواز من يد صاحب الزنج بعد حروب طاحنة (٢).

وقد ذكر ابن خلكان (٣) أن الخليفة المعتمد حاول أن يستميل إليه يعقوب بن الليث ليأمن جانبه، فيقول: «وكان الخليفة المعتمد قد أرسل إليه رسولا يترضّاه ويستميله، ويقلده أعمال فارس؛ فوصل الرسول ويعقوب مريض، فجلس له، وجعل عنده سيفاً ورغيفا... ومعه بصل. وأُحضر الرسول فأدى الرسالة، وقال له: قل للخليفة إنى عليل، فان متُّ فقد استرحتُ منك واسترحتَ منى، وإن عوفيت، فليس بينى وبينك إلا السيف هذا، حتى آخذ بسيفى أو تكسرنى وتفقرنى فأعود إلى هذا الخبز والبصل. وعاد الرسول، فلم يلبث يعقوب أن مات» (فى جنديسابور)(٤). وكان موته لأربع عشرة ليلة خلت من شهر شوال سنة ٢٦٥ هـ. وقال أبو الوفاء الفارسى: رأيت على قبر يعقوب بن الليث صحيفة وقد كتبوا عليها:

ملكتَ خراسان وأكنافَ فارس وما كنت من ملك العراق بآيس
سلامٌ على الدنيا وطيب نسيمها إذا لم يكن يعقوب فيها بجالس(٥)

اشتهر يعقوب بن الليث باليقظة وحسن التدبير، فكان يحسن اختيار رجاله، كما كان يحسن تنظيم جيوشه وإعدادها بالعدة والسلاح، وامتلأت خزائنه بالأموال حتى قيل إنه ترك خمسين

---

(١) الطبرى ج ١١ ص ٢٣٨ — ٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧.

(٣) كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٢٠.

(٤) زاد نظام الملك فى كتابه سياسة نامه (Siyàsat-nàma (ed. Schefer, pp. 13-16 أن يعقوب هدد المعتمد بارسال رأسه الى المهدية حاضرة الفاطميين، وهذا خطأ ظاهر، لأن يعقوب مات فى سنة ٢٦٥ هـ أى قبل قيام الدولة الفاطمية باحدى وثلاثين سنة. وكان تأسيس المهدية التى اتخذها عبيد الله المهدى الفاطمى حاضرة لدولته بعد ذلك بنحو سبع سنين.

أنظر أيضا Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 353.

(٥) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٩.

ألف ألف درهم وثمانين ألف ألف دينار . ويقول المسعودى [١] : « وكانت سياسة يعقوب ابن الليث لمن معه من الجيوش سياسة لم يُسمع بمثلها فيمن سلف من الملوك من الأمم الغابرة من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف ، وحسن انقيادهم لأمره واستقامتهم على طاعته ، لما كان قد شملهم من إحسانه وغمرهم من بره وملأ قلوبهم من هيبته . . . واتخذ لنفسه عريشاً من خشب يشبه السرير حيثما توجه من مسيره ، فيكثر الجلوس عليه ويشرف منه على أهل عسكره وعلى قضيم [٢] دوابه ، ويؤمن الخلل من وكلائه ، فاذا رأى شيئاً يكرهه بادر بتغييره . وقد كان انتخب من أصحابه ألف رجل على اختيار لهم والغنى الظاهر منهم والنكاية فى حروبهم ، فجعلهم أصحاب الأعمدة الذهب ، كل عمود منها فيه ألف مثقال من الذهب . ثم يليهم فى اللباس والغنى فوج ثان أصحاب الأعمدة الفضة . فاذا كان فى الأعياد أو فى الأيام التى يحتاج فيها إلى مباهاة الأعداء والاحتفال ، دفع اليهم تلك الأعمدة . وإنما ضُربت هذه الأعمدة عدة للنوائب .

« وسُئل بعض ثقاته ممن ينظر حاله عن أشغاله فى خلواته وعن مجالسته مع أهل بطانته ، وهل يسير مع أحد أو يجالسه ، فذكر أنه لايطلع أحدا على سره ، ولا يعرف أحد بتدبيره وعزمه ، و[يكون] أكثر نهاره خاليا بنفسه يفكر فيما يريده ، ويظهر غير مايضمره ، ولا يشرك أحدا فيما يريده برأى ولا غيره . وإن تفرجه واشتغاله بغلمان صغار يتخذهم ويؤدبهم ويخرّجهم ويدعوهم ويدفع لهم ما قد عمله لهم من السيور يتضاربون بها بين يديه ، ففى هذا أكثر شغله اذا فرغ من تدبيره . ولما واقع الصفّار الحسن بن زيد الحسينى بطبرستان ، وذلك فى سنة ستين ومائتين ، وقيل سنة تسع وخمسين ومائتين ، وانكشف الحسن بن زيد وأمعن يعقوب فى الطلب ، وكانت معه رسل السلطان قد قصدوه بكتب ورسالة من المعتمد وهم راجعون فى طلب الحسن بن زيد ، قال له بعضهم لما رأى من طاعة رجاله وما كان منهم فى تلك الحرب : مارأيت أيها الأمير كاليوم ؟ قال له الصفار : وأعجب منه ماأريك إياه ، ثم قربوا من الموضع الذى كان فيه عسكر الحسن بن زيد ، فوجدوا البِدَر والكُراع والسلاح والعُدد وجميع ماخلف فى العسكر حين الهزيمة ، على حاله لم يلتبس أحد من أصحابه منه بشىء ، ولا دنوا إليه معسكرين بالقرب منه ، من حيث يرونه بالموضع الذى خلفهم فيه الصفار ، فقال له الرسول : هذه سياسة ورياضة راضهم الأمير بها الى أن تأتى له منهم ماأراد . وكان لايجلس إلا على قطعة مسح يشبه أن يكون طوله سبعة أشبار فى عرض ذراعين أو أرجح ، والى جانبه تُرسه وعليه اتكاؤه ، وليس فى مَضْرِبه شىء غيره . فاذا أراد أن ينام من ليله أو نهاره ، اضطجع على ترسه ونزع راية فيجعلها مخدته ، وأكثر لباسه خفتان مصبوغ فاختى .

« وكان من سنته [أن] للقواد والرؤساء والعظماء عنده مراتب فى الدخول بباب مضربه ، بحيث تقع

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٤٣ — ٤٤٥ .

(٢) قضيم الدواب صوتها وهى تأكل من قضمت الدابة الشعير ، أى كسرته بأطراف أسنانها .

عينه عليهم ويرى مداخلهم ، فيمرون مع أطناب (١) الشقاف الى خيمة مضروبة ، بحيث لايرى هو موضعها ، لكنه يرى مداخلهم اليها ومخرجهم منها . فمن احتاج اليه منهم واحتاج الى كلامه أو أمره أو نهيه دعاه فأمره . وكان دخولهم بحيث يقع نظره عليهم عوضا من السلام عليه ، ولم يكن لأحد أن يتقدم الى باب مجلسه إلا رجل من خواصه يعرف بالعزيز وإخوته ، وله من وراء خيمته خيمة تقرب من أطناب مجلسه فيها غلمان من خواصه ، فاذا احتاج الى أمر يأمره به ، صاح بهم فخرجوا اليه ، وإلا فهو فى أكثر نهاره وليله فى ذلك الموضع لايقومون على رأسه ، وخيمته من داخل أخبية (٢) مطنبة كلها ، يدور فيها خمسمائة غلام يبيتون من داخل مضربه ، على كل نفس منهم ثقة وكل بتفقد أحواله لئلا يكون منهم عبث أو فساد فهو المأخوذ به ... وقال بعض من ورد اليه برسالة السلطان : (٣) أيها الأمير ! أنت فى رياستك ومجلسك ليس فى خيمتك إلا سلاحك ومسح (٤) أنت عليه قال : ان رئيس القوم يأتم به أصحابه فى أفعاله وسيرته ، فلو استعملتُ ماذكرتَ من الأثاث لأثقلنا البهائم ولأتممّ بى فى فعلى من فى عسكرى ، ونحن نقطع فى كل يوم المهامه (٥) والمفاوز والأودية والقيعان (٦) ، ولا يصلح لنا إلا التخفيف . وكان قليل الاستعمال للبغال فى عسكره ، وكان فى عسكره خمسة آلاف جمل بُخْتى (٧) وأضعاف عددها حمير شهب كالبغال ، وهى الحمير المعروفة بالصفارية تحمل الاثقال عوضا عن البغال . وكان السبب فى ذلك أنه اذا نزل خليت الجمال والحمير للراعى وليس فى وسع البغال ذلك » .

يقول فيليب حتى (٨) إن يعقوب بن الليث الصفار استطاع أن يضم الى حوزته معظم بلاد فارس وبلاد السند ، حتى لقد هدد بغداد نفسها فى عهد الخليفة المعتمد . ويقول براون (٩) إن استقلال بلاد الفرس يمكن أن يقال انه بُعث عن طريق هذه الأعمال الباهرة التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار الذى نجح ، على الرغم من أنه لم يكن من بيت عريق ، فى تأسيس دولة استطاعت مع قصر عهدها أن تنشر نفوذها ، ليس فى سجستان وحدها حيث قامت دولتها أول الأمر ، بل فى معظم أرجاء فارس والى أسوار بغداد تقريبا .

---

(١) الطنب بضم الطاء وسكون النون (أو ضمها) : الحبل تشد به الخيمة ؛ ومطنب مشدود بالحبال .

(٢) الخباء هو كل ما يعمل من وبر أوصوف ، وقد يكون من شعر ، والجمع أخبية من كساء وأكسية ، ويكون على عمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك فهو بيت .

(٣) يعنى الخليفة العباسى .

(٤) المسح بالكسر البلاس أو اللباس وجمعها مسوح كحمل وحمول .

(٥) هام يهيم على وجهه لا يدرى اين يتوجه ، والهياء المفازة التى لاماء فيها ، ورجل هيان عطشان .

(٦) القاع والقيعة ، وجمعها قيعان ، المستوى من الأرض الذى لا ينبت .

(٧) البختى بضم الباء وتسكين الخاء واحد البخت والبخانى وهى الابل الخراسانية ، وفى الأصل جمل بخت .

(٨) Hitti : History of the Arabs, p. 462.

(٩) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. i. pp. 346, 347.

عمرو بن الليث الصفار (٢٦٥ — ٢٨٧ هـ) .

لما توفى يعقوب بن الليث الصفار أقر أبو أحمد الموفق أخو الخليفة العباسى المعتمد أخاه عمرو ابن الليث على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد ، وخلع عليه . وبذلك اتسعت سلطة عمرو بن الليث وقبض على ما كان بيد أخيه ، وأناب عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر عنه فى شرطة بغداد وسامرا ، وبعث إلى الموفق بعمود من ذهب (١) .

ويقول ابن خلكان (٢) إن عمرو بن الليث لما تولى ولايته أحسن فى التدبير والسياسة حتى يقال : « ما أدرك فى حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث » .

على أن العلاقة لم تلبث أن ساءت بين الدولة الصفارية والخلافة العباسية ، فقد عزل الخليفة المعتمد عمرو بن الليث الصفار عن البلاد التى ولاه إياها ، وأعلن هذا الخلع على ملأ من حاج خراسان ، ولعنه بحضرتهم ، وأخبرهم أنه قلد محمد بن طاهر بن الحسين بلاد خراسان ، وأمر بلعن عمرو على المنابر . بيد أن محمد بن طاهر آثر البقاء بحاضرة الخلافة واستخلف رافع بن هرثمة على خراسان . وانتصرت جيوش المعتمد على عمرو بن الليث ، وخرج أبو أحمد الموفق فى سنة ٢٧٤ هـ لحرب عمرو ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على كرمان وسجستان من يد عمرو وعاد أدراجه (٣) . ولما مات الخليفة المعتمد ، وولى الخلافة بعده ابن أخيه المعتضد (٢٧٩ هـ) ، عزل هذا رافع بن هرثمة الذى كان محمد ابن طاهر قد أنابه عنه فى ولايتها ، وأعادها إلى عمرو بن الليث الصفار ، ولكن رافعاً لم يذعن لأمر الخليفة وشق عليه عصا الطاعة ، وحارب عمرو بن الليث الذى انتصر عليه وقتله فى شهر شوال سنة ٢٨٣ هـ ، وبعث برأسه إلى المعتضد (٤) ، الذى فرح لذلك غاية الفرح ، وأرسل إليه الخلع واللواء دليلا على رضائه عنه . ولكن عمرا اعتذر عن قبول هذه الخلع وأصر على طلب ولاية ما وراء النهر ، وكانت بيد إسماعيل بن أحمد السامانى ، ولم يجد الخليفة بداً من تلبية طلب عمرو الذى لم تقف أطماعه عند حد وكتب إليه إسماعيل « إنك قد وُليت دنيا عريضة ، وأنا فى يدى ما وراء النهر ، وأنا فى ثغر ، فاقنع بما فى يدك ، واتركنى مقيما بهذا الثغر ، فأبى إجابته إلى ذلك . وذُكر له من أمر نهر بلخ وشدة عبوره ، فقال عمرو : لو شئت أن أستكّره ببدر الأموال وأعبره لفعلت » . ولم يقدر عمرو الصعاب التى قد تقف فى سبيله وتحول دون تحقيق أمنيته برغم قيادته الجيوش بنفسه ، فحلت به الهزيمة ووقع أسيراً فى قبضة إسماعيل بن أحمد السامانى وتشتت شمل جيشه الذى بلغ سبعين ألفاً أيدى سبا ، ولم يجرح منهم أحد ، وأسر قائد هذا الجيش . وكانت هذه الموقعة من المواقع الحاسمة ، لأنها كانت عاملا هاماً فى سقوط الدولة الصفارية وقيام الدولة السامانية على أنقاضها (٥) ، وذلك سنة ٢٨٧ هـ (٦) .

---

(١) الطبرى جـ ١١ ص ٢٥٥ .
(٢) كتاب وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٢٠ .
(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٥٣ .
(٤) ابن خلكان جـ ٢ ص ٣٢١ .
(٥) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I. p. 354.
(٦) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

ولما علم الخليفة المعتضد بهزيمة عمرو بن الليث فرح فرحاً شديداً وأشاد بذكر إسماعيل بن أحمد الذى سير عمرا إلى الخليفة ، «وألبس عمرو دراعة ديباج و بُرْنُس السخط ، وحمل على جمل له سنامان يقال له إذا كان ضخما على هذه الصورة « الفالج » فى غاية الارتفاع ، وكان عمرو قد أهداه فيما أهدى للخليفة . وقد ألبس الجمل الديباج وحُلى بذوائب وأرسان مُفضضة ، وأدخل بغداد فاشتقها فى الشارع الأعظم إلى دار الخليفة بقصر الحسنى ، وعمرو رافع يديه يدعو ويتضرع دهاه منه ، فرقت له العامة ، وأمسكت عن الدعاء عليه ، ثم أدخل إلى الخليفة ، وقد جلس له ، واحتفل به ، فوقف بين يديه ساعة وبينهما قدر خمسين ذراعا ، وقال له : هذا ببغيك ياعمرو ، ثم أخرج من بين يديه إلى حجرة قد أعدت له » . وأنشد أحد الشعراء :

وحسبك بالصفّار نبلا وعزة يروح ويغدو فى الجيوش أميرا
حباهم بأجمال ولم يدر انهم على جمل منها يقاد أسيرا

وقال آخر :

أيها المغتر بالدنيا أما أبصرتَ عمرا
أركب الفالج بعد الملك والعزة قسرا
وعليه برنس للسخط إذلالا وقهرا
رافعاً كفيه يدعو الله إسرارا وجهرا
أن ينجيه من القتل وأن يعمل صُفرا

ومات عمرو بن الليث فى غد ذلك اليوم ودفن ، وقيل انه قُتل[1]

«وكان عمرو — كما يقول ابن الأثير[2] — عظيم السياسة ، قد منع أصحابه وقواده أن يضرب أحد منهم غلاما إلا بأمره ، أو يتولى عقوبة الغلام نائبه أو أحد حجابه . وكان يشترى المماليك الصغار ويربيهم ، ويهبهم لقواده ، ويجرى عليهم الجرايات الحسنة سرا ليطالعوه بأحوال قواده ، ولا يسكتم عنه من أخبارهم شيء ، ولم يكونوا يعلمون من ينقل إليه عنهم ، فكان أحدهم يحذره وهو وحده » .

وقد ذكر ابن خلكان أن عمرا لما أسر آل حكم الدولة الصفارية الى حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث ، وذلك فى شهر صفر سنة ٢٨٨ هـ . إلا أنه لم يكن له من الأمر شيء ، لاستبداد سبك السبكرى غلام عمرو بن الليث بالسلطة ، حيث قبض عليه وعلى أخيه يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث فى سنة ٢٩٦ هـ وبعث بهما الى بغداد . وتغلب على بلاد فارس[3] الى أن طرده منها الليث بن على بن الليث الصفار[4]، فاستنجد السبكرى بالخليفة المقتدر ، فأمده بجيش بقيادة مؤنس الخادم (سنة ٢٩٧هـ)،

---

(١) ابن خلكان جـ ٢ ص ٣٢٣ .
(٢) جـ ٧ ص ١٧٨ — ١٧٩ .
(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ٣٢٤ .
(٤) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٠ .

وذكر ابن خلكان (جـ ٢ ص ٤٢٤ — ٤٢٥) أن الليث بن على بن الليث « كان تغلب على بلاد سجستان =

وكان فى هذا الجيش من القواد بدر الكبير والحسين بن حمدان ، وحلت الهزيمة بالليث الصفارى وأسر . ولكن الجو لم يصف للخلافة بسبب عصيان السبكرى وامتناعه عن إرسال الأموال الى بيت المال ، فكتب الوزير ابن الفرات الى مؤنس فى واسط كتابا يقول فيه : « إن كنتَ فتحتَ فقد أغلقت ، وإن كنت قد أسرتَ فقد أطلقتَ ، ولا بد من أن تعود تحارب سبُكْرى . فعاد مؤنس الى الأهواز ، وأخذ سبكرى فى ملاطفة مؤنس ومهاداته ، ومسئلته أن يبذل للسلطان عن أعمال فارس وكرمان زيادة على ما كان مُقاطعا عليه القاسم بن عبيد الله فى أيام المكتفى بالله ، فانه كان مقاطعا على أربعة آلاف ألف ، ففعل مؤنس ذلك وبذل عنه سبعة آلاف ألف ، فلم يرض بذلك ابن الفرات ، فلم يزل يزيد ألف ألف حتى بلغ تسعة آلاف ألف خالصة للحمل . وذكر أن باقى الارتفاع يحتاج اليه سبكرى لاعطاء الجند بفارس وكرمان ، وأعلمه كثرة المؤن هناك ، فأقام ابن الفرات على أنه لا يقنع إلا بثلاثة عشر ألف ألف ، فأشار مؤنس على سبكرى بأن يقارب السلطان والوزير ، فأبى سبكرى أن يزيد على عشرة آلاف ألف شيئا ، فاغتاظ الوزير من تماتن[1] سبكرى واتهم مؤنسا بالميل اليه »[2] .

وقد بعثت الخلافة العباسية الجيوش تلو الجيوش للقضاء على السبكرى ، ولم تستطع القبض عليه ، حتى تمكن أحمد بن إسماعيل السامانى من الاستيلاء على سجستان والقبض على محمد بن على بن الليث الصفارى ، ثم على السبكرى ، وبعث بهما الى بغداد ، وذلك فى شوال سنة ١٩٨ هـ[3] على ماسيأتى .

ومن ثم زالت الدولة الصفارية[4] التى لم يقتصر خطرها على انتزاع ذلك الجزء الكبير من أراضى الدولة العباسية ، بل حاول يعقوب فتح بغداد ، واقتفى أخوه عمرو أثره ، ولكنهما لم يصلا الى بغيتهما . ويرجع ضعف الدولة الصفارية وزوالها الى موقف الخلافة العباسية العدائى منها ، وبذلها الجهود المتصلة للقضاء عليها ، وموقف السامانيين منها . فقد هزم إسماعيل بن أحمد السامانى جيوش عمرو بن الليث الصفارى وأسره وأرسله الى بغداد ، وقضى ابنه أحمد بن إسماعيل عليها نهائيا . أضف الى ذلك مناوأة بعض القواد منهم ، وكان من أشد هؤلاء خطرا سبك السبكرى غلام عمرو بن الليث الصفار ، الذى كان لثورته أثر كبير فى ضعف هذه الدولة وزوالها فى النهاية[5] .

= فى سنة ست وتسعين ومائتين . وجرى بين سبك السبكرى وطاهر بن محمد المذكور ما جرى ، واستقرت البلاد للسبكرى ، فاستخلف الليث المذكور على سجستان اخاه المعدَّل (بن على) بن الليث ، وسار الى بلاد فارس ، فهرب السبكرى منه يطلب من الخليفة النجدة » . انظر ايضا عريب بن سعد : كتاب صلة تاريخ الطبرى ص ١٧ — ١٨ حيث نجد ان سبب القبض على طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار واخيه يرجع إلى تأخير طاهر إرسال « ما كان يلزمه من المال الموظف عليه من اموال فارس ، ودافع به فكتب سبكرى غلام عمرو ابن الليث يتضمن حمل المال وايراده ، واستأذن فى توجيه طاهر واخويه اسرى إلى باب السلطان ، فأجيب إلى ذلك » .

(١) متن الشىء بالضم متانة اشتد وقوى فهو متين .

(٢) مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ١٨ — ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩ — ٢٠ . وابن الأثير ج ٨ ص ٢٠ — ٢١ .

(٤) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٢٥ .

(٥) Stanley Lane — Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 129 — 130 .

الدولة الســـامانية

٢٦١ — ٣٨٩ هـ = ٨٧٤ — ٩٩٩ م

البيت السامانى (١)

	هجرية	ميلادية
(١) نصر الاول بن احمد	٢٦١	٨٧٤
(٢) اسماعيل بن أحمد	٢٧٩	٨٩٢
(٣) أحمد بن اسماعيل	٢٩٥	٩٠٧
(٤) نصر الثانى بن أحمد	٣٠١	٩١٣
(٥) نوح الأول بن نصر	٣٣١	٩٤٢
(٦) عبد الملك الاول بن نوح	٣٤٣	٩٥٤
(٧) منصور الأول بن نوح	٣٥٠	٩٦١
(٨) نوح الثانى بن منصور	٣٦٦	٩٧٦
(٩) منصور الثانى بن نوح الثانى	٣٨٧	٩٩٧
(١٠) عبد الملك الثانى بن نوح الثانى	٣٨٩	٩٩٩

[خانات تركستان ؛ الغزنويون]

تسلسل آل البيت السامانى

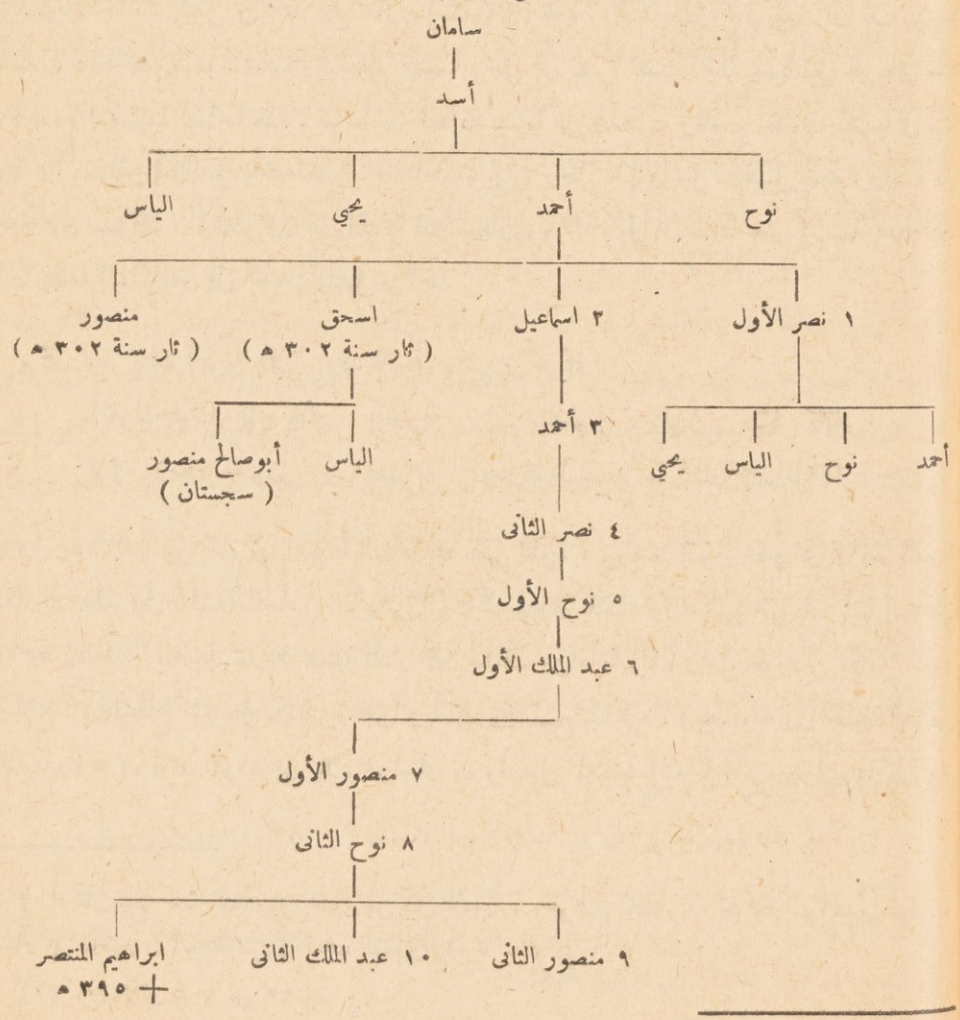

(١) أنظر كتاب Stanley Lane — Poole : Muhammadan Dynasties, pp.132—3

تنسب هذه الدولة إلى أسرة فارسية عريقة فى المجد ، يرجع أصلها إلى بهرام جور . وقد نال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون ، فولاهم بلاد ماوراء النهر ، ورفع من شأنهم .

وقد ارتد سامان عن مذهب زرادشت واعتنق الاسلام ، وسمى ابنه باسم أسد بن عبد الله القسرى والى خراسان فى أواخر عهد الأمويين . وظهر أولاد أسد بن سامان فى عهد الخليفة المأمون ، فولى نوح بن أسد [١] سمرقند فى سنة ٢٠٤ هـ ، وأحمد بن أسد فرغانة ، ويحيى بن أسد الشاش وأشر وسنة ، وإلياس بن أسد هراة . ولما ولى طاهر بن الحسين بلاد خراسان أقرهم فى هذه الأعمال .

وكان لأحمد بن أسد سبعة أولاد ، اشتهر منهم نصر بن أحمد بن أسد بن سامان ، وإسماعيل بن أحمد ابن أسد بن سامان . فلما توفى أحمد خلفه ابنه نصر على سمرقند وما يليها ، فبقى والياً عليها من قبل الطاهريين حتى ولاه الخليفة العباسى بلاد ماوراء النهر سنة ٢٦١ هـ . ومن ثم تأسست الدولة السامانية ، وأصبح نصر بن أحمد السامانى من القوة بحيث يستطيع أن يولى من يشاء من قبله على بلاد ما وراء النهر ، فولى أخاه اسماعيل بن أحمد على بخارى (سنة ٢٦١ هـ) ، ولكن النزاع لم يلبث أن دب بينهما بسبب إثارة خصومهما العداوة والبغضاء بينهما ، حتى إن نصراً قصد أخاه إسماعيل لحربه فى سنة ٢٧٢ هـ ، ولكنهما تصالحا مدة ، ثم ساءت العلاقة بينهما من جديد ، وقامت الحرب بينهما فى سنة ٢٧٥ هـ ، « فظفر إسماعيل بأخيه نصر . فلما حُمل إليه ترجل له إسماعيل ، وقبّل يديه ، وردّه من موضعه إلى سمرقند ، وتصرّف على النيابة عنه ببخارى » [٢] ، إلى أن مات نصر فى سنة ٢٧٩ هـ ، فآلت زعامة السامانيين إلى أخيه إسماعيل بن أحمد .

وكان نصر شاعراً ديناً عاقلا . وقد قال فى رافع بن هرثمة :

أخوك فيك على خُبْر ومعرفة إن الذليل ذليل حيثما كانا
لولا زمان خئون فى تصرّفه ودولة ظَلَمَتْ ما كنتَ إنسانا [٣]

وفى عهد إسماعيل ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة ، وقامت بدور خطير فى إزالة الدولة الصفارية . فقد ولى الخليفة العباسى عمرو بن الليث الصفارى بلاد ماوراء النهر التى كان يليها إسماعيل ابن أحمد السامانى ، الذى حاربه بجيشه الذى كان يتألف من مائة ألف رجل مزودين بكامل العدة والسلاح . واستطاع اسماعيل أن يهزم عمرا ويأسره ويستبيح عسكره ، ويبعث به إلى الخليفة العباسى (سنة ٢٨٧ هـ) ، ويمد نفوذه على بلاد خراسان ، « وأرسل المعتضد إليه بالخلع ، وولاه ما كان بيد

---

(١) كان نوح هذا عاملا على بخارى من قبل المأمون ، وهو الذى أهدى اليه طولون أبو أحمد بن طولون ، فأهداه الى المأمون . أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣١١ — ٣١٢

(٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ٩٩ و ١٠٠ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٦٣ .

عمرو (بن الليث الصفار) ، وخلع على نائبه بالحضرة (١).

وقد تمكن إسماعيل بن أحمد السامانى من فتح بلاد طبرستان من يد أميرها محمد بن زيد الذى كان ينازع السامانيين السلطة فى خراسان ؛ على أن القائد الذى تم على يديه فتح هذه البلاد لم يلبث أن ثار عليه ، واتخذ البياض شعاراً له ، مناوئاً بذلك العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً لهم . وسار إسماعيل ابن أحمد على رأس جيش كبير وأحل الهزيمة بهذا القائد ، وضم الرى وقزوين إلى سلطانه ، وبذلك أمن حدود بلاده من ناحية الغرب (سنة ٢٨٩ هـ).

وفى سنة ٢٩١ هـ صد اسماعيل جيوش الترك الذين أغاروا على حدود بلاده الشرقية(٢). ومات إسماعيل فى مدينة بخارى سنة ٢٩٥ هـ . (٣)

وقد وصف ابن الأثير (٤) اسماعيل بن احمد السامانى فى هذه العبارة فقال : « كان خيّرا يحب أهل العلم والدين ، ويكرمهم ، وببركتهم دام ملكه وملك أولاده ، وطالت أيامهم » . وقال فى موضع آخر(٥) : « كان عاقلا عادلا ، حسن السيرة فى رعيته ، حليما . . . حكى عنه أنه كان لولده أحمد مؤدب يؤدبه ، فمر به الأمير إسماعيل يوما ، والمؤدب لا يعلم به ، فسمعه وهو يسب ابنه ويقول له : لا بارك الله فيك ولا فيمن ولدك . فدخل اليه ، فقال له : ياهذا ! نحن لم نُذنب ذنبا لتسبّنا ، فهل ترى أن تُعفينا من سبك ، وتخص المذنب بشتمك وذمك ؟ فارتاع المؤدب ، فخرج إسماعيل عنه وأمر له بصلة جزاء لخوفه منه . وقيل : جرى بين يديه ذكر الأنساب والأحساب ، فقال لبعض جلسائه : كن عصاميا ولا تكن عظاميا ، فلم يفهم مراده ، فذكر له معنى ذلك . وسأل يوما يحيى بن زكريا النيسابورى ، فقال له : ماالسبب فى أن آل مُعاذ (وكانوا يحكمون خراسان قبل الطاهريين) لما زالت دولتهم بقيت عليهم نعمتهم بخراسان مع سوء سيرتهم وظلمهم ، وأن آل طاهر لما زالت دولتهم عن خراسان ، زالت معها نعمتهم مع عدلهم وحسن سيرتهم ونظرهم لرعيتهم ؟ فقال له يحيى : السبب فى ذلك أن آل معاذ لما تغيّر أمرهم ، كان الذى ولى البلاد بعدهم آل طاهر فى عدلهم وإنصافهم واستعفافهم عن أموال الناس ورغبتهم فى اصطناع أهل البيوتات . فقدموا آل معاذ وأكرموهم ، وأن آل طاهر لما زالت عنهم [دولتهم] ، كان سلطان بلادهم آل الصفّار فى ظلمهم وغشمهم ومعاداتهم لأهل البيوتات ، ومناصرتهم لأهل الشرف والنعم ، فأتوا عليهم وأزالوا نعمتهم ، فقال إسماعيل : لله درك يايحيى ، فقد شفيت صدرى ، وأمر له بصلة . ولما ولى بعد أخيه كان يكاتب أصحابه

---

(١) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٧٩ .

(٢) أنظر لفظ اسماعيل بن احمد فى Encyclopaedia of Islam, vol. II. pp. 545—6 .

(٣) ولا يزال قبره حتى اليوم فى مدينة بخارى التى ارتقت فى عهد إسماعيل ، حتى أصبحت من أهم الحواضر الاسلامية . على أنه ليست هناك نقوش تدل على أن هذا القبر هو قبر اسماعيل ، كما يستدل من الكتابات التى نقشت على القبر نفسه أو على الأبنية المحيطة به .

(٤) جـ ٧ ص ١٠٠ (٥) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٢ — ٣ .

وأصدقاءه بما كان يكاتبهم أولا ، فقيل له فى ذلك فقال : يجب علينا اذا زادنا الله رفعة أن لا ننقص إخواننا ، بل نزيدهم رفعة وعلاء وجاها ، ليزيدوا لنا إخلاصا وشكرا » .

احمد بن اسماعيل (٢٩٥ — ٣٠١ه) :

لما توفى إسماعيل بن أحمد السامانى فى سنة ٢٩٥ ه ، أقر الخليفة المكتفى ابنه أبا نصر أحمد بن إسماعيل على ولاية أبيه وخلع عليه[١] . وقد تم على يديه زوال الدولة الصفارية ، فأسر غلامه سيمجور ، سبك السبكرى غلام عمرو بن الليث الصفّار ، كما أسر الليث بن على الصفارى [٢]. وفى المحرم من هذه السنة استولى السامانيون على سجستان من يد المعدّل بن على بن الليث الصفارى وأسر أخاه أبا على محمد بن الليث ، وبعث بسبكرى ومحمد الى بغداد[٣]. على أن هذه البلاد لم تلبث أن خلعت طاعة أحمد بن إسماعيل ، ودعا أهلها لعمرو بن يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار ، فأرسل السامانيون الجيوش لإخضاعها ، واستمرت الحرب بين الفريقين نحوا من سنة حتى تم النصر للسامانيين ، وقبض على الصفارى ، وتولى سيمجور على سجستان من قبل السامانيين .

ولم تطل ولاية أحمد بن إسماعيل حيث قتل فى سنة ٣٠١ ه . وقد ذكر ابن الأثير [٤] أنه كان مولعا بالصيد ، فخرج متصيدا ، « فلما انصرف أمر باحراق ما اشتمل عليه عسكره وانصرف ، فورد عليه كتاب نائبه بطبرستان ، وهو أبو العباس صعلوك ، وكان يليها بعد وفاة ابن نوح بها ، يخبره بظهور الحسن بن على العلوى الأطروش وتغلبه عليها ، وأنه أخرجه عنها ، فغم ذلك أحمد وعاد الى معسكره الذى أحرقه فنزل عليه ، فتطيّر الناس من ذلك . وكان له أسد يربطه كل ليلة على باب مبيته ، فلا يجسر أحد أن يقربه ، فأغفلوا إحضار الأسد تلك الليلة ، فدخل اليه جماعة من غلمانه فذبحوه على سريره وهربوا . وكان قتله ليلة الخميس لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة إحدى وثلثمائة ، فحمل الى بخارى فدفن بها ، ولقب حينئذ بالشهيد » .

السعيد نصر الثانى بن احمد (٣٠١ — ٣٣١) :

كان أبو الحسن نصر بن أحمد السامانى فى الثامنة من عمره حين قتل أبوه ، واستصغر الناس سنه ، واستضعفوه ، واعتقدوا أن أمره لا ينتظم مع وجود عم أبيه ، وهو إسحق بن أحمد بن أسد صاحب سمرقند الذى استمال أهالى بلاد ماوراء النهر — عدا بخارى — إليه وإلى أولاده ، وأرسل هو وبعض أمراء البيت السامانى الى الخليفة العباسى المقتدر يسأله كل منهم إمرة ناحية من نواحى خراسان؛ ولكن الخليفة أقر نصرا على بلاد أبيه ، وأقر اللقب الذى تلقب به وهو السعيد ، وضبط بلاده ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى [٥] .

(١) الطبرى جـ ١٢ ص ١١ .
(٢) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ١٩ .
(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢١ — ٢٢ .
(٤) جـ ٨ ص ٢٧ .
(٥) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٢٨ .

وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٠١ هـ أن إسحق بن أحمد بن أسد السامانى عم أبيه أحمد ، وابنه إلياس بن إسحق ، ثارا على السعيد نصر ، وسارا نحو بخارى . ولكن الهزيمة حلت بهما غير مرة ، واستولت جيوش نصر على سمرقند ، واختفى إسحق ، ثم أسر ، وهرب ابنه إلياس الى فرغانة(١). وخرج ابنه الثانى أبو صالح منصور على نصر فى السنة التالية ، وانضم اليه بعض قواد نصر وعملوا على الاستيلاء على سجستان على أن يتولوها نيابة عنه ، وأقاموا الخطبة له على منابر نيسابور ، واستمرت الحروب بين جيوش نصر وجيوش ابن عمه منصور زهاء أربع سنين (٣٠٢ — ٣٠٦ هـ) ، وانتهت بعودة نيسابور وغيرها الى نفوذ نصر(٢) .

وفى سنة ٣٠٧ هـ انتصر نصر بن أحمد السامانى على أحمد بن سهل ، وكان قد تولى مرو من قبل عمرو بن الليث ، فقبض عليه عمرو ونقله الى سجستان وحبسه بها ، فخرج من سجنه وقصد مرو واستولى عليها ، ودخل فى طاعة اسماعيل بن أحمد السامانى ، وأصبح من كبار قواد السامانيين ، حتى فترت العلاقة بينه وبين نصر الثانى ، فثار بنيسابور واستولى عليها ، وأسقط خطبة نصر ، وأنفذ رسولا إلى بغداد يخطب له فى أعمال خراسان ، وسار من نيسابور الى جرجان . . . واستولى عليها . . . ثم عاد إلى خراسان ، وقصد مرو واستولى عليها وبنى عليها سورا وتحصن بها ، فأرسل إليه السعيد نصر الجيوش مع حَمَوَيْه بن على من بخارى ، فوافى مرو الروذ »(٣) . ولم تزل جيوش نصر بن أحمد تشدد الحصار على أحمد بن سهل حتى قبضت عليه وأسرته ، وسيق إلى بخارى وحبس ، فمات بها سنة ٣٠٧ (٤) هـ .

هذا ، ونعود إلى الكلام على إلياس بن إسحق بن أحمد بن أسد السامانى ، الذى كان قد ثار مع أبيه على نصر الثانى وهرب إلى فرغانة ، فنقول إنه أخذ يعد العدة لمحاربة نصر حتى اجتمع حوله ثلاثون ألف فارس ، ثم قصد سمرقند مناوئاً نفوذ السعيد نصر بن أحمد الذى انتصرت جيوشه عليه فى سنة ٣١٠ هـ ، وأرغمته على الهرب إلى فرغانة والاختفاء بها ، ثم أخذ يعد العدة من جديد بمعونة صاحب الشاش ، ولكن الهزيمة حلت به ، وأسر صاحب الشاش ومات . ويقول ابن الأثير(٥) : « وأما إلياس فصاهر دهقان كاشغر واستقر بها ، ثم ولى محمد بن المظفر فرغانة ، فرجع اليها إلياس بن إسحق معانداً ، فحاربه محمد بن المظفر فهزمه مرة أخرى ، فعاد إلى كاشغر ، فكاتبه محمد بن المظفر واستماله ولطف به ، فأمن إلياس ، وحضر إلى بخارى ، فأكرمه السعيد وصاهره وأقام معه » .

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٣٠ — ٣١ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٤٠ — ٤١ .

(٤) وقد بلغ من خوف السامانيين من أحمد بن سهل أن قال الأمير أحمد بن اسماعيل السامانى : « لاينبغى لأحمد بن سهل أن يغيب عن باب السلطان ، فانه إن غاب عنه أثار شغلا عظيما ، كأنه كان يتوسم منه مافعل » . ابن الأثير جـ ٨ ص ٤١ .

(٥) جـ ٨ ص ٤٥ .

وكانت العلاقة بين السامانيين والخلافة العباسية تقوم على أساس المودة ، حتى إن الخلفاء كانوا يعتمدون على أمراء البيت السامانى فى إقرار سلطانهم فى بلاد المشرق . ولما دعا الخليفة المقتدر يوسف بن أبى الساج إلى واسط لإنفاذه لمحاربة القرامطة ، كتب إلى السعيد نصر الثانى السامانى بولاية الرى ، وأمره بقصدها والاستيلاء عليها من فاتك غلام يوسف بن أبى الساج ، فاستولى عليها نصر وولى عليها سيمجور وعاد إلى بخارى (١) . وفى سنة ٣٣٢ هـ ثار أبو على محمد بن إلياس على نصر بن أحمد السامانى واستولى على كرمان ، فسير إليه نصر ماكان بن كالى على رأس جيش كثيف ، فأحل الهزيمة بابن إلياس ، واستولى على كرمان ووليها من قبل السامانيين . على أن ماكان بن كالى خرج على السامانيين فى جرجان سنة ٣٢٨ هـ ، فأرسل إليه نصر بن أحمد جيشاً هزمه واستولى على هذه البلاد وأعادها إلى نفوذ السامانيين . وانتزعت جيوشهم كذلك الرى من يد وشمكير بن زيار (أخى مرداويج بن زيار) ، بعد أن هرب إلى طبرستان ، ثم دخل فى طاعة السامانيين ، ومن يد ماكان بن كالى الذى قتل ، ثم أخذت جيوش السامانيين يتتابع انتصارها ، فاستولت على أبهر وقزوين وقُم وهمذان ونهاوند والدينور حتى بلغت حدود حُلوان (٢) .

كان السعيد نصر بن أحمد على جانب عظيم من حسن الخلق . وقد وصفه ابن الأثير فقال : « كان حليما كريماً عاقلا . . . حكى عنه أنه لما خرج عليه أخوه أبو زكريا ، نهب خزائنه وأمواله ، فلما عاد السعيد إلى ملكه ، قيل له عن جماعة انتهبوا ماله ، فلم يعرض اليهم . وأخبروه أن بعض السوقة اشترى منها سكيناً نفيساً بمائتى درهم ، فأرسل إليه وأعطاه مائتى درهم وطلب السكين ، فأبى أن يبيعه إلا بألف درهم ، فقال : ألا تعجبون من هذا ، أرى عنده مالى فلم أعاقبه ، وأعطيته حقه فاشتط فى الطلب ؟ ثم أمر برضائه ... وطال مرضه فبقى به ثلاثة عشر شهراً ، فأقبل على الصلاة والعبادة ، وبنى له فى قصره بيتاً وسماه بيت العبادة ، فكان يلبس ثياباً نظافاً ويمشى اليه حافياً ويصلى فيه ويدعو ويتضرع ، ويجتنب المنكرات والآثام » . وكان ذلك فى سنة ٣٣١ هـ ، بعد أن ولى إمرة السامانيين ثلاثين سنة وشهراً وثلاثة أيام ، ومات وله من العمر ثمان وثلاثون سنة (٣) .

وروى أبو بكر الصولى (٤) أن نصر بن أحمد عمل على توحيد كلمة السامانيين إلى آخر رمق من حياته فقال : « صحّت الأخبار بموت نصر بن أحمد أمير خراسان ، وأن ابنه نوح بن نصر قام مقامه بعد أن تنازع هو وأخوه إسماعيل عند الإياس من أبيهما أمرَ الإمرة ، فأفاق أبوهما ، فأمر بقتل ابنه إسماعيل وأن يجدد البيعة لنوح ، وأمر أن يجلس فى الثغور لقتال الأتراك ألف دابة من دوابه ، وأعتق ألف غلام » .

وقد خالف نظام الملك (٥) ما ذكره ابن الأثير عن نهاية السعيد نصر بن أحمد السامانى ، فقال

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٥٦ (٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٩٦ و ١٢٦ و ١٣٠ و ١٣٧ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٤٢ .

(٤) أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٣٧ . (٥) Siyasset Nàmeh, vol II. pp. 278-81 .

إنه دان بعقائد الإسماعيلية ، وإن القواد دبروا مؤامرة لاغتياله ، فلما أدرك نصر الخطر المحدق به ، نزل عن الإمارة لابنه نوح الذى عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلى وأنصاره فى بلاده .

وذكر المقريزى (١) أن نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان بعث إلى عبيد الله المهدى بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال ، كما يتبين من هذه العبارة : « أنا فى خمسين ألف مملوك يطيعوننى ، وليس على المهدى بهم كلفة ولا مئونة ، فإن أمرنى بالمسير سرت إليه ، ووقفت بسيفى ومنطقتى بين يديه وامتثلت أمره » .

الحميد نوح بن نصر (٣٣١ — ٣٤٣ هـ) :

تولى نوح بن نصر السامانى بلاد خراسان وما وراء النهر فى شهر شعبان سنة ٣٣١ هـ ، واستهل إمارته بالعفو عن بعض الأمراء الذين كان يحقد عليهم فى حياة أبيه ليتألف القلوب حوله ويأمن خروجهم عليه ، وولاهم بعض الولايات . وقد بدأ الصراع بين السامانيين وبنى بويه فى أيام نوح ابن نصر الذى عمل على استرداد الرى من يد ركن الدولة بن بويه . وتفاقم النزاع بينهما ، وانتهى بهزيمة جيوش نوح بسبب خروج جنده وانضمامهم إلى البويهيين . بيد أن نوحاً أعد العدة من جديد لمحاربة ركن الدولة والاستيلاء على الرى ، وقد تمكنت جيوشه من الاستيلاء عليها وعلى بلاد الجبل ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٣٣٣ هـ (٢) .

وقد تعرضت بلاد نوح بن نصر لخطر جسيم بسبب خروج قائده أبى على بن محتاج الذى أخلص له ولأبيه من قبل ، والذى استعان به فى حروبه أكثر من مرة . وقد عزا ابن الأثير (٣) سبب خروج ابى علىّ على نوح بن نصر إلى أنه « لما عاد (أبو على) من مرو إلى نيسابور وتجهز للمسير إلى الرى ، أنفذ إليه الأمير نوح عارضاً يعرض العسكر ، فأساء العارض السيرة معهم ، وأسقط منهم ، ونقص ، فنفرت قلوبهم ، فساروا وهم على ذلك ، وانضاف إلى ذلك أن نوحاً أنفذ معهم من يتولى أعمال الديوان ، وجعل اليه الحل والعقد والإطلاق بعد أن كان جميعه أيام السعيد نصر بن أحمد إلى أبى على ، فنفر قلبه لذلك ، ثم إنه عزل عن خراسان واستعمل عليها إبراهيم بن سيمجور . . . ثم إن المتولى أساء إلى الجند فى معاملاتهم وحوائجهم ، فشكا بعضهم إلى بعض » . وقد كاتب الجند إبراهيم ابن أحمد بن إسماعيل عم نوح بن نصر السامانى — وكان قد انضم إلى ناصر الدولة بن حمدان — يطلبون اليه الحضور لمبايعته ، فلبى دعوتهم . وقامت الحرب بمساعدة أبى على بينه وبين نوح بن نصر ، واستولى على نيسابور ومرو وبخارى فى سنة ٣٣٥ هـ ، وخطب فيها لابراهيم بن أحمد بن إسماعيل . على أن أبا على لم يلبث أن خرج على إبراهيم ، الذى مال إلى خلع نفسه والاتفاق مع نوح على أن

---

(١) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٧٢ و ٧٤ ، نقلا عن كتاب المقفى الكبير للمقريزى : المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ أ ، ب .

(٢) جـ ٨ ص ١٥٨ — ١٥٩ (٣) جـ ٨ ص ١٦٤

يتقلد إمرة جيوشه ، وعمل على تولية أبي جعفر محمد بن نصر بن أحمد أخي الأمير نوح بن نصر ، وبايع له ، وأقام الخطبة باسمه فى كثير من نواحى خراسان وبلاد ماوراء النهر . واستمرت الحروب بين أبي على ونوح بن نصر من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٣٣٧ هـ ، وانتهت بعقد الصلح بينهما (١) . واستطاع نوح بن نصر أن يسترد الرى وبلاد الجبل من ركن الدولة بن بويه الذى كان له أثر كبير فى إثارة أبي علىّ عليه (سنة ٣٣٩ هـ) (٢) .

وقد أسند نوح قيادة جيوش خراسان إلى أبي على الذى استطاع بمساعدة وشمكير بن زيار أن يرغم ركن الدولة بن بويه على أن يدفع لنوح بن نصر جزية سنوية مقدارها مائتا ألف دينار . على أن نوحاً لم يلبث أن ساورته الريب فى إخلاص أبي على ، فعزله عن قيادة الجيوش فى خراسان ، فلم يكن منه إلا أن راسل ركن الدولة وسار اليه فى الرى حيث أكرمه ، وتدخل لدى الخليفة العباسى المطيع ، فأقره على ولاية خراسان بمساعدة معزالدولة بن بويه ، وذلك سنة ٣٤٣ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها الأمير نوح بن نصر (٣) .

عبد الملك ومنصور ابنا نوح (٣٤٣ — ٣٦٦ هـ)

لما تولى عبد الملك بن نوح إمرة السامانيين فى سنة ٣٤٣ هـ ، قلد بكر بن مالك إمرة الجيوش فى خراسان ، وسيره من بخارى لإخراج أبي على بن محتاج منها ، «وانفلّ عن ابن محتاج رجاله وعادوا إلى صاحب خراسان ، وبقى أبو على فى مائتى رجل من أصحابه سوى من ضم اليه من الديلم ، فاضطر الى الهرب من بين يدى ابن مالك ، وورد خبره من الدامغان بأنه صائر الى ركن الدولة مستجيرا به ، فقبله ركن الدولة أحسن قبول ، وأقام عنده بالرى . ونزل ابن مالك بنيسابور وتتبع أسباب ابن محتاج » (٤) .

على أن أيام عبد الملك بن نوح لم تطل بسبب كبوة فرسه فى شهر شوال سنة ٣٥٠ هـ ، فآلت السلطة من بعده إلى أخيه أبي صالح منصور بن نوح ، «وافتتنت خراسان بعده» كما يقول مسكويه (٥) ، ودب الضعف إلى جسم الدولة السامانية .

وفى عهد منصور بن نوح شق أهل سجستان عصا الطاعة على أميرهم خلف بن أحمد ، وولوا مكانه رجلا من أصحابه يدعى طاهر بن الحسين ، فاستنجد خلف بالأمير منصور بن نوح ، فأمده بجيش استرد به هذه البلاد ، ولكنه لم يلبث أن طرد عنها ، ثم استردها بمعونة السامانيين . بيد أن خلف بن أحمد لم يلبث أن ساءت علاقته بالسامانيين ، « فقطع ما كان يحمله الى بخارى من الخلع والخدم

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٦٤ — ١٦٧ و ١٧٥ .

(٢) مسكويه : كتاب تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٠٠ — ١٠١ و ١٠٣ — ١٠٤ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٥٤ — ١٥٧ .

(٤) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٥٧ .

(٥) جـ ٢ ص ١٨٩ .

والأموال التى استقرت القاعدة عليها » ، فبعث منصور بن نوح الجيوش لمحاربة خلف بسجستان ، واستمرت الحروب سبع سنين انتهت بعقد الصلح بينهما وإعادة الخطبة لمنصور بن نوح ، مما يدل على مبلغ الضعف الذى دب الى البيت السامانى . وقد أحسن ابن الأثير(١) بقوله : « وكان هذا أول وهن دخل على دولة السامانية ، فطمع أصحاب الأطراف فيهم لسوء طاعة أصحابهم لهم » .

وقد روى ابن الأثير (٢) فى حوادث سنة ٣٥٦ هـ أن الحرب قامت فى جهات الرى بين منصور بن نوح وبين ركن الدولة بن بويه ، وذكر مسكويه(٣) سبب هذه الحرب فى هذه العبارة فقال : « لما اعتلّ أبو على [محمد] بن إلياس وفلج بكرمان ، وخالفه أولاده ، وقصده عضد الدولة ، رحل إلى خراسان ، ولقى صاحب خراسان وبرىء بعض البرء ، وصار نديما له يعاشره ويؤانسه ، فسوّل له قصد ممالك الديلم ، وأطمعه فيها ، وزعم أن أصحاب جيوشه ليس يناصحونه ويقبلون الهدايا والرّشا . فوافق ذلك ما كان يشكوه إليه وشمكير حالا بعد حال ، فاتصلت المكاتبة بين وشمكير وصاحب خراسان ، وكذلك الحسن بن الفيرزان إلى أن وقعت المعاضدة والموافقة على أن يدبر جميع الجيوش وشمكير » .

وقد أنفذ منصور بن نوح السامانى صاحب خراسان الى كل من وشمكير بن زيار والحسن بن الفيرزان الهدايا الكثيرة ، ومن بينها الدواب والآلات والغلمان ، وأمدهما بالجيوش بقيادة وشمكير ، حتى خشى ركن الدولة على بلاده . ولكن قتل وشمكير وتفرق جنده واتفاق ابنه مع ركن الدولة قد وضع نهاية لهذا الصراع(٤) . على أن هذا العداء الذى استحكم بين السامانيين والبويهيين لم ينته إلا فى سنة ٣٦١ هـ حيث تم الصلح بين الأمير منصور بن نوح السامانى صاحب خراسان وما وراء النهر وابنه عضد الدولة ، على أن يحمل ركن الدولة وعضد الدولة إليه كل سنة مائة ألف وخمسين ألف دينار(٥) . وتزوج نوح بابنة عضد الدولة ، وحمل إليه من الهدايا والتحف مالم يحمل مثله ، وكتب بينهم كتاب صلح ، وشهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق» (٦) .

نوح الثانى بن منصور (٣٦٦ — ٣٨٧ هـ) :

لما مات منصور بن نوح فى شهر شوال سنة ٣٦٦ هـ ، تولى بعده ابنه القاسم نوح الثانى ، وتلقب المنصور ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره . وقد قام بأمر الدولة السامانية فى مستهل إمارته وزيره أبو الحسين العتبى ، ولكن محمد بن إبراهيم بن سيمجور قائد الجيش فى خراسان من قبل السامانيين

---

(١) جـ ٨ ص ٢٠٢ . (٢) جـ ٨ ص ٢٠٧ .

(٣) كتاب تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٤) مسكويه جـ ٢ ص ٢٣٣ ، وابن الأثير جـ ٨ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٥) ذكر أبو المحاسن (كتاب النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٦٢) أن ركن الدولة تعهد بأن يحمل الى منصور بن نوح السامانى فى كل سنة مائة ألف دينار ويحمل ابنه عضد الدولة خمسين الف دينار .

(٦) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٢٥ .

استبد بالأمر فى هذه البلاد، واتخذ من صغر سن الأمير الجديد فرصة لتحقيق مطامعه، فعزله الوزير أبو الحسين العتبى، وولى أبا العباس تاش إمرة الجيش، « وسيره من بخارى إلى نيسابور (سنة ٣٧١هـ)، فاستقر بها، ودبر خراسان ونظر فى أمورها وأطاعه جندها ». كما قامت فى هذه السنة الحرب بين الأمير نوح بن منصور السامانى وبين عضد الدولة بن بويه الذى استولى على جرجان وطبرستان من قابوس بن وشمكير نائب السامانيين فى هذه البلاد. وعلى الرغم من تتابع جيوش نوح بن منصور، اضطرب أمرهم ولم يستطيعوا استرداد جرجان، ولا سيما بعد أن اتصل بهم نبأ قتل الوزير أبى الحسين العتبى الذى يرجع اليه الفضل فى متابعة هذه الحروب (١). أضف إلى ذلك ثورة أحد أمراء البيت السامانى على نوح بن منصور بعد أن حلت هذه الهزيمة بجيوشه (٢).

على أن الوزير الجديد عبد الله بن عزيز الذى كان يضمر العداوة والبغضاء للوزير العتبى، عمل على عزل أبى العباس تاش عن خراسان، وإعادة أبى الحسن بن سيمجور إليها؛ فامتنع أبو العباس عن تنفيذ أوامر الوزير الجديد، ولجأ إلى فخر الدولة بن بويه يطلب منه العون، فأمده بجيش حارب به ابن سيمجور، واستولى على نيسابور، ثم « راسل الأمير نوح بن منصور يستعيله ويستعطفه، ولج ابن عزيز فى عزله، ووافقته على ذلك والدة الأمير نوح، وكانت تحكم فى دولة ولدها، وكانوا يصدرون عن رأيها. وقال بعض أهل العصر فى ذلك:

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما رأى النساء وإمرة الصبيان
أما النساء فميلهن إلى الهوى وأخو الصبا يجرى بغير عنان (٣)

وفى عهد نوح بن منصور تعرضت الدولة السامانية للزوال، ففى سنة ٣٨٣ هـ ثار عليه اثنان من أكبر قواد السامانيين هما أبو الحسن بن سيمجور، وفائق الخاصة غلام نوح بن نصر، واتصلا بشهاب الدولة هرون بن سليمان إيلك المعروف ببغرا خان التركى، وكانت تمتد بلاده من حدود الدولة السامانية شرقاً حتى تتاخم حدود الصين. وأطمعاه فى الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، وتمكن ايلك فى هذه السنة من الانتصار على جيوش نوح بن منصور والاستيلاء على بخارى. على أن نوحا لم يلبث أن استرد حاضرة إمارته على أثر موت بغراخان وثورة أهالى بخارى عليه (٤).

وفى سنة ٣٨٤ هـ استعان نوح بن منصور بسبكتكين صاحب غزنة لحرب الأمراء الثائرين عليه. وانتصرت جيوش نوح وسبكتكين بالقرب من هراة على هؤلاء الأمراء الذين استعانوا ببنى بويه وفروا الى جرجان. كما استعاد نوح نيسابور « واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين، ولقبه سيف الدولة، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة، فأحسنا السيرة. وعاد نوح الى بخارى وسبكتكين الى هراة، وأقام محمود بنيسابور (٥). على أن هؤلاء الثائرين لم يلبثوا أن انتصروا على محمود ».

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٤ — ٥.
(٢) مسكويه جـ ٣ ص ٩٣.
(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٠ — ١١.
(٤) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٣٦ — ٣٧.
(٥) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٣٨.

ومع أن أيام نوح بن منصور السامانى طالت حتى أربت على إحدى وعشرين سنة ، فقد كان عهده مليئا بالثورات والحروب الأهلية بسبب صغر سنه ، وتدخل النساء والوزراء فى حكم بلاده ، وطمع أمراء الأطراف واستئثارهم بالسلطة ، وطمع بنى بويه والأتراك فى امتلاك بلادهم ، وقيام المنافسة بين أفراد البيت السامانى نفسه . وقد أحسن ابن الأثير(١) فى وصف عهد نوح بن منصور وما ساد الدولة السامانية فى ذلك العهد ، فى هذه العبارة القصيرة فقال : « توفى الأمير الرضا نوح بن منصور السامانى ، واختل بموته ملك آل سامان ، وضعف أمرهم ضعفا ظاهرا ، وطمع فيهم أصحاب الأطراف فزال ملكهم بعد مدة يسيرة » .

زوال الدولة السامانية وأسبابه :

لما توفى الأمير الرضا نوح بن منصور السامانى سنة ٣٨٧ هـ قام بعده ابنه أبو الحارث منصور بن نوح ، وعمل على تأليف القلوب حوله ، بإغداق الأموال على أنصاره وقواده . على أن إيلك المعروف ببغراخان التركى ، الذى كان قد استولى على بخارى سنة ٣٨٣ هـ ، اتخذ من موت نوح بن منصور فرصة للاستيلاء على سمرقند ، وانضم اليه فائق الخاصة ، الذى تمكن بمساعدته من الاستيلاء على بخارى ، متظاهرا بأنه إنما كان يسعى لخدمة الأمير منصور « رعاية لحق أسلافه عليه إذ هو مولاهم » ، وأرسل اليهم مشايخ بخارى ومقدمهم فى العود إلى بلده وملكه ، وأعطاه من نفسه مايطمئن اليه من العهود والمواثيق ، فعاد إليها ودخلها ، وولى فائق أمره وحكم فى دولته ، وولى بكتوزون إمرة الجيش بخراسان »(٢) . وفى السنة التالية بدأ النزاع بين الأمير منصور بن نوح ومحمود بن سبكتكين الذى أثار سخطه تولية بكتوزون على خراسان ، وطلب من السامانيين إعادتها اليه ، فلم يجب إلى طلبه ، وساءت العلاقة بينه وبينهم بسبب ذلك .

ومع هذا فإن بكتوزون وفائق الخاصة قد تآمرا على الأمير منصور بن نوح ، وقبضا عليه وسملا عينيه ولم يمض فى الإمارة غير سنة وسبعة أشهر ، ووليا أخاه الصغير عبد الملك بن نوح ؛ فاتخذ محمود بن سبكتكين من اضطراب حبل الأمور فى الدولة السامانية وسيلة للاستيلاء على أملاكهم ، فبعث الى هذين المتآمرين يلومهما ويقبح فعلهما ، وأعد عدته ، وجهز الجيوش للقائهما . والتقى الجيشان فى مرو (جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ) ، فحلت الهزيمة بالجيش السامانى ، وارتد فائق الخاصة بصحبة عبد الملك بن نوح السامانى الى بخارى ، وقصد بكتوزون نيسابور ، ولحق أبو القاسم بن سيمجور بقوهستان ، واستطاع محمود بن سبكتكين أن يستولى على نيسابور وبخارى ويقر ملكه بخراسان ، ويزيل نفوذ السامانيين عنها ، ويخطب فيها للخليفة القادر بالله . ووقعت بلاد ماوراء النهر فى يد إيلك بغراخان الذى قصد بخارى وأظهر التودد لعبد الملك بن نوح ، لكنه لم يلبث أن قبض على قواد السامانيين ثم على عبد الملك نفسه ، وحبس معه أخوه أبو الحارث منصور بن نوح الذى كان فى الملك قبله ، وأخواه أبو ابراهيم إسماعيل وأبو يعقوب ابنا نوح ، وأعمامه أبو زكريا وأبو سليمان وغيرهم من آل سامان ، وأفرد كل واحد منهم فى حجرة . وكانت

(١) ج ٩ ص ٤٨ (٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٤٨

دولتهم قد انتشرت وطبقت كثيرا من الأرض ، من حدود حلوان إلى بلاد الترك بما وراء النهر . وكانت من أحسن الدول سيرة وعدلا » .

وإن من يستقصى تاريخ السامانيين يرى أن زوال دولتهم يرجع إلى عوامل عدة ، نذكر من بينها وقوع النزاع بين أفراد هذا البيت ، وخروج القواد وعمال الأطراف عليهم ، واستعانتهم ببعض أمراء البيت المالك . فقد رأينا كيف استعان القائد السامانى أبو على ببعض أمراء هذا البيت على نوح بن نصر (٣٣١ — ٣٤٣ هـ) ، كما استعان بعض هؤلاء القواد وعمال الأطراف ببنى بويه ، مما أضعف الدولة السامانية وأدى الى زوالها فى النهاية . أضف الى ذلك تدخل النساء والوزراء فى الحكم بسبب صغر سن بعض الأمراء (١) .

وهكذا انقضت الدولة السامانية على أيدى الغزنويين وخانات تركستان ، وأصبحت « كأن لم تغن بالأمس ، كدأب الدول قبلها ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » (٢)

ولأمراء السامانيين فضل كبير فى تشجيع الأدب ، وبخاصة الأدب الفارسى الذى بدأ ينتعش منذ القرن الثالث ، حتى أخذ الفرس يؤلفون بلغتهم الفارسية . وقد بدأ الروح الفارسى يظهر فى الأدب الفارسى منذ ذلك الوقت . من ذلك كتاب الشاهنامة للفردوسى ، ومختصر الطبرى للبلعمى وزير منصور الأول بن نوح (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) .

أما الطب والفلك والفلسفة فقد كان الفرس يؤلفون فيها باللغة العربية بدلا من الفارسية ، إذ لم يكن لهذه العلوم كبير علاقة بالأدب الفارسى . ومن أشهر كتب الطب فى ذلك العصر : الكتاب المنصورى الذى ألفه أبو بكر الرازى وأهداه إلى أبى صالح منصور بن إسحق السامانى الذى ولى سجستان نيابة عن السامانيين . وقد روى لنا ابن سينا (٣) الفيلسوف المشهور أنه رأى فى مكتبة مدينة بخارى حاضرة الدولة السامانية من طرائف الكتب مالم يسمع بمثله من قبل .

---

(١) يقص علينا عماد الدولة على بن بويه قصة تبين كيف كان صغر سن أمراء السامانيين من العوامل التى قللت من شأنهم فى نظر قوادهم ، وكيف كان يعمل بعض هؤلاء القواد على التخلص من هؤلاء الأمراء الصغار . فقد ذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص ١٧٤) أن شيرنحين أحد قواد الديلم الذين كانوا فى خدمة السامانيين أراد قتل نصر ابن أحمد ، وأن عماد الدولة على بن بويه قال فيه : « إنه كان فى خراسان فى خدمة نصر بن أحمد ، ونحن شرذمة قليلة من الديلم ومعنا هذا ، فجلس يوما نصر وفى خدمته من مماليكه ومماليك أبيه بضعة عشر ألفا سوى سائر العسكر ، فرأيت شيرنحين هذا قد جرد سكينا معه ولفه فى كسائه ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أريد أن أقتل هذا الصبي ، يعنى نصرا ، ولا أبالى بالقتل بعده ، فانى قد أنفت نفسى من القيام فى خدمته . وكان عمر نصر بن أحمد يومئذ عشرين سنة وقد خرجت لحيته ، فعلمت أنه إذا فعل ذلك لم يقتل وحده بل نقتل كلنا ، فأخذت بيده وقلت له : بينى وبينك حديث ، فمضيت به إلى ناحية وجمعت الديلم وحدثتهم حديثه ، فأخذوا منه السكين . فتريدون منى بعد أن سمعتم حديثه فى معنى نصر أن أمكنه من الوقوف بين يدى هذا الصبي ، يعنى ابن أخى ؟ فأمسكوا عنه وبقى محبوسا حتى مات فى محبسه » .

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٥٤ — ٥٦ .

(٣) كانت علاقة ابن سينا بالسامانيين تقوم منذ حداثة سنه على أساس متين ، وكان فى السابعة عشرة من عمره حينما أسعده الحظ بشفاء الأمير نوح بن منصور (+ ٣٨٧ هـ) على يديه ، وحينما أذن له هذا الأمير بالدخول فى دار كتبه . دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٦٥ ترجمة أبى ريده .

الدولة الغـــــزنوية

(فى بلاد الأفغان والبنجاب)

٣٥١ — ٥٨٢ هـ = ٩٦٢ — ١١٣٦ م

البيت الغزنوى[1]

	هجرية	ميلادية
١) ألبتكين	٣٥١	٩٦٢
٢) اسحق	٣٥٢	٩٦٣
٣) بلانكين	٣٥٥	٩٦٦
٤) بيرى	٣٦٢	٩٧٢
٥) سبكتكين	٣٦٦	٩٧٦
٦) اسماعيل	٣٨٧	٩٩٧
٧) محمود : يمين الدولة	٣٨٨	٩٩٨
٨) محمد : جلال الدولة	٤٢١	١٠٣٠
٩) مسعود الأول : ناصر دين الله	٤٢١	١٠٣٠
١٠) مودود : شهاب الدولة	٤٣٢	١٠٤٠
١١) مسعود الثانى[2]	٤٤١	١٠٤٨
١٢) على أبو الحسن بهاء الدولة	٤٤١	١٠٤٨
١٣) عبد الرشيد : عز الدولة	٤٤١	١٠٤٩
١٤) طغرل (مغتصب)	٤٤٤	١٠٥٢
١٥) فروخ زاد : جمال الدولة	٤٤٤	١٠٥٢
١٦) ابراهيم : ظهير الدولة	٤٥١	١٠٥٩
١٧) مسعود الثالث : علاء الدولة	٤٩٢	١٠٩٩
١٨) شير زاد : كمال الدولة	٥٠٨	١١١٤
١٩) أرسلان : سلطان الدولة	٥٠٩	١١١٥
٢٠) بهرام شاه : يمين الدولة	٥١٢	١١١٨
٢١) خسرو شاه : معز الدولة	٥٤٧	١١٥٢
٢٢) خسرو ملك : تاج الدولة	٥٥٥	١١٦٠
	٥٨٢	١١٨٦

[الغوريون]

جدول الأمراء الغزنويين

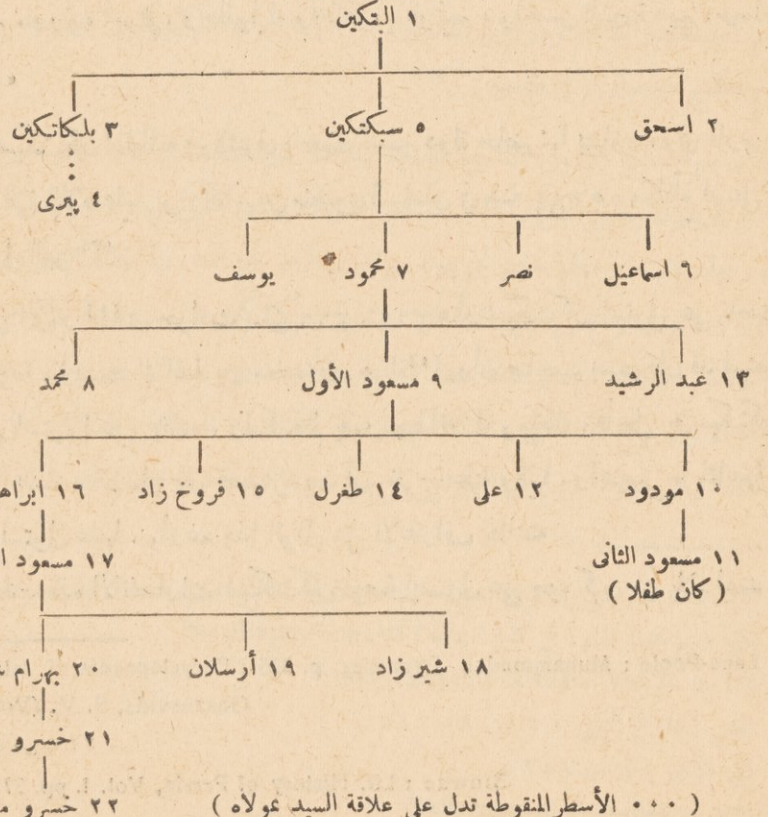

(... الأسطر المنقوطة تدل على علاقة السيد بمولاه)

(١) انظر كتاب Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 289-290

(٢) أخطأ لينپول بذكر وفاته فى سنة ٤٤٠ هـ ولذلك أصلحنا هذه السنة عن كتب التاريخ .

سبكتكين (٣٦٦ — ٣٨٧ هـ)

كان ألبتكين من الموالى الأتراك ، الذين كانت لهم منزلة كبيرة عند السامانيين ، فأسندوا إليهم المناصب العالية فى الدولة . وقد عين عبد الملك بن نوح السامانى (٣٤٣ — ٣٥٠ هـ) ألبتكين حاجبا فى بلاطه ، ثم عينه فى سنة ٣٤٤ هـ عاملا على مدينة هراة ، ولكنه أقصى عن منصبه بعد وفاة مولاه ، فعاد الى مدينة غزنة التى كان أبوه يليها من قبل السامانيين ، وحل محله فى حكمها بعد وفاته سنة ٣٥٢ هـ ، واستطاع أن يناوىء منصورا الأول بن نوح السامانى (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) ، ولكنه مات بعد سنة واحدة دون أن يتمكن من توسيع رقعة البلاد التى استولى عليها ، كما لم يتمكن ابنه إسحق من مد نفوذ الغزنويين . وكان لإسحق مملوكان ، هما بَلْكَاتِكِينُ Balkátigin وسُبُكْتِكِين Subuktigin ، وقد آلت السلطة الى أولهما من بعده ، فضرب النقود باسمه ، فى غزنة سنة ٣٥٩ هـ ، وتبعه فى حكمها يبرى أحد أهالى هذه المدينة . ويعتبر سبكتكين أحد موالى ألبتكين وزوج ابنته المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية[١] . ويذكر ابن الأثير [٢] أن إسحق بن البتكين لما توفى ، ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم ، اجتمع عسكره ونظروا فيمن يلى أمرهم ، ويجمع كلمتهم ، فاختلفوا ، ثم اتفقوا على سبكتكين ، لما عرفوه من عقله ودينه ، ومروءته ، وكمال خلال الخير فيه ، فقدموه عليهم ، وولوه أمرهم ، وحلفوا له وأطاعوه ، فوليهم ، وأحسن السيرة فيهم ، وساس أمورهم سياسة حسنة .

وقد مد سبكتكين سلطانه فى الشرق ، حيث أسس دولة حاضرتها بشاور ، وفى فارس باستيلائه على خراسان التى ولاه عليها نوح الثانى بن منصور السامانى فى سنة ٣٨٤ هـ ، مكافأة له على قمع الثوار فى بلاد ماوراء النهر [٣] .

ذكر ابن الأثير [٤] فى حوادث سنتى ٣٦٦ ، ٣٦٩ هـ أن سبكتكين استولى على ناحية قُصدار القريبة من غزنة ، وبست الواقعة بين سجستان وهراة[٥] ، وأن صاحب بست كان قد استعان به على الثوار الذين استولوا على بلاده ، ولكنه لم يف بتعهداته له ومماطله ، فأحل به سبكتكين الهزيمة واستولى على بست ، ثم سار الى قصدار بعد أن خرج عليه واليها ، واعتصم بها لمناعتها وصعوبة مسالكها ، واستولى عليها ، وأرغم هذا الوالى على الاعتراف بطاعته .

وقد أتاحت هذه الانتصارات لسبكتكين فرصة ليستولى على جزء كبير من بلاد الهند ، فاستولى

---

(١) Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, p. 285 ; Encyclopaedia of Islam, Ghaznavids, S. V. (Vol. II. p. 154).

(٢) جـ ٨ ص ٢٤٧ .

(٣) Browne : Lit. History of Persia, Vol. I. pp. 371-2.

(٤) جـ ٨ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٥) انظر قصدار وبست فى معجم البلدان لياقوت .

على بعض المواقع الجبلية فى أطراف الهند ، حيث مدينة كابل حاضرة بلاد الأفغان الحالية(١)، وعاد الى بلاده سالما ظافرا . ولكن چيبال أحد ملوك الهند ، الذى كانت مملكته تمتد فى شمال غربى الهند ، رأى فى استيلاء سبكتكين على أطراف بلاده تهديدا لمملكته ، وبدأت بين ملوك الهند وملوك غزنة حروب طاحنة انتهت باستيلاء محمود بن سبكتكين على جزء كبير من هذه البلاد (٢) . وفى سنة ٣٦٩ هـ حلت الهزيمة بچيبال ، وطلب الصلح من سبكتكين ، على مال يؤديه ، وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها إليه ، فاستقر ذلك ، ورهن عنده جماعة من أهله على تسليم البلاد ، وسير معه سبكتكين من يتسلمها . فإن المال والفيلة كانت معجلة . فلما أبعد چيبال ملك الهند قبض على من معه من المسلمين وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه . فلما سمع سبكتكين بذلك جمع العساكر ، وسار نحو الهند ، فأخرب كل مامر عليه من بلادهم ، وقصد لمغان، وهى من أحسن قلاعهم ، ففتحها عنوة ، وهدم بيوت الأصنام ، وأقام فيها شعار الإسلام ، وسار عنها يفتح البلاد ويقتل أهلها . فلما بلغ ماأراده عاد الى غزنة ، فلما بلغ الخبر الى چيبال سقط فى يده ، وجمع العساكر ، وسار فى مائة الف مقاتل ، فلقيه سبكتكين وأمر أصحابه أن يتناوبوا القتال مع الهنود ، ففعلوا ذلك ، فضجر الهنود من دوام القتال معهم وحملوا حملة واحدة . فعند ذلك اشتد الأمر ، وعظم الخطب ، وحمل أيضا المسلمون جميعهم ، واختلط بعضهم ببعض ، فانهزم الهنود ، وأخذهم السيف من كل جانب ، وأسر منهم مالا يعد ، وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة . . . ولما قوى سبكتكين بعد هذه الوقعة أطاعه الأفغانية والخلج ، وصاروا فى طاعته » (٣).

ومع أن سبكتكين كان من الناحية العملية مستقلا عن السامانيين ، وأكثر نفوذا منهم ، فإنه اعترف — كما يقول ستانلى لينبول (٤) — لهم بالسيادة وشن الحروب ، وفتح البلاد باسمهم ، حتى « اتسعت رقعة ولايته ، وعظم حجم جريدته ، وعمرت أرض خزانته ، وأشفقت النفوس من هيبته »(٥) فى سنة ٣٨٤ هـ نرى نوح بن نصر السامانى يستعين بسبكتكين صاحب غزنة على حرب أبى على بن سيمجور وفائق الخاصة ، اللذين شقا عصا الطاعة فى خراسان ، وولاه خراسان ، ودارت الحرب بنواحى هراة بين نوح السامانى وسبكتكين وابنه محمود من ناحية ، وبين أبى على بن سيجمور وفائق الخاصة وفخر الدولة بن ركن الدولة البويهى من ناحية أخرى ، وانتهت بانتصار سبكتكين ،

---

(١) كانت هذه الأراضى ولا تزال تعرف باسم Hund أو Hind ، ويعرف ملوكها باسم مملكة الشاهات ، ويعرفون عامة باسم ملوك الهنود فى كابل The Hindu Kings of Càbul
انظر Encyclopaedia of Islam. Vol. II. p. 154.

(٢) العتبى : تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٥٨ ، ٧٦ .

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٤٨ .

(٤) Muhammadan Dynasties, p. 286.

(٥) العتبى : تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٦٣ .

وتتبعه أبى على وفائق إلى نيسابور ، واستيلائه عليها . وبعودة نيسابور الى السامانيين ، ولى نوح محمود بن سبكتكين عليها وعلى جيوش خراسان ، ولقبه سيف الدولة ، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة (١) .

مات سبكتكين فى سنة ٣٨٧ هـ بعد أن حكم عشرين سنة ، وضع فيها أساس امبراطورية الغزنويين ، بفضل ما أحرزه من نصر مؤزر فى فتوحه فى الشرق والغرب ، وما اشتهر عنه من الصلابة وقوة الإرادة ومتانة الخلق . تلك الأمبراطورية التى اتسعت رقعتها ، وامتدت حدودها فى عهد ابنه محمود الغزنوى . « وكان سبكتكين عادلا خيرا كثير الجهاد ، حسن الاعتقاد ، ذا مروءة تامة وحسن عهد ووفاء »(٢). وقد رثاه أبو الفتح البُسْتى الشاعر المشهور . الذى اتخذه كاتبا له بقوله :

قلت إذ مات ناصر الدين والدو لة حباه ربّه بالكرامه
وتداعت جموعه بافتراق هكذا هكذا تكون القيامة (٣)

يمين الدولة محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١ هـ)

عهد سبكتكين قبل موته الى ابنه إسماعيل ، وكان ضعيف الرأى والتدبير ، حتى كادت تنفد خزائنه . فأرسل إليه أخوه محمود ، وكان أكبر منه سنا ، يبين له أحقيته فى السلطنة بعد أبيه ويقول له : « من المصلحة أن نتقاسم الأموال بالميراث ، وتكون أنت مكانك بغزنة وأنا بخراسان ، وندبر الأمور ونتفق على المصالح ، لا يطمع فينا عدو . ومتى ماظهر للناس اختلاف طمعوا فينا ، فأبى إسماعيل من موافقته »(٤). واتصل بمحمود قواد إسماعيل سرا ، واستعان بعمه بغراجق فى هراة وأخيه نصر فى بست ، والتقت جيوش إسماعيل ومحمود بظاهر غزنة . وبانتصار محمود استقر له ملك الغزنويين ، وقبض على إسماعيل بعد أن حكم سبعة شهور .

يقول براون (٥) « إن قوة محمود الغزنوى التى لاتحد قد ظهرت فجأة ، وإنه بدأ عهده بوضع يده على مملكته الصغيرة التى ورثها عن أبيه سبكتكين ، ولكنه لم يلبث أن غزا الهند اثنتى عشرة مرة ، وضم الى مملكته بلاد البنجاب ، وأخضع بلاد الغور ، وبلاد ماوراء النهر ، ووالى لبنى بويه ضرباته التى انتهت باستيلائه على أصبهان » .

وكان من أهم الأغراض التى رمى اليها محمود الغزنوى أن يرث ملك السامانيين . وقد حز فى نفسه — كما رأينا — انتزاع منصور بن نوح منه نيسابور وإمرة جيش خراسان وتوليتهما بكتوزون .

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٨ ، والعتبى : تاريخ اليمينى ج ١ ص ٥٠—٥١ ، ٥٤ .
(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٤٨ .
(٣) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٤ .
(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٤ — ٨٥ .
(٥) Lit. Hist. of Persia, Vol. I. p. 376.

ولما ألح محمود فى إعادتهما إليه ، لم يحفل به منصور بن نوح ووعد بتوليته ترمذ وبلخ وما وراءها من أعمال بست وهراة ، فلم يقنع محمود بذلك وقصد نيسابور وامتلكها ، ثم اتخذ من انحلال الدولة السامانية ، وتآمر بكتوزون وفائق الخاصة على منصور بن نوح ، وقبضهما عليه ، وسمل عينيه ، وتولية أخيه الصغير فرصة لتحقيق سياسته ، « وأرسل إلى فائق وبكتوزون يلومهما ، ويقبح فعلهما . وقويت نفسه على لقائهما وطمع فى الاستقلال بالملك » ، وأحل الهزيمة بجيش السامانية فى مرو (جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ) . وارتد عبد الملك بن نوح الى بلاد ماوراء النهر ، وصفت خراسان له ، وعين أخاه نصرا على جيوشها ، فاتخذ نيسابور مركزا له ، وخطب للخليفة القادر . وبذلك زالت الدولة السامانية من خراسان على يد محمود الغزنوى ، ومن بلاد ماوراء النهر على يد بغراخان (١) .

كان محمود الغزنوى أول من تلقب من الغزنويين بلقب سلطان بعد أن كان يلقب بلقب أمير . وقد لقبه الخليفة القادر بالله يمين الدولة ، وأمين الملة ، وظهرت هذه الألقاب على السكة التى كانت تحمل اسمه(٢).

ولم يكتف محمود بما استولى عليه من بلاد ، بل عمل على مد نفوذه وتوسيع رقعة أملاكه ، فحارب خلف بن أحمد صاحب سجستان ، واستولى عليها (سنة ٣٩٣ هـ) ، ولكنها لم تلبث أن خرجت عليه ، فأخضعها وأقطعها أخاه نصرا (٣) (سنة ٣٩٠ — ٣٩٣ هـ) .

وفى سنة ٤٠١ هـ حارب محمود الغور ، وكانوا لايدينون بالإسلام ، وتقع بلادهم الجبلية الوعرة المسالك بين هراة وغزنة ، ومن ثم كانوا يقطعون الطريق ويخيفون السبيل . وقد أوقع بهم محمود وأخضعهم لسلطانه ، ونشر الإسلام بينهم ، وأرسل إليهم جماعة من المسلمين يعلمونهم أصول الدين . ومن أهم الأعمال التى قام بها محمود الغزنوى إزالته سلطان البويهيين فى الرى وبلاد الجبل ؛ فقد انتهز فرصة استنجاد مجد الدولة بن فخر الدولة الذى استبدت أمه بالأمر دونه كما تقدم ، واشتغل بالنساء وقراءة الكتب ، فاختلت دولته بعد موت أمه ، وأرسل إليه فى سنة ٤٢٠ هـ ، جيشا قبض عليه وعلى ابنه أبى دلف . ثم سار محمود إلى الرى ودخلها ، « وأخذ من الأموال ألف ألف دينار ، ومن الجواهر ما قيمته خمسمائة ألف دينار ، ومن الثياب ستة آلاف ثوب ، ومن الآلات وغيرها مالا يحصى ، وأحضر مجد الدولة وقال له : أما قرأتَ شانامة (يقصد الشاهنامة للفردوسى) وهو تاريخ الفرس ، وتاريخ الطبرى ، وهو تاريخ المسلمين ؟ قال : بلى ! قال : ما حالك حال من قرأهما ؟(٤) أما لعبتَ بالشطرنج ؟ قال : بلى ! قال : فهل رأيت شاها يدخل على شاه ؟ قال : لا ! قال : فمن حملك على أن سلمت نفسك إلى من هو أقوى منك ؟ ثم سيره إلى خراسان مقبوضا ، ثم ملك قزوين وقلاعها ومدينة ساوة

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٥٤ .

(٢) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٨٤ — ٨٥ .

(٣) تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٩٩ — ١٠٤ ، وابن الأثير جـ ٩ ص ٦٠ ، ٦٤ — ٦٥ .

(٤) فى الأصل قرأها والسؤال عن كتابين .

وآبه ويافت ... وصلب من أصحابه الباطنية خلقا كثيراً ، ونفى المعتزلة إلى خراسان ، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم ، وأخذ من الكتب ماسوى ذلك مائة حمل » (١).

كذلك حارب محمود الغزنوى جماعة من الأتراك يقال لهم الأتراك الغزّية ، أصحاب أرسلان بن سلجوق التركى ، وكانوا يقطنون صحارى إقليم بخارى . ولما قبض محمود على زعيمهم أرسلان فى بلاد ماوراء النهر ، وأرسله إلى بلاد الهند ، وقتل كثيرا من أصحابه ، هرب جمع كبير منهم فى سنة ٤٢٠ هـ ، ولحقوا بخراسان ، وعاثوا فيها ، فهربوا إلى أصبهان حيث طاردتهم جيوش محمود الغزنوى وأوقعت بهم ، ثم سار محمود إلى خراسان حيث تفاقم شر هؤلاء الغز ، وما زال يحاربهم حتى مات ، واستمر ابنه مسعود فى حربهم (٢) .

ولم تقتصر جهود محمود الغزنوى على فتح البلاد فى فارس وخراسان وغيرها ، بل إنه اهتم أيضا بالقضاء على أهل البدع والأهواء . ففى سنة ٤٠٨ هـ نراه يشمر عن ساعد الجد ويحارب هؤلاء فى غير هوادة . يقول الذهبى (٣) : « وامتثل يمين الدولة محمود بن سبكتكين أمر القادر بالله ، وبث كلمته فى عماله بخراسان وغيرها فى قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة ، وصلبهم ونفاهم ، وأمر بلعنهم على المنابر ، وشردهم من ديارهم » .

ولما وجد الفاطميون فى مصر مايلاقيه أنصارهم من الإسماعيلية فى بلاد المشرق على يد محمود الغزنوى ، عملوا على استمالته إليهم ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق مآربهم . وفى ذلك يقول ابن كثير : (٤) « وكانت رسل الفاطميين فى مصر تفد اليه بالكتب والهدايا لأجل أن يكون فى جهتهم ، فيحرقهم ويحرق كتبهم وهداياهم » . ومن هذا الكتاب الطويل الذى أرسله محمود الغزنوى إلى الخليفة القادر بالله فى سنة ٤٢٠ هـ ، نستطيع أن نتبين كيف كان محمود ينصر أهل السنة ويحارب الفرق الدينية الأخرى ، التى كان يعتبرها خارجة على الدين والدولة ، وإليك هذا الكتاب عن الذهبى (٥) :

« سلام على سيدنا ومولانا الإمام القادر بالله أمير المؤمنين : إن كتاب العبد (٦) صدر من معسكره بظاهر الرى غرة جمادى الأولى (سنة ٤٢٠ هـ) ؛ وقد أزال الله (٧) فى هذه البقعة أيدى الظلمة ، وطهرها من أيدى الباطنية . وقد تناهت إلى الحضرة (٨) حقيقة الحال فيما قصر العبد عليه سعيه (٩)

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٩ .
(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٤١ — ١٤٢ .
(٣) تاريخ الاسلام : مخطوط ج ٣ ورقة ٢٧٩ .
(٤) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩ .
(٥) تاريخ الاسلام ج ٣ ورقة ٣٠٧ — ٣٠٨ .
(٦) يقصد السلطان محمود الغزنوى .
(٧) فى الأصل أنزل .
(٨) يعنى الخلافة العباسية .
(٩) فى الأصل سعته .

واجتهاده ، وغزو أهل الكفر والضلال ، وقمع من نبغ من الفئة الباطنية . وكانت الرى محصورة بالتجائهم إليها وإعلانهم بالدعاء إلى كفرهم ؛ فيها يختلطون بالمعتزلة والرافضة ، ويتجاهرون بشتم الصحابة ، ويرون الكفر ومذهب الإباحة . وكان زعيمهم رستم بن على الديلمى ، فعطف العبد بالعساكر عليه ، فطلع بجرجان وتوقف بها إلى انصراف الشتاء ثم إلى دامغان . . . وخرج الديالمة معترفين بذنوبهم ، شاهدين بالكفر والرفض على نفوسهم ، فرجع إلى الفقهاء فى تعرف أحوالهم ، فأفتوا بأنهم خارجون عن الطاعة ، داخلون فى أهل الفساد ، يجب عليهم القتل والقطع والنفى على مراتب جناياتهم ، إن لم يكونوا من أهل الإلحاد ، فكيف واعتقادهم لايخلو من التشيع والرفض والباطن ؟ وذكر هؤلاء الفقهاء (١) أن هؤلاء القوم لايصلون ولا يزكون ولا يعترفون بشرائط الدين ، ويجاهرون بالقذف وشتم الصحابة ، والأمثل منهم معتقد مذهب الاعتزال والباطنية ، فهم لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . . فخلت هذه البقعة من دعاة الباطنية ، وأعيان الروافض ، وانتصرت السنية ، فطالع العبد بحقيقة مايسّره الله تعالى لنصر الدولة القاهرة » .

فتوح محمود الغزنوى فى بلاد الهند :

اصطبغت حملات محمود الغزنوى فى بلاد الهند خاصة بين سنتى ٣٩٢ و ٤١٥ هـ (١٠٠٠ و ١٠٢٤ م) بصبغة الجهاد الدينى . وكان يرمى من وراء هذه الحملات إلى نشر الإسلام فى هذه البلاد ، ليكون ذلك « كفارة لما كان من قتال المسلمين » . ولذلك « فرض — كما يقول ابن خلكان (٢) — على نفسه فى كل عام غزو الهند » . أضف إلى ذلك أن چيپال ملك البنجاب ، الذى حارب أباه سبكتكين حروبا طاحنة ، كان لايزال فى قوة لايستهان بها ، كما أن قرب غزنة من بلاد الهند الشمالية ، ووقوعها على قمة الهضبة التى تشرف على سهولها ، يجعلها سهلة الاتصال بوديان كابل وقورم ونهر جُمال — كل ذلك أمد محمودا بمزايا فريدة ، ساعدت على نجاح غزواته فى بلاد الهند . ومما ساعد محمودا على تحقيق هذه الأغراض استيلاؤه على بلاد ماوراء النهر ، التى آلت إلى إيلك خان بعد زوال الدولة السامانية ، وعلى سجستان وبلاد الغور مما قوى مركزه الحربى فى الداخل ، وأطلق يده فى توجيه حملاته المنتظمة إلى بلاد الهند (٣) .

وفى سنة ٣٩٢ هـ غزا محمود الغزنوى شمالى الهند ، وانتصر على چيپال وأسره وغنم غنائم كثيرة ، حتى قيل إن عدد الأسرى بلغ أكثر من خمسمائة ألف ، ثم أطلق چيپال على جزء من المال يؤديه . . يقول ابن الأثير : « ومن عادة الهند أنهم من حصل منهم فى أيدى المسلمين أسيرا لم ينعقد له بعدها رياسة . فلما رأى چيپال حاله بعد خلاصه ، حلق رأسه ، ثم ألقى نفسه فى النار فاحترق » ، وترك

---

(١) وردت فى الأصل الفقراء (٢) كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٥

(٣) انظر Encyclopaedia of Islam, Vol, II. p. 155 .

مملكته لابنه أنندْبال Anandpal . وكان من أثر ماأحرزه محمود من نصر فى هذه الغزوة أن أطلق عليه الغازى .

ولما قضى محمود الغزنوى على چيبال ، سار نحو ويهند Und التى ثار أهلها عليه ، وانتصر عليهم (١) ، ثم قصد إقليم الملتان ، وهو مركز مشهور للحجاج من الهنود ، فى جنوب بلاد البنجاب على سمت غزنة (٢) ، فاستولى سنة ٣٩٥ هـ على مدينة بهاطية ، وانتصر على صاحبها بحيرا ، ونشر الإسلام فيها ، وولى عليها أحد المسلمين ، وعهد إليه تعليم أهلها قواعد الدين . وفى سنة ٣٩٦ هـ قصد محمود مدينة الملتان نفسها ، وانتصر وهو فى طريقه اليها على أنندبال بن جيبال ، إذ لم يسمح له بالمرور من بلاده . ولما سمع أبو الفتوح داود صاحب الملتان ، وكان يدين بمذهب القرامطة ، بقدوم محمود الغزنوى إلى بلاده ، فر الى سرنديب ، فقضى محمود على مقاومة أهلها وافتتحها عَنوة ، وفرض عليهم الجزية (٣)

وفى سنة ٣٩٧ هـ أعلن محمود الغزنوى الحرب على ولد أنندبال ، الذى اعتنق الإسلام على يد محمود وتلقب بلقب نواسه شاه ، وحكم بلاده نيابة عنه ، ولكنه ارتد عن هذا الدين ، وشق عصا الطاعة ، فسار إليه محمود وانتصر عليه ، وضم بلاده إلى أملاكه .

وبينما كان محمود مشغولا بحرب إيلك خان ، الذى استولى على بلاد ماوراء النهر من يد السامانيين ، ثم حارب جيوش السامانيين على مقربة من بلخ ، وبحرب الغور على ماتقدم ، عقد ملوك الهند وأمراؤها حلفا لمقاومة محمود ، والدفاع عن بلادهم وعن دينهم . ولما عبر محمود نهر السند فى سنة ٣٩٨ هـ ، التقى فى ويهند الواقعة فى إقليم البنجاب بجيش جرار ، يتألف من قوات أبرهمن بال بن أنندبال وراجات أدجين Udjdjain وجواليار وكالنجار ودلهى وغيرها ، وكادوا يظفرون بالمسلمين . (٤) ويقول ابن الأثير (٥) : « وكادت الهند تظفر بالمسلمين ، ثم إن الله تعالى نصر عليهم ، فظفر بهم المسلمون ، فانهزموا على أعقابهم ، وأخذهم المسلمون بالسيف . وتبع يمين الدولة أثر برهمن بال ، حتى بلغ قمة بهيم نغر ، وهى قلعة على جبل عال . وكان الهند قد جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم ، فينقلون إليها أنواع الذخائر قرنا بعد قرن ، وأعلاق الجواهر ، وهم يعتقدون ذلك دينا وعبادة . فاجتمع فيها على طول الأزمان مالم يسمع بمثله ، فنازلهم يمين الدولة ، وحصرهم وقاتلهم . فلما رأى الهنود كثرة جمعه ، وحرصهم على القتال ، وزحفهم إليهم مرة بعد أخرى ، خافوا وجبنوا ، وطلبوا الأمان ، وفتحوا باب الحصن ، وملك المسلمون القلعة . وصعد يمين الدولة إليها فى خواص أصحابه وثقاته ، فأخذ من الجواهر مالا يحد ، ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية ، ومن الأوانى

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٦٤ .

(٢) انظر لفظ ملتان فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) Defrémery : Essai sur l'Histoire des Ismaéliens, p. 30.

(٤) Wolseley Haig, Encyclopaedia of Islam. Vol. III. p. 133.

(٥) جـ ٩ ص ٧٧ .

الذهبيات سبعمائة ألف وأربعمائة منا . وكان فيها بيت مملوء من فضة ، طوله ثلاثون ذراعا وعرضه خمسة عشر ذراعا ، إلى غير ذلك من الأمتعة . وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم ، ففرش تلك الجواهر فى صحن داره ، وكان قد اجتمع اليه رسل الملوك ، فأدخلهم اليه ، فرأوا مالم يسمعوا بمثله .

وكان من أثر انتصار محمود فى هذه الغزوة أن انتشر عقد هذا الحلف ، وزالت الثقة من نفوس هؤلاء الراجات ، ودفع أنندبال إلى محمود غرامة كبيرة ، وتعهد بأن يدفع إليه جزية سنوية ، كما تعهد بأن لا يقف فى طريقه إذا ما أراد المرور من بلاد البنجاب . أما داود صاحب بلاد الملتان ، فانه ارتد الى عقائد القرامطة ، فغزا محمود بلاده فى سنتى ٤٠٠ و ٤٠١ هـ ، واستولى على حاضرتها ، وقتل كثيراً من أهلها ، وقبض على داود ، وأرسله إلى بلاد الغور حيث قضى بقية حياته[١] .

وقد ذكر ابن الأثير[٢] وابن خلكان[٣] أن محمودا الغزنوى استولى على ناردين سنة ٤٠٤ هـ ، وهدم الصنم المعروف بسومنان ، وغنم غنائم كثيرة .

عزم محمود على امتلاك قشمير ، ولكنه لم يوفق فى حملاته العديدة التى قام بها فى سنى ٤٠٤ و٤٠٥ و٤٠٦ هـ ، وفقد كثيراً من جنده ، وغرق كثير منهم بسبب فيضان بعض الأنهار[٤] .

على أن محمودا ، الذى أقسم على غزو بلاد الهند فى كل سنة ، انشغل فى سنه ٤٠٧ هـ بضم بلاد خوارزم على أثر مقتل أبى العباس خوارزم شاه مأمون ، الذى تزوج من أخت محمود ، واعترف بسلطانه ، وأراد أن يخطب له على منابر بلاده ، فقتله بعض قواده ، وأجلسوا ابنه مكانه . فقصد محمود هذه البلاد ، واستولى عليها ، وأنزل العقاب بالثوار ، وولى عليها نائباً من قبله ، ثم تفرغ بعد ذلك لبلاد قشير ، « وكان قد استولى على بلاد الهند ما بينه وبين قشمير »[٥] .

لذلك نراه يتأهب لشن الغارة على بلاد الهند ويسير من غزنة سيراً متواصلا مدة ثلاثة أشهر ، ثم يعبر نهرى سيحون وجيلوم ، فيخضع له ملوك هذه الجهات ، ثم يستمر فى سيره حتى يصل الى قشمير ، فيخضع له صاحبها ، ويسلم على يديه . ويقول ابن الأثير[٦] إن راجا برن Baran ، ويدعى هودب[٧] ، « نظر من أعلى حصنه ، فرأى من العساكر ما هاله ورعبه ، وعلم أنه لا ينجيه إلا

---

(١) Wolseley Haig: Encyclopaedia of Islam, Vol. II. p. 133.

(٢) ج ٩ ص ٩٠ — ٩١ (٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٥

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٩١ — ٩٦ (٥) المصدر نفسه ج ٩ ص ٩٨

(٦) ج ٩ ص ٩٨ — ٩٩

(٧) ذكر سير توماس أرنولد فى كتابه : Preaching of Islam, pp. 256-7. أن هردتا Hardatta (الذى يسميه ابن الأثير هودب) زعيم بولند شهر Buland shahr أو يران ، وهو الاسم القديم ، لما سمع بنبأ وصول جيوش محمود إلى بلاده سقط فى يده ، وأخذ الفزع من نفسه كل مأخذ ، وخشى على حياته من عقاب الله ، ولم ير بدا من اعتناق الاسلام ، إذ رأى أن هذا الدين يحوطه سياج متين من قوة الله =

الإسلام ، فخرج فى نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص ، طلبا للخلاص ، فقبله يمين الدولة ، وسار عنه الى قلعة كلجند Kulcand[١] ، وكان من أعيان الهند وشياطينهم ، وكان على طريقه غياض ملتفة ، لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة . فسير كلجند عساكره وفيوله إلى أطراف تلك الغياض، يمنعون من سلوكها ؛ فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم ، وسلك طريقاً مختصرة إلى الحصن ، فلم يشعروا به إلا وهو معهم ، فقاتله قتالا شديداً ، فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف ، فانهزموا ، وأخذهم السيف من خلفهم . . . وعمد كلجند الى زوجته فقتلها ، ثم قتل نفسه بعدها ، وغنم المسلمون أمواله ، وملكوا حصونه . ثم سار نحو مُتَعَبَّد لهم[٢]... وهو من أحصن الأبنية على نهر ، ولهم به من الأصنام كثير ، منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر ، مرصعة بالجواهر ، وكان فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفاً وثلثمائة مثقال ، وكان بها من الأصنام المصوغة من النُّقرة نحو مائتى صنم ؛ فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه ، وأحرق الباقى . وسار نحو كنوج Kannawdj[٣]. وصاحبها راجبال Rádjyapála ، فوصل إليها فى شعبان ، فرأى صاحبها قد فارقها ، وعبر الماء المسمى كنك[٤]

...فأخذها يمين الدولة ، وأخذ قلاعها وأعمالها ، وهى سبع على الماء المذكور . وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم . . . ثم سار إلى قلعة البراهمة[٥]، فقاتلوه وثبتوا . فلما عضهم السلاح ، علموا أنهم لا طاقة لهم ، فاستسلموا للسيف وقتلوا ، ولم ينج منهم إلا الشريد . ثم سار نحو قلعة آسى[٦]، (وهى على نهر الجنج أيضاً) وصاحبها جندبال ، فلما قاربها هرب جندبال ، وأخذ يمين الدولة حصنه وما فيه ، ثم سار الى قلعة شروة Sharwa ، وصاحبها جند راى[٧] . فلما قاربه نقل ماله وفيوله نحو جبال هناك منيعة يحتمى بها ، وعُمِّى خبره فلم يدر أين هو ، فنازل يمين الدولة حصنه ، وافتتحه وغنم ما فيه ، وسار فى طلب جند راى جريدة ، وقد بلغه خبره ، فلحق به فى آخر شعبان ، فقتل أكثر جند راى ، وأسر كثيرا منهم وغنم ما معه من مال وفيلة ، وهرب جند راى فى نفر من أصحابه فنجا . وكان السبى فى هذه الغزوة كثيرا ، حتى إن أحدهم كان يباع بأقل من عشرة دراهم . ثم عاد إلى غزنة ظافرا . ولما عاد من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة ، فبنى بناء لم يسع بمثله ، ووسع فيه . . . وأنفق ما غنمه فى هذه الغزاة فى بنائه » .

= سبحانه وتعالى . وسرعان ماتقدم على رأس عشرة آلاف من رجاله ، وأعلنوا للفاتحين رغبتهم فى التحول عن دينهم القديم إلى الاسلام ومناصبة الكفار العداء .

(١) هو راجا مهبان Mahaban .

(٢) يقصد ولسلى هيج أن هذا البيت فى مدينة مثورا Mathùra أو بندرابان Bindràban .

(٣) وكان يحميها سبعة حصون على نهر الجنج (٤) يعنى نهر الجنج .

(٥) ويسمى مجهاون Mudjhàwan . (٦) ذكرها ولسلى هيج أسنى Asni .

(٧) راى هو راجا حسب تسمية ابن الأثير الذى يقول (جـ ٩ ص ١١٥) إن « راى هو لقب الملك كقيصر وكسرى . ولا يزال هذا اللقب إلى الآن شائعا فى بلاد الهند » .

وقد حز فى نفس ملوك الهند ما أحرزه محمود الغزنوى من نصر مؤزر ، وما أبداه بعضهم من تخاذل ، فسار نندا ، راجا كالنجار Kàlindjàr وراجا جواليار Gwaliyar إلى راجبال راجا كنوج وحارباه ، لتركه حاضرة بلاده ، وقتلاه . فانضم الى نندا كثير من ملوك الهند الخاضعين لنفوذ محمود الغزنوى ، وهددوا سلطانه فى هذه البلاد . فلم ير بدا من العودة الى الهند والقضاء على هذا الخطر قبل استفحاله ، وقضى فى طريقه على جماعة الأفغان ، الذين كانوا يقطنون المناطق الجبلية بين غزنة والهند ، ويقطعون الطريق ، ويعوقون مواصلات محمود إلى هذه البلاد . ولما تم له ما أراد ، قصد نندا وحلفاءه وقضى عليهم فى بلاد البنجاب ، وغنم منهم غنائم كثيرة (سنة ٤٠٩ هـ = ١٠١٩)[١].

وهكذا استمرت غزوات يمين الدولة محمود بن سبكتكين فى بلاد الهند سنة بعد أخرى ، حتى توج انتصاراته الباهرة فى غزوته التى شنها عليها باسترداد ناردين ، وهدم صنم سومنات ، الذى كان الهنود يعتبرونه الملاذ الذى يحميهم من غزوات الغزنويين . فكان كلما فتح يمين الدولة من الهند فتحا ، وكسر صنما ، يقول الهنود ، إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات (سومنان على الأصح) ، ولو كان راضيا عنها لأهلك من قصدها بسوء . فلما بلغ ذلك يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه ، ظنا منه أن الهنود إذا فقدوه ، ورأى كذب أدعائهم الباطل ، دخلوا فى الإسلام »[٢]. فاستعد لهذه الغزوة أتم استعداد ، واخترق صحراء الهند (صحراء ثار) واستولى على أجمر Adjmar وانهلوارة Anhilwara ، فتركها صاحبها بهيم Bhim ، ووصل الى سمنان فى ١٦ ذى القعدة سنة ٤١٦ هـ (يناير ١٠٢٦ م) ، فرأى حصنا منيعا ، دافع عنه أهله أشد دفاع . ثم علم أن أمراء جوچرات Gudjaràt الذين فروا قبل قدومه ، قد لموا شملهم للذود عن معبودهم ، وساروا نحو المدينة ، فترك بعض رجاله يحاصرون الهند ، واتجه ببقية جيشه صوب جيوش هؤلاء الأمراء ، وانتصر عليهم بعد أن كادت تحل به الهزيمة ، فولوا الأدبار ، واستطاع بعد ذلك أن يستولى على هذا الصنم المشهور . وقد سر محمود الغزنوى بهذا النصر المؤزر ، وأرسل إلى الخليفة يعلنه بما فتح الله على المسلمين فى الهند . ويحسن بنا أن ننقل ما أورده ابن خلكان[٣] فى هذا الصدد :

« وكتب الى الديوان العزيز ببغداد كتابا يذكر فيه ما فتح الله تعالى على يديه من بلاد ، وأنه كسر الصنم المعروف بسومنان ، وذكر فى كتابه أن هذا الصنم عند الهنود يحيى ويميت ، ويفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وأنه إذا شاء أبرأ من جميع العلل . وربما كان يتفق لشقوتهم إبلال عليل يقصده ، فيوافقه طيب الهواء ، وكثرة الحركة ، فيزيدون به افتتاناً ، ويقصدونه من أقاصى البلاد ، رجالا وركبانا . ومن لم يصادف منهم انتعاشاً احتج بالذنب ، وقال إنه لم يخلص له الطاعة ، ولم يستحق منه الإجابة . ويزعمون أن الأرواح إذا فارقت الأجسام ، اجتمعت لديه على مذهب أهل

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١١٥ — ١١٦ (٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١١٨

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٤ — ٨٥

التناسخ ، فينشئها فيمن يشاء ، وإن مَدّ البحر وجزره عبادة له على قدر طاقته . وكانوا بحكم هذا الاعتقاد يحجونه من كل صقع بعيد ، ويأتون من كل فج عميق ، ويتحفونه بكل مال نفيس . ولم يبق فى بلاد السند والهند على تباعد أقطارها ، وتفاوت أديانها ملك ولا سوقة إلا تقرّب إلى هذا الصنم بما عز عليه من أمواله وذخائره ، حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية مشهورة فى تلك البقاع ، وامتلأت خزائنه من أصناف الأموال . وفى خدمته من البراهمة ألف رجل يخدمونه ، وثلثمائة رجل يحلقون رءوس حجيجه ولحاهم عند الورود عليه ، وثلثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون عند بابه ، ويجرى من مال الأوقاف المرصدة له لكل طائفة من هؤلاء رزق معلوم . وكان بين المسلمين وبين القلعة التى فيها الصنم مسيرة شهر فى مفازة موصوفة بقلة المياه ، وصعوبة المسالك ، واستيلاء الرمل على طرقها . فسار اليها السلطان محمود فى ثلاثين ألف فارس جريدة مختارة من بين عدد كثير ، وأنفق عليهم من الأموال مالا يحصى . فلما وصلوا إلى القلعة وجدوها حصنا منيعا ، وفتحوها فى ثلاثة أيام ، ودخلوا بيت الصنم وحوله من الأصنام الذهب المرصع بأصناف الجوهر عدة كبيرة محيطة بعرشه ، ويزعمون أنها الملائكة . وأحرق المسلمون الصنم المذكور ، فوجدوا فى أذنه نيفا وثلاثين حلقة ، فسألهم محمود عن معنى ذلك ، فقالوا : كل حلقة عبادة ألف سنة . وكانوا يقولون بقدم العالم ، ويزعمون أن هذا الصنم يعبد أكثر من ثلاثين ألف سنة ، وكلما عبدوه ألف سنة علقوا فى أذنه حلقة » .

وقد أعجب محمود بجمال إقليم جوجرات وحسن مناخه ، حتى إنه فكر فى اتخاذ انهلوارا حاضرة له ، واستخلاف ابنه مسعود فى حكم غزنة ، لولا أن قواده أشاروا عليه بالعدول عن هذا الرأى ، وعاد إلى غزنة محملا بالغنائم . وكانت آخر غزوات محمود الغزنوى لبلاد الهند فى سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) لتأديب الثوار الذين كانوا قد اعترضوه فى أثناء عودته إلى غزنة ، وأعد لهذه الغزوة أسطولا صغيرا ، وأحل الهزيمة بالجات Djats فى نهر السند (١)

ولم يفتر محمود الغزنوى عن توجيه حملاته إلى بلاد الهند طوال عهده ، حتى إننا نرى نائبه نيال تكين فى هذه البلاد يستولى فى سنة ٤٢١ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها محمود ، على نرسى التى تعد من أعظم مدن الهند فى ذلك الوقت .

يقول ولسلى هيج (٢) : « يمكننا إلى حد ما أن نعتبر محمودا (الغزنوى) سلطانا هنديا خالصا فقد فتح فى خريف حياته إقليم البنجاب ، ونشر الأسلام فى ربوع الهند ، وافتتح طريقا سلكه بعده كثيرون ، وقنع خلفاؤه ، بعد أن جردوا من أملاكهم فى فارس وأفغانستان وبلاد ماوراء النهر ، بحكم إقليم البنجاب ، وكونوا أسرة هندية خالصة » .

---

(١) W. Haig : Encyclopaedia of Islam, Vol. II. p. 134

(٢) Cambridge History of India (Cambridge, 1928) Vol. III, pp. 26—7

ويقول ستانلى لينپول (١) « إن حملات الغزنويين فى بلاد الهند ، واتخاذهم لاهور مقرا لهم ، يمكن اعتباره بدء حكم المسلمين الحقيقى فى هذه البلاد . فقد مهدت الدولة الغزنويه فى لاهور السبيل أمام محمد بن سام الغورى (٢) وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهى ، والذى نشروا نفوذ المسلمين فى كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية (٣)

وقد بلغ محمود الغزنوى فى فتوحه « إلى حيث لم تبلغه فى الإسلام راية ، ولم تتل به قط سورة ولا آية ، فرحض عنها أجناس الشرك ، وبنى بهـا مساجد وجوامع » (٤) ، وأقام بدلا عن بيوت الأصنام ، مساجد الاسلام ، وعن مشاهد البهتان ، معاهد التوحيد والإيمان ؛ فصارت الأطفال تهدد فى بطالاتها إقدامه ، وتفزع باقبال ألويته وأعلامه ، وظل أندادهم وجيبالهم ، وكماتهم وأبطالهم كما قال الأشجع السلمى :

وعلى عدوك يابن عم محمـــد رصدان : ضوء الصبح والاظلام
فاذا تنبـــه رُعتَه وإذا هدا سَلت عليه سيوفكَ الأحلام (٥)

وقد أطنب العتبى (٦) فى سجايا محمود الغزنوى ، وأشاد باتساع رقعة مملكته فى هذه العبارة ، فقال :

« إن راية الاسلام لم تظل على سلطان أحسن دينا ، وأصدق يقينا ، وأحسن علما ، وأوقع حلما ، وأسد سيرة ، وأخلص سريرة ، وأتم وفاء وأعم سخاء ، وأوفر حِبَاء ، وأغنى غنَاء ، وأعظم قدرا وأفخم ذكرا ، وأمد باعا ، وأشد امتناعا ، وأجل جَلالة ، وأكمل عدة وآلة ، وأرفع ملكا وسلطانا ، وأطوع أنصارا وأعوانا ، وأردع سيفا وسِنانا ؛ وأحمى للإسلام وذويه ، وأنفى للشرك ومنتحليه ، وأعدى للباطل ومن يليه ، اكتسابا ووراثة وطباعا واستفادة ، من الأمير السيد ، الملك المؤيد ، يمين الدولة ، وأمين الملة ، أبى القاسم محمود بن ناصر الدين ، أبى منصور سُبكتين : ملك الشرق بجنبيه ، والصدر من العالم ويديه ، لانتظام الإقليم الرابع وما يليه من ثالث الأقاليم وخامسها (٧)

---

(١) The Muhammadan Dynasties, p. 284.

(٢) حكمت الدولة الغورية بلاد أفغانستان وهندستان من سنة ٥٤٣ (١١٤٨ م) إلى سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) .

(٣) Ishwari Prasad : Inde du VIIe au XVIIe Siècle; p. 84 et suiv. انظر حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى الهند : بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . مايو ١٩٤٤ ص ٧

(٤) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٥

(٥) العتبى : تاريخ اليمينى ج ١ ص ٣٨ — ٣٩

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٠ — ٣٤

(٧) أراد بالاقليم الرابع بعضه وهو خراسان ، لأنها من أشهر كور هذا الاقليم ، وأراد بالاقليم الثالث الذى منه قندهار وكابل وكثير من مدن بلاد الهند . والاقليم الخامس هو ما يلى الاقليم الرابع من ناحية الشمال ، ويراد به ما تملكه السلطان محمود الغزنوى من بلاد الترك وخوارزم وغيرها . ولا يبعد أن يكون =

فى حوزة ملكه وحصول انتظام ممالكه الفسيحة ، وولاياتها العريضة فى قبضة ملكه ، ومصير أمرائها وذوى الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته وجبايته ، واستدرائهم من آفات الزمان بظل ولايته ورعايته ، وإذعان ملوك الأرض على بعدهم لعزته ، وارتياعهم من فائض هيبته ، واحتراسهم على تقاذف الديار وتحاجز الأنجاد والأغوار من فاجىء ركضته ، واستخفاء الهند والروم تحت جيوبها عند ذكره ، واقشعرارهم لهب الرياح من أرضه وقد كان أدام الله دولته منذ لفظه المهد وجفاه الرضاع ، وانحلت عن لسانه عقدة الكلام ، واستغنى عن الإشارة بالأفهام ، مشغول اللسان بالذكر والقرآن ، مشغول النفس بالسيف والسنان ، ممدود الهمة الى معالى الأمور ، معقود الأمنية بسياسة الجمهور ، لعبه مع الأتراب جد ، وجده مستكد ، يألم لما لا يعلم حتى يقتله خبرا ، ويحزن لما يحزن حتى يدمثه قسرا وقهرا » .

* * *

كان محمود الغزنوى — كما وصفه ابن الأثير (١) — عاقلا دينا(٢) خيرا ، عنده علم ومعرفة ، له كثير من الكتب فى الفنون . وقصده العلماء من أقطار البلاد ، وكان يكرمهم ، ويقبل عليهم ، ويعظمهم ، ويحسن إليهم . وكان عادلا كثير الإحسان إلى رعيته ، والرفق بهم ، كثير الغزوات ، ملازما للجهاد . وفتوحه مشهورة مذكورة ... وفيه ما يستدل به على بذل نفسه لله تعالى ، واهتمامه بالجهاد . ولم يكن فيه ما يعاب ، إلا أنه كان يتوصل الى أخذ الأموال بكل طريق (٣) ... وكان رَبْعَةً مليح اللون حسن الوجه ، صغير العينين ، أحمر الشعر » .

وقد نقل أبو نصر العتبى (٤) عن بديع الزمان الهَمَذانى (٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م) أبياتا يصف فيها ازدهار الدولة الغزنوية فى عهد يمين الدولة محمود الغزنوى وتحول السيادة والنفوذ من العنصر الفارسى الى العنصر التركى بقضاء محمود الغزنوى على السامانيين فقال :

تعالى الله ماشاء وزاد الله إيمانى
أأفريدون فى التاج أم الإسكندر الثانى

= العتبى قد أراد بالصدر من العالم الاقليم الرابع ، لأنه يقع بالنسبة إلى الأقاليم السبعة وسط ، وهو كالصدر من الانسان ، وما يليه من الاقليم الثالث والخامس كاليدين .

انظر المنينى : شرح اليمينى المسمى بالفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبى ص ٣١ — ٣٢ .

(١) جـ ٩ ص ١٥٠ — ١٥١ .

(٢) ذكر ابن خلكان (جـ ٢ ص ٨٦) أن محمودا الغزنوى كان مولعا بعلم الحديث ، وقد رأى أن أكثر هذه الأحاديث موافق لمذهب الشافعى ، ولذلك صار إليه محمود ، وترك مذهب أبى حنيفة .

(٣) ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٥٠ — ١٥١) أن محمودا قبض على وزيره أبى القاسم أحمد ابن الحسن الميمندى فى سنة ٤١٢ هـ شرها فى ماله ، « وأخذ منه لما قبض عليه مالا وأعراضا بقيمة خمسة آلاف درهم » . وذكر أيضا أنه « بلغه أن إنسانا من نيسابور كثير المال عظيم الغنى ، فأحضره إلى غزنة وقال له : بلغنا أنك قرمطى ، فقال : لست بقرمطى ، ولى مال يؤخذ منه ما يراد ، وأعفى من هذا الاسم ، فأخذ منه مالا ، وكتب معه كتابا بصحة اعتقاده » .

(٤) تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٣٨٤ — ٣٨٦ .

أم الرجعة قد عادت إلينا بسليمان ؟
أظلّت شمس محمود على أنجم سامان
وأمسى آل بَهْرام عبيدا لابن خاقان
إذا ما ركب الفيل لحرب أو لميدان
رأت عيناك سُلطانا على منكب شيطان
فمن واسطة الهند إلى ساحة جُرجان
ومن قاصية السِّند إلى أقصى خُراسان
فيوما رُسل الشاه ويوما رُسل الخان
على مقتبَل العمر وفى مفتتح الشان
فما يعزُب بالمعزب عن طاعتك اثنان
لك السرح[1] إذا شئت على كاهل كَيْوان
أيا والىَ بغداد وياصاحب غُمْدان
تأمل مائتى فيل على سبعة أركان
يقلبن أساطين ويلعبن بثُعبان
عليهن تجافيف يشهرْن بألوان
ويأجوج ومأجوج من الجند تموجان

مسعود الأول (٤٢١ — ٤٣٢ هـ)

لما حضرت محمودا الغزنوى الوفاة ، أوصى إلى ابنه محمد نائبه ببلخ بالحكم من بعده ، ولقبه جلال الدولة ، ولم يوص لابنه الأكبر مسعود ، لإيقاع الوشاة به عند أبيه . ووصل محمد إلى غزنة بعد موت أبيه بأربعين يوما ، وخلع على قواده وعساكره فأطاعوه .

أما مسعود فقد كان شأنه مع أخيه محمد شأن أبيه محمود مع أخيه إسماعيل بن سبكتكين . فان مسعودا لما بلغه خبر وفاة أبيه وهو بأصبهان ، سار إلى خراسان ، وكتب إلى أخيه يطلب إقراره على البلاد التى كان قد فتحها ، وهى بعض بلاد طبرستان والجبل وأصبهان ، ووعد بتقديم اسم أخيه فى الخطبة على اسمه . ولكن محمدا لم يجب أخاه إلى طلبه ، وانضم بعض جنده إلى مسعود ، لكبر سنه وشجاعته وقوة بأسه ، وثار بعضهم الآخر عليه ، وقبضوا عليه وحبسوه وسملوا عينيه ، لأنه كان مشغولا بالشرب واللعب عن تدبير المملكة ، والنظر فى أحوال الجند والرعايا ، وهتفوا بأخيه مسعود سلطانا عليهم ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٤٢١ هـ ، أى بعد اعتلائه السلطنة بخمسة شهور[2] ،

---

(١) يريد أن حكمه لا يعزب عنه حتى النجوم فى مسارحها .
(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٥٠ .

ولقبه الخليفة القادر « ناصر دين الله ، وحافظ عباد الله ، وظهير خليفة الله[١] ، وسيد الملوك والسلاطين »[٢].

وفى سنة ٤٠٦ هـ ولى محمود ابنه مسعودا العهد من بعده ، ثم ولاه هراة . وفى سنة ٤١١ هـ عهد اليه بمحاربة الغور ، فأبلى بلاء حسنا ، وأخضع الجزء الشمالى الغربى من هذه البلاد . ولكن أباه لم يلبث أن غضب عليه وسجنه فى المولتان ، ثم عفا عنه ، وقلده ولاية هراة ثانية . ولما فتحت بلاد الرى فى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) وزالت عنها سيادة البويهيين من أبناء ركن الدولة ، وليها مسعود الذى ضم همذان وأصبهان وأزال سلطان البويهيين منهما .

عمل مسعود على إقرار نفوذه فى بلاد المشرق ، فاستولى على مكران (سنة ٤٢٢ هـ) ، ثم على كرمان التى لم تلبث أن خرجت عن طاعته ؛ ثم سار إلى خراسان لفتح بلاد العراق ، فاتخذ أحمد بن ينال تكين نائب الغزنويين فى لاهور من ذلك فرصة للاستقلال بهذه البلاد ، واضطر مسعود إلى العودة إلى غزنة ، وولى علاء الدولة بن كاكويه ، وكان بنو بويه قد ولوه أصبهان فطلب من مسعود إقراره عليها بجزية سنوية على هذه المدينة ، وأقر دارا بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير على جرجان وطبرستان ، وأرسل أبا سهل الحمدونى لإقرار الأمور فى الرى . « وسار (مسعود) الى الهند وفتح قلعة سرستى الجبلية فى جنوبى قشمير ، وقد حاول أبوه محمود فتحها من قبل فلم يوفق ، وأرغم نائبه أحمد بن ينال تكين ، على الارتداد إلى نهر السند ، حيث غرق (سنة ٤٢٦ هـ) ، ثم عاد إلى هذه البلاد فى السنة التالية ، واستولى على بعض قلاعها مثل هانسى Hánsi وسونيبات Sonipat ، وخلف ابنه مجدودا على بلاد البنجاب[٣].

ولما قضى مسعود على الصعوبة التى قامت فى وجهه فى الهند ، اعترضته صعوبة أخرى فى خراسان ، حيث نازعه السلطة فيها قوتان خطيرتان ، هما الغز والسلاجقة . أما الغز فقد أجلاهم عن خراسان بعد حروب دامت زهاء سنتين (٤٢٩ — ٤٣١هـ) ، وأما السلاجقة الذين تفاقم شرهم فى الوقت الذى قامت فيه الاضطرابات بعد وفاة محمود الغزنوى ، فقد نهبوا هراة فى سنة ٤٢٢هـ (١٠٣١م) ، ولكنهم ، على الرغم من ارتدادهم إلى جبال بلخ بعد أن كابدوا خسائر فادحة ، لم يعدلوا عن نشاطهم فى إقلاق الغزنويين ، وبدءوا منذ سنة ٤٢٥ هـ يغيرون على خراسان إغارات منظمة . وفى سنة ٤٢٦ هـ حاربهم مسعود وهزمهم هزيمة منكرة . وبينما كان جند الغزنويين مشغولين بجمع الأسلاب والغنائم من معسكر أعدائهم ، إذ خرجت جماعة من السلاجقة بقيادة داود من الجبال ، وانقضت عليهم ، وأمعنوا فى قتلهم . ولم يستطع مسعود التفرغ للقضاء على السلاجقة ، لشغله بغزو الهند ، مما أدى إلى ازدياد قوتهم وطمعهم فى أملاك الغزنويين . وفى سنة ٤٢٨ هـ استولى السلاجقة على بلخ ، ولكنهم ارتدوا إلى مرو عند اقتراب السلطان مسعود منها ، وطلبوا الصلح ، فرحب هذا السلطان بذلك الطلب . ولما شرع فى العودة إلى غزنة ، انقض السلاجقة على مؤخرة جيشه وقتلوا كثيرا من جنده ، وعاد مسعود

---

(١) Encyclopaedia of Islam, vol. III. p. 400

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٨١ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤ .

وانتقم منهم شر انتقام ، لخيانتهم إياه . على أن ذلك لم يضعف قوة السلاجقة المعنوية ، فضاعفوا جهدهم ، واستولوا على مرو ونيسابور وسرخس (سنة ٤٢٩ هـ) ، بل على معظم بلاد خراسان سوى بلخ . ولم ير مسعود بدا من قتالهم بنفسه ، فعاد من غزنة ، وانتصر على طغرل فى شهر شعبان سنة ٤٣٠ هـ ، وطرد السلاجقة والغز من خراسان . ولكن السلاجقة لم يلبثوا أن هزموا مسعودا فى شهر رمضان سنة ٤٣١ هـ هزيمة منكرة ، وأفلت من الأسر . وكانت هذه الهزيمة بعيدة الأثر فى نفس مسعود ، حتى إنه عزم على الانسحاب إلى بلاد الهند ، حيث يستطيع أن يجمع جيشا جرارا يحارب به السلاجقة(١) . وبعد أن عبر نهر السند بقليل ، ثار مواليه ، وقبضوا عليه ، ونهبوا خزائنه ، وانضموا الى سائر الجند ، وأقاموا أخاه محمدا (وكان بصحبته مسمولا بعد أن قبض عليه) ، وسلموا عليه بالإمارة ، فامتنع من قبول ذلك ، فتهددوه وأكرهوه ، فأجاب . وبقى مسعود فيمن معه من المعسكر ، وحفظ نفسه . وقد انتهت هذه الحروب الأهلية التى قامت بين جند مسعود وأنصار أخيه محمد ، بقتل مسعود . وفى ذلك يقول ابن الأثير (٢) :

« فالتقى الجمعان منتصف ربيع الآخر (سنة ٤٣٢ هـ) ، فاقتتلوا ، وعظم الخطب على الطائفتين . ثم انهزم عسكر مسعود ، وتحصن هو فى رباط ماريكلة ، فحصره أخوه ، فامتنع عليه ، فقالت له أمه : إن مكانك لا يعصمك ، ولأن تخرج إليهم بعهد خير من أن يأخذوك قهرا . فخرج إليهم ، فقبضوا عليه ، فقال لهم أخوه محمد : والله لا قابلتك على فعلك بى ، ولا عاملتك إلا بالجميل ، فانظر أين تريد أن تقيم حتى أحملك إليه ومعك أولادك وحرمك . فاختار قلعة كيكى ، فأنفذه إليها محفوظا ، وأمر بإكرامه وصيانته ، وأرسل مسعود إلى أخيه محمد يطلب منه مالا ينفقه ، فأنفذ له خمسمائة درهم ، فبكى مسعود وقال : كان بالأمس حكمى على ثلاثة آلاف حمل من الخزائن ، واليوم لا أملك الدرهم الفرد ، فأعطاه الرسول من ماله ألف دينار ، فقبلها . وكانت سبب سعادة الرسول ، لأنه لما ملك مودود بن مسعود ، بالغ فى الإحسان إليه . ثم إن محمدا فوض أمر دولته إلى ولده أحمد ، وكان فيه خبط وهوج ، فاتفق هو وابن عمه (الصواب عم أبيه) يوسف بن سبكتكين وابن على خويشاوند على قتل مسعود ، ليصفو الملك له ولوالده ، فدخل إلى أبيه ، فطلب خاتمه ليختم به بعض الخزائن ، فأعطاه ، فسار به إلى القلعة . وأعطوا الخاتم لمستحفظها ، وقالوا : معنا رسالة إلى مسعود ، فأدخلهم إليه ، فقتلوه . فلما علم محمد بذلك ساءه وشق عليه وأنكره . وقيل إن مسعودا لما حبس ، دخل عليه ولدا أخيه محمد ، واسم أحدهما عبد الرحمن ، والآخر عبد الرحيم ، فمد عبد الرحمن يده ، فأخذ القلنسوة من رأس عمه مسعود ، فمد عبد الرحيم يده وأخذ القلنسوة من أخيه ، وأنكر عليه ذلك وسبه ، وقبلها وتركها على رأس عمه ، فنجى ذلك عبد الرحيم من القتل والأسر لما ملك مودود بن مسعود . . . ثم إن محمدا أغراه ولده أحمد

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٧٠ — ١٧٢ و ١٨١ .

(٢) جـ ٩ ص ١٨١ .

ارجع Encyclopaedia of Islam, Vol. III. pp. 400—1 .

بقتل عمه مسعود . فأمر بذلك ، وأرسل إليه من قتله ، وألقاه فى بئر ، وسد رأسها . وقيل بل ألقى فى بئر حيا ، وسد رأسها فمات » .

وقد أطنب ابن الأثير (١) فى وصف مناقب مسعود ، واتساع رقعة سلطنته ، فقال :

« وكان السلطان مسعود شجاعا كريما ، ذا فضائل كثيرة ، محبا للعلماء ، كثير الإحسان إليهم ، والتقرب لهم . صنفوا له التصانيف الكثيرة فى فنون العلوم . وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحاجة ، تصدق مرة فى شهر رمضان بألف ألف درهم ، وأكثر الإدرارات والصلات ، وعمر كثيرا من المساجد فى ممالكه . وكانت صنائعه ظاهرة مشهورة ، تسير بها الركبان ، مع عفة عن أموال رعاياه . وأجاز الشعراء جوائز عظيمة : أعطى شاعرا على قصيدة ألف دينار ، وأعطى آخر بكل بيت ألف درهم . وكان يكتب خطاً حسنا . وكان ملكه عظيما فسيحا : ملك أصبهان والرى وهمذان وما يليها من البلاد ، وملك طبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم وكرمان وسجستان والسند والرخج وغزنة وبلاد الغور والهند ، وملك كثيرا منها ، وأطاعه أهل البر والبحر » .

مودود بن مسعود (٤٣٢ — ٤٤٠ هـ) :

لما قتل مسعود عاد أخوه محمد إلى غزنة ، وأرسل إلى ابن أخيه مودود بخراسان يتنصل من تبعة قتل أبيه ، فرد عليه بهذه العبارة التى تنم عن حزنه وعزمه على القصاص من قتلة أبيه ، فقال : « أطال الله بقاء الأمير القاسم (محمد بن محمود بن سبكتكين) ، ورزق ولده المعتوه أحمد عقلا يعيش به ، فقد ركب أمرا عظيما ، وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدى ، الذى لقبه أمير المؤمنين سيد الملوك والسلاطين . وستعلمون فى أى حتف تورطتم ، وأى شر تأبطتم ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

نُفلِّق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما »

سار مودود من خراسان قاصدا غزنة وحارب عمه محمدا — وكان قد عاد من الهند — بالقرب من دينور الواقعة على طريق كابل وبشاور ، وانتصر عليه ، ودخل غزنة وقتل أولاده جميعا إلا عبد الرحيم الذى غضب لقتل عمه ، كما قتل كل من رُمى بالاشتراك فى هذه المؤامرة . وبنى فى المكان الذى انتصر فيه على عمه قرية ورباطا ، سماها فتح آباذ ، ودخل غزنة فى شهر شعبان سنة ٤٣٢ هـ . وقد أثار انتصار مودود مخاوف الغز السلاجقة ، فثار أهالى البلاد التى خضعت لهم عليهم ، ودخلوا فى طاعة مودود الذى استقر أمره بغزنة ، ولم يعد يخشى أحدا إلا أخاه مجدودا ، وكان أبوه مسعود قد سيره الى الهند ، وولاه إقليم البنجاب فى سنة ٤٢٦ هـ كما تقدم ، فعصى أخاه مودودا ، واستقل بلاهور والمولتان ، وجهز جيشا سار به نحو غزنة ، ولكنه مات فى شهر ذى الحجة من سنة ٤٣٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٤١ م) بعد أن وصل إلى لاهور بثلاثة أيام (٢) . « وأطاعت البلاد بأسرها مودودا ، ورست

---

(١) ج ٩ ص ١٨٢ . (٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٨٢ .

قدمه ، وثبت ملكه . فلما سمعت الغز السلجوقية ذلك خافوه ، واستشعروا منه ؛ وراسله ملك الترك بما وراء النهر بالانقياد والمتابعة » (١)

وقد أصبح السلاجقة على مر الأيام خطرا يهدد الدولة الغزنوية ؛ ففى سنة ٤٣٥ هـ انتصر ألب أرسلان بن داود السلجوقى على جيش مودود الغزنوى فى خراسان . ومع ذلك فقد تمكنت جماعة من جيوش مودود من القضاء على جماعة من الغز بنواحى بست (٢).

ولم يقل اهتمام مودود بشئون الهند عن أسلافه فيها ؛ فقد ذكر ابن الأثير (٣) أن ثلاثة من ملوك الهند (٤) تحالفوا مع بعض راجاتها ، وحاصروا لاهور حاضرة الغزنويين فى هذه البلاد ، وأن مودودا أرسل جيشا كبيرا للقضاء على قوة الهنود وتقويض حلفهم ، فانهزم سخبال . «فاتفق أن بعض أولئك الملوك فارقهم وعاد إلى طاعة مودود ، فرحل الملكان الآخران إلى بلادهما ، فسارت العساكر الإسلامية إلى أحدهما ، ويعرف بدوبال هريانة ، فانهزم منهم وصعد إلى قلعة له منيعة هو وعساكره ، فاحتموا بها ، وكانوا خمسة آلاف فارس ، وسبعين ألف راجل . وحصرهم المسلمون وضيقوا عليهم ، وأكثروا القتل فيهم ؛ فطلب الهنود الأمان ، على تسليم الحصن . فامتنع المسلمون من إجابتهم إلى ذلك ، إلا بعد أن يضيفوا إليه باقى حصون ذلك الملك الذى لهم ، فحملهم الخوف وعدم الأقوات على إجابتهم إلى ماطلبوا ، وتسلموا الجميع . وغنم المسلمون الأموال ، وأطلقوا مافى الحصون من أسرى المسلمين ، وكانوا نحو خمسة آلاف نفر. فلما فرغوا من هذه الناحية ، قصدوا ولاية الملك الثانى ، واسمه تابت يالرى ، فتقدم إليهم ولقيهم ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، وانهزمت الهنود ، وأجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجريح . وأسر ضعفاؤهم ، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم . فلما رأى باقى الملوك من الهند مالقى هؤلاء ، أذعنوا بالطاعة ، وحملوا الأموال ، وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم ، فأجيبوا إلى ذلك » .

وكان من أثر هذا الانتصار أن استعاد الغزنويون هيبتهم المتزعزعة فى بلاد الهند الشمالية إلى حين .

وكان مودود يعمل على استرداد البلاد التى استولى عليها السلاجقة فى عهد أبيه ، فحاربهم فى سنة ٤٣٥ هـ كما تقدم ، وطلب إلى عمال الأقاليم مساعدته على تحقيق أغراضه ، ووعدهم باقرارهم على مايفتحونه من بلاد ، وغمرهم بالأموال الضخمة . ومن ثم نرى صاحب أصبهان ينشط لمساعدته ، لولا أن هلك كثير من جنده فى الصحراء ؛ كما نرى ملك الترك يسير إلى ترمذ ، ويطرد السلاجقة منها ، وتذهب طائفة من هؤلاء الترك إلى خوارزم . ويسير مودود من غزنة فى سنة ٤٤١ هـ لحرب السلاجقة ، ولكن المرض يتابه ، فيعود إلى حاضرة ملكه ، ويموت فى العشرين من رجب من هذه

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٩٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٩٣ — ١٩٤ .

(٤) ومنهم سخبال Sukhpal الذي تحالف مع نواسي شاه بن جيبال ملك ويهند Waihand وديبال هريانه Dipâl Haryàna .

السنة، وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، بعد أن ملك تسع سنوات وعشرة أشهر . وحال موت مودود المبكر دون القضاء على قوة السلاجقة ، فقد عرف بالشجاعة والإقدام ، وعمل على توطيد ملكه ، وإعادة مملكته الى ما كانت عليه فى عهد جده يمين الدولة محمود الغزنوى . (١)

عبد الرشيد وفروخ زاد (٤٤١ — ٤٥١ هـ)

تولى مسعود الثانى بعد وفاة أبيه مودود ، ولكنه لم يبق فى السلطنة سوى خمسة أيام ، ثم تقلد السلطنة بعده عمه أبو الحسن على بن مسعود الأول . وقد انتهز عبد الرشيد بن يمين الدولة محمود الغزنوى فرصة الاضطراب الذى ساد الدولة الغزنوية بعد موت مودود ، ودعا الجند إلى طاعته فأجابوه ، وساروا إلى غزنة ، ففر على بن مسعود ، واستقر الأمر له ، وتلقب عز الدولة ، وشمس دين الله ، وسيف الدولة ، وقيل إنه تلقب أيضا جمال الدولة (٢) .

وقد عمل عبد الرشيد على طرد السلاجقة من خراسان ، مستعينا فى ذلك بطغرل زوج أخت مودود وحاجبه ، الذى أرسله إلى هذه البلاد . ولما آنس طغرل من نفسه القوة قصد غزنة ، حتى أصبح على بعد ستة فراسخ منها ، وحاول خداع عبد الرشيد ، مدعياً بأن الجند تألبوا عليه وألحوا فى العودة للمطالبة بزيادة أرزاقهم . وعلى الرغم من اعتصام عبدالرشيد بقلعته فى غزنة ، قبض عليه طغرل وقتله (سنة ٤٤٤ هـ) ، واستولى على بلاده ، وتزوج ابنة مسعود الأول كرها .

ولكن عمل طغرل لم يرض بعض القواد ، كما أنه لم يرض نائب الغزنويين فى الهند ، برغم ما بذله طغرل من جهود فى إغرائه واستمالته إليه . واتصل هذا الوالى بوجوه القواد ، كما اتصل بزوجة طغرل ، وأنكر على هؤلاء إغضاءهم ، وقعودهم عن الأخذ بثأر عبد الرشيد . وبذلك أثار هذا الأمير حماسة بعض القواد ، فدخلوا على طغرل وقتلوه .

تولى فروخ زاد بعد قتل طغرل المغتصب لعرش الغزنويين ، واعتمد فى إدارة دولته على خرخيز الحاجب ، نائب الغزنويين فى الهند ، الذى كان له أثر كبير فى قتل طغرل وتنصيب فروخ زاد على العرش .

وكان أول ما قام به فروخ زاد ، القضاء على محاولة داود أخى طغرلبك السلجوقى صاحب خراسان الاستيلاء على غزنة ، وهزمه خرخيز ، وغنم ما كان معه . كما أعد فروخ شاه جيشاً كبيرا لطرد السلاجقة من خراسان ، وانتصر فى كثير من المواقع ، ثم جمع ألب أرسلان السلجوقى جيوشا كثيرة بقيادة أبيه الذى انتصر على الغزنويين (٣)

قضى فروخ فى السلطنة سبع سنين فى محاربة أعدائه ، وخاصة السلاجقة ، كما أنه لم يأمن جانب قواده ومماليكه . ويحدثنا ابن الأثير (٤) فى حوادث سنة ٤٥٠ هـ أن بعض قواده ومماليكه ثاروا

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٠٨ .
(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢٠٨ .
(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢١٧ — ٢١٨ .
(٤) المصدر نفسه جـ ١٠ ص ٢ .

عليه واتفقوا على قتله وهو فى الحمام ، ولكنه نجا بمساعدة بعض أنصاره . ويظهر أن هذه الحادثة قد أثرت فى حالته النفسية تأثيرا سيئا ، حتى إنه أخذ يكثر من ذكر الموت ، ويحتقر الحياة . ولم يعش بعد هذه الحادثة طويلا ، فمات فى شهر صفر سنة ٤٥١ هـ ، وتولى السلطنة من بعده أخوه إبراهيم ابن مسعود (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) الذى طالت سلطنته ، وعقد الصلح مع السلاجقة ، وفتح فى الهند كثيرا من القلاع التى امتنعت على أبيه مسعود الأول وجده يمين الدولة محمود الغزنوى من قبل .

وبعد ، فلما كان بحثنا مقصورا على العصر العباسى الثانى من عهد المتوكل الى أن استولى السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧هـ ، رأينا أن نترك إتمام الكلام على الغزنويين إلى الجزء الرابع من هذا الكتاب إن شاء الله .

على أنه ينبغى ألا نترك هذا الموضوع دون أن نبين ما امتازت به الدولة الغزنوية فى هذا العصر ، فنقول : إن سلاطين هذه الدولة كانوا سنيين متشددين ، ولذلك حاربوا أهل البدع والأهواء ، كالمعتزلة والجهمية والقرامطة وغيرهم ، كما كانوا يشجعون الفن والثقافة ، ويغدقون على الشعراء والكتاب والعلماء ، كأبى الفتح العتبى (+ ٤٢٨هـ = ١٠٣٦م) وأبى الريحان البيرونى (+ ٤٤١هـ) ، والفردوسى صاحب الشاهنامة . وكان بعضهم كمحمود الغزنوى كلفا بدراسة الحديث وغيره من علوم الدين . وقد عملوا أيضا على نشر الاسلام ، فأنفقوا حياتهم لفتح بلاد الغور والهند ، وهدموا الأصنام والمعابد . وكان لهذه الفتوح آثار بعيدة المدى ، فقد فتح الطريق الى الهند ، وتوغل المسلمون فيها ، وضموا بلاد البنجاب نهائيا ، وخضع أهالى جوجرات الذين قبلوا تنصيب الراجات عليهم من قبل الغزنويين . ونصب هؤلاء الغزنويون أنفسهم للقضاء على قوات السلاجقة فى خراسان ، والغور فى الأفغان ، وخانات الترك فى بلاد ماوراء النهر . كما استولوا على الرى وأصبهان وغيرهما من بنى بويه ، وضموا إليهم خوارزم وطبرستان وبلاد الجبل ، وامتدت بلادهم — كما رأينا — من لاهور إلى سمرقند وأصبهان(١) . «ويمثل ظهور الدولة الغزنوية — كما يقول الأستاذ فيليب حتى(٢) — أول انتصار للعنصر التركى فى صراعه مع العنصر الإيرانى على السيادة النهائية فى الإسلام . ومع ذلك فإن الدولة الغزنوية لاتختلف فى أساسها عن الدولة السامانية أو الدولة الصفارية . وإن هذه الدولة المفككة الأوصال إنما حافظت على كيانها بقوة السيف ؛ ولما تراخت هذه اليد التى كانت تقبض على هذا السيف ، لم يكن بد من أن تتداعى هذه الأجزاء التى كانت تتألف منها هذه الامبراطورية . وهذا ماحدث بعد موت محمود الغزنوى» .

وقد زالت الدوله الغزنوية على يد شهاب الدين الغورى سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦م) ، ومن ثم تداعى سلطان الغزنويين فى الهند وانقسمت إلى أسرات إسلامية مستقلة .

---

(١) Stanley Lane—Poole : Muhammadan Dynasties, p. 288.

(٢) Philip Hitti : History of the Arabs, p.465.

بنـــو بويه

(١) فى فارس

على بن بويه (٣٢٠ — ٣٣٨ هـ)

رأينا من قبل كيف ولى على بن بويه بلاد الكرج من قبل مرداويج بن زيار الديلمى ، وكيف أمر أخاه وشمكير بن زيار فى الرى بصرف أولاد بويه ، فصرفهم إلا على بن بويه ، لما رآه فيه من حسن التدبير ، وكيف ساعده أبو عبدالله محمد الملقب بالعميد والد أبى الفضل بن العميد على المسير إلى بلاد الكرج التى آل إليه حكمها (١) . ومع ذلك فقد عمل وشمكير على صرف عماد الدولة عن بلاد الكرج فقال له العميد : « إنه لا يرجع طوعا ، وربما قاتل من يقصده ويخرج عن طاعتنا ، فتركه » (٢).

على أن على بن بويه قد تحبّب إلى أهالى الكرج وأحسن إليهم ، وافتتح كثيرا من قلاع الخرمية واستولى على مافيها من الذخائر والأموال ، وأغدق على الأهلين ، فلهجت ألسنتهم بالثناء عليه ، وامتدحوا سيرته ، وأحبه الناس وقصدوه . ولكن الجو لم يصف له ، لموقف مرداويج العدائى منه ، وعزمه على طرده من بلاد الكرج ، وحنق بعض ولاته عليه . فقد أطلق مرداويج الأموال لجماعة « من قواده على ناحية الكرج ... فاستمالهم على بن بويه وأفضل عليهم حتى أوجبت الجماعة طاعته . فاتصل ذلك بمرداويج ، فأوحشه ذلك ، وندم على إخراج أولئك القواد الأكابر إليه ، وكاتبه بالمصير إليه ، وكاتب القواد بمثل ذلك . فدافعه وتعلل عليه ورفق به ، إلى أن أخذ العهود والمواثيق عليهم ، وعلم استيحاش الجماعة وخوفهم من غدر مرداويج وسطوته ، فحينئذ خرج بهم عن الكرج ، وجمع أكثر ماقدر عليه من المال ، واستأمن إليه شيرزاد أحد قواد الديلم فى أربعين رجلا . فقويت نفسه ، وعرض رجاله ، فكانوا ثلثمائة رجل وكسرا ، لكنهم أعيان ونُخب ، مستظهرين بالآلات والعدد . وتوجه إلى أصبهان ، وبها أبو الفتح بن ياقوت فى نحو عشرة آلاف ، وأبو على بن رُستم بلى الخراج ، فقدّم إليهما كتبا جميلة ، وعرّفهما أنه ينحاز إليهما داخلا فى طاعة السلطان ، فدافعاه عن ذلك . وكان أبو على بن رستم من أشد الناس كرها له وإنكارا لقدومه . واتفق موت أبى على بن رستم ، وبرز أبو الفتح بن ياقوت حتى صار من أصبهان على ثلاثة فراسخ . وكان فى أصحاب ابن ياقوت ديلم وجيل كثير ، مقدارهم ستمائة رجل ، وكانوا يسمعون عن فضل على بن بويه وعطائه وسعة صدره ، فاستأمنوا إليه ، وواقعه الوقعة ، وانهزم ابن ياقوت لما ضعف باستئمان هؤلاء ، ولما ظهر له من ثبات الديلم واضطراب أصحابه ، ومضى نحو فارس . وملك على بن بويه أصبهان فقوى شأنه وكبر فى عيون الناس ، لأنه هزم بمائتين من أصحابه ألوفا وألوفا من أصحاب السلطان ، وبلغ ذلك مرداويج فأقلقه » (٣).

---

(١) انظر ص ٩٩ . (٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ٩٢ .

(٣) مسكويه : كتاب تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

ولما احس مرداويج بن زيار ازدياد نفوذ على بن بويه ، وخشى أن يدخل معه فى حروب طويلة تنتهى بضياع بلاده ، لجأ إلى إعمال الحيلة معه ، فكتب إليه يستميله ، وطلب إليه أن يقوم ببذل الطاعة له ، على أن يمده بجيوش يفتح بها ماحوله من البلاد باسمه ، وأن يؤول حكمها إليه مع إقامة الخطبة لمرداويج على منابرها . ولكن مرداويج أرسل فى الوقت نفسه أخاه وشمكير على رأس جيش كثيف ، يفاجىء به على بن بويه فى أصبهان وهو مطمئن إلى وعوده . بيد أن عليا أدرك سوء نية مرداويج ، فرحل عن أصبهان التى احتلتها جيوش مرداويج ، واحتل هو أرجان ، التى تقع على بعد ستين فرسخا من كل من شيراز والأهواز ، وحصل منها على أموال طائلة . وقد خشى على بن بويه من ناحية كل من مرداويج بن زيار ، وياقوت الذى كان يلى بلاد فارس ، وابنه المظفر محمد بن ياقوت الذى كان يلى أصبهان ، ولكنه استطاع أن يدخل شيراز ٣٢٢ هـ .

وكانت الموقعة التى انتهت بفتح شيراز على يد أبى الحسن على بن بويه ، من المواقع البعيدة الأثر فى تاريخ البويهيين . ولاغرو فقد أظهر علىّ من المهارة الحربية والسياسية ما كفل له النصر والظفر بعدوه ، واستمال قلوب أعدائه وأنصاره نحوه . وفى ذلك يقول ابن الأثير (١) : « وكان من سعادته أن جماعة من أصحابه استأمنوا إلى ياقوت ، فحين رآهم ياقوت أمر بضرب رقابهم ، فايقن من مع ابن بويه أنهم لاأمان لهم عنده (يعنى ياقوتا) ، فقاتلوا قتال مستقتل . ثم إن ياقوتا قدم أمام أصحابه رجّالة كثيرة يقاتلون بقوادير النفط ، فانقلبت الريح فى وجوههم واشتدت . فلما ألقوا النار ، عادت النار عليهم ، فعلقت بوجوههم وثيابهم فاختلطوا ، وأكب عليهم أصحاب ابن بويه فقتلوا أكثر الرجّالة وخالطوا الفرسان فانهزموا ، فكانت الدائرة على ياقوت وأصحابه . فلما انهزم صعد على نشز مرتفع ونادى فى أصحابه : الرجعة ! فاجتمع إليه نحو أربعة آلاف فارس فقال لهم : اثبتوا فإن الديلم يشتغلون بالنهب ويتفرقون فتأخذهم ، فثبتوا معه . فلما رأى ابن بويه ثباتهم نهى أصحابه عن النهب وقال : إن عدوكم يرصدكم لتشتغلوا بالنهب فيعطف عليكم ويكون هلاكم ، فاتركوا هذا وافرغوا من المنهزمين ثم عودوا إليه ، ففعلوا ذلك . فلما رأى ياقوت أنهم على قصده ولى منهزما ، واتبعه أصحاب ابن بويه يقتلون ويأسرون ويغنمون الخيل والسلاح . وكان معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه فى ذلك اليوم من أحسن الناس أثرا ، وكان صبياً لم تنبت لحيته ، وكان عمره تسع عشرة سنة . ثم رجعوا إلى السواد فغنموا ، ووجدوا فى سواده برانس لبود عليها أذناب الثعالب ، ووجدوا قيودا وأغلالا ، فسألوا عنها ، فقال أصحاب ياقوت : إن هذه أعدت لكم لتجعل عليكم ويطاف بكم فى البلاد ، فأشار أصحاب ابن بويه أن يفعل بهم مثل ذلك ، فامتنع وقال إنه بغى ولؤم . . . ولقد لقى ياقوت بغيه ، ثم أحسن إلى الأسارى وأطلقهم وقال : هذه نعمة ، والشكر عليها واجب يقتضى المزيد ، وخيّر الأسارى بين المقام

---

(١) جـ ٨ ص ٩٤ — ٩٥ .

عنده واللحوق بياقوت ، فأختاروا المقام عنده ، فخلع عليهم وأحسن إليهم ، وسار من موضع الوقعة حتى نزل بشيراز ونادى فى الناس بالأمان ، وبث العدل ، وأقام لهم شحنة يمنع من ظلمهم ، واستولى على تلك البلاد » .

فانظر حسن معاملة على بن بويه لمن بيده من الأسارى مع قدرته عليهم ، تلك المعاملة التى تدل على سمو أخلاقه وتشبهه بالهداة المصلحين من قادة الأمم ، كما كان يفعل المسلمون الأولون فى حروبهم مع الأسارى.

ولما استقر نفوذ على بن بويه فى فارس ، كتب إلى الخليفة العباسى الراضى وإلى وزيره أبى على بن مقلة ، يعلن طاعته ويطلب إقراره على ما بيده من البلاد ، ويتعهد بأداء ألف ألف درهم فى كل سنة ، فأجيب إلى طلبه ، وأقر على ولاية فارس ، وأرسلت إليه الخلع . (١)

ومما يدل على حسن سياسة على بن بويه أنه ، على الرغم من انتصاره على ياقوت ، ودخوله شيراز ، واستقرار نفوذه فيها ، وإقرار الخليفة العباسى إياه على ولايتها ، رأى أن يكسب رضاء مرداويج ، فأقام الخطبة له ، وأرسل إليه كثيراً من الهدايا ، وبعث إليه بأخيه الحسن بن بويه رهينة ، فقلده أرجان . وقد اطمأن على بن بويه من ناحية مرداويج حين قتل سنة ٣٢٣هـ ، ولم يبق أمامه من صعاب إلا مناوأة ياقوت ، الذى استولى على الأهواز وحاربه بنواحى أرجان . ولكن النصر عقد لعلى بن بويه الذى أصبح يخشى بأسه ، والذى كان — كما يقول ابن خلكان (٢) سبب سعادة بنى بويه وانتشار صيتهم ، واستيلائهم على البلاد ، وامتلاكهم العراقين والأهواز ، وسياستهم أمور الرعية أحسن سياسة .

وفى سنة ٣٣٤هـ لقب الخليفة المستكفى على بن بويه عماد الدولة ، ولقب أخاه الحسن ركن الدولة ، ولقب أخاه أحمد معز الدولة ، ومن ثم أصبح بنو بويه أصحاب الأمر والنهى فى بغداد . (٣)

وكانت علاقة عماد الدولة على فى فارس بأخويه معز الدولة فى العراق وركن الدولة حسن فى الرى وهمذان وأصبهان ، تقوم على أساس متين من المودة والصفاء . فقد « كان معز الدولة أحمد بن بويه صاحب أمر الخلافة يومئذ ، يحب أخاه عماد الدولة ويحترمه ، ويكاتبه بالعبودية ، ويقبّل الأرض بين يديه إذا اجتمعا ، مع عظم سلطانه لكونه أكبر سنا » (٤)

يدلنا على صحة هذا القول ما رواه مسكويه (٥) عن أبى الحسن (محمد بن أحمد) الما فَرُّوخى « أنه كان مع معز الدولة ، وكان عماد الدولة ورد أرجان فالتقيا بها قال : فدعانى عماد الدولة وقال : بلغنى أنه حكى لأخى أنى وافيت إلى هذا الموضع لأرتجع منه بعض أعمال الأهواز ، وضرب بيده الى لحيته وقال : سوءة لها إن أنا تواضعت لهذه الحال ! من لى حتى أحتاج إلى استكثار البلاد وادخار المال له ؟ هذا وأخوه ابناى ، وإنما أريد الدنيا لهما ، والله ما وافيت إلا لأعقد ما بينهما من الرياسة حتى

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٩٥

(٢) كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٤ (٣) انظر ص ١٠١

(٤) أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٠٠

(٥) كتاب تجارب الأمم ج ٢ ص ١١٣

لايجرى خلاف إن حدثت بى حادثة . فإنى عليل ، كما ترى ، وأسأله أن يقدم الكبير على نفسه كما جرت العادة ، وبارك الله له فى بلاده ، ولو أراد بعض فارس لوهبتُه له . ولقد أصبحت وأمسيت ومامنای على الله إلا العافية وسلامتهما وإبقاؤهما ، فإنهما أخواى بالنسب وابنای بالتربية وصنيعتای بالولايات ، ومن لى غيرهما فيقدر مايقدر ؟ (قال) : فعدت إلى معز الدولة وحدثته بالحديث ، فبكى ، وحضر فى آخر النهار عند عماد الدولة ، فأسرف فى الشكر والدعاء ، وتذكر الكلام فبكى بحضرته حتى ضمه عماد الدولة الى نفسه » .

ويستدل كذلك على ماساد بين أولاد بنى بويه من وئام ووفاق ومودة ، بأن عماد الدولة عليا « لما أحس بالموت ، أنفذ إلى أخيه ركن الدولة يطلب إليه أن ينفذ إليه ابنه عضد الدولة فناخسرو ليجعله ولى عهده ووارث مملكته بفارس ، لأن عماد الدولة لم يكن له ولد ذكر . فأنفذ ركن الدولة ولده عضد الدولة ، فوصل فى حياة عمه قبل موته بسنة ، وسار فى جملة ثقات أصحاب ركن الدولة ، فخرج عماد الدولة إلى لقائه فى جميع عسكره ، وأجلسه فى داره على السرير ، ووقف هو بين يديه ، وأمر الناس بالسلام على عضد الدولة والانقياد له ، وكان يوما عظيما مشهودا . وكان فى قواد عماد الدولة جماعة من الأكابر يخافهم ويعرفهم بطلب الرياسة ، وكانوا يرون أنفسهم أكبر منه نفسا وبيتا ، وأحق بالتقدم ، وكان يداريهم . فلما جعل ولد أخيه فى الملك خافهم عليه فأفناهم بالقبض » .

وكان عماد الدولة كريما حليما عاقلا حسن السياسة لرعيته .

عضد الدولة (٣٣٨ — ٣٧٢ هـ)

لما مات عماد الدولة على بن بويه فى سنة ٣٣٨هـ ، تولى فارس بعده ابن أخيه عضد الدولة . ولكن نفوذه لم يستقر فى هذه البلاد ، بسبب سخط بعض قواد البويهيين عليه ، لولا تدخل عمه معز الدولة صاحب بلاد العراق ، وأبيه ركن الدولة صاحب الرى وهمذان وأصبهان(٢) . واستمرت العلاقات بين عضد الدولة وعمه معز الدولة على أساس من المودة والصفاء ، حتى مات معز الدولة فى سنة ٣٥٦ هـ ، وآلت السلطنة إلى ابنه عز الدولة بختيار الذى أثار سخط قواده وأكابر أسرته ، وانصرف الى اللهو ومعاشرة النساء ، ولم يعمل بوصية أبيه بطاعة عمه ركن الدولة واستشارته فى أموره الهامة ، والرجوع الى ابن عمه عضد الدولة .

وقد اتخذ عضد الدولة من سوء سياسة عز الدولة بختيار فرصة لبسط نفوذه على البلاد التابعة له . ففى سنة ٣٥٧ هـ قامت الثورة فى بلاد كرمان ، فاستولى عليها عضد الدولة وأقطعها ابنه أبا الفوارس ، الذى ولى بعده ولقب شرف الدولة (٣٧٢ — ٣٧٩ هـ)(٣) . كذلك اتخذ عضد الدولة من ضعف نفوذ عز الدولة بختيار فى عمان فرصة لإقامة الدعوة لنفسه فيها وبسط نفوذه عليها . فلما ثار الزنج على عامل عضد الدولة وقتلوه وولوا عليها رجلا منهم ، أرسل عضد الدولة جيشا من كرمان استرد عمان

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٧٣ — ١٧٤ (٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٧٤ .
(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٢١٠ — ٢١١

فى سنة ٣٦٢ هـ ، ثم قضى على الثوار نهائيا فى السنة التالية (١).

كان من أثر ازدياد العداء الذى قام بين بختيار من جهة ، وبين الخليفة وسبكتكين الحاجب (٢) من جهة أخرى ، وقيام الحرب بين الفريقين فى المحرم سنة ٣٦٤ هـ ، أن استنجد بختيار بابن عمه عضد الدولة ، الذى عمل على الرغم من مساعدته إياه ، على بسط نفوذه على بلاد العراق ؛ فأثار سخط الثوار عليه ، وانحاز الى الخليفة ، وقبض على زمام السلطة فى هذه البلاد . ولولا تدخل أبيه ركن الدولة ، وإنكاره عليه قبضه على ابن عمه بختيار ، وتهديده إياه بالمسير إليه إذا لم يرده الى ولايته ، لآلت السلطنة فى بلاد العراق وما يليها إلى عضد الدولة . وعلى الرغم من عدول عضد الدولة عن تحقيق سياسته فى امتلاك بلاد العراق وما يليها ، وإعادته عز الدولة بختيار إلى السلطنة ، أخذ عليه العهود والمواثيق على أن يكون نائبا عنه فى العراق ، ثم عاد الى فارس . ولكن عضد الدولة لم يقم بما قام به إلا نزولا على رغبة أبيه ركن الدولة ، بدليل أنه لما مات أبوه فى سنة ٣٦٦ هـ ، وعهد . . . إلى ولده عضد الدولة بالملك بعده ، وجعل لولده فخر الدولة أبى الحسن على همذان وأعمال الجبل ، ولولده مؤيد الدولة أصبهان وأعمالها ، وجعلهما فى هذه البلاد بحكم أخيهما عضد الدولة (٣) ، يمم عضد الدولة شطر العراق ، وحارب جيوش بختيار فى واسط ، وأحل به الهزيمة فى تكريت وأسره ، وبعث به الى بغداد ، حيث قتل ، وصفا له الجو فى العراق سنة ٣٦٧ هـ ، وخلع عليه الخليفة الطائع (٤) .

وبذلك امتد نفوذ عضد الدولة إلى العراق والأهواز وكرمان وفارس ، ثم إلى البلاد الممتدة بين همذان والرى التى استولى عليها من أخيه فخر الدولة فى سنة ٣٦٩ هـ ، وأناب عنه فى حكمها أخاه مؤيد الدولة .

شرف الدولة وصمصام الدولة (٥) (٣٧٢ — ٣٨٨ هـ)

رأينا أن عضد الدولة لما استولى على كرمان فى سنة ٣٥٧ هـ أقطعها ابنه شرف الدولة ، وأنه لما مات فى سنة ٣٧٢ هـ ، خرج شرف الدولة من كرمان إلى فارس ، وقبض على نصر بن هارون النصرانى وزير أبيه وقتله ، لأنه كان يسىء صحبته أيام أبيه ، وأصلح أمر البلاد ، وأطلق الشريف أبا الحسين محمد بن عمر العلوى ، والنقيب أبا أحمد الموسوى والد الشريف الرضى ، والقاضى أبا محمد بن معروف وأبا نصر خواشاذة ، وكان عضد الدولة حبسهم . وأظهر مشاقة أخيه صمصام الدولة وقطع خطبته ، وخطب لنفسه ، وتلقب بتاج الدولة ، وفرق الأموال ، وجمع الرجال ، وملك البصرة ، وأقطعها أخاه أبا الحسين ، فبقى كذلك ثلاث سنين إلى أن قبض عليه شرف الدولة » .(٦)

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .
(٢) هو غير سبكتكين أبى يمين الدولة محمود الغزنوى .
(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٤١ . انظر أيضا ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٢ — ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ص ١٠٩ — ١١١ من هذا الكتاب ، ص ١١١ — ١١٥ الوقوف على سياسة عضد الدولة فى العراق .
(٤) مسكويه : كتاب تجارب الأمم جـ ٢ ص ٣٨٠ — ٣٨٦ .
(٥) هما ابنا عضد الدولة
(٦) ابن الأثير جـ ٩ ص ٩ .

ويظهر أن صمصام الدولة كان يخشى منافسة أخيه الأكبر شرف الدولة. لذلك نراه حين يلي أمور العراق، يخلع على أخويه أبي الحسين أحمد وأبي طاهر فيروز شاه، ويقطعهما فارس، ويأمرهما بالسير ليسبقا أخاهما شرف الدولة ويحولا دون وصوله إليها. غير أن شرف الدولة كان قد سبقهما الى احتلالهما فعادا إلى الأهواز. ومن ثم قامت الحرب بين صمصام الدولة وشرف الدولة الذى انتصر على أخيه فى سنة ٣٧٣ هـ بالقرب من الأهواز، وانتهت هذه الموقعة باستقلال أبى الحسين بن عضد الدولة عن أخيه صمصام الدولة بالأهواز (١).

وفى سنة ٣٧٥ هـ قصد شرف الدولة الأهواز، وأرغم أخاه أبا الحسين على الفرار واستولى عليها، ثم استولى على البصرة، وقبض على أخيه أبى طاهر فيروزشاه. وخشى صمصام الدولة ازدياد خطر أخيه شرف الدولة، وتم الصلح بينهما، على أن يذكر اسم شرف الدولة على المنابر فى بلاد العراق قبل اسم صمصام الدولة، وأن يكون صمصام الدولة نائبا عن أخيه فى حكم العراق، وأن يطلق صمصام الدولة أخاه بهاء الدولة أبا نصر ويسيّره إليه. وخطب لشرف الدولة بالعراق، وخلع عليه الخليفة الطائع (٢)، كما جرت العادة فى ذلك الوقت أن يخلع الخليفة العباسى على من تؤول إليه السلطة.

ولكن هذا الصلح لم يطل، إذ «ألقت إليه (شرف الدولة) البلاد مقاليدها كواسط وغيرها، وكاتبه القواد بالطاعة، فعاد عن الصلح، وعزم على قصد بغداد والاستيلاء على الملك ولم يحلف لأخيه» (٣)، وانتهى الأمر باستيلائه على بلاد العراق من يد أخيه صمصام الدولة فى سنة ٣٧٦ هـ، فبقى فيها إلى أن توفى سنة ٣٧٩ هـ كما تقدم (٤).

أما صمصام الدولة فقد سيق إلى فارس، واعتقل فى إحدى قلاعها، وسملت عيناه، بعد أن حكم بالعراق ثلاث سنين وأحد عشر شهراً. فلما مات أخوه شرف الدولة سنة ٣٧٩ هـ فر صمصام الدولة من معتقله، والتف حوله كثير من الديلم، واستأنف الصراع بينه وبين أخيه بهاء الدولة الذى آل إليه حكم بلاد العراق بعد وفاة أخيه شرف الدولة، كما قامت الحرب أيضا بينه وبين أبى على بن شرف الدولة فى فارس التى كان يليها من قبل أبيه شرف الدولة. وفى سنة ٣٨٠ هـ انتصر صمصام الدولة على جيش بهاء الدولة على مقربة من شيراز، وعقد الصلح بينهما، على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق (٥). وصاحب حسن الطالع صمصام الدولة، فاحرز الانتصارات المتصلة باستيلاء جيوشه على الأهواز سنة ٣٨٥ هـ، وعلى خوزستان والبصرة سنة ٣٨٦ هـ، وكادت تقع بلاد العراق فى قبضته، لولا تدخل مهذب الدولة صاحب البطيحة. وانتهت هذه الحروب بعقد الصلح بين بهاء الدولة وصمصام الدولة، على أن يخطب لهما ولمهذب الدولة فى

---

(١) مسكويه: كتاب تجارب الأمم جـ ٣ ص ١٢٠ — ١٢٤

(٢) راجع شروط هذا الصلح فى ص ١١٦

(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٧. (٤) انظر ص ١١٥ — ١١٧.

(٥) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه جـ ٣ ص ١٨٣ — ١٨٤.

البصرة (١) . ولم ينته ذلك الصراع إلا باغتيال صمصام الدولة فى سنة ٣٨٨ هـ على يد أبى نصر بن بختيار ، أخذا بثار أبيه عز الدولة بختيار الذى قتله عضد الدولة أبو صمصام الدولة . وقد ولى صمصام الدولة فارس تسع سنين وثمانية أيام ، وكان حين قتل فى الخامسة والثلاثين من عمره (٢) .

بهاء الدولة وسلطان الدولة (٣٨٨ — ٤١٥ هـ)

لما قتل صمصام الدولة فى سنة ٣٨٨ هـ على يد ابنى بختيار ، استولى هذان على فارس ، وتلقب أولهما وهو أبو نصر ، بنور الدولة ومحيى الأمة ، وتلقب ثانيهما وهو أبو القاسم ، حسام الدولة سيد الأمة . وقد حاولا استمالة الديلم ، الذين كانوا يحنقون على بهاء الدولة لاستمالته الأتراك إليه . إلا أن بهاء الدولة استطاع أن يستميل زعيم الديلم ، وحارب ابنى بختيار ، وأحدث الشقاق بينهما ، وأحل بهما الهزيمة ، واستولى على فارس فى سنة ٣٨٩ هـ . وفى ذلك يقول ابن الأثير (٣) . «وقال بهاء الدولة (للديلم) . إن ثارى وثاركم عند من قتل أخى (صمصام الدولة) ؛ فلا عذر لكم فى التخلف عن الأخذ بثأره . واستمال الديلم فأجابوه إلى الدخول فى طاعته ، وأنفذوا جماعة من أعيانهم إلى بهاء الدولة ، فحلفوه واستوثقوا منه ، وكتبوا إلى أصحابهم المقيمين بالسوس بصورة الحال . وركب بهاء الدولة من الغد إلى باب السوس رجاء أن يخرج من فيه إلى طاعته ، فخرجوا إليه فى السلاح وقاتلوه قتالا شديدا لم يقاتلوا مثله ، فضاق صدره فقيل له : إن هذه عادة الديلم أن يشتد قتالهم عند الصلح لئلا يظن بهم ، ثم كفوا عن القتال ، وأرسلوا من يحلفه لهم ، ونزلوا إلى خدمته . واختلط العسكران وساروا إلى الأهواز ، فقرر أبو على بن إسماعيل (زعيم الديلم) أمورها ، وقسم الإقطاعات بين الأتراك والديلم ، ثم ساروا إلى رامهرمز فاستولوا عليها ، وعلى أرجان وغيرها من بلاد خوزستان . وسار أبو على بن إسماعيل إلى شيراز فنزل بظاهرها ، فخرج إليه ابنا بختيار فى أصحابهما فحاربوه . فلما اشتدت الحرب مال بعض من معهما إليه ، ودخل بعض أصحابه البلد ونادوا بشعار بهاء الدولة » .

وكان من أثر إحلال الهزيمة بابنى بختيار أن انضم أنصارهما إلى بهاء الدولة الذى خطب له بشيراز ، وهرب أبو نصر بن بختيار إلى بلاد الديلم ، وهرب أبو القاسم الى بدر بن حسنويه صاحب البطيحة ، وقصد بهاء الدولة شيراز ، واستأصل شأفة أنصار أبناء بختيار ، وأخرج جثة أخيه صمصام الدولة ودفنها فى مقبرة بنى بويه بشيراز ، ثم استولت جيوشه على كرمان (٤) .

وفى سنة ٣٩٠ هـ عاد أبو نصر بن بختيار ، وكان قد هرب إلى بلاد الديلم بعد أن حلت به الهزيمة بشيراز سنة ٣٨٩ هـ ، إلى فارس ، والف حوله جمع كبير من الديلم والأتراك والزط ، ثم قصد

---

(١) انظر ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٢) راجع أسباب اغتيال صمصام الدولة فى ابن الأثير جـ ٩ ص ٥٣ .

(٣) جـ ٩ ص ٥٦ .

(٤) مسكوية : كتاب تجارب الأمم جـ ٣ ص ٣٢٦ — ٣٢٧

كرمان وحارب عامل بهاء الدولة فيها ، واستولى على أغلب بلادها ، وتفاقم خطره حتى إنه أثار قلق بهاء الدولة ، فسير إليه قائده الموفق على بن إسماعيل ، الذى أحل به الهزيمة وتفرق جنده أيدى سبا ، وقتله (١) ، وبعث برأسه إلى بهاء الدولة ، وأرسل إليه كتابا يبشره فيه بالفتح (٢) . وبذلك استقر سلطان بهاء الدولة فى فارس وكرمان ، برغم محاولة طاهر بن خلف بن أحمد صاحب سجستان ، الاستيلاء على كرمان ؛ ولكن جيوش بهاء الدولة ردته على أعقابه (٣) . وتم الأمر له فى هذه البلاد إلى أن مات فى سنة ٤٠٣ هـ ، فخلفه ابنه سلطان الدولة أبو شجاع ، وكان قد عهد إليه بالسلطنة فى العراق وفارس وما يليهما من بعده .

وقد ذكرنا من قبل أن سلطان الدولة استهل سلطنته بتولية أخويه جلال الدولة البصرة ، وقوام الدولة أبى الفوارس كرمان ، وأن الشقاق قد دب بين سلطان الدولة وأخيه قوام الدولة الذى أغراه الديلم بحرب أخيه ، فاستولى على شيراز فى سنة ٤٠٨ هـ ، ولكنه لم يلبث أن طرد عنها وعن كرمان ، التى استردها فى السنة التالية بمساعدة يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوى : ولكن قوام الدولة أبا الفوارس ، على رغم استنجاده بشمس الدولة بن فخر الدولة بن ركن الدولة صاحب همذان ، وبمهذب الدولة صاحب البطيحة ، لم يستطع الوقوف فى وجه أخيه سلطان الدولة ، وانتهى الأمر بإعادة كرمان إلى قوام الدولة أبى الفوارس واعترافه بسلطان أخيه . وقد تعرض نفوذ سلطان الدولة للخطر ، بسبب مناوأة أخيه مشرف الدولة الذى استخلف على العراق (٤١١-٤١٦هـ) ، واعترف أخوه جلال الدولة صاحب البصرة بسلطانه ، وخطب له ببغداد فى المحرم سنة ٤١٢ هـ . (٤)

وقد اضطر سلطان الدولة إزاء ضغط أخيه مشرف الدولة إلى مغادرة بغداد وقصد الأهواز ، وعمل على استرداد العراق . ولكن مشرف الدولة هزم جيوشه فى واسط وتلقب بلقب شاهنشاه ، واتخذ سلطان الدولة من ثورة الديلم على أخيه مشرف الدولة وقتلهم إياه فرصة لتحقيق أغراضه ، فاستولى ابنه أبو كاليجار على الأهواز سنة ٤١٢ هـ ، وعقد الصلح بينه وبين أخيه سلطان الدولة فى سنة ٤١٣هـ ، على أن يكون العراق لمشرف الدولة ، وفارس وكرمان لسلطان الدولة الذى لم يلبث أن توفى سنة ٤١٥ هـ .

عماد الدولة أبو كاليجار (٤١٥ - ٤٤٠هـ)

لما توفى سلطان الدولة الذى آل إليه ملك فارس ، لم يصف الجو لابنه أبى كاليجار ، لأن كثيرا من

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٠ — ٦١

(٢) راجع صورة هذا الكتاب فى تاريخ هلال الصابىء ج ٨ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ الملحق بكتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء لابى الحسن الهلال بن المحسن بن ابراهيم الصابىء (بيروت سنة ١٩٠٤) .

(٣) ابن الاثير ج ٩ ص ٦٢ — ٦٣ .

(٤) انظر ص ١٣٥ — ١٣٦

الأتراك كانوا يميلون إلى عمه قوام الدولة أبى الفوارس صاحب كرمان ، وطلبوا إليه الحضور لامتلاك شيراز ، فاستولى عليها قبل أن يصل إليها أبو كاليجار ، الذى أعد العدة لامتلاك البلاد التى ورثها عن أبيه . وانتصر على جيوش قوام الدولة أبى الفوارس (سنة ٤١٥ هـ) ، واستولى على فارس ، وعاد أبو الفوارس إلى كرمان . على أن فارس أصبحت مركزا للنزاع بين أبى كاليجار وعمه أبى الفوارس(١). وتقلبت هذه البلاد بينهما إلى سنة ٤١٧ هـ حيث استولى أبو كاليجار عليها نهائيا . وفى ذلك يقول ابن الأثير (٢) : « ولما ملك أبو كاليجار بلاد فارس ودخل شيراز ، جرى على الديلم الشيرازية من عسكره ما أخرجهم عن طاعته ، وتمنوا معه أنهم كانوا قاتلوا مع عمه . وكان جماعة من الديلم بمدينة فسا فى طاعة أبى الفوارس ، وهم يريدون أن يصلحوا حالهم مع أبى كاليجار ويصيروا معه ، فأرسل إليهم الديلم الذين بشيراز يعرفونهم مايلقون من الأذى ويأمرونهم بالتمسك بطاعة أبى الفوارس ، ففعلوا ذلك . ثم إن أبى كاليجار طالبوه بالمال وشغبوا عليه ، فأظهر الديلم الشيرازية مافى نفوسهم من الحقد ، فعجز عن المقام معهم ، فسار عن شيراز إلى ... شعب بوّان فأقام به . فلما سار عن شيراز أرسل الشيرازية إلى عمه أبى الفوارس يحثونه على المجىء إليهم ويعرفونه بعد أبى كاليجار عنهم ، فسار إليهم فسلموا إليه شيراز . وقصد إلى أبى كاليجار بشعب بوان ليحاربه ويخرجه عن البلاد ، فاختار العسكران الصلح . فسفروا فيه ، فاستقر لأبى الفوارس كرمان وفارس ، ولأبى كاليجار خوزستان ، وعاد أبو الفوارس إلى شيراز ، وسار أبو كاليجار إلى أرجان . ثم إن وزير أبى الفوارس خبط الناس وأفسد قلوبهم . وصادرهم ، واجتاز به مال لأبى كاليجار والديلم الذين معه ، فأخذه ، فحينئذ حث العادل بن مافنة صندلا الخادم على العود إلى شيراز ، وكان قد فارق بها نعمة عظيمة وصار مع أبى كاليجار . وكان الديلم يطيعونه . فعادت الحال إلى أشد ما كانت عليه . فسار كل واحد من أبى كاليجار وعمه أبى الفوارس الى صاحبه ، والتقوا واقتتلوا ، فانهزم أبو الفوارس إلى دارا بجرد ، وملك أبو كاليجار فارس . وعاد أبو الفوارس فجمع الأكراد فأكثر ، فاجتمع معه منهم نحو عشرة آلاف مقاتل ، فالتقوا بين البيضاء وإصطخر ، فاقتتلوا أشد من القتال الأول . فعاود أبو الفوارس الهزيمة فسار إلى كرمان ، واستقر ملك أبى كاليجار بفارس سنة سبع عشرة وأربعمائة ، وكان أهل شيراز يكرهونه » .

ولما مات مشرف الدولة صاحب العراق فى شهر ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ خطب لأخيه جلال الدولة صاحب البصرة ، وطلب إليه الحضور الى بغداد ، ولكنه لم يستطع الوصول إليها ، فقطعت هذه الخطبة فى شهر شوال من هذه السنة ، وأقيمت لابن أخيه أبى كاليجار بن سلطان الدولة الذى كان فى حرب مع عمه قوام الدوله أبى الفوارس ، ولكنه لم يستطع الحضور بسبب اشتغاله بهذه الحرب ، وأتيحت الفرصة لجلال الدولة بالحضور إلى بغداد واستيلائه عليها فى هذه السنة . وقد ازداد نفوذ أبى كاليجار فى فارس فخطب له على منابر الأنبار والكوفة ، وأزال نفوذ بنى عقيل عن سقى الفرات(٣) (سنة ٤١٧ هـ)

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٢٥ — ١٢٣ (٢) جـ ٩ ص ١٢٦ — ١٢٧ (٣) يعنى حوض النهر

وقد ذكر ابن الأثير(١) فى حوادث سنة ٤١٨ هـ أن نفوذ أبى كاليجار امتد إلى جنوبى العراق، وأن أهالى البطيحة ثاروا عليه فأخضعهم لنفوذه، وأن الحرب تجددت بينه وبين عمه أبى الفوارس صاحب كرمان، وعقد الصلح بينهما، على أن تكون كرمان لأبى الفوارس، وفارس لأبى كاليجار، وأن يدفع أبو كاليجار لعمه عشرين ألف دينار فى كل سنة.

وفى سنة ٤١٩ هـ استولى أبو كاليجار على البصرة وطرد منها الملك العزيز بن جلال الدولة، واستولى فى السنة نفسها على كرمان على أثر وفاة صاحبها أبى الفوارس (٢)، ثم على مدينة واسط (سنة ٤٢٠ هـ). ولكن جلال الدولة لم يلبث أن استردها، كما استرد البصرة (سنة ٤٢١ هـ)، التى أصبحت مركزا للصراع بينه وبين أبى كاليجار الذى خطب له على منابرها فى سنة ٤٢٤ هـ.

وكانت ثورات الجند على جلال الدولة، وميلهم إلى ابن أخيه أبى كاليجار ومحاولتهم تنصيبه فى السلطنة من بعده، من العوامل التى حفزته على مد نفوذه فى بلاد العراق. ولولا إبرام الصلح بينه وبين عمه فى سنة ٤٢٨ هـ، وزواجه من ابنته، لآلت سلطنة بنى بويه فى بلاد العراق إليه قبل وفاة جلال الدولة فى سنة ٤٣٥ هـ بوقت طويل.

على أن تولية أبى كاليجار السلطنة فى بلاد العراق (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) لم تشغله عن الاهتمام بشئون فارس؛ فقد قضى على حركات الثوار فى أصبهان وكرمان، كما عمل على إصلاح ما بينه وبين طغرلبك السلجوقى، الذى استولى على خراسان والرى، وكان يطمع فى امتلاك فارس، وارتبط معه بالمصاهرة. وعلى الرغم من اتفاقه مع الخليفة العباسى والسلاجقة من ناحية، فقد تقرب من ناحية أخرى إلى الفاطميين، واتخذ من ذلك التقرب وسيلة لتهديد العباسيين. يدلنا على صحة هذا القول علاقة المودة بينه وبين المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الفاطميين فى فارس، ليحول بذلك بين الخليفة العباسى وما يرمى اليه من التقرب إلى السلاجقة والاستعانة بهم على بنى بويه والفاطميين. وكانت الأحوال فى فارس تشغل بال أبى كاليجار وتستنفد الكثير من صحته، حتى إنه مات سنة ٤٤٠ هـ وهو فى طريقه لإخماد ثورة نائبه بكرمان.

وفى عهد أبى نصر فيروز الملك الرحيم (٤٤٠ — ٤٤٧ هـ) بن أبى كاليجار زال سلطان البويهيين فى فارس والعراق. ولا غرو فقد ورث هذا السلطان عن أبيه تركة مثقلة بالمتاعب والأخطار فى الداخل والخارج، ففى الداخل نرى انقسام أفراد هذا البيت بعضهم على بعض: فهناك الملك عبد العزيز بن جلال

---

(١) جـ ٩، ص ١٣٤ — ١٣٥

(٢) ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٣٨) أن أبا الفوارس «كان قد تجهز لقصد بلاد فارس وجمع عسكرا كثيرا، فأدركه أجله. فلما توفى نادى أصحابه بشعار الملك أبى كاليجار، وأرسلوا إليه يطلبونه إليهم، فسار مجدا وملك البلاد بغير حرب ولا قتال، وأمن الناس معه وكانوا يكرهون عمه أبا الفوارس لظلمه وسوء سيرته. وكان إذا شرب ضرب أصحابه، وضرب وزيره يوما مائتى مقرعة، وحلفه بالطلاق أنه لا يتأوه ولا يخبر بذلك أحدا، فقيل إنهم سموه فمات».

الدولة ، كان يطمع فى السلطنة ويحارب الملك الرحيم فى البصرة ، لولا أن حالت وفاته فى سنة ٤٤١ هـ دون تحقيق أمنيته ، وهناك أيضا أبو منصور بن أبى كاليجار (أخو الملك عبدالرحيم) يستولى على الأهواز (٤٤١هـ) . ولولا شغب الجند عليه لخرجت هذه البلاد عن سلطان الملك الرحيم ، وتجددت متاعب هذا السلطان بخروج أخيه أبى منصور عليه من جديد ، واستيلائه على الأهواز ومطاردة جيوشه إلى واسط ، كما حارب أيضا أخاه أباعلى فناخسرو فى البصرة . وإن كان قد تم له النصر عليه . وهكذا أصبحت أمهات مدن العراق وفارس مركزا للصراع بين الملك الرحيم وبين إخوته وأقاربه . أما فى الخارج فقد ازداد نشاط السلاجقة وتفاقم خطرهم وقويت أطماعهم فى الاستيلاء على فارس والعراق ، بل على الشام ومصر ؛ وشجعهم على تحقيق هذه الأمانى ضعف بنى بويه فى أواخر أيامهم ، واستعانة العباسيين بمنافسيهم السلاجقة لتخليصهم من استبداد البويهيين . وقد تمكن السلاجقة أخيرا من الاستيلاء على أملاك بنى بويه فى فارس والعراق ، كما كانت مناوأة أبى الحارث البساسيرى للخليفة العباسى المطيع من أهم الأسباب التى عجلت بسقوط هذه الدولة ، بعد أن حكمت كثيرا من البلاد الإسلامية أكثر من قرن (١) .

(ب) فى الرى وهمذان واصبهان :

ركن الدولة (٣٣٠ — ٣٦٦ هـ) :

بينا من قبل كيف تالق نجم أولاد بويه فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، فمد عماد الدولة نفوذه فى فارس ، واستولى ركن الدولة الذى كان رهينة عند مرداويج بن زيار على أصبهان والرى وهمذان وسائر بلاد العراق العجمى ، واستول معز الدولة على الأهواز(٢) . وفى سنة ٣٣٤ هـ استعان الخليفة العباسى المستكفى بأحمد بن بويه لتخليصه من شر الأتراك ، وطلب إليه المسير إلى بغداد ، ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه عليا عماد الدولة ، وأخاه أبا على الحسن ركن الدولة (٣) .

وفى سنة ٣٢٧ هـ بدأ الصراع بين ركن الدولة الحسن وبين وشمكير بن زيار الديلمى أخى مرداويج ابن زيار ، الذى عز عليه استيلاء ركن الدولة الحسن على البلاد التى كانت بيد أخيه ؛ فأرسل إليه جيشا طرده من أصبهان ، فاضطر ركن الدولة إلى التقهقر إلى بلاد فارس ، ثم سار فى السنة التالية إلى واسط ليمد نفوذه منها إلى ماجاورها من البلاد ، ولكنه اضطر أمام مقاومة البريديين والخليفة الراضى وبجكم إلى التقهقر نحو الأهواز . وفى هذه السنة نفسها عاد ركن الدولة إلى أصبهان واستولى عليها ، وطرد أصحاب وشمكير منها . واتفق هو وأخوه عماد الدولة مع أبى على بن محتاج قائد نصر بن أحمد السامانى بخراسان ، وأخذا يحرضانه على ماكان (بن كالى) ووشمكير ، ويعدانه المساعدة عليهما ، فصار

---

(١) أنظر ص ١٣١ — ١٣٤ ، ١٣٥ وما يليها .

(٢) ص ١٠٠ — ١٠١ (٣) ص ١٠٠

بينهم بذلك مودة ». (١) وقد رمى ركن الدولة وعماد الدولة ابنا بويه من وراء صداقتهما لابن محتاج الى بسط نفوذهما على بلاد وشمكير . وفى ذلك يقول ابن الأثير (٢) : «وكان قصدهما أن تؤخذ الرى من وشمكير ، فإذا أخذها أبو على لا يمكنه المقام بها لسعة ولايته بخراسان ، فيغلبان عليها » . ولم يكتف ركن الدولة بذلك، بل سار فى سنة ٤٢٩ هـ إلى الرى حيث حارب جيوش وشمكير وانتصر عليها، وانضم إليه عدد كبير منهم . (٣) وقد تحققت سياسة ابنى بويه التى كانت تنطوى على بعد النظر ، فإن أبا على ابن محتاج لما عاد من الرى إلى خراسان ، « رجع ركن الدولة الى الرى ، واستولى عليها وعلى سائر أعمال الجبل ، وأزال عنها الخراسانية . وعظم ملك بنى بويه ، فإنهم صار بأيديهم أعمال الرى والجبل وفارس والأهواز والعراق ، ويحمل إليهم ضمان الموصل وديار بكر وديار مضر من الجزيرة » (سنة ٣٣٥ هـ). وفى السنة التالية حارب ركن الدولة وشمكير بن زيار الديلمى وطرده من طبرستان وجرجان ، فاضطر هذا إلى الاستعانة بالسامانيين ، الذين رجعوا بدعوة وشمكير خوفا على بلادهم من خطر بنى بويه ، فأرسل نوح بن نصر (٣٣١ — ٣٤٣ هـ) فى سنة ٣٣٩ هـ جيشا أجلى نائب ركن الدولة عن الرى ، واستولى على بلاد الجبل إلى قرميسين ، وأزال عنها ولاة بنى بويه ، وأرسل معز الدولة إلى أخيه ركن الدولة جيشاً بقيادة سبكتكين الحاجب، فطرد جند السامانيين من الخراسانيين من قرميسين وهمذان. إلا أنه على الرغم مما حل بهذا الجيش الخراسانى من الهزيمة ، فإنه قصد أصبهان واحتلها ، ولكنه أرغم على تركها والعودة إلى الرى (المحرم سنة ٤٤٠هـ) لقلة المؤن، حتى إن الجند قد بلغ بهم الأمر الى ذبح دوابهم وأكل لحومها . (٥)

على أن مناوأه وشمكير بن زيار الديلمى لركن الدولة الحسن بن بويه لم تنته عند هذا الحد ، فاننا نجد فى مسكويه (٦) عند كلامه على حوادث سنة ٣٣١هـ ، أن ركن الدولة دخل طبرستان بعد هرب وشمكير منها إلى جرجان ، وانضم ثلاثة آلاف من جنده إلى ركن الدولة ، الذى لم يلبث أن دخل جرجان ، وبلغ من ازدياد قوته وضعف وشمكير أن لقب الخليفة العباسى المطيع أبا شجاع فنا خسرو ابن ركن الدولة بلقب عضد الدولة .

لم يتمتع ركن الدولة الحسن بالهدوء فى بلاده فترة طويلة ، بل كثيرا ما كانت هذه البلاد تتعرض لهجمات منافسيه الكثيرين . وكان من أشد هؤلاء خطرا ، وشمكير بن زيار الديلمى، وأمراء السامانيين. ففى سنة ٣٥٦ هـ حرض عامل كرمان من قبل البويهيين منصور بن نوح السامانى صاحب بلاد خراسان وما وراء النهر على قصد الرى ، التى اتخذها ركن الدولة قاعدة لبلاده ، وأطمعه فى البلاد التى كان يليها

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٢٧ .
(٢) جـ ٨ ص ١٣٠
(٣) مسكويه : كتاب تجارب الأمم جـ ٢ ص ٨
(٤) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٦٨ و ١٧١ ؛ انظر أيضا مسكويه جـ ٢ ص ١٠٠ — ١٠٣
(٥) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٧٥ — ١٧٦
(٦) جـ ٢ ص ١٩٠ — ١٩١

بنو بويه . وأعد السامانيون عدة جيوش لتحقيق مطامعهم . وشعر ركن الدولة بهذا الخطر الداهم، فأعد لهذا الأمر عدته ،واستعان بابنه عضد الدولة فى فارس وابن أخيه بختيار فى العراق . ولكن موت وشمكير بن زيار فجأة ، أبعد هذا الخطر الذى كان يهدد بلاد ركن الدولة (١) .

وكان ركن الدولة يعمل على أن يكون البويهيون قوة متحدة متماسكة تقف فى وقت الخطوب يدا واحدة ، كما كانت العلاقة بين معز الدولة وعماد الدولة وركن الدولة أولاد بويه تقوم على أساس المودة والصفاء ، واحترام الصغير لمن هو أكبر منه سنا ، وعلى أساس احترام العهود والمواثيق حتى مع غير بنى بويه . وقد رأينا ذلك واضحا جليا ، حين تهددت بلاد ركن الدولة لخطر وشمكير والسامانيين، وعندما استنجد عز الدولة بختيار بابن عمه عضد الدوله صاحب فارس ، فطمع هذا فى بلاده ، واتخذ من ضعفه فرصة للوصول إلى السلطنة ، فأنكر أبوه ركن الدولة الحسن عليه عمله وهدده بالمسير إليه فى العراق، ورد بختيار إلى سلطنته فيها ، ولم يصغ لما عرضه عليه من إبعاد بختيار عن العراق حيث كره الخليفة والأهالى حكمه ، على أن يوليه بعض بلاد فارس ، وأن تؤول السلطنة إلى أبيه . ولكن ركن الدولة لم يرض بهذه العروض إبقاء على وحدة البيت البويهى ، واحتفاظا بذكرى أخيه معز الدولة الذى كان يعتبره ابنا له ، وحفظا لحق ابن أخيه لإرضاء روح أبيه (٢) . ولا بأس من أن ننقل ماذكره ابن الأثير (٣) فى هذا الصدد :

« لما قبض بختيار كان ولده المرزبان بالبصرة متوليا لها ، فلما بلغه خبر قبض والده ، امتنع فيها على عضد الدولة ، وكتب إلى ركن الدولة يشكو ماجرى على والده وعميه من عضد الدولة ومن أبى الفتح بن العميد ، ويذكر له الحيلة التى تمت عليه . فلما سمع ركن الدولة ذلك ألقى نفسه عن سريره إلى الأرض وتمرغ عليها ، وامتنع عن الأكل والشرب عدة أيام، ومرض مرضا لم يستقل (٤) منه باقى حياته . وكان محمد بن بقية بعد بختيار قد خدم عضد الدولة وضمن منه مدينة واسط وأعمالها ، فلما صار إليها خلع طاعة عضد الدولة وخالف عليه وأظهر الامتعاض لقبض بختيار ، وكاتب عمران بن شاهين ، وطلب مساعدته وحذره مكر عضد الدولة ، فأجابه عمران إلى ماالتمس ... فلما عصى ابن بقية أنفذ إليه عضد الدولة جيشا قويا ، فخرج إليهم ابن بقية فى الماء ومعه عسكر قد سيره إليه عمران، فانهزم أصحاب عضد الدولة أقبح هزيمة ، وكاتب ركن الدولة بحاله وحال بختيار ، فكتب ركن الدولة إليه، وإلى المرزبان وغيرهما ممن احتمى ببختيار يأمرهم بالثبات والصبر، ويعرفهم أنه على المسير إلى العراق لإخراج عضد الدولة وإعادة بختيار ، فاضطربت النواحى على عضد الدولة ، وتجاسر عليه الأعداء حيث علموا إنكار أبيه عليه ، وانقطعت عنه موارد فارس والبحر ، ولم يبق بيده إلا قصبة بغداد ، وطمع فيه العامة وأشرف على مايكره . فرأى إنفاذ أبى الفتح بن العميد برسالة إلى أبيه يعرّفه

---

(١) مسكويه ج ٢ ص ٢٣٢ — ٢٣٤ .

(٢) انظر ص ١١٠ .

(٣) ج ٨ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٤) استقله : حمله ورفعه والمراد هنا لم يتخلص منه .

ماجرى له وما فرّق من الأموال . وضعف بختيار عن حفظ البلاد ، وأنه إن أعيد إلى حاله خرجت المملكة والخلافة عنهم وكان بوارهم ، ويسأله ترك نصرة بختيار ، وقال لأبى الفتح : فإن أجاب إلى ماتريد منه ، وإلا فقل له إننى أضمن منك أعمال العراق ، وأحمل إليك منها كل سنة ثلاثين ألف درهم ، وأبعث بختيار وأخويه إليك لتجعلهم بالخيار ، فإن اختاروا أقاموا عندك ، وإن اختاروا بعض بلاد فارس سلمته إليهم ووسّعت عليهم ، وإن أحببت أنت أن تحضر فى العراق لتلى تدبير الخلافة وتنفذ بختيار إلى الرى وأعود أنا إلى فارس ، فالأمر إليك . وقال لابن العميد : فإن أجاب إلى ماذكرتَ له وإلا فقل له : أيها السيد الوالد ، أنت مقبول الحكم والقول ، ولكن لاسبيل إلى إطلاق هؤلاء القوم بعد مكاشفتهم وإظهار العداوة ، وسيقاتلوننى بغاية مايَقْدرون عليه ، فتنتشر الكلمة (١) ويختلف أهل هذا البيت أبدا . فان قبلتَ ما ذكرتُه ، فأنا العبد الطائع ، وإن أبيت وحكمت بانصرافى ، فإنى سأقتل بختيار وأخويه وأقبض على كل من أتهمه بالميل إليهم ، وأخرج من العراق وأترك البلاد سائبة(٢) ، ليدبرها من اتفقت له . فخاف ابن العميد أن يسير بهذه الرسالة ، وأشار أن يسير بها غيره ، ويسير هو بعد ذلك ، ويكون كالمشير على ركن الدولة بإجابته إلى ماطلب ، فأرسل عضد الدولة رسولا بهذه الرسالة ، وسير بعده ابن العميد على الجمازات . فلما حضر الرسول عند ركن الدولة وذكر بعض الرسالة ، وثب إليه ليقتله ، فهرب من بين يديه ، ثم رده بعد أن سكن غضبُه وقال : قل لفلان ، يعنى عضد الدولة وسماه بغير اسمه وشتمه : خرجتَ إلى نصرة ابن أخى وللطمع فى مملكته ... تريد أن تمن أنت علىّ بدرهمين أنفقتهما أنت علىّ وعلى أولاد أخى ، ثم تطمع فى ممالكهم وتهددنى بقتلهم ؟ فعاد الرسول ووصل ابن العميد ، فحجبه عنه ولم يسمع حديثه ، وتهدده بالهلاك ، وأنفذ إليه يقول له : لأتركنك وذلك الفاعل ، يعنى عضد الدولة ، تجتهدان جهدكما ثم لأخرج إليكما إلا فى ثلثمائة جمازة وعليها الرجال ، ثم اثبتوا إن شئتم ، فوالله لاقاتلتكما إلا بأقرب الناس إليكما . وكان ركن الدولة يقول : إننى أرى أخى معز الدولة كل ليلة فى المنام يعض على أنامله ويقول : ياأخى ! هكذا ضمنت لى أن تخلفنى فى ولدى ؟ وكان ركن الدولة يحب أخاه محبة شديدة لأنه رباه ، فكان عنده بمنزلة الولد. ثم إن الناس سعوا لابن العميد ، وتوسطوا الحال بينه وبين ركن الدولة وقالوا : إنما تحمل ابن العميد هذه الرسالة ، ليجعلها طريقا للخلاص من عضد الدولة والوصول إليك لتأمر بما تراه . فأذن له فى الحضور عنده ، فاجتمع به ، وضمن له إعادة عضد الدولة إلى فارس وتقرير بختيار بالعراق ، فرده إلى عضد الدولة وعرفه جلية الحال . فلما رأى عضد الدولة انحراف الأمور إليه من كل ناحية ، أجاب إلى المسير إلى فارس وإعادة بختيار » .

صفات ركن الدولة :

كان عماد الدولة أبو الحسن على أكبر أولاد أبيه ، وركن الدولة الحسن أوسطهم ، ومعز الدولة

---

(١) أى تتفرق (٢) يعنى أنه يترك البلاد بلا رئيس .

أحمد أصغرهم . « وكان ركن الدولة — كما وصفه ابن خلكان (١) — ملكا جليل المقدار عالى الهمة ». وأطنب ابن الأثير (٢) فى وصفه فقال : « كان حليما كريما واسع الكرم كثير البذل ، حسن السياسة لرعاياه وجنده ، رءوفا بهم ، عادلا فى الحكم بينهم . وكان بعيد الهمة عظيم الجدّ والسعادة ، متحرجا من الظلم مانعا لأصحابه منه ، عفيفا عن الدماء ، يرى حقنها واجبا إلا فيما لابد منه . وكان يحامى على أهل البيوتات ، وكان يجرى عليهم الأرزاق ويصونهم عن التبذل ، وكان يقصد المساجد الجامعة فى أشهر الصيام للصلاة ، وينتصب لرد المظالم ، ويتعهد العلويين بالأموال الكثيرة ، ويتصدق بالأموال الجليلة على ذوى الحاجات ، ويلين جانبه للخاص والعام . قال له بعض أصحابه فى ذلك وذكر له شدة مرداويج على أصحابه فقال : انظر كيف آخشُرم (٣) ووثب عليه أخص أصحابه وأقربهم منه لعنفه وشدته ، وكيف عُمِّرْتُ وأحبنى الناس للين جانبى . وحكى عنه أنه سار فى سفر فنزل فى خركاه (٤) قد ضربت له قبل أصحابه ، وقدم إليه طعام فقال لبعض أصحابه : لأى شىء قيل فى المثل : خير الأشياء فى الغُربة الإمارة ، فقال صاحبه : لقعودك فى الخركاة وهذا الطعام بين يديك ، وأنا لاخركاة ولا طعام ، فضحك وأعطاه الخركاة والطعام . فانظر إلى هذا الخلق ما أحسنه وما أجمله ! وفى فعله فى حادثة بختيار مايدل على كمال مروءته وحسن عهده وصلته لرحمه . رضى الله عنه وأرضاه ! وكان له حسن عهد ومودة وإقبال ».

اشتهر عضد الدولة بحسن الخلق وعفة اللسان والعفو عند المقدرة . ذكر ابن الأثير (٥) أن وشمكير ابن زيار الديلمى « كتب إلى ركن الدولة يتهدده بضروب من الوعيد والتهديد ويقول : والله لئن ظفرت بك لأفعلن بك ولأصنعن ، بألفاظ قبيحة ، فلم يتجاسر الكاتب أن يقرأه ، فأخذه ركن الدولة فقرأه وقال للكاتب : اكتب إليه : أما جمعك وأحشادك . فما كنتَ قط أهون منك علىّ الآن ، وأما تهديدك وإيعادك ، فوالله لئن ظفرتُ بك لأعاملنك بضده ، ولأحسننّ إليك ولأكرمنك ».

ولما كتب ركن الدولة إلى ابنه عضد الدولة يلومه على مافعل مع ابن عمه عز الدولة بختيار ، وعزمه على إبعاده عن السلطنة فى العراق وانتزاعها منه ، ويتهدده إن هو أصر على تنفيذ أغراضه ، ذكر له حسن معاملته لأصدقائه وأعدائه على السواء ، ووفائه بوعوده فقال : « أما عرفتَ أنى نصرت الحسن بن الفيرزان وهو غريب منى مرارا كثيرة أخاطر فيها بملكى ونفسى ؟ فإذا ظفرت أعدت له بلاده ، ولم أقبل منه ماقيمته درهم واحد ، ثم نصرت إبراهيم بن المرزبان وأعدته إلى أذربيجان ، وأنفذت وزيرى وعساكرى فى نصرته . ولم آخذ منه درهما واحدا . كل ذلك طلبا لحسن الذكر ومحافظة على الفتوة » . (٦)

---

(١) كتاب وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٤١ .
(٢) جـ ٨ ص ٢٤٢ .
(٣) اخترمته المنية عاجلته
(٤) خيمة .
(٥) جـ ٨ ص ٢٠٨ .
(٦) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٣٥ .

وقد توفى ركن الدولة فى سنة ٣٦٦ هـ بعد حياة طويلة حافلة بالنصر والظفر ومكارم الأخلاق ، وكان فى الثانية والثمانين من عمره .

أولاد ركن الدولة (٣٦٦ — ٤٢٠ هـ)

ذكرنا من قبل أن ركن الدولة قد عهد قبل موته سنة ٣٦٦ هـ «إلى ولده عضد الدولة بالملك من بعده ، وجعل لولده فخر الدولة أبى الحسن علىّ همذان وأعمال الجبل ، ولولده مؤيد الدولة أصبهان وأعمالها ، وجعلهما فى هذه البلاد بحكم أخيهما عضد الدولة » . وكان عضد الدولة يخشى أخاه فخر الدولة ويخاف اتصاله ببختيار واتحادهما عليه ، فعول على أخذ بلاد العراق على أثر وفاة أبيه فى سنة ٣٦٦ هـ . ولما تم لعضد الدولة ما أراد وصفا له ملك العراق فى سنة ٣٦٧ هـ ، استولى على بلاد أخيه فخر الدولة فى سنة ٣٦٩ هـ ، «وملك عضد الدولة ما كان بيد فخر الدولة — همذان والرى وما بينهما — وسلمها إلى أخيه مؤيد الدولة بويه ، وجعله خليفته ونائبه فى تلك البلاد ، ونزل الرى فاستولى على تلك النواحى»(١).

ولم تطل ولاية مؤيد الدولة ، فمات بعد أخيه عضد الدولة بسنة واحدة (٣٧٣ هـ) ، واختار كبار قواد مؤيد الدولة أخاه فخر الدولة ، وأشار الصاحب بن عباد باختياره ، لكبر سنه ووافر هيبته وأحقيته بالملك قبل أخيه . واتخذ فخر الدولة الصاحب بن عباد وزيرا له ، وخلع عليه الخليفة العباسى الطائع ، وقامت العلاقة بين كل من فخر الدولة وابنى أخيه صمصام الدولة وشرف الدولة ابنى عضد الدولة على أساس الوفاق واتحاد المصلحة . (٢)

ولكن هذه العلاقة قد تبدلت فى عهد سلطنة بهاء الدولة فى العراق (٣٧٩ — ٤٠٣ هـ) ، فقد ذكر أبو شجاع (٣) وابن الأثير (٤) أن فخر الدولة طمع — كأخية عضد الدولة — فى الاستيلاء على بلاد العراق ، وأن وزيره الصاحب بن عباد شجعه على فتح هذه البلاد ، لأنه كان يرنو ببصره الى تقلد الوزارة فى بغداد . واتخذ فخر الدولة من موت شرف الدولة ، الذى عرف بقوة الشكيمة وشدة البطش فى حروبه مع صمصام الدولة وغيره ، فرصة لتحقيق أطماعه فى بلاد العراق ، واستعان ببدر بن حسنويه القائد الكردى المشهور ، ودبيس بن عفيف الأسدى وبغيرهما ، واستقر الرأى على أن يسير الصاحب ابن عباد الوزير وبدر بن حسنويه على رأس جيش ، يبدأ مسيره من همذان متجها صوب العراق ، وأن يسير جيش آخر بقيادة فخر الدولة نفسه من همذان إلى خوزستان قاصدا العراق . واستطاع فخر الدولة أن يستولى على الأهواز ، ولكن أمره لم يستقر فيها ، لأنه «أساء السيرة مع جندها وضيّق عليهم ، ولم يبذل المال ، فخابت ظنون الناس فيه ، واستشعر منه أيضا عسكره وقالوا : هكذا يفعل بنا إذا تمكن من إرادته ، فتخاذلوا» . (٥)

ولما علم بهاء الدولة صاحب العراق بنبأ استيلاء فخر الدولة على الأهواز ، سير إليه جيشا التقى

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٥٦ . (٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٠

(٣) جـ ٣ ص ١٦٣ — ١٦٤ و ١٨٣ — ١٨٤ .

(٤) جـ ٩ ص ٢٤ . أنظر أيضا لفظ فخر الدولة فى Encyclopaedia of Islam, Vol. II. pp. 44—5.

(٥) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٤

به على مقربة من خوزستان، وأحل به الهزيمة . وقد قيل فى سبب هذه الهزيمة ،إن أحد فروع نهر دجلة فاض عند الأهواز وتفجرت العيون منه ، فاعتقد جند فخر الدولة أن بهاء الدولة أمر بتقطيع الجسور ليحول دون مسيرهم الى العراق ، وحلت به الهزيمة ، وتفرق عنه كثير من جنده ، فعاد الى الرى ، وسار بهاء الدولة إلى واسط والبصرة ،وبعث جيوشه الى أرجان فاستولت على قلعتها المنيعة(١) (سنة ٣٧٩ﻫ).

وكان فخر الدولة ، بحكم قرب بلاده من بلاد السامانيين ، فى عداء مع أمرائهم . وكان يقوم بمساعدة الخارجين عليهم ،كما حدث فى مساعدته أبا على بن محتاج وفائق الخاصة على نوح الثانى بن منصور السامانى (٣٦٦ — ٣٨٧ ﻫ) فى سنة ٣٨٤ ﻫ . (٢) .

توفى فخر الدولة فى سنة ٣٨٧ ﻫ ، وقام بالأمر بعده ابنه مجد الدولة أبو طالب رستم (٣٨٧ — ٤٢٠ﻫ)، ولم يجاوز الرابعة من عمره ، على أن يلى أخوه شمس الدولة أبو طاهر همذان وقرميسين إلى حدود العراق . وكان لأمه مركز خاص فى إدارة شئون دولة ابنها الصغير . واستعانت فى ذلك الأمر ببعض الأمراء ، ولكن ذلك لم يحل دون طمع أمراء البلاد المجاورة لبلاد مجد الدولة . فقد طمع فيها شمس المعالى قابوس بن وشمكير بن زيار الديلمى، واستولى على جرجان،ومزق جيوش مجد الدولة شر ممزق، كما يتبين من عبارة ابن الأثير (٣) :

« فلما كانت هذه السنة (٣٨٨ ﻫ) بعد موت فخر الدولة ، سير شمس المعالى قابوس الإصبهبذ شهريار بن شروين إلى جبل شهريار ، وعليه رستم بن المرزبان خال مجد الدولة بن فخر الدولة ، فاقتتلا ، فانهزم رستم،واستولى إصبهبذ على الجبل،وخطب لشمس المعالى . وكان باتى بن سعيد بناحية الاستدارية، وله ميل إلى شمس المعالى ، فسار إلى آمل وبها عسكر لمجد الدولة ، فطردهم عنها،واستولى عليها،وخطب لقابوس وكتب إليه بذلك . ثم إن أهل جرجان كتبوا إلى قابوس يستدعونه ، فسار إليهم من نيسابور ، وسار إصبهبذ وباتى بن سعيد إلى جرجان وبها عسكر لمجد الدولة ، فالتقوا واقتتلوا ، فانهزم عسكر مجد الدولة إلى جرجان . فلما بلغوها صادفوا مقدمة قابوس قد بلغتها ، فأيقنوا بالهلاك وانهزموا من أصحاب قابوس هزيمة ثانية ، وكانت قرحا على قرح ، ودخل شمس المعالى جرجان فى شعبان من هذه السنة (٣٨٨ ﻫ) . وبلغ المنهزمون الرى ، فجهزت العساكر من الرى نحو جرجان ، فساروا وحصروها ، فغلت الأسعار بالبلد ، وضاقت الأمور بالعسكر أيضا ، وتوالت عليهم الأمطار والرياح، فاضطروا إلى الرحيل . فتبعهم شمس المعالى ، فلحقهم وواقعهم فاقتتلوا ، وانهزم عسكر الرى وأسر من أعيانهم جماعة كثيرة ، وأسر أكثر منهم ، فأطلق شمس المعالى الأسرى،واستولى على تلك الأعمال مابين جرجان واستراباذ ، ثم إن الإصبهبذ حدّث نفسه بالاستقلال والتفرد عن قابوس ، واغتر بما اجتمع عنده من الأموال والذخائر ، فسارت إليه العساكر من الرى وعليها المرزبان خال مجد الدولة،

---

(١) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم جـ ٣ ص ١٦٦ ، ١٦٩ ، وابن الأثير جـ ٩ ص ٢٤ . أنظر من هذا الكتاب

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٨

(٣) جـ ٩ ص ٥٢ — ٥٣

فهزموا إصبهبذ وأسروه ، ونادوا بشعار شمس المعالى لوحشة كانت عند المرزبان من مجد الدولة ، وكتب إلى شمس المعالى بذلك ، وانضافت مملكة الجبل جميعها إلى ممالك جرجان وطبرستان ، فولاها شمس المعالى ولده منوجهر » .

على أن ملك مجد الدولة لم تتوطد أركانه فى عهده الطويل الذى بلغ ثلاثا وثلاثين سنة . ويرجع ذلك إلى صغر سنه كما تقدم ، وطمع بعض الأمراء فى السلطة ، واستبداد أمه بالأمر دونه ، « حتى جعلته كالمحجور عليه » ، مما أثار حنقه عليها ، وجعله يعمل على التخلص من نفوذها . فلما فطنت إلى ما يراد بها ، هربت من الرى ، واستعانت بابنها الثانى شمس الدولة أبى طالب صاحب همذان وقرميسين ، كما استعانت ببدر بن حسنويه الكردى أمير الجبل من قبل مجد الدولة ، الذى استعان به زوجها فخر الدولة من قبل على بهاء الدولة . وعادت إلى الرى ، وحبست مجد الدولة ، وأجلست ابنها شمس الدولة على العرش فى سنة ٣٩٧ هـ ، فتقلد الأمور نحوا من سنة « صارت فيها تدبر الأمر وتسمع رسائل الملوك وتعطى الأجوبة » . وأثارت كذلك حنق شمس الدولة الذى أصبح معها كالمحجور عليه ، « فرأت والدته منه تنكرا وتغيرا ، وأن أخاه مجد الدولة ألين عريكة ، فأعادته إلى الملك » . وعاد شمس الدولة إلى همذان ، وأخذ يعمل على امتلاك بلاد أخيه من جديد ، وجمع الجيوش لتحقيق أغراضه ، ولكنه لم يظفر بشىء رغم مساعدة بدر بن حسنويه له . ولم يلبث شمس الدولة أن ضم الى بلاده بلاد الجبل التى كان يليها بدر بن حسنويه الذى قتل فى سنة ٤٠٥ هـ ، وهزم حفيده طاهر بن هلال بن بدر ، الذى حاول استرداد ملك جده ، وأسره . وقد حاول أبوه هلال بن بدر ، الذى كان محبوسا عند سلطان الدولة بن بهاء الدولة (٤٠٣ — ٤١١ هـ) ، استرداد ملك أبيه بمساعدة سلطان الدولة ، ولكنه أسر وقتل . وبذلك ازدادت مطامع شمس الدولة ، فعمل على إقصاء أخيه وأمه من بلاد الرى ، وأرغمهما على الرحيل عنها ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى همذان على أثر شغب الجند عليه (١) .

ذكر ابن الأثير (٢) فى حوادث سنتى ٤٠٧ و ٤٠٨ هـ ، بصدد كلامه على الشقاق الذى قام بين سلطان الدولة بن بهاء الدولة وبين أخيه قوام الدولة أبى الفوارس صاحب كرمان ، أن قوام الدولة هذا لما اضطر إلى التقهقر من سلطان الدولة ، لحق بشمس الدولة بن فخر الدولة ثم بمهذب الدولة صاحب البطيحة ، وانتهى الأمر بإعادة كرمان إلى قوام الدولة أبى الفوارس الذى اعترف بزعامة أخيه سلطان الدولة .

ولم تطل أيام أولاد ركن الدولة فى همذان وقرميسين ؛ فقد استعان شمس الدولة بعلاء الدولة أبى جعفر بن كاكويه الذى كان يلى أصبهان من قبل مجد الدولة ، على الأتراك الذين تفاقم شرهم وكثرت مشاغباتهم عليه . وعلى الرغم من قضائه عليهم فى سنة ٤١١ هـ ، أخذت قوته تضعف سريعا

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٧٦ و ٩٢ — ٩٣ .

(٢) جـ ٩ ص ١٠٩ — ١١٠ . انظر ص ١٣٥ — ١٣٦ من هذا الكتاب .

وسلطانه يضمحل ، وتمكن ابن كاكوية من القضاء على ابنه سماء الدولة أبى الحسن فى سنة ٤١٤ هـ ، « وقبض على أمراء الديلم الذين بهمذان ، وسجنهم بقلعة عند أصبهان ، وأخذ أموالهم وإقطاعهم ، وأبعد كل من فيه شر من الديلم ، وترك عنده من يعلم أنه لاشر فيه . وأكثر القتل ، فقامت هيبته وخافه الناس ، وضبط المملكة » . (١) وبذلك زال سلطان ركن الدولة وأولاده نهائيا من همذان وقرميسين .

كذلك لم تطل أيام أولاد ركن الدولة فى الرى ، فإن مجد الدولة بن فخر الدولة ، الذى استبدت أمه بالأمر دونه ، وانصرف إلى المطالعة والدرس ، فطمع جنده فيه واختلت أحوال بلاده بعد وفاة أمه ، استنجد فى سنة ٤٢٠ هـ بيمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١ هـ) ، فأرسل إليه جيشا قبض عليه وعلى ابنه أبى دلف ، واستحوذ على ما كان فى خزائنه من الأموال ، واستولى على الرى وأزال عنها سلطان البويهيين نهائيا (٢) .

الدولة الحمـــــدانية (٣)

(فى الموصل وحلب وغيرهما)

٣١٧ — ٣٩٤ هـ = ٩٢٩ — ١٠٠٣ م

١ — فى الموصل

	هجرية	ميلادية
١) ناصر الدولة أبو محمد الحسن	٣١٧	٩٢٩
٢) عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر	٣٥٨	٩٦٨
	٣٦٩	٩٧٩
٣) أبو طاهر ابراهيم	٣٧١	٩٨١
أبو عبد الله الحسين	٣٨٠	٩٩١

[البويهيون والعقيليون]

٢ — فى حلب

١) سيف الدولة أبو الحسن على	٣٣٣	٩٤٤
٢) سعد الدولة أبو المعالى شريف	٣٥٦	٩٦٧
٣) سعيد الدولة أبو الفضائل سعد	٣٨١	٩٩١
٤) أبو الحسن على	٣٩٢	١٠٠١
أبو المعالى شريف	٣٩٤	١٠٠٣

[الفاطميون]

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٢٣ .

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٣٩ . ومن الدول المستقلة أيضا الدولة السلجوقية التى ذكرنا شيئا عن علاقتها ببنى بويه والعباسيين إلى أن قضوا على بغداد فى سنة ٤٤٧ هـ ، وبالغزنويين . وقد آثرنا إرجاء بحث تاريخهم منذ نشأتهم فى شىء من الإسهاب إلى الجزء الرابع من هذا الكتاب إن شاء الله .

(٣) أنظر كتاب Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 112 — 3

جدول يمثل أمراء الحمدانيين

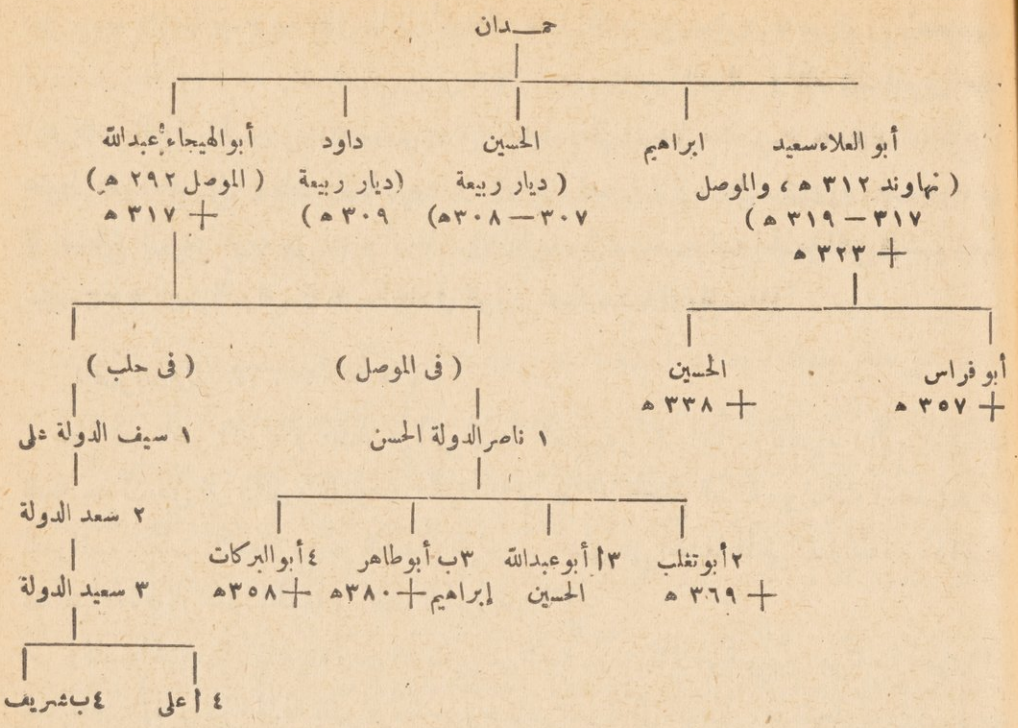

١ — فى الموصل

تمهيد :

ينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون ، من قبيلة تغلب العربية الأصل التى قامت بضواحى مدينة الموصل . وقد قام حمدون بدور هام فى الحوادث السياسية التى وقعت فى هذه المدينة منذ سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) . وقد تحالف مع هارون الشارى الخارجى فى سنة ٢٧٢ هـ ، واستولى على قلعة ماردين بعد ذلك بقليل ، وحاربه الخليفة المعتضد فى سنة ٢٨١ هـ ، فهرب حمدان تاركا ابنه الحسين عليها . واستولى الخليفة على ماردين ، وطارد حمدان وظفر به بعد قليل ، وسجنه فى بغداد ، واستمر فى سجنه حتى هزم ابنه الحسين هارون الخارجى وخلع عليه المعتضد ، « وطوقه ، وخلع على إخوته ... وأمر بحل قيود حمدان بن حمدون (١) والتوسعة عليه والإحسان إليه ووعد باطلاقه »(٢) . ومن ذلك الوقت بدأت شهرة الحمدانيين ، فاشتهر الحسين بن حمدان فى حروبه مع القرامطة ، وبمناصرته عبدالله بن المعتز الذى استولى على الخلافة من المقتدر مدة قصيرة ، فكرهه المقتدر وأقصاه ، ثم عفا عنه بتوسط أخيه ابراهيم ، وولاه قم وقاشان . ولكنه لم يلبث أن تنازع مع الخليفة المقتدر ، فحبسه حتى مات فى سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨ — ٩١٩ م) .

---

(١) وردت فى ابن الأثير (ج ٧ ص ١٧) ابن حمدان .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٦٦ — ١٦٧ ، ١٦٩ — ١٧٠ .

قلد الخليفة المقتدر أبا الهيجاء عبدالله بن حمدان الموصل وما يليها فى سنة ٢٩٢ هـ ، وولى أخاه إبراهيم ديار ربيعة فى سنة ٣٠٧ هـ ، فظل بها إلى أن خلفه عليها أخوه داود سنة ٣٠٩ هـ ، كما ولى أخاه سعيدا نهاوند فى سنة ٣١٢ هـ ، وقلد غيرهم من بنى حمدان بعض مناصب الدولة . وأناب عبد الله بن حمدان ابنه ناصر الدولة الحسن (٣١٧ — ٣٥٨ هـ) عنه فى حكم الموصل سنة ٣٠٨ هـ ، وقد استطاع أن يحتفظ بنفوذه فيها إلى أن مات فى سنة ٣٥٨ هـ ، إلا فترة قصيرة لا تزيد على سنتين (٣١٧—٣١٩هـ)، كما استطاع أن يمد نفوذه على جميع أرجاء ديار بكر وديار ربيعة ، ولقبه الخليفة المتقى فى شهر شعبان سنة ٣٣٠ هـ ناصر الدولة ، كما لقب أخاه فى الوقت نفسه سيف الدولة . (١)

ناصر الدولة (٣١٧ — ٣٥٨ هـ)

سطع نجم ناصر الدولة بن حمدان فى أفق الدولة العباسية ، كما رأينا ، وتقلد إمرة الأمراء فى هذه السنة بعد أن قتل ابن رائق ونال رضاء الخليفة المتقى لله(٢)؛ فأصلح السكة ، ولكنه اشتط فى فرض الضرائب ، فغلت الأسعار ، وعز الطعام واللباس ، وضيق على الخليفة المتقى لله فى نفقاته ، وانتزع منه ضياعه ، فأثار حنق الخليفة وسخط الناس عليه (٣)

وقامت الحروب الأهلية بينه وبين البريديين من ناحية ، وبين هؤلاء والبويهيين من ناحية أخرى(٤). لهذا نعجب إذا رأينا الخليفة ينتهز فرصة خروج ناصر الدولة إلى الموصل ، فيستنجد بتوزون ، ويمهد له السبيل لدخول بغداد فى شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ . « وهكذا لم يستطع زعماء الحمدانيين من العرب البقاء فى بغداد أكثر من سنة واحدة ، واضطروا إلى العودة الى الموصل» . (٥)

وسرعان ما قام العداء بين توزون والخليفة العباسى الذى لجأ إلى ناصر الدولة بن حمدان ، وقامت الحرب بين الفريقين فى عكبرة التى تبعد عن بغداد شمالا بعشرة فراسخ ، وانهزم ابن حمدان والخليفة إلى الموصل ثم إلى نصيبين . وقد شجعت هزائم الحمدانيين والخليفة، توزون على استخلاص الموصل من ناصر الدولة بن حمدان ، وانتهت هذه الحروب بعقد الصلح بين توزون وناصر الدولة بن حمدان، الذى أقر على ما بيده من البلاد ثلاث سنوات ، على أن يؤدى ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم فى كل سنة . ولم يقف النزاع بين توزون والبريديين من ناحية ، وبينه وبين الحمدانيين والخليفة المتقى من ناحية أخرى ، حتى إن الخليفة مل من الحمدانيين بعد أن استفحل خطرهم ، وكاتب توزون فى الصلح . ولكن محمد بن طغج الإخشيد ، الذى التقى بالخليفة فى الرقة ، نصح له بالمسير معه الى مصر ، فلم يقبل ، وعاد إلى بغداد ، وعاد الاخشيد إلى مصر . وكان الخليفة المتقى يستعين على توزون تارة بناصر الدولة بن حمدان فى الموصل، وأخرى ببنى بويه الذين أخذت قوتهم تزداد . ولكن ذلك لم يغنه شيئا ، فسعل توزون

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٨ . (٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٥ .
(٣) أبوبكر الصولى : كتاب أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٤٠ ، ٢٤٢ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٣٣ — ٢٣٧ . (٥) انظر ص ٧٨ — ٨٠ من هذا الكتاب.

عينى الخليفة وحبسه ، وولى المستكفى الخلافة (صفر سنة ٣٣٣هـ).[١] ثم مات توزون بعد قليل (المحرم سنة ٣٣٤هـ) ، وتولى ابن شيرزاد إمرة الأمراء . وقد قيل إنه رغب فى تحويل إمرة الأمراء إلى ناصر الدولة بن حمدان ، إلا أن الجند أبوا عليه ، وأقرهم الخليفة على ذلك .

وسرعان مادخل بنو بويه بغداد (سنة ٣٣٤هـ) ، ودخلت العلاقة بين البويهيين والخلافة العباسية فى طور جديد . وكانت سياسة بنى بويه ترمى إلى الحد من نفوذ ناصر الدولة بن حمدان فى الموصل ؛ فنرى معز الدولة بن بويه يسير بصحبة الخليفة المطيع لمحاربة ناصر الدولة ، ويلتقى الجيشان عند عكبرة ، ويتمكن ابن شيرزاد أن يدخل بغداد ويحكمها باسم ناصر الدولة ، ثم يلحق به هذا بعد قليل ويخطب للمتقى على منابر بغداد ويضرب السكة باسمه . ولم يستطع معز الدولة أن يسترد بغداد إلا بعد أربعة أشهر ، ويرغم ناصر الدولة على الارتداد إلى الموصل ، ويستقر الصلح بينهما فى أوائل سنة ٣٣٥ هـ . ولكن العلاقة بين الحمدانيين والبويهيين لم تستقر ، بل أخذ النزاع يدب بينهم من حين إلى حين .

وفى سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ — ٩٥٧ م) تفاقم النزاع بين معز الدولة بن بويه وناصر الدولة بن حمدان ، الذى اتخذ من خروج معز الدولة من بغداد لإخماد الثورة فى الأهواز ، فرصة لدخول بغداد والاستيلاء عليها . ولما قضى معز الدولة على هذه الثورة ، رحل الحمدانيون عن بغداد ، وامتنع ناصر الدولة عن إرسال الأموال المقررة عليه لدار الخلافة ، فاستولى معز الدولة على الموصل ونصيبين ، وأرسل جيشا إلى الرحبة ، وأرغم ناصر الدولة على الهرب إلى ميافارقين ثم إلى حلب ، وكان أخوه سيف الدولة مستقلا بها ، وحاول إبرام الصلح مع معز الدولة ، ولكنه لم يتم إلا بعد أن تدخل سيف الدولة الحمدانى ، وأخذ على عاتقه أداء ماعلى أخيه من الأموال . يقول ابن الأثير [٢] :

« فتجهز معز الدولة إلى الموصل وسار نحوها منتصف جمادى الأولى (سنة ٣٤٧ هـ) . ومعه وزيره المهلبى ، ففارقها ناصر الدولة إلى نصيبين ، واستولى معز الدولة على الموصل . فكان من عادة ناصر الدولة إذا قصده أحد ، سار عن الموصل واستصحب معه جميع الكتاب والوكلاء ومن يعرف أبواب المال ومنافع السلطان ، وربما جعلهم فى قلاعه ، كقلعة كواشى والزعفران وغيرهما . وكانت قلعة كواشى تسمى ذلك الوقت قلعة أردمشت . وكان ناصر الدولة يأمر العرب بالإغارة على العلافة ومن يحمل الميرة ، فكان الذى يقصد بلاد ناصر الدولة يبقى محصورا مضيقا عليه . فلما قصد معز الدولة هذه المرة فعل ذلك به ، فضاقت الأقوات على معز الدولة وعسكره ، وبلغه أن بنصيبين من الغلات السلطانية شيئا كثيرا ، فسار عن الموصل نحوها ، واستخلف بالموصل سبكتكين الحاجب الكبير . فلما توسط الطريق بلغه أن ولدى [٣] ناصر الدولة أبا المرجا ، وهبة الله بسنجار فى عسكر ، فسير إليهم عسكرا ، فلم يشعر ولدا ناصر الدولة بالعسكر إلا وهم معهم ، فعجلوا عن أخذ أثقالهم ، فركبوا دوابهم وانهزموا . ونهب عسكر معز الدولة ماتركوه ونزلوا فى خيامهم ، فعاد ولدا ناصر الدولة إليهم وهم

---

(١) أبو بكر الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٨٢ — ٢٨٣ ، أنظر ص ٨٤ — ٨٥ من هذا الكتاب .

(٢) ج ٨ ص ١٨٣ — ١٨٩ .

(٣) ذكر ابن الأثير أولاده ولكنه لم يذكر سوى اسمى ناصر الدولة وهبة الله فقط .

غارّون (١)، فوضعوا السيف فيهم، فقتلوا وأسروا وأقاموا بسنجار. وسار معز الدولة إلى نصيبين، ففارقها ناصر الدولة إلى ميافارقين، ففارقه أصحابه وعادوا إلى معز الدولة مستأمنين. فلما رأى ناصر الدولة ذلك، سار إلى أخيه سيف الدولة بحلب؛ فلما وصل خرج إليه ولقيه وبالغ فى إكرامه، وخدمه بنفسه، حتى إنه نزع خفه بيديه. وكان أصحاب ناصر الدولة فى حصونه ببلد الموصل والجزيرة يغيرون على أصحاب معز الدولة بالبلد، فيقتلون فيهم ويأسرون منهم ويقطعون الميرة عنهم. ثم إن سيف الدولة راسل معز الدولة فى الصلح، وترددت الرسل فى ذلك، فامتنع معز الدولة من تضمين ناصر الدولة، لخلفه معه مرة بعد أخرى. فضمن سيف الدولة البلاد منه بألفى ألف درهم وتسعمائة ألف درهم، وإطلاق من أسر من أصحابه بسنجار وغيرها، وكان ذلك فى المحرم سنة ثمان وأربعين (وثلثمائة). وإنما أجاب معز الدولة إلى الصلح بعد تمكنه من البلاد، لأنه ضاقت عليه الأموال، وتقاعد الناس فى حمل الخراج، واحتجوا بأنهم لا يصلون إلى غلاتهم، وطلبوا الحماية من العرب أصحاب ناصر الدولة، فاضطر معز الدولة إلى الانحدار وأنف من ذلك. فلما وردت عليه رسالة سيف الدولة، استراح إليها وأجابه إلى ماطلبه من الصلح، ثم انحدر إلى بغداد».

كانت الأموال التى تعهد ناصر الدولة الحمدانى بإرسالها إلى معز الدولة مثار النزاع بينهما. فإن معز الدولة طلب زيادة الأموال، فلم يجبه ناصر الدولة، وقامت الحرب بينهما، واستولى البويهيون على الموصل ونصيبين وغيرهما من البلاد التابعة لناصر الدولة، الذى امتاز ابنه أبو تغلب الغضنفر بكثرة مفاجآته لجيوش البويهيين وشدة وطأته عليها، حتى إنه لما أرسل إلى معز الدولة يطلب الصلح، أجابه إلى ذلك، «لأنه علم متى فارق الموصل عادوا وملكوها، ومتى أقام بها لا يزال مترددا وهم يغيرون على النواحى، فأجابه إلى ما التمسه، وعقد عليه ضمان الموصل وديار ربيعة والرحبة وما كان فى يد أبيه بمال قرره، وأن يطلق من عندهم من الأسرى، فاستقرت القواعد على ذلك، ورحل معز الدولة إلى بغداد» (٢).

ويظهر أن الحوادث السيئة التى تتابعت على ناصر الدولة الحمدانى قد أثرت فى حالته النفسية تأثيرا شديدا: فضمان أخيه سيف الدولة له بأن يقوم بدفع الأموال المقرره عليه لمعز الدولة (٣٤٧ هـ)، وعقد معز الدولة لابنه أبى تغلب ضمان الموصل وديار ربيعة والرحبة وما كان فى يده بمال مقرر (٣٥٣ هـ)، وموت أخيه سيف الدولة الذى كان شديد المحبة له (٣٥٦ هـ) — كل ذلك حز فى نفس ناصر الدولة، حتى تغيرت أحواله، «وساءت أخلاقه، وضعف عقله، ولم يبق له حرمة عند أولاده وجماعته، فقبض عليه ولده أبو تغلب فضل الله الملقب عدة الدولة المعروف بالغضنفر بمدينة الموصل، باتفاق من إخوته... ولم يزل محبوسا بها إلى أن توفى يوم الجمعة وقت العصر ثانى عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة».

---

(١) غافلون.

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٨.

أبو تغلب بن ناصر الدولة (٣٥٨ — ٣٦٩ هـ)

وبعد وفاة ناصر الدولة فى سنة ٣٥٨ هـ ، أسرع إلى الدولة الحمدانية فى الموصل الضعف والانحلال ، واختلف أولاده على أنفسهم ، وصاروا شيعا وأحزابا ، مما أدى إلى ضعفهم ، وطرد أبى تغلب الغضنفر من الموصل على أيدى بنى بويه فى سنة ٣٦٧ هـ . ولكن استرداد الموصل على أيدى أخويه أبى طاهر إبراهيم وأبى عبد الله الحسين ، إنما كان استردادا وقتيا وانتعاشا قصير المدى .

وقد بدأ الخلاف بين أولاد ناصر الدولة فى حياته ، فرأى بعضهم أن يستولوا على ملك منافسيهم البويهيين فى العراق بعد موت معز الدولة بن بويه سنة ٣٥٦ هـ . وكان أبوهم ناصر الدولة لا يتفق معهم فى هذا الرأى ، حتى إن أبا تغلب قبض على أبيه فى سنة ٣٥٦ هـ وحبسه كما تقدم . على أن الخلاف لم يقف عند هذا الحد ، فقد « كان أبو تغلب وأبو البركات وأختهما جميلة أولاد ناصر الدولة من زوجته فاطمة بنت أحمد الكردية ، وكانت مالكة أمر ناصر الدولة ، فاتفقت مع ابنها أبى تغلب وقبضوا ناصر الدولة ، فابتدأ ناصر الدولة يدبر فى القبض عليهم ، فكاتب ابنه حمدان يستدعيه ليتقوى به عليهم ، فظفر أولاده بالكتاب فلم ينفذوه ، وخافوا أباهم وحذروه ، فحملهم خوفه على نقله إلى قلعة كواشى . واتصل ذلك بحمدان ، فعظم عليه وصار عدوا مباينا ، وكان أشجعهم . وكان قد سار عند وفاة عمه سيف الدولة من الرحبة إلى الرقة فملكها ، وسار إلى نصيبين وجمع من أطاعه ، وطالب إخوته بالإفراج عن والده وإعادته إلى منزله ، فسار أبو تغلب إليه ليحاربه ، فانهزم حمدان قبل اللقاء إلى الرقة ، فنازله أبو تغلب وحصره ، ثم اصطلحا على دخن[1] ، وعاد كل واحد منهما إلى موضعه . وعاش ناصر الدولة الحسن بن أبى الهيجاء عبدالله بن حمدان بن حمدون التغلبى شهورا ، ومات فى ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة » . [2]

وقد استمر النزاع بعد وفاة ناصر الدولة بين أولاده ، وانقسموا إلى فريقين : فريق يناصر حمدان ابن ناصر الدولة ، وفريق آخر يناصر أخاه أبا تغلب . ولكن الهزائم تتابعت على حمدان ، فلجأ إلى بختيار بن معز الدولة فى بغداد ، فأكرم وفادته ، وتوسط فى الصلح بينه وبين أخيه ، وأرسل النقيب أبا أحمد الموسوى والد الشريف الرضى سفيرا فى الصلح بين ولدى ناصر الدولة . وقد دفع بختيار إلى اختيار أبى أحمد الموسوى أنه من العلويين ، الذين كان يميل إليهم الحمدانيون والبويهيون على السواء . وظهرت الحكمة التى أوحت إلى بختيار باختياره ، إذ تم الصلح بين الأخوين وعاد حمدان إلى الرحبة[3] ، وكان أخوه أبو تغلب قد استولى عليها منه ، وأناب عليها أخاه أبا البركات (٣٥٨ — ٣٥٩ هـ) . على أن النزاع لم ينته بهذا الصلح ، بل تجدد فى عنف وشدة ، حتى إن حمدان قتل أخاه أبا البركات (٣ رمضان

---

(١) يقال هدنة على دخن أى صلح على غش . (٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٣ .

(٣) بضم الراء وسكون الحاء وفتح الباء ، تقع بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات جنوبى قرقيسيا — أنظر لفظ الرحبة فى معجم البلدان لياقوت .

سنة ٣٥٩ هـ)، واشتد الصراع بين أبى تغلب وحمدان، الذى حلت به الهزيمة، فسار إلى بغداد، ولجأ مع أخيه إبراهيم إلى بختيار من جديد، فتلقاهما بالقبول وأكرمهما، وأصبح الحمدانيون جماعتين: جماعة بزعامة حمدان وإبراهيم يساعدهما بختيار، وجماعة بزعامة أبى تغلب وأخيه الحسين. (١)

صفا الجو لأبى تغلب بعد أن أحل الهزيمة بأخيه حمدان، فاستولى على حران (٣٥٩ هـ)، ولكنه عجز عن الوقوف فى وجه الروم، الذين أغاروا على الرها ووصلوا إلى نصيبين وديار بكر. وعلى الرغم من حالة الضعف التى سادت بين أفراد البيت الحمدانى، كان أبو تغلب، كأبيه ناصر الدولة، ينفس على البويهيين ازدياد نفوذهم، ويعمل على إزالة سلطانهم من العراق. فلما قصد بختيار بلاد الموصل لمساعدة حمدان على أخيه أبى تغلب، انتهز هذا فرصة إبتعاد بختيار عن بغداد وخلوها من جنده، وقصدها، وكاد يستولى عليها. وتآمر على سبكتكين قائد بختيار على القبض على الخليفة والوزير، وعلى أم بختيار، تم التفرغ للقضاء عليهما فى الموصل وأخذ السلطنة منه. وقد خشى بختيار بأس هذا المنافس، وعمل على مصالحته، فأجابه خوفا وتحالفا «على أن يضمن أبو تغلب البلاد على ما كانت معه، وعلى أن يطلق لبختيار ثلاثة آلاف كر غلة عوضا عن مؤنة سفره، وعلى أن يرد على أخيه حمدان أملاكه وإقطاعه إلا ماردين ... وأن يلقب (أبو تغلب) لقبا سلطانيا، وأن يسلم إليه زوجته ابنة بختيار». ولكن الحرب تجددت بينهما، وانتهت بإقرار هذا الصلح فى سنة ٣٦٣ هـ. (٢)

وإن هذه الحرب التى قامت بين أبى تغلب بن ناصر الدولة الحمدانى وبين عضد الدولة بن ركن الدولة البويهى، لتبين لنا مدى المنافسة بين أبناء ناصر الدولة. فإن بختيار لما خرج من بغداد فى سنة ٣٦٧ هـ، حسن له حمدان بن ناصر الدولة فتح الموصل التى كانت بيد أخيه أبى تغلب وأطمعه فيها. ولكن أبا تغلب طلب من بختيار أن يسلمه أخاه حمدان، مقابل مساعدته له على ابن عمه عضد الدولة، وطرده من بلاد العراق، على الرغم من صلة المودة التى كانت تربط أبا تغلب بعضد الدولة. ولكن الهزيمة حلت ببختيار وحليفه، فلم ينس عضد الدولة لأبى تغلب هذا العمل، فاستولى على الموصل وديار ربيعة وميافارقين وآمد وديار ربيعة وديار مضر فى سنتى ٣٦٧، ٣٦٨ هـ. وقد أراد أبو تغلب أن يتبع مع عضد الدولة سياسة كسب الوقت كما يقولون، بأن يطلب منه الصلح؛ فإذا طال به المقام فى بلاد الحمدانيين، فكر فى الانتقال إلى بغداد، وبذلك تتاح لأبى تغلب الفرصة لاستردادها. ولكن عضد الدولة كان «أحزم من ذلك، فإنه لما قصد الموصل، حمل معه الميرة والعلوفات ومن يعرف ولاية الموصل وأعمالها، وأقام بالموصل مطمئنا، وبث السرايا فى طلب أبى تغلب، فأرسل أبو تغلب يطلب أن يُضمَّن البلاد، فلم يجبه عضد الدولة إلى ذلك وقال: هذه البلاد أحب إلىّ من العراق». (٣)

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٣ — ٢١٤.

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٦ — ٢٢٨.

(٣) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ — ٢٣٧، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٠ — ٢٥٣.
انظر هذا الكتاب ص ١١٠ — ١١١.

ولما خرجت هذه البلاد من يد أبي تغلب الحمداني، عول على قصد دمشق واتخاذها مركزاً لولايته، فامتنعت عليه، فلجأ إلى الفاطميين فى مصر، وطلب منه الخليفة العزيز بالله الفاطمى القدوم إلى القاهرة لإمداده بالمال والرجال، فلم يقبل، خشية أن يكون فى هذا خديعة للفتك به؛ ورحل إلى طبرية وتبودلت الرسل بينهما. وقد خرج فى ذلك الوقت دغفل بن مفرج الطائى أمير الرملة من قبل العزيز بالله الفاطمى، وقاد الطائيين وعمل على طرد العُقيليين من الشام، ولجأ هؤلاء إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة وطلبوا منه المعونة، لكنه اعتذر عن إجابة طلبهم حتى لا يثير حنق الخليفة الفاطمى عليه، بل توسط بينهم وبين هذا الخليفة، وخشى دغفل بن مفرج، والفضل بن صالح — وكان قد أرسله العزيز على رأس جيش لقمع الثورة فى دمشق — خطر أبي تغلب وحارباه هو وبنى عقيل، وأحلا به الهزيمة وقتلاه، وذلك فى شهر صفر سنة ٣٦٩ هـ (١).

على أن الحمدانيين استعادوا الموصل وما يليها فى سنة ٣٧٩ هـ على يد أبي طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة، وأخيه أبي عبد الله الحسين، وذلك «أنه لما توفى شرف الدولة، شرع أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا حمدان فى الخروج إلى الموصل واستأذنا فى ذلك، فوجدا رخصة انتهزا بها الفرصة، فأصعدا بأهلهما أجمعين. وعلم من بالحضرة وقوع الغلط فى إصعادهما، فكوتب أبو نصر خواشاذة بدفعهما وردهما. فلما وصلا إلى الحديثة راسلهما أبو نصر بالرجوع من حيث جاءا، فهما إن خالفاه ودخلا البلد قبض عليهما، فأجاباه جواباً جميلا ببذل الطاعة وقبول ما يؤمران به، وعاد الرسول، وسارا على إثره حتى نزلا بالدير الأعلى. وثار أهل الموصل على الديلم والأتراك، فنهبوا أرحالهم وأخذوا أموالهم، وخرجوا إلى ابنى حمدان وأظهروا المباينة والعصيان. فأنفذ أبو نصر من كان معه من العسكر لقتالهم، فقامت الحرب بينهم إلى العصر، ثم انهزم أصحاب السلطان وهلك منهم عدد كثير قتلا وغرقا، ولحق الباقون بأبي نصر، فاعتصموا بدار الإمارة التى هو نازل فيها، وتبعهم ابنا حمدان والعامة، فغُلقت الأبواب دونهم، واستوعب القتال بقية النهار، ثم حجز الليل بينهم، وعاد ابنا حمدان إلى مُخيَّمهما» (٢).

لم يبق الحمدانيون بعد استيلائهم على الموصل سنة ٣٧٩ هـ أكثر من سنة، فقد طمع الأكراد فى إزالة دولتهم. وعلى الرغم من قتل باذ الكردى أحد زعمائهم، تمكن ابن اخته أبو على بن مروان من الانتصار على أبي عبد الله الحسين أخى أبي تغلب بن ناصر الدولة الحمدانى، وإرساله إلى مصر فى سنة ٣٨٠ هـ بشفاعة الخليفة العزيز بالله الفاطمى.

وقتل أبو الزواد محمد بن المسيب أمير بنى عقيل أبا طاهر بن ناصر الدولة الحمدانى، واستولى على الموصل فى هذه السنة، فأقره بهاء الدولة البويهى عليها. وبذلك زال سلطان الحمدانيين نهائيا من

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤١

(٢) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٧٤ — ١٧٥

الموصل وما يليها ، وحلت محلها دولة العقيليين (١) ، حيث استولى أبو ذواد محمد من الحمدانيين فى سنة ٣٧٩ هـ على مدينتى نصيبين وبلد ، وضم إليهما الموصل فى السنة التالية ، ولكنه طرد منها على أيدى بنى بويه فى سنة ٣٨١ هـ إلى أن استولى أخوه المقلد بن المسيب العقيلى على الموصل فى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) ، وأقره بهاء الدولة البويهى على هذه البلاد وما يليها (٢) .

٢ — فى حلب

سيف الدولة (٣٣٣ — ٣٥٦ هـ)

ذكرنا أن الخليفة المتقى لقب الحسن بن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان ناصر الدولة ، ولقب أخاه عليا سيف الدولة فى شهر شعبان سنة ٣٣٠ هـ ، وأن سيف الدولة أصبح الساعد الأيمن لأخيه ناصر الدولة فى حروبه مع البريديين والأتراك ؛ فتراه يستولى على مدينة واسط من البريديين ويعمل على ضم البصرة إليه ، ولكنه لا يستطيع لقلة المال عنده بيد أن علاقة المودة التى كانت تربط الحمدانيين بالأتراك وعلى رأسهم توزون ، لم تلبث أن تبدلت ؛ وثار الاتراك على سيف الدولة بواسط ، فهرب من معسكره إلى بغداد ، ثم لحق بأخيه ناصر الدولة الذى كان يلى إمرة الأمراء ، وأرغم أمام ثورات الاتراك على المسير إلى الموصل . وانتهز سيف الدولة فرصة النزاع الذى قام فى واسط بين الاتراك وعلى رأسهم توزون ، وعول على أخذ بغداد ، وساعده الخليفة المتقى سرا ، ولكن سيف الدولة لم يستطع البقاء فى بغداد التى استولى عليها توزون .

سار سيف الدولة الحمدانى إلى حلب سنة ٣٣٣ هـ فملكها (٣) ، وهرب إلى مصر يانس المؤنسى الخصيّ ، الذى وليها من قبل الإخشيد ، فأرسل الإخشيد ، جيشا لمحاربته بقيادة كافور ومعه يانس ، فتقابلا مع الحمدانيين عند الرستن الواقعة على نهر العاصى الذى يمر بالقرب من حماه ، فحلت الهزيمة بالمصريين ، وأسر منهم أربعة آلاف ، عدا القتلى والغرقى .

وتقدم سيف الدولة يريد دمشق ؛ فسار إليه الإخشيد بنفسه فى جيش كثيف ، هزمه الحمدانيون فى قنسرين . على أن الإخشيد انتهز فرصة انشغال العدو بجمع الغنائم واقتسامها ، فأطلق عشرة آلاف من صناديد جنده ، فبددوا شمل العدو . ودخل الإخشيد حلب حاضرة الحمدانيين . واستردّ دمشق . إلا أنه — على الرغم من انتصاره — تصالح مع الحمدانيين ، على أن يترك لهم حلب ، وما يليها من بلاد الشام شمالا ، وتعهد بأن يدفع لهم جزية سنوية كفاء احتفاظه بدمشق (٤) .

---

(١) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

(٢) Stanely Lane Poole ;Muhammadan Dynasties, pp. 116—7

(٣) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٦) أن أول من ملك حلب من بنى بويه هو الحسين بن سعيد أخو أبى فراس الحمدانى الشاعر المشهور ، وذلك فى شهر رجب سنة ٣٣٢ هـ .

(٤) أبو المحاسن . ج ٣ ص ٢٧٨ ، ٢٨٢ — ٢٨٣ ، انظر أيضا ابن الأثير ج ٨ ص ١٥٩ — ١٦٠ ، حسن ابراهيم حسن : مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، المجلد السادس — مايو سنة ١٩٤٢ ص ٢٩

ولعل الإخشيد كان يرمى من وراء إبرام الصلح على هذه الصورة ، أن يُبقى الدولة الحمدانية حصنا منيعا يكفيه مؤونة محاربة البيزنطيين ، الذين كانوا لا يفترون عن مهاجمة الولايات الإسلامية المتاخمة لبلادهم ، والذين أغاروا سنة ٣٣١ هـ على أرْزَن وميَّافارقين ونصيبين ، فقتلوا وسَبوا كثيرا من المسلمين ، ثم دخلوا فى السنة التالية [٣٣٢ هـ] رأس العين ، المدينة الكبيرة المشهورة فى بلاد الجزيرة ، بين حَرَّان ونصيبين ، فى ثمانين ألفا ، فقتلوا وسَبوا خلقا عظيما من المسلمين .

ولكن هذا الصلح لم يطل ، فإن الإخشيد لما مات فى سنة ٣٣٤ هـ ، وتولى كافور الوصاية على ابنه أبى الحسن على ، طمع سيف الدولة الحمدانى فى امتلاك دمشق ، فاستولى عليها فى هذه السنة . ولما علم كافور ، خرج من مصر قاصدا بلاد الشام ، فعول سيف الدولة على المسير إلى الرملة لغزو مصر ، فحاربه كافور والحسن بن عبيد الله بن طغج أخى محمد بن طغج الإخشيد ، وانتصر اعليه فى اللجون ببلاد الأردن ، وتبعد عن طبرية بنحو عشرين ميلا وعن الرملة بنحو أربعين ميلا ، ثم انتصرا عليه انتصارا حاسما بالقرب من مرج عَذْرا بجوار دمشق . ودخل الجيش المصرى مدينة حلب ، وغنم الغنائم الوفيرة ، وعُقدت بين الفريقين معاهدة الصلح ، بنفس الشروط التى عقدت بها فى أواخر أيام الإخشيد ، ماعدا الجزية فقد وقف دفعها (١) .

وسرعان ما أخذ نفوذ سيف الدولة يزداد ، حتى إن معز الدولة بن بويه قبل توسطه لديه فى شأن أخيه ناصر الدولة ، فأبرم الصلح معه ، على أن يضمن سيف الدولة أداء الأموال التى يجب على أخيه ناصر الدولة أداؤها لبيت المال ببغداد .

وقد امتاز عهد سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيين ، حتى قيل إنه غزا بلادهم المجاورة لبلاده أربعين غزوة ، انتصر فى بعضها وحلت به الهزيمة فى بعض آخر . وكان كثير من البلاد الإسلامية مسرحا للحروب التى دارت بين الحمدانيين والروم فى ذلك العصر . ويقول الثعالبى (٢) : « ويقال إن سيف الدولة غزا الروم أربعين غزوة له وعليه ، فمنها أنه أغار على زِبَطرة وعِرْقة وملطية ونواحيها ، فقتل وأحرق وسبى ، وانثنى قافلا إلى درب مَوْزار ، فوجد عليه قسطنطين بن فردس الدمستق ، فأوقع به ، وقتل صناديد رجاله ، وعقب إلى بلدانه ، وقد تراجع من هرب منها ، فأعظم القتل وأكثر الغنائم . وقد عبر الفرات إلى بلد الروم ، ولم يفعله أحد قبله ، حتى أغار على بطن هنريط ؛ فلما رأى فردس بُعْد مغزاه وخلو بلاد الشام منه ، غزا نواحى أنطاكية ، فأسرى سيف الدولة يطوى المراحل ، لا ينتظر متأخرا ولا يلوى على متقدم ، حتى عارضه بمَرْعَش . فأوقع به وهزمه ، وقتل رءوس البطارقة ، وأسر قسطنطين بن الدمستق . وأصابت الدمستق ضربة فى وجهه ، وأكثر الشعراء فى هذه الوقعة فقال أبو فراس الحمدانى :

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٦٤ (٢) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢١ — ٢٣

وآب بقسطنطين وهو مكبل تحف بطاريقه به وزرازر (١)
وولى على الرسم الدمستق هاربا وفى وجهه عذر من السيف عاذر
فدى نفسه بابن عليه كنفسه وللشدة الصماء تقنى الذخائر
وقد يقطع العضو النفيس لغيره وتدفع بالأمر الكبير الكبائر

وسار سيف الدولة لبناء الحدث، وهى قلعة عظيمة الشأن؛ فاشتد ذلك على ملك الروم، فجمع عظماء أهل مملكته، وجهزهم بالصليب الأعظم، وعليهم فردس الدمستق ثائراً بابنه قسطنطين فى عدد لايحصى، حتى أحاطوا بعسكر سيف الدولة، والتهبت الحرب واشتد الخطب وساءت ظنون المسلمين. ثم أنزل الله نصره، فحمل سيف الدولة يخرق الصفوف طلبا للدمستق، فولى هاربا، وأسر صهره وابن بنته، وقتل خلق كثير من الروم. وأكثر الشعراء فى هذه الوقعة، فقال أبو الطيب المتنبى وذكر الحدث:

بناها على والقنا تقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم
تفيت الليالى كل شىء أخذته وهن لما يأخذن منك غوارم»

وقد ازدهر عهد سيف الدولة بطائفة من مشاهير العلماء والكتاب والشعراء، كأبى الفتح عثمان بن جنى النحوى، وأبى الطيب المتنبى. واشتهر كثير من أمراء الحمدانيين بالشعر، كأبى فراس الحمدانى بن عم سيف الدولة، وابن أخيه الحسين بن ناصر الدولة. وكان سيف الدولة نفسه شاعرا يجيد الشعر؛ فمن شعره الذى يعبر فيه عن وفائه لأخيه ناصر الدولة قوله:

وهبت لك العليا وقد كنت أهلها وقلت لهم بينى وبين أخى فرق
وما كان لى عنها نكول وإنما تجاوزت عن حقى فتم لك الحق
أما كنت أرضى أن أكون مصليا إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق (٢)

وقد وصف الثعالبى (٣) سيف الدولة وما بلغته الدولة الحمدانية فى عهده فى هذه العبارة فقال:

«كان بنو حمدان ملوكا وأمراء، أوجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلادتهم. وكان ... غرة الزمان وعماد الإسلام، ومن به سداد الثغور وسداد الأمور. وكانت وقائعه فى عصاة العرب تكشف بأسها وتنزع لباسها، ويفل أنيابها وتذل صعابها، وتكفى الرعية سوء آدابها. وغزواته تدرك من طاغية الروم الثار، وتحسم شرهم المثار، وتحسن فى الإسلام الآثار. وحضرته مقصد الوفود ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرحال، وموسم الأدباء وحلبة (٤) الشعراء. ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر. وإنما السلطان سوق يجلب

---

(١) جمع زرزار وهو البطريق (٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٨ (٣) يتيمة الدهر ج ١ ص ١١ — ١٢
(٤) الحلبة الخيل تجتمع للسباق من كل أوب ولا تخرج من مكان واحد.

إليها ما ينفق لديها . وكان أديبا شاعرا محبا لجيد الشعر ، شديد الاهتزاز لما يمدح به . . . وكان كل من أبي محمد بن عبد الله بن محمد القاضي الكاتب ، وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت كقول أبي الطيب المتنبي :

خليليّ إني لا أرى غيرَ شاعر ... فكلهم منهم الدعوى ومني القصائدُ
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة ... ولكنّ سيفَ الدولة اليوم واحد
نهبتَ من الأعمار مالو حويته ... لهنئت الدنيا بأنك خالد
فأنت حسام الملك والله ضارب ... وأنتَ لواء الدين والله عاقد

توفي سيف الدولة بحلب في شهر صفر سنة ٣٥٦ هـ ، ونقل إلى ميافارقين ، بعد أن ملك ثلاثا وعشرين سنة ، وتولى بعده ابنه سعد الدولة أبو المعالي شريف .

سعد الدولة (٣٥٦ — ٣٨١ هـ) :

وفي عهد سعد الدولة بدأ الضعف يدب في جسم الحمدانيين في حلب . فقد قتل خاله أبا فراس ابن أبي العلاء سعيد بن حمدان ، الشاعر المشهور (سنة ٣٥٧ هـ) (١) ، وثار عليه قرعويه غلام أبيه سيف الدولة واستولى على حلب ، وحال دون دخوله إليها ، وأقام فيها نحو ست سنين (٢) . « فسار أبو المعالي إلى حران ، فمنعه أهلها من الدخول إليهم ، فطلب منهم أن يأذنوا لأصحابه أن يدخلوا يتزودوا منها يومين ، فأذنوا لهم ، ودخل إلى والدته بميافارقين ، وهي ابنة سعيد ابن حمدان ، وتفرق عنه أكثر أصحابه ، ومضوا إلى أبي تغلب بن حمدان . فلما وصل إلى والدته ، بلغها أن غلمانه وكتابه قد عملوا على القبض عليها وحبسها كما فعل أبو تغلب بأبيه ناصر الدولة ، فأغلقت أبواب المدينة ، ومنعت ابنها من دخولها ثلاثة أيام ، حتى أبعدت من تحب إبعاده ، واستوثقت لنفسها ، وأذنت له ولمن بقي معه في دخول البلد ، وأطلقت لهم الأرزاق . وبقيت حران لا أمير عليها ، ولكن الخطبة فيها لأبي المعالي بن سيف الدولة ، وفيها جماعة من مقدمي أهلها يحكمون فيها ويصلحون من أمور الناس . ثم إن أبا المعالي عبر الفرات إلى الشام وقصد حماه فأقام بها » (٣) .

سار سعد الدولة بعد ذلك إلى حمص ، وشرع في عمارتها وتحصينها ، وكان الروم قد عاثوا فيها حين أغاروا عليها في سنة ٣٥٨ هـ . وتم الصلح بينه وبين قرعويه سنة ٣٥٩ هـ ، وخطب له على منابر حلب . ولكنه آثر البقاء بحمص وناصر الفاطميين ، فخطب للخليفة المعز لدين الله (٤) . ويقول ابن القلانسي (٥) إن قرعويه أناب غلامه بكجور في ولاية حلب ، وإن فريقا من جند قرعويه كاتبوا سعد الدولة ووعدوه العون على استرداد حلب ، فجمع جيشا من العرب من بني كلاب وغيرهم ، وتمم شطر هذه المدينة وحاصرها أربعة أشهر ، وولى بكجور حمص بعد أن تعهد له بتسليم قلعة حلب إليه (٣٦٦ هـ) .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١١
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٥
(٤) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢١٩ — ٢٢٠
(٥) ص ٢٧ — ٢٨

على أن النزاع لم يلبث أن قام بين بكجور وسعد الدولة الذى عزله عن حمص ، فكتب إلى العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) يطلب اليه أن يوليه دمشق ، وينفذ إليه جيشا يستولى به على حلب . ويقول ابن القلانسى[١] إن العزيز كتب إلى بلتكين والى هذه المدينة وإلى منشا بن إبراهيم الفرار كاتب الجيش ، يأمرهما بتسليمها إلى بكجور (سنة ٣٧٢ هـ) ، كما أرسل إليه بعض عسكر دمشق لمساعدته على فتح حلب ؛ فسار إليها وحاصرها مدة ، ولكنه اضطر إلى الارتداد عنها أمام ضغط الروم . وخاف سعد الدولة استيلاء بكجور عليها ، فاستعان بالروم الذين استولوا على حمص سنة ٣٧٣ هـ .

دخل بكجور دمشق فى السابع من شهر رجب سنة ٣٧٣ هـ ، وساءت العلاقة بينه وبين يعقوب ابن كلس وزير الخليفة العزيز ، الذى كان يضمر له العداء ويحول دون تحقيق أغراضه ، واشتد حقد يعقوب عليه بعد أن قتل نائبه فى ضياعه بدمشق ، وعمل على قتله . ولما كشف بكجور سر هذه المؤامرة ، نكل بأتباع ابن كلس وقتلهم وصلبهم (رمضان سنة ٣٧٧ هـ) . « وشرع بكجور فى أذية الناس من أصحاب الوزير فى ضياعه ، وجار فى البلد جورا عظيما ، ولم يخل (أحد) من القتل والصلب والفتك . فجرد (العزيز) إليه فى سنة ٣٧٨ هـ القائد منيرا الخادم فى عسكر كثيف ، وأصدرت الكتب الى ولاة الأعمال بالمسير معه . ولما عرف بكجور ذلك أنفذ إلى العرب ، وحشد واستقبل العسكر ، فالتقيا وصدقوا القتال ، وكثر فى بنى كلاب الطعن والجراح . . . فرجعوا ومن معهم من أصحاب بكجور خاسرين مغلولين . فخاف بكجور على نفسه أن يُؤخذ ، فراسلهم بأنه يسلم البلد ويرحل عنه . . . وتوجه بكجور إلى الرقة » . ثم طلب من سعد الدولة أن يرده إلى ولاية حمص ، فأجابه إلى ذلك (سنة ٣٧٩ هـ) ؛ ولكنه لم يستطع الاستقرار فيها ، وساءت علاقته بالفاطميين وبسعد الدولة ، فلجأ الى بهاء الدولة بن بويه فلم يظفر بشىء .

مات يعقوب بن كلس فى شهر ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ ، وتقلد الوزارة بعد قليل عيسى بن نسطورس ، وكان نصرانيا من أقباط مصر ، فخافه بكجور كما خاف يعقوب بن كلس من قبل . وأرسل إلى الخليفة العزيز « يذكر له جلالة حلب وكثرة ارتفاقها ، وأنها دهليز العراق ، وإذا حصلت له كان ما بعدها فى يده ، وأن العسكر الذى بها قد كاتبه وبذل الطاعة له والمساعدة ، ويستدعى منه الإنجاز والمعونة . فأجابه (يعنى العزيز) بكل ما أراد ، وكتب إلى نزال والى طرابلس بالمسير إليه متى استدعاه من غير استئذان ولا معاودة استئمار . وكان نزال هذا من وجوه قواده وصنائع عيسى الوزير وخواصه ، فكتب إليه عيسى سرا بأن يتقاعد ببكجور ، ويظهر[٢] له المساعدة والمسارعة ، ويستعمل معه التعليل والمدافعة . فإذا تورط مع مولاه وقاربه تأخر عنه وأسلمه »[٣] .

نفّذ نزال أوامر عيسى بن نسطورس ، وتخلف عن اللحاق ببكجور الذى وصل إلى حلب . وعلم أبو المعالى سعد الدولة الحمدانى بما يراد به ، فكاتب باسيل الثانى Basil II. امبراطور الروم

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠ — ٣١

(٢) وتظهر فى الأصل

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣ — ٣٤

(٣٥٢ — ٤١٦ هـ = ٥٦٣ — ١٠٢٥ م)، وأعلمه خروج بكجور عليه، وطلب إليه أن يأمر والى انطاكية بمعونته (١). ووقعت الحرب بين بكجور، يساعده المغاربة والعرب، وبين سعد الدولة، يساعده الروم والأرمن والديلم والأتراك وخمسمائة من صناديد العرب من بنى كلاب. وهكذا وقع النزاع بين الحمدانيين وبين قوادهم، وقامت الحروب الأهلية بينهم، وأصبح سعد الدولة يستعين بالروم، وغدا غلامه بكجور يستعين بالفاطميين. وكان لسعدالدولة وبكجور الغرم وللروم والفاطميين الغنم. عرف ذلك سعد الدولة، فأراد أن يوحّد الصفوف بين جند الحمدانيين جميعا، وآثر سياسة اللين والمسالمة على سياسة النزاع والحرب؛ فكتب إلى بكجور يدعوه إلى رعاية حق الرق والولاء، ويطلب إليه الكف عن مناجزته ومناوأته، ويعد بإقطاعه الأراضى الممتدة بين حمص والرقة، فلم يزدد بكجور إلا غرورا، وأبى إلا القتال، ودارت رحى الحرب ووقعت الدائرة عليه (٢). وقد عزا ابن القلانسى (٣) هزيمة بكجور إلى بخله وانتصار سعد الدولة الى جوده وكرمه وميل العرب إليه فقال: «وكان الفارس من أصحاب سعد الدولة إذا عاد إليه وطعن وجرح، خلع عليه وأحسن إليه. وكان بكجور بضد ذلك بخلا؛ وإذا عاد اليه رجل على هذه الحال، أمر بأن يكتب اسمه لينظر مستأنفا فى أمره. وقد كان سعد الدولة كاتب العرب الذين مع بكجور، وأمّنهم وأرغبهم، ووعدهم الإقطاعات الكثيرة والعطايا الفاضلة الفائضة، وألا يؤاخذهم بالانحياز إلى بكجور والحصول معه. فلما حصلت أماناته وتوقيعاته فى أيديهم، عطفوا على سواد بكجور فنهبوه وانصرفوا عنه واستأمنوا إلى سعدالدولة ونزلوا عليه. ورأى بكجور ماتم عليه من تقاعد نزال وغدر العرب، وتأخر غلمان سعدالدولة الذين كانوا كاتبوه ووعدوه الانحياز إليه إذا عاينوه؟ فاستدعى أبا الحسن كاتبه المعروف بابن المغربى وقال له: غررتنى وأوهمتنى أن العزيز يجيئنى ويعاونى، وأن العرب تخلص لى وتناصحنى، وأن العرب توافينى ويستأمنون إلىّ، وما كان لشىء من ذلك حقيقة».

هرب أبو الحسن بن المغربى خوفا من بطش بكجور به، وتسلل أحد جنده إلى لؤلؤ الجراحى غلام سعد الدولة، وأعلمه أن بكجور عزم على قتل مولاه، ليوقع الاضطراب بين جنده ويضعف الروح المعنوى فى رجاله. وأخذ لؤلؤ على عاتقه إحباط هذه المحاولة الجريئة، وحل محل سعد الدولة فى ميدان القتال. وعلى الرغم مما لحقه من جراح، لحقت الهزيمة ببكجور وحاول الهرب، ولكنه لم يلبث أن قبض عليه (٤). ويرجع السبب فى القبض على بكجور وقتله، إلى ما اشتهر به من بخل ونكث بالعهد، وما عرف به سعدالدولة من كرم ووفاء. وعلى الرغم من أن بكجور استأمن إلى أحد البدو، وطلب منه أن يحمله إلى الرقة، ومناه الأمانى الطيبة، ووعده بأن يوقر بعيره ذهبا وأن يغدق عليه، لم يطمئن هذا البدوى إلى وعوده ودل لؤلؤا عليه. وفى ذلك يقول ابن القلانسى (٥):

---

(١) A. A. Vasil'Ev. : Cambridge Mediaeval History, vol. IV. p. 149

(٢) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤ — ٣٥

(٣) المصدر نفسه ص ٣٥

(٤) المصدر نفسه ص ٣٥ — ٣٦

(٥) ص ٣٧ — ٣٨

« وكان سعد الدولة قد بث الخيل فى طلب بكجور ونادى : من أحضر بكجور فله مطلبه . فلما حصل بكجور فى بيت البدوى ، ساطنه به وطمع فيما كان سعد الدولة بذله فيه ، واستشار ابن عم له فى أمره فقال له : هو رجل بخيل ، فربما غدر ولم يف بوعده . والصواب أن تقصد سعد الدولة وتأخذ منه عاجلا ما يعطيك ؛ فركب البدوى إلى عسكر سعد الدولة وصاح : نصيحة ! فأحضر إلى حضرته ، فقال له : مانصيحتك ؟ قال : ماجزاء من يسلم بكجور ؟ قال : حكمه . قال : فهو عندى ، وأريد مائتى فدان زراعة ، ومائة ألف درهم ، ومائة راحلة تحمل حنطة ، وخمسين قطعة ثيابا . قال سعد الدولة : وكل ذلك لك . قال : وثق لى منه . وعرف لؤلؤ الجراحى خبر البدوى ، فتحامل وهو مثخن بالضربة التى أصابته ، ومشى متوكئا على غلمانه حتى حضر بين يدى سعد الدولة فقال : يامولاى ! مايقول هذا ؟ قال : يقول إن بكجور عنده ، وقد طلب ماأجبناه إليه ، وهو ماض لإحضاره . فقبض لؤلؤ على يد البدوى وقال له : أين أهلك ؟ قال : فى المرج على فرسخ ، فاستدعى جماعة من الغلمان ، وقدم عليهم إقبالا الشفيعى ، وأمرهم أن يرتقوا رءوس الجبال ، حتى يوافوا الحِلة ويقبضوا على بكجور ويحملوه ، وهو قابض على يده ، والبدوى يستغيث بسعد الدولة . ثم تقدم إلى سعد الدولة وقال : يامولانا ! لاتنكر علىّ فعلى ، فإنه كان منى عن استظهار فى خدمتك . ولو عاد هذا البدوى إلى أهله ، وأحس بكجور بما فيه ، لأعطاه الرغائب على تخليصه ، ولا نأمن أن يقبل ذاك منه . والذى طلبه هذا البدوى مبذول له ، وما ضرنا الاحتياط فى التمسك به إلى أن يوافينا ، فنعطيه حينئذ ونفى له بما وعدنا ؟ فقال : أحسنت ياأبا محمد ، لله درك ! ولم يمض ساعات حتى عادت النجب مبشرة بحصول بكجور ، ووافى بعدها إقبال الشفيعى وهو معه ، فوقف به من وراء السرادق ، واستأذنه فى إدخاله إليه . وأنفذ سعد الدولة إلى لؤلؤ وقال له : مارأيك فى بكجور ؟ قال : ضرب عنقه لوقته ، لو جاءت سناء الزينة ست الناس (يعنى أخت سعد الدولة) واستوهبته منك فوهبته لها ، لكان لنا شغل مجدَّد . فأمر سعد الدولة فرجا العدلى ، فكان سيافه ، فضرب عنقه » .

لما صفا الجو لسعد الدولة الحمدانى ، وأمن شر بكجور ، سار إلى الرقة ، وكان بها أبو الحسن بن المغربى ، الذى كان قد هرب إلى الكوفة خوفاً من بطش بكجور كما تقدم ، كما كان بها أولاد بكجور ، الذين آلت أموالهم إلى سعد الدولة بعد قتل أبيهم . وقد كتب هؤلاء الى الخليفة العزيز بالله الفاطمى يسألونه التدخل لدى سعد الدولة رجاء الكف عن أذاهم ، فكتب إليه العزيز كتاباً يتوعده فيه ويأمره بإنفاذهم إلى مصر . ولما وصل هذا الكتاب إلى سعد الدولة ، وكان قد بلغ ظاهر حلب ، أساء معاملة رسول الخليفة الفاطمى ، حتى إنه لطمه وأرغمه على أن يأكله . فلما مضغه ، قال له سعد الدولة : « عد الى صاحبك وقل له : لستُ ممن تخفى أخبارك عنه وتمويهاتك عليه ؛ ومابك حاجة إلى تجهيز العساكر إلى ، فإنى سائر إليك ليكون اللقاء قريبا منك ، وخبرى يأتيك من الرملة » . ثم أخذ سعد الدولة بعد العدة ، لولا أن عرضت له علته التى مات منها فى سنة ٣٨١ هـ ، فحمل تابوته إلى الرقة ودفن بها (١)

---

(١) ابن القلانسى ج ١١ ص ٣٨ — ٣٩

سعيد الدولة أبو الفضائل (٣٨١ — ٣٩٢ هـ) :

تولى سعيد الدولة بعد وفاة أبيه سعد الدولة ، وكان قد عهد إليه وهو فى مرضه الأخير ، وأوصى لؤلؤاً الخادم به وبابنه الآخر أبى الهيجاء وبأخته ست الناس . وقد أخذ لؤلؤ البيعة لسعيد الدولة الذى امتاز عهده بوقوع عدة مواقع بين جيوش الحمدانيين وجيوش الفاطميين ، الذين طمعوا فى الاستيلاء على حلب والثأر لما لحق بهم من إهانة رسول الخليفة العزيز . وكان أبو الحسن بن المغربى قد كتب من الكوفة إلى العزيز يهون عليه فتح حلب ؛ فأرسل جيشاً بقيادة منجوتكين الذى دخل دمشق ، حيث أخذ يعد العدة للاستيلاء على حلب من أبى الفضائل سعيد الدولة ولؤلؤ ، اللذين استعانا بباسيل الثانى أمبراطور الروم . وعلى الرغم من انتصار منجوتكين على الروم ومطاردتهم إلى أنطاكية وإحراق ضياعها ، لم يتمكن من أخذ حلب بسبب قلة الأقوات ، وارتد إلى دمشق ؛ فأرسل الخليفة العزيز الجيوش لحصار حلب من جديد ، واستنجد لؤلؤ بباسيل أمبراطور الروم ، وكان مشغولا بحرب البلغار ، ليحول دون وقوع حلب فى أيدى الفاطميين ولحاق أنطاكية بها ، فسار باسيل بنفسه واستولى على حمص وشيزر وطرابلس ، وعاد منجوتكين إلى دمشق ، وعاد باسيل إلى بلاده (١) . وعظم ذلك على الخليفة العزيز ، فخرج بنفسه لفتح حلب ، ولكنه مات فى بلبيس سنة ٣٨٦ هـ (٢) .

ولم يكد سعد الدولة يتخلص من شر بكجور ، حتى وقع ابنه سعيد الدولة فى شر لؤلؤ الذى آلت إليه الوصاية عليه ، فطمع فى ولايته وقتله هو وابنته ، وكان قد تزوج منها ، ثم ملك الدولة الحمدانية باسم ولدى سعيد الدولة : أبى الحسن على ، وأبى المعالى شريف ، ولم يلبث أن أرسلهما مع سائر أفراد البيت الحمدانى إلى القاهرة ، وجعل ابنه منصوراً ولياً على الدولة (سنة ٣٩٤ هـ) . ومات لؤلؤ بعد أن تقدمت به السن (سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م) ، فخلفه ابنه منصور الذى لقبه الخليفة الحاكم الفاطمى (٣٨٦ — ٤١١ هـ) « مرتضى الدولة » ، واعترف بسلطان الخليفة الفاطمى ، وذكر اسمه فى الخطبة . ويمكن أن يقال إن نفوذ الفاطميين امتد إلى حلب منذ ذلك الحين ، ولكنه قد توطد بعد أن قام النزاع بين مرتضى الدولة وبين الفتح غلام أبيه ، الذى انضم إلى جانب الحاكم الفاطمى ، فأقطعه صيدا وصور وبيروت ، ولقبه « مبارك الدولة وسعدها » ، واستمر على حكم حلب من قبل الحاكم (٣) . وبذلك قضى الفاطميون فى عهد الحاكم على حكم الحمدانيين فى حلب .

---

(١) Vasil' Ev. : Cambridge Mediaeval History, vol. IV. p. 149

(٢) ابن القلانسى : ص ٤٣ — ٤٤ .

(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٥٦ ، ٢٥٨ .

الدولة الطولونيـــة

(فى مصر والشام)

٢٥٤—٢٩٢ هـ = ٨٦٨—٩٠٥ م

الطولونيون

	هجرية	ميلادية
(١) أحمد بن طولون	٢٥٤	٨٦٨
(٢) خمارويه بن أحمد	٢٧٠	٨٨٣
(٣) أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢	٨٩٥
(٤) هارون بن خمارويه	٢٨٣	٨٩٦
(٥) شيبان بن أحمد	٢٩٢ — ٢٩٢	٩٠٤ — ٩٠٥

ظلت مصر بعد قيام الدولة الأموية فى حالة ضعف وجمود فى كل ناحية من نواحى الحياة ، إلا فى فترات قليلة عمل فيها ولاة هذه البلاد على تقدمها ورقيها ، كمسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) ، وعبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) ، وموسى بن عيسى الذى ولى مصر ثلاث مرات (فى سنى ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٩ هـ) . على أنها أخذت تنتعش حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ، منذ قامت الدولة الطولونية التى استقلت بحكمها استقلالا يكاد يكون تاماً . وعلى الرغم من أن عمر هذه الدولة لم يزد على ثمان وثلاثين سنة ، فإن مصر أخذت فى النصف الأول من هذا العصر بقسط موفور من التقدم والإصلاح .

أحمد بن طولون (٢٥٤ — ٢٧٠ هـ)

أحمد بن طولون منذ ولد الى أنه ولى مصر

كان أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة تركيا ، وكان أبوه أحد الأتراك الذين كان يرسلهم الولاة من بلاد ما وراء النهر إلى الخلفاء العباسيين ضمن هداياهم . وقد كثر هؤلاء الأتراك منذ ولى المعتصم الخلافة (سنة ٢١٨ هـ) ، إذ كانت أمه تركية ؛ فاعتمد على العنصر التركى ، واتخذ من الأتراك حراسا له ، وأسند إليهم مناصب الدولة ، كما كان يفعل الخلفاء العباسيون من قبله من تولية الفرس مناصب الدولة : فولى المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر صلاتها وخراجها (٢١١ — ٢١٣ هـ) ، وولى المعتصم آشناس التركى مصر (٢١٩ — ٢٢٩ هـ) ، وقلد الواثق إيتاخ (٢٣٠ — ٢٣٥ هـ) . وكان هؤلاء الولاة يستخلفون عنهم نوابا يحكمون البلاد باسمهم ، ويدعون لهم بعد الخليفة على المنابر ، وينقشون اسمهم على السكة ؛ إذ لم يكن من السهل عليهم أن يتركوا دار الخلافة وما فيها من نعيم وترف ،

ويأتوا إلى مصر للاقامة فيها . ولما أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء ،واعتمد على الأتراك، انتشر العرب فى ريف مصر ، واحترفوا الزراعة وغيرها طلبا للرزق ، وأخذ العنصر العربى يضعف شيئا فشيئا ، وبدأ ظل الولاة من العرب يزول بإحلال ولاة من الأتراك محلهم . ولم يل مصر بعد ذلك عربى إلا عنبسة بن إسحق (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ) .

وفى سنة ٢٥٤ هـ ولى مصر باكباك التركى : فأناب عنه أحمد بن طولون .

كان طولون من قبيلة الطغزغز ، وهم قوم من الترك يقيمون بين تركستان وسيبريا . وكانت أسرته تقيم بجوار بحيرة « لوب » فى بخارى الصغرى ، وقد جىء به إلى نوح بن أسد السامانى عامل بخارى، بعد أن أسر فى بعض المواقع الحربية ، فأهداه إلى الخليفة المأمون سنة ٢٠٠ هـ فى جملة من الرقيق والهدايا ، فأعجب به المأمون ، لما توسمه فيه من مخايل النجابة والذكاء ، فألحقه ببلاطه . وما زال يتعهده ويرقيه حتى جعله رئيس حرسه ، ولقبه أمير الستر ، وهو اللقب الذى كان يشغله أحد كبار رجال البلاط ، ويُعهد إليه بالمحافظة على حياة الخليفة .

وفى سنة ٢٢٠ هـ ولد لطولون بمدينة سامرا ، التى اتخذها المعتصم حاضرة لدولته بعد قليل ، ولده أحمد من جارية تسمى قاسم (وقيل هاشم) ، وولدت له أيضا موسى وحبشية وسمانة . وقد تربى أحمد فى حجر والديه ، وعنى أبوه بتربيته وتهذيبه ، فنشأ نشأة دينية كان لها أثر كبير فى حياته المستقبلة ، فحفظ القرآن منذ نعومة أظفاره . وكان من أحسن الناس صوتا فى كلامه ، وتفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة، وعرف بالصلاح والدين والجود ، واشتهر بعلو الهمة وحسن الأدب ، والذهاب بنفسه عما يترامى إليه أهل طبقته ، وطلب الحديث وأحب الغزو ، وخرج أكثر من مرة إلى طرسوس (وكانت من الثغور على حدود الدولتين العربية والبيزنطية) . وكانت هذه المدينة مركزا من مراكز الثقافه ،تجمع طائفة صالحة من الفلاسفة والمحدثين والفقهاء والشعراء والمؤرخين وغيرهم . فى هذه المدينة لقى أحمد بن طولون المحدثين ، وسمع منهم ، وصحب العلماء والزهاد وأهل الروع ، فتأدب بآدابهم ، فاشتهر عند الأولياء ، وصار فى عداد من يوثق به ويؤمن على الأموال والأسرار .

وكان أحمد بن طولون فى العشرين من عمره عند وفاة أبيه (سنة ٢٤٠ هـ) . وقد ذكر أبو المحاسن أنه تزوج بابنة عمه «خاتون» ، فولدت له العباس فى سنة ٢٤٢ هـ[1].

تولية ابن طولون مصر :

اتصل أحمد ابن طولون بالخلافة العباسية ، فولاه الوزير عبيد الله بن يحيى بعض أعمال طرسوس بعد وفاة أبيه ، وأمر بأن يتناول عطاء أبيه . فأقام بطرسوس ، ولكن مفارقته شقت على أمه ،

---

(١) وقال المقريزى إنه تزوج من ابنة ماجور (أو يارجوخ) أحد كبار رجال البلاط العباسى ، فولدت له العباس وابنة تسمى فاطمة . أما خمارويه بن أحمد بن طولون ، فقد ولد فى منتصف المحرم سنة ٢٥٠ هـ من جارية تسمى مياس ، أهداها له الخليفة العباسى المستعين .

فكاتبته بما أقلقه عليها . فرحل لرؤيتها فى سامرا ، وسار فى قافلة مؤلفة من خمسمائة رجل ، كانت عائدة من بلاد الروم ، تحمل متاعاً ابتاعه الخليفة المستعين من هذه البلاد . وكان من عادة الغزاة أن يسيروا متفرقين ؛ فطرق الأعراب بعض رجال هذه القافلة ، وكان معهم متاع الخليفة ، فتصدى أحمد لقتالهم ، واسترد منهم ما سلبوه . ولما وصلت القافلة إلى دار الخلافة ، أخبر رئيسها الخليفة بما كان من تخليص متاعه على يد ابن طولون ، فمنحه ألف دينار ، ثم توالت عليه صلاته وهباته . ولما خلع المستعين وبويع المعتز سنة ٢٥٢ هـ ، أخرج الخليفة المعزول إلى واسط ، واختار الأتراك أحمد بن طولون ليصحبه ، فأحسن إليه ، وأطلق له الحرية فى التنزه والصيد . وعلى الرغم من ذلك الفوز الذى أحرزه الأتراك بخلع المستعين ونفيه ، أوجسوا شراً من بقائه حيا ، وأوعزوا إلى الخليفة الجديد بأن خلافته لن تثبت إلا إذا قتل المستعين ، ووافقتهم على ذلك قبيحة أم المعتز التى خافت على حياة ولدها أن تمتد إليه يد الأعداء ، فكتبوا إلى ابن طولون ، يطلبون إليه قتل المستعين ، ويمنّونه ولاية واسط . على أنه رأى من تربيته ما يحول دون تحقيق رغبة الأتراك ورغبة الخليفة وأمه ؛ فكتب إليهم بأنه لا يقتل خليفة له فى رقبته بيعة ، فزاد احترامه فى نفوسهم ، على الرغم من عدم إجابة طلبهم ، وأرسلوا سعيداً الخادم أحد حجاب القصر ، فى شرذمة من الجيش إلى واسط ، وكتبوا إلى ابن طولون يطلبون تسليم الخليفة اليه ، والعودة إلى سامرا . فلم ير بدا من الاذعان ، وتسلم سعيد الخليفة وقتله . ولما علم ابن طولون بذلك تأثر تأثراً شديدا ، ولم يبرح مكانه حتى غسّل جثة الخليفة وكفنها ووراها فى التراب .

ولما عاد ابن طولون إلى سامرا وتقلد « باكباك » مصر ، استخلفه عليها ، وجعله على حاضرتها ، وضم اليه جيشها ، فدخلها فى شهر رمضان سنة ٢٥٤ هـ . وكان ولاة مصر فى ذلك العصر لا ينيبون عنهم شخصاً واحدا فى هذه البلاد ، وإنما كانوا يقسمون أعمالها بين عدة أشخاص ، ليكون كل واحد منهم عينا على الآخر ، فلا يتطلع أحدهم إلى الاستقلال بما فى يده ، خشية اتفاق الآخرين عليه . وكان هؤلاء الأتراك يسندون القضاء والخراج لغير هؤلاء الولاة ؛ وبذلك كانت أعمال مصر عند ما دخلها أحمد بن طولون مقسمة بين عدة أشخاص : فكان على الاسكندرية إسحق بن دينار ، وعلى برقة أحمد بن عيسى الصعيدى ، وعلى القضاء بكار بن قتيبة ، وعلى البريد شقير الخادم غلام قبيحة أم المعتز ، وعلى الخراج أحمد بن المدبر .

الفتن والثورات :

من ذلك نرى أن ولاية مصر لم تصف لابن طولون ، لأنه إنما تقلد قصبة هذه البلاد دون غيرها ، ولأنه كان يحكمها باسم واليها باكباك ، وفى استطاعته أن يعزله إذا لم يحز رضاه . هذا فضلا عما كان من منافسة ابن المدبر عامل الخراج فى مصر ، ومثابرته على الإيقاع به عند الخليفة ، ومن قيام الثورات التى أضرم نارها الخوارج فى مصر ، ومن بينهم ابنه العباس ، إلى ما كان من سخط أبى أحمد

الموفق طلحة ولى العهد عليه ، وعمله على صرفه عن هذه البلاد . فلم يكن بدّ إذا من أن يعمل ابن طولون على التغلب على هذه البلاد ، وتثبيت قدم أولاده من بعده . ولنأت الآن بطرف يسير عن هذه الصعاب ، لنرى كيف تغلب عليها بفضل ما أوتيه من الهمة وبعد النظر .

قتل باكباك ، فتولى مصر يارجوخ صهر أحمد بن طولون ، فكتب إليه « تسلم من نفسك لنفسك » . وبذلك أقره على ما بيده، وزاد فى سلطته بأن استخلفه على مصر كلها . وزاد قلق ابن المدبر عامل الخراج، الذى أثار سخط المصريين بزيادته الضرائب، واستعماله القسوة فى جبايتها ، وعمل على عزل ابن طولون، وخشى عاقبة أمره فى مصر ، فطلب صرفه عن خراجها ، وتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن فى سنة ٢٥٧ هـ ، وتقلد خراج مصر من بعده أحمد بن خالد .

وفى شهر رمضان سنة ٢٥٩ هـ مات يارجوخ صاحب إقطاع مصر ، الذى كان أحمد بن طولون يحكمها نيابة عنه ، ويدعو له على منابرها بعد الخليفة ، فتوطد قدمه فى هذه البلاد ، وأصبح واليا عليها، من قبل الخليفة مباشرة . وفى سنة ٢٦٣ هـ كتب الخليفة العباسى المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) إلى ابن طولون يستحثه على إرسال الخراج ، فرد عليه . « لست أطيق ذلك والخراج فى يد غيرى » ، فقلده خراج مصر، وولاه الثغور الشامية ، وبذلك أصبحت جميع أعمال مصر الإدارية والقضائية والعسكرية والمالية فى يده .

على أن ابن طولون لم يكد يستقر به المقام فى مصر، حتى خرج عليه الخارجون ، وخاصة العلويين، الذين عملوا على انتزاع الخلافة من العباسيين ، بالحيل والمكايد تارة ، وبالسيف والحروب أخرى . وقد أثار سخط العلويين فى مصر ودفعهم إلى الخروج ، ما كانوا يلقونه من الولاة الأتراك من ضروب الشدة والقسوة وتضييق السبل ، عن رضا من هؤلاء الخلفاء . وكان أول الخارجين من العلويين فى مصر فى عهد أحمد بن طولون ، عبد الله بن طباطبا العلوى ، فى موضع يقال له الكنائس ، بين الإسكندرية وبرقة ، ثم صار إلى الصعيد حيث كثر أتباعه، وادعى الخلافة ، ولكنه قتل فى شهر شعبان سنة ٢٥٣ هـ . كما خرج على ابن طولون فى هذه السنة إبراهيم بن محمد العلوى ، المعروف بابن الصوفى ، وأحل الهزيمة بجيش الطولونيين فى « هو » ، على مقربة من قوص ، فى شهر ربيع الأول سنة ٢٥٦ هـ ، وظفر بقائده ، وقطع يديه ورجليه ثم صلبه . ولكنه لم يلبث أن هزم ، وقتل كثير من جنده ، وسار هو الى الواحات الغربية إلى سنة ٢٥٩ هـ ، حيث خرج من جديد ، وفر الى أسوان ، حيث نشبت بينه وبين عدوه أبى عبد الله العمرى موقعة حاسمة ، هزمه فيها العمرى ، فمضى إلى أسوان ، ثم اختلف مع أصحابه ، فتركهم وصار إلى عيذاب ، ومنها أبحر إلى مكة ، حيث قبض عليه واليها ، وبعث به الى ابن طولون ، الذى أمر بأن يطاف به فى الطرقات ، وحبسه ثم أطلقه ، فخرج إلى المدينة المنورة ، وأقام بها حتى مات (١) .

---

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٢١٢ ، المقريزى خطط ج ١ ص ٣١٩ .

وكذلك ثار أبو عبد الرحمن العمرى بأقصى الصعيد ، على مقربة من أرض البجاة (١) التى كانوا يغيرون على الجهة التى أقام فيها العمرى ، فيعيثون فيها فسادا ، وينهبون الأموال ، ويقتلون الأبرياء. فعول على أخذ الثأر مرضاة لله ، وفتك بشرذمة منهم ، وقتل رئيسهم ثم دخل بلادهم وأعمل فى أهلها السيف ، حتى أدوا إليه الجزية ، بعد أن امتنعوا من أدائها لمن جاءوا قبله . وبذلك ظهرت كلمة العمرى فى هذه البلاد ، واشتدت شوكته ، وذاعت شهرته ، واتصل خبره بابن طولون ، وساورته الريب فى ولائه ، فأرسل إليه جيشاً ، فتقدم العمرى إلى قائده ، وقال له : « إن ابن طولون لا يعرف خبرى ، لا شك على حقيقة ، فانى لم أخرج للفساد ، ولم يتأذ بى مسلم ولاذمى ، وإنما خرجت للجهاد . فاكتب إلى الأمير أحمد ، عرفه حالى ، فإن أمرك بالانصراف فانصرف ، وإلا فإن أمرك بغير ذلك كنت معذوراً » (٢) .

بيد أن قائد ابن طولون لم يكن بعيد النظر ، فقد أبى إلا قتاله . ودارت رحى الحرب بين الفريقين وحلت الهزيمة بجند ابن طولون . وعاد قائده ، وأخبره بحال العمرى ، فقال : هلا كنتم شاورتمونى فيه ؟ فقد نصره الله عليكم ببغيكم (٣) . على أن حياة العمرى لم تطل بعد هذا الانتصار ؛ فقد وثب عليه جماعة من غلمانه وقتلوه ، وأخذوا رأسه ، وساروا به إلى ابن طولون لينالوا بذلك جائزته ، فقال لهم : هل كان مسيئا إليكم ؟ فقالوا : لا والله ، ولقد كان محسنا إلينا ، ومفضلا علينا . قال : فما حملكم على قتله ؟ قالوا : طلبنا الحظوة عندك ، والمكان منك . فقال لهم : تقتلون مولاكم المحسن إليكم ، وتطلبون الحظوة عندى ؟ إنما ارتكبتموه تستوجبون عليه عقاب الله وعقابى . ثم أمر بهم فضربوا على رءوسهم حتى ماتوا ، وأمر برأس العمرى فغسل وكفن ودفن (٤) . وهكذا كانت عاقبة نكران الجميل ، وعدم مراعاة المروءة وكرم الأخلاق .

---

(١) أو البجة الذين يقيمون على مقربة من عيذاب الواقعة على البحر الأحمر . وقد ناهضوا جند العباسيين منذ أيام الخليفة المتوكل، حين أغاروا على أرض مصر، وقتلوا كثيراً من المسلمين الذين هربوا من بلادهم . وخاف أهل الصعيد على أنفسهم ، وسار محمد بن عبد الله القمى الى بلادهم فى عشرين ألف مقاتل (سنة ٢٤١ هـ) . فخرج اليه ملكهم على بابا فى جيش يفوق المسلمين ، فجعل القمى الأجراس فى أعناق الخيل ، ثم حمل على البجة ، فنفرت إبلهم من أصوات الأجراس ، ومرت على الجبال والأودية ، وتبعهم المسلمون ، وقتلوا وأسروا منهم خلقا كبيراً . فطلب على بابا الأمان ، فأمنه القمى على أن يؤدى ما كان يؤديه من معادن الذهب التى بأرضه ، وحمل اليه الخراج المتأخر عليه ، عن المدة التى منعه فيها ، وهى أربع سنين ، وأخذ معه على بابا الى بغداد حيث خلع الخليفة المتوكل عليه وعلى أصحابه الديباج ، وولى سعد الخادم على البجة، والطريق التى بين مصر ومكة؛ فولى القمى نيابه عنه . فعاد اليها ومعه على بابا وهو على دينه ، ومعه صنم من حجارة على هيئة صبى يسجد له . فنزل القمى أسوان . وأقام بها مدة ومات (البلاذرى : كتاب فتوح البلدان ص ٢٤٧ — ٢٤٨) .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ٩٣ — ٩٤

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٣٠٢

(٤) أحمد بن يوسف : المكافأة (القاهرة سنة ١٩٤١) ص ١١٧ — ١١٨

على أن هذا لم يكن كل ما قام فى وجه ابن طولون من الصعاب . فقد شق أهل برقة عصا طاعته سنة ٢٦١ هـ ، وطردوا نائبه من بلدهم ؛ فسير ابن طولون إليهم جيشاً بقيادة لؤلؤ ، وأمره أن يسلك سبيل الرفق واللين فى معاملتهم ، فإن أطاعوا تركهم وعاد إلى مصر ، وإن أبوا إلا العصيان ، لجأ الى قتالهم حتى يذعنوا له . وقد عاملهم لؤلؤ أول الأمر معاملة قوامها اللين ، إلا أنهم ظنوا أن ذلك عن ضعف ، وأوقعوا ببعض رجاله وقتلوه ؛ فلم ير بدا من قتالهم ، وحاصر بلدهم ، ونصب عليها المجانيق . وضيق عليهم السبل حتى اضطروا إلى طلب الأمان ، وفتحوا الأبواب . فدخل البلد ، وضرب جماعة من رؤسائهم بالسياط ، وقطع أيدى بعضهم ، وساق جماعة منهم إلى مصر ، حيث خلع عليه ابن طولون ، ووضع أطواق الذهب فى عنقه ، وأركبه فى موكب حافل ، سار أمامه الأسرى يحملون الغنائم ، وطافوا فى المدينة .

وكانت ثورة العباس بن أحمد بن طولون أشد هذه الثورات خطرا ، وأبعدها أثراً . وكان العباس أكبر أولاد أبيه ؛ فلما خرج ابن طولون إلى الشام سنة ٢٦٤ هـ ، استخلف ابنه العباس على مصر ، وضم إليه كاتبه أحمد بن محمد الواسطى ، ليكون ناصحاً له ومرشدا . ولكن ما كاد ابن طولون يترك مصر حتى خلت بابنه بطانته ، وقد أراد أن يوليهم بعض المناصب العالية ، فلم يوافقه الواسطى لعدم درايتهم بالسياسة وأساليبها ، وعجزهم عن الاضطلاع بأعباء الحكم ، فأوغروا صدر العباس عليه ، فكف يده عن بعض الأعمال ، وكتب الواسطى الى ابن طولون بالشام يشكو التفاف بطانة السوء حول ابنه ، فرد عليه بما طمأنه ، واستمهله حتى يعود الى مصر .

ولم يكن العباس يفكر أول الأمر فى العصيان والخروج على أبيه ؛ ولكن محبوب بن رجاء الذى اتخذه ابن طولون قبل مسيره الى الشام كاتبا لابنه ، قد دفعه عداؤه للواسطى ، على اطلاع العباس على المكاتبات التى دارت بشأنه ؛ فازدادت مخاوفه وحسن له بطانته الخروج على الواسطى (١) ، والاستقلال بمصر ، وانتهزوا من ذلك الظرف العصيب ، الذى كان فيه أعداء ابن طولون يتربصون به الدوائر ، فرصة سانحة لتحقيق مطامعهم ، وليحولوا بذلك دون وقوعهم فى يده .

ولما علم الواسطى بذلك اختفى ، فدهم العباس داره ، واستولى على الكتب التى أرسلها اليه أبوه يوصيه فيها بمداراته حتى يعود إلى مصر . فازداد قلقه ، وقبض على الواسطى هو وأحد أتباعه « أعين الأسود » وقيدهما . وزين له بطانته الرحيل عن مصر (٢) ، فخرج إلى الجيزة (٨ شعبان سنة ٢٦٥ هـ) ، ثم سار إلى الإسكندرية ومعه الواسطى وأعين ، وحمل معه مليون دينار ، واقترض من التجار مائتى ألف دينار ، كما حمل معه ما كان لأبيه من آلات الحرب ، وعشرة آلاف من الجند المشاة من العبيد . وسرعان ما يمم شطر برقة ، وزين له أتباعه تأسيس دولة عظيمة فى بلاد المغرب ، فإذا تم له ذلك ، استطاع أن يكتسح دولة أبيه .

---

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٢٠ .

(٢) ابن الدايه : سيرة أحمد بن طولون ص ٥٩ .

فى ذلك الوقت عاد أحمد بن طولون إلى مصر ، ودخل الفسطاط (٤ رمضان سنة ٢٦٥ هـ) ، وأرسل إلى العباس القاضى بكار بن قتيبة ، والقاضى الصابونى ، ومعمر بن محمد الجوهرى ، وزيادا المعرى — وكان فصيحا ذكى الفؤاد — وكتب له كتابا ألان له فيه القول ، ووعده ألا يمسه بسوء إذا هو عدل عن سياسة العداء وعاد إليه . وكان يحمل هذا الكتاب زياد المعرى .

وقد ذكر ابن الداية (١) أن العباس هم بالشخوص معهم ، لولا أن بطانته خافوا سوء المصير ، وحملوه على العدول عن رأيه ، فلم يصغ لنصح أبيه ونصح رسله ، إذ كان لا يزال يحلم بتأسيس دولة شاسعة الأرجاء فى إفريقية . فرد على أبيه ردا قبيحا ، وسولت له نفسه الخروج الى إفريقية ، وصغّر له أتباعه شأن إبراهيم بن الأغلب ، وسار إليه ، فأحل به الهزيمة صاحب نفوسه وزعيم الإباضية من الخوارج ، وأرغمه على العودة الى برقه(٢). وذاع نبأ قتله ، فحزن أبوه عليه حزنا شديدا ، ثم لم يلبث أن تبدل حزنه سرورا حين علم بسلامته ، وأرسل إليه كتابا طويلا ، يعتبر بحق من الوثائق التاريخية الهامة ، يذكره فيه بما جره عليه عقوقه ، ويطلب إليه أن يعترف بذنبه ، ويرجع إلى رشده(٣). وجند ابن طولون جيشا كثيفا ، قيل إنه بلغ مائة ألف ، وخرج إلى الاسكندرية ، حيث وافاه بها أحمد بن محمد الواسطى ، وقد هرب من جيش العباس فى برقة ، فحقر له من شأن العباس ، فوجه إليه الجيش بقيادة أحد قواده ، وعاد هو إلى الفسطاط (١٣ رجب سنة ٢٦٨ هـ) . وحلت الهزيمة بالعباس ، وقتل عدد كبير من جنده ، وهرب هو ، فأدرك وأسر ، وسيق إلى الفسطاط مع فريق من أتباعه الذين حرضوه على الخروج ، وقطعت أيديهم وأرجلهم (٤) ، وضرب العباس بالمقارع مائة ضربة ، وسجن إلى أن مات أبوه ، فأخرجه أخوه خمارويه ، وطلب منه أن يبايعه ، فأبى ، فأمر به فقتل .

هكذا انتهت حياة ذلك الأمير الطموح ، وتبددت أحلامه . ولو نجح لكان لدولة بنى طولون شأن آخر فى التاريخ .

ابن طولون والخلافة :

وقد أتاح خروج على بن الشيخ على الخليفة العباسى الفرصة لابن طولون لتجنيد جيش قوى . وكان عيسى بن الشيخ واليا على فلسطين والأردن . ولما مات تغلب ابنه أحمد على دمشق ، وامتنع عن حمل المال إلى دار الخلافة ، وانتزع ثلاثة أرباع مليون دينار كان ابن المدبر عامل خراج مصر قد أرسلها إلى دار الخلافة . وانتهز ابن الشيخ فرصة اضطراب حبل الامور فى دار الخلافة ، فحدثته نفسه بالعصيان والاستيلاء على سائر بلاد الشام ، وطمع فى مصر . وقد عمد الخليفة المهتدى

---

(١) سيرة أحمد بن طولون ص ٥٩ — ٦٠

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٢٠

(٣) راجع هذا الكتاب فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٥ — ١٠

(٤) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٢٣ — ٢٢٤

إلى التخلص منه بالمكايد والخدع ، فولاه إرمينية ، على أن يستخلف من ينوب عنه فى ولاية الشام ، ليقصيه عنها ، وكتب فى الوقت نفسه الى ابن طولون يأمره بأن يتأهب لقتال ابن الشيخ ، على أن ينقلد بلاد الشام بعد إخضاعه ، كما أمر بأن يطلق لواليه على مصر المال الذى يحتاج إليه لجمع الجند وإعدادهم بالعدة والسلاح . وبذلك استطاع ابن طولون أن يضع أساس جيش جديد من الروم والسودان والاتراك وغيرهم ، أصبح نواة قوة مصر التى استند إليها فى حروبه المقبلة ، وبخاصة إزاء أبى احمد الموفق طلحة أخى الخليفة العباسى .

بيد أن احمد بن طولون رأى أن ينصح لابن الشيخ بأن يعود الى طاعة الخليفة ، وأن يرد ما أخذه من مال مصر ؛ فأجاب بكتاب لا يشفى غلة ، ولا يجيب طلبا . فلم يكن بد من أن يستخلف ابن طولون أخاه موسى على مصر ، ويخرج هو لحربه ؛ ولكن سرعان ما وافاه وهو فى الطريق كتاب من العراق ، يأمره بالعودة الى مصر . وقدم ماجور التركى من العراق ، وهزم قوة ابن الشيخ ، واستولى على دمشق ، ولحق ابن الشيخ بنواحى إرمينية ، فتولى ماجور أعمال الشام كلها .

ولا ندرى ما الذى حمل الخليفة العباسى والأتراك على إرجاع ابن طولون بعد ندبه ومسيره فى طريق الشام . وربما فطن الأتراك إلى خطر وقوع بلاد الشام فى يد ابن طولون الذى كان يلى مصر ، وأن فى ضم الشام إليه تقوية لشأنه . ولا غرو فقد أثبت ابن طولون كفاية ممتازة فى حكم مصر . ولو أنه لم يمض فيما اعتزمه من القضاء على ثورة ابن الشيخ ، فان هذا الظرف قد أتاح له تجنيد جيش كثيف زاد فى قوته وفى هيبته عند رجال البلاط فى بغداد ، كما ثبت مركزه عند الخليفة ، فأقصى منافسه ابن المدبر عن خراج مصر ، وولاه خراجها ومعونتها ، كما قلده ولاية الثغور الشامية . (١)

بعد أن قضى أحمد بن طولون على الصعاب التى قامت فى وجهه فى مصر ، اعترضته صعوبة كادت تقضى على آماله ، لولا ما أوتيه من حسن السياسة وعلو الهمة ورباطة الجأش . وقد بينا من قبل أن مصدر هذا الشر أبو أحمد الموفق طلحة ، الذى غلب على أخيه الخليفة المعتمد ، حتى إنه لم يبق له من الخلافة إلا اسمها ، وأن ثورة الزنج الطاحنة أثارت عداء الموفق لابن طولون والى مصر ، الذى وقف على مدى الخطر الذى هدد سلامة الدولة العباسية من ناحية الزنج ، فبعث الى الموفق بمليون ومائتى ألف دينار . ولكن الموفق استقل هذا المال ، وبعث الى ابن طولون بكتاب ينطوى على الجفاء والشر ، فرد عليه بكتاب ذكر فيه أنه لم يكن تابعا له ، وانه قد يعمد الى شن الحرب على الخلافة بجيشه الضخم الذى يتألف من مائة ألف رجل ، بعد ان كان يعمل على إعلاء شأنها والذود عنها . وإليك طرفا من هذا الكتاب :

« أما بعد ، أطال الله بقاء الأمير وأدام عزه ! فقد وصل إلىّ كتاب الأمير أيده الله وفهمته . وقد كان الأمير أسعده الله حقيقاً بحسن التخير لنفسه ، وإعمال الفكر فيما تنتظم به أسباب الصلاح بدركه ، وأن تؤديه رويته إلى إمالة مثلى . . . إذ كنت باب السلطان ، وسيفه الذى يصول به ، وسنانه

---

(١) ذكر الكندى (ص ٢١٧) أن تولية ابن طولون كانت سنة ٢٦٣ هـ ، بخلاف ما ذكره المقريزى (خطط ج ١ ص ٣١٩) من أن توليته كانت سنة ٢٦٤ هـ

الذى يتقى الأعداء بحده ... على أنى لا أعرف السبب الذى يتيح الوحشة ويوقعها ، ولا الأمرَ الذى يدعو إليها ويوجبها ، إذ لم يكن بينى وبينه معاملة توجب مشاجرة ، أوتحدث منافرة . وكان العمل الذى أنا بسبيله ليس له ، والمكاتبة فى أموره ليست إليه ، وتقليدى ليس من قبله ، ولا أنا من ولاته... ولِمَ يَضطرنى بهذه الأفعال التى لا أعرف دركا فى استعمالها ، وَحظا فى ارتيادها ... إلى ركوب خطة فى أمره ، قد علم الله كراهيتى فى ركوبها ، وإلى أن أجعل ما أعددته لحياطة هذه الدولة المتكائفة والعساكر المتضاعفة . على أنه (الموفق) لاناصر له غير من يجتمع إليه من لفيف البصرة وأدناس العامة ... وليس مثل الأمير — أيده الله ! — فى أصالة رأية وحسن تدبيره ، ونظره فى عواقب أموره ، قصد لمائة ألف عنان هى عدة له فجعلها عليه » (١) .

وكان الموفق يخشى ازدياد نفوذ ابن طولون ، فعمد إلى صرفه عن مصر وتقليدها ماجور والى الشام الذى آنس فى نفسه العجز عن مناهضته ، بعد أن أصبح فى قوة لايستهان بها . وخشى موسى ابن بغا ، الذى حكم البلاد الغربية للدولة العباسية باسم المفوض بن المعتمد ، أن يزداد نفوذ ابن طولون ، لأن فى ولايته على مصر والشام تهديدا لسلطة الخليفة ، أوبعبارة أدق ، لسلطته هو وسلطة الموفق والأتراك معا . فسار إلى الرقة وأخذ يستعد لقتاله ، وأخذ ابن طولون يحصن مدينة الفسطاط ، وبنى أسطولا يتألف من مائة مركب حربى . بيد أن أحوال ابن بغا اضطربت ، لتألب الجند عليه ، ومات فى شهر صفر سنة ٢٦٤ هـ . (٢)

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسى كان يميل إلى ابن طولون ، فقد أرغم على عزله عن ولاية الثغور الشامية ، لكنه لم يلبث أن ردها إليه ، بعد أن اضطربت أحوالها ، ووجد ابن طولون الفرصة سانحة لأخذ بلاد الشام بعد وفاة واليها ماجور ، لاشتغال الموفق بحرب صاحب الزنج ، وخشى ضياع ولاية الثغور منه بسبب وقوع بلاد الشام بينها وبين مصر . واستخلف ابنه العباس كما تقدم ، وسار بجيشه نحو بلاد الشام ، فدانت له أمهات مدنها ، ودعى له على منابرها (٢٦٤ — ٢٦٥هـ) ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى مصر لقمع ثورة ابنه العباس ، ثم خرج ثانية إلى الشام (٨ جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ) ، إذا اتصل به نبأ خروج لؤلؤ والى الرقة عليه ، وانضمامه إلى الموفق ، واستخلف على مصر ابنه خمارويه . وبينما هو فى طريقه إليها ، بلغه خروج أهل طرسوس عليه ، فعول على السير إليها ، ولكنه لما وصل إلى دمشق جاءه كتاب الخليفة العباسى ينبئه فيه بالمسير إليه والاحتماء به . ورحب ابن طولون بهذه الفكرة لما تنطوى عليه من تقوية شأنه فى مصر ، وكتب إلى الخليفة كتابا يخونه فيه من ناحية الموفق ، ويشير عليه بالحضور إلى مصر ، وفيه يقول :

---

(١) ابن الداية : كتاب سيرة أحمد بن طولون ص ٢١ — ٢٤ . أنظر أيضا حسن ابراهيم حسن : Relations between Egypt and the Caliphate, Ext. from the Bulletin, Al Ulum, Jan -Feb, 1940, p. 7

(٢) أنظر ص ٣٩ — ٤٢ ، المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٨٠

« قد منعنى الطعامَ والشراب والنوم ، خوفى على أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه ! — من مكرٍ يَلحقه . . . وقد اجتمع عندى مائة ألف عِنان ، مؤلَّفة قلوبهم ، مجتمعة آراؤهم ، شديد بأسهم. وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين أدام الله عزّه بالنصر والتمكين ، الانجذاب إلى مصر ، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز ، ولا يكن فيه (١) مايخافه فى كل لحظة منه عليه (٢) » .

ولكن ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة قبض على الخليفة المعتمد وساقه إلى سامرا ، ووفى ابن كنداج بولاية مصر (٣) .

لهذا لانعجب إذا بلغت الكراهة بين ابن طولون والموفق أشدها ، وظهرت لعنة كل منهما على المنابر (٤) .

ولا يعزب عن أذهاننا أن ابن طولون أتيح له أن يصل إلى هذه القوة ، لما كان من اضطراب حبل الأمور فى حاضرة الدولة العباسية ، وخروج ولى العهد على صاحب الحق الشرعى ، واستبداده هو وغيره من الأتراك بأمور الدولة . يدلك على صحة هذا ماقاله مُنصف بن خليفة الهُذَلى ، أحد شعراء مصر فى هذا العصر :

ياغُرَّةَ الدنيا الذى أفعالُه	غُرَرٌ بها كُلُّ الورى تتعلقُ
أنت الأمير على الشآم وثَغْرها	والرقَّتَين وما حواه المشرقُ
وإليكَ مصرٌ وبَرْقة وحِجازها	كل إليك فؤاده متشوق
هنك الخلافة صاعد وخليله	إسحق لعباً والحسود الأخرق
أسيافنا بيض المتون فليتها	بنجيع من خذَل الإمام تخلق (٥)

على أن أمورا حدثت فبدلت ذلك الحب ، الذى كان يكنه المسلمون لأحمد بن طولون ، الذى نصب نفسه لحماية الخليفة . فان الموفق لما بلغه خبر خلع ابن طولون من ولاية العهد ، وحذف اسمه من الخطبة ، طلب إلى الخليفة أن يأمر بلعنه على المنابر ، فأجابه على كره منه ، ولعنه ابنه المفوض فى المسجد ، وولى ابن كنداج على أعماله ، وأمر الموفق بلعنه على المنابر ، وقال فيه الخطباء : « اللهم ألعنه لعنا يفلُّ حَدّه ، ويتعس جده ، واجعله مثلا للغابرين ، إنك لاتصلح عمل المفسدين »(٦). وقام أبو زرعة (٧) فى المسجد الأموى بدمشق ، وقال بعد أن خطب الخطيب : « نحن أهل صفين وأهل

---

(١) كذا فى الأصل (٢) ابن الداية : كتاب سيرة أحمد بن طولون ص ٦٨ — ٦٩

(٣) الطبرى ج ١١ ص ٣٠٠ ، الكندى : كتاب الولاة ص ٢٢٤ — ٢٢٥ (٤) انظر ص ٤٤

(٥) المتن . حد السيف ، والنجيع الدم ، وتخلق تطيب

(٦) الكندى كتاب الولاه ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

(٧) هو محمد بن عثمان بن إبراهيم بن زرعة بن ابراهيم الثقفى الشافعى الدمشقى . ولى قضاء مصر سنة ٢٨٤ هـ فى عهد خمارويه بن احمد بن طولون . انظر كتاب القضاة للكندى ص ٥١٨ وما يليها .

دمشق ، وكان فينا من حضر الجمل ، ونحن القائمون على من عاند من أهل الشام . وأنا أشهد الله وأشهدكم أنى قد خلعت أبا أحمق (يريد أبا أحمد الموفق) ، كما يخلع الخاتم من الإصبع ، وألعنه لعنة الله » (١)

وقد فعلت سياسة الموفق فعلها فى الناس . فقد كان من أثر لعن الخليفة ولعن ابنه المفوض وأخيه الموفق لابن طولون ، وانضمام لؤلؤ ومن معه من القواد إلى الموفق ، ومنافسة ابن كنداج له ، وتوليته على مصر والشام . أن ضعف نفوذه الأدبى فى البلاد التى دانت لسلطانه ، فحلت الهزيمة بجيشه فى مكة ، ولعن فى المسجد الحرام (٢) . وكان من أثر هذه الدعاية الواسعة ، التى نشرها الموفق ضد عدوه ابن طولون ، أن حلت به الهزيمة لأول مرة بعد كل ماأحرزه من نصر مؤزر فى حروبه ، وعجز عن إخضاع أهل طرسوس لسلطته ، ولُعن على منابرها (٣) . ذلك أن ابن طولون أقام فى دمشق حتى انتهت هذه الحوادث التى أدت إلى خروج الخليفة المعتمد إلى العراق ، وعودته إليها ، ثم سار إلى طرسوس التى تحصن بها يازمان الخادم ، ونصب المنجنيقات والعرادات على أسوارها ، وأرسل الماء إلى عسكره من نهر طرسوس الأعظم ، المعروف بنهر البردان ؛ فغرق جند ابن طولون ، وغرقت مضاربه ، واشتد البرد ، وهطلت الأمطار . فرحل إلى أذنة ليلا ، وأقام بها عشرين يوما ، مات فيها أكثر جنده العراة من البرد ، بسبب غرق أمتعتهم . وقد أخذ الحنق من ابن طولون كل مأخذ ، ولم ينس ذكريات هذه النكبة المحزنة ، وعبر عن سخطه على طرسوس وعلى أهلها بقوله : « والله لاأرانى الله أجهز جيشا إلى طرطوس أبدا ، إذ كانت سكن الإسلام » (٤) .

وفاة ابن طولون :

سار ابن طولون بعد ذلك الى المصيصة ، وأقام بها ثلاثة أيام . وهنا عرضت له علته التى أودت بحياته ، ودخل أنطاكية ، فبدأ هيضه ، وتولاه القيء ، فبعث إلى طبيبه سعيد بن نوفل النصرانى — وكان قد رحل إلى إحدى البيع لقضاء أيام العيد ، فلم يعد إليه إلا بعد يومين ، وأشار عليه بالحمية . قال ابن الداية (٥) قال (سعيد بن نوفل) : لاتقرب الغذاء ولو أقمت الليلة وغدا ! فقال : والله أنا جائع وما أصبر . قال : هذا جوع كاذب لبرد معدتك . فلما كان نصف الليل ، استدعى شيئاً يأكله ، فجيء بفراريج حارة وبعض دجاجة ، وقطعة من جدى بارد ، فأكل وانقطع الإسهال عنه . فحدثنى نسيم قال : خرجت وسعيد قائم فى الدار ، فقلت له : أكل الأمير البارحة كذا وكذا ، فامتنع عليه الإسهال . فقال : الله المستعان ، ضعفت قوته الناهضة بقهر الغذاء ، وسيتحرك حركة منكرة . قال (يعنى نسيما) : فوالله ما وافى السحر

---

(١) الكندى كتاب القضاة ص ٥١٩ — ٥٢٠

(٢) الطبرى ج ١١ ص ٣٢٠

(٣) الكندى . كتاب الولاة ص ٢٩٦

(٤) سيرة ابن طولون لابن الداية ص ٧١

(٥) المصدر نفسه ص ٧١ وما يليها .

من الليلة المقبلة حتى جاءه أكثر من ثلاثين مجلسا ، وطلب مصر ، وثقل عليه ركوب الدواب . فعملت له عجلة ، وكانت تجر بالرجال ، ووطئت له. فلما بلغ الفرما ، شكا إزعاجها ، فركب إلى ساحل الفسطاط ، وركب من الساحل إلى داره فى قبة . قال عمى لسعيد بن نوفل طبيبه : إن كان لسان الأمير أيده الله فصيحا ، فطبعه أعجمى . ولما دخل الفسطاط ، أحضر الحسن بن زيرك وشكا إليه سعيد بن نوفل ، فسهل عليه أمر علته . وأعلمه أنه ترجى له السلامة منها عن قرب ، وخفت علته بالدعة والطمأنينة واجتماع الشمل وهدوء النفس إلى حسن القيام ، وتبرك بالحسن بن زيرك ، وكان كثير التخليط . واشتهى على بعض جواريه سمكا قريصاً ، فأحضرته سرا فأكل منه . فما تمكن فى معدته حتى تتابع الإسهال . فقيل له يحتاج الأمير الى أطباء مصر ، ليتناوبوا داره فى غداة كل يوم يتفقون على ما يأخذه غذاء ؛ فحميت كبده من سوء فكره وخوفه ، وتشاغل عن المطعم والمشرب ، لكثرة ماجربوه عليه ، حتى زادت علته . . . ثم قال أحمد بن طولون لسعيد بن نوفل : والله لاتمتعت بالحياة بعدى ، لأنى أعلم أنك تريد موتى ، فعجلته لك ؛ فأمر بضربه ثلثمائة سوط ، وطاف به ينادى عليه : هذا جزاء من اؤتمن فخان ... فمات بعد يومين . »

قال الكندى[1]: وتزايدت علة احمد بن طولون ، فأمر الناس بالدعاء له ، فغدا الناس بالدعاء له إلى مسجد محمود بسفح المقطم ، يوم الإثنين لست خلون من شوال سنة سبعين . وحضر معهم القصاص فدعوا له ، ثم غدوا أيضا بالدعاء له . وحضرت اليهود والنصارى معتزلين عن المسلمين ، وحضروا أيضا اليوم الثالث مع النساء والصبيان . وأقاموا على ذلك أياما . ثم توفى أحمد بن طولون ليلة الأحد لعشر خلت من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين وله من العمر خمسون سنة وشهر وسبعة عشر يوما ، ودفن باليحموم بسفح المقطم بعد أن حكم نيفا وستة عشر سنة ، وترك من الأولاد ثلاثة وثلاثين ، منهم سبعة عشر من الذكور وستة عشر من الإناث .

* * *

كان ابن طولون بعيد النظر عالى الهمة قوى البأس شديد المراس . اتسع ملكه حتى امتد من العراق إلى برقة ومن النوبة إلى آسيا الصغرى ، وخشى بأسه امبراطور الروم ، على ما بين بلاديهما من بعد الشقة ووعورة الطريق ، فأهدى إليه عدة مصاحف للقرآن الكريم ، وأرسل إليه من تحت يده من المسلمين . وكان ابن طولون سياسيا محنكا ، وقائدا ماهرا ، خبيرا بأساليب الحروب ، وتعبئة الجيوش ، كما كان إداريا حازما[2] وقف على موارد الثروة على اختلافها ، وعرف كيف يستغلها لمصلحة دولته ، من غير أن يرهق الأهلين بالمكوس والضرائب . وعمل على ترفيههم ، ونشر العدل بينهم ؛ فاستتب الأمن ، واستقرت الأمور ، وسادت الطمأنينة بين الناس . وشمل الرخاء البلاد فى عهده ، حتى بيع عشرة الأرادب من القمح بدينار واحد . هذا إلى تحصينه الثغور ، والاحتفاظ بجيش كامل العدد والعدة . كما ضرب بسهم وافر فى سبيل الإصلاح ، فاهتم بالزراعة وعنى بإقامة الجسور وحفر الترع .

---

(١) كتاب الولاة ص ٢٣١ (٢) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٨ — ٦٩

أما أخلاقه وصفاته ، فقد كان مضرب الأمثال فى الكرم والجود ، وفى الشجاعة والبسالة ، وفى صدق الفراسة ، وفى العدل والتواضع . وكان يقرب إليه العلماء ، ويجزل لهم العطاء ، كما كان يتصدق على الفقراء ، فقد أثر عنه أنه كان يتصدق كل شهر بألف دينار ، وكان — إلى جانب ذلك — يبذل فى أعمال الخير ألف دينار فى كل يوم . قال المقريزى(١) « وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر من الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة . . . سوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم للصدقات فى داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس فى القدور الفخار والقصاع على كل قدر أو قصعة أربعة أرغفة فى اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران على القدر . وكانت تعمل فى داره وينادى : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر . وتفتح الأبواب ويدخل الناس ، وابن طولون ينظر ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون ، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته » . ويعد ابن طولون من حفظة القرآن المعدودين ، ولذلك كان من أكثر الولاة احتراما لحفاظه(٢) ، الى غير ذلك من الأخلاق الحميدة ، والصفات الكريمة التى يخرجنا استقصاؤها عن الغرض :

خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٠ — ٢٨٢ هـ)

بعد وفاة أحمد بن طولون ، اجتمع الجند — على ماقضت به العادة فى ذلك الوقت — وولوا مكانه ابنه خمارويه . ولم يستطع الخليفة العباسى ، إلا الموافقة على تعيين الوالى الجديد ، وله من العمر عشرون سنة . ولم تكن ولاية مصر قد توطدت أركانها لآل طولون . وأصبح خمارويه أمام عدة صعاب لاسبيل إلى التغلب عليها إلا بالقوة حينا ، وبالدهاء حينا آخر . ولا غرو ، فقد ظلت مصر فى عهد خمارويه كما كانت فى عهد أبيه ، محط أطماع المنافسين من القواد الأتراك ، ومثار حسد أبى أحمد الموفق ؛ فواصل لعن الموفق على المنابر ، وبعث الواسطى كاتب أبيه إلى الشام بجيش كثيف ، وعززه من البحر بأسطول قوى . وخرج الموفق من بغداد ، وانضم إليه ابن كنداج والى الموصل ، ومحمد ابن أبى الساج والى إرمينية والجبال ، واستولوا على دمشق . فلم ير خمارويه بدا من الخروج بنفسه . فدخل دمشق سنة ٢٧٣ هـ ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداج فى أعماله . وتم الصلح بين والى مصر ودار الخلافة ، وكتب الموفق والخليفة المعتمد وابنه المفوض ، كتاب الصلح بأيديهم ، ويتضمن تولية خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة . هنا أمر خمارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر ، والدعاء له مع الخليفة (٣) .

وكان من أثر هذا الانتصار ، أن استولى خمارويه على الرقة ، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة ، ودعى له على منابرها . كما أخضع ابن أبى الساج (٢٧٦ هـ = ٨٨٨ م) ، وطارد جيوشه إلى مدينة (بلد) على نهر دجلة ، حيث بنى على شاطئه سريرا فخما من الذهب ليجلس عليه ، إشارة

---

(١) خطط ١ ص ٣١٦ (٢) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٩

(٣) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٣٥ — ٢٣٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٠

بما حازه من نصر مؤزّر . كما كان من أثر هذا الانتصار أن اعترف بسلطانه والى طرطوس (٢٧٦هـ) ، بعد أن كان قد نبذ طاعة الطولونيين سنة ٢٧٠ هـ . ولم تقتصر أعمال خمارويه الحربية على ما تقدم ، بل اتسع نفوذ مصر فى عهده إلى ماوراء ولاية طرسوس ، فغزت جيوشه الولايات الرومانية عدة مرات (٢٧٨ — ٢٧٩ هـ) [١] .

وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج (سنة ٢٧٨ هـ) والخليفة المعتمد (سنة ٢٧٩ هـ) على توطيد سلطان خمارويه ، الذى استطاع أن يكسب رضا الخليفة المعتضد بهداياه ، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة ، وجعلها لأولاده من بعده . ويذكر أبو المحاسن « أن رسول الخليفة قدم على خمارويه يحمل إليه إثنتى عشرة خلعة ، وسيفا وتاجا ووشاحا » [٢] . وكان من أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التى تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة العباسى ، ولكن الخليفة اختارها لنفسه .

توفى خمارويه فى سنة ٢٨٢ هـ . وكان محبا للترف ، يبذل الأموال الضخمة على أبهة بلاطه ومبانيه الفخمة ومتنزهاته وغير ذلك . وقد بلغت نفقات جيشه تسعمائة ألف دينار فى كل سنة ؛ وكانت رواتبهم وأرزاقهم تدفع إليهم بانتظام . هذا إلى ماعرف عن خمارويه من كثرة إنفاقه على مطابخه ، حتى بلغت نفقاته فى كل شهر ثلاثة وعشرين ألف دينار (٢٧٦,٠٠٠ دينار فى السنة) . ولا شك أن كثرة هذا المبلغ وتسمية مطبخه مطبخ العامة ، يدلان على أن خمارويه نسج على منوال أبيه فى حبه للجود والكرم ، وشغفه بمد يد المساعدة إلى الفقراء والمعوزين . أضف إلى ذلك ماأطلقه من الأرزاق لجواريه وأولاده ومن يقوم بخدمتهم .

زوال الدولة الطولونية (٢٨٢ — ٢٩٢ هـ)

ولى مصر بعد خمارويه ثلاثة من آل طولون ، لم يزد حكمهم على عشر سنين ، ولم تستفد البلاد فيها شيئا غير انتشار الفوضى ، وتألب الجند ، وتنازع السلطة بين المتنافسين ، وانتصار الجند لفريق دون فريق . ذلك أنه لما توفى خمارويه بدمشق (ذو القعدة ٢٨٢ هـ) ، عاد ابنه أبو العساكر جيش إلى مصر ، حيث أخذ الناس عليه أمورا أثارتهم عليه ، فاستوحشن من كبار الجند وتنكر لهم ، فعملوا على الكيد له ، والخلاص منه ، وفر بعضهم إلى الخليفة العباسى ، وخلع طاعته طغج بن جف (أبو محمد الأخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر) عامل دمشق . وقد آلى جيش على نفسه ليشعلن نار الفتن والثورات ، فقتل عمه مضر بن أحمد بن طولون ؛ فوثب عليه الجند وخلعوه ، ثم جمعوا الفقهاء والقضاة فتبرءوا من بيعته ، وانضموا إلى الجند فى خلعه (١٥ جمادى الآخرة سنة ٢٧٣ هـ) ، وذلك بعد نيف وستة أشهر من ولايته ، فظل فى سجنه إلى أن مات بعد أيام .

اجتمع الجند يوم خلع جيش وولوا ـ على ماجرت به العادة فى ذلك الوقت ـ أبا موسى هرون

---

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٣٥ — ٢٣٩ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٩ ـ ٥٢ (٢) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٨

ابن خمارويه ، وكان صغيرا لم تزد سنه على الرابعة عشرة ، فلم يكن يصلح للولاية والحكم . وربما كان ذلك مما دفع بطائفة من الجند إلى عدم الرضا بتوليته ، فكاتبوا رجلا آخر من بنى طولون ، هو ربيعة ابن احمد بن طولون ، وكان فى الإسكندرية ، وطلبوا إليه أن يسير إلى مصر ، ووعدوه أن يقوموا بنصرته . فليس من عجب إذا صادفت هذه الدعوة قبولا فى نفس ربيعة ، الذى جمع من أهل البحيرة ومن البربر وغيرهم جيشا كثيفا ، سار على رأسه حتى نزل قريبا من الفسطاط . على أن حال هؤلاء القوم مع ربيعة كانت أشبه من بعض الوجوه بحال أهل الكوفة مع الحسين بن على ، فقد خذلوا ربيعة وقعدوا عن نصرته ، ولم يحولوا على الأقل دون خروج جند هرون الذين قاتلوه وأسروه (شعبان سنة ٢٨٤ هـ) ثم أثخنوه بالسياط ، حتى قيل إنه ضرب ألفا ومائتى سوط ، ومات تحت الضرب.

لم يفلح المناوئون لحكم هرون فيما دبروه ، بل لم تتعد نصرتهم لربيعة حد التدبير والكتابة . وفى عهد هارون خرج القرامطة بالشام (٢٩٠ هـ) ، وكانت تابعة لمصر ، فأنفذ والى مصر جيشا لمحاربتهم ، فلم يوفق هذا الجيش إلى إخراجهم من الشام ، بل حلت به الهزيمة ، مما يدل على مبلغ الضعف الذى وصلت إليه مصر فى ذلك الحين . وقد أدى ذلك الضعف إلى تجديد رغبة الخلافة العباسية فى إعادة مصر إلى سلطانها المطلق ، فبعث الخليفة المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) محمد بن سليمان الكاتب لاستردادها من هرون [١] ، فنزل بحمص وبعث بأسطول بحرى إلى سواحل هذه البلاد ، ثم واصل السير إلى فلسطين ، وخرج هرون بن خمارويه لدفع سليمان عن دخول مصر ، وسير المراكب الحربية لقتاله . وفى تنيس التقى الأسطولان العباسى والمصرى ، فحلت الهزيمة بأسطول مصر ، ووقعت تنيس ودمياط فى يد محمد بن سليمان .

رأى هرون أنه لاطاقة له بهزيمة الجيش العباسى ، فصمم على الفرار ، ولجأ إلى العباسة [٢] ، ومعه أهله وأعمامه ، ونفر يسير من جنده . وفى هذا المكان قتله عماه شيبان وعدى ، ابنا احمد بن طولون ، وهو منشغل باللهو ، ثمل بالخمر (صفر سنة ٢٩٢ هـ) ، ولم يناهز حينذاك الثانية والعشرين من عمره .

هكذا انتهت ولاية هرون الذى قتل على يد عميه ، فكان طبيعياً إذا أن يؤول أمر هذه الولاية إلى أحد قتلته . وقد آلت فعلا إلى عمه شيبان ، الذى لم يلبث أن سار الى الفسطاط لاستلام مقاليد هذه الولاية . بيد أن هذا العمل لم يرض الجند ، بل أغضبهم بمقدار ماأغضبهم قتل مضر بن أحمد بن طولون على يد بن أخيه جيش بن خمارويه من قبل . وأنكر القواد والجند جميعاً ماأتاه شيبان وأخوه ، ولم يعترفوا بولاية شيبان ، وكاتبوا محمد بن سليمان وطلبوا المسير الى مصر ، فسار حتى نزل

---

(١) الطبرى ٢ : ٢٢٥١ — ٢٢٥٢

(٢) قال ياقوت فى معجمه = هى بليدة أول مايلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية ، ذات نخل طوال . وقد عمرت فى أيامنا ، لأن الملك الكامل بن العادل بن أيوب جعلها من متنزهاته ، وكان يكثر الخروج إليها للصيد ، لأن إلى جانبها مما يلى البرية مستنقع ماء يأوى إليه طير كثير ، فهو يخرج إليها وللصيد ، بينهما وبين القاهرة خمسة عشر فرسخا . سميت بعباسة بنت أحمد بن طولون ، التى صحبت قطر الندى ابنة أخيها خمارويه فى طريقها إلى بغداد لتزف إلى الخليفة المعتضد العباسى . وفى هذا الموضع عملت عباسة قصرا أحكمت بناءه ، وفيه ودعت ابنة أخيها . ومن ثم عمر ذلك المكان المقفر ، وصار بلدا ، فكان يقال له قصر عباسة ، ثم أطلق عليه فيما بعد عباسة فقط ، ويطلق الآن على بلدة بجوار الزقازيق .

العباسة حيث لقيه طغج بن جُفّ فى جمع كثير من القواد ، وصحبوه إلى الفسطاط . وهنا انضم إليهم عامة أصحاب شيبان ؛ فلم يجد هذا بدا من طلب الأمان من محمد بن سليمان . وفى شهر ربيع الأول سنة ٢٩٢ هـ خرج شيبان ، ولم يكن قد مضى على ولايته غير اثنى عشر يوما ، ودخل القائد العباسى مدينة القطائع ، وألقى فيها النار ، ونهبت رجاله الفسطاط وكسروا أبواب السجون ، وأخرجوا أولاد ابن طولون وأنصارهم من القواد . وهكذا زالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت هذه البلاد ثمانيا وثلاثين سنة (١) .

على أن الاضطرابات قد استمرت فى هذه البلاد ، بسبب ضعف الخلفاء العباسيين ، وعجزهم عن المحافظة على سلطانهم فيها ، لاستبداد الأتراك بالسلطة ، وضعف مصر نفسها ، وقيام المنافسة بين الولاة وعمال الخراج . هذا إلى أن مصر قد تعرضت فى ذلك الوقت لغزوات الفاطميين ، الذين أسسوا دولتهم فى بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ ، وحاولوا الاستيلاء على مصر مرات لاتخاذها مركزاً لنشر دعوتهم ، ومقرا لخلافتهم ، وبسط نفوذهم فى الشرق . وظلت مصر على هذه الحال ، إلى أن وليها محمد بن طغج الإخشيد ، فدخلت فى عهده فى طور جديد من التقدم والإصلاح (٢) .

مدينة القطائع فى عهد الطولونيين :

وكانت مدينة القطائع فى عهد الطولونيين حافلة بالعلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين . نذكر منهم على سبيل المثال القاضى بكار بن قتيبة ، الذى كان من أبرز قضاة المسلمين وأعلمهم بالفقه الإسلامى (٣) ، وأبا الفيض ذا النون المصرى الذى كان لمدرسته أثر كبير فى الدولة الطولونية .

ومن المحدثين الربيعُ بن سليمان تلميذُ الإمام الشافعى . ويذكر المؤرخون أنّ ابنَ طولون أعطاه فى أول درس ألقاه فى جامعه كيسا به ألف دينار . وكان لهذا العطاء أثره ؛ فقد ألف الربيع كتابا عن الحديث المنسوب إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو : « مَنْ بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة ، بنى الله له بيتاً فى الجنة »(٤) . ومن نبغ فى هذا العصر ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وهو أول مؤرخى مصر الإسلامية . وكتابه المشهور « فتوح مصر والمغرب والأندلس » من أهم المراجع التى يُعتمد عليها . وقد بلغ الأدب بمصر فى عهد هذه الدولة درجة عظيمة من التقدم . ولا أدلّ على ذلك مما رواه المقريزى (٥) عن القاضى أبى عمرو عثمان النابلسى الذى قال فى كتابه « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » إنه رأى كتابا لا يقل حجمه عن اثنتى عشرة كراسة ، يحوى فهرست شعراء ميدان ابن طولون » . فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فكم يكون عددهم ؟ وكم يكون مقدار شعرهم ؟ وما يغدق عليهم من الأموال ؟ .

---

(١) أنظر سقوط الدولة الطولونية فى المقريزى : خطط ج ٢ ص٣٢٣ وما يليها ، وأبى المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٨٨ — ١٤٣ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : أنظر كتاب المجمل فى التاريخ المصرى ص ١٥٢ .

(٣) راجع سيرة بكار فى الكندى : كتاب القضاه ص ٥٠٩ — ٥١٤ .

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٦٥ . (٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٦

الدولة الإخشيدية

(فى مصر والشام)

٣٢٣ — ٣٥٨ هـ = ٩٣٥ — ٩٦٩ م

الإخشيديون [١]

	هجرية	ميلادية
(١) محمد الإخشيد بن طغج	٣٢٣	٩٣٥
(٢) أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد	٣٣٤	٩٤٦
(٣) أبو الحسن على بن الإخشيد	٣٤٩	٩٦٠
(٤) أبو المسك كافور	٣٥٥	٩٦٦
(٥) أبو الفوارس أحمد بن على	٣٥٧ —	٩٦٧ —
	٣٥٨	٩٦٩

[الفاطميون]

محمد بن طغج [٢] الإخشيد (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) :

الإخشير منذ ولد الى أنه ولى مصر :

كان أبو بكر محمد بن طغج بن جف من أولاد ملوك فرغانة ، وكان كل من ملكها يلقب بالإخشيد ، كما يلقب ملك الفرس بكسرى ، وملك الروم بقيصر ، وملك الحبشة بالنجاشى .

سار جف جد الإخشيد الى الخليفة المعتصم ، فأكرمه ، وأقام معه إلى أن توفى هذا الخليفة ؛ فاتصل بابنه الواثق ، ثم بأخيه المتوكل ، وظل على ذلك إلى أن توفى فى نفس الليلة التى قتل فيها المتوكل .

ولما سار إلى بغداد بمن بقى من الطولونيين وأنصارهم ، سار معه ابنه طغج ، فثقل على الوزير العباس بن الحسن ، لأنه ترفع عن النزول له والترجل ، فأوقع به الوزير عند الخليفة ، وحبسه مع ابنيه محمد وعبيد الله .

وقد ظل طغج وابناه فى الحبس إلى أن توفى سنة ٢٩٤ هـ على ما تقدم ؛ فأطلق الوزير ابنيه ، فلزما خدمته ، وصارا يركبان معه إذا ركب ، ويقفان بين يديه إذا جلس ، وظلا على ذلك إلى اليوم الذى ضرب فيه الحسين بن حمدان الوزير العباس بن الحسن بالسيف على عاتقه . ولم يكن ولدا طغج قد نسيا الأخذ بثأر أبيهما ، كما لم يكن ابن حمدان يجهل ما فعله الوزير بطغج ؛ فلما سقط الوزير

---

(١) Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, P. 96.

(٢) وتفسير طغج ؛ على ما ذكره ابن خلكان ، عبد الرحمن .

عن جواده صاح ابن حمدان بولدى طغج ليثأرا لقتل أبيهما ، فضربا العباس بالسيف ، وهرب ابن حمدان الى ديار ربيعة ، وهرب عبيد الله بن طغج إلى شيراز ، حيث دخل فى خدمة أميرها .

أما طغج بن جف فقد زودنا ابن زولاق بشىء غير قليل عن سيرته ، فذكر لنا أنه ولد له سبعة أولاد من الذكور ، أحدهم محمد الإخشيد الذى ولد فى منتصف شهر رجب سنة ٢٦٨ هـ بشارع باب الكوفة ببغداد ، ووصفه بالثراء وسعة العيش (١) .

اتصل طغج بخدمة الطولونيين ، فولاه خمارويه دمشق وطبرية . وقد نقل لنا ابن زولاق رواية عن طغج نفسه ، تدل على أنه هو الذى دبّر قتل خمارويه ، وأن هذا أرسل إليه وهو بدمشق يأمره بالمسير إلى طرسوس والقبض على واليها راغب وقتله . فشرع طغج فى تنفيذ أوامر مولاه ، وبلغ طرسوس فى الشتاء ، فلقيه راغب فى غلمانه وأكرمه الإكرام كله ، فأمسك عنه ، ثم كلمه جماعة من أهل طرسوس فى شأن راغبٍ ، وطلبوا إليه أن يعدل عن قتله ، ففعل طغج ، وعاد إلى دمشق ، ثم انتحل لنفسه من المعاذير ماحاول به أن يصف لخمارويه ما قام فى وجهه من مصاعب ، حالت دون قتل راغب .

فبينا طغج فى مقر ولايته ، إذا بخمارويه يشد رحاله ، ويأتيه بدمشق على غير علم ، وقد عزم على قتله لمخالفته أوامره . وبينا خمارويه فى مجلس شرابه ، وقد أثقلت رأسه الخمر ، قال لطغج إنه إنما جاء دمشق من أجله ؛ فروّع طغج ، ودبر قتل خمارويه فى تلك الليلة مع راغب ، وبذلك أمن شره وبلاءه .

ولا يبعد أن يكون لهذه الرواية نصيب من الصحة ، إذا علمنا أن وفاة طغج كانت فى سنة ٢٩٤ هـ ، أى بعد انقراض الدولة الطولونية بسنتين ، كما لا يبعد أن يكون طغج قد أفضى هو أو بعض خاصته بهذا الحديث ، بعد أن عفى الدهر على آل طولون وذهبت ريحهم ، وأمن هو شرهم ، فى وقت لم يبق منهم من يثأر لقتل خمارويه . أما راغب فإنه يلوح لنا أنه صحب طغج إلى دمشق سراً .

وظل طغج على ولاية دمشق وطبرية فى أيام أبى العساكر جيش بن خمارويه ، وكان ابنه محمد ، الذى عرف فيما بعد بالإخشيد ، ينوب عنه فى ولاية طبرية .

اتصل محمد بن طغج بخدمة ابن بسطام عامل بلاد الشام . وقد ذكر ابن سعيد (٢) نقلا عن ابن زولاق أن عبيد الله بن طغج عاد إلى بغداد فى أيام الخليفة المقتدر ، واتصل بخدمته ، وحاز من علو المرتبة ماجعله يفتخر على أخيه الإخشيد ، فكان يخرج معه للصيد . ولما ولى ابن بسطام مصر صحبه الإخشيد إليها وبقى معه إلى أن توفى سنة ٢٩٧ هـ ، فاتصل بخدمة ابنه أبى القاسم على ، ثم حارب تحت قيادة تكين (٣) ، فى الموقعة التى دارت بين الجند المصريين وجند حُسَاسة بن يوسف الكتامى قائد

---

(١) تتجلى فى وصفه له روح المبالغة ؛ من ذلك قوله إن خزانة طيبه حملت فى إحدى سفراته على أكثر من خمسين جملا ، وأنه كان له وهو بدمشق قبة مشبكة يتطيّب فيها ، فتصل رائحة الطيب إلى أكثر جهات المدينة .

(٢) المغرب فى حلى المغرب ص ٧ .

(٣) ولى تكين مصر ثلاث مرات هى : ٢٩٧ — ٣٠٢ ، ٣٠٧ — ٣٠٩ ، ٣١١ — ٣٢١ هـ .

الخليفة عبيد الله المهدى الفاطمى فى بلاد المغرب . وفى هذه الموقعة أبلى الإخشيد بلاء حسناً ، وتوثقت الصلة بينه وبين تكين ، فكان يتنقل معه بين الشام ومصر . وقد ولى عمان وجبل الشراة[١] فى سنة ٣٠٦ هـ نيابة عن تكين الذى كان يلى بلاد الشام إذ ذاك . ثم ولاه الإسكندرية فى ولايته الثانية على مصر (٣٠٧ — ٣٠٩ هـ) ، واشترك فى غزوة الفاطميين الثانية على مصر بقيادة القائم بن المهدى وولى عهده .

تولية الإخشيد مصر :

اشتهر أمر الإخشيد فى الدولة العباسية منذ سنة ٣٠٦ هـ ، حين ولى إقليم طبرية وجبل الشراة نيابة عن تكين ، وذلك على أثر بلائه وإيقاعه بجماعة من لخم وجذام كانوا قد دهموا حاج الشام وجماعة من أهل العراق ، منهم جارية أم الخليفة المقتدر . وقد سار الإخشيد بالأسرى الى دمشق ، فحمد له تكين هذا العمل ، وكتب أهل العراق بما كان من خلاصهم على يد الإخشيد ، فاشتهر أمره ، وكتب إليه الناس يشكرون له فعله ، ويحمدون له مروءته .

ولا غرو فقد كان من أثر انتصار محمد بن طغج على جند الفاطميين الذين غزوا مصر (٣٢١ — ٣٢٤هـ) ، أن أمر الخليفة العباسى بزيادة « الإخشيد » على اسمه ، وهو اللقب الذى كان يطلق على ملوك فرغانة ، ودعى له بهذا اللقب على منابر مصر والشام فى شهر رمضان سنة ٣٢٧ [٢] .

وقد أعاد الإخشيد النظام والسكينة ، ووطد مركزه فى مصر والشام ، وصد غزوات الفاطميين الذين أرسلوا إلى مصر حملة استمرت ثلاث سنوات (٣٢١ — ٣٢٤ هـ) ، حدثت فيها مناوشات بين جند الفاطميين والمصريين ، وانتهت بمعاهدة الصلح .

ويخبرنا الكندى [٣] أنه قد حدثت فى عهد ولاية الإخشيد الثانية (رمضان سنة ٣٢٣ — جمادى الثانية سنة ٣٢٤) عدة مواقع انتهت بعقد الصلح بين الفريقين ، وانضمام بعض زعماء المصريين إلى جيش المغاربة ، الذى دخل الإسكندرية ، فأرسل إليهم الإخشيد جيشاً هزمهم ، وأرغمهم على العودة إلى بلادهم .

وكتب القائم الفاطمى إلى الإخشيد بيده كتاباً دوّنه ابن سعيد فى كتابه « المُغْرب فى حلى المَغْرب [٤] . وإنما فعل ذلك رغبة منه فى أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لا تفعله سياسة العداوة والحرب ، التى أخفق فيها هو وأبوه من قبل .

ولا شك أن النزعة السياسية والمذهبية فى مصر قد أصبحت منذ أيام الإخشيد فى جانب الفاطميين . وقد قيل إن القائم الفاطمى تسلم من الإخشيد كتابا يعرض فيه زواج ابنته من المنصور بن القائم

---

(١) ويقع شمالى العقبة .

(٢) الكندى كتاب الولاة ص ٢٨٨ .

(٣) كتاب الولاة ص ٢٨٣ — ٢٨٥ ، ٢٨٧ .

(٤) ص ٣٥ — ٢٦ . أنظر أيضا « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٨٣ — ٨٤ .

وولى عهده . وإن القائم قرأ هذا الكتاب على أنصاره ، فأشاروا عليه بالقبول . فكتب الخليفة الفاطمى بذلك إلى الإخشيد ، وبعث إليه بصداقها مائة ألف دينار . على أن الإخشيد استقل هذا المال ، ولم يلبث أن انشغل بحرب ابن رائق . ثم مات الإخشيد والقائم الفاطمى ، واشتغل ابنه المنصور بقمع الثورات الداخلية التى قامت فى بلاده ، ولم يفكر فى غزو مصر . وبذلك لم تتم مسألة الزواج ، وانصرف الفاطميون عن غزوها .

علاقة الإخشيد بالخلافة :

سادت صلة الوفاق بين الإخشيد والخلافة إلى سنة ٣٢٨ هـ ، حين تبدلت هذه الصلة بمسير محمد بن رائق الخزرى إلى الشام يريد مصر بتقليد من الخليفة ، مما حدا بالإخشيد إلى إلغاء الخطبة للخليفة العباسى ، وذكر اسم الخليفة الفاطمى محل اسمه فى الخطبة ، أو على الأقل إلى وقف الدعوة للخليفة العباسى رَدَحا من الزمن .

وفى هذه السنة وقعت الحرب فى العريش بين الإخشيد وابن رائق ، الذى استولى على دمشق من قبل ، فمضى ابن رائق منهزما إلى الرملة . وعلى الرغم من قتل عبيد الله بن طغج أخى الإخشيد ، فقد عقد الصلح على مايحب ابن رائق ، فتقلد ولاية الأراضى الشآمية الواقعة شمالى الرملة ، وتعهد الإخشيد أن يدفع إليه ١٤٠,٠٠٠ دينار جزية سنوية ، مما حدا ببعض المؤرخين إلى أن يعد عقد الإخشيد الصلح على هذه الصورة ، مع انتصاره على خصمه ، دليلا على ضعف سياسته .

على أننا نرى فى عمله هذا مايبرره نظراً للأحوال التى كانت تحيط به ، لأنه كان يخشى أن تواصل الخلافة العباسية الحملات عليه ، على الرغم من انتصاره فى هذه المرة ، ولأنه كان يخشى خصما آخر يهدده من ناحية مصر الغربية ، وهو الخليفة الفاطمى .

على أن وفاة ابن رائق بعد الصلح بسنتين قد أعادت إلى حوزة الإخشيد كل بلاد الشام من غير حرب ، ودخلت مكة والمدينة تحت سيادة مصر ، فاصبح الإخشيد من القوة بحيث يستطيع أن يأمر عماله وقواده بالاعتراف بولاية ابنه أنوجور .

غير أن الأمر لم يكن قد استتب للإخشيد بعد ، لخروج العلويين عليه فى مصر ، ومناوأة الحمدانيين الذين استولوا سنة ٣٣٢ هـ على قنسرين والعواصم ، فولاها ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان (١) . ثم سار الإخشيد إلى الشام ، فانتهز ابن السراج العلوى (٢) هذه الفرصة ، وسار إلى الصعيد ، ونهب بعض بلاده . ولكن قوته لم تكن بالتى تديل دولا وتقيم أخرى ؛ فسرعان ماسار إلى برقة ، ودخل فى سلطان الخليفة (٣) .

وقد ساءت العلاقة بين الإخشيديين وسيف الدولة الحمدانى على أثر استيلائه على حلب ، واضطر

(١) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٣ ص ٢٨٠ .

(٢) هو محمد بن يحى بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن موسى بن على بن أبى طالب .

(٣) كتاب الولاة للكندى ص ٢٩١ .

الإخشيد إلى عقد الصلح الذى يقضى بترك حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا للحمدانيين ، وتعهد بأن يدفع لهم جزية سنوية كفاء احتفاظه بدمشق .

وصاية كافور على أولاد الإخشيد :

ولما شعر الإخشيد بدنو أجله ، عهد إلى كافور بالوصاية على ولده أبى القاسم أنوجور كما تقدم . وقد مات الإخشيد بدمشق فى ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٣٤ هـ [يولية سنة ٩٤٦ م] ، وهو فى السادسة والستين من عمره ، ونقل إلى بيت المقدس ، ودفن بها بعد أن ولى مصر إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ويومين . فخلفه ابناه أبو القاسم أنوجور ، ثم أبو الحسن على . ولا نستطيع الحكم عليهما ، إذ لم تترك لهما الفرصة الكافية لإظهار كفايتهما حتى ماتا فى غموض تام ، لم يشعر بولايتهما أحد . وكان أنوجور فى ذلك الحين لايزال طفلا ، لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ؛ فقام بتدبير أمره كافور الإخشيدى ، الذى بقيت علاقته بهذا الوالى الجديد على ما كانت عليه من قبل ، وهى علاقة الأستاذ بالتلميذ ، وأصبح كافور بذلك صاحب السلطان المطلق فى إدارة الدولة الإخشيدية (١) ، « وبقى الاسم لأبى القاسم والدست (٢) لكافور (٣) » .

ولد أبو المسك كافور الليثى أو اللابى (٤) ، بين سنتى ٢٩١ هـ [٩٠٤ م] و ٣٠٨ هـ . وقد بدأ حياته مملوكا حقيرا ، وسرعان ما ترقى فى بلاط الإخشيد ، فأصبح مربيا لأولاده ، وقائدا من قواده . وإليه آلت الوصاية على أبنيه أنوجور (٥) وأبى الحسن على ؛ فاستبد بالسلطة ، ثم أصبح والياً شرعيا على مصر والشام والحجاز ، كما كان نصيرا للعلوم والآداب ، وصديقا لأبى الطيب المتنبى ، أشهر شعراء عصره . وقد أثار كل هذا اهتمام مؤرخى العرب ، فأولوه شيئا كثيرا من الإعجاب والإطراء . ولكافور أهمية خاصة بين ولاة مصر ، وذلك لصده الفاطميين — الذين قامت دولتهم فى بلاد المغرب — والحمدانيين فى حلب ، ثم لمحافظته على ذلك التراث الذى خلفه الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية فى مصر سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) .

كان كافور ضميم الخلقة إلى حد كبير . وصفه ابن خلكان (٦) فقال : « كان أسود اللون شديد السواد بصاصا (٧) » . وقال صاحب كتاب « الصلح المنبى عن حيثية المتنبى » : « كافور هذا عبد

---

(١) تجارب الأمم لمسكويه ج ١ ص ١٥٤ ، والمغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ص ١٤٥ ، والفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٩٣ .

(٢) الدست معناه الديوان ومجلس الوزارة والرياسة (راجع كتاب شفاء الغليل) .

(٣) أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢ .

(٤) نسبة الى مدينة اللاب مسقط رأسه ببلاد النوبة .

(٥) أو أنوجور (بفتح الألف) ، ومعناها بالعربية محمود على ماذكره ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٥ .

(٦) كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣١ .

(٧) بصاص وصف من بص بمعنى برق ولمع وتلألأ

أسود خصى ، مثقوب الشفة السفلى ، بطين قبيح ، مشقوق القدمين ، ثقيل البدن » . وقد روى ابن سعيد (١) نقلا عن كتاب «العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج» لابن زولاق ، المتوفى سنة ٣٨٦ هـ ، أن كافورا لما جىء به إلى سوق الرقيق بمصر (٢) ومعه أسود آخر ، تمنى ذلك الأسود الآخر أن يباع لطباخ حتى يظل طوال حياته شبعان مما فى المطابخ ؛ وتمنى كافور ملك مصر ، فحقق الله أمنية كل من الرجلين . ولما قبض كافور على زمام الأمور مر يوما فى السوق ، فرأى الأسود الآخر فى ثياب المطابخ فقال لبعض خاصته : « أدرك كل واحد ما أمَّله » .

ويكنى كافور «أبا المسك» . وقد أطلقت هذه الكنية عليه من قبيل التمليح والمشاكلة ، لأن المسك أسود ، وكان كافور كذلك . وكثيرا مايستعمل العرب ذلك . قال عنترة العبسى :

فإنْ أكُ أسوداً فالمسك لونى وما لسواد جلدى من دواء
ولكن تبعد الفحشاء عنى كبعد الأرض من بعد السماء

ومن الدعابة إطلاق لفظ كافور عليه ، لأن الكافور أبيض ، وكان هو أسود اللون .

اشترى محمد بن طغج الإخشيد كافورا سنة ٣١٢ هـ من زيات يدعى محمود بن وهب بن عباس ، بثمانية عشر ديناراً (٣) ، أى أقل من عشرة جنيهات . وذهب بعض المؤرخين إلى أن الإخشيد لم يشتره بالمال ، وإنما أرسل إليه بهدية ، فتوسم فيه الذكاء ، واحتفظ به ، ورد الهدية إلى صاحبها . وسواء اشترى الإخشيد كافورا أم لم يشتره ، فقد تربى فى داره تربية عالية ، وأظهر من المزايا ماحبب فيه مولاه . من ذلك مايروى من أن الإخشيد قد جىء له بعد أن آلت ولاية مصر إليه [سنة ٣٢٣هـ] بفيل وزرافة ، فمال جميع الخدم والعبيد بأبصارهم إليهما . على أن عين كافور لم تبرح عين مولاه ، حتى لاينشغل بما يلهيه عن إجابته إذا هو احتاج إليه . فأعجب به الإخشيد ، واختصه من بين عبيده ، وأولاه ثقته ، وأعتقه ، وأخذ يرقيه فى بلاطه ، لعقله وحسن تدبيره ، وجعله من كبار قواده ، وعهد إليه فى تربية ولديه أبى القاسم أنوجور وأبى الحسن على .

* * *

فى ذلك العصر الذى استبد فيه الموالى من الأتراك بالسلطة فى بغداد ، وساد الحمدانيون فى الموصل وشمالى بلاد الشام ، فى ذلك العصر الذى انتشر فيه نفوذ الأمويين بالأندلس ، وأسس الفاطميون دولتهم فى بلاد المغرب وصقلية ، والسامانيون فى خراسان ، والإخشيديون فى مصر والشام والحجاز ، انتقلت السلطة فى بغداد إلى بنى بويه فى سنة ٣٣٤ هـ ، ومات الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية ، وآلت الوصاية على ولده أنوجور إلى كافور ، ذلك المملوك الخصى ، الذى قدر له أن يستبد بالسلطة فى مصر وما يليها من البلاد ، زهاء إحدى وعشرين سنة .

---

(١) المغرب فى حلى المغرب ص ٤٩ .
(٢) أى القسطاط والعسكر .
(٣) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣١ .

وقد قام فى وجه كافور فى مبدأ حكمه بعض المشاكل الداخلية والخارجية : فنجح فى القضاء على ثورة قام بها أهل مصر ، فارتفع شأنه عند الناس على اختلافهم (١) . وبعد ذلك بقليل وردت الأنباء باضطراب الأمور فى الشام ، واستيلاء سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب على دمشق ، وبأنه عول على المسير الى الرملة لغزو مصر . فحاربه كافور والحسن بن عبيد الله بن طغج أخى محمد بن طغج الإخشيد على ما تقدم ، وانتصرا على سيف الدولة انتصارا حاسما ، بالقرب من مرج عَذرا ، بجوار دمشق . ودخل الجيش المصرى مدينة حلب ، وعُقدت بين الفريقين معاهدة الصلح ، بنفس الشروط التى عقدت بها فى أواخر أيام الإخشيد ، ماعدا الجزية ، فقد وقف دفعها . وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسى على تولية الأمير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، كما ضم إلى حكم مصر فيما بعد كل بلاد سورية ، حتى مدينتى حلب وطرطوس . بذلك عظم شأن كافور ، وزادت شهرته ، واستطاع أن يقبض على زمام الأحكام ، من غير أن تكون له سلطة تشريعية . وخاطبه علية القوم بالأستاذ ، وذكر اسمه فى الخطبة ، ودُعى له على المنابر فى مصر والبلاد التابعة لها ، وأتيح له بما أغدقه من العطايا والهبات أن يكتسب محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين . (٢)

على أن أنوجور لما كبر وشعر بحرمانه من سلطته ، ظهرت الوحشة بينه وبين كافور . وانقسم الجند فريقين : الإخشيدية ، وهم مماليك الأسرة الإخشيدية وأنصارها ، والكافورية ، وهم أنصار كافور الذين رقاهم إلى المناصب العالية فى الدولة . ومع ذلك فقد ظل كافور على ماهو عليه ، يصرف لابن سيده راتبا قدّره المقريزى (٣) بأربعمائة ألف دينار فى السنة .

وقد عول أنوجور على المسير إلى الرملة سنة ٣٤٣ هـ ، وربما كان يرمى بذلك إلى إعداد جيش يزحف به على مصر ، للتخلص من كافور بحد السيف . ولكن أم أنوجور سعت إلى مصالحتهما ، خوفا على ولدها من بطش كافور ، فتصالحا . وظل أنوجور مسلوب السلطة ، لا يملك من الأمر شيئا ، حتى مات سنة ٣٤٩ هـ [٩٦٠ م] . ويتهم بعضهم كافورا بأنه سعى إلى موت أنوجور ، فإن كراهته لهذا المغتصب كانت غير خافية . وقد دبر له المكايد والحيل للتخلص منه ؛ ولذا يقال إن كافورا سقاه السم . على أنه من الصعب أن نقبل هذه التهمة على علاتها ، فقد عرف كافور بالعفة وكرم الخلق . روى ابن سعيد (٤) عن ابن زُولاق أن أحمد بن طولون ذُكر فى مجلس كافور بأنه أحصى من قتل أو مات فى حبسه ، فكانوا ثمانية عشر ألفا ؛ فاستعاذ كافور بالله من هذا الأمر ، ورفع يديه يَدعو الله أن يجعل أضعافهم فى ديوان إحسانه وصِلاته . على أنه من الجائز أن كافورا — لما عرف بنية أنوجور — رأى أن يعجل بقتله ، حرصا على حياته ، وإبقاء على مركزه . وإذا أخذنا

---

(١) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٤ ص ٢ .

(٢) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٧ .

(٣) الخطط ج ص ٢٧ .

(٤) كتاب المغرب فى حلى المغرب ص ٤٨

بهذا الاحتمال ، فمن الجائز أن يكون كافور قد انتحل طيبة القلب سياسة منه ، لاجتذاب قلوب الناس إليه .

ولا شك أن كافورا كان مشغوفا بالإمارة ، ولوعا بالسلطة ؛ فانه لما تولى أبو الحسن على بن الإخشيد بعد أخيه أنوجور ، ظل كافور يباشر الأمور بنفسه ، على الرغم من أن الوالى الجديد قد ناهز الثالثة والعشرين من عمره ، بل إنه حرمه كلّ عمل ، ومنع الناس من الاجتماع به ، فأصبح أبو الحسن أسيراً فى قصره ، لا عمل له إلا الصلاة أو اللهو ، وعيّن له كافور — كما عين لأخيه من قبل — أربعمائة ألف دينار فى كل سنة . وبقى أبو الحسن على ذلك إلى أن مات سنة ٣٥٥ هـ بالعلة التى مات بها أخوه من قبل .

تولية كافور على مصر :

وكان الوارث للعرش ولد صغير يدعى أحمد بن أبى الحسن على ، فحال كافور دون تعيينه ، بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه ، وبقيت مصر بغير أمير نحواً من شهر . وفى المحرم سنة ٣٥٥هـ أخرج كافور كتابا من الخليفة العباسى بتقليده على ولاية مصر ، وأظهر الخلَع التى وصلت إليه من الخليفة ، فنودى به والياً على مصر وما يليها من البلاد ، فلم يغير لقبه « الأستاذ » ، ودُعى له بعد الخليفة على المنابر(١) . وفى ذلك يقول ابن خلكان (٢) : « لما أشير على كافور باقامة الدعوة لولد أبى الحسن على ابن الإخشيد ، احتج بصغر سنه ، وركب بالمطارد ، وأظهر خلعا جاءته من العراق ، وكتابا بتكنيته ، وركب بالخلع يوم الثلاثاء لعشر خلون من صفر سنة خمس وخمسين وثلثمائة » .

وإن حالة أولاد الإخشيد مع كافور لتشبه فى كثير من الوجوه حالة الخلفاء العباسيين مع الموالى من الأتراك ، وملوك الميروفنچيين Merovingians المتأخرين الذين أصبحوا أشبه شىء بالاعيب فى أيدى نظار السراى(٣).

ظل كافور على رأس الحكومة المصرية زُهاء سنتين وأربعة أشهر (١٠ صفر سنة ٣٥٥ — ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ) . ويصف المؤرخون عهده بأنه كان عهداً أسود ، توالت فيه المصائب على مصر ؛ فقد تعرضت بلاد الشام لغارات القرامطة الذين نهبوها وقبضوا على قافلة مصرية كبيرة تحتوى عشرين ألف جمل كانت ذاهبة إلى مكة لأداء فريضة الحج (٣٥٥ هـ) ، ووقعت بمصر زلازل مروعة ، وشبت نيران هائلة ، دمرت ١٧٠٠ منزل من منازل الفسطاط ، وأغار ملك النوبة

---

(١) كتاب المغرب فى حلى المغرب ص ٤٦ ، ٤٩ ، نقلا عن أبى عبد الله محمد بن سعد القرطبى . انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٩٤ .

(٢) كتاب وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٣١

(٣) Thatcher and Schwill : History of Europe, p. 42

على مصر فجأة ، وعاث فساداً فى البلاد الواقعة بين الشلال الأول وإخميم ، فأحرق بعض المدن ، وقتل أهليها بالسيف ونهبَ أموالهم .

وكان أشدّ هذه الأهوال انخفاضُ ماء النيل . ففى أواخر عهد الدولة الإخشيدية انخفض النيل انخفاضاً دام تسع سنين (٣٥١ — ٣٦٠ هـ) ، وبقى حتى أيام الفاطميين . وقد قاست البلاد الأمرّين مما أصابها من القحط والوباء ، واشتد الغلاء ، وندر وجود القمح ، وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى ودفنهم . وقد ذكر بعض المؤرخين أن عدد الموتى بلغ ستمائة ألف ، وأنه كان يُلقى بجثثهم فى النيل لكثرتها . وقد تبع انخفاضَ النيل اضطرابُ الأعمال الحكومية ، وانتشار المجاعات والأوبئة ، فنُهبت المحاصيل ، وعم السلب والنهب ، حتى إن كافوراً لم يستطع أن يدفع أرزاق الجند — وكانوا من الأتراك والروم — فثاروا عليه . ولعل ذلك مما دفع لينپول (١) إلى القول بأن « كافوراً كان بلا شك خادما موفقاً أكثر منه قائداً ناجحاً » .

وفى عهد كافور حاول المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين العودة لغزو مصر ، وسار بجيشه إلى حدود هذه البلاد الغربية ، ووصل إلى الواحات . فجهز إليه كافور جيشا وقف تيار تقدمه وطرده ، ولكنه تلقّى بالقبول الدعاة الفاطميين الذين قدموا عليه من قبل المعز يدعونه إلى طاعته والاعتراف بسيادته ، ووعد كثيرٌ من رجال بلاطه وكبار موظفى دولته بتقديم الولاء للخليفة الفاطمى .

استطاع كافور أن يُبْقىَ على النظام الذى ساد مصر منذ عهد الإخشيد . نعم ! كان كافور خادماً موفقاً ، وكانت له شخصية قوية ، فوفق إلى حد كبير فى استجلاب رضا مولاه الإخشيد ، حتى وصل إلى مركز يحسد عليه . وقد بذل جهده فى الاحتفاظ بهذا المركز ، فتمتعت البلاد بشىء كثير من الرفاهية ، حتى إننا لا نسمع فى ذلك العهد الذى يربو على اثنتين وعشرين سنة ، تذمراً أو سخطا من جانب المصريين مما يدل على أنه كان محبّباً إلى رعيته .

روى أبو المحاسن (٢) عن الذهبى : « وكان كافور يُدْنى الشعراء ويجيزهم ، وكانت تُقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وله ندماء . وكان عظيم الحرمة ، وله حُجّاب ، وله جوار مغنيات ، وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف . زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد ، وكان كثير الخلع والهبات ، خبيراً بالسياسة ، فطنا ذكياً ، جيد العقل داهية . كان يهادى المعز صاحب المغرب ، ويظهر ميله إليه ، وكذا يُذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء ، وتم له الأمر » .

ومن هؤلاء الشعراء أبو الطيب المتنبى ، أشهر شعراء عصره ، فقد فارق سيف الدولة الحمدانى مغاضباً ، وقصد مصر ، وامتدح كافوراً بأحسن المدائح ، طمعاً فى أن يوليه بعض أعمال مصر . فخلع كافور عليه ، وأنزله فى دار ، وعين جماعة لخدمته ، وحمل إليه كثيراً من المال ، ولكنه لم يوله

---

(١) Stanley Lane- Poole : History of Egypt in the Middle Ages,p.87

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

عملا من الأعمال ، معتذراً بانه لا يستطيع أن يولى رجلا يدعى النبوة ، فانقلب مدح أبى الطيب هجاء ، وأسرف فى ذلك كما أسرف فى مدحه من قبل (١) .

فمن مدائح أبى الطيب المتنبي لكافور ، قوله فى أول قصيدة أنشدها إياه فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ هـ (٢) :

قَوَاصِدُ كافورٍ تَوَارِكَ غَيْرِه ... ومن قَصَدَ البحرَ استَقَلَّ السَّوَاقِيَا

فجاءت بِنَا إنْسَانَ عَينِ زَمَانِهِ ... وَخلتْ بياضاً خَلْفَهَا وَمَآقِيا

ولما لم ينل أبو الطيب المتنبي من كافور ما طلبه استعد للرحيل ، وأنشد فى يوم عرفة سنة ٣٥٠ هـ ، قبل مفارقته مصر بيوم واحد ، قصيدة طويلة هجا كافوراً فيها أشد الهجاء ومنها (٣) :

عيد بأية حال عدتَ يا عيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيـــد لأنجاس مناكيد

وقد نبغ بمصر فى عهد كافور الإخشيد كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين ، ومن أشهرهم القاضى أبو بكر بن الحداد ، وتلميذه محمد بن موسى المعروف بسيبويه المصرى ، وأبو عمر الكندى ، والحسن ابن زولاق .

صفات كافور :

ولكافور شخصية طريفة ، وما أكثر القصص التى تدور حول شخصيته .

من ذلك ما يروى من أنه مر بجماعة من السودان ، كانوا يضربون على الطبل المعروف عندهم بالدبدبة ، فطرب كافور ، وحرك أكتافه على نغمات الطبل ، على نحو ما يفعل السودانيون إذا ما أطربهم هذا النوع من الضرب . فلما أفاق لنفسه ، وعلم أنه فعل ذلك من غير قصد ، جعل يَهُزُّ أكتافه فى أغلب الأحيان ، دفعا لما قد تجرّه هذه الحركة من نقد الناس وسخريتهم به ، حتى لا يعتقدوا أنه إنما فعل ذلك من أجل هذه الدبدبة .

وهذه الحكاية — إن صدقت — تدلنا على سرعة خاطره .

وكان كافور عالى الهمة ، عارفا بأقدار العلماء والوجوه والأشراف . روى أبو جعفر مسلم بن عبد الله بن طاهر الشريف العلوى ، أنه بينما كان كافور راكبا فى موكبه يوما إذْ سقط سوطه ، فناوله الشريف إياه ، فقبل كافور يده ، وقال له : « نَعَيْتَ إلىَّ نفسى ، فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يُتَشَرَّف لها »(٤) .

وقد ذكر السيوطى فى رواية أخرى أن كافورا ردّ على الشريف بقوله : « أيها الشريف ! أعوذ بالله

---

(١) شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقى ج ٢ ص ١٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥١٤ ، ج ١ ص ١١٨ — ١١٩ ، ٢٧٠ — ٢٧٦

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧٦ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١

من بلوغ الغاية ! ما ظننتُ أن الزمان يُبَلِّغُنى حتى يُفْعل بى هذا ، وكاد يبكى . فلما بلغ كافور داره أمر بالبغال والجنائب لترسل إلى الشريف ، فحملت من العطايا ما يربو ثمنها على خمسة عشر ألف دينار »(١) .

ومن الحكايات التى أثرت عن كافور ، أن امرأة وقفت فى طريقه مرة ، وصاحت به : ارحمنى يرحمك الله ! فدفعها أحد رجاله دفعا عنيفا فسقطت ، فأخذ الغضب من كافور كل مأخذ، وأمر بقطع يد الرجل ، فشفعت له حتى لا تكون شؤما عليه ، فأعجب بها كافور ، وأمر أحد رجاله أن يسألها عن أصلها ونسبها . فإذا بها عَلَوية ، فشقّ ذلك عليه ، وعزا ما وقع إلى الشيطان ، وإغفاله إياه عن هؤلاء الأشراف ، وأحسن إلى العلوية ، وأدرّ الهبات والأرزاق عليها، وعلى سائر نساء الأشراف.

وفاة كافور :

توفى كافور بمصر فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ ، وعاش بضعا وستين سنة . وكانت إمارته على مصر ثلاثا وعشرين سنة ، استقل منها بالملك سنتين وأربعة شهور ، خطب له فيها على منابر مصر والشام والحجاز والثغور ، مثل طرسوس والمصيصة وغيرها ، وحمل تابوته إلى القدس فدفن به ، وكتب على قبره :

ما بال قبرك يا كافور منفردا ... بالصَّحصَح المَرْتِ بعد العسكر اللَّجب

يدوس قبرك آحاد الرجال وقد ... كانت أسود الشرى تخشاك فى الكتب

ولما توفى كافور ، اختار رجال البلاط أبا الفوارس أحمد حفيد الإخشيد والياً على هذه البلاد ، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من عمره ، فعينوا الحسن بن عبيد الله بن طغج — والى الشام — وصيا عليه . غير أنه لم يلبث أن استبد بالامر ، وأساء معاملة الأهلين ، فسخط عليه المصريون ، واضطر أخيراً إلى العودة إلى بلاد الشام . وقد انتهز المعز لدين الله الفاطمى فرصة هذا الاضطراب الذى فشا فى مصر ، وضعف بغداد عن الدفاع عنها ، لاشتغالها بصد غارات البيزنطيين ، الذين توغلوا فى بلاد الدولة العباسية ، فبعث جيشا لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٨ هـ على ما سيأتى (٢).

اقتدى الإخشيد بابن طولون فى العناية بالبناء ، فشيد فى جزيرة الروضة قصراً جميلا يدعى « المختار » ، وقصراً آخر أطلق عليه فيما بعد « البستان الكافورى » ، كان يقع غربى سوق النحاسين الآن . كما عنى بإنشاء المراكب الحربية ، فنقل دار الصناعة من الروضة إلى مدينة الفسطاط ، فى دار عرفت باسم « صناعة السفن » . وغدت السفن الحربية والتجارية تصنع فى دار صناعة مصر تارة ، وفى دار صناعة الجزيرة تارة أخرى .

وقد اهتم أبو الحسن على المسعودى ، الذى زار مصر فى عهد الإخشيد سنة ٣٣٠ هـ ، بوصف

---

(١) انظر كتاب المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ص ٤٧ .
وقد وردت هذه الرواية بصورة أخرى فى كتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٤ ص ٣ — ٤ .
(٢) حسن ابراهيم حسن : كتاب المجمل فى التاريخ المصرى ص ١٥٤ — ١٥٥ .

الأهرام وغيرها من الآثار ، أكثر من اهتمامه بوصف المبانى ، والبلاط ، وطبقات الشعب ، وحالة السكان . إلا أنه مع ذلك لم يغفل الكلام على وصف نظام الرى ، وجبر الخليج ، وقطع السدود ، وليلة الغطاس ، كما وصف ما قام به المصريون من أعمال البحث والتنقيب عن الآثار ، وكشفهم أقبية مملوءة بالهياكل والموميات . ولا يخفى ما كان لذلك من أثر فى تنبيه الأذهان إلى أهمية الكشف عن الآثار المصرية .

وقد عمل كافور على تنمية موارد الثروة فى مصر ، فأصبح خراجها يربو على أربعة آلاف ألف دينار كل سنة . كما ازدادت فى أوائل عهده ثروة مصر ، وكان هو نفسه يملك أموالا ضخمة ، أنفق منها بسعة على العلماء والأدباء والشعراء الذين كانوا يغمرونه بقريضهم (١) .

الدولة الفاطمية

(في بلاد المغرب ومصر)

٢٩٧ — ٥٦٧ هـ = ٩٠٩ — ١١٧١ م

الخلفاء الفاطميون (٢)

	هجرية	ميلادية
١) المهدى ابو محمد عبيد الله	٢٩٧	٩٠٩
٢) القائم أبو القاسم محمد	٣٢٢	٩٣٤
٣) المنصور أبو طاهر اسماعيل	٣٣٤	٩٤٥
٤) المعز أبو تميم معدّ	٣٤١	٩٥٢
٥) العزيز أبو منصور نزار	٣٦٥	٩٧٥
٦) الحاكم أبو على المنصور	٣٨٦	٩٩٦
٧) الظاهر أبو الحسن على	٤١١	١٠٢٠
٨) المستنصر ابو تميم معد	٤٢٧	١٠٣٥
٩) المستعلى أبو القاسم احمد	٤٨٧	١٠٩٤
١٠) الآمر أبو على المنصور	٤٩٥	١١٠١
١١) الحافظ أبو الميمون عبد المجيد	٥٢٤	١١٣٠
١٢) الظافر أبو المنصور اسماعيل	٥٤٤	١١٤٩
١٣) الفائز أبو القاسم عيسى	٥٤٩	١١٥٤
١٤) العاضد أبو محمد عبد الله	٥٥٥	١١٦٠
	٥٦٧	١١٧١

[الأيوبيون]

(١) حسن ابراهيم حسن : كتاب المجمل فى التاريخ المصرى ص ١٥٦ .

(٢) راجع كتاب Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 71-3. ، حسن ابراهيم حسن : كتاب تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ج ٢ ص ١١١

جدول الخلفاء الفاطميين

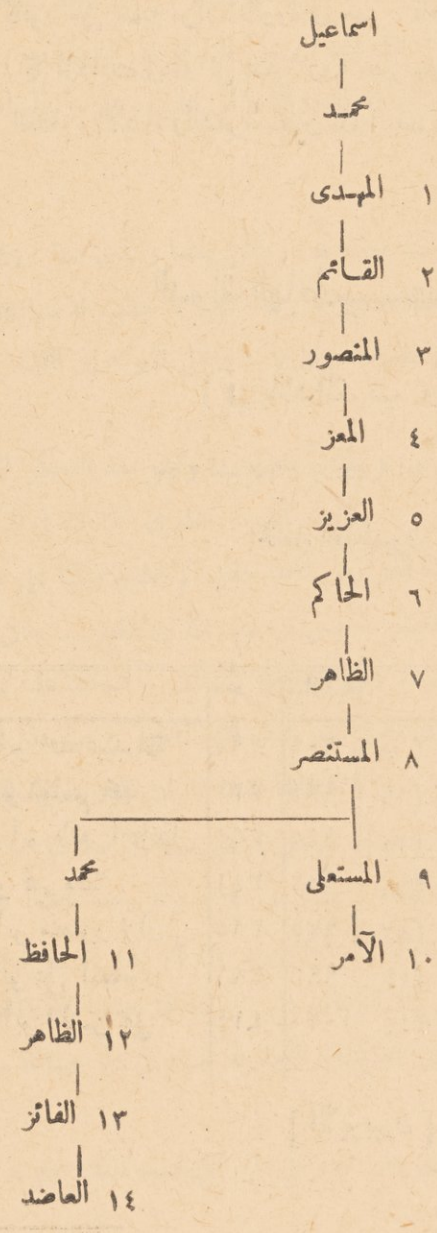

عبيد الله المهدى (٢٩٦ — ٣٢٢هـ)

اختلف المؤرخون فى نسب الفاطميين مذاهب شتى : فبعضهم يقول إنهم ينتسبون إلى إسماعيل ابن جعفر الصادق ، ومن ثم سموا الإسماعيلية أيضا ، وبعضهم ينكر صحة نسبهم إلى إسماعيل ، ويقول إنهم يرجعون فى نسبهم إلى رجل فارسى هو عبد الله بن ميمون القداح الأهوازى ، الثنوى المذهب ، الذى يقول بوجود إلهين اثنين : إله النور وإله الظلمة .

وقد ظهرت جهود الشيعة الإمامية منذ وفاة الإمام الحادى عشر من أئمة الطائفة الإمامية الاثنا عشرية فى سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) ، مما جعل الخلفاء العباسيين يضيقون على طائفة الإسماعيلية ، فاضطروا إلى مغادرة سلمية (من أعمال حماه) التى اتخذوها مركزا لنشر دعوتهم ، إلى بلاد أكثر صلاحية لذلك الغرض ، وهى شمال إفريقية لأسباب منها : بعد هذه الخلافة عن بغداد مركز العباسيين ، وبغض أهالى المغرب ولاتهم من العباسيين ، لفرضهم عليهم الضرائب الفادحة ، مما أعد أهالى هذه البلاد لقبول المذهب الشيعى . وسهلت كراهتهم للعرب ، اعتناقهم عقائد الفاطميين . كما كان لضعف الأمراء فى بلاد المغرب ، ونشاط دعاة الفاطميين أثر كبير فى اكتساب ولاء قبائل البربر ومعونة رجالها ، وخاصة ميول قبيلة كتامة ، التى أثرت فيها تعاليم دعاة الشيعة — كل ذلك مهد السبيل للمهدى ، ليظهر للناس كأنه الإمام المنتظر سليل آل على .

ولد سعيد بن محمد الحبيب فى سنة ٢٥٩ هـ [1] فى سلمية ، التى اتخذها الإسماعيلية مركزا لدعوتهم . وكان أبوه قد أرسل فى سنة ٢٧٠ هـ أحد أشياعه ، ويسمى رُستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى ، إلى بلاد اليمن ، لنشر الدعوة للفاطميين فيها . وسرعان ما اعتقد أهالى اليمن فى المهدى من آل على وانتظروا ظهوره ، بفضل جهود ابن حوشب الذى ابتنى حصنا بجبل لاعة باليمن ، وتغلب على معظم أرجائها ، وبعث دعاته إلى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب . ولما اتصل بابن حوشب موت الحلوانى وأبى سفيان داعيى الإسماعيلية فى بلاد المغرب ، عهد إلى أبى عبد الله الشيعى ، وكان من أهل صنعاء ، بنشر الدعوة فى بلاد المغرب . ولما استقر به المقام فى هذه البلاد وصادفت دعوته شيئا كثيرا من النجاح ، أرسل إلى سلمية يدعو عبيد الله (المهدى) للحضور إلى إفريقية [2] ، فرحب بهذه الدعوة ، ولكن الخليفة العباسى المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠هـ) علم بذلك ، فأمر بالقبض عليه .

من ذلك نقف على مدى الصعاب التى لقيها عبيد الله المهدى فى طريقه إلى المغرب ، وكيف أفلت من القبض عليه فى مصر حيث ظهر فى زى التجار ، وكيف استغل الأموال الكثيرة التى حملها معه من سلمية فى رشوة بعض الولاة فى طريقه إلى المغرب ليأمن الوقوع فى أيديهم ، وكيف أفلت من أيدى

---

(١) قال ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٢) : وكانت ولادته فى سنة ٢٥٩ هـ ، وقيل سنة ٢٦٠ هـ بمدينة سلمية ، وقيل بالكوفة ، ودعى له بالخلافة على منابر مدينة رقادة فى شهر ربيع الأول سنة ٢٩٧ هـ .

(٢) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٥٢

عمال زيادة الله بن الأغلب أمير إفريقية الذى وضع الأرصاد والعيون للقبض عليه . ولكن اليسع ابن مدرار أمير سجلماسة ، التى اتخذها بنو مدرار حاضرة لولايتهم منذ سنة ١٦٠ هـ ، لم تُجد معه الرشوة نفعاً . وسرعان ما قبض على عبيد الله المهدى وحبسه (١) ، ثم أخذ أبو عبد الله يواصل فتوحه ، على الرغم من وقوع المهدى فى يد اليسع ، ويمد نفوذه على معظم أرجاء المغرب ، واستطاع أخيراً أن يدخل رقادة (رجب سنة ٢٩٦ هـ) ، التى اتخذها إبراهيم الثانى الأغلبى (٢٦١ — ٢٨٩هـ) مقراً لإمارته ، ويستقر فى دار الإمارة ، ويزيل نفوذ الأغالبة ، ويبطل اسم الخليفة العباسى من الخطبة (٢) .

ظل عبيد الله المهدى فى حبسه بسجلماسة ، حتى تم لداعى الشيعة الفتح والنصر ؛ فسار فى قوة كبيرة إلى هذه المدينة . ولما سمع اليسع بن مدرار بوصول أبى عبد الله الشيعى إليها ، هرب ليلا ، وحمل معه أقاربه وأمتعته ، وأطلق داعى الشيعة عبيد الله المهدى من سجنه (٧ رجب سنة ٢٩٦هـ).

قرب المهدى من القيروان ، حيث سلم عليه أهلها بالخلافة ، وبايعوه على الطاعة ، وذُكر اسمه فى الخطبة ، وتلقب « المهدى أمير المؤمنين » . ولم يلبث أن قسم على رؤساء كتامة ، الذين ساعدوه على إقامة دولته ، أعمال هذه الدولة ، ثم دوّن الدواوين ، وجبى الأموال ، واستقرت قدمه فى هذه البلاد .

ولم يكتف عبيد الله المهدى بما أحرزته جيوشه من نصر وظفر ، وما استولت عليه من بلاد ، بل عمل على مد سلطانه إلى مصر . ووضع ، على أثر تأسيس دولته فى القيروان ، الخُطط لتحقيق سياسته ، وأعد فى سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) جيشاً من المغاربة تحت قيادة ابنه وولى عهده أبى القاسم ، وحُبَاسة بن يوسف ، أحد زعماء كتامة . واستولى هذا الجيش على برقة ، ثم واصل السير ، حتى استولى على الإسكندرية ، وسار إلى الوجه البحرى . ولكن الخليفه المقتدر العباسى بعث مؤنسا الخادم (٣) على رأس جيش كبير ، قيل إنه بلغ أربعين ألفا ، أحل الهزيمة بالجيش الفاطمى وأرغمه على العودة إلى المغرب (٤) . وفى سنة ٣٠٧ هـ سار إلى مصر جيش آخر بقيادة أبى القاسم بن المهدى واستولى على الإسكندرية ، فأرسل الخليفة العباسى مؤنسا الخادم الذى ألحق الهزيمة بالفاطميين ، وأحرق كثيراً من مراكبهم ، وأرغمهم على العودة إلى بلادهم (سنة ٣٠٩ هـ) (٥). ويقول الكندى(٦) عن الحملة الفاطمية الثالثة على مصر ، إنها ظلت ثلاث سنين (٣٢١ — ٣٢٤هـ) ، وإن معاهدة الصلح أبرمت

---

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ١٣ — ١٤

(٢) راجع كتاب Nicholson, J. : Establishment of the Fatimite Dynasty in Africa

انظر أيضا : حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٥٧ — ٦٠

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٣٦

(٤) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٦٨ — ٢٧٣ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ص ٤١ والخطط ج ١ ص ٣٢٧

(٥) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٨٣ — ٨٦ ، الكندى : كتاب الولاة ص ٢٧٧ — ٢٧٨

(٦) ص ٢٨١ — ٢٨٧

بين الفريقين فى سنة ٣٢٢ هـ ، ولكن هذا الصلح لم يطل أمده ، فقد انضم بعض زعماء المصريين إلى جيش المغاربة ، الذى دخل الاسكندرية فى ربيع الثانى سنة ٣٢٤ هـ ، فبعث إليهم الاخشيد جيشا أحل بهم الهزيمة ، وأرغمهم على العودة إلى بلادهم (١) .

على أن هذه الجهود التى قام بها الفاطميون فى سبيل استيلائهم على مصر ، لم يكن قد حان جنى ثمارها ؛ إذ كان لابد من تأجيلها طوال عهد المهدى ، لأن الخليفة العباسى كان لايزال من القوة بحيث يستطيع دفع الفاطميين عن هذه البلاد ، وكان على هؤلاء أن يعملوا على التغلب على سلسلة المصاعب الداخلية التى كان يثيرها فى وجههم الخوارج بالمغرب حينا بعد حين (٢) .

أقام عبيد الله المهدى بالقيروان (٣) التى اتخذها حاضرة لدولته إلى سنة ٣٠٣ هـ ، إلى أن اختط مدينة المهدية على بعد مرحلتين جنوبى القيروان . وقد ظلت هذه المدينة آهلة بالسكان إلى سنة ٥٤٣ هـ ، حين أرسل روجر Roger النرمندى صاحب صقلية أحد قواده فاستولى عليها ، وبقيت فى أيدى الفرنجة إلى أن استولى عليها عبد المؤمن فى سنة ٥٥٥ هـ . وقد مات عبيد الله المهدى فى سنة ٣٢٢ هـ .

القائم والمنصور (٣٢٢ — ٣٤١ هـ) :

ولى أبو القاسم الخلافة بعد أبيه عبيد الله المهدى ، وتلقب القائم . ويقول الذهبى (٤) إن القائم كان كغيره من الخلفاء الفاطميين ، ينقم على السنيين ، حتى إنه أمر بلعن الصحابة ، وأن ذلك أثار غضب المغاربة ، وخاصة الخوارج الذين ثاروا على الفاطميين . وكان أشد هذه الثورات خطرا وأشدها بلاء ، تلك الثورة التى أشعل نارها أبو يزيد مخلد بن كيداد ، والتى استمرت طوال عهد القائم ، ولم تخمد إلا فى عهد ابنه المنصور .

توفى الخليفة القائم فى شهر رمضان سنة ٣٣٤ هـ ، وخلفه ابنه أبو الطاهر إسماعيل الذى تلقب المنصور (٣٣٤ — ٣٤١ هـ) . وقد ولد بالقيروان سنة ٣٠٢ هـ (وقيل سنة ٣٠١ هـ) ، وكان حين ولى الخلافة فى الثانية والعشرين من عمره . وقد اشتهر الخليفة الجديد بالشجاعة ورباطة الجأش ، كما استطاع أن يؤثر فى نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب (٥) .

ثورة أبى يزيد :

وقد أخفى المنصور موت أبيه ، حتى لايؤثر فى حماسة جيوشه ، التى كانت مشغولة بثورة أبى يزيد . وقد انقطعت العلاقات بين مصر وبلاد المغرب طوال عهد هذا الخليفة ، لأنه قصر كل همه ، وأنفق كل موارد بلاده للقضاء على هذه الثورة التى شملت كل أرجاء الدولة الفاطمية .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٩٨ ، وابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٤ ص ٣٩ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٨٥

(٣) هى أكبر مدائن بلاد المغرب ، على بعد أربعة أميال من مدينة رقادة . انظر البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ — ٢٧

(٤) تاريخ الإسلام : مخطوط ، دار الكتب المصرية ورقة ٦٩ (أ)

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٧ .

كان أبو يزيد مخلد بن كيداد من قبيلة زناتة فى مدينة توزر ، أكبر مدن بلاد الجريد التى يتبعها توزر والزاب[١] . وكانت أمه جارية تنتسب إلى قبيلة هوارة ، تزوجها أبوه فى السودان ، وأتى بها إلى توزر حيث ولد أبو يزيد . فنشأ فى هذه المدينة ، واعتنق مذهب النكارية الذى يقضى بتكفير أهل الدين ، واستباحة الأموال ، والخروج عن طاعة الخليفة . ثم سار إلى تاهرت ، وأخذ يعلم الصبية ، الى أن خرج أبو عبد الله الشيعى إلى سجلماسة لإطلاق المهدى من سجنه ، فانتقل أبو يزيد إلى نفوس واشترى ضيعة ، وأخذ يعلم الصبية من جديد . ثم قوى أمره فى سنة ٣١٦ هـ وراجت دعوته فى أواخر عهد المهدى ، وخاصة بين قبائل نفوس والزاب والمغرب الأقصى ، وقويت شوكته فى عهد القائم بن المهدى ، فاستولى على بجاية ومرجنة ، وأحل الهزيمة بقبيلة كتامة ، ودخل سطيفة ، واستولى على الأربس وقتل كثيرا من أهلها . وقد أثار استيلاء أبى يزيد على هذه المدينة قلق أهل المهدية ، إذ كانوا يعتبرونها طريقا سهلا ممهدا لفتح مدينتهم . ولم يلبث هذا الخارج أن عسكر بجنده على بعد خمسة عشر ميلا من حاضرة الفاطميين ، وأخذ يشن عليهم حملاته ، حتى إن كافة أهلها انتقلوا الى طرابلس وصقلية ، والى مصر وبلاد الروم . وانتشرت جيوش أبى يزيد فى كل أرجاء الدولة الفاطمية فى سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) ، واستطاع أن يهدد مدينة المهدية نفسها ، وكتب الخليفة القائم يستحث زيرى بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة على معونته ، فلحق به فى المهدية . ولاحت بوادر انتصار الفاطميين على هذا الثائر الخطير ، بانضمام عدد غير قليل من جند أبى يزيد إلى جيوشهم ، ولم يعد أبو يزيد يعتمد إلا على معونة قبيلتى هوارة وبنى كملان ، واضطر إلى الارتداد عن المهدية ، ويمم شطر القيروان ، التى امتنع عليه أهلها وحملوه على الارتداد مع القالة من جنده ، الذين لم يلبثوا أن هلكوا من الجوع والعطش .

ولما ولى المنصور الخلافة قويت جيوشه بانضمام صنهاجة وغيرها إليه ، واستطاع أن يهزم جيوش أبى يزيد ، وطارده إلى الصحراء ، وقبض عليه ، وسيق إلى المهدية حيث مات متأثرا من جراحه (٣٠ المحرم سنة ٣٣٦ هـ)[٢] .

وقد تركت هذه الثورة شمال إفريقية فى حالة ترثى لها ، وأثرت فى موارد الدولة الفاطمية ، حتى أصبح بيت المال خلوا من الصفراء والبيضاء كما يقولون . وقضى الخليفة الفاطمى المنصور البقية الباقية من خلافته فى إصلاح ما أفسده أبو يزيد وإعادة تنظيم بلاده ، فعمر البلاد وأعادها إلى ما كانت عليه قبل نشوب هذه الثورة ، وأنشأ أسطولا كبيرا ، وأسس مدينة المنصورية فى سنة ٣٣٧ هـ ، على مقربة

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٤٨ — ٧٤ ، والمراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٨

(٢) راجع ابن الأثير جـ ٨ ص ١٥٠ — ١٥٨ ، والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٤٥ — ٥٥ و ٥٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ٢ ص ٢٢٤ — ٢٢٦ ، وابن أبى دينار : المونس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٥٩ — ٦١ ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٨٦ — ٨٧

من القيروان ، واتخذها حاضرة لدولته ، وغدت منذ ذلك الحين حاضرة الفاطميين ، إلى أن قدم ابنه المعز لدين الله إلى مصر فى سنة ٣٦٢ هـ ، واتخذ القاهرة التى بناها جوهر فى سنة ٣٥٨ هـ حاضرة لدولته كما سيأتى .

يرجع الفضل فيما أحرزه المنصور من نصر على أبى يزيد ، إلى شجاعته وإقدامه ، وإلى فصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب كما تقدم . وقد روى ابن خلكان(١) عن أبى جعفر أحمد بن عمر المروروذى قال : « خرجت مع المنصور يوم هزم أبا يزيد ، فسايرته وبيده رمحاه ، فسقط أحدهما مراراً ، فسحته وناولته إياه ، وتفاءلت له فأنشدته :

فألقتْ عصاها واستقرت بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

فقال : ألا قلتَ ما هو خير من هذا وأصدق ؟ (وأوحينا إلى موسى أن ألقِ عصاك ، فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين)(٢) . فقلت : يا مولاى ! أنت ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلتَ ما عندك من العلم » .

حكم المنصور سبع سنين وستة أيام ، ومات فى يوم الجمعة آخر شوال سنة ٣٤١ هـ ، ودفن بالمهدية . وقد قيل فى سبب موته إنه خرج من المنصورية حاضرة ملكه للتنزه ، فاشتد هطول المطر وهبوب الريح ، حتى فاجأه المرض وأوهن جسمه ومات أكثر من كان معه . ولما دخل المنصورية أراد أن يدخل الحمام ، فنهاه طبيبه إسحق بن سليمان الإسرائيلى ، فاشتد عليه المرض ولازمه الأرق ، فأعطاه منوما فمات (٣) .

المعز لدين الله (٣٤١ — ٣٩٥ هـ)

١ — المعز قبل فتح مصر :

كان المعز مثقفا يجيد عدة لغات : منها اللغة التليانية التى تعلمها فى صباه بجزيرة صقلية ، واللغة الصقيلية التى كانت منتشرة فى هذه الجزيرة ، كما عرف اللغة السودانية (٤) . وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب (٥) ، فضلا عما عرف به من حسن التدبير وإحكام الأمور كما كان عليه آباؤه من قبل . وفى عهده دانت له كافة قبائل البربر ، ولا سيما قبيلتا بنى كملان وبنى مليلة من قبائل هوارة ، وقد أبتا أن تذعنا للخلفاء الفاطميين من قبله . ويرجع الفضل فى اكتساب الخليفة المعز طاعة قبائل المغرب على اختلافها ، إلى هذه السياسة الرشيدة التى سار عليها ، مما ساعد على إقرار خلافته ، وأتاح له القضاء على دولة الأدارسة ، بعد أن حكمت بلاد المغرب الأقصى نحو قرنين . كما يرجع الفضل فى

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٧٧

(٢) سورة الأعراف آية ١١٧ — ١١٩ (٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٧٧

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٥ (٥) المصدر نفسه ص ٦١

امتداد نفوذ المعز على كافة بلاد المغرب ، إلى جوهر الصقلى وزيرى بن مناد الصنهاجى . وقد بعث هذا الخليفة جوهراً على رأس جيش كثيف لفتح ما بقى من بلاد المغرب ، وكان هذا الجيش يضم كثيراً من رجالات المغاربة . وقد أمعن جوهر فى بلاد المغرب الأقصى يفتح مدنها مدينة تلو مدينة ، حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسى ، وأرسل إلى مولاه المعز هدية من سمك هذا المحيط ، إشعاراً ببلوغ نفوذه أقصى بلاد المغرب غربا .

ولما دانت بلاد المغرب جميعها للمعز فكر فى فتح مصر . ولا غرو فقد حاول الفاطميون فتح هذه البلاد من أجل ثروتها وهدوء الأمر فيها ، وأهمية موقعها الجغرافى من الناحيتين السياسية والحربية ، وقربها من بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، التى كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين . ذلك إلى أن نجاح الفاطميين فى فتح مصر يسهل عليهم الاستيلاء على المراكز الإسلامية القديمة ، وهى المدينة المنورة ، ودمشق ، وبغداد حاضرة الدولة العباسية فى ذلك الحين . أضف إلى ذلك أنه كان بمصر فى ذلك الوقت جماعة من أصحاب النفوذ يدينون بعقائد المذهب الشيعى ، مذهب الفاطميين ، ويرجون نجاحه كما تقدم .

وقد كشف المعز عن سياسته التى كانت ترمى إلى فتح مصر فى خطبة طويلة (١) ألقاها على شيوخ كتامة ، تلك القبيلة المشهورة التى ناصرت أبا عبد الله الشيعى على نشر المذهب الفاطمى فى بلاد المغرب ، وتمهيد السبيل لظهور المهدى ، وتأسيس الخلافة الفاطمية فى هذه البلاد . وتتضمن هذه الخطبة ، السياسة التى اعتزم الخليفة الفاطمى السير عليها من النواحى السياسية والدينية والأدبية . ومنها يتبين أن هذا الخليفة قد صرف حياته لتحقيق هذا الغرض الأول ، وهو نشر نفوذه الدينى والزمنى فى بلاد المشرق ، وأنه قد اتخذ لذلك الخطوات التى تكفل له بلوغ هذه الغاية ، من نشر الأمن والسلام والطمأنينة فى كافة أرجاء هذه البلاد ، وحكم الأهلين بالعدل ، والعمل على نشر الدعوة الفاطمية فى بلاد المشرق ، حتى إذا تمكنت أصولها استطاع أن يفتحها ، كما سهل عليه وعلى آبائه فتح بلاد المغرب من قبل (٢) .

٢ — فتح مصر :

من العوامل التى شجعت الخليفة المعز لدين الله الفاطمى على فتح مصر ، استتباب الأمن فى كافة أرجاء بلاد المغرب بعد إخماد ثورة أبى يزيد ، وانتشار الاضطرابات والفوضى فى مصر إثر وفاة كافور سنة ٣٥٨ هـ ، وضعف الخلافة العباسية واشتغالها بدفع البيزنطيين عن بلادها . أضف إلى ذلك تأييد الشيعيين فى مصر للدعوة الفاطمية ، حتى إنهم كتبوا إلى المعز يطلبون إليه إرسال جيش لفتح

---

(١) راجع هذه الخطبة فى كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا للمقريزى ص ٦٠ — ٦١

(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٠٢ — ١٠٤

هذه البلاد . وكان ليعقوب بن كلس ، الذى استوزره كافور ، ثم هرب إلى بلاد المغرب واتصل بالمعز ، أثر كبير فى بيان حالة الضعف التى سادت مصر على أثر وفاة كافور . وحث الخليفه على المبادرة بارسال جيوشه إليها .

كان الاستعداد لفتح مصر قائماً على قدم وساق ببلاد المغرب منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) ؛ فقد أمر الخليفة المعز بإنشاء الطرق وحفر الآبار فى الطريق ، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة ، وجمع الأموال لنفقات هذه الحرب ، وجعل كاتبه جوهرا الصقلى على رأس الجيوش التى أعدها لغزو مصر . وفى اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ ، سار جوهر نحو مصر (١) ، ومر على برقة ، ثم استأنف المسير إلى الإسكندرية ، ففتحت له أبوابها من غير مقاومة ، ومنع جنده من التعرض للأهلين ، واستطاع أن يكبح جماح عساكره الذين وسعت لهم الأرزاق (٢) .

ولما اتصل بأهل الفسطاط نبأ وصول جيوش الفاطميين إلى الإسكندرية ، واستيلائهم عليها ، ندبوا الوزير جعفر بن الفرات لمفاوضة جوهر فى الصلح ، فأجابه جوهر إلى ماطلب ، وكتب له عهداً تعهد فيه بأن يطلق للمصريين حرية العقيدة على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . وأن يقوم بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح ، كما تعهد بنشر العدل والطمأنينة فى النفوس ، بحماية مصر من عدوان المغيرين عليها (٣) .

على أن أنصار الإخشيديين حاولوا عدم الإذعان لعهد الصلح والوقوف فى وجه الجيش الفاطمى ؛ ولكنهم لم يلبثوا أن أذعنوا لجوهر إثر وصوله إلى الجيزة ، وطلبوا منه الأمان ؛ فقبل ملتمسهم ، وأذاع على عساكره منشوراً يحرم فيه عليهم أعمال العنف والنهب ، كما جدد لأهل مصر الأمان ، فهدأت مدينة الفسطاط ، وعاد النظام إلى نصابه (٤) .

ولما اتصل بالخليفة المعز نبأ فتح مصر ، سر سروراً عظيما ، وأنشده شاعره محمد بن هانىء الأندلسى قصيدة طويلة جاء فى مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقلْ لبنى العباس قد قُضِى الأمر (٥)

وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين عن مصر ، وأصبحت هذه البلاد ولاية فاطمية ، وتحقق حلم الخليفة المعز ، ومن جاء قبله من الخلفاء الفاطميين ، فى تحويل حاضرة خلافتهم إلى مصر ، واتخاذها مركز إمبراطوريتهم الشاسعة الأرجاء (٦) .

---

(١) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٨

(٢) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوتيخا ص ١٣٢

(٣) راجع هذا العهد فى المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ — ٦٨

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٢

(٥) ديوان ابن هانىء ص ٨٦

(٦) راجع حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٠٥ — ١١١ ، المجمل فى التاريخ المصرى (القاهرة سنة ١٩٤٢) ص ١٥٧ — ١٥٨

٣ — استرداد سلطان الفاطميين :

ولما تم لجوهر الصقلى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ(٩٦٩م) ، عدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر حاضرة لولايته ، وفكر فى تأسيس مدينة جديدة ، تكون مقراً لملك الفاطميين ، ومركزاً لنشر دعوتهم الدينية ، وحصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة ، الذين أخذوا يهددون حدود مصر الشمالية ، وزحفوا على بلاد الشام التى كانت تابعة لمصر ، واستولوا على دمشق . فوضع أساس مدينة القاهرة فى ١٧ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وحاطها بسور كبير من اللبن (١) .

وجه جوهر همه لمد نفوذ الفاطميين الى بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، التى كانت تابعة لمصر منذ أيام الطولونيين كما تقدم . لذلك عهد إلى جعفر بن فلاح أحد قواد المغاربة من قبيلة كتامة بهذا الفتح ، لما اشتهر به من الشجاعة وحسن القيادة ، ولأن جوهرا أراد بذلك أن يبعده عن مصر ، حتى لا ينافسه فى حكمها . ولما وصل جعفر إلى الرملة ، لقيه جيش الحسن بن عبيد الله بن طغج والى الرملة ودمشق ، ودارت الدائرة على الحسن ، وأسر مع كثير من جنده ، وسيق إلى الفسطاط ، ثم أرسل إلى بلاد المغرب ، فبقى بها الى مات فى سنة ٣٧١ هـ .

استأنف جعفر السير إلى طبرية واستولى عليها من يد واليها فاتك ، الذى كان يليها من قبل الإخشيديين ، دون أن يلقى مقاومة تذكر . وخاف أهل دمشق وقوع مدينتهم فى أيدى الفاطميين ، فأرسلوا الى جعفر بن فلاح جماعة من كبار رجالهم . واتفق وصولهم فى اليوم الذى قتل فيه فاتك ، واشتعلت نار الفتنة بين رجاله ، فلم يحسن جعفر وفادتهم ، فعادوا إلى دمشق . وقد عوّل أهل هذه المدينة على مقاومة جعفر وجيشه ، ولكنه استطاع التغلب على جميع المصاعب التى أقاموها فى طريقه ، فاستولى على حوران ، وهزم جيش الشآميين فى ١٠ ذى الحجة سنة ٣٥٨ هـ ، ودخل دمشق فى المحرم سنة ٣٥٩ هـ ، وأشعل النار فى أسواقها ، وأذكى الفتنة بين أهلها الذين لعنوا الفاطميين على المنابر ، ولكنهم لم يجدوا بدا ، أمام قوة جعفر بن فلاح ، من طلب الأمان . وخطب جعفر للخليفة الفاطمى على منابر دمشق فى المحرم سنة ٣٥٩ هـ .

ولكن جعفر بن فلاح لم يحذ حذو جوهر فى كبح جماح جنده ، والتأليف بين أهالى هذه البلاد ، بل حث المغاربة على قتل زعماء الشآميين ، وأثار نفوس الأهلين فلم يخلصوا له . واستمروا يدبرون الفتن والمؤامرات للخلاص من حكم الفاطميين الذين يخالفونهم فى المذهب الدينى . وكان من أثر سياسة جعفر بن فلاح أن استنجد أهل الشام القرامطة والأتراك ، الذين تفاقم خطرهم فى عهد الخليفة الفاطمى المعز ، ولم يتم القضاء عليهم إلا فى عهد ابنه العزيز .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١١١ — ١١٢

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٢ — ٨٣

٤ — قدوم المعز الى مصر :

بعد أن فرغ جوهر من بناء القاهرة وتأسيس الجامع الأزهر ، وإقامة الدعوة الفاطمية فى فلسطين وسورية والحجاز ، بعث إلى مولاه المعز رسولا ينبئه بذلك ؛ فسر سروراً عظيما ، وعزم على الرحيل الى مصر . وخرج من المنصورية حاضرة خلافته ، فوصل إلى سردانية التى دانت هى وصقلية لسيادة الفاطميين ، واستخلف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى على إفريقية ، « وتوجه إلى مصر بأموال جليلة المقدار ورجال عظيمة الأخطار »(١) ، وحمل معه جثث آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله .

مر المعز على برقة ، ودخل الإسكندرية فى يوم الجمعة ٤ من شعبان سنة ٣٦٢ هـ (٣٠ مايو سنة ٩٧٣ م) فى جمع كبير من رجالات دولته ، فيهم أولاده وإخوته وأعمامه ، فاستقبله أعيان البلاد ، وعلى رأسهم الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات والقاضى أبو الطاهر . ثم جلس الخليفة عند المنارة وخطبهم خطبة ذكر فيها « إنه لم يرد دخول مصر لزيادة فى ملكه ولا لمال ، وإنما أراد إقامة الحق وحماية الحجاج ، وإعلان الجهاد ضد الكفار ، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة ، وأن يعمل ما أمر به جده صلى الله عليه وسلم (٢) » . ثم وعظهم ، وأطال فى الوعظ حتى استدر دموع بعض الحاضرين ، وخلع بعد ذلك على القاضى وبعض من كان فى جماعته ، ثم انصرفوا بعد أن حملهم على دوابه .

وغادر المعز الإسكندرية فى أواخر شعبان ، فوصل إلى ساحل مدينة مصر المقابل للجيزة فى ٢ رمضان من هذه السنة ؛ فخرج إليه جوهر ، وترجل عند لقائه ، وقبل الارض بين يديه ، واجتمع به الوزير جعفر بن الفرات . وقد أقام المعز بالجيزة ثلاثة أيام ، أخذ عسكره خلالها يعبرون بأمتعتهم إلى ساحل مصر ؛ ثم عبر المعز النيل ، ودخل القاهرة فى يوم الثلاثاء ٧ من رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، (١١ يونيه سنة ٩٧٣ م) دون أن يمر على الفسطاط ، وكان الاهلون قد أقاموا له معالم الزينة على جانبى الطريق ، ظناً منهم أنه سيشرفها بزيارته . ثم دخل بعد ذلك القصر الذى بناه له جوهر ، وخر ساجداً لله تعالى ، وصلى ركعتين فى إحدى ردهاته ، وصلى خلفه من كان معه .

وأقام مع المعز أولاده وحاشيته وخدمه وعبيده فى القصر ، وكان قد أعد به كل ما يحتاج إليه الملوك ، ونزل جوهر فى قصر أعده لنفسه يعرف بقصر الوزارة فى القاهرة . وفى اليوم التالى خرج أشراف مصر وقضاتها ووجهاؤها ورجال العلم فيها لتهنئة الخليفة والاحتفاء به (٣) .

وفى اليوم الخامس عشر من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، جلس المعز فى الإيوان الكبير من قصره على السرير الذى أعده له جوهر ، وأذن بدخول الناس عليه ، فدخل الأشراف ثم الأولياء ، فسائر وجوه المدينة . وكان جوهر يقدم الناس إليه طائفة بعد طائفة ؛ ولما فرغ من ذلك قدم إلى مولاه المعز هدية تدل على مقدار غنى مصر ورخائها (٤) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٠٢

(٢) المصدر نفسه (٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٠٢ — ١٠٣

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٠ — ٩١

اتساع الدولة الفاطمية

حدود الدولة فى اقصى اتساعها

فتح الفاطميين لمصر

وبعد أن تقبل المعز ما قدم إليه من الهدايا والتحف ، أذن لجماعة المهنئين بالجلوس فى مجلسه ، وأمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين والكافوريين ، وكانوا نحو الألف .

وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة ، بعد أن كانت دار إمارة ، تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب ، وغدت القاهرة ، بدل المنصورية ، مركز الدولة الفاطمية الشاسعة الأرجاء .

على أن نقل المعز مقر خلافته من المنصورية إلى القاهرة ، أفقد الفاطميين إفريقية (تونس) . ذلك أن بلكين بن زيرى بن مناد شيخ صنهاجة إحدى قبائل البربر ، سرعان ما أعلن استقلاله ، وأسس الدولة الزيرية فى سنة ٣٦٢ هـ ، وحذا حذوه فى ذلك الحماديون فى سنة ٣٩٨ هـ . ولم تأت سنة ٤٤٣ هـ حتى تقلص ظل الحكم الفاطمى عن كل بلاد المغرب ، وذلك فى عهد المستنصر الفاطمى .

وقد تسلم المعز مقاليد الحكم من جوهر الذى حكم مصر أربع سنين قبل وصول مولاه إليها ، وأخذ جوهر يتوارى عن مسرح السياسة المصرية ، ولم يعد إلى الظهور إلا فى أواخر سنة ٣٦٤ هـ ، حين تفاقم خطر الأتراك بزعامة أفتكين ، وخطر القرامطة بزعامة الحسن بن أحمد ، واستعصى على المعز كبح جماحهما ، فلجأ إلى جوهر وولاه قيادة جيوشه .

ويرجع إقصاء جوهر إلى خوف المعز على نفوذه أن ينتقل إليه . وكان جوهر ، على الرغم من ذلك ، أحسن حالا من غيره من القواد الفاطميين ؛ فقد قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى ، الذى قامت الدولة العباسية على أكتافه ، وقتل عبيد الله المهدى أبا عبد الله الشيعى ، الذى انتشرت على يديه الدعوة الشيعية وتأسست الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب(١)

قضى المعز القسم الأكبر من خلافته فى بلاد المغرب ، ولم يبق فى مصر أكثر من سنتين إلا قليلا . وفى عهده تأسست مدينة القاهرة ، وبنى الجامع الأزهر ، وامتدت فتوح الفاطميين إلى بلاد الشام وفلسطين ، وإن كان نفوذهم لم يستقر نهائيا إلا فى عهد ابنه العزيز ، وخطب له على منابر الحجاز . وكان المعز ، كغيره من الخلفاء الفاطميين ، مغرما بعلم النجوم ، حتى كان يستشير منجمه فى كل ما يتعلق بحياته الخاصة وفى أمور الدولة العامة ، كما اعتمد قائده جوهر الصقلى على المنجمين فى تأسيس مدينة القاهرة ، التى قيل إن أساسها شق على طلوع كوكب القاهر الذى اختاره المنجمون لوضع الأساس . وقد ظهر فى عهد المعز طائفة من الشعراء الذين مدحوا الفاطميين ، وإن كان الغلو قد ذاع فى شعرهم . ومن هؤلاء ابن هانىء الأندلسى الذى نظم فى مدح المعز وأسرته قصائد طويلة مدح فيها هذا الخليفة وأشاد بأحقية الفاطميين بالخلافة . ومهد السبيل لمن جاء بعده من الشعراء . ولكنه مات فى شهر رجب سنة ٣٦٢ هـ (٣٠ ابريل سنة ٩٧٣ م) وهو فى السادسة والثلاثين من عمره ، فأسف عليه الخليفة المعز أسفا شديدا(٢) . وكان الخليفة المعز أول من فخم الاحتفال بصلاة الجمعة ، والاحتفال

---

(١) على إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلى ص ١٠٩ — ١١٠

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٥٣ — ١٥٧

بالأعياد والمواسم وركوب الخليفة فى المواكب الملكية أيام السبت والثلاثاء وأيام الجمع ، وفى شهر رمضان ، ويومى عيد الفطر والأضحى ، وإقامة الأسمطة ، وتوزيع الإنعامات فى المناسبات الدينية والسياسية (١) .

وكان المعز — كما وصفه ابن خلكان (٢) — عاقلا حازما ، سريا ، أديبا ، حسن النظر فى النجابة . ومن شعره قوله :

أطلع الحسن من جبينك شمسا فوق ورد فى وجنتيك أظلا
وكأنّ الجمال خاف على الور د جفافا فمد بالشعر ظلا

وقد توفى المعز فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ ، بعد أن حكم أربعا وعشرين سنة .

العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ)

يعتبر عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمى عهد يسر ورخاء وتسامح دينى وثقافة . ولا غرو فهو أول من حول الجامع الأزهر إلى جامعة بمعناها المعروف الآن ، بعد أن كان معهدا خاصا بدراسة الفقه الشيعى وإقامة الصلاة .

ولد أبو منصور نزار الملقب بالعزيز بالله فى يوم الخميس ١٤ المحرم سنة ٣٤٤ هـ ، بمدينة المهدية التى بناها عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية ، وقدم القاهرة مع أبيه المعز فى سنة ٣٦٢ هـ ، وخلفه فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ وهو فى الثانية والعشرين من عمره .

١ — اتساع الدولة الفاطمية :

وقد ترامت رقعة الدولة الفاطمية فى عهد العزيز من بلاد العرب شرقا إلى ساحل المحيط الأطلسى غربا ، ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوبا ، « وزادت مملكته — كما يقول ابن خلكان (٣) — على مملكة أبيه ، وفتحت له حمص وحماة وشيزر وحلب ، وخطب له المقلد بن المسيّب العقيلى صاحب الموصل بالموصل وأعمالها فى المحرم سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، وضرب اسمه على السكة والبنود ، وخطب له باليمن » .

وفى أيام العزيز تفاقم خطر القرامطة وأفتكين ببلاد الشام ، وكان قد استعصى أمرهما على أبيه المعز من قبل . ولم يكد العزيز يوطد سلطته فى مصر ، حتى وجه عنايته لاسترداد بلاد الشام وفلسطين اللتين كانتا تابعتين لمصر فى عهد الطولونيين والإخشيديين ؛ فوجه جوهرا الصقلى لاستردادهما . ولما علم القرامطة بقرب وصوله إلى الرملة ، فروا إلى بلاد البحرين ، فاستولى جوهر على الرملة ، ثم حاصر دمشق . ولم تلبث ان حلت الهزيمة بأفتكين ، وكان من الأتراك الذين خرجوا على الدولة العباسية واستقل بدمشق ، فاستنجد بالقرامطة الذين ساروا بزعامة الحسن الأعصم نحو

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان ص ٢٨٤ — ٢٨٩ (٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠٣
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٥٣

نحو دمشق ، فارتد جوهر إلى عسقلان ، وحاصرها أفتكين والحسن الأعصم . وسرعان ما نضبت موارده ونفد ما معه من المؤن والذخائر ، حتى اضطر جنده إلى أكل الدواب ، واشتدت الضائقة به وبجنده . ولا سيما بعد إنجاد القرامطة لأفتكين . ولم يجد جوهر بدا من طلب الصلح ثلاث مرات ، ليكسب بذلك الوقت ، ريثما توافيه الأمداد من القاهرة . ودارت بينه وبين أفتكين مفاوضات طويلة فى ذلك أوردها ابن القلانسى (١) ، فقبل أفتكين ، على أن يعلق سيفه ورمح الحسن بن أحمد زعيم القرامطة على باب عسقلان ، ويخرج جوهر وأصحابه من تحتهما . وقد رضى جوهر بذلك ، مع ما ينطوى تحته من المذلة والمهانة له وللخليفة العزيز ، وخرج من هذه الحروب سالما ، وعاد إلى مصر ، وأشار على العزيز بحرب أفتكين والقرامطة بنفسه ، فالتقى العزيز بجيوشهما فى الرملة ، ودارت الدائرة أخيرا على القرامطة وأفتكين (١٣ المحرم سنة ٣٦٨ هـ) . وبذلك قضى الخليفة على هذه الفتنة بعد أن كادت تقوّض دعائم الدولة الفاطمية الفتية ، وفرّ أفتكين على فرس له ، فقبض عليه بعض العرب بعد أن بذل الخليفة الفاطمى لمن يأتى به مائة ألف دينار (٢) .

ولما سار العزيز بالأسرى إلى القاهرة ، أحسن إليهم ، وأمنهم وكساهم ، وأسند إليهم الأعمال التى كانوا يلونها أيام أفتكين . ولم يؤاخذ أفتكين ، الذى كان يعد رأس هذه الفتنة الجامحة ، واستبقاه وعفا عنه ، وأغدق عليه ، وظل متمتّعا بنعم العزيز إلى أن مات فى سنة ٣٧٢ هـ (٣) .

٢ — حالة الدولة الفاطمية :

وقد وجه الفاطميون فى عهد العزيز اهتمامهم إلى بث عقائد المذهب الشيعى ، وأصبحت كل أمور الدولة فى أيدى الشيعيين ، أو بعبارة أخرى ، فى أيدى المغاربة أنصار الفاطميين ، وعزل أبو الطاهر القاضى السنى ، وعين مكانه عبد العزيز بن النعمان القاضى المغربى الفاطمى المذهب . وقلد العزيز يعقوب بن كلس الوزارة (رمضان سنة ٣٦٨ هـ) ، فأدار شئون الدولة الفاطمية بمهارة وهمة .

وقد بنى الخليفة العزيز كثيرا من المنشئات التى تدل على وفرة ثروة مصر فى عهده : منها القصر الغربى . واهتم ببناء المساجد ، فأسس فى سنة ٣٨٠ هـ ، مسجدا أتمه ابنه الحاكم فنسب إليه ، وأسس قاعة الذهب حيث يجتمع مجلس الملك ، وبنت الملكة تغريد زوجة المعز فى عهده مسجد القرافة وقصر القرافة .

وقد نبغ فى عهد العزيز طائفة من الشعراء والكتاب والأطباء والمؤرخين : ومن الشعراء أبو حامد الأنطاكى الذى أقام بمصر زمنا طويلا ، ونظم معظم قصائده فى مدح المعز والعزيز والحاكم ، وأشاد بذكر جوهر الصقلى ويعقوب بن كلس . كما نبغ فى الطب على بن رضوان الذى ألف عدة كتب فى الطب والفلسفة والمنطق ، ونبغ فى التاريخ الحسن بن إبراهيم بن زولاق الذى يعتبر حجة فى تاريخ العصر الفاطمى الأول ، وأبو الحسن على الشابشتى الذى ولاه العزيز خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه .

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ — ١٨

(٢) انظر على ابراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلى ص ١١١ — ١١٨

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠ — ٢١ ، حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٤٧

وكان العزيز رجلا ممتعا ، يميل إلى الأبهة ، كما كان خبيرا بالجواهر . ابتدع نوعا جديدا من العمائم محلاة بخيوط الذهب ، وسروجا معطرة بالعنبر ، واقتنى كثيرا من الطرف يزين بها موائده ، وشغف — كخمارويه بن أحمد بن طولون — بجوارح الطير الغريبة ، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان . وكان مغرما بالصيد ، وخاصة صيد السباع(١) . وكان العزيز ذكيا أديبا مستنيرا ، يجيد عدة لغات ، كأبيه المعز . وروى الثعالبي(٢) أنه قال فى يوم عيد ، وقد مات ابنه وجلس للعزاء :

نحن بنو المصطفى ذوو إحن ... جُرعها فى الحياة كاظمنا
عجيبة فى الأنام محنتنا ... أولنا مبتلى وآخرنا
يفرح هذا الورى بعيدهم ... طُرا وأفراحنا مآتمنا

وكان العزيز فوق ذلك كريما محبا للعفو ، وصنيعه مع أفتكين التركى خير مثل لذلك . واشتهر العزيز بالتسامح الدينى ، فكان يعطف على النصارى واليهود كما كان أبوه من قبله ، وتزوج بنصرانية ، وتوالى عطفه على الكنيسة القبطية ، وقلد عيسى بن نسطورس النصرانى الوزارة ، كما عين منشا ابن إبراهيم اليهودى بلاد الشام(٣) .

وكان العزيز — كما وصفه ابن خلكان(٤) — « أسمر ، أصهب الشعر ، أعين ، أشهل العين ، عريض المنكبين ، حسن الخلق » .

٣ — صوت العزيز :

ومات العزيز ببلبيس ، وكان قد خرج لحرب القرامطة ، فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٣٦٨ هـ ، وهو فى الرابعة والأربعين من عمره(٥) ، وقد عزا ابن خلكان(٦) وفاته إلى مرضه من حصاة فى المثانة وقولنج ، وقال إن طبيبه أخطأ فى وصف الدواء الذى شربه وهو فى الحمام ، فمات من ساعته . ولما اشتدت على العزيز وطأة المرض ، استدعى إليه القاضى محمد بن النعمان المغربى ، وأبا محمد الحسن بن عمار زعيم كتامة ، واستشارهما فى تولية ابنه المنصور أبى على .

ويروى لنا المسبحى فى كتابه تاريخ مصر أن الحاكم قال له : « استدعانى والدى قبل موته ، وهو عارى الجسد ، وعليه الخرق والضماد ، وقبلنى وضمنى إليه وقال : واغمى عليك ياحبيب قلبى ! ودمعت

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢
(٢) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٥٤
(٣) أبو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ص ٤٥ — ٤٦
(٤) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢
(٥) ذكر ابن القلانسى (ص ٤٢) أنه ولد فى القيروان سنة ٣٤١ هـ ، وأن مدة خلافته إحدى وعشرون سنة ، وهو خطأ واضح .
(٦) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣ .

عيناه ثم قال : امض يا سيدى فالعب فأنا فى عافية . قال الحاكم : فمضيت والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب ، إلى أن نقل الله العزيز إليه » .

الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ هـ)

ولد أبو على المنصور يوم الخميس لأربع ليال بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ . وقد عهد عهد إليه أبوه فى سنة ٣٨٣ هـ ، ثم بويع له بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه أبوه ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٣٨٦ هـ ، وله إحدى عشرة سنة ونصف سنة ، وتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان الخادم .

ولما بلغ أهل القاهرة وفاة العزيز وتولية الحاكم الخلافة ، خرجوا لاستقبال الخليفة الجديد ، الذى دخل المدينة وبين يديه البنود والرايات ، وعلى رأسه المظلة يحملها ريدان الصقلبى ، فدخل القصر عند غروب الشمس وبين يديه جثة أبيه ، فتولى غسله القاضى محمد بن النعمان ، ودفن مع أبيه المعز فى إحدى حجرات القصر الشرقى الكبير (١) .

وقد ثار الكتاميون — وهم عصب الخلافة الفاطمية فى مصر — على أثر ارتقاء الحاكم العرش ، وطلبوا منه عزل عيسى بن نسطورس وتولية زعيمهم أبى محمد الحسن بن عمار ، وهددوا الخليفة بالامتناع عن تقديم فروض الطاعة والولاء ، وبالقتل إذا لم يصغ إلى شكواهم ويعمل على تحقيق رغباتهم ، فلم ير الحاكم بدأ من إجابتهم إلى ما سألوه ، فأسند الوساطة إلى ابن عمار فى ٣ شوال سنة ٣٨١ هـ . ولم يلبث أن ظهر سوء إدارته فى كثير من الأعمال ، بما أتاه فى عهد تقلده الوساطة ، إذ بالغ فى محاباة الكتاميين ، وأبطل أعطيات الأتراك ، واعتمد على معونة أحداث المغاربة الذين أثاروا الأتراك بأعمالهم . وكان برجوان ينافس ابن عمار ويناوئه ، مع معاضدة الأتراك له . فكان من أثر هذا التطاحن أن هرب ابن عمار إلى الصحراء وحل محله برجوان (شعبان سنة ٣٨٧ هـ) . ولما شعر الحاكم أن سلطته مسلوبة مع هذا الوزير ، عمل على التخلص منه ، فقتله فى حديقة داره فى اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ .

١ — أدوار خلافة الحاكم :

ويمكن تقسيم عهد الحاكم ثلاثة أقسام :

(الأول) من سنة ٣٨٦ هـ إلى سنة ٣٩٠ هـ ، وكان الحاكم فى هذه المدة لا يملك من أمور السلطان شيئاً ، إذ كانت كل السلطة فى يد ابن عمار ، ثم فى يد برجوان .

(الثانى) من سنة ٣٩٠ هـ إلى سنة ٣٩٥ هـ ، وفيها كان للحاكم على حداثة سنه سلطة كبيرة ، أظهر فيها تعصبا شديداً للمذهب الفاطمى ؛ وبذلك اضطهد أهل الذمة من ناحية ، والمسلمين من غير الشيعيين من ناحية أخرى .

وكان من أثر هذه السياسة التى جرى عليها الحاكم ، أن قتل فهد بن إبراهيم النصرانى ، الذى

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣

اتخذه كل من برجوان والحسين بن جوهر كاتباً له ، لمناصرته النصارى وإسناده مناصب الدولة العالية إليهم ، حتى إن العامة شكوا منه واعتبروه آفة على المسلمين وعدة للنصارى (١) . ولم يمض على قتل فهد تسعة وعشرون يوما حتى قتل ابن العداس الذى أشار بقتله (٦ شعبان سنة ٣٩٣هـ) . ثم أمر الحاكم بالقبض على رؤساء الكتاب من النصارى ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحهم وأعادهم إلى مراكزهم بشفاعة طبيبه أبى سهل بن مقشر النصرانى(٢) . وفى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ — ١٠٠٥م) أمر الحاكم النصارى واليهود بلبس الشارة التى يعرف بها كل من الرعايا غير المسلمين ، ثم بدأت سياسته العدائية تظهر ظهوراً واضحاً بعد ذلك بثلاث سنين ، فهدم بعض الكنائس ، وبيع ما فيها من الأوانى المقدسة فى الأسواق (٣) . ولكن الحاكم ، على الرغم مما أوقعه بأهل الذمة ، قلد الوزارة بعض النصارى ، كابن عبدون ، الذى تقلدها فى سنة ٤٠٠ هـ ، ولكنه لم يلبث أن أقيل فى المحرم سنة ٤٠١ هـ ، وتربع فى دستها رجل من المسلمين عزل بعد عشرة أيام ، وحل محله فى الوزارة زرعه بن نسطورس أخو عيسى بن نسطورس ، وظل فيها إلى أن توفى فى شهر صفر سنة ٤٠٣ هـ (٤). وقد أوغر كثرة تقليد النصارى للوزارة صدور المسلمين عليهم ، فعملوا على الإيقاع بهم عند الخليفة الحاكم الذى اشتهر بالتقلب فى أهوائه وميوله .

(الثالث) من سنة ٣٩٦ إلى سنة ٤٠١ هـ . ومما هو جدير بالملاحظة أن الحاكم بدّل سياسة التعصب ، مدفوعا بعاملين هما تهديد حدود مصر من ناحية الغرب ، حين أغار عليها أبو ركوة ، الذى ادعى النسب للأمويين فى الأندلس ، بجيش كبير من المغاربة ، وأعلن أنه أحق بامتلاك مصر من الفاطميين . وقد لاقى الحاكم صعوبة كبيرة فى القضاء على أبى ركوة ، حتى أسر وصلب على أحد أبواب القاهرة . أما العامل الثانى فهو ما قاسته مصر من جراء انخفاض النيل مدة ثلاث سنين (٣٩٨ — ٤٠١ هـ) (٥).

(الرابع) من سنة ٤٠١ إلى سنة ٤١١ هـ . وقد بدأت سياسة الحاكم منذ سنة ٤٠١ هـ تظهر بمظهر أكثر تذبذبا وتقلبا ، وأصبح عقله أكثر ارتباكا واضطرابا . اما سياسته مع غير المسلمين ، وخاصة النصارى ، فقد كانت تابعة لرأى جمهور الأمة . ولم يكن استياؤهم راجعا لنحلتهم الدينية فحسب ، بل لأنهم كانوا يشتغلون بجمع الضرائب(٦) .

وكانت سياسة الحاكم تمتاز مع رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم بعنف كثير ، كما كانت تمتاز أيضا بشىء كثير من التذبذب والاضطراب . فمن أمثلة ذلك أنه نقش سب الصحابة على جدران المساجد (صفر سنة ٣٩٥ هـ) ، وحرم بيع الملوخية ، لأنه أثر عن معاوية بن أبى سفيان أنه كان يحبها ، كما حرم

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠

(٢) ابن القفطى : إخبار العلماء باخبار الحكماء ص ١٧٨ ، ٤٣٨

(٣) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوتيخا « بيروت سنة ١٩٠٩ » ص ١٨٦ ، ١٩٥

(٤) المصدر نفسه ص ١٩٨ — ١٩٩ (٥) المقريزى خطط ج ١ ص ٢٨٧

(٦) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٠٧

أكل الجرجير ، لأن عائشة رضى الله عنها كانت تأكله ، ونهى عن أكل نبات المتوكلية الذى ينسب إلى الخليفة المتوكل ، كما نهى عن أكل القرع ، لأن أبا بكر وعائشة كانا يحبان أكله (١). على أن الحاكم لم يلبث أن خفف من تشدده فى مراعاة عقائد المذهب الفاطمى ، ليصلح بينه وبين رعاياه السنيين ؛ فأبطل لعن الخلفاء الأول وغيرهم من الصحابة ، وأنشأ فى سنة ٣٩٧ هـ مدرسة لتعليم عقائد المذهب السنى ، مما أساء إلى سمعته عند الشيعيين . ولكن الحاكم الذى عودنا التقلب فى سياسته وأهوائه ، لم يلبث أن عدل عن سياسة اللين مع رعاياه السنيين على حين غفلة ، حين أمر فى سنة ٤٠١ هـ بإعادة الأذان على النحو الشيعى ، وأعاد عبارة حى على خير العمل المألوفه عند الشيعيين .

ولم تكن سياسة الحاكم مع النساء أقل شدة وعنفا . فقد أصدر قانونا منع فيه النساء من الخروج سافرات ، ومن أن يتبعن الجنائز ، أو يظهرن للناس فى حالة منافية للأدب والحشمة ، ولم يلبث أن منعهن من الظهور فى سطوح المنازل ومن دخول الحمامات العامة ، كما منع صانعى الأحذية من أن يصنعوا أحذية خاصه بهن . وكان من أثر هذه السياسة أن قرّ النساء فى البيوت سبع سنوات حتى ولى الخلافة الظاهر بن الحاكم (سنة ٤١١ هـ) (٢) .

على أن سياسة الحاكم هذه ، وإن كانت قد أثارت سخط المصريين عامة ، ساعدت على إقرار الأمن والمحافظة على الآداب العامة ، وقضت على الفوضى التى كانت سائدة فى أوائل عهده . وفى عهده ظهرت طائفة الدرزية التى دعت إلى الاعتقاد بألوهية الحاكم ، مما أثار النزاع بينه وبين السنيين ، ذلك النزاع الذى انتهى بقتله فى سنة ٤١١ هـ .

وقد أنشىء فى عهد الحاكم دار الحكمة التى كان يشتغل بها كثير من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين ، وألحق بها مكتبة أطلق عليها دار العلم ، حوت كثيرا من أمهات الكتب مما ألف فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية .

٢ — وفاة الحاكم :

اختلفت الروايات فى وفاة الحاكم ، فيقول بعض المؤرخين إن أخته ست الملك هى التى دبرت قتله ، لسوء تصرفه ، فاتفقت مع سيف الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة على اغتياله ، وقالت له : « لى إليك أمر لا بد لى فيه من الاجتماع بك ، فإما تنكرت وجئتنى ليلا أو فعلتُ أنا ذلك . فقال : أنا عبدك والأمر لك . فتوجهت إليه ليلا فى داره متنكرة ، ولم تصحب معها أحدا . فلما دخلت

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ص ١٢٦

انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » ص ٢٢١ ، نقلا عن ابن زولاق : المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط رقم ١٨١٧ ورقة ٥٢ (ا)

(٢) يحيى بن سعيد ص ٣٠٨ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٧ ، المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٨٥ .

عليه قام وقبّل الأرض بين يديها دفعات ، ووقف فى الخدمة ، فأمرته بالجلوس ، وأخلى المكان . فقالت : ياسيف الدولة ! قد جئت فى أمر أحرّس به نفسى ونفسك والمسلمين ، ولك فيه الحظ الأوفر ، وأريد مساعدتك فيه ، فقال : أنا عبدك . فاستحلفته واستوثقت منه ، وقالت له : أنت تعلم ما يقصده أخى فيك ، وأنه متى تمكن منك لم يُبق عليك ، وكذا أنا ، ونحن على خطر عظيم . وقد انضاف إلى ذلك تظاهره بادعائه الإلهية ، وهتكه ناموس الشريعة وناموس آبائه ، وقد زاد جنونه . وأنا خائفة أن يثور المسلمون عليه ، فيقتلوه ويقتلونا معه ، وتنقضى هذه الدولة أقبح انقضاء . فقال سيف الدولة : صدقت يا مولاتنا ، فما الرأى؟ قالت : قتله ونستريح منه . فاذا تم لنا ذلك أقمنا ولده موضعه وبذلنا الأموال ، وكنتَ أنت صاحب جيشه ومدبره ، وشيخ الدولة والقائم بأمره . وأنا امرأة من وراء حجاب ، وليس غرضى إلا السلامة منه . وأنى أعيش بينكم آمنة من الفضيحة . . . »[1] ثم اتفقت مع عبدين على قتله عند خروجه إلى جبل المقطم . فظلا يرقبانه إلى أن قرب الصباح ، فوثبا عليه وطرحاه أرضاً وقتلاه ، ثم حملاه إلى ابن دواس ، فحمله مع العبدين إلى أخته ست الملك ، فدفنته فى مجلسها . وكان ذلك فى ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٤١١ هـ .

وهناك رواية أخرى تقول إن الحاكم خرج فى هذه الليلة راكباً حماراً ، وبصحبته رجلان ، وإنه اختفى عنهما ولم يعثرا له على أثر . فقام بعض رجال الدولة وقضاتها ، وأخذوا فى البحث عنه ، فعثروا على الحمار الذى كان يركبه مقطوع اليدين . ثم تابعوا السير حتى وصلوا إلى بركة شرقى حلوان ، فوجدوا فيها ثيابه : وهى سبع جباب مزررة وفيها أثر السكاكين . . ثم ظهر رجل من الصعيد وادعى أنه قتل الحاكم واعترف بذلك . ولما سئل عن سبب قتله قال : قتلته غَيرة لله والدين . فقيل له وكيف قتلته ؟ فأخذ سكيناً وضرب بها قلبه وقال : هكذا قتلته ، ولم يلبث أن خر صريعاً وتوفى .

ويعتقد الدرزية أن الحاكم اختفى فى سنة ٤١١ هـ ، وأنه سيعود إذا زالت المفاسد المنتشرة فى العالم ، فهو إذن الإمام المنتظر عند هذه الطائفة .

الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧هـ) :

ولد أبو هاشم الظاهر فى ليلة الأربعاء ، فى اليوم العاشر من شهر رمضان سنة ٣٩٥ هـ ، وولى الخلافة بعد قتل أبيه بأيام ، وذلك فى شهر شوال سنة ٤١١ هـ ، إذ كان الناس يرجون ظهوره ، ويتبعون آثاره . إلى أن تحققوا عدمه ، فأقاموا ولده المذكور فى يوم النحر من السنة المذكورة »[2] وكان الظاهر حين ولى الخلافة فى السادسة عشرة من عمره .

وقد قامت عمته ست الملك بالوصاية عليه فى الفترة الأولى من حكمه ، فأظهرت كفاية ممتازة فى إدارة شئون البلاد ، وبذلت العطاء للجند ، وظلت تشرف على أعمال الدولة إلى أن توفيت فى سنة ٤١٥ هـ .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ٤ ص١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) ابن خلكان . وفيات الاعيان جـ ٣ ص ٢٦٧ .

وفى سنة ٤١١ هـ استوزر الظاهر : نجيب الدولة على بن الجرجرائى . وأصله من جرجرايا ، إحدى قرى بلاد العراق ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وعهد اليه الحاكم بإدارة بعض الدواوين . غير أنه لم يلبث أن أساء التصرف فيها ، فأمر الحاكم بقطع يديه من المرافق ، ثم عينه والياً على ديوان النفقات فى سنة ٤٠٩ ، وظل يتنقل فى بعض الوظائف الإدارية فى الصعيد ، إلى أن اختاره الظاهر وزيرا له سنة ٤١٨ هـ ، فاتخذ القاضى أبا عبدالله القضاعى كاتبا له ، ونظم شئون الدولة ، كما أظهر حرصا شديداً على أموالها (١) .

وكان الظاهر سمحا ، عاقلا ، لين الريكة ، استطاع بحسن سياسته أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له ، فتمتعوا فى عهده بالحرية الدينية ، كما وجه عنايته إلى ترقية شئون البلاد وتحسين حالة الزراعة ، فأصدر قانونا منع فيه الناس من ذبح البقر ، وأباح ذبح الحيوانات التى لا تصلح لحرث الأرض ، وذلك على أثر الوباء الذى أصاب بعض الحيوانات التى يستخدمها الفلاحون فى فلاحة الأرض ، وكتب إلى الناس كتابا جاء فيه . « إن الله تعالى بتتابع نعمته وبالغ حكمته ، خلق ضروب الانعام وعمل فيها منافع الأنام ، فوجب أن تحمى البقر المخصوصة بعمارة الأرض ، المذللة لمصالح الخلق ؛ فإن فى ذبحها غاية الفساد ، وإضرارا للعباد والبلاد (٢) » .

* * *

ولم يقم الظاهر ببناء كثير من المنشئات ، لاشتغاله بالعمل على ضبط الأمور فى داخل البلاد وخارجها . وقد بنى فى عهده منظرة اللؤلؤة بالقرب من القصر الغربى الصغير ، وتعد من أجمل المنارات التى أنشئت فى القاهرة فى عهد الفاطميين . وكان الظاهر يتنزه فيها ، كما اتخذها بعض الخلفاء دارا للإقامة فى وقت فيضان النيل (٣) .

ولم يتمتع الظاهر بالخلافة مدة طويلة ، فقد مرض بالاستسقاء ، وتوفى ليلة الأحد منتصف شعبان سنة ٤٢٧ هـ . ولما علم وزيره الجرجرائى بذلك ، أخذ البيعة لابنه أبى تميم الذى تلقب المستنصر (٤)

المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ)

ولد أبو تميم محمد بن الظاهر يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٢٧ هـ ، وبويع له بالخلافة فى يوم الأحد النصف من شعبان سنة ٤٢٧ هـ ، وهو فى السابعة من عمره ، وظل فى الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر . وكان أطول الخلفاء عهدا ، غير أن مصر لم تتمتع طوال هذه المدة بالرخاء والطمأنينة غير فترة قصيرة ، ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية كان من أثرها أن تزعزع مركز الخلافة الفاطمية وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الزوال .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٧

(٢) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٧

وقد أقر المستنصر على بن الجرجرائى وزير أبيه فى الوزارة ، وكان الحاكم قد أمر بقطع يديه من المرافق كما تقدم ، فاتخذ القضاعى كاتبا له . وظل الجرجرائى فى الوزارة إلى ان توفى سنة ٤٣٦ هـ ، فخلفه أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى . وفى عهد هذا الوزير ازدادت سلطة أبى سعيد التُّسترى اليهودى ، وكان يتولى نظارة خاصة أم الخليفة ، حتى إنه لم يعد له معه إلا اسم الوزارة ، فحقد عليه واتهمه بدس السم لريحان زعيم الأتراك حينذاك ، فانقض عليه ثلاثة من الأتراك وقتلوه فى جمادى الأولى من سنة ٤٣٩ هـ ومثلوا بجثته . ولكن الخليفة المستنصر لم يرض عن هذا العمل ، كما لم ترض عنه أمه التى كانت قبل زواجها بالخليفة الظاهر أمةً فى بيت التسترى ، فأسند ديوان خاصته إلى أخيه أبى نصر ، وقلد ابنه إدارة أحد الدواوين . ولم تنس أم الخليفة للوزير الفلاحى تدبير قتل التسترى ، فأقيل من الوزارة وحبس ، ثم قتل (المحرم سنة ٤٤٠ هـ) . وفى الحق أن الفلاحى اتخذ من شعور المسلمين العدائى نحو التُّسترى فرصة للنيل منه والإيقاع به ، وساعد على ذلك أن التسترى قد أثار كراهة المسلمين ، لإسناده مناصب الدولة إلى بنى جلدته من اليهود الذين اضطهدوا المسلمين اضطهادا واضحا ، حتى إن شاعرا من الشعراء المعاصرين ، يسمى ابن البواب ، نظم هذه الأبيات :

يهودُ هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا
العزُّ فيهم والمال عندهم ... ومنهمُ المستشار والملك
يا أهل مصرٍ قد نصحتُ لكم ... تهوَّدوا قد تهود الفلك (١)

امتد سلطان الفاطميين فى القسم الأول من عهد المستنصر على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال إفريقية ، وكان اسمه يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غربا إلى البحر الأحمر شرقا ، وكذا فى صقلية واليمن والحجاز والموصل ، بل فى بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحوا من سنة . ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث أن خرج من سلطان الفاطميين ؛ فقد خرجت بلاد المغرب سنة ٤٤٣ هـ ، وفى سنة ٤٧٥ هـ زالت سلطة الفاطميين من بلاد المغرب الأقصى التى استولوا عليها من الأدارسة سنة ٣٤٧ هـ ، واستولى روجر النرمندى على صقلية التى كانت تابعة للفاطميين منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ، وخلع أمير مكة والمدينة طاعتهم فى سنة ٤٦٢ هـ .

وعلى الرغم من المنازعات التى قامت فى أوائل عهد الخليفة المستنصر بين التسترى والفلاحى ، وتدخُّل أم الخليفة فى إدارة شئون الدولة ، فإن مصر قد تمتعت بشىء من الطمأنينة والرخاء ؛ فقد أمدنا ناصرى خسرو عند زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ بوصف ضاف لثروة البلاط الفاطمى وأبهته ، وما كانت عليه القاهرة فى ذلك الوقت من يسر ورخاء (٢) .

غير أن هذا الرخاء الذى كانت تتمتع به مصر فى ذلك الحين لم يدم طويلا ، فقد حلَّت بالقاهرة

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ٢ ص ١١٦

(٢) Nasir Khusraw : Safar Nàmeh (ed. Charles Schefer, Paris, 1881), p. 127 et seq.

الأيام السيئة ، وعاودتها المصائب التى لم تشعر بها قبل قرن من تأسيسها . فقد عم الوباء والقحط مصر فى سنة ٤٤٦ هـ ، وانقطع ماء النيل ، فأهملت الزراعة ، وانتشرت المجاعة ، وعم الوباء الذى يعتبر أطول وباء عرفته مصر فى العصور الوسطى ، وامتد ثمانى سنين (٤٤٦-٤٥٤ هـ) ، ونكبت به جميع الأمم الإسلامية من مصر إلى سمرقند ، ودونت عنه قصص مروعة ، حتى قيل إنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس ، وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والقطط ، ثم أكل بعضهم بعضا . وليس أدل على الفوضى التى سادت مصر فى ذلك العهد من تقلد أربعين وزيرا الوزارة فى تسع سنوات بعد قتل الوزير اليازورى فى سنة ٤٥٠ هـ . ثم عاد القحط والغلاء وما أعقبه من الوباء والموت فى سنة ٤٥٩ هـ ، وظلت الحال كذلك إلى سنة ٤٦٤ هـ . واقترنت هذه الشدة التى اصطلح المؤرخون على تسميتها « الشدة العظمى » ، بقيام الفتن والحروب الأهلية ، حتى تدارك مصر بدر الجمالى والى عكاء ، الذى استدعاه الخليفة المستنصر فى سنة ٤٦٦ هـ ، فأعاد النظام ووجه همه إلى إصلاح حال البلاد وقضى على المفسدين (١) .

ويحسن بنا أن لا نطيل الكلام على عهد المستنصر الفاطمى الذى حكم الدولة الفاطمية أكثر من ستين سنة كما تقدم ، ولا سيما بعد أن تقلد بدر الجمالى الوزارة ، وحكم البلاد حكما مطلقا منذ سنة ٤٦٦ هـ ، لأن هذا يخرج بنا عن نطاق هذا الجزء الذى خصصناه لدراسة العالم الإسلامى من سنة ٢٣٢ هـ إلى سنة ٤٤٧ هـ ، أى قبل تقلد بدر الوزارة بنحو عشرين سنة ، وقبل وفاة المستنصر بأربعين سنة . (أول شوال سنة ٤٨٧ هـ) . لذلك رأينا أن نرجئ الكلام على القسم الثانى من حكم المستنصر بشىء من التفصيل إلى الجزء الرابع من هذا الكتاب ، حين ندرس العصر الفاطمى الثانى (٤٦٦ — ٥٦٧ هـ) الذى يطلق عليه « عصر الوزراء العظام » ، أى العصر الذى استبد فيه الوزراء بالسلطة ، وأصبح الخلفاء الفاطميون كالمحجور عليهم .

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ١٣ — ٢٣ ، ٣٤ ، حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٥١ — ٢٥٣ .

دولة الأغالبـــــة [1]

(فى تونس وغيرها)

١٨٤ — ٢٩٦ هـ = ٨٠٠ — ٩٠٩ م

	هجرية	ميلادية
١) ابراهيم الأول	١٨٤	٨٠٠
٢) عبد الله الأول	١٩٦	٨١١
٣) زيادة الله الأول	٢٠١	٨١٦
٤) أبو عقال الأغلب	٢٢٣	٨٣٧
٥) محمد الأول أبو العباس	٢٢٦	٨٤٠
٦) أحمد	٢٤٢	٨٥٦
٧) زيادة الله الثانى	٢٤٩	٨٦٣
٨) محمد الثانى	٢٥٠	٨٦٤
٩) إبراهيم الثانى	٢٦١	٨٧٤
١٠) عبد الله الثانى	٢٨٩	٩٠٢
١١) زيادة الله الثالث	٢٩٠	٩٠٣
	٢٩٦	٩٠٩

[الفاطميون]

جدول يمثل تسلسل نسب الأغالبة

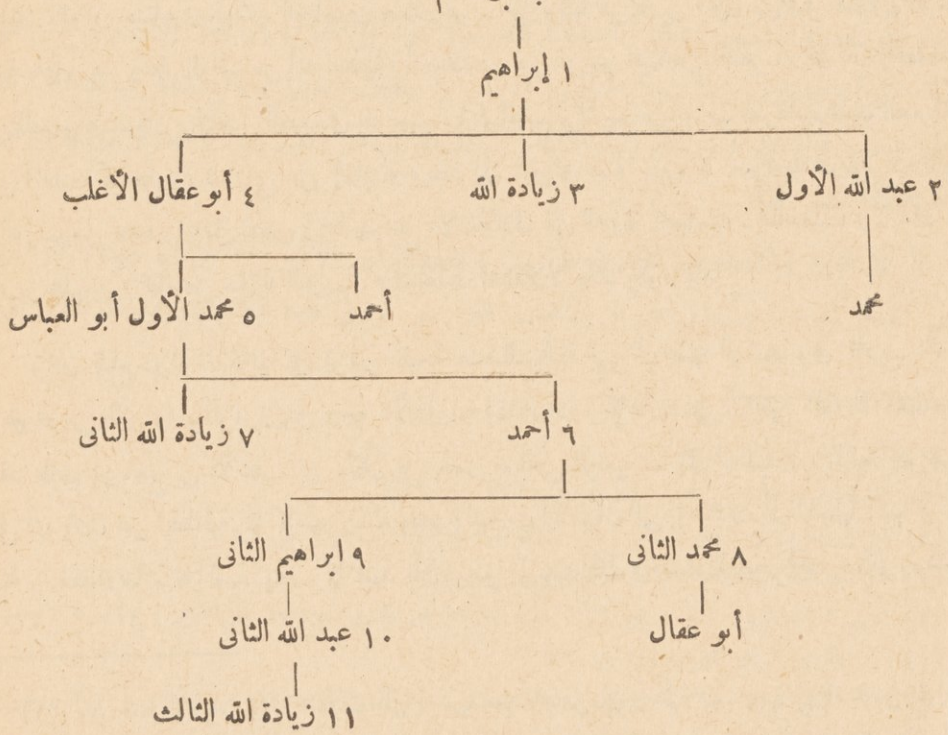

(١) انظر Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 37-38.

إبراهيم بن الأغلب (١٨٤ — ١٩٦ هـ)

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن تأسيس مدينة القيروان فى إفريقية (بلاد تونس حالا) على يد عقبة بن نافع سنة ٥١ هـ (٦٧٠ م) كان تمكينا للعرب بمركز حصين اتخذوه قاعدة لأعمالهم الحربية ، وأن العرب استطاعوا أن يجذبوا أهالى هذه البلاد من البربر إلى الإسلام ، وإدماجهم فى جيوشهم ، فكانوا نواة الجيوش الإسلامية التى أتمت فتح بلاد المغرب بقيادة قواد من العرب والبربر ، ثم أتمت فتح بلاد الأندلس على يد طارق بن زياد ، وكان من البربر .

ولكن سرعان ماأخذ هؤلاء البربر يثيرون الخلاف على العرب ، حتى غدت بلادهم مسرحا للفتن والقلاقل فى أواخر العصر الأموى . وفى أوائل العصر العباسى . وقد أراد أبو جعفر المنصور معالجة هذه الحالة ، بعد أن خرج عليه ابن الأشعث والى إفريقية ، فولى الأغلب بن سالم هذه البلاد ، فقدم القيروان فى سنة ١٤٨ هـ ، ولكنه لم يلبث أن قتل على أبوابها سنة ١٥٠ هـ على أيدى البربر بزعامة قوادهم من العرب . ومال هؤلاء البربر إلى مبادىء الخوارج ، وخلعوا طاعة العباسيين الذين أخذوا يرسلون الجيوش إليهم لإخضاعهم على غير جدوى ، واستمرت مدينة القيروان تسقط فى أيدى الثوار حينا وفى أيدى العباسيين حينا آخر ، حتى وليها هرثمة بن أعين من قبل هارون الرشيد سنة ١٧٩ هـ . وعلى الرغم من أنه استطاع أن يضعف من قوتهم حينا من الدهر ، رأى أن إخضاعهم من الصعوبة بمكان ، لتأصل العداء فى نفوسهم ، وكراهتهم لولاتهم من العرب لفرضهم عليهم الضرائب التى أثقلت كواهلهم ، فاستعفى من إمارته وعاد إلى العراق سنة ١٨١ هـ . وتجددت ثورات البربر والعرب من بعده ، وعمل بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية ، فتأسست ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب ، واستقلت استقلالا يكاد يكون تاما (١) .

وكان قيام دولة الأغالبة فى تونس نتيجة هذه السياسة التى ثار عليها الرشيد ، فى تأديب البربر وغيرهم من الثوار ، والوقوف فى وجه الأدارسة إذا أرادوا الإغارة على أراضى الدولة العباسية . وقد طلب إبراهيم بن الأغلب — وكان يلى بعض نواحى الزاب — إلى الرشيد أن يوليه إفريقية ، على أن ينزل عن المطالبة بما كانت ترسله مصر إليها من الأموال التى اعتادت أن ترسلها إليها فى كل سنة ، ومقدارها مائة ألف دينار ، كما تعهد بأن يرسل إلى بيت المال فى بغداد أربعين ألف دينار ، وأشار

---

(١) من هذه الولايات ولاية تاهرت التى أسسها عبد الرحمن بن رستم بمساعدة الإباضية من الخوارج (١٣٧ — ٢٩٧ هـ) ، وولاية سجلماسة التى أسسها بنو مدرار (١٦٧ — ٢٥٧ هـ) ، وتلمسان التى أسسها أبو قرة الصنهاجى ، وبرغواطة الواقعة على ساحل المحيط الأطلسى ، ودولة الأدارسة التى أسسها إدريس ابن عبد الله فى بلاد المغرب الأقصى (١٧٢ — ٣١٣ هـ) ودولة الأغالبة فى تونس (١٨٤ — ٢٩٦ هـ)

هرثمة بن أعين على الرشيد بتولية إبراهيم بن الأغلب هذه البلاد « لما رآه من عقله وكفايته (١) » ، فولاه الرشيد إياها فى شهر المحرم سنة ١٨٤ هـ (٢)

وكان إبراهيم بن الأغلب على جانب عظيم من الشجاعة ورجاحه العقل ، وقد آنس فيه الذكاء أستاذه الليث بن سعد فقال : « ليكونن لهذا الفتى شأن (٣) » . وكان الليث إمام أهل مصر فى الفقه والحديث ، وقال الشافعى رضى الله عنه إنه أفقه من مالك ، إلا أن أصحابه لم يقوموا به ، (٤) أى أن تلاميذه لم ينشروا مذهبه ، كما فعل أهل العراق مثلا بمذهب أبى حنيفة . وقد صدقت نبوءة الليث ، فان ابراهيم لما آلت إليه مقاليد الحكم فى إفريقية ضبط أمورها وبنى فى سنة ١٨٥ هـ مدينة على بعد ثلاثة أميال من القيروان (٥) ، ونقل إليها أهله وعبيده وأهل ثقته (٦) . ويظهر أنه اتخذ هذه التسمية لإظهار ولائه للخليفة العباسى والاعتراف بسلطان الدولة العباسية عليه .

على أن الثورات فى بلاد المغرب لم تلبث أن سارت سيرتها الأولى ، فخرج على إبراهيم بن الأغلب فى سنة ١٨٦ هـ حميدس ، وكان من العرب النازلين بمدينة تونس ، فبعث إليه ابن الأغلب عمران بن مخلد ، فى جيش كبير . فأحل الهزيمة بحميدس وجنده وقتل منهم عشرة آلاف رجل ، ودخل تونس (٧) .

وفى سنة ١٨٩ هـ انتشرت الثورة فى طرابلس ، وكانت تابعة لأمير إفريقية ، لبغض أهلها لولاتهم وعزمهم على إخراج واليهم سفيان بن المضاء ، وكان قد ولى هذه البلاد للمرة الرابعة ، وأخرجوه من داره وطاردوه إلى المسجد ، وقتلوا أصحابه فيه ، وأرغموه على العودة إلى القيروان ، ولما يمض على ولايته سبعة وعشرون يوما ، وولوا عليهم إبراهيم بن سفيان التميمى ، ولكنه لم يستطع أن يقر الأمور بسبب قيام النزاع بين العرب والأبناء (٨) . فأرسل إبراهيم إليهم جيشا أحضرهم إلى القيروان ، ولكنه عفا عنهم . (٩) .

على أن الفتن والثورات لم تخمد فى طرابلس ؛ فيحدثنا ابن الأثير (١٠) أن أبا عصام ثار على رأس جماعة كبيرة ، وأن إبراهيم بن الأغلب ظفر بهم ، وولى هذه البلاد ابنه عبد الله الذى لقى

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٥٦

(٢) انظر الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ١٧٥ — ١٨٠

(٣) البيان المغرب فى أخبار المغرب (طبعة لندن سنة ١٨٤٨ م) ج ١ ص ٨٤

(٤) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣٨

(٥) سمى ابن عذارى (ج ١ ص ٨٤) هذه المدينة القصر القديم ، وسماها ابن الاثير (ج ٦ ص ٥) العباسية

(٦) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٨٤

(٧) ابن الاثير ج ٦ ص ٥٦ . يظهر أن حميدس هذا هو الذى يعنيه ابن عذارى (البيان المغرب ج ١ ص ٨٤) بالكندى .

(٨) يقصد بذلك الذين يجمعون بين الدم العربى والدم البربرى

(٩) ابن الاثير ج ٦ ص ٦٩ (١٠) ج ٦ ص ٩٧ — ٩٨

كثيرا من الشدائد من ناحية البربر أول الامر ، فأرغموه على الخروج عن المدينة ، ولكنه استطاع أن يستميلهم إليه بما أغدق عليهم من الأموال والعطايا . وعلى الرغم من دخول عبد الله مدينة طرابلس ، فإن أباه لم يأمن بقاءه فيها ، فولى سفيان بن المضاء هذه البلاد للمرة الخامسة ، فثارت قبيلة هوارة عليه ودخلوا مدينة طرابلس وهدموا أسوارها ، فأرسل إليهم إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله على رأس ثلاثة عشر ألف فارس ، فهزم البربر وقتل كثيرا منهم ، ودخل طرابلس وأعاد بناء سورها . ولكن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم جمع البربر وحرضهم على قتال الأغالبة ، فحاربهم عبد الله إلى أن توفى أبوه إبراهيم ، وآلت إمارة الاغالبة إليه . فاضطر إلى مصالحتهم « على أن يكون البلد والبحر لعبد الله ، وما كان خارجا عن ذلك يكون لعبد الوهاب (١) » .

وكما كان إبراهيم الأغلب يخشى شر أهالى طرابلس الذين تألبوا عليه وثاروا فى وجهه ، كذلك عمل على القضاء على الأدارسة فى بلاد المغرب ليأمن شرهم . وقد بلغه أن إدريس بن إدريس قد كثر جمعه ، فأراد قصده ، ولكن أصحابه نصحوا له بالعدول عن رأيه وقالوا : اتركه ما تركك ، وكتب إليه إدريس يستعطفه ، ويسأله أن يعدل عن مناصبته العداء وتفريق أنصاره ، ويذكر له قرابته من الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكف عنه (٢) .

وقد ذكر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب باشا (٣) أن إبراهيم بن الأغلب استقبل سفراء شرلمان فى العباسة حاضرة ولايته (٤) . ويظهر أن إبراهيم قد علت منزلته واشتهرت ولايته ، حتى إن شرلمان لجأ إليه مباشرة دون الرجوع إلى الخليفة العباسى .

كان إبراهيم بن الأغلب — على ماوصفه ابن عذارى — (٥) فقيها أديبا ، شاعراً خطيبا ، ذا رأى ونجدة وبأس وحزم ، وعلم بالحروب ومكايدها ، جرىء الجنان طويل اللسان ، لم يل إفريقية أحسن سيرة ولا سياسة ، ولا أرأف بالرعية ، ولا أوفى بعهد ولا أرعى لحرمة منه ، فطاعت له قبائل البربر وتمهدت إفريقية فى أيامه ، واستقامت الأحوال بها » .

عبد الله الأول (١٩٦ — ٢٠١ هـ)

ولى إبراهيم بن الأغلب ابنه أبا العباس عبد الله العهد من بعده ؛ فلما مات فى سنة ١٩٦ هـ ، كان عبد الله يحارب ابن رستم فى طرابلس كما تقدم ، « فقام له أخوه زيادة الله بالأمر ، وأخذ له البيعة

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٩٧ — ٩٨

(٢) راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ١٨٠

(٣) كتاب خلاصة تاريخ تونس (طبعة تونس سنة ١٣٤٤هـ) ص ٦٩

(٤) قيل أن سبب قدوم هؤلاء السفراء يرجع إلى طلب شرلمان نقل رفات أحد القديسين فى قرطاجنة إلى إكس لاشابل حاضرة الفرنجة ، وأن ابراهيم بن الاغلب أجابه إلى طلبه

(٥) البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ٨٣

على نفسه وعلى أهل بيته وجميع رجاله وخدمته ، وبعث إليه بذلك » . (١) ولكن عبدالله لم يعد إلى إفريقية إلا فى سنة ١٩٧ هـ حيث سلم إليه أخوه زيادة الله مقاليد الأمور . ولما قتل الخليفة الأمين فى سنة ١٩٨ هـ وولى الخلافة بعده أخوه المأمون ، أقر عبدالله بن إبراهيم على إفريقية (٢).

وكان عبدالله سيء السيرة ، حتى أغضب أهل بيته وأهالى إفريقية . يقول ابن عذارى إنه لما عاد من طرابلس تلقاه أخوه زيادة الله وسلم الأمر إليه ، أساء معاملته ، وكان يأمر رجال بلاطه بإطلاق ألسنتهم فيه ، وزيادة الله يظهر له التعظيم والإكبار ، ولا يظهر له تغيرا أو كراهة . كما اشتط عبدالله فى جمع الضرائب حتى قيل إنه فرض على كل فدان ثمانية عشر دينارا فى كل سنة . وكانت معاملته للأهلين تنطوى على كثير من العنت والجور ، ولم يصغ إلى نصائح أهل الورع والدين ، حتى قيل إنه « لما قدم حفص بن حميد الصالح على إفريقية ومعه قوم صالحون من الجزيرة ، قصدوا إليه ، فوعظوه فى أمر الدين ومصالح المسلمين ، فتهاون بهم ، فخرجوا مغمورين (٣) يريدون القيروان . وكان هو فى القصر القديم (يعنى العباسية) . فلما وصلوا وادى القصارين قال لهم حفص بن حميد : قد يئسنا من المخلوق فلا نيأس من الخالق ، فاسألوا المولى واضرعوا إليه فى زوال ظلمه عن المسلمين ، فإن فتح فى الدعاء فقد أذن فى الإجابة ، فتوضأ جميعهم وساروا إلى كدية روح (٤) ، فصلى بهم حفص ركعتين ، ودعوا الله أن يكف عن المسلمين جور أبى العباس (عبد الله) ويريح المسلمين من أيامه ، فيقال إن قرحة خرجت له تحت أذنه فقتلته فى السادس من دعاء القوم . وقال من حضر غسله : إنه لما كشف عنه ثيابه ، ظن أنه عبد أسود بعد جماله ، وذلك بسوء فعاله »(٥). وكان ذلك فى سنة ٢٠١ هـ بعد أن حكم خمس سنين وشهرين .

يتبين من هذه القصة التى تكاد تكون قصة خيالية تنطوى على شىء كثير من المبالغة ، أن سيرة هذا الوالى قد أثارت عليه حنق أهل بيته ، فاتخذ المؤرخون من سوء سيرته مصدرا لتأليف القصص حول حياته .

زيادة الله الأول (٢٠١ — ٢٢٣ هـ) :

كان زيادة الله من أطول الأغالبة عهدا بالحكم ، وكان — كأخيه عبد الله — يميل إلى الظلم والجور . ويمتاز عهده بقيام بعض الثورات ومحاولة فتح جزيرة سردينية وفتح جزيرة صقلية فى البحر الأبيض المتوسط .

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ٨٦ (٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص٨٦

(٣) كذا فى الاصل ولعلّ الكلمة «مغمومين»

(٤) الكدية الأرض الصلبة .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ١ ص ٨٧ ، وابن الاثير جـ ص ١٢١

وقد قضى زيادة الله ست السنوات الأولى من عهده آمنا مطمئنا ، حتى خرج عليه فى سنة ٢٠٧ هـ زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية ، ولكن الهزيمة حلت به وبأنصاره . وفى السنة التالية خرج بتونس منصور بن نصير الطنبذى ، فسير إليه زيادة الله جيشا بقيادة محمد بن حمزة ، فهزمه منصور وقتل إسماعيل بن سالم بن سفيان بن عقال وابنه محمد ، وكانا من أقارب زيادة الله . فلما سمع زيادة الله بذلك أرسل وزيره الأغلب بن عبدالله بن الأغلب على رأس جيش كثيف ، وشيع هذا الجيش ، وهدد قائده وجنده بالقتل إذا حلت بهم الهزيمة ، وأفلت منصور من أيديهم ولكن تهديد زيادة الله لم يحل دون إلحاق الهزيمة بجنده ، الذين خشوا سوء العاقبة ، وعولوا على عدم العودة الى العباسية ، فتقلبت بهم الأحوال ، وخلعوا طاعته وانضموا إلى منصور ، واستولوا على كثير من المدن مثل باجة وصطفورة والأربس . واضطربت أحوال إفريقية وكادت تخرج من يد زيادة الله ، الذى أثار كراهة أهلها بسوء سيرته وقسوته . وقد تفاقم خطر منصور ، فسار إلى القيروان وحاصرها ، وحارب زيادة الله فى كثير من المواقع التى انتهت بهزيمة منصور وهربه فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٢٠٨ هـ . وعزم زيادة على إنزال العقاب بأهل القيروان ، فنصحه أهل العلم والدين فعدل عن رأيه ، ولكنه هدم سور المدينة . ثم أرسل زيادة الله ابن أخيه محمد بن عبد الله بن الأغلب إلى مدينة سبيبة ، فحلت به الهزيمة ، وأثار هذا الانتصار شجاعة منصور ، فحاصر القيروان من جديد ، وأقلق بال زيادة الله الذى ضعف أمره وتضاءلت ولايته ، حتى إنه لم يبق معه من إفريقية فى سنة ٢٠٩ هـ إلا قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس (١) ، وضرب منصور الطنبذى السكة باسمه . ولم تنته هذه الثورة العنيفة التى كادت تودى بدولة الأغالبة إلا فى سنة ٢١١ هـ ، وذلك يرجع إلى قيام النزاع بين منصور الطنبذى وقائده عامر بن نافع الذى هاله ازدياد نفوذه واتساع رقعة البلاد التى دخلت فى حوزته ، وأرغمه على الهرب إلى المشرق ، ولم يلبث أن قبض عليه وحبسه ، ثم قتله ، واستولى على بلاده . على ان النزاع الذى قام بين أنصار منصور الطنبذى لم يقف عند هذا الحد ، بل ازداد سوءا بعد مقتل منصور ، حتى مات عامر بن نافع فى سنة ٢١٣ هـ ، واطمأن زيادة الله بن الأغلب من ناحية هؤلاء الثوار ، وعبّر عن اغتباطه حين علم بوفاة عامر بقوله : « اليوم وضعت الحرب أوزارها » (٢)

فتح جزيرة صقلية

فتحت جزيرة صقلية على يد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب سنة ٢١٢ هـ ، وذلك فى عهد الخليفة المأمون . على أن اهتمام المسلمين بفتح هذه الجزيرة يرجع إلى عهد معاوية بن أبى سفيان حين غزاها عبدالله بن قيس الفزارى من قبل معاوية بن حديج والى إفريقية ، ولكن أقدام المسلمين لم تثبت فى هذه الجزيرة (٣) . ويقول النويرى (٣) إن محمد بن إدريس الأنصارى فتحها فى أيام يزيد

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ١٢٣ (٢) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ١ ص ٩٤ — ٩٥
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٤ (٤) المكتبة الصقلية جـ ١ ص ٤٢٦

ابن عبد الملك وغنم منها غنائم كثيرة ، ثم غزاها بشر بن صفوان الكلبي فى أيام هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٩ هـ) ، كما غزاها حبيب بن أبى عبيدة فى سنة ١٢٢ هـ ، واستولى على سرقوسة على الساحل الشرقى للجزيرة ، ثم عاد إلى إفريقية محملا بالغنائم . ثم غزاها عبد الرحمن بن حبيب سنة ١٣٠ هـ ، غير أن أقدام المسلمين لم تكد تثبت إلا فى عهد الأغالبة .

روى المؤرخون الذين تناولوا الكلام على فتح صقلية أن السبب المباشر لفتحها فى عهد زيادة الله ابن الأغلب على إفريقية، أن إمبراطور القسطنطينية ميخائيل الثانى ولى عليها قسنطين البطريق ، فأرسل يوفيموس Euphemius فى أسطول نهب ساحل إفريقية . ثم غضب عليه الإمبراطور ، إذ نمى إليه أنه اختطف راهبة من دير هناك ، ففر إلى سرقوسة الواقعة على ساحل صقلية الشرقى ، وثار فى وجه حاكم الجزيرة . ولكنه لما رأى أنه لا طاقة له بجيوش الإمبراطور وأساطيله ، لجأ إلى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية ، واستغاث به ، وهوّن عليه فتحها ، فجهز زيادة الله جيشا وأسطولا يتالف من مائة مركب بقيادة أسد بن الفرات قاضى القيروان[١] .

ولما وصل جيش زيادة الله إلى صقلية ، قامت الحرب بين المسلمين ويوفيموس من ناحية وبينهم وبين حاكم الجزيرة من ناحية أخرى ، وانتهت هذه المعارك بهزيمة الروم . وبالرغم مما لحق المسلمين من الهزائم ، ووفاة أسد بن الفرات وهو على حصار مدينة سرقوسة فى سنة ٢١٣ هـ ، ولى المحاربون عليهم محمد بن أبى الجوارى ، فاستطاع المسلمون أن يستولوا على كثير من الحصون كحصن ميناو وجريجند . أما يوفيموس فقد سار إلى مدينة قصريانة وانقلب على المسلمين فيها ، فثاروا عليه وقتلوه . ولكن المسلمين لم يستطيعوا التوغل فى هذه الجزيرة حتى جاءتهم سفن من الأندلس كانت متجهة نحو بلاد الروم بقيادة قرغلوش ، فطلب المسلمون منه المعونة ، فأجابهم إلى طلبهم ، واستولوا على مدينة ميناو ، ولكنهم اضطروا إلى الرحيل عنها ، وانتشر الوباء فيهم ، ومات القائد الأندلسى وكثير من جند المسلمين ، وعاد الأندلسيون إلى بلادهم (سنة ٢١٥ هـ)[٢] .

وقد طال حصار المسلمين لمدينة بلرم ، فبدأ فى شهر جمادى الآخرة سنة ٢١٥ هـ ، وانتهى بفتحها سنة ٢١٦ هـ [٣] ، وفى سنة ٢١٩ هـ سار المسلمون إلى قصريانه ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، وكانوا يعودون إليها مرة بعد أخرى ، ثم يرتدون عنها فيحاولون الاستيلاء على غيرها من المدن مثل طبرمين ، وقسطلياسة ، وعلى بعض الحصون المحيطة بجبل النار وغيرها ، وظلوا على ذلك إلى أن مات زيادة الله بن الأغلب سنة ٢٢٣ هـ [٤] . ولم يستطع المسلمون الاستيلاء على الجزيرة كلها برغم ما كان يصلهم من الأمداد من إفريقية ؛ وكانت سرقوسة آخر معقل وقع فى أيديهم فى عهد إبراهيم الثانى الأغلبى سنة ٢٦٤ هـ .

---

(١) المكتبة الصقلية جـ ٢ ص ٤٢٧ — ٤٢٩ عن كتاب نهاية الأرب للنويرى

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٦ — ٩٧ (٣) ابن الأثير جـ ٦ ص ١٢٤ — ١٢٥

(٤) ابن الأثير جـ ٦ ص ١٢٧

محمد الأول (٢٢٦ – ٢٤٢ هـ) :

لما مات زيادة الله الأول سنة ٢٢٣ هـ ، ولى أخوه أبو عقال ، وكان ثالث أبناء إبراهيم بن الأغلب الذين ولوا إمارة الأغالبة بعده على التوالى . وكان أبو عقال أحسن سيرة من أخويه ، لأنه « أجرى على العمال أرزاقاً واسعة وصلات جزلة ، وقبض أيديهم عن الرعية ، فقطع النبيذ من القيروان ، وعاقب على بيعه وشربه » . ولم يحدث فى عهده مايستحق الذكر ، إلا هذه الثورة التى أذكت نيرانها قبائل لواتة ومكناسة وزواغة من البربر ، فقضى عليهم عيسى بن ريعان الأزدى قائد الأغالبة ، وانتصر عليهم فى موقعة حاسمة بين قفصة وقسطيلية . وتوفى أبو عقال فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٢٦ هـ بعد أن حكم سنتين وتسعة أشهر وأياما ، وهو فى الثالثة والخمسين من عمره[١] ، فخلفه ابنه أبو العباس محمد الأول .

كان أبو العباس (٢٢٦ – ٢٤٢ هـ) من أطول أمراء الاغالبة عهدا . وقد تخللت عهده حوادث كثيرة ، كان أشدها خطرا اغتصاب أخيه أحمد الإمارة منه . « وذلك أن أحمد تواعد مع جملة من الموالى إلى موضع ، فتوافوا هناك وقت الظهيرة ، فقصدوا إلى مدينة القصر القديم ، وقد خلا الباب من الرجال ، فدخلوا وأغلقوا الباب ، ثم ساروا حتى أغلقوا الأبواب الأخر ، ثم هجموا على أبى عبدالله بن على بن حميد الوزير ، فأمر أحمد فضربت عنقه ، ووقع القتال بين رجال محمد بن الأغلب ورجال أخيه أحمد بن الأغلب ، وجعل أصحاب أحمد يقولون لأصحاب محمد : ما لكم تقاتلوننا ؟ نحن فى طاعة محمد بن الأغلب ، إنما قمنا على أولاد على بن حميد الذين أفقروكم واستولوا على أموال مولاكم دونكم ؟ وأما نحن ففى الطاعة ، فلما سمعوا ذلك وقفوا عن القتال . ولما نظر محمد إلى ما دهمه على غير استعداد ، قعد فى مجلسه الذى يقعد فيه للعامه ، وأذن لأخيه أحمد والرجال الذين معه فى الدخول عليه ، فدخلوا بسلاحهم ، فكانت بينهم معاتبة ، ثم حلفا ألا يغدر أحد بصاحبه ، واصطلحا ، واعتدلت الأمور لأحمد بن الأغلب ، إلا اسم الإمارة فقط . وقبض أحمد على من شاء ، واستصفى من أراد ، وعذب من أحب ، وأعطى الرجال ، وجبى الأموال ، واستوزر نصر بن حمزة . وفى سنة ٢٣٢ هـ ظفر محمد بن الأغلب بأخيه أحمد وحبسه ، ورجع له سلطانه ، وقام معه فى ذلك جماعة من بنى عمه ومواليه ، وسق البوابين واحتال عليهم حتى دخل المدينة ، وحارب أخاه طول الليل ، وأطلق من كان فى حبس أخيه ، فاستمد بهم ، ووصل أهل القيروان حتى أنفد جميع مافى خزائنه من الأموال والكسى ، ثم نفى محمد بن الأغلب أخاه أحمد[٢] إلى المشرق ، فمات بالعراق »[٣] .

من ذلك نرى أن قبض أحمد بن أبى عقال الأغلب على أخيه محمد ، الذى ولى الإمارة بعد أبيه ،

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠

(٢) يلاحظ أن أحمد هذا الذى مات فى العراق هو أحمد بن أبى عقال الأغلب ، وهو غير أحمد بن محمد الأول الذى ولد بعد أبيه محمد الأول

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٠١ — ١٠٢ .

لم يكن مصدره سخطه على الوزير ابن حميد والحد من نفوذه ، وإنما كان ذلك راجعا إلى طمع أحمد وميله إلى التمتع بالسلطة دون أخيه . ولولا انتصار محمد عليه لتحولت الإمارة إلى أخيه الذى اغتصبها منه أكثر من سنة (٢٣١ — ٢٣٢ هـ) .

على أن محمدا الأول لم يكد ينتهى من ثورة أخيه أحمد عليه ، حتى فوجىء فى السنة التالية بثورة سالم بن غلبون أمير الزاب ، وكان قد عزله عن إمارتها ، فأضمر له الخلاف ، وقصد القيروان ، وقامت الحرب بينه وبين محمد الأول ، ودارت الدائرة عليه وقتل . وفى سنة ٢٣٤ هـ خرج على محمد الأول عمرو بن سليم التجيبى الذى تفاقم شره ، ولم يستطع ابن الأغلب القضاء عليه إلا فى سنة ٢٣٦هـ، وقتله ، ودخل مدينة تونس واستولى عليها من أنصار التجيبى [١]

ولما فرغ محمد الأول من هذه الثورات ، تفرغ للاستيلاء على جزيرة صقلية ، واهتم بهذه الحرب اهتماما جعله فى مرتبة الجهاد ضد الروم ، فولى العباس بن الفضل الفزارى تتمة الفتح : ففتح بين سنتى ٢٣٧ ، ٢٤٧ هـ قصريانة [٢] وقطانية وسرقوسة . ويظهر أن المسلمين كانوا يستولون على هذه المدن ثم لا يلبثون أن يتخلوا عنها تحت ضغط الروم ، فكانت حرب المسلمين فى هذه الجزيرة ، كما يقولون ، حربا مائعة غير ثابتة [٣] .

وفى سنة ٢٤٢ هـ توفى أبو العباس محمد بن الأغلب بعد أن حكم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر واثنى عشر يوما ، فخلفه ابنه أبو إبراهيم أحمد (٢٤٢ — ٢٤٩ هـ) ، « وكان — كما يقول ابن عذارى [٤] حسن السيرة كريم الأخلاق والأفعال ، من أجود الناس وأسمحهم وأرفقهم بالرعية ، مع دين واجتناب للظلم على حداثة سنه وقلة عمره . وكان يركب فى ليالى شعبان ورمضان ، وبين يديه الشمع ، فيخرج من القصر القديم فيمشى حتى يدخل من باب أبى الربيع (أحد أبواب القيروان) ومعه دواب بالدراهم ، فكان يعطى الضعفاء والمساكين ، حتى ينتهى إلى المسجد الجامع بالقيروان ، فيخرج الناس إليه يدعون له » .

ولم يطل حكم أحمد حيث توفى سنة ٢٤٩ هـ ، فخلفه أخوه زيادة الله الثانى بن محمد (٢٤٩ — ٢٥٠ هـ) ، ولكنه لم يلبث أن توفى بعد سنة واحدة وستة أيام ، وتولى بعده ابن أخيه محمد الثانى بن أحمد (٢٥٠ — ٢٦١ هـ) ، ويلقب بأبى الغرانيق . لأنه كان مولعا بصيد الغرانيق ، حتى إنه بنى قصرا يخرج اليه ليصيدها ، أنفق عليه ثلاثين ألف مثقال من الذهب . وقد وصفه ابن عذارى [٥] فى هذه العبارة

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٥ ، ١٦

(٢) قال أبو الفدا (المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٣٨) إن قصريانة « هى المدينة التى بها دار الملك بصقلية ، وكان الملك قبلها يسكن مرقوسة « يقصد سرقوسة » ، فلما أخذ المسلمون بعض الجزيرة انتقل الملك إلى قصريانة لحصانتها ، ففتحها العباس فى سنة ٢٣٧ هـ ... وبنى بها مسجدا فى الحال ونصب فيها منبرا ، وخطب وصلى فيها الجمعة » .

(٣) النويرى : كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب ، المكتبة الصقلية جـ ١ ص ٤٣١ — ٤٣٣

(٤) البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٥ (٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٠٧ وما يليها

فقال : « كان مسرفا فى العطاء مع حسن سيرة فى الرعية ، ثم غلبت عليه اللذات والاشتغال بها ، فلم يزل كذلك طول مدته ؛ ولم تكن له همة فى جمع مال ، فلما مات لم يجد أخوه (إبراهيم الثانى) شيئا يذكر » .

ولم يقع فى عهد أبى الغرانيق محمد الثانى مايستحق الذكر ، سوى متابعته الاهتمام بالفتوح فى جزيرة صقلية ، مقتديا فى ذلك بأسلافه ، وكثرة توليته الولاة على هذه الجزيرة ، وقتل بعض هؤلاء الولاة ، إما بسبب نشوب الحرب بينهم وبين الروم ، أو نتيجة لإشعاله نار العصبية القبلية بين العرب النازلين فيها . ويقول ابن عذارى إن الحرب وقعت بين المسلمين والروم فى صقلية من سنة ٢٥٥ هـ إلى سنة ٢٥٩ هـ ، وإن المسلمين حاولوا فى خلال هذه الفترة فتح مدينة سرقوسة وغيرها من أمهات المدن فى هذه الجزيرة وفى جنوبى إيطاليا .

وقد توفى أبو الغرانيق فى شهر جمادى الأولى سنة ٢٦١ هـ بعد أن حكم إفريقية وما يليها عشر سنين وخمسة أشهر ونصف ، عاصر فى خلالها من الخلفاء العباسيين المستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد ، وأقره كل منهم على ولايته ، على ماجرت به العادة فى ذلك الوقت .

إبراهيم الثانى (٢٦١ — ٢٨٩ هـ)

يعتبر إبراهيم الثانى أطول أمراء الأغالبة فى إفريقية عهدا بالإمارة . وقد وقعت فى عهده أمور كثيرة ، منها أنه اغتصب الولاية من ابن أخيه أبى عقال بن محمد الثانى ولما يمض عليه فى الإمارة غير أيام ، ثم بناء مدينة رقادة فى سنة ٢٦٣ هـ ، وفتح سرقوسة نهائيا وسقوطها فى يد المسلمين فى سنة ٢٧٤ هـ ، وتشكيله بالموالى بالقصر القديم لأنهم ثاروا عليه ، ثم هزيمته العباس بن أحمد بن طولون فى سنة ٢٦٧ هـ .

وتعتبر الحرب التى دارت بين إبراهيم الثانى والعباس بن أحمد بن طولون ، الذى خرج على أبيه كما تقدم ، من أهم الأحداث التى وقعت فى عهده . وقد ذكر ابن عذارى [1] فى إسهاب العوامل التى أدت إلى وقوع هذه الحرب ، وما وقع فيها من معارك ، وما انتهت إليه من نتائج . كما تناول الكلام عليها مؤرخو مصر كابن الداية والمقريزى . ذلك أن العباس بن أحمد بن طولون ، قد سوّلت له نفسه الخروج على أبيه والتوجه إلى إفريقية ، وصغّر له أتباعه من شأن إبراهيم الثانى بن أحمد لأغلبى أمير هذه البلاد ، فأرسل إليه العباس كتاباً يقول فيه : « إن أمير المؤمنين قد قلدنى أمر إفريقية » ، ويأمره بالدعاء له على المنابر والاستعداد لاستقباله ، ويخبره أنه قد أقره عليها ، على أن يحكمها نيابة عنه . ثم سار العباس حتى وصل إلى مدينة لبدة ، فخرج إليه عاملها وأهلوها مرحبين ، فازدادت نفسه غرورا ، وقبض على عاملها وأباح المدينة لجنده ، فنهبوا أموالها وقتلوا رجالها واستباحوا نساءها ، فاستغاث أهلها بإلياس بن منصور صاحب نَفُوسة وزعيم الإباضية من الخوارج . وقد أرسل إليه العباس بن أحمد بن طولون رسولا من قبله يأمره بالإذعان والخضوع ، فقال إلياس للرسول : « قل لهذا

---

(١) البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ١١١ — ١١٣

الغلام : أما أنك أقرب الكفار منى وأحقهم بمجاهدتى ، فقد بلغنى من قبيح أفعالك ما لا يسعنى التخلف معه عن جهادك . وأنا على إثر رسالتى إليك »[1] . وسرعان ما أرسل اليه جيشا من ١٢,٠٠٠ مقاتل ، وجرد ابن الأغلب لقتاله جيشاً آخر ، فهزم العباس ، وعاد إلى برقة [2] .

صفات إبراهيم الثانى .

« كان إبراهيم — كما وصفه ابن الأثير [3] — عادلا حازما فى أموره ، آمن البلاد ، وقتل أهل البغى والفساد . وكان يجلس للعدل فى جامع القيروان يومى الخميس والإثنين ، يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم . . . وكان عاقلا حسن السيرة محبا للخير والإحسان ، تصدق بجميع ما يملك ووقف أملاكه جميعها . وكانت له فطنة عظيمة بإظهار خفايا العملات [4] . فمن ذلك أن تاجراً من أهل القيروان كانت له إمرأة جميلة صالحة عفيفة ، فاتصل خبرها بوزير الأمير إبراهيم ، فأرسل إليها ، فلم تجبه ، فاشتد غرامه بها وشكا حاله إلى عجوز كانت تغشاه ، وكانت أيضا لها من الأمير منزلة ، ومن والدته لها منزلة كبيرة . وهى موصوفة عندهم بالصلاح يتبركون بها ويسألونها الدعاء ، فقالت للوزير : أنا أتلطف بها وأجمع بينكما ، وراحت إلى بيت المرأة فقرعت الباب وقالت : قد أصاب ثوبى نجاسة أريد تطهيرها ، وخرجت المرأة ولقيتها ، فرحبت بها وأدخلتها وطهرت ثوبها . وقامت العجوز تصلى ، فعرضت المرأة عليها الطعام فقالت : إنى صائمة ولا بد من التردد إليك ، ثم صارت تغشاها ، ثم قالت لها : عندى يتيمة أريد أن أحملها إلى زوجها ، فإن خفّ عليك إعارة حليك أجملها بها . فأحضرت جميع حليها وسلمته إليها ، فأخذته العجوز وانصرفت ، وغابت أياماً وجاءت إليها فقالت لها : أين الحلى ؟ فقالت : هو عند الوزير ، عبرت عليه وهو معى فأخذه منى ، وقال لا يسلمه إلا إليك . فتنازعتا وخرجت العجوز ، وجاء التاجر زوج المرأة فأخبرته الخبر ، فحضر دار الأمير إبراهيم وأخبره الخبر . فدخل الأمير إلى والدته وسألها عن العجوز فقالت : هى تدعو لك ، فأمر بإحضارها ليتبرك بها ، فأحضرتها والدته . فلما رآها أكرمها وأقبل عليها وانبسط معها ، ثم إنه أخذ خاتماً من أصبعها وجعل يقلبه ويعبث به . ثم إنه أحضر خصياً له ، وقال له : انطلق إلى بيت العجوز وقل لابنتها تسلم الحق الذى فيه الحلى ، وصفته كذا ، وهو كذا وكذا ، وهذا الخاتم علامة منها . فمضى الخادم وأحضر الحق ، فقال للعجوز : ما هذا ؟ فلما رأت الحق سقط فى يدها ، وقتلها فى الدار ، وأعطى الحق لصاحبه ،

---

(١) ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ص ٦١ (٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٢٠

(٣) ج ٧ ص ١٠١ — ١٠٢

(٤) لعله يريد بالعملات جمع عملة بمعنى المكيدة كما يعبر عنها العوام ، وكما يفهم من سياق القصة التى ذكرت بعدها .

وأضاف إليه شيئاً آخر ، وقال له : أما الوزير فإن انتقمت منه الآن ينكشف الأمر ، ولكن سأجعل له ذنباً آخذه به ، فتركه مدة يسيرة وجعل له جرماً آخذه به فقتله » .

توفى إبراهيم الثانى فى شهر ذى القعدة سنة ٢٨٩ هـ ، بعد أن حكم ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر واثنى عشر يوما .

زيادة الله الثالث (٢٩٠ — ٢٩٦ هـ)

بويع عبد الله أبو العباس بن إبراهيم الثانى بعد أبيه ، ولكنه لم يبق فى الإمارة سوى تسعة أشهر وأحد عشر يوما ، ثم قتل بيد بعض غلمانه (١) ، فخلفه ابنه زيادة الله الثالث ، وكان أبوه قد قبض عليه وحبسه إذ بلغه أنه يريد الخروج عليه .

وكان زيادة الله آخر أمراء الأغالبة ببلاد المغرب . وفى عهده بدأت أعمال أبى عبد الله الشيعى داعى الفاطميين ، فوقع فى يده كثير من المدن ، بينما قضى زيادة الله أيامه فى اللهو والترف . وكان وزراؤه لا يبالون إلا بنجاح المذهب الشيعى الذى اعتنقه معظمهم ، مما ساعد أبا عبد الله على إزالة سلطان الأغالبة ومد نفوذ الفاطميين إلى أكثر أجزاء هذه البلاد . وفى سنة ٢٩١ هـ غدا الفاطميون أصحاب السلطان المطلق فى جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان أكبر مدائن بلاد المغرب (٢) .

وقد ذكر ابن عذارى (٣) أن زيادة الله بن الأغلب لما سمع بدخول أبى الله الشيعى مدينة رقادة فى سنة ٢٩٦ هـ ، وفرار أهلها منها ، حمل معه ماخف وزنه وغلا ثمنه ، ثم « ركب فرسه وتقلد سيفه وقدم الأحمال تمر بين يديه هاربا على عيون أهله وولده ، فأخذت جارية من جواريه عوداً ووضعته على صدرها وغنته لتحركه على حملها معه فقالت :

لم أنس يوم الوداع موقفها ... وجفنتُها فى دموعها غَرِقُ
وقولَها والركاب سائرة ... تتركنا سيدى وتنطلق ؟
أستودع الله ظَبيةً جَزِعت ... للبينِ والبينُ فيه لى حرق

فدمعت عينا زيادة الله عند سماعها ، وشغله سوء الموقف وضيق الحال عن حملها معه ، وخرج عن مدينة رقادة متوجها إلى مصر فى ثلث الليل الأول ، ومعه وجوه رجاله وفتيانه وعبيده ، وأخذ طريق الجادة ، حتى لحق بمدينة طرابلس » .

وبذلك زال سلطان بنى مدرار عن سلجماسة ، وبنى رستم عن تاهرت ، وبنى الأغلب عن تونس ، وقامت الدولة الفاطمية فى شمال إفريقية الذى خرج عن سلطان العباسيين .

---

(١) وقد قيل إن ذلك حدث بإيحاء ابنه زيادة الله .

(٢) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ — ٢٧ ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٥٦ — ٥٧

(٣) البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ١ ص ١٤٣ — ١٤٤

دولة الأدارسة

(فى مراكش)

١٧٢ — ٣٧٥ هـ = ٧٨٨ — ٩٨٥ م

أمراء الأدارسة

	هجرية	ميلادية
إدريس	١٧٢	٧٨٨
إدريس الثانى	١٧٧	٧٩٣
محمد بن إدريس الثانى	٢١٣	٨٢٨
على بن محمد	٢٢١	٨٣٦
يحيى الأول بن محمد	٢٣٤	٨٤٩
يحيى الثانى بن محمد		
على الثانى بن عمر بن إدريس الثانى		
يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثانى		
يحيى الرابع بن إدريس بن عمر	٢٩٢	٩٠٤
الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس	٣١٠	٩٢٢

[بربر مكناسة]

إدريس بن عبد الله (١٧٢ — ١٧٧ هـ)

كانت موقعة فخ فى عهد الخليفة العباسى الهادى سنة ١٦٩ هـ ، بعيدة الأثر فى تاريخ العلويين ؛ فقد هرب منها رجلان كانا كالشجا فى حلق العباسيين : أولهما يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على الذى ثار فى بلاد الديلم فى عهد هارون الرشيد ، وثانيهما أخوه إدريس بن عبد الله الذى نجح فى إثارة أهالى المغرب الأقصى على العباسيين .

يقول السلاوى فى كتابه الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٢) « أما إدريس فإنه فر من الوقعة المذكورة ، ولحق بمصر وعلى بريدها يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ، ويعرف بالمسكين . وكان واضح يتشيع لآل البيت ، فعلم شأن إدريس وأتاه إلى الموضع الذى كان مستخفيا به ، ولم ير شيئاً أخلص له من أن يحمله على البريد إلى المغرب ، ففعل . ولحق إدريس بالمغرب الأقصى هو ومولاه

(١) Stanley Lane- Poole: Muhammadan Dynasties, p. 35.

(٢) ج ١ ص ٦٧

راشد ، فنزل بمدينة وليلى [١] سنة ثنتين وسبعين ومائة ، وبها يومئذ إسحق بن محمد بن عبد الحميد أمير أوربة من البربر البرانس ؛ فأجاره وأكرمه ، وجمع البربر على القيام بدعوته ، وخلع الطاعة العباسية ، وكشف القناع فى ذلك ، وانتهى الخبر إلى الرشيد بما فعله واضح فى شان إدريس ، فقتله وصلبه » .

ولم يلبث إسحق بن محمد بن عبد الحميد أن جمع عشيرته ، وذكر لهم نسب إدريس وقرابته من الرسول ، وأطنب فى فضله ودينه وعلمه ، فبايعوه فى يوم الجمعة الرابع من شهر رمضان سنة ١٧٢ هـ . وقد بادر إلى بيعته قبيلة أوربة ، وكانت من أعظم قبائل البربر بالمغرب الأقصى وأشدها بأسا وأكثرها عداوة ، ثم وفدت عليه قبائل زناتة وزواغة ومكناسة وغيرها ودخلوا فى طاعته ، فقويت شوكته ، وامتدت رقعة بلاده ، حتى شملت الأراضى التى تقيم فيها قبائل زناتة غربى القيروان إلى المحيط الأطلسى ، وتشمل المغرب الأوسط والأقصى [٢].

وقد خشى هارون الرشيد تفاقم خطر إدريس ومحبة الناس له ، واتصل به أن إدريس قد عزم على غزو إفريقية ، فعمل على التخلص منه ، وفكر فى إنفاذ جيش كثيف للقضاء عليه ، ولكنه عدل عن ذلك لبعد الشقة ووعورة الطريق ، فأشار عليه يحيى البرمكى بأن يبعث إليه برجل معروف بالدهاء يحتال عليه ويغتاله . فبعث الرشيد سليمان بن جرير ، ويعرف بالشماخ ، وكان من موالى المهدى ، وزوده بكتاب إلى واليه على إفريقية . فأذن له هذا الوالى باجتياز حدود ولايته والمسير إلى المغرب الأقصى حيث التقى بإدريس ، وتظاهر بالتشيع لآل البيت ، فاختصه وأكرمه وقربه إليه . ثم تحين الشماخ الفرصة لقتله . وقد قيل إنه دس له السم فى قارورة ملأى بالطيب ، وقيل إنه سمه فى سنون ، وهو نوع من السواك ، وكان إدريس يشكو من ألم أسنانه ولثته ، وقيل إنه قدم له عنبا مسموما . ولما تحقق الغرض الذى أتى الشماخ من أجله هرب ، ومات إدريس فى مستهل شهر ربيع الآخر سنة ١٧٧ هـ .

إدريس الثانى (١٧٧ — ٢١٣ هـ)

وكان لإدريس أمة حامل تدعى كنزة ، فانتظر أشياعه حتى وضعت بعد موته بشهرين ولدا ذكرا أسموه إدريس ، فالتفوا حوله ، وهو المؤسس الحقيقى لدولة الأدارسة .

ولما بلغ إدريس الثانى الحادية عشرة من عمره ، بايعه البربر فى غرة ربيع الأول سنة ١٨٨ هـ بمدينة وليلى ، فخطب الناس . ولما نزل قبّل الناس يده وبايعوه ، ثم بايعه كافة قبائل المغرب ، ومن بينها زناتة وأوربة وصنهاجة . ثم شرع فى بناء مدينة فاس سنة ٢٩٢ هـ ، فتم بناؤها فى السنة التالية واتخذها إدريس حاضرة لدولته .

---

(١) هى قاعدة جبل زرهون ، وكانت مدينة حصينة كثيرة المياه والأشجار والزيتون ، ولها سور عظيم . (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٦٨)

(٢) الاستقصا ج ١ ص ٦٨ — ٦٩

وجه إدريس همه لمحاربة الصفرية من الخوارج ، وأحل بهم الهزيمة[١] ، وضرب السكة باسمه . ويقول ابن الأثير [٢] إن إبراهيم بن الأغلب أراد قتال إدريس فنهاه أصحابه وقالوا له : اتركه ما تركك ، فكتب إليه إدريس يذكر له قرابته من رسول الله ، فكف عنه .

توفى إدريس الثانى فى شهر جمادى الآخرة سنة ٢١٣ هـ وهو فى السادسة والثلاثين من عمره ، فخلفه ابنه محمد بن إدريس . وفى عهده انقسم أمراء هذا البيت على أنفسهم ، فخرج عليه عيسى بن إدريس بمدينة آزمور ونبذ طاعته ودعا لنفسه ، فاستعان محمد بأخيه القاسم صاحب طنجة فأبى ، فكتب إلى أخيه الثانى عمر صاحب تكساس ، فامتثل أمره ، وسار لقتال عيسى على رأس جيش من البربر ، وأوقع به وطرده ، فأقره على عمل أخيه ، وأمره بقتال أخيه القاسم ، فزحف إلى ظاهر طنجة ، وأحل به الهزيمة واستولى على ما بيده من البلاد الممتدة على ساحل البحر حتى مدينة طنجة .

ولم يلبث أن توفى محمد فى شهر ربيع الثانى سنة ٢٢١ هـ ، فخلفه ابنه على بن محمد (٢٢١ — ٢٣٤ هـ) ، وكان فى التاسعة من عمره ، ولقب حيدرة وهو لقب على بن أبى طالب . ولم يذكر لنا المؤرخون كثيراً عن دولة الأدارسة فى عهد على بن محمد الذى توفى فى شهر رجب سنة ٢٣٤ هـ ، وخلفه أخوه يحيى بن محمد الذى قال فيه ابن خلدون [٣] : « قام يحيى بن محمد بن إدريس بالأمر ، وامتد سلطانه ، وعظمت دولته ، وحسنت آثار أيامه ، واستبحر عمران فاس ، وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار ، وبنيت خارجها الأرباض ، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية » .

على بن عمر بن إدريس

ولما توفى يحيى بن محمد خلفه ابنه يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس ، وكان سىء السيرة ، فثارت عليه العامة ، فاختفى بعدوة الأندلس [٤] ، ريثما تخمد الفتنة ، ومات من ليلته . واستولى عبد الرحمن بن أبى سهل ، الذى تزعم الثورة على يحيى بن يحيى ، على فاس . وكتبت زوجة يحيى إلى أبيها على بن عمر ابن إدريس صاحب الريف وطلبت إليه الحضور لإخماد هذه الثورة ، فجاء إلى فاس واستولى عليها ، وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس الثانى ، وأصبح فى عقب عمر بن إدريس صاحب الريف تارة ، وفى عقب القاسم بن إدريس الزاهد تارة أخرى [٥] .

ولم يلبث أن دخل أهل فاس فى طاعة على بن عمر بن إدريس ، وخطب له على منابر المغرب ، واستقرت قدمه فى هذه البلاد فترة من الزمن ، حتى ثار عليه عبد الرزاق الفهرى أحد زعماء الخوارج الصفرية ، وتبعه أهالى البلاد القريبة من مدينة فاس ، التى دخلها ، ففر على بن عمر إلى أوربة .

---

(١) الاستقصاء جـ ١ ص ٧٢ — ٧٤ .
(٢) جـ ٦ ص ٥٦ .
(٣) العبر وديوان المبتدا والخبر جـ ٤ ص ١٥ .
(٤) بضم العين هى الأرض المرتفعة على ساحل البحر الأبيض والمحيط الأطلسى من بر الأندلس ، ويقابلها عدوة المغرب .
(٥) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ٧٨ .

على أن فريقاً من أهل فاس بعثوا إلى يحي بن القاسم بن إدريس ، ويعرف بالعوّام (١)، يطلبون منه الحضور إلى بلدهم ، فوصل إليهم ، فبايعوه على الطاعة . ثم تفرغ لحرب عبد الرزاق الصفرى وأرغمه على الخروج من عُدوة الأندلس ، فدخلها يحي وبايعه أهلها وجميع من نزل بها من أهل الأندلس الربضيين (٢)، وصرف وقته فى قتال الخوارج الصُّفرية ، ودارت بينه وبينهم وقائع كثيرة ، وظل يحي أميراً على فاس وما يليها من بلاد المغرب الأقصى إلى أن قتله الربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ.

وقد ذكر السلاوى (٣) ، أنه وقعت ببلاد المغرب الأقصى منذ وفاة يحي الأول سنة ٢٣٤ هـ إلى وفاة يحي الثالث بن القاسم بن إدريس الثانى سنة ٢٩٢ هـ حوادث جسام ، بسبب انتشار الفوضى فى هذه الفترة التى دارت فيها رحى الحروب الأهلية بين أبناء إدريس والخوارج الصفرية ، مما أثر تأثيراً سيئاً فى حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية . فقد انتشر القحط وعدمت الأقوات وغلت الأسعار ، وفشا الموت لدرجة لم يعهد أهالى هذه البلاد لها مثيلا من قبل . ففى سنة ٢٥٣ هـ انتشر القحط ببلاد العدوة ، وقاسى الأهلون الشدائد والأهوال مدة سبع سنين عجاف . وفى سنة ٢٦٧ هـ حدثت « زلزلة عظيمة لم يسمع بمثلها ، تهدمت منها القصور ، وانحطت منها الصخور من الجبال ، وفر الناس من المدن إلى البرية من شدة اضطراب الأرض ، وتساقطت السقوف والحيطان ، وفرت الطيور عن أوكارها ، وماجت فى السماء زماناً ، حتى سكنت الزلزلة ؛ وعمت هذه الرجفة جميع بلاد الأندلس ، سهلها وجبالها ، وجميع بلاد العدوة من تلمسان إلى طنجة ، ومن البحر الرومى إلى أقصى المغرب » .

وفى سنة ٢٧٦ هـ انتشرت الفتن ببلاد المغرب الأقصى وإفريقية ، وهدد القحط بلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضا ، ثم هلك من الوباء خلق كثير . وصفوة القول أن هذه الفترة قد سادها الاضطراب والفوضى ، وانقسم الأدارسة على أنفسهم ، حتى إن ابن خلدون الذى يعتبر شيخ مؤرخى المغرب ، لم يستطع أن يحدد بالضبط مبدأ ونهاية حكم أمراء الأدارسة فى هذه الفترة الغامضة المليئة بالفوضى والاضطراب .

يحيي الرابع بن إدريس بن عمر (٢٩٢ — ٣١٠ هـ)

لما قتل يحي بن القاسم ، ولى يحي بن إدريس بن عمر بن إدريس ، فبايعه أهل فاس ، وخطب له على منابرها ، وامتد ملكه على جميع بلاد المغرب الأقصى . وكان يحي « واسطة عقد البيت الإدريسى أعلاهم قدراً وأبعدهم ذكرا ، وأكثرهم عدلا ، وأغزرهم فضلا ، وأوسعهم ملكا . وكان فقيهاً ، حافظاً للحديث ، ذا فصاحة وبيان ، بطلا شجاعاً ، حازماً ، ذا صلاح ودين وورع » (٤) . ولم يبلغ أحد من الأدارسة ما بلغه يحي الرابع الإدريسى فى سعة الملك وبسطة السلطان ، حتى ظهر الفاطميون فى إفريقية

---

(١) ويسمى أيضا الجوطى ، نسبة الى جوطة وهى قرية على نهر سبو ببلاد المغرب ، وقد نزلها يحي فنسب إليها . السلاوى ج ١ ص ٧٨ .

(٢) نسبة الى ربض مدينة قرطبة .

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧٨ — ٧٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٩ .

فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ثم مدوا نفوذهم نحو بلاد المغرب الأقصى فى عهد عبيد الله المهدى وخلفائه من بعده . وفى ذلك يقول ابن خلدون (١) : « لم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه فى الدولة والسلطان ، إلا أن طما على ملكه غلباب العبيديين القائمين بإفريقية فأغرقه » .

استقر ملك يحيى الرابع نحو خمس عشرة سنة ؛ فقد غزا بلاده مصالة بن حبوس قائد عبيد الله المهدى الفاطمى ، وكان صاحب تاهرت والمغرب الأوسط ، سنة ٣٠٥ هـ ، وفتح تاهرت (٢) ، ثم التقى بيحيى بن إدريس بالقرب من مكناسة ، فحلت الهزيمة بيحيى ، وعاد إلى فاس ، فتبعه مصالة وحاصر هذه المدينة ، واضطر يحيى إلى طلب الصلح ، على أن يؤدى إليه بعض الأموال ، ويبايع للمهدى الفاطمى . وولى مصالة يحيى بن إدريس فاس ، كما ولى موسى بن أبى العافية ، ابن عم يحيى ، وكان قد أعانه فى غزوته لبلاد الأدارسة ، على سائر بلاد المغرب الأقصى . وبذلك امتد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الأدارسة . ولما عاد مصالة إلى فاس فى سنة ٣٠٩ هـ ، أوغر موسى بن أبى العافية صدره على يحيى بن إدريس فقبض عليه ، واستصفى أمواله ، ثم نفاه ، فأقام عند بنى عمه ببلاد الريف ، فتصدى له موسى بن أبى العافية وحبسه ، ثم أطلقه بعد عشرين سنة ، فقصد إفريقية ومات فى مدينة المهدية سنة ٣٣٢ هـ (٣).

الحسن بن محمد (٣١٠ — ٣١٢ هـ)

لما قبض مصالة على يحيى بن إدريس ، ولى ريحان الكتامى على فاس . ولكن ولايته لم تطل ، حيث ثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام فى سنة ٣١٠ هـ ، واستولى على فاس وقتل ريحان ، فبايعه الناس ودخلوا فى طاعته ، ثم مد نفوذه إلى ماجاوره من البلاد ، وتفرغ لقتال موسى بن أبى العافية ، ودارت بينهما عدة معارك قتل فى إحداها ولد موسى . ومات الحسن فى سنة ٣١٢ هـ ، واستولى موسى على ملك الأدارسة ببلاد المغرب (٤) ، فشايع الفاطميين بإفريقية . ولكن دولة الأدارسة ، التى كادت تزول على يد موسى بن أبى العافية من ناحية ، وعلى أيدى الفاطميين من ناحية أخرى ، تحولت إلى بلاد الريف ، « وانتظم الأمر لموسى بن أبى العافيه فى المغربين الأقصى والأوسط » (٥) .

ولم يلبث موسى بن أبى العافية أن خلع طاعة الفاطميين ، ودخل فى طاعة عبد الرحمن الناصر الأموى فى الأندلس (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) ؛ وكان قد طمع فى امتلاك المغرب الأقصى ، واستولى على سبته ، وأرغم موسى على إقامة الخطبة له على منابر بلاده . ولما علم عبيد الله المهدى بذلك أرسل جيشاً

---

(١) العبر وديوان المبتدا والخبر جـ ٤ ص ١٦ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ١ ص ١٧٧ — ١٧٨ .
(٣) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ٧٩ — ٨٠ .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب . جـ ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .
(٥) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ٨١ .

من عشرة آلاف مقاتل بقيادة حميد بن يصليت صاحب تاهرت وابن أخى مصالة بن حبوس. وانتهت هذه الحرب بفرار موسى من مدينة فاس ، فولى عليها حميد أحد قواده ؛ ولكن هذا القائد لم يلبث أن قتل بعد وفاة عبيد الله المهدى سنة ٣٢٢ هـ بيد أحد الثوار الذى بعث برأسه وبابنه إلى موسى بن أبى العافية ، فبعث به إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة ، وخطب للأمويين فى بلاد المغرب من جديد (١).

على أن الخليفة الفاطمى القائم أرسل قائده ميسورا الخصى إلى المغرب الأقصى فى سنة ٣٢٣ هـ، فحاصر فاس واستولى عليها من يد أحمد بن بكر ، وبعث به إلى المهدية ، وخطب للقائم الفاطمى على منابرها ، وضرب السكة باسمه ، وولاها الحسن بن القاسم اللواتى الذى استمرت ولايته عليها حتى أطلق أحمد بن بكر من حبسه فى المهدية سنة ٣٣٥ هـ ، فسار إلى فاس وأقام بها متنكراً حتى تمكن من خلع الحسن بن القاسم وتولى إمرة فاس (٢). واعتصم موسى بن أبى العافية بحصن أليكاى ، واستفحل خطره ، وبدأ ينشر الدعوة للأمويين فى شمال إفريقية ، ثم خلفه ابنه إبراهيم بعد وفاته . ولما توفى إبراهيم سنة ٣٥٠ هـ خلفه ابنه عبد الرحمن بن إبراهيم ، ثم خلفه ابنه محمد الذى انقرضت فى أيامه دولة آل أبى العافية فى بلاد المغرب الأقصى سنة ٣٦٣ هـ ، بعد أن حكمت مائة وأربعين سنة (٣٠٥ — ٤٤٥ هـ) ، ثم استمر نفوذهم فى أطراف المغرب حتى قضى عليهم يوسف بن تاشفين .

هذا ، وقد تحولت دولة الأدارسة إلى بلاد الريف كما تقدم ، ولم تتمتع هناك بالاستقلال الذى تمتعت به فى فاس ، حتى طردهم موسى بن أبى العافية ، واستأثر بالنفوذ فى المغربين الأقصى والأوسط . وإنما كان الأدارسة ببلاد الريف « تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب ، إما من الشيعة أصحاب إفريقية ، وإما من المروانيين أصحاب الأندلس » .

ولما طارد ميسور الخصى ، موسى بن أبى العافية إلى الصحراء ، انتقلت السلطة فى بلاد المغرب إلى القاسم وإبراهيم أخوى الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس آخر أمراء الأدارسة بفاس ، وبايع أهالى هذه البلاد القاسم بن الحسن ، الذى ملك أكثر بلاد المغرب عدا فاس ، واتخذ قلعة حجر النسر مقراً لإمارته ، وأخذ فى نشر الدعوة الشيعية حتى توفى سنة ٣٣٧ هـ ، فخلفه ابنه أبو العيش أحمد بن القاسم ، « وكان — كما يصفه السلاوى (٤) — فقيهاً ، ورعاً ، حافظاً للسير ، عارفاً بأخبار الملوك وأيام الناس ، وأنساب قبائل العرب والبربر ، شجاعاً ، جواداً ؛ وكان يعرف فى بنى إدريس بأحمد الفاضل » .

ولكن أبا العيش لم يلبث أن دعا إلى الأمويين بالأندلس ، وقطع دعوة الفاطميين ، وانتشر نفوذه فى كافة بلاد المغرب الأقصى إلى سجلماسة . ثم طمع عبد الرحمن الثالث الأموى فى امتلاك طنجه من أبى العيش وضمها إلى سبتة ، وكان قد استولى عليها من قبل ؛ فأبى أبو العيش ؛ ولكنه اضطر إلى

---

(١) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ٨٢ .
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر جـ ٦ ص ١٣٥ — ١٣٦ .
(٣) السلاوى : جـ ١ ص ٨٤ . (٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٨٥

الإذعان بعد أن أرسل إليه الخليفة الأموى جيشا وأسطولا حاصراه وضيقا عليه ؛ وزاد نفوذ الأمويين ببلاد المغرب الأقصى حتى مات أبو العيش سنة ٣٤٨ (١).

وقد خلف أبا العيش أخوه الحسن الملقب بكنُّون ، وهو القاسم بن محمد بن القاسم إدريس ، وكان أخوه قد استخلفه على بلاد المغرب عندما سار مع عبد الرحمن الناصر لجهاد الفرنجة فى بلاد الأندلس . وكان القاسم آخر أمراء الأدارسة فى المغرب الأقصى التى زالت فى عهده على أيدى الفاطميين .

زوال دولة الأدارسة

ذلك أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بعث فى سنة ٣٤٧ هـ قائده أبا الحسن جوهر بن عبد الله لفتح ما بقى من بلاد المغرب ، على رأس جيش كثيف يبلغ عشرين ألفاً ، ويضم كثيرين من قواد المغاربة ، من بينهم زيرى بن مناد الصنهاجى . وقد سار جوهر إلى تاهرت . حيث نازل واليها يعلى ابن محمد صاحب طنجة وخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى على بلاد العدوة التى كانت تعرف بعدوة الأندلس . ولم يلبث أن قتله أحد قواد كتامة ، واحتز رأسه وأرسله إلى جوهر ، فبعث به إلى الخليفة المعز . وسقطت تاهرت فى يد جوهر (٢) فأستأنف مسيره إلى فاس ، فامتنعت عليه ، فسار إلى سجلماسة ، وكان قد قام بها رجل تلقب الشاكر بالله ، وخاطبه الناس أمير المؤمنين . فلما علم بدنو جوهر من المدينة هرب منها ، فطارده جوهر حتى قبض عليه وأسره . ثم عاد إلى فاس واستولى عليها ، ويمم شطر المحيط الأطلسى يفتح مدنه مدينة تلو مدينة . ويقول السلاوى (٣) : « انصرف جوهر راجعاً بعد أن دوخ البلاد ، وأثخن فيها ، وقتل حماتها ، وقطع دعوة المروانيين منها ، وردها الى العبيديين ، فخطب لهم على جميع منابر المغرب . وانتهى القائد جوهر إلى المهدية دار المعز لدين الله ، وقد حمل معه أحمد بن أبى بكر اليفرنى أمير فاس ، وخمسة عشر رجلا من أشياخها ، وحمل أيضاً محمد ابن أبى الفتح أمير سجلماسة ، ودخل بهم أسارى بين يديه فى أقفاص من خشب على ظهور الجمال ، وجعل على رؤوسهم قلانس من لبد مستطيلة منبتة بالقرون ، فطيف بهم فى بلاد إفريقية وأسواق القيروان ، ثم رُدوا إلى المهدية ، وحبسوا بها حتى ماتوا فى سجنها » .

على أن عودة جوهر إلى المهدية لم يترتب عليها زوال نفوذ الأدارسة ببلاد المغرب الأقصى ، فقد انتقض الحسن كنون بن محمد بن القاسم الإدريسى ، وخلع طاعة الفاطميين ، وبايع لعبد الرحمن الناصر الأموى ، ثم لابنه الحكم المستنصر من بعده . وقد عزا السلاوى هذا التحول إلى خوف كنون من الأمويين فى الأندلس لقرب بلاده منهم . فبعث الخليفة الفاطمى المعز بلكين بن زيرى بن مناد ، الذى استطاع أن يعيد الخطبة للفاطميين فى بقايا دولة الأدارسة ، ويبطل الدعوة للأمويين منها . على أن

---

(١) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ١ ص ٨٥ — ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٨٦ . (٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٨٦ — ٨٧ .

هؤلاء لم يفتروا عن محاولة بسط نفوذهم على بلاد المغرب الأقصى ، وأرسل الحكم الثانى قائده غالبا ، فانتصر على الحسن كنون وأسره ، وساقه إلى بلاد الأندلس ، حيث عفا عنه الحكم ، ثم لم يلبث أن تغير عليه ، وأخرجه هو وعشيرته من قرطبة ، فرحلوا إلى تونس ، وساروا منها إلى مصر ، فرحب بهم الخليفة العزيز بالله الفاطمى ، الذى أمد الحسن بجيش سار به إلى إفريقية حيث لقى بلكين بن زيرى الصنهاجى ، فأمده بثلاثة آلاف فارس وسار إلى بلاد المغرب الأقصى . فلما علم بذلك المنصور بن أبى عامر حاجب هشام الثانى المؤيد (٣٦٦ — ٣٩٩ هـ) ، أرسل إليه جيشا كثيفا أحل به الهزيمة ، وقتله (جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ) . وبذلك انقرضت دولة الأدارسة ، وتفرقوا فى قبائل المغرب ، ولاذوا بالاختفاء [١] إلى أن ظهر علىّ والقاسم ابنا حمّود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن إدريس ، ببلاد الأندلس حيث ورثا خلافة الأمويين بهذه البلاد كما سيأتى [٢] . وقد امتد حكم الأدارسة ببلاد المغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران ؛ وكانت حاضرة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة ببلاد المغرب الأقصى ، وزال ملكهم بعد أن حكموا قرنين وثلاث سنين (١٧٢ — ٣٧٥ هـ) ، [٣] لم تتمتع فيها البلاد بشىء من الأمن والاستقرار ، يمكّن القائمين بالحكم من توجيه جهودهم إلى نشر العلوم والفنون والأخذ بأسباب الحضارة .

---

(١) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ٨٨ — ٨٩ .

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٠٠ — ١٠٢ ، Lane-Poole: Muhammadan Dynasties, pp. 21—23

(٣) تأسست ببلاد المغرب فى هذا العصر دول عدة ، نذكر منها الدولة الحمادية ببلاد الجزائر (٣٩٨ — ٥٤٧) ، ودولة المرابطين بمراكش وبعض بلاد الجزائر وبلاد الاندلس (٤٤٨ — ٥٤١ هـ) ، ودولة الموحدين فى كل شمال إفريقيه (٥٢٤ — ٦٦٧ هـ) ، والدولة الحفصية فى تونس (٦٢٥ — ٩٤١ هـ) ، والدولة الزيانيه فى بلاد الجزائر (٦٣٣ — ٧٩٦ هـ) ، والدوله المرينية بمراكش (٥٩١ — ٨٧٥ هـ) ، والدوله الشريفية بمراكش (٩٥١ — ١٣١١ هـ) . وسنرجىء الكلام عليها إلى الاجزاء الباقية من هذا الكتاب إن شاء الله .

أنظر Stanley Lane-Poole:Muhammadan Dynasties,pp. 23—61 .

الأمويون فى قرطـــبة [1]

(١٣٨ – ٤٢٢ هـ = ٧٥٦ – ١٠٣١ م)

	هجرية	ميلادية
١) عبد الرحمن الاول	١٣٨	٧٥٦
٢) هشام الاول	١٧٢	٧٨٨
٣) الحكم الاول	١٨٠	٧٩٦
٤) عبد الرحمن الثانى	٢٠٦	٨٢٢
٥) محمد الاول	٢٣٨	٨٥٢
٦) المنذر	٢٧٣	٨٨٦
٧) عبد الله	٢٧٥	٨٨٨
٨) عبد الرحمن الثالث (الخليفة الناصر)	٣٠٠	٩١٢
٩) الحكم الثانى المستنصر	٣٥٠	٩٦١
١٠) هشام الثانى المؤيد	٣٦٦	٩٧٦
١١) محمد الثانى المؤيد	٣٩٩	١٠٠٩
١٢) سليمان المستعين	٤٠٠	١٠٠٩

	هجرية	ميلادية
١٣) محمد الثانى (للمرة الثانية)	٤٠٠	١٠١٠
١٤) هشام الثانى (للمرة الثانية)	٤٠٠	١٠١٠
١٥) سليمان (للمرة الثانية)	٤٠٣	١٠١٣
١٦) على بن حمود [2]	٤٠٧	١٠١٦
١٧) عبد الرحمن الرابع المرتضى	٤٠٨	١٠١٨
١٨) القاسم بن حمود	٤٠٨	١٠١٨
١٩) يحيى بن على	٤١٢	١٠٢١
٢٠) القاسم (للمرة الثانية)	٤١٣	١٠٢٢
٢١) عبد الرحمن الخامس المستظهر	٤١٤	١٠٢٣
٢٢) محمد الثالث المستكفى	٤١٤	١٠٢٤
٢٣) يحيى (للمرة الثانية)	٤١٦	١٠٢٥
٢٤) هشام الثالث المعتد	٤١٨	١٠٢٧
	٤٢٢	١٠٣١

[دول صغيرة]

جدول يمثل نسب الامويين فى قرطبة

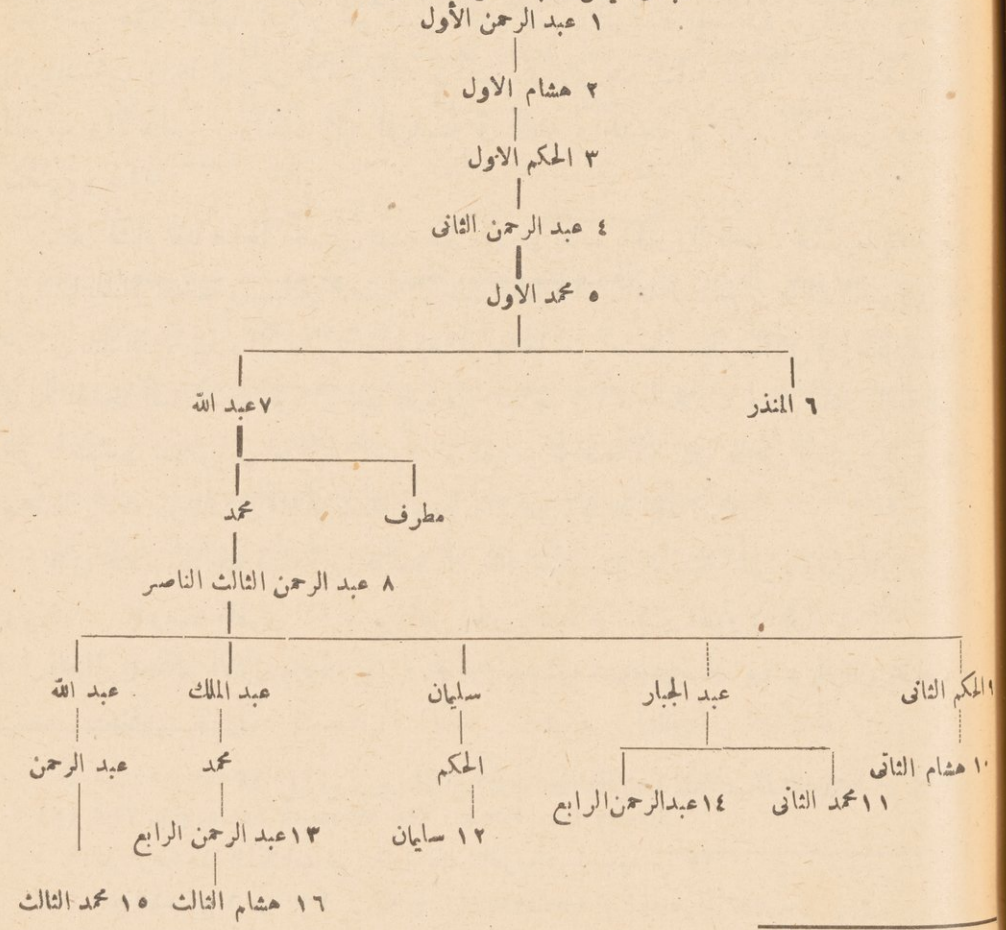

(١) راجع كتاب Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties,pp. 21—22,23 .

(٢) من أسرة الحموديين (فى سبتة) راجع المصدر نفسه ص ٢٣ .

الأندلس

من عبد الرحمن الأول إلى عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ)

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن عبد الرحمن بن معاوية بن بن هشام بن عبد الملك، أفلت من أيدى العباسين وهرب إلى بلاد الأندلس حيث أسس الدولة الأموية فى سنة ١٣٨ هـ، وذلك فى عهد أبى جعفر المنصور، واستقر بمدينة قُرطبة وبنى القصر والمسجد الجامع، وقطع الدعوة للعباسيين من منابر الأندلس[١]، ثم تفرغ لإصلاح البلاد، فدون الدواوين وجند الجيوش، ودانت له بلاد الأندلس، وحكم ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر (١٣٨ — ١٧٢ هـ).

ثم خلفه ابنه هشام الأول (١٧٢ — ١٨٠هـ)، وكان أبوه قد عهد إليه بالإمارة من بعده، وولاه ماردة وأعده للحكم. وقد شبّهه المقّرى[٢] بعمر بن عبد العزيز فى عدله واهتمامه بشئون المسلمين، حتى إنه قرب إليه الفقهاء الذين تمتعوا فى عهده بنفوذ عظيم، وأصبحت لهم مكانة كبيرة فى الدولة. ومن أشهر هؤلاء الفقهاء يحيى بن يحيى الليثى، الذى ينتسب إلى قبيلة المصامدة من البربر. وقد رحل إلى المشرق، وأخذ العلم عن الإمام مالك بن أنس، وروى عنه كتابه الموطأ، وبروايته انتشر فى المغرب والأندلس، وانتهت إليه الرياسة فى الفقه والحديث فى بلاد الأندلس، ومات فى سنة ٢٢٤ هـ[٣].

وكان هشام تقيا صالحا، صرف عهده فيما يعود على بلاده بالخير والرفاهية، فجمّل مدينة قرطبة، وزيّنها بالمبانى الفخمة والبساتين النضرة؛ وجدد القنطرة التى بناها السَّمح بن مالك الخَولانى عامل عمر بن عبد العزيز ببلاد الأندلس، وأحكم هشام بناءها حتى أصبحت مضرب المثل فى إحكام البناء[٤]، كما أتم المسجد الذى أسسه أبوه، وشيد غيره من المساجد فى أنحاء البلاد. وعنى بنشر اللغة العربية حتى أصبحت تدرس فى مدارس اليهود وبلغ من تواضعه أنه كان يطوف فى شوارع قرطبة، ويختلط برعيته، وينظر فى المظالم بنفسه، ويعود المرضى ويشهد الجنائز[٥].

توفى هشام بقرطبة سنة ١٨٠ هـ بعد أن حكم سبع سنين وتسعة أشهر (وقيل ثمانى سنين). « وكان — كما وصفه المقرى[٦] — من أهل الخير والصلاح، كثير الغزو والجهاد ».

ثم ولى الحكمُ الأول (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) بعد أبيه هشام فى سنة ١٨٠ هـ. وكان يختلف عن

---

(١) ص ١٨٠ — ١٨٣ (٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٠

(٣) Stanley Lane-Poole : The Moors in Spain, p.p. 73-4

انظر ترجمة هذا الكتاب لعلى الجارم بك : العرب فى أسبانيا ص ٦٧

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٠

(٥) Dozy : Histoire des Musulmane d'Espagne, trans. by Stokes (London, 1913), p.242

(٦) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٠

أبيه اختلافا كبيراً . فقد كانت سياسته ترمى إلى إقصاء الفقهاء عن التدخل فى شئون الدولة ، وقصر عملهم على إقامة الشعائر الدينية ، والفصل فى القضايا . فثارت ثائرتهم ، وأخذوا يسبونه ، وحرضوا العامة على العصيان . وزاد فى حنقهم اتخاذ الحكم المماليك المرتزقة حرساً له ، فعاثوا فى الطرقات (١)، وثار المولدون الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام فى قرطبة وطليطلة . وقاد ثورة قرطبة الفقهاء ، وعلى رأسهم يحيى بن يحيى الليثى ، وطالوت الفقيه ، فخلعوه وبايعوا أحد أفراد أسرته . « إلا أن الحكم قاتلهم فغلبهم ، وافترقوا ، وهدم دورهم ومساجدهم . ولحقوا بفاس من أرض العُدْوة ، وبالإسكندرية من أرض المشرق ، ونزل بها جمع منهم ، ثم ثاروا بها ، فزحف إليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون بن الرشيد ، وغلبهم ، وأجازهم إلى جزيرة إقريطش ، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الفرنج من أيديهم بعد مدة » (٢) .

ويقص علينا المقرى هذه القصة الطريفة التى أدت إلى موقعة وادى الحجارة ، فيقول إن العباس الشاعر نزل بوادى الحجارة ، فسمع امرأة تقول : واغوثاه بك ياحكم ! لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا فايمنا وأيتمنيا ، فسألها عن ظلامتها فقالت : كنتُ مقبلة من البادية فى رفقة ، فخرجت علينا خيل عدو ، فقتلت وأسرت ، فنظم العباس قصيدته التى قال فى أولها :

تململت فى وادى الحجارة مُسْنِداً أُراعى نجوماً ما يرون تغيّرا
إليك أبا العاصى نَضَيْت مطيتى تسير بهم ســـــاريا ومهجرا
تدارك نساءَ العـــــالمين بنصرة فإنك أحرى أن تُغيث وتنصرا

فلما دخل العباس على الحكم أنشده هذه القصيدة ، ووصف ما ساد هذه الأرجاء من خوف وهلع ، واستنجاد هذه المرأة به ، فنادى بالجهاد ، وخرج بعد ثلاثة أيام إلى وادى الحجارة ، ومعه العباس الشاعر ، وسأل عن مكان العدو ، وغزاه وفتح حصونه ، وخرب بلاده ، وقتل كثيراً من أهله ، ثم عاد إلى وادى الحجارة وأمر بإحضار الأسرى فقطعت رءوسهم ، ثم بعث فى طلب المرأة التى استغاثت به ، وقال للعباس الشاعر : سلها هل أغاثها الحكم ، فقالت المرأة : والله لقد شفى الصدور وأنكى العدو ، وأغاث الملهوف ، فأغاثه الله ، وأعز نصره ، فارتاح إلى قولها ، وظهر على وجهه البشر والسرور ، وقال :

ألم تر يا عَبـاس أنى أجبتُها على البعد أقتاد الخميس المظفرا ؟
فأدركتُ أوطاراً وبردت غلّة ونفّست مكروبا وأغنيت معسرا

فقال العباس : نعم ! جزاك الله خيراً عن المسلمين ، وقبّل يده (٣) .

---

(١) Dozy: The Moslems in Spain, P. 250 — 1

(٢) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٠

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٢

وقد خرج على الحكم عماه ، واستوليا على طليطلة وبلنسية ، واستعان أحدهما بشرلمان ، فحاربهم الحكم ، واسترد البلاد التى استولوا عليها . واتخذ الأمراء المسيحيون فى الشمال من هذه الحروب الأهلية التى وقعت بين المسلمين فى بلاد الأندلس فرصة للإغارة على ولاية أرغونة . ولكن الحكم حاربهم وردهم على أعقابهم ، كما ثار والى برشلونة أكبر معاقل المسلمين فى هذه البلاد ، واستعان بشرلمان ، فأرسل الحكم جيشاً استردها .

ويقول ابن خلدون (١) إن الحكم « أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة ، وجمع الأسلحة والعدد ، واستكثر من الحشم والحواشى ، وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ المماليك ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وبلغت عدتهم خمسة آلاف . وكان يباشر الأمور بنفسه ؛ وكان له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين . وهو الذى وطأ الملك لعقبه بالأندلس » .

عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ)

مات الحكم فى سنة ٢٠٦ هـ بعد أن حكم سبعا وعشرين سنة ، فخلفه ابنه عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) ، وولد بطليطلة فى شهر شعبان سنة ١٧٦ هـ . وقد عنى أبوه بتنشئته وتثقيفه ، فحذق علوم الشريعة والفلسفة . وسمى « الأوسط » ، لأن الأول هو عبد الرحمن الداخل ، والثالث عبد الرحمن الناصر . وقد امتاز عهده بالهدوء والسكينة ، وكثرت الأموال فى خزائنه ، واتخذ القصور والمتنزهات وجلب إليها المياه من الجبال ، وأقام الجسور ، ونظم شوارع قرطبة ، وزاد فى بناء جامعها ، كما أنشأ المساجد فى أكثر مدن الأندلس ، وجعل إلى جانب كل مسجد مدرسة ومستشفى ، وأصلح الطرق الرومانية القديمة ، كما شجع العلوم والآداب والفلسفة ، فظهر فى بلاد الأندلس فى أيامه نوابغ العلماء فى كل فن (٢) .

ولما استتب لعبد الرحمن الأوسط الأمر بالأندلس تفرغ لإصلاح البلاد ، فنمت ثروتها حتى نافست الدولة العباسية فى العظمة والنهضة العلمية . وكان عبد الرحمن من أكثر أمراء الأندلس أبهة فى بلاطه ؛ وقد امتازت حاشيته بكثير من الصفات العربية الكريمة . ويرجع الفضل فى ذلك الى زرياب ، وهو على بن نافع الذى قدم عليه من العراق سنة ٢٠٦ هـ . وكان مولى الخليفة المهدى العباسى . وقد أخذ فن الموسيقى والغناء عن أستاذه إبراهيم الموصلى ؛ ثم حدثت بينهما جفوة بسبب تفوقه على أستاذه فى الغناء فى حضرة هارون الرشيد ، فحنق عليه إسحاق وهدده . وقد رحب به عبد الرحمن الأوسط وبالغ فى إكرامه ، وأغدق عليه وقرر له راتبا ضخما ، وأدر عليه الأرزاق ، وأنزله داراً فخمة .

---

(١) العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٤ ص ١٢٧

(٢) Dozy : The Moslems in Spain, p. 260

وكان زرياب أسود اللون حلو الصوت حسن الذوق ، ولم يكن مغنيا فحسب ، بل كان أديبا ظريفا ؛ وكان فى زيه مثالا يحتذيه أهل بلاد الأندلس فى ملابس الفصول المختلفة . كما أدخل فى الطعام ألوانا جديدة(١) .

وقد منح عبد الرحمن ومن جاء قبله من الأمراء الأمويين أهل بلاد الأندلس الحرية لإقامة شعائرهم الدينية . وكثيراً ما حارب المسيحيون مع المسلمين جنبا الى جنب ، كما كانوا يعينون فى أرقى المناصب الحربية والسياسية . ومن ثم اعتنق كثير منهم الإسلام . وعلى الرغم من هذا التسامح الدينى الذى تمتع به أهل بلاد الأندلس ، أثار بعض القسس الفتنة فى أواخر عهد عبد الرحمن ، فحرضوا المسيحيين على سب النبى صلى الله عليه وسلم . ولما كان سب الدين جريمة يعاقب مرتكبها بالقتل ، أمر عبدالرحمن بقتل كثير من القسس وغيرهم . ومن هؤلاء يولوجيوس Eulogius الذى أثار روح التضحية بين النصارى ، وساعده شاب غنى من أهل قرطبة يدعى ألفارو Alvaro ، وقسيس آخر يدعى برفكتوس Perfectus وغيره من متحمسى القسيسين والرهبان والنساء مثل فلورا Flora ، وكان أبوها مسلما وأمها نصرانية (٢) .

يقول ستانلى لينپول : « إن المسيحية لا تعلم دعاتها أن يطوّحوا بحياتهم هدَراً لمحض التمتع بالتعذيب والقتل . على أنّ نصارى الأندلس لم يُضطهدوا ، ولم يحل بينهم وبين شعائر دينهم حائل ، ولم يكن المسلمون يجهلون المسيحية أو يحتاجون إلى من يلقنهم تعاليمها ، فقد كانوا يعرفون من الكتاب المقدس أكثر مما يعرف نصارى الأندلس أنفسهم ، وكانوا لا يذكرون اسم عيسى من غير أن يتبعوه بالصلاة والتسليم ، لأن قدسية المسيح وإحاطة اسمه بالإجلال والتبجيل من أظهر مبادىء الإسلام »(٣).

ولما خشى رجال الكنيسة أن تنقلب هذه الحركة إلى اضطهاد حقيقى ، عقدوا مؤتمرا أصدر قرارا يحرم المجاهرة بسبب النبى أو القرآن ، فهدأت الأحوال .

وكان المسيحيون يتكلمون العربية ويصنفون بها الكتب ، وينظمون بها الشعر ، كما تخلقوا بأخلاق العرب وعاداتهم . وقد ندد يولوجيوس نفسه بهذه الحال ، فقال إن النصارى نسوا لغتهم ، حتى إنه لم يوجد واحد فى كل ألف يكتب كلمة لاتينية صحيحة .

وفى عهد عبد الرحمن الأوسط أغار الفونس أمير ليون (أو استوريش فى شمال غربى الأندلس)، كما أغار غيره من مسيحيى الشمال على البلاد الإسلامية الشمالية ، فأرسل عبد الرحمن إليهم جيوشا

---

(١) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ ١ ص ١٦٣

(٢) راجع هذه الحوادث فى Dozy ، Stanley Lane — Poole : The Moors in Spain, pp. 83 — 9
The Moslems in Spain pp. 278 — 281

(٣) لينپول ص ٨٥ ، ترجمة على الجارم بك ص ٧٧

خربت بلادهم وأرغمتهم على دفع الجزية . وقد بلغ من قوة المسلمين فى الأندلس فى عهد عبد الرحمن أن وفدت عليه فى سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٦ م) رسل إمبراطور القسطنطينية بالهدايا وطلبوا إليه عقد معاهدة ، ورغبوه فى ملك آبائه بالمشرق . وكانت الدولة العباسية فى حِلف مع شرلمان ثم مع إبنه لويس التقى . ومما يدل على حسن سياسة عبد الرحمن تحالفه مع مقاطعة نافار Navarre الواقعة شمالى البرانس لتكون حاجزا بين بلاده وبلاد الفرنجة .

وكان عبد الرحمن الأوسط — كما وصفه لينبول[1] — « نقى الذوق ، لين الخلق ، سهل القياد ، ملك زمامه طول حياته أربعةٌ نالوا عنده الحُظوة الكاملة وهم : مغنٍّ ، وفقيه ، وامرأة ، وعبد أسود. وكان أشد هؤلاء تسلطا عليه الفقيه يحيى بن يحيى الليثى[2] ، وهو هو نفسه الذى أثار الفقهاء على أبيه الحكم ، ولكنه أصبح اليوم صاحب التأثير المطلق والكلمة التى لا ترد لدى الأمير الجديد . وكانت للأميرة « طَروب » ، وعبده « نصر » سلطة نافذة فى شئون الملك . أما « زرياب » المغنّى فانه استغلّ حُظوته عند عبد الرحمن فى إنهاض الفنون والثقافة ، وأبى أن يزجّ بنفسه فى أمور الدولة التى قد تكون سيئة المغَبّة » .

عبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) :

لما مات عبد الرحمن الثانى سنة ٢٣٨ هـ خلفه ثلاثة من أمراء البيت الأموى هم : محمد الأول ، والمنذر وعبد الله . وعلى الرغم من أن هؤلاء قد حكموا هذه البلاد اثنتين وسبعين سنة ، لم يكن لهم أثر يذكر فى تاريخ الأندلس ، بل قاست هذه البلاد كثيراً فى خلال هذا العصر الملىء بالآلام ، وما كان من خروج عمال الأقاليم على الأمراء ، وثورات مسيحيى الشمال ، وانتشار روح العصيان فى ربوع هذه البلاد ، الى أن اعتلى عرشها عبد الرحمن الثالث الناصر فى سنة ٣٠٠ هـ .

خلف محمد الأول (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) أباه عبد الرحمن الثانى . ولا يذكر عنه سوى إرسال هذه الحملات الموفقة فى مستهل إمارته (٢٣٨ هـ) فى شمال أسبانيا للقضاء على الثورات التى قامت فى برشلونة وطليطلة وغيرهما ، واستطاع بذلك أن يوطد الأمن فى هذه الأرجاء . وقد دون المقرى[3] حروب محمد الأول فى سنى ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ هـ ؛ وهى تتلخص فى إرسال حملات إلى بمبلونة وجليقية وماردة تكللت بالنصر ، وأخضعت أهالى هذه الجهات . ثم توفى هذا الأمير فى شهر صفر سنة ٢٧٣ هـ ، بعد أن قضى فى إمارته خمسا وثلاثين سنة . وولى بعده ابنه المنذر (٢٧٣ — ٢٧٥ هـ) ، ولكن إمارته لم تطل ، وأقام سنتين إلا نصف شهر ، ثم ولى أخوه عبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ). وكان عهده كعهد أخيه المنذر وأبيه محمد ، مليئا بهذه الثورات التى أعقبت ثورة المسيحية

---

(١) Stanley Lane — Poole : The Moors in Spain, pp. 80 — 1 ، ترجمة على الجارم بك ص ٧٢

(٢) Dozy: The Moslems in Spain, p. 260

(٣) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٥

التى اشتعلت بقرطبة ، وانتشر العصيان فى ولايات الأندلس . فلما تولى عبد الله ، الذى دبر مقتل أخيه المنذر ، كان أضعف من أن يقف على قدميه فى وجه الخطر الذى كان يهدد ملكه . واشتهر بالقسوة وسوء التدبير مما أثار كراهية الناس له فنبذوا طاعته ، حتى إنه لم يمض على توليته ثلاث سنين حتى استقل أكثر بلاد الأندلس ، واتخذ زعماء العرب والبربر والأسبان من ضعفه وسوء حكمه فرصة للخروج عليه والاستقلال بالولايات التى تحت أيديهم ، وانتشرت الفوضى فى البلاد ، واستولى العرب ، وكانوا أقلية فى البلاد ، على بعض الإمارات كإشبيلية التى أصبحت منافسا خطيراً لقرطبة ، كما استقل حاكما لورقة وسرقسطة استقلالا تاما ، ولم يعد عبد الله يعتمد إلا على الجنود المرتزقة فى إخضاع أهل قرطبة إخضاعا صوريا .

أما البربر فقد عادوا إلى النظام القبلى الذى يتفق مع تقاليدهم وطبائعهم ، فاستقلوا ببعض الولايات الغربية مثل استرامادور Stramadora ، وجنوب البرتغال ، واحتلوا مراكز عظيمة الشأن فى بلاد الأندلس كمدينة جَيَّان ، وتفاقم خطر أسرة ذى النون من البربر التى عاثت فى جميع نواحى الأندلس . كما استولى الأسبان الذين دخلوا الإسلام ، والذين كانوا يبغضون أمراءهم ، على ولاية الجرف Algarave فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة ، واستقلوا بكثير من الولايات . وقصارى القول أن هؤلاء جميعاً قد أجمعوا على كراهة عبد الله واستهانوا بسلطانه . وكان أكثر هؤلاء الزعماء قوة وأشدهم خطراً ابن حفصون ، وكان يدين بالإسلام ، ثم ارتد إلى المسيحية وسمى نفسه صمويل ، وأثار سكان الجبال فى مقاطعة إلفيرا Elvira بإمارة غرناطة ، وأقام فى معقله بيشتر Bobastro ، وهزم جيوش الأمير عبد الله غير مرة ، واضطر إلى مصالحته بعد أن ناوأ سلطان الأمير خمسا وعشرين سنة (١) . كما استقل حاكم مرسية Murcia ، الذى ولع بالشعر والأدب ، واستولى نصارى الشمال على طليطلة . وضعفت حكومة قرطبة ، وانتشر اللصوص وقطاع الطرق بالبلاد ، وتذمر الجند لتأخير أعطياتهم ، وضنت الولايات بإرسال حاصلاتها ، وخلت خزائن الدولة من المال ، وغلا ثمن الخبز غلاء فاحشاً ، وعد رجال الدين من المسلمين ذلك من سخط السماء ، وأخذوا ينشرون بين الناس تكهنات محزنة .

«هكذا كانت حال الأندلس ، وهذا ما آل إليه أمرها ؛ فقد أصبحت ممزقة الأشلاء منبتة الأواصر ، تبعثرت فيها المقاطعات المستقلة التى صارت أشبه بالضياع منها بالولايات التى تكون دولة قوية ، وصارت أعجز من أن تقف فى وجه فاتح قوى عزوم » . على أن بعض هذه الولايات كانت تزدهر من حين إلى حين بطائفة من حكامها الذين اشتهروا بالأدب ، كحاكم مرسية وقسطلونة Caslona ، وابن حجاج حاكم إشبيلية الذى ذاعت شهرته وراسله الملوك وبعثوا إليه بهداياهم ، وتوافد عليه العلماء والفقهاء من المدينة المنورة ، وازدان قصره بأشهر المغنين من بغداد . وكانت

---

(١) Dozy : The Moslems in Spain. pp. 261 — 6

جاريته «قمر» البغدادية شاعرة، رائعة الحسن بديعة الصوت فصيحة اللسان مرهفة الحس، وهى التى تقول فيه :

ما فى المغارب من كريم يُرتجى إلا حليفُ الجود إبراهيم
إنى حللت إليه منزل نعمةٍ كل المنازل ما عداه ذميم

وقد قصده الشعراء، وطمع شعراء قرطبة فى كرمه. وقد قيل إن أحد شعرائها هجا فى حضرته منافسيه من أشراف قرطبة، فقال له عبدالله : كذبتك نفسك ياهذا إن ظننت أن رجلا مثلى يَهَش لسماع هذا الهجاء الدنىء.

ولكن عبد الله لم يستطع أن يتغلب على هذه المصائب التى حلت بالبلاد، ومات فى سنة ٣٠٠ هـ وهو فى الثامنة والستين من عمره، بعد أن قضى فى الحكم أربعا وعشرين سنة. وقد أشرفت دولة الأمويين بالأندلس فى عهده على الزوال، لولا أن قيض الله لها عبد الرحمن الثالث الناصر (١).

عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ)

١ — عبد الرحمن منذ ولد الى أن ولى الامارة :

ولد عبد الرحمن فى يوم الخميس ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ (٨٩١ م)، وكان أبوه محمد ابن الأمير عبد الله بن محمد الأول، وأمه أم ولد سماها ابن الأثير(٢) مرته، وقال إن عبد الرحمن يوم قتل أبوه لم يزد عمره على واحد وعشرين يوما. وكان قتله بسبب وشاية أخيه مطرف الأصغر عند أبيهما عبد الله، طمعا فى اعتلاء العرش. وكان لقتل محمد أثر بالغ فى نفس أبيه عبد الله الذى أمر بإدخال حفيده عبد الرحمن بن محمد إلى قصره، وحاطه برعايته وقربه إليه، وآثره على أبنائه (٣). وقد شب عبد الرحمن فى بيت الإمارة، وأخذ بقسط وافر من الثقافة ومال إلى دراسة الفلسفة. وكان جده يخصه بعطفه دون أبنائه، حتى قيل إنه رمى إليه بخاتمه (٤)، فاتخذ الناس من ذلك دليلا على رضاه عنه وإيثاره على أبنائه بالإمارة من بعده، كما كان ينيبه عنه فى الأعياد والمواسم والحفلات وعرض الجند. ولما مات عبد الله فى ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) أجلس الأمراء والقواد عبد الرحمن على العرش وبايعوه ولقبوه الناصر. ولم يقم فى وجهه أحد من أعمامه واعمام أبيه (٥)، وأرسلت البيعة إلى سائر الولايات الأندلسية.

---

(١) Stanley Lane — Poole : The Moors in Spain, pp. 97 — 107، ترجمة على البارم ص ٩٢ — ٩٨
(٢) جـ ٨ ص ٢٦، Dozy : The Moslems in Spain, p. 38
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ٢ ص ١٦٢
(٤) ابن الخطيب : إعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام جـ ٣ ص ٣٢
(٥) Dozy : The Moslems in Spain p. 382

كان الناصر حين اعتلى عرش الأندلس شابا فى مقتبل العمر ، إذ لم يتجاوز الثانية والعشرين ، واستبشر بإمارته رجال القصر وأهالى قرطبة ، لما اتصف به من سمو الاخلاق وقوة الإدراك ، وقد أنشد ابن عبد ربه هذه الأبيات يوم تولية الناصر الإمارة :

بدا الهلال جديدا والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدى إن كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر فأنتَ للدهر عيد (١)

٢ — سياسة عبد الرحمن الداخلية :

كانت بلاد الاندلس عند اعتلاء عبد الرحمن العرش — كما يقول المقرى (٢) — « مضطربة بالمخالفين ، مضطرمة بثيران المتغلبين ، فأطفأ تلك النيران . واستنزل أهل العصيان ، واستقامت له الأندلس فى سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من أيامه » . وقد أعلن الأمير الجديد عن سياسته التى عول على نهجها ، ودعا الخارجين إلى الخضوع لسلطانه ، واتجهت إليه أنظار الشعب لتخليصه من عصابات اللصوص والمجرمين الذين أتلفوا الزرع وأقفروا الأرض ، فخضع أكثر الولايات وسلموا حين رأوا أميرهم الشاب يتقدم جيوشه فى شجاعة وثقة واعتزاز بالنفس ، وأعجبوا به لأنهم وجدوا فيه من الصفات ما لم يجدوه فى جده عبد الله ، وفتحت له مدن الأندلس أبوابها ، فسلمت له الولايات التى فى جنوب قرطبة وتبعتها إشبيلية ، وأرغم البربر فى الغرب على الطاعة ، وحذا حذوه أمير الجرف . وكان عبد الرحمن يخلع على كل من نزل من الثوار عن حصنه ويقربه ويدر عليه الأرزاق والهبات . وبذلك خضع له كثير من هؤلاء الثوار طائعين . ثم تفرغ لقتال من بقى من الثائرين . وكان أشدهم بأسا وأعظمهم خطرا عمر بن حفصون الذى لقى جده عبد الله فى سبيل محاربته كثيرا من العنت والإرهاق . وظل عبد الرحمن يقاتل ابن حفصون وأولاده فى معاقلهم الجبلية فى بيشتر إلى أن توفى سنة ٣٠٥ هـ (٣) وسلم إليه أولاده بعد حروب طويلة . ولم تأت سنة ٣٢٠ هـ حتى كانت بلاد الاندلس الإسلامية كلها خاضعة لعبد الرحمن . ولما وقف على مشارف هذا الحصن المنيع ورأى قمته الشاهقة الشديدة الانحدار المحيطة به ، سجد لله شكرا على ما أولاه من الفتح والنصر ، وظل طول مدة إقامته فى هذا الحصن صائما وعفا عن أعدائه .

وكانت طليطلة آخر حصون الثائرين التى سقطت فى يد عبد الرحمن ، حيث سلمت إليه فى سنة ٣٢٠ هـ ، وكان أسلافه قد اضطروا إلى منحها نوعا من الاستقلال الذاتى . وبذلك استرد عبد الرحمن

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٧
(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٦
(٣) Dozy : The Moslems in Spain, p. 392.

ما فقده أسلافه من بلاد الأندلس فى مدة لا تتجاوز عشرين سنة ، وغدا نفوذه قويا بين العرب والبربر والإسبان والمولدين .

أما سياسة الناصر الداخلية إزاء مسيحيي الأندلس ، فقد كانت راجعة إلى ما أظهره هؤلاء المسيحيون من الحماسة الدينية التى عبر عنها المؤرخون بالحرب المقدسة . وقد استعان عبد الرحمن فى حروبه التى شنها على مسيحيي الأندلس الشماليين وعلى الفاطميين ، بالصقالبة خاصة . وكان تجار الإغريق والبنادقة يجلبون له الأرقاء ويبيعونهم صغاراً ليهذبهم وينشئهم نشأة إسلامية . وكانت بلاد الأندلس فى عده مهددة بخطر الفاطميين فى بلاد المغرب جنوبا ، وخطر المسيحيين وخاصة أهالى أستوريش شمالا . وقد انتشر هؤلاء المسيحيون فى مقاطعة ليون ، وبنوا قلاع زمّورة وسان استبان St. Estevano . وأوسما Osma وسيمنقاس Simanacas . ولم ير العرب بدأ من استرداد أراضيهم ، ولكن المسيحيين هزموهم هزيمة منكرة ، وأغاروا على حدود بلادهم ، وشد أزرهم سانشو Sancho ملك نافار «Navarre» الذى أصبح زعيم المسيحية فى الشمال (١) . وقد أطنب ستانلى لينپول (٢) فى وصف مناقب المسلمين وحسن معاملتهم لأعدائهم ، وندد بأخلاق المسيحيين التى كانت مطبوعة بطابع الغلظة والخشونة والقسوة فقال : « وكانت أخلاقهم على اتساق مع أميتهم ، وما كان يتوقع من هؤلاء الجفاة المتوحشين إلا التعصب والقسوة ، فانهم لم يؤمنوا مستجيراً ، ولم يتركوا فارا ، ولم يبقوا على جريح . وهذا يذكرنا ، والحزن ملء صدورنا ، بما كان للعرب من بطولة ورفق وسماحة خلق ، فكثيراً ما عفوا عن أعدائهم نبلاء متكرمين ، بينما نرى اليوم أن رجال ليون وقشتالة العتاه ، يذبحون جميع رجال الحاميات ، ويستأصلون مدناً مليئة بالقطان ، حتى إذا نجا أحد من سيفهم لم ينج من استعبادهم » .

كذلك أغار أردون الثانى Ordon II. على بلاد الأندلس الإسلامية ، ووصلت جيوشه إلى ماردة Merida ، وقابل عبد الرحمن ذلك بارسال جيش أغز السير نحو الشمال ، وأغار على مملكة المسيحيين فى سنة ٣٠٤ هـ ، ثم أرسل فى السنة التالية حملة أخرى ، ولكن أردون أحل بها الهزيمة أمام أسوار سان استيبان ، وغنم كثيراً من الغنائم . وقد أثار هذا الانتصار الحماسة فى نفس ملكى ليون وناڤار ، فسارت جيوشهما صوب طليطلة ، وعاثت فى البلاد القريبة منها ، وانتصرت عليهم حينذاك جنود قرطبة فى موقعتين . وقد عوا [illegible] الرحمن على الاستعداد لحرب المسيحيين ، وقاد الجيوش بنفسه سنة ٣٠٨ هـ وهدم سان استيبان ، ثم سار صوب نافار ونازل سانشو Sancho واضطره إلى الفرار . وعلى الرغم من الهزائم المتكررة التى منيت بها جيوش المسيحيين ، أغار أردون ملك ليون على حدود المسلمين ، وزحف سانشو ، واحتل حصون المسلمين سنة ٣١١ هـ ، فسار عبد الرحمن نحو الشمال واستولى على كل ما صادفه من المدن ،

---

(١) Dozy : The Moslems in Spain p. 414 .

(٢) Stanley Lane — Poole : The Moors in Spain, p. 119 ، ترجمة على الجارم ص ١٠٨ .

ومزق جيش سانشو وهدم حاضرته بمبلونه . وقد أتاحت هزيمة سانشو ملك نافار ، وموت أردون ملك ليون ، ووقوع النزاع ، وقيام الحروب الأهلية بين أبنائه ، الفرصة لعبد الرحمن للتفرغ لإصلاح بلاده ، وأحس بقوته فى الداخل والخارج ، حتى إنه لقب نفسه بلقب خليفة (٣١٧ هـ) .

على أن عبد الرحمن لم يلبث أن وجد نفسه أمام خطر ردمير (راميرو الثانى) Ramiro II الذى خلف أردون فى حكم ليون ، واستطاع أن يتحد مع مسيحيى الشمال ، وأن يعقد الصلح مع محمد بن هاشم التجيبى أمير سرقسطة ، الذى خلع طاعة عبد الرحمن الناصر . وأسرع هذا إلى إخضاع سرقسطة ، ثم زحف على ناڤار ، وانتصر على المسيحيين فى عدة مواقع . ولكن راميرو تغلب أخيراً على المسيحيين وانتصر عليهم انتصاراً حاسما فى موقعة الخندق ، وقتل من المسلمين أكثر من خمسين ألفاً ، من جيشهم الذى قيل إنه بلغ مائة ألف ، ونجا عبد الرحمن بنفسه فى أقل من خمسين فارسا(١) . ولم ينس المسلمون فى الأندلس هذه الكارثة ، حتى إنهم أطلقوا على السنة التى حلت فيها بسنة الخندق(٢).

وقد أفاد عبد الرحمن مرة ثانية من وقوع النزاع بين مسيحيى الشمال ، بسبب قيام العداء بين فرناندو غونزاليز Fernando Gonzalez كونت قشتالة (وكانت تابعة لمملكة ليون) ، الذى تغنى ببطولته الشعراء ، وبين راميرو الثانى ملك ليون ، الذى قبض عليه وسجنه ، ثم أطلقه حين تبين له تمسك أهل قشتالة به . ولما مات راميرو فى سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) أخذ غونزاليز على عاتقه حماية سانشو من أخيه أردون الثالث ، ثم خلف سانشو أخاه فى سنة ٣٤٦ هـ ، فطرده غونزاليز من ليون ، ونصّب أخاه أردون الرابع ، وكان كسيحاً ، فالتجأ سانشو إلى جدته «طوطة» ملكة ناڤار واستنجدا بعبد الرحمن الناصر . وكان سانشو بديناً بدرجة غير عادية ، فعول على استشارة أطباء قرطبة البارزين ؛ ثم سافرت طوطة مع حفيدها سانشو ملك ناڤار وحفيدها ملك ليون المنفى ، واستقبلهم عبد الرحمن باحتفال رائع ، وعاد سانشو إلى بلاده بعد أن تخلص من سمنه ، وأرسل معه الخليفة جيشاً استرد به عرش ليون سنة ٣٤٩ هـ (٣) .

سياسة عبد الرحمن الخارجية :

كانت بلاد الأندلس فى عهد عبد الرحمن الناصر يحيط بها الأعداء من كل جانب : فكان الفرنجة فى الشمال يطمعون فى توسيع أملاكهم جنوبا ، ولا سيما بعد استيلائهم على برشلونة ، وكانت الإمارات المسيحية فى الأقاليم الجبلية الشمالية تهدد بلاده . أضف إلى ذلك منافسة العباسيين والفاطميين . وكان الأخيرون أشدهم خطراً على بلاد الأندلس فى عهد عبد الرحمن الناصر حيث خلع موسى بن أبى

---

(١) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ ١ ص ١٦٧

(٢) Stanley Lane—Poole : The Moors in Spain, pp. 122—3.

(٣) Ibid, pp. 123 — 8

العافية الذى استحوذ على المغربين الأقصى والأوسط طاعة عبيد الله المهدى الفاطمى ، ودخل فى طاعة عبد الرحمن الناصر الأموى ، الذى استولى على سبته وخطب له على منابر المغرب . ولكن هذه الخطبة لم تلبث أن قطعت بعد فرار موسى من مدينة فاس أمام الجيوش الفاطمية ، ثم أعيدت مرة أخرى فى عهد القائم الفاطمى (١) .

وقد عمل عبد الرحمن الثالث على تقوية دولته مادياً وأدبياً ، فبنى أسطولا من مائتى سفينة ، وتلقب بلقب خليفة . ومن ثم أصبح فى العالم الإسلامى ثلاث خلافات : الخلافة العباسية فى المشرق ، والخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب ، والخلافة الأموية فى بلاد الأندلس ، وساعده على ذلك ضعف الخلافة العباسية ، وازدهار دولته ، وارتفاع شأنها فى الداخل والخارج . ويقول المقرى (٢) عن عبد الرحمن : «وهو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين عندما التأث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة (٣) ، فتلقب بألقاب الخلافة» .

وفى عهد عبد الرحمن الناصر أصبحت قرطبة من أعظم مدن العالم من حيث عمائرها الفخمة ومساجدها العظيمة وجسورها الكبيرة التى أقيمت على الوادى الكبير . وقد وصفها المقرى (٤) فى هذه العبارة فقال : «حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة ، وهى كانت الغاية ، ومركز الراية ، وأم القرى ، وقرارة أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام ، وحضرة الإمام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح . ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر . وبها أنشئت التأليفات الرائقة ، وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب فى تبريز القوم حديثا وقويماً على من سواهم ، أن أفقهم القرطبى لم يشتمل قط إلا على البحث والطرب لأنواع العلم والأدب» .

وقد بلغ عدد مساجد قرطبة ستمائة مسجد ، على حين لم يتجاوز عدد سكانها نصف مليون وعدد أحيائها ثمانية وعشرين .

وتدل مدينة الزهراء ، إحدى ضواحى قرطبة ، والتى بدأ عبد الرحمن الناصر فى بنائها سنة ٣٢٠ هـ ، على رقى الذوق ومقدار ثروة البلاد فى ذلك العصر . فقد أنفق عبد الرحمن على بنائها سبعة ملايين دينار ، وبنى فيها قصرا فخما ، ومسجداً عظيما ، يحيط بهما الدواوين والبساتين التى غرس فيها أنواع الأشجار . وقد أطنب مؤرخو العرب والفرنجة فى مدح عبد الرحمن الناصر ، فقال المقرى (٥) : «كان

---

(١) انظر ص ٢٨٥ من هذا الكتاب

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٦

(٣) هذا خطأ لأن المقتدر امتدت خلافته إلى سنة ٣٢٠ هـ

(٤) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ٢١٧

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٧٩ .

سلطانه أعظم ما كان ، وأعز ما كان الإسلام بملكه » . « وحكى أنه وجد بخط الناصر رحمه الله أيام السرور التى صفت له دون تكدير : يومٌ كذا من شهر كذا من سنة كذا ، ويوم كذا من كذا ، وعُدّت تلك الأيام ، فكانت أربعة عشر يوماً . فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها : هذا الخليفة الناصر حلف السدود ، المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود، ملكها خمسين سنة ، وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام ، ولم تصف له إلا أربعه عشر يوما . فسبحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة ، لا إله إلا هو » (١) .

ووصفه ستانلى لينپول(٢) فقال : «نعم إن عبد الرحمن أنقذ الأندلس من نفسها ومن أعدائها . ولم يكتف بإنقاذها من الدمار ، بل خلق منها دولة عزيزة الجانب ، ولم تكن قرطبة فى عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهارا مما كانت عليه فى عهد الناصر ، ولم تكن الأندلس قبل أيامه فى تلك الحال من الخصب والإمراع والإنتاج وتوالى الخيرات ، التى نماها ووصل بها إلى الكمال كدّ أهلها ومهارتهم فى الصناعة ، ولم يكن الحكم الأندلسى فى يوم من أيامه أبهر انتصاراً على الفوضى ، ولم تكن قوة القانون أكثر نفوذاً إلى القلوب وأعظم هيبة مثلما كانت فى أيام عبد الرحمن ، فقد تسابق إلى أبوابه الرسل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا ليقدموا إليه تحية الإجلال والتمجيد . وكانت قوته وحكمته وثروة مملكته مضرب المثل فى أوربا وإفريقية ، وبلغت شهرته أقصى حدود المملكة الإسلامية بآسيا ، وكان مصدر كل هذا الانقلاب العجيب رجلا واحداً ، عانده كل شىء فقهره ، ووقف فى طريقه كل شىء فحطمه ، بعث الأندلس من حضيض البؤس إلى قمة القوة والازدهار ، ولم تصل البلاد إلى كل هذا ، إلا بذكاء الخليفة عبد الرحمن الناصر وصدق عزيمته » .

الحكم الثاني المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦هـ) :

كان عبد الرحمن الناصر آخر عظماء أمراء بنى أمية فى الأندلس . وقد خلفه ابنه الحكم المستنصر بالله وأتاحت له فتوح أبيه وما حازه من نصر وظفر على أعدائه فترة من الهدوء والطمأنينة ، إذ شعر نصارى الشمال بقوة الدولة التى تركها الناصر ، فلم تعترضه هذه الثورات الجامحة التى اعترضت أباه فى العشرين سنة الأولى من عهده . كما وجد الحكم حكومة منظمة أقام دعائمها أبوه ، « فجرى على رسمه ، ولم يفقد من ترتيبه إلا شخصه ، وولى حجابته جعفراً الصقلبى » ، الذى أهدى له يوم ولايته هدية نفيسة تدل على ضخامة ثروة الأندلس وما كانت تتمتع به من يسر ورخاء(٣) .

ولم يقف فى وجه الحكم أحد من إخوته وأعمامه وغيرهم ، فقد بايعه أخوه أبو مروان عبيدالله ،

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٧٩

(٢) Stanley Lane —Poole: The Moors in Spain, pp. 126 - 7 ترجمة على الجارم ص ١١٧ — ١١٨

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٠

كما بايعه أبو الأصبغ عبد العزيز ، « فمضى إليهما كل واحد منهما (١) فى قطيع من الجند وأتيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء ، ونفذ غيرهما من وجوه الرجال فى الخيل لإتيان غيرهما من الإخوة ، وكانوا يومئذ ثمانية ، فوافى جميعهم « الزهراء » فى الليل ، فنزلوا فى مراتبهم بفصلان دار الملك ، وقعدوا فى المجلسين الشرقى والغربى ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى البهو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية التى فى السطح الممرد(٢). فأول من وصل إليه الإخوة فبايعوه وأنصتوا لصحيفة البيعة ، والتزموا الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها . ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وإخوتهم ، ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة » (٣).

وكان الحكم الثانى ميالا بطبعه إلى السلم والدعة ، وكان الرعب الذى غرسه الناصر عظيما فى قلوب أهل الأندلس ، وخاصة مسيحيى الشمال ، الذين كانوا لا يزالون يشعرون بقوة الخلافة . ولم يكن الحكم ضعيف القلب أو جبانا ، حتى إنه كان يقود الجيوش بنفسه لمحاربة نصارى ليون إذا نقضوا عهودهم . وبلغ من قوة دولته أن استنجد به أردون ملك جلّيقيه « فاحتفل الحكم بقدومه ... ووصل إلى الحكم وأجلسه ، ووعده بالنصر من عدوه (فريدلند قَومَس (٤) قشتيلية) ، وخلع عليه . . . وعاقده على موالاة الإسلام ومقاطعة فريدلند القومس ، وأعطى على ذلك صفقة يمينه ، ورهن ولده غرسية ، ودفعت الصلات والحملان له(٥) ولأصحابه ، وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة عند رعيته ويقبضوا رهنه . وعند ذلك بعث ابن عمه شانجه بن ردمير ببيعته وطاعته مع قمامسة (٦) أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم ، يرغب فى قبوله ويمتّ بما فعل أبوه الناصر معه ، فتقبّل بيعتهم على شروط شرطها ، كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين . ثم بعث ملكا برشلونة وطركونة . وغيرهما يسألان تجديد الصلح وإقرارهما على ما كانا عليه . . . وعقد على أن يهدموا الحصون التى تضر بالثغور ، وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم ، وأن يُنذروا بما يكون من النصارى فى الإجلاب على المسلمين . ثم وصلت رسل غرسية بن شانجة . . . فى جماعة من الأساقفة والقمامسة (٦) يسألون الصلح (٧)

وكذلك بعث الحكم المستنصر جنده إلى بلاد المغرب الأقصى والأوسط ، وخطب له على منابرها

---

(١) يقصد جعفر بن عثمان وموسى بن أحمد بن حدير ، وكانا من القواد .
(٢) مرد البناء ملسه وسواه وصقله .
(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٣ .
(٤) القومس بفتح القاف وتسكين الواو الأمير ، وجمعها قمامسة .
(٥) فى الأصل الحملات ، والصواب الحملان ، وهو الدواب التى تحمل الهبات ونحوها
(٦) فى الأصل قواميس وهو تحريف ، انظر القاموس.
(٧) نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ .

وأبطلت الخطبة للفاطميين ، كما قضى على نفوذ الأدارسة بالعدوة بنواحى الريف (١) .

وكان الحكم مشغوفا بالاطلاع والقراءة ، وجمع كثيراً من الكتب ، وأرسل الرسل لابتياعها من دمشق وبغداد والقاهرة ، حتى زخرت خزانة كتبه بقرطبة بأربعمائة ألف كتاب ، فى وقت لم تعرف فيه الطباعة . وكان النساخ يلاقون فى نقل الكتب كثيراً من الصعاب . وامتاز الحكم بقراءة كثير من هذه الكتب والتعليق عليها ، ولا غرو فقد كان غزير العلم واسع الاطلاع ، حتى لقد اعتبر العلماء تعليقاته من أجلّ ما يكتب (٢) . « وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جُلبت إليه بضائعه من كل قطر » (٣) . وقد بلغ من اهتمامه بجمع الكتب أنه كان إذا ظهر كتاب جديد بعث إلى صاحبه فى طلبه ، من ذلك أنه لما علم بظهور كتاب الأغانى طلب من مؤلفه أبى الفرج الأصفهانى أن يبيعه إياه ، وبعث له بألف دينار من الذهب ، فبعث به إليه قبل أن يرسله إلى العراق (٤) .

توفى الحكم المستنصر فى اليوم الثانى من شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ ، بعد أن حكم ست عشرة سنة .

هشام الثانى المؤيد (٣٦٦ — ٣٩٩ هـ)

خلف الحكم ابنه هشام ، ويكنى أبا الوليد ، ويلقب المؤيد ، وأمه أم ولد تسمى « صبح » . وكان هشام فى العاشرة من عمره حين ولى الخلافة ، فتغلبت على أمره أمه صبح ، وتولى تدبير مملكته أبو عامر محمد بن عبد الله . وقد وصف أبو على القالى مؤدب هشام المؤيد ومؤلف كتاب الأمالى بأنه كان فى غاية الحذق والذكاء (٥)

أبو عامر محمد بن أبى عامر :

ولد أبو عامر عبد الله محمد بن أبى عامر فى إحدى قرى المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء جنوبى بلاد الأندلس . ويرجع فى أصله إلى قبيلة معافر القحطانية . وقد وفد على قرطبة فى حداثة سنه ، والتحق بجامعها ، حيث كان أبوه يقوم بالتدريس فيه ، وامتاز بين أقرانه بالذكاء وعلو الهمة والطموح إلى مدارك الرقى حتى تملكته الرغبة فى النفوذ والسلطان . وقد روى عبد الواحد المراكشى (٦) عن الحميدى صاحب كتاب « الأمانى الصادقة » عن أبى عبد الله محمد بن إسحق التميمى قال : « كان محمد بن أبى عامر نازلا عندى فى حجرة فوق بيتى ، فدخلت عليه فى بعض الليالى فى آخر الليل ، فوجدته قاعداً على الحال التى تركته عليها أول الليل حين فصلت عنه ، فقلت له : ما أراك نمت الليلة ، قال : لا ، قلت : فما أسهرك ؟ قال : فكرة عجيبة ، قلت : فبماذا كنت تفكر ؟ قال : فكرت إذا أفضى

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٤ ص ١٤٦ .

(٢) Stanley Lane-Poole : The Moors in Spain, pp. 155-6.

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٢ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦.

(٥) Dozy : History of the Moslems in Spain, p. 138.

(٦) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٧ — ١٨ .

إلىّ الأمر ومات محمد بن بشير القاضى ، بمن أستبدله ؟ ومن الذى يقوم مقامة ؟ فجلت الأندلس كلها بخاطرى ، فلم أجد إلا رجلا واحداً . قلت : لعله محمد بن السليم ، قال : هو والله ، هو لشدّ ما اتفق خاطرى وخاطرك . قال الحميدى : وأخبرنى الفقيه أبو محمد على بن أحمد قال : كان ابن أبى عامر يوماً جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم فقال لهم : ليختر كل واحد منكم خطة أوَلّيه إياها إذا أفضى إلىّ الأمر ، فقال أحدهم : تولينى قضاء كورة ريّة ، وهى مالقة وأعمالها ، فانه يعجبنى هذا التين الذى يجىء منها ، وقال الآخر : تولينى حسبة السوق ، فإنى أحب هذا الإسفنج ، وقال الثالث : إذا أفضى إليك الأمر فأمر أن يُطاف بى قرطبة كلها على حمار ووجهى إلى الذنب ، وأنا مطلى بالعسل ليجتمع علىّ الذباب والنحل . وافترقوا على هذا ، فلما أفضى إليه الأمر كما تمنى ، بلغ كل واحد منهم أمنيته على نحو ماطلب » .

ولما آلت الخلافة إلى هشام المؤيد ، وأصبحت أمه «صبح» تتمتع بالنفوذ المطلق والسلطان الذى لا يحد ، قربت إليها ابن أبى عامر الذى عاش فى مبدأ أمره من كتابة الرسائل فى القصر . ولم يلبث أن اتصل بكبير الحجاب ، وكان يتمتع بنفوذ كبير الوزراء إذ ذاك ، فأسند إليه بعض الأعمال فى القصر . واستطاع ابن أبى عامر أن يكتسب عطف السيدة صبح ، لما كانت تتوسمه فيه من الذكاء وبعد الهمة ، فأسند إليه بعض المناصب الهامة ، منها القضاء فى بعض المدن ، والنظر فى الزكاة والمواريث ، والإشراف على أملاك ولى العهد الخاصة . كما اشتهر ابن أبى عامر بعلو الأدب والتواضع والكرم والعطف على البائسين ، واستطاع بذلك أن يستميل كبار رجال الدولة على اختلافهم .

ولما مات الحكم وآلت الخلافة إلى ابنه هشام كما تقدم ، كان ابن أبى عامر ساعد السيدة صبح الأيمن ، واستطاع أن يقضى على مؤامرة صقالبة القصر الذين كانوا يحولون دون استخلاف هشام ، واكتسب محبة الناس بقضائه على هؤلاء الصقالبة (١) ، ثم لم يلبث أن تخلص من جعفر بن عثمان المصحفى الحاجب ليصفو له الجو فى حكم بلاد الأندلس . واتخذ لذلك الأمر عدته ، فاستمال إليه الجند بعد أن غزا مملكة ليون وعاد منها محملا بالغنائم ، وعلت منزلته فى قلوب الجند ، واستطاع ، بما أوتيه من مكر ودهاء ، أن يوقع الخلاف بين المصحفى وغالب قائد الجيش ، واتهم المصحفى بالخيانة والسرقة ، وزج به فى غياهب السجن ، وجلس مكانه على كرسى الحجابة ، وأصبح الحاكم للدولة الإسلامية فى الأندلس ، ودعى له على المنابر ، وضربت السكة باسمه بعد الخليفة الصغير ، ولبس الملابس المنسوجة بالذهب ، ونقش اسمه عليها كما كان ينسج اسم الخلفاء .

وقد مات المصحفى بعد خمس سنوات أشنع ميتة مسجّى برداء ممزق . ويقال إن ابن أبى عامر دس له السم . وصف ابن بسام(٢) قصة تسليم جثة المصحفى إلى أهله فقال : « أخبرنى محمد بن

(١) المراكشى ص ١٨ ، Dozy : The Moslems in Spain, p. 138 .

(٢) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع من المجلد الأول (القاهرة ١٩٤٥) ص ٤٩ .

إسماعيل كاتب ابن أبي عامر قال : سرتُ مع محمد بن مسلمة ثقة ابن أبي عامر إلى الزهراء لنسلم جسد جعفر بن عثمان إلى أهله والنظر إلى عينه . وسرنا إلى منزله وماغطّى جسده إلا كساء خَلَق لبعض البوابين ألقاه على سريره . ودعا له محمد بن مسلمة بغاسل يغسله على فرد باب اختلع من ناحية الدار. وخرجنا بنعشه وواريناه ، وما جسر أحد لشهوده معنا سوى إمام مسجده المستَدْعَى للصلاة عليه ، ومن حضره من ولده . فعجبت من عُدوان الزمان بعد تصريفه له ، وإنّ لى بالاعتبار بشأنه فى الحالتين مع قرب المدة الموعظةَ .

وقفت له فى طريقه من داره وقت علة الحكم ، وقد تناهى أمره فى الجلالة أروم أن أناوله قصة . فوالله ما تمكنت من الدنو إليه لكثافة موكبه ، وأخذ الناس الطرق عليه مسلمين وسائلين ، فانثنيت حسيراً مبهوتا . فلم تطل المدة حتى سلبه ابن أبي عامر حاله وقبض عليه ، وجعل يحمله فى الغزوات معه . وسرت فى صحبة ابن أبي عامر ، فاتفق لى أن نزلت فى بعض المنازل بجليقيةَ إلى جنب خبائه . وفى ليلة نهى ابن أبي عامر عن وقود النار ليخفى على العدو مكانه ، فرأيت والله عثمان بن جعفر يسقى أباه جعفراً دقيقاً قد خلطه بالماء يقيم أوده ، والشيخ يحسوه ويحرص عليه ضعفِ حال وعدم زاد . فلا أنسى تلك الموعظة ، وما يغتر بالأيام إلا ضعيف العقل . وكان مهلك جعفر فيما أخبرنى به أبي خلف بن حسين سنة اثنين وسبعين » .

كما استطاع ابن أبي عامر أن يحول دون سخط رجال الدين عليه ، فأمر بإحراق كتب الفلسفة فى ميادين قرطبة وأحرق بعضها بيده . وبذلك أرضى الفقهاء الذين عرفوا بتشددهم فى الدين وكراهتهم للفلاسفة ، وسمى حامى الإسلام ، ولم تقف سعة اطلاعه وولوعه بالفلسفة عقبة فى سبيل تحقيق مطامعه السياسية (١) .

وكان ابن أبي عامر واسع الحيلة بعيد النظر . ولكى يأمن جانب جنده من العرب والصقالبة والأسبان ، اتخذ له جنداً من المرتزقة من المغرب ونصارى الشمال ، واصطنعهم وأدر الأرزاق عليهم ، فأحبوه وأخلصوا له ، حتى لقد قيل إنه غزا أكثر من خمسين غزوة . ولا غرو فقد استولى على ليون وهدم قلاعها ، وقهر برشلونة وجعل كنيسة شانت ياقب St. Jacob كعبة المسيحيين فى غليسية فى ذلك الحين أثراً بعد عين .

ويقول المقرى (٢) إن هذه الكنيسة كانت « أعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة (يعنى فرنسا). وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا ، وللكعبة المثل الأعلى ، فيها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، ويزعمون أن القبر المزور

---

(١) Dozy : The Moslems in Spain, pp. 490-1, .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٩٦ — ١٩٧ .

فيها قبر ياقب الحوارى أحد الاثنى عشر . وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام . وهم يسمونه أخاه للزومه إياه . وياقب بلسانهم يعقوب ، وكان أسقفا ببيت المقدس، فجعل يستقرى الأرضين داعياً لمن فيها ، حتى انتهى إلى هذه القاصية ، ثم عاد إلى أرض الشام فمات بها ، وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التى كانت أقصى أثره . ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام فى قصرها ولا الوصول إليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شُقتها . فخرج المنصور إليها من قرطبة غازيا بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، وهى غزوته الثامنة والأربعون ... ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر ... وكان النزول بعده على مدينة شانت ياقب البائسة ، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها ، فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها ، وعفوا آثارها ، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه » .

ولم يلبث ابن أبى عامر أن كفى أمر غالب القائد بزواجه من ابنته ، ومات غالب ، بعد ذلك فى إحدى الغزوات. وقد صمم ابن أبى عامر على إنزال العقاب بأهالى ليون لمساعدة منافسه غالب ، وحاصر زامورة (٣٧١ هـ = ٩٨١م) ، وأشعل النار حولها ، وقتل أربعة آلاف من النصارى . ودخل راميرو الثالث ، ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره ، فى حلف مع غرسية ، وكونت قسطيلية ، وملك ناڤار ، ولكن الهزيمة حلت بهم ، ثم استأنف ابن أبى عامر السير إلى ليون . ولما رأى أن الهزيمة حلت بجنده ، خلع عمامته وسار نحو العدو ، ولحق به قواده وجنده الذين ثارت حماستهم ، وطاردوا العدو إلى أسوار ليون ، وكادوا يستولون على المدينة لولا أن حال بينهم سقوط الثلوج . وعاد ابن أبى عامر إلى قرطبة محملا بالغنائم والأسلاب ، ولقب من ذلك الحين بذلك اللقب الذى عرف به فيما بعد وهو « المنصور بالله » . وأصبح صاحب السلطان المطلق والنفوذ الذى لا يحد (١) .

ويقول ستانلى لينپول (٢) إن ليون والممالك التابعة لها خضعت للمنصور ، وأدت الإتاوات إلى قرطبة . فقد تكررت هزائم قشتالة ، وبرشلونة ، وناڤار ، وشانت ياقب ، واستولى المنصور على ليون وبمبلونة وبرشلونة ، وشانت ياقب ، وحمل مرة ملك ناڤار على أن يجثو أمامه ذليلا على ركبتيه ، لأن الوزير ، وهو لا يتجاوز عن شىء ، علم أن امرأة مسلمة وقعت أسيرة فى مملكته ، فأطلقت فى الحال مع كثير من ضروب الذلة والاعتذار .

وقد ذكر المراكشى (٣) أنه بلغ من شدة ولوع ابن أبى عامر بالغزو ، أنه ربما خرج إلى المصلى يوم العيد فيعزم على الحرب وقت الصلاة ، فلا يعود إلى قصره ، بل يخرج من فوره إلى الجهاد ، فتتبعه عساكره حتى نيفت غزواته على الخمسين غزوة ، ذكرها أبو مروان بن حيان فى كتابه الذى

---

(١) Dozy : The Moslems in Spain, pp. 497-8.

(٢) The Moors in Spain, pp. 163-5. ، ترجمة على الجارم ص ١٤٨ .

(٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤ .

سماه « المآثر العامرية »، واستقصاها كلها بأوقاتها، وذكر آثاره فيهـا، « وفتح فتوحا كثيرة، ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت على من قبله، وملأ الأندلس غنائم وسبيا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم ».

وكان ابن أبي عامر محباً للعلوم مشغوفاً بالأدب مشجعا للعلماء والأدباء. وقد زخرت بلاد الأندلس فى الفترة التى تقلد فيها الحجابة بطائفة من مشهورى العلماء والأدباء والشعراء، نخص بالذكر منهم أبا العلاء صاعد بن الحسن، الذى وفد على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ، فأكرمه ابن أبي عامر وأدر عليه الأرزاق لما اشتهر به من التعمق فى اللغة والنحو والأدب والشعر والسير، وما عرف به من التفكه والظرف. وقد ألف أبو العلاء هذا للحاجب المنصور كتباً أجازه عليها، كما أنشد للمظفر بن المنصور ابن أبي عامر، الذى ولى الحجابة بعد أبيه، قصائد رائعة. وكان لابن أبي عامر مجلس فى كل أسبوع يجتمع فيه العلماء للمناظرة فى حضرته [١]. وقد قيل إنه كتب بيده مصحفاً كان يحمله معه فى أسفاره وغزواته ويتبرك به [٢].

ومن آثار ابن أبي عامر بناء مدينة « الزاهرة » على نهر الوادى الكبير شرقى قرطبة؛ واستغرق بناؤها سنتين. ولم تلبث أن أخذت فى الاتساع حتى اتصلت أرباضها بمدينة قرطبة نفسها، كما بنى قنطرة قرطبة، وبذل فى سبيل بنائها ١٤٠ ألف دينار.

صفات المنصور الحاجب:

اشتهر المنصور بن أبي عامر بالذكاء والكرم والحزم والعدل والصبر على المكاره، وغيرها من الصفات التى جعلته بحق أعظم حكام الأندلس فى عهد هشام الثانى المنتصر. ولاعجب فقد أصبح المنصور صاحب الأمر والنهى فى بلاد الأندلس فى ذلك الوقت.

ومما يدل على عدله وتشدده فى الحق وإنصاف الضعيف من القوى، حتى ولو كان من رجال الدولة أو الأمراء أو غيرهم من الذين نالوا حظوة عنده، قصة بورق كبير الفتيان فى القصر مع التاجر المغربى. قال المقرى [٣]: « فإنهما تنازعا فى خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور (يعنى بورق)، وهو يومئذ أكبر خدم القصر، وإليه أمر داره وحُرمه، فدافع الحاكم، وظن أن جاهه يمنع من إحلافه، فصرخ التاجر بالمنصور فى طريقه إلى الجامع متظلماً من الفتى، فوكل به فى الوقت مَن حمله إلى الحاكم، فأنصفه منه، وسخط عليه المنصور، وقبض نعمته منه ونفاه ».

وكذلك اشتهر ابن أبي عامر بالفطنة والذكاء والقدرة على إظهار خفايا الأمور. ذكروا « أن

---

(١) المراكشى ص ١٩ — ٢٤.

(٢) المقرى: نفح الطيب جـ ١ ص ١٩٣، ابن بسام: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع من المجلد الأول ص ٢ — ٤٠ حيث تجد لأبى العلاء صاعد ترجمة وافية.

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ١٩٤.

رجلا جوهريا من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسة . فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه ، ودفع إلى التاجر الجوهرى صرته ، وكانت قطعة يمانية ، فأخذ التاجر فى انصرافه طريق الرملة على شط النهر . فلما توسطها واليوم قائظ ، وعرقه منصب ، دعته نفسه إلى التبرد فى النهر ، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط . فمرت حدأة فاختطفت الصرة تحسبها لحماً ، وصاعدت فى الأفق بها ذاهبة . فقطعت الأفق الذى تنظر إليه عين التاجر ، فقامت قيامته وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة . فأسرّ الحزن فى نفسه ، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها ، وحضر الدفع إلى التجار ، فحضر الرجل لذلك بنفسه ، فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة . فسأله المنصور عن شأنه ، فأعلمه بقصته ، فقال له : هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر ، فكنا نستظهر على الحيلة ؟ فهل هديت إلى الناحية التى أخذ الطائر إليها ؟ قال : مرّ مشرّقا على سمت هذا الجبل الذى يلى قصرك ، يعنى الرملة . فدعا المنصور شرطيه الخاص به ، فقال له جثنى بمشيخة أهل الرملة الساعة . فمضى وجاء بهم سريعا ، فأمرهم بالبحث عمن غير حال الإقلال منهم سريعا ، وانتقل عن الإضاقة دون تدرج . فتناظروا فى ذلك ثم قالوا : يامولانا ! ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ، ويتناولون السبق بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة ، فابتاع اليوم دابة ، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة ، فأمر بإحضاره من الغد ، وأمر التاجر بالغدوّ إلى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين يدى المنصور ، فاستدناه والتاجر حاضر ، وقال له : سببٌ ضاع منا وسقط إليك ، مافعلت به ؟ قال : هوذا يامولاى ، وضرب بيده إلى حُجزة سراويله ، فأخرج الصرة بعينها ، فصاح التاجر طربا ، وكاد يطير فرحا ، فقال له المنصور : صف لى حديثها ، فقال : بينا أنا أعمل فى جنانى تحت نخلة ، إذ سقطت أمامى ، فأخذتها ، وراقنى منظرها ، فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاجتزت بها ، ودعتنى فاقتى إلى أخذ عشرة مثاقيل عيونا كانت معها مصرورة ، وقلت : أقل ما يكون فى كرم مولاى أن يسمح لى بها . فأعجب المنصورَ ما كان منه وقال للتاجر : خذ صرتك وانظرها ، واصدقنى عن عددها ، ففعل ، وقال : وحقّ رأسك يا مولاى ما ضاع منها شىء سوى الدنانير التى ذكرها ، وقد وهبتها له ، فقال المنصور : نحن أولى بذلك منك ، ولا تنغص عليك فرحك . ولولا جمعه بين الإصرار والإقرار لكان ثوابه موفوراً عليه . ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً من دنانيره ، وللجنانى بعشرة دنانير ثوابا ، لتأنيه عن فساد ما وقع بيده ، وقال : لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء . فأخذ التاجر فى الثناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطه وقال : والله لأبثن فى الأقطار عظيم ملكك ، ولأبينن أنك تملك طير أعمالك ، كما تملك أنفسها ، فلا تعتصم منك ولا تمتنع ولا تؤذى جارك ، فقال المنصور : أقصد فى قولك يغفر الله لك ، فعجب من تلطف المنصور فى أمره ، وحيلته فى تفريج كربته »(١) .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٦ .

وصفوة القول أن المنصور بن أبى عامر كسب محبة الشعب ورجال الدين والجند بعلمه وبعد نظره وحسن سياسته . ولم يكن للخليفة هشام المؤيد من الصفات ما يؤهله لأن يكون من عظماء الرجال ؛ فقد انزوى فى قصره ، وقضى أوقاته فى اللهو . وكانت لابن أبى عامر مطامع خفية كما تقدم ، فحجر على هشام ومنع الناس من مقابلته حتى أصبح فى الواقع سجيناً ، ولم يبق له من مركز الخلافة إلا الاسم فقط (١) . وقتل ابن أبى عامر كل من وقف فى سبيله من الأمراء وزعماء القبائل والقواد ، مدعياً أنه إنما كان يفعل ذلك لحماية الخليفة ، كما شرد حرس الخليفة من الصقالبة . وأنشأ جيشاً جديداً من المرتزقة من قبائل البربر ومن المسيحيين ، وقدم البربر على العرب وأقصى هؤلاء عن مناصب الدولة .

تولى ابن أبى عامر الحجابة نحواً من سبع وعشرين سنة ، كانت حافلة بجلائل الأعمال مليئة بالغزوات . وقد توفى فى آخر غزواته ببلاد مسيحيى الشمال ، وذلك فى سنة ٣٩٣ هـ ، وحمل فى سريره على أعناق الرجال ، وعسكره يحُف به إلى أن وصل إلى مدينة سالم . وقد أحس نصارى الشمال بقوة شكيمته وشدة بأسه ، ففرحوا بموته فرحا عظيما إذ كانوا يعتبرونه حامى الإسلام .

الأندلس بعد وفاة المنصور الحاجب :

ولما مات ابن أبى عامر سار ابنه أبو مروان عبدالملك الذى آلت اليه الحجابة وتلقب «المظفر» ، سار سيرة أبيه فى الاستئثار بالسلطة دون الخليفة هشام الثانى المؤيد . «وكانت أيامه — كما يقول المراكشى (٢) — أعياداً فى الخصب والأمان ، دامت سبع سنين إلى أن مات . وثارت الفتن بعده ، ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر . فخلّط ، وتسمى ولى العهد . ولم يزل مضطرب الأمور مدة أربعة أشهر ، إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لثمان عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ ، فخلع هشاما المؤيد ، وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر ، فقتل وصلب » .

تلقب محمد بن هشام ، الذى استبد بالأمور بعد أن خلع الحاجب عبد الرحمن بن أبى عامر المنصور بلقب « المهدى » ، وتولى أمور قرطبة إلى أن ثار عليه هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وأخوه أبو بكر ، بمساعدة البربر . فحاربهم المهدى ، وأسر هذين الأخوين ، « وضرب أعناقهما ، ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجنود البربر ، وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة ، وتآمروا فبايعوه ولقبوه «المستعين بالله» ونهضوا به إلى ثغر طليطلة »(٣).

وقد استنجد سليمان المستعين بالمسيحيين ، وساروا مع البربر إلى قرطبة ، والتقوا بجيوش محمد بن هشام المهدى ، الذى حلت به الهزيمة ، ولحق بطليطلة ، ودخل المستعين قرطبة سنة ٤٠٠ هـ . على أن

---

(١) Dozy: The Moslems in Spain, p. 492.

(٢) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥ ، ٢٦

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٢

المهدى استنجد بالمسيحيين ، وتوجه إلى قرطبة ، وهزم المستعين ، واضطره إلى الخروج منها مع جنده من البربر ، فتفرقوا فى البلاد وتوجهوا نحو الجزيرة الخضراء . ولم يكتف المهدى بذلك ، بل تتبع المستعين مع أعوانه من المسيحيين ؛ ولكن الهزيمة حلت به ، وتتبعهم المستعين بدوره إلى قرطبة . وهنا لجأ المهدى إلى الحيلة ، فأخرج هشاما المؤيد من سجنه ، وبايعه ، وقام بحجابته . ولكن الأهالى لم يلبثوا أن ثاروا عليه وقتلوه . ثم دخل المستعين قرطبة فى سنة ٤٠٣ هـ وقتل هشام المؤيد سرا ، وجلس على ذلك العرش المتداعى نحو أربع سنين (٤٠٣ — ٤٠٧هـ) ، استقل فيها بالأطراف كثير من الأمراء من أمثال باديس بن حبوس فى غرناطة ، والبرزالى فى قرمونة ، واليقرنى فى رندة ، وهرزون فى شريش . وافترق شمل الجماعة بالأندلس ، وصار الملك طوائف فى آخرين من أهل الدولة ، مثل ابن عباد بإشبيلية ، وابن الأفطس ببطليوس ، وابن ذى النون بطليطلة ، وابن أبى عامر ببلنسية ، وابن هود بسرقسطة ، ومجاهد العامرى بدانية والجزائر .

بنو حمـــــــود[1]

(فى ملقا)

٤٠٧ — ٤٤٩ هـ

	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١) على الناصر بن حمود	٤٠٧	١٠١٦	٧) حسن المستنصر	٤٣١	١٠٣٩
٢) القاسم المأمون	٤٠٨	١٠١٨	٨) إدريس الثانى (العالى)	٤٣٤	١٠٤٢
٣) يحيى المعتلى	٤١٢	١٠٢١	٩) محمد الأول المهدى	٤٣٨	١٠٤٦
٤) القاسم (للمرة الثانية)	٤١٣	١٠٢٢	١٠) ادريس الثالث الموفق	٤٤٤	١٠٥٢
٥) يحيى (للمرة الثانية)	٤١٦	١٠٢٥	١١) ادريس الثانى (العالى) (للمرة الثانية)	٤٤٥	١٠٥٣
٦) إدريس المتأيد	٤٢٧	١٠٣٥	١٢) محمد الثانى المستعلى	٤٤٦	١٠٥٤

[المرابطون]

(١) Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 23 — 4

تسلسل نسب بنى حمود

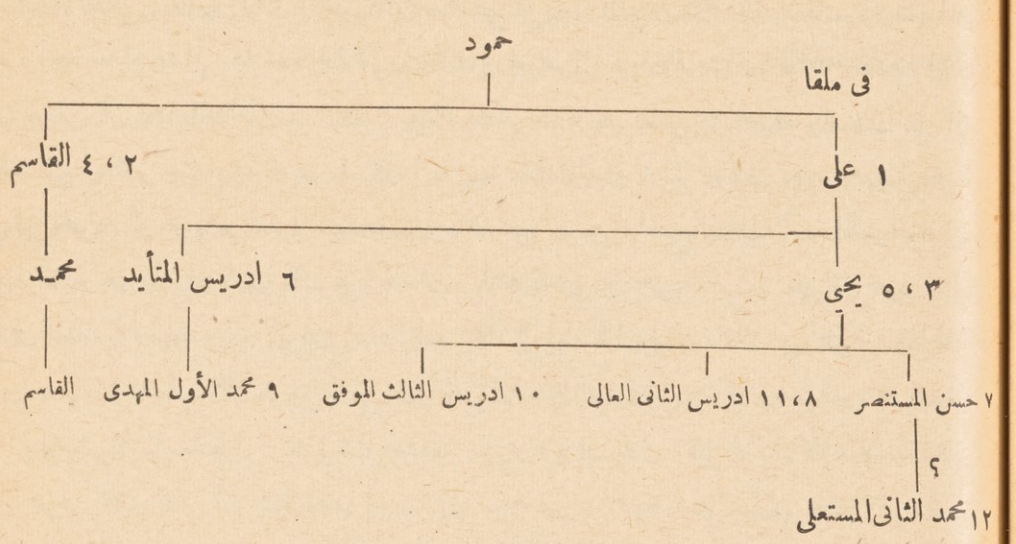

١ — على بن حمـــــود

ملك بنو حمود قرطبة سنة ٤٠٧ هـ ، وقتلوا سليمان المستعين ، وأزالوا ملك الأمويين بالأندلس ، وحكموا هذه البلاد نحوا من أربعين سنة تخللتها صحوات عاد فيها الملك إلى بعض أفراد البيت الأموى . ولكن كيف يقبض هؤلاء الأمويون على العرش بأيديهم الضعيفة ، فى ذلك الوقت الذى قامت فيه الفتن والثورات ، واشتدت منافسة الزعماء من البربر والصقالبة والعرب والأسبان ؟

ففى سنة ٤٠٧ هـ ولى بلاد الأندلس على بن حمود بن أبى العيش الذى ينتمى إلى إدريس بن عبد الله العلوى مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب . وكان على بن حمود يلى مدينة سبتة ، ويلى أخوه القاسم بن حمود الجزيرة الخضراء جنوبى الأندلس . وقد دعى خيران ، وكان من البربر الذين يميلون إلى هشام المؤيد ، الناس إلى الخروج على سليمان المستعين ، وبث الدعوة لعلى بن حمود ، وأطمعه فى ملك الأندلس . ولم يلبث أن قوى أمر خيران ، وسار ابن حمود نحو قرطبة ودخلها فى سنة ٤٠٧ هـ ، وبايعه الناس على طاعة هشام المؤيد — وكانوا يظنون أنه لا يزال على قيد الحياة — وانهزم سليمان المستعين ومن معه من البربر ، وأسر ، وسيق إلى ابن حمود مع أخيه وأبيه الحاكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وقتل سليمان ، ودعى لابن حمود على منابر قرطبة ، ولقب «المتوكل على الله»(٢).

وقد بحث دوزى مصير هشام المؤيد فقال : إن على بن حمود لما دخل مدينة قرطبة ، كان أول ما اهتم

---

(١) المقرى جـ ١ ص ٢٠٣ ، ابن الأثير جـ ٩ ص ١٠٠ — ١٠١

به خيران والصقالبة الآخرون أن يبحثوا عن هشام . وارتاحت نفس ابن حمود لأنهم لم يعثروا على أثر لهشام ، وسأل سليمان المستعين فى مجلس كان فيه الوزير ورجال الدين عما حدث لهشام ، فأجاب بأنه قتل ، فطلب إليه ابن حمود أن يدله على قبره . ولما عين مكان القبر ، فُتح ، وسأل ابن حمود أحد خدام هشام : هل هذه الجثة التى وجدت فى قبر مولاه هى جثة هشام ؟ فأكد الخادم ، الذى كان يعرف أن هشاما لايزال حيا ، القول بوفاة هشام خوفا من بطش ابن حمود ، واستدل على أن الجثة التى فى القبر جثته بسن له سوداء كان يتميز بها ذلك الخليفة . وأقر بعضهم هذه الشهادة تقربا إلى ابن حمود ، أو خوفا من إثارة حنقه عليهم وبطشه بهم . ومن ثم أصبح الصقالبة أمام الأمر الواقع ، وهو الاعتراف بأن حاكمهم الشرعى قد مات ، وبخلافة على بن حمود . ثم أمر على بن حمود بقتل سليمان المستعين وأخيه وأبيه . وبينما اقتاد الجند الحاكم أبا سليمان ليقتلوه قال ابن حمود : إذاً لقد قتلتَ هشاما ؟ فأجاب ذلك الرجل التقى الذى قضى أيامه فى العبادة ولم يشترك فى الحوادث السياسية : لا ! والله شهيدٌ على ماأقول ، إننا لم نقتل هشاما ، وإنه لايزال حيا . وقبل أن يتم كلماته هذه ، أشار ابن حمود ، الذى خشي أن ينكشف أمره ، إلى سيافه فهوى بالسيف على سليمان فقتله . ثم دفنت جثة هشام الثانى المؤيد من جديد بعد أن احتفل به الاحتفال اللائق بمثله من الملوك . ويقول دوزى إن هشاما لم يظهر أبدا رغم ظهور ذلك الدعى الذى كان يشبهه تمام الشبه ، وادعى ملك إشبيلية ، واعترف به أميرها محمد بن عباد ، لأغراض سياسية غايتها اتخاذ ذلك ذريعة لاستثاره بالسلطان هناك ومناوأة خصومه . ولكن لم يقم دليل على أن هشاما قتل بيد سليمان المستعين أو مات ميتة طبيعية فى أثناء حكمه . وكان أشياع الأمويين فى الأندلس الذين عرفوا هشاما ، يصرحون بأن هذه الجثة التى ووريت فى التراب من جديد لم تكن جثة هشام . وقد يكون اعتراف سليمان المستعين لعلى بن حمود بأن هشاما لايزال حيا وسيلة لتخليصه من الموت ، أو أن ابن حمود قد وعده أن يكون هذا الاعتراف مؤديا إلى نجاته . أضف إلى ذلك أن سليمان لم يكن ميالا بطبعه لسفك الدماء . ولو أن هشاما مات حقيقة فى عهده ، لأمر بعرض جثته على أهل قرطبة كما جرت العادة بذلك ، وكما كانت تقضى مصلحته الخاصة ، ليستميل إليه قلوب الصقالبة الذين بذل ابن حمود قصارى جهده فى اعترافهم بسلطانه . ولم يكن ابن حمود يجد وسيلة أحسن من هذه لو أنهم تحققوا موت هشام . أضف إلى ذلك شهادة الحاكم أبى سليمان ، الذى لم يرض عن تصريح ابنه سليمان ، وأشهد الله على أن هشاما كان لايزال على قيد الحياة . فهل كذب هذا الرجل الورع فى آخر ساعاته من الدنيا وهو مقبل على الوقوف بين يدى أحكم الحاكمين ؟ ويميل دوزى إلى تصديق أقوال نساء قصر هشام وخصيانه ، الذين أقروا بأنه جاهد للفرار من قصره فى عهد سليمان ، وأنه بعد أن استخفى فى قرطبة وعاش كما يعيش الصناع العاديون ، هرب إلى آسيا الصغرى . فهل تم له ماأراد من ذلك بإغضاء سليمان عنه ؟ وهل أقسم هشام بأن لايزعج سليمان بعد ذلك ؟ وهل اتصل أحدهما بالآخر بالمراسلة ؟ هذه أسئلة توحى بها إجابة الحاكم أبى القاسم المستعين ساعة قتله ، ولكنها مجرد احتمالات لايقين معها . ولا يبعد أن يكون

هشام ، الذى قلق من سماع اسمه تردده الإشاعات ويستغله ذوو الأطماع ، قد رأى أن يلجأ إلى مكان بعيد فى إحدى جهات آسيا المجهولة ، حيث يقضى البقية الباقية من حياته المليئة بالآلام والأحزان فى دعة واطمئنان . وقيل أيضاً إنه آثر أن يقضى بقية أيامه فى التعبد بالمدينة ، بعيدا عن ذلك العرش الذى التف حوله الطامعون ، وكثرت عنده الفتن والمنافسات (١) .

وقد أفلت من هذه الفتنة عبد الرحمن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، وترك قرطبة ، واستخفى بجبل جيان ، فبايعه خيران (ولقبه المرتضى) . وكان قد خرج على بن حمود ، وتبعه أمراء سرقسطة وشاطبة وبلنسية وغيرها ، وبموا غرناطة . ولما وصلوا إليها أرسل عبد الرحمن المرتضى إلى زاوى ، وكان قد بايع لسليمان المستعين بالخلافة ، كتابا رقيقاً يدعوه فيه الى مبايعته . ولما قرأ زاوى هذا الكتاب ، أجاب بسورة الكافرين (٢) (بسم الله الرحمن الرحيم ، قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين) (٣) .

٢ — خلفاء على بن حمود

ولم يلبث على بن حمود أن قتل فى السنة التالية فى أثناء محاربته أهل جيان المشايعين للأمويين . وقد قيل فى سبب قتله إن ثلاثة من الصقالبة الذين تمتعوا بعطفه هم الذين قتلوه . ولما سئلوا عن الأسباب التى حملتهم على ارتكاب جريمتهم ، أجابوا بأنهم لا يحملون لعلى ضغينة أو حقداً ، وإنما قتلوه غيرة للوطن وتخليصه من ذلك الحاكم الذى أصبح لا يحتمل طغيانه وظلمه وجبروته ، كما أقروا أنهم لم يقوموا بهذا العمل بتحريض خيران أو أهالى قرطبة (٤) . ثم تولى القاسم بن حمود ملك قرطبة ، ولقب « المأمون » . ولكن ملكه لم يطل ، إذ خرج عليه ابن أخيه يحيى بن على بن حمود أمير سبته فى سنة ٤١٢ هـ (٥) ، وتلقب « المعتلى » . وفر القاسم إلى إشبيلية حيث بايعه القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد ، وانضوى تحت لوائه كثير من البربر ، وسار بهم إلى قرطبة ، فملكها فى السنة التالية وبقى بها ست سنين . ولم يلبث يحيى أن سار إلى قرطبة ، وأسر القاسم وحبسه ، فظل فى حبسه إلى أن مات يحيى ، وملك أخوه إدريس ، فقتله (سنة ٤٣١ هـ) وهو فى الثمانين من عمره (٦).

ولما انهزم القاسم بن حمود وأنصاره من البربر ، أجمع أهل قرطبة على إعادة الخلافة إلى بنى أمية ، فبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر فى ١٣ رمضان سنة ٤١٤ هـ ،

---

(١) Dozy : The Moslems in Spain, pp. 565— 6.

(٢) سورة رقم ١٠٩

(٣) Dozy: Ibid, p. 568.

(٤) Dozy Ibid. ,p.586 . انظر أيضا المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٤

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٢ ، ١٠٣

(٦) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٣٤

ولقب « المستظهر بالله » ، لكنه لم يبق فى الخلافة أكثر من شهر وسبعة عشر يوما ، ثم قتل ، فبايع الناس محمد بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر ، ويكنى أبا عبد الرحمن الأموى (ذو القعدة سنة ٤١٤ هـ) ، ولقبوه « المستكفى بالله » . ولم يهتم الخليفة الجديد إلا بإشباع بطنه وشهوته ، ولم يبق فى الخلافة غير ستة عشر شهراً حيث ثار عليه أهل قرطبة فى شهر ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ وخلعوه .

ولما توفى المستكفى عاد أهل قرطبة إلى دعوة الحموديين ، وبايعوا يحيى بن على بن حمود (المعتلى بالله) للمرة الثانية ، وخطب له على منابر قرطبة سنة ٤١٦ هـ . ولكنه آثر البقاء فى مالقة ، وولى قرطبة عبد الرحمن بن عطاف اليفرنى . وبقى يحيى بن حمود خليفة على قرطبة الى أن أبطلت الخطبة للحموديين فى سنة ٤١٧ هـ ، وأعيدت إلى الأمويين ، وبايع الناس أبا بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه « المعتمد بالله » ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ هـ ، ودخل قرطبة فى شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ . ولكن عهده امتاز بكثرة الفتن والاضطرابات ، ولم يلبث أن خلع فى شهر ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ . وقد ذكر ابن الأثير (١) أن هذا الخليفة الأموى كان يساعد البربر ويحسن إليهم ، « فنفر عنه أهل قرطبة فوضعوا عليه من خلعه » .

وذكر ابن الأثير (٢) أيضا أنه بعد أن قطعت الخطبة ليحيى بن على بن حمود للمرة الثانية ، وبويع هشام الثالث المعتد بالله (٤١٨ — ٤٢٢ هـ) ، « سار يحيى إلى قرمونة فأقام بها محاصرا لإشبيلية طامعا فى أخذها ، فأتاه الخبر يوما أن خيلا لأهل إشبيلية قد أخرجها القاضى أبو القاسم بن عباد إلى نواحى قرمونة ، فركب إليها ولقيهم وقد كمنوا له ، فلم يكن بأسرع من أن قتل ، وذلك فى المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة » . وقد بويع بالخلافة أخوه إدريس بن على (٤٢٧ — ٤٣١ هـ) صاحب سبتة وطنجة ، وسار إدريس إلى مالقة بعد أن أناب عنه ابن أخيه حسن بن يحيى فى حكم سبتة . وتلقب إدريس « المتأيد بالله » ، وبقى فى الخلافة إلى سنة ٤٣١ هـ (وقيل سنة ٤٣٠ هـ) . ولكن القاضى أبا القاسم بن عباد ناوأ سلطان الحموديين ، فأرسل ابنه إسماعيل لانتزاع هذه البلاد من أيديهم ، فاستولى على قرمونة وأشبونة وأستجه ، وقتل ابن عباد وأرسل رأسه إلى إدريس الذى لم يلبث أن مات بعد يومين ، فملك بعده ابنه محمد الأول الجزيرة الخضراء ولم يلقب نفسه بلقب خليفة . وآلت الخلافة بعده إلى حسن بن يحيى بن على بن حمود الذى لقب « المستنصر بالله » ، ولكنه لم يلبث أن مات فى سنة ٤٣٤ هـ . وقيل إن زوجته ابنة عمه إدريس سمته انتقاما لقتل أخيها يحيى . وأخرج البربر إدريس الثانى بن يحيى وبايعوه بالخلافة ولقبوه « العالى » . وقد اشتهر بالتصدق على الفقراء حتى كان يتصدق بخمسمائة دينار فى كل أسبوع ، وسمح للمبعدين بالعودة إلى بلادهم ورد إليهم ممتلكاتهم . كما اشتهر إدريس بالأدب وأجاد الشعر . غير أنه يؤخذ عليه مصاحبة الأشرار الذين

---

(١) ج ٩ ص ١٠٥

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٠٤

أغدق عليهم ومنحهم كثيرا من الحصون ، وسلم إليهم وزيره موسى بن عفان فقتلوه ، كما اعتقل محمد والحسن ابنى عمه إدريس الأول بن على . ولما ظهر سوء سياسته ، خرج عليه أنصاره وبايعوا ابن عمه محمدا الأول بن إدريس بن على (٤٣٨ — ٤٤٤ هـ) ولقبوه « المهدى » . وقد عرف بالشجاعة والإقدام فهابه البربر وخافوه ، وعملوا على التخلص منه . ولذلك كتبوا إلى إدريس بن يحيى (٤٤٤ — ٤٤٥هـ) ثم بايعوه بالخلافة ولقبوه « الموفق » ، وخطب له بسبته وطنجة. وقد ذكر ابن الأثير (١) أن الأمور اضطربت فى أواخر أيام بنى حمود ، حتى إنهم لقبوا أربعة من أفراد البيت الحمودى بالخلافة فى وقت واحد وفى مكان ضيق من الأرض ، فقال : « ثم إن المهدى رأى من أخيه السامى ما أنكره ، فنفاه عنه ، فسار إلى العدوة إلى جبال « غمارة » وأهلوها ينقادون للعلويين ويعظمونهم ، فبايعوه . ثم إن البربر خاطبوا محمد بن القاسم بالجزيرة ، واجتمعوا إليه وبايعوه بالخلافة ؛ وتسمى بالمهدى أيضاً . فصار الأمر فى غاية الأخلوقة والفضيحة : أربعة كلهم يسمى أمير المؤمنين فى رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخا . فرجعت البرابر عنه ، وعاد إلى الجزيرة ، فمات بعد أيام ؛ فولى الجزيرة ابنه القاسم ولم يتسم بالخلافة ، وبقى محمد بن إدريس بمالقة إلى أن مات سنة خمس وأربعين (وأربعمائة) (٢) . وكان إدريس بن يحيى المعروف بالعالى عند بنى يفرن بتاكرنا ؛ فلما توفى محمد ابن إدريس (الأول المتأيد) بن على ، قصد إدريس بن يحيى مالقة ، فملكها ، ثم انتقلت إلى صنهاجة » .

بويع محمد بن إدريس الثانى العالى بالخلافة وتلقب « المستعلى » (سنة ٤٤٦ هـ) ، غير أنه لم يكن له من الأمر شىء ، بل امتازت الثلاث السنين التى قضاها فى الحكم بقيام الفتن والثورات . وكان محمد آخر من ولى الحكم من بنى حمود ، فقد تغلب باديس بن حيوس على مالقة فى سنة ٤٤٩ هـ ، وخلع محمدا ، الذى أرغم على المسير إلى المرية ، ثم بويع بالخلافة ببلاد المغرب سنة ٤٥٦ هـ حيث بقى بها إلى أن توفى سنة ٤٦٠ هـ (٣) .

٣ — زوال دولة بنى حمود

ويقول المقرى (٤) : « وانقرضت دولة الأشراف الحموديين من الأندلس ، بعد أن كانوا يدّعون الخلافة . . . وانقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالجهات ،

---

(١) جـ ٩ ص ١٠٥

(٢) هذا يختلف مع ماذكره المقرى (نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٦) من أنه مات سنة ٤٤٤ هـ ، ونقله عنه ستانلى ليبول .

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٠٦

(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٨

واقتسموا خطتها ، وتغلب بعض على بعض . واستقل أخيرا بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ، ولاذوا بالجزى للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم . وأقاموا على ذلك برهة من الزمان ، حتى قطع عليهم البحر ملك العدوة وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى ، فخلعهم ، وأخلى منهم الأرض . فمن أشهرهم بنو عباد ملوك إشبيلية فى غرب الأندلس الذين منهم المعتمد بن عباد الشهير الذكر بالمغرب والمشرق وفى الذخيرة والقلائد من أخباره ما هو كاف ؛ ومنهم بنو جهور ، كانوا بقرطبة فى صورة الوزارة حتى استولى عليهم المعتمد بن عباد وأخذ قرطبة وجعل عليها ولده ، ثم كانت له وعليه حروب وخطوب ، وفرق أبناءه على قواعد الملك وأنزلهم بها ، واستفحل أمره بغرب الأندلس ، وعلت يده على من هنالك من ملوك الطوائف مثل ابن باديس بغرناطة ، وابن الأفطس ببطليوس ، وابن صمادح بالمرية وغيرهم ، فكانوا يخطبون سلمه ، ويغلون فى مرضاته ، وكلهم يدارون الطاغية ويتقونه بالجزى ، إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين (سنة ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م) ، واستفحل ملكه ، فتعلقت آمال الأندلس بإعانته ، وضايقهم الطاغية فى طلب الجزية ، فقتل المعتمد اليهودى الذى جاء فى طلب الجزية للطاغية بسبب كلمة قالها آسفه بها[1] ، ثم أجاز البحر صريحا إلى يوسف بن تاشفين ، فأجاز معه البحر ، والتقوا معه فى الزلاقة ، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى ، ونصر الله تعالى الإسلام نصر الأكفاء له » .

وقد أدى انقسام بلاد الأندلس إلى ضعف المسلمين ، ومهد السبيل للإمارات المسيحية فى الشمال للقيام فى وجه أمراء العرب على أثر ما قام بينهم من التنافس على السلطان ، حتى بلغ من تنافسهم أن كان بعضهم يستعين بالمسيحيين على منافسيه . وبلغ الفونس الرابع حاكم قشتالة من القوة بحيث أرغم أمراء المسلمين المجاورين له على دفع الجزية .

وعلى الرغم من ذلك الانحلال الذى دب فى جسم الدولة الأموية فى الأندلس ، كان عصر ملوك الطوائف من أزهى العصور فى العلوم والفنون والآداب . ولا غرو فقد نافس كل من إشبيلية وطليطلة ومالقة وبلنسية وغيرها من حواضر هذه الدويلات ، مدينة قرطبة بعد أن كانت وحدها مركزاً للعلوم والفنون فى بلاد الأندلس .

---

(١) آله .

الباب الخامس

الحركات السياسية والدينية

تمهيد :

زخر العصر العباسى الثانى بكثير من الحركات السياسية والدينية التى كان لها أثر بعيد فى تاريخ هذا العصر ؛ فقد قام الشيعيون بحركات ثورية كان من أثرها انتزاع كثير من بلاد الدولة العباسية ، وانتشار المبادىء الشيعية ، وخاصة مبادىء الإسماعيلية أو السبعية ومبادىء الاثنا عشرية . فانتشرت مبادىء الإسماعيلية بين القرامطة فى سواد الكوفة وفى البحرين ، وفى شمال العراق ، وفى بلاد اليمن على يد ابن حوشب وخلفائه من الصليحيين خاصة ؛ ولم تخل بلاد الفرس من دعاة الإسماعيلية فى هذا العصر . وتكللت جهود الإسماعيلية بقيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ثم فى مصر ، وامتداد رقعتها إلى فلسطين والشام ، وإلى بلاد الحجاز وغيرها ، وخطب للفاطميين فى الموصل وبغداد حيناً من الدهر .

وظهر كذلك فى هذا العصر كثير من الحركات السياسية والدينية على أيدى الخوارج والزنج . وعلى الرغم من أن العباسيين استطاعوا أن يقضوا على هذه الحركات ، إلا أنها شغلت الدولة العباسية وكلفتها كثيراً من الدماء والأموال . أضف إلى ذلك حركات المعتزلة الذين انتعش مذهبهم حيناً من الدهر وتأثروا بالفلسفة الإغريقية كما تأثر بها إخوان الصفاء مؤلفو الرسائل الفلسفية المشهورة ، وذاع مذهب السنة بظهور أبى الحسن الأشعرى ، وحجة الإسلام الغزالى ، وتطورت آراء المتصوفين ، فظهر منهم المعتدلون والغلاة على ما سيأتى .

١ — الاثنا عشرية

انضم فى أواخر الدولة الأموية فريق كبير من الزيدية الذين كانوا قد اعتزلوا زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على ، إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين . والإمام ، على ماذهب إليه الإمامية ، يكتسب حقه فى الإمامة بالوراثة عن علىّ بن أبى طالب باعتباره خليفة النبى شرعا . ويكون الإمام وارثا للنبى عن طريق ابنته فاطمة ، ويغلب فى اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه سناً . بيد أن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ قد أدى — على ما رأينا — إلى انقسام الشيعة الإمامية قسمين :

١ — الإمامية الموسوية : وقد أطلق عليهم فيما بعد الاثنا عشرية ، وكانوا يقولون بإمامة موسى الكاظم ، الابن الأصغر لجعفر الصادق . وهو عندهم الإمام السابع .

٢ — الإمامية الإسماعيلية : ويقولون بإمامة إسماعيل بن جعفر ، وكان أكبر أولاد أبيه . ومع أن وفاته كانت فى حياة أبيه سنة ١٤٥ هـ ، حوّل أنصار هذا المذهب إمامة إسماعيل إلى ابنه محمد

المستور ؛ وهو عندهم الإمام السابع . ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية ، لتمييزهم عن طائفة الاثناعشرية (١) .

وفى شعبان سنة ٢٥٥ هـ(٨٦٨م) ولد للحسن العسكرى (٢) ، وهو الإمام الحادى عشر عند الشيعة الإمامية ، ولد سماه محمدا من أم ولد اسمها صقيل . ويقول بعض المؤرخين إن محمدا هذا من أم ولد اسمها نرجس ، ويقول آخرون إنه من أم ولد اسمها سوسن . فلما توفى الحسن فى سنة ٢٦٠ هـ كان ابنه محمد فى الخامسة من عمره ، فأصبح الإمام الثانى عشر عند طائفة الإمامية الموسوية ، الذين عرفوا فيما بعد بطائفة الإمامية الاثنا عشرية . ويقال أن محمدا دخل سردابا فى مدينة سامرا وأمه تنظر إليه ، ولكنه لم يعد ، ولم يقف له أشياعه على أثر منذ ذلك الحين .

ومن هنا تنسب إلى محمد الإمام الثانى عشر غيبتان : الغيبة الصغرى ، وتبدأ بمولده فى سنة ٢٥٥ هـ وتنتهى بموت أبيه فى سنة ٢٦٠ هـ ، والغيبة الكبرى ، وتبدأ من اختفائه أخيرا فى سنة ٢٦٥ هـ إلى الآن . ولا يزال أنصاره ينتظرونه إلى اليوم . ولهذا يعتقد الإمامية الاثنا عشرية أن محمدا الامام الثانى عشر سيظهر ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا . ومن ثم سمى الإمام المنتظر ، وصاحب الزمان ، والقائم بالأمر ، والحجة .

وقد قال ابن حزم (٣) إن صقيلا أدعت الحمل بعد وفاة الحسن العسكرى بسبع سنين ، فوقف ميراثه ، وأن أخاه جعفر بن على نازعها فيه إلى سنة ٢٦٧ هـ ، فقضى له القاضى ، وانقسمت الشيعة بسبب ذلك فريقين :

١ — فريقا ناصر جعفرا

٢ — وفريقا آخر تعصب لصقيل ، ومن بينهم حسن بن جعفر النوبختى (٤) .

وقد عاشت صقيل بعد وفاة الحسن العسكرى عشرين سنة فى بيت الحسن النوبختى ، فراجت الإشاعات حول مقامها فى هذا البيت ، فأمر الخليفة العباسى المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) ، فحملت إلى قصره ، وظلت فيه إلى أن ماتت فى خلافة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) .

وقد ذكر المؤرخون عند كلامهم على الغيبة الكبرى سنة ٢٦٥ هـ أن الحسن العسكرى عهد بنشر دعوته إلى بعض رؤساء الشيعة : فكان أبو سعيد العمرى رئيس الإمامية الاثنا عشرية الوكيل

---

(١) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٤٤ — ٤٥

(٢) نسبة إلى العسكر . والمراد هنا مدينة سامرا التى أسسها الخليفة المعتصم لتكون معسكرا لجنده الأتراك ، ولكنها لم تلبث أن أصبحت حاضرة الخلافة العباسية نحو ستين سنة (٢٢١ — ٢٧٩ هـ) ، ثم عادت بغداد حاضرة هذه الخلافة .

(٣) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٩٤

(٤) نوبخت كلمة فارسية معناها البخت القريب ، وجعفر هذا كان فارسى الأصل ، وهو صاحب الزيج الذى قام برسم مدينة بغداد لأبى جعفر المنصور فصار بيته من أشهر البيوتات الفارسية فى الدولة العباسية .

الأول ، والنميرى الذى يعتبرونه أصل الطائفة النصيرية (١) الوكيل الثانى ، وحسن بن جعفر النوبختى الذى قامت الدعوة لآل علىّ على يد رجال من بيته الوكيل الثالث .

وقد ظلت طائفة الإمامية الاثنا عشرية معينا يمد طائفة الإمامية الإسماعيلية بمشهورى الدعاة الذين كان لهم أثر كبير فى تاريخ الإسماعيلية ، مثل ابن حوشب ، وابن فضل اليمنى اللذين قامت الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن بفضل جهودهما ، وأبى عبد الله الشيعى المحتسب الذى يرجع إليه الفضل فى نشر الدعوة الإسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب . ويظهر أن هؤلاء الدعاة الجريئين ملوا انتظار عودة الإمام الثانى عشر ، فعملوا على تحقيق آمالهم فى ظل إمام الإسماعيلية المستور الذى يترقب الفرص المواتية لكى يظهر للناس ويملأ الأرض عدلا ، ويؤثرون ذلك على انتظار الإمام الثانى عشر ، الذى طالت غيبته ، وغدا ظهوره فى نظرهم أمرا بعيد الوقوع (٢).

وقد ذكر دى جوبينو فى كتابه « الدين والفلسفة فى آسيا الوسطى (٣) » تأثير مذهب الاثنا عشرية وأهميته عند الفرس ، الذين كانوا ينظرون إلى أئمتهم كما ينظر المسيحيون إلى أقانيمهم ، ويعتقدون أن فى أيديهم مقادير العالم ، الذى يحيى بوجود هؤلاء الأئمة ويهلك بدونهم . كما أن الطاعة والتوسل إلى الأئمة من الأمور الضرورية عند طائفة الاثنا عشرية فى فارس . وهناك صلوات خاصة بهؤلاء الأئمة : من ذلك أن يوم الأحد مقدس عندهم من أجل على وفاطمه ، والساعة الثانية من كل يوم مقدسة كذلك من أجل الحسن ، والساعة الثالثة مقدسة من أجل الحسين ، والرابعة من أجل على زين العابدين ، والخامسة من أجل محمد الباقر ، والسادسة من أجل جعفر الصادق ، والسابعة من أجل موسى الكاظم ، والثامنة من أجل على الرضا ، والتاسعة من أجل محمد الجواد ، والعاشرة من أجل على النقى ، والحادية عشرة من أجل الحسن العسكرى الزكى ، والثانية عشرة من أجل محمد المهدى الحجة .

ويعتقد الإمامية الاثنا عشرية أن الله قد أخفى الإمام الثانى عشر عن أعين الخلق ، ولكنه لايزال حيا ، وهذه معجزة له . كما يقولون إنه يرى من وقت إلى آخر ، وإنه على اتصال بغيره ، وأن بيده تقدير حظوظ أشياعه (٤) .

وقد جعل الصفوية ، أنصار إسماعيل الصفوى فى فارس ، مذهب الإمامية الاثنا عشرية المذهب الرسمى فى هذه البلاد ، وذلك فى القرن السادس عشر الميلادى . فقد أمر إسماعيل الخطباء بأن تقام الخطبة باسم الإمامية الاثنا عشرية ، كما أمر المؤذنين أن يضيفوا الى الأذان عبارة « أشهد أن عليا ولى الله » ، وأمر الجند بقتل كل من يعارض ذلك . ولا يزال مذهب الاثنا عشرية مذهب الدولة فى إيران .

---

(١) من أشهر الفرق الاثنا عشرية وغلاتهم الذين يؤلهون على بن أبى طالب ، ولا يزال لهم بقايا فى فارس والشام .

(٢) Dozy : Histoire des Musulmanes d'Espagne, vol. III, p. 128.

(٣) De Gobineau : Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale, p. 60.

(٤) Donaldson : The Shi « ite Religion (Lond., 1933), p. 235.

٢ — الإسماعيلية أو السبْعية

(١) دور الستر

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (١) ، أن طائفة الإسماعيلية التى ذهبت إلى أن الأمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل ، لا ابنه موسى الكاظم ، أنكرت موت إسماعيل فى حياة أبيه وقالت إنه تغيب ، ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس ؛ كما قالت بعدم جواز تحويل الخلافة إلى موسى بعد وفاة أخيه إسماعيل ، لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ، ولا تكون إلا فى الأعقاب . ولم يكن لأخوى إسماعيل ، عبد الله وموسى ، فى الإمامة حق ، كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع على بن الحسين . وأصحاب هذا القول يسمون « المباركية » ، نسبة إلى رئيسهم المبارك مولى إسماعيل بن جعفر » (٢).

وقد قام النزاع بين الموسوية أشياع موسى الكاظم وبين الإسماعيلية أشياع أخيه إسماعيل ومحمد ابن إسماعيل من بعده . وهؤلاء يقولون ببطلان إمامة موسى ، لأنه قد نص على إمامة إسماعيل . و « أن النص لا يرجع القهقرى ، والقول بالبَداء (٣) محال (٤) » . إلا أن المعتدلين من الإسماعيلية لم يعترضوا على إمامة موسى فى حياة أبيه ، وقالوا إنه إمام مستودع (acting or trustee Imam) كالحسن بن على بن أبى طالب الذى لم يستطع أن يورث الإمامة لأبنائه ، رغم أنه كان إماما ، على حين كان الإسماعيلية يرون أن إسماعيل إمام مستقر (Permanent or necessary Imam) يستطيع أن يورِّث الإمامة لأبنائه ، فهو والحالة هذه كالحسين بن علىّ بن أبى طالب (٥). ويرى بعض آخر أن جعفر الصادق عهد بالإمامة إلى موسى الكاظم تقيَّة (٦) (تظاهرا بغير ما يخفى لتبقى سطوة الحاكم) ، حتى لا يتعرض أبناء إسماعيل ، وهم الأئمة الحقيقيون ، لاضطهاد العباسيين . ومن ذلك يتبين أن الإمام المستودع هو الذى يتمتع بالإمامة فى حياته ولا يستطيع أن يحولها إلى أبنائه من بعده ، كالحسن ابن على فى نظر الإمامية ، وموسى الكاظم فى نظر معتدلى الإسماعيلية ، وأن الإمام المستقر هو الذى يتمتع بالإمامة فى حياته ويستطيع أن يحولها إلى أبنائه من بعده ، كالحسين بن على وأبنائه من الأئمة ، وكإسماعيل بن جعفر فى نظر الإسماعيلية .

وقد ذكر الشهرستانى (٧) شيئا كثيرا عن آراء الإسماعيلية فى إمامة إسماعيل ، وأنهم نسبوا إليه أمورا خارقة للعادة فقال :

---

(١) ص ١٣٩

(٢) أبو محمد الحسن النوبختى : كتاب فرق الشيعة ص ٥٧ — ٥٨ ، ٧١ — ٧٢ ، ٩٠

(٣) يعنى أن الله سبحانه وتعالى يغير ما أراد (٤) الشهرستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ٢٧

(٥) Bernard Lewis (The Origins of Isma'ilism, pp. 49—52، Ivanow : Kalami Pir, p. xlvlll.

(٦) ويرى بعض المؤرخين أن جعفر الصادق خلع ابنه إسماعيل من الامامة لأنه رمى بشرب الخمر وسوء السيرة . ويعتقد أنصاره عصمته زاعمين أن شرب الخمر قد يكون لحكمة قد لا يستطيع المرء فهمها .

(٧) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ٢٧ — ٢٩

« إن الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثنا عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر، وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه فى بدء الأمر، قالوا: ولم يتزوج الصادق على أمه بواحدة من النساء، ولا اشترى جارية كسنة رسول الله فى حق خديجة، وكسنة على فى حق فاطمة؛ وذكرنا اختلافهم فى موته فى حال حياة أبيه. فمنهم من قال إنه مات، وإنما فائدة النص عليه انتقال الإمامة منه إلى أولاده خاصة، كما نص موسى إلى هارون عليهما السلام، ثم مات هارون فى حال أبيه. وإنما فائدة النص انتقال الإمامة منه إلى أولاده، فإن النص لا يرجع قهقرى. والقول بالبداء محال. ولا ينص الإمام على واحد من ولده إلا بعد السماع من آبائه، والتعيين لا يجوز على الإبهام والجهالة. ومنهم من قال إنه لم يمت، لكن أظهر موته تقية عليه حتى لا يُقصد بالقتل. ولهذا القول دلالات منها أن محمدا كان صغيرا، وهو أخوه لأمه مضى إلى السرير الذى كان إسماعيل نائما عليه، ورفع الملاءة. فأبصره وهو قد فتح عينيه وعاد إلى أبيه مفزعا، وقال: عاش أخى، عاش أخى. قال والده: إن أولاد الرسول كذا يكون حالهم فى الآخرة، قالوا: وما السبب فى الإشهاد على موته؟. وكتب المحضر عليه، ولم يعهد ميتا سجل على موته. وعن هذا لما رفع إلى المنصور أن إسماعيل بن جعفر رؤى بالبصرة مر على مُقعد، فدعا فبرىء باذن الله. بعث المنصور إلى الصادق أن إسماعيل فى الأحياء وأنه رؤى بالبصرة، أنفذ السجل إليه وعليه شهادة عامله بالمدينة. قالوا: وبعد إسماعيل محمد بن إسماعيل السابع التام، وإنما تم دور السبعة به، ثم ابتدأ منه بالأئمة المستورين الذين كانوا يسيرون فى البلاد ويظهرون الدعاة جهرا. قالوا: ولن تخلو الأرض قط من إمام حى قاهر، إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور، فإذا كان الامام ظاهرا، يجوز أن يكون حجته مستورة، وإذا كان الإمام مستورا فلا بد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين، وقالوا: إنما الأئمة تدور أحكامهم على سبعة كأيام الأسبوع والسموات السبع والكواكب السبع، والنقباء تدور أحكامهم على اثنى عشر، قالوا: وعن هذا وقعت الشبهة للامامية القطعية حيث قرروا عدد النقباء للائمة، ثم بعد الأئمة المستورين كان ظاهر المهدى والقائم بأمر الله وأولادهم نصا بعد نص على إمام بعد إمام. ومذهبهم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية. وكذلك من مات ولم يكن فى عنقه بيعة إمام، مات ميتة جاهلية. وكانت لهم دعوة فى كل زمان ومقالة جديدة بكل لسان. فنذكر مقالاتهم القديمة ونذكر بعدها صاحب الدعوة الجديدة ».

١ — رياسة الدعوة :

كان من أثر تضييق الخلفاء العباسيين الخناق على الشيعيين عامة، أن عمد أئمة الإسماعيلية إلى الاختفاء ونشر دعوتهم فى طى الكتمان. ولا غرو فقد أوقع العباسيون بمحمد النفس الزكية فى الحجاز وبأخيه ابراهيم فى العراق سنة ١٤٥ هـ، وقتلوا الحسين بن على بن الحسن فى موقعة فخ (سنة ١٦٩هـ) التى كانت بعيدة الأثر فى تاريخ الشيعة. فقد هرب منها اثنان من العلويين هما يحى بن عبد الله صاحب الديلم، وأخوه إدريس بن عبد الله الذى أسس دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى. كذلك

خرج من أبناء جعفر الصادق ، محمد الديباج بمكة فى خلافة المأمون ، كما خرج عليه القاسم بن إبراهيم ابن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ، الذى استتر نحوا من عشر سنين ، وبث دعاته فى مكة والمدينة والكوفة والرى وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم، وفى بلخ والطالقان ومرو ، وظل على ذلك إلى أن انتقض عليه أمره فى عهد المعتصم (١) .

لذلك لانعجب إذا رأينا أئمة الإسماعيلية يلجئون إلى نشر دعوتهم فى الخفاء ، وفى بلاد بعيدة عن مركز الدولة العباسية ، ليدرءوا عن أنفسهم ماأضمره لهم العباسيون من حنق ونقمة (٢) ، حتى إن محمد بن إسماعيل فر إلى الرى ، ومنها إلى دماوند (٣) ، حيث استقر بقرية سميت محمد أباد نسبة إليه . وسار أبناؤه على منواله ، فاختفوا فى خراسان ، وفى إقليم قندهار ، وفى السند، وأخذ دعاتهم يجوبون البلاد لجذب الأشياع إليهم (٤) .

وقد اتخذ أئمة الإسماعيلية مدينة سلمية من أعمال حماه ببلاد الشام مركزا لنشر هذه الدعوة ، وكانوا يبعثون من هذه المدينة الدعاة إلى كافة الأقطار الإسلامية ، ويعهدون فى تنظيم الدعوة إلى كبار الدعاة الذين كان يطلق عليهم فى هذا الدور ، وهو دور الستر ، نواب الأئمة أو الحجج (٥)، وهؤلاء يرسلون دعاة من قبلهم لنشر المذهب الإسماعيلى فى أرجاء العالم الإسلامى .

ومن أشهر نواب الأئمة الإسماعيلية الذين تصدوا لنشر هذا المذهب ، وكانت إليهم رياسة هذه الدعوة ، ميمون القداح الذى وضع دعامة المذهب الإسماعيلى ، حتى اعتقد بعض المؤرخين أنه هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق نفسه ، (٦) واعتقد بعض آخر أنه كان يصدر فى عمله عن ميول شعوبية ترمى إلى مقاومة الإسلام وإعادة النفوذ إلى الفرس ، وأنه إنما اتخذ قداحة العيون أو تطبيبها (هى عملية استخراج ماء من العين Gloucoma) وسيلة لإخفاء أغراضه الأصلية ، وهى نشر المذهب الإسماعيلى ، ومهد بذلك السبيل لابنه عبد الله بن ميمون .

وقد وصف المقريزى (٧) عبد الله فقال إنه كان عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب ، وأنه اعتنق مذهب الشيعة ، لا للدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق أو ابنه محمد ، بل كان ذلك

---

(١) أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ١٢٦ — ١٣٠

(٢) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٤٨ — ٤٩

(٣) جبل قرب الرى — أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ Levy : The Accounts of Ismal'ili Doctrines in the Jam' i-at Tawarikh of Rashid -i-al Dln Fadlallah (J. R. A. S.), 1930, p. 522

(٥) كتاب عقيدة الاسماعيلية (نشره جويار) Fragments relatifs à la Doctrine des Ismàelis (Paris, 1874), pp. 188-9

(٦) Prince Mamour : Polemics on the Origin of the Fatimid Caliphs , p. 52.

(٧) خطط ج ٢ ص ٣٤٨

لحيلة اتخذها ليجمع حوله انصارا ، بمعنى أنه اتخذ هذه الدعوة وسيلة لتنفيذ أغراضه ، وهى تكوين دولة فارسية . ويعتبر عبد الله المؤسس الحقيقى لذلك المذهب الإسماعيلى الذى انتشر بين القرامطة وغيرهم .

وذكر النويرى(١) أنه « كان من كبار الشعوبية رجل يسمى محمد بن الحسن بن جهار نجار، الملقب دندان ، وهو بنواحى الكرج وأصبهان ، له حال واسعة وضياع عظيمة ، وهو المتولى على تلك المواضع . وكان يبغض العرب ويذمهم ، ويجمع معايبهم . وكان كل من طمع فى نواله تقرب إليه بذم العرب ، فسمع به عبد الله بن ميمون القداح ، وما ينتحله من بغض العرب وصنعة النجوم ، فسار اليه . وكان عبد الله يتعاطى الطب وعلاج العين ، ويقدح الماء النازل فيها ، ويُظهر أنه إنما يفعل ذلك حسبة (زلفى إلى الله) ، وتقربا إلى الله عز وجل بنواحى أصفهان الجبل . فأحضره دندان ، وفاتحه الحديث ، فوجده كما يحب ويهوى ، وأظهر له عبد الله من مساوىء العرب والطعن عليهم أكثر مما عنده ، فاشتد إعجابه به وقال له : مثلك لا ينبغى أن يطب ، وإن قدرك يرتفع ويجل عن ذلك ، فقال : إنما جعلت ذلك ذريعة لما وراءه ، ألقيه الى الناس وإلى من أسكن إليه على مهل ورفق من الطعن على الإسلام . وأنا أشير عليك ألا تظهر ما فى نفسك الى العرب ومن يتعصب لهذا الدين ، فإن هذا الدين قد غلب على الأديان كلها ، فما يطيقه الروم ولا الترك ولا الفرس والهند مع بأسهم ونجدتهم . وقد علمت شدة بابك صاحب الخرمية وكثرة عساكره ، وانه نفسك ، والزم التشيع والبكاء على أهل البيت ، فانك تجد من يساعدك من المسلمين ، ويقول هذا هو الإسلام . وسب أبا بكر وعمر ، وانع عليهما عداوة الرسول وتغيير القرآن وتبديل الأحكام ، فانك إذا سببتهما سببت صاحبهما ، فإذا استوى لك الطعن عليهما ، فقد اشتفيت من محمد ، ثم تعمل بعد ذلك فى استئصال دينه . ومن خرج على ذلك ، فقد خرج من الإسلام من حيث لا يشعر ، وينم لك الأمر كما تريد . فقال دندان : هذا هو الرأى ، ثم قال له عبد الله : إن لى أصحابا وأتباعا أبثهم فى البلاد ، فيظهرون التقشف والتصوف والتشيع ، ويدعون إلى ما نريده من إحكام الأمر . فاستصوب دندان ذلك وسر به ، وبعث لعبد الله القداح ألفى ألف دينار ، فقبل المال وفرقه فى كور الأهواز وسواد الكوفة ، وبطالقان خراسان ، وسلمية من أرض حمص . ثم مات دندان ، فخرج عبد الله إلى البصرة وسواد الكوفة ، وبث الدعاة ، وتقوى بالمال ، وتدبر الحال » .

اتخذ عبد الله الأهواز مركزاً لنشر دعوته . ولما اتصل خبره بواليها أضمر له الشر ، ففر إلى البصرة . وقد عزا المقريزى(٢) هرب عبد الله إلى ماظهر منه «من التعطيل والإباحة والمكر والخديعة، فثارت به الشيعة والمعتزلة ، فكبسوا داره ؛ ففر إلى البصرة » ، وأقام فى أسرة عقيل بن أبى طالب ،

---

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب : مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٠ تاريخ ج ٢٦ ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢) اتعاظ الحنفا ص ١٢

مدعيا انتماءه إليهم ، فحامت حوله الشبهات ، فرحل الى الشام ، وأقام فى سلمية إلى أن مات بها (١) .

وقد وضع عبد الله بن ميمون أساس الدعوة لبث عقائد المذهب الإسماعيلى أو مذهب السبعية الذى يدعو إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، وابتدع لذلك دعوة منظمة قسمها إلى سبع درجات أو مراتب ، زيدت بعده حتى أصبحت تسعا فى أيام الفاطميين . ولم يمت عبد الله حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد راجت فى كثير من البلاد الإسلامية على ما سنرى .

خلفاء ابن ميمون القداح :

لما مات عبد الله بن ميمون القداح خلفه فى رياسة الدعوة الإسماعيلية ابنه أحمد (٢). ويرى ابن النديم (٣) أن الذى خلف عبد الله ابنه محمد . وذكر ابن عذارى (٤) ، والمقريزى (٥) والنويرى (٦) أن أحمد هو الذى خلف أباه عبد الله وأنه كان يلقب أبا الشلعلع . ويظهر أن عبد الله اتخذ من سلمية مركزا رئيسا لنشر الدعوة ، وعين ابنه الحسين لرياسة الدعوة بها ، كما عين ابنه أحمد أبا الشلعلع لرياسة الدعوة فى بعض مدن العراق ، وخاصة الكوفة وبغداد ، وعين أحد أولاده لرياسة الدعوة فى فارس . ولما مات الحسين بن عبد الله حول سنة ٢٦٠ هـ ، عهد عبد الله إلى ابنه أحمد أبى الشلعلع برياسة الدعوة فى سلمية والعراق . ومن ثم انتقلت إليه رياسة الدعوة بعد موت أبيه حول سنة ٢٧٠ هـ ، وأصبح وصيا على سعيد ابن أخيه الحسين الذى يزعم بعضهم أنه عبدالله المهدى أول الخلفاء الفاطميين. وقد بعث أحمد هذا ابن حوشب لنشر الدعوة فى بلاد اليمن ، كما بعث أبا عبد الله الشيعى إلى اليمن لتلقى أصول الدعوة عن ابن حوشب قبل رحيله إلى بلاد المغرب .

٢ — القرامطة

(ب) فى سواد الكوفة

أرسل عبدالله بن ميمون ، وهو فى الأهواز أحد دعاته وهو الحسين الأهوازى ، الذى يقول دى غويه (٧)

---

(١) يرى دى غويه Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides, p. 19. أن هرب عبد الله بن ميمون حدث حول سنة ٢٧٠هـ، وأن ابنه أحمد أصبح على رأس الدعوة فى سنة ٢٧٤ هـ . فلا بد أن تكون وفاته قد حدثت بين سنتى ٢٧٠ ، ٢٧٤ هـ

(٢) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٤٨ ، ووافقه على ذلك النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط جـ ٢٦ ص ٢٤

(٣) الفهرست ص ٢٦٥

(٤) البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ١ ص ٢٩٤

(٥) جـ ١ ص ٣٤٨ (٦) نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٢٤

(٧) De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides, p. 18.

إنه ابنه ، إلى سواد الكوفة حيث لقى حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط [١] ، الذى لم يلبث أن دخل فى الدعوة وساعد على نشرها ، كما ساعد الحسين الآهوازى على جذب كثير من الناس إلى دعوته بفضل ما كان يظهره من التقشف والورع ، « فكان يأخذ من الرجل إذا دخل فى دينه دينـاراً ، ويزعم أنه يأخذ ذلك للامام . فمكث بذلك يدعو أهل القرى (فى سواد الكوفة) فيجيبونه ، واتخذ منهم اثنى عشر نقيباً أمرهم أن يدعوا الناس إلى دينهم ، وقال لهم : أنتم كحوارى عيسى بن مريم » [٢] .

وقد ترك الحسين الأهوازى أمر الدعوة فى سواد العراق إلى حمدان قرمط ، الذى اتخذ كلواذا إحدى ضواحى بغداد ، مركزاً لنشر هذه الدعوة . ولم يلبث أن زاد عدد أتباعه الذين أمرهم فى سنة ٢٧٦ هـ بشراء الأسلحة ، وأنشأ أول دار للهجرة فى السنة التالية . ويقول النويرى [٣] :

« وظهر فى كثير منهم الفجور ، وبسط بعضهم أيديهم لسفك الدماء ، وقتل جماعة ممن أظهر خلافا لهم ، فخافهم الناس واستوحشوا من ظهور السلاح بينهم . فأظهر موافقتهم كثير من مجاوريهم جزعا منهم . ثم إن الدعاة اجتمعوا واتفقوا على أن يجعلوا لهم موضعا ، يكون وطنا ودار هجرة يهاجرون إليها ويجتمعون بها ، فاختاروا من سواد الكوفة ... قرية ... فحازوا إليها صخرا عظيما ، وبنوا حولها سورا منيعاً ، عرضه ثمانية أذرع ، ومن ورائه خندق عظيم ، وفرغوا من ذلك فى أسرع وقت ، وبنوا فيها البناء العظيم . وانتقل إليها الرجال والنساء من كل مكان ، وسميت دار الهجرة ، وذلك فى سنة سبع وسبعين ومائتين . فلم يبق حينئذ أحد إلا خافهم ، ولا بقى أحد يخافونه ، لقوتهم ولتمكنهم من البلاد » .

وقد صادفت الدعوة الإسماعيلية على يد حمدان قرمط رواجا عظيما بين العرب ، حتى إنه عهد إلى بعض العرب فى نشر الدعوة بين العناصر العربية . كما سن حمدان قرمط نظاماً مالياً متقنا ، ففرض على كل من الرجال والنساء درهما سماه « الفطرة » ، ثم فرض « الهجرة » ، وهى دينار على كل شخص بالغ . واستند فى فرض هذه الأموال إلى ما جاء فى القرآن الكريم فى سورة التوبة [٤] (خذ من أموالهم

---

(١) اختلف المؤرخون فى أصل كلمة قرمط ، فقال المقريزى (اتعاظ الحنفا ص ١٠١) إن حمدان بن الأشعث كان قصير القامة والسير ، وكانت خطواته متقاربة ، فأطلق عليه اسم قرمط . وفى القاموس مايوضح هذا الاشتقاق إذ يقول : « القرمطة دقة الكتابة ومقاربة الخطو » . وقيل أيضا إنه كان فى القرية رجل أحمر العينين يحمل على أثوار له ، يسمونه كرميتة لحمرة عينيه (ومعناه بالنبطية أحمر العين) ، فسمى باسم الرجل الذى فى دار كرميته ، ثم خفف اللفظ فصار قرمط . وقال المنصورى (زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة : مخطوط بجامعة فؤاد الأول ج ٥ ورقة ٩٦) إن لفظ قرمط ينسب إلى محمد الوراق الذى يعرف بالمقرمط . وقد تم على يديه انتشار المذهب الاسماعيلى بين القرامطة .

(٢) الطبرى ج ١١ ص ٣٣٨

(٣) نهاية الأرب : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقه ٦٩

(٤) آيه رقم ١١٢

صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم) . ثم فرض عليهم «البُلغة» ، وهى سبعة دنانير ، وزعم أن ذلك بلاغ من يريد الإيمان والدخول فى السابقين المذكورين فى قوله تعالى (والسابقون السابقون أولئك المقربون) (١) . ووضع حمدان طعاما حلواً لذيذا على قدر البندق ، أعطى واحدة منها لكل من أدى اليه سبعة دنانير ، وزعم أن ذلك طعام أهل الجنة ، نزل إلى الامام من ولد على بن أبى طالب . فكان يعطى كل داع مائة بلغة ويطالبه بأداء سبعمائة دينار عنها ، لكل واحدة منها سبعة دنانير . ثم تدرج من ذلك كله الى أن فرض خمس ما يملكه أتباعه ويربحونه ، معللا ذلك بقوله تعالى فى سورة الأنفال(٢) (واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأن لله خمسه ، وللرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) . (٣) ولم يلبث أن فرض على الناس « الألفة » . يقول النويرى (٤) .

« ثم فرض عليهم « الألفة » ، وهى أن يجمعوا مواليهم فى موضع واحد ، وأن يكونوا فيه أسوة واحدة ، لا يفضل أحد منهم صاحبه ولا أخاه فى ملك يملكه ، وتلا عليهم : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) (٥) وقوله : (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) (٦) . وعرفهم أنه لا حاجه بهم إلى أموال تكون معم ، لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم وقال : هذه محنتكم التى امتحنتم بها ليعلم كيف تعملون . وطالبهم بشراء السلاح وإعداده ، وذلك كله فى سنة ست وسبعين ومائتين . وأقام الدعاة فى كل قرية رجلا مختارا من ثقاتها ، يجمع عنده أموال أهل قريته ، من بقر وغنم وحلى ومتاع وغيره . وكان يكسو عاريهم ، وينفق على سائرهم ما يكفيهم ، ولا يدع فقيرا بينهم ولا محتاجا ولا ضعيفاً ، وأخذ كل رجل منهم بالانكماش(٧) فى صناعته والمكسب جهده ، فيكون له الفضل فى رتبته . وجمعت المرأة كسبها من مغزلها ، والصبى أجرة نظارته للطير ، وأتوه بها ؛ فلم يتملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه » .

وكان عبدان صهر حمدان قرمط من أكبر دعاته (٨) ، وكان مشهورا بعلمه وتشيعه . ويقول النويرى(٩) : « كان فطناً خبيثاً ، خارجا عن طبقة نظرائه من أهل السواد ، ذا فهم وحذق . فكان يعمل عند نفسه على حد قد نصب له ، من غير أن يجاوزه إلى غيره من خلع الاسلام ، ولا يظهر غير التشيع والعلم ، ويدعو إلى الإمام من آل رسول الله ، محمد بن إسماعيل بن جعفر » .

وقد صادفت الدعوة الإسماعيلية على يد عبدان كثيرا من النجاح ، حتى إن أبا سعيد الجنابى ،

---

(١) سورة الواقعة آية ٩ — ١٠ (٢) آية ٤٠

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٤ — ١٠٥

(٤) نهاية الأرب : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٥٨

(٥) سورة آل عمران آية ١٠٢ (٦) سورة الأنفال آية ٦٢ (٧) الاجتهاد والتشمير

(٨) قد قيل إن كلا منهما تزوج من أخت الآخر

(٩) نهاية الأرب : ج ٢٣ ورقة ٢٦ .

مؤسس دولة القرامطة فى بلاد البحرين ، وزكروية بن مهرويه زعيم قرامطة الشمال ، أى شمال عرب بلاد العراق وبادية السماوة وبعض بلاد الشام ،قد أخذوا الدعوة عنه .

ولم يلبث أن اختفى حمدان قرمط ، وقتل عبدان ، على أثر انتقاضهما على أبناء القداح بعد سنة ٢٨٠ هـ ، وتحول نشاط القرامطة نحو الشمال على يد زكرويه ، ونحو الجنوب على يد أبى سعيد الجنابى كما سيأتى .

(ب) فى شمال العراق الغربى وبلاد الشام :

كان زكرويه بن مهرويه من أكبر دعاة حمدان كما رأينا ، وقد نشأ فى إحدى قرى سواد الكوفة، حيث أخذ يدعو إلى إمامة محمد بن إسماعيل . وبانتقاض حمدان وعبدان على رياسة الدعوة انضم زكرويه الى أبناء القداح وقتل عبدان . ولما أخذ قرامطة السواد والعباسيون أنفسهم يضيقون عليه الخناق ، اختفى فى مطمورة (١) ، وبدأ يوجه دعوته فى الخفاء ، وبعث أبناءه لنشر الدعوة الإسماعيلية فى بنى كلب على مقربة من الرقة ، ونجح ابنه يحيى بن زكرويه فى جذب طائفة من هؤلاء العرب اليه .

وامتد نشاط هذا الفرع فى شمال العراق الغربى وبادية السماوة وبعض مدن الشام . وتسمى هذه الحركة حركة الجزيرة العراقية والشام (The Syro - Meso - potamian Movement)(٢) .

ويقول الطبرى (٣) : « فأرسل زكريه أولاده إليهم ، فبايعوهم وخالطوهم ، وانتموا إلى على بن أبى طالب ، وإلى محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وذكروا أنهم خائفون من السلطان ، وأنهم ملجئون إليهم ، فقبلوهم على ذلك . ثم دبوا فيهم بالدعاء (٤) إلى رأى القرامطة . فلم يقبل ذلك أحد منهم ، أعنى من الكلبيين ، إلا الفخذ المعروفة ببنى العُليص بن ضمضم بن عدى بن جناب ، ومواليهم خاصة ، فبايعوا فى آخر سنة تسع وثمانين ومائتين بناحية السماوة ، ابن زكرويه المسمى بيحيى والمكنى أبا القاسم ، ولقبوه الشيخ ، على أمر احتال فيهم ولقب به نفسه ، وزعم لهم أنه أبو عبد الله بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ... وقيل إنه لم يكن لمحمد ابن إسماعيل ابن يسمى عبد الله ، وزعم لهم أن أباه المعروف بأبى محمود داعية له ، وأن له بالسواد والمشرق والمغرب مائة ألف تابع ، وأن ناقته التى يركبها مأمورة ، وأنهم إذا اتبعوها فى مسيرها ظفروا . وتكهن لهم ، وأظهر عضدا له ناقصة ، وذكر أنها آية . وانحازت إليه جماعة من بنى الأصبغ وأخلصوا له ، وتسموا بالفاطميين ، ودانوا بدينه » .

ولم تلبث دعوة يحيى بن زكريه أن انتشرت فى بلاد الشام ، حتى إنه حاصر دمشق نفسها فى سنة ٢٨٩ هـ ، وضيق الحصار على طغج بن جف أبى محمد بن طغج الإخشيد ، وكان يلى بلاد الشام من

---

(١) المطمورة الحفيرة التى تحت الأرض ، وتستخدم لخزن الغلال ، كما تستخدم أيضا لحبس الأشخاص الخطرين

(٢) Bernard Lewis: The Origins of Ismailism, pp. 73–4

(٣) جـ ١١ ص ٣٧٧ — ٣٧٨

(٤) يريد أنهم نشروا فيهم مذهب القرامطة شيئا فشيئا بالحيلة والدهاء أى تدرجوا معهم

قبل الطولونيين . ولم ينقذه إلا بدر الكبير الذى أرسله إليه هارون بن خمارويه . وقتل يحيى على أبواب دمشق ، فانتقلت رياسة الدعوة إلى أخيه الحسين بن زكرويه الذى ادعى ، كأخيه يحيى ، الانتساب إلى محمد بن إسماعيل (١) .

وقد استمرت حركة الحسين بن زكرويه مصدرا للقلق والانزعاج فى بلاد الشام ، حتى قضى عليه محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسى المكتفى فى سنة ٢٩١ هـ . ومن ثم تحول مركز نشاط قرامطة الشمال نحو الكوفة نفسها ، وخرج زكرويه من مخبئه وحارب ضد العباسيين ، وفتك بقوافل الحجاج انتقاما لقتل ابنيه ورغبة فى نشر الدعوة الإسماعيلية ، إلى أن قضت عليه جيوش العباسيين فى سنة ٢٩٤ هـ (٢) .

(ج) فى البحرين :

انتشرت الدعوة الإسماعيلية فى القطيف على يد الحسين بن بهرام ، ويكنى أبا سعيد الجنابى (٣) ، وكان فارسى الأصل . وقد التف حوله جماعة من الأعراب والنبطيين الذين رحبوا بدعوته ، لأنه مناهم « ملك الأرض كلها » (٤) . وما لبث أن استفحل أمره وقويت شوكته ، وقتل من وقف فى طريقه من أهل القطيف .

وفى سنة ٢٨١ هـ سار إلى القطيف رجل من كبار دعاة الإسماعيلية ، يدعى يحيى بن المهدى ، وادعى أنه رسول المهدى من بيت على بن أبى طالب . فأجاب دعوته أهل هذه المدينة وسائر بلاد البحرين . ولم يلبث يحيى أن غاب عن الناس مدة ، ثم عاد يحمل كتاباً ادعى فيه أنه من المهدى إلى شيعته ، يأمرهم فيه بأن يدفع كل منهم إلى يحيى ستة دنانير وثلثين ، ففعلوا . ثم غاب مدة أخرى ، وعاد ومعه كتاب يبلغهم فيه أن المهدى يريد منهم أن يدفعوا إلى يحيى خمس أموالهم ، ففعلوا أيضاً (٥) .

وممن أجاب يحيى بن المهدى ، أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى الذى قوى أمره وانتشرت دعوته وامتد نفوذه إلى أرجاء البحرين كافة . وأغار فريق من القرامطة بقيادة أبى سعيد على هجر ، ولم يلبث أن أتم فتح بلاد البحرين واليمامة ، وحاول فتح عمان ، ولكنه لم يستطع ، وترك ذلك لابنه أبى طاهر . وقد خشى الخليفة المعتضد تفاقم خطر أبى سعيد ، وخاف أن يقع فى يده جنوبى

---

(١) المسعودى : التنبية والاشراف ص ٣٢٢

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٢٣ — ١١٤

(٣) نسبه إلى جنابة ، وهى بليدة على ساحل الخليج الفارسى شرقا
أنظر القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد (طبعة جوتنجن) ص ١٢١

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٨

(٥) ابن الأثير ج ٧ ص ١٧٥

بلاد العراق ، فعزل العباس بن عمرو الغنوى عن ولاية فارس ، وأقطعه اليمامة والبحرين ، وعهد إليه بحرب القرامطة .

سار العباس إلى البصرة حيث انضم إليه كثير من المتطوعين ، ثم واصل السير إلى البحرين ، فهزمه أبو سعيد الجنابى ، واستولى على ما كان معه من سلاح وكُراع ، وقتل الأسرى وأحرقهم ، حتى إنه لم ينج منهم سوى قائدهم العباس الغنوى ، الذى لقب بعد هذه الموقعة « قائد الشهداء » . وقد أرسل أبو سعيد مع العباس كتابا طويلا حاول فيه أن يثير مخاوف الخليفة العباسى حتى لا يفكر فى غزو بلاده (١) .

على أن المعتضد لم يعر هذا الكتاب اهتماما ، بل صمم على حرب أبى سعيد والقضاء على دعوته فى بلاد البحرين ، وعبر عن ذلك بهذه العبارة : « والله لئن طال بى عمر ، لأشخصن بنفسى إلى البصرة ، وجميع غلمانى ، ولأجهزن اليهم جيشاً كثيفاً . فان هزمهم ، خرجت فى جميع قوادى وجيشى اليه ، حتى يحكم الله بينى وبينه » (٢) .

وقد أثر عن المعتضد أنه قال وهو فى مرضه الأخير : « والله لقد كنت وضعت فى نفسى ، أن أركب ثم أخرج إلى باب البصرة ، متوجها نحو البحرين ، ثم لا ألقى أحداً أطول من سيفى إلا ضربت عنقه . وإنى أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة » (٣)

لم تقع بين أبى سعيد الجنابى والدولة العباسية حروب فى عهد الخليفة المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) اماملين هامين :

الأول : رغبة أبى سعيد نفسه فى عدم الدخول فى حرب مع العباسيين لاشتغاله بتنظيم شئون بلاده الداخلية .

الثانى : اشتغال العباسيين عن أبى سعيد بصراعهم مع قرامطة الشمال بزعامة زكرويه بن مهرويه وأبنائه كما تقدم .

وقد عمل أبو سعيد على تكوين مجتمع إسماعيلى يدين له بالطاعة والولاء وطارد من جاوره من بنى ضبة ، وكانوا قد انضموا إلى جيوش العباس الغنوى ، حتى لا يكونوا عيونا عليه . وقد وصف لنا هذا المجتمع النويرى (٤) ، وعنه أخذ المقريزى (٥) ، فى هذه العبارة ، قال :

---

(١) راجع نص هذا الكتاب فى De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides, pp. 210—12 نقلا عن كتاب العيون المخطوط بمكتبة برلين

(٢) النويرى نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية جـ ٢٣ ورقة ٧٣ — ٧٤

(٣) المصدر نفسه جـ ٢٣ ورقة ٧٤ .

(٤) المصدر نفسه جـ ٢٣ ورقة ٧٤

(٥) اتعاظ الحنفا ص ١١١ — ١١٢

« وأقبل أبو سعيد بعد إطلاق العباس . على جمع الخيل وإعداد السلاح ، واتخاذ الإبل ، وإصلاح الرجال ، ونسج الدروع والمغافر (١) ، ونظم الجواشن (٢) والمزاد (٣) والقرب ، وتعليم الصبيان الفروسية . وطرد الأعراب عن قُربه ، وسد الوجوه التى يتعرف فيها أمر بلده وأحواله بالرجال ، وإصلاح أراضى المزارع وأصول النخل وعمارته ، وإصلاح مثل هذه الأمور وتفقدها ، ونصب الأمناء على ذلك وإقامة العرفاء (٤) على الرجال ، والاحتياط على ذلك كله ، حتى بلغ من تفقده واحتياطه أن الشاة كانت تذبح ، ويسلم اللحم إلى العرفاء ليفرقوه على من يرسم لهم ، ويدفع الرأس والأرکاع والبطن إلى العبيد والإماء ، ويجز الصوف والشعر من الغنم ويفرق على من يغزله ، ثم يدفع إلى من ينسجه عبيا وأكسية ، وغرائر وجوالقات (٥)، ويفتل منه حبالا ، ويسلم الجلد إلى الدباغ . فاذا خرج من الدباغ ، سلم إلى خرازى القرب والروايا والمزاد ، وما كان من الجلود يصلح نعالا وخفافا (٦) عمل منه ، ثم يجمع ذلك كله إلى خزائن . فكان ذلك دأبه لا يغفل عنه ، ويوجه فى كل مديدة بخيل إلى ناحية البصرة ، فتأخذ من وجدت ، فتصير بهم إليه ، فيستعبدهم ، فزادت بلاده وعظمت هيبته فى صدور الناس .

وهكذا استطاع أبوسعيد أن ينظم مجتمعة ويكون من أبناء الأسرى وأبناء أتباعه جيشا لا يعرف غير الطعن والنزال حرفة ، وطاعة الرئيس دينا ، فجمع « الصبيان فى دور ، وأقام عليهم قوادا ، وأجرى عليهم مايحتاجون اليه ، ووسمهم جميعهم على الخدود لئلا يختلطوا بغيرهم ، وغرّف عليهم غرفا ، وعلم من صلح لركوب الخيل والطعان : فنشأوا لا يعرفون غيره ، وصارت دعوتهم اليهم » (٧) .

وصفوة القول أن القرامطة فى دور الستر قد أقلقوا العباسيين ؛ فأشعلوا الفتن فى سواد الكوفة ، وفى العراق العربى وبادية السماوة ، وفى أكثر أرجاء سورية ، وكان لهم أثر كبير فى سقوط الدولة الطولونية أضف إلى ذلك ما لقيه أبو سعيد من نجاح فى القطيف وفى بلاد البحرين واليمامة .

---

(١) جمع مغفر وهو زرد ينسج على قدر الرأس ويلبس تحت القلنسوة

(٢) جمع جوشن وهو الدرع (٣) لحمل الزاد

(٤) جمع عريف وهو من يكون على النفير ، والنفير عدة رجال من ثلاثة إلى عشرة كما يكون المنكب على خمسة عرفاء ، والأمير فوق هؤلاء ، أو من يعرف أصحابه ويقوم بأمرهم .

(٥) الجوالقات والغرائر شىء واحد وهو العدل من الصوف أو الشعر

(٦) الخفاف جمع خف وهو مايلبس بالقدم

(٧) النويرى نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧١
وقد ذكر المقريزى (اتعاظ الحنفا ص ١٠٩) العبارة الأخيرة على النحو الآتى « فنشأوا لايعرفون غير الحرب ، وقد صارت دعوته طبعا لهم »

٣ — ابن حوشب فى اليمن :

يرجع نجاح الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن إلى أبى القاسم الحسن بن أبى الفرج ، ويعرف بابن حوشب ، وبمنصور اليمن(١). وقد ولد ابن حوشب بالكوفة . وأمدنا أبو حنيفة النعمان المغربى ، الذى تفقه فى عقائد المذهب الإسماعيلى ، وعاصر من الخلفاء الفاطميين المهدى والقائم والمنصور والمعز ، بمعلومات طريفة عن حياة ابن حوشب ، وعن أثره فى نشر عقائد هذا المذهب ، فيقول إنه نشأ فى أسرة اشتهرت بالعلم ، وخاصة الفقه والحديث . وكان يدين فى مستهل حياته بعقائد مذهب الإمامية الاثنا عشرية كسائر أفراد أسرته ، ثم تحول إلى الإسماعيلية على يد محمد الحبيب أبى عبد الله المهدى ، وأخذ عنه عقائد هذا المذهب ، وأصبح من خواصه المقربين إليه (٢) . وما زال كذلك حتى أرسله بصحبة ابن فضل الجدنى (٣) إلى بلاد اليمن حيث أقامه على رياسة الدعوة فى هذه البلاد . وقد

---

(١) سماه المقريزى « اتعاظ الحنفا ص ١١٣ » : أبا القاسم الحسن بن فرج الصناديق النجار

(٢) وقد وصف ابن حوشب نفسه كيف اتصل برياسة الدعوة الاسماعيلية ، وكيف تحول من مذهب الاثناعشرية واعتقد عقائد المذهب الاسماعيلى فيقول: إنه بينما كان يفكر ذات مرة تذكر القول المأثور عن على بن محمد بن على بن موسى الكاظم فى سنة ٢٥٢ هـ « ٨٦٨م » من أن المهدى سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة ، أى فى سنة ٢٩٦ هـ « ٩٠٨م » وقصيدة الفهرى التى ردد فيها تنبؤ على بن محمد بن على بن موسى فقال :

ألا ياشيعة الحق ذوى الايمان والبر
ومن هم نصرة الله على التخويف والزجر
فلا تدعوا إلى الداعين أهل النكث والغدر
فلو قد فقد العاشر أو زيد على العشر
لدارت عقب الضر على الدائر بالشر
فعند الست والتسعين قطع القول فى العذر
لأمر ما يقول النا س بيع الدر بالبعر
وصار الجوهر المكنون علقا غير ذى قدر

واعتقد ابن حوشب قرب ظهور المهدى ، كما يتضح من قوله : « فخرجت إلى دجلة ، ثم أخذت فى قراءة سورة الكهف ؛ فأقبل شيخ يمشى ، ما نظرت إلى أحد يملأ عينى هيبة قبله . فجلس ناحية ، وجلس الرجل بين يديه . وأقبل غلام فقرب منى ، فقلت : من أنت؟ فقال حسينى ، فاستعبرت وقلت : بأبى الحسين المضرج بالدماء الممنوع من هذا الماء ! فرأيت الشيخ ينظر إلى ، وكلم الرجل الذى بين يديه ، فقال لى الرجل : تقدم الينا ! فقمت وجلست بين يديه » .

بعد ذلك يقص علينا ابن حوشب الحديث الذى دار بينه وبين هذا الرجل الطاعن فى السن ؛ ثم يستطرد فى الكلام فيبين لنا مبلغ حديث هذا الرجل من نفسه ، وما لاحظه عليه من رجاحة العقل ، ويصف ذلك اليأس الذى تطرق إلى نفسه لجهله المكان الذى رحل إليه . وبينا ابن حوشب مطرق يفكر ، إذ انقشعت غياهب الأسى عن نفسه حين حضر الرجل الذى كان فى صحبة الامام وأخبره بأمره

حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٧٧ نقلا عن Qutremére, Journal Asiatique, Août, 1836, pp. 123—131

(٣) جدن مفازة باليمن . وذو جدن الملك الحميرى

قيل إن أحمد بن عبد الله بن ميمون هو الذى استمال ابن حوشب إليه ، وبعث به إلى بلاد اليمن ، وقال له : « يا أبا القاسم ! إن الدين يمان ، والحكمة يمانية ، وكل أمر يكون مبدؤه من قِبل اليمن ، فانه يكون ثابتا لثبوت نجم اليمن ، وذلك أن إقليم اليمن أعلى إقاليم الدنيا »(١)

وفَد على بن فضل اليمنى فى سنة ٢٦٦ هـ لزيارة بيت الله فى مكة ، وعرج منها على الكوفة ، وأظهر إخلاصه للحسين بن على وأبنائه وتمسكه بعقائد المذهب الشيعى . ويقول ابن خلدون (٢) : « كان محمد بن الحبيب ينزل بسلمية من أرض حمص ، وكان دعاتهم فى كل ناحية يدعون للرضا من آل محمد ، ويرومون إظهار الدعوة بحسب ماعليهم ، وأن الشيعة من النواحى يعملون مكنتهم فى أكبر الأوقات لزيارة قبر الحسين ، ثم يعرجون على سلمية لزيارة الأئمة من ولد إسماعيل . وكان باليمن قوم يُعرفون ببنى موسى ، ورجل آخر يعرف بعلى (٣) بن الفضل ، أصله من جَنَد . وجاء على بن الفضل إلى زيارة الامام محمد الحبيب ، فبعث معه رستم » .

وقد عرف محمد بن الحبيب قدر ابن فضل ، وتنبأ بما سيكون له من أثر فى نشر الدعوة ببلاد اليمن ، وعمل على استمالته لعقائد المذهب الإسماعيلى ، وقال له : « الحمد لله الذى رزقنى رجلا نحريرا مثلك ، أستعين به على أمرى ، وأكشف له مكنون سرى . ثم كشف له أمر مذهبه ، وأصغى إليه ، واشرأب قلبه ، وتلقى كلامه بالقبول (٤) » .

وقد وجد محمد الحبيب فى ابن فضل الشخص الذى يستطيع أن يعتمد عليه فى نشر عقائد مذهب الاسماعيلية فى بلاد اليمن ، فعول على إرساله بصحبة ابن حوشب الذى كان قد أعده لهذه المهمة وقال لابن فضل : « الله الله بصاحبك ، وقره واعرف له حقه ، ولا تخالفه فيما يراه لك ، إنه أعرف منك . وإنك إن خالفته لم ترشُد » ، (٥) وقال لابن حوشب : « وسَم باليمن خلق من الشيعة ، فاخرج وعرفهم أنك رسول المهدى ، وأنه فى هذا الزمان يظهر باليمن . واجمع المال والرجال ، والزم الصوم والصلاة والتقشف ، واعمل بالظاهر ولا تظهر الباطن وقل : لكل شىء باطن . وإن ورد عليك مالا تعلمه ، فقل لهذا من يعلمه ، وليس هذا وقت ذكره (٦) » .

سار ابن حوشب وابن فضل إلى بلاد اليمن ، وعرجا فى طريقهما على مكة ، فوصلا إليها فى شهر ذى الحجة سنة ٢٦٧هـ ، ثم قصدا إلى بلاد اليمن ، ونزلا ببلدة تسمى غُليفقة على البحر الأحمر . واتجه ابن حوشب جنوبا حتى بلغ مدينة الجَنَد الجبلية جنوبى صنعاء وعلى مسيرة ستة أيام منها ، وقصد ابن

---

(١) الحماد اليمانى : كشف أنصار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٣ .
(٢) العبر وديوان المبتدا والخبر جـ ٣ ص ٣٦١ .
(٣) وردت فى الأصل بمحمد وهو خطأ
(٤) الحماد اليمانى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٣ (٥) المصدر نفسه ص ٢٣
(٦) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية جـ ٢٦ ورقة ٢٤

فضل جيشان ويافع الجبلية المنيعة ، القريبة من الجند . وكان لبعد بلاد اليمن عن مركز الدولة العباسية ، ومناعتها ووعورة الطريق إليها ، وما صادفته عقائد الخوارج والمذاهب الشيعية كالزيدية والاثناعشرية من رواج فيها ، وضعف ولاة العباسيين وعجزهم عن قمع الفتن والثورات التى كانت تقوم فيها من حين إلى حين — كان لذلك كله أثر كبير فيما صادفته الدعوة الإسماعيلية من نجاح فى هذه البلاد . فقد تمكن ابن حوشب من الوصول إلى «لاعة»، وهى مدينة على جبل جنوبى صنعاء ، وعلى مقربة منه قلعة يقال لها « عدن لاعة » . وهنا ألقى ابن حوشب رحاله ، واتخذ هذه القرية الحصينة مركزا لنشر دعوته ومد نفوذه . ولم يلبث أن جذب إليه أهالى هذه البلاد الذين التفوا حوله بفضل ماأظهره من الورع والزهد والتقشف ، وأقام الحصون والمعاقل ، وانتصر على والى العباسيين وعلى أمراء اليمن . وفى سنة ٢٧٠ هـ بنى جنوبى صنعاء دار هجرته بجبل مسور الذى أصبح مركز الدعوة الإسماعيلية ونواة الجيوش التى اعتمد عليها فى نشر هذا المذهب . ومن ثم عرف ابن حوشب بمنصور اليمن ، بفضل ماأحرزه من الانتصارات فى هذه البلاد التى لم تلبث أن خضعت لنفوذه ، وأصبحت مركزا يمد منه دعوته فى البلاد الاسلامية . ولا غرو فقد « فرق الدعاة فى اليمن والبحرين واليمامة والسند والهند ومصر والمغرب » (١).

أما على بن فضل فقد تمكن بدهائه من أن يجمع القلوب حوله ، واتخذ جيشان ويافع مركزا لنشر دعوته ومد نفوذه ، وحارب بعض رؤساء اليمن ، حتى صفت هذه البلاد له ولابن حوشب . على أن ابن فضل لم يلبث أن خرج على المذاهب الإسلامية قاطبة ، وادعى النبوة. ويقول البهاء الجندى فى ذلك :

خذى الدُّف ياهذه والعبى ... وغنى هزازيكْ(٢) ثم اطرَبى
تولى نبى بنى هاشم ... وهذا نبى بنى يعرب (٣)
لكل نبى مضى شِرعة ... وهذى شريعة هذا النبى (٤)
فقد حط عنا فروض الصلاة ... وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضى ... وإن صوّموا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عند الصفا ... ولا زورة القبر فى يثرب (٥)

وليس أدل على مابلغه ابن فضل من نفوذ من أنه حين « حلق رأسه بصنعاء ، فحلق له موافقة

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٤٢ — ١٤٣ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٧

(٢) الهزار العندليب ، يعنى غنى نغمتين من نغمات الهزار

(٣) يعنى على بن فضل اليمنى

(٤) هذه الشريعة الجديدة هى الاباحة

(٥) عمارة اليمنى تاريخ اليمن ص ١٤٥ .

مائة ألف نفس » . ولم يلبث أن ثار ابن فضل على رياسة الدعوة الإسماعيلية ، وقام الصراع بينه وبين ابن حوشب على ماسيأتى :

٤ — أبو عبد الله الشيعى فى بلاد المغرب :

اتصل أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، وكان من أهل صنعاء باليمن ، بمحمد الحبيب أبى عبيدالله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ، الذى آنس فيه الكفاية والذكاء ، فأرسله فى سنة ٢٧٨ هـ إلى بلاد اليمن ، حيث أخذ أصول الدعوة الإسماعيلية التى نشرها عن ابن حوشب بعدن لاعة ، ولم يلبث أن أصبح من كبار أصحابه . وكان أبو عبد الله يعتنق أول الأمر عقائد الاثنا عشرية ، كما كان يعرف بالمعلم ، لأنه كان يقوم بتعليم هذا المذهب قبل أن يعتنق مذهب الإسماعيلية . وقيل أيضا إنه تولى الحسبة فى أحد أعمال بغداد .

ولما اتصل ابن حوشب نبأ موت الحلوانى وأبى سفيان داعيى الإسماعيلية فى المغرب ، عهد إلى أبى عبد الله الشيعى ، لما رآه فيه من العلم والذكاء والمكر والدهاء ، فى القيام بالدعوة إلى هذا المذهب وقال له : « إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك » (١) .

وغادر أبو عبد الله اليمن إلى مكة ، بعد أن زوده ابن حوشب بما احتاج إليه من الأموال ، كما زوده بنصائحه . ولما وصل إلى مكة « سأل عن حجاج كتامة ، فأرشد إليهم ، فاجتمع بهم ، ولم يعرفهم قصده . وجلس قريبا منهم ، فسمعهم يتحدثون بفضائل أهل البيت ، فأظهر استحسان ذلك ، وحدثهم بما لم يعلموه » (٢) . فسألوه أن يأذن لهم فى زيارته لما رأوا من علمه وعقله ، وأحبوه لأن من شأن كتامة وإلى الآن تعظيم من تأسم (كذا) بشىء من العلم والرفع من شأنه (٣) » ، فأجابهم إلى ذلك ، فأخذوا يترددون عليه ، وما زال يتعرف أخبارهم . فلما تحقق من اضطراب الأحوال فى بلاد المغرب « استيقن تمام أمره فيهم » (٤) . وقد ادعى انه يقصد مصر ، فسروا بصحبته ، وساروا جميعا من مكة ، وهو فى كل ذلك يجذبهم إليه بما أوتيه من بلاغة ودهاء ، حتى وصلوا إلى مصر ، فأخذ يودعهم ، فشق عليهم فراقه ، وما زالوا به حتى أجابهم إلى المسير معهم ، فاستأنفوا السير حتى وصلوا إلى

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١١٨

قال المقريزى « اتعاظ الحنفا ص ١٣ » إن أبا عبد الله الشيعى أرسل هو وأخوه أبو العباس من سلمية مباشرة ، ولكن المصادر الأخرى قد أجمعت على أنه إنما سار من سلمية إلى اليمن ومنها إلى المغرب

(٢) المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول جـ ٥ ص ١٤٥

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٠٦

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٣٢

بلاد كتامة فى شهر ربيع الأول سنه ٢٨٨ هـ ، وهى فى بلاد الجزائر اليوم . وأقبل عليه أهل هذه البلاد ودعوه إلى النزول فى بيوتهم ، فسألهم : أين فج الأخيار ؟ (١) فدلوه عليه ، فنزل به ، وسماه دار الهجرة . وقال للناس : « هذا فج الأخيار ، وما سمى إلا بكم . ولقد جاء فى الآثار للمهدى هجرة ينبو بها عن الأوطان ، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان ، ولخروجكم من هذا الفخ ، سمى فخ الأخيار » . ثم قال لهم : « أنا صاحب البذر الذى أخبر به أبو سفيان والحلوانى » ، وبشرهم بقرب ظهور المهدى . فتسامعت به القبائل ، وأتته البربر من كل مكان ، وازدادت محبتهم إياه وعظم أمره فيهم (٢) .

وبالرغم من معادضة الكتاميين وغيرهم من القبائل المجاورة كان مركز أبى عبد الله الشيعى محوطا بكثير من المصاعب ، فقد أثارت مساعدة هؤلاء لدعوته حنق كثير من زعماء المغاربة وفقهائهم . على أن هؤلاء الفقهاء لم يستطيعوا أن ينالوا منه ، لما أوتيه من الفصاحة والعلم والذكاء ، كما تمكن من القضاء عن المؤامرات التى حاكها البربر ليحولوا دون نشر دعوته . « فتكاثر الداخلون فى طاعته رغبة ورهبة ، وتوافرت جموعه ، وقوى أمره »(٣) . واستقام له أمر البربر وعامة كتامة »(٤).

ولم يدخر إبراهيم الثانى الأغلبى (٢٦١ — ٢٨٩ هـ) وسعا فى القضاء على دعوة أبى عبد الله الشيعى ، فحاول أن يجذبه إليه أول الأمر ، وأرسل إليه رسالة يعده ويتوعده فيها . فلم يجبه أبو عبد الله إلى ماطلب ، ورد عليه بكتاب يدل على جرأته واستصغار شأن الأغالبة(٥). ومن ثم أخذ الأغالبة يرسلون حملاتهم لمحاربة الإسماعيلية . وكانت أولى هذه الحملات فى سنة ٢٨٧ هـ ، أى قبل وفاة إبراهيم الأغلبى بسنتين ، وكان النصر فيها حليف أبى عبد الله . ولكن إبراهيم الأغلبى عول على مواصلة القتال ، فأرسل جيشا آخر ، لكنه لم يلبث أن حلت به الهزيمة .

وفى سنة ٢٩١ هـ بدأت أعمال أبى عبد الله الشيعى الهجومية ، ووقع فى يده كثير من المدن . ومما ساعد على مد فتوحه ، موت إبراهيم الثانى الأغلبى سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢ م) ، ولحاق ابنه أبى العباس عبد الله به فى السنة التالية ، وتولية ابنه زيادة الله (٢٩٠ — ٢٩٦ هـ) الذى قضى أيامه فى اللهو والترف ، وميل وزرائه إلى عقائد المذهب الشيعى الذى اعتنقه أهالى هذه البلاد . ولم يلبث أبو عبد الله أن مد نفوذه فى جميع البلاد الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان التى أسسها عقبة بن نافع الفهرى فى القرن الأول الهجرى ، وتبعد أربعة أميال عن مدينة رقادة (٦) .

---

(١) فى جبل إيكجان من أرض كتامة على مقربة من قسنطينة

(٢) أبو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص٦٣ — ٦٤ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ١٢
انظر أيضا Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, vol. III. p. 10. ، حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٥٣ — ٥٥

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٠٨

(٤) المنصورى : زبدة الفكرة ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول جـ ٥ ورقة ١٥٥

(٥) وردت هاتان الرسالتان فى النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية جـ ٢٦ ورقة ٢٦

(٦) أنظر البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ — ٢٧ .

ولم تنقطع الحرب بين جيوش أبى عبد الله الشيعى ، وجيوش زيادة الله الأغلبى بين سنتى ٢٩١ ، ٢٩٦ هـ . وتعد موقعة الأربس (١) من المواقع الحاسمة ، لأنها أدت إلى زوال دولة الأغالبة بافريقية ، واستقرار نفوذ الفاطميين ، وأدت إلى فرار زيادة الله من رقادة ، ودخول أبى عبد الله الشيعى إلى مدينتى رقادة والقيروان ، ثم تخليص عبيد الله المهدى من سجنه بسجلماسة كما تقدم .

اتبع أبو عبد الله الشيعى سياسة تنطوى على الحكمة وبعد النظر ، وإقرار العدل بين الناس ، كما يتبين من هذه الحكاية التى رواها ابن عذارى (٢) ، وهى أن أبا عبد الله لما استولى على مدينة طبنة فى سنة ٢٩٣ هـ أتاه والى هذه المدينة مع بعض عمال الجباية وأعطوه الأموال التى جمعوها من الأهلين ، فقال أبو عبد الله لأحدهم : من أين جمعت هذا المال ؟ فقال له من العشور ، فقال أبو عبد الله : إنما العشور حبوب وهذا عين ، ثم قال لقوم من ثقات طبنة : اذهبوا بهذا المال ، فليرد على كل رجل ما أخذ منه ، واعلموا أنهم أمناء على ما يخرج الله لهم من أرضهم ، وسنة العشور معروفة فى أخذه وتفرقته على ما ينصه كتاب الله عز وجل . ثم قال لآخر : من أين هذا المال الذى بيدك ؟ قال : جبيته من اليهود والنصارى جزية عن حول مضى لهم ، فقال : وكيف أخذته عينا ؟ وإنما كان يأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الملى ثمانية وأربعين درهما ، ومن المتوسط أربعة وعشرين درهما ، ومن الفقير اثنى عشر درهما ؟ فقال له : أخذت العين عن الدراهم بالصرف الذى كان يأخذه عمر رحمه الله ، فقال أبو عبد الله : هذا مال طيب ، ثم أمر أحد الدعاة بأن يفرقه على أصحابه . وقال لمن أتاه بمال الخراج : هذا مال لا خير فيه ولا غنى له ولا خراج على المسلمين فى أموالهم . ثم أمر ثقات أهل طبنة برده على أهله ، وقبض مال الصدقة من الإبل والبقر والغنم بعد أن قيل له إنهما قبضت الأنعام على الأسنان الواجبة فى الصدقات ، ثم بيعت وجمعت أثمانها ، فرضى بذلك وجوّزه . فلما نظر أهل طبنة إلى فعله سروا به ورجوا أن يستعمل فيهم الكتاب والسنة ، وانتشر فعله فى نواحى إفريقية ، فتاقت أنفسهم إليه وكاتبوه ودخلوا فى طاعته » .

وكذلك يدلنا على حسن سياسة أبى عبد الله الشيعى ، هذا الحديث الذى دار بينه وبين أخيه أبى العباس حين أراد أن ينشر المذهب الإسماعيلى بين الناس بالعنف والإكراه ، فمنعه أبو عبد الله . يقول النويرى (٣) : «لما وصل أبو العباس ، أراد أن ينفى عن القيروان من يخالف مذهبه ، فقال أبو عبد الله : إن دولتنا دولة حجة وبيان ، وليست دولة قهر واستطالة ؛ فاترك الناس على مذاهبهم » .

بذلك استطاع أبو عبد الله الشيعى أن يجهر بالدعوة لعلى وفاطمة ، فأمر بالصلاة « على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الحسين وفاطمة » (٤) ، وضرب السكة منقوشا على أحد وجهيها : « بلغت

---

(١) كانت فيما بعد تعد باب المهدية التى أسسها عبيد الله المهدى الفاطمى . انظر الأربس فى معجم البلدان لياقوت .

(٢) البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ١٣٦ — ١٣٧

(٣) نهاية الأرب : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٢١ . (٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٦ .

حجة الله » ، وعلى وجهها الآخر : « تفرّق أعداء الله » ، وكتب على السلاح : « عُدة فى سبيل الله » ، ونقش على خاتمه الذى يختم به : « فتوكل على الله إنك على الحق المبين »[١] ، وعلى خاتمه الذى يستخدمه فى الطبع على السجلات : « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لامبدل لكلماته »[٢] . وإذا ركب نودى فى الجيش : « ياخيل الله اركبى » ، وكتب على أفخاذ الخيل : « الملك لله » ، وعلى أعلامه : « سيهزم الجمع ويولون الدبر »[٣] .

وبذلك تكللت جهود الإسماعيلية فى دور الستر بالنجاح ، وتكونت لهم فى شمال إفريقية دولة عرفت باسم الدولة الفاطمية ، كما عرفت أيضا باسم دولة العبيديين ، نسبة إلى عبيد الله المهدى مؤسس هذه الدولة .

٢ — دور الظهور

(١) نشر الدعوة الفاطمية في الدور المغربى

قامت الدولة الفاطمية فى المغرب بفضل ما بذله دعاة الإسماعيلية من جهود فى دور الستر ، وأصبح لهؤلاء الإسماعيلية دولة قوية تستطيع أن تناوىء الدولة العباسية ، وتعمل على تنظيم هذه الدعوة تنظيما يتفق مع قوتها واتساع رقعة بلادها ، وتشعر أنصارها بزعامتها وأحقيتها بالسلطتين الزمنية والدينية ، أو بعبارة أخرى بالخلافة والإمامة . ومن ثم نرى الفاطميين يوجهون همتهم إلى نشر دعوتهم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى عن طريق دعاتهم ، وأصبحوا يولون من يشاءون ويعزلون من يشاءون فى البلاد التى ساد فيها المذهب الإسماعيلى ، كبلاد اليمن والبحرين .

١ — فى اليمن :

ففى بلاد اليمن نرى الدعوة الإسماعيلية فى ذلك العصر تتعرض لخطر جسيم بسبب قيام النزاع بين ابن حوشب (منصور اليمن) ، وبين على بن فضل الذى خرج على الدعوة الإسماعيلية ، ولم يعبأ بنفوذ عبيد الله المهدى الذى أسس الدولة الفاطمية فى أواخر سنة ٢٩٦ هـ ، بل لقد خلع طاعة عبيد الله المهدى وحارب ابن حوشب ، واستولى على عدن لاعة وحاصره بجبل مسور نحوا من ثمانية أشهر . ويقول الحمادى اليمانى[٤] : « إن على بن فضل ملّ المقام ، فلما علم منه المنصور ذلك دس عليه فى أمر الصلح فقال : لستُ أبرح وقد علم أهل اليمن قصدى لمحاصرته ، إلا أن يرسل إلىّ بعض أهل ولده ، فيكون ذلك لى مخرجا عند الناس ، ويعلمون أنه قد دخل فى طاعتى . فأرسل إليه ولده ، ودفعه بالتى هى أحسن ، فرجع إلى « المذيخرة » القريبة من عدن ، فأقام عنده ولد المنصور سنة ، ثم رده إلى أبيه ، وبره وطوقه بطوق من ذهب »

---

(١) سورة النمل ، آية ٧٩ .
(٢) سورة الأنعام ، آية ١١٥ .
(٣) سورة القمر ، آية ٤٥ .
(٤) كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٦ .

غلا ابن فضل فى عقائده ، وخرج على مبادىء الإسلام ، حتى قيل إنه ادعى الألوهية ، وسماه أنصاره « رب العزة » . وكان إذا خاطب نوابه استهل كتبه بعبارة « من باسط الأرض وداحيها ، ومزلزل الجبال ومرسيها على بن الفضل »(١) . وسمى ابنه « ابن رب العزة » ، و « أمر بقطع الحج وقال : حجوا إلى الحرف ، واعتمروا إلى الدلى(٢) » .

وكانت هذه الحرب من العوامل التى كان لها أثر فى إضعاف الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن ؛ فقد مات ابن فضل مسموما فى سنة ٣٠٣ هـ ، بتحريض عبيد الله المهدى كما قيل(٣) . وخلفه ابنه ، وكان ضعيفا ؛ فتمكن السنيون من القضاء عليه دون أن يحرك أنصار ابن حوشب ساكنا أو يقدموا إليه أية مساعدة . وكذلك كان لموت منصور اليمن فى سنة ٣٠٢هـ أثر كبير فى ضعف هذه الدعوة ببلاد اليمن . فقد كان أبناؤه يأملون بقاء رياسة الدعوة فى أيديهم ، ولكن عبيد الله المهدى قضى على هذه الآمال بتوليته عبد الله بن عباس الشاورى بعد منصور اليمن ، مما أثار حنق أبنائه ، حتى إن أحدهم خلع طاعة المهدى ، وقتل الشاورى الذى آلت إليه رياسة الدعوة ، ولم يصغ إلى نصيحة أخيه جعفر بن منصور اليمن الداعى صاحب المؤلفات الإسماعيلية الكثيرة ، وتحول إلى المذهب السنى(٤) . واتخذ السنيون من هذا الخلاف الذى تفاقم بين الإسماعيلية فى اليمن فرصة للقضاء على هذا المذهب وأنصاره ، مما حمل البقية الباقية من أنصار الفاطميين على التستر ونشر دعوتهم فى الخفاء ، حتى لا يتمكن السنيون من استئصالهم ، وظلوا على ذلك منذ أوائل القرن الرابع حتى ظهرت قوتهم من جديد على يد على بن محمد الصليحى حول منتصف القرن الخامس الهجرى ، فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى .

وصفوة القول أن بلاد اليمن قامت بدور هام فى سبيل نشر الدعوة الإسماعيلية فى دور الستر أولا ، ثم فى دور الظهور ، حتى إن البهرة ، أحد فرعى الإسماعيلية الحديثين يعتبرون الورثة الحقيقيين لتراث الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن .

٢ — فى البحرين :

أبو سعيد + ٣٠١ هـ

٣ أبو طاهر + ٣٣٢ هـ	٢ سعيد + ٣٦١ هـ	٤ أحمد + ٣٥٩ هـ
سابور + ٣٥٨ هـ		٥ الحسن الأعصم + ٣٦٧ هـ

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٤٨ .

(٢) موضع بالقرب من المذيخرة والعدالى موضع على مقربة من الحرف نفسه . أنظر الحمادى اليمنى : كشف أسرار الباطنية ص ٣٣ .

(٣) أنظر De Goeje :Encyclopaedia of Raligion and Ethics, vol. III. p. 224, art. Carmathians

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٥١ .

رأينا كيف استطاع أبو سعيد الجنابى تأسيس دولة فى بلاد البحرين . وقد نهج فى آخريات حياته سياسة التقرب من العباسيين ، الذين استمعوا لنصيحة على بن عيسى وزير الخليفة العباسى المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) ، وعملوا على استمالة أبى سعيد إليهم . ولذلك نرى أبا سعيد لا يقوم بأية محاولة جدية لمساعدة الفاطميين حين غزوا مصر للمرة الأولى فى سنتى ٣٠٠ ، ٣٠١ هـ . ولم يقتصر أبو سعيد على ذلك ، بل غلا فى عقائده وادعى لنفسه من مظاهر التقديس ما لم يدعه أئمة الإسماعيلية أنفسهم.(١) ولما قتل أبو سعيد فى الحمام بيد أحد خدمه فى سنة ٣٠١ هـ ، اعتقد بعضهم أن ذلك كان بتدبير عبيد الله المهدى ، كما فعل مع ابن فضل بعد ذلك بسنتين .

ولما تولى ابنه سعيد (٣٠١ — ٣٠٥ هـ) سار على سياسة أبيه التى تنطوى على التقرب من العباسيين والتباعد عن الفاطميين ، مما حزّ فى نفوسهم ونفوس فريق من القرامطة ، الذين كانوا لايزالون على ولائهم للفاطميين بعد قيام دولتهم فى بلاد المغرب ، فأثاروا الفتن فى وجه سعيد وخلعوه وولوا أخاه أبا طاهر ، وأقرهم عبيد الله المهدى على ذلك (سنة ٣٠٥ هـ)(٢) . وقد أخذ أبو طاهر على عاتقه تنفيذ سياسة الفاطميين ، وتحقيق أغراضهم التى كانت ترمى إلى القضاء على العباسيين . ومن ثم نرى أبا طاهر يوجه حملاته الإرهابية إلى العباسيين فى الوقت الذى كانت تغزو فيه جيوش الفاطميين مصر . ففى سنة ٣٠٧ هـ نرى أبا طاهر يحاول الاتصال بجيوش الفاطميين فى مصر بزعامة أبى القاسم ابن عبيد الله المهدى ؛ ولكن مؤنسا الخادم قائد الخليفة العباسى المقتدر يحول دون اتصال جيوش أبى طاهر وجيوش الفاطميين(٣) . كذلك نرى أبا طاهر يشن إغاراته البحرية على جنوب غربى بلاد فارس فى الوقت الذى تتوجه فيه جيوش الفاطميين حين غزوتهم لمصر فى سنة ٣٢١ هـ . وإنما فعل أبو طاهر ذلك ، ليشغل جيوش العباسيين ويتيح الفرصة للفاطميين لامتلاك مصر ، وتحقيق غرضهم الأساسى ، الذى كان يرمى إلى امتداد نفوذهم إلى هذه البلاد واتخاذها جسراً يعبرون منه إلى بغداد نفسها حاضرة الدولة العباسية فى ذلك الحين(٤) .

وقد ذهب ابن الجوزى (٥) إلى وجود علاقة بين أبى طاهر القرمطى ، وابن أبى الساج قائد العباسيين ، وقد بعث به لمحاربة أبى طاهر ، الذى ظل على ولائه للفاطميين إلى أن توفى سنة ٣٣٢ هـ ، والذى أعلن غير مرة تبعيته للفاطميين . فتراه يشيد فى إحدى قصائده بأحقيتهم بالخلافة ، ويقرر هذه التبعية فى قصيدة أنشدها بعد عودته من العراق دون أن يحقق أمنيته فى فتح هذه البلاد ، وفيها يعلن فى صراحة أنه من أتباع المهدى ورعاياه ، وأنه عول على القضاء على العباسيين وإعادة النفوذ إلى العلويين :

---

(١) De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides, p. 69 .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٨٨ — ٨٩ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٨٩ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية جـ ٢٣ ص ٩٣ .

(٥) دى غويه : Les Carmathes du Bahrain, pp. 216 — 8 ، نقلا عن ابن الجوزى : مخطوط شيفر Schefer ، ص ١١٤٣ .

أغرّكم منى رجوعى إلى هجر ... فعمّا قليلٍ سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المريخ فى أرض بابلٍ ... وقارنه النجمان فالحذر الحذر(١)
فمَنْ مُبلغٌ أهل العراق رسالةً ... بأنى أنا المرهوب فى البدو والحضر؟
فياويلهم من وقعة بعد وقعة ... يساقون سوق الشاة للذبح والبقر
سأضرب خيلى نحو مصرَ وبرقةٍ ... إلى قيروان الترك والروم والخزر(٢)
أكيل لهم(٣) بالسيف حتى أبيدهم ... فلا أبق منهم نسل أنثى ولا ذكر
أنا الداعى للمهدى لا شك أننى ... أنا الضيغم الضرغام والفارس الذكر
أعمّرُ حتى يأتى عيسى بن مريم ... فيحمد آثارى ويرضى بما أمر
ولكنه حتمٌ علينا مُقدّر ... فنفنى ويبقى خالق الخلق والبشر(٤)
ففى جنة الفردوس لا شك مضجعى ... وغيرى يُصلى فى الجحيم وفى سقر(٥)

وهكذا كان الخلفاء الفاطميون يتدخلون فى تولية زعماء القرامطة رياسة الدعوة الإسماعيلية فى البحرين . فإن أبا طاهر لما مات فى سنة ٣٣٢ هـ ، أقر الخليفة الفاطمى القائم أخاه أحمد فى رياسة الدعوة هناك ، وولى سابور العهد من بعده . ولكن أحمد كان يؤثر ابنه الحسن الأعصم على ابن أخيه سابور . ومن ثم دب النزاع بين بيت أبى طاهر ، وبيت أخيه أحمد ، وانتهى الأمر بقتل سابور فى سنة ٣٥٨ هـ ، وتولية الحسن الأعصم عهد أبيه أحمد . وسنرى كيف استغل الفاطميون هذا النزاع لتوطيد نفوذهم بين القرامطة ، وكيف كان ذلك من العوامل التى أدت إلى قيام النزاع بين القرامطة والفاطميين حيناً من الزمن .

٣ — فى فارس :

راجت الدعوة الإسماعيلية فى بلاد فارس منذ أيام عبد الله بن ميمون القداح ، الذى أرسل الدعاة إلى هذه البلاد ، كما أرسل الحسين الأهوازى إلى سواد الكوفة ، والحلوانى وأبا سفيان إلى المغرب ، وابن حوشب إلى اليمن . ومن أشهر دعاته فى بلاد فارس « خلف » الذى قام بنشر الدعوة الإسماعيلية فى بلاد الرى وقمّ وقاشان ، الواقعة بين أصبهان والجبل ، وطبرستان ، وتسمى أيضاً مازندران ، وتقع بين الرى وقومس وبحر قزوين وبلاد الديلم . وكان خلف يشتغل فى بدء أمره

---

(١) يعنى أنهم كانوا يعتقدون بقرب زوال الدولة العباسية وقيام دولة أخرى على أنقاضها هى الدولة الفاطمية التى يناصرها أبو طاهر .

(٢) ليس فى هذا ثورة على الفاطميين ، إذ لا يبعد أن جيوشه ستعمل على فتح مصر وما يليها غربا حتى تتصل بجيوش الفاطميين هناك .

(٣) فى الأصل أكيلهم والصواب أكيل لهم .

(٤) الذهبى : تاريخ الإسلام ، مخطوط ، ج ٣ ص ٦٠ — ٦١ .

(٥) ورد هذا البيت فى البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٤ ، وسقر اسم من أسماء النار .

بحياكة الملابس وحلج القطن ، وتمكن من أن يجمع حوله لفيفاً من الإسماعيلية ، عرفوا باسم الخلفية نسبة إليه ، وأن يجذب إليه طائفة من رجال العلم من أمثال الداعى غياث الذى أصبح فى عهد ابنه أحمد بن خلف نائباً عنه فى رياسة الإسماعيلية أو الخلفية ، كما كانت تسمى أيضاً فى فارس(١) .

وكذلك عمل غياث على جذب كبار الأمراء فى هذه البلاد إليه . ومن هؤلاء الأمير الحسين بن على المرورودى ، الذى كان يتمتع بنفوذ كبير فى الطالقان وهراة والغور ، كما عمل على جذب كثير من العلماء ، حتى إنه جعل أبا حاتم معروف النيسابورى الشاعر (ت سنة ٣٢٢ هـ) نائباً عنه فى نشر الدعوة الإسماعيلية فى خراسان(٢) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الدعوة الإسماعيلية فى فارس اصطبغت بالصبغة العلمية والفلسفية ، بخلاف ما كانت عليه فى المغرب . ففى فارس يستطيع أهلها فهم الدعوة الإسماعيلية بدرجاتها المختلفة الصعبة ؛ ولا عجب فى ذلك فقد تأثروا منذ عهد بعيد بنظريات التناسخ والحلول من سُمَنية الهند وفلاسفة اليونان ، وخاصة الذين هربوا من اضطهاد الأمبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٧ م) إلى بلاد فارس حيث تلقاهم كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٠ م) ورحب بهم وفتح لهم جامعة فى جنديسابور . أضف إلى ذلك ماتركته مدرسة حران من أثر فى نشر الفلسفة اليونانية ، وتعلق الفرس بالعلويين ، واعتقادهم أحقيتهم بالملك دون الأمويين والعباسيين ، ولا سيما بعد أن ارتبطوا مع العلويين بالمصاهرة . ويقول دى جوبينو(٣) : « كانت العقيدة الثابتة عند الفرس ، أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج ، وذلك بصفتهم المزدوجة ، لكونهم وارثى آل ساسان من جهة أمهم بيبى شهربانوه إبنة يزجرد الثالث آخر ملوك الفرس ، ووارثى الأئمة رؤساء الدين الإسلامى حقاً » .

ومن أكبر دعاة الإسماعيلية فى الدور المغربى فى فارس ، أبو حاتم الرازى (ت ٣٢٢ هـ) الذى قام بدور هام فى طبرستان والديلم ، وفى أصفهان والرى ، حيث تبعه جماعة من كبار رجال الدولة مثل الأصفر بن شيرويه أمير قزوين ، وقائده مرداويج بن زيار الديلمى ، وكانا من قبل تحت رياسة يوسف بن أبى الساج أمير الرى من قبل العباسيين(٤) . ويظهر أن تأثير أبى حاتم الرازى كان كبيرا بين هؤلاء الأمراء ، حتى إن يوسف بن أبى الساج فكر فى خلع طاعة الخليفة المقتدر العباسى (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) والدخول فى طاعة الإمام العلوى فى القيروان ، وهو عبيدالله المهدى (٢٩٦ — ٣٢٢ هـ) ، كما عزم على شق عصا الطاعة للخليفة العباسى ، وإظهار الدعوة للخليفة الفاطمى إذا تم له جمع خراج واسط والكوفة وسقى الفرات (٥)

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٦ .

(٢) نظام الملك : سياسة نامه Nizam el-Mulk : Siasset Nàmeh, vol. II. pp. 271 — 2.

(٣) De Gobineau :Religion et Philosophie dans l' Asie Centrale, p. 275.

(٤) كان مرداويج بن زيار أحد قواد الأصفر أمير قزوين ، إلا أنه طرده ، واستولى على بلاده ، ثم فتح الرى وأصبهان .

(٥) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

كذلك بعث مرداويج بن زيار إلى عبيدالله المهدى الهدايا والأموال الكثيرة ، وأعلن رغبته فى الدخول فى طاعته .

ومن أشهر دعاة الإسماعيلية محمد بن أحمد النسفى (ت ٣٣١ هـ) ، وكان عالما أديبا ، اشتهر بحرية الرأى . وقد أوصاه أستاذه الحسين بن على المروروذى داعى الإسماعلية فى خراسان ، والذى كان قد استجاب إلى دعوة الداعى غياث كما تقدم ، بأن يعمل على جذب نصر بن أحمد السامانى (٣٠١ — ٣٣١ هـ) أمير خراسان وما وراء النهر إليه . وقد وفق النسفى فى ذلك إلى حد كبير . وذكر ابن النديم أنه « لما تمكن الحسين بن علىّ المروزى من بلاد خراسان ، حبسه نصر بن أحمد ، فمات فى حبسه ، فخلفه النسفى ، واستغوى نصر بن أحمد وأدخله فى الدعوة ، وأغرمه دية المروزى مائة وتسعة عشر دينارا ، فى كل دينار ألف دينار ، وزعم أنه ينفذها إلى صاحب المغرب القيم بالأمر » ، وكان ذلك حوالى سنة ٣٣٠ هـ ، ومات نصر بعد ذلك بقليل (١)

من ذلك نستطيع أن نقول إن نصر بن أحمد أخلص للفاطميين ، وإن ما ذكرناه من قبل (٢) عن اتصاله بعبيد الله المهدى ، وتقديم مساعدته الحربية له ، كان يستند إلى شىء كثير من الصحة . كما يؤيد هذا الرأى ماذكره نظام الملك عن نهاية نصر بن أحمد ، من أن قواده سخطوا عليه لاعتناقه عقائد الإسماعيلية ، ودبروا مؤامرة لاغتياله ، فنزل عن الإمارة إلى ابنه نوح الذى عمل للقضاء على هذا المذهب وعلى أنصاره فى بلاده . (٣)

٤ — فى مصر :

رأينا من قبل أن ابن حوشب (منصور اليمن) بعث الدعاة لنشر عقائد المذهب فى اليمن والبحرين واليمامة والسند والهند ومصر والمغرب (٤) ، وأن عبيد الله المهدى استطاع أن يفر من سلمية إلى بلاد المغرب بمعونة دعاة ابن حوشب فى مصر ، وأن يفلت من أيدى عمال العباسيين أنفسهم وهو فى طريقه إلى المغرب . ونستطيع أن نتبين مدى نشاط الخلفاء الفاطميين لنشر دعوتهم فى مصر مما أورده الكندى (٥) عن الحملة الفاطمية الأولى على مصر فى سنة ٣٠١ هـ ، من أنه قد أصبح فيها فى ذلك الوقت كثير من الأهلين تأثروا بالدعوة الفاطمية وعطفوا عليها ، ووعدوا بنصرة الفاطميين ، بل لقد دفعوهم إلى غزو هذه البلاد . وإلى هذه الحوادث يشير ابن مهران أحد شعراء مصر المعاصرين فى هذه الأبيات :

وقد وافى حباسة فى كُتام بكل مهند وبكل خَطى

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٦ .

(٢) أنظر ص ١٥٧ من هذا الكتاب .

(٣) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٧٢ — ٧٤ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ من هذا الكتاب

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٧ .

(٥) كتاب الولاة ص ٢٧٦ .

وأقبل (١) جاهلا حتى تخطى وجاز بجهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه من أقباط بمصرَ وغير قبط
وكلٌّ كاتبوه ونافقونا وكل فى البلاد له مُوطى (٢)

وقد شغلت ثورة أبى يزيد الفاطميين عن فتح مصر فى البقية الباقية من عهد القائم (٣٢٢ — ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٣٣٤ — ٣٤١ هـ)، لأن حالة المغرب الداخلية تطلبت كل جهود هذين الخليفتين، كما تطلبت كل موارد البلاد المالية. على أن الدعوة للبيت العلوى صادفت نجاحا عظيما فى مصر.

وعلى الرغم من أن الفاطميين لم ينجحوا فى محاولتهم فتح مصر فى سنى ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٧ — ٣٠٩، ٣٢١ — ٣٢٤ هـ، كانوا يرسلون مع الجيوش دعاة لنشر مذهبهم؛ فكانوا يختلطون بالمصريين ويلقنونهم عقائد المذهب الفاطمى. فاعتنق كثير من هؤلاء المصريين هذا المذهب قبل الفتح الذى تم فى عهد الخليفة المعز سنة ٣٥٨ هـ. ولم تقتصر جهود الفاطميين فى نشر دعوتهم على هؤلاء الدعاة، بل كان لخلفائهم نصيب كبير فى نشر هذه الدعوة. فقد ذكر ابن سعيد (٣) أن الخليفة القائم الفاطمى كتب بيده كتابا بعث به مع رسول من قبله إلى محمد بن طغج الإخشيد، رغبة منه فى أن تفعل سياسة اللين والمسالمة مالم تفعله سياسة العداء والحرب، تلك السياسة التى أخفق فيها هو وأبوه من قبل. وهاك هذا الكتاب بنصه:

« قد خاطبتك أعزك الله فى كتابى المشتمل على هذه الرقعة، بما لم يجز لى فى عقد الدين، وما جرى به الرسم من سياسة أنصار يُستجلبون؛ وضمَّنت رقعتى مالم يطلع عليه أحد من كتابى وذوى المكانة عندى. وأرجو أن تردك صحة عزيمتك وحسن رأيك، إلى ما أدعوك إليه، فقد شهد الله على ميلى إليك وإيثارى لك، ورغبتى فى مشاطرتك ما حوته يمينى واحتوى عليه ملكى. وليس يَتوجه لك العذر فى التخلف عن إجابتى؛ لأنك قد استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لا يرون إحسانك ولا يشكرون إخلاصك، يخلفون وعدك ويخفرون ذمتك، لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة. وليس ينبغى لك أن تعدل عن منهج من نصحك وإيثار من آثرك، إلى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك. وأنا أعلم أن طول العادة فى طاعتهم قد كره إليك العدول عنهم. فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق، فانى أرضى منك بالمودة والطاعة، حتى تقيمنى مقام رئيس من أهلك، تسكن إليه فى أمرك، وتعول عليه بمثل ذلك. وإذا تدبرتَ هذا الأمر علمت أن الذى يحملنى على التطاطى لك وقبول الميسور منك، إنما هو الرغبة فيك. وأنت حقيق على حسن مجازاتى على ما بذلته، والله يريك حسن الاختيار فى جميع أمرك، وهو حسبنا ونعم الوكيل ».

---

(١) الضمير يعود على حباسه بن يوسف الذى ذكر اسمه فى البيت الأول (الكندى: كتاب الولاة ص ٢٧٢)

(٢) الكندى ص ٢٧٦.
موطى مسهل عن موطىء للأمر أى ممهد له.

(٣) كتاب المغرب فى حلى المغرب ص ٢٥ — ٢٦.

« على أن هذا الكتاب لم يكن له أثر فى نفس الإخشيد ، الذى ماطل رسول الخليفة القائم . ولكن صلة المودة التى ربطت الإخشيد بالخليفة العباسى قد تبدلت على أثر تولية محمد بن رائق الخزرى بلاد الشام ومصر ؛ فساءت هذه العلاقة بينهما ، حتى قيل إن الإخشيد قطع الخطبة للخليفة العباسى ، ودعا للخليفة الفاطمى ردحا من الزمن[١] . وكتب الإخشيد للخليفة القائم الفاطمى يعرض عليه زواج ابنته من ابنة المنصور . لكن حال دون تنفيذ هذه السياسة أمران : الأول ، أن الإخشيد استقل الصداق وقدره مائه ألف دينار ، والثانى ، وفاة الإخشيد ثم القائم بعد قليل (سنة ٣٣٤ هـ) ، واشتغال ابنه المنصور بثورة أبى يزيد بن كيداد كما سنفصله .

وقد شغلت ثروة أبى يزيد الفاطميين عن غزو مصر فى عهد الخليفة المنصور إسماعيل الفاطمى (٣٣٤–٣٤١ هـ) ، ثم جاء ابنه المعز ، ومد نفوذه على جميع أرجاء بلاد المغرب ، ثم فكر فى غزو مصر . ووجد فيها جماعة يدينون بعقائد مذهبه ، فأرسل إلى كافور الإخشيدى ، وإلى قواد جيشه يدعوهم إلى طاعته . وفى ذلك يقول المقريزى[٢] : « قدمت عليه دعاة المعز لدين الله من بلاد المغرب يدعونه لطاعته ، فلا طفهم . وكان أكثر الإخشيدية والكافورية ، والكتاب قد أخذت عليهم البيعة للمعز » . وكان كافور نفسه يحسن إلى العلويين فى مصر ، ويدر عليهم الهبات والأرزاق[٣] .

وقد شجعت حالة الضعف التى سادت مصر بعد وفاة كافور الإخشيدى فى سنة ٣٥٧ هـ الخليفة الفاطمى المعز لدين الله على فتح هذه البلاد ، كما بعث إليه كثير من أهلها يطلبون المبادرة إلى فتحها . ويقول العينى[٤] : « لما اشتد بالناس البلاء من وجوه عديدة ، كاتبوا المعز الفاطمى وهو يومئذ بالقيروان ، وتوجه إليه جماعة من وجوه مصر » . وكان ليعقوب بن كلس الذى توجه إلى المغرب بعد وفاة كافور ، واتصل بالمعز ، أثر كبير فى توجيه نظره إلى حالة مصر ، وحثه على فتحها كما تقدم .

(ب) نشر الدعوة الفاطمية فى الدور المصرى

١ — علاقة الفاطميين بالقرامطة

(ا) فى عهد المعز :

قامت المنافسة بين بيت أحمد بن أبى سعيد والد الحسن الأعصم ، وبيت أبى طاهر بن أبى سعيد ، وانتهى الأمر بقتل سابور بن أبى طاهر فى سنة ٣٥٨ هـ ، ونفى أنصاره إلى جزيرة أوال . [٥] وقد أثار قتل سابور حنق الفاطميين ، لأنهم كانوا ولوه العهد بعد عمه أحمد ، وعدوا قتله خروجاً على طاعتهم .

---

(١) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ٢٦ — ٢٧ .
انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٩٠ — ٩٢ .
(٢) خطط ج ٢ ص ٢٧ .
(٣) انظر ص ٢٤٣ — ٢٤٤ من هذا الكتاب .
(٤) عقد الجمان : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ١٩ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .
(٥) أوال بوزن سحاب جزيرة كبيرة بالبحرين عندها مغاص اللؤلؤ .

وقد ذهب دى غويه (١) إلى القول بأن غزو القرامطة لبلاد الشام سنة ٣٥٨ هـ كان بإيعاز الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، ليسهل عليه الاستيلاء على ممتلكات الإخشيديين ، والقول بأن أحمد بن أبى سعيد وأنصاره هم الذين أوحوا بإبرام الصلح مع الحسين بن عبيد الله بن طغج الإخشيدى والى بلاد الشام دون الرجوع إلى الفاطميين ، واتفقوا معه على أن يدفع إليهم ثلثمائة الف دينار فى السنة . وقد أغضب هذا الاتفاق الفاطميين ، كما أغضب سابور الذى كان يناصرهم ، واعتبروا هذا العمل تحديا لهم ، وافتئاتا على رياسة الدعوة الإسماعيلية . وزاد قتل سابور الخليفة الفاطمى حنقاً على بيت أحمد بن أبى سعيد وانقسم القرامطة بسبب ذلك فريقين :

فريق بزعامة بيت أبى طاهر ، ظل على ولائه للفاطميين ، وفريق آخر بزعامة بيت أحمد بن أبى سعيد وعلى رأسه الحسن الأعصم ، أصبح يحنق على الفاطميين ويعمل على التقرب إلى العباسيين (٣)

ولم يكن بد إذاً من نشوب الحرب بين القرامطة المعارضين وبين الفاطميين . فلما مات أحمد بن أبى سعيد استبد ابنه الحسن الأعصم بالأمر من بعده ، واستهل عهده بطرد جميع أنصار سابور ليصفو الجو له ، وعمل فى الوقت نفسه على التقرب إلى العباسيين ، واتخذ من استيلاء الفاطميين على دمشق بقيادة جعفر بن فلاح سنة ٣٥٨ هـ ، ومنعهم الجزية التى كانت تدفع للقرامطة من قبل ، ومقدارها ثلثمائة ألف دينار كل سنة ، فرصة للانتقام من الفاطميين ، والمسير إلى بلاد الشام ، والاستيلاء عليها وأخذ هذه الجزية بالقوة .

وقد حاول الحسن الأعصم ، مخالفة الخليفة العباسى المطيع والوقوف معه فى وجه سادته الفاطميين . على أن هذا الخليفة لم يرحب بهذه المخالفة ، لاعتقاده أن القرامطة ملاحدة خارجون على الإسلام وفى ذلك يقول أبو المحاسن (٣) : « وسار القرمطى ، واسمه الحسن بن أحمد بن أبى سعيد بن بهرام القرمطى ، إلى بغداد ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسى على لسان عز الدولة بختيار (٣٥٦ — ٣٦٧ هـ) ، أن يمده بمال ورجال ، ويوليه الشام ومصر ليخرج المعز منها ؛ فامتنع الخليفة المطيع بالله عنها وقال : كلهم قرامطة وعلى دين واحد : فأما المصريون — يعنى بنى عبيد — فأماتوا السنن وقتلوا العلماء ، وأما هؤلاء — يعنى القرامطة — فقتلوا الحاج وقلعوا الحجر الأسود » .

أما البويهيون ، فعلى الرغم من ميلهم إلى العلويين ، كانوا يخشون إمتداد نفوذ الفاطميين إلى ماوراء بلاد الشام وتعريض نفوذهم للضعف والزوال . ولذلك أوحت إليهم العوامل السياسية بمد يد المساعدة إلى القرامطة والوقوف معهم جنباً إلى جنب فى وجه الدولة الفاطمية الناشئة . ومن ثم نرى بختيار بن معز الدولة بن بويه يمد القرامطة بالأموال ، ويطلب إلى الحمدانيين إمدادهم (٤) .

---

(١) De Goeje : Les Carmathes du Bahrain, p. 186.

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك (طبعة ليدن سنة ١٨٧٢ م) ج ٢ ص ٢١ — ٢٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣١ — ١٣٢ .

سار الحسن الأعصم القرمطى بعد ذلك إلى الشام ، واشتبك مع جعفر بن فلاح فى ناحية الدكة على نهر يزيد بمقربة من دمشق ؛ فدارت الدائرة على جعفر بن فلاح ، فأسر وقتل هو وكثير من أتباعه (٦ ذو الحجة سنة ٣٦٠ هـ) ، ومثل بجثته محمد بن عصودا ، فصلبه على حائط داره انتقاما لأخيه إسحق ، وكان جعفر قتله وصلبه (١)

وهكذا استولى الحسن القرمطى على دمشق ، واحتفل بانتصاره فيها ، ولعن الخليفة الفاطمى المعز على منبر المسجد الأموى . وقد علق أوليرى دى ليسى (٢) على هذه الحادثة بقوله : « يعتقد القرامطة بنظرية الحق الإلهى للامام الفاطمى ؛ ومن ثم يبدو هذا اللعن غريبا . وقد يرجع ذلك إلى أهل دمشق أنفسهم الذين كانوا سنيين مغالين فى عدائهم للشيعة والقرامطة (٣) ، الذين لم يعودوا يحفلون بشرف الانتماء إلى آل على ، والذين كانوا لا يهتمون بالعلاقات المذهبية أيا كانت » .

وقد عزم القرامطة على غزو مصر بعد استيلائهم على بلاد الشام ؛ فسار الحسن بن أحمد إلى الرملة ، حيث انضم إليه كثير من الإخشيدية والكافورية ، وكان واليها سعادة بن حيان المغربى غلام المعز قد هرب منها فى شوال سنة ٣٦٠ هـ وقصد إلى يافا ، ثم استأنف الحسن السير إلى مصر ، فاستولى على الفرما فى المحرم سنة ٣٦١ هـ ، وفتحت له تنيس أبوابها ، واعترفت بسلطانه وخرجت على واليها ، ووزعت المنشورات فى جامع عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط لحض الناس على عصيان جوهر الصقلى . ثم أمعن الحسن القرمطى فى السير فى داخل البلاد ، وعسكر بجنده فى عين شمس ، وهدد مدينة القاهرة . ولما علم جوهر بوصول القرامطة إلى القلزم ، وهى مدينة السويس الآن ، أعد العدة للوقوف فى وجههم والحيلولة دون وصولهم إلى القاهرة ، فحفر حولها خندقا أقام عليه بابين من حديد ، ثم أرسل فريقا كبيرا من جنده تظاهروا بالانضمام إلى القرامطة والسخط على الفاطميين ، وأوقعوا الانقسام فى صفوفهم . وفى أوائل شهر ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ بدأ القتال بين الفاطميين والقرامطة عند باب مدينة القاهرة ، وانتهت المعركة بهزيمة القرامطة وارتدادهم إلى القلزم (٤)

ولما سمع الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ببلاد المغرب خبر غزو القرامطة لمصر ، أرسل إليها جيشا بقيادة أبى محمد الحسين بن عمار ، فازدادت قوة جوهر الحربية ، وعول على إخضاع مدينة تنيس التى انضم أهلها إلى القرامطة ، فسار إليها وأخضعها ثم عفا عن أهلها . وعاد الحسن القرمطى إلى دمشق ، ورجع أسطوله من النيل بعد أن خسر سبع سفن حربية وخمسمائة أسير ، وأخذ يعد العدة لغزو مصر من جديد ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى الأحساء لإخماد ثورة أنصار أبى طاهر .

ويظهر أن هذه الصعاب التى صادفها جوهر فى حرب القرامطة ، واعتقاده أن مصر لا تزال معرضة

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١١٣ .

(٢) O'Leary de Lacy : A Short History of the Fatimid Khaliphate (London, 1923), p. 108.

(٣) يقصد من القرامطة هنا الذين ينتمون إلى الحسن الأعصم .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٦ ، الخطط جـ ٢ ص ١٣٨ .

لخطرهم قد بعثه على أن يطلب إلى الخليفة المعز الحضور بنفسه إلى مصر وتسلم زمام الحكم فيها ، والتأهب لحرب هؤلاء القرامطة وإبعاد خطرهم . وفى أواخر سنة ٣٦٢ هـ قدم المعز إلى مصر ، واتخذ مدينة القاهرة قاعدة لدولته ، وأرسل إلى الحسن بن أحمد القرمطى كتابا طويلا (١) يهدده فيه ويتوعده ، ويعرض عليه فى نهايته أن يختار لنفسه إحدى ثلاث خصال ، وإلا أصبح الحكم بينهما للسيف وحده :

« ونحن عارضون (٢) ثلاث خصال ، والرابعة أردى (٣) لك وأشقى لبالك . وما أحسبك تحصل إلا عليها ، فاختر : إما قُدت نفسك لجعفر بن فلاح وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان ، ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة (٤) من عقال ناقة وخطام بعير وهى أسهل مايُرد عليك . وإما أن تردهم أحياء فى صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم ، ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار . وإما سرت بمن معك بغير ذمام (٥) ولا أمان ، فأحكم فيك وفيهم بما حكمتُ ، وأجريكم على (إحدى) ثلاث : إما قصاص ، وإما من بعد ، وإما فداء ، فعسى أن يكون تمحيصاً لذنوبك وإقالة لعثرتك . وإن أبيت إلا فعل اللعين ، فاخرج منها فانك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . أخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها وقيل اخسئوا فيها ولا تكلمون ، فما أنت إلا كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، فلاسماء تُظلك ولا أرض تُقلك ولا ليل يجنك ولا نهار يكنك ولا علم يسترك ولا فئة تنصرك . قد تقطعت بكم الأسباب ، وأعجزكم الذهاب ، فأنتم كما قال الله عز وجل مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . فلا ملجأ لكم إلى الله يومئذ ، ولا مَنجى منه ... فلا تجد فى السماء مصعداً ، ولا فى الأرض مقعداً ، ولا فى الأرض ولا فى البحر منهجاً ، ولا فى الجبال مسلكا ، ولا إلى الهواء سلماً ، ولا إلى مخلوق ملتجأ . حينئذ يفارقك أصحابك ، ويتخلى عنك أحبابك ، ويخذلك أترابك ، فتبقى وحيداً فريداً ، وخائفاً طريداً ، وهائماً شريداً ، قد أجمك الفرق (٦) ، وكظمك القلق ، وأسلمتك ذنوبك ، وازدراك خزيك (كلا لاوزر إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسانُ يومئذ بما قدم وأخر) (٧) » .

وقد رد الحسن القرمطى على هذا الكتاب بهذه الكلمات القصيرة التى تدل على عدم مبالاته بتهديد المعز ووعيده ، وعلى مضاء عزيمته وشدة رغبته فى محاربة الفاطميين فقال : « وصل كتابك ،

---

(١) راجع هذا الكتاب فى المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣٤ — ١٤٣ .
(٢) فى الأصل معرضون .
(٣) أفعل تفضيل بمعنى أشد إرداء وإهلاكا .
(٤) يعنى إلى آخر شىء أخذتموه ولو كان حبة .
(٥) يعنى عهداً نؤمنك به .
(٦) فى الأصل العرق ، ولعله تحريف عن الفرق بفتح الفاء والراء وهو الخوف والفزع .
(٧) سورة القيامة آية ١١ — ١٣ .

الذى قل تحصيله وكثر تفصيله . ونحن سائرون إليك على إثره والسلام » (١) .

من ذلك نرى أن الحسن كان ينوى إعادة غزو مصر، فظهر القرامطة للمرة الثانية فى عين شمس فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٦٣ هـ ، ثم اجتمعوا أمام الخندق الذى حفره جوهر الصقلى وحاولوا اجتيازه . على أن الخليفة المعز استطاع أن يستميل الطائيين ، وكانوا من أشد جند الحسن القرمطى بأسا ، فأرسل إليهم مائة ألف دينار . وقد قيل إنه لم يكن فى بيت المال من الدنانير ما يفى بهذا الغرض ، فامر المعز بان تضرب نقود من الرصاص مغطاة بطبقة رقيقة من الذهب ، ووضعت هذه الدنانير فى صناديق ، فى أعلى كل منها عدد قليل من الدنانير المضروبة من الذهب الخالص (٢). فلما استعرت الحرب بين الفريقين ، خرج الطائيون ، وتشتتت قوة الحسن .

وبذلك تغلب الفاطميون على هذه الصعوبة التى هددت كيانهم من ناحية القرامطة ، وزادت قوتهم باسترداد دمشق . فقد استغل الخليفة المعز النزاع الذى قام بين أبى المنجى القرمطى حاكم دمشق من قبل الحسن الأعصم ، وظالم بن موهوب العقيلى أحد أنصار الحسن ، فكتب إلى ظالم يطلب إليه أن يقبض على أبى المنجى ويرسله إلى مصر . ولما تم للمعز ما أراد فى سنة ٣٦٣ هـ ، قلد ظالم موهوب ولاية دمشق ، « فأقيمت الدعوة فى مصر وديارها ، والشام والحجاز مع إفريقية والمغرب باسمه » . (٣)

(ب) فى عهد العزيز :

وفى أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمى ثار أهل دمشق وطردوا عاملها ظالم بن موهوب العقيلى ، وأتاحوا الفرصة لدخول أفتكين التركى (٤) واستبداده بأمورها وإقامة الخطبة للعباسيين . وقد حاول المعز استمالة أفتكين إليه ، ولكنه مات قبل أن يحقق أمنيته . وحاول أفتكين الاستعانة ببنى بويه فلم يسعفوه ، فولى وجهه شطر القرامطة فى البحرين ، فأرسلوا إليه جيشا وصل إلى دمشق ، ثم رحل إلى الرملة واستولى عليها . ولما مات المعز ، عمل ابنه العزيز على استرداد بلاد الشام وفلسطين من أفتكين والقرامطة ، وأرسل جوهرا الصقلى على رأس جيش كبير تمكن من الاستيلاء على الرملة ، وكان القرامطة قد هربوا منها وعادوا إلى البحرين . ثم سار جوهر إلى دمشق فحاصرها ستة أشهر ، واضطر إلى التقهقر حين علم بوصول الحسن الأعصم القرمطى ، الذى استنجد أفتكين ، وبمما شطر

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩ .

(٢) وقد أدرك بنوطى هذه الحيلة بعد فوات الفرصة .

(٣) ابن حماد : ملوك بنى عبيد وسيرتهم (الجزائر سنة ١٣٤٦ هـ) ص ٤٦ .

(٤) كان أفتكين الشرابى مولى معز الدولة بن بويه . وقد انضم إلى الخليفة المطيع والطائع فى الحروب التى قامت فى وجه عز الدولة بختيار بن بويه . فاستنجد بختيار ابن عمه عضد الدولة ، وانتصر على أفتكين الذى خلف سبكتكين فى رياسة الترك ، وقدم دمشق فى ثلثمائة رجل من الأتراك ، واستطاع أن يستولى عليها بمساعدة أهلها الذين رغبوا فى التخلص من العيارين (العيار الرجل الكثير المجىء والذهاب مترددا بلا عمل والذى يخلى نفسه وهواها) — ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

عسقلان ، وحاصرا بها جوهرا ، فاضطرا هذا إلى طلب الصلح كما تقدم(١) . ومهد بعمله إلى الموقعة الحاسمة التى دارت على نهر الطواحين بالقرب من الرملة بين جيوش الفاطميين بقيادة العزيز نفسه وبين جيوش القرامطة بزعامة الحسن الأعصم ، والأتراك بزعامة أفتكين ، وحلت الهزيمة بالقرامطة وأفتكين الذى سيق إلى القاهرة مع بعض أنصاره من الأتراك والديلم ، وعلى رأسهم اثنان من إخوة بختيار وابنه المرزبان(٢) . وبذلك عادت دمشق إلى أيدى الفاطميين الذين أقيمت الدعوة باسمهم على منابرها .

وقد أضعفت هذه الحروب القرامطة وفككت وحدتهم . حتى إن جماعة منهم ثاروا على آل الحسن الأعصم ، واضطروهم إلى الهجرة إلى جزيرة أوال ، حيث انتقم منهم أبناء أبى طاهر(٣) . واتخذ الخليفة العزيز ، الذى كان اليد المحركة التى أوقعت الاضطراب فى صفوف القرامطة ، من ذلك فرصة لجذب هؤلاء القرامطة وإعادتهم إلى حظيرة الفاطميين . ويقول ابن خلدون (٤) : « ورجعوا إلى دعوة العلويين ومحاربة بنى العباس » . واستمر القرامطة على ولائهم للفاطميين إلى أن زالت دولتهم من جزيرة أوال سنة ٤٥٨ هـ ، ومن البحرين بعد أن قضى عليهم السنيون فى سنة ٤٧٠ هـ ، وذلك فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى ، ولكنهم لم يقوموا بأعمال حربية منذ سنة ٣٧٥ هـ . وفى ذلك يقول ابن الأثير(٥) « وزال من حينئذ ناموسهم »(٦)

٢ — علاقة الفاطميين بالعباسيين وبنى بويه :

لاشك فى أن قيام الدولة الفاطمية فى المغرب أثار مخاوف العباسيين ، لأن استيلاءهم على هذه البلاد قد يساعدهم على بسط نفوذهم فى مصر وفى بلاد الشام وفلسطين والحجاز التى كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين ، بل قد يسهل لهم هذا الفتح الاستيلاء على بغداد نفسها قاعدة الدولة العباسية فى ذلك الحين . لذلك نرى الخلفاء العباسيين يعملون على القضاء على محاولات الفاطميين لامتلاك مصر . ثم يحذو بنو بويه الشيعيون حذو الخلفاء العباسيين السنيين ، حتى لا يتعرض سلطانهم فى بلاد العراق للخطر إذا استولى الفاطميون عليها . وذلك يعلل مساعدة البويهيين للقرامطة فى حروبهم مع الفاطميين على ما رأينا . ولولا خوف البويهيين على نفوذهم السياسى لحولوا الخلافة إلى العلويين ،

---

(١) انظر ص٢٥٧ — ٢٥٨ من هذا الكتاب .

(٢) يقول المقريزى (خطط جـ ٢ ص ٨ — ٩) إن حارة الديلم سميت بهذا الاسم بعد أن نزل بها أفتكين ومن معه من أولاد معز الدولة بن بويه .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٩١ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) جـ ٩ ص ١٦ .

(٦) يستدل مما ذكره ناصرى خسرو فى كتابه سفر نامه Safar Nâmeh, pp. 226—8 أن دولتهم كانت لاتزال قائمة فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، كما وصف نظام الحكم وحالتهم الاجتماعية وصفا دقيقا .

إذ كانوا يفضلون الفاطميين على العباسيين من الناحية المذهبية . ولذلك نرى سلاطين بنى بويه على اتصال بالفاطميين ، حتى إنهم سمحوا لدعاتهم بنشر عقائد المذهب الفاطمى فى البلاد التى خضعت لنفوذ بنى بويه .

وقد ظهرت أغراض الفاطميين التى كانت ترمى إلى مد نفوذهم إلى بلاد المشرق من هذه القصيدة التى انشدها ابن هانىء الأندلسى (١) المعز فى بلاد المغرب عند فتح مصر ، وفيها يقول :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر ؟ ... فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
وقد جاوز الإسكندرية جوهر ... تطالعه البشرى ويقدمه النصر
وقد أوفدت مصر إليه وفودها ... وزيد إلى المعقود من جسرها جسر
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت ... وأيديكم منها ومن غيرها صفر
وقد أشرفت خيل الإله طوالعاً ... على الدين والدنيا كما طلع الفجر
وذا ابن نبى الله يطلب وتره ... وكان حرى (٢) ألا يضيع له وتر
فان تتبعوه فهو مولاكم الذى ... له برسول الله دونكم الفخر

وقد حاول العزيز الفاطمى أن يجذب إليه البويهيين الذين كانوا يعتنقون المذهب الشيعى ، فأرسل فى سنة ٣٦٩هـ — على ماذكره ابن الأثير (٣) — إلى عضد الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ) بن ركن الدولة رسولا من قبله ، « ومازال يبعث إليه برسالة بعد رسالة ، فأجابه عضد الدولة بكلام يتضمن صدق الطوية وحسن النية » (٤)

على أننا نرى هذه السياسة التى كانت تنطوى على التودد وحسن النية تتبدل فى أواخر عهد عضد الدولة ، بل نراه يتأهب لغزو مصر واستردادها من الفاطميين بعد أن اتضح له خطر الدولة الفاطمية على سلطان بنى بويه . فقد ذكر البغدادى (٥) أن عضد الدولة « تأهب لقصد مصر وانتزاعها من أيدى الباطنية . وكتب على أعلامه بالسواد : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين الطائع لله أمير المؤمنين . ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

وقد قيل إن ماقام به عضد الدولة كان نتيجة لشكه فى نسب الفاطميين ، حتى إنه عقد مجلسا حضره العلويون الذين أقروا بطلان هذا النسب . ويقول المقريزى (٦) : « ثم ملك فناخسرو بن الحسن الديلمى بغداد ، فقرب مابينهما (أى بين العزيز وعضد الدولة) من المسافة ، فجمع العلويين ببغداد وقال لهم : هذا الذى بمصر يقول إنه علوى منكم ، فقالوا : ليس هو منا ، فقال لهم : ضعوا خطوطكم بأنه ليس بعلوى ولا من ولد أبى طالب . ثم أنفذوا إلى نزار بن معد رسولا يقول له : نريد أن نعرف من أنت ، فعظم ذلك عليه » .

---

(١) ديوان ابن هانىء (طبعة بيروت سنة ١٣٢٦ هـ) ص ٨٦ — ٨٧ .
(٢) حرى يعنى جديراً .
(٣) ج ٩ ص ٢٥٧ .
(٤) الذهبى : تاريخ الاسلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٣ ص ٣١٠ — ٣١١ .
(٥) الفرق بين الفرق ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .
(٦) اتعاظ الحنفا ص ١٥ .

ويعتبر هذا العمل بدءا لتدوين محاضر المجالس العباسية التى عقدت ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، وأنكر فيها نسب العبيديين إلى علىّ وفاطمة . لأن العباسيين لما أدركوا عجزهم عن مناهضة الفاطميين والقضاء عليهم بالحرب ، وهالهم إقامة الخطبة للحاكم الفاطمى فى بلاد الموصل ، فكروا فى القضاء على مذهبهم بالطعن فى نسبهم إلى على وفاطمة ، أو بإثارة الشك على الأقل فى هذا النسب فى نفوس المسلمين . ويروى أبو المحاسن فى تاريخه أنه « فى سنة ٤٠٢ هـ فى شهر ربيع الآخر ، كتب الخليفة القادر العباسى محضرا فى معنى الخلفاء المصريين ، والقدح فى أنسابهم وعقائدهم ، وقرئت النسخ ببغداد ، وأخذت فيها خطوط القضاة والأئمة والأشراف بما عندهم من العلم بمعرفة نسب الديصانية ؛ قالوا : وهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمى إخوان الكافرين ، ونطف الشياطين ، شهادة يتقربون بها إلى الله ، ومعتقدين ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس . فشهدوا جميعا أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم — حكم الله عليه بالبوار والخزى والنكال — ابن معد بن إسماعيل ابن عبد الرحمن بن سعيد — لا أسعده الله — فانه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدى ، هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس — عليه وعليهم اللعنة — أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب ، وأن ذلك باطل وزور ، وأنهم لا يعلمون أن أحدا من الطالبيين توقف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء . وقد كان هذا الإنكار شائعا بالحرمين فى أول أمرهم بالمغرب ، منتشرا انتشارا يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم ، أو يذهب وهم إلى تصديقهم ؛ وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق فجار وزنادقة ، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون ؛ فقد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج ، وسفكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربوبية . وكتب فى [شهر] ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة »[1]

« وكتب خلق كثير فى المحضر المذكور منهم الشريف الرضى والمرتضى أخوه ، وابن الأزرق الموسوى ، ومحمد بن محمد بن عمر بن يعلى العلويون ، والقاضى أبو محمد عبد الله بن الأكفانى ، والقاضى أبو القاسم الجزرى ، والإمام أبو حامد الأسفرايينى[2] والفقيه أبو محمد الكشفلى[3] والفقيه أبو الحسين القدورى[4] الحنفى ، والفقيه أبو على بن حمكان ، وأبو القاسم التنوخى[5] ، والقاضى أبو عبد الله الصيمرى ..

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) كان من أئمة زمانه فى الفقه ، حتى كان يحضر مجلسه أكثر من ثلثمائة فقيه ، كما قام بالتدريس فى مسجد عبد الله بن المبارك فى قطيعة الربيع بن يونس ، وكان يحضر درسه سبعمائة متفقه : الخطيب البغدادى (تاريخ بغداد جـ ٤ ص ٣٦٨ — ٣٧٠) ، ابن خلكان (وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٩ — ٢٠) .

(٣) بفتح الكاف وضم الفاء ، نسبة إلى كشفل إحدى قرى خراسان .

(٤) بضم القاف والراء ، انتهت اليه رياسة أصحاب أبى حنيفة بالعراق ، وكان من أشهر القضاة . وله كتاب فى الفقه يسمى مختصر القدورى .

(٥) هو على بن المحسن بن على بن محمد . اشتهر بالأدب ، وصحب أبا العلاء المعرى ، وأخذ عنه ، وتقلد قضاء كثير من النواحى كالمدائن وقرميسين . وألف كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (القاهرة سنة ١٩١٨ — ١٩٢١) الذى ترجمه إلى الإنجليزية د . س . مرجليوث (لندن سنة ١٩٢٢) ، وتوفى سنة ٤٤٧ هـ . الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ١١٥ .

فلما بلغ الحاكم قامت قيامته وهان فى أعين الناس لكتابة هؤلاء العلماء الأعلام فى المحضر »[١].

على أن ما رواه أبو المحاسن فى هذا الكتاب من أن الشريف الرضى كتب خطه فى هذا المحضر الذى نفى فيه نسب الفاطميين، يعارضه هذه القصيدة المشهورة للشريف الرضى، وفيها اعتراف صريح بأن الفاطميين تجمعه بهم صلة النسب، قال :

ما مُقامى على الهوان وعندى ... مقولٌ صارم وأنف حمى
ألبس الذل فى بلاد الأعادى ... وبمصرَ الخليفـــةُ العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا ... ى إذا ضامنى البعيد القصى
لفّ عرقى بعرقه سيد النا ... س جميعاً محمد وعلىٌّ .

ولم يكن هذا كل ما فعله العباسيون فى سبيل مناوأة الفاطميين والقضاء عليهم . ومن ثم نرى الفاطميين من ناحية أخرى يضاعفون جهودهم فى نشر دعوتهم عن طريق دعاتهم، ويصادفون كثيرا من النجاح فى هذه السبيل، على الرغم مما تركه هذا المحضر من أثر فى نفوس بعض المسلمين . ولذلك نرى الخلفاء العباسيين يكتبون فى سنة ٤٤٤ هـ محضرا آخر يطعنون فيه على الفاطميين وينفون نسبهم[٢]، كما يكتبون فى سنة ٤٨٨ هـ محضرا آخر أيضا « لتنفير القلوب من الفاطميين وجمع القلوب حول العباسيين[٣] » .

على أننا نلاحظ تبدلا ظاهرا فى سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبى كاليجار (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) الذى اتخذ من تقربه إلى الفاطميين وسيلة لإرهاب العباسيين، كما حال دون تقرب العباسيين من السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بنى بويه، حتى إن أبا كاليجار تقرب من المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الفاطميين فى فارس، الذى تقلد فيما بعد منصب داعى الدعاة فى مصر، واتهم باعتناق عقائد الإسماعيلية مذهب الفاطميين كما تقدم[٤] .

ولكن المستنصر لم يفتر عن الانتقام من الخلفاء العباسيين . ولذلك نراه يؤيد أبا الحارث البساسيرى فى خروجه على الخليفة العباسى القائم، ويتعهد له بامداده بالمال والرجال . ومن ثم يبعث داعيته الجرىء هبة الله الشيرازى سفيراً من قبله لإثارة حماسة جند البساسيرى، وحثهم على إذكاء الثورة فى وجه الخليفة العباسى . ولم يدخر الخليفة المستنصر الفاطمى وسعا فى إمداد البساسيرى بالأموال الضخمة والجند الذين أمر بإنفاذهم إليه من بلاد الشام، وأرسل إليه كتابا يقول فيه : « ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره فى بلاد العراق، والمبرزين بفضيلة السبق على أوليائه فى فضائل الآفاق، المشمرين عن ساعد الجد بما يجعل عرصاتها بفيض عدله مشرقة بأنجم السعود، ويعيد أعواد منابرها بذكر آل الرسول صلى الله عليه وسلم ناضرة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٣٠ .
(٢) المصدر نفسه جـ ٥ ص ٥٣ .
(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٧ .
(٤) أنظر ص ١٣٣ — ١٣٤ من هذا الكتاب .

العود ، مغسولة درجها من وطء أقدام الأنجاس بماء الإيمان ، مقصورة غرفها [١] على الثناء منها على أهل العدل والإحسان ، رأى أمير المؤمنين — وبالله توفيقه — أن يطوقك طوق ولاية رجالها ، ويقيم على رأسك ، لمزية التقدمة ، راية جمالها ، وينوط بك أمورها كلها ، ويكل إليك عقدها وحلها » [٢].

ولم يكتف المستنصر الفاطمى بذلك بل عمل على توحيد كلمة الأتراك بزعامة البساسيرى ، والعرب بزعامة دبيس بن على بن مَزْيد أمير عرب الفرات ، ولقبه بألقاب منها الأمير ، وسلطان ملوك العرب ، وسيف الخلافة ، وصفى أمير المؤمنين ، كما منحه ولاية ما يفتح من البلاد شرقى نهر الفرات [٣]. وكان من أثر تدخل الخليفة الفاطمى أن انتصر البساسيرى وأنصاره على جيوش الخليفة العباسى فى موقعة سَنْجار سنة ٤٤٩ هـ . وفى ذلك يقول ابن منجب الصيرفى [٤] : « فأقام اليازورى أبا الحارث البساسيرى مناصباً له ، وأمده بالمؤيد فى الدين أبى نصر هبة الله بن موسى (الشيرازى) ، وأصحبه الأموال ، فبعث إليه طغرلبك ألفين وخمسمائة فارس إلى سنجار . فكانت الوقعة المشهورة التى ظفر بها البساسيرى ، ولم يفلت من هذه العِدة إلا مائتا فارس أو دونها ؛ وعمل الشعراء فى ذلك ، فمن مليح ما قيل قول ابن حبوس الشاعر الذى توفى بحلب سنة ٤٧٣ هـ [٥] .

عجبتُ لمدعى الآفاق مُلكا وغايته ببغداد الركود
ومن مستخلَف بالمُلك يرضى يُذاد عن الحياض ولا يذود
وأعجب منهما سيفٌ بمصر تقام به بسنجار الحدود »

ولم يقف نشاط الفاطميين فى مناوأة العباسيين عند هذ الحد ، فقد استطاع هبة الله الشيرازى أن يضم إبراهيم أخا طغرلبك إلى الفاطميين ، على أن « تكون الخطبة لهم (أى للفاطميين) بالخلافة والإمامة مقدمة على خطبته » [٦] . وكان من أثر ذلك أن ثار إبراهيم ينال على أخيه طغرلبك ، وانتهز البساسيرى فرصة نشوب الحرب بينهما ، واستولى على بغداد فى شهر ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ ، وقتل الوزير ابن مسلمة . لكن الخليفة « استذم بذمام [٧] قريش فحماه من القتل » . وفى ذلك يقول أبو المحاسن [٨] : « دخل أبو الحارث البساسيرى بغداد فى ثامن ذى القعدة بالرايات المستنصرية ، وعليها ألقاب المستنصر هذا صاحب مصر ؛ فمال إلى البساسيرى أهل الكرخ ، وفرحوا به لكونهم

---

(١) فى الأصل فرقها ولعله تحريف عن غرفها .

(٢) السيرة المؤيدية للمؤيد فى الدين ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول ، ورقة ١٨٤ .

(٣) أنظر عهد المستنصر الى ابن مزيد فى كتاب السيرة المؤيد للمؤيد فى الدين ، ص ١٩١ — ١٩٣ .

(٤) الاشارة الى من نال الوزارة ص ٤٤ .

(٥) انظر ترجمته فى ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠ — ١٢ .

(٦) السيرة المؤيدية ص ٢٦٣ .

(٧) الذمام الحرمة ، يريد أنه تمنع منه بذمة قريش فحماه من القتل . فى الأصل واستزم بزمام قريش وهو تحريف .

(٨) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦ ، ١٢ .

رافضة ، وانضموا إلى البساسيرى وكشفوا عن أهل السنة ، وشمخت أنوف الرافضة المنافقين ، وأعلنوا بالأذان حيّ على خير العمل ببغداد ... وخطب يوم الجمعة ببغداد للمستنصر بجامع المنصور ، وأنشأ بعضهم يقول :

يا بنى العباس صدوا ... ملك الأرضَ مَعَدّ
ملككم كان معارا ... والعوارى تُستردّ ،

على أن زعزعة الحالة المالية فى مصر ، وعودة هبة الله الشيرازى إليها ، وقيام المنافسة بين العنصرين العربى والتركى فى جيش البساسيرى ، وعودة طغرلبك إلى بغداد بعد أن قضى على فتنة أخيه إبراهيم ينال — كل ذلك ساعد على القضاء على ثورة البساسيرى وقتله بعد أن أقام الخطبة للفاطميين على منابر بغداد سنة كاملة .

٣ — علاقة الفاطميين بالحمدانيين والعقيليين والصليحيين :

وعلى الرغم من أن الحمدانيين كانوا ، كبنى بويه ، يعطفون على الشيعيين ويميلون إلى مذهبهم ، كانوا يخشون ازدياد نفوذ الفاطميين السياسى ، لأن فى ذلك تهديداً لسلطانهم . لذلك نرى الحمدانيين يشجعون القرامطة على غزو بلاد الشام والخروج على الفاطميين ، بعد أن كانوا يدينون لهم بالطاعة ويعملون على نشر مذهبهم . فقد ذكر أبو المحاسن[1] أن القرامطة بعثوا إلى سيف الدولة « يستمدونه حديداً ، فسير إليهم كثيراً ، وحمل ذلك إليهم فى الفرات ثم فى البرية إلى هجر » .

كذلك نرى الحمدانيين يساعدون الحسن الأعصم القرمطى فى حروبه التى شنها على المعز لدين الله الفاطمى ثم على ابنه العزيز بالله . ولا غرو فإن جعفر بن فلاح القائد الفاطمى بعد أن استولى على دمشق ، مدد الحمدانيين فى حلب بالاستيلاء على بلادهم إذا لم يقيموا الدعوة الفاطمية على منابر بلادهم . على أن هذا التهديد أثار سخط الحمدانيين ، فعملوا على مساعدة القرامطة بزعامة الحسن الأعصم بالمال والرجال ليبعدوا خطر الفاطميين عن بلادهم . ويقول النويرى[2] إن بختيار بن معز الدولة بن بويه طلب إلى أبى تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان (٣٥٨ — ٣٦٩ هـ) أن يدفع إلى الحسن الأعصم « أربعمائة ألف درهم ، فرحل الحسن (الأعصم) حتى أتى الرَّحبة ، وعليها أبو تغلب بن حمدان ، فحمل إليه المال المسبب له به عليه ، وحمل إليه العلوفة ، وأرسل إليه يقول : هذا شىء كنت أردت أن أسير أنا فيه بنفسى ، وأنت تقوم مقامى فيه . وأنا مقيم فى هذا الموضع إلى أن يرد إلىّ خبرك ، فإن احتجت إلى مسيرى سرت إليك » .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٢) نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٩٥ .
ذكر المقريزى (اتعاظ الحفا ص ١٣١) هذه المسألة باختصار كبير ، على حين تناولها النويرى فى شىء كثير من التفصيل .

ولم تكن علاقة الفاطميين بالحمدانيين فى عهد سعد الدولة بن سيف الدولة (٣٥٦ — ٣٨٤ هـ) على شىء من الصفاء ؛ فقد رأينا كيف أساء سعد الدولة معاملة رسول الخليفة العزيز الفاطمى حين طلب إليه الكف عن إيذاء أبناء بكجور ، وكيف أرسل إليه يتوعده بالمسير إلى بلاده ، كما رأينا كيف عمل العزيز على الاستيلاء على حلب من يد أبى الفضائل سعيد بن سيف الدولة (٣٨١ — ٣٩٢ هـ)، الذى لم ينقذه سوى تدخل البيزنطيين بقيادة إمبراطورهم باسيل الثانى . ولولا موت العزيز فى مدينة بلبيس وهو فى طريقه إلى حلب ، لخضع الحمدانيون لسلطان الفاطميين قبل خضوعهم نهائيا لابنه الحاكم على ما رأينا (١) .

ولما استولى المقلد بن المسيب العقيلى على الموصل من يد الحمدانيين سنة ٣٨٦ هـ ، وأسس فيها دولة العقيليين (٣٨٦ — ٤٨٩ هـ) ، عمل هؤلاء على التقرب إلى الفاطميين ، وخطبوا لهم على منابر بلادهم ، مما أثار حنق العباسيين والبويهيين عليهم ، حتى إنهم فكروا فى سنة ٤٠٢ هـ فى عقد مؤتمر كتب فيه محضر بالطعن فى نسبهم لتنفير الناس منهم .

ويظهر أن هذا المحضر كتب على أثر إقامة قرواش بن المقلد العقيلى ، الذى كان يميل إلى الفاطميين ، الخطبة للخليفة الحاكم الفاطمى . ويتبين ذلك من هذه الخطبة التى أقيمت للخليفة الحاكم الفاطمى على منابر العقيليين فى الموصل والأنبار والكوفة والمدائن فى شهر المحرم سنة ٤٠١ هـ . وهاك طرفا منها (٢) :

« وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، اصطفاه واختاره لهداية الخلق وإقامة الحق ... حتى قامت حجج الله وآياته وتمت بالتبليغ كلماته ؛ صلى الله عليه وعلى أول مستجيب إليه على أمير المؤمنين وسيد الوصيين ، أساس الفضل والرحمة ، وعماد العلم والحكمة ، وأصل الشجرة الكرام البررة النابتة فى الأرومة المقدسة الطاهرة ، وعلى خلفائه الأغصان البواسق [من تلك الشجرة] ، وعلى ما خلص منها وزكا من الثمرة ... اللهم وصل على وليك الأزهر وصديقك الأكبر ، على بن أبى طالب أبى الخلفاء الراشدين المهديين . اللهم وصل على السبطين الطاهرين الحسن والحسين ، وعلى الأئمة الأبرار ، والصفوة الأخيار ، من أقام منهم وظهر ، ومن خاف فاستتر . اللهم وصل على الإمام المهدى بك ، والذى بلغ بأمرك ، وأظهر حجتك ، ونهض بالعدل فى بلادك ، هاديا لعبادك . اللهم وصل على القائم بأمرك ، والمنصور بنصرك ، اللذين بذلا نفوسهما فى رضائك ، وجاهدا أعداءك . اللهم وصل على المعز لدينك ، المجاهد فى سبيلك ، المظهر للآيات الخفية ، والحجج الجلية . اللهم وصل على العزيز بك الذى مهدت به البلاد ، وهديت به العباد . اللهم اجعل نوامى صلواتك ، وزواكى بركاتك ، على سيدنا ومولانا إمام الزمان وحصن الإيمان ، وصاحب الدعوة العلوية والملة النبوية ، عبدك ووليك المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الراشدين ،

---

(١) أنظر ص ٢١٦ من هذا الكتاب .

(٢) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٤ — ٢٢٧ .

وأكرمت جداده المهديين . اللهم وفقنا لطاعته ، واجمعنا على كلمته ودعوته ، واحشرنا فى حزبه وزمرته . اللهم وأعنه على ما وليته ، واحفظه فيما استرعيته ، وبارك له فيما آتيته ، وانصر جيوشه وأعل أعلامه فى مشارق الأرض ومغاربها إنك على كل شىء قدير » .

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن على يد على بن محمد الصليحى (ت ٤٥٩ هـ) . وكان أبوه من القضاة السنيين فى هذه البلاد . وقد استمال عامر بن عبد الله الرواحى داعى دعاة الإسماعيلية فى اليمن ، على بن محمد الصليحى ، فتحول إلى المذهب الإسماعيلى وهو فى حداثة سنه ، وتفقه فيه ، ثم حل محل عامر بن عبد الله بعد وفاته ، وأحيى الدعوة الإسماعيلية القديمة وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم . كما استطاع على بن محمد الصليحى أن يحتل بعض قلاع اليمن ويقضى على مناوئيه (سنة ٤٣٩ هـ) . ولما اشتد ساعده وقوى أمره واستقرت قدمه فى هذه البلاد ، « كتب إلى صاحب مصر ، وهو معد المستنصر من بنى عبيد ، ووجه إليه بهدايا ، فوجه معد المستنصر إليه برايات وألقاب ، وعقد له الولاية [1] » (سنة ٤٥٣) . ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كان على ابن محمد الصليحى قد ملك معظم بلاد اليمن .

وقد استعان الخليفة المستنصر بعلى بن محمد الصليحى فى إزالة نفوذ العباسيين من بلاد الحجاز ، وإعادة سلطان الفاطميين عليها . ولما تم له ما أراد نشر العدل وقضى على الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فيها ، ولكنه لم يلبث أن قتل فى سنة ٤٥٩ هـ [2] وهو فى طريقه إلى مكة ، وقام بالأمر من بعده ابنه الملك المكرم بن على الصليحى (ت ٤٧٨ هـ) ، ثم قامت من بعده السيدة أروى الحرة الصليحية زوجة المكرم (٤٣٢ هـ) بنشر الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن ، تلك الدعوة التى لاتزال منتشرة على أيدى البهرة فى الهند .

(٤) علاقة الفاطميين بالأمويين فى الأندلس والزيريين فى المغرب :

كان العداء بين بنى أمية وبنى هاشم قديما باقى الأثر فى الجاهلية والإسلام ، وكان العلويون يعتقدون أن الأمويين اغتصبوا حقهم فى الخلافة . فلما قامت الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر ، زاد حقد الأمويين فى الأندلس على هذه الدولة الشيعية ، بسبب اختلافهم وإياهم فى المذهب الدينى ، وبسبب العداء التقليدى الذى استمر بين البيتين الهاشمى والأموى ، وقرب الدولتين بعضهما

---

(١) الحامدى اليمانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٢١٥ .

وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاته ، فقال بعضهم إنها كانت سنة ٤٦٣ هـ ، وقال بعض آخر إنها سنة ٤٧٣ هـ . ولكن الرسائل التى تبودلت بين المستنصر الفاطمى وبين الصليحيين تؤيد موته سنة ٤٥٩ هـ .

راجع سجلات المستنصر فى مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن ص ٣٢٣ The letters of Al-Mustansir (B. S. O. S.), p. 323.

من بعض. وهذا يفسر لنا لماذا عمد الأمويون فى الأندلس إلى إنشاء أسطول قوى يستطيع أن يقف فى وجه المطامع الفاطمية، ويهدد ممتلكات الفاطميين . وكان للخلفاء الفاطميين أنفسهم أثر كبير فى إذكاء هذا العداء، فقد أورد المؤرخون طرفا من هذه الرسائل التى تبودلت بين المعز بالله الفاطمى والحكم المستنصر الأموى. ذكر ابن خلكان (١) أن المعز كتب إلى الحكم المستنصر يسبه ويهجوه، فرد هذا عليه بقوله: أما بعد، قد عرفنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك. ويقول ابن خلكان أيضا إن المعز لم يرد على الحكم وأنه تألم لذلك أشد الألم. ولكن العينى (٢) ذكر أن الحكم كتب «إلى المعز صاحب مصر كتابا حجاه فيه وفى أهله، وأنه دعىٌّ فى نسبه، وأن جده القداح باطنى. وكتب فى أول كتابه:

ألسنا بنى مروانَ كيف تقلبت ... بنا الحال أو دارت علينا الدوائر ؟

فلما وقف العزيز عليه كتب فى أوله:

إذا ولد المولود منا تهللت ... له الأرض واهتزت إليه المنابر

عرفنا فهجوتنا، ولو عرفناك لهجوناك، والسلام».

ولم يقتصر هذا العداء على الأمويين فى الأندلس وحدهم، بل شمل المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم، فإن بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى، الذى ولاه المعز لدين الله الفاطمى بلاد المغرب قبل مسيره إلى مصر واتخاذه القاهرة حاضرة لدولته سنة ٣٦٢ هـ لم يحفل هو ولا أبناؤه من بعده بنشر دعوة الفاطميين فى بلاد المغرب، بدليل ذيوع مذهب أبى حنيفة فى هذه البلاد، حتى «حمل المعز (بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيرى بن مناد) جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك رضى الله عنه، وحسم مادة الخلاف فى المذاهب(٣)». بل لم يحفل المعز بلقب «شرف الدولة» الذى لقبه به الخليفة الحاكم الفاطمى فى سنة ٤٠٧ هـ، بدليل قتل الشيعيين فى مدينة القيروان فى هذه السنة (٤).

وقد قامت الحرب بين المستنصر الفاطمى وبين المعز الصنهاجى، واستعان المستنصر بقبائل بنى هلال، وخاصة بقبيلتى زغبة ورياح، واستولى على القيروان سنة ٤٤٩ هـ. ففر المعز إلى المهدية، ثم لم يلبث أن قطع ابنه تميم الخطبة للمستنصر الفاطمى، وخطب للقائم العباسى. وظلت هذه الخطبة تقام للعباسيين حتى قامت دولة الموحدين على يد أبى عبد الله محمد بن تومرت الذى تلقب بلقب المهدى ومات فى سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م)، ثم قطع أحد أخصائه من القواد، وهو عبد المؤمن، الخطبة للخليفة العباسى وتلقب بلقب أمير المؤمنين (٥).

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢.

(٢) عقد الجمان، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ١٩ ص ٣٩٦.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٣، ١٠٥.

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١١٠، وابن خلكان ج ٢ ص ١٠٤ — ١٠٥.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٠ — ٥١.

(ج) تنظيم الدعوة الفاطمية

١ — مراتب الدعوة :

كان الإسماعيلية يخفون ما يريدون أن يحملوا الناس على اتباعه، ويتظاهرون أمامهم بأمور أخرى تحبب إليهم المذهب الإسماعيلى ، الذى يدعو إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق . لذلك ابتدعوا دعوة منظمة قسموها منذ نشأتهم إلى سبع درجات ، ثم أصبحت تسعا فى أيام الفاطميين . وهاك ملخص هذه الدرجات :

الدرجة الأولى : كان عبد الله بن ميمون ودعاته يعلمون الناس كلا على قدر عقله ودينه ومذهبه . وكانوا يجتذبون الناس بالوعود الكاذبة عن طريق تفسير رموز الدين ، وإظهار بعض مشكلات القرآن والمسائل الشرعية والطبيعية . فإذا وجد الداعى أن المدعو ملم بما يقوله سلم له، وإلا ترك يعمل فكره فيما يلقيه عليه من الأسئلة وقال له : « ياهذا إن الدين لمكتوم وإن الأكثر له منكرون وبه جاهلون . ولو علمت هذه الأمة ماخصص الله به الأئمة من العلم لم تختلف » . وبهذا يثير الداعى حب الاستطلاع عند المدعو والوقوف على ما عنده من العلم . فإذا آنس اطمئنانا إلى كلامه قال له : إن سبب مانزل بالمسلمين من تفريق الكلمة ذهابهم عن أئمة نصبوا لهم وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها ... ولكن الناس صاروا إلى أنواع الضلالات. فان دين محمد صلى الله عليه وسلم ماجاء بالتحلى ولا بما خف على الألسنة وعرفته دهماء العامة ، ولكنه صعب مستصعب وعلم خفى غامض ، وهو سر الله المكتوم وأمره المستور الذى لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه وثقله إلا ملك مقرب ،أو نبى مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى . ومن الأسئلة التى يوجهها الداعى إلى المدعو فى هذه الدرجة :

ما بال الله خلق الدنيا فى ستة أيام ؟ أعجز عن خلقها فى ساعة واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب فى القرآن ؟ (١) وما إبليس وما الشياطين وما وصفوا به ، وأين مستقرهم ؟ وما يأجوج ومأجوج (٢) وهاروت وماروت (٣) وأين مستقرهم ؟ وما سبعة أبواب النار (٤) وما ثمانية أبواب الجنة ؟ وما شجرة الزقوم الثابتة فى الجحيم ؟ (٥) وما معنى « الم » (٦) و « المص » (٧) ؟ وما معنى « كهيعص » ؟ (٨)

---

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى فى فاتحة الكتاب (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم).

(٢) يظهر أنهم قبائل الهون Huns ، وقد ذكر يأجوج ومأجوج فى قوله تعالى (إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض) — سورة الكهف آية ٩٤

(٣) يشير إلى ما ورد فى سورة البقرة (آية ١١٢) (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت).

(٤) يشير إلى ما ورد فى قوله تعالى فى وصف جهنم فى سورة الحجر آية ١٤٤ (لها سبعة أبواب ، لكل باب جزء مقسوم) .

(٥) وقد وصفها الله تعالى فى قوله : (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون) — سورة الصافات آية ٦٣ — ٦٦ .

(٦) تبدأ بعض السور بكلمة ألم مثل البقرة وآل عمران . (٧) يشير بذلك إلى أول سورة الأعراف

(٨) يشير بذلك إلى أول سورة مريم .

« حمعسق[١] » ؟ ولم جعلت السموات سبعا والأرضون سبعا [٢] والمثانى من القرآن سبع آيات ؟ [٣] ولم فجرت العيون اثنى عشر عينا [٤] ؟ ولم جعلت الشهور اثنى عشر شهرا ؟ [٥] ثم يقول الداعى لمن حوله : فكروا أولا فى أنفسكم . أين أرواحكم ؟ وكيف صورها ؟ وأين مستقرها ؟ وما أول أمرها ؟ وما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . خلقت حواء من ضلع آدم ؟ ولم كانت قامة الإنسان منتصبة دون غيره من سائر الحيوانات ؟ ولم كان فى وجهه سبع ثقب وفى سائر بدنه ثقبان ؟ ولم كان فى ظهره اثنتا عشرة عقدة ؟ وفى عنقه سبع عقد ؟ ولم جعل عنقه صورة ميم ويداه حاء وبطنه ميما ورجلاه دالا حتى صار ذلك كتابا مرسوما يترجم عن محمد ؟ ولم جعلت قامته إذا انتصب صورة ألف ، وإذا ركع صارت صورة لام ، وإذا سجد صارت صورة هاء ، فكان كتابة يدل على الله ، ولم جعلت أعداد عظام الانسان كذا وأعداد أسنانه كذا والأعضاء الرئيسة كذا ؟

وكان دعاة هذا المذهب إذا شككوا المدعو أو المريد وطلبوا منه حل هذه الرموز ، أخذوا عليه العهود والمواثيق بأن لا يكشف عن سر هذه الدعوة ، وأن يدافع عنها ، وأن يتحمل فى سبيل الدفاع عنها كل ضروب العذاب والآلام . وفى ذلك يقول المقريزى[٦] « أليس الله تعالى يقول : (ومن كان فى هذه الدنيا أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا [٧]) . فاذا علم الداعى أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه ، وطلب منه الجواب عنها ، قال له حينئذ : لا تعجل فان دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله ويجعل غرضا للعب . وجرت عادة الله وسنته فى عباده عند شرع من نصبه أن يأخذ العهد على من يرشده . ولذلك قال (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا) [٨] . . . وقال (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً) [٩]

ومن أمثال هذا ، فقد أخبر الله تعالى أنه لم يملك حقه إلا لمن أخذ عهده ، فأعطنا صفقة يمينك ، وعاهدنا بالمؤكد من أيمانك وعقودك أن لا تفشى لنا سراً ، ولا تظاهر علينا أحدا ، ولا تطلب لنا غيلة ، ولا تكتمنا نصحا ، ولا توالى لنا عدوا . فإذا أعطى العهد قال له الداعى : أعطنا جعلا من مالك

---

(١) يشير بذلك إلى أول سورة الشورى .

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى فى سورة الطلاق ، آية ١٢ (الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن) .

(٣) يشير إلى أن فاتحة الكتاب تتكون من سبع آيات .

(٤) يشير بذلك إلى انبجاس الماء لبنى إسرائيل من اثنتى عشرة عينا ، سورة الأعراف آية ١٥٩ .

(٥) يشير بذلك إلى قوله فى سورة التوبة آية ٣٦ (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً)

(٦) خطط جـ ١ ص ٣٩٢ — ٣٩٣ .

(٧) سورة الاسراء آية ٧٢ .

(٨) سورة الاحزاب آية ٦ .

(٩) سورة النحل آية ٩١ — ٩٢ .

نجعله مقدمة أمام كشفنا لك الأمور وتعريفك إياها . والرسم فى هذا الجعل بحسب مايراه الداعى . فإن امتنع المدعو أمسك عنه الداعى ، وإن أجاب وأعطى نقله إلى الدعوة الثانية .

الدرجة الثانية : وإذا تم للداعى ما أراد ، دخل بالطالب فى الدرجة الثانية ، ومؤداها أن فرائض الإسلام لاتؤدى إلى مرضاة الله إلا إذا كانت عن طريق الأئمة السبعة من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق . ثم يكاشف المدعو بقوله إن الناس قد ضلوا ، لأنهم لم يأخذوا عن أئمة نصبهم الله لهم . ويستدل على ذلك بأمور مقررة فى كتب الإسماعيلية حتى يتثبت ذلك فى نفسه . فاذا ثبت نقله الداعى إلى الدرجة الثالثة ، وبذلك يضعون أساس مبدأ الإمامة فى نفس المدعو ، فيتحول عن دينه أو مذهبه القديم .

الدرجة الثالثة: وفيها يكشف الداعى عن العقيدة بأن الأئمة سبعة ، وأن الإمام الحقيقى هو السابع الذى يعلم كل رموز الدين وسرائره . ويستدل بذلك على أن الله جعل الكواكب السيارة سبعة وجعل السماوات سبعا ، وجعل الأرضين سبعا ، وهؤلاء الأئمة هم أيضا سبعة : أولهم على ، ويليه الحسن ، فالحسين ، فعلى زين العابدين ، فمحمد الباقر بن زين العابدين ، فجعفر الصادق ، فإسماعيل بن جعفر . وبعضهم يتخطى إسماعيل ويلحق الإمامة بابنه محمد . وهذا الإمام السابع هو صاحب الزمان ، وأن هنده علم الباطن ، وعلم التأويل ، وأنه يعرف الأسرار ، وأن دعاته هم الوارثون . عند ذلك يذهب اعتقاد المدعو فى الأئمة الاثنا عشر (من بين طوائف الشيعة) ، لأنهم أخذوا عنه ومن جهته رووا . فاذا انقاد المدعو لما ألقاه عليه الداعى فى هذه الدرجة نقل إلى الدرجة الرابعة .

الدرجة الرابعة : وإذا وصل الطالب إلى هذه المرتبة اعتقد أن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين . وفى ذلك يقول الداعى : حيث أن عدد الأئمة سبعة ، كذلك عدد الرسل الذين جاءوا بالشرائع سبعة (١) . ولكل من هؤلاء الرسل صاحب يأخذ عنه دعوته ، ويكون ظهيرا له فى حياته ، وخليفة له بعد وفاته (٢) . وهؤلاء الأئمة السبعة الأصحاب أو المساعدون هم الأساس والصامتون (٣) لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد هو أولهم . ولا بد عند انقضاء هؤلاء السبعة ونفاد دورهم من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبى ينسخ شرع من مضى من قبله ، ويكون الخلفاء من بعده ، ثم يكون بعدهم نبى ناسخ ، يقوم من بعده سبعة صمت (٤) أبدا . وهكذا حتى يقوم النبى السابع من النطقاء فينسخ جميع الشرائع التى كانت قبله ، ويكون صاحب الزمان الأخير .

ومعنى ذلك أن النبى الذى يأتى بشريعة هو الناطق : فالناطقون سبعة هم الأنبياء . ولكل ناطق أو نبى سوس وستة أصحاب صمت . مثال ذلك آدم جاء بتشريع فهو نبى ناطق وصاحبه وسوسه

---

(١) ويسمونهم النطقاء ، ويرون أنهم حلولات العقل الكلى La Raison Universelle .

(٢) ويسمى الأساس أو السوس ، وهو عند الاسماعيلية حلول النفس الكلية Ame Universelle .

(٣) يعنى الأساس ويليه ستة أئمة صامتون .

(٤) أولهم الامام الأساس ويليه ستة أئمة صمت .

ابنه شيث الذى يليه ستة أئمة صمت ؛ ونوح ناطق أتى بشريعة نطق بها ، وصاحبه وسوسه ابنه سام ويليه ستة صمت ؛ وإبراهيم الخليل نبى ناطق صاحبه وسوسه ابنه إسماعيل ويليه ستة صمت ؛ وموسى نبى ناطق ، صاحبه وسوسه أخوه هارون الذى يليه ستة أئمة صمت ؛ وعيسى نبى ناطق صاحبه وسوسه بطرس ، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبى ناطق أتى بشريعة هى الإسلام ، وصاحبه وسوسه على بن أبى طالب . وإنما يقصد الداعى من وراء ذلك أن يغير عقيدة المدعو ، ويدخل فى نفسه أنه لا وحى بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، ويجعله يعتقد أن الوحى مستمر مع توالى الأجيال . ومن تقدم هذه المرتبة لا يعلم سوى نظريات فلسفية لا تمت للاسلام بشىء حتى يصل به الاعتقاد إلى أن محمد بن إسماعيل هو عبد الله بن ميمون ، وأنه بمنزلة هرون من موسى أو بمنزلة على من محمد .

الدرجة الخامسة : وفى هذه المرتبة يقول الداعى للمدعو : إن لكل إمام قائم ، حججا[1] متفرقين فى الأرض عددهم اثنا عشر رجلا . ويستدل على ذلك بأن البروج اثنا عشر ، وأن نقباء بنى إسرائيل اثنا عشر ، ونقباء النبى صلى الله عليه وسلم اثنا عشر . ويستدل على أن عدد الأئمة سبعة بأمور منها أن الله تعالى خلق النجوم التى هى قوام العالم سبعة ، وجعل أيضا السموات سبعا ، والأرضين سبعا . ثم يقول الداعى للمدعو إن شريعة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ستنسخ . وإذا كان فارسيا ذكره بإذلال العرب له ، وحثه على التخلص من نيرهم ، وإن كان عربيا أثار حفيظته على الفرس ، وإن كان يهوديا أو نصرانيا حدثه بما يوافق عقيدته وميوله .

الدرجة السادسة : وفيها يفسر الداعى معانى شرائع الإسلام من صلاة وزكاة وحج وطهارة وغير ذلك ، ويقول إن هذه الفروض وضعت لتشغل العامة عن خلافاتهم وتبعدهم عن الفساد . وإذا اعتقد المدعو بصحة هذا القول ، ضعف اعتقاده فى الدين وأركانه . وإذا ينتقل الداعى إلى الكلام فى الفلسفة ، فيقول إن فلاسفة اليونان يعتمدون على العقل فى شرح كل المسائل . وعلى كل مسلم أن يحكم العقل فى كل شىء ؛ وبذلك يحبب إلى نفسه أفلاطون وأرسطو وفيثاغورث وغيرهم من الفلاسفة الذين يعتمدون على تحكيم العقل . وإذا أخذ المدعو بهذه الآراء أصبح أهلا للنقل إلى الدرجة السابعة . ولم يتعد هذه المرتبة إلا القليل ، حتى إن كثيرين من مشهورى دعاة الإسماعيلية كأبى عبد الله الشيعى لم يتجاوزها [2] .

الدرجة السابعة : وفيها يعلم المدعو أن الناصب للشريعة ، وهو النبى ، لا يستغنى بنفسه ، ولا بد له من صاحب يكون أحدهما الأصل ، ويكون الآخر صدرا له . ويستدل الداعى على ذلك بقوله تعالى

---

(١) أحدث الإسماعيلية فى هذه الدرجة مبدأ الحجج المشهور ، وأعطوا الحجة من التقديس ما كانوا يعطونه للإمام . ومن أشهر حجج الإسماعيلية عبد الله بن ميمون القداح — حجة محمد بن إسماعيل ، وناصرى خسرو (ت ٤٨٠ هـ) حجة المستنصر ، والحسن الصباح (ت ٥١٨ هـ) حجة المستنصر وابنه نزار . وقد قام كل من هؤلاء بدور هام فى تاريخ الاسماعيلية .

(٢) De Sacy: Recherches sur l'initiation à la Secte des Ismaeleens, Jonrnal Asiatique, 1924, p. 326.

(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون [١]) إشارة إلى الأول فى الرتبة ، والآخر هو القدر الذى قال فيه (إن كل شيء خلقناه بقدر [٢]) ، كما يستدل أيضا بقول الفلاسفة : الواحد لا يصدر عنه إلا واحد . وبذلك يؤول الداعى هذه الآيات تأويلا يناسب ميول المدعو .

الدرجة الثامنة : وفيها يقول الداعى للمدعو إن التالى يدأب فى أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق ، وإن الصامت فى الأرض يدأب فى أعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء ، وإن الداعى يدأب فى أعماله حتى يبلغ منزلة السوس . فاذا اعتقد المدعو بذلك قال له الداعى : إن معجزة النبى الصادق الناطق ليست غير أشياء تنتظم بها سياسة الجمهور ... فينتظم بذلك النبى شريعة يتبعها الناس ، ثم يقرر الداعى أن القيامة والقرآن والثواب والعقاب معناها غير ما يفهمه العامة وما يتبادر إلى الذهن ، وليس هو إلا حدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها من كون وفساد جار على ترتيب الطبائع ، كما بسطه الفلاسفة فى كتبهم . وعلى ذلك فليست معجزة النبى سوى أشياء تنتظم بها سياسة الجمهور . وإنما يقصد الداعى بذلك إزالة كل اعتبار عن كل ما يسمى نبوة . ولم يعد للإسلام أى تأثير على نفسه [٣] .

الدرجة التاسعة : وإذا انتقل المدعو إلى الدرجة التاسعة ، أصبح جديرا بالتعمق فى أصول المذهب الإسماعيلى . عند ذلك يحيله الداعى إلى كتب الفلاسفة وما جاء فيها عن الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وعن العلم الإلهى ، واعتقد أن الوحى هو صفاء النفس ، وأن النبى يجد فى فهم ما يلقى إليه وينزل عليه ، فيظهره للناس ، ويعبر عنه بكلام الله ، ذلك الكلام الذى ينزل به النبى شريعته . فكأن النبى لا يعمل شيئا ، إذ أن الوحى ينزل عليه فيظهره للناس ، وأن الأنبياء الناطقاء أصحاب الشرائع ، إنما هم لسياسة العامة ، على حين أن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة . وهكذا يبرهن دعاة هذا المذهب لتلاميذهم ومريديهم أن ظهور الإمام بظهور أمر الله ، وأن نهيه إنما يكون على لسان أوليائه الذين هم الدعاة أنفسهم ، والذين يصح لهم أن يحلوا محل الأنبياء ، ويجتهدوا حتى يصلوا إلى منزلة الناطق [٤] .

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الدرجات كانت رائجة فى دورى الستر والظهور ، وأن الفاطميين أولوها كثيرا من العناية ، فعقدوا لها المجالس فى القصور والمكتبات والمساجد على ما سنرى .

٢ — داعى الدعاة :

وقد أسندت رياسة الدعوة الإسماعيلية فى عهد الفاطميين إلى موظف كبير أطلق عليه « داعى

---

(١) سورة يس آية ٨٢ .

(٢) سورة القمر آية ٤٩ .

(٣) Goldziher: le Dogme et la Loi de l'Islam , p. 204

(٤) أنظر هذه الدعوات التسع فى كتاب الخطط للمقريزى جـ ١ ص ٣٩١ — ٣٩٥ ، وراجع العهد الذى يؤخذ على المدعو فى المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٩٦ — ٣٩٧ ، وفى كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى مخطوط بدار الكتب المصرية جـ ٢٣ ص ٦٥ — ٦٦ .

الدعاة » ، وكان يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه . وكثيرا ما كانت وظيفتا قاضى القضاة وداعى الدعاة تسندان إلى رجل واحد . ويساعد داعى الدعاة فى نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيبا ، وله نواب ينوبون عنه فى البلاد ، وبذلك يعتبر الصلة بين الخليفة وبين أتباعه من الإسماعيلية ، كما يتضح ذلك من قول المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى عند كلامه على داعى الدعاة القاسم بن عبد العزيز ابن محمد بن النعمان فى عهد المستنصر الفاطمى : « وتوجهت بعد ذلك إلى الموسوم بالقضاء والدعوة الذى كان باب حظنا ، ونحن بالبعد والواسطة بيننا وبين مجلس الإمامة[1] » .

ومن أهم أعمال داعى الدعاة رياسة الدعوة الإسماعيلية ، وأخذ العهد على المريدين إما مباشرة أو بواسطة نوابه فى مصر وفى غيرها من البلاد التى ساد فيها المذهب الإسماعيلى ، والإشراف على محاضرات المجالس وتنقيحها ، وعرضها على الخليفة لإقرارها وتذييلها بإمضائه ، وإلقاء هذه المحاضرات بنفسه فى الأماكن المخصصة لها . ومن خصائص داعى الدعاة جمع النجوى[2] من المؤمنين والمؤمنات (يعنى الإسماعيلية) ، وتدوين اسم من يدفع أكثر من المال المقرر . وكان يجمع فى عيد الفطر مال كثير يودع بعضه بيت المال[3] . ولخطورة مركز داعى الدعاة ، أسند إليه الفاطميون رياسة دار الحكمة ودار العلم الملحقة بها .

ومن أشهر الذين ولوا وظيفة داعى الدعاة أسرة أبى حنيفة النعمان المغربى ، والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى .

٣ — مجالس الدعوة :

وقد خصص لداعى الدعاة مكان خاص بقصر الخليفة ، هو دار العلم . وكان دعاة الإسماعيلية يتصلون به ويتلقون عنه الأوامر ، ويقدمون له فى يومى الاثنين والخميس ما أعدوه للمحاضرة فى أصول المذهب الإسماعيلى . وكان داعى الدعاة يعقد المجالس ويقرأ على الناس من مصنفاته ، ويجلس على كرسى الدعوة فى الإيوان الكبير ، فيحاضر الرجال ، ويعقد للنساء مجلسا خاصا يسمى « مجلس الدعوة » ، حيث يلقنهن أصول المذهب . ذكر المقريزى ، نقلا عن ابن عبد الظاهر ، أن هذه المجالس كانت تفرد للناس كل حسب طبقته : فكان لآل على مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، ولمن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس ، وللعامة والطارئين من البلاد الأجنبية مجلس ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلس خاص بهن . وكان النساء يحضرن فى الجامع الأزهر .

وإذا فرغ داعى الدعاة من إلقاء محاضرته على المؤمنين والمؤمنات ، أقبلوا عليه يقبلون يده ، فيمسح على رءوسهم بالجزء الذى عليه إمضاء الخليفة .

---

(١) المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى : السيرة المؤيدية ، مخطوط بجامعه فؤاد الأول ص ١٢١ .

(٢) ذكر المقريزى (خطط جـ١ ص ٣٩١) أن النجوى كانت ثلاثة دراهم وثلثا ، ومن سراة الاسماعيلية من دفع النجوى ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلثى دينار ، فيمتاز بذلك عن غيره فى المحول ، ويعطى رقعة مذيلة بامضاء الخليفة فيها : « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك » ، فيدخر ذلك ويفخر به .

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص ٣٩١ .

ويظهر أن الفاطميين هم أول من أفرد لداعى الدعاة مكانا كبيرا فى القصر ؛ ففى عهد العزيز بالله الفاطمى قُلد قاضى القضاة محمد بن النعمان منصب الدعوة إلى مذهب آل البيت فى القصر ، كما كان أخوه الحسين فى القاهرة وأبوه أبو حنيفة النعمان المغربى فى المغرب . وقد اشتد الزحام بالناس حتى مات منهم أحد عشر رجلا . وبذل الحاكم بأمر الله جهدا كبيرا فى نشر هذه الدعوة ، حتى لقد أرغم كثيرا من الناس على اعتناق المذهب الفاطمى ، كما كان من كثرة دخول الناس فى هذه الدعوة أن خصص لهم يومان فى الأسبوع لتلقى تعاليم هذا المذهب .

وكان داعى الدعاة يتسلم كتب الدعوة التى تقرأ على الناس فى القصر من سلفه المباشر[١] . أما هذه الكتب فهى من غير شك الكتب التى ألفها رجال من أمثال أبى حنيفة النعمان المغربى ،[٢] ويعقوب بن كلس[٣] ، والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، وغيرهم من كبار دعاة الإسماعيلية . ومن أشهر هذه الكتب كتاب « رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته » ، وتتناول الكلام على الدروز .

(ى) الدُّرزية[٤]

١ — دعاة الدرزية :

قامت فى العصر الفاطمى طائفة من غلاة دعاة الإسماعيلية ألَّهوا الحاكم ، وخرجوا بذلك على السواد الأعظم من الإسماعيليين المعتدلين الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة . وقامت هذه الحركة على أيدى الفرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم ويؤمنون بنظرية الحق الملكى المقدس The Divine Right of kings ومن أعظم هؤلاء الدعاة تأثيرا فى هذه الحركة حمزة بن على الزوزنى والحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم ، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخارى الدرزى ، الذين جهروا فى مصر بتأليه الحاكم .

---

(١) راجع حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٤٢ — ١٤٤ .

(٢) ومن أشهر كتبه كتاب دعائم الإسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام ، وكتاب الهمة ، وكتاب المجالس والمسايرات ، وكتاب الينبوع ، وكتاب الإيضاح ، وكتاب مختصر الإيضاح ، وكتاب أساس التأويل ، وكتاب افتتاح الدعوة الزاهرة .

(٣) ومن أشهر كتبه الرسالة الوزيرية ، وقد نهج فيها نهج أبى حنيفة النعمان فى كتبه .

(٤) الدرز (بالفتح) : واحد دروز الثوب ونحوه ، وهو فارسى معرب . ويقال درز بالدال والذال ، وأولاد درزة : السفلة والسقاط والغوغاء من الناس والخياطون والحاكة ، وهم من أسافل الناس . والدرزى (بالفتح) : الخياط . والعامة تضم الدال فتقول دُرْزِىّ ، وفى الجمع دروز ، والصواب دَرْزى فى المفرد ودرزية فى الجمع ، والشائع اليوم دروز وهو خطأ .

وقد حمزة بن علىّ على مصر فى سنة ٤٠٥ هـ، وانتظم فى سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون إلى دار الحكمة التى أسسها الحاكم سنة ٣٩٥ هـ. وأخذ ينشر فى الخفاء الدعوة إلى تأليه الحاكم، ثم جهر بهذه الدعوة بعد أن لقى قبولا من ذلك الخليفة الفاطمى وقد وصف النويرى (١) الدور الذى قام به حمزة فى بث عقيدة تأليه الحاكم فى هذه العبارة، قال: إنه ظهر من دعاة الحاكم رجل يقال له حمزة بن اللباد الأعجمى الزوزنى، ولازم الجلوس فى المسجد الذى بناه خارج باب النصر، وأظهر الدعاء إلى عبادة الحاكم، وأن الإله حل فيه. واجتمع إليه جماعة من غلاة الاسماعيلية، وتلقب بهادى المستجيبين. وكان الحاكم إذا ركب إلى تلك الجهة، خرج إليه حمزة من المسجد وانفرد به، وتمادى على ذلك وارتفع شأنه. واتخذ لنفسه خواص لقب بعضهم بسفير القدرة، وجعله رسولا له. وكان يرسله لأخذ البيعة على الرؤساء على اعتقاده فى الحاكم، فلم يمكنهم مخالفته خوفا على نفوسهم من بطشه.

وفى سنة ٤٠٨ هـ جهر حمزة بن على بدعوة ألوهية الحاكم، وصنف له كتابا ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت فى آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى على بن أبى طالب، وأن روح على انتقلت إلى العزيز، ثم إلى ابنه الحاكم، أى أن الحاكم قد أصبح فى نظرهم إلها عن طريق الحلول (Incarnation)

ويظهر أن دعوة تأليه الحاكم التى قام بها حمزة بن على قد أوهنت صرح الدعوة الإسماعيلية المعتدلة فى مصر. ولا غرو فقد عمل على أن يحل فى رياسة هذه الدعوة محل ختكين داعى دعاة الإسماعيلية فى هذه البلاد. ولولا مقاومة السنيين والمعتدلين من الإسماعيلية لآلت رياسة الدعوة الإسماعيلية إلى حمزة منذ سنة ٤٠٨ هـ. وقد شجع الحاكم هذا الداعى وأنصاره، حتى إنه كان كثيرا ما يلتقى بهم فى القرافة ويظهر عطفه عليهم وتوده إليهم، ويسال حمزة عن عدد أنصاره ومدى ماوصل إليه فى هذه الحركة من نجاح (٢). وكان من أثر هذا التشجيع أن غلا حمزة بن على فى تلقيب نفسه بألقاب متعددة مثل الإمام، والدليل على عبادة الله، والداعى إلى توحيد الله، والناطق بحق الله، والبرهان على الله، والرسول الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ... وأنه السبيل إلى معرفة مولانا جل ذكره (أى الحاكم)، والطريق إلى توحيده، والحجة إلى عبادته (٣).

ويعتبر حمزة بن على المؤسس الحقيقى لمذهب الدرزية؛ فقد استغل الحسن بن حيدرة الفرغانى الأخرم، ومحمد بن إسماعيل البخارى الدرزى فى نشر عقائد هذا المذهب، وشجع الأخرم فى سنة ٤٠٩ هـ

---

(١) نهاية الأرب: مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٥٩.

(٢) يحيى بن سعيد: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٢٣ — ٢٢٤

(٣) كتاب النقط والدوائر، وهو من كتب الدرزية، وقد ذيل ببعض رسائلهم، وهى (١) الرسالة الموسومة ببدء الخلق، (٢) نبذة من شرح البيان ومجرى الزمان (ج) الرسالة الموسومه بكشف الحقائق، نشره سيبولد الألمانى (١٣١٩ هـ = ١٩٠٢ م)

على الجهر بتأليه الحاكم . وكان الأخرم مشهورا بالجرأة والإقدام . ويقول النويرى [١]: «ظهر رجل يقال له حسن بن حيدرة الفرغانى الأخرم ، يرى حلول الإله فى الحاكم ، ويدعو إلى ذلك ، ويتكلم فى إبطال النبوة ... فاستدعاه الحاكم وخلع عليه خلعا سنية ، وحمله على فرش مسرجة ... وركبه فى موكبه فى ثانى شهر رمضان. فبينما هو يسير فى بعض الأيام ، تقدم إليه رجل كرخى فألقاه عن فرشه ، ووالى الضرب عليه حتى قتله . وأمسك الكرخى ، فأمر الحاكم بقتله ، فقتله لوقته ؛ ونهب الناس دار الأخرم بالقاهرة . وكان بين الخلع عليه وقتله ثمانية أيام »

ويظهر أن الأخرم قتل بعد أن أثار هذه الاضطرابات فى جامع عمرو . فقد ذهب على رأس خمسين رجلا من أنصار حركة التأليه . ودخلوا الجامع راكبين دوابهم ، وسلموا إلى القاضى السنى ابن أبى العوام فتوى صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم ؛ وأثار الأخرم بذلك حنق المصريين السنيين فانقضوا عليه وعلى رجاله وفتكوا بهم ، وتمكن هو من الهرب ، ولكنه قتل بعد قليل [٢]

وقد أثار قتل الأخرم وأنصاره حنق الخليفة الحاكم ، حتى إنه «أمر بعد قتل الأخرم ألا يركب معه أحد إلا الركابية فقط ، ولا يدخل إلى قصره من رؤساء دولته سوى أحد عشر رجلا أسماهم ، وأن يدخل أيضا الكتاب والقراءون ، والأطباء والمؤذنون وخدام القصر ، من غير أن يختلط بهم غيرهم من الناس »[٣]

ولكن قتل الأخرم لم يضعف من عزيمة غلاة الإسماعيلية . فقد ظهر على أثر مقتله فى سنة ٤٠٩ هـ الداعى محمد بن إسماعيل الدرزى [٤]، وكان قد وصل الى مصر فى سنة ٤٠٨ هـ ، فرحب به الحاكم وأجزل له العطاء . وقد سلك الدرزى فى سبيل تأييد ألوهية الحاكم مسالك شتى ، فألف الكتب فى ذلك ، واستعان بنفوذ الخليفة الحاكم فى نشر هذه الدعوة بين رجال البلاط والموظفين . ويقول أبو المحاسن [٥] : « وقربه وفوض الأمور إليه، وبلغ منه أعلى المراتب ، بحيث أن الوزراء أو القواد والعلماء كانوا يقفون على بابه ولا ينقضى لهم شغل إلا على يده ، وكان قصد الحاكم الانقياد إلى الدرزى المذكور فيطيعونه » .

ولم يكن هذا كل ما قام به الدرزى فى سبيل نشر دعوته ، فقد تسمى بسند الهادى (حمزة بن على) وحذا حذو أستاذه فى نقل رياسة هذه الدعوة إليه ، فكتب إلى ختكين داعى دعاة الإسماعيلية يطلب إليه الانضواء تحت لوائه ، كما كتب إلى ولى عهد المسلمين عبد الرحمن بن إلياس الذى كان يمثل

---

(١) نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ص ٥٩

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٣

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٢٣

(٤) وإليه تنسب طائفة الدرزية ، على الرغم من أن حمزة بن على يعتبر المؤسس الحقيقى للمذهب الدرزى

(٥) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤

عقيدة الحاكم التوحيدية وإلى غيرهم يدعوه إلى دعوته ، مما يدلنا على مدى تغلغل نفوذ أنصار المذهب الدرزى . على أن ختكين قاوم هذه الحركة واشترك ، حتى مع السنيين فى القضاء عليها ، وشكا إلى الحاكم جرأة الدرزى وأنصاره وغلوهم . ووجدت هذه العقيدة أنصارا من بين المصريين طمعا فى التقرب إلى الخليفة الذى ناصر هذه الحركة وعطف عليها . كما أخذ الدرزى فى قراءة كتابه الذى صنفه فى عقائد المذهب الدرزى فى الجامع الأزهر ، مما أثار سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعيين ، وكادوا يقتلونه لولا أنه هرب إلى بلاد الشام ، وأقام بوادى تيم الله بن ثعلبة غربى دمشق ، وأخذ ينشر الدعوة فى تأليه الحاكم ويقرأ على أهالى هذه الجهات كتبه التى لم تلق قبولا لدى كثير من المصريين الذين اضطهدوه ، وأظهر الحاكم استياءه من دعوته خوفا من الرعية . وقد استطاع الدرزى أن يستميل إلى دعوته كثيرا من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية . ولا يزال هذا المذهب منتشرا فى جبال لبنان وحوران .

وليس من شك فى أن الحاكم كان يناصر هذه الدعوة ويشجع الدرزية فى مصر أولا وفى الشام ثانيا ، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله ، بدليل أنه اتخذ جواسيس من النساء يتدسسن فى دور بعض الناس . وكان من واجبهن اكتشاف ما يحدث فيها ، ثم تقديم تقاريرهن إليه فى اليوم التالى . فاذا أصبح الخليفة استدعى أهل هذه الدور للمثول بحضرته وأخبرهم بما حدث فى دورهم ، كما اتخذ جواسيس عهد إليهم أن يقدموا إليه تقارير مستوفاة عن كل ما يحدث فى الطرقات ، حتى أصبح بعض الناس يعتقد أنه يعلم الغيب .

وقد ادعى الحاكم تجسم الإله فى شخصه ؛ وهو وإن لم يصرح بذلك ، كان يوافق على آراء أنصاره كحمزة بن على والدرزى اللذين نسبا إليه الصفات التى لا يتصف بها إلا الله سبحانه وتعالى . كذلك اعتقد الناس أن بيده الحياة والموت ، وإذا ظهر فى الطرقات خروا له سجدا وقبلوا الأرض بين يديه ومن أبى ذلك كان نصيبه الموت .

وقد شجع بعض الشعراء المتصلين بالبلاط الفاطمى هذا الاعتقاد ، ولم يترددوا فى أن ينسبوا إلى الحاكم بعض صفات الله وهم يقرءون القرآن بحضرته ، فقد أمدنا ابن خلكان (١) بوثيقة نقلت عن الحافظ السلفى بخط يده ، نصها : « إن الحاكم المذكور كان جالسا فى مجلسه العام وهو حفل بأعيان دولته ، فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) ،(٢) والقارىء فى أثناء ذلك يشير إلى الحاكم . فلما فرغ من القراءة ، قرأ شخص آخر يعرف بابن المشجر ، وكان رجلا صالحا : (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٧

(٢) سورة النساء آية ٦٨

يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ماقدر الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز)[١]. فلما انتهت قراءته، تغير وجه الحاكم ، ثم أمر لابن المشجر المذكور بمائة دينار ، ولم يطلق للآخر شيئا . ثم إن بعض أصحاب ابن المشجر ، قال له : أنت تعرف خلق الحاكم وكثرة استحالاته[٢] وما تأمن أن يحقد عليك ، وأنه لايؤاخذك فى هذا الوقت ، ثم يؤاخذك بعد هذا فتتأذى منه ، ومن المصلحة عندى أن تغيب عنه ، فتجهز ابن المشجر للحج وركب فى البحر وغرق » .

وقد أعلن الذين اتبعوا سياسة الحاكم الدينية مايعتقدونه من عبادته وتوحيده وتنزيهه ، وأرغم من لم يقل بألوهيته الحاكم على دفع الجزية كأهل الذمة .

٢ — أهم مميزات الدرزية :

قامت طائفة الدرزية فى أوائل القرن الخامس الهجرى كما تقدم ، ولا تزال إلى الآن تحتفظ بشىء من مميزاتها وخصائصها كطائفة من طوائف المذهب الإسماعيلى . ولايزال كثير من الأسس التى وضعها حمزة بن على وغيره من دعاة الدرزية الأول قائما إلى اليوم . ومن أهم هذه الخصائص اتخاذ الدرزية تقويما جديدا يؤرخون به حوادثهم ، ويبدأ من سنة ٤٠٨ هـ ، وهى السنة التى ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم على يد حمزة بن على وأنصاره . ويعبرون عن ذلك بكشف المكنون ، أى ظهور التوحيد .

ومن هذه الخصائص إغلاق باب الاستجابة الخارجية ، بمعنى أن هذه الاستجابة تغلق أبوابها فى وجه كل من لاينتمى إليها ، أى من لايكون درزيا ، أو موحدا على حد تعبيرهم . ويبررون ذلك بقولهم إن الدعوة قد أبطلت وأغلقت الأبواب ، فمن لم يؤمن بقى كذلك إلى الأبد ، ومن آمن فقد آمن بلاردة[٣] . ومن ثم نرى الدرزية ينقسمون إلى طائفتين :

الأولى : طائفة الروحانيين ، وتكون الطبقة المستنيرة التى تلم بأصول المذهب الدرزى ، وتنقسم هذه الطائفة إلى رؤساء وعقلاء (أو عقال) وأجاويد . فالرؤساء هم الذين بيدهم مفاتيح جميع أسرار الدرزية ، والعقلاء بيدهم الأسرار الداخلية التى تتعلق بالتنظيم الداخلى للمذهب ، والأجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية التى تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب .

والطائفة الثانية هى طائفة الجثمانيين ، وتنقسم إلى قسمين : الأمراء الجثمانيين ، والعامة أو الجهال . فالأمراء الجثمانيون بيدهم شئون الحرب والزعامة الوطنية ، والعامة أو الجهال هم الذين لايعرفون من أصول المذهب إلا اسمه ، ولايحق لطبقتى الجثمانيين الدخول ، بحال من الأحوال ، فى مجالس طائفة الروحانيين ، ويعتبرون جهالا مهما علا كعبهم فى التعليم والثقافة . [٤]

---

(١) سورة الحج آيه ٧٣ — ٧٤ (٢) تغيراته

(٣) حمزة بن على الدرزى : التاليد فى مذهب أهل التوحيد (نشره ميخائيل شارويم) ص ٢٣

(٤) راجع Philip Hiti: The Origins of the Druze People and Religion (Columbia , 1928), p.43

ولا يسمح لأحد من أعضاء طائفة الجثمانيين بالانتظام فى طائفة الروحانيين إلا بعد اجتياز اختبار طويل صعب يظهر فيه استعداده لتلقى أصول المذهب الدرزى والاطمئنان إلى أنه سوف يصبح عضوا نافعا متفقها فى عقائده ، بل بعد أن يؤخذ عليه عهد يتبرأ فيه من جميع الأديان والمذاهب ، ويتعهد بالدفاع عن هذه الطائفة ويحافظ على أسرارها . وقد وضع حمزة بن على صيغة هذا العهد الذى أسماه «ميثاق ولى الزمان » ، وهاك نصه عن دى ساسى(١)

« توكلت على مولانا الحاكم الأحد ، الفرد الصمد ، المنزه عن الأزواج والعدد . أقر فلان بن فلان إقرارا أوجبه على نفسه ، وأشهد به على روحه فى صحة من عقله وبدنه وجواز أمره ، طائعا غير مكره ولا مجبر ، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها ، وأنه لا يعرف غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره ، والطاعة فى العبادة ، وأنه لا يشرك فى عبادته أحدا مضى أو حضر أو ينتظر ، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملك لمولانا الحاكم جل ذكره ، ورضى بجميع أحكامه له وعليه ، غير معترض ولا منكر لشىء من أفعاله ، ساءه ذلك أم سره . ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره ، الذى كتبه على نفسه ، وأشهد به على روحه ، وأشار به على غيره ، أو خالف شيئا من أوامره ، كان بريئا من البارى المعبود ، وحرم الإفادة من جميع الحدود ، واستحق العقوبة من البارى العلى جل ذكره . . . ومن أقر أنه ليس فى السماء إله معبود ، ولا فى الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين .

وكتب فى شهر كذا وكذا من كذا وكذا ، ومن سنة عبد مولانا جل ذكره ، ومملوكه حمزة ابن على بن أحمد ، هادى المستجيبين المنتقم من المشركين والمرتدين بسيف مولانا الحاكم جل ذكره وشدة سلطانه وحده » .

وقد خلف حمزة بن على وغيره من دعاة الدرزية الأقدمين كثيرا من المؤلفات التى كشفت عن كثير من غوامض هذا المذهب ، ومنها نتبين أنهم من غلاة الإسماعيلية ، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلى فى جوهره . وقد أوضح الأستاذ فيليب حتى(٢) أن الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا ظفرت بكثير من هذه المخطوطات فى خلوات الدرزية ، أى فى الأماكن التى كانوا يتخذونها مركزا لعبادتهم ، وذلك عند قيام الثورة السورية فى وجه الحكم المصرى سنة ١٨٤٨ م . ومن أشهر هذه المخطوطات « رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته » (٣) . ويشتمل على ٢٠ رسالة تتناول عقائد الدرزية .

وقد بنيت هذه الرسائل على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة ؛ لأن الفلسفة ، وهى

---

(١) Chrestomathie Arabe, Vol. II. p. 52 —

(٢) Philip Hitti: The Origins of the Druze People and Religion, p. 48

(٣) ويحتوى على ٦٤ ورقة ، ويشتمل على عشرين رسالة (دار الكتب المصرية) مخطوطات الشيعة رقم ٢ . واعتمد دى ساسى فى كتابيه : Exposé de la Religion des Druzes (2 vols., Paris, 1838) , Chrestomathie Arabe (3vols., Paris, 1826—7) المعروف باسم «الأنيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور » على المخطوطات التى تتناول =

أساس الشريعة عند الفاطميين ، قد حلت فى عهد الحاكم محل القرآن والسنة . كما نقف من هذه الرسائل على أن داعى الدعاة كان يعاونه مائة وواحد وخمسون داعيا بالإضافة إلى ما كان يقوم به المؤذنون وخطباء المساجد من نشر المذهب الإسماعيلى .

والرسالة الأولى ليس لها عنوان يدل على موضوعها ، ولكنها تعتبر تمهيدا للرسائل التى تليها ، وتعرض للكلام على العقائد التى استجدت فى عهد الحاكم . ويقول كاتب هذه الرسالة : « العالم ناطق الشريعة ، لأن ناطق الحقيقة الإمام . وهو مبدع الكل ، يعنى العشرة : الخمسة (١) حدود (٢) الحق (الحقيقة) ، والخمسة حدود الشريعة ، وعال علتهم (٣) ؛ والعلة العقل الكلى ، ومصدر صورتهم الدينية (٤) .

« أما موضوع هذا الكتاب ، فهو بيان الدقائق بالاختصار فى إبطال قوة من قال إن مولانا هو الناطق والأساس ، ثم ذكر هذه الحجج العظيمة التى هى السجلات(٥) » .

= الكلام على الدروز بباريس (أرقام ١٥٨٠–١٥٨٣) (Anciens fonds, ie 1403, 1415, 1419) وعنوانه « كتاب المشاهد والأسرار التوحيدية لمولانا » (الحاكم) . والمجلد الأول من مجلدات هذا المخطوط يشتمل على ست وعشرين رسالة ، ويكاد يتفق فى ست عشرة منها مع مثيلاتها من مخطوط « رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته » الموجود بدار الكتب المصرية بالقاهرة . ولكن دى ساسى اقتصر على ترجمة أربع من هذه الرسائل ، وتناول الكلام على الرسائل الأخرى بشىء كثير من الايجاز ، فذكر خلاصة كل منها ، وشرح موضوعها ، وذكر التاريخ الذى دونت فيه

راجع كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ١٤٤

(١) كان الخمسة حدود الحق : عبد الرحيم ولى عهد الخليفة ، وعباس ، وختكين الداعى ، وجعفر ، وأحمد ابن العوام قاضى القضاة . وذكر دى ساسى عن الرسالة السابعة عشرة من مخطوط باريس (رقم ١٤٠٨) ، وعنوانها (التنزيه) ، أن الخمسة حدود هم : عبد الرحيم بن إلياس ، وعباس بن شعيب ، والداعى ختكين ، وجعفر الملقب بالضرير ، وأحمد بن العوام قاضى القضاة (Exposé, Tome I, pp. cccc LXX11 seq.)

(٢) ذكر دى ساسى أن كلمة « حدود » فى اصطلاحات الدروز الدينية تشير — بطريق المجاز لما جاء فى القرآن الكريم — إلى الحدود التى لها السلطة الدينية بحسب أصول هذا المذهب . وعلى ذلك فإن « إقامة الحدود » معناها الشرائع التى أوجدها الأئمة (الحدود) فى طائفة الدروز (Chestomathie arabe, Tome II. pp. 199, 242, n. 45) وقد أوضح دى ساسى (Ibid. Tome I. p. 275, n. 147) كلمة حدود ، فزعم أن المؤلف يشير بقوله « شرح الحدود) إلى الرسالة الثامنة عشرة من مخطوط باريس (Ancien fonds, no. 1415) وعنوانها : « ذكر معرفة الامام وأسماء الحدود العلوية روحانيا وجسمانيا » .

(٣) دى ساسى (Chrestomathie Arabe, Tome II. pp, 219, 274, no.136) أن حمزة بن على هو علة الوجود ، ويسمى فى شرائع الموحدين تارة بالعقل ، وتارة أخرى بعلة العلل ، وتدين له بوجودها الأشياء كافة . ثم يقول دى ساسى إن الحاكم هو الاله الأعلى ، ويسمى أحيانا العلة الفعالة لعلة العلل (la cause efficiente de la cause des causes) ؛ ولكنه لم يجزم بذلك حيث يقول « إن هذه الآراء ليست خاصة بالدروز ، بل قال بها الاسماعيليون أيضا ، وأعتقد أنها شائعة عند من يقول بما وراء الطبيعة بين بعض الطوائف الإسماعيلية »

(٤) مخطوط بدار الكتب المصرية ورقة ١ (ا) .

(٥) ذكر دى ساسى أن النبى أو الناطق يخلفه سبعة من الأئمة أولهم : يدعى الأساس أو السوس ، وهو خليل الناطق والأمين على تعاليمه فى الزهد . والناطق والأساس هما محمد وعلى ، وهما خادما الحاكم ليس غير ؛ =

وفى هذه الرسالة الأولى أيضا يفسر الداعى كلمة « إمام » التى تقوم مقام « ذو معه » ، وهو العقل الكلى الذى يربى الدعاة ، وعنه يتلقون العلم : « لأن السابق الحقيقى هو الإمام الأعظم ... الذى هو العقلى الكلى ... أن الإمام الكلى هو الذى يربى الدعاة ... يأخذون العلم ، يعنى الدعاة » .

وفى الرسالة الثانية وموضوعها : « رسالة النساء » ، يؤكد الداعى خطر تعدد الآلهة ، ويدافع عن ضرورة الاعتقاد بوحدانية الحاكم (الخالق الرازق) ، و (علام الغيوب) . ثم يستطرد فى الكلام فيقول : « والمراد بالدين هنا المجالس والسجلات » . ومن هنا نتبين . أنه أُدخل فى عهد الحاكم دين جديد مبنى على هذه التعاليم التى قامت مقام القرآن والسنة .

وقد جهر دعاة الفاطميين بهذا المذهب الجديد : « وانقطعت المجالس ... أهل التأويل والأقاويل الباطلة من جهة المقام جل ذكره والكتاب ... وهذه الفصول التى تقدمت جميعها تشير إلى بطلان الشرائع ودحض الألوهية من الأساس » .

أما الرسالة الثالثة عشرة وعنوانها « المناجاة » ، فهى تشمل الدعاء الذى كان يدعو به المؤمنون فى مجلس الحكمة مثل « سرمدى الثبات » ، و « بارى البرايا » وغيرها من الصفات التى هى من صفات الله سبحانه وتعالى . وكان الداعى بذلك يحث الناس على اعتناق مذهب الحاكم ونبذ غيره من المذاهب « التى هى باطل وزور » .

والرسالة الرابعة عشرة وعنوانها « الدعاء » دونت بنفس الأسلوب والروح الذى كتبت به الرسائل السابقة ، وفيها يوضح الداعى الاصطلاحات التى كان يلقنها من يدين بمذهب الحاكم . وإليك هذا الدعاء عن مخطوط القاهرة (١) :

« سبحانك يامبدع الأشياء ، يامخترع العالمين ، ياصفوة العالمين ! سبحانك يامن تعزز بالكبرياء والجبروت ! سبحانك يامن تعاظم أن يكون كمثله شىء ، أو يلحقه وصف واصف ! سبحانك يا من تعالى عن المساوىء ! سبحانك يامن لا تلحقه صفة ولا له صفة ! شهدت وآمنت وأيقنت بأنك الله المبدع العزيز الواحد الأحد ، وأنك بارى لا بارى لك ، وخالق لا ضد لك ، وقادر لا مقدور عليك ، وحاكم لا محكوم عليك . أسألك يا مولانا وسيدنا بعظيم جلال قدرتك ونور سلطانك ، أسألك يا مولانا بأول شىء ظهر من توحيدك وتنزيهك ونفى التشبيه عنك ، أن تمن علىّ بخالص معرفتك وحميد طاعتك ، والبلوغ إلى مرضاتك والثبات على أمرك والتجنب لنهيك ، والصبر على ما ينالنى

وينوب عنهما عبد الرحيم بن إلياس وعباس بن شعيب . ويقول دى ساسى أيضا : ونقرأ عبارة تستحق الذكر فى كتاب آخر ألفه حمزة فى نفس هذه السنة (٤٠٩ هـ) وعنوانه : « رساله التنزيه » (أى تنزيه الحاكم) ، ويريد دى ساسى أن يدلل على أن مولانا (أى الحاكم) لايشترك فى شىء ما مع الناطق والأساس ، وهما محمد وعلى ، بل ولا فى عقائدهما ، أى الاسلام (التنزيل) ، أو التأويل (علم الباطن) ، الذى يستخدمه فى عقيدة مولانا الحاكم التى يمثلها عبد الرحيم بن إلياس وعباس بن شعيب . ويشير الحاكم فى رسالة النساء (مخطوط القاهرة ورقه ١٠ (ب)) إلى عبد الرحيم وعباس كالناطق والأساس (شرحه ورقه ١ ب)

أنظر حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٤٥ — ١٤٦

(١) ورقة ٢٧ (ب) وبه شروح كثيرة لانرى نقلها هنا لطولها .

فى عبادك من شدائد المحن والبلوى . يا أرحم الراحمين ! بحقك على من يصرف هوينه عن تسبيحك وتمجيدك إلى سواك . لا أصرف ذاتى إلى غيرك ، تائب إليك معترف بألوهيتك ، متبرىء من كل عدو لك . لا شريك لك ولا دافع لأمرك ؛ تجاوز عنى واغفر ذنبى ، واجعل معرفتك التى منحت بها على مخلدة فى نفسى . لا إله غيرك ولا معبود سواك » .

على أن كثيرا من الناس قد أنكروا هذه الصفات ، على ما يشير إليه كاتب هذه الرسالة (١) .

٣ — الخوارج

ذكرنا من قبل أن صبغة الخوارج كانت منذ نشأتهم صبغة سياسية محضة ، إلا أنهم لم يلبثوا أن مزجوا تعاليمهم السياسية بالمبادىء الدينية . وكانوا أشداء فى الدين لا تعرف المرونة إلى نفوسهم سبيلا ، واشتطوا فى الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين عبدة الأوثان . وفى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية (١٢٧ — ١٣٢هـ) ، تفاقم خطر الخوارج ، وانتهزوا فرصة انقسام الأمويين على أنفسهم وثاروا بزعامة الضحاك بن قيس الشيبانى وهددوا العراق ، كما هدد أبو حمزة الخارجى نفوذ الأمويين فى الحجاز وحضرموت ، واستنفد الأمويون قواهم فى إخماد ثورات هؤلاء الخوارج (٢) .

وإذا كان الخوارج قد شاركوا إلى حد كبير فى سقوط الدولة الأموية ، فقد أقلقوا خلفاء العصر العباسى الأول فى المغرب خاصة ، حيث مال أهلها إلى مبادىء الخوارج من الإباضية والصفرية وغيرهم الذين بلغت جيوشهم نحو مائة ألف ، وخلعوا طاعة أبى جعفر المنصور وهزموا جيوشه واستولوا على مدينة القيروان فى عهده أكثر من مرة . ويقول ابن الأثير (٣) إنه وقعت بين جيوش العباسيين وجيوش الخوارج فى المغرب نحو ثلثمائة وخمس وسبعين وقعة . وبلغ من تفاقم خطر الخوارج ، وميل البربر والعرب النازلين فى بلادهم إلى مذهبهم ، أن قامت الفتن فى هذه البلاد ، حتى إن السياسة التى سار عليها هارون الرشيد فى القضاء على الخوارج بالمغرب هى التى أملت عليه تأسيس دولة الأغالبة فى إفريقية . واتخذ بعض زعماء من سلالة العرب من هذه الفتن فرصة لتأسيس ولايات مستقلة بمعونة الخوارج ، كولاية تاهرت التى أسسها ابن رستم بمساعدة الإباضية من الخوارج (١٢٧هـ) ، وولاية سجلماسة التى أسسها بنو مدرار (١٦٧هـ) وتلمسان التى أسسها أبو قرة الصنهاجن ، وبرغواتة الواقعة على ساحل المحيط الأطلسى (٤) .

على أن خطر الخوارج لم ينته فى العصر العباسى الأول ، بل إننا نقرأ عن ثوراتهم التى كانوا يذكونها من حين إلى حين . ففى سنة ٢٥٢ هـ خرج مساور بن عبد الحميد بن مساور الشارى البجلى الخارجى على والى الموصل فى عهد الخليفة المستعين ، وأخرج ابنه حوثرة من السجن ، وحارب هذا الوالى.

---

(١) المصدر نفسه ورقه ٣١ (ب)

راجع حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٤٧ — ١٤٩

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ج ٢ ص ٢ — ٤

(٣) ج ٥ ص ٢٤١ — ٢٤٢

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ١٧٧ — ١٧٩

وكان حوثرة يتمثل بقول الوليد بن طريف الشارى الذى خرج على هارون الرشيد فى سنة ١٧٨ هـ ، وارتجز حين برز لقتال يزيد بن مزيد الشيبانى قائد العباسيين :

أنا الوليد بن طريف الشارى
قســـورة لا يُـصطلى بنارى
جوركم أخرجنى من دارى (١)

ويقول :

أنا الغلام البجلى الشارى أخرجنى جوركم من دارى

ولم يلبث أن قوى أمر مساور بن عبد الحميد ، فاستولى على أكثر أعمال الموصل وهزم الجيوش العباسية عدة هزائم (٢) .

ثم دخل الموصل فى سنة ٢٥٥ هـ . « ودخل مساور الموصل . . وحضرت الجمعة ، فدخل المسجد الجامع ، وحضر الناس ، أو من حضر منهم ، فصعد المنبر وخطب عليه ، فقال فى خطبته : اللهم أصلحنا وأصلح ولاتنا . ولما دخل فى الصلاة جعل إبهاميه فى أذنيه ، ثم كبر ست تكبيرات ، ثم قرأ بعد ذلك . ولما خطب جعل على درج المنبر من أصحابه من يحرسه بالسيوف ، وكذلك فى الصلاة ، لأنه خاف من أهل الموصل ، ثم فارق الموصل ولم يقدر على المقام بها لكثرة أهلها ، وسار إلى الحديثة ، لأنه كان قد اتخذها دار هجرته » (٣) .

وقد تعرض مساور بن عبد الحميد لخطر جسيم بسبب انشقاق بعض الخوارج عليه بزعامة عبيدة الذى خالفه فى قبول توبة الخاطىء . وكان مساور يرى ، كما كان يرى الخوارج المعتدلون فى أواخر العصر الأموى ، عدم تكفيره وقبول توبته ، على حين تمسك عبيدة بمبادىء الخوارج الأول فى تكفير العاصى ، وقامت الحرب بسبب ذلك بين الفريقين على مقربة من الموصل فى شهر جمادى الأولى سنة ٢٥٧ هـ . وعلى الرغم من انتصار مساور على خصمه وقتله ، انتهز الخليفة العباسى المعتمد هذه الفرصة وأرسل الجيوش بقيادة مفلح ، الذى استطاع أن ينتصر عليه فى عدة مواقع ، وأخرجه من الموصل والحديثة . ولكن مساورا صمد لخصمه واتبع معه خطة الكر والفر ، والتوغل فى الجبال والشعاب والمضايق حتى نهك قوته وأرغمه على العودة إلى سامرا حاضرة الدولة العباسية فى ذلك الحين ، « فاستولى حينئذ مساور على البلاد ، وجبى خراجها ، وقويت شوكته واشتد أمره (٤) » .

وقد ذكر ابن الأثير (٥) فى حوادث سنة ٢٥٧ هـ أن علىّ بن مساور وطوقا الزهيرى الخارجيين خرجا فى الموصل فى أربعة آلاف رجل وعاثا فى هذه البلاد . وذكر الطبرى (٦) فى حوادث سنة ٢٦٠ هـ أن الأكراد انضموا إلى مساور الخارجى وقتلوا رجلا من كبار ربيعة ، وأن الحرب قامت

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى جـ ٢ ص ٤٧
(٢) ابن الأثير جـ ٧ ٦١ ، ٦٦
(٣) المصدر نفسه جـ ٧ ص ٧٢
(٤) المصدر نفسه جـ ٧ ص ٨١
(٥) جـ ٧ ص ٨٩
(٦) جـ ١١ ص ٢٣٢

بينهما . ولما مات مساور الشارى فى سنة ٢٦٣ هـ ، خلفه فى زعامة الخوارج أيوب بن حيان الوراق البجلى ، وقام النزاع بينه وبين محمد بن خرزاد الذى ادعى أن مساوراً عهد إليه قبل وفاته ، وقتل أيوب ، فآلت الزعامة إلى محمد بن عبد الله بن يحيى الوراق ، ويعرف بالغلام ؛ ولكنه قتل أيضاً ، فبويع هارون بن عبد الله البجلى الذى كثر أتباعه وانتصر على ابن خرزاد ، واستولى على أعمال الموصل وجبى خراجها (١) ، « لأنه (ابن خرزاد) كان خشن العيش ، وهو ببلد شهر زور ، وهو بلد كثير الأعداء من الأكراد وغيرهم . وكان هارون ببلد الموصل قد صلح حاله وحال أصحابه ، فلما رأى أصحاب ابن خرزاد ذلك مالوا إليه وقصدوه ، وواقع ابن خرزاد بنواحى شهر زور الأكراد الجلالية فقتل . وتفرد هارون بالرياسة على الخوارج ، وقوى وكثر أتباعه ، وغلبوا على القرى والرساتيق ، وجعلوا على دجلة من يأخذ الزكاة من الأموال المنحدرة والمصعدة ، وبثوا نوابهم فى الرساتيق يأخذون الأعشار من الغلات »(٢) . وبذلك استقر الخوارج فى نواحى الموصل ، وصدوا بنى شيبان حين أغاروا عليها (سنة ٢٧٢ هـ) ، كما حاربوا جند يوسف بن أبى الساج قبل أن يستولى عليها فى السنة التالية وأوقعوا به الهزيمة (٣) . وكذلك صدوا بنى شيبان حين حاولوا الإغارة على مدينة نينوى من أعمال الموصل وانتصروا عليهم بمساعدة أهل هذه البلاد (سنة ٢٧٩ هـ) .

على أن أمر الخوارج أخذ فى الضعف بسبب وقوع النزاع بينهم ، فقد انشق على هارون زعيم الخوارج ، محمد بن عبادة المعروف بأبى جوزة ، وانضوى تحت لوائه كثير منهم ، واستولى على بعض البلاد التى كانت فى حوزة هارون ، وأقام الحصون ، والتقى الجيشان على مقربة من سنجار . وعلى الرغم مما أحرزه هارون من نصر وظفر أضعفت هذه الحروب من قوة الخوارج ، فأتاحت للعباسيين فرصة التغلب عليهم ، واستطاع عامل الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) على آمد أن ينتصر على محمد ابن عبادة الخارجى ، وأن يسوقه إلى دار الخلافة . كما أدى ذلك النزاع أيضا إلى انتصار والى الخليفة العباسى على الموصل على هارون الخارجى (سنة ٢٨٢ هـ)(٤) ، وتمكن الحسين بن حمدان من الانتصار عليه فى السنة التالية وسوقه إلى حاضرة الخلافة . « وخلع المعتضد على الحسين بن حمدان ، وطوقه وخلع على إخوته ، وأدخل هارون على الفيل ، وأمر المعتضد بحل قيود حمدان بن حمدان والتوسعة عليه والإحسان إليه ، ووعد باطلاقه . ولما أركبوا هارون على الفيل ، أرادوا أن يلبسوه ديباجا مشهراً ، فامتنع وقال : لا يحل ، فألبسوه كارها ، ولما صلب نادى بأعلى صوته : لا حكم إلا لله ولو كره المشركون . وكان هارون صفريا »(٥) .

وبموت هارون بن عبد الله البجلى الشارى ضعف أمر الخوارج فى الموصل ، ولكنهم ظلوا يقلقون الفاطميين فى المغرب ، والعباسيين فى اليمن وعمان خاصة . ففى المغرب اشتد نفوذ الخوارج

---

(١) ابن الاثير جـ ٧ ص ١١٠ (٢) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٢٩

(٣) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٥١ ، ١٥٢ — ١٥٣

(٤) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٨ (٥) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٧٠

بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذى راجت دعوته فى أواخر عهد عبيد الله المهدى الفاطمى (٢٩٦ — ٣٢٢ هـ)، وتفاقم خطره فى عهد ابنه القائم، وانتشرت جيوشه فى كل أرجاء الدولة الفاطمية فى سنة ٣٣٣ هـ وكاد يستولى على مدينة المهدية حاضرة الفاطميين فى ذلك الحين. ولم يستطع الفاطميون الانتصار على جيوش أبي يزيد إلا فى عهد الخليفة المنصور (٣٣٤ — ٣٤١ هـ)، وقبض عليه وسيق إلى المهدية حيث مات متأثرا من جراحه فى شهر المحرم سنة ٣٣٦ هـ (١)

أما فى اليمن وعمان خاصة، فقد انتشر مذهب الخوارج الذين استطاعوا فى سنة ٤٤٢ هـ أن يستولوا على مدينة عمان حاضرة هذه البلاد، وأقصوا عمال البويهيين عنها، ونشروا الأمن فيها. ويقول ابن الأثير(٢): «فى هذه السنة استولى الخوارج المقيمون بجبال عمان على مدينة تلك الولاية. وسبب ذلك أن صاحبها الأمير أبا المظفر ابن الملك أبي كاليجار كان مقيما بها، ومعه خادم له قد استولى على الأمور وحكم على البلاد، وأساء السيرة فى أهلها، فأخذ أموالهم؛ فنفروا منه وأبغضوه وعرف إنسان من الخوارج يقال له ابن راشد الحال، فجمع من عنده منهم وقصد المدينة. فخرج إليه الأمير أبو المظفر فى عساكره، فالتقوا واقتتلوا، فانهزمت الخوارج وعادوا إلى موضعهم. وأقام ابن راشد مدة يجمع ويحتشد، ثم سار ثانيا وقاتله الديلم، فأعانه أهل البلد لسوء سيرة الديلم فيهم، فانهزم الديلم وملك ابن راشد البلد، وقتل الخادم وكثيرا من الديلم، وقبض على الأمير أبي المظفر، وسيره إلى جباله مستظهرا عليه، وسجن معه كل من خط بقلم من الديلم وأصحاب الأعمال، وأخرب دار الإمارة وقال: هذه أحق دار بالخراب. وأظهر العدل وأسقط المكوس، واقتصر على رفع عشر ما يرد إليهم، وخطب لنفسه، وتلقب بالراشد بالله، ولبس الصوف، وبنى موضعا على شكل مسجد».

٤ — ثورة صاحب الزنج

أثار الزنج Ethiopians وهم طائفة من عبيد إفريقية القلق والرعب فى حاضرة الخلافة العباسية. وكان مسرح هذه الثورة الجامحة العنيفة، التى دامت أكثر من أربع عشرة سنة، هذه المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط. وقاد هؤلاء الزنوج رجل فارسى يسمى على بن محمد، من أهالى الطالقان، ادعى أنه من ولد على زين العابدين بن الحسين بن على (٣). ولكنه لم يجهر بعقائد المذهب الشيعى على الرغم من ادعائه النسب إلى على وفاطمة، وإنما جهر بعقائد مذهب الخوارج. وقد علل نلدكة (٤) هذه الدعوة الغريبة فى هذه العبارة: «لقد بلغ من معرفة هذا الزعيم الثائر بميول أصحابه، أنه تظاهر

---

(١) راجع هذا الكتاب ص ١٥٠ (٢) جـ ٩ ص ٢١١

(٣) زعم أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب. وذكر ابن الأثير (جـ ٧ ص ٧٢) أن اسمه على بن محمد بن عبد الرحيم.

(٤) Noëldeke : Sketches from Eastern History, Chap. V. pp. 146—175)

انظر Browne : Literary History of Persia, vol. I. pp. 349—50

بالدعوة إلى مذهب الخوارج الذى يلائم ميولهم الديمقراطية أكثر من مذهب الشيعة ، وإن كان هو قد افتخر بأنه من نسل على وفاطمة ، لما ينطوى عليه المذهب الشيعى من التوريث الذى لا يلائم عقول مواطنيه » .

« ومن ثم يتضح وضوحا كافيا — كما يقول نلدكه (١) — لماذا رفض قرمط ، المؤسس الحقيقى لمذهب القرامطة ، وهو المذهب الشيعى المتطرف الذى قدر له أن يملأ العالم الإسلامى قاطبة خوفا وهلعا ، أن يرتبط بزعيم العبيد ، على الرغم مما قد يفيده من اشتراكه معه فى حركته ، متأثرا بعوامل مذهبية » .

ومهما يكن من شىء فان صاحب الزنج لم يلبث أن كشف عن ميوله الحقيقية ، حتى إن أعداءه سموه دعى على ، كما سموه الخبيث (٢) .

قدم صاحب الزنج بلاد العراق ، واتصل ببعض بطانة الخليفة المنتصر (٢٤٧—٢٤٨ هـ) ، ثم سار فى سنة ٢٤٩ هـ إلى البحرين ، ودعا إلى تحرير العبيد فى البصرة وضواحيها ، واستمال قلوبهم ، حتى إنهم تركوا مواليهم وانضموا إليه ، فعظم شأنه وقويت شوكته ، ولقيت دعوته قبولا بين أهالى هجر والبحرين والعراق (٣) . ثم سار إلى بغداد سنة ٢٥٤ هـ ، وأقام هناك سنة ، « فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما فى ضمائر أصحابه » (٤) .

ويدل هذا النص الذى نقش على لواء صاحب الزنج أن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد حانت . ولهذا أوّل هذه الآيات التى نزلت فى سورة التوبة (٥) تأويلا سياسيا قصد به تضليل أنصاره (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) . وقد أول صاحب الزنج هذه الآية بأن المؤمنين ، وقد اشتروا أنفسهم ، لم يعودوا بعدُ عرضة للرق والعبودية (٦) .

وسرعان ما قدم صاحب الزنج البصرة ، فأسرع إليه بعض غلمانها رغبة فى التخلص من الرق . ويقول ابن الأثير (٧) : « وأتاه مواليهم وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم إليه عبده ، فبطح أصحابهم ، وأمر كل من عنده من العبيد ، فضربوا مواليهم أو وكيلهم كل سيد خمسمائة سوط ، ثم أطلقهم » .

وما زال الزنج يلتفون حول صاحبهم حتى كان يوم الفطر ، فخطبهم وصلى بهم ، وأعاد إلى

---

(١) Ibid, p. 152

(٢) Muir : The Caliphate, p. 545.

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢٧

(٤) ابن الأثير جـ ٧ ٧٣

(٥) آية ١١١

(٦) Muir : The Caliphate, p. 545

(٧) جـ ٧ ص ٧٤

أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعنت ، ومناهم الأمانى الطيبة من إطلاق حرياتهم واستمتاعهم بالأموال التى يغنمونها فى حروبهم . واتخذ فى مدينته التى بناها وسماها «المختارة» منبرا كان يصعد عليه ، ويسب عثمان وعلياً ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة على الرغم من ادعائه الانتساب إلى على .

انتشرت جيوش صاحب الزنج فى العراق وخوزستان والبحرين ، ونهبوا القادسية وهزموا أهالى البصرة ، واستولوا على ألف وتسعمائة سفينة كانت تحمل بعض الحجاج إلى مكة ، وألقوا الرعب والفزع فى قلوب الأهلين ، حتى عجزوا عن مقاومتهم ، وشكوا إلى الخليفة المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦هـ) ما حل بهم من بلاء ، فأنفذ إليهم أحد قواده الأتراك[١] . ولما ولى المعتمد الخلافة (٢٥٦ — ٢٧٩هـ) سير « جَعْلان » أحد قواد الأتراك لمحاربة صاحب الزنج بالبصرة ، ونشب القتال بين الفريقين ، فانتصر صاحب الزنج ، وقتل القائد التركى ، واستولى على الأبلة[٢] ، ثم على الأهواز وخربها . واضطر أهالى البصرة وما جاورها ، إلى مغادرة بلادهم والانتقال إلى المدن البعيدة عن مطامع الزنج .

وقد أدخل الزنج الفزع والرعب فى قلوب كثير من أهالى البلاد الإسلامية ، فاستولوا على البصرة سنة ٢٥٧ هـ ، وذبحوا كثيرا من أهلها ، وخربوا مسجدها العظيم ، وأشعلوا النار فى المدينة ، وأثاروا مخاوف الخليفة العباسى المعتمد بعد أن أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من حاضرة الخلافة . وفى ذلك يقول ابن الأثير[٣] : « فنادى منادى إبراهيم : من أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم ، فحضر أهل البصرة قاطبة حتى ملئوا الرحاب . فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة لئلا يتفرقوا ، فغدر بهم وأمر أصحابه بقتلهم ، فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة . فقتل ذلك الجمع كله ، ولم يسلم إلا النادر منهم . ثم انصرف يومه ذلك إلى الحربية ، ودخل على بن أبان الجامع فأحرقه وأحرقت البصرة فى عدة مواضع ، منها المربد وزهران وغيرهما . واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل ، وعظم الخطب وعمها القتل والنهب والإحراق . وقتلوا كل من رأوه بها من أهل اليسار وأخذوا ماله وقتلوه ، ومن كان فقيرا قتلوه لوقته . وبقوا كذلك عدة أيام . ثم أمر يحيى أن ينادى بالأمان ليظهروا فلم يظهر أحد » .

استولى صاحب الزنج بعد ذلك على الأهواز[٤] ، ودخلت جموعه واسط ورامهرمز[٥] ، فسير إليهم الخليفة المعتمد كثيرا من مشهورى قواده ، من أمثال موسى بن بغا الذى قتل عددا كبيرا منهم . غير أن هذه الهزيمة لم تَفُلّ شوكتهم ، بل ظل خطرهم يتزايد وانتصاراتهم على الجيوش العراقية

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ٧٥ — ٧٦ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢

(٢) مدينة على مقربة من الخليج الفارسى وشط العرب حيث يتفرع دجلة والفرات . وقد حلت البصرة محلها فى الشهرة بعد أن مصرت فى عهد عمر بن الخطاب

(٣) جـ ٧ ص ٨٦ — ٨٧

(٤) ابن الأثير جـ ٧ ص ٨٧ ، ٩٢

(٥) المصدر نفسه جـ ٧ ص ص ١١١ ، ١١٧

تتوالى ، فبعث الخليفة المعتمد فى طلب أخيه أبى أحمد الموفق طلحة ، وكان الخليفة المهتدى قد نفاه إلى الحجاز ، وعهد إليه بقتال الزنج . وعلى الرغم من أنه حاز هو وموسى بن بغا شيئا من النجاح فى بعض المواقع ، انطلقت جيوش الزنج فى غزو العراق وخوزستان والبحرين بشكل جماعات منظمة غايتها النهب والسلب ، وألقوا الفزع والرعب فى قلوب الأهلين . ولما اطمأن الموفق من ناحية أعدائه الآخرين تفرغ لحرب الزنج وتولى قيادتها بنفسه ، وخرج من بغداد إلى واسط فى شهر صفر سنة ٢٦٧ هـ ، وهزم فريقا كبيرا منهم ، وأسر بعضهم . وما زالت انتصارات الموفق تتوالى على الزنج حتى أجلاهم عن الأهواز (١) ، وحاصر مدينتهم « المختارة » (٢) وبنى بإزائها مدينة سماها « الموفقية » نسبة إليه (٣) . وقطع العباس بن الموفق الميرة عن مدينة صاحب الزنج ، ثم استولى أبوه على الجزء الغربى من هذه المدينة (٤) ، واضطر بعض زعمائهم إلى طلب الأمان ، بعد أن تضاءل أملهم فى إحراز النصر ، وبدأ سائر الثائرين ينضمون إلى الموفق ، فأمنهم وعفا عنهم وأحسن معاملتهم . وأخيرا سقطت قلعتهم وعاد الناس إلى قراهم بعد أن تخلصوا من الأسر والرق ، وقتل « الخبيث » (٥) .

دامت الحرب بين جيوش العباسيين والزنج أكثر من أربع عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠هـ) كما تقدم ، وقضى عليهم الموفق وقواده ، وقتل صاحبهم « بهبوذا » ، وكان من أكبر قواد صاحب الزنج ، وحمل رأسه إلى الموفق ، فخر ساجدا ، وعلت كلمة الجند بالتهليل والتكبير . على أن أحد أنصار صاحب الزنج رمى الموفق بسهم فى صدره وهرب إلى رامهرمز ، فبعث به عاملها إلى الموفق فقتله ابنه العباس الذى ولى الخلافة بعد المعتمد . وقد ذكر السيوطى (٦) أن عدد القتلى فى تلك المعارك بلغ ألف ألف وخمسمائة ألف ، وذكر صاحب الفخرى (٧) أن عددهم بلغ ألفى ألف وخمسمائة ألف . وقتل صاحب الزنج — على ما ذكره ابن الأثير (٨) — فى ٢ من صفر سنة ٢٧٠ هـ بعد أن أقلق بال الدولة العباسية وكلفها كثيرا من الجهود والأموال والأرواح ، وظل أتباعه يعيثون فى البلاد الإسلامية أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام ، وعلق رأسه على رمح ، وزينت بغداد بأبهى معالم الزينة ، وطيف برأسه بين مظاهر الفرح . واستطاع الناس العودة إلى بلادهم التى استولى عليها الزنج ، وأشاد الشعراء بذكر هذا الانتصار . فمن ذلك قول يحيى بن محمد الأسلمى :

أقول وقد جاء البشير بوقعة أعزت من الإسلام ما كان واهياً
جزى الله خير الناسِ للناس بعد ما أبيح حماهم خيرَ ما كان جازياً
تفرد إذ لم ينصر الله ناصر بتجديد دينٍ كان أصبح بالياً

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٢٤
(٢) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٢٥
(٣) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٢٦
(٤) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٣٩ — ١٤٠
(٥) Muir : The Caliphate, p. 546
(٦) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢
(٧) ص ٢٢٧
(٨) جـ ٧ ص ١٤٦

وتجديد ملك قد وهى بعد عزه ... وأخذ بثارات تثير (١) الأعاديا
ورد عمارات أزيلت وأخربت ... ليرجع فيئ قد تخرم (٢) وافيا
وترجع أمصار أبيحت وأحرمت ... مرارا فقد أمست قواء (٣) عوافيا (٤)
ويشفى صدور المسلمين بوقعة ... يقر بها فيها العيون البواكيا
ويتلى كتاب الله فى كل مسجد ... ويلقى دعاء الطالبين خاسيا (٥)
فأعرض عن جناته ونعيمه ... وعن لذة الدنيا وأصبح عاريا (٦)

٥ — المعتزلة

(١) انتعاش مذهب المعتزلة :

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (٧) أن تعاليم المعتزلة ازدهرت فى العصر العباسى الأول، وخاصة فى عهد المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ)، الذى كان يعقد لهم بقصره مجالس للمناظرة، كما كان هو نفسه يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة لأنه أكثر حرية واعتمادا على العقل، فقرب أتباع هذا المذهب إليه، حتى أصبحوا ذوى نفوذ كبير فى قصر الخلافة ببغداد. ووافق المأمون هؤلاء المعتزلة على القول بخلق القرآن، واستخدم نفوذه فى سبيل إقرار هذه العقيدة فى أذهان الناس. وسار المعتصم على سياسة أخيه المأمون فى حمل الناس على القول بخلق القرآن، فأهين أحمد بن حنبل وسجن فى عهده لرفضه القول بذلك. وكذلك اقتدى الواثق بأبيه المعتصم وعمه المأمون فى انتصاره للمعتزلة وتشدده فى فرض آرائه الدينية على الناس، حتى جعل إطلاق أسرى المسلمين فى بلاد الدولة البيزنطية مقصورا على القائلين بخلق القرآن، واعتبار من سواهم خارجين على الإسلام.

وقد أوضح أبو الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ هـ آراء المعتزلة فى كتابه القيم « مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (٨) »، فتكلم على آرائهم فى التوحيد، وفى المكان والرؤية، وفى قدرة الله سبحانه وعلمه، وفى اختلاف المعتزلة فى كون الله لم يزل سميعا بصيرا، وفى سائر صفات الله، وفى القدر وغير ذلك من المسائل. ولخص الأشعرى آراء المعتزلة فى التوحيد وغيره فى هذه العبارة (٩):

« أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثله شىء، وهو السميع البصير؛ وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض، ولا بذى لون ولا طعم

---

(١) تهلك
(٢) تخرم مبنيا للمجهول انتقص
(٣) القواء الخالى
(٤) الدار العافية الدارسة المتخربة
(٥) يعنى خاسرا
(٦) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٤٦
(٧) ص ١٤٣ — ١٤٤
(٨) جـ ١ ص ١٥٥ — ٢٧٨
(٩) ص ١٥٥ — ١٥٦.

ولا رائحة ولا تجسمة ، ولا بذى حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق ؛ ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض ، وليس بذى أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء ؛ وليس بذى جهات ، ولا بذى يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ، ولا يحيط به مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول فى الأماكن ، ولا يوصف بشىء من صفات الخلق الدالة على حدثهم ، ولا يوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، ولا تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجرى عليه الآفات ، ولا تحل به العاهات ، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له ، لم يزل أولا سابقا متقدما للمحدثات ، موجودا قبل المخلوقات ، ولم يزل عالما قادرا حيا ، ولا يزال كذلك ، لاتراه العيون ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام ولا يسمع بالأسماع ؛ شىء لا كالأشياء ، عالم قادر حى لا كالعلماء القادرين الأحياء ؛ وإنه القديم وحده ولا قديم غيره ولا إله سواه ، ولا شريك له فى ملكه ، ولا وزير له فى سلطانه ، ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ماخلق ، لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شىء بأهون عليه من خلق شىء آخر ولا بأصعب عليه منه ، لا يجوز عليه اجترار المنافع ، ولا تلحقه المضار ، ولا يناله السرور واللذات ، ولا يصل إليه الأذى والآلام . ليس بذى غاية فيتناهى ، ولا يجوز عليه الفناء ولا يلحقه العجز والنقص ، تقدس عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصحابة والأبناء .

« فهذه جملة قولهم فى التوحيد ، وقد شاركهم فى هذه الجملة الخوارج وطوائف من المرجئة وطوائف من الشيع ، وإن كانوا للجملة التى يظهرونها ناقضين ولها تاركين » .

وقد تطور مذهب المعتزلة فى العصر العباسى الثانى . وأجاد دوزى[1] فى تلخيص تطور هذا المذهب ونموه فقال : « لقد تطور ذلك المذهب واتخذ شكلا جديدا ، وانتشر تحت تأثير فلسفة أرسطو ، كما انقسم ، بطبيعة الحال ، إلى أقسام تتفق جميعها فى نقط معينة . فقد أجمع المعتزلة ، على اختلاف فرقهم ، على نفى الصفات الإلهية ، وعارضوا كل فكرة تتنافى مع وحدة الله . ولكى ينزهوا الله عن الظلم ، اعترفوا للانسان بالحرية التامة فى خلق أفعاله . وكان من تعاليمهم أن إدراك وسائل الخلاص وطرق النجاة إنما ترجع إلى سلطان العقل ، وأنه يمكن تمحيص هذه المسائل فى ضوء العقل ، سواء أكان ذلك قبل الوحى أو بعده ؛ بمعنى أن الرجل يجب عليه فى جميع الأزمان والأمكنة أن يرجع إلى العقل فى الفصل فى تلك المسائل ، وزادت الفرق الأخرى على هذه الآراء الأساسية المتفق عليها آراء أخرى خاصة بها » .

وقد عالج معظم المعتزلة علم التوحيد بتوسيع كثير ، بينما انساق آخرون وراء مناظراتهم وشغفهم بالجدل ، مما أبعدهم عن روح الإسلام وطوح بهم عن تعاليمه . وكان بعضهم يعتقد

---

(١) Dozy : Essai sur l'Histoire de l'Islamisme, (trans. by Vietor Chauvin), 1879, pp.105-7

بالتناسخ (١) ، كما كان يتخيل آخرون أن لكل جماعة من جماعات الحيوانات نبيا : وهو حيوان من أنفسهم . ومن الغريب أن نقول إنهم اعتمدوا فى عقائدهم هذه على آيتين من القرآن (٢) . ولكن ليس من العدل أن نرمى المعتزلة جميعهم بضلالات هؤلاء . وبالنظر إلى عقيدة المعتزلة فى أوامر الدين ونواهيه ، فإنهم يعتبرون من طائفة العقليين (Rationalists) فى الإسلام القائلين بسلطان العقل وفهمه لطبائع الأشياء . من ذلك أنهم قالوا بخلق القرآن ، فى الوقت الذى ذهب فيه الرسول إلى القول بعكس ذلك . ويستدلون على صحة ذلك بقولهم « إن القرآن لو لم يكن مخلوقا لأدى ذلك إلى القول بوجود أزليين أبديين . أما إذا اعتبر القرآن أو كلام الله مخلوقا . كان محالا أن نعتبره صفة من الصفات الإلهية ، لما لتلك الصفات من الثبات وعدم التغير (٣) . ومع ذلك فقد تزعزعت عقيدة الوحى على يد المعتزلة تزعزعا شديدا (٤) ، حتى أعلن كثير منهم صراحة ، أنه ليس مستحيلا أن يأتى إنسان بقرآن كهذا أو أحسن منه ، مخالفين فى ذلك قوله تعالى فى سورة الإسراء (٥) (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) .

---

(١) يدل على صحة هذا القول ماذكره البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » (ص ٢٦٠ — ٢٦١) عن خروج الحائطية أتباع أحمد بن حائط القدرى ، والحمارية من معتزلى عسكر مكرم ، على جميع فرق المعتزله وأهل السنة . فان احمد بن حائط القدرى — وكان من أصحاب النظام فى الاعتزال — كان يقول بالتناسخ ، وزعم هو وفضل الحدثى « أن للخلق ربين وخالقين ، أحدهما قديم وهو الله سبحانه ، والآخر مخلوق وهو عيسى ابن مريم ، وزعما أن المسيح ابن الله على معنى النبى دون الولاة ، وزعما أيضا أن المسيح هو الذى يحاسب الخلق فى الآخرة ، وهو الذى عناه الله بقوله (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) (سورة الفجر آية ٢٢) ، وهو الذى يأتى (فى ظلل من الغمام) (سورة البقره آية ٢١١) ، وهو الذى خلق آدم على صورة نفسه ، وذلك تأويل ماروى أن الله تعالى خلق إلها على صورته ، وزعم أنه هو الذى عناه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » ، وهو الذى عناه بقوله إن الله تعالى خلق العقل فقال له : أقبل فاقبل ، وقال له : أدبر فأدبر ، فقال : ماخلقت خلقا أكرم منك وبك أعطى وبك آخذ . وقال إن المسيح تذرع جسدا وكان قبل التذرع عقلا ... وأضاف ابن حايط وفضل الحدثى فعل الخيرات كلها إلى عيسى بن مريم ، وأضافا إليه محاسبة الخلق فى الآخرة . والعجب فى قولهما إن عيسى خلق جده آدم عليهما السلام »

(٢) (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . مافرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون . والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات . ومن يشأ الله يجعله على صراط مستقيم) . سورة الانعام آية ٣٨ ، ٣٩ . أنظر كتاب الملل والنحل للشهرستانى (على هامش كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم) ج ١ ص ٨٠ — ٨١ .

(٣) لأنه يترتب عليه قيام الحادث بالقديم ، وهو محال لما فيه من قلب حقائق الأشياء ؛ إذ لو صح قيام الحادث بالقديم ، لأدى ذلك إلى إحدى نتيجتين لامناص منهما : إما قلب الحادث قديما لقيامه بالقديم ، وإما قلب القديم حادثا لقيام الحادث به .

(٤) فكرة الوحى هى أن القرآن كلام الله ، وأنه أوحى به إلى محمد عليه الصلاة والسلام . وذهبوا إلى أن الاعتقاد بقدم القرآن إلى جانب قدم الله شرك .

دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة أبى ريدة ص ٥٦

(٥) آية ٨٨

وعلى ذلك عارض المعتزلة عقيدة أزلية القرآن ، أى أنه كلام الله ، كما عارضوا فكرة الوحى ، بمعنى أن الله يتصل بالانسان ويوحى إليه(١) ، وكانوا لا يصغون إلى أية فكرة يشم منها رائحة التجسد لله سبحانه وتعالى . وقد قال عليه الصلاة والسلام : «ترون ربكم (يوم القيامة) كما ترون القمر ليلة البدر»(٢) . وكانت هذه الكلمات التى فهمها أهل السنة على ظاهرها حجر عثرة يرتطمون به أنى ساروا . ومع هذا فقد فسر أهل السنة هذا الحديث بقولهم إن الإنسان بعد موته يرى الله بعين البصيرة . وكذلك رفض المعتزلة دعوى أن الله خلق الكافر(٣) ، كما لم يرضوا القول بأن الله يضر ، لمنافاة ذلك للعدل الإلهى (٤) . ولم يعترفوا بالمعجزات التى وردت فى القرآن ، كما أنكروا انشقاق البحر لموسى ليشق طريقا لبنى إسرائيل (٥) . وقد خرج بهم مصر (إلى بلاد العرب) ، وأن عصا موسى قد تحولت أفعى(٦) ، وأن عيسى قد أحيى الموتى . ولم ينج محمد نفسه من إنكارهم لمعجزاته » .

(ب) تأثر المعتزلة بالفلسفة الإغريقية :

تأثرت المعتزلة منذ عهد طويل تأثرا شديدا بالفلسفة الإغريقية . وقد نقل براون(٧) عن شتينر(٨) أن المعتزلة كانوا أول من قرأ تراجم الطبعيين من الإغريق وفلاسفتهم التى ترجمت تحت رعاية أبى جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) ، والمأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) ، واقتبسوا منها جميع المعارف النافعة . ولكنهم أجهدوا أنفسهم فى أن يضيفوا إلى المعانى الإسلامية التى جاء بها القرآن ، وقد كانت محصورة فى دائرة ضيقة ، جميع ما احتوته الثقافة اليونانية من فكر ومعان علمية وفلسفية ، وأن يلائموا بينهما ويخرجوا منها مزيجا جديدا يتفق مع تعاليم الإسلام وأصوله . ومن الفلاسفة الإسلاميين أبو نصر الفارابى (ت ٣٣٩ هـ = ١٠٣٧ م) فيلسوف المسلمين غير مدافع الذى يقول فيه ابن خلكان(٩) : « هو أكبر فلاسفة المسلمين ، ولم يكن فيهم من بلغ رتبته فى فنونه ، والرئيس

---

(١) كما جاء فى سورة الشورى ، آية ٥١ (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء إنه على حكيم) .

(٢) ويسمى المعتزلة هؤلاء المشبهة أو المجسمة .

(٣) يقصدون طبعا أن كل إنسان خلق قابلا للايمان ، وأن الكفار صاروا كذلك بتمردهم وليس بارادة الله ، بمعنى أن الله لم يرد كفر الكفار ، وإنما أصبحوا كفارا بمحض إرادتهم دون إرادة الله سبحانه وتعالى .

(٤) بمعنى أن الله إذا كان يسوق الكفار إلى الكفر ويريد منهم ذلك ، كان من الظلم مؤاخذتهم عليه ؛ إذ كانت إرادة الله تعالى لاتتخلف ولا يقع فى ملكه إلا مايريد . فهم يقررون اختيار الانسان فى أفعاله ، بعكس ماذهب إليه الجبرية الذين يقولون إن الانسان مجبر على أفعاله .

(٥) مخالفين فى ذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء آية ٦٣ (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) .

(٦) (فألقاها فاذا هى حية تسعى) سورة طه آية ٢٠ .

(٧) Browne : Literary History of Persia, Vol. I. p. 288

(٨) Steiner : Die Mu'taziliten oder die Freidenker im Islam, p.5.

(٩) كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ٧٦

أبو على بن سينا (١) المقدم ذكره (ت ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م) بكتبه تخرج ، وبكلامه انتفع فى تصانيفه ، وابن رشد (ت ٥٩٥ هـ = ١١٩٨م) . وقد سبقهم الكندى (ت ٢٦٠هـ = ٨٧٣م) الذى وجه همته — على ما يظهر — إلى دراسة الآراء التى أثارها المعتزلة بوجه خاص ، فى الوقت الذى تجنب فيه أتباعه التعرض لبحث المسائل الدينية ، وتجنبوا إثارة النقاش فيها بقدر الإمكان . وكان يعتبر كلا من التوحيد والعلوم الطبعية وما تحتويه من الفلسفة مناطق ذات حدود واضحة . ومن ثم لم تقم مشكلة من المشاكل فى سبيل التوفيق بينها (٢) . ويقول شتيتر أيضا إن فلاسفة العرب من تلاميذ مدرسة أرسطو كانوا فى الوقائع علماء طبعيين أكثر منهم فلاسفة ، وإن أعمالهم الرئيسة كانت تنحصر فى ملاحظة الظواهر الطبيعية ، عدا دراسة علم الطب والفلك (٣) .

وقد نشأ الخلاف بين الاعتزال والفلسفة من ناحية ، وبين الدين من ناحية أخرى ، وأفنى المعتزلة قواهم فى تلك المناقشات المستمرة التى أثارتها مدرستا البصرة وبغداد . وكان أبو الحسين البصرى أحد معاصرى ابن سينا آخر من عالج تعاليمهم بشىء من الحرية واستقلال الرأى ، كما أكمل ما كان فيها من نقص فى نواح كثيرة . واستمر هذا الصراع بين هؤلاء وأولئك على أشده ، واستمر المعتزلة على قوتهم حتى ثار عليهم أبو الحسن الأشعرى وصرعهم حجة الإسلام الغزالى .

٦ — انتعاش السنة

أخذ مذهب المعتزلة فى الضعف منذ بداية العصر العباسى الثانى ، حيث بدأ المتوكل ، أول خلفاء هذا العصر ، عهده بنهى الناس عن القول بخلق القرآن ، مخالفاً فى ذلك المأمون والمعتصم والواثق ، « وأمر بترك النظر والمباحثة والجدل كما أمرهم بالتسليم والتقليد ، وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة » . وكان إحياء المتوكل للسنة من أهم الأحداث التى يتميز بها عهد هذا الخليفة ، حتى قيل : « الخلفاء ثلاثة : أبو بكر الصديق يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى رده المظالم ، والمتوكل فى إحياء السنة » (٤) .

ثم ظهر جماعة من علماء الكلام عارضوا المعتزلة . ومن هذه المذاهب : مذهب الكرّامية الذى بقى إلى ما بعد القرن الثالث الهجرى .

أما انتصار مذهب أهل السنة فقد تُوج بظهور أبى الحسن الأشعرى . وإلى ذلك يشير دوزى (٥) فى هذه العبارة : « لم يكد يمضى اثنا عشر عاما على موت المتوكل ، حتى ولد (سنة ٢٦٠هـ = ٨٧٣م)

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٤

(٢) بمعنى أن التوحيد والعلوم الطبعية ، بما فى ذلك الفلسفة ، كان كل منها على حدة مستقلا عن الآخر .

(٣) أنظر Browne : Lit. Hist. of Persia, vol.I. p. 289, notel

(٤) أنظر هذا الكتاب ص ٢٢ — ٢٣

(٥) Dozy : Histoire de l'Islamisme, pp. 252—6.

ذلك الرجل الذى تربى بين أحضان مذهب المعتزلة، ثم رفض تعاليمهم فى الأربعين من عمره، بعد أن تسلح بالأسلحة المنطقية التى أمدوه بها وحاربهم بها بقية حياته، وحمل على آرائهم حملة كتب لها التوفيق والنجاح — ذلك الرجل هو أبو الحسن الأشعرى، من أعقاب أبى موسى الأشعرى الذى كان أحد الحكمين بين على ومعاوية بدومة الجندل. فقد ألف الأشعرى مؤلفات كثيرة بعد أن انفصل عن أستاذه الجُبَّائى من المعتزلة، كما أنتج بحوثاً عديدة فى علم التوحيد يربو عددها على المائتين أو الثلثمائة . . . وبلغ من عدم اطمئنان أهل السنة للفلسفة أن استمر كثير منهم — وخاصة المتعصبين من أتباع ابن حنبل الذى كان يعتقد أن كل صلة بالفلسفة لا تنتج إلا الشر — ينظرون إلى الأشعرى نظرة ملؤها الريبة والشك، وإن كانت خدماته للسنة قد اعترف بها فى النهاية اعترافاً تاماً ».

ويقول ابن خلكان (١) : « وكان أبو الحسن الأشعرى أولا معتزليا، ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن فى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة، ورقى كرسيا ونادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى. أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله تراه الأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها. وأنا تائب مقلع، معتقد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعايبهم. وكان فيه دعابة ومزاح كثير. وله من الكتب : كتاب الشَّمَع، وكتاب الموجز، وكتاب إيضاح البرهان، وكتاب التبيين عن أصول الدين، وكتاب الشرح والتفصيل فى الرد على أهل الإفك والتضليل. وهو صاحب الكتب فى الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعين ».

وقد عارض الأشعرى المعتزلة ووافق أهل السنة فى كثير مما ذهبوا إليه. ويقول الشهرستانى (٢): « ومذهبه فى الوعد والوعيد والأسماء والأحكام والسمع والعقل مخالف للمعتزلة من كل وجه. قال : الإيمان هو التصديق بالقلب، وأما القول باللسان والعمل على الأركان ففروعه. فمن صدّق بالقلب، أى أقر بوحدانية الله تعالى، واعترف بالرسل تصديقا لهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى بالقلب صح إيمانه، حتى لو مات فى الحال كان مؤمنا ناجياً، ولا يخرج من الإيمان إلا بانكار شىء من ذلك. وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة، يكون حكمه إلى الله تعالى، إما أن يغفر له برحمته، وإما أن يشفع فيه النبى صلى الله عليه وسلم إذ قال : شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى، وإما أن يعذبه بمقدار جرمه، ثم يدخله الجنة برحمته. ولا يجوز أن يخلد فى النار مع الكفار، لما ورد به السمع من إخراج من كان فى قلبه ذرة من الإيمان. قال : ولو تاب، لا أقول بأنه يجب على الله قبول توبته بحكم العقل، إذ هو الموجب فلا يجب عليه شىء بل ورد السمع بقبول توبة التائبين وإجابة دعوة المضطرين. وهو المالك فى خلقه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؛ فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفا. ولو أدخلهم النار لم يكن جوراً، إذ الظلم هو التصرف فيما لا يملكه المتصرف، أو وضع

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٢٧

(٢) الملل والنحل (على هامش ابن حزم) جـ ١ ص ١٣٢ — ١٣٣

الشيء فى غير موضعه ، وهو المالك المطلق ، فلا يتصور منه ظلم ولا ينسب إليه جور » .

وكان لجهود أبى الحسن الأشعرى فى إحياء السنة أثر كبير ، حتى إنه كاد يقضى على مذهب الاعتزال قضاء مبرما بدليل ما ذكره أبو بكر الصيرفى : « كانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله الأشعرى ، فجحرهم فى أقماع السمسم » (١).

وقد تم انتصار السنة على الاعتزال بظهور حجة الإسلام الغزالى الذى وجّه نشاطه إلى الإشادة بمذاهب السنة والحط من شأن الاعتزال والفلسفة وغيرهما .

٧ — التصوف

(أ) المتصوفون المعتزلون :

ومن المسائل التى شغلت أفكار المسلمين فى ذلك العصر الذى نحن بصدد الكلام عليه «التصوف». ذلك أن كثيرا من المسلمين الذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا فى علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب الله سبحانه وتعالى ، فرأوا أن يتقربوا إليه عن طريق الزهد والتقشف وفناء الذات فى حبه تعالى ، ومن ثم سموا « المتصوفين » . ويقول براون (٢) إنه ليست ثمة علاقة بين اسم الصوفية وبين الكلمة اليونانية « سوفس » σοφός (التى تكتب بالسين لا بالصاد والتى يقابلها بالعربية فيلسوف) ، أو « سَفْسَطى » sophist ، أو بكلمة «صفاء» كما يدعى الصوفيون أنفسهم . أو « بأهل الصُفَّة » ، وهم جماعة من الفقهاء ظهروا فى صدر الإسلام كانوا يجلسون على صفة فى المسجد ويجمعون معاشهم من أهل الورع عن طريق الفتاوى (٣)، ولكنه مشتق من الكلمة العربية «صوف»، كما يتضح من قرائن أخرى كاسمهم بالفارسية « پشنيناپوش» pashnima-push ومعناها الملابس الصوفية، مما يتميز به المسلمون الأولون الذين عرفوا بالبساطة والتقشف . ويقول المسعودى (٤) إن عمر بن الخطاب « كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل العباءة » ، على حين كان سلمان الفارسى يلبس الصوف كما يصفه المؤرخ نفسه (٥) . ويقال هذا أيضاً عن أبى عبيدة بن الجراح الذى « كان يظهر للناس وعليه الصوف الجافى (٦) . ولما تقدم الزمن بالمسلمين وسادت المادية والبذخ ، حافظ بعض المسلمين على سنة خلفاء الرسول فى الملبس ، واحتجوا بذلك احتجاجا صامتاً على المادية والتبذير

---

(١) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٢٧

(٢) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 297.

(٣) وقد جاء فى تاج العروس والنهاية لابن كثير أن أهل الصفة كانوا أضياف الاسلام من فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه .

(٤) مروج الذهب جـ ١ ص ٤١٧ (٥) ص ٤١٧

(٦) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤١٨

اللذين انغمس فيهما معاصروهم ، فأطلق عليهم « الصوفيون » ، ولحق بهم ما يلحق عادة بالمحافظين . وقد تكلم القشيرى[١] المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (= ١٠٧٣م) على المتصوفين الأول فقال : « فلما ظهرت البدع وتشاحنت الفرق ، وصار أصحاب كل بدعة وأنصار كل فرقة يدعون أن فيهم زهادا ، انفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم الصوفية ، وأطلق هذا الاسم عليهم قبل نهاية القرن الثانى الهجرى بقليل » .

وقد أوضح جامى[٢] (نفحات الأنس ص ٣٤) أن أول من تسمى بالصوفى هو أبو هاشم الذى ولد فى الكوفة ومضى سواد حياته فى الشام وتوفى سنة ١٦٠ هـ (٧٧٧ — ٧٧٨م) ، وأن (ص ٣٦) أول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو ذو النون المصرى (ت ٢٤٦هـ = ٨٦٠م) تلميذ الإمام مالك ، وأن الذى شرحها وبوبها ونشرها هو الجنيد البغدادى المتوفى سنة ٢٩٨هـ (٩١٠م) ، ودعا إليها من فوق المنابر الشبلى المتوفى سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥م) . ولعل أحسن مثل للتصوف الخالص هى رابعة بنت إسماعيل العدوية التى اشتهرت بالصلاح والتقوى ، وكان النساء يجلسن إليها ويسمعن وعظها ، وقد أشار جامى إلى ذلك[٣] فى هذين البيتين :

ولو كان النســـاء كمن ذكرنا ... لفُضِّلت النســاء على الرجال
فلا التأنيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخر للهلال[٤]

وكانت رابعة تقول فى مناجاتها : إلهى تحرق قلباً يحبك ؟ ومن وصاياها : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم ، ومن قولها فى حب الله سبحانه وتعالى :

إنى جعلتك فى الفؤاد مُحَدثى ... وأبحت جسمى مَنْ أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وكانت رابعة تصلى الليل كله ، فاذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر . ولما ماتت كفنت فى جبتها ، وهى خمار من صوف كانت تلبسه ، وكانت وفاتها سنة ١٣٥ هـ (وقيل سنة ١٣٨ هـ)[٥] . وقبرها يزار بظاهر القدس من شرقيه .

وقد تطور مذهب التصوف عند المسلمين ، وخاصة عند الفرس ، فى عصر متأخر ، وأصبحت فلسفة التصوف — إن صح هذا التعبير — قائمة على الأفلاطونية الحديثة ، وعلى عناصر فارسية

---

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I. pp. 297—8 ، نقلا عن جامع نفحات الأنس (طبعة نساو ليز Nassau Lees ، كلكتا سنة ١٨٥٨ م)

(٢) هو عبد الرحمن جامى شاعر فارسى مشهور .

(٣) نفحات الأنس ص ٧١

(٤) هذان البيتان لأبى الطيب المتنبى من قصيدته فى رثاء أم سيف الدولة ومطلعها :

نعد المشرفية والعوالى ... وتقتلنا المنون بلا قتال

والرواية الصحيحة فى البيت الأول هى : ولو كان النساء كمن فقدنا ، وليس كمن ذكرنا .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٨٢ — ١٨٣

وأخرى هندية(١)، كما اتخذه بعضهم وسيلة لتحقيق مآربهم الشخصية. وفى هؤلاء يقول محمود الوراق :

تصوف كى يقالَ له أمينٌ وما يعنى التصوفَ والأمانة
ولم يرد الإلهَ به ولكنْ أراد به الطريق إلى الخيانة

وقال ابن السماك للصوفية : «والله لئن كان لباسكم وفقاً لسرائركم ، لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها ، ولئن كان مخالفاً لها لقد هلكتم»(٢).

ويقول فون كريمر (٣) : « يظهر من غير شك أن التصوف جمع بين عنصرين مختلفين : تقشف مسيحى قديم دخل بقوة حتى فى فجر الإسلام ، ثم دخل بعد ذلك بكثير عنصر بوذى هو عنصر التأمل والتفكير العميق ، وذلك نتيجة لتأثير الفرس فى الإسلام . وكانت لهذا العنصر الغلبة فى تكوين التصوف الإسلامى الخالص : فالأول يعبر بجلاء عن تأثير ذلك العنصر فى العقل العربى أكثر من غيره ، والثانى يعبر عن تأثيره فى الطبيعة الفارسية».

ويظهر أن التأثير الهندى فى التصوف الإسلامى لم يكن كبيرا بالدرجة التى تصورها فون كريمر ، فان تأثير الأفلاطونية الحديثة والعناصر الإسلامية كان فى الواقع أعظم منها بكثير . وقد أجاد دى بور (٤) فى كلامه على التصوف فقال : « وإذا تكلمنا على التصوف ، فنحن نعالج نظاما عمليا

---

(١) الأفلاطونية الحديثة هى الفلسفة التى ضمت فلسفة أفلاطون اليونانى بعد إعطائها صبغة شرقية أسسها أمونيس سكاس أحد فلاسفة الاسكندرية فى القرن الثالث ، ونقحها أفلوطين وغيره من الفلاسفة . أما وجه الشبه بين مذهب المتصوفة وفلسفة أفلوطين — فيما يظهر — فهو أن أفلوطين له مذهب فى الحب سموه الحب الأفلاطونى ، وهو حب روحانى لاتتطرق إليه الأغراض المادية ولا النزعات الحسية . وللمتصوفة نفس هذا المذهب فى حب الله ، فهم يحبونه حبا روحانيا خاليا من الرغبات والنزعات ، أى أنهم يحبونه حبا أفلاطونيا . ولا شك أنهم اكتسبوا هذا الحب وصيغ التعبير عنه مما وصلهم من هذه الفلسفة. ويظهر هذا الشبه من قراءة أشعار المتصوفين ؛ فاقرأ مثلا قول عمر بن الفارض :

سقتنى حميا الحب راحة مقلتى وكأسى محب من عن الحسن جلت
وبالى أبلى من ثياب تجلدى به الذات فى الاعدام نيطت بلذة
فلو كشف العوار بى وتحققوا من اللوح مامنى الصبابة أبقت
لما شاهدت منى بصائرهم سوى تخلل روح بين أثواب ميت
ومنك شقائى بل بلائى منة وفيك لباس البؤس أسبغ نعمة

وهى قصيدة طويلة تسمى تائية السلوك الكبرى تقع فى أكثر من سبعمائة بيت . راجع ديوان ابن الفارض (بيروت سنة ١٣٢٨)

وهكذا فانك لاتجد إلا روحانية تنبعث فى هدوء واستكانة كما ينبعث النفس من بين شفتى المريض . فانظر فى هذه الأبيات فهل تجد إلا إنكار الذات وفناء الجسم وتيقظا فى الروح ؟ ففى البيت الأول أحب بعينيه ، وفى الثانى وجد لذة فى انعدام ذاته أمام مايفكر فيه من جمال المحبوب « قدرة الله » ، وفى الثالث والرابع فنى جسمه وبقيت روحه المعذبة المدنفة التى تجد « فى البيت الخامس » لذة فى الألم واستمراء فى البؤس

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٥١

(٣) نقلا عن Herrsch. Id., p. 67 ، Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 300

(٤) تاريخ الفلسفة فى الاسلام : ترجمة أبى ريدة ص ٧٣

أساسه دينى أو روحى . ولكن للأنظمة العملية صدى فى الفكر دائماً ، وهى تتخذ من ذلك صبغة نظرية . ولم يكن بد من أفعال لها أسرارها ، ومن مرشدين يقربون ما بين الإنسان وربه . ويحاول هؤلاء المرشدون أن يطلعوا على أسرار تلك الأفعال ، ثم يظهروا خواص مريديهم عليها ، وأن يتخذوا لأنفسهم فى سلسلة مراتب الوجود مكانا يصلون فيه بين الله والناس . ولا بد أن تكون نظريات المذهب الأفلاطونى الجديد خاصة قد أثرت تأثيرها فى ذلك . . . ويظهر أنه كان لمذهب اليوجا الهندى تأثير عظيم فى بلاد الفرس على الأقل . ولكن التصوف ظل فى الجملة فى داخل نطاق مذهب أهل السنة ، وقد كان هؤلاء من الحكمة بحيث تغاضوا عن شطحات الشعراء وأصحاب المواجد ، والمتكلمون وأهل التصوف متفقون تمام الاتفاق فى القول بأنه لا فاعل فى كل شىء إلا الله » .

(ب) المتصوفون الغلاة :

١ — الحسين بن منصور الحلاج :

غير أن هناك جماعة من المتصوفين غلوا فى تصوفهم وقالوا إنه لا موجود فى كل شىء إلا الله . ومن هذا « نشأ مذهب فى وحدة الوجود الذى خالف مذهب جمهور المسلمين ، وكان من شأنه أن جعل العالم خيالا لا حقيقة ، كما وحد بين ذات الإنسان وذات الله . وبعد أن كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الإلهية ، قال الصوفية بوحدة شاملة لكل شىء . وبعد أن كان الأولون يقولون بفعل الله فى كل شىء ، قال الآخرون بوجوده فى كل شىء » (١) . وقد نظر السنيون إلى هؤلاء المتصوفين الغلاة نظرتهم إلى المشبهة الذين يشبهون الله بالإنسان ، والمجسمة الذين يجسمون الله فيجعلون له جرما وحدا ، والحلوليين الذين يقولون بحلول الله فى الأجسام .

ومن غلاة المتصوفين الحسين بن منصور الحلاج الذى ادعى الألوهية فى عهد المقتدر العباسى (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) ؛ ويكنى أبا مغيث ، وهو مجوسى الأصل من أهل بلدة البيضاء بفارس ، ونشأ بواسط ثم قدم بغداد واتخذها دارا له ، واختلط بالصوفية وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره من المتصوفين (٢) . وقد « سمى الحلاج لأنه اطلع على سر القلوب ، وكان يخرج لب الكلام كما يخرج الحلاج لب القطن بالحلج . وقيل كان يقعد بواسط بدكان حلاج ، فمضى الحلاج فى حاجة ورجع ، فوجد القطن محلوجا مع كثرته فسماه الحلاج » (٣) . اشتغل الحلاج فى مبدأ أمره بالتصوف ، وله فى هذا شطحات كثيرة ، بمعنى أن كلامه « يحتمل معنيين : أحدهما حسن محمود ، والآخر قبيح

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ٧٣ ، ٧٤

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٨ — ١٤٩

(٣) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٩٩ — ١٠٠

مذموم »(١) . واختلف الناس فيه ، فمنهم من يبالغ فى تعظيمه ومنهم من يكفره (٢) . وكان ظاهره أنه ناسك صوفى ، فإذا علم أن أهل بلدة يرون الاعتزال صار معتزليا ، أو يرون الإمامة صار إماميا وأراهم أن عنده علما بإمامهم ، أو رأى أهل السنة صار سنيا (٣) » .

وكان الحلاج مُخَلِّطا يلبس الصوف والمسوح تارة ، والثياب المصبغة تارة ، والعمامة الكبيرة والدراعة ، وتارة يلبس القباء وزى الجند . وقد طاف البلاد ، وقصد الهند وخراسان وبلاد ما وراء النهر وتركستان وغيرها(٤) . وقال بعض أصحابه : « صحبته سنة إلى مكة ، وأقام بمكة بعد رجوع الحجاج إلى العراق وقال : إن شئتَ أن تعود فعدْ ، فانى قد عولت أن أمضى من هنا إلى بلاد الهند . وكان الحلاج كثير الأسفار . ثم إنه نزل فى البحر يريد الهند ، فصحبته إلى بلاد الهند ، فلما وصلنا إليها استدلّ على امرأة ومضى إليها وتحدث معها ، ووعدته إلى غد ذلك اليوم . ثم خرجت معه إلى جانب البحر ومعها غزل ملفوف وفيه عقد شبه السلم ، فقالت المرأة كلمات ، وصعدت فى ذلك الخيط ، وكانت تضع رجلها فى الخيط وتصعد حتى غابت عن أعيننا . ورجع الحلاج وقال لى : لأجل هذه المرأة كان قصدى إلى الهند(٥) » .

وكان لهذه الشعبذة والنارنجيات التى تعلمها الحلاج فى الهند خاصة أثر كبير فى عقول العامة الذين التفوا حوله ومالوا إلى مذهبه المغرق فى الغلو ، حتى إن بعضهم رماه بأنه أحد دعاة مذهب القرامطة الذى ساد فى أيامه على يد أبى طاهر الجنابى (ت ٣٣٢ هـ) . وقد قيل إن الحلاج كان يدعو فى أول أمره إلى الرضا من آل محمد (٦) . واستطاع بمهارته أن يجذب إليه العامة ، فكان يحفر فى بعض الطرقات موضعا يضع فيه زقا فيه ماء ، ثم يحفر موضعا آخر يضع فيه طعاماً ، ثم يسير مع أصحابه إلى الموضع الأول . فاذا احتاجوا إلى ماء يشربونه ويتوضئون منه ، نبش هذا الموضع بعكاز فيخرج الماء ، فيشربون ويتوضئون ، ثم يسير إلى الموضع الآخر فيخرج منه الطعام ، ويوهم أصحابه أن ذلك من كرامات الأولياء . ولم تقتصر أساليبه فى اجتذاب الناس إليه على ذلك ، بل كان يحفظ الفواكه ويخرجها فى غير أوانها (٧) . وادعى البعض أنه أحيا طائرا لابن الخليفة المقتدر ، فقد ذكر عريب بن سعد (٨) « أن المقتدر أرسل إلى الحلاج خادما ومعه طائر ميت وقال : إن هذه الببغا لولدى أبى العباس ، وكان يحبها ، وقد ماتت . فان كان ما تدعى صحيحاً ، فأحيى هذه الببغا ،

---

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٤٧
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٦
(٣) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ١٠٢ — ١٠٣
(٤) المصدر نفسه ص ١٠٢
(٥) المصدر نفسه ص ١٠١ ، ١٠٥
(٦) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٣٤ — ٢٣٥
(٧) صلة تاريخ الطبرى ص ٩٩
(٨) المصدر نفسه ص ٩٢
(٣) المصدر نفسه ص ٩٢ ، ٩٣

فقام الحلاج إلى جانب البيت الذى هو فيه وبال . وقال : من تكن هذه حالته لا يحي ميتاً . فعد إلى الخليفة وأخبره بما رأيت وبما سمعت منى . ثم قال : بلى ! إلى من إذا أشرت إليه أدنى إشارة أعاد الطائر إلى حالته الأولى . فعاد الخادم إلى المقتدر وأخبره بما رأى وسمع ، فقال : عد إليه وقل له المقصود إعادة الطائر إلى الحياة ، فأشر إلى من شئت . قال : فعلى بالطائر ، فأحضر إليه وهو ميت ، فوضعه على ركبتيه وغطاه بكمه ، ثم تكلم بكلمات ثم رفع كمه وقد عاد الطائر حياً ، فأعاده الخادم إلى المقتدر وخبره بما رأى » .

وقد ألف الحلاج كتباً ذكر فيها مبادىء تخالف المبادىء الإسلامية ، فأباح الحج إلى غير مكة لكل من بنى فى بيته بناء مربعاً وطاف حوله فى أيام الحج وأدى فيه مناسك الحج حوله ، وأطعم ثلاثين يتيما بيده ، وكسا كل واحد منهم قميصا ، ومنحه سبعة دراهم ، فان ذلك كله يقوم مقام الحج(١) . كما أباح الحلاج الإفطار فى شهر رمضان لمن صام ثلاثة أيام بلياليها ولم يفطر ، وأفطر فى اليوم الرابع على ورقات من الهندب(٢) ، فان ذلك يغنيه عن صوم رمضان . وأباح ترك الصلاة لمن صلى ركعتين من أول الليل إلى آخره ، فان ذلك ، فى نظره ، يغنيه عن الصلاة طول حياته . وأعفى من الزكاة من تصدق بجميع ما يمتلكه فى يوم واحد ، كما أعفى من العبادة من زار قبور الشهداء بمقابر قريش ، وأقام بها عشرة أيام يقضيها فى الصلاة والصوم مع إفطاره على قليل من خبز الشعير والملح (٣) . وكان الحلاج مع ذلك ، خفيف الحركات شعوذيا . قد حاول الطب وجرب الكيمياء ، فلم يزل يستعمل المخاريق(٤) حتى استهوى بها من لا تحصيل عنده . ثم ادعى الربوبية وقال بالحلول ، وعظم افتراؤه على الله عز وجل ورسله . ووجدت له كتب فيها حماقات وكلام مقلوب وكفر عظيم ، وقال فى بعض كتبه : إنى المغرق لقوم نوح والمهلك لعاد وثمود . وكان يقول لأصحابه : أنت نوح وأنت موسى ، وأنت محمد قد أعدت أرواحهم إلى أجسادهم . ويزعم بعض الجهلة المتبعين له بأنه كان يغيب عنهم ، ثم ينزل عليهم من الهواء (٥) .

وقد راجت دعوة الحلاج بين كثير من الناس ، وخاصة أهالى بغداد والطالقان (بخراسان) الذين افتتنوا به ، حتى خشى أهل السنة أن يتفاقم خطره ، ورموه بالكفر والقول بالحيلولة ، ونسبوا إليه ، أنه قال : من هذب نفسه فى الطاعة وصبر على اللذات والشهوات ، ارتقى إلى مقام المقربين ، ثم لا يزال يصفو ويرتقى فى درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية . فاذا لم يبق فيه من البشرية حظ ، حل فيه روح الإله الذى حل فى عيسى بن مريم ، ولم يرد حينئذ شيئاً إلا كان كما أراد ، وكان

---

(١) صلة تاريخ الطبرى ص ٩٣

(٢) بكسر الهاء وفتح الدال ، وقد تكسر جمع هندبة أو هندابة ، وهى بقلة نافعة للمعدة والكبد والطحال أكلا ، وللسعة العقرب ضمادا .

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٥ — ١٠٦

(٤) الحيل والتمويهات

(٥) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٨٩ ، ٩٢

جميع فعله فعل الله تعالى . وزعموا أن الحلاج ادعى لنفسه هذه الرتبة ، وذكر أنهم ظفروا بكتب له إلى أتباعه عنوانها « من الهوهو رب الأرباب المتصور فى كل صورة إلى عبده فلان » ، فظفروا بكتب أتباعه إليه وفيها : يا ذات الذات ومنتهى غاية الغايات (١) ، نشهد أنك المتصور فى كل زمان بصورة . وفى زماننا هذا بصورة الحسين بن منصور ، ونحن نستجير لك ، ونرجو رحمتك ياعلام العيوب »(٢) .

ولم تقف دعوة الحلاج عند حد التأثير فى العامة ، بل لقد تأثر بها كثير من رجال البلاط والكتاب وبعض كبار الهاشميين ، ورمى نصر حاجب المقتدر وأنصاره باعتقاد مبادىء الحلاج ، حتى إنهم اعتقدوا أنه يحيي الموتى ، وأن الجن يخدمونه ويحضرون إليه مايريد ، وأن فى استطاعته أن يأتى بالمعجزات التى أتى بها الرسل والأنبياء ، كما اعتقدوا ألوهيته ونبوة أحد أتباعه (٣) . وقد انتشر دعاته فى كثير من الأمصار الإسلامية لنشر مذهبه ، واتبع فى ذلك طريقة دعاة كبار الإسماعيلية ، فقد روى مسكويه (٤) أنه « كان فى الكتب الموجودة له عجائب من مكاتبات أصحابه النافذين إلى النواحى ، وبوصيته إياهم بما يدعون إليه الناس ، وبما يأمرهم به من نقلهم من حال إلى حال أخرى ومرتبة إلى مرتبة ، حتى يبلغوا الغاية القصوى ، وأن يخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم ، وعلى قدر استجابتهم وانقيادهم ، وجوابات لقوم كاتبوه بألفاظ مرموزة لايعرفها إلا من كتبها ومن كتبت إليه » . وقد ادعى الحلاج الألوهيه ، وكان يقول بحلول اللاهوت فى الإنسان ، ويكتب إلى أصحابه « من النور الشمشعانى (٥) » . وروى عنه أنه قال : مافى الجبة غير الله (٦) ، يعنى جبته ، كما روى عنه أنه قال : أنا الحق . وكان يتغنى بقوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا

ومن الشعر الذى ينسب إلى الحلاج قوله :

لا كنتُ إن كنتُ أدرى كيف كنت ولا ... لا كنتُ إن كنت أدرى كيف لم أكن (٧)

كما نسب إليه قوله :

---

(١) فى الأصل والشهوات والصواب والغايات
(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٤٨
(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٧٦
(٤) ج ١ ص ٧٩
(٥) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣
(٦) Louis Massignon : La Passion D' AL - Hosayn - Ibn - Mansour, tome I. pp. 61-2.
(٧) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٧

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهرا فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب(١)

وكذلك اعتقد أنصار الحلاج أنه يعرف السر وسر السر، وأنه أضحى من أهل الكشف كما يتبين ذلك من قوله:

مواجيد أهل الوجد تصدق عن وجدى وأسرار أهل السر مكشوفة عندى

وقوله:

أنه يعلم مافى النفس جارحة إلا وذكرك فيها نيل مافيها
ولا تنفست إلا كنت فى نفسى تجرى بك الروح منى فى مجاريها
إن كانت العين مذ فارقتها نظرت إلى سواك فخانتها مآقيها
أو كانت النفس بعد البعد آلفة خلقا عداك فلا نالت أمانيها (٢)

ظهر خطر الحلاج منذ مستهل القرن الرابع الهجرى، فقد قبض عليه ببغداد فى سنة ٣٠١ هـ وشهر به بدعوى ادعائه الربوبية وقوله بالحلول. وعلى الرغم من أن على بن عيسى وزير المقتدر وقف على جهله بالقرآن وعلوم الدين، دافع عنه نصر الحاجب الذى أدخل فى روعه أن الرافضة هم الذين رموا الحلاج بالكفر والمروق عن الإسلام. وكان على بن عيسى يعتقد أن فى الحلاج قدرة خارقة وأنه قادر على أذاه فتهيب من قتله.

وكان حامد بن العباس وزير المقتدر يكره الحلاج ويعمل على التخلص منه، فاتخذ من امرأة ابن الحلاج عينا عليه واستشهد بها عليه، كما أحضر كتبه وقرأها ووقف على مافيها من شعوذة وكفر، ثم عقد مجلسا يضم كبار القضاة الذين ناظروه فيما كتبه وبينوا له بطلان ماذهب إليه وخروجه على الدين الاسلامى، ورموه بالكفر وأفتوا جميعاً بكفره وأحلوا دمه، فأمر الخليفة بضربه ألف سوط وإحراق جثته وإلقاء رمادها فى دجلة. وقد ادعى أصحابه أنهم ماقتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم، وأن المضروب كان عدوا للحلاج ألقى شبهه عليه، كما قال بعض آخر إنه رآه وخاطبه وحدثه. وادعى قوم من أصحابه أنهم رأوه يركب حماراً وأنه قال لهم: إنما حولت دابة، ولست المقتول كما ظن هؤلاء البقر. ولما زادت دجلة اعتقد أصحابه أن ذلك بسبب ما أُلقى فيها من رماد جثته (٣). وقال أبو عمرو بن حيويه: لما اخرج الحلاج ليقتل مضيت فى جملة الناس، ولم أزل أزاحم حتى رأيته، فقال لأصحابه: لايهولنكم هذا فانى عائد إليكم بعد ثلاثين يوما» (٤).

---

(١) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبرى ص ١٠٤
(٢) المصدر نفسه ص ٩٨
(٣) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبرى ص ٩٤، ٩٧
(٤) المصدر نفسه
راجع محاكمة الحلاج فى Massignon: La Passion D'Al-Hallaj, tome I. pp. 197—220

ولكن خطر الحلاج لم يزل بموته ، فقد افتتن به كثير من الدهماء لما رأوه من سحره وشعوذته وحاله وإشاراته ، حتى إنهم ألهوه ودانوا بربوبيته . وقد دافع عنه حجة الإسلام الغزالى وحمل أقواله على محمل حسن . ومهما يكن من شيء فقد أقلقت مبادىء الحلاج الخلافة العباسية ، ولذلك أحضر الوراقون وحرم عليهم أن لا يبيعوا من كتبه شيئا ولا يشتروه . وقد قبض عليه ثم قتل فى شهر ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ .

٢ — الشلمغانى :

ويظهر أن فكرة تأليه الحلاج لم تقتصر على غلاة المتصوفين ، فقد رأينا السبئية يؤلهون على بن أبى طالب ، والروندية يؤلهون أبا جعفر المنصور ، والخطابية يؤلهون جعفرا الصادق ، والمتصوفين الغلاة يؤلهون الحلاج ، ويؤله العذاقرة أبا جعفر محمد بن على الشلمغانى[1] الذى ادعى حلول روح الإله فيه وسمى نفسه روح القدس ، ووضع لأتباعه كتابا ينطوى على الخروج على الشريعة الإسلامية[2] . وقال ابن الأثير[3] : « وكان من مذهبه أنه إله الآلهة يحق الحق ، وأنه الأول القديم ، الظاهر الباطن ، الرازق التام ، الموما إليه بكل معنى . وكان يقول إن الله سبحانه وتعالى يحل فى كل شيء على قدر ما يحتمل ، وأنه خلق الضد ليدل على المضدود . فمن ذلك أنه حل فى آدم لما خلقه ، وفى إبليسه أيضا ، وكلاهما ضد لصاحبه لمضادته إياه فى معناه ، وأن الدليل على الحق أفضل من الحق ، وأن الضد أقرب الشيء من شبهه ، وأن الله عز وجل إذا حل فى جسد ناسوتى ظهر من القدرة والمعجزة ما يدل على أنه هو » . وهذا يشبه إلى حد كبير آراء الإمامية ، وخاصة الإسماعيلية منهم ، فى الحلول ومبدأ الضد فى نظرية الإمامة .

وقد تأثر بآراء الشلمغانى بعض كبار رجال الدولة العباسية فى هذا العصر ، ومن هؤلاء المحسن ابن أبى الحسن بن الفرات فى عهد وزارة أبيه الثالثة ، كما وجد صدرا رحيبا من ناصر الدولة الحسن ابن عبد الله بن حمدان الذى أحسن وفادته وتستر عليه ، وبقى عنده بالموصل إلى أن جاء بغداد حيث تبعه كبار رجالها[4] .

ولما ازداد خطر الشلمغانى فى عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) قبض عليه وعلى كثير من أنصاره ، ووجدت عنده وثائق تثبت ادعاءه الألوهية وإغراق أنصاره فى ألوهيته ، وفيها خط الحسين بن القاسم ، فعرضت الخطوط فعرفها الناس ، وعرضت على الشلمغانى فأقر أنها خطوطهم ... وأخذ ابن أبى عون

---

(١) وينسب إلى شلمغان باحدى قرى واسط .

(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٤٩

(٣) جـ ٨ ص ١٠١

(٤) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٠٠ — ١٠١

وممن تبع الشلمغانى الحسين بن القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب الذى وزر للمقتدر بالله ، وأبو على بن بسطام ، وابراهيم بن أبى عون ، وابن شبيب الزيات ، ولكنهم لم يلبثوا أن اختفوا حين كشف أمرهم فى عهد وزارة ابن مقلة فى خلافة المقتدر

وابن عبدوس معه وأحضرا معه عند الخليفة وأمرا بصفعه فامتنعا، فلما أكرها مد ابن عبدوس يده وصفعه، وأما ابن أبي عون فإنه مد يده إلى لحيته ورأسه، فارتعدت يده، فقبل لحية الشلمغاني ورأسه ثم قال: إلهي وسيدي ورازقي، فقال له الراضي: قد زعمت إنك لا تدعي الإلهية فما هذا؟ فقال: وما عليّ من قول ابن أبي عون؟ والله يعلم أني لا قلت له إني إله قط! فقال ابن عبدوس: إنه لم يدع الإلهية، وإنه ادعى أنه البـــاب إلى الإمام المنتظر... وكنت أظن أنه يقول ذلك تقية. ثم أحضروا عدة مرات ومعهم الفقهاء والقضاة والكتاب والقواد. وفي آخر الأيام أفتى الفقهاء بإباحة دمه، فصلب ابن الشلمغاني وابن أبي عون في ذي القعدة (سنة ٣٢٢ هـ) وأحرقا بالنار»[1].

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٠١

الباب السادس

العلاقات الخارجية

١ — مع البيزنطيين :

تمهيد :

توجهت سياسة العرب منذ صدر الإسلام إلى الصراع مع الدولة البيزنطية ، واستطاعوا أن يستولوا فى وقت قصير على ممتلكاتهم فى الشام وفلسطين ومصر وبرقة طرابلس وغيرها . ولم يكتف العرب بذلك بل حاولوا فتح القسطنطينية أكثر من مرة فى عهد الدولة الأموية . ولما انتقل الحكم إلى العباسيين تغيرت وجهة الحرب بين العرب وبين البيزنطيين ، وأصبحت عبارة عن غارات الغرض منها الهدم والتخريب وإتلاف النفس والمال . وهذا يخالف ما كانت عليه الحال فى أيام الأمويين الذين كانت لهم سياسة مرسومة لمحاربة البيزنطيين ابتغاء احتلال القسطنطينية . ولا شك أن السبب فى ذلك يرجع إلى عاملين هامين :

أولهما : مناوأة أهالى بلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين ، حتى إن عبد الرحمن الداخل فكر فى إعادة هذه البلاد إلى سلطان الأمويين ، واعتمد فى تحقيق سياسته على ولاء أهالى بلاد الشام لبنى أمية .

وثانيهما : عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوى فى البحر الأبيض المتوسط يضارع أسطول الأمويين من قبل ، واعتمادهم على الجيوش البرية دون القوات البحرية (١) .

وقد امتاز العصر العباسى الأول بكثرة غارات البيزنطيين على أراضى الدولة العباسية ، وساعد على ذلك نقل حاضرة الدولة العباسية إلى بغداد . ولذلك نراهم يشنون الغارات على بلاد الشام فى عهد أبى جعفر المنصور . ولكن العباسيين كانوا فى ذلك الوقت لا يزالون من القوة بحيث يستطيعون أن يصدوا غارات البيزنطيين عن بلادهم . وبلغت جيوشهم فى عهد المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) أنقرة فى وسط آسيا الصغرى سنة ١٥٩ هـ ، وهددت القسطنطينية وأرغمت الملكة أيرينى Irene على دفع الجزية للمسلمين . ولما نقض نقفور هذه الهدنة تصدى له هارون الرشيد وأوغل فى بلاده ، واستولى على مدينة هرقلة وغيرها من مدن آسيا الصغرى ، كما أرغم هذا الإمبراطور على طلب الصلح ودفع الجزية من جديد(٢) .

وقد تمكن المأمون بدهائه السياسى أن يفرق بين البيزنطيين ، فشجع توماس الصقلبى الذى ثار فى آسيا الصغرى على الإمبراطور تيوفيلس Theophilus ، وأمده بالمال والرجال وعمل على تتويجه إمبراطورا على الدولة البيزنطية نفسها . وقد قابل إمبراطور الروم ذلك العمل بجعل بلاده موئلا للخرمية أتباع بابك الخرمى الذى شغل العباسيين اثنتين وعشرين سنة (٢٠١ — ٢٢٣ هـ) . وخرج

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى حـ ٢ ص ١٨٤ — ١٨٥ .
(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٨٥ — ١٨٧ ، ١٩١ (٣) الطبرى جـ ١١ ص ٤٨ — ٤٩

المأمون لحرب الروم فى سنة ٢١٨ هـ ، ولكن المنية عاجلته وهو فى طريقه إلى بلادهم فدفن فى طرسوس . ولما أغار البيزنطيون على بلاد الدولة العباسية فى عهد المعتصم خرج الخليفة إليهم بنفسه ومعه كبار قواده ، واخترق شعاب آسيا الصغرى حتى بلغ عمورية ، حيث التقى بالبيزنطيين فى موقعة تعد بحق من المواقع الحاسمة . وقد قال فيها أبو تمام قصيدته المشهورة التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب　　فى حده الحد بين الجد واللعب

(أ) من المتوكل إلى المعتمد (٢٣٢ — ٢٥٦ هـ) :

وقد اتخذ البيزنطيون من سوء الحال الذى ساد الدولة العباسية فى العصر العباسى الثانى لاستبداد الأتراك والبويهيين من بعدهم بالسلطة دون الخلفاء ، فرصة سانحة للاغارة على بلاد الدولة العباسية . ففى سنة ٢٣٨ هـ أغار البيزنطيون على سواحل مصر ، واستولوا على دمياط وتنيس ، وعاثوا فيهما ؛ ولم يتمكن عنبسة بن إسحاق (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ) الذى ولى هذه البلاد من قبل الخليفة المتوكل العباسى من الضرب على أيديهم ، ومنعهم من نهب البلاد وسبى النساء والأطفال وأهل الذمة . وقد نظم يحيى ابن فضل قصيدة بعث بها إلى الخليفة المتوكل ، عاب فيها على عنبسة تهاونه وقعوده عن مطاردة الروم فقال :

أترضى بأن توطا حريمك عنوة　　وأن يستباح المسلمون ويُحربوا
حمار أتى دمياط والروم وثب　　بتنيسَ منه رأى عين وأقربُ
مقيمون بالأشتوم يبغون مثلما　　أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فلا تنسنا إنا بدار مَضيعة　　بمصر وإن الدين قد كاد يذهب (١)

وكذلك أغار الروم فى عهد المتوكل على مدينة عين زربا (٢) على مقربة من المصيصة (سنة ٢٤١ هـ) ، وأسروا من كان فيها من الزط الذين كان المعتصم قد نقلهم إليها بعد ثورتهم فى البطائح بين واسط والبصرة . وفى هذه السنة تبودلت الأسرى بين المسلمين والروم فى عهد ميشيل الثالث Michael III (٢٢٨ — ٢٥٣ هـ — ٨٤٢ — ٨٦٧ م) ، الذى آلت الوصاية عليه إلى أمه تيودورا Thearoda ؛ وبلغ عدد أسرى المسلمين عشرين ألفا ، كانوا يلاقون كل ألوان التعذيب ، حتى إن كثيرا منهم اضطر إلى الدخول فى المسيحية . وقد قيل إن تيودورا عرضت على هؤلاء الأسرى الارتداد عن الاسلام ، فتنصر بعضهم ، وكانوا أكثر من سبعة آلاف ، وأبى الآخرون ، فقتلت منهم اثنى عشر ألفا ، ولم يبق من المسلمين سوى تسعمائة بين رجل وامرأة (٣) . وكذلك أغار البيزنطيون على الأراضى الواقعة شمالى العراق حتى بلغوا آمد وأسروا نحو عشرة آلاف من المسلمين . ولكن المتوكل عول

---

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٠١

(٢) يقول ياقوت فى معجمه إن عين زربا (بفتح الزاى وسكون الراء وباء موحدة وألف مقصورة) بلد على مقربة من المصيصة . وقد أمر هارون الرشيد ببنائها سنة ١٨٠ هـ وأقطعها فريقا من أهل خراسان وغيرهم ، ثم نقل إليها المعتصم جماعة من الزط ، ويسميها الفرنجة Anazarbus

(٣) الطبرى جـ ١١ ص ٥١ — ٥٢

على أخذ الثأر من البيزنطيين ، فاستولى على بعض بلادهم جنوبى آسيا الصغرى (سنة ٢٤٤ هـ) [١] ، كما أسر المسلمون فى سنة ٢٤٥ هـ بقيادة على بن يحيى الأرمنى أحد بطارقة الروم [٢] ، واستولوا على مدينة لؤلؤة . « وكان البطريق الذى كان صاحب الروم وجهه إليهم يقال له لغثيط ... وقيل إن على بن يحيى الأرمنى حمله إلى المتوكل ، فدفعه المتوكل إلى الفتح بن خاقان ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فقالوا : نقتلك ، فقال : أنتم أعلم . وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من المسلمين » [٣] .

وقد اتخذت الحروب مع البيزنطيين وسيلة لإبعاد بعض القواد المناوئين . فقد قامت العداوة والبغضاء بين أحمد بن الخصيب وزير المنتصر (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) ، وبين وصيف التركى ؛ فعمل هذا الوزير على التخلص من ذلك القائد ، وأغرى الخليفة بإبعاده عن حاضرة الدولة لغزو بلاد الروم . وكتب المنتصر عند إنفاذه وصيفا إلى محمد بن عبد الله بن طاهر كتابا يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله محمد المنتصر بالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين . سلام عليك ! فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله . أما بعد ، فان الله ، وله الحمد على آلائه والشكر بجميل بلائه ، اختار الإسلام وفضله وأتمه وأكمله ، وجعله وسيلة إلى رضاه ومثوبته ، وسبيلا نهجا إلى رحمته ، وسببا إلى مذخور [٤] كرامته ، فقهر له من خالفه ، وأذل له من عند عن حقه وابتغى غير سبيله ، وخصه بأتم الشرائع وأكملها وأفضل الأحكام وأعدلها ، وبعث به خيرته من خلقه وصفوته محمدا صلى الله عليه وسلم ، وجعل الجهاد أعظم فرائضه منزلة عنده ، وأعلاها رتبة لديه ، وأنجحها وسيلة إليه ؛ لأن الله عز وجل أعز دينه وأذل عتاة الشرك . قال الله عز وجل آمرا بالجهاد ومفترضا له (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) [٥] . وليست تمضى بالمجاهد فى سبيل الله حالا لا يكابد فى الله نصبا ولا أذى ، ولا ينفق نفقة ولا يقارع عدوا ، ولا يقطع بلدا ولا يطأ أرضا ، إلا وله بذلك أمر مكتوب وثواب جزيل وأجر مأمول . قال الله عز وجل (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) [٦] ثم أثنى عز وجل بفضل منزلة المجاهدين على القاعدين عنده ، وما وعدهم من جزائه ومثوبته وما لهم من الزلفى عنده فقال (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على

---

(١) الطبرى جـ ١١ ص ٥٥ — ٥٦
(٢) البطارقة القواد
(٣) الطبرى جـ ١١ ص ٦٠
(٤) يعنى المدخر
(٥) سورة التوبة آية ٤١
(٦) سورة التوبة آية ١٢٠ — ١٢١

القاعدين درجة ، وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما).[١] فبالجهاد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم وجعل جنته ثمنا لهم ورضوانه جزاء لهم على بذلها ، وعداً حقا لاريب فيه وحكما عدلا لاتبديل له. قال الله عز وجل (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)[٢] . وحكم الله عز وجل لإحياء المجاهدين بنصره والفوز برحمته ، وأشهد موتاهم بالحياة الدائمة والزلفى لديه والحظ الجزيل من ثوابه فقال (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يُرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون)[٣] . وليس من شىء يتقرب به المؤمنون إلى الله عز وجل من أعمالهم ويسعون به فى حط أوزارهم وفكاك رقابهم ، ويستوجبون به الثواب من ربهم ، إلا والجهاد عنده أعظم منه منزلة وأعلى لديه رتبة وأولى بالفوز فى العاجلة والآجلة ، لأن أهله بذلوا لله أنفسهم لتكون كلمة الله هى العليا ، وسمحوا بها دون من وراءهم من إخوانهم وحريم المسلمين وبيضتهم[٤] ووقروا[٥] بجهادهم العدو . وقد رأى أمير المؤمنين ، لما يجبه من التقرب إلى الله بجهاد عدوه وقضاء حقه عليه فيما استحفظه من دينه والتماس الزلفى له فى إعزاز أوليائه وإحلال البأس والنقمة بمن حاد عن دينه وكذب رسوله وفارق طاعته ، أن ينهض وصيفا مولى أمير المؤمنين فى هذا العام إلى بلاد أعداء الله الكفرة الروم غازيا ، لما عرّف الله أمير المؤمنين من طاعته ومناصحته ومحمود تعبئته وخلوص نيته فى كل ماقربه من الله ومن خليفته . وقد رأى أمير المؤمنين ، والله ولى معونته وتوفيقه ، أن يكون موافاة وصيف فيمن أنهض أمير المؤمنين معه من مواليه وجنده وشاكريته ثغر ملطية لاثنتى عشرة ليلة تخلو من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وذلك من شهور العجم للنصف من حزيران ، ودخوله بلاد أعداء الله فى أول يوم من تموز . فاعلم ذلك ، واكتب إلى عمالك على نواحى عملك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا ، ومرهم بقراءته على من قبلهم من المسلمين وترغيبهم فى الجهاد وحثهم عليه واستنفارهم إليه ، وتعريفهم ما جعله الله من الثواب لأهله ، ليعمل ذوو النيات والحسبة والرغبة فى الجهاد على حسب ذلك ، فى النهوض إلى عدوهم والخفوف إلى معاونة إخوانهم والذياد عن دينهم والرمى من وراء حوزتهم ، بموافاة عسكر وصيف مولى أمير المؤمنين ملطية فى الوقت الذى حدّه أمير المؤمنين لهم إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »[٦].

دخل وصيف بلاد الروم وأوغل فيها ، ومات المنتصر فى ذلك الحين وآلت الخلافة إلى المستعين. وفى عهده غزا جعفر بن دينار الصائفة ، وافتتح بعض الحصون البيزنطية ، وقتل اثنان من أشد قواد

---

(١) سورة النساء آية ٩٥
(٢) سورة التوبة آية ١١١
(٣) سورة آل عمران آية ١٦٩ — ١٧٠
(٤) البيضة الحوزة وكل مايدافع عنه
(٥) وقروا العدو منعوه
(٦) الطبرى ج ١١ ص ٧٤ — ٧٥

الحروب بين العباسيين والبيزنطيين
في القرن الرابع الهجرى

المسلمين بأساً وأعظمهم خطراً وهما : عمر بن عبيد الله الأقطع ، وعلى بن يحيى الأرمنى اللذان يقول فيهما الطبرى[١] : « كانا نابين من أنياب المسلمين ، شديدا بأسهما عظيما غناؤهما عنهم ، فى الثغور التى هما بها » . ويقول المسعودى[٢] إنهما كانا من أهل البأس والنجدة والمكايد فى النصرانية ، حتى إن الروم صوّروا فى كنائسهم عشرة من كبار قواد المسلمين ، من بينهم عمرو بن عبيد الله ، وعلى بن يحيى الأرمنى . وكان لقتل هذين القائدين أثر بعيد فى إذكاء روح الجهاد بين أهالى بغداد وسامرا . وإلى هذا يشير ميور[٣] : « كانت كفة الحرب فى الخمسين سنة الماضية فى غير صالح الدولة البيزنطية بوجه عام . بيد أنه فى السنة التالية (٢٤٩ هـ) منيت غارة المسلمين على المسيحيين بإخفاق ذريع ؛ فقد تمزقت أوصال كتيبتين من كتائب المسلمين فى أرمينية وآسيا الصغرى ، وأثارت أنباء هذه الهزائم حماسة أهل بغداد ، وتعالت تلك الصيحات القديمة فى الطرقات معلنة الجهاد والنفير . . . وكان لهذه الصيحات أثرها فى إثارة حماسة العامة ، ففتحوا السجون وأحرقوا الجسور . ولكن بغداد ، وإن لم تستطع بعدُ أن تملى شروطها على حكامها ، استطاعت أن تثير الشغب والاضطراب . بيد أن روح الحرب الدينية كانت من القوة بحيث استطاعت أن تجتذب جموعا كثيفة من الأمصار القريبة ، جاءوا زرافات ووحدانا بحرابهم باذلين نفوسهم فى سبيل جهاد المسيحيين » .

(ب) من المعتمد الى المطيع (٢٥٦ — ٣٣٤ هـ) :

ولما ولى المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) الخلافة تقلصت الدولة العباسية إلى حدود الجزيرة والعراق ؛ وتجدد النزاع بين المسلمين والروم ، الذين جرءوا على العبث ببعض بلاد الدولة العباسية . ولا غرو فقد قويت شوكة الدولة البيزنطية وانتشر الأمن فيها منذ اعتلاء باسيل الأول Basil I. (٢٥٣ — ٢٧٣ هـ = ٨٦٧ - ٨٨٦ م) العرش ، فتمكن من إحراز النصر على بعض أمراء المسلمين ؛ وساعده على ذلك ضعف بعض الخلفاء واستبداد القواد بهم وثورة الجند عليهم .

وكان أحمد بن طولون الذى ولى الثغور الشآمية من قبل الخليفة المعتمد ، مصدر خوف البيزنطيين ، حتى إنهم هادوه فى سنة ٢٦٥ هـ . وفى ذلك يقول الطبرى[٤] : « بعث ملك الروم بعبد الله بن رشيد ابن كاوس ، الذى كان عامل الثغور فأسر ، إلى أحمد بن طولون مع عدة من أسراء المسلمين وعدة مصاحف هدية منه إليه » . على أن البيزنطيين لم يلبثوا أن أغاروا فى السنة التالية على ديار ربيعة ، فتصدى لهم أهل الموصل ونصيبين وردوهم على أعقابهم بعد أن عاثوا فى هذه البلاد[٥] . فرد نائب أحمد بن طولون على الثغور الشآمية على البيزنطيين بإغارته على الأراضى القريبة من هرقلة وإيقاعه بأهلها[٦] .

وقد أتاح اشتغال العباسيين بقتال صاحب الزنج الفرصة للبيزنطيين للايغال فى بلاد الدولة العباسية ،

---

(١) جـ ١١ ص ٨٥
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٥١
(٣) The Caliphate, pp. 522 - 3
(٤) جـ ١١ ص ٢٥٣
(٥) ابن الأثير جـ ٧ ص ١١٨
(٦) الطبرى جـ ١١ ص ٢٥٨

فحاصروا قَلَمِيَة القريبة من طرسوس فى جيش كثيف قيل إنه بلغ مائة ألف ؛ ولكن المسلمين أوقعوا بهم وغنموا منهم غنائم لا تحصى ويقول ابن الأثير (١) عند كلامه على حوادث سنة ٢٧٠ هـ إن عدد القتلى من البيزنطيين بلغ سبعين ألفا، وإن المسلمين قتلوا كثيرا من البطارقة، وغنموا صلبانهم الذهبية المكللة بالجواهر، وحازوا خمس عشرة ألف دابة وكثيراً من السروج والسيوف المحلاة، وأربعة كراسى من الذهب ومائتى كرسى من الفضة، ونحو عشرة آلاف من الأعلام المصنوعة من الديباج.

وكذلك أتاح اشتغال العباسيين بمحاربة قرامطة زكرويه فى شمالى العراق وبادية الشام وبعض المدن الشآمية، الفرصة للبيزنطيين، فأغاروا فى سنة ٢٩٢ هـ على الثغور الشآمية فى مائة ألف جندى، وعاثوا فى كثير من المدن مثل الحَدَث ؛ فخرج إليهم المسلمون من طرسوس، وفتحوا أنطالية الحصينة التى يقول ابن الأثير (٢) إنها تشبه القسطنطينية، ويقول ياقوت إنها من أشهر بلاد الروم على ساحل البحر، وقتلوا خمسة آلاف من أهلها وأسروا مثلهم وأنقذوا أسرى المسلمين فيها، كما استولوا على ستين مركباً، وغنموا ما فيها من الأموال والمتاع والرقيق. وكانت غنائم المسلمين من الكثرة بحيث بلغ نصيب كل منهم ألف دينار. كما بلغ المسلمون قونية فى سنة ٢٩٤ هـ وخربوها، واضطر إمبراطور الروم إلى طلب الصلح وتبادل الأسرى بين الفريقين (٣).

وقد اتخذ البيزنطيون من ثورة الحسين بن حمدان على بنى بويه فرصة للإغارة على الثغور الجزرية، فقصدوا حصن منصور سنة ٣٠٣ هـ وسبوا من كان فيه، كما أوقعوا بجند المسلمين فى طرسوس وعاثوا فساداً بمرعش (٤). وسار القائد مؤنس فى السنة التالية إلى ملطية وفتح كثيراً من حصون الروم. وكان من أثر هذا الانتصار المؤزر الذى أحرزه مؤنس على الروم أن خلع عليه الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ). وقد اضطر الروم إلى طلب المهادنة من المسلمين (سنة ٣٠٥ هـ). ويقول ابن الأثير (٥) إن امبراطور الروم أرسل إلى المقتدر رسولين يطلبان المهادنة والفداء، «فأكرما إكراما كثيراً، وأدخلا على الوزير وهو فى أكمل أبهة. وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة إليه. ثم إنهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما، واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة، وأديا الرسالة، فأجابهما المقتدر إلى ما طلب ملك الروم من الفداء، وسير مؤنسا الخادم ليحضر الفداء، وجعله أميراً على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج عنه. وسير معه جمعاً من الجنود، وأطلق لهم أرزاقا واسعة. وأنفذ معه مائة ألف وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين. وسار مؤنس والرسل، وكان الفداء على يد مؤنس».

---

(١) جـ ٧ ص ١٤٧
(٢) جـ ٧ ص ١٩٠
(٣) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٩٧
(٤) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٣٣
(٥) جـ ٨ ص ٣٧.

ولا شك أن البيزنطيين وقفوا على مبلغ الضعف الذى حل بالدولة العباسية فى عهد المقتدر ، الذى عجز عن إمداد الثغور بالرجال والعتاد ، حتى إن الامبراطور قسطنطين السابع (٢٩٩ — ٣٤٨ هـ = ٩١١ — ٩٥٩م) أرسل إلى أهل الثغور يرسم لهم أداء الخراج إليه ويقول : إن فعلتم ذلك طائعين وإلا قصدتكم ، فقد صح عندى ضعفكم » . (١) وكان من أثر ذلك أن دخل الروم ملطية بعد أن فر أهلها إلى بغداد واستغاثوا بالخليفة (سنة ٣١٣ هـ) .

ولم تكن حالة الدولة العباسية فى عهد إمرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤ هـ) أقل سوءاً واضطرابا بسبب تنافس الأمراء على السلطة والنفوذ . وقد أدرك البيزنطيون هذا الضعف ، فطمعوا فى الإغارة على بلاد الدولة العباسية المجاورة لهم . ففى سنة ٣٣٠ هـ أوغل البيزنطيون فى هذه البلاد حتى وصلوا إلى حلب وعاثوا فيها . وقابل المسلمون فى طرسوس هذا العمل بإغارتهم على أراضى البيزنطيين فى آسيا الصغرى وأسر كثير من قوادهم (٢) . وقد وصلت جيوش الروم فى السنة التالية إلى أرزن وميافارقين ونصيبين ، فنهبوها وسبوا أهلها وبلغوا دارا بين نصيبين وماردين (٣) ، « وطلبوا منديلا فى كنيسة الرها يزعمون أن المسيح مسح به وجهه فارتسمت صورته فيه ، على ان يطلقوا جميع من سبوا ، فأرسل إليهم وأطلق الأسرى » (٤) كما استولى البيزنطيون فى السنة التالية على مدينة رأس عين ، « فأخذوا جميع ما كان فيها ونهبوها ، ووجدوا فيها قوافل مصعدة ومنحدرة ، فيها أمتعة لا يدرى قيمتها ، فأخذت كلها ، ونال المسلمين مالم ينلهم مثله قط : فلما أراد العدو الرحيل أحرق البلد (٥) » .

علاقة الإخشيديين بالبيزنطيين :

وكان لأمراء العباسيين فى مصر نصيب كبير فى العلاقات التى قامت بين العباسيين والبيزنطيين ؛ فقد كان أحمد بن طولون وابنه خمارويه من بعده شجى فى حلق هؤلاء البيزنطيين . ولم يكن محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) أقل خطرا على البيزنطيين من الطولونيين . نعم ! كان الإخشيد مصدر فزع للامبراطورية البيزنطية ، حتى إن الامبراطور رومانوس تودد إليه ومدحه وكاتبه دون الخليفة على غير ماجرت به العادة فى ذلك الوقت ، وأرسل إليه كتابا مع رسولين من قبله يطلب تبادل الأسرى ، فرد عليه الإخشيد بكتاب طويل يدل على ثقته بنفسه وإقراره بالتبعية للخليفة العباسى ، ثم ببسط اتساع رقعة البلاد التى تدين له بالطاعة . وهاك طرفا من هذا الكتاب الذى يعد بحق وثيقة تاريخية على جانب عظيم من الأهمية فى تاريخ العلاقات السياسية بين المسلمين والبيزنطيين ننقله عن القلقشندى (٦) :

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ١٤٦

(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٣٩

(٣) الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٣٢ — ٢٣٣

(٤) السيوطى : أخبار الخلفاء ص ٢٦٢

(٥) الصولى ص ٢٥١

(٦) صبح الأعشى فى صناعة الانشا جـ ٧ ص ١٠ — ١٨

« وكتب محمد بن طغج (صاحب الديار المصرية) وما معها من البلاد الشامية والأعمال الحجازية، إلى أرمانوس، ملك الروم: من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين، إلى أرمانوس عظيم الروم ومن يليه . . .

أما بعد، فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا وإسحق رسوليك؛ فوجدناه مفتتحا بذكر فضيلة الرحمة، وما نمى عنا إليك وصح من شيمنا فينا لديك، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة فى رعايانا، وما وصلتَ به من هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخليص الأسرى إلى [غير] ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه . . .

وإنك إنما خصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك؛ فان ذلك لو كان حقاً وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه، وكان لك فى ترك مكاتبتنا غُنم ورُشد، لكان من الأمر البين أنّ أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته، ولا يراه وصمة ولا نقيصة ولا عيباً، ولا يقع فى معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة. فان السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار، ويعرّض مهجته فيما ينفع رعيته. والذى تجشمته من مكاتبتنا، إن كان كما وصفته، فهو أمر سهل يسير لأمر عظيم خطير، وجُل نفعه وصلاحه وعائدته تخصّكم، لأن مذهبنا انتظار إحدى الحُسنيين؛ فمن كان منا فى أيديكم فهو على بينة من ربه وعزيمة صادقة من أمره وبصيرة فيما هو بسبيله، وإن فى الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه وحميد عاقبته، ويعلم أن الله تعالى قد أعاذه من أن يفتنه[1] ولم يعذه [2] من أن يبتليه. هذا إلى أوامر الإنجيل الذى هو إمامكم، وما توجبه عليكم عزائم سياستكم والتوصل إلى استنقاذ أُسرائكم. ولولا أن إيضاح القول فى الصواب أولى بنا من المسامحة فى الجواب، لأضربنا عن ذلك صفحاً، إذ رأينا أن نفس السبب الذى من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهم السلام مَن كاتبهم أو عدا عنهم إلى من حل محلنا فى دولتهم، بل إلى من نزل عن مرتبتنا، هو أنه لم يثق من منعه ورد مُلتمسه ممن جاوره، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله فى إجابتهم، ولا عار على أحد وإن جل قدره فى ردهم. ومن وثق فى نفسه ممن جاوره، وجد قصده أسهل السبيلين عليه وأدناهما إلى إرادته حسب ما تقدم. وكذلك كاتب من حل محلك مَنْ قصر عن محلنا ولم يقرب من منزلتنا. فما لكنا عدة، كان يتقلد فى سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن [3] . . .

وأما الفداء ورأيك فى تخليص الأسرى، فإنا وإن كنا واثقين لمن فى أيديكم بإحدى الحسنيين، وعلى بينة لهم من أمرهم، وثبات من حسن العاقبة وعظم المثوبة، عالمين بمالهم، فان فيهم من يؤثر

---

(١) يعنى يبتليه بأمور على سبيل المحنة والتمحيص (٢) يحفظه

(٣) ورد فى هذا الكتاب أن سلطان الاخشيد شمل ما كان يسمى قديما ملك مصر، وممالك اليمن، وأجناد الشام التى منها جند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين، وما يتقلده من أمر مكة والمدينة، وأن سياسته لهذه البلاد كانت ترمى إلى تأليف قلوب الرعية وجمعهم على الطاعة وإقرار الأمن والدعة فى المعيشة وكسبها المودة والمحبة — صبح الأعشى ج ٧ ص ١٣ — ١٤ .

مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا ولذتها ، سكونا إلى ما يتحققه من حسن المنقلب وجزيل الثواب ، ويعلم أن الله قد أعاذه من أن يفتنه ولم يعذه من أن يبتليه . وقد تبينا مع ذلك فى هذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضون والسلف الصالحون ، فوجدنا ذلك موافقاً لما التمسته وغير خارج عما أحببته ؛ فسررنا بما تيسر منه ، وبعثنا الكتب والرسل إلى عمالنا فى سائر أعمالنا ، وعزمنا عليهم فى جمع كل من قبلهم وأتباعهم بما وفر الإيمان فى إنفاذهم ، وبذلنا فى ذلك كل ممكن ، وأخرجنا إجابتك عن كتابك ليتقدم فعلنا قولنا ، وإنجازنا وعدنا ، ويوشك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وقع أحسن الموقع منك إن شاء الله . .

والحمد لله أحق ما ابتُدىء به وخُتم بذكره ، وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلم تسليما » .

(ج) صلة المطيع الى القائم (٣٣٤ - ٤٢٢ هـ) :

وكذلك كانت بلاد الحمدانيين مسرحا للنزاع بين البيزنطيين والمسلمين . فقد امتاز عهد سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيين ، حتى قيل إنه غزا بلادهم أربعين غزوة ، انتصر فى بعضها وهزم فى بعض آخر(١) . ففى سنة ٣٣٩ هـ غزا سيف الدولة بلاد الروم وبلغ قيسارية ، ثم يمم شطر سَمَنْدو فى أواسط آسيا الصغرى ، فهرب الدمستق فقال المتنبى :

رضينا والدمستق(٢) غير راض ... بما حكم القواضب والوشيج(٣)
فان يُقْدِم فقد زرنا سمندو ... وإن يُحجم فموعدنا الخليج(٤)

قصد سيف الدولة بعد ذلك مدينة صارخة على مسيرة سبعة أيام من القسطنطينية ، وأوقع بجيش الدمستق ، وأقام المنابر وخُطب له فيها . وكانت غزوة صارخة من أشهر الغزوات التى انعقد فيها لواء النصر لسيف الدولة على الروم ؛ وفيها يقول أبو المحاسن(٥) : « فلما نزل عليها واقع الدمستق مقدمته فظهرت عليه ، فلجأ إلى الحصن ، وخاف على نفسه ، ثم جمع والتقى بسيف الدولة ، فهزمه الله أقبح هزيمة ، وأسرت بطارقتـــه . وكانت غزوة مشهورة ، وغنم المسلمون ما لا يوصف ، وبقوا فى الغزو أشهرا » .

ويقول المتنبى :

مُخَيَّلى له المرج منصوبا بصارخة ... له المنابر مشهوداً بها الجُمع

وفى سنة ٣٤٢ هـ عادت الحرب بين سيف الدولة وبين الروم سيرتها الأولى ، وأسر قسطنطين

---

(١) أنظر هذا الكتاب ص ٢١١ — ٢١٢ ، ٢١٧ .
(٢) الدمستق اسم لملك الروم
(٣) الوشيج شجر الرماح أى بما حكمت به الرماح
(٤) يقصد خليج القسطنطينية
(٥) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٠٣

ابن الدمستق الذى ساقه سيف الدولة إلى حلب حيث بقى عنده حتى مات[١]. وقد قابل الروم هذا العمل بغزو البلاد الإسلامية حتى بلغوا طرسوس فى سنة ٣٤٨ هـ، وخربوا حصن الهارونية الذى بناه هارون الرشيد على مقربة من مرعش، ثم توجهوا إلى ديار بكر ووصلوا إلى ميافارقين، وعاثوا فى بلاد الحمدانيين والعباسيين، وأوقعوا الفزع فى قلوب الأهلين، حتى إن الخطيب عبد الرحيم بن نباتة أنشأ هذا النوع من الخطب التى أُطلق عليها الخطب الجهادية لإثارة حماس المسلمين وحثهم على الجهاد[٢].

ولم تكن الدولة العباسية فى عهد بنى بويه أحسن حالا منها فى عهد نفوذ الأتراك وعهد إمرة الأمراء. فقد استبدوا بالسلطة دون الخلفاء، وقامت المنافسة بين أفراد البيت البويهى، مما أطمع البيزنطيين فى الدولة العباسية. ويحدثنا مسكويه[٣] أن القائد نقفور فوكاس Nicephorus Phocas استولى على جزيرة كريت سنة ٣٥٠ هـ، وبعد ذلك بقليل، انتصر على سيف الدولة الحمدانى، ثم استولى فى السنة التالية على كثير من مدائن الأناضول مثل مرعش ودبيق. وبالقرب من منبج أسر أمير هذه المدينة أبو فراس الحمدانى الشاعر المشهور. ثم استولى نقفور على مدينة حلب حاضرة الحمدانيين بعد حصار شاق[٤]. وقد قيل إن جيش الروم بلغ مائتى ألف مقاتل. ويقول أبو المحاسن[٥]: «عاد الدمستق إلى حلب، فخرج إليه سيف الدولة بغير استعداد وحاربه، فحاربه الدمستق بمائتى ألف مقاتل، فانهزم سيف الدولة فى نفريسير. وكانت داره بظاهر حلب، فنزلها الدمستق وأخذ منها ثلثمائة وتسعين بدرة دراهم، وأخذ منها ألفا وأربعمائة بغل، ومن السلاح ما لا يحصى. ثم نهبها الدمستق وأحرقها ثم أحرق بلاد حلب. وقاتله أهل حلب من وراء السور فقتلوا جماعة من الروم، فسقطت قائمة من السور على جماعة من أهل حلب فقتلتهم، فأكب الروم على تلك الثلمة وقاتلوا حتى ملكوا حلب ووضعوا فيها السيف حتى كلوا وملوا، وأخربوا الجامع وأحرقوا ما عجزوا عن حمله. ولم ينج إلا من صعد القلعة، فألح ابن أخت الملك فى أخذ القلعة فقتل بحجر. وكان عند الدمستق ألف ومائتا أسير من أهل حلب فضرب أعناقهم. ثم عاد إلى الروم ولم يعرض لأهل القرى وقال لهم: ازرعوا فهذا بلدنا، وعن قليل نعود اليكم».

وكان لسقوط حلب فى يد الروم أثر بالغ فى نفوس المسلمين عامة وفى نفوس أهل بغداد خاصة، حتى إنهم اجتمعوا وبخوا الخليفة المطيع لله بكائنة حلب، وطلبوا منه أن يخرج بنفسه إلى الغزو ويأخذ بثأر أهل حلب»[٦].

وبعد موت رومانوس Romanus رابع أباطرة الدولة البيزنطية من سلالة باسيل فى شهر صفر

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣١٩
(٢) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٣٢٢
(٣) تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٩٢، ٢٢٠
(٤) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٩٥، ١٩٨
(٥) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٣٢
(٦) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٣٣٥

سنة ٣٥٢ هـ (مارس ٩٦٣ م) ، تزوجت أرملته تيوفونيا Theophonia من نقفور فوكاس[١] (٩٦٣ — ٩٦٩م) ثم من قاتله جون زيمسكيس John Tzmisces [٢] (٩٦٩ — ٩٧٦م) بطلى ذلك العصر، واليهما آلت الوصاية على أولادها الصغار . وامتدت غزوات هذين الامبراطورين من تلال كبادوكيا Cappadocia إلى صحراء بغداد . والاثنتا عشرة سنة التى تولى فيها هذان الرجلان قيادة الجيوش البيزنطية تعتبر بحق من أبهى عصور الإمبراطورية البيزنطية وأزهاها [٣] .

وفى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٤ م) تقدم البيزنطيون إلى حدود سورية ، ووقعت فى أيديهم مدينتا المصيصة وطرسوس (سنة ٣٥٥ هـ) بعد أن نال منهما القحط والموت حتى إنهما لم تقويا على مواصلة الدفاع . « ولم يبلغ قط إخضاع العرب وإذلالهم فى وقت من الأوقات مثلما بلغه فى عهد نقفور فوكاس. فقد انتزعت من أيديهم كيليكيا التى تقع شمالى زاوية خليج إسكندرونة ، وتعرف عند العرب بقاليقلا، كما انتزع جزء من بلاد سورية ، واعترف قسم كبير من بلاد الدولة العباسية بالتبعية للامبراطورية البيزنطية [٤] » .

والواقع أن هذا الانتصار يرجع إلى كثرة الفتن والاضطرابات فى بلاد الشام . فان الفاطميين استولوا على دمشق على أثر فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ، وقامت الحرب بسبب ذلك بينهم وبين القرامطة بمساعدة البويهيين . ثم تجدد النزاع بين الفاطميين فى عهد العزيز من جهة وبين القرامطة وأفتكين التركى من جهة أخرى ، فاتخذ البيزنطيون من هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن غاراتهم على هذه البلاد .

وكان عبور الفرات فى الجهات الواقعة جنوبى جبال طوروس مستحيلا على الإغريق منذ أيام هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) . ولكن زيمسكيس استطاع أن يكتسح كثيرا من المدن العريقة فى الشهرة ، مثل الرها وديار بكر وميافارقين ونصيبين الواقعة عند حد الإمبراطورية القديم على مقربة من نهر

---

(١) يقول أبو المحاسن (ج ٤ ص ٥٦ — ٥٧) إن نقفور « لم يكن أصله من أولاد ملوك الروم ، بل قيل إنه كان ولد رجل من أهل طرسوس يعرف بابن الفقاس ، فتنصر وغلب على الملك . وكان شجاعا مدبرا كسيوسا لم ير مثله من عهد اسكندر ذى القرنين . وهو الذى افتتح حلب وأخذها من سيف الدولة بن حمدان ؛ ولم يأخذ حلب أحد قبله من ملوك الروم ، فعظم بذلك فى أعين ملوك الروم وملكوه عليهم إلى أن قتل » .

ويقول أبو المحاسن (ج ٤ ص ٥٥) أيضا إن نقفور « قد طغى وتجبر وقهر العباد وملك البلاد ، وعظمت هيبته فى قلوب الناس ، واشتغل عنه الملوك بأضدادهم ، فاستغل أمر نقفور بذلك . ثم تزوج نقفور المذكور بامرأة الملك الذى كان قبله على كره منها ؛ وكان لها ولدان ، فأراد نقفور أن يخصيهما ويهديهما للبيعة ليستريح منهما لئلا يملكا الروم فى أيامه أو بعده . فعلمت زوجته أمهما بذلك ، فأرسلت إلى الدمستق ليأتى إليها فى زى النساء ومعه جماعة فى زى النساء ، فجاءوا وباتوا عندها ليلة الميلاد ، فوثبوا عليه وقتلوه ، وأجلس فى الملك بعده ولده الأكبر ، وتم لها ماأرادت » .

(٢) ويسميه مؤرخو العرب ابن الشمشقيق .

(٣) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٠٠

(٤) Vasil' Ev. : Cambridge Mediaeval History , vol. IV. p. 145
Ibid, pp. 146 - 7

دجلة . ولا غرو فقد كان زيمسكيس يفكر فى إثارة حرب صليبية لانتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين ؛ فسار نحو الرها ، ثم عاد إلى بعلبك ، واضطرت دمشق إلى التسليم ودفع الجزية له . كما سلمت إليه طبرية وقيسارية ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الاستيلاء على بيت المقدس ، لولا أنه وجد أن قواته لا تكفى لتحقيق هذا الغرض ، فسار نحو الشمال ، واستولى على المدن الساحلية مثل بيروت وصيدا وجبيل . ولكن الهزيمة حلت بجنده فى طرابلس ، ثم عادت الجيوش البيزنطية إلى أنطاكية ، وعاد الإمبراطور نفسه إلى حاضرة ملكه حيث مات فى ١٠ يناير سنة ٩٧٦ م (٣٦٦ هـ)(١).

وقد تفاقم رعب الناس بما أذاعه الغالة عن زيمسكيس وما كان يصحب ذكر اسمه من خوف وهلع ، حتى إن الخليفة المطيع العباسى لم يتمالك أن أعلن أن أسلحته وموارد دولته قد انتزعت من يده ، وأنه لم يعد قادرا على الدفاع عن بغداد . ويقول مسكويه (٢) : إن المطيع أجاب بختيار حين طلب منه المال لمحاربة الروم فى هذه العبارة : « إن الغزو يلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى وإلىّ تدبير الأموال والرجال . وأما الآن ، وليس لى منها إلا القوت القاصر عن كفائى ، وهى فى أيديكم وأيدى أصحاب الأطراف ، فما يلزمنى غزو ولا حج ولا شىء مما تنظر الأئمة فيه . وإنما لكم منى هذا الاسم الذى يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم . فان أحببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضا وتركتكم والأمر كله ، وترددت المخاطبات فى ذلك والمراسلات حتى خرجت إلى طرف من أطراف الوعيد ، واضطر إلى التزام أربعمائة ألف درهم باع بها ثيابه وبعض أنقاض داره . وشاع الخبر ببغداد بين الخاص والعام وعند من ورد من حاج خراسان وغيرهم من الواردين على الأقطار أن الخليفة صودر وكثرت الشناعات » .

على أن مخاوف أهل بغداد قد تبددت بانسحاب البيزنطيين الذين لم يقووا على تحمل العطش والجوع فى حربهم فى الصحراء . وتبع ذلك قيام ورد بن منير السقلاروس Bardas Sclerus فى الجهات الشرقية للامبراطورية البيزنطية ابتغاء الجلوس على العرش ومسيره بعد إخفاقه إلى بغداد طالبا النجدة من الخليفة العباسى الذى رحب به ، وما تبع ذلك من توافد رسل الإمبراطور باسيل الثانى يطلبون تسليم برداس سكليروس . ويقول مسكويه (٣) :

« وكان ورد بن منير (السقلاروس) كبيرا من كبراء أصحاب الجيوش ومقيما فى بعض الأعمال ، فطمع فى الأمر ، وجمع الجموع واستجاش بالمسلمين من الثغور ، وكاتب أبا تغلب بن حمدان وواصله وصاهره . وأخرج الملكان إليه عسكرا بعد عسكر فكسرهم واستظهر ، وسار إلى القسطنطينية ودهم الملكين ما ضاقا به ذرعا ، فأطلقا ورديس بن لاون واصطنعاه واستحلفاه على المناصحة ، وأنفذاه

---

(١) Ibid., p. 148. ، ومسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٣٠٣ — ٣٠٤ ، وابن الأثير جـ ٨ ص ٢٢٢

(٢) تجارب الأمم جـ ٢ ص ٣٠٧ — ٣٠٨

(٣) المصدر نفسه جـ ٣ ص ١٣ — ١٤

للقاء ورد فى الجيوش الكثيرة وجرت بينهما وقائع أبلى كل واحد منهما بلاء ظاهرا ، حتى تبارزا وتضاربا باللتوت[١] إلى أن وقعت خوذهما عن رؤوسهما » .

ثم انهزم « ورد » ودخل إلى بلاد الإسلام مفلولا ، وحصل بظاهر ميافارقين على نحو فرسخ منها (وأبو على الحسن بن على التميمى الحاجب إذ ذاك بها) ، وراسل عضد الدولة وأنفذ أخاه إليه ، فأحسن تقبّله ووثق إليه بخطه وأعاده عليه بوعد جميل فى إنجاده .

وتلاه رسول ملك الروم يلاطف عضد الدولة فى أمره ، فقوى فى نفسه ترجيح جانب ملك الروم على ورد ، وبدا له رأى فى تدبير القبض عليه ، فكاتب أبا على التميمى بالتوصل إلى تحصيله ، فخرج أبو على إليه بعد مراسلة ترددت بينهما فى الاجتماع ، وقبض عليه وعلى ولده وأخيه وجماعة من أصحابه ، وحملهم إلى ميافارقين ، ثم أنفذه إلى مدينة السلام » .

وكان لإغارة الفاطميين على حلب فى سنة ٩٩٤ — ٩٩٥ م (٣٨٤ هـ) أثره فى علاقة البيزنطيين بالمسلمين . فقد طلب الحمدانيون النجدة من الإمبراطور باسيل الثانى ، الذى رحب بهذا الطلب على الرغم من اشتغاله بحرب البلغار الذين عرضوا إمبراطوريته للخطر ، وقرر الذهاب بنفسه إلى المشرق ، ولا سيما أن أنطاكية قد تعرضت لحصار الفاطميين ولهذا استطاع هذا الإمبراطور أن يخلص مدينة حلب حاضرة الحمدانيين ، كما استولى على حمص ، ولكنه اضطر بسبب عدم إحرازه النصر أمام أسوار طرابلس ، إلى العودة إلى بلاده لمحاربة البلغار . ولم تلبث الهزيمة أن حلت بجيوش البيزنطيين على مقربة من فامية[٢] . ومن ثم نجد باسيل الثانى يظهر فى ميدان القتال فى سورية من جديد (سنة ٣٩٠ هـ = ٩٩٩ م) فى شيزر وحمص ، ولكن الهزيمة حلت به فى طرابلس ثانية واضطر إلى العودة إلى القسطنطينية فى سنة ٣٩٢ هـ [٣] .

علاقة الفاطميين بالبيزنطيين :

أما علاقة الفاطميين بالدولة البيزنطية فان الخليفة العزيز أرسل فى سنة ٣٧٧ هـ حملة بحرية لغزو بلاد الروم ؛ غير أن هذه الحملة لم تحقق الغرض الذى أرسلت من أجله لاحتراق مراكبها . ثم قدم إلى مصر رسل إمبراطور الروم يحملون الهدايا إلى العزيز وطلبوا منه عقد الصلح ، فأجابهم إلى طلبهم واشترط عليهم عدة شروط أهمها :

١ — إطلاق سراح أسرى المسلمين فى بلادهم .

٢ — الدعاء للخليفة الفاطمى بجامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة .

٣ — حمل ما يطلبه الخليفة من أمتعة الروم .

---

(١) من اللت وهو الدق والشد والسحق (٢) مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص ويقال لها أفامية

(٣) Vasil' Ev .: Cambridge Mediaeval History , Vol. Iv. pp. 147–8

انظر هذا الكتاب ص ٢١٧

٤ — عقد الهدنة بين الفريقين سبع سنين[١] .

وقد علق ستانلي ليبول[٢] على هذا الصلح بقوله : « ويظهر أن العلاقات السياسية بين البيزنطيين والفاطميين كانت على شيء من الصفاء فى أواخر خلافة العزيز بالله الفاطمى » ، ودلل على هذا القول بأن إمبراطور الروم أهدى إلى العزيز هدية فيها ثمان وعشرون صينية من الفضـــة وأطباق محلاة بالذهب .

وكانت بلاد الشام التى كانت تابعة للفاطميين إذ ذاك مركزا للصراع بين هؤلاء وبين البيزنطيين ، فقد عمل الحاكم على منع البيزنطيين من التقدم جنوبا فى هذه البلاد ، وأعد لذلك حملتين انتصرت إحداهما على البيزنطيين بحرا بالقرب من طبرية ، وانتصرت الأخرى برا بالقرب من فامية .

ولما علم إمبراطور الروم بما حل بجيشه من الهزيمة أرسل رسولا من قبله لمفاوضة الخليفة الفاطمى فى الصلح ، فأعد الحاكم العدة لاستقبال هذا الرسول ، فأمر بتزيين القصر وتم الاتفاق بينهما على عقد صلح يقضى بوقف الحرب بين الفريقين عشر سنين [٣].

ولما ولى الخليفة الظاهر الفاطمى الخلافة عمل على استمرار العلاقات الودية مع البيزنطيين. ففى سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧م) عقدت الهدنة مع الإمبراطور قسطنطين الثامن ، وتقضى باقامة الخطبة للخليفة الفاطمى فى مساجد بلاد الروم ، وإعادة بناء جامع القسطنطينية مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس التى كان الحاكم قدمها ، وترك الحرية للمسلمين الذين تحولوا إلى الإسلام فى عهد الحاكم بالعودة إلى دينهم القديم [٤].

وقد رمى البيزنطيون من وراء بناء مسجد للمسلمين فى القسطنطينية إلى استغلال هذا المظهر الإسلامى فى علاقاتهم بالدول الإسلامية ، فيخطبون للفاطميين تارة ، وللعباسيين تارة أخرى ، ويهدمون هذا المسجد تارة ويعيدون بناءه تارة أخرى ، تبعا للظروف والأحوال التى تلائم مصلحتهم ، ويهددون بذلك المسلمين إذا تعرضوا لكنيسة القيامة ببيت المقدس .

ولكن على الرغم من عقد هذه الهدنة التى قامت على أساس حسن التفاهم بين الدولتين ، نجد الفاطميين ينقضونها ، وينضمون إلى أعداء الفاطميين ، ويغيرون على بلاد الشام . ويقول أبو الفدا [٥] « فى سنة ٤٢٢ هـ سارت الروم ومعهم حسان بن مفرج الطائى ، وهو مسلم ، وكان قد هرب إليهم حين انهزم على الأردن من عسكر الظاهر العلوى ، فسار مع الروم إلى الشام وعلى رأس حسان المذكور علم فيه صليب ، ووصلوا الى فامية فكبسوها وغنموا ما فيها وملكوا قلعتها ، وأسروا وسبوا » .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥١ — ١٥٢

(٢) Stanley Lane— Poole: History of Egypt in the Middle Ages ,pp. 147—8

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٢ ، Stanley Lane— Poole: History of Egypt in the Middle Ages , p. 136

(٤) المقريزى: خطط ج ١ ص ٣٥٥ (٥) المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٥٨ .

وكانت العلاقة بين الدولة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية فى أوائل عهد المستنصر على شىء من الصفاء؛ ففى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) تم الاتفاق بين الخليفة المستنصر والإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ — ١٠٤١م) على أن يطلق الروم « خمسة آلاف أسير ليمكن من عمارة قمامة التى كان قد خربها الحاكم فى أيام خلافته ؛ فأطلق الأسرى ، وأرسل من عمّر قمامة وأخرج ملك الروم عليها أموالا جليلة»[1] . كما تم الاتفاق بين المستنصر والإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢ — ١٠٥٤م) فى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤م) الذى تعهد بأن يمده بالغلال والأقوات لمقاومة المجاعة التى حلت بمصر فى هذه السنة . غير أن هذا الإمبراطور توفى قبل تنفيذ هذا الإتفاق ، وخلفته الإمبراطورة تيودورا (١٠٥٤ — ١٠٥٦م) ، فاشترطت لمعونة مصر شروطاً أهمها أن يتعهد الخليفة الفاطمى بمساعدتها اذا اعتدى على بلادها ، فلم يوافق المستنصر على ذلك ، واشتبك الفريقان فى معارك برية كان النصر فيها حليف الفاطميين . ولكن أسطول البيزنطيين انتصر على الفاطميين فى مياه الشام وأسر كثيراً من قوادهم ، فرأى المستنصر وقف القتال وطلب المهادنة ، وأرسل فى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٧م) الى الإمبراطورة تيودورا القاضى أبا عبد الله القضاعى لتسوية الخلاف . بيد أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة . وهاك ما ذكره المقريزى [2] عن محاولة المستنصر التقرب إلى البيزنطيين : « بعث الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن علىّ إلى متملك الروم بقسطنطينية أن يحمل الغلال إلى مصر ، فأطلق أربعمائة ألف أردب وعزم على حملها إلى مصر ، فأدركه أجله ومات قبل ذلك ، فقام فى الملك بعده امرأة ، وكتبت إلى المستنصر تسأله أن يكون عونا لها ويمدها بعساكر مصر إذا ثار عليها أحد . فأبى أن يسعفها فى طلبها ، فجردت لذلك وعاقت الغلال عن المسير إلى مصر . فخنق المستنصر وجهز العساكر وعليها مكين الدولة الحسن بن ملهم ، وسارت إلى اللاذقية فحاربتها بسبب نقض الهدنة وإمساك الغلال عن الوصول إلى مصر ، وأمدها بالعساكر الكثيرة ، ونودى فى بلاد الشام بالغزو ؛ فنزل ابن ملهم قريباً من فامية وضايق أهلها ، وجال فى أعمال أنطاكية فسبى ونهب ، فأخرج صاحب قسطنطينية ثمانين قطعة فى البحر ، فحاربها ابن ملهم عدة مرار ، وكانت عليه وأُسر هو وجماعة كثيرة فى شهر ربيع الأول منها » .

وبعد ذلك بقليل تفاقم خطر السلاجقة وهددوا أملاك الدولة البيزنطية من جهة أرمينية وعاثوا فى شرق آسيا الصغرى ، كما هددوا أملاك الفاطميين فى بلاد الشام وعملوا على القضاء عليهم نهائيا . كما عمل كل من الفاطميين والسلاجقة على التقرب من البيزنطيين . ومما أورده ابن ميسر فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ عن رسالة القضاعى ، نستطيع أن نقف على مدى الصراع الذى قام بين الفاطميين والسلاجقة وانحياز البيزنطيين إلى الأخيرين . يقول ابن ميسر [3] : « وفيها سير المستنصر فقبض على جميع ما فى كنيسة القمامة . وسبب ذلك أن أبا عبد الله القضاعى كان قد توجه برسالة من مصر إلى قسطنطينية

---

(١) أبو الفدا ج ٢ ص ٦٢ (٢) خطط ج ١ ص ٣٣٩

(٣) أخبار مصر ص ٦ وما يليها .

فقدم إليها رسول طغرلبك يلتمس من ملكها أن يصلى رسوله فى جامع قسطنطينية . فأذنت له بذلك ، فدخل وصلى بجامعها ، وخطب للخليفة القائم العباسى (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) ، فبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر ، فأخذ ما كان بقيامة . وكان هذا من الأسباب الموجبة للفساد بين المصريين والروم » .

ولا غرو فقد كان السلاجقة يومئذ أشد خطرا على البيزنطيين من الفاطميين ، الذين ضاعت أملاكهم فى المغرب وأصبحوا يعانون من الفتن والشدائد وندرة الأقوات ماجعلهم عاجزين عن مواصلة الغزو والفتح فى بلاد الدولة البيزنطية . وكانت الخلافة العباسية فى عهد القائم تسعى إلى القضاء على الفاطميين، حتى إنها أرسلت فى سنة ٤٤٣ هـ رسولا إلى المعز بن باديس فى شمال إفريقية يحمل إليه الخلع والعهد من قبل الخليفة العباسى ، فوقع هذا الرسول « فى أيدى الروم فحملوه إلى قسطنطينية ، وحمله هذا إلى المستنصر ، وشرط ألا يؤذيه ، فشهره المستنصر بمصر على جمل ورده إلى الملك ، فلامه الملك قسطنطين ، واعتذر إلى القائم والمعز ورده إلى بغداد[1] » .

وبعد ذلك بقليل نرى العباسيين يضاعفون جهودهم للقضاء على الفاطميين ، فيحثون البيزنطيين على انتزاع بلاد الشام منهم . وفى ذلك يقول المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى[2] : « ورد من حيز الروم نسخة كتابها (بغداد) إليها وتحملها على التجرد معها لأخذ المملكة العلوية لأولئك الأنجاس الأقذار ، فيجعلون الشام من نصيب إخوانهم شياطين الروم الكفار » .

وكان من أثر انحياز البيزنطيين إلى جانب السلاجقة أن فسدت العلاقات بينهم وبين الفاطميين منذ ذلك الحين حتى قامت الحروب الصليبية . ويقول المقريزى[3] : « وفسدت من حينئذ ما بين الروم والمصريين حتى استولوا على بلاد الساحل كلها وحاصروا القاهرة » .

علاقة الأمويين فى الأندلس بالبيزنطيين :

رأينا من قبل أن العباسيين عملوا فى العصر العباسى الأول على مناوأة أعدائهم البيزنطيين والأمويين فى الأندلس ، فتقربوا إلى أعدائهم الفرنجة . وخطب شرلمان ود هارون الرشيد فأرسل إليه وفداً لتسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس ونشر التجارة بين البلدين وارتشاف العلوم من مواردها فى الشرق . وقد رحب الرشيد بهذه الوفود وأرسل مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرلمان الذى أصبح حامى المسيحية ، وتبودلت الهدايا بينهما[4] .

بيد أنه فى العصر العباسى الثانى ، نرى البيزنطيين يعملون على محالفة الأمويين فى الأندلس الذين اتسع نفوذهم وازداد خطرهم فى عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) للوقوف فى وجه العباسيين أعداء البيزنطيين والأمويين جميعاً . ولذلك عمل الإمبراطور قسطنطين پورفيروجنيتس

---

(١) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ج ٢٠ ورقة ٨٥ .

(٢) السيرة المؤيدية : مخطوط بجامعة فؤاد الأول ورقة ١٤١

(٣) خطط ج ١ ص ٣٣٥ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ج ٢ ص ١٨٣ — ١٨٤

Constantine VII Porphryogenitsus (٩١١ — ٩٥٩ م) على التحالف مع الناصر ، وأوفد فى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ — ٩٤٨ م) إلى البلاط الأموى بالأندلس سفارة تحمل كتابا من الإمبراطور داخل صندوق من الفضة مغطى بالذهب وصفه المقرى [١] فى هذه العبارة فقال : إنه كان فى « رق مصبوغ لونا سماويا مكتوباً بالذهب بالخط الإغريقى ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقى أيضا فيها وصف هديته التى أرسل بها وعددها . وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد منه صورة المسيح ، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع . وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج . وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه قسطنطين (٩١١ — ٩٥٩م) ورومانين (٩١٩ — ٩٤٤م) [٢] المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم ، وفى سطر آخر العظيم الاستحاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة ، الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه » .

وقد اهتم عبد الرحمن الناصر باستقبال هذا الوفد استقبالا عظيما . وكان يرمى من وراء ذلك « أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه وتصف مانهيأ من توطيد الخلافة فى دولته » [٣] . وقد وصف ابن خلدون [٤] هذا الاحتفال فى هذه العبارة فقال : « واحتفل الناصر للقائهم فى يوم مشهود ، وركبت فيه العساكر بالسلاح فى أكمل هيئة وزى ، وزين القصر الخلافى بأنواع الزينة وأصناف الستور . وجعل السرير الخلافى بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة ، ورتب الوزراء والخدمة فى مواقفهم ، ودخل الرسل فهالهم ما رأوا وقربوا حتى أدوا رسالتهم [٥] . وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا فى ذلك المحفل ويعظموا أمر الإسلام والخلافة ، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزازه وذلة عدوه . فاستعدوا لذلك ، ثم بهرهم هول المجلس ، فوجموا وشرعوا فى القول ، فأرتج عليهم . وكان فيهم أبو على القالى وافد العراق ، كان فى جملة الحكم ولى العهد ، وندبه لذلك استئثاراً ، فعجز . فلما وجموا كلهم ، قام منذر بن سعيد البلوطى من غير استعداد ولا روية ، ولا تقدم له أحد فى ذلك بشىء ، فخطب واسيحفر [٦] وجلّى [٧] فى ذلك القصد ، وأنشد آخره شعراً طويلا ارتجله فى ذلك الغرض ، ففاز بفخر ذلك المجلس ، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع ، وأعجب الناصر به وولاه القضاء بعدها ... ثم انصرف هؤلاء الرسل ، وبعث الناصر

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٧٣

(٢) اغتصب العرش وأشرك معه ولديه اتيين وقسطنطين السابع
Charles Bémout et Gabriel Monod : Histoire de l' Europe au Moyen Age(Paris, 1921), p 273.

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٧٣ (٤) العبر ج ٤ ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٥) أنظر وصف الاحتفال فى ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٦) بمعنى اتسع فى الكلام (٧) بمعنى برز وسبق غيره فى الميدان ، والمجلى الأول من خيل السباق .

معهم هشام بن هذيل(١) ليجدد الهدنة (٢) ويؤكد المودة ويحسن الإجابة ؛ ورجع بعد سنتين ، وقد أحكم من ذلك ماشاء وجاءت معه رسل قسطنطين » .

ولم تقف علاقة المودة بين الأمويين فى الأندلس والبيزنطيين عند هذا الحد . فقد أمر الإمبراطور قسطنطين السابع بعمل قبلة للمسجد الجامع بقرطبة صنعت من الفسيفساء المذهب والملون . وقد وصفها الإدريسى الذى شاهدها بقوله: « قبلة يعجز الواصفين وصفها ، وفيها إتقان يبهر العقول تنسيقها » . كما أهدى إليه كثيرا من الأعمدة التى استعملت فى بناء مدينة الزهراء ، وأرسل إليه الراهب نيقولا Nicholas لترجمة الكتاب الطبى الذى كان قد أهداه إليه من اليونانية إلى اللاتينية ، على أن يتولى ابن شبروط ترجمته إلى العربية .

٢ — مع صقلية :

وكانت جزيرة صقلية مركزاً للصراع بين المسلمين والروم . فى عهد الخليفة المعتمد العباسى قامت الحرب فى هذه الجزيرة سنة ٢٦٨ هـ بين الروم فى عهد الإمبراطور باسيل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦ م) وبين المسلمين الذين حلت بهم الهزيمة أول الأمر ، ولكنهم لم يلبثوا أن انتصروا على أعدائهم(٣) ، وأرغموهم على طلب الهدنة فى سنة ٢٧١ هـ (٤) .

ولما علم أهل هذه الجزيرة بتغلب أبى عبد الله الشيعى على إفريقية ، ثاروا على واليهم من قبل الأغالبة وحبسوه وولوا على بن أبى الفوارس ، وكتبوا بذلك إلى أبى عبد الله فأقرهم على عملهم . ثم ولى عبيد الله المهدى الفاطمى ، على بن عمر البلوى هذه الجزيرة ، وحاول الخلفاء العباسيون ، على غير جدوى ، إعادتها إلى نفوذهم . ولم تكن الحالة فى صقلية مستقرة تمام الاستقرار بسبب قيام الحروب بين المسلمين والروم من كل ناحية ، وبين بعض المسلمين وبعض من ناحية أخرى ، حتى إنهم كانوا يعزلون ولاتهم ويقيمون غيرهم دون أن يرجعوا إلى الخليفة الفاطمى .

أما من الناحية السياسية فقد حرصت الدولة الفاطمية على الاحتفاظ بنفوذها فى صقلية لأسباب سياسية واقتصادية . فقد كانت هذه الدولة ترمى إلى إنشاء إمبراطورية عظيمة فى البحر الأبيض المتوسط واتخاذ صقلية قاعدة لأسطولها لتأمن شر غارات الروم على سواحل إفريقية ، وتحقق أطماعها فى مصر وبلاد المغرب . وأما من الناحية الاقتصادية فقد وجد الفاطميون فى صقلية أرضا مثمرة تمدهم بالتفاح والبندق والجوز والقسطل ، ويكثر بها الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها . فلما انقضت فتنة أبى يزيد محمد بن كيداد سنة ٣٣٦ هـ ، ولى الخليفة المنصور الفاطمى أبا الغنائم الحسن

---

(١) كان أحد وزراء الناصر ، وقد أوفده إلى قسطنطين يحمل إليه هدية من الخيول الأصيلة والأسلحة والملابس وغيرها .

(٢) ورد فى المقرى : بهدية حافلة بدل ليجدد الهدنة . وقد صححت بعض الألفاظ عن المقرى الذى يظهر أنه نقلها عن النسخة الأصلية من كتاب ابن خلدون .

(٣) ابن الأثير ج ٧ ص ١٣٢ — ١٣٣ (٤) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٥٠

ابن أبى الحسين بن على الكلبى [١] هذه الجزيرة ، فغزا بلاد قلورية Calabria جنوبى إيطاليا ، ثم تتابع ولاة الفاطميين عليها إلى أوائل القرن الخامس الهجرى ، حيث ظلوا فى نزاع متصل مع الروم الذين لم يبق بأيديهم سوى مدينة رامينا التى استولى عليها المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٥م) ، واضطر الإمبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩م) إلى عقد الصلح مع الخليفة الفاطمى بعد سنتين [٢].

وفى سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) استطاع الروم أن يطردوا المسلمين من قلورية ، فحاول المعز بن باديس أمير إفريقية من قبل الفاطميين استرداد هذه البلاد ، وأرسل أسطولا يتألف من أربعمائة سفينة ، لكنه غرق بالقرب من سواحل إفريقية [٣] .

ولما ولى أحمد المعروف بالأكحل أمور صقلية جمع أهلها وقال لهم : « أحب أن أفرغكم من الإفريقيين الذين شاركوكم فى بلادكم . والرأى إخراجهم ، فقالوا : قد صاهرناهم وصرنا شيئاً واحداً . ثم صرفهم وأرسل إلى الإفريقيين فقال لهم مثل ذلك ، فأجابوه إلى ما أراد ، فجمعهم حوله . فكان يحمى أملاكهم ويأخذ الخراج من أملاك أهل صقلية . فسار من أهل صقلية جماعة إلى المعز بن باديس وشكوا إليه ما حل بهم وقالوا : نحب أن نكون فى طاعتك وإلا سلمنا البلاد إلى الروم ، وذلك سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، فسير معهم ولده عبد الله فى عسكر ، فدخل المدينة وحصر الأكحل فى الخالصة [٤] » .

من ذلك نقف على مدى الانقسام الذى حل بالمسلمين فى هذه الجزيرة ، وكيف سهل ذلك على البيزنطيين التدخل فى شئونها فى عهد الإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ — ١٠٤١م) الذى أرسل إليها حملتين : الأولى سنة ٤٢٩ (١٠٣٧م) ، لكنها لم تلق شيئاً من النجاح ، والثانية فى السنة التالية حيث أرسل القائد الشاب جورج منياكس George Maniaces الذى استولى على مسينا ومعظم البلاد الواقعة على الساحل الشرقى من الجزيرة . ولما عاد هذا القائد إلى القسطنطينية استرد المسلمون كل ما أخذه البيزنطيون سوى سرجوسة ومسينا [٥] .

ولكن أحوال صقلية لم تلبث أن اضطربت ، وعاد جند المعز بن باديس إلى إفريقية ، واستبد بكثير من النواحى أمراء ثار عليهم أهل الجزيرة ، واستعان بعضهم بالفرنجة وسهلوا لهم الاستيلاء عليها . ولم يغن أسطول المعز بن باديس شيئاً فى احتفاظ الفاطميين بهذه الجزيرة ، وخلفه ابنه تميم ابن المعز بن باديس الذى أبطل ذكر الخليفة المستنصر الفاطمى من الخطبة سنة ٤٤٣ هـ ، ونشر الدعوة للخليفة القائم العباسى [٦] . ولم يحل ذلك الأسطول الذى أرسله تميم بن المعز بن باديس إلى صقلية دون وقوع الخلاف بين أهالى الجزيرة وبين أمير إفريقية ، واتخذ الروم ، الذين كانوا يعملون على

---

(١) ورد هذا الاسم فى ابن الأثير (ج ٨ ص ١٧٨) الحسن بن على بن الحسين الكلبى .
(٢) Cambridge Mediaeval History, vol. IV. p. 147.
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٠ (٤) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٤ وما يليها .
(٥) Cambridge Mediaeval History, vol. IV. p. 150.
(٦) انظر الباب الخامس من هذا الكتاب ص ٢٦٥ ، ٣٥٧ .

الاستيلاء على جميع مدن الجزيرة وثغورها من هذا الضعف فرصة ، فضيقوا الخناق على المسلمين وحاصروهم فى كل مكان حتى اضطروا إلى التسليم سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠م)، وامتلك رودجر النرمندى جميع أرجاء جزيرة صقلية .

٣ — مع الدول العربية فى أوربا :

استقرت أقدام العرب فى إسپانيا وفى صقلية وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط كما تقدم ، وكذلك حاولوا الاستقرار على سواحل البحر المتوسط فى إيطاليا وفرنسا ، واستطاعوا أن يؤسسوا إمارة مستقلة على سواحل إقليم بروڤانس Lower Provence ، وازدادت قوتهم بما كانت تصل إليهم من الإمدادات من بلاد الأندلس وإفريقية وجزيرة صقلية ، وتمكنوا بذلك من إقامة المعاقل والحصون فوق المرتفعات المشرفة على خليج غريمو جنوبى إقليم بروڤانس وفى غابة فراكسينت Fraxinet . ومن ثم أطلق على هذه الدولة العربية الدولة الفراكسينية . ولم يلبث هؤلاء العرب أن ألفوا سكنى الجبال والغابات والسير فى الأدغال والأحراج . ومما ساعد على ازدياد قوتهم قيام النزاع بين أمراء الإقطاع المجاورين الذين كانوا يطلبون منهم مساعدة بعضهم على بعض .

ولم يكتف هؤلاء العرب بما بلغوه من قوة وما حازوه من ثروة ، بل اعتبروا أنفسهم سادة هذه البلاد وأصحاب النفوذ المطلق فيها ، واستطاعوا فى خلال القرن العاشر الميلادى أن يهددوا تورينو ويخربوا بعض الأديرة وينتشروا فى نواحى مونت فرات وبيدمونت ويستقروا فى سهول نهر البو . ثم تقدموا فى سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٥ م) إلى حدود ليجوريا Liguria ودخلوا مدينة جنوة ، ووقعت فى أيديهم ممار جبال الألب الشاهقة ، وخاصة ممر سان برنار ، وفرضوا الضرائب على المسافرين .

ولم يقف نشاط العرب عند هذا الحد ، بل اجتازوا جبال الألب الشمالية ودخلوا سويسرا ، وامتد نفوذهم من شواطىء بحيرة كنستانس شمالا إلى جنوة ومرسيليا ونيس جنوبا ، وعملوا على نشر الإسلام فى هذه الجهات ، حتى إننا لا نزال نرى اسم الحى العربى Canton de Sarazins فى أحد أحياء مدينة نيس .

على أن نفوذ هؤلاء العرب لم يلبث أن أخذ فى الضعف حول منتصف القرن الرابع الهجرى ، بعد أن دانت هذه البلاد لسلطانهم زهاء سبعين سنة (١) .

وقد عمل ملك بروڤانس على طرد عرب الفراكسينت من بلاده ، فاستعان بأوتو الأكبر

---

(١) وكان أهم هذه الحصون الحصن المسمى Fraxinatum بقرية جارد فرينيه Garde - Frainet الى تقع الآن فى سفح الجبل من الناحية الشرقية بمقاطعة بروڤانس جنوبى فرنسا (انظر شكيب ارسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٦٢ ، ١٦٤) . ويسمى الاصطخرى هذا الموقع جبل القلال . وقد وصفه فى هذه العبارة فقال : « وأما جبل القلال فإنه كان جبلا خرابا وفيه ماء وأرض ، فوقع اليه قوم من المسلمين فعمروه وثاروا فى وجوه الافرنجة لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ، ومقداره فى الطول يومان » .

شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٦٤ — ١٦٥ ، ١٦٦ — ١٧٠

Otto the Great (٩٣٦ — ٩٧٣ م)، إمبراطور ألمانيا الذى أصبح فى سنة ٩٦٢ م إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة، على الحد من نفوذ عرب مملكة الفراكسينت بامبراطور الدولة البيزنطية الذى أمده بأسطول، وكاد يقضى على نفوذ العرب فى بلاده لولا أن ثار عليه أحد خصومه فى إيطاليا، وخشى أن يصل إليه عدوه عن طريق ممار الألب التى كانت فى حوزة العرب. ولذلك هادن هؤلاء العرب على أن يسدوا هذه الممار فى وجه عدوه. واعتقد أوتو الأكبر أن عبدالرحمن الناصر الأموى بالأندلس كان يساعد العرب فى نشر فتوحهم؛ فأرسل إليه سفارة للعمل على وقف غارات هؤلاء العرب. ويقول بعض المؤرخين إن عبد الرحمن الناصر كان قد أرسل إلى أوتو سفراء لإنشاء علاقات سياسية بين الدولتين، وإنه أرسل إليه كثيرا من الهدايا. وكانت هذه السفارة برياسة أحد الأساقفة المستعربين فى الأندلس، وأن هذا الكتاب دون باللغة العربية، وكان يحتوى على بعض عبارات فيها نقاش حول التثليث. ولكن المنية وافت هذا الأسقف وهو فى طريقه إلى أوتو. وقد قيل إن أوتو اعتبر العبارات التى حول فكرة التثليث إهانة لدينه، فأهان هؤلاء المبعوثين وأساء معاملتهم وأبقاهم ببلاده ثلاث سنين. وبعد قليل أرسل أوتو رسلا إلى قرطبة لوقف غارات الفراكسينت العرب من ناحية، ورد الإهانة التى وجهها المسلمون اليه من ناحية أخرى، وعهد أوتو فى رياسة هؤلاء الرسل إلى جان دى جورتزا Jean de Gorza الذى وصل إلى قرطبة سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م). وعلم الخليفة الناصر بما اشتمل عليه كتاب أوتو وتعريضه بمحمد عليه الصلاة والسلام، فأرسل إلى رئيس هؤلاء الرسل مطران قرطبة ينصح له بالعدول عن سب الرسول، فلم يزدد إلا عنادا، وأخذ يوبخه على تساهل مسيحيى الأندلس مع المسلمين، ومسايرتهم لهم فى الخنان والامتناع عن أكل الخنزير. وصمم الخليفة الناصر على إبقاء أعضاء السفارة تسع سنوات لا ثلاث سنوات كما فعل أوتو برجال سفارته من قبل، وأرسل إلى إمبراطور ألمانيا كتابا مع رجل مسيحى يسمى ريسمند، يطلب فيه تغيير كتابه الأول. وقد نجح هذا الرسول فى مهمته، واستبدل أوتو كتابه بكتاب آخر وصل بعد ثمانية عشر شهرا من وصول كتابه الأول، وكون هذا الرسول بتعيينه أسقفا. وهنا مثل جورتزا بين يدى الخليفة الناصر، واصطفت الجند على جانبى الطريق التى مر فيها أعضاء هذه السفارة، ووقف الصقالبة شاكى السلاح، وفرشت ممرات قصر قرطبة بالبسط والديباج، وجلس الخليفة فى البهو الكبير. فتقدم الأسقف جورتزا وقبل يده وجلس بجانبه، وأخذ الناصر يثنى على الإمبراطور أوتو وعلى سعة عقله وكفايته، لكنه تعرض لاحدى نقائص الحكم فى دولته لاعترافه بنفوذ حكامه الاقطاعيين ومشاركتهم إياه فى حكم البلاد مما يثير فى نفوسهم الغرور والميل لشق عصا طاعته (١)

وعلى الرغم من عدم تصدى المؤرخين لما كان لهذه السفارة من أثر، لا يمنعنا ذلك من القول بأن بلاط الناصر كان محطا لسفراء الدول، كسفارة أوتو ملك الصقالبة فى سنة ٩٤٥ م (٣٣٤ هـ) (٢)،

---

(١) Dozy : The Moslems in Spain, p. 429. (٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤

وسفراء حكام فرنسا (١). كما دخل عبد الرحمن الناصر فى حلف مع ملك إيطاليا الذى آلمه تخريب الفاطميين لمدينة جنوة ، كما حالف البيزنطيين الذين تطلعوا إلى انتزاع جزيرة صقلية من الخليفة القائم الفاطمى (٢)

٤ — مع الروس :

وقد تعرضت البلاد الإسلامية فى الشرق لهجوم الروس. ففى سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ — ٩٤٤ م) أغار جماعة من الروس الذين كانوا يقيمون شمالى بلاد الخزر على أذربيجان واستولوا على قصبتها برذعة (٣). وقد اشتهر الروس بقوة أبدانهم وشدة بأسهم ومهارتهم فى الحرب . وقد وصفهم مسكويه (٤) فى هذه العبارة فقال : « هؤلاء أمة عظيمة لهم خلق عظام ، ولهم بأس شديد ، لا يعرفون الهزيمة ، ولا يولى الرجل منهم حتى يقتل أو يقتل . ومن عادة الواحد منهم أن يحمل آلة السلاح ويعلق على نفسه أكثر آلات الصناع من الفأس والمنشار والمطرقة وما أشبهها ، ويقاتل بالحربة والترس ، ويتقلد السيف ، ويعلق عليه عمودا وآلة كالدشنى ، ويقاتلون رجالة لاسيما هؤلاء الواردين »

وقد أوقع هؤلاء الروس الهزيمة بأمير أذربيجان ، وحاولوا أن يستميلوا الناس اليهم . فلما أبوا أن يجيبوهم إلى طلبهم ، عاثوا فى بلادهم وقتلوا أهل برذعة عن آخرهم . ويقول ابن الأثير (٥) إن الروس نزلوا برذعة ونادوا فيها بالأمان ، « فأحسنوا السيرة وأقبلت العساكر الاسلامية من كل ناحية ، فكانت الروس تقاتلهم فلا يثبت المسلمون لهم . وكان عامة البلد يخرجون ويرجمون الروس بالحجارة ويصيحون بهم ، فينهاهم الروس عن ذلك ، فلم ينتهوا سوى العقلاء فانهم كفوا أنفسهم ، وسائر العامة والرعاع لا يضبطون أنفسهم . فلما طال ذلك عليهم نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه ، وأن لا يقيموا بعد ثلاثة أيام ، فخرج من كان له ظهر يحمله وبقى أكثرهم بعد الأجل . فوضع الروسية فيهم السلاح ، فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف نفس ، وجمعوا من بقى بالجامع وقالوا : اشتروا أنفسكم وإلا قتلناكم . وسعى لهم إنسان نصرانى فقرر عن كل رجل عشرين درهما ، فلم يقبل إلا عقلاؤهم . فلما رأى الروسية أنه لا يحصل منهم شىء ، قتلوهم عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا الشديد ، وغنموا أموال أهلها ، واستعبدوا السبى واختاروا من النساء من استحسنوها »

ثم الروس بعد ذلك صوب مراغة ، وعاثوا فى البلاد ، فهال المسلمين ذلك ودعوا للجهاد ، وأعد المرزبان بن محمد بن مسافر أمير أذربيجان جيشا لمحاربة العدو واستطاع ان يوقع بهم (٦)

وهكذا كانت علاقات المسلمين بالروس عدائية ، كعلاقاتهم مع البيزنطيين والفرنجة وغيرهم .

---

(١) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٤٣

(٢) أنظر لفظ برذعة فى معجم البلدان لياقوت

(٣) Dozy : The Moslems in Spain, P. 434.

(٤) تجارب الأمم ج ٢ ص ٦٢

(٥) ج ٨ ص ١٤٦

(٦) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٦٤ — ٦٧ ، Muir : The Caliphate, p. 475

الباب السابع

نظم الحكم

تمهيد :

يقصد بنظم الحكم الطريقة التى تدار بها الدولة . وتتكون هذه النظم من مجموعات القوانين والمبادىء والتقاليد التى تقوم عليها فى هذه الدولة . ومن هذه النظم : النظام السياسى : ويشمل الكلام على الخلافة من حيث كونها نظاما للحكم وما طرأ على هذا النظام من تطور ، كما يشمل الكلام على الوزارة التى يحمل صاحبها أعباء الحكومة ، والكتابة التى يتولى صاحبها مخاطبة الملوك والأمراء وغيرهم من موظفى الدولة ، والحجابة التى يشبه صاحبها كبير الأمناء فى أيامنا هذه . ومن هذه النظم أيضا النظام الإدارى ، ونعنى به إدارة الأقاليم وبيان سلطة الولاة فيها وتعدد دواوين الدولة من خراج ورسائل وطراز وغيره ، والبريد ، والشرطة ؛ والنظام الحربى وأسلحته وإمرته ، والبحرية الإسلامية ؛ والنظام المالى الذى يتناول موارد بيت المال من الخراج والضرائب وطرق الجباية ، والأوجه التى تصرف فيها الموارد ، والمصادر التى تنفق فيها أموال الدولة من رواتب الموظفين وأعطيات الجند وغيرهم . كما تشمل نظم الحكم النظام القضائى والطرق التى يلجأ إليها المتقاضون فى الدعاوى .

١ — النظام السياسى

١ — الخلافة العباسية فى عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢ — ٣٢٤ هـ) :

طبعت الخلافة فى هذا العصر بطابع الوهن والضعف ، لازدياد نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية ، حتى أصبح خلفاء هذا العصر مسلوبى السلطة ضعيفى الإرادة ، بسبب تدخل هؤلاء الأتراك فى شئون الدولة ، وتنصيب من يشاءون وعزل من يشاءون أو قتله أو سمل عينيه . كما طبع هذا العصر أيضا بطابع تدخل النساء فى شئون الدولة ، وكثرة تولية الوزراء وعزلهم ، وتولية العهد أكثر من واحد ، مما أدى إلى قيام المنافسة بين أمراء البيت الواحد .

وقد أدت تولية المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) أولاده الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد العهد ، وتقديم ابنه المعتز على المنتصر ، إلى اغتيال هذا الخليفة بيد ابنه المنتصر وتحريض الأتراك . ولا غرو فقد حاول بعض هؤلاء الأتراك اغتيال هذا الخليفة فى دمشق من قبل ، ولكنهم لم يفلحوا ، فانتهزوا فرصة حنق المنتصر على أبيه وانضموا إليه وقتلوه ، فخلفه ابنه وقاتله على العرش . ولم يلبث أن عمل بتدبير الأتراك على إقصاء أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد ، إذ كانوا يخشون ان ينتقم هذان الأميران ، وخاصة المعتز ، منهم لقتل أبيهما المتوكل . (١)

وعلى الرغم من قصر عهد المنتصر (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) أدى خوف هؤلاء الأتراك من أبناء المتوكل إلى تحويل الخلافة إلى أحد أبناء المعتصم ، فولوا أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه المستعين

(١) الطبرى ج ١١ ص ٧٥ — ٧٦ .

(٢٤٨—٢٥٢ هـ)[١]. وفى عهده تفاقم نفوذ الأتراك ،وعلى رأسهم بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش وباغر . ولم يلبث بعض هؤلاء الأتراك الذين أجلسوا هذا الخليفة على العرش أن انقلبوا عليه ، بسبب تواتر الإشاعات بأنه عزم على الفتك بهم . ومن ثم قامت الفتن والحروب الأهلية . وفى ذلك يقول صاحب كتاب الفخرى [٢] : « وكانت أيامه كثيرة الفتن ودولته شديدة الاضطراب » . وانتهى الأمر بعزل المستعين وتولية المعتز بن المتوكل . ولم يكتف الأتراك بعزل المستعين ونفيه إلى واسط بل قتلوه . أما الخليفة الجديد فكان فى أيدى الأتراك كالأسير ، مسلوب السلطة مهيض الجانب ؛ وكان بقاؤه فى الحكم متوقفاً على رضا الأتراك الذين تغلغل نفوذهم فى الدولة وتسلطوا على حياة الخلفاء . يدل على صحة هذا القول ما ذكره صاحب كتاب الفخرى [٣] : لما جلس المعتز على سرير الخلافة ، قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم : انظروا كم يعيش وكم يبقى فى الخلافة ! وكان فى المجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرفُ من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا : فكم تقول إنه يعيش وكم يملك ؟ قال : مهما أراد الأتراك ، فلم يبق فى المجلس إلا من ضحك » . [٤]

وقد بلغ من تفاقم نفوذ الأتراك وخوف الخلفاء من بطشهم أن كان المعتز لا يلتذ بالنوم ولا يخلع سلاحه لا فى ليل ولا فى نهار خوفا من الأتراك وعلى رأسهم بغا الصغير [٥] . وهذا يفسر لنا لماذا عمل المعتز على اصطناع المغاربة والفراغنة للتخلص من الأتراك الذين عملوا بدورهم على التخلص منه وطالبوه برواتبهم وثاروا فى وجهه وقبضوا عليه وقتلوه بعد أن مثلوا به . [٦]

ثم ولى المهتدى (٢٥٥—٢٥٦ هـ) . وكان ، كغيره من الخلفاء العباسيين ، ألعوبة فى أيدى هؤلاء الأتراك وخاصة موسى بن بغا . وعلى الرغم من أنه كان من أحسن الخلفاء العباسيين سيرة وأظهرهم ورعا وأكثرهم عبادة حتى إنه تشبه بعمر بن الخطاب وجلس للمظالم ، واستعانته ببعضهم على بعض — على الرغم من هذا كله لم يستطع هذا الخليفة تنفيذ سياسته هذه ، لأن أزمة الجيش كانت فى أيدى الأتراك ، ولانتقاض باكباك نصيره بالأمس عليه وانضمامه إلى موسى بن بغا . وسرعان ما أسر هذا الخليفة وخُلع وعذب حتى مات فى شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ . [٧]

أما الخليفة الجديد وهو المعتمد فقد اعتلى العرش على أيدى الأتراك الذين أخرجوه من « الجوسق » الذى حبسه فيه المهدى . وكان — كما يقول السيوطى [٨] — « أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به » . ولا غرو فقد شل أخوه أبو أحمد الموفق طلحة يده عن مباشرة أمور الدولة حتى أصبح مسلوب الإرادة . وكانت دولته « دولة عجيبة الوضع . كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة : للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بإمرة المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقيادة

---

(١) ابن الأثير ج ص ص ٤٠
(٢) ص ٢٢٠
(٣) ص ٢٢١
(٤) أنظر هذا الكتاب ص ٣٥
(٥) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢٨
(٦) أنظر هذا الكتاب ص ٣٥ — ٣٦
(٧) ابن الأثير ج ٧ ص ٨٣ — ٨٤
(٨) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ٢٤٣

العساكر ومحاربة الإعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء. وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته » (١)

ولم ير المعتمد بدا من مصانعة الأتراك، وخاصة قائدهم موسى بن بغا، الذى خلع عليه وضمه إلى ابنه المفوض، وقسم دولته بين ابنه جعفر وسماه المفوض وخصه بالبلاد الغربية وضم إليه موسى بن بغا فحكمها باسمه، وولى أخاه أبا أحمد طلحة بعد ابنه المفوض، وسماه الموفق وخصه بالبلاد الشرقية. وبذلك ضعفت الخلافة فى عهد المعتمد الذى أصبح مسلوب السلطة أمام أخيه الموفق والأتراك.

ولما توفى الموفق فى شهر صفر سنة ٢٧٨ هـ اجتمع القواد من الأتراك وبايعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوض بن المعتمد. ولكن هذا الخليفة لم يلبث أن بايع لأبى العباس ولقبه «المعتضد» فولى الخلافة بعد وفاة عمه فى سنة ٢٧٩ هـ. وفى عهده انتعشت الخلافة العباسية «وأحيا مادرس من أطلال الخلافة حتى أصبحت قوية مهيبة تخشاها الدول» (٢) «وكانت أيامه — كما يقول السيوطى (٣) — طيبة كثيرة الأمن والرخاء. وكان قد أسقط المكوس ونشر العدل ورفع الظلم عن الرعية، كما كان يسمى السفاح الثانى لأنه جدد ملك بنى عباس» (٤)

مات المعتضد، والمعتمد من قبله، مينة طبيعية بعكس الخلفاء الذين فتك بهم الأتراك. وقد آلت الخلافة من بعده إلى ابنه أبى محمد الذى تلقب «المكتفى بالله»، وأمه أم ولد تركية. وقد استوزر هذا الخليفة أبا القاسم بن وهب. ويروى الطبرى (٥) أن هذا الوزير كان قد عمل على نقل الخلافة من بيت المعتضد فى حياته وأسر ذلك إلى بدر قائد الجيش. فلما مات المعتضد خشى هذا الوزير من افتضاح أمره، فأوغر صدر المكتفى على بدر ودبر مؤامرة انتهت باغتياله فى فارس. وعلى الرغم مما اشتهر به المكتفى من التبذير، نشر العدل بين الرعية، فهدم المطامير التى اتخذها أبوه المعتضد وجعلها مساجد وأمر برد البساتين والحوانيت التى سلبها أبوه من الناس.

وقد خلف المكتفى أخوه أبو الفضل جعفر بن المعتضد الذى تلقب المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ). ويرجع السبب فى اختياره إلى صغر سنه، إذ لم يتجاوز الثالثة عشرة، ليكون أساس قيادا. ولكن المقتدر لم يلبث أن خلع وبويع عبد الله بن المعتز ولقب «الغالب بالله». إلا أن أتباع الخليفة المخلوع أعادوه إلى العرش. «وكان عهد المقتدر عهد فتن وقلاقل؛ فقد ترك النساء يتدخلن فى أمور الدولة ويصرفن شئونها. فقد ذكر ابن الأثير (٦) أن هذا الخليفة اشتهر بعزل وزرائه والقبض عليهم، والرجوع إلى قول النساء والخدم والتصرف على مقتضى آرائهن. ولاغرو فقد أصبح الأمر والنهى بيد أمه التى يطلق عليها المؤرخون اسم «السيدة»، إذ بلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت إذا غضبت

---

(١) الفخرى ص ٢٢٦. أنظر هذا الكتاب ص ٤٠
(٢) حسن ابراهيم حسن، وعلى ابراهيم حسن: النظم الاسلامية ص ٧٠ — ٧١
(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٦
(٤) أنظر ص ٤٨
(٥) ج ١١ ص ٣٧٤ — ٣٧٥
(٦) ج ٨ ص ٢٥

هى أو قهرمانتها (١) من أحد الوزراء كان مصيره العزل ».

اضطربت أحوال الدولة العباسية فى عهد المقتدر ، فخرج عليه مؤنس الخادم أحد القواد فى سنة ٣١٧ هـ ، وأرغم الخليفة على الهرب ، وبايع هو وغيره من الأمراء محمد بن المعتضد ولقبوه « القاهر بالله » . وطلب الجند أرزاقهم فى الوقت الذى قامت فيه الاحتفالات بتقليد الخليفة الجديد الخلافة ، وحملوا المقتدر على أعناقهم وردوه إلى دار الخلافة ، وعزلوا القاهر ، فأخذ يبكى ويقول : الله الله فى نفسى ، فاستدناه المقتدر وقبله وقال له : يا أخى ! أنت والله لاذنب لك ، والله لاجرى عليك منى سوء أبدا ، فطب نفسا . (٣)

٢ — الخلافة العباسية فى عصر إسرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤ هـ) :

ازداد ضعف الخليفة العباسى منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ، لازدياد شوكة القوادمن الأتراك وتفاقم خطر الدول المستقلة . فقد ازدادت شوكة على بن بويه فى فارس ، وأصبحت الرى وأصبهان وبلاد الجبل فى يد أخيه الحسن بن بويه ، كما استقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر. أما مصر والشام فقد استقل بهما محمد بن طغج الإخشيد ، واستقل بخراسان نصر بن أحمد السامانى . ولم تكن الحالة فى المغرب أحسن منها فى المشرق . فقد أعلن عبد الرحمن الثالث الأموى بالأندلس (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) نفسه خليفة ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وأصبح فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ثلاث خلافات .

ولم يكن حظ القاهر (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) أقل سوءا ممن سبقه من الخلفاء العباسيين ، فقد انتشرت الفتن الداخلية فى عهده ، وشغب الجند عليه ، واتفق كبار رجال دولته ، وعلى رأسهم قائده مؤنس ووزيره ابن مقلة ، على خلعه فسملوه ، فسالت عيناه على خديه ، ثم حبس . وقد ساءت حاله حتى إنه خرج يوما يطلب الصدقة بجامع المنصور ، فأعطاه بعض الهاشميين خمسمائة درهم ، وأمر المستكفى بحبسه ، فظل فيه حتى مات فى عهد الطائع سنة ٣٣٩ هـ .

وجد الخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) نفسه،إزاء ضعف الوزراء وازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم فى أمور الدولة ، مضطرا إلى استمالة أحد هؤلاء الأمراء وتسليم مقاليد الحكم إليه . ووجد فى ابن رائق ، وكان يلى واسط والبصرة ، الرجل الذى يستطيع أن يعتمد عليه ،فأسند إليه كافة أمور الدولة ، ولقبه « أمير الأمراء ». فأصبح بيده تولية الولاة وعزلهم ، وسمت مرتبته على مرتبة الوزير الذى لم يبق له بجانبه سوى الاسم . « وبطل يومئذ أمر الوزارة ، فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من أمر النواحى ولا الدواوين ولا الأعمال ،ولا كان له غير اسم الوزارة فقط . . . وصار ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمر كله ، وكذلك كل من تقلد الإمارة بعد ابن رائق إلى هذه الغاية . »(٤)

---

(١) القهرمانة : المسيطرة الحفيظة على من تحت يدها (٢) النظم الاسلامية للمؤلف من ٧١ — ٧٢ .
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٤ (٤) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٣٥١ — ٣٥٢

وبعد أن كان الصراع بين الخلفاء العباسيين وكبار القواد والأمراء، أصبح بين الخلفاء وأمراء الأمراء من ناحية، وبين هؤلاء وكبار القواد من ناحية أخرى. فنجد الخليفة الراضى ينحرف عن ابن رائق ويستعين ببجكم ليخلصه مما هو فيه. وانتهى هذا الصراع بتولية بجكم إمرة الأمراء، ولكن ابن رائق عاد إلى بغداد من جديد وانتصر على بجكم وانتزع منه إمرة الأمراء. (١)

أصبحت الخلافة العباسية فى عهد الراضى من الضعف بحيث لم يعد هذا الخليفة قادرا على أن يدفع أرزاق الجند أو يحصل على ما يكفيه حتى مات فى شهر ربيع الاول سنة ٣٢٩ هـ. وليس أدل على ما بلغته الخلافة العباسية فى عهد الراضى من ضعف ووهن مما رواه أبو بكر الصولى عن هذا الخليفة، الذى عبر عما كان يشعر به من آلام لضياع حرمة الخلافة بسبب تفاقم خطر الاتراك، حتى إنه لم يستطع أن ينفرد بتدبير الدولة دونهم. وانتهى النزاع بين بجكم وابن رائق على إمرة الأمراء بدخول البريدى بغداد فى سنة ٣٢٩ هـ، وخروج الخليفة المتقى (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) بصحبة ابن رائق واستنجاده بالحمدانيين الذين لم يلبثوا أن دخلوا بغداد وتقلدوا إمرة الامراء (٣٣٠ — ٣٣١ هـ)، ثم طردهم توزون التركى فى شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ وتقلد أعباء هذا المنصب الخطير.

على أن توزون لم يلبث أن قبض على الخليفة المتقى فى شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ، وسمل عينيه، وولى المستكفى بالله (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ)، الذى ضاق ذرعا بتوزون، واستنجد ببنى بويه لوضع حد لهذه المنازعات التى لم تنقض بين هؤلاء الأمراء، للاستئثار بالسلطة وتولى إمرة الأمراء وانتزاع النفوذ والسلطان من الخليفة، الذى لم يعد له من الأمر شىء، سوى السلطة الدينية ممثلة بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة والتسمى بأمير المؤمنين. ولم يكن هذا إلا لأغراض دينية غايتها احتفاظ هؤلاء الأمراء بمراكزهم أمام الجمهور.

٣ — الخلافة العباسية فى عصر بنى بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ):

ولم يكد معز الدولة أحمد بن بويه الذى استنجد به الخليفة المستكفى يستقر فى بغداد حتى حجر عليه وسمل عينيه، واستدعى الفضل بن المقتدر وبايعه بالخلافة ولقبه المطيع (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) (٢).

ولا عجب فقد كان بنو بويه شيعة غالية، ومن ثم لم يعترفوا بأحقية الخليفة العباسى السنى فى زعامة المسلمين (٣)، فلم يكن للخليفة العباسى فى عهدهم شىء من النفوذ. ولولا خوف بنى بويه من ضياع نفوذهم السياسى لما تورعوا عن تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين (٤). ولذلك لم يدخروا وسعا فى تقوية نفوذهم وسلب السلطة من يد الخلفاء العباسيين. وقد شعر الخليفة المطيع بما وصلت إليه الخلافة من ضعف، فعبر عما يجيش فى نفسه من ألم فى هذه العبارة مخاطبا بنى بويه: «ليس لى منها إلا القوت القاصر عن كفائى ... وإنما لكم منى هذا الاسم الذى يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم،

---

(١) النظم الإسلامية للمؤلف ص ٧٦ (٢) انظر هذا الكتاب ص ٨٩.

(٣) Arnold : The Caliphate, p. 61 (٤) انظر هذا الكتاب ص ١٠٢ — ١٠٣

فإن أحببتم ان أعتزل عن هذا المقدار أيضا وتركتكم والأمر كله » . (١) وقد وصف البيرونى (٢) موقف الخلفاء العباسيين من سلاطين بنى بويه فى هذه العبارة فقال : « وإن الدولة والملك قد انتقل فى آخر أيام المتقى وأول أيام المستكفى من آل العباس إلى آل بويه . والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية إنما هو أمر دينى اعتقادى ، لا ملك دنياوى ... فالقائم من ولد العباس الآن (٣) هو رئيس الإسلام لا ملك » .

ولم يقف نفوذ البويهيين عند هذا الحد ؛ فنرى الخليفة المستكفى يلقب البويهيين بألقاب مختلفة ، ويأمر بذكر أسمائهم فى الخطبة ونقشها على السكة . فنرى الطائع يخلع على عضد الدولة البويهى خلع السلطنة ويطوقه ويسوره ويعقد له لواءين : أحدهما مفضض على رسم الأمراء والآخر مذهب على رسم ولاة العهود ، ويلقبه بلقب « شاهنشاه الأعظم ملك الملوك » ، ويأمر بأن يضرب على بابه بالدبادب فى أوقات الصلوات الخمس » (٤) . كما نرى الخليفة المطيع (٣٦٣ — ٣٨١ هـ) يلقب صمصام الدولة بن عضد الدولة بلقب شمس الدولة ، ويخلع عليه الخلع السبع والعمامة السوداء ، ويسوره ويطوقه ويتوجه ويعقد له اللواءين ويحمله على فرس ويأمر بقراءة عهده بتقليده أمور الدولة العباسية وبنقش اسمه على السكة . (٥) ، ويفعل مثل هذا مع شرف الدولة بن عضد الدولة ، فيلقبه بلقب شاهنشاه (٦) ، ثم يخلع على أبى نصر بن عضد الدولة ويُقرأ عليه العهد (٧) . إلا أن الخليفة أرغم فى سنة ٣٨١ هـ على النزول عن الخلافة لأنه حبس رجلا من خواص بهاء الدولة .

ومع ذلك فان الخلافة العباسية كانت لاتزال تحتفظ برونقها وبهائها فى عهد بنى بويه . يقول أبو شجاع (٨) : « عهد بالطائع لله وهو فى دسته منصوب على ظهر حديدى ، وهو لابس السواد والمعمَّمة الرصافية السوداء ، وعلى رأسه شمسه ، وبين يديه الحجاب والمسودة ، وحول الحديدى الأنصار والقراء والأولياء فى الزبازب ؛ وقد قدم إلى مشرعة دار المملكة من باب الميدان ، فنزل صمصام الدولة إليه وقبّل الأرض بين يديه » .

وقد ازداد نفوذ بهاء الدولة فى عهد الخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) ، فتعصب للشيعة الذين كان ينتحل مذهبهم ، وأضمر العداء والبغضاء للخليفة العباسى حتى توسط بعضهم فى الصلح بينهما . فعقد مجلس عظيم حلف فيه كل منهما للآخر بالوفاء ، وقلد الخليفة القادر بهاء الدولة ماوراء بابه .

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ٣٠٧ — ٣٠٨

(٢) الآثار الباقية عن القرون الخالية (طبعة لايبسك سنة ١٩٢٣) ص ١٣٢

(٣) يعنى فى عهد البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ

(٤) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ — ٢٣٧ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤١٦ . انظر هذا الكتاب ص ١١١

(٥) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧١

(٦) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٤١

(٧) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم جـ ٣ ص ١٥٣

(٨) المصدر نفسه جـ ٣ ص ١٢٣ — ١٢٤

وقد ذكر أبو الفدا (١) أن سلطان الدولة بن بهاء الدولة لما قدم بغداد سنة ٤٠٨ هـ ضرب الطبل فى أوقات الصلوات الخمس متشبها فى ذلك بجده عضد الدولة . وقد أصبح الخلفاء فى عهد بنى بويه — كما يقول توماس أرنولد(٢) — « لا قيمة لهم فى الوقت الذى غدا غيرهم أكثر قوة ونفوذا ، وأصبحوا يديرون العالم الإسلامى من غير أن يشيروا أو يحفلوا بمن يدعى أنه أمير المؤمنين ، بل لقد أصبحوا ألعوبة فى أيدى سلاطين بنى بويه ، يجلسونهم على العرش ويعزلونهم متى شاءوا وشاءت أهواؤهم » . وعلى الرغم من أن الخليفة أصبح مسلوب السلطة ، كان بنو بويه يراعون مظاهر احترامه فى الحفلات ، كما كانوا ينظرون إليه باعتباره الرئيس الأعلى للجماعة الإسلامية . فكان الخليفة يستقبل السفراء ويلبس بردة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويضع أمامه مصحف عثمان توكيدا لسلطته الدينية . وقد امتد نفوذ بنى بويه فى عهد عضد الدولة فى البلاد الممتدة بين بحر قزوين والخليج الفارسى ، ومن أصبهان إلى حدود سورية ، وأصبح اسمه يذكر فى الخطبة وينقش على السكة (٣) . كما كان بنو بويه يزوجون بناتهم من بعض الخلفاء حتى تتحول الخلافة بذلك إلى أحفاده . فقد تزوج الخليفة الطائع من بنت عز الدولة بختيار ، وكما تزوج هذا الخليفة من ابنة عضد الدولة . وتجددت « وصلة بين الطائع لله وبين عضد الدولة ، فتزوج الطائع ابنته . وكان غرض عضد الدولة أن تلد ابنته ولدا ذكرا فيجعله ولى عهده ، فتكون الخلافة فى ولد لهم فيه نسب(٤) » .

على أن ضعف الخلافة العباسية فى عهد بنى بويه لم يرجع إلى ضعف الخلفاء أنفسهم وصراعهم مع بنى بويه الذين استبدوا بالسلطة دونهم ، بل يرجع كذلك إلى تلقيب الخلفاء لهم بهذه الألقاب الضخمة التى رفعت من شأنهم وقللت من هيبة الخلفاء أنفسهم مثل : تاج الملة وضياء الملك وغياث الأمة ، وشاهنشاه وغيرها . وقد أسرف الخلفاء العباسيون فى تلقيب أمرائهم . فنرى الخليفة العباسى القادر بالله (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) يلقب محمود الغزنوى بن سبكتكين بألقاب سلطان ويمين الدولة وأمين الملة(٥) ، ويلقب ابنه مسعود « سيد الملوك والسلاطين(٦) » ، ويلقب جلال الدولة نفسه فى سنة ٤٢٣ هـ بلقب السلطان المعظم مالك الأمم . فلما اعترض عليه رسول الخليفة ، وهو أبو الحسن الماوردى صاحب كتاب الأحكام السلطانية ، بأن هذه الألقاب لا تكون إلا للخليفة نفسه ، عدل عنها ولقب نفسه مالك الدولة . أضف إلى ذلك انقسام أفراد البيت البويهى على أنفسهم ، فنرى عضد الدولة ابن ركن الدولة يناوىء عز الدولة بختيار بن معز الدولة ويجلس على عرش السلطنة فى بغداد من بعده ، كما نرى صمصام الدولة بن عضد الدولة يعجز عن مناهضة أخيه شرف الدولة الذى يقبض عليه ويعتقله فى إحدى قلاع فارس ويستقر فى السلطنة ببغداد . ثم يناوىء شرف الدولة بن ركن الدولة ، بهاء الدولة بن عضد الدولة ، ويخرج صمصام الدولة من معتقله ويستأنف صراعه مع بهاء الدولة .

---

(١) المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٥٠

(٢) The Caliphate, p. 68

(٣) النظم الاسلامية للمؤلف ص ٩٠

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٧

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٤ — ٨٥

(٦) ابن الأثير : ج ٩ ص ١٣١

ولم ينته ذلك الصراع الذى قام بين بهاء الدولة وأخيه صمصام الدولة إلا بقتل ثانيهما فى سنة ٣٨٨هـ[١]. كما يقوم النزاع بين سلطان الدولة وأخيه مشرف الدولة ابنى بهاء الدولة حتى صفا الجو لمشرف الدولة بوفاة أخيه فى سنة ٤١٥هـ[٢]. ولما توفى جلال الدولة بن بهاء الدولة فى سنة ٤٣٥هـ استبد أبو كاليجار (٤٣٥—٤٤٠هـ) بن سلطان الدولة بالأمر دون أبناء جلال الدولة، وقام النزاع بينهم حتى استقرت السلطنة فى بيت أبى كاليجار إلى أن قضى عليها السلاجقة بعد قايل[٣].

وقد ظل الخلفاء العباسيون فى هذا العصر يلقبون بلقب « أمير المؤمنين » الذى تلقب به الخلفاء منذ أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، كما كان الناس يعتبرون الخلفاء العباسيين « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه[٤] »، وكما لقب الخليفة المستكفى (٣٣٣—٣٣٤ هـ) نفسه بلقب « إمام الحق » ونقش ذلك على السكة، منافسا فى ذلك الخلفاء الفاطميين الذين تلقبوا بلقب « إمام »[٥]. وذكر الصولى[٦] أن الأمير أبا العباس أحمد بن المقتدر طلب إليه قبل أن يتلقب بلقب الراضى بالله، أن يرسل إليه الألقاب التى يصح أن ينعت بها الخلفاء وتكون أوصافا لهم، فأرسل إليه رقعة تشتمل على ثلاثين لقبا ليختار منها ما يريد، وأشار عليه بأن يختار لنفسه لقب المرتضى بالله، ولكنه اختار لنفسه لقب الراضى بالله وقال للصولى: « قد كنتَ عرفتنى أن إبراهيم بن المهدى لما بويع أيام الفتنة بالخلافة أراد أن يكون له ولى عهد، فأحضروا منصور بن المهدى وسموه المرتضى. وما أحب أن أتسمى باسم قد وقع لغيرى ولم يتم له أمره، وقد اخترت الراضى بالله ».

وكانت ولاية العهد زمن الخلفاء الراشدين تقوم على أساس الشورى، ولكنها أصبحت وراثية فى عهد الأمويين والعباسيين، وأصبح انتخاب ولى العهد صوريا، بمعنى أن الخليفة أصبح يعين ولى عهده ويأخذ البيعة له من وجوه الناس وكبار القواد فى حضرته وعن طريق الولاة فى الأقاليم. ولكن هذه الطريقة كانت محفوفة بالمخاطر، لإثارة الكراهة والبغضاء بين أبناء الخليفة وقيام المنافسة بين أفراد البيت المالك. وقد رأينا أثر تولية المتوكل العهد لابنائه المنتصر والمعتز والمؤيد، وكيف أدى ذلك الى قتل الخليفة نفسه.

وعلى الرغم من ضعف الخلافة فى عصر إمرة الأمراء وبنى بويه، استمر الخلفاء العباسيون يولون العهد أبناءهم. على أن الأتراك والبويهيين من بعدهم كانوا لا يحفلون بهذا النظام إذا كان لا يتفق مع مصلحتهم. وكان هؤلاء الخلفاء يهتمون اهتماما بالغا بتولية أبنائهم العهد فى احتفال رائع. فقد ذكر

---

(١) أنظر هذا الكتاب ص ١١٩، ١٢٠

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٦ (٣) المصدر نفسه ص ١٣١ — ١٣٨

(٤) المسعودى: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٥

(٥) آدم متز: الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٣٠

(٦) أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢ — ٤

(٧) أنظر طريقة تقليد الخليفة المتقى وتلقيبه فى هذا الكتاب ص ٧٣ — ٧٤

هلال بن الصابىء (١) أن الخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) « جلس على السدة العالية بثياب سود متقلدا سيفا بحمائل فى البيت المعروف ببيت الرصاص ، وبين يديه نهر يجرى الماء فيه إلى دجلة . ودخل إليه الأشراف والقضاة والشهود والفقهاء وأهل خراسان العائدون من الحج . وقُرئ فى المجلس على رءوس الملأ كتاب بتقليده أبا الفضل ولده العهد بعده ، وتلقيبه الغالب بالله تعالى ولا غالب إلا الله وحده لاشريك له . وكان له من السن فى هذا الوقت ثمانى سنين وأربعة أشهر وأيام . وكتب إلى البلاد بأن يخطب له بعده على نسخة قرّرت بحضرته ، وكانت بعد إتمام الدعاء له :

« اللهم وبلّغه الأمل فى ولده أبى الفضل الغالب بالله تعالى ولى عهده فى المسلمين . اللهم وال مَنْ والاه من العباد وعاد من عاداه فى الأقطار والبلاد ، وانصر من نصره بالحق والسداد ، واخذُل من خذله بالغىّ والعناد . اللهم ثبت دولته وشعاره ، وانبذ إلى من نابذ الحق وأنصاره » .

وكذلك ذكر ابن الأثير (٢) عند كلامه على حوادث سنة ٤٤٠ هـ أنه خطب للأمير أبى العباس محمد بن القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) بولاية العهد ولقب « ذخيرة الدين ، وولى عهد المسلمين » .

(ب) الخلافة الفاطمية :

كانت الخلافة الفاطمية التى قامت بالمغرب فى أواخر القرن الثالث الهجرى نتيجة لهذا الصراع العنيف بين السنيين والشيعيين . فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين ، لأنهم أولاد على ، ابن عم النبى وزوج ابنته فاطمة . وظل هؤلاء العلويون يناضلون فى سبيل هذه الزعامة ، بالسيف تارة وبالمكيدة والدهاء تارة أخرى ، حتى توجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية فى المغرب التى أصبحت تنافس الخلافة العباسية فى المشرق . وقد قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته ، ومن ثم نرى الشيعيين يخلعون على خلفائهم من صفات التقديس مالم يوصف به خلفاء بنى العباس .

ولاغرو فقد خاطب أحد الشعراء عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب بهذه الأبيات :

حل برقادة المسيح ... حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصفى ... حل بها الكبش والذبيح
حل بها الله ذو المعالى ... وكل شىء سواه ريح

وكانت أيمان أهل إفريقية : « وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدى الذى برقادة » ، حتى كتب بعض أحداث القيروان هذين البيتين وتلطفوا فى وصولها إلى عبيد الله من حيث لا يعلم :

الجورَ قد رضينا ... لا الكفر والحماقهْ
يا مدّعى الغيوب ... مَن كاتبُ البطاقهْ ؟

---

(١) تحفة الأمرا فى تاريخ الوزراء ص ٤٢٠ (٢) جـ ٩ ص ٢٥٠
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٨ — ١٥٩

وقد قيل إن الخوارج فى بلاد المغرب لم يرقهم بعض عقائد الشيعة الغالية ، فثاروا فى وجه الخلافة الفاطمية فى عهد القائم والمنصور بزعامة أبى يزيد مخلد بن كيداد . ويقول الذهبى[١] إن الخليفة القائم الفاطمى أمر بلعن الأنبياء وأطلق مناديا ينادى بلعن الغار ومن لاذ به ، وأن ذلك أثار سخط الخوارج فثاروا تحت لواء ابن كيداد .

ولكى يحيط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس ، عمدوا إلى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذهب الذى يقوم على تقديس الأئمة . وكان من أثر هذه الجهود أن راجت فكرة تقديس الأئمة فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى كمصر واليمن وفارس والهند ، بل توغلت هذه التعاليم فى بلاد الأندلس نفسها التى كانت إذ ذاك تحت نفوذ الأمويين السنيين[٢] .

ولم يكن استيلاء الفاطميين على مصر فى سنة ٣٥٨ هـ ومد نفوذهم نحو الشرق إلا وسيلة للقضاء على نفوذ العباسيين السياسى وجعل السيادة للمذهب الاسماعيلى مذهب الفاطميين . ويقول أدم متز[٣] إن الخليفة الفاطمى وقف من الخليفة العباسى موقف المنافس العنيد ، وإن نفوذه انتشر فى كثير من البلاد ، ودعى له على المنابر فى المغرب ومصر ، وفى بلاد اليمن والشام .

وقد لقيت نظرية الحق الملكى المقدس التى كانت سائدة فى بلاد الفرس فى عهد آل ساسان ، والتى أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد ، قبولا عند الخلفاء الفاطميين . وأصبح الإمام فى نظر الناس ظل الله فى الأرض ، كما أصبح شخصا مقدسا ، حتى لقد تعرض الناس للموت إذا أظهروا سخطا أو تذمرا أو قاوموا أوامر الخليفة ونواهيه ، لأنها صادرة من الله الذى أملاها على الإمام المعلم ، لأنه تلقى علمه من الله عن طريق الوحى .

وقد استمرت فكرة تقديس الخلفاء الفاطميين رائجة فى مصر . فقد ادعى المعز لنفسه كثيرا من صفات التقديس التى تظهر فى عبارته التى وجهها إلى الحسن الأعصم القرمطى ، حيث يقول : « إنا كلمات الله الأزليات ، وأسماؤه التامات ، وأنواره الشمشعانيات ، وأعلامه النيرات ، ومصابيحه البينات ، وبدائعه المنشئات ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات . لا يخرج منا أمر ، ولا يخلو منا عصر . وإنا لكما قال الله سبحانه وتعالى ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم » . ناهيك بادعاء الحاكم الألوهية التى شغلت كل حياته تقريبا .

وتمتاز الخلافة الفاطمية بالعظمة والأبهة التى كانت تتمثل فى الاحتفال بصلاة الجمعة ، وفى توديع الحملات الحربية ، والاحتفال بوفاء النيل ، وبعيد الفطر والأضحى ، وفى جلوس الخليفة بقاعة الذهب

---

(١) تاريخ الإسلام : دار الكتب المصرية ، مخطوط ٤٢ ورقة ١٦٩

(٢) Dozy : The Moslems in Spain, pp. 409, 413-15

(٣) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة أبى ريدة ، ج ١ ص ٤

حيث كان ينعقد مجلس الملك . وكانت عظمة الخلافة تظهر بأجلى مظاهرها حين يظهر شخص الخليفة يحيط به جماعة من القراء الذين كانوا يرتلون القرآن بنغمات مشجية ، وفى وقوف حامل الدواة . وكان زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب فى الوقت الذى يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم . وعندئذ يأخذ أحد الأمناء فى تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة .

والوزير كان أول من يقدم إلى الخليفة ، فيخطو إلى الأمام ، ثم يحيى الخليفة بلثم يديه ورجليه ، ثم يتراجع إلى مكانه الرفيع ويظل واقفا نحو ساعة ، فيؤذن له بوسادة يجلس عليها فى جانب الخليفة الأيمن . ثم يتلوه قاضى القضاة ، فيقترب من الخليفة ويحييه برفع يده اليمنى ويشير بسبحته قائلا : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! وكانت هذه التحية ميزة له على سائر أعضاء المجلس اعترافا بمركزه الدينى الرفيع . وكان أيضا يسمح لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعاتهم. وكان أحد الأمراء يزودهم قبل أن يتقدموا للخليفة بتعليمات تبين لهم ما يجب عليهم اتباعه فى هذه السبيل . وإذا رأى الوزير أن يشاور الخليفة فى أمر من الأمور ، اقترب منه واعتمد على سيفه ثم شرع فى حديثه . وكان مجلس الملك ينعقد ثلاث ساعات فى العادة ، فتتقدم فيه الأمور الهامة لبحثها واعتمادها من الخليفة . وللوزير أن يقترح خلع الخلع أو إسناد المناصب المختلفة إلى من يقدم أسماءهم. فإذا انتثر عقد المجلس ، انصرف الحاضرون والوزير فى آخرهم بعد أن يلثم يدى مولاه ورجليه مرة ثانية ، ثم يركب إلى داره يحف به سائر أعضاء المجلس . ثم ينزل الخليفة من سرير الملك ويغادر الإيوان .

وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها : الخليفة الفاطمى أو العلوى وأمير المؤمنين. ومن الألقاب المحببة إلى الإسماعيليه لقب إمام وصاحب الزمان وسلطان وشريف القاضى، كما يظهر من مخاطبة قاضى القضاة له فى صلاة الجمعة : السلام على أمير المؤمنين « الشريف القاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته » . وكان السنيون يطلقون عليهم « العبيديين » نسبة إلى عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ، كما كان يطلق عليهم « العلويون » نسبة إلى على بن أبى طالب ، و « الفاطميون » نسبة إلى فاطمة الزهراء . كما كان يطلق عليهم « السلاطين » . وكان الفاطميون يقرنون اسم الله سبحانه بأسمائهم: فنجد مثلا المعز لدين الله، والعزيز بالله ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر لدين الله ، والمستنصر بالله .

٣ — امراء الخلافة الأموية فى الأندلس :

كان أمراء بنى أمية فى الأندلس يلقبون أنفسهم بألقاب منها : أمير وسلطان وابن الخلائف ، حتى اعتلى عبد الرحمن الناصر العرش فى سنة ٣٠٠ هـ . ولما استقرت قدمه فى البلاد ، ورأى ما وصلت

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ص ١٣٧ — ١٣٨

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعه الانشا ٣ ص ٤٩٨ — ٥٠٠

انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٣٦٩ — ٢٧

إليه الخلافة العباسية فى الشرق من ضعف حتى إن سلطة الخليفة لم تكد تتعدى مدينة بغداد ، وما كان من تحكم النساء والخدم والأتراك فى عهد المقتدر ، وانصرافه إلى اللهو واللعب مع أنه كان لايزال يستعمل هذه الألقاب الضخمة (١) ، كما أدرك عبد الرحمن الخطر الذى يهدد بلاده من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية فى المغرب ، ووجد أنه ليس أقل من العباسيين والفاطميين أثرا فى الدفاع عن العالم الإسلامى ضد أوربا المسيحية ، وفى شن الغارات ومطاردة المسيحيين فى البلاد المتاخمة لبلاده (٢) — لما رأى عبد الرحمن ذلك كله فكر فى إقامة الدعوة لنفسه وتلقب بأمير المؤمنين . ويقول المقرى (٣):

« وكان (عبد الرحمن الداخل) يسمى بالأمير ، وعليه جرى بنوه من بعده ؛ فلم يدع أحد منهم بأمير المؤمنين تأدبا مع الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب ، حتى كان من عقبه عبد الرحمن الناصر ، وهو ثامن بنى أمية بالأندلس ، فتسمى بأمير المؤمنين . . . لما رأى من ضعف خلفاء بنى العباس بعد الثلثمائة وغلبة الأعاجم عليهم وكونهم لم يتركوا لهم غير الاسم ، وتوارث التلقيب بأمير المؤمنين » .

لذلك أمر عبد الرحمن فى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) بإقامة الدعوة له باعتباره أمير المؤمنين ، وخطب له بذلك على منابر قرطبة ، ثم كتب إلى ولاته بإقامة الدعوة له وتلقيبه بأمير المؤمنين . وهاك نص كتاب الناصر (٤) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! أما بعد ، فأنا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه . ولبس من كرامة الله ما ألبسه للذى فضلنا به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا درکه ، وسهل بدولتنا مرامه . وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن زجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا واستبشارهم بدولتنا . والحمد لله ولى الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ، ودخيل فيه ، ومُتَسَم بما لا يستحقه . وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه . فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله ، والله المستعان » .

وعلى ذلك أصبح فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ثلاث خلافات : الخلافة العباسية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية فى المهدية ، والخلافة الأموية فى قرطبة ؛ وأصبح الناصر لا يحفل بالنظرية القديمة التى تشترط السيادة على الحرمين لمن يدعى الخلافة وإمرة المؤمنين .

وقد أفاد عبد الرحمن الناصر من هذا التغيير الخطير فى نظام الحكم ، فظهر فى أعين رعاياه بمظهر لا يقل عظمة عن الخلفاء العباسيين والفاطميين . أما فى الخارج فقد تمتع بمركز ممتاز بين أمراء المسلمين

---

(١) Arnold : The Caliphate, p. 58.

(٢) Dozy : The Molems in Spain, p. 423

(٣) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٥٦

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ٢ ص ٢١٢

فى ذلك الحين بما أحرزه من انتصارات على الأوربيين ، حتى إن هؤلاء الأوربيين ، وعلى رأسهم أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا الذى أصبح فيما بعد إمبرطورا للدولة الرومانية المقدسة ، لجأوا إليه لوقف غارات عرب الفراكسينت كما تقدم .

وقد قرن عبد الرحمن الناصر اسم الله باسمه ، متشبها فى ذلك بالعباسيين والفاطميين ، فتلقب الناصر لدين الله ، وسن بعمله هذه السنة التى سار على نهجها أبناؤه من بعده . فتسمى ابنه الحكم الثانى المستنصر بالله ، وتسمى حفيده هشام الثانى المؤيد بالله وهكذا .

احتفظت الخلافة الأموية بالأندلس بقوتها فى عهد الحكم المستنصر بن عبد الرحمن ، الذى شعر نصارى الشمال فى عهده بقوة الخلافة ، وخطب له على منابر المغرب ، وقضى على نفوذ الأدارسة فى بلاد الريف . ولكن هذه الخلافة قد تطرق إليها الضعف فى عهد هشام المؤيد بن الحكم ، الذى أصبحت أمه صبح تتمتع بالنفوذ المطلق فى الدولة . ثم تولى ابن أبى عامر الحجابة وأصبح الحاكم الحقيقى للدولة الأموية فى الأندلس ، ولكنه حافظ على تراث خلافة الناصر ، فغزا أكثر من خمسين غزوة ، وأوقع الهزائم بمسيحيى الشمال الذين دفعوا إليه الإتاوة ، وحجر على الخليفة هشام ، الذى انزوى فى قصره ، وقضى أوقاته فى اللهو ، ولم يبق له من مركز الخلافة إلا الاسم فقط . ولما مات ابن أبى عامر سنة ٣٩٣ هـ سار ابنه أبو مروان عبد الملك المظفر على نهجه فى الاستئثار بالسلطة دون الخليفة ، ثم تقلد الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن الذى تلقب الناصر ، ولكنه لم يلبث أن خلع وقتل وصلب واستبد بالأمور محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر (سنة ٣٩٩ هـ) الذى تلقب « المهدى » ، ولكن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر تلقب « المستعين » ودخل قرطبة سنة ٤٠٠ هـ ، ثم طرد منها بيد المهدى الذى لم يلبث أن طرد بدوره وقتل ، ودخل المستعين قرطبة ثانية ، وقتل هشام المؤيد سرا وجلس على عرش الخلافة المتداعى نحو أربع سنين (٤٠٣ — ٤٠٧ هـ) استقل فيها كثير من أمراء الأطراف . ثم ملك بنو حمود قرطبه وأزالوا الخلافة الأموية بالأندلس ، « وحكموا هذه البلاد نحوا من أربعين سنة تخللتها صحوات عاد فيها الملك إلى بعض أفراد البيت الأموى . ولكن كيف يقبض هؤلاء الأمويون على العرش بأيديهم الضعيفة ، فى ذلك الوقت الذى قامت فيه الفتن والثورات ، واشتدت منافسة الزعماء من البربر والصقالبة والعرب والأسبان ؟ » (١) .

وقد حذا الفاطميون حذو الأمويين والعباسيين فى تولية أبنائهم العهد . فكان الخليفة إذا شعر بدنو أجله يعهد بالخلافة إلى أحد أبنائه ، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته . وكثيرا ما كان الخليفة الجديد يسترموت أبيه إذا وجد مايهدد ملكه . فقد أخفى القائم موت أبيه عبيد الله المهدى ، وأخفى المنصور موت أبيه القائم سنة ٣٣٤ هـ حتى قضى على ثورة أبى يزيد سنة ٣٣٦ هـ ، فأعلن نبأ وفاة أبيه . وكذلك أخفى المعز موت أبيه المنصور ، وأخفى العزيز موت أبيه المعز فى ١١ ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ ، ولكنه لم يعلنه إلا فى ١٠ ذى الحجة من هذه السنة . ولما تطرق الضعف إلى الخلافة الفاطمية فى عهد المستنصر

(١) أنظر هذا الكتاب ص ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ — ٣٠٩

أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة، فلم يراعوا فى اختياره أن يكون أكبر أبناء بيه ، كما فعل بدر الجمالى وابنه الأفضل من تفضيل المستعلى على أخيه نزار الذى كان أبوه المستنصر قد عهد إليه لأنه أكبر أبنائه ، فجر ذلك إلى انقسام أشياع الفاطميين إلى نزارية ومستعلية . ولا يزال أغاخان وأتباعه من الخوجات فى الهند يمثلون النزارية ، كما لا يزال البهرة من الإسماعيلية فى الهند أيضا يمثلون المستعلية .

والواقع أن الفاطميين كانوا ينظرون إلى الخليفة الفاطمى باعتباره إماماً يرث أباه عن طريق التعيين بالنص ، وأنه لا بد أن يعين الخليفة أو الإمام ولى عهده قبل وفاته حتى لا يخلو العالم من إمام . وكان لهذه الطريقة ميزاتها إذا كان ولى العهد كبير السن واسع التجربة كفؤاً لتولى ذلك المنصب الخطير . فالقائم بن عبيد الله المهدى كان قبل توليته الخلافة ماهراً فى الحرب حاذقاً فى السياسة ، استطاع فى حياة أبيه أن يغزو مصر غير مرة ويخمد الثورات التى قامت فى وجه الدولة الفاطمية ، كما استطاع العزيز أن يقود الجيوش الفاطمية وينتصر على القرامطة فى حياة أبيه وبعدها . وأما الحاكم مثلا فقد كان صغر سنه وقلة تجاربه ونقص كفايته من العوامل التى أثارت المتاعب فى وجه الخلافة الفاطمية فى عهده ، كما كان ذلك من عوامل ضعف هذه الخلافة فيما بعد . وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى الظاهر والمستنصر وغيرهما من الخلفاء الفاطميين .

(ب) الوزارة

١ — الوزارة فى الدولة العباسية (٢٣٢ — ٣٣٤) هـ :

قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، وتقلد الوزارة فى العصر العباسى الأول وزراء أكثرهم من الأعاجم كالبرامكة وبنى سهل ، كما اشتهر فى العصر العباسى الثانى بنو الفرات وبنو الجراح الذين نبغ منهم على بن عيسى وزير المقتدر ، وعبدالرحمن بن عيسى وزير الراضى . على أن ضعف الخلافة فى العصر العباسى الثانى أدى إلى ازدياد نفوذ الوزراء واشتداد المنافسة على الوزارة ؛ ومن ثم تفشى الدس وانتشرت الرشوة ابتغاء الوصول إلى كرسى الوزارة .

وكان المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) ، كسائر خلفاء بنى العباس ، يستعين بالوزراء فى إدارة شئون الدولة . فاستوزر محمد بن عبد الملك الزيات وزير أخيه الواثق وأبيه المعتصم . وكان ابن الزيات — كما يقول صاحب الفخرى[1] . « نادرة وقته عقلا وفهما وذكاء وكتابة وشعراً وأدبا وخبرة بآداب الرياسة وقواعد الملوك . ولكنه كان جباراً متكبراً فظاً غليظ القلب خشن الجانب مبغضاً إلى الخلق ، حتى كان ذلك سبب قتله على يد المتوكل بعد أن استوزره أياماً . وذكر الطبرى[2] أن محمد بن عبد الملك الزيات كان يرى استخلاف أحد أبناء الواثق بن المعتصم بدل المتوكل . فلما آلت الخلافة إلى المتوكل حنق عليه وعمل على قتله . وقد قيل فى قتله إنه كان قد عمل تنوراً من حديد وضع فيه مسامير ليعذب

(١) ص ٢١٤ — ٢١٥ (٢) جـ ١١ ص ٢٨ ، ٦٧ — ٦٨ .

به من يريد عذابه ، فكان هو أول من عذب به ، وقيل له :ذق ما كنتَ تذيق الناس .

ومن وزراء المتوكل كذلك عبيدالله بن يحيى بن خاقان ، وقد اشتهر بالتعفف وكرم الأخلاق . روى صاحب الفخرى(١) : « قيل إن صاحب مصر حمل إليه مائتى ألف دينار وثلاثين سَفَطاً من الثياب المصرية ؛ فلما أُحضرت بين يديه قال لوكيل صاحب مصر : لا والله لاأقبلها ولا أثقل عليه بذلك ، ثم فتح الأسفاط وأخذ منها منديلا لطيفاً وضعه تحت فخذه ، وأمر بالمال فحُمل إلى خزانة الديوان وصُحح بها » .

وكذلك حاز هذا الوزير محبة الجند ، فلم يخالفوا له أمرا . ومن مظاهر حبهم إياه ماحدث عند قتل الخليفة المتوكل ؛ فقد خاف هذا الوزير على نفسه ، فبادر الجند إلى الاجتماع على بابه ، وقالوا له : أنت أحسنت إلينا فى حال وزارتك . وأقل مايجب لك علينا أن نحتفظ بك ونحرسك فى مثل هذه الفتنة(٢).

ولم يكن للوزارة فى عهد المنتصر بن المتوكل شأن يذكر لقصر عهده واستبداد الأتراك بأمور الدولة . فلما ولى المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) أقر أحمد بن الخصيب وزير المنتصر ، ولكنه لم ينعم بالوزارة أكثر من شهرين ، فاستوزر هذا الخليفة أبا صالح عبدالله بن محمد بن يزداد ، وكان من أشهر كتاب عصره وأقدرهم فى إدارة أمور الدولة ، فاستطاع أن يضبط الأموال ويضيق على الأمراء ، فتهددوه بالقتل وأرغموه على الهرب . فلم يستوزر المستعين بعده أحدا ، وإنما كان يعين كتابا يقومون بأعمال الوزراء(٣)، فكانت منزلة الكتاب فى هذا العصر كمنزلة أصحاب الوساطة فى العصر الفاطمى.

ثم اتخذ الخليفة المهتدى بالله (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) أبا الفضل جعفر بن محمود الإسكافى ، وكان قد وزر للمعتز ، وزيرا له ؛ فلم يلبث أن عزله ، واستوزر سليمان بن وهب الذى امتاز بفضله وكرمه وحسن إدارته للدولة . ولد سليمان فى إحدى قرى واسط ، حيث كانت تقيم أسرته التى كانت تدين بالنصرانية ثم أسلمت . وقد تقلد رجال من هذه الأسرة بعض المناصب فى الدواوين . « وكان سليمان أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلا وأدباً وكتابة فى الدرج والدستور ، وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم» . وقد دخل فى خدمة المأمون فأعجب به حتى كان لا يهم بعمل شىء من أعمال الدواوين إلا قال : هاتوا سليمان بن وهب .

وفى ذلك يقول أحد الشعراء :

أبوك كلفك الشأو البعيد كما ... قدماً تكلفه وهب أبو حسن

فلستَ تُحمَدُ إن أدركتَ غايته ... ولستَ تُعذَرُ متسبوقاً فلا تهن

ولما ولى الواثق الخلافة طالب سليمان بن وهب بمال وحبسه ، وظل فى حبسه حتى قتل ، فخرج من الحبس واختفى وقال فى ذلك شعراً :

نوائب الدهر أدبتنى ... وإنما يوعظ الأديب

---

(١) ص ٢١٧

(٢) الطبرى : ج ١١ ص ٢٧ ، ٦٧ — ٨٦

(٣) الفخرى ص ٢٢٠

قد ذقت حلواً وذقت مراً كذاك عيش الفتى ضروب
ما مرّ بؤس ولا نعيم إلا ولى منهما نصيب

وكان بنو وهب — كما كان البرامكة وبنو سهل من قبلهم — « من رؤساء الناس وحذاقهم وفضلائهم وكرمائهم. وكانت دولتهم ناضرة وأيامهم مشرقة، والأدب فى زمانهم قائم المواسم والكرم واضح المعالم »(١).

ولما ولى المعتمد الخلافة (٢٥٦ هـ) ضعف شأن الوزراء، لاستبداد أخيه الموفق بأمور الدولة دونه. وفى عهده تقلد الوزارة عبيد الله بن يحيى بن خاقان على كره منه، لأنه وقف على أحوال الدولة واستبداد الموفق والأتراك بأمورها. ولما مات ابن خاقان استوزر المعتمد الحسن بن مخلد كاتب أخيه الموفق، فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق. وكان ابن مخلد من أشهر كتاب عصره وأكثرهم دراية بادارة الدولة (٢). ومن أشهر وزراء المعتمد عبيد الله بن سليمان بن وهب الذى مدحه أحد الشعراء فى هذه الأبيات (٣):

إذا أبو قاسم جادتْ يداه لنا لم يُحمد الأجودان البحر والمطر
وإن مضى رأيه أو حدُّ عزمته تأخر المـــاضيان السيف والقدر
وإن أضاءت لنـــا أضواء غرته تضاءل النّيران الشمس والقمر
من لم يبتْ حذِراً من حد صولته لم يدر ما المزعجان: الخوف والحذر
ينال بالظن ما يعيا العيان به والشاهدان عليه: العين والأثر

ولما مات عبيد الله بن سليمان بن وهب عمل المعتضد على استصفاء أموال أهل بيته واستئصال شأفتهم. إلا أن ابنه القاسم بن عبيد الله كتب إلى الخليفة وعرض عليه أن يدفع ألفى ألف دينار، فقلده الوزارة. وهكذا استطاع أن يشترى هذا الكرسى، كما احتفظ بهيبة أسرته الفارسية العريقة التى يقول فيها ابن المعتز:

لآل سليمانَ بن وهب صنائعٌ لدىّ ومعروف إلىّ تقدما
هم ذللوا لى الدهر بعد شِماسه(٤) وهم غسّلوا من ثوب والدى الدماء

ولما ولى المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) استوزر أبا الحسن على بن محمد بن الفرات سنة ٣٩٦ هـ. وقد ذكر مسكويه (٥) أنه كان مستترا، وأنه لما علم بأن الخليفة عزم على تقليده الوزارة، ظهر لرسوله وسار إلى دار الخلافة فخُلع عليه. وكان لبنى الفرات ما كان للبرامكة وبنى سهل وبنى وهب من الشهرة فى العصر العباسى. وفيهم يقول صاحب الفخرى (٦): « وبنو الفرات من أجل الناس فضلا وكرما ونبلا ووفاء ومروءة. وكان هذا أبو الحسن على بن الفرات من أجل الناس وأعظمهم كرما

(١) الفخرى ص ٢٢٣ — ٢٢٦
(٢) أنظر هذا الكتاب ص ٤٦
(٣) الفخرى ص ٢٣٠
(٤) الشماس الاباء والامتناع
(٥) تجارب الأمم ج ١ ص ٧ — ٨
(٦) ص ٢٣٨ — ٢٣٩

وجودا ، وكانت أيامه مواسم للناس . وكان المقتدر لما جرت له الفتنة وخُلع وبويع ابن المعتز ، ثم استظهر المقتدر عليه واستقرت الخلافة للمقتدر ، أرسل إلى أبى الحسن على بن الفرات ، فأحضره واستوزره وخلع عليه . فنهض بتسكين الفتنة أحسن نهوض ، ودبر الدولة فى يوم واحد ، وقرر القواعد واستمال الناس . ولم يبت تلك الليلة إلا والأمور مستقيمة للمقتدر وأحوال دولته قد تمهدت . وفى ذلك يقول بعض شعراء الدولة المقتدرية :

ودبرتَ فى ساعة دولةً تميل بغيرك فى أشهر

ولى ابن الفرات الوزارة ثلاث مرات : بقى فى الأولى ثلاث سنين وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما ، وفى الثانية سنة واحدة وخمسة أشهر وتسعة عشر يوما (٣٠٤ — ٣٠٥ هـ) ، وفى الثالثة عشرة أشهر وثمانية عشر يوما ، ثم قبض عليه وعلى ابنه المحسن سنة ٣١٢ هـ . (١)

ومن أشهر وزراء المقتدر الوزير المصلح على بن عيسى الذى استطاع أن يقرب بين العباسيين وأبى سعيد الجنابى زعيم قرامطة البحرين ، فأثار حنق عبيد الله المهدى على أبى سعيد . وكان هذا الوزير « من كبار الكتاب . اشتهر بالورع والزهد ، وفيه يقول الصولى : ما أعلم أنه وزر لبنى العباس وزير يشبه على بن عيسى فى زهده وعفته ، وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه ، وكتابته وحسابته وصدقاته ومبراته » (٢) .

وكان هذا الوزير يعطف على الفقراء والمعوزين ، حتى إنه كان ينفق عليهم نصف خراج ضياعه ، وكانت غلتها تدر عليه نيفا وثمانين ألف دينار فى كل سنة . كما وقف كثيرا من الأوقاف ، وأفرد لها ديوانا سماه « ديوان البر » ، خصص الأموال التى ترد اليه لإصلاح الثغور والحرمين . ولم تقتصر إصلاحات هذا الوزير على ذلك ، بل ضبط الدواوين ونظم شئون الدولة الداخلية ، فاستتب الأمن فى عهده بحسن سياسته ومهارته الإدارية وحرصه على نشر العدل بين الرعية ، حتى كان يجلس بنفسه للمظالم . على أن بقاء هذا الوزير المصلح فى الحكم لم يطل ، بسبب إسراف الخليفة المقتدر ، وعزله الوزراء والقبض عليهم ، وتدخل النساء فى أمور الدولة . وقد قيل فى سبب عزله إن أم موسى قهرمانة « السيدة » أم الخليفة أرسلت إليه تطلب تقديم المال اللازم لعيد الأضحى ، ولكنه اعتذر ، فغضبت وأوغرت صدر « السيدة » عليه ، فقبض عليه غداة يوم الإثنين ٨ ذى الحجة سنة ٣٠٤ هـ (٣)

خلف على بن عيسى فى الوزارة حامد بن العباس ، وكان كريما مدققا فى استخراج الأموال . وقد تم على يديه قتل الحسين بن منصور الحلاج فى سنة ٣٠٩ هـ . غير أن هذا الوزير كان قليل الخبرة بأمور الوزارة ، فضم إليه الخليفة المقتدر وزيره السابق على بن عيسى ، وجعله نائبا له . فاستطاع على بن عيسى بفضل خبرته الإدارية وإلمامه بشئون الدولة أن يقبض على زمام الأمور ، وأصبحت

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٢ ، ٣٤ ، ٤٧ ، ٥١ .
(٢) الفخرى ص ٢٣١ ، ٢٣٢
(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٦ ، هلال الصابىء : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٢٨٦ .

كلمته نافذة على جميع الولاة . أما الوزير الأصلى ، وهو حامد بن العباس ، فقد أصبح مسلوب السلطة كما يتبين من قول أحد الشعراء :

قل لابن عيسى قولة يرضى بها ابن مجاهد
أنت الوزير وإنما سخروا بلحية حامد
جعلوه عندك سُترة لصلاح أمر فاسد
مهما شككت فقل له كم واحدا فى واحد

وكان حامد يلبس السواد شعار الدولة العباسية ، ويجلس فى دست الوزارة . أما على بن عيسى فكان يجلس بين يديه كالنائب بملابسه المعتادة . وقال فى ذلك بعض الشعراء :

أعجب من كل ما رأينا أن وزيرين فى بلاد
هذا سواد بلا وزير وذا وزير بلا سواد(١)

وهكذا ساءت حالة الخلافة العباسية الداخلية فى عهد الخليفة المقتدر ، واضطربت الأمور بسبب هذه السياسة التى اتبعها فى تعيين وزرائه وعزلهم ، حتى تقلد الوزارة فى عهده نحو اثنى عشر وزيرا ، عزل بعضهم مرارا ، كأبى الحسن بن على بن الفرات وعلى بن عيسى . أضف إلى ذلك اعتماده على وزراء ضعاف كأبى على محمد بن مقلة الذى تدخل فى أعمال الدواوين تدخلا شائنا ابتغاء زيادة ثروته . ثم استوزره المقتدر فى سنة ٣١٦ هـ وخلع عليه ، ولكنه لم يلبث أن عزله . ومازالت تتقلب به الأحوال حتى آلت الخلافة إلى الراضى (سنة ٣٢٢ هـ) ، فاتخذه وزيرا له ، ثم عزله لوشاية أعدائه به ، وحبسه بعد أن قطعت يده اليمنى . وكان يبكى على يديه ويقول : « قد خدمت بهما الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة من الخلفاء (٢) ، وكتبت بهما القرآن دفعتين . تقطع كما تقطع أيدى اللصوص ! أتذكر وأنت تقول لى أنت فى آخر نكبة : وإن الفرج قريب ؟ فقلت بلى ! والآن ينبغى أن تتوقع الفرج ، فإنه قد عمل بك ما لم يعمل بنظيرك . وهذا انتهاء المكروه ، وما بعد الانتهاء إلا الانحطاط ، فقال : لا تفعل فان المحنة قد تشبثت بى كما تشبثت حمى الدق بالأعضاء فلا تفارقنى حتى تؤدينى إلى الموت . ثم تمثل بهذا البيت :

إذا مامات بعضُك فابك بعضا فبعض الشىء من بعض قريب(٣)

اضطربت أمور الخلافة العباسية بعد ابن مقلة ، فثار الجند على الوزير أبى القاسم عبيدالله بن محمد الكلواذانى ، فاعتزل الوزارة بعد شهرين ، ثم خلفه الحسين بن القاسم بن عبيدالله بن سليمان بن وهب ، الذى عرف بالضعف وسوء السيرة . ولم يقدر على ضبط أمور الدولة وعجز عن إصلاح ما فسد منها ، فقبض عليه الخليفة المقتدر وخلعه (٤)

على أنه ، إذا كان بعض وزراء المقتدر احتفظوا بشىء من النفوذ ، فقد عجز الوزراء فى عهد

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٤٢ .
(٢) هؤلاء الخلفاء الثلاثة هم : المقتدر والقاهر والراضى .
(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٣٣٨ .
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢١٥ — ٢٢٠

الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) عن إدارة الدولة بسبب ازدياد نفوذ القواد . واضطر هذا الخليفة إلى تقليد ابن رائق شئون الدولة كافة وتلقيبه « بأمير الأمراء » . ولم يبق للوزراء شيء من النفوذ ، واقتصرت أعمالهم على الحضور إلى دار الخلافة فى أيام المواكب مرتدين السواد ، متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من شعار الوزارة . وأصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء . (١) « واستمر الاستبداد وصار الأمر لملوك العجم وتعطل رسم الخلافة . ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة ، واستنكفوا من مشاركة الوزراء فى اللقب ، لأنهم خول لهم ، فتسموا بالإمارة والسلطان . وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان ، إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه كما تراه فى ألقابهم ، وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة فى خاصته . ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم . وفسد اللسان خلال ذلك كله ، وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس ، فامتهنت ، وترفع الوزراء عنها لذلك ، ولأنهم عجم . وليست تلك البلاغة هى المقصودة من لسانهم ، فتخير لها من سائر الطبقات ، واختصت به ، وصارت خادمة للوزير واختص اسم الأمير بصاحب الحروب والجند وما يرفع إليها ، ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب ، وأمره نافذ فى الكل ، إما نيابة واستبدادا (كذا فى الأصل) ، واستمر الأمر على هذا » (٢) .

٢ — الوزارة فى عهد بنى بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) :

ولما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، استبدوا بأمور الخلافة ، وقضوا على نفوذ الخلفاء ، وزال نفوذ الوزراء ، لأن بنى بويه حلوا محلهم . ويقول صاحب الفخرى (٣) : « اضطربت أحوال الخلافة ، ولم يبق لها رونق ولا وزارة ، وتملك البويهيون ، وصارت الوزارة من جهتهم والأعمال إليهم . وقرر للخلفاء شيء طفيف برسم إخراجاتهم » . واتخذ بنو بويه لأنفسهم وزراء استعانوا بهم فى إدارة شئون الدولة » .

ومن أشهر وزراء بنى بويه أبو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة بن بويه (٣٣٠ — ٣٦٦ هـ) . وكان أبوه أبو عبد الله الحسين بن محمد الكاتب الملقب بالعميد وزير مرداويج بن زيار الديلمى . وقد عرف له على بن بويه (عماد الدولة) فضله بعد أن ساعده على الخروج من وجه مرداويج والسير إلى بلاد الكرج التى آل إليه حكمها (٤) . وكان لأبى الفضل بن العميد أثر كبير فى إدارة شئون الرى وهمذان وأصبهان فى عهد ركن الدولة بن بويه ، فاستوزره فى سنة ٣٣٨ هـ(٥) ، « وضبط أعماله ونظم أموره ورتب أسباب خدمته ، حتى كان أكثر نهاره مشغولا بالعلم وأهله . وبسط عدله وأقام هيبته فى صدور الجند والرعية ، حتى كان يكفيه رفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار ، فترتعد الفرائص وتضطرب الأعضاء وتسترخى المفاصل » .

---

(١) حسن ابراهيم حسن ، وعلى ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ١٦٣ — ١٦٤ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧ — ٢٠٨ (٣) ص ٢٥٨ .
(٤) أنظر هذا الكتاب ص ٩٩ . (٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥٧ .

كما كان لأبى الفضل بن العميد أثر كبير فى تنشئة عضد الدولة (١)، وتعليمه أصلح الطرق لتدبير ملكه. وكان عضد الدولة يذكر له هذا الصنيع ويشيد بفضله حتى كان يدعوه «الأستاذ الرئيس»(٢).

ولا غرو فقد كان «أبو الفضل (بن العميد) — كما يقول ابن خلكان (٣) — متوسعا فى علوم الفلسفة والنجوم. وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد فى زمانه. وكان يسمى الجاحظ الثانى. وكان كامل الرياسة جليل القدر من بعض أتباعه الصاحب بن عباد». وهو الذى قيل فيه: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد. وكذلك كان أبو الفضل بن العميد قائدا ماهرا؛ فقد أثر عنه أنه انتصر على ابن ماكان فى الرى وأصبهان وأسره فى سنة ٣٤٤ هـ، ومات وهو فى طريقه لحرب حسنويه زعيم الأكراد سنة ٣٦٠هـ (وقيل سنة ٣٥٩ هـ) (٤)

ورث أبا الفضل بن العميد فى مواهبه العلمية والإدارية والحربية ابنه أبو الفتح على بن محمد العميد. وقد صحب أباه فى حرب حسنويه الكردى؛ فلما عاد إلى ركن الدولة فى الرى استوزره بعد أبيه، فبقى فى الوزارة إلى أن مات ركن الدولة. ولأبى الفتح بن العميد أثر كبير فى فض النزاع الذى قام بين ركن الدولة وابنه عضد الدولة الذى عمل على أخذ بلاد العراق من يد ابن عمه عز الدولة بختيار (٥). وقد عرف بختيار لأبى الفتح حسن بلائه فى إقرار سلطنته بالعراق؛ فأبقاه فى بغداد، وخلع عليه سنة ٣٦٦ هـ، ولقبه ذا الكفايتين لمهارته الحربية وعلو كعبه فى العلم وحذقه فى السياسة. وكان يركب مع ابن بقية وزير بختيار، كما اتفق مع بختيار سراً على أن يتقلد الوزارة فى العراق بعد وفاة عضد الدولة. ولما علم بذلك عضد الدولة حنق عليه وأضمر له العداء. ولما مات ركن الدولة صاحب الرى وهمذان وأصبهان سنة ٣٦٦ هـ، استوزره ابنه مؤيد الدولة. ولكن النزاع لم يلبث أن قام بين أبى الفتح بن العميد والصاحب بن عباد، فانتهز عضد الدولة هذه الفرصة، فألقى بابن العميد فى السجن، وصودرت أملاكه، وعذب حتى وافته منيته فى هذه السنة (٦).

ومن أشهر وزراء بنى بويه الصاحب إسماعيل بن عباد الذى قلده الوزارة مؤيد الدولة بن ركن الدولة بعد أبى الفتح بن العميد، ثم أقره فخر الدولة فى الوزارة سنة ٣٧٣ هـ. وقد تقلد أبوه عباد الوزارة فى عهد ركن الدولة: وروى ابن خلكان (٧): أن الصاحب نشأ «من الوزارة فى حجرها، ودب ودرج من وكرها، ورضع أفاويق دَرها، وورثها عن آبائه، كما قال أبو سعيد الرستمى فى حقه:

ورث الوزارة كابراً عن كابر ... موصولة الإســـناد بالإسناد
يروى عن العباس عبـاد وزا ... رته وإسماعيل عن عبـــاد

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٨١ (٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٨١ — ٢٨٢.
(٣) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥٧.
(٤) أنظر «أبو الفضل بن العميد» فى دائرة المعارف الاسلامية.
(٥) أنظر هذا الكتاب ص ١٩٧، مسكويه: تجارب الامم جـ ٢ ص ٣٤٨ — ٣٥٢.
(٦) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٣٣٧. (٧) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٧٥.

وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء ، لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد ، فقيل له صاحب ابن العميد . ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تقلد الوزارة وبقى علما عليه . وقد قيل إنه لقب الصاحب لأنه كان يصحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة الذى أطلق عليه « الصاحب » ، فاشتهر به ثم سمى به كل من تقلد الوزارة بعده .

وكان الصاحب بن عباد فوق ذلك قائداً ، فقد قام فى سنة ٣٧٧هـ (٩٨٧ — ٩٨٨ م) على رأس جيش لغزو طبرستان . واستولى على بعض قلاعها ونظم أمورها . كما كان شاعراً مجيداً ، حتى قيل إنه اجتمع عنده ما لم يجتمع عند غيره من الشعراء الذين مدحوه بغرر القصائد . وظل على ذلك إلى أن مات فى شهر صفر سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥م) ودفن بأصبهان (١) . وقد نصح لفخر الدولة الذى زاره فى مرضه الأخير بقوله : « قد خدمتك أيها الأمير خدمة استفرغت قدر الوسع ، وسرتُ فى دولتك سيرة جلبت لك حسن الذكر بها . فان أجريتَ الأمور بعدى على نظامها وقررت القواعد على أحكامها ، نُسب ذلك الجميل السابق إليك ، ونُسيتُ أنا فى أثناء ما يثنى به عليك ، ودامت الأحدوثة الطيبة لك . وإن غيرت ذلك وعدلتَ عنه ، كنتُ أنا المشكور على السيرة السالفة ، وكنتَ أنت المذكور بالطريقة الآنفة ، وقَدح فى دولتك ما يشيع فى المستقبل عنك . فأظهر فخر الدولة قبول رأيه » (٢) .

٣ — الوزارة فى مصر

(ا) فى عهد الطولونيين والإخشيديين :

لم تعرف الوزارة فى مصر فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، لأن هؤلاء الخلفاء لم يكونوا قد استحدثوا نظام الوزارة بعد ، بل كانوا يرسلون إلى هذه البلاد ولاة يديرونها باسمهم . أما فى العصر العباسى ، فنرى أحمد بن طولون يتخذ أحمد بن محمد الواسطى كاتباً له . وكان يضطلع بأعباء الوزارة دون أن يلقب بلقب الوزير (٣) ، وقد استوزر خمارويه بن أحمد بن طولون أبا بكر محمد بن رستم المادرائى الكاتب (٤) .

وقد تقلد الوزارة بمصر فى عهد الدولة الإخشيدية أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى ابن الحسن بن الفرات المعروف بابن حنزابة (٥) . وكان تقليد ابن الفرات الوزارة من قبل الخليفة الراضى الذى أطلق يده فى تدبير الأمور ، وليس من قبل الإخشيد كما جرت العادة فى الولايات . ولم يلبث هذا الوزير أن ارتبط بالإخشيد برباط المصاهرة بزواج ابنه جعفر من ابنة الإخشيد (٦) ، وأن

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٧٥

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ج ٣ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ٢ ص ١١٦ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٩ ، والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٠ .

(٥) نسبة إلى أمه حنزابة وكانت جارية رومية . والحنزابة المرأة القصيرة الغليظة (ابن دقاق : كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٥٧) .

(٦) ابن سعيد : كتاب المغرب فى أخبار المغرب ص ١١ .

ذلك أدى إلى توطيد علاقات المودة بينه وبين والى هذه البلاد الذى كان يخرج لوداعه إذا غادر البلاد أو لاستقباله إذا عاد اليها (١) . وكان ابن الفرات يتمتع بمركز ممتاز فى الدولة العباسية حتى إنه تقلد الوزارة فى بغداد سنة ٣٢٦ هـ ، ولكنه آثر العودة إلى مصر لاستبداد أمير الأمراء بالسلطة ، ولكن المنية عاجلته وهو فى الرملة فى ١٨ جمادى الأولى سنة ٣٢٧ هـ (٢) . فقلد الخليفة الراضى ابنه أبا الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة أيضاً نسبة إلى جدته ، على ما كان بيد أبيه ، فبقى فى هذا المنصب فى عهد الإخشيد ، وفى عهد وصاية كافور ، ثم فى عهد أحمد بن على بن الإخشيد ، وقبض على كثير من رجالات الدولة ، مثل يعقوب ابن كلس ، ثم أطلقه ، ولكنه لم يعد يأمن على نفسه ، فخرج من مصر فى شهر شوال سنة ٣٥٧ هـ . ولما اشتد إيذاء جعفر بن الفرات للناس قبض عليه أبو محمد الحسين بن عبيد الله بن طغج صاحب الرملة عند ما قدم إلى مصر سنة ٣٥٧ هـ وصادر أمواله ، ثم أخلى سبيله فعاد إلى بلاد الشام .

ظل أبو الفضل جعفر بن الفرات فى الوزارة إلى أن جاء المعز الفاطمى إلى مصر ، فعزله ، لأنه كان سنياً . وقد أبى جوهر فى بادىء الأمر أن يلقبه بالوزير ، وامتنع عن مخاطبته بهذا اللقب وقال : ما كان وزير خليفة . إلا أنه أقره فى منصبه تمشياً مع سياسته العامة التى كانت ترمى إلى عدم إحلال الشيعيين محل السنيين فى المناصب دفعة واحدة حتى لا يقف دولاب الأعمال الحكومية . ولكن ابن الفرات لم يبق له من الوزارة إلا اسمها ، وضعف نفوذه إلى حد كبير ، حتى جاء المعز مصر فاعتذر ابن الفرات عن البقاء فى دست الوزارة (٣) .

والواقع أن الفاطميين فى المغرب لم يقلدوا أحداً الوزارة ، بل أطلقوا على من كان يعمل عمل الوزير اسم الحاجب اقتداء بالأمويين فى الأندلس ، حتى إن الخليفة المعز لما أجاب ابن الفرات إلى طلب اعتزال الوزارة عهد إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن فى إدارة شئون الدولة الفاطمية المدنية والحربية ، ثم قلدهما أمور الدولة التى يضطلع بها الوزراء . على أن ابن كلس لم يتول الوزارة إلا فى عهد الخليفة العزيز .

(ب) فى عهد الفاطميين :

وكانت الوزارة فى العصر الفاطمى الأول (٣٥٨ — ٤٦٥ هـ) وزارة تنفيذ ، لأن الخلفاء كانوا من القوة بحيث يستطيعون أن يديروا أمور الدولة بأنفسهم . ومن أشهر وزراء هذا العصر يعقوب ابن كلس وكان يهودياً . وقد اتصل بكافور الإخشيدى ، فعهد إليه فى عمارة داره ، وأعجب بكفايته ونزاهته ، ووكل إليه الأشراف على ديوانه الخاص . ولم يلبث أن ازداد نفوذه حتى شمل كل دواوين

---

(١) ابن سعيد ص ١٦ — ١٨ . (٢) المصدر نفسه ص ٢٤ .

(٣) لم تفته حياة ابن الفرات بعزله عن منصبه ، فقد تولى الوزارة فى عهد العزيز سنة كاملة ، كما استعان يعقوب ابن كلس فى عهد العزيز (٣٨٣ — ٣٨٤ هـ) به فى محاسبة العمال وتولى الخراج قبل ذلك بسنة ، وتوثقت أواصر الصداقة بينهما بزواج أبى العباس الفضل ابن الوزير جعفر بن الفرات من ابنة الوزير ابن كلس . انظر كتاب « النظم الإسلامية » للمؤلف ص ١٧٠ .

الدولة ، وأصبح لا يصرف شيء من المال إلا بتوقيعه . ثم أسلم ، فزادت مكانته عند كافور حتى مات كافور سنة ٣٥٧ هـ ، فضعف نفوذ ابن كلس بجانب نفوذ الوزير جعفر بن الفرات ، فلم ير ابن كلس بدا من الذهاب إلى المغرب حيث اتصل بالخليفة المعز ، ثم عاد إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ وتولى شئون الدولة المدنية والحربية كما تقدم .

وقد وصف ابن منجب الصيرفى[1] علاقة يعقوب بن كلس بالخليفة الفاطمى المعز وابنه العزيز وكيفية تقليده الوزارة ، وما خلع عليه من الألقاب وما أسبغ عليه من المنح ، كما وصف أثره فى العلم والأدب فى هذه العبارة فقال :

« وخدم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلى الله عليه ، وخص بخدمته وتولى أموره . وفى شهر رمضان سنة ثمان وستين وثلثمائة ، لقبه بالوزير الأجل ، وأمر أن لا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا به . وخلع عليه وحمل ورسم له فى سنة ثلاث وستين وثلثمائة أن يبدأ فى مكاتباته باسمه على عنوانات الكتب النافذة منه وخرج توقيع العزيز عليه السلام بذلك . وفى هذه السنة اعتقله فى القصر ورد الأمر إلى جبر بن القاسم ، فأقام معتقلا شهوراً ، ثم أطلقه فى سنة أربع وسبعين وثلثمائة ، وحمله على الخيل بالسروج واللجم والثقال ، وقرىء له سجل برده إلى ما كان له من تدبير الدولة ، ثم قرىء له سجل يهبه خمسمائة من الناشئية وألف غلام من المغاربة ، لا رجعة فيهم ولا مثنوية[2] . وإنا ملكناه أعناقهم وحكمناه فيهم ، فمن أراد أن يبيعه باعه ، ومن أراد أن يعتقه عتقه . وكان الوزير أبو الفرج فى سنة سبعين وثلثمائة أحضر جماعة من الفقهاء وأهل الفتيا ، وأخرج لهم كتاب فقه عمله ، وقال : هذا عن مولانا العزيز بالله عليه السلام عن آبائه الكرام . وقرأ عليهم رسالته ، وبعض كتاب الطهارة . وهذا الكتاب يعرف بالرسالة الوزيرية » .

وكان ابن كلس يجلس للمظالم كل يوم بعد صلاة الصبح ، فيدخل عليه الناس بظلاماتهم . واتخذ فى قصره عدة دواوين ، جعل إلى بعضها النظر فى شئون الجيش والمالية والسجلات وما يتعلق بجباية الخراج ، وعين لكل ديوان ما يحتاج إليه من الموظفين[3]

وبوفاة يعقوب بن كلس ضعفت الوزارة ثم تحولت إلى ما يسمى «الوساطة» خوفا من ازدياد نفوذ الوزراء . ففى أوائل عهد الحاكم (٣٨٦ — ٤١١ هـ) عزل عيسى بن نسطورس — وكان نصرانياً — لمحاباته أهل ملته وتقليدهم مناصب الدولة العامة ، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين «الوساطة» ، وتلقب بلقب «أمين الدولة»[4] (٣ شوال سنة ٣٨٦ هـ) . ولكمنه حابى الكتاميين وأبطل أعطيات الأتراك . ونفذت أوامره فى الخزائن والأموال إطلاقاً وعطاء ، حتى على جوارى القصر هبة وعتقا ، واستولى أصحابه وقلت مبالاتهم ، وأشاروا عليه بقتل الحاكم ، فلم يعبأ به استصغاراً لسنه

---

(١) الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٢١ — ٢٢ . (٢) أى بلا استثناء .

(٣) كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ١٧٢ .

(٤) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه ج ٣ ص ٢٢٢ .

واستهانة لأمره »(١). وقد تقلد الوساطة بعد ابن عمار « برجوان » أستاذ الحاكم ومستشاره (رمضان سنة ٣٨٧ هـ). وكان يستعين فى إدارة شئون الدولة بكاتبه أبى العلاء فهد بن إبراهيم — وكان نصرانيا. وظل برجوان يدبر شئون الدولة الفاطمية ويشرف على الخليفة الذى ضاق بأستاذه ذرعا، فأمر بقتله فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٩٠هـ(٢)، فحل محله الحسين بن جوهر القائد الذى استعان بفهد بن إبراهيم، وكان يلقب «الرئيس». « وكانا يدبران وينفذان فى القصر، واستمرا على ذلك إلى أن زال أمر الرئيس فى جمادى الآخرة من سنة ٣٩٣ هـ (حيث) قتل وأُحرق، وأقام قائد القواد (يعنى الحسين بن جوهر) على أمره. ثم خاف وهرب هو وابن النعمان، وكتب لهما أمانان، فعادا، وبطل أمر قائد القواد فى النظر (ثم) قتل »(٣).

وإن من يستقصى تاريخ الوزارة فى عهد الخليفة الحاكم يرى أن كثيرا من الوزراء كانوا من أهل الذمة، وأنهم كانوا لا يستقرون فى الحكم طويلا، لمحاباتهم أبناء جلدتهم وتذمر المسلمين منهم. ففى المحرم سنة ٤٠١ هـ أقيل ابن عبدون النصرانى من الوزارة، وخلفه أحمد بن محمد القشيرى، ولكنه عزل بعد عشرة أيام، ثم قتل وحل محله فى الوزارة زُرعه أخوعيسى بن نسطورس وتلقب بالشافى(٤). وفى سنة ٤٠٣ هـ تقلد « الوساطة » الحسين بن طاهر الوزان وتلقب « بأمين الأمناء »، وخلع عليه الحاكم « خلع الوساطة والتوقيع عن الحضرة ». واستمر فى دست الوزارة إلى أن قتل فى شهر جمادى الآخرة سنة ٤٠٥ هـ (٥). وقد بلغ من ضعف شأن الوساطة أن بعضهم كان لا يستقر فيها أياما معدودات، كما كان يتولى الوساطة أكثر من واحد. ففى شهر شعبان سنة ٤٠٥ هـ تقلد هذه الوساطة الحسن وعبد الرحمن ابنا أبى السيد فى وقت واحد وخلع عليهما، إلا أنهما لم يلبثا أن قتلا ولما يستقرا غير شهرين. وكذلك تولى الوساطة أبو العباس الفضل بن الوزير جعفر بن الفرات، ولكنه لم يستقر فى منصبه وخلع بعد خمسة أيام فقط (٦).

ومن أشهر وزراء العصر الفاطمى الأول أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح، الذى لقب « وزير الوزراء ذى الرياستين الآمر المظفر قطب الدولة ». وقد وصفه ابن منجب الصيرفى(٧) فى هذه العبارة فقال: إنه « كان من أول الكتاميين بيتا وأجلهم قدرا ... وكان أوجه الأمراء فى الدولة الحاكمية، وقاد الجيوش السائرة إلى الشام، ومرض فى سنة ست وأربعمائة، فركب الإمام الحاكم إلى داره لعيادته، وحمل إليه مرتبة ديباج وخمسة آلاف دينار. وكانت هذه عادته إذا عاد أحدا. وفى رجب سنة ثمان وأربعمائة بعث بما تقدم ذكره. وكتب له سجل بذلك، فكان الناظر فى جميع رجال الدولة؛ وجعل له فى سجله ولاية الإسكندرية وتنيس ودمياط والشرطتين العليا والسفلى والحسبة والسيارتين

---

(١) أبو شجاع ج ٣ ص ٢٢٢ (٢) ابن منجب الصيرفى: الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٧
(٣) المصدر نفسه ص ٢٨ (٤) يحيى بن سعيد: صلة تاريخ أوتيخا ص ١٩٨ — ١٩٩.
(٥) ابن منجب: الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٩ (٦) المصدر نفسه ص ٣٠
(٧) المصدر نفسه ص ٣٠—٣٢

والعرض (١) والإثبات (٢) والنظر فى الواجبات (٣) . . . وفى شوال سنة تسع وأربعمائة ركب على رسمه (٤) من داره إلى القاهرة ؛ فلما صار بقرب البرك التى تلى الخليج ، لقيه فارسان متنكران ، فرماه أحدهما برمح جرحه ، وولى هاربا ، ولم يدرك ، فعاد إلى داره مجروحا ، ومات من جراحته غد يومه ، فركب ولى العهد وصلى عليه وواراه وحضر معه قاضى القضاة » .

ومن أشهر رجال هذا العصر الذين تقلدوا الوساطة والوزارة أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى (٥) وقد تقلد بعض المناصب العالية فى عهد الحاكم ، ثم تقلد الوساطة مع جليل الدولة أبى عبد الله محمد ابن العداس ، وذلك فى أوائل خلافة الظاهر الفاطمى (٤١١ — ٤٢٧ هـ) ، فبقيا معاً فى الوساطة سبعة أشهر . ولكن الجرجرائى لم يتقلد « الوزارة » إلا فى سنة ٤١٨ هـ ، وبقى فيها حتى مات الخليفة الظاهر فأقره ابنه المستنصر فى منصبه حتى مات سنة ٤٣٦ هـ (٦) .

سجل تقليد الجرجرائى الوزارة :

وقد دون ابن القلانسى (٧) سجل تقليد أبى القاسم الجرجرائى الوزارة . ومما جاء فيه :

« أما بعد . . . وإن أحق من عول عليه فى الوزارة وأسند إليه أمر السفارة ، ونصب لحفظ الأموال وتمييزها وسياسة الأعمال وتدبيرها وإيالة طوائف الرجال كبيرها وصغيرها ، من كان حفيظا لما يستحفظ من الأمور ، قوموما بمصالح الجمهور ، عليما بمجارى السياسة والتدبير . ولذلك قال يوسف الصديق عليه السلام : اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم . ولو استغنى أحد من رعاة العباد عن وزير وظهير يكاتبه عن أمره ويظاهره ، لكان كليم الله موسى صلى الله عليه ، وهو القوى الأمين عنه مستغنيا ، ولم يكن له من الله جل جلاله طالبا مستدعيا . وقد قال : (ربّ اشرح لى صدرى ويسّر لى أمرى واحلل عُقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى أشدُد به أزْرى واشركه فى أمرى كى نسبّحك كثيرا ونذكرك كثيرا (٨)) . ولما كنتَ بالأمانة والكفاية علما ، وعند أهل المعرفة والدراية مقدما ، وكان الكتاب على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم يسلمون إليك فى الكتابة ، ويقتدون بك فى الإصابة ، ويشهدون لك بالتقدم فى العناء ، ويهتدون بحلمك اهتداء السفْر بالنجم فى الليلة الظلماء ، ولا يتناكرون الانحطاط عن درجتك فى

---

(١) أى عرض أمور الدولة على الخليفة

(٢) يريد اثبات توقيعات الخليفة فى الأوراق والقصص التى تعرض عليه

(٣) يريد النظر فيما يجب تنفيذه من أمور الدولة (٤) أن على ما جرت به العادة

(٥) ينسب إلى جرجرايا ، إحدى قرى سواد العراق ، وقد وصل إلى مصر ودخل فى خدمة الحاكم . وشهد الاضطهادات التى حدثت فى عهده ، فسجن (٤٠٣ هـ) ثم قطعت يده فى السنة التالية ، ولكنه لم يلبث أن أسند إليه ديوان النفقات فى سنة ٤٠٦ هـ ، ولقب نجيب الدولة (٤٠٧ هـ) .

(٦) ابن منجب الصيرفى : الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٥ — ٣٧ .

(٧) ذيل تاريخ دمشق ص ٨٠ — ٨٤ . (٨) سورة طه رقم ٢٠ آية ٢٥ — ٣٤ .

الفضل لتفاوتها فى الارتفاع ، ولا يَرُدّ ذلك راد من الناس أجمعين إلا خَصْمه وقوع الاجماع . هذا مع المعروف من استقلالك بالسياسة ، واستكمالك لأدوات الرئاسة ، وتدبيرك أمور المملكة ، وما أُلف برشد وساطتك من سمو اليمن والبركة — رأى أمير المؤمنين ، وبالله توفيقه ، أن يستكفيك أمر وزارته وينزلك أعلى منازل الاصطفاء بخاص أثرته ، ويرفعك على جميع الأكفاء بتام تكرمته ، وينوه باسمك تنويها لم يكن لأحد قبلك من الظُّهراء فى دولته . فسماك بالوزير لمؤازرتك له على حمل الأعباء ، ووكد هذا الاسم بالأجل ، لأنك أجل الوزراء ، وعزز ذلك بصفى أمير المؤمنين وخالصته ، إذ كنت أعز الخلصاء والأصفياء ، وشرفك بالتسمية تسميقا بك فى العلياء ، ودعا لك بأن يمتعه الله بك ويؤيدك ويعضدك دعاء يجيبه فيك رب السماء . فأنت الوزير الأجل صفى أمير المؤمنين وخالصته المحبو بالمن الجسيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وأمر أمير المؤمنين بأن تدعى بهذه الأسماء وتخاطب وتكتب بها عن نفسك وتكاتب . ورسم ذكر ذلك فيما يجرى من المحاورات وإثباته فى ضروب المكاتبات ، ليثبت ثبوت الاستقرار ، ويبقى رسمه على مر الليالى والنهار . فاحمد الله تبارك وتعالى على تميز أمير المؤمنين لك بتشريفه واختصاصه ، وإحلاله إياك أعلى محال خواصه . واجر على سننك الحميد فى خدمته ومذهبك الرشيد فى مناصحته ، إذ كان قد فوض إليك أمر وزارته ، وجعلك الوسيط بينه وبين أوليائه وأنصار دعوته وولاة أعمال مملكته وكتاب دواوينه وسائر عبيده ورعيته شرقا وغربا وقربا وبعدا ، وأمضى توقيع من تنصبه للتوقيع عن أمير المؤمنين فى الإخراج والإنفاق والإيجاب والإطلاق ، وناط بك أزمة الحل والعقد والإبرام والقبض والبسط والإثبات والحط والتصريف والصرف ، تفويضا إلى أمانتك التى لا يقدح فيها معاب ، وسكونا إلى ثقتك التى لا يلم بها ارتياب ، وعلما بأنك تورد وتصدر عن علم وحزم تفوق فيهما كل مقاوم ، ولا تأخذك فى المناصحة لأمير المؤمنين والاحتياط له لومة لائم ، وجميع ما يوصّى به غيرك ليكون له تذكرة وعليه حجة ، فهو مستغنى عنه معك لأنك تغنى بفرط معرفتك عن التعريف ، ولا تحتاج مع وقوفك على الصواب ، وعلمك به إلى توقيف . غير أن أمير المؤمنين يؤكد عليك الأمر بحسن النظر لرجال دولته دانيهم وقاصيهم ، بارك الله فيهم ، وأن يتوفر على ما يعود بصلاح أحوالهم وانفساح آمالهم وانشراح صدورهم وانتظام أمورهم ، إذ كانوا كتائب الإسلام ومعاقل الأنام وأنصار أمير المؤمنين المحفوفين بالإحسان والإنعام ، حتى تحسن أحوالهم بجميل نظرك ويزول سوء الأثر فيهم بحسن أثرك . وكذلك الرعايا بالحضرة وأعمال الدولة ، فآمرهم من المعنى به والمسئول عنه . وأمير المؤمنين يأمرك بأن تستشف خبرة الولاية فيهم . فمن ألفيته من الرعية مظلوما ، أوعزت بنصفته ، ومن صادفته من الولاة ظلوما تقدمت بصرفه وحسم مضرته ومعرته » .

خلف الجرجرائى فى الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى ، ولقبه الخليفة المستنصر « تاج الرياسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين[1] » . وكان الفلاحى يهودياً ثم أسلم . وقد أشار الجرجرائى قبل موته بتقليده الوزارة . ولكن الفلاحى لم يكن له من مركز الوزارة إلا الاسم ، بسبب اتساع سلطة

(١) ابن منجب الصيرفى : الاشارة إلى نال الوزارة ص ٣٨ .

أبى سعد التسترى اليهودى ، وكانت أم الخليفة المستنصر من قبلُ أمةً فى بيته ، فأهداها إلى الخليفة الظاهر . فلما مات هذا الخليفة ارتفع قدر التسترى وتقرب من المستنصر ، وأخذ « يتولى ما يخص السيدة الوالدة ، وعظم شأنه إلى أن صار ناظراً فى جميع أمور الدولة ، فلا يخرج شىء عما يرسُمه(١)، ولا يعمل الوزير إلا بما يحده له ويمثله (٢) . فكره الفلاحى ذلك وأنف منه ، فدبر عليه ، وحمل جماعة من الأتراك على قتله ، ففتكوا به عند دخوله من باب القنطرة متوجهاً إلى القصر ، وقطع لحمه وطيف به . وظن الفلاحى أن الدنيا قد صفت له ، وأنه قد أمن ما يكرهه . فما تهنأ بعمره ، ولا استمتع بنهيه وأمره ، وقبض عليه فى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، واعتقل وقتل » .

وقد ذكر ابن ميسر (٣) سبب مقتل الفلاحى فقال إن أم المستنصر حقدت عليه لعمله على قتل التسترى ، فقبض عليه ثم قتل فى المحرم سنة ٤٤٠ هـ .

وقد تلقب بعض الوزراء الذين تقلدوا الوزارة بعد المعز بألقاب منسوبة إلى الدولة كأبى محمد الحسن بن عمار الكتامى ، الذى تلقب بلقب أمين الدولة . وتلقب الحسن بن صالح بن على الروذبارى بعميد الدولة ، وتلقب زرعة أخو عيسى بن نسطورس بالشافى ، وتلقب الحسين بن طاهر بأمين الأمناء ، وتلقب أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح بوزير الوزراء ذى الرياستين الآمر المظفر قطب الدولة ، وتلقب أبو القاسم الجرجرائى بالوزير الأجل صفى أمير المؤمنين وخالصته ، وتلقب أبو منصور صدقة الفلاحى بتاج الملة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين .

وسنرى فى الجزء الرابع من هذا الكتاب أن الوزارة فى عهد المستنصر أصبحت وزارة تفويض ، وأن من تقلدها كانوا من أرباب السيوف ، بعد أن كانت وزارة تنفيذ أو وساطة يرجع من يتقلدها إلى أمر الخليفة ونهيه .

٤ — الوزارة فى الأندلس

لم يكن إطلاق لفظ الوزارة فى الدولة الأموية بالأندلس شائعاً كما كان فى الدولة العباسية فى المشرق والدولة الفاطمية فى مصر . فكان يطلق على من يضطلع بأعباء الوزارة فى الأندلس اسم الحاجب تارة واسم الوزير أو ذى الوزارتين تارة أخرى . ولهذا نرى أن الحاجب فى الدولة الأموية بالأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذى يحجب السلطان عن الخاصة والعامة كما كانت الحال عند الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين ، وإنما قصد به هنا من يتولى الوزارة بمعناها المعروف . يقول المقرى (٤) : « وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فانها كانت فى مدة بنى أمية مشتركة فى جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير ، فيسميه بالحاجب . وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة فى البيوت المعلومة لذلك ، إلى أن كانت ملوك الطوائف . فكان الملك منهم ، لعظم اسم الحاجب فى الدولة المروانية ، وأنه كان نائبا عن خليفتهم يسمى بالحاجب ، ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه

(١) يريده أو يأمر به .
(٢) أى يرسمه له ويقدره .
(٣) تاريخ مصر ص ٢ .
(٤) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٠٢ .

وظفر به . وهى موجودة فى أمداح شعرائهم وتواريخهم . وصار اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم ، وصار الوزير الذى ينوب عن الملك يعرف بذى الوزارتين . وأكثر ما يكون فاضلا فى علم الأدب ، وقد لايكون كذلك ، بل عالماً بأمور الملك خاصة» .

وقد ألقى ابن خلدون ضوءاً على نظام الوزارة فى الدولة الأموية بالأندلس ، فبين أن الحاجب كان يقوم بعمل الوزير فى الدولتين العباسية والفاطمية ، ويشرف على أعمال أصحاب الدواوين الذين يطلق على كل منهم اسم الوزير . فكان الحاجب يقوم بعمل رئيس الوزراء اليوم ، ويتولى رياسة مجلس الوزراء الذى يشرف على شئون الدولة . وهاك ماذكره ابن خلدون(١) :

« وأما دولة بنى أمية بالأندلس ، فأنفوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافا ، وأفردوا لكل صنف وزيراً : فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، وللترسيل وزيراً ، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً ، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً . وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك ، كل فيما جعل له . وأُفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت ؛ فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وخصوه باسم الحاجب . ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم ؛ فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها . فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب » .

ولم يكن مجلس الحاجب ، أو بالأحرى مجلس الوزارة ، هو وحده الذى يدير شئون الدولة ، بل كان إلى جانبه مجلس آخر يسمى « مجلس الشورى » يرأسه الأمير أو الخليفة ، ويضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من أفراد البيت الأموى .

وكان عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) أول من لقب وزيره بذى الوزارتين ، مقتديا فى ذلك بالعباسيين ، لجمعه بين خطتى السيف والقلم . ففى سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م) لقب أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذا الوزارتين ، وضاعف له راتبه . وكان هذا الموظف يقوم ببعض أعمال الحاجب إذا اشتد ضغط العمل عليه . وكان الأمويون يسندون الوزارة أحيانا إلى غير المسلمين من أهل الذمة ، كما فعل عبد الرحمن الناصر مع حسداى بن شبروط الذى بعث به سفيراً إلى أوتو إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

ولما ضعفت الخلافة الأموية فى الأندلس ازداد نفوذ الحاجب ، حتى إن الخليفة لم يعد له من الأمر شىء . وقد رأينا كيف تخلص ابن أبى عامر من جعفر بن عثمان المصحفى الحاجب فى عهد هشام المؤيد (٣٦٦ — ٣٩٩ هـ) ليصفو له الجو فى بلاد الأندلس ، وكيف جلس مكانه على كرسى الحجابة ، وأصبح الحاكم المطلق للدولة الإسلامية فى هذه البلاد حتى دعى له على المنابر وضربت السكة باسمه بعد هذا الخليفة ، ونقش اسمه على الملابس المنسوجة بالذهب كما كان ينسج اسم الخلفاء (٢) .

(ج) الكتابة :

١ — فى الدولة العباسية :

لما تعددت الدواوين فى الدولة العباسية أصبح من الضرورى تعيين طائفة من كبار الموظفين

(١) مقدمة ص ٢٠٨ . (٢) انظر هذا الكتاب (ص ٣٠٢ — ٣٠٨) للوقوف على مدى نفوذ بيت المنصور الحاجب .

للإشراف على هذه الدواوين . ويسمى كل من هؤلاء الموظفين « الكاتب » . ومن أشهر الكتاب فى العصر العباسى الثانى : كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضى . ومهنة كاتب الرسائل إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها فى الصيغة النهائية وختمها بخاتمه. كما كان يجلس مع الخليفة أو أمير الأمراء أو السلطان فى مجلس القضاء ، للنظر فى المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة . وكان كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة . وقد ذكر ابن خلدون(١) الصفات التى يجب أن تتوافر فى الكاتب عامة وفى كاتب الرسائل خاصة فى هذه العبارة فقال : « واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد من أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة . فانه معرض للنظر فى أمور العلم لما يعرض فى مجلس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ، مع ما يضطر إليه فى الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها » .

ومن أشهر الكتاب فى ذلك العصر محمد بن عبد الملك الزيات . وكان يلى ديوان الرسائل فى عهد الواثق ، وهو الذى كتب البيعة بولاية المتوكل العهد . ولما ولى المتوكل الخلافة نكبه بعد قليل (٢) . وكان الخلفاء يستعيضون عن الوزراء بالكتاب أحيانا ، كما كانت الكتابة سبيلا إلى الوزارة فى كثير من الأحيان : فنرى الخليفة المتوكل يتخذ أبا الوزير كاتبا له بعد ابن الزيات دون أن يلقبه بالوزير(٣). ونرى الخليفة المقتدر يتخذ ابن الفرات الذى ولى الكتابة من قبل وزيرا له ، وكثيرا ما نرى بعض الخلفاء يتخذون من الكتاب قوادا يعتمدون عليهم فى الغزوات . وأحسن مثل لذلك محمد بن سليمان الكاتب الذى قضى على الحسين بن زكرويه القرمطى وأزال خطره عن بلاد الشام فى سنة ٢٩١ هـ ، كما قضى على الطولونيين فى مصر فى السنة التالية .

ولم يكن اتخاذ الكتاب مقصورا على الخلفاء وحدهم ، بل كان أمراء الأمراء وسلاطين بنى بويه وعمال الأقاليم يتخذون كتابا يعاونونهم فى الإدارة . فقد اتخذ بجكم الذى تقلد إمرة الأمراء فى عهد الراضى والمتقى « الكوفى » كاتبا له . وكان لهذا الكاتب أثر كبير فى تولية المتقى الخلافة . وكذلك اتخذ توزون الذى تقلد إمرة الأمراء فى عهد المتقى أبا جعفر بن شيرزاد كاتبا له (٤) . كما نرى ابن العميد وزير ركن الدولة بن بويه فى الرى وهمذان وأصبهان ، يتخذ ابن عباد كاتبا له ويعد إليه بتنشئة مؤيد الدولة بن ركن الدولة . ولم يلبث هذا الكاتب أن ارتقى إلى رتبة الوزارة فى عهد مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة .

---

(١) مقدمة ص ٢١٥ .
(٢) الطبرى جـ ١١ ص ٢٦ .
(٣) أنظر هذا الكتاب ص ٢٣
(٤) المصدر نفسه ص ٧٣ ، ٨٥ .

٢ — فى مصر والأندلس :

ولم تعرف الوزارة فى مصر قبل عهد الإخشيديين كما تقدم ، فان أحمد بن طولون اتخذ أحمد بن محمد الواسطى كاتبا ، واتخذ بعده جعفر بن عبد الغفار المصرى . « على أنه يظهر لنا أنه لم يكن من الكفاية بحيث يستطيع الاضطلاع بأعباء هذا المنصب ، فأشار أحمد بن خاقان على ابن طولون بصرفه ، فقال له : أنا أحتمله لأنه مصرى . فقال له ابن خاقان : أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصرى على الكاتب البغدادى ، قال : لا والله ، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلدا أن يكون كاتبه منه ، وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فانه يجتمع له فى ذلك البلد أمور صالحة منها : أن تكون بطانة الكاتب وحاشيته فى ذلك البلد فيعود مرفقه على فريق من أهله ، ومنها رغبته فى اعتقاد المستغلات به فيكون صفافا (١) لجناياته . وهو مع هذا وشمله ظاهرون مستقلون فى خدمتى . والكاتب العراقى ليس كذلك ، لأنه يعتقد المستغلات فى بلده النائى عنه وعنى ، ويستبطن الرقاع ، ومن يشير عليه أن يعمر بلده الذى يعمل فيه ، وهو فى كل وقت متطلع إلى بلده . فبهذا السبب زهدت فى كتاب سر من رأى ، مع علمى بتقدمهم فى الكتابة والرجاحة ، فصوبت رأيه ورأيت عذره » (٢) .

وكانت الكتابة فى عهد الفاطميين تلى الوزارة فى الرتبة ، وكان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور ، فاذا حاز صاحبها رضاء الخليفة رشحه للوزارة فى أى وقت .

وقد اتخذ المعز لدين الله الفاطمى فى المغرب جوهرا الصقلى كاتبا له سنة ٣٤١ هـ . وكان صاحب الإنشاء والمراسلات يتقاضى فى مصر الفاطمية راتباً ضخماً ، ويليه فى الرتبة صاحب القلم الدقيق الذى يوقع على المظالم ، ويجالس الخليفة فى خلوته ، فيدارسه كتاب الله ، ويتلو عليه سير الأنبياء والخلفاء والعظماء ، ويحدثه عن مكارم الأخلاق ، ويعلمه تجويد الخط . ولما أصبح الوزير فى أواخر عهد الدولة الفاطمية صاحب السيف والقلم ، جلس للمظالم ، وإلى جانبه صاحب القلم الدقيق بدل كاتب السر . وكانت له سلطة التوقيع تحت توقيع الوزير ، بل النظر فى الشكاوى قبل انعقاد مجلس النظر فى المظالم . ويلى صاحب القلم الدقيق فى الرتبة صاحب القلم الجليل ، ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها فى الصيغة القانونية قبل عرضها على الخليفة للتصديق عليها . وكان الكتاب يختارون ممن اشتهروا بسعة الاطلاع فى الأدب وامتازوا بالقدرة فى فن الإنشاء . وفى عهد الفاطميين نبغ أبو عبد الله القضاعى (ت ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م) فى الكتابة حتى أصبح من كتاب البلاط . وقد عهد إليه الوزير أبو القاسم الجرجرائى فى أن يكتب العلامة أو الإشارة التى تذيل بها الأوراق الرسمية لإعطائها الصيغة الرسمية ، وتتكون من هذه العبارة : الحمد لله شكراً لنعمته (٣) .

وكانت الكتابة فى الأندلس تلى الوزارة فى الرتبة وتنقسم قسمين : كتابة الرسائل ، ويسمى صاحبها « الكاتب » ، ويشترط فيه أن يكون بليغاً حسن الأسلوب جزل العبارة ؛ وكاتب الزمام ،

---

(١) ضمانا

(٢) النظم الاسلامية ص ١٨١ — ١٨٢ ، نقلا عن كتاب سيرة أحمد بن طولون لابن الداية ص ١٥ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٥١ — ١٥٢ .

ويعرف بكاتب الجهبذة ، ويشترط فيه أن لا يكون ذمياً ، بل يجب أن يكون من عظماء المسلمين ووجوههم ، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير ، وفيه يقول المقرى[1] : « أعظم من الوزير وأكثر أتباعاً وأصحاباً ، وأجدى منفعة . فاليه تميل الأعناق ، ونحوه تمد الأكف ، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار » . وكثيراً ما كان هذا الكاتب غرضاً للاضطهاد والعزل والمصادرة ، ولاسيما حين ضعفت الدولة وتزعزع الأمن فيها .

(٤) الحجابة :

كان معاوية أول من اتخذ الحجاب من الخلفاء بعد مؤامرة الخوارج عليه وعلى علىّ بن أبى طالب وعمرو بن العاص ، وذلك خوفاً على حياتهم ، ومنعا لازدحام الناس على أبوابهم حتى لا ينشغلوا عن مهام الدولة . وقد حذا العباسيون حذو الأمويين فاتخذوا الحجاب وزادوا فى منع الناس من لقاء الخليفة إلا فى الأمور الهامة . ومن ثم أصبح بين الخليفة وبين الناس داران : دار الخاصة ودار العامة حيث يقابل الخليفة كل طائفة فى مكان معين حسبما يرسمه لهم الحجاب . ثم تطور نظام الحجابة فى العصر العباسى الثانى ، فاتخذ الخلفاء حجابا ثالثاً أشد من الأولين ، وفى ذلك يقول ابن خلدون[2] : « قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصا فى الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ، ويغلق بابه دونهم ، أو يفتحه لهم على قدره فى مواقيته . وكانت هذه مُسْتَنْزلة يومئذ عن الخطط مرءوسة لها ، إذ الوزير متصرف فيها بما يراه . وهكذا كانت سائر أيام بنى العباس وإلى هذا العهد (أى فى عهد المماليك) ، فهى بمصر مرءوسة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنائب » .

ولم تقتصر مهمة الحاجب فى ذلك العصر على حراسة الخليفة ومنع الناس من الاتصال به ، بل تعداه إلى التدخل فى أهم شئون الدولة ، حتى استبد بعضهم بها دون الوزراء . وكان أصحاب الدواوين يرجعون إليهم فى المسائل المتعلقة بدواوينهم ولا يفصلون فيها إلا بعد الرجوع إليهم . وكثيراً ما كان الحاجب يصبح غرضا لدسائس الوزير إذا زاد نفوذه وعظم استبداده بأمور الدولة .

ومن أحسن الأمثلة التى تؤيد صحة هذا الرأى تدبير الوزير أبى على بن مقلة مؤامرة انتهت بالقبض على محمد بن ياقوت الحاجب . وفى ذلك يقول مسكويه[3] : « كان السبب فى ذلك أن أبا على كان قلقا من غلبة محمد بن ياقوت على تدبير الأمور ، ونظره فى جباية الأموال ، وحضور أصحاب الدواوين مجلسه ، وتفرده بما يعمله الوزراء وعطلته هو ، إلى أن تم تدبيره عليه . فلما كان يوم الاثنين لست خلون من جمادى الأولى (سنة ٣٢٣ هـ) ، ركب القواد إلى دار السلطان على رسمهم فى أيام المواكب ، وحضر الوزير أبو على بن مقلة ، وأظهر الراضى أنه يريد أن يقلد جماعة من القواد عدة نواح من المملكة ، ويخلع عليهم . وحضر محمد بن ياقوت للخدمة وأبو إسحق القراريطى كاتبه معه ،

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٠٣ .
(٢) مقدمة ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .
(٣) كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٣١٨ — ٣١٩ .

وجلسوا على رسمهم فى الصحن التسعينى . ثم خرج الخدم إلى محمد بن ياقوت ، فعرّفوه أن الخليفة يطلبه ، فقام مبادراً . فلما دخل عدل به إلى حجرة قد أعدت له ، وأخذ سيفه ومنطقته ، ووُكِّل به . ثم خرج الخدم إلى أبى إسحق القراريطى ، فعرفوه أن صاحبه يطلبه ، فلما دخل عُدِل به إلى حجرة أخرى ، وحبس ، ووجه بقوم إلى دار المظفر بن ياقوت ، فقبض عليه ، وحمل إلى دار السلطان ، وحبس مع أخيه ، وكان وجد قريبا من السكر لأنه كان يشرب . ونفذت حيلة الوزير أبى على عليهم ، وتقدم إلى الغلمان الحجرية والساجية أن يصيروا إلى دار السلطان ، وأن يضربوا مضاربهم فى بابى الخاصة والعامة ليحفظوا الدار » .

ولم يكن للحاجب فى الدولة الفاطمية ما كان له من النفوذ فى العصر العباسى الثانى . ويقول ابن خلدون إنه لم يكن فى دول المغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التى كانت فيهم . « وربما يوجد فى دولة العبيديين عند استعظامها وحضارتها ، إلا أنه لقليل » . ولكن الحاجب كان — بلا شك — من رجال البلاط الفاطمى ، بدليل ما يقوله القلقشندى(٢) عن انعقاد مجلس الملك فى عهد الفاطميين : إن صاحب بيت المال والحجاب والأمناء كانوا ياخذون أمكنتهم عند الأبواب ، فى الوقت الذى يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم ، وعندئذ يأخذ أحد الأمناء فى تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة . فمن هذا نعلم أن الحاجب لم يكن يتمتع بذلك النفوذ الذى تمتع به الحاجب فى البلاد الإسلامية الأخرى . ولم تقتصر الحجابة على الخلفاء الفاطميين ، بل اتخذ كل من قاضى القضاة والوزير حاجبا أو أكثر يقفون بين يديه إذا جلس للحكم .

أما فى بلاد الأندلس فكانت الحجابة تختلف اختلافا كبيراً عنها عند العباسيين والفاطميين كما تقدم ، لاستبداد الحاجب فى الأندلس بشئون الدولة . وأحسن مثل لذلك الحاجب المنصور بن أبى عامر(٣) .

٢ — النظـــام الإدارى

(١) الإمارة على الأقاليم :

كان النظام الإدارى فى العصر العباسى الأول نظاما مركزيا ، بمعنى أن عمال الأقاليم لم تكن لهم السلطة المطلقة التى كانت لولاة الأقاليم فى عهد الأمويين . وكان الخليفة العباسى فى ذلك العصر يختار عمال الأقاليم ممن يثق بهم . ومع ذلك فانه لم يترك الوالى حرا من كل قيد ، بل قيد سلطته

(١) كتاب النظم الاسلامية للمؤلف ١٨٨ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ — ٤٨٨ ، والفاطميون فى مصر ص ٢٦٩ .
ذكر القلقشندى أنه كان يجلس بباب قاضى القضاة خمسة حجاب : إثنان بين يديه ، وإثنان على باب المقصورة ، وواحد ينفذ الخصوم (ج ٣ ص ٤٨٧) ، وكان من عادة الوزير أن تحمل له الدواة المحلاة بالذهب من خزانة الخليفة ويقف بين يديه الحجاب (ج ٣ ص ٤٩٠) .

(٣) أنظر هذا الكتاب ص ٣٠١ — ٣٠٧ .

المدنية والقضائية ، ولم يتركه كذلك فى ولايته مدة طويلة حتى لا يستبد بالأمور أو يجنح إلى الاستقلال ، كما كان يرغمه على أن يقدم بيانا مفصلا عن شئون ولايته بعد عزله ، ويصادر أملاكه إذا شك فى صدقه وأمانته ، ولذلك لم تكن وظيفة الوالى فى هذا العصر أكثر من وظيفة صورية(١) .

وكانت الدولة العباسية فى أوائل القرن الرابع الهجرى تتألف من عدة ولايات وهى : مصر ، وفارس ، والبصرة ، والأهواز ، والرى ، والشام ، وأصبهان ، والثغور (٢) .

وكان يساعد الوالى أو الأمير فى ولايته موظف كبير يسمى العامل أو صاحب الخراج ، لأن عمله مقصور على جمع الخراج وإرساله إلى بيت المال بحاضرة الدولة والانفاق على ما تتطلبه الولاية من ضروب الإصلاح . وكان هذا الموظف لا يقل فى المنزلة عن الوالى أو الأمير ، فيخاطب فى المراسلات الخاصة به بما يخاطب به الوالى ، كما ترسل المنشورات إليه فى الوقت الذى ترسل فيه إلى الوالى ، الذى لا يمتاز عنه إلا بالصلاة بالناس فى المسجد . مما يجعل ولايته أعم من العامل أو صاحب الخراج . وإذا اتفق كل من الوالى والعامل ، كان هذا الاتفاق مصدر خير للولاية . وكثيراً ما أدى اتفاقهما إلى إثارة المتاعب على الدولة نفسها . ففى سنة ٣١٩ هـ استطاع والى فارس وكرمان وعامل الخراج فيهما أن يمنعا وصول الأموال إلى بغداد ، وكانا بذلك مصدر قلق للخلافة العباسية . وإذا اجتمع هذان المنصبان لرجل واحد أصبح أشد خطراً على الخلافة ، كما حدث حين امتنع بجكم التركى عن تولى أمور الأهواز مع بقاء عامل الخراج بجانبه ، وحمل الخليفة العباسى على أن تكون له الولاية والخراج ، فأجيب إلى ذلك (سنة ٣٢٥ هـ)(٣) .

ولما أخذت الدولة العباسية فى الضعف ، أصبح الولاة يؤثرون البقاء فى بغداد أو فى سامرا وينيبون عنهم من يدير شئون الولايات باسمهم . وكان من أثر هذه السياسة أن جنح بعض النواب والولاة إلى الاستقلال ؛ كما كان لضعف السلطة المركزية أثر فى استقلال ولاة الأقاليم البعيدة عن حاضرة الدولة . فنرى أحمد بن طولون يعمل على الجمع بين وظيفتى الوالى (الحرب والصلاة) والعامل (الخراج) والاستقلال بمصر ، ويحذو حذوه فى ذلك محمد بن طغج الإخشيد .

وكذلك فعل يعقوب بن الليث الصفار الذى استولى على كثير من بلاد الدولة العباسية وحمل الخليفة على الاعتراف بنفوذه فيها ، وأسس الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) . واستطاع السامانيون أن يستقلوا ببلاد ماوراء النهر ويستحوذوا على ما كان فى أيدى الصفارية ويؤسسوا الدولة السامانية (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) (٤) . وهذه الحالة السيئة تعلل قيام الدول المستقلة فى ذلك العصر ، فظهرت فى مصر الدولتان الطولونية والإخشيدية ، اللتان قامت على أنقاضهما الدولة الفاطمية ، وظهر كذلك فى

---

(١) أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) ابن الصابئ : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٥٦ .

(٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية : ترجمة أبى ريده ج ١ ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٤) أنظر هذا الكتاب ص ١٤٣ ، ١٥٢ .

المشرق دول الصفارية والسامانية والغزنوية والبويهية فى فارس وفى الرى وهمذان وأصبهان .

وكان يساعد الوالى والعامل فى المدن جماعة من الموظفين أهمهم القاضى ، والبندار ، ويعرف بكاتب السلعة ، ومهنته المطالبة بالخراج ووجوه المال ، وصاحب الجند ، وصاحب البريد ، ومتولى السوانى أو الضياع السلطانية ، وصاحب المعونة ، وكان يساعد صاحب الجند . وكان هؤلاء الموظفون يعينون من قبل الوزير ، ويعزلون بعزله ، ثم يعودون إلى الحكم بعودة الوزير مما أدى إلى إشاعة الاضطراب وكثرة التعطل . ويقول ابن الأثير (١) عن سوء حالة الولايات فى ذلك العصر وما أصاب أهليها من عنت الولاة الذين لا هم لهم إلا جمع المال : « إن الوزراء وأرباب الولايات (كانوا) ، لايقومون بأشغال الرعايا والتعب معهم ، إلا لمرفق يحصل لهم . وليس لهم من الدين مايحملهم على النظر فى أحوالهم ، فانه بعيد منهم . فاذا منعوا تلك المرافق ، تركوا الناس يضطربون ولا يجدون من يأخذ بأيديهم ولا يقضى حوائجهم » .

وكانت ولاية الأقاليم من المناصب الرفيعة فى الدول الإسلامية . فقد ذكر القلقشندى (٢) كيفية تقليد الخلفاء العباسيين ولاة الأقاليم فى هذه العبارة فقال . « وإن كان الذى يوليه الخليفة من ملوك النواحى البعيدة عن حضرة الخليفة ، كملوك مصر إذ ذاك ونحوهم ، جهز له التشريف من بغداد صحبة رسول من جهة الخليفة ، وهو جبة أطلس أسود بطراز مذهب وطوق من ذهب يجعل فى عنقه ، وسواران من ذهب يجعلان فى يديه ، وسيف قرابه ملبّس بالذهب ، وفرس بمركب من ذهب ، وعلم أسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة ينشر على رأسه ، كما كان يبعث إل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم أخيه العادل . فاذا وصل ذلك إلى سلطان تلك الناحية ، لبس الخلعة والعمامة ، وتقلد السيف وركب الفرس وسار فى موكبه حتى يصل إلى محل ملكه . وربما جهز مع خلعة السلطان خلع أخرى لولده أو لوزيره أو أحد من أقاربه بحسب مايقتضيه الحال حينئذ » .

ومن وصف ابن الأثير لحالة الدولة العباسية فى عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) ، نقف على أسماء الولايات التى كانت تتألف منها هذه الدولة المتداعية ، واستبداد كثير من الولاة واستقلالهم عن الدولة . وهاك عبارة ابن الأثير (٣) : « ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها ، والحكم فى جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم . وأما باقى الأطراف : فكانت البصرة فى يد ابن رائق ، وخوزستان فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمان فى يد أبى على محمد بن إلياس ، والرى وأصبهان والجبل فى يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخى مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج ، والمغرب وإفريقية فى يد أبى القاسم القائم بأمر الله بن المهدى العلوى وهو الثانى منهم ويلقب بأمير المؤمنين ، والأندلس فى يد عبد الرحمن ابن محمد المقب بالناصر الأموى ، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن أحمد السامانى ، وطبرستان

(١) ج ٨ ص ٧٧ .
(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٦ .
(٣) ج ٨ ص ١١٢ — ١١٣ .

وجرجان فى يد الديلم ، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى » .

وقد ذكر ابن الأثير(١) الصفات التى يجب أن يتحلى بها من يرشح لولاية الأقاليم وتدبير شئونها والعمل على إسعاد أهلها ، فقال إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا « رجل قد تكاملت فيه خصال أربع : حزم يتقى به عند موارد الأمور حقائق مصدرها ، وعلم يحجزه عن التهور والتغرير فى الأشياء إلا مع إمكان فرصتها ، وشجاعة لا تفضها الملمات مع توازر جوائحها ، وجود يهوّن تبذير الأموال عند سؤالها ، وسرعة مكافأة الإحسان إلى صالح الأعوان ، وثقل الوطأة على أهل الزّيغ والعدوان ، والاستعداد للحوادث إذ لا تؤمن حوادث الزمان . وأما الاثنتان : فاسقاط الحجاب عن الرعية ، والحكم بين القوى والضعيف بالسوية ، وأما الواحدة فالستيقظ للامور . وقد اخترت لهم رجلا من موالى أحدهم ، شديد الشكيمة ماضى العزيمة ، لا تبطره السراء ، ولا تدهشه الضراء ، ولا يهاب ماوراءه ، ولا يهوله مايلقاه ... إن حُرك حمل ، وإن نهش قتل ، عدته عقيدة ونقمته شديدة . يلقى الجيش فى النفر القليل العديد بقلب أشد من الحديد ، طالب للثأر لا تفُله العساكر ، باسل الباس ، ومقتضب الأنفاس ، لا يعوزه ماطلب ، ولا يفوته ممن هرب ، وارى الزناد ، مضطلع العماد ، لا تشرهه الرغائب ولا تعجزه النوائب . وإن ولى كفى ، وإن قال وفى ، وإن نازل فبطل ، وإن قال فعل . ظله لوليه ظليل ، وبأسه فى الهياج عليه دليل . يغرق من ساماه ، ويعجز من ناواه ، ويتعب من جاراه ، وينعش من والاه » .

ولم يغير العرب نظم الحكم فى مصر تغييرا يذكر بعد الفتح ، حتى جاءت الدولة الفاطمية ، فأدخلت عليه كثيرا من التغيير . فقد عمل جوهر الصقلى على إحلال المغاربة الشعيين محل المصريين السنيين فى المناصب الهامة ، ليفسح المجال أمام هؤلاء المغاربة . ويقول المقريزى (٢) « إن جوهرا لم يدع عملا إلا جعل فيه مغربيا شريكا لمن فيه » . ومن أهم الأعمال الإدارية التى أسندت إلى الشيعيين : الوزارة ، وجباية الخراج ، والقضاء ، والحسبة . ولم يختلف نظام الولاية على الأقاليم عند الفاطميين والأمويين فى الأندلس اختلافا يذكر عنه فى عهد العباسيين .

(ب) الدواوين

١ — فى الدولة العباسية

كانت الدولة العباسية أشبه باتحاد يتألف من ولايات كثيرة ، لكل ولاية ديوان ببغداد يشرف على شئونها . وينقسم كل ديوان قسمين : الأول ، ويسمى الأصل ، ويختص بسن الضرائب وحملها إلى بيت المال ، والثانى ، الزمام أو ديوان المال . واستمر هذا النظام إلى أن ولى المعتضد الخلافة (سنة ٢٧٩ هـ) ، فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض ، وكون منها ديوانا واحدا أطلق عليه « ديوان الدار » ، ويسمى أحيانا « ديوان الدار الكبير » .

وقد أثنى هلال بن الصابىء(٣) على نظام الدولة العباسية فى عهد المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) فى

---

(١) ج ٧ ص ٦٩ . (٢) اتعاظ الحنفا ص ٧٨ . (٣) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٨٩ .

هذه العبارة فقال : « وسمعت مشايخ الكتاب يقولون إنه لم يجتمع فى زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش مثل المعتضد بالله ، وأبى القاسم عبيد الله بن سليمان ، وأبى العباس ابن الفرات وبدر » .

وقد قسم المعتضد الديوان أقساماً ثلاثة : ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان السواد (يعنى العراق) . وأسند « الأصل » لشخص واحد و « الزمام » لشخص آخر . وفى القرن الرابع الهجرى كانت إدارة الدولة « تنقسم إلى ما يشبه وزارتين ، إحداهما للداخلية ، وهى ديوان الأصول ، والأخرى المالية ، وهى ديوان الأزمة . وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساماً كثيرة تسمى دواوين أيضاً ، لأنه كان لكل ناحية ديوانها . ولكن لما كان الوزير ، وهو رئيس السلطة المركزية ، هو الذى يتولى إدارة ديوان السواد بنفسه ، فان كثيراً من دواوين الولايات ببغداد كانت تقوم مقام دواوين للدولة . ولم تصل الادارة فى الدولة الاسلامية إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الدواوين بدقة . ومن هذه الدواوين : ديوان الجيش ، وديوان النفقات فى بغداد وينظر فى حاجات دار الخلافة ، وديوان بيت المال ، وهو فى بغداد يشرف على ما يرد على بيت المال من الأموال وما يخرج من ذلك من وجوه النفقات والإطلاقات ، وديوان المصادرين ، وديوان الرسائل ، وكان يسمى فى مصر فى عهد الفاطميين ديوان الإنشاء والمراسلات ، وديوان البريد ، وديوان التوقيع وإليه تقدم رقاع أصحاب الحاجات ، وديوان الخاتم ، وديوان الفض حيث تفض الكتب الواردة من الأمراء والعمال إلى الخليفة ، وديوان الجهبذة ، ويجرى فيه من الأموال مال الكسور والكفاية والوقاية وما يجرى مجرى ذلك من توابع أصول الأموال (١) ، وديوان البر والصدقات .

ومما ذكره ابن الصابىء (٢) نرى أن أصحاب الدواوين كانوا ثلاث طبقات : الطبقة الأولى ، والطبقة الثانية ، والطبقة الثالثة .

٢ — فى عهد الدولة الفاطمية :

وفى عهد الفاطميين بمصر كانت هناك عدة دواوين ، على رأس كل منها موظف كبير . ومن هذه الدواوين : ديوان الجيش ، وكانت تعرض على صاحبه شئون الأجناد وخيولهم وما إلى ذلك ، وديوان الكسوة والطراز ، ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأقلام ، وديوان الأحباس ويشبه وزارة الأوقاف اليوم ، وديوان الرواتب ، ويعد صاحبه استمارات الرواتب ويعرضها فى كل سنة على الخليفة . وقد أورد القلقشندى (٣) عبارة شائقة عن الطريقة التى كانت تقدم بها رواتب الموظفين للخليفة المستنصر لاعتمادها فقال : إن الخليفة لم يغير شيئاً فى القائمة التى اشتملت على الرواتب ، ووقع فوق إمضائه بخط يده : « الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ١٢٥ — ١٣١ .
(٢) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٥٦ .
(٣) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ ٣ ص ٤٩٥

النعم بإدرار الأرزاق ، فليجروا على رسومهم فى الإطلاق (ما عندكم ينفد وماعند الله باق)[١] .

وكان عدد الموظفين فى أيام الفاطميين كبيرا . منهم صاحب الباب ، وحامل مظلة الخليفة ، وصاحب الرسالة ويحمل كتاب الخليفة إلى الوزير وغيره من كبار الموظفين ،وصاحب بيت المال ، وهو أشبه بوزير المالية الآن ، وقاضى القضاة ، وينظر فى الأحكام الشرعية وعلى دور السكة وضبط عيارها . ويلى قاضى القضاة فى الرتبة داعى الدعاة ، ويقوم بنشر الدعوة الفاطمية فى المساجد ودار العلم ؛ والمحتسب ، وله النظر فى الأسواق ، والإشراف على الموازين والمكاييل واستيفاء الديون والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة . ومن كبار الموظفين فى العهد الفاطمى وكيل بيت المال ، ونائب صاحب الباب ، ويستقبل سفراء الدول وينزلهم فى الأماكن اللائقة بهم ، ويرتب القراء الذين يقرءون القرآن بحضرة الخليفة ، وهم الذين يعرفون بقراء الحضرة[٢] .

(ج) البريد

١ — فى الدولة العباسية :

كان البريد فى العصر العباسى الثانى من مصالح الدولة الخاصة . وكان صاحب البريد يراقب العمال ويتجسس على الأعداء ، ويقوم بالأعمال التى يقوم بها رئيس قلم المخابرات فى وزارة الدفاع الآن . وكانت مهمته أول الأمر توصيل أخبار الولاة والعمال إلى الخليفة ؛ ثم توسعوا فى هذا العمل حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة ينقل أوامره إلى ولاته وعماله كما ينقل أخبار هؤلاء إليه[٣] .

وقد ذكر قدامة بن جعفر[٤] الشروط التى يجب أن تتوافر فى صاحب البريد فقال : « يجب أن يكون ثقة ، إما فى نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر فى وقته . لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافى المتصفح[٥] ، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ[٦] . والرسوم التى يحتاج إليها من أمر الديوان هو ما يقارب الرسوم التى بيناها فى غيره مما يضبط به أعماله وأحواله . فأما غير ذلك من أمر الطرق ومواضع السكك والمسالك إلى جميع النواحى ، فانا لم نذكره ، ولا غنى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه[٧] ما لا يحتاج فى الرجوع فيه إلى غيره ، وما إن سأله عنه الخليفة وقت الحاجة إلى شخوصه وإنفاذ جيش يهمه أمره وغير ذلك مما تدعو الضرورة

---

(١) سورة النحل آية ٩٦ .

(٢) كتاب النظم الاسلامية للمؤلف ص ٢١٠ — ٢١١ .

(٣) Von Kremer: Orient under the Caliphs, p. 233 seq.

(٤) كتاب الخراج وصنعة الكتابة ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٥) تصفح الكلام بحث فيه وتأمله ، والكافى هو الخبير بالشىء الحسن التقدير له ، ثم أطلق على ما نسميه الآن «الموظف» .

(٦) المتحفظ : المحترز .

(٧) أى من المعرفة بحال الطرق

إلى علم الطرق بسببه ، وُجد عتيدا (١) عنده ومضبوطا قبله . ولم يحتج إلى تكلف عمله والمسألة عنه ، فينبغى أن نكون الآن نأخذ فى ذكر ذلك وتعديده بأسماء المواضع وذكر المنازل وعدد الأميال والفراسخ ، وغيره من وصف حال المنزل فى مائه وخشونته ، وسهولته أو عمارته أو ما سوى ذلك من حاله » .

وقد اهتم الخليفة المتوكل بشئون البريد . فقد ذكر المسعودى(٢) أن المتوكل بلغه ذات يوم أن رجلا من أهل البصرة يمتلك سيفا هنديا نادرا ، فاستعان هذا الخليفة بصاحب ديوان البريد ، وأمره بارسال كتب البريد إلى عامل البصرة وشراء هذا السيف مهما غلا ثمنه . فلما ورد كتاب عامل البصرة بأن السيف انتقل إلى يد أحد أهالى اليمن ، أمر الخليفة صاحب البريد بالبحث عن السيف وشرائه ، فكان له ما أراد .

وكان الخلفاء العباسيون يكتبون لصاحب البريد عهدا عند توليته ، ويرسمون له فيه الطريقة التى يجب أن يسير عليها . فقد ذكر قدامة بن جعفر(٣) أنه يجب على صاحب البريد « أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجرى عليهم أمرهم ، ويتتبع ذلك شافيا ، ويستشفه استشفافا بليغا(٤) ، وينهيه(٥) على حقه وصدقه . . . وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هى عليه من الكمال والاختلال ، وما يجرى فى أمور الرعية ، فيما يعاملون به من الإنصاف والجور والرفق والعسف ، فيكتب به مشروحا . . . وأن يعرف ماعليه الحكام فى حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم . . . وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق ، وما يلزمه الموردون من الكلف(٦) والمؤن ، ويكتب بذلك على حقه وصدقه . . . وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطالع مايجرى فيه ، ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته ، وأن يكون ما يُنهيه من الأخبار شيئا يثق بصحته . . . وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط فى عمله(٧) ، ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم ، وعدد السكك فى جميع عمله وأميالها ومواضعها ، ويوعز إلى هؤلاء المرتبين بتعجيل الخرائط المنفذة على أيديهم ، وإلى الموقعين بائبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات التى سبيله أن يرد السكة فيها(٨) ، وأن يفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كتبا بأعيانها ، فيفرد

---

(١) أى حاضراً من غير بحث أو سؤال .
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩١ — ٣٩٢ .
(٣) راجع كتاب آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ترجمة أبى ريدة ج ١ ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(٤) أى يبذل أقصى الجهد للوقوف على حقيقة أمره .
(٥) يوصله إلى دار الخلافة .
(٦) ما يكلفونه .
(٧) أى حمل الخريطة وهى الحقيبة التى تحوى الرسائل .
(٨) أى التى يجب عليه ألا يجاوزها .

لأخبار القضاة وعمال المعاون والأحداث ، والخراج والضياع وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتباً ليجرى كل كتاب فى موضعه »(١) .

ولم يقتصر عمل صاحب البريد على ما ذكرنا ، بل كثيراً ما كان ينقل إلى الخليفة الأخبار الطريفة . ففى سنة ٣٠٠ هـ ورد كتاب صاحب البريد فى الدينور بأن بغلة ولدت فَلُوة(٢) وأرسل إلى الخليفة كتاباً جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ! الحمد لله الموقظ بعبره قلوب الغافلين ، والمرشد بآياته ألباب العارفين ، الخالق ما يشاء بلا مثال ، ذلك الله البارىء المصور فى الأرحام ما يشاء . وإن الموكّل بخبر التطواف بقَرْماسين رفع يذكر أن بغلة لرجل يعرف بأبى بُردة من أصحاب أحمد ابن على المرّى وضعت فَلُوة ، ويصف اجتماع الناس لذلك وتعجبهم لما عاينوا منه . فوجّهت من أحضرنى البغلة والفلوة ، فوجدت البغلة كميتاء(٣) خَلوقية ، والفلوة سوية الخلق تامة الأعضاء ، منسولة الذنب ، سبحان الملك القدوس لامعقّب لحكمه وهو سريع الحساب »(٤) .

ولما استبد بنو بويه بالسلطة اهتموا بشئون البريد اهتماماً بالغاً ، حتى إنه لم يعد يخفى عليهم شىء من أمور الدولة . فقد ذكر البندارى(٥) « كان الرسم فى أيام الديلم (البويهيين) ومن قبلهم من الملوك (يعنى أمراء الأمراء) أنهم لم يخلوا جانباً من صاحب خبر وبريد ، فلم يخف عندهم أخبار الأقاصى والأدانى ، وحال الطائع والعاصى » .

وقد بلغ نظام البريد فى عهد بنى بويه مبلغاً عظيما من الدقة والسرعة حتى كانت بواكير الفواكه تصل إلى قصور السلاطين طرية سليمة . وكانت الدولة توقع أشد العقوبة بكل من يتوانى فى أداء واجبه من موظفى البريد ، كما كانت المراسلات البريدية تفض فى حضرة السلطان ، فيأخذ منها الرسائل الهامة ، ويرسل سائر الرسائل إلى ديوان البريد فيوزع على أربابها . وقد ذكر أبو شجاع(٦) أن الرسائل كانت تقرأ على عضد الدولة أكثر من مرة ، فيرد عليها بنفسه أو يأمر كتابه بالرد عليها . ثم تعرض هذه الردود عليه ، فربما زاد فيها أو نقص منها . ثم تصلح وتختم وتجعل فى أسكُدارها(٧) وتحمل إلى ديوان البريد فتصدر فى وقتها .

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة أبى ريده ، جـ ١ ص ١٢٩ ، نقلا عن كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ، مخطوط باريس ، ورقة ١٨ب — ١٩ب . ويرجع تاريخ هذا العهد إلى سنة ٣١٥هـ أى إلى عهد الخليفة المقتدر .

(٢) الفلوّ المهر ، والجمع أفلاء ، والانثى فلوة بالهاء .

(٣) الكميتة الحمرة إلى السواد ، والخلوقية : الملساء .

(٤) غريب بن سعد القرطبى : صلة تاريخ الطبرى (ذيل تاريخ الطبرى) جـ ١٢ ص ٢١ .

(٥) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٢ .

(٦) ذيل تجارب الأمم جـ ٣ ص ٤٠ — ٤١ .

(٧) الأسكدار ، مثلث الهمزة مضموم الكاف : لفظة فارسية ، معناها المدرج (القائمة) الذى يكتب فيه عدد خرائط البريد والكتب الواردة والنافذة وأسامى أربابها — أنظر مفاتيح العلوم للخوارزمى ، ومعجم الألفاظ الفارسية لاشتينجاس .

وبلغ من عناية عضد الدولة بالبريد أنه ، إذا ترحّل النهار ، سأل عن ورود النوب المترددة بالكتب ، ولها وقت معلوم تصل فيه وتراعى من ساعات النهار . فان اتفق أن تأخر ، قامت القيامة ووقع البحث عن العارض العائق . فان كان بعائق ظاهر فيه عذر قبل ، أو عن أمر يحتاج إلى إزالته أزيل ، أو من تقصير النوبيين أنزل العذاب بهم . ولقد ذكر بعض الطراد[١] أن أحد المرتّبين قالت له امرأته : قد طبخنا أرزاً ، فتوقف لتأكل منه وتمضى ، فتوقف بقدر ما أكل ، وتأخرت النوبة ذلك المدى . فضرب الطراد والمرتبون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاثة آلاف عصا . لا جَرم أن النوب كانت تصل من شيراز فى سبعة أيام . وكان يحمل من المرتبين بواكير الفواكه والمشموم من نواحى فارس وخوزستان فتصل طرية سليمة[٢] .

محطات البريد :

وكان العباسيون يستعملون البغال فى بلاد الديلم ويقيسون المسافات فى البلاد الواقعة غربى الفرات بالأميال[٣] ، وفى البلاد الواقعة شرقى هذا النهر بالفراسخ[٤] .

وللبريد محطات تسمى السكك ، وكانت تزود بالخيل وراكبيها فى كل سكة من سكك البريد على بعد ثلاثة أميال أو ستة . وكانت طرق البريد منتشرة فى المشرق والمغرب ، ومن أهمها :

١ — من بغداد إلى القيروان بحذاء دجلة ، ويمر بالموصل وسنجار وبلد بحذاء دجلة ، ثم يخترق أرض الجزيرة إلى سنجار ونصيبين والرقة ومنبج وحلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية والرملة والقاهرة والإسكندرية والقيروان[٥] .

٢ — من بغداد إلى الشام عن طريق الضفة الغربية للفرات ، مارا بالأنبار وهيت ودمشق .

٣ — من بغداد إلى المشرق ويمر بحلوان وهمذان ، والرى ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند ، إلى أن يصل إلى الصين . ومن مرو يبدأ طريق آخر يمر فى أواسط بلاد خراسان حتى يصل إلى مرو الروذ والطالقان ، ثم يخترق نهر جيحون بالقرب من ترمذ حتى يصل إلى فرغانه[٦] .

وكانت الحكومة العباسية تنقل البريد فى أثناء الحروب بالجمازات[٧] . والجمازة شبه محفة على عجلة تجرها الخيول السريعة . فلما عزم الفاطميون على غزو مصر سنة ٣٠١ استعمل على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر الجمازات من بغداد إلى مصر ليقف على حقيقة الحال فى كل يوم . وفى ذلك يقول

---

(١) هم أشباه المفتشين على حاملى البريد (٢) أبو شجاع ج ٣ ص ٤٠ .

(٣) هذا اللفظ مأخوذ من اليونانية التى كان لها تأثير كبير فى البلاد الواقعة غربى الفرات .

(٤) الفرسخ ثلاثة أميال . ويظهر أن الفرس لم يستعملوا الأميال .

(٥) قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ص ٢٢٧ — ٢٢٩ .

(٦) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٣٤٩ — ٣٥٣ .

(٧) جز الانسان يجمز : عدا مسرعا ، وبعير جماز : وثاب . والجمازة ، هنا من المحامل ، وهى أشبه بالعربية التى تجرها الخيل السريعة فى زماننا ، وكان يركبها عمال البريد ، ورجال الحرب ، وأمثالهم ممن يتطلب عملهم السرعة (أنظر تاج العروس) .

عريب بن سعد القرطبي (١) : « وخلع على مؤنس فى شهر ربيع الأول سنة ٣٠٢ ، وخرج متوجها إلى مصر . وتقدم على بن عيسى الوزير بترتيب الجمازات من مصر إلى بغداد ليروّح عليه الأخبار فى كل يوم . فورد الخبر بأن جيش عبيد الله الخارج مع ابنه ومع قائده حباسة انهزموا ، وبشر على ابن عيسى بذلك المقتدر ، فتصدق فى يومه بمائة ألف درهم ، ووصل على بن عيسى بمال عظيم » .

وكذلك كان لبنى بويه أثر كبير فى ترقية البريد ، فقد أدخل معز الدولة نظام السعاة وكان يقال لهم الفيوج ، وهم طائفة من موظفى البريد يتخصصون فى نقل البريد السريع من مكان إلى آخر . واستمال معز الدولة هؤلاء السعاة بالأرزاق والجرايات الكثيرة حتى رغب الشبان فى هذه الحرفة ، وأقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم إلى معز الدولة لتدريبهم .

وكان يقام على رأس كل فرسخ حصن . وقد عدل الأمراء فيما بعد عن اتخاذ الخيل فى البريد ، واستعملوا الجمازات بدلا عنها ، حتى إننا نجد ابن العميد يتخذ الجمازات عندما أراد اللحاق بسيده ركن الدولة فى فارس سنة ٣٦٤ هـ (٢) .

أما استعمال النار فى الاشارة كوسيلة من وسائل المراسلة ، فلم يكن معروفا عند المسلمين إلا فى البلاد التى كانت تابعة للدولة البيزنطية التى كانت تستعملها من قبل . وأما فى سائر بلاد الاسلام فانها لم تستعمل ، وإنما استخدمت استخداما حسنا فى القرن الثالث الهجرى على الساحل الإفريقى الشمالى ، حتى كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبتة فى ليلة واحدة ، ومن طرابلس إلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات. ولم يبطل هذا النظام إلا فى سنة ٤٤٠ هـ حينما أثار المعز بن باريس الفتن فى المغرب فى وجه الفاطميين ، الذين لم يعودوا يستطيعون حماية الحصون من البدو (٣) .

حمام الزاجل :

وكذلك اعتمد العباسيون على حمام الزاجل فى نقل الرسائل . وقد راج هذا النوع من البريد عند فرق الباطنية ، وخاصة الإسماعيلية . فقد استعان عبد الله بن ميمون بالطيور فى نقل الأخبار إلى أنصاره (٤) ، كما استعان حمدان قرمط مؤسس مذهب القرامطة فى العراق ، وابن حوشب فى بلاد اليمن ، وأبو عبد الله الشيعى فى المغرب ، وكذلك عامة دعاة الإسماعيلية فى فارس .

وقد ذكر عريب بن سعد (٥) أن القرامطة لما دخلوا البصرة أخبروا الناس بتولية ابن الفرات الوزارة وعزل حامد بن العباس قبل وصول الخبر إلى البصرة بأربعة أيام ، مستعينين فى ذلك بالحمام الذى أتاهم بهذا الخبر من وقته . وذكر مسكويه (٦) عند كلامه على حوادث سنة ٣٢٨ هـ أن البريديين

---

(١) صلة تاريخ الطبرى : ذيل كتاب الطبرى جـ ١٢ ص ٢٨ .
(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٣٥ .
(٣) الأمير شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .
(٤) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٤ .
(٥) صلة تاريخ الطبرى ص ٥٢ .
(٦) تجارب الأمم جـ ١ ص ٤١٢ — ٤١٤

كانوا يستخدمون الحمام فى البريد ، وأن بحكم كان يستخدم الحمام كذلك ، وأن طائرا سقط ، فصاده غلمان بحكم وجاءوا به إلى مولاهم ، فوجد على ذنبه كتابا فقرىء ، فإذا هو « كتاب من كاتبه هذا إلى أخيه بخطه يعرفه فيه انحدار بحكم ومن أنفذ على الظهر من الجيش (١) وسائر أسراره وعزائمه . فلما وقف عليه بحكم عجب واغتاظ ، وأحضر هذا الكاتب ورمى إليه بالكتاب ، فسقط فى يده ، ولم يمكنه جحده لأنه بخطه المعروف . فاعترف به ، فأمر به فرمى بالزوبينات بحضرته إلى أن قتله ورمى به فى الماء » .

٢ — فى مصر :

كان البريد من الوسائل التى تذرع بها أحمد بن طولون فى مناوأة الخلافة العباسية ، فقد استطاع أن يعين أحد المقربين إليه عاملا للبريد فى حاضرة الدولة العباسية ليكون عينا له ، يوافيه بما يجرى فى العراق وبما يحيكه له أعداؤه من مؤامرات فى هذه البلاد ، واستطاع ابن طولون بفضل هذا العامل أن يكشف عن نيات منافسيه فى مصر ممن كانوا يشون به عند الخليفة ، ويظهر البلاد منهم . وقد اطمأن بفضل هذه الجاسوسية التى أقامها فى بغداد على مركزه فى مصر . ولما وقع الخلاف بين أحمد بن طولون وأبى أحمد الموفق طلحة أخى الخليفة العباسى المعتمد ، وعمل هذا على صرف ابن طولون عن مصر ، وألب القواد عليه ، أخبر عامل البريد ، ابن طولون بهذا ، فاحتاط لنفسه وأحبط هذه المؤامرة (٢) .

وكان لطرق البريد أثر كبير فى تيسير انتقال قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون إلى العراق عند زواجها من الخليفة المعتضد . وقد أمر خمارويه عمال بريد مصر بإعداد الطريق بين القطائع وبغداد ، فبنوا لها على رأس كل مرحلة قصرا تنزل فيه .

ومما ذكره أبو المحاسن (٣) نرى أنه كان يضطلع بأعباء البريد سنة ٢٩٢ هـ شخص يدعى شفيعا اللؤلؤى ويلقبه هذا المؤرخ بصاحب البريد . وإننا لا نعرف كثيرا عن إدارة البريد فى عهد الإخشيديين ولا فى عهد الفاطميين اللهم الا ما كان من اعتمادهم على حمام الزاجل . فقد ذكر القلقشندى (٤) أن الفاطميين اهتموا بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل . « وحافظ عليه (الحمام) الخلفاء الفاطميون ، وبالغوا حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام » . وقد ذكر هذا المؤرخ فى مكان آخر (٥) . « أن العزيز ثانى خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس ، أنه ما رأى القراصية البعلبكية ، وأنه يحب أن يراها . وكان بدمشق حمام من مصر وبمصر حمام من دمشق . فكتب الوزير لوقته بطاقة يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصرى ، ويعلق فى كل طائر حبات من القراصية البعلبكية ، ويرسلها الى مصر . ففعل ذلك ، فلم يمض النهار حتى حضرت تلك

---

(١) الظهر ما يحمل عليه الجنود من خيل وغيرها .
(٢) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٨ .
(٤) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٩٠ .
(٥) المصدر نفسه جـ ١٤ ص ٣٩١ .

الحمائم بما علق عليها من القراصية ، فجمعه الوزير يعقوب بن كلس وطلع به إلى العزيز فى يومه ، فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه . . . وذكر أيضا أن الوزير اليازورى المغربى ، وزير المستنصر بالله الفاطمى ، وجه الحمام من تونس من إفريقية من بلاد المغرب فجاء إلى مصر ، والعهدة عليه فى ذلك » .

(د) الشرطة

١ — فى الدولة العباسية :

ذكرنا من قبل(١) أن نظام الشرطة من النظم الإدارية الهامة ، وأن صاحبها كان يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة ، وأنه أشبه بالمحافظ فى هذا العصر . إذ يتولى رياسة الجند الذين يعملون على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين . وقد حدد ابن خلدون المهام التى يضطلع بها صاحب الشرطة فى هذه العبارة فقال :

« وكان أصل وضعها فى الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم فى حال استبرائها(٢) أولا ، ثم الحدود بعد استيفائها . فان التهم التى تعرض فى الجرائم لا نظر للشرع إلا فى استيفاء حدودها ، وللسياسة النظر فى استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة فى ذلك . فكان الذى يقوم بهذا الاستبراء وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضى يسمى صاحب الشرطة . وربما جعلوا إليه النظر فى الحدود والدماء بإطلاق ، وأفردوها من نظر القاضى ، ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم . ولم تكن عامة التنفيذ من طبقات الناس ، إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرتب والضرب على أيدى الدعّار (٣) والفجرة . . . وكانت ولايتها للاكابر من رجالات الدولة ترشيحاً للوزارة والحجابة » .

وكانت الدولة العباسية تتخذ فى كل مدينة من المدن جماعة من الجند تخضع لرئيس منهم ، ينوب عن صاحب الشرطة الذى كان يتخذ مقره فى حاضرة الدولة أو الولاية . ويضطلع هؤلاء بحفظ الأمن وإقرار النظام وتنفيذ أحكام القضاة والمحتسبين . كما كانوا يقومون بالعس فى الليل تحت إشراف رؤسائهم من الضباط . وكانت الدولة تنفق عن سعة على رجال الشرطة ، فتمنحهم الرواتب الكبيرة ، حتى كان منصب رئيس شرطة بغداد لا يقل عن منصب الوالى(٤) ، كما كانت الحكومة

---

(١) ص ٢٠٧ من الجزء الثانى من هذا الكتاب .

(٢) كذا فى مخطوطة المكتبة الزكية رقم ١٠١٦ المحفوظة بدار الكتب المصرية ، وعليها خط المؤلف وكذا فى المخطوطتين رقمى ٤٥ ٨ و ٢١٠٦ المحفوظتين بالدار أيضا : استبرائها ، وهو الصواب . ومعناه استقصاء الأمر وطلب آخره ، دفعا للشبهة ، كما فى تاج العروس . والمراد بذلك التحقيقات الأولى التى يجريها ضابط البوليس بمنتهى الدقة ويدونها فى المحاضر الخاصة ، ثم يسلمها بعد ذلك إلى السلطة القضائية . وفى نسخة المقدمة طبع بيروت ص ٢١٨ — ٢١٩ وكذا فى جميع طبعات القاهرة : « استبدائها » وهو تحريف لما أثبتناه .

(٣) كذا فى المخطوطات الثلاث المشار اليها فى الحاشية قبل هذه . وفى جميع النسخ المطبوعة ببيروت والقاهرة « الرعاع » . وهو تحريف لما أثبتناه .

(٤) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ص ٣٦٠ — ٣٦١ .

المركزية فى حاضرة الدولة أو الولاية تعتمد على صاحب الشرطة فى إقرار الأمن وحفظ النظام.(١) وكانت الشرطة تابعة للقضاء فى أول الأمر ، يتولى صاحبها إقامة الحدود من القبض على المجرمين ، وتنفيذ أحكام القضاء . إلا أنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء ، حتى استقل صاحب الشرطة بالنظر فى الجرائم . وكان أمر تولية صاحب الشرطة فى الولاية وعزله من اختصاص الوالى لا الخليفة .

٢ — فى مصر والأندلس :

ولما فتح العرب مصر كانت الشرطة فى مدينة الفسطاط . ولما تأسست مدينة العسكر سنة ١٣٢هـ أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على دار الشرطة فى الفسطاط دار الشرطة السفلى ، وانقسمت الشرطة بذلك قسمين :

١ — الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط .

٢ — والشرطة العليا ومقرها العسكر . وربما سميت بهذا الاسم لأن مكان العسكر (جبل يشكر وطولون) يقع شمالى الفسطاط . ومن ثم سميت الشرطة العليا(٢) . ولما فتح جوهر الصقلى مصر نقل الشرطة العليا من العسكر إلى القاهرة . وذكر ابن دقماق(٣) أن صاحب الشرطة توفى فى نفس اليوم الذى وصل فيه جوهر إلى مصر ، فأسند عمله إلى جبر ، وبقيت دار الشرطة السفلى فى الفسطاط وتقلدها عروبة بن ابراهيم وشبل المعرضى(٤) .

وكانت الشرطة فى بلاد الأندلس على نوعين : شرطة كبرى ، وشرطة صغرى ويقول ابن خلدون(٥) فى بيان اختصاص كل من الشرطتين ما نصه :

ثم عظمت نباهتها فى دولة بنى أمية بالأندلس ، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء ، وجعل له(٦) الحكم على أهل المراتب السلطانية ، والضرب على أيديهم فى الظلامات ، وعلى أيدى أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه . وجعل صاحب الصغرى

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٥ .

(٣) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ١١ .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ص ٩٥ .

أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ١٨٢ .

(٥) أنظر ص ٢٤٩ مقدمة ابن خلدون المخطوطة بالمكتبة الزكية المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٠١٦ وعليها خط المؤلف .

(٦) كذا فى نسخ المقدمة المطبوعة فى بيروت ومصر ومخطوطة المكتبة الزكية التى سبقت الاشارة اليها . وليس فى الكلام مرجع للضمير فى (له) . ويظهر أنه يعود على صاحب الشرطة الكبرى وهو مفهوم من السياق . ومن هذا أو ما بعده يظهر أن صاحب الشرطة الكبرى أوسع اختصاصا من صاحب الشرطة الصغرى . فللاول : (ا) الحكم على الخاصة والدهماء (ب) الحكم على أهل المراتب السلطانية وأقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه . أما صاحب الشرطة الصغرى فليس له حكم إلا على العامة ، وهم الدهماء .

مخصوصا بالعامة ، ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب دارالسلطان ، رجْل[1] يتبوءون المقاعد بين يديه ، فلا يبرحون عنها إلا فى تصريفه » .

ولما اعتلى عبد الرحمن الناصر العرش ابتدع نوعا ثالثا للشرطة ، أطلق عليه الشرطة الوسطى . ويظهر أن صاحبها اختص بالنظر فى جرائم الطبقة الوسطى ، وهم أعيان التجار وأصحاب المصانع وأصحاب المهن الراقية كالأساتذة والأطباء ومن فى طبقتهم . وأسند هذا المنصب إلى سعيد بن سعيد بن جدير[2] . ويقول المقرى[3] عن الشرطة فى الأندلس : « وأما خُطة الشرطة بالأندلس فانها مضبوطة إلى الآن معروفة بهذه السمة . ويعرف صاحبها فى ألسن العامة بصاحب المدينة ، وصاحب الليل . وإذا كان عظيم القدر عند السلطان ، كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل . ولا يكون إلا فى حضرة السلطان الأعظم ، وهو الذى يحد على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه ، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضى . وكانت خطة القاضى أوقر وأتقى عندهم من ذلك » [4] .

ولا يختلف نظام العَسس فى الأندلس عنه فى المشرق إلا فى التسمية ، حيث عرف العسس فى الأندلس بالدرابين ، « لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العَتَمة[5] ، ولكل زقاق بائت فيه[6] له سراج معلق ، وكلب يسهر ، وسلاح مُعد ، وذلك لشطارة[7] عامتها وكثرة شرهم »[8] .

٣ — النظام الحربى

(١) الجيش

١ — فى الدولة العباسية :

(أ) عناصر الجيش :

كان الجيش فى عهد الرسول وفى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين يتألف من العنصر العربى . وقد اعتمد العباسيون على الفرس فى إقامة دولتهم ؛ ومن ثم أصبح للعنصر الفارسى أثر ملحوظ فى الجيش . ولما ولى المعتصم الخلافة اعتمد على الأتراك ، لأن أمه كانت تركية ، فولاهم حراسة قصره ، وآثرهم على الفرس والعرب ، ومحا أسماء العرب من ديوان العطاء ، وزاد اعتماده على الأتراك حتى أربى عددهم على السبعين ألفاً . ومن ثم ازداد نفوذ هذا العنصر التركى حتى أصبح خطراً يهدد حياة الخلفاء

---

(١) كذا فى المخطوطات الثلاث المحفوظة بدار الكتب المصرية من مقدمة ابن خلدون . والرجْل : اسم جمع لراجل ، وهم الرجالة أيضا . وفى النسخ المطبوعة : «رجال» .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ٢ ص ٢١٢ .

(٣) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ ١ ص ١٠٣ .

(٤) كان صاحب الشرطة فى الدولة العباسية وفى الأندلس وفى عهد الفاطميين فى المغرب ومصر ينظر فى الجرائم ويقيم الحدود (راجع مقدمة ابن خلدون ص ١٩٣)

(٥) أى بعد صلاة العشاء .

(٦) بواب يعرف أهل الزقاق ويفتح لهم الباب .

(٧) الشاطر الخبيث .

(٨) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ .

أنفسهم . وأصبح بيد هؤلاء القواد من الأتراك تولية الخليفة وعزله وسمل عينيه وقتله . فنجد المتوكل يذهب ضحية تآمر هؤلاء الأتراك عليه ، ويتبعه ابنه المنتصر الذى دس له الأتراك السم على يد طبيبه . وقد عبث هؤلاء الأتراك بهيبة الخلافة بقتلهم الخليفة المعتز وتمثيلهم به وتعذيبهم الخليفة المهتدى حتى مات .

ولم يلبث أن اندمج فى الجيش العباسى عناصر أخرى من غير الأتراك . وكان جميع هؤلاء الجند من المرتزقة لاهم لهم إلا جمع المال ، وإثارة الفوضى والقلاقل ، إذا تأخر دفع رواتبهم . كما أنهم كانوا ينضمون إلى كبار القواد إذ أجزلوا لهم العطاء . وكان الجيش فى عهد المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) يتألف من الأتراك والمغاربة والفراغنة ، كما يظهر من هذه الابيات التى نظمها أحمد بن الحارث اليمامى فى وصف ثورة القواد على هذا الخليفة حيث يقول :

وأقبلت الترك والمغربون وجاء الفراغنة الدار عونا
تسير كراديسهم (١) فى السلاح يروحون خيلا ورجلا ثبينا
فقام بحربهم عالمٌ بأمر الحروب تولاه حينا
فجدد سوراً على الجانبين حتى أحاطهم أجمعينا
وأحكم أبوابها المصمتات ألوفَ ألوفٍ إذا تحسبونا (٢)

وقد عمل بعض الخلفاء على التخلص من قواد الأتراك ، فاستعانوا ببعض فرق المرتزقة (٣) من العناصر الأخرى . فنرى المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) يصطنع المغاربة والفراغنة دون الأتراك . وكان ذلك سببا فى قتل هذا الخليفة على أيدى الأتراك . وكذلك كان الخلفاء العباسيون وبعض القواد يستعينون بالعناصر الأجنبية المعادية للدولة نفسها . من ذلك أن الخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) استعان بالقرامطة وأدخلهم فى صفوف جيشه ولم يسلم هو من أذاهم ، إذ ثاروا عليه وانضموا إلى ابن رائق الذى عمل على الاستئثار بالنفوذ دونه ، « واستجاش بألف من القرامطة وجاء بهم إلى بغداد فأكثروا فيها الفساد(٤) » . وكان هؤلاء المرتزقة من القرامطة ينضمون إلى ابن رائق تارة وإلى أعدائه تارة أخرى ، ويصبحون شرا مستطيرا على الدولة . ولا غرو فقد حارب هؤلاء القرامطة فى صفوف ابن رائق ضد البريدى تارة (٥) ، كما حاربوا فى صفوف أبى عبد الله البريدى تارة أخرى . فأمد أبو طاهر الجنابى القرمطى أبا عبد الله البريدى بجيش للاستيلاء على البصرة ، كما عاونه على الخليفة المتقى سنة ٣٣٠ هـ . ولم يكتف البريدى بالقرامطة بل « كان معه الأكراد والديلم والقرامطة »(٦) .

---

(١) جمع كردوسة وهى قطعة عظيمة من الخيل .

(٢) الطبرى جـ ١١ ص ٩٧ . أنظر هذا الكتاب ص ٣٢ — ٣٣ .

(٣) كان الجيش يتألف من قسمين : مرتزقة وهم الذين يتناولون الرواتب من الدولة ، ومتطوعة وهم الذين ينتظمون فى الجيش كلما دعا داعى الجهاد ، ويتناولون أرزاقهم فى مدة تطوعهم فقط ، وتمنح أسراتهم مخصصات عينية أو نقدية .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١١ ص ١٨٩ .

(٥) أبو بكر الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٢٣ .

(٦) الذهبى : تاريخ الإسلام ، مخطوط جـ ٣ ورقة ١٣٦ .

ولما استبد بنو بويه بالنفوذ فى الدولة العباسية منذ سنة ٣٣٤ هـ ، قامت المنافسة بين الأتراك الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من الجند ، والذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير من عهد المعتصم ، وبين الديلم الذين ينتسب البويهيون إليهم ، والذين اعتمدوا عليهم فى إقرار سلطانهم فى البلاد . وقد شعر معز الدولة بذلك ، فأوصى ابنه عز الدولة بختيار بمداراة الديلم والتودد إلى الأتراك (١) . وقد أخذ سلاطين بنى بويه يتقربون إلى الأتراك تارة وإلى الديلم تارة أخرى : فنرى بختيار يخشى الأتراك ، فيتقرب إليهم ويعتصم بهم ويثير بذلك حنق الديلم عليه . على أن هؤلاء الأتراك لم يلبثوا أن عزلوا بختيار سنة ٣٦٤ هـ بايعاز ابن عمه عضد الدولة . ولولا تدخل ركن الدولة أبو عضد الدولة لآلت سلطنة العراق إلى عضد الدولة منذ ذلك الحين (٢) . وكان الجيش فى عصر بنى بويه يتألف من الديلم والأتراك والعرب والاكراد والفراغنة والمغاربة وغيرهم من المرتزقة . وقد ذكر أبو شجاع (٣) أنه كان للجيش عصر عضد الدولة عارضان قائدان للجيش : أحدهما للديلم والآخر للأتراك والأعراب والأكراد . ويظهر أن المغاربة والفراغنة كانوا هم وغيرهم من المرتزقة تحت إمرة هذا القائد الثانى .

(ب) تنظيم الجيش :

كان للجيش ديوان خاص به ، ولهذا الديوان مجلسان هما : مجلس التقرير وينظر فى تقدير رواتب الجند وأوقات رفعها إليهم ، ومجلس المقابلة ويختص بالإشراف على سجلات الجند ومراجعة أسمائهم . وينقسم كل من هذين المجلسين إلى أقسام معينة من الجند كجند الخاصة وجند الخدمة العسكرية وجند الولايات (٤) .

وكان الجيش يتكون من عدة فرق : المرتزقة والمتطوعة : وتتألف المرتزقة من المشاة أو الحربية ويتسلحون بالرماح والسيوف والحراب والتروس ، والرماة ويتسلحون بالسيوف والأقواس والتروس والنشاب ، ويلبسون الخوذ لتقى رءوسهم والدروع لتقى صدورهم ، ولها أجزاء للساعدين والساقين . ولكل فرقة منها فصيلة لقذف النفط يعرف رجالها بالنفاطين ، ويرتدون الملابس التى لا تؤثر فيها النيران لاقتحام الحصون المشتعلة ، وفصيلة أخرى من المعماريين يحملون المعاول بجانب السيوف والتروس .

وعلى رأس كل عشرة آلاف جندى « أمير » ، وعلى رأس كل ألف « قائد » وعلى كل مائة « نقيب » ، وعلى كل عشرة « عريف » . ويختلف لباس الجند باختلاف الفرق والأسلحة . ولما ولى

---

(١) أنظر هذا الكتاب ص ١٠٦ .

(٢) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٣) ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه ج ٣ ص ٤٠ .

(٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ١٢٥ ، نقلا عن كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ، مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ورقة ٢ ا — ب .

المتوكل الخلافة أمر الجند بتغيير زيهم القديم ، وألبسهم أكسية رمادية ، وأمرهم بألا يجعلوا السيوف على أعناقهم ، بل يتمنطقون بها حول وسطهم (١) ، مقلدين فى ذلك الفرس

وهناك حرس الخليفة « وجنود المنزل » ، ويعهد إليهم بأعمال أقل أهمية مما يقوم به حرس الخليفة. وقد أطلق عليهم فيما بعد اسم « الجاندار ». وهناك أيضا جماعة من الغلمان يتلقون علومهم فى البلاط ويتدربون على الفنون الحربية ، ثم يعينون « مرافقين » إذا بلغوا من الرشد ، ويعيشون فى حجرات منفصلة عن ثكنات فرق الجيش . ومن ثم أطلق عليهم الحجرية ، لتمييزهم عن الفرق الأخرى كالساجية الذين ينتسبون إلى ابن أبى الساج وغيرها .

وكان العباسيون يستخدمون جماعة من المهندسين يعرفون بالمنجنيقيين ، ويعرف رئيسهم باسم أمير المنجنيقيين . ومن أشهر هؤلاء يعقوب بن صابر الذى وضع فى الهندسة الحربية كتابا سماه « عمدة المسالك فى سياسة الممالك » ، عالج فيه كل ناحية من نواحى الحرب ، كالتعبئة والاستيلاء على الحصون ، وتشييد القلاع ، والفروسية والهندسة والحصار ، وتركيب الآلات الحربية ، وصفات الخيل والفرسان وأنواعهم . وكذلك كان الجيش يزود بمستشفيات الميدان ، فتحمل الجرحى والمرضى على محفات تحملها الجمال (٢) .

وقد عنى العباسيون بالجاسوسية فى الجيش ، واستخدموا فى ذلك كلا من الجنسين الرجال والنساء ، الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة ، متنكرين فى أزياء التجار والأطباء وغيرهم ، لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم . ولم تكن الجاسوسية العربية أكثر نشاطا ولا أعم انتشارا فى بلد من البلاد منها فى الدولة البيزنطية ، التى كانت لاتزال تنافس الدولة العربية ، والتى كان أهلها فى الماضى أساتذة العرب فى الفنون الحربية .

ولكى يحمى العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم ، وتسمى الثغور (٣) . وهذا ضرب من التدابير الحربية التى تدل على نشاط العرب ، وولعهم بالحروب ، ونبوغهم . وكان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى مصدرا للخطر بالنسبة إلى العرب . وقد تحاربت القوتان المتنافستان مدة طويلة ، فكانت كفة النصر ترجح مرة فى جانب العرب وأخرى فى جانب

---

(١) النظم الاسلامية للمؤلف ص ٢٣٥ .

(٢) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(٣) لما استولى أبو جعفر المنصور على المدن الواقعة على حد سورية المقابل لآسيا الصغرى ، مثل طرسوس وأذنة ومرعش وملطية ، حصنها وأحكم بناءها من جديد ، وأطلق عليها اسم « الثغور » . ولما ولى هارون الرشيد الخلافة أنشأ ولاية جديدة سماها « ولاية الثغور » ، وجعل لها نظاما عسكرياً خاصا ، وأقام بها المعاقل ، وأمدها بحاميات دائمة ، ومنح الجند ، فوق أرزاقهم ، أرضا قاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسراتهم ، فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتصلة ، وأصبحت أحوالها فى يسر ورخاء إلى أيام الواثق ، ثم أخذت بعد ذلك فى الأفول .

أنظر كتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ص ٢٥٢ — ٢٦٩ .

الروم . ولذلك كانت هذه الثغور تقع طورا فى أيدى العرب وطورا فى أيدى البيزنطيين .

وكانت صلاحية الجند للخدمة العسكرية تقرر بعد اختبار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد . فقد ذكر هلال بن الصابىء (١) طريقة هذا الاختبار وتقدير مراتب النجاح أو الرسوب فى هذه العبارة فقال :

« ويقف القواد والغلمان بين يديه (يعنى المعتضد) فى الميدان ، ويجلس كتاب العطاء أسفل بحيث لايراهم ، ويتقدم القائد ومعه جريدة بأسماء أصحابه وأرزاقهم ، فيأخذها خادم منه ويصعد بها إلى المعتضد بالله ، ويدعو عبيد الله بن سليمان بواحد واحد ممن فيها ، فيدخل الميدان ، ويمتحن على البرجاص (٢). فان كان يرمى رميا جيدا وهومتمكن من نفسه ومستقر فى سرجه ومصيب أو مقارب فى رميه ، علم على اسمه « ج » ، وهى علامة الجيد، ومن كان دون ذلك علم على اسمه « ط »، وهى علامة « المتوسط » ، ومن كان متخلفا لايحسن أن يركب فرسه أو يرمى هدفه علم على اسمه « د » ، وهى علامة الدون . ثم يحمل بعد العرض والامتحان إلى كتاب الجيش ليتأملوا حليته ويقابلوا بها ماعندهم من صفاته لئلا يكون دخيلا أو بديلا » .

(ج) تعبئة الجيش :

وكان الجيش فى وقت القتال يتألف من خمسة أقسام : هى القلب ، وهو مركز القائد العام ، والميمنة ، والميسرة ، والطليعة ، والساقة . وكانت تتقدم الجيش الطليعة وهى سرية من الفرسان يلبسون الدروع اللامعة والخوذ الفولاذية ويحملون الرماح . ويقول سيد أمير على (٣) :

« ومما لا شك فيه أن منظر الجيش العربى ، وهو يشق طريقه فى صفوف لا نهاية لها فى بلاد الأعداء ، قد بلغ حد العظمة والبهاء . فكان الفرسان يسيرون فى المقدمة ، وعلى جانبيهم حملة النبال . ثم يأتى بعدهم الرجالة الذين كانوا يسيرون فى صفوف متراصة بنظام عجيب ، ويليهم صفوف الجمال المحملة والعدد والخيم والعتاد . ثم تأتى بعدهم المستوصفات الصحية والنقالات لحمل المرضى والجرحى، ثم آلات الحرب كالمنجنيقات والعرادات محملة على ظهور الجمال والخيول والبغال وهى تسير فى المؤخرة . أما إذا سار الخليفة أو أحد أفراد الأسرة المالكة على رأس الجيش ، فلا شك فى أن المنظر كان يبدو أكثر روعة وبهاء ، إذ كان جنود الحرس الخلافى يتشحون بالملابس الزاهية ويحملون الأعلام ذات الشعار الملكى المنقوش بالذهب ، كما كان القواد والأمراء يرتدون الملابس الفخمة . وعلى الجملة كان هذا المنظر يبدو فخما رائعاً . وكانت الطليعة حين تصل إلى الموضع المقصود، تأخذ فى حفر الخنادق ، إذ كان نظام الجيش يقضى ألا يعسكر الجند قبل أن يتخذوا الحيطة من الهجوم المفاجىء . فاذا وصل الجيش الرئيسى ، نصبت الخيم فى نظام بديع ، وأقيمت الشوارع

---

(١) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٣ — ١٤ .

(٢) الهدف يعلق ويرمى فيه .

(٣) مختصر تاريخ العرب ص ٣٧٧ .

والأسواق والميادين كما لو كان المعسكر مدينة عامرة . وكانت توزع الأرزاق ، فتوقد المطابخ ، وتنصب عليها القدور . وبعد تناول العشاء يؤم الخليفة أو قاضى القضاة الجند فى الصلاة ، ثم يجلس الجميع فى حلقات يستمعون إلى أقاصيص الحروب والمخاطرات ، أو إلى القصائد الحماسية المصحوبة بصوت الناى ، وكانوا لا ينامون إلا بعد الهزيع الأول من الليل » .

ويتبين لنا نظام التعبئة مما ذكره محمد بن سليمان الكاتب ، عن الموقعة التى دارت بينه وبين الحسين ابن ذكرويه المعروف بصاحب الشامة فى بلاد الشام سنة ٢٩١ هـ ، ومنها نتبين كيف كانت الجيوش تستخدم الكمين كخدعة من خدع الحرب ، وكيف كانوا يعتمدون على السياط كآلة من آلات الحرب الهامة ، وإلى أى حد بلغ اهتمامهم بفرق الفرسان والرجالة . وهاك نص هـــذا الكتاب عن الطبرى(١) :

« ولما كان فى يوم الثلاثاء لست ليال خلون من المحرم (سنة ٢٩١ هـ) ، رحلت من الموضع المعروف بالقروانة نحو موضع يعرف بالعليانة فى جميع العسكر من الأولياء ، وزحفنا بهم على مراتبهم فى القلب والميمنة والميسرة وغير ذلك . فلم أبعد أن وافانى الخبر بأن الكافر القرمطى أنفذ النعمان ابن أخى إسماعيل بن النعمان أحد دعاته فى ثلاثة آلاف فارس وخلق من الرجالة ، وأنه نزل بموضع يعرف بتمنع ، بينه وبين حماه إثنا عشر ميلا . فاجتمع إليه جميع من كان بمعرة النعمان وبناحية الفصيص وسائر النواحى من الفرسان والرجالة ، فأسررت ذلك عن القواد والناس جميعاً ولم أظهره ، وسألت الدليل الذى كان معى عن هذا الموضع ، وكم بيننا وبينه ، فذكر أنه ستة أميال . فتوكلت على الله عز وجل ، وتقدمت إليه فى المسير نحوه ، فمال بالناس جميعاً . وسرنا حتى وافيت الكفرة ، فوجدتهم على تعبئة ، ورأينا طلائعهم . فلما نظروا إلينا مقبلين ، زحفوا نحونا ، وسرنا إليهم . فافترقوا ستة كراديس ، وجعلوا على ميسرتهم ، على ما أخبرنى من ظفرت به من رؤسائهم ، مسروراً العُليصى وأبا الحمل وغلام هارون العليصى وأبا العذاب ورجاء وصافى وأبا يعلى العلوى فى ألف وخمسمائة فارس . وكمنوا كميناً فى أربعمائة فارس خلف ميسرتهم بازاء ميمنتنا ، وجعلوا فى القلب النعمان العليصى ، والمعروف بأبى الخطى والحمارى وجماعة من بطلانهم فى ألف وأربعمائة فارس ، وثلاثة آلاف راجل ، وفى ميمنتهم كليبا العليصى والمعروف بالسديد العليصى والحسين بن العليصى وأبا الجراح العليصى وحميدا العليصى وجماعة من نظرائهم فى ألف وأربعمائة فارس ، وكمنوا مائتى فارس . فلم يزالوا زفاً(٢) إلينا ونحن نسير نحوهم غير متفرقين ، متوكلين على الله عز وجل . وقد استحثثت الأولياء والغلمان وسائر الناس غيرهم ، ووعدتهم . فلما رأى بعضنا بعضاً حمل الكردوس الذى كان فى ميسرتهم ضرباً بالسياط ، فقصد الحسين بن حمدان وهو فى جناح الميمنة ، فاستقبلهم الحسين بارك الله عليه وأحسن جزاءه بوجهه وبموضعه من سائر أصحابه برماحهم فكسروها فى صدورهم ،

(١) ج ١١ ص ٣٨٦ — ٣٨٨ .

(١) زف يزف زفا وزفوفا وزفيفا : أسرع .

فانفلوا عنهم . وعاود القرامطة الحمل عليهم ، فأخذوا السيوف واعترضوا ضرباً للوجوه ، فصرع من الكفار الفجرة ستمائة فارس فى أول وقعة ، وأخذ أصحاب الحسين خمسمائة فرس وأربعمائة طوق فضة ، وولوا مدبرين مفلولين ، واتبعهم الحسين فرجعوا عليه ، فلم يزالوا حملة وحملة . وفى خلال ذلك يصرع منهم الجماعة بعد الجماعة ، حتى أفناهم الله عز وجل ، فلم يفلت منهم إلا أقل من مائتى رجل . وحمل الكردوس الذى كان فى ميمنتهم على القاسم بن سيما ويمن الخادم ومن كان معهما من بنى شيبان وبنى تميم ، فاستقبلوهم بالرماح حتى كسروها فيهم . واعتنق بعضهم بعضاً ، فقتل من الفجرة جماعة كثيرة ، وحمل عليهم فى وقت حملتهم خليفة بن المبارك ولؤلؤ . وكنت قد جعلته جناحاً لخليفة فى ثلثمائة فارس ، وجميع أصحاب خليفة وهم يعاركون بنى شيبان وتميم ، فقتل من الكفرة مقتلة عظيمة واتبعوهم . فأخذ بنو شيبان منهم ثلثمائة فرس ومائة طوق ، وأخذ أصحاب خليفة مثل ذلك . وزحف النعمان ومن معه فى القلب إلينا ، فحملت ومن معى ، وكنت بين القلب والميمنة . وحمل خاقان ونصر القشورى ومحمد بن كشجور ومن كان معهم فى الميمنة ، ووصيف موشكير ومحمد بن إسحاق بن كنداجيق وابنا كيغلغ والمبارك القُمى وربيعة بن محمد ومهاجر ابن طليق والمظفر بن حاج وعبد الله بن حمدان وحى الكبير ووصيف البكتمرى وبشر البكتمرى ومحمد بن قراطُغان . وكان فى جناح الميمنة جميع من حمل على من فى القلب ومن انقطع ممن كان حمل على الحسين بن حمدان ، فلم يزالوا يقتلون الكفار فرسانهم ورجالتهم حتى قتلوا أكثر من خمسة أميال . ولما أن تجاوزت المصاف بنصف ميل ، خفت أن يكون من الكفار مكيدة فى الاحتيال على الرجالة والسواد ، فوقفت إلى أن لحقونى ، وجمعتهم ، وجمعت الناس إلىّ ، وبين يدى المطرد المبارك مطرد أمير المؤمنين . وقد حملت فى الوقت الأول ، وحمل الناس . ولم يزل عيسى النوشرى ضابطاً للسواد من مصاف خلفهم مع فرسانه ورجالته على ما رسمته له . فلم يزل من موضعه إلى أن رجع الناس جميعاً إلىّ من كل موضع . وضربت مضربى فى الموضع الذى وقفت فيه حتى نزل الناس جميعاً . ولم أزل واقفاً إلى أن صليت المغرب ، حتى استقر العسكر بأهله ، ووجهت فى الطلائع ، ثم نزلت وأكثرت حمداً لله على ما هنأنا به من النصر ، ولم يُسبق أحد من قواد أمير المؤمنين وغلمانه ولا العجم وغيرهم غاية فى نصر هذه الدولة المباركة ، فى المناصحة لها إلا بلغوها ، بارك الله عليهم جميعاً . ولما استراح الناس خرجت والقواد جميعاً لتقييم خارج المعسكر إلى أن يصبح الناس خوفاً من حيلة تقع . وأسأل الله تمام النعمة وإيزاع(١) الشكر ، وأنا ، أعز الله سيدنا الوزير ، راحل إلى حماه ، ثم أشخص إلى سلمية بمن الله تعالى وعونه . فمن بقى من هؤلاء الكفار مع الكافر ، فهم بسلمية ، فانه قد صار إليها منذ ثلاثة أيام ، وأحتاج إلى أن يتقدم الوزير بالكتاب إلى جميع القواد وسائر بطون العرب من بنى شيبان وتغلب وبنى تميم ، يجزيهم جميعاً الخير على ما كان فى هذه الوقعة ، فما بقى أحد منهم ، صغير ولا كبير ، غاية ، والحمد لله على ما تفضل به ، وإياه أسأل تمام النعمة » .

---

(١) التوزيع كالايزاع ، معناه القسمة والتفريق أى توزيع الشكر على الناس .

٢ — فى مصر :

(١) فى عهد الطولونيين والإخشيديين :

اتخذ أحمد بن طولون جنداً كثيفا من السودان والروم . ولما ضاقت داره بالخدم والعبيد والجند الذين كانوا يقيمون بمدينة العسكر التى أسسها صالح بن على العباسى وأبو عون الذى خلفه فى ولايه مصر، اتخذ ابن طولون قطائع مختلفة من سودان ونوبيين وغيرهم من الجند . وكان بقصره مكان يشرف منه فى يوم عرض الجيش . وكان يخرج من الباب الأوسط ، ويخرج عسكره من البابين الآخرين فى عدد عظيم وفى أتم نظام . وقد قيل إن جيش مصر فى عهد ابن طولون بلغ مائة ألف .

ويتبين مبلغ اهتمام الطولونيين بالجيش من وصف موكب خمارويه عند خروجه للصيد أو التنزه أو الاحتفال باعياد الدولة ومواسمها . وقد بلغ موكب هذا الأمير حد الروعة والبهاء ، ويسير فيه أولاد الخوف وسائر الضياع ، وكانوا من قطاع الطرق ضخام الأجسام ، المعروفين بالشجاعة والبأس ، فأدخلهم خمارويه فى خدمته ، وأدر عليهم الأرزاق والعطايا ، ومنع عن الناس أذاهم ، واتخذهم حرسا له . وكانوا يلبسون الأقبية من الحرير والديباج ، ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة ، ويتقلدون بالسيوف المحلاة . وتسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة يتلوهم ألف من السودان ، لهم درَق من حديد محكم الصنعة ، وعليهم الأقبية والعمائم السود ، فيخالهم الناظر بحرا أسود يسير لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم . ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم والبيض [١] التى تلمع من تحت العمائم . فاذا مضى السودانيون ، قدم خمارويه وسار منفردا عن موكبه بمقدار نصف غلوة [٢] سهم . ويحف به حرسه المختار ، وهو ممتط فرسا ، تكسوه الهيبة ويدل مظهره على السطوة وشدة البأس . فاذا سار ، سار الناس جميعا وبينهم الجند فى صمت عميق كأن على رءوسهم الطير .

وفى عهد الإخشيد كانت مصر آمنة مطمئنة بجيشها الذى بلغ أربعمائة ألف مقاتل ، عدا حرسه الخاص ، وعبيده ومماليكه الذين كان يزخر بهم قصره ، وكانوا إذ ذاك ثمانية آلاف رجل . وكان جند مصر فى عهد الإخشيد يتألف من الأتراك والروم ، وكانت رواتبهم تدفع إليهم بانتظام من هذه الموارد التى هيأتها ثروة هذه البلاد . واستطاع هذا الجيش أن يصد محمد بن رائق الخزرى ويحل به الهزيمة فى العريش ، وأن يصد سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب ؛ كما استطاع أن يضم إلى مصر بلاد الشام ومكة والمدينة ، وأصبح الإخشيد من القوة بحيث يستطيع أن يأمر عماله وقواده بتولية ابنه أنوجور العهد [٣] .

ولما تولى كافور زمام مصر وما يليها من البلاد بعد وفاة الإخشيد انضم إلى الجيش عدد كبير من السودان . ويقول المقريزى [٤] إنه كان لكافور ١٧٠٠ غلام من الأتراك عدا الروم والمولدين ، وإنه كان يدر على جنده الرواتب الوفيرة والهبات العظيمة .

---

(١) جمع بيضة وهى الخوذة الحديدية (٢) رمية .

(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٥٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٤) خطط ج ١ ص ١٥٢ .

(ب) فى عهد الفاطميين :

أما الفاطميون فقد وجهوا عنايتهم إلى إعداد جيش قوى . وكان هذا الجيش يتألف من الأمراء وطوائف الجند . ولكل من هاتين الطبقتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها ، وكان يخلع على بعض الأمراء بأطواق الذهب فيحملونها حول أعناقهم ، والبعض الآخر يركب فى المواكب بالقضب الفضية . وكان الجيش يتكون من عدة عناصر : كالمغاربة والأتراك والأكراد والغز والديلم والسودان . وكان بعض هذه العناصر ينسب إلى الخلفاء : كالحافظية والآمرية ، والبعض الآخر ينسب إلى الوزراء : كالجيوشية والأفضلية .

وقد اهتم الخلفاء الفاطميون بعرض الجيش وتوديع الحملات الحربية ، وخاصة إلى بلاد الشام وفلسطين ، وكان أهلها فى ثورات متصلة على الفاطميين (١) .

(ب) البحرية

اهتم المسلمون على أثر فتح بلاد الشام ومصر بانشاء أسطول لحماية سواحل هذه البلاد من غارات البيزنطيين ، ومحاولة فتح القسطنطينية . وقد ظهر ذلك واضحا منذ عهد عثمان بن عفان وفى عهد الدولة الأموية التى استقرت فى بلاد الشام . على أن انتقال الخلافة إلى العراق أدى إلى جعل مهمة الدفاع عن هذه البلاد من اختصاص ولاتها أنفسهم . وقد بلغ من اهتمام المسلمين بالبحرية أن سفنهم أصبحت أكبر وأقوى من سفن البيزنطيين . وكان للمسلمين فى كل مرفأ منار لهداية السفن ، أطلق عليه اسم « الخشب » ، كما كان لكل سفينة حربية قائد أو « مقدَّم » يرأس من يعمل فيها من الجند ويقوم بتدريبهم وإعداد العدة للحملات البحرية . وإلى جانب هذا القائد موظف آخر يدعى الرئيس يتولى الملاحة فقط . أما القائد العام للأسطول فيدعى «أمير الماء» أو «أمير البحر» ، الذى اشتق منه الأوربيون لفظ Admiral .

وقد اشتهرت مصر فى العصر الإسلامى بصناعة المراكب النيلية لنقل حاصلات البلاد من مكان إلى آخر ، كما اشتهرت أيضا بصناعة السفن الحربية التى يتكون منها الأسطول المصرى ، والتى كانت تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة البيزنطية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتنيس والفرما .

ويرجع إنشاء « الصناعة » فى مصر إلى هذه الغزوة التى شنها البيزنطيون على البرلس وتكبد فيها المصريون خسائر فادحة ، وما تبع ذلك من استيلائهم على تنيس فى سنة ١٠١ هـ (٧٢٠ م) وعلى دمياط سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٣ م) . وكان من أثر هذه الحملة الأخيرة أن قام عنبسة بن إسحق (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ) والى مصر فى ذلك الوقت بتحصين سائر الموانىء المصرية ، كما قام فى الوقت نفسه بانشاء « الصناعة » التى ظلت موضع عناية ولاة مصر إلى أن قامت الدولة الطولونية ، وأنشأ فيها أحمد بن طولون أسطولا كبيرا من السفن الحربية . ولكن بقاء « الصناعة » فى هذا المكان أصبح

---

(١) النظم الاسلامية للمؤلف ص ٢٣٩ — ٢٤١ . وسنقف على ترتيب الجند فى عهد الفاطميين من الوصف الذى أورده ناصرى خسرو عن الاحتفال بحبر الخليج فى عهد المستنصر فى الباب العاشر من هذا الكتاب .

مصدر خطر للبلاد بعد أن أحرقها الثوار فى سنة ٣٢٣ هـ ثم استولوا على الأسطول المصرى فى الفيوم واستخدموه فى الهرب إلى الإسكندرية ثم إلى برقة . ومن ثم أمر الإخشيد بنقل دار الصناعة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة أحمد بن طولون (شعبان سنة ٣٢٥ هـ) ، ثم أقام فى موضعها بستانه المعروف « بالمختار » (١) .

ولم تقف جهود الفاطميين عند حد اهتمامهم بتكوين الجيش ، بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين لبلاد الشام التى كانت تابعة لمصر ، واستيلائهم على أمهات مدنها مثل أنطاكية وحلب ، أنهم فى حاجة ماسة إلى أسطول قوى ؛ فأنشأ المعز لدين الله الفاطمى ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين السفن الحربية فى مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) . وفى الإسكندرية ودمياط . وكانت تسير بعض وحداتها للمرابطة فى الموانىء الشامية مثل عكاء وصور وعسقلان .

وأنشأ المعز فى المقس دارا لصناعة السفن بنى فيها ستمائة مركب ، وصفها المسبِّحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسنا . وقد قام الأسطول المصرى فى عهد الفاطميين بدور هام فى الحروب التى قامت بين القرامطة والفاطميين (٣٦٠—٣٦٧ هـ) . فقد استطاع أسطول القرامطة أن يصل إلى مصر ويهدد دلتا النيل ، ويغرق كثيرا من سفن الفاطميين فى البحر الأبيض المتوسط ، كما استطاع أسطول الفاطميين أن يمد الحاميات الفاطمية المحاصرة فى الشام (٢) .

وقد ذكر القلقشندى(٣) أنه كان على رأس الأسطول المصرى عشرة قواد ، عليهم رئيس هو « قائد القواد » ، ويسمى فى عصر الفاطميين « أمير الجيش » ، وفى عهد المماليك « ناظر الجيش » . ويتناول كل من هؤلاء القواد رواتب تصل إلى عشرين دينارا فى الشهر . وكان للاسطول المصرى ميزانية ضخمة من مستغلات الإقطاعات المحبوسة عليها . ولم يزل الأسطول محل عناية الفاطميين، حتى قام النزاع بينهم وبين الصليبيين ، فأمر شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بإحراق مدينة الفسطاط ليحول دون وصول العدو ، كما أحرق مراكب الأسطول .

وقد ذكر ابن خلدون (٤) ماقامت به البحرية الإسلامية من الأعمال المجيدة ضد البيزنطيين وسائر الشعوب الأوربية فى البحر الأبيض المتوسط الذى أصبح بحق بحيرة عربية فى ذلك العصر ، فيقول : « وكانت أساطيل إفريقية والأندلس فى دولة العبيديين والأمويين تتعاقب إلى بلادهما فى سبيل الفتنة، فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب . وانتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتى مركب أو نحوها ، واسطول إفريقية (٥) كذلك مثله أو قريبا منه . وكان قائد الأساطيل

(١) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ٢ ص ١٩٩ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣٣ .
(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٣—٥٢٤ . انظر كتاب النظم الاسلامية للمؤلف ص ٢٥١—٢٥٢ .
(٤) مقدمة ص ٢٢٠ — ٢٢١ .
(٥) يقصد بذلك أسطول الفاطميين فى المغرب .

بالأندلس ابن رماحس ، ومرفؤها للحط والإقلاع بجاية والمرية . وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك ، من كل بلد تتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره إلى قائد من النوتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ، ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاذيف ، وأمر إرسائه فى مرفئه . فاذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفل أو غرض سلطانى مهم ، عسكرت بمرفاها المعلوم ، وشحنها السلطان برجاله وإنجاد عساكره ومواليه . وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم إليه ، ثم يسرحهم لوجههم ، وينتظر إيابهم بالفتح والغنيمة . وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه . فلم يكن للامم النصرانية قبل بأساطيلهم .. وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم . فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل : ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرس ، وسائر ممالك الروم والإفرنج . وكان أبو القاسم الشيعى [1] وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة . وافتتح مجاهد العامرى دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية فى أساطيله سنة خمس وأربعمائة ، وارتجعها النصارى لوقتها ، والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجيز البحر فى الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الإفرنج وتشخن فى ممالكهم ، كما وقع فى أيام بنى الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه ، من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت فى طرقه سلماً وحربا ، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح » .

ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية . ولكن العرب الذين تعلموا على البيزنطيين هذه الفنون أصبحوا أساتذة أوربا لما فطروا عليه من الشجاعة وحب المغامرة . ومما يدل على صحة هذا القول أن بعض الاصطلاحات البحرية المستعملة فى أوربا لا تزال تحتفظ بعربيتها إلى اليوم . وكان أثر العرب فى شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص ، أبعد مدى من غيرهم من شعوب أوربا . ويقول فون كريمر [2] : « ومما يوضح لنا أن الأسطول العربى القديم كان نموذجا لأساطيل الأقطار المسيحية ، أن كثيرا من الاصطلاحات العربية البحرية لا تزال شائعة على ألسنة البحارة فى جنوب أوربا . ومن بين تلك الاصطلاحات كلمة cable المأخوذة من « حبل » العربى ، arsenal (وبالإيطالية darsonal) المأخوذة من « دار الصناعة » ، corvette المأخوذة من « غراب » ، admiral المأخوذة من « أمير البحر » .

---

(١) هو القائم الفاطمى ثانى الخلفاء الفاطميين بالمغرب (٣٢٢ — ٣٣٤ هـ)

(٢) Von Kremer: Orient Under the Caliphs, p. 356.

٤ — النظام المالى

(١) فى الدولة العباسية :

١ — موارد الدولة :

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن سياسة العباسيين المالية كانت ترمى إلى تحقيق التوازن بين موارد الدولة ومصارفها ؛ ومن ثم كانت تقسم الميزانية العامة قسمين : قسم الاستخراج ويعرف بموارد الدولة ، وقسم النفقات ويعرف بمصارف الدولة (١) .

وقد بلغ النظام المالى فى العصر العباسى الثانى مبلغاً عظيما من الدقة والنظام . فكان لكل ولاية ديوان للخراج يتبع ديوان الخراج الرئيسى فى بغداد أو فى سامرا . وينقسم كل منهما قسمين : يشرف أحدهما على النفقات ويحمل ما تبقى إلى دار الخلافة ، ويشرف الثانى على الموارد . وكان بيت المال بدار الخلافة يعنى بشئون الدواوين وما يتعلق بالجزء الشرقى لمدينة بغداد ، لأن هذا الجزء كان تابعا لدار الخلافة ، على حين كان الجانب الغربى لهذه المدينة تابعا لإقليم بادرايا .

وقد بين الخوارزمى (٢) القوانين والدفاتر والأعمال التى كانت مستعملة فى الدواوين بخراسان فى ذلك العصر فقال :

« قانون (٣) الخراج أصله الذى يرجع إليه وتبنى الجباية عليه ، وهى كلمة يونانية معربة .

الأوارَج أعراب أواره ، ومعناها بالفارسية المنقول ، لأنه ينقل إليه من القانون ما على إنسان إنسان ، ويثبت فيه ما يؤديه دفعة بعد أخرى إلى أن يستوفى ما عليه .

الزرنامج ، فسيره كتاب اليوم ، لأنه يكتب فيه ما يجرى كل يوم من الخراج أو نفقة أو غير ذلك .

الختمة كتاب يرفعه الجهبذ (٤) فى كل شهر بالاستخراج والجمل والنفقات والحاصل كأنه يختم الشهر به — الختمة الجامعة تعمل كل سنة لذلك .

التأريج قيل لفظة فارسية ومعناه النظام ، لأنه كسواد يعمل كالعقد لعدة أبواب يحتاج إلى علم جملها . وأنا أظن أنه تفعيل من الأوارج . تقول : أرجت تأريجا لأن التأريج يعمل للعقد شبيها بالأوارج ، فان ما يثبت تحت كل اسم من دفعات القبض يكون مصفوفا ليسهل عقده بالحساب ، وهكذا يعمل التأريج .

العريضة ، شبيهة بالتأريج ، إلا أنها تعمل لأبواب يحتاج إلى أن يعلم فضل ما بينها ، فينقص الأقل من الأكثر من بابين منها ، ويوضع ما يفضل فى باب ثالث ، وهو الباب المقصود الذى تعمل العريضة

---

(١) ص ٢١٠ — ٢١١ .

(٢) مفاتيح العلوم (القاهرة سنة ١٣٤٢هـ) ص ٣٦ — ٣٩ .

(٣) كانت لفظة Kanon فى العصر التالى لعصر دقلديانوس هى الاصلاح العام للضرائب العادية .

(٤) الجهبذ بالكسر : النقاد الخبير بغوامض الأمور ، البارع العارف بطرق النقد ، وهو معرب .

لأجله ، مثل أن تعمل عريضة للأصل والاستخراج . ففى أكثر الأحوال ينقص الاستخراج عن الأصل فيوضع فى السطر الاول من سطور العريضة ثلاثة أبواب : أحدها للأصل ، والثانى للاستخراج ، والثالث لفضل ما بينهما . ثم يوضع فى السطر الثانى والثالث والرابع إلى حيث ينتهى تفصيلات الأصل والاستخراج فضل ما بينهما ويثبت كل واحد منهما بإزاء بابه ، وتثبت جملة كل باب تحته .

البراءة ، حجة يبذلها الجهبذ أو الخازن للمؤدى بما يؤديه إليه .

الموافقة والجماعة ، حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل ، ولا يسمى موافقة مالم يرفع باتفاق بين الرافع والمرفوع إليه فان انفرد به أحدهما دون أن يوافق الآخر على تفصيلا نه سمى محاسبة .

ومن دفاتر ديوان الجيش الجريدة السوداء ، وهى تكسر لقيادة قيادة فى كل سنة بأسامى الرجال وأنسابهم وأجناسهم وحلاهم ومبالغ أرزاقهم وقبوضهم وسائر أحوالهم ، وهو الأصل الذى يرجع إليه فى هذا الديوان فى كل شىء .

الرجعة ، حساب يرفعه المعطى فى بعض العساكر لطمع [1] واحد إذا رجع إلى الديوان . والرجعة الجامعة يرفعها صاحب ديوان الجيش لكل طمع من صنوف الإنفاق .

الصك ، يعمل لكل طمع يجمع فيه أسامى المستحقين وعدتهم ومبلغ مالهم ويوقع السلطان فى آخره بإطلاق الرزق لهم .

والمؤامرة ، عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة فى مدة أيام الطمع ، ويوقع السلطان فى آخره باجازة ذلك . وقد تعمل المؤامرة فى كل ديوان تجمع جميع مايحتاج إليه من استئمار واستدعاء توقيع. والصك أيضا يعمل لأجور السربانيين والجمالين ونحوهم .

الاستقرار ، عمل يعمل لما يستقر عليه من الطمع بعد الإثبات والفك والوضع والزيادة والحط والنقل والتحويل ونحو ذلك .

المواصفة ، عمل يُعمل ، فتوصف فيه أحوال تقع وأسبابها ودواعيها وما يعود بثباتها أو زوالها .

الجريدة المسجلة هى المختومة ؛ فأما السجل فكتاب يكتب للرسول أو المخبر أو الرحّال أو غيرهم بإطلاق نفقته حيث بلغ ، فيقيمها له كل عامل يجتاز به . والسجل أيضا المحضر يعقده القاضى بفصل القضاء ، يقال سجل الحاكم لفلان بكذا تسجيلا .

الفهرست ، ذكر الأعمال والدفاتر تكون فى الديوان ، وقد يكون لسائر الأشياء .

الدستور ، نسخة الجماعة المنقولة من السواد .

التَّرقين ، خط يخط فى التأريج أو العريضة إذا خلا باب من السطر لكى يكون الترتيب محفوظا به ، وهو بمنزلة الصفر فى حساب الهند وحساب الجُمَّل ، واشتقاقه من رقان ، وهو بالنبطية الفارغ .

الجائزة علامة المقابلة .

ومن الدفاتر التى يستعملها كتاب العراق ، الإنجيذج تفسيره الملفوظ لفظة فارسية معربة .

---

(١) الطمع محركة رزق الجهبذ ، وجمعها أطماع أو أطماعهم أوقات قبض أرزاقهم .

الأوشنج ، تفسيره المطوى والمجموع لفظة فارسية معربة أيضا .

والدُّروزَن ذكر الماسح وسواده الذى يثبت فيه مقادير ما يمسحه من الأرضين » .

ومن أهم موارد بيت المال فى هذا العصر : الخراج ، والجزية ، والزكاة ، والفيء ، والغنيمة والعشور .

وقد زادت الضرائب فى عهد بنى أمية على ما كانت عليه فى عهد الخلفاء الراشدين ، إذ لم يراع الخلفاء القواعد التى قررها أسلافهم ، بل تجاوزوا حدود الضرائب التى فرضوها . وسن الأمويون نظاما دقيقا للإشراف على جباية الأموال . ففى عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق مع الجباة وموظفى الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية . وكان للتحقيق مع هؤلاء أماكن خاصة تسمى « دار الاستخراج » .

وفى العصر العباسى الأول كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج .

١ — المحاسبة ، وهى إما أن تكون نقدا أو نوعا أو هما معا .

٢ — المقاسمة ، وهى ضريبة نوعية تؤخذ من المحصول .

٣ — المقاطعة ، وهى ضريبة تجبى بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والخاصة . ويدخل فى هذا النظام معظم أراضى التاج . وكثيرا ما كان يعفى البعض من دفع الضرائب حتى فى العهود التى ساد فيها العسر والجدب . مثال ذلك أن الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) تجاوز عن ربع الضريبة بإرجائه السنة المالية من مارس إلى ١٧ يونية ، ثم بإرجائها مرة أخرى إلى ٣١ يونية[١] .

وقد بلغ ماحمل إلى بيت المال فى أواخر القرن الثالث الهجرى فى كل سنة — على ما أورده قدامة ابن جعفر[٢] من العين ٤,٩٢٠,٠٠٠ دينار من الورق . وكان الدينار يساوى فى ذلك الوقت خمسة عشر درهما ، فيكون مجموع الخراج ٧٣,٨٠٠,٠٠٠ درهم . وقد فصل قدامة[٣] جباية أقاليم الدولة فى هذا العصر فقال :

« تفصيل ذلك عينا وورقا :

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية		أسماء الأقاليم	مقدار الجباية
السواد	١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم		سجستان	١,٠٠٠,٠٠٠ درهم
الأهواز	٢٣,٠٠٠,٠٠٠ »		خراسان	٣٧,٠٠٠,٠٠٠ »
فارس	٢٤,٠٠٠,٠٠٠ »		حلوان	٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ »
كرمان	٦,٠٠٠,٠٠٠ »		ماه الكوفة	٥,٠٠٠,٠٠٠ »
مكران	١,٠٠٠,٠٠٠ »		ماه البصرة	٤,٨٠٠,٠٠٠ »
أصبهان	١٠,٥٠٠,٠٠٠ »		همذان	١,٧٠٠,٠٠٠ »

(١) راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢١١

(٢) كتاب الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٤٩

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٩ — ٢٥١

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية		أسماء الأقاليم	مقدار الجباية	
ماسبذان	١,٢٠٠,٠٠٠	درهم	أرزن وميافارقين	٤,٢٠٠,٠٠٠	درهم
مهرجان قذق	١,١٠٠,٠٠٠	»	مقاطعة طرون	١٠٠,٠٠٠	»
الإيغارين	٣,٨٠٠,٠٠٠	»	أرمينية	٤,٠٠٠,٠٠٠	»
قم وقاسان	٣,٠٠٠,٠٠٠	»	آمد	٢,٠٠٠,٠٠٠	»
آذربيجان	٤,٥٠٠,٠٠٠	»	ديار مضر	٦,٠٠٠,٠٠٠	»
الرى ودماوند	٢٠,٠٨٠,٠٠٠	»	أعمال طريق الفرات	٢,٩٠٠,٠٠٠	»
قزوين وزنجان وأبهر	١,٨٢٠,٠٠٠	»	قنسرين والعواصم	٣٦٠,٠٠٠	دينار
قومس	١,١٥٠,٠٠٠	»	جند حمص	٢١٨,٠٠٠	»
جرجان	٤,٠٠٠,٠٠٠	»	جند دمشق	١١٠,٠٠٠	»
طبرستان	٤,٢٨٠,٠٠٠	»	جند الأردن	١٠٩,٠٠٠	»
تكريت والطيرهان	٩٠٠,٠٠٠	»	جند فلسطين	٢٥٩,٠٠٠	»
والسن والبوازيج			مصر والإسكندرية	٢,٥٠٠,٠٠٠	»
شهرزور والصامغان	٢,٧٥٠,٠٠٠	»	الحرمين	١٠٠,٠٠٠	»
كورة الموصل	٦,٣٠٠,٠٠٠	»	اليمن	٦٠٠,٠٠٠	»
قردى وبزبدى	٣,٢٠٠,٠٠٠	»	اليمامة والبحرين	٥١٠,٠٠٠	»
ديار ربيعة	٩,٦٣٥,٠٠٠	»	عمان	٣٠٠,٠٠٠	»

ومما يدخل فى شىء من الارتفاع جزية رءوس أهل الذمة بحضرة مدينة السلام وهى ٢٠٠,٠٠٠ درهم .

نظام الإقطاع :

ولم يأت الخراج عن طريق الأرض الخراجية وحدها بل كان يأتى أيضا عن طريق الأرض المقطعة . ويرجع نظام الإقطاع إلى عهد الفتوح الإسلامية الأولى ، فكانت أراضى الأكاسرة وأفراد البيت المالك والمرازبة ، وهم كبار أصحاب الأراضى ، ملكا للدولة تُقطعها من تشاء . وقد ذكر الماوردى (١) أن الإقطاع ضربان : إقطاع استغلال ، وإقطاع تمليك ، والثانى ينقسم إلى موات وعامر . والثانى وهو ضربان : أحدهما ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض فى حق لبيت المال إذا كانت فى دار الإسلام . فان كانت فى دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد فأراد الإمام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها فإنه يجوز » .

وكان الخراج الذى يؤدى عن الأرض المقطعة يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع وبين الحكومة ، ويبلغ العشر على ما قرره الفقهاء . وتعود هذه الأرض المقطعة إلى الحكومة فى حالة مصادرة أصحابها أو عند تطرق الخراب إليها . وكثيرا ما كان الخراج عبئا ثقيلا على صغار ملاك

(١) الأحكام السلطانية ص ١٨١ — ١٨٨

الأراضى ، حتى إن بعضهم كان يلحق أرضه بالاقوياء ، فرارا من كثرة الخراج المفروض عليهم ، ومن ثم كانوا لايدفعون عن هذه الأراضى إلا العشر فقط (١) . وتسمى هذه الطريقة التلجئة ، وهى « أن يطلق الضعيف ضيعة إلى قوى ليحامى عليها (٢) .

على أن نظام الإقطاع لم يخل من بعض العيوب ، إذ أن المقطع أو الملتزم كان يعمل على الإثراء وجمع المال ، ولا يتردد فى إرهاق الأهلين وإثقالهم بالضرائب المختلفة حتى يستطيع أن يؤدى إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحتفظ لنفسه بما زاد على ذلك . والأهالى فى ذلك مغلوبون على أمرهم ، قلما تصل شكاياتهم إلى السلطة المركزية ، فضلا عما كان يسلكه معهم بعض الجباة من وسائل التعذيب (٣) .

ولم يكن الالتزام مقصورا على إقطاع أجزاء من الأرض فى الولاية الواحدة ، بل قد يشمل ولاية برمتها . وقد ساد هذا النظام فى العصر العباسى الأول حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية ، وأصبحوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغا من المال عدا الهدايا والطرف ، كما كان متبعا فى نظام الإقطاع الذى ساد أوربا فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين (٤)) .

وقد اهتم الخلفاء بمواعيد الخراج . وكان ميعاده عيد النيروز عادة . ولما حاول الأمويون تقديم ميعاد الخراج نحوا من شهر ، طلب أصحاب الأراضى العدول عن تنفيذ هذا القرار ؛ ولكن هشام ابن عبد الملك أبى ذلك عليهم . واستمر هذا النظام إلى أيام هارون الرشيد حيث طلب أصحاب الأراضى من يحيى بن خالد البرمكى تأجيل ميعاد الخراج شهرين ، وكاد يجيب طلبهم ، ولكنه عدل عن ذلك لأنه رمى بالتعصب للمجوسية . ولم تحل هذه المسألة الا فى عهد الخليفة المتوكل . ولما جاء ابنه المنتصر أعاد ميعاد الخراج الى ما كان عليه من قبل . ثم جاء المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) فقدم ميعاد الخراج عما كان عليه فى عهد المتوكل بستة عشر يوما ، فأصبح فى ٢٠ يونية من كل سنة .

وكانت الجزية التى تؤخذ من أهل الذمة من أهم مصادر بيت المال ؛ وقد فرضت أول الأمر على النصارى واليهود مقابل حمايتهم والدفاع عنهم . ومن ثم كانت هذه الضريبة أشبه بضريبة الدفاع الوطنى أو البدل العسكرى . لذلك لم تفرض إلا على القادرين على حمل السلاح وكانت هذه الضريبة التى عرفت باسم الجزية أو جزية الرءوس أو الضريبة الشخصية تؤدى على قدر طاقة الشخص . ولذلك قسم أهل الذمة طبقات ثلاث : دنيا ويدفع الشخص منها ١٢ درهما فى السنة ، ووسطى ويدفع ٢٤ درهما ، وعليا ويدفع ٤٨ درهما . وفى البلاد التى استعملت فيها العملة الذهبية كانت الضريبة دينارا ودينارين وأربعة دنانير على التوالى . وكانت الجزية تؤخذ على أقساط تبلغ أحيانا ستة أو خمسة وأحيانا أربعة أو ثلاثة أو اثنين ، وفرضت فى العراق أول الأمر فى كل شهر . وفى سنة ٣٦٦ هـ صدر

---

(١) هلال بن الصابىء : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٣٤ ، ٢٢٠

(٢) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٤١

(٣) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٨ ، ٦١ ، ٧٠ — ٧١

(٤) كتاب النظم الاسلامية للمؤلف ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

أمر الخليفة بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة فى شهر المحرم من كل سنة ، وألا تؤخذ من النساء ، ولا ممن لم يبلغ الحلم ، ولا من ذى سن عالية ، ولا ذى عاهة بادية ، ولا من فقير معدم ، ولا من راهب متبتّل . ويعطى لمن دفع الجزية براءة تثبت أداءه لها (١) .

وقد بلغ المتحصل من ضريبة الجزية فى أواخر القرن الثالث الهجرى بمدينة بغداد ٢٠٠,٠٠٠ درهم فى السنة .

ومن مصادر بيت المال أيضا ما يؤخذ من تركة من يموت دون أن يترك وارثا له ، حيث يؤول ميراثه إلى بيت المال . وكان هذا مقصورا على المسلمين . ولذلك نرى الخليفة المقتدر (٢٩٥—٣٢٠هـ) يصدر فى سنة ٣١١ هـ كتابا يأمر فيه برد تركة من يموت من أهل الذمة دون وارث إلى أهل ملته لا إلى بيت المال ، وذلك لما « روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن المسلم لا يرث الكافر ، وأن الكافر لا يرث المسلم ، وأنه لا يتوارث أهل ملتين (٢) » ، « وأن السنة جرت بأن أهل كل ملة يُورِّثون من هو منهم إذا لم يكن له وارث من ذى رحمه (٣) » . ونظرا لما كان لهذه التركات من أهمية بكونها مصدرا هاما من مصادر بيت المال ، أنشىء لها فى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦—٢٧٩هـ) ديوان خاص أطلق عليه « ديوان المواريث » .

وكان هذا الديوان مصدر كثير من العنت والإرهاق والشكوى ، لأخذ المواريث على غير ما تجرى به السنة (٤) :

ومن مصادر بيت المال أخماس المعادن والركاز (٥) وخمس ما يقذفه البحر أو يستخرج منه مثل اللؤلؤ والعنبر ، وأثمان الآبّاق من العبيد (٦) ، وما يؤخذ من الغصوص من الأموال والأمتعة إذا لم يظهر له صاحب (٧) . ومن مصادر بيت المال أيضا الرسوم الجمركية كما سيأتى فى الباب الثامن.

وكانت مصادرات الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة مصدرا من مصادر بيت المال . فنرى مثلا الخليفة القاهر (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ) يصادر أم سلفه المقتدر وأنصاره ويستولى على « ثياب وشى وديباج رومى وتُسْتَرى (٨) مُشتملة بالذهب ، وفرش أدَمى وخز رقم وديباج ، وصناديق فيها ثياب فاخرة وصياغات يسيرة ذهب ، وصياغات كثيرة فضة ، وطيب كثير من عود هندى وعنبر مسك وكافور ، وتماثيل كافور ، قيمة ذلك نحو مائة وثلاثين ألف دينار ، وقيمة التماثيل نحو ثلثمائة ألف

---

(١) راجع آدم متز: الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٧٤ — ٧٨ .

(٢) هلال بن الصابىء : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٢٤٨ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) راجع كتاب الخليفة المقتدر إلى عماله فى صدد تعديل قانون المواريث فى ابن الصابىء : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٢٤٦ — ٢٤٩ .

(٥) الركاز المال المدفون فى الجاهلية .

(٦) من أبق العبد أبقا إذا هرب من سيده من غير خوف ولا كد عمل ، والجمع أباق مثل كافر وكفار.

(٧) آدم متز : الحضارة الاسلامية ص ١٨٩ .

(٨) نسبة إلى تستر ، وهى معربة عن ششتر اشهر مدن خوزستان .

درهم . فتسلم أكثر ذلك مؤنس المظفر ليباع ، فتركوا بعضه ليخدم به القاهر » (١) .

ولما قتل بجكم صودرت أمواله — وكانت مدفونة فى مواضع كثيرة من بستانه . وقد قيل إن الخليفة المتقى استولى على ألفى ألف دينار من العين والورق ، كما استولى من ابن شيرزاد ، وكان من أنصار بجكم ، على مائتى ألف دينار (٢) . وكذلك نرى بختيار بن معز الدولة ينفى كبار الديلم ويصادر إقطاعاتهم ويستولى على أموالهم وأموال المتصلين بهم (٣) .

وقد سن بنو بويه طرقا لابتزاز الأموال من أصحابها ، فزاد عضد الدولة فى مساحة الأراضى « واحدا فى عشرة بالقلم ، وأضافه إلى الأصول ، وجعله رسماجايار (٤) ، استمر إلى هذه الغاية فى جميع السواد ، وأحدث جنايات لم تكن ، ورسوم معاملات لم تعهد ، وأدخل يده فى جميع الأرجاء (٥) ، وجبى ارتفاعها وجعل لأهلها شيئا منه . وكثرت الظلامة من ذلك فى آخر أيامه . . . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . . فأزاله صمصام الدولة بعده ، وأطلق الارتفاع (٦) للملاك . وجعل للمراعى وفرائض الصدقات ديوانا ، وأفرد له عمالا وكتابا وجهابذة ، فارتفع من أعمال السواد مازاد على ألف ألف درهم فى السنة . وأدخل يده فى وقوف السواد ، ورتب لها ناظرين متصرفين ، وقرر لأربابها إجارة تطلق لهم عنها ، فتحصل منها جملة كثيرة فصارت فى المقبوض (٧) ، وخرجت الإقطاعات من بعد ذلك (٨) . وقرر على أسواق الدواب والحمير والجمال عما يباع فيها من جميع ذلك ، وفعل فى ضرائب الأمتعة الصادرة والواردة مازاد فيه على الرسوم القديمة ، وحظر عمل الثلج والقز وجعلهما متجرا للخاص (٩) . وكانا من قبل مطلقين لمن يريد عملهما والمتجر فيهما » (١٠) .

٢ — مصروفات الدولة :

وقد كثرت موارد الدولة العباسية فى ذلك العصر على الرغم مما أصابها من ضعف ووهن . يدل على ذلك هذا البيان الطويل الذى أورده هلال بن الصابى . (١١) عن النفقات اليومية للدولة العباسية فى أوائل عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) . ومنه نرى أنها بلغت نحو سبعة آلاف دينار ، أى

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٢٤٤ .

(٢) الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٣٥ ، راجع هذا الكتاب ص ١٠٧ .

(٤) أى نظاما متبعا .

(٥) فى الأصل أرحاء جمع رحى هو الطاحون ، ويظهر أنها الأرجاء كما يقتضيه سياق الكلام .

(٦) الارتفاع هو صافى دخل الأرض ونحوها ، يريد أنه اكتفى بأن يأخذ الخراج للدولة من الملاك ويترك لهم ما بقى .

(٧) يعنى أن هذه الأموال قد حصلت من الذين كانت عليهم وصارت فى قبضة أصحاب الأوقاف .

(٨) يعنى أن ماعدا أراضى الأوقاف يجعل إقطاعا ويوزع على الملتزمين على أساس نظام الاقطاع .

(٩) يقصد أنهما جعلا احتكارا للديوان .

(١٠) مسكويه : تجارب الأمم ج ٣ ص ٧١ .

(١١) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١١ — ٢٢ .

ما يزيد على مليونين ونصف مليون دينار فى السنة . وإذا علمنا أن صافى ما يصل إلى حاضرة الدولة بلغ ٤,٩٢٠,٠٠٠ دينار فى السنة ، أمكن توفير ما يقرب من ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة، حتى إننا نجد فى أواخر عهد هذا الخليفة أن « بالحضرة تسعة آلاف ألف دينار فاضلة عن جميع النفقات . وكان المعتضد بالله — رحمة الله — قد اعتقد أنه يتممها عشرة آلاف ألف دينار ، ثم يسبكها ويجعلها نقرة واحدة ، ويطرحها على باب العامة ليبلغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار ، وهو مستغن عنها . فاخترمته المنية قبل بلوغ الأمنية » . (١) وإليك بعض ماورد فى بيان ابن الصابىء عن نفقات الدولة العباسية اليومية عن « أصل ضمان أحمد بن محمد الطائى فى أول أيام المعتضد بالله رحمة الله عليه ، أعمال سقى الفرات ودجلة وجوخى وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق والذيبين وكلواذى ونهر بين والراذانين وطريق خراسان ، مما شرط عليه أداؤه مياوما فى بيت المال من العين :

ألفى ألف وخمسمائة ألف وعشرين ألف دينار

قسط كل شهر من ذلك = مائتى ألف وعشرة آلاف دينار

وكل يوم = سبعة آلاف دينار

تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ما قرره المعتضد بالله رحمة الله عليه منه :

١٠٠٠ دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجالة ومن يرسمهم من البوابين ومن يجرى مجراهم (٢).

١٠٠٠ دينار أرزاق الغلمان المعروفين بالغلمان الخاصة ، ومنهم حاجب المعتضد وخلفاء الحجاب وعدتهم ٢٥ رجلا ، كانوا يلازمون الخليفة فى أسفاره .

١٥٠٠ دينار أرزاق الفرسان من الأحرار والمميزين ، وكانت أيام شهرهم خمسين ، فلما جعلت تسعين سموا التسعينية . هذا عدا ما خصص للدواب . فقد جعل « للدابة فى كل خمسة وثلاثين يوما أربعة دنانير ، وللبغل ثلاثة دنانير ونصف ، وللحمار برسم الرجالة دينارين » .

٦٠٠ دينار أرزاق المختارين الذين انتخبوا من كل قيادة وعرفوا بالشهامة والشجاعة من المماليك الناصرية والبغائية والمسرورية والبكجورية واليانسية والمفلحية والأزكوتكينية والكيغلغية والكنداجية (٣).

٥٠٠ دينار أرزاق الفرسان المثبتين ، وأيام شهرهم ١٢٠ يوما على ما أوجبه ابن أبى دلف (٤).

١١٠ دينار أرزاق سبعة عشر صنفا من المختصين بخدمة دار الخلافة كالقراء وأصحاب الأخبار والمؤذنين وأصحاب الأعلام والبوقيين والمخرقين (٥) والمضحكين والطبالين .

---

(١) هلال بن الصابىء ص ١٨٩ .

(٢) ومن هؤلاء البصريون والديالمة والطبرية والمغاربة والسودان .

(٣) هذه الطوائف تنتسب إلى مشهورى قواد الجيش فى ذلك الوقت

(٤) هو أحمد بن عبد العزيز بن أبى دلف ، وقد حاول الاستقلال ببلاد الكرج وحارب العباسيين فى الوقت الذى ثار فيه صاحب الزنج . وكان كاتبه محمد بن الحسين المعروف بدندان من أكبر أصحاب عبد الله بن ميمون القداح . أنظر ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٢٦٧ .

(٥) وردت فى الأصل المخرفين ، ولعلها المخرقين وهم الذين يلعبون الألعاب السحرية ونحوها كالحوائين والسحرة ومن يشبهونهم

٥٠ دينار المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ، وأصحاب الأرباع والمصالح والأعوان والسجانين وأصحاب الطوف ومن فى جملتهم من الفرسان الذين ميزوا وألحقوا بطبقة الدون من المشايخ والمترفين والرجالة الموكلون بأبواب المدينة .

٣٠٠ دينار أثمان أنزال الغلمان المماليك الستينية مما كان يطلق للقواد ليقيم كل منهم « الخبز واللحم لمن فى ناحيته ويوكل عليه من يستجيد [١] الإقامة لهم » .

٣٣٣ ½ دينار لنفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز وأنزال الحرم والحشم ومخابز السودان ، منها ٨٠ دينارا للخاصة ، ٢٥٣ ½ دينار للعامة .

١٠٠ دينار ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة وآلاته ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء والحمام ونفقات خزائن السلاح ، ومما يرم من الجواشن والدروع ويتخذ من النشاب والأعلام والمطارد ، ونفقات خزانة السروج وخزائن الفرش .

٤ دينار أرزاق السقائين بالقرب فى القصر والخزائن والمطابخ والمخابز والدور والحجر والخدم ولوضوء الخاص ومن يعمل بالروايا على البغال من الاصطبلات للحرم والبوابين فى دار العامة .

١٦٧ دينار أرزاق الخاصة ومن يجرى مجراهم من الغلمان والمماليك دون الأكابر الأحرار ، ومن أضيف إليهم من الحشم القدماء .

١٠٠ دينار أرزاق المستخدمين فى شراب العامة وخزائن الكسوة والصناع من الصاغة والخياطين والأساكفة والحدادين والرفائين والفرائين والمطرزين والنجادين والوراقين والعطارين والمشهرين [٢] والنجارين والخراطين وغيرهم ، ومن فى خزانة السلاح والسروج من الخزان والصناع .

١٠٠ دينار أرزاق الحرم ، وقد خصص لها ثلاثة آلاف دينار فى الشهر .

٤٠٠ دينار ثمن علوفة الكراع فى الاصطبلات الخمسة [٣] .

٦٦ ⅔ دينار مايصرف فى ثمن الكراع والإبل وما يبتاع من الخيل الموصوفة فى أحياء العرب ويستبدل به إذا عطب فى العمل .

٣٠ دينار أرزاق المطبخين .

٣٠ دينار أرزاق الفراشين والمجلسيين وخزان الفرش وخزان الشمع وأجرة الأعوان والحمالين فيهما .

---

(١) يعنى من يحسن التأديب لهم (٢) الدلالين

(٣) ذكر هلال بن الصابىء (تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٧ — ١٨) أنه كان هناك خمسة اصطبلات هى : (١) اصطبل الخاص ، ويشتمل على الخيل والحجورة (إناث الخيل) والشهارى والبراذين (نوع من الخيل) وبغال السروج والقباب والهوادج والفردات والحمير (٢) واصطبل العامة وفيه دواب الخدم والغلمان والتفاريق والبازياريين (٣) واصطبل الدواب والحمليات وما يرد من المروج من المهارى المحرمة ، ويبتاع ويهدى ، وفيه يرتبط مايحتاج إلى العلاج والمراعاة وما يرد من الأسفار ، وفيه عقر (جرح) وغمر (عرج) (٤) واصطبل لبغال الأثقال وحمل العلوفات (٥) واصطبل بقصر الطين فى الشماسية لمبارك الابل والجمازات .

٦ ٢/٣ دينار ثمن الشمع والزيت .

٥ دينار أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسروج ومن يخدم فى دواب البريد .

٤٤ ١/٣ دينار أرزاق الجلساء وأكابر الملهين .

٢٣ ١/٣ دينار أرزاق جماعة من المتطببين وتلامذتهم الملازمين مع ٣٠ دينارا لثمن الأدوية فى خزانة القصر .

٧٠ دينار أصحاب الصيد من البازياريين والفهادين والكلابزيين والصقارين والصيادين وثمن الطعم والعلاج للجوارح وأصحاب الحراب والسباعين وأصحاب الشباك واللبابيد والفحالين ومن معهم من الأعوان والحمالين وأصحاب المرور .

١٦ ٢/٣ دينار أرزاق الملاحين فى الطيارات والشذاءات والسميريات والحراقات والزلالات وزواريق المعابر (١) .

٤ دينار ثمن النفط للنفاطات والمشاعل وأجرة الرجال فى خدمتها .

١٥ دينار الصدقة وكانت تفرق على من فى قصر الرصافة من الحرم المحتاجات .

٣٣ ١/٣ دينار وتجرى على أولاد المتوكل وأولادهم رجالا ونساء .

١٦ ٢/٣ دينار وتجرى على أولاد الواثق والمهتدى بالله والمستعين وسائر أولاد الخلفاء .

٣٦ ٢/٣ دينار أولاد الناصر ومشايخ الهاشميين وأصحاب المراتب والخطباء فى المساجد بمدينة السلام .

٣٣ ١/٣ دينار أرزاق جمهور بنى هاشم من العباسيين والطالبيين .

٣٣ ١/٣ دينار أرزاق عبيد الله بن سليمان وابنه القاسم .

١٥٦ ٢/٣ دينار أرزاق أكابر الكتاب وأصحاب الدواوين والخزان والبوابين والمديرين والأعوان وسائر من فى الدواوين . وثمن الصحف والقراطيس والكاغد ، سوى كتاب دواوين الإعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة وأصحابهم وأعوانهم ، وخزان بيت المال ، فانهم ياخذون أرزاقهم بما يوفرونه من أموال الساقطين وغرم المخلين بدوابهم » .

١٦ ٢/٣ دينار جارى إسحق بن إبراهيم القاضى وخليفته يوسف بن يعقوب وأولادهما وعشرة نفر من الفقهاء .

٣ ١/٣ دينار جارى المؤذنين فى المسجدين الجامعين والمكبرين والقوام والأئمة والبوابين وثمن الزيت للمصابيح والحصر والماء ، وثمن الستائر فى الصيف ، والخزف والعمارة فى شهر رمضان .

٥٠ دينار نفقات السجون وثمن أقوات المسجونين وشربهم

١٠ دينار نفقات الجسرين وثمن ما يبدل من سفنهما وأرزاق الجسارين .

١٥ دينار نفقات البيمارستان الصاعدي ، وأرزاق المتطببين والكحالين ومن يخدم المغلوبين

---

(١) هي أنواع من السفن

على عقولهم والبوابين والخبازين وغيرهم وأثمان الطعام والأدوية والأشربة.

وليس أدل على ضخامة الثروة فى هذا العصر من هذا البيان الطويل الذى ذكره مسكويه (١) عن نفقات الخليفة المقتدر الذى عرف بالتبذير. ومن هذا البيان نقف على أنه «أتلف نيفا وسبعين ألف ألف دينار، سوى ما أنفقه فى موضعه وأخرجه فى وجوهه. وهذا أكبر مما جمعه الرشيد وخلفه. ولم يكن فى ولد العباس من جمع أكثر مما جمعه الرشيد، فان القاسم بن عبيد الله قال للمعتضد وقد سأله عن مقدار ما حلفه واحد واحد من ولد العباس من المال، إنه لم يكن فيهم من خلف أكثر مما خلفه هرون الرشيد، فانه خلف فى بيت المال ثمانية وأربعين ألف ألف دينار».

ومن أهم نفقات الدولة العباسية النفقات المخصصة للحج ونفقات الغزوات لمحاربة الأعداء من القرامطة والفاطميين والبيزنطيين وغيرهم، وما يبذل لفداء أسرى المسلمين، وما يصرف على سفراء الملوك والأمراء عند استقبالهم وتوديعهم وتزويدهم بالهدايا والتحف أحيانا، وكل ما يتعلق بنفقات دار الخلافة.(٢)

(ب) فى مصر:

١ — فى عهد الطولونيين والإخشيديين:

قلد الخليفة المتوكل خراج مصر أحمد بن المدبر الذى لجأ إلى القسوة فى جباية الخراج، فزاد الضرائب وحجر على النطرون بعد أن كان مباحا، وفرض على الكلأ المباح ضريبة سميت «مال المراعى»، كما قرر على ما يصاد فى البحر والنيل والبحيرات والبرك ضريبة أسماها «مال المصايد». وكان مال الضرائب ينقسم فى ذلك الوقت قسمين: خراجى وهلالى

١ — فالخراجى: ما يؤخذ على الأرض التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة، وما يؤخذ من المزارعين على سبيل الهدية مثل الغنم والدجاج.

٢ — والهلالى: ما يؤخذ من الضرائب على الكلأ وما يصاد من السمك. وكان الهلالى يعرف فى زمن ابن المدبر وما بعده بالمرافق والمعاون.

وكان ابن المدبر يجمع الخراج ويرسل منه الجزية إلى دار الخلافة، ويتصرف فيما بقى تصرفا لا يتفق ومصلحة البلاد، مما أدى إلى تأخرها، ونقص خراجها إلى ٨٠٠,٠٠٠ دينار مع أنه بلغ ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار فى عهد عمرو بن العاص، ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار فى عهد خلفه عبد الله بن سعد ابن أبى سرح.

وقد عمل ابن طولون على التخلص من ابن المدبر — كما رأينا(٣) — فصرف عن مصر، وتقلد

---

(١) تجارب الأمم ج ١ ص ٢٣٨ — ٢٤١

(٢) آدم متز: الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٠٢ — ٢٠٣

(٣) أنظر ص ٢٢١ من هذا الكتاب

خراج دمشق وفلسطين والأردن (سنة ٢٥٧ هـ) . ولما ولى ابن طولون شئون مصر كلها ، زاد الخراج فى عهده حتى بلغ ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة . ولم يعرف عنه أنه لجأ إلى العسف فى جمعه . على أن الخراج لم يلبث أن نقص فى عهد ابنه خمارويه لما عرف به من التبذير والإسراف(١) .

وقد تولى جباية الخراج فى مصر طوال عهد الدولة الإخشيدية أسرة واحدة هى أسرة المادرائيين الذين اتسعت سلطتهم فى هذه البلاد . ومن مشهورى هذه الأسرة أبو بكر محمد بن على المادرائى الذى قدم مصر فى سنة ٢٧٢ هـ ، وبقى فيها إلى أن قضى محمد بن سليمان الكاتب على الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ، فعاد معه إلى بغداد ، ثم عاد إلى مصر بصحبة الجند الذين بعث بهم الخليفة العباسى المقتدر لقتال الفاطميين حين غزوا هذه البلاد بقيادة حباسة بن يوسف الكتامى وأبى القاسم بن عبيد الله المهدى .

اشتهر أبو بكر المادرائى بالورع والتقوى حتى إنه كان يكثر من تلاوة القرآن والصلاة ، وأداء فريضة الحج . قيل إنه حج سبعاوعشرين مرة كان يبذل فى كل منها مائة وخمسين ألف دينار . وقيل أيضا إن خراج ضياعه بلغ أربعمائة ألف دينار فى السنة . ولكن هذه الثروة الضخمة أثارت حسد منافسيه وأدت الى إلحاق الأذى به ، حتى أحرقت دوره وصودرت أملاكه أكثر من مرة . ولما تقلد الإخشيد مصر للمرة الثانية حال أبو بكر المادرائى دون دخوله إليها ، وعزم على قتاله ، ولكنه هزم واختفى . ثم أطلقه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات ، ولكنه لم يلبث أن صادر أملاك المادرائى فى مصر والشام (٢) . بيد أن الإخشيد عفا عنه وأطلقه فى سنة ٣٥٨ هـ ، واستوزره وخلع عليه وفوض إليه الأمور ، ثم اعتقله بعد قليل ، فظل فى معتقله حتى مات الإخشيد ، ثم عاد نجمه إلى الظهور فى عهد وصاية كافور ، وتوفى فى شهر شعبان سنة ٣٤٥ هـ .

وقد ذكر المقريزى(٣) أن خراج مصر بلغ فى عهد الإخشيد ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار . سوى ضياعه التى كانت ملكا له ، وأن هذا الوالى كان أول من عين رواتب لمستحقى الصدقة . وقد بلغت هذه الرواتب فى عهد كافور الإخشيدى ٥٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة ، « لأرباب النعم والمستورين وأجناس ، ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين فى الأعمال » .

بذل كافور الإخشيدى جهده فى تنمية موارد الدولة ، حتى زاد خراج مصر فى عهده على ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة . ولم يكتب اسمه على السكة ، بل اكتفى بنقش اسم الخليفة العباسى وحده .

---

(١) كان خماريه يرسل إلى دار الخلافة ٢٠٠,٠٠٠ دينار مقابل ماتأخر من الخراج فى عهد أبيه ، ٣٠٠,٠٠٠ دينار فى كل عام ، نظير تعيينه هو وأولاده فى حكم مصر وما يليها من الأراضى الممتدة من الفرات إلى برقة ثلاثين سنة .

(٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ١٤ — ١٦

(٣) خطط ج ١ ص ٩٩

٢ — فى عهد الفاطميين :

ولما فتح الفاطميون مصر ، أقر جوهر على بن يحيى بن العرمرم على جباية الخراج ؛ ولكنه لم يلبث أن اشترك معه رجاء بن صولاب . ثم حل محلهما فى الإشراف على جباية الخراج يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن ، وجعلت جباية الخراج قسمين : أسند أحدهما إلى على بن محمد بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله ، وأسند الثانى إلى الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذبارى .

وقد ذكر المقريزى(١) أن خراج مصر بلغ فى السنة الأولى من ولاية جوهر ٣,٤٠٠,٠٠٠ دينار ، بعد أن انحط كثيرا فى أواخر عهد كافور الإخشيدى .

ولما جاء الخليفة المعز لدين الله الفاطمى مصر فى أواخر سنة ٣٦٢ هـ ، أمر يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب ؛ فجمعت أقسامه المختلفة فى مكان واحد ، وعمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التى تفرض على كل منها ، فزادت الضرائب بفضل هذه السياسة المالية الرشيدة التى قضت بفحص الشكايات ، وبفضل ما سلكته الدولة من حزم فى تنفيذ هذا النظام الجديد . وقد ذكر ابن ميسر(٢) أن الضرائب التى كانت تجمع من الفسطاط تتراوح بين ٥٠,٠٠٠ ، ١٢٠,٠٠٠ دينار فى اليوم ، ومن تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من ٢٢٠,٠٠٠ دينار فى اليوم ، ويغلب على الظن أن ابن ميسر أخطأ فى بيان هذه الضرائب ، فذكر لفظ دنانير بدل دراهم .

وقد بلغ خراج الدولة الفاطمية فى عهد وزارة الحسن بن على اليازورى ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة . وتقدم « إلى أصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاع ما يجرى فى ديوانه وما عليه من النفقات ؛ فعمل ذلك وسلمه إلى متولى ديوان المجلس ، وهو زمام الدواوين ، فنظّم عليه عملا جامعا وأحضره إياه ، فرأى ارتفاع الدولة ألفى ألف دينار : منها الشام ألف ألف دينار ، ونفقاته بإزاء ارتفاعه ، وباقى الدولة ألف ألف دينار ، يقف منها من معلول ومنكسر على موتى وهرّاب ومفقود مائتا ألف دينار ، ويبقى بما تمائة ألف دينار ، يصرف منها للرجال عن واجباتهم وكساويهم ثلثمائة ألف دينار ، وعن ثمن غلة للقصور مائة ألف دينار ، وعن نفقات القصور مائتا ألف دينار ، وعن عمائر وما يقام للضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم مائة ألف دينار ، ويبقى بعد ذلك مائة ألف دينار حاصلة(٣) يحملها كل سنة إلى بيت المال المصون ، فحظى بذلك عند سلطانه وخف على قلبه »(٤) .

٣ — فى الأندلس :

كان النظام المالى فى الأندلس يدور حول هذه الأمور الثلاثة وهى : الخزانة العامة ، وإدارة بيت المال ، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة .

---

(١) خطط ج ١ ص ٩٩

(٢) تاريخ مصر ص ٤٦

(٣) أى زائدة بعد النفقات .

(٤) المقريزى : خطط ج ١ ص ٨٢ ، ٩٩ ، ١٠٠

أما الخزانة العامة فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى « خازن المال » . ومقر هذه الخزانة القصر ، وفيها تودع الأموال التى تجبى من المدن والقرى . ومن أهمها : أموال التركات التى يموت عنها أصحابها دون أن يتركوا وارثا ، والضرائب المفروضة على الأسواق ، والرسوم الجمركية التى تضرب على السفن ، والخراج ، والجزية ، والأعشار . وقد قيل إن عبد الرحمن الناصر خلف فى بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف . ولا ندرى إذا كان هذا الرقم بالدينار أو بالدراهم . ويغلب على الظن أنه بالدراهم ، لأنه إذا حسب دنانير تجاوز ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وفى هذا شىء كثير من المبالغة . وقد ذكر المقرى (١) الذى عزا ذلك إلى ابن خلدون ، أن الناصر « كان يقسم الجباية أثلاثا : ثلثا للجند ، وثلثا للبناء ، وثلثا مدخرا . وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص (٢) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار . وأما أخماس الأموال العظيمة فلا يحصيها ديوان » .

وذكر ابن حوقل (٣) أن عبد الرحمن الناصر استطاع أن يوفر حتى سنة ٣٤٠ هـ ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وأنه لم يكن فى زمانه سلطان استطاع أن يتوفر عنده مثل هذا المبلغ الضخم إلا أبا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمدانى (٣٥٨ — ٣٦٩ هـ) (٤) .

أما ما يطلق عليه اسم بيت المال فى الأندلس فكان يقتصر على ما يرد من الأوقاف ، وكان مقره المسجد الكبير بقرطبة . ويقوم هذا الديوان على حفظ المنشآت الدينية ودفع رواتب موظفى المساجد ، وتوزيع الصدقات فى أماكن خاصة ، ويقوم بالإشراف عليها قاضى القضاة ومن ينوبون عنه تحت إشراف الخليفة . ويشبه من هذه الناحية بعض دواوين وزارة الأوقاف ووزارة الشئون الاجتماعية الآن .

وأما موارد الخليفة الخاصة ، فكان يشرف عليها موظف يعرف « بصاحب الدية » ، كما يشرف هذا الموظف على أراضى الأمير أو الخليفة ، ويقوم بزراعتها جماعة من المزارعين على أن يأخذوا جزءا قليلا من المحاصيل لأنفسهم .

٥ — النظام القضائى

(أ) القضاء

١ — فى الدولة العباسية :

تطور القضاء فى العصر العباسى الثانى ، فتأثر بالسياسة ، وأصبح الخلفاء يتدخلون فى القضاء ، حتى حملوا القضاة فى كثير من الأحيان على السير وفق رغباتهم . وكثيراً ما اعتذر القضاة عن قبول ذلك المنصب خشية تدخل الخلفاء فى أحكامهم القضائية . فقد قيل إن أبا بكر الرازى المتوفى

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٧٩

(٢) الضرائب التى تجبى على التجارة (٣) المسالك والممالك ص ٧٧

(٤) راجع ما ذكرناه عن عدة الدولة أبى تغلب الغضنفر فى هذا الكتاب ص ٢٠٧ — ٢٠٩

سنة ٣٧٠ هـ اعتذر عن قبول منصب قاضى القضاة بعد أن طلب منه ذلك مراراً. وقال ابن الأثير(١) فى حوادث سنة ٣٩٩ هـ: «وفيها صرف أبو عمر بن عبد الواحد الهاشمى عن قضاء البصرة، وكان قد علا إسناده فى رواية السنن لأبى داود السجستانى، ومن طريقه سمعناه. وولى القضاء بعده أبو الحسن بن أبى الشوارب، فقال العصفرى الشاعر:

عندى حديث ظريف بمثله يُتغنى
من قاضيين يعزّى هذا وهذا يهنا
فذا يقول كرهنا وذا يقول استرحنا
ويكذبان ونهذى فمن يصدّق منا؟»

كما ضعفت روح الاجتهاد فى هذا العصر بسبب ظهور المذاهب الأربعة، وأصبح لزاما على القاضى أن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب. واختلف القضاء فى الولايات باختلاف هذه المذاهب، وأصبح المذهب القضائى الشائع فى العراق مذهب أبى حنيفة النعمان، وفى الشام والمغرب والأندلس كان القضاة يصدرون أحكامهم وفق مذهب الإمام مالك، وفى مصر وفق مذهب الإمام الشافعى. ويقول المقريزى (٢):

«كانت إفريقية الغالب عليها السنن والآثار، إلى أن قدم عبد الله بن فروج أبو محمد الفارسى بمذهب أبى حنيفة، ثم غلب أسد بن الفرات بن سنان قاضى إفريقية بمذهب أبى حنيفة. ثم لما ولى سحنون بن سعيد التنوخى قضاء إفريقية بعد ذلك، نشر فيهم مذهب مالك، وصار القضاء فى أصحاب سحنون دولا، يتصاولون على الدنيا تصاول الفحول على الشَّوْل(٣)، إلى أن تولى القضاء بها بنو هاشم، وكانوا مالكية، فتوارثوا القضاء كما تتوارث الضياع. ثم إن المعز بن باديس حمل جميع أهل إفريقية على التمسك بمذهب مالك، وترك ما عداه من المذاهب. فرجع أهل إفريقية وأهل الأندلس كلهم إلى مذهب مالك إلى اليوم، رغبة فيما عند السلطان، وحرصا على طلب الدنيا؛ إذ كان القضاء والإفتاء فى جميع تلك المدن وسائر القرى اليوم لا يكون إلا لمن تسمى بالفقيه على مذهب مالك. فاضطرت العامة إلى أحكامهم وفتاواهم، ففشا هذا المذهب هناك فشوا طبق تلك الأقطار. كما فشا مذهب أبى حنيفة ببلاد المشرق، حيث إن أبا حامد الأسفرايينى لما تمكن من الدولة فى أيام الخليفة القادر بالله أبى العباس أحمد قرر معه استخلاف أبى العباس أحمد بن محمد البارزى الشافعى عن أبى محمد بن الأكفانى الحنفى قاضى بغداد، فأجيب إليه بغير رضا الأكفانى. وكتب أبو حامد إلى السلطان محمود بن سبكتكين (٣٨٨ — ٤٢٠ هـ) وأهل خراسان أن الخليفة نقل القضاء عن الحنفية إلى الشافعية، فاشتهر ذلك بخراسان، وصار أهل بغداد حزبين. وقدم بعده أبو العلاء صاعد بن محمد قاضى نيسابور ورئيس الحنفية بخراسان، فأتاه الحنفية، فثارت بينهم وبين أصحاب أبى حامد فتنة ارتفع أمرها إلى السلطان. فجمع الخليفة القادر الأشراف والقضاة، وأخرج إليهم رسالة تتضمن أن الاسفرايينى أدخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح والشفقة والأمانة، وكانت على أصول الدخل والخيانة. فلما

(١) جـ ٩ ص ٧٩ (٢) خطط جـ ٢ ص ٣٣٣ — ٣٣٤ (٣) النوق

تبين له أمره ، ووضح له خبث اعتقاده ، فيما سأل فيه من تقليد البارزى الحكم بالحضرة من الفساد والفتنة ، والعدول بأمير المؤمنين عما كان عليه أسلافه من إيثار الحنفية وتقليدهم واستعمالهم ، صرف البارزى وأعاد الأمر إلى حقه ، وأجراه على قديم رسمه ، وحمل الحنفيين على ما كانوا عليه من العناية والكرامة والحرمة والإعزاز ، وتقدم إليهم بأن لا يلقوا أبا حامد ولا يقضوا له حقا ولا يردوا عليه سلاما . وخلع على أبى محمد الأكفانى ، وانقطع أبو حامد عن دار الخلافة ، وظهر التسخط عليه والانحراف عنه ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، واتصل ببلاد الشام ومصر » .

وإذا تنازع متخاصمان على غير المذهب السائد فى بلد من البلاد ، أناب القاضى عنه من القضاة من يدين بعقائد مذهب المتخاصمين . واستمرت هذه المذاهب الأربعة حتى اليوم مصدر التشريع الإسلامى ؛ ومن ثم أطلق على العصر العباسى « عصر أئمة المذاهب » ، لأنه وضعت فيه أصول الفقه الإسلامى .

وهناك مذاهب أخرى : كمذهب الزيدية فى اليمن ، وهم أصحاب زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على ، ويقولون بضرورة توافر الاجتهاد فى الأئمة ، ومذهب الإمامية الاثنا عشرية فى فارس والعراق ، ومذهب الإمامية السبعية أو الاسماعيلية الذين ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، ويقولون بضرورة اجتهاد أئمتهم فى الفقه ، كما يستمدون مذهبهم من الكتاب والسنة وفتاوى أئمتهم . ومن المذاهب التى انقرضت : مذهب الخوارج ، ومذهب المرجئة ، ومذهب الاعتزال ، ومذهب محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ . وقد أخذ عن مذهب الإمام الشافعى ، وكان يقول بالرأى ، فكرهه الحنابلة .

وقد جمع الحديث النبوى فى ستة مصنفات ، أجمع المسلمون على أنها أصح كتب السنة ، وأصحابها هم : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، ومسلم بن الحجاج النيسابورى القُشَيرى المتوفى سنة ٢٦١ هـ ، وأبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، وأبو عبد الله محمد بن عيسى السلمى الترمذى المتوفى سنة ٢٧٣هـ ، وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣٠٣هـ[1] .

على أن رغبة الناس فى التقليد ظهرت بظهور أبى الحسن الأشعرى وتفكيره فى الرجوع إلى مذهب أهل السنة . ويجب أن لا يعزب عن أذهاننا أن مذاهب السنة الأربعة كانت مصدر التشريع فى هذا العصر ، وأنه لم يتقلد القضاء إلا السنيون ، بدليل ماذكره السيوطى[2] أن بهاء الدولة البويهى (٣٧٩ — ٤٠٣ هـ) لما قلد الشريف أبا الحسين بن موسى العلوى قضاء القضاء والحج والمظالم ، لم يوافق الخليفة القادر على هذا التقليد ، لأن هذا الشريف كان إماميا اثنا عشريا .

وكان القضاة فى الدولة العباسية ينوبون عن قاضى القضاة[3] وهو أشبه بوزير العدل الآن . ويقيم

---

(١) كتاب النظم الاسلامية للمؤلف ص ٣٣٧ — ٣٣٨ (٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤

(٣) كان قاضى القضاة يسمى أيضا « أقضى القضاة » . راجع هذا الكتاب ص ١٣١

فى حاضرة الدولة . وكان القاضى أبو يوسف صاحب كتاب «الخراج» أول من تلقب بهذا اللقب فى عهد هارون الرشيد . واستمر هذا فى العصر العباسى الثانى . ويقول السيوطى إن سلطة القاضى اتسعت حتى أصبح ينظر فى القضايا المدنية وفى الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأوصياء . وكثيرا ما تضاف إليه الشرطة والمظالم والقصاص والحسبة ودار الضرب وبيت المال . وفى ذلك يقول ابن خلدون (١).

« واستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم : استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين ، بالنظر فى أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه ، وفى وصايا المسلمين وأوقافهم ، وتزويج الأيامى (٢) عند فقد الاولياء على رأى من رآه ، والنظر فى مصالح الطرقات والأبنية ، وتصفح الشهود والأمناء والنواب ، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح (٣) ليحصل له الوثوق بهم . وصارت هذه كلها من متعلقات وظيفته وتوابع ولايته » .

وكان لكل ولاية من الولايات الإسلامية فى بادىء الأمر قاض . وباتساع الدولة العباسية أصبح لكل من هذه الولايات قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، وينظر كل منهم فيما يقوم من النزاع بين من يدينون بعقائد مذهبه .

وكان القاضى يجلس أول الأمر فى المسجد ، ثم وجد المسلمون أن هذا لا يتفق وحرمة بيوت الله ، فمنع الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) القضاة من الجلوس فى المساجد . وكان بعض القضاة يقضى بين الناس فى داره .

وكان لقاضى القضاة ببغداد ديوان يعرف بديوان قاضى القضاة . ومن أشهر موظفى هذا الديوان : الكاتب ويتقاضى ٣٠٠ درهما فى الشهر ، والحاجب ويتقاضى ١٥٠ درهما ، وعارض الأحكام ويتقاضى ١٠٠ درهم . وخازن ديوان الحكم وأعوانه ويتقاضون ٦٠٠ درهم (٤) . كما اقتضى تطور نظام القضاء فى هذا العصر التحرى عن الشهود . فإن كان الشاهد معروفا بالسلامة ولم يعرف عنه ما يجرحه قبل القاضى شهادته ، وإن كان غير معروف بها لم تقبل شهادته ، وإن كان مجهولا سئل عنه جيرانه . ومن ثم وجدت جماعة من الشهود عرفوا بالشهود الدائمين أو المعدلين . وكان القاضى يمتاز باستقلال الرأى ، ولا يقبل الشفاعات أو الوساطات ، حتى إن قاضى جيش عضد الدولة شفع فى بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضى ليسمع تزكيته ويعدّله ، فقال له عضد الدولة هذه العبارة التى تبين لنا مدى احترام رأى القاضى وعدم تدخل أولى الأمر فى أعماله : « ليس هذا من أشغالك ؛ إنما الذى يتعلق بك الخطاب فى زيادة قائد ، ونقل مرتبة جندى وما يتعلق بهم . وأما الشهادة وقبولها ، فهو إلى القاضى ، وليس لنا ولا لك الكلام فيه » .

---

(١) ص ١٩٢ — ١٩٣ (٢) الأيم من لا زوج لها .

(٣) بمعنى أن القاضى يتحرى عن حال الشهود والأمناء والنواب تحريا يقفه على حقيقة أمرهم وما يعرفون به عند الناس الموثوق بمعرفتهم .

(٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٣٧٥ ، عن ابن الأثير .

وكان القاضى يرتدى السواد شعار العباسيين « ويعتم بعمامة سوداء على قلنسية طويلة[١] » . وكانت القلنسوة السوداء فى القرن الثالث الهجرى خاصة هى التى تميز القضاة ، وتلبس مع الطيلسان[٢].

ويحدثنا السيوطى[٣] عند كلامه على حوادث سنة ٣٥٠ هـ عن تولية ابن أبى الشوارب منصب القضـــــاء فيقول : « وركب بالخلع من دار معز الدولة ، وبين يديه الدبادب والبوقات ، وفى خدمته الجيش » .

على أن القضاء قد تطرق إليه بعض الفساد ، وأصبح من يرشحون أنفسهم لتقلد هذا المنصب الخطير يتعهدون بتقديم مبلغ معين من المال يؤدونه فى كل سنة ، حتى إن ابن أبى الشوارب « شرط على نفسه أن يحمـــــل فى كل سنة إلى خزانة معز الدولة مائتى ألف درهم ، وكتب بذلك سجلا[٤] » . ولكن الخليفة المطيع لم يوافق على تقليد هذا القاضى وأمر بعدم دخوله عليه . ويقول ابن الأثير[٥] فى ابن أبى الشوارب : « وهو أول من ضمن من القضاء ، وكان ذلك أيام معز الدولة . ولم يسمع بذلك قبله ، فلم يأذن له الخليفة المطيع لله بالدخول عليه ، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء . ثم ضمنت بعده الحسبة والشرطة ببغداد » .

بيد أن هذا النقص لم يكن شائعا ، فاننا نجد كثيرا من القضاة ينزهون أنفسهم عن هذه العيوب ، حتى إنهم كانوا يقبلون هذا المنصب بعد تردد ، وبعد أن يشترطوا شروطا تكفل استقلالهم وتحفظ لهم هيبتهم وكرامتهم . ويحدثنا السيوطى[٦] أن الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) وجه « إلى القاضى أبى حازم يقول : إن لى على فلان مالا ، وقد بلغنى أن غرماءه أثبتوا عندك ، وقد قسطت لهم من ماله ، فاجعلنا كأحدهم ، فقال أبو حازم . قل له : أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ذاكر لما قال لى وقت قلدنى ، إنه قد أخرج الأمر من عنقه وجعله فى عنقى ، ولا يجوز لى أن أحكم فى مال رجل لمدع إلا ببينة . فرجع إليه فأخبره فقال : قل له فلان وفلان يشهدان — يعنى رجلين جليلين ، فقال : يشهدان عندى وأسال عنهما ، فإن زكيا قبلت شهادتهما ، وإلا أمضيت ما قد ثبت عندى ؛ فامتنع أولئك من الشهادة فزعا ، ولم يدفع إلى المعتضد شيئا » .

وكذلك ذكر السيوطى[٧] أن الخليفة المطيع (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) « قلد القضاء أبا الحسن محمد ابن شيبان الهاشمى بعد تمنع ، وشرط لنفسه شروطا منها : ألا يرتزق على القضاء ، ولا يخلع عليه ، ولا يشفع إليه فيما يخالف الشرع . وقرر لكاتبه فى كل شهر ثلثمائة درهم ، ولحاجبه مائة وخمسين ، وللعارض على بابه مائة ، ولخازن ديوان الحكم والأعوان ستمائة ، وكتب له عهد صورته : هذا ما عهد عبد الله الفضل المطيع لله أمير المؤمنين إلى محمد بن صالح الهاشمى ، حين دعاه إلى ما يتولاه

---

(١) الكندى : كتاب القضاة ص ٣٧٨ (٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٣٧٣

(٣) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ٢٦٥ — ٢٦٦

(٤) المصدر نفسه (٥) جـ ٨ ص ١٩٣

(٦) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٧ — ٢٤٨ (٧) المصدر نفسه ص ٢٦٧ — ٢٦٨

من القضاء بين أهل مدينة السلام مدينة المنصور، والمدينة الشرقية من الجانب الشرقى والجانب الغربى ، والكوفة وسقى الفرات وواسط وكرخى ، وطريق الفرات ودجلة ، وطريق خراسان وحلوان وقرميسين ، وديار مضر وديار ربيعة وديار بكر ، والموصل والحرمين واليمن ودمشق وحمص ، وجند قنسرين والعواصم ، ومصر والإسكندرية ، وجند فلسطين والأردن وأعمال ذلك كلها ، وما يجرى من ذلك من الإشراف على من يختاره من العباسيين بالكوفة وسقى الفرات وأعمال ذلك ، وما قلده إياه من قضاء القضاة ، وتصفح أعمال الحكام ، والاستشراف على ما يجرى عليه أمر الأحكام من سائر النواحى والأمصار التى تشتمل عليه المملكة وتنتهى إليها الدعوة ، وإقرار من يجدهديه وطريقه ، والاستبدال بمن يذم شيمته وسجيته احتياطا للخاصة والعامة ، وجنوا على الملة والذمة عن علم بأنه المقدّم فى بيته وشرفه المبرز فى عفافته ، الزكى فى دينه وأمانته ، الموصوف فى ورعه ونزاهته ، المشار إليه بالعلم والحجا ، المجمع عليه فى العلم والنهى ، البعيد من الأدناس ، اللابس من التقى أجمل اللباس ، النقى الحبيب المحبور بصفاء الغيب ، العالم بمصالح الدنيا ، العارف بما يفسد سلامة العقبى ، أمره بتقوى الله ، فانها الجُنة الواقية . وليجعل كتاب الله فى كل ما يُعمل فيه رويته ويرتب عليه حكمه وقضيته ، إمامه الذى يفزع إليه ، وعماده الذى يعتمد عليه ، وأن يتخذ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مناراً يقصده ومثالا يتبعه ، وأن يراعى الإجماع ، وأن يقتدى بالأئمة الراشدين . وأن يُعمل اجتهاده فيما لا يوجد فيه كتاب ولا سنة ولا إجماع ، وأن يحضر مجلسه من يستظهر بعلمه ورأيه ، وأن يسوى بين الخصمين إذا تقدما إليه فى لحظه ولفظه[1] . ويوفى كلا منهما من إنصافه وعدله ، حتى يأمن الضعيف حيفه ، ويأيس القوى من ميله . وأمر أن يشرف على أعوانه وأصحابه ، ومن يعتمد عليه من أمنائه وأسبابه ، إشرافا يمنع من التخطى إلى السيرة المحظورة ، ويدفع عن الإشفاق إلى المكاسب المحجورة » .

٢ — فى مصر :

اكتسب قضاة مصر فى العصر العباسى خبرة واسعة بسبب اشتغالهم بالفقه الإسلامى، واشتهروا بالاستقامة . ويكاد يكون القاضى فى ذلك العصر غير قابل للعزل كغيره من موظفى الدولة . وقد بلغ من محبة الناس للقاضى أن أصبح الولاة فى مصر يخشون عزلهم حتى لا يتعرضوا لكراهية الجمهور . ولا غرو فانه لم يعد للوالى فى العصر العباسى سلطة عزل القضاة ، بل صارت تصدر المراسيم بتعيينهم من بغداد مباشرة ، وكان تحديد رواتبهم ودفعها من اختصاص الخليفة نفسه .

ولم يكن القضاة فى عهد الطولونيين (٢٥٤ — ٢٩٢هـ) والإخشيديين (٣٢٣ - ٣٥٨هـ) تابعين لمذهب واحد ، بل كان كل منهم يحكم وفق المذهب الذى ينتمى إليه. واشتهر قضاة هذا العصر بالنزاهة والاستقامة وعدم المحاباة .

وقد نبغ فى عهد الطولونيين القاضى بكار بن قتيبة ، وكان من أعلم القضاة بالفقه الإسلامى . ولما

---

(١) المراد أن يعدل القاضى بين الخصمين حتى فى النظرة واللفظة ، لا يفضل أحدهما على الآخر

عقد أحمد بن طولون مجلسا فى دمشق حضره القضاة والفقهاء والأشراف من أهل مصر والشام والثغور ، وشهد المجتمعون على خلع أبى أحمد الموفق أخى الخليفة العباسى المعتمد من ولاية العهد ، لمخالفته الخليفة وحصره إياه ، شهد على ذلك جميع من حضر إلا ثلاثة من رجالات مصر ، منهم القاضى بكار الذى أبى إقرار الخلع (١٢ ذو القعدة سنة ٢٦٩ هـ) . وقد ورد فى كتاب القضاة للكندى(١) أن بكارا وافق على خلع الموفق وسماه الناكث ، ولكنه لم يوافق على لعنه . ويقول الكندى(٢) : « وسماه بكار الناكث ، وأشهد على نفسه هو وسائر قضاة الشام والثغور ؛ فطلب منهم أحمد (بن طولون) أن يلعنوا الموفق . فامتنع بكار ، فألح عليه ، فأصر على الامتناع حتى أغضبه. وكان قبل ذلك مكرما معظما له عارفا بحقه ، وكان يجيزه فى كل سنة بألف دينار . فلما غضب عليه أرسل إليه : أين جوائزى ؟ فقال : على حالها ، فأحضرها من منزله بخواتيمها ستة عشر كيسا ، فقبضها أحمد » .

وكان قاضى القضاة فى مصر وقت الفتح الفاطمى سنة ٣٥٨ هـ أبو الطاهر . وقد تولى هذا المنصب منذ شهر ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ . فرأى جوهر الصقلى أن عزله وإحلال قاض من الشيعة محله قد يثير غضب المصريين ؛ فأقره فى منصبه لغرض سياسى فحسب ، وعمل فى الوقت نفسه على الحد من نفوذه .

ولما وصل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر فى سنة ٣٦٢ هـ وخف الناس لاستقباله ، ونزل الركب عن مطاياهم وقبلوا الأرض بين يديه ، ظل أبو الطاهر راكبا حتى قرب من الخليفة الفاطمى ، فترجّل وسلم عليه ولم يقبل الأرض. فلفت ذلك نظر المعز ، وسأل أحد حجابه عن الرجل الذى خالف الجماعة كلهم ، فعلم أنه قاضى مصر .

أقر المعز أبا الطاهر فى منصبه جريا على هذه السياسة التى اتبعها جوهر منذ فتح هذه البلاد . ولكن نفوذ هذا القاضى ضعف إلى حد بعيد ، وألزمه الخليفة الفاطمى أن يصدر أحكامه وفق المذهب الشيعى(٣) ، وأشرك معه أبا سعيد عبد الله بن محمد بن أبى ثوبان المغربى(٤) ، وأسند إليه النظر فى المظالم الخاصة بالمغاربة . ولم يلبث أن زادت سلطته حتى أصبح ينظر فى القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين . ثم اشتد نفوذه حتى آل إليه النظر فى قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم « قاضى مصر والإسكندرية » .

وفى سنة ٣٦٢ هـ عين المعز قاضيا آخر من الشيعة ، هو على بن أبى حنيفة النعمان المغربى ، فقاسم أبا الطاهر القضاء . فكان ابن النعمان يجلس للقضاء بجامع عمرو بن العاص فى الفسطاط ، ويجلس أبو الطاهر بالجامع الأزهر فى القاهرة . واستمرت الحال على ذلك حتى استقل على بن النعمان

---

(١) ص ٥١٢ (٢) راجع سيرة بكار فى كتاب القضاة ص ٥٠٩ — ٥١٤

(٣) الكندى : كتاب القضاة ص ٥٨٤

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٢

بالقضاء فى شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ على أثر استقالة أبى الطاهر لشيخوخته وضعفه كما قيل . وقرىء على منبر جامع عمرو سجل تقليد على بن النعمان منصب القضاء فى عهد الخليفة العزيز . وقد ظل أولاد أبى حنيفة النعمان يتقلدون القضاء حتى سنة ٣٩٨ هـ ، فتقلد الحسين بن على بن النعمان هذا المنصب فى مصر وما يتبعها من الأعمال فى شهر صفر سنة ٣٩٣ هـ ، وأسندت مقاليد الدعوة الفاطمية إلى قاضى القضاة للمرة الأولى ، فغدا يطلق عليه « قاضى القضاة وداعى الدعاة » .

على أن بعض السنيين كانوا يتقلدون القضاء أحيانا ، إذ أن الفاطميين لم يسيروا دائما على قاعدة إسناد القضاء إلى المتشيعين خاصة . فقد أسند الخليفة الحاكم القضاء لرجل من أهل السنة ، هو أبو العباس بن العوام الحنبلى المذهب ، الذى بقى فى منصبه حتى مات فى عهد الخليفة الظاهر . وقد تقلد ابن العوام وخلع عليه « وأضيف إليه فى الأحكام مصر وبرقة وصقلية والشام والحرمان ، ما عدا فلسطين ، فإن الحاكم كان ولاها أبا طالب ابن بنت الزيدى الحسينى ، وجعل لأبى العباس النظر فى المعيار ودار الضرب والصلاة والمواريث والمساجد والجوامع » . وعلى الرغم من أن هذا القاضى لم يكن يدين بالمذهب الشيعى مذهب الفاطميين ، اشتمل سجله الذى قرىء فى القصر وعلى منبر جامع عمرو بن العاص على فقرة شرط فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقا لقانون الشيعة ، وأن يكون معه فى مجلس القضاء أربعة من فقهاء الحاكم ، لئلا يقع الحكم بغير ما يذهب إليه الخليفة . من ذلك يتضح أن تعيين غير الشيعيين كان قليلا ، وبشرط حكمهم وفق المذهب الشيعى .

ومن هذا السجل الذى كتبه الخليفة الحاكم الفاطمى لقاضى قضاته الحسين بن على بن النعمان(١)، نرى أن سلطته شملت رياسة القضاء فى مصر والحجاز وبلاد الشام والمغرب ، وأن عمله تعدى ذلك إلى النظر فى موظفى المساجد من الأئمة والقوامين عليها والمؤذنين بها وغيرهم ، كما أصبح له الإشراف على دور الضرب . ورسم له الخطة التى يسير عليها ، فأمره بتقوى الله فى السر والعلانية ، والمحافظة على شعائر الدين ومراعاة حدوده ، وأمره أن يجعل الحكم فى المواضع الضاحية (٢) للمتحاكمين ، ويرفع عنهم حجابه ، ويفتح لهم أبوابه ، ويحسن لهم انتصابه(٣) ، ويقسم بينهم لحظه ولفظه قسمة لا يحابى فيها قويا لقوته ، ولا يزدرى فيها ضعيفا لضعفه . بل يميل مع الحق ويجنح إلى جهته ، ولا يكون إلا مع الحق وفى كفته ، ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه ومحاباته بين يدى الحكم العدل الديان (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحضرًا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، ويحذركم الله نفسه(٤)) .

وأمره أن ينعم النظر فى الشهود الذين إليهم يُرجع وبهم يُقع فى منافذ القضايا ومقاطع

---

(١) راجع هذا السجل فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٣٨٥ — ٣٨٨

(٢) يريد المواضع الظاهرة التى لا تخفى على المتخاصمين ولا يشق عليهم الوصول إليها .

(٣) يوصى القاضى بأن يتفرغ لعمله ولا يتشاغل عن لقاء من يريد لقاءه من الخصوم بقضاء مصالح أو بقراءة الكتب أو بالحديث مع الأصدقاء أو نحو ذلك مما يجعل وجوده قليل الفائدة .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٣٠

الأحكام ، ويستشف أحوالهم استشفافا شافيا ، ويتعرّف دخائلهم تعرفا كافيا ، ويسأل عن مذاهبهم وتقلبهم فى سرهم وجهرهم ، والجلى والخفى من أمورهم . فمن وجده منهم فى العدالة والأمانة والنزاهة والصيانة ، وتحرى الصدق ، والشهادة بالحق ، على الشيمة الحسنى والطريقة المثلى ، أبقاه ، وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولى . وأن يطالع حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدّله أو يرد شهادته ولا يقبله ، ليكون فى الأمرين على ما يَحُدّ له ويمثله[1] ، ويأمن فيما هذه سبيله كل خلل يَدخله ؛ إذ كانت الشهادة أس الأحكام ، وإليها يرجع الحكام ، والنظر فيمن يوهَّل لها أحق شىء بالإحكام . قال الله تقدست أسماؤه : (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين[2]) . وقال تعالى: (والذين لا يشهدون الزورَ وإذا مروا باللغو مروا كراما[3].

وأمره أن يعمل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يلى أموال الأيتام والوصايا. وأولى الخلل فى عقولهم، والعجز عن القيام بأموالهم ، حتى يجوز أمرها على ما يرضى الله ووليه : من حياطتها وصيانتها من الأمناء عليها ، وحفظهم لها ، ولفظهم[4] لما يحرم ولا يحلّ أكله منها ؛ فيتبوأ عند الله بعدا ومقتا ، آكل الحرام والمؤكل له سُحتا[5] . قال الله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا [6]) .

٣ — فى الأندلس :

كان للقضاء مركز ممتاز فى الأندلس شأنه فى سائر البلاد الإسلامية . فكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء ، « لتعلقها (وظيفة القضاء) بأمور الدين ، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدى القاضى[7] » . وكان قاضى القضاة يسمى «قاضى الجماعة» أيضا ، لأنه يكون فى حاضرة الدولة ، وحكمه نافذ فى جميع أرجائها . ويشترط فى القاضى أن يكون متعمقا فى الفقه مشهودا له بالنزاهة والاستقامة ، ولا يشترط أن يكون عربيا خالصا ، فكثيرا ما أسند هذا المنصب إلى بعض الموالى والمولدين والبربر . وقد كان يحيى بن يحيى الليثى كبير قضاة الأندلس من أصل بربرى . ويختار القاضى غالبا من قضاة الأقاليم المشهود لهم بالتفوق فى القضاء ، أو ممن تولوا بعض مناصب الدولة الهامة . « ولا سبيل أن يتسم بهذه السمة إلا من هو وال للحكم الشرعى فى مدينة جليلة [8] » .

وكان قاضى الجماعة يقيم بقرطبة ويعين من قبل الأمير أو الخليفة ، وينوب عنه فى الأقاليم قضاة يسمى كل منهم « مسدد خاصة » .

وكان القرآن والسنة مصدر التشريع فى الأندلس ، ويسير القضاة فى أحكامهم على وفق مذهب الإمام مالك ، ويقوم بتنفيذ هذه الأحكام الحكام والولاة .

---

(١) أى يرسم له ويبين
(٢) سورة النساء آية رقم ١٣٥
(٣) سورة القرآن آية رقم ٧٢
(٤) أى تركهم
(٥) حراما
(٦) سورة النساء آية رقم ١٠
(٧) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب حـ ١ ص ١٠٣
(٨) المصدر نفسه

وقد سار الأمويون فى الأندلس على نهج الخلفاء الأمويين والعباسيين فى الشرق فى تولية قضاتهم قيادة الجيوش نيابة عنهم . ويقول ابن خلدون (١) : « وربما كانوا يجعلون للقاضى قيادة الجهاد فى عساكر الصوائف . وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم ، وكذا منذر ابن سعيد قاضى عبد الرحمن الناصر من بنى أمية بالأندلس ؛ فكانت تولية هذه الوظائف إنما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب » .

ومن اختصاصات القاضى أيضا الإشراف على موارد الأحباس ، وسجلات الفتاوى الفقهية (٢) ، والإشراف على الصلاة فى أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذى أسسه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء ، والدعاء فى صلاة الاستسقاء (٣) .

(ب) المظـــالم

وكان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم ، وهو هيئة قضائية عليا تشبه محكمة الاستئناف فى الوقت الحاضر . ويسمى رئيس هذا الديوان « صاحب المظالم » ، وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضى . يقول ابن خلدون (٤) عن المظالم : « وهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء ، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة . تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدى ، وكأنه يمضى ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه «ويكون نظره فى البينات (٥) والتقرير (٦) واعتماد الأمارات والقرائن (٧) وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود . وذلك أوسع من نظر القاضى » .

وكانت محكمة المظالم تنعقد برياسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عن أحدهما . ويعين صاحب المظالم يوما يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى . أما إذا انفرد بالمظالم ، نظر فيها طوال أيام الأسبوع . وكانت محكمة المظالم تنعقد فى المسجد كما تقـــدم ، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جماعاته إلا بحضورهم :

١ ــ الحماة والأعوان ، وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء .

٢ ــ الحكام ، ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها ، والعلم بما

---

(١) مقدمة ص ١٩٣

(٢) أنشىء هذا السجل فى سنة ٢٩١ هـ . وكان قاضى القضاة يستفتى الفقهاء فى بعض القضايا المعروضة عليه ، وجعل من هذه القضايا سجلا عاما أصبح مرجعا هاما لقضاة الأندلس .

(٣) كان قاضى القضاة يشرف على الصلاة أيضا ، ولذلك كان يسمى «صاحب الصلاة» واستمرت الحال على ذلك حتى أفرد الناصر للصلاة شخصا معينا ، ولقضاء القضا شخصا آخر .

(٤) مقدمة ص ١٩٣ (٥) الحجج

(٦) التقرير استقصاء البحث من الخصوم فى المسائل حتى يقروا بما يوضح وجهة نظر القاضى

(٧) يعنى الأخذ بدلالة القرائن والعلامات التى يتبينها القاضى من حال الخصمين عند فقد الأدلة أو الشهود

يجرى بين الخصوم ، فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين . وكان القضاة يستفيدون من وراء حضورهم هذه الجلسات ، إذ كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على ما يعرض أمامهم من القضايا فى جلساتهم .

٣ — الفقهاء ، ويرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ — الكتاب ، ويدونون أقوال الخصوم وإثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق .

٥ — الشهود ، ويثبتون ما يعرفونه عن الخصوم ، ويقررون أن ما أصدره القاضى من الأحكام لا ينافى الحق والعدل .

وفى الحق أن الضرورة تحتم وجود مثل هذا النظام ، إنصافا للمظلومين وإغاثة للمستضعفين . فكان من اختصاص هذه الجماعة :

١ — النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف ، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا فى جمع الضرائب ، وعلى كتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

٢ — النظر فى تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها إليهم .

٣ — تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام .

٤ — مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد (١) .

وقد حرص بعض الخلفاء العباسيين على الجلوس للنظر فى المظالم . فقد ذكر المسعودى (٢) أن الخليفة المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) بنى قبة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها ، وسماها « قبة المظالم » ، وجلس فيها للعام والخاص . ويقول المسعودى (٣) فى مكان آخر : « وذكر صالح بن على الهاشمى قال : حضرت يوما من الأيام جلوس المهتدى للمظالم ، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه إلى النواحى فيما يتظلم به إليه ما استحسنته » .

وقد تطور نظام النظر فى المظالم ، فأصبح الوزراء يجلسون للنظر فيها ، ويجالس أكثر الكتاب مجالسهم . بل تعدى الأمر إلى جلوس بعض النساء للنظر فى المظالم ، فقد تمتعت « السيدة » أم الخليفة المقتدر بنفوذ كبير ، واتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها « ثومال » صاحبة للمظالم فى سنة ٣٠٦ هـ ، فكانت تجلس فى مكان بنته « السيدة » فى الرصافة « وتنظر فى رقاع الناس كل جمعة ، فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان ، وتبرز التواقيع وعليها خطها »(٤) .

ولم تكن محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد وحدها ، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل فى شكاوى الشعب عامة .

---

(١) راجع كتاب الأحكام السلطانية للماوردى ص ٧٣ — ٨١

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٣١ (٣) جـ ٢ ص ٤٣٦

(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣

وكان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضى فى أحكامه . وقد بين الماوردى[١] الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء ، ومن أهم هذه الفروق أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة ، بكف الخصوم عن التجاحد [٢] ، ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب ، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الأمارات والشواهد مايصل به إلى معرفة المحق من المبطل ، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا [٣] إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراض [٤] . وليس للقاضى ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد ، وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه فيهم ، والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم . ومن عادة القضاة تكليف المدعى أن يحضر بينة ، ولا يسمعون البينة إلا بعد سؤاله » .

(ح) الحسبة

كانت سلطة القاضى موزعة بينه وبين المحتسب وقاضى المظالم . فوظيفة القاضى فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ، ووظيفه المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحيانا مما يستدعى الفصل فيها إلى السرعة ، ووظيفة قاضى المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب . وكان القضاء والحسبة يسندان فى بعض الأحيان إلى رجل واحد ، مع ما بين العملين من التباين . فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، أما عمل المحتسب فمبنى على الشدة والسرعة فى العمل (٥).

كان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة ، وكان يقوم بعمل المحتسب ، ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا فى عهد الخليفة المهدى العباسى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) . وقد رؤى عمر يضرب جمالا ويقول له : « حمّلت جملك مالا يطيق » . فالمحتسب إذا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحافظ على الآداب والفضيلة والأمانة ، وينظر فى مراعاة أحكام الشرع ، ويشرف على نظام الأسواق ، ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور ، ويستوفى الديون ، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنبا للتطفيف [٦] . ويعاقب من يعبث بالشريعة أو يرفع الأثمان ، ويمنع التعدى على حدود الجيران ، وارتفاع مبانى أهل الذمة على مبانى المسلمين . وقد أجمل ابن خلدون [٧] أعمال المحتسب فى هذه العبارة فقال :

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٧٩ — ٨٠

(٢) المبالغة فى إنكار الحق من كلا الخصمين (٣) أعضلوا استعصى التوفيق بينهم

(٤) بمعنى أن القاضى إذا لم يتبين رجاحة حجج أحد الخصمين وأشكل الأمر عليه أحال الخصمين على لجنة من ديوان المظالم أو نحوها للتوفيق بينهما صلحا

(٥) راجع الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٦١ — ٧٢

(٦) وكان لها دار خاصة ، فيطلب المحتسب الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وسنجهم ومكاييلهم فيعايرها ، فان وجد فيها خللا صادرها ، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمره باصلاحها . وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية — المقريزى خطط جـ ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤

(٧) مقدمة ص ١٩٦

« ويبحث عن المنكرات ، ويعزر [١] ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة ، مثل المنع من المضايقة فى الطرقات ، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى الحمل ، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة مايتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الإبلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلمين . ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء [٢] ، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه . وليس له إمضاء الحكم فى الدعاوى مطلقا فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعايش وغيرها ، وفى المكاييل والموازين . وله أيضا حمل المماطلين على الإنصاف ، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم . وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها وسهولة أغراضها ، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها ، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء . وقد كان فى كثير من الدول الإسلامية ، مثل العبيديين بمصر والمغرب ، والأمويين بالأندلس داخلة فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره » .

وقد ارتقى نظام الحسبة فى عهد الفاطميين ، وكان للمحتسب نواب يطوفون فى الأسواق ، فيفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهاة ، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع ، ويشرفون على السقائين لضمان تغطيتهم القرب ولبس السراويل بما لا يتنافى مع الآداب ، ويمنعون معلمى الكتاتيب من ضرب الصغار ضربا مبرحا . وكذلك كان المحتسب يجلس للفصل بين الخصوم فى جامعى عمرو والأزهر ، واتسعت سلطته حتى ألزم رجال الشرطة أن يقوموا بتنفيذ أحكامه . وكان يتقاضى راتبا شهريا قدره ثلاثون دينارا [٣] .

أما فى الأندلس فكان يتولى الحسبة فى كل مدينة موظف يسمى المحتسب أو صاحب السوق ، لأن معظم عمله متعلق بالإشراف على أهل الأسواق . وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من المشهور لهم بالعلم والمعرفة والفطنة ، ويختار من بين القضاة ، لأنه عمله مرتبط بالقضاء . وقد حدد المقرى [٤] سلطة المحتسب فى الأندلس ، ومنه يتبين أن هذا النظام بلغ شأوا بعيدا من الدقة ، حتى إن أثمان الحاجيات كانت محددة ، وإن الإشراف على الباعة بلغ مبلغا كبيرا ، وإن المحتسبين كان « لهم فى أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه ، لأنها عندهم تدخل فى جميع البياعات [٥] » .

رواتب القضاة :

كان القضاء من أهم مناصب الدولة فى هذا العصر ، ولذلك رفع العباسيون رواتب القضاة حتى لا يتطلعوا إلى الرشوة التى يجب أن يتنزه عنها القاضى . فلما تولى مصر عبد الله بن طاهر قلد عيسى ابن المنكدر القضاء فى سنة ٢١٢ هـ ، وأجرى عليه سبعة دنانير فى كل يوم . وفى عهد احمد بن طولون

---

(١) يزجر (٢) أى طلب رد عدوان الغير
(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤
(٤) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٠٣
(٥) ورد فى الأصل المبتاعات ، ولعلها محرفة عما أثبتناه .

كان القاضى بكار بن قتيبة يتقاضى ألف دينار فى الشهر . وذكر القلقشندى[١] أن راتب قاضى القضاة بلغ مائة دينار فى الشهر عدا المخصصات الأخرى . وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاة وبين ، أخذ الأموال بغير حق ، فأمر بأن يضاعف رزق الحسين بن على بن النعمان وصلاته وإقطاعاته ، وشرط عليه ألا يتعرض لدرهم واحد فما فوقه من أموال الرعية .

وقد تقلد على بن المحسن التنوخى المتوفى سنة ٤٤٧ هـ القضاء فى عدة نواح، وبلغ دخله من القضاء ودار الضرب التى كان يتولاها مع القضاء ستين دينارا فى الشهر ، مما يدلنا على أن راتب القاضى أخذ فى العصر العباسى الثانى يقل شيئا فشيئا ، حتى لقد اشترط على بعض القضاة أحيانا أن لا يأخذوا راتبا عن قيامهم بأعمال هذا المنصب .

وبعد أن كان الالتزام مقصورا على الخراج ، بمعنى أن تعهد الدولة به إلى أشخاص يجبونه على أن يؤدوا لبيت المال مبلغا معينا ، تعدى هذا النظام إلى القضاء ، فأصبح القاضى يلتزم القضاء على أن يؤدى لبيت المال مبلغا من المال مقابل ما يجبيه من رسوم القضايا . وقد التزم عبد الله بن الحسن بن أبى الشوارب لمعز الدولة بن بويه على ٢٠٠,٠٠٠ درهم فى السنة عن قضاء بغداد[٢] .

وقد ذكر ابن حجر العسقلانى[٣] أن قاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان تقلد القضاء والمظالم والدعوة فى سنة ٤١٨ هـ ، ثم عزل فى السنة التالية ، فحل محله عبد الحاكم بن سعيد بن مالك الفارقى وأضيفت اليه الأحباس . وقد قيل إن دخله زاد على عشرين ألف دينار فى السنة بسبب تشدده فى الأحكام وابتزازه الأموال . وقد مات رجل من ذى اليسار وترك مالا جزيلا ولم يخلف سوى بنتا واحدة ، آل اليها جميع الميراث طبقا لمبادىء المذهب الشيعى الذى يقضى بأن تحوز البنت كل الميراث إذا لم يكن لها أخ . وقد رغب بعض الناس فى الزواج من هذه المرأة طمعا فى مالها ، ومن هؤلاء قاضى القضاة . ولما امتنعت أقام القاضى أربعة شهود شهدوا بأنها سفيهة ، ووضع الفارقى يده على أموالها فرفعت شكواها إلى الوزير أبى القاسم الجرجرائى الذى قامت البينة لديه على بطلان حكم القاضى ، فأهانه وأمر بإحضار المال منه بعد أن تصرف فيه أربع سنين ، وقبض على الشهود فأودعوا السجن ، وصرف القاضى عن منصبه مهانا . وقد أنشد بعض الشعراء فى هذا القاضى وفى قاسم بن عبد العزيز قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات :

ولما تولى ابن عبد العزيز قضاء القضاة تولى القضا
وأعقب من بعده الفارقى فأدبر إقباله وانقضى
وعاد القضاء إلى قاسم فأصبح عن رشده معرضا
فلا ذا بسيرته يُرتضى ولا ذا بتدبيره يستضا
فهذا رئيس به لوثة وهذا وضيع بعيد الرضا
فلا بارك الله فيمن أتى ولا بارك الله فيمن مضى

---

(١) صبح الأعشى فى صناعة الانشاج ٣ ص ٥٢٦ .

(٢) راجع كتاب النظم الاسلامية للمؤلف ص ٣٥١ — ٣٥٢ وآدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٣٦٣ — ٣٦٦ .

(٣) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٦١٣ — ٦١٤ .

الباب الثامن

الحالة الاقتصادية

١ — الزراعة

ذكرنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب[١] أن العباسيين عنوا بالزراعة وفلاحة البساتين التى قامت على دراسة عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية التى كان لها أثر كبير فى إنارة عقول المسلمين ، فتوسعوا فى البحث النظرى ، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات .

ولما كانت الزراعة تعتمد على الرى ، عنى العباسيون بتنظيم أساليبه ، وجعل الماء مباحا للجميع . ولذلك عملوا على تنظيمه فى مصر والعراق واليمن وشمال شرقى فارس وبلاد ما وراء النهر والهند . وبلغ هذا النظام شأواً بعيداً من الدقة ، حتى إن الأوربيين أدخلوا كثيراً من هذه النظم فى بلادهم . وقد عنيت الدولة العباسية بصيانة السدود والترع ، وجعلوا عليها جماعة من الموظفين أطلق عليهم اسم المهندسين ، ومهمتهم المحافظة على هذه السدود خشية انبثاق الماء منها ، إذ يكفيه (عمران الخارج على بختيار بن معز الدولة) « إيقاع ثلمة يسيرة فى أحد نواحى السد ثم يحمل الماء فيتولى كفايته[٢] فى الهدم والتخريب . فربما أفسد فى ساعة من الليل أو النهار تعب سنة أو نحوها . وذلك أن هذه السدود تكون من قصب وتراب يقام فى وجوه المياه الجارية عند ضعف جريانها وغاية نقصانها . فاذا وردت المياه القوية ، ومُنعت من حدورها[٣] ، كفى معَها[٤] اليسير من المعونة[٥] حتى تنبعث ويدفع بعضها بعضا . وربما كان سبب انبثاق الماء نقب فأرة ، ثم يوسّعه الماء وينتهى فيه إلى حيث لا حيلة فى سده »[٦] .

وقد جعل العباسيون لماء الرى بمرو ديوانا أطلقوا عليه « ديوان الماء »[٧] ، ويشرف على هذا الديوان موظف كبير يعاونه أكثر من عشرة آلاف عامل ، وتودع فى سجلاته مقادير خراج الأراضى على حسب نوع ريها . فيؤخذ العشر « إذا كان يسقى سيحا أن تَسقيه السماء ، وإن كان يسقى بغرب[٨] أو دالية أو سانية ، ففيه نصف العشر »[٩] . كما كانوا يعنون بإقامة مقاييس على الأنهار للوقوف على مقدار ارتفاع الماء وانخفاضه للاستئناس بذلك فى فرض الضرائب .

وكذلك كان العباسيون يعنون بحراثة الأرض ويستخدمون لذلك الأبقار . وقد بلغ عدد أبقار الحرث فى أردبيل ثمانية لكل محراث ، ولكل اثنتين منها قائد . كما كانوا يعنون بتسميد الأرض ،

---

(١) ص ٢٢٥ .
(٢) أى يبلغ مداه .
(٣) أى من انصبابها وجريها .
(٤) فى الأصل منها ولعلها تحريف عما أثبتناه
(٥) يعنى المعاونة فى فتح ثلمة يسيرة يندفع منها الماء .
(٦) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .
(٧) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٤٥
(٨) الغرب هو الدلو العظيمة يستقى بها على السانية ، والسانية البعير يسنى عليه أى يستقى من البئر .
(٩) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٢

والمحافظة على ثمارها ، حتى جعلوا كثيراً من الأطفال لنظارتها أى حراستها وطرد الطيور عنها وعنوا كذلك بتربية الحيوانات ، وخاصة البقر ، ثم بتربية الجاموس الذى جلبوه من الهند بعد أن كثرت البطائح والمستنقعات فى القرن الرابع الهجرى ، ثم انتشر استعماله فى سائر البلاد الإسلامية . وكانوا يربون البقر لاستعمال ألبانه ويعتقدون أن لحمه يضر بالصحة ، ويفضلون عليه لحم الجاموس . وكانت مصر تجلب كثيراً من حيوانات الذبح من برقة التى تكثر فيها المراعى ، ولا تزال كذلك حتى اليوم . واشتهرت جزيرة العرب بكثرة الجمال ذات السنام الواحد ، كما اشتهرت بلخ بالجمال ذات السنامين التى تسمى البخاتى . وكانت الخيل تجلب من بلاد العرب ، وخاصة إقليم الحسا ، إلى بغداد ، كما اشتهرت نجد وفارس بتربية الخيل ومصر بتفريخ الدجاج وتربيته ، وحفظ الحمام فى أبراج لوقايته من الأفاعى[١] .

ومن الطريف أن بعض البلاد كان يعنى بتربية الكلاب وذبحها ، فكان القرامطة يربون الكلاب ويسمنونها ، ثم يذبحونها ويأكلونها[٢] .

ومن أشهر الحاصلات الزراعية الحنطة ، وتزرع فى البلاد الكثيرة المياه كالعراق وخوزستان ومصر ، والذرة وتكثر فى جنوب البلاد الإسلامية كجنوب بلاد العرب وكرمان والنوبة ، والأرز وتكثر زراعته فى خوزستان ومازندران ، والقلقاس فى فلسطين ومصر وآسيا الصغرى وتكثر زراعة الكروم فى العراق واليمن ومصر وبلخ والشام[٣] .

ومن الحاصلات الزراعية أيضا النارنج والأترج الذى يقول المسعودى[٤] إنه « حمل من أرض الهند بعد الثلثمائة (للهجرة) ، فزرع بعمان ، ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام ، حتى كثر فى دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية ، وأنطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر ، وما كان يعهد ولا يعرف ، فعدمت منه الروائح الخرية الطيبة واللون الحسن الذى يوجد فيه بأرض الهند ، لعدم ذلك الهواء والتربة وخاصية البلد » . واشتهرت مصر بزراعة الليمون ؛ « وكان من جملة أصناف الليمون بأرض مصر ليمون يقال له التفاحى يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذة طعمه »[٥] . كما اشتهرت مصر بزراعة البطيخ الذى كانت له سوق نافقة . واشتهر فيها نوع من البطيخ يقال له العبدلاوى نسبة إلى عبد الله بن طاهر الذى حكم مصر فى عهد الخليفة المأمون العباسى ، وهو الذى جلبه من خراسان إليها عند قدومه . وكان تفاح الشام مضرب المثل فى الجودة ، كما كانت العراق ، وخاصة البصرة ، وكرمان وشمال إفريقية تنتج مقادير كبيرة من التمر الذى كان يجفف ويرسل إلى البلاد الأخرى . واشتهرت بلاد الشام وشمال إفريقية بزراعة الزيتون ، واشتهرت نابلس وحلب بصناعة الزيت

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٢٨١ — ٢٩٤

(٢) Nasir - i - Khusrau : Safar Nameh ,pp.227 — 8٠

(٣) الجاحظ : كتاب التبصر بالتجارة ص ٢٩

(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٢٣٤ — ٢٣٥

(٥) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٧٣

المستخرج منه(١) . وكثرت زراعة قصب السكر فى كثير من البلاد الإسلامية ، وخاصة فى بعض بلاد الأفغان وفى بلاد الشام ومصر وخوزستان والعراق والأندلس ، ويزرع فى بلاد الهند القرنفل والفلفل والصندل والدار صينى وأشجار التوت لتربية دودة القز . ويزرع فى أصبهان السفرجل والكمثرى والتفاح(٢) . ومن أشهر محاصيل مصر فى عهد الفاطميين خاصة القمح والشعير والفول والقصب والقلقاس والباذنجان والفواكه .

وقد حاول مسلمو المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التى لا تنمو إلا فى البلاد الحارة : كالتوابل والقطن وقصب السكر والتوت ؛ ولكن زراعة التوابل لم يقدر لها النجاح ، على حين نجحت زراعة القطن وقصب السكر والتوت فى بعض جهات الأندلس وصقلية(٣) .

واشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والذرة ، وبزراعة الفواكه كالبرتقال والكمثرى والتفاح والتين والعنب والرمان ، والخوخ الذى كانت تكثر زراعته فى السهول ، والموز وتكثر زراعته فى وديان البحر الأبيض المتوسط ، كما اشتهرت بزراعة الأرز وقصب السكر والزيتون . واهتم أهل الأندلس بزراعة الكتان والقطن لصناعة الملابس ، والتوت لتربية دود القز ، وانتفع الأمويون بمياه الأنهار الكبيرة كتاجة والوادى الكبير والوادى اليانع وإبرو ، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول ، واستخدموا هذه المياه فى الزراعة التى أحرزوا قصب السبق فيها . ووضع الأمويون تقويما للزراعة عرف بالتقويم القرطبى ، الذى أصبح دليلا ودستوراً لزراعة النباتات المختلفة فى مواعيدها ، وأخذه عنهم غيرهم من الأمم .

٢ — الصناعة

كان للصناعة فى العصر العباسى الثانى ، حظ كبير من عناية الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين اهتموا باستخدام موارد الثروة على اختلافها . ومن الصناعات التى ازدهرت فى هذا العصر صناعة النسيج : فقد اشتهرت مصر بصناعة الكتان الذى كثرت زراعته فى الفيوم . ومن أشهر مراكز هذه الصناعة فى القرن الرابع الهجرى إقليم الفيوم ونواحى بحيرة تنيس ، وخاصة مدن دمياط وشطا ودبيق التى تنسب إليها الثياب الدبيقية ، وفى تنيس التى كانت تصدر إلى العراق وحدها ما تتراوح قيمته بين ٢٠,٠٠٠ ، ٣٠,٠٠٠ دينار سنويا ، وفى دبيق كانت تصنع « الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة ، والدبيقى العلم المذهب . وكانت العمائم الشرب المذهبة تعمل بها ، ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع ، وفيها رقمات منسوجة بالذهب ، فتبلغ العمامة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل »(٤) .

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج٢ ص ١٩٣

(٢) راجع الجاحظ : كتاب التبصر بالتجارة ص ٢٦ — ٣٢

(٣) Heyd ; Histoire du Commerce du Levant, tome. I. p. 50.

(٤) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٢٦

واشتهرت مدينة كازرون بفارس بصناعة النسيج ، حتى سميت دمياط الأعاجم . كما كان لصناعة القطن فى شرق البلاد الإسلامية مركز ممتاز فى صناعة الكتان ، حتى قال الثعالبى إن القطن لخراسان والكتان لمصر . وانتقلت زراعة القطن وصناعته من الهند إلى خراسان وفارس أولا ، ثم انتقلت بعد ذلك بزمن طويل إلى الأقاليم الغربية للدولة الإسلامية . واشتهرت مدينة كابل فى هذا العصر بنسيج القطن الذى كانت تصدره إلى الصين ، كما اشتهرت بلاد ما وراء النهر بزراعة القطن وصناعته . وأدخل الحمدانيون هذه الزراعة فى بلاد بين النهرين ، كما انتشرت كذلك فى المغرب والأندلس . ومن أهم مراكز صناعة القطن مرو ونيسابور حيث رخصت أسعاره عن أسعار نسيج الكتان ، حتى إن إسماعيل بن أحمد السامانى (٢٧٩ — ٢٩٥ هـ) منح كل قائد من قواده ثوبا من الكتان هدية قيمة (١) .

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين من أهم مراكز الصناعة . فقد بلغ نظام الطراز (٢) مبلغا كبيرا من الرقى ، كما ازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية . وتتبين لنا مقدار مهارة المصريين وحذقهم فى تلك الصناعات ، من وصف الكسوة (٣) التى أمر الخليفة الفاطمى المعز بعملها للكعبة . وكانت مربعة الشكل ، مصنوعة من ديباج أحمر ، سعتها مائة وأربعون شبراً ، وفى حافاتها اثنا عشر هلالا ذهبيا ، فى كل هلال إترجة ذهبية ، بداخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام فى الكبر . وكانت مرصعة بالياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، ونقشت فى حافاتها الآيات التى وردت فى الحج (٤) بحروف الزمرد الأخضر ، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة . وعطرت هذه الكسوة بمسحوق المسك ، ووضعت فى القصر بحيث يراها الناس من داخله وخارجه (٥) .

وقد بنى المعز دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفى الدولة على اختلاف مراتبهم وعنى الخلفاء من بعده بصناعة النسيج ، وكانوا يصنعون مقادير وافرة منها لهم ولرجال بلاطهم ، كما كانوا يصنعون الكسوة الشريفة ، والخلع التى يمنحونها بسعة للوزراء والأمراء والأشراف فى عيد الفطر ، حتى سمى هذا العيد عيد الحلل .

= ذكر ناصرى خسرو Safar Nameh, p. 139 عند كلامه على الاحتفال بوفاء النيل بحضور الخليفة المستنصر الفاطمى أن ثوب الخليفة كان من صنع دبيق ، وأن قيمته ألف دينار . كما ذكر أيضا أن عمامة صاحب المظلة الذى كان يسير إلى جانب الخليفة ويحمل له المظلة كانت مزينة بالأحجار الكريمة ، وأن ثوبه من جنس ثوب الخليفة .

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٢) فارسى الأصل معناه التطريز ، ثم أصبح يطلق على الثوب الموشى . ولا يرتدى هذا النوع من الثياب إلا الملوك والأمراء وأصحاب المناصب العالية . وبعد أن كان هذا اللفظ يطلق على الكتابة الموشاة ، أصبح يطلق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة على النسيج المنقوش أو الموشى بالخيط ، وعلى النقوش التى توضع على الأشرطة المستعرضة من أى نوع ، سواء أكان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار ، أو كان محفورا بالخشب (٣) بضم الكاف وكسرها (٤) سورة آية ٩٥ ، وسورة ٩ آية ٣ .

(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ ، والفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٢٣٥ .

وهناك أنواع خاصة من الثياب اشتهرت فى هذا العصر . من ذلك الثياب العتّابية المصنوعة من الحرير ، وتنسب إلى عتاب أحد أحياء بغداد (١) . والخسرُوانى (أوالخسروانى بفتح الراء) ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى خسروشاه أحد ملوك الفرس (٢) ، والقلمونى ، وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس . وقد نقلت صناعته من بلاد اليونان إلى مصر حيث أصبح يصنع فى دمياط وتنيس خاصـــــة (٣) ، والتسترى ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى تستر (٤) أشهر مدن خوزستان ، والقرقبى ، وهو نوع من القماش كان يصنع فى بلاد اليونان ، ثم أدخلت صناعته إلى مصر ، وأصبح يصنع فى دمياط وتنيس . واشتهر هذا القماش بألوانه اللامعة التى تتغير دائما لاسيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس (٥) . والنّصْفية ، وهى ثياب مصنوعة من الحرير والقطن .

وقد ذكر المقريزى (٦) أن الخليفة المعز الفاطمى أمر فى سنة ٣٥٣ هـ بعمل خريطة من الحرير الأزرق التسترى والقرقوبى المنسوج بالذهب ، كان مبينا عليها بالذهب كافة أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن ، كما ظهر عليها مدينتا مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة (٧) . كما ذكر المقريزى (٨) أن الخليفة المستنصر ترك فيما تركه من الكنوز خمسين ألف مقطع من الحرير الخسرُوانى كان أكثره مذهبا ، كما ترك حشية قلمونية بيعت بألفين وأربعمائة دينار (٩) .

واشتهرت مرو باقليم طبرستان بصناعة الإبريسم ، وتفوّق أهل إرمينية فى صناعة النكك الإبريسيمية التى كان ثمن الواحدة منها يتراوح بين دينار وعشرة دنانير .

واشتهرت فارس وأرمينية وبلاد ما وراء النهر بصناعة الملابس والفرش الصوفية . وكان للبسط الفارسية التى تصنع فى أصبهان خاصة (١٠) المكانة الأولى منذ عهد بعيد ، كما اشتهرت صناعة البسط الأرمينية فى القرن الرابع الهجرى خاصة ، ومنها انتشرت هذه الصناعة فى آسيا الصغرى ، حيث أصبح للبسط الأزميرية مكانة ممتازة فى أوربا ، كما اشتهرت غرناطة بهذه الصناعة ، وكادت تبذ مدن المشرق فى ذلك (١١) .

ومما ذكره الجاحظ نرى أن « خير الأكسية من الصوف ، المصرية ، ثم الخوزية الفارسية » (١٢) .

---

(١) كان عتاب ابن حفيد عميرة ، وإليه ينسب هذا الحى الذى اشتهر بصناعة هذا النوع من الثياب .
انظر Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes

(٢) Lane: Arabic-English Lexicon

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes

(٤) وهى معربة عن شستر (٥) القرقب طائر يرى فى الغدر والمستنقعات . انظر معجم البلدان لياقوت

(٦) خطط ج ١ ص ٤١٧ (٧) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٥٧

(٨) خطط ج ١ ص ٤١٦

(٩) انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧

(١٠) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٢٢ .

(١١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٩٥ .

(١٢) نسبة إلى خوزستان .

واشتهرت سابور والكوفة وجور جنوبى فارس بصناعة الروائح العطرية المستخرجة من البنفسج والنيلوفر والنرجس والسوسن والزنبق والنارنج، واختصت مدينة جور باستخراج ماء الورد، الذى كان يحمل إلى الصين والهند واليمن ومصر والمغرب والأندلس(١).

وقد راجت صناعة الورق فى العصر العباسى الثانى؛ وكان ورق البردى الذى اشتهرت به مصر منذ عهد بعيد كثير الاستعمال حتى أوائل العصر العباسى الثانى، ثم حل محله الكاغد الذى انتقل من الصين إلى البلاد الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى. واشتهرت سمرقند بصناعة الكاغد، حتى قيل إن كواغد سمرقند عطلت قراطيس مصر. وانتشرت صناعة الورق فى دمشق وطبرية وطرابلس الشام، وحافظت سمرقند على شهرتها فى هذه الصناعة. وقد قال ابن الفقيه الهمذانى عن شهرة فارس فى صناعة الحديد وغيره: «لقد ألان الله عز وجل لهؤلاء القوم الحديد، وسخره لهم حتى عملوا منه ما أرادوا، فهم أحذق الأمة بالجوامع والأقفال والمرايا وتطبيع السيوف والدروع والجواشن؛ ولهم الثياب الجبائية والسينيزية، ولهم المـــاورد الجورى، والطين السيرافى، والآكسية الفسوية، والأدهان السابورية والثياب الكازرونية»(٢).

واشتهرت بلاد الأندلس باستخراج المعادن من مناجمها المختلفة، وعلى الأخص الذهب من المناجم الواقعة على نهر تاجة، والفضة ببعض جهات قرطبة، والحديد من جبال طليطلة، والرصاص من غربى قرطبة، والنحاس بنواحى طليطلة وشمالى الأندلس. وقال المقرى إنه كان بالأندلس عدة مقاطع للرخام الأبيض والخزى والأحمر والمجزع. وقد وصفها وصفا شائقاً وذكر أماكنها(٣)، وكانت قرطبة مركزاً هاماً لصناعة الجلود، كما اشتهرت الأندلس بصناعة السفن وآلات الحرب من التراس والرماح والسروج واللجم والدروع.

وكذلك اشتهرت الأندلس باستخراج الزيت من الزيتون، والنبيذ من الكروم، كما مهر أهل هذه البلاد فى استخراج العقاقير من النباتات المختلفة، التى أخذها عنهم الأوربيون فيما بعد(٤).

٣ — التجارة

(١) طرق التجارة:

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب(٥) أن عناية خلفاء العصر العباسى الأول لم تقتصر على الزراعة والصناعة، بل اهتموا كذلك بتسهيل سبل التجارة: فأقاموا الآبار والمحاط فى طرق القوافل، وأنشئوا المنائر فى الثغور، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار. وكان

---

(١) ابن حوقل: المسالك والممالك ص ٢١٣.

(٢) الجاحظ: كتاب التبصر بالتجارة، ملحق ص ٤١. انظر ايضا «باب مايجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجوارى والأحجار وغير ذلك» (ص ٢٥ — ٣٤)

(٣) المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ٩٥ (٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٩٥ — ٩٦

(٥) ص ٢٣١.

لذلك أكبر الأثر فى نشاط التجارة الخارجية والداخلية ، فأصبحت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب البلاد وتمخر عباب البحار . واحتلت تجارة المسلمين فى العصر العباسى الثانى المكانة الأولى فى التجارة العالمية . وكانت الإسكندرية وبغداد مقياسا لأسعار البضائع العالمية فى ذلك الحين . ومن أشهر طرق التجارة بين الشرق والغرب :

أولا : من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر ، ويقوم به غالبا اليهود الذين كانوا من أكبر المنافسين لتجار المسلمين من فارس والعراق . وكان لهم بمدينة أصبهان حى يسمى اليهودية ، كما كان معظم تجار مدينة تستر بخوزستان من اليهود الذين كانوا يشرفون أيضا على تجارة اللؤلؤ الذى يستخرج من خليج فارس(١) . وكان هؤلاء التجار من اليهود يفدون من مقاطعة بروڤانس بفرنسا ، ويسميهم المسلمون فى ذلك الحين تجار البحر أو اليهود الراذانية ، نسبة إلى نهر الرون ، ويتكلمون العربية والفارسية والرومية والفرنسية والصقلبية، ويجلبون من الغرب الجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز (٢) والفراء والسمور والسيوف ، ويبدءون رحلاتهم التجارية من بروڤانس التى يسميها العرب « فرنجة» .وترسو سفنهم إما عند الفرما ، وكانت تعد من أهم الموانىء التجارية فى ذلك الحين،ثم يحملون هذه السلع على دواب الحمل إما إلى القلزم ، وهى مدينة السويس الحالية (٣) ، وإما إلى الإسكندرية التى كانت ملتقى التجارة العالمية ، ومنها تنقل إلى الفسطاط أو إلى القاهرة عن طريق النيل . ويقول هيد(٤) إن شهرة بغداد طغت على الإسكندرية حيناً من الدهر ، إلا أن هذه المدينة ازدهرت من جديد ، منذ أيام الطولونيين . وكانت هذه السلع تنقل من الفسطاط برا على الدواب إلى القلزم ومنها تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانئه الهامة مثل جدة حتى تصل السفن إلى الهند والصين،ويحمل التجار فى عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود والكافور والدارصينى . فاذا وصلوا إلى القلزم اتجهوا إلى الفرما أو إلى الإسكندرية ، ومنها إلى بروڤانس ، وأحيانا يقصد بعضهم القسطنطينية (٥) .

ثانيا : من أوربا إلى المشرق عن طريق أنطاكية ، ويبدأ تجار اليهود الراذانية من بروڤانس بحراً إلى أنطاكية ، ومنها ينقلون السلع على الدواب إلى الفرات إلى أن يبلغوا بغداد عن طريق هذا النهر وجداوله ، ثم يركبون فى دجلة إلى الأبلة(٦)، ثم إلى عمان والهند والصين .

ثالثا : من بلاد الروس الشمالية إلى المشرق عن طريق بحر قزوين ، ثم إلى مرو فبلخ وبخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين . ويحمل هؤلاء التجار معهم جلود الخز وجلود الثعالب والسيوف والشمع والعسل . وكان المسلمون يعاملونهم معاملة طيبـــــة ويأخذون منهم الجزية

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم جـ١ص ٢٥٦ ، وآدم متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) الخز اسم دابة ثم أطلق على الثوب المأخوذ من وبرها . والخز الذكر من الأرانب .

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ١٥٣ .

(٤) Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, tome I. p. 41.

(٥) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٤ .

(٦) بلدة على شاطىء دجلة فى زاوية الخليج الفارسى — أنظر معجم البلدان لياقوت .

باعتبارهم مسيحيين (١).

ومما جعل لهذا الطريق أهمية تجارية اعتناق أهل القفجاق الإسلام فى أوائل القرن الرابع الهجرى، وجهود السامانيين الذين عملوا على إقرار الأمن فى خراسان وبلاد ما وراء النهر، حتى إن قوافل التجار كانت تسير فى أمن ودعة. أضف إلى ذلك زواج ولد نصر بن أحمد السامانى من ابنة ملك الصين وما كان لذلك من أثر فى رواج التجارة بين الصين وبلاد السامانيين (٢).

ولا ننسى فتوح محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢٢ هـ) فى بلاد الهند وما كان لها من أثر فى رواج التجارة. ويرجع معظم النقود الإسلامية التى اكتشفت فى شمال أوربا إلى القرن الرابع الهجرى، وكان أكثرها من نقود السامانيين. ولا غرو فقد أصبحت بلاد الروس منذ ذلك الحين طريقا هاما بين شمال أوربا وبلاد المشرق.

رابعا: الطريق البرى من غرب أوربا إلى المشرق، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق، مجتازاً المغرب الأقصى والأدنى والأوسط عن طريق إفريقية (وهى تونس الحالية) حتى يصل إلى مصر، ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق، ثم إلى العراق مارا بالكوفة وبغداد والبصرة، ثم إلى فارس مارا بالأهواز ثم إلى كرمان والهند والصين (٣).

وكان لهذه الطرق التجارية ورواج التجارة فضل كبير فى انتشار الجاليات الإسلامية فى البلاد الممتدة إلى الصين وكوريا. فنرى فى بلاد الخزر والصين وكوريا وغيرها جاليات إسلامية كبيرة لا تقبل غير حكم المسلمين (٤).

وقد ذكر الرحالة العرب الذين قاموا برحلاتهم فى القرنين الثالث والرابع (التاسع والعاشر الميلاديين)، أنهم كانوا يلاقون شيئاً كثيراً من العطف والرعاية من بعض ملوك الهند، وأن جماعة من أمراء ملبار اعتنقوا الإسلام، وسمحوا للعرب باقامة المساجد فى هذه البلاد. وحين أنشأ العرب على سواحل الهند وفى بعض مدنها جاليات عربية. كانت جيوشهم قد تجاوزت حدود فارس منذ أوائل القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) واستولت على بلاد السند. وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية ونمت فى الملتان والديبل. وكانت سفن فارس وبلاد العرب تعرج على تلك البلاد فى ذهابها إلى بلاد الهند والصين، وفى عودتها حاملة حاصلات تلك البلاد (٥).

(ب) أشهر مراكز التجارة

وكان لاستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر والمغرب ثم على الأندلس وصقلية أثر كبير فى

---

(١) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ١٥٤. (٢) أنظر لفظ الصين فى معجم البلدان لياقوت.
(٣) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ١٥٤ — ١٥٥.
(٤) آدم متز: الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٣١٥ — ٣١٦.
(٥) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسى جـ ٢ ص ٢٣٥؛ عن
Heyd; Histoire du Commerce du Levant au Moyen — Age, pp. 32 — 33; Arnold: The Preaching of Islam, p. 363 et seq.

رواج التجارة . ومن ثم أصبح العرب وسطاء لنقل التجارة بين الشرق والغرب . وقد أصبح بعض المدن الساحلية على هذا البحر ذات أهمية خاصة للتجارة . فقد رأينا أهمية أنطاكية التى حصنها الخليفة المعتصم حتى أصبحت من أهم مرافق بلاد الشام التجارية (١) ، كما أصبحت أداة اتصال بين الشرق والغرب . وغدت الفرما والاسكندرية من المراكز الهامة للتجارة بين الشرق والغرب حيث تنقل منهما التجارة الآتية من أوربا إلى البحر الأحمر ، وكذلك التجارة الآتية من الشرق إلى أوربا . وكانت السفن بعد إقلاعها من الإسكندرية ترسو أول الأمر فى ميناء برقة التى كانت تكثر فيها السلع الشرقية والغربية فى القرن الرابع الهجرى . ومن طرابلس نرى سلسلة من الموانىء التجارية الهامة ممتدة حتى مراكش . وكانت المهدية أكثر هذه الموانىء عمرانا وازدهارا لقربها من مدينة القيروان، حتى كانت السفن تفد إليها تباعا من مصر وسورية محملة ببضائع آسيا (٢) . كما قامت علاقات تجارية بين الأندلس وغيرها من البلاد الشرقية حاملة منتجات هذه البلاد.

وكانت أيلة والقلزم وجدة من أهم الموانىء التجارية على البحر الأحمر . ولا غرو فقد كانت أيلة والقلزم المنفذين الرئيسين فى شمال البحر الأحمر ، وعن طريقهما كانت تنقل السلع من الغرب إلى الشرق وبالعكس. وترجع أهمية جدة إلى أنها محط الحجاج المسلمين الذين كانوا يفدون إليها عن طريق أيلة والقلزم ، أو عن طريق عيذاب. وكذلك اشتهرت عدن بالتجارة ، لوقوعها على مقربة من مدخل البحر الأحمر جنوبا ، حتى إن السفن المحملة بمنتجات الشرق والغرب كانت ترسو عليها . وكذلك كانت البصرة من أهم مراكز التجارة ، لأنها تعد «باب بغداد الكبير، ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا . . . ومحط رحال الشرق والغرب من مجاهل الصين الى مفاوز الصحراء الكبرى» (٣) . وأصبحت بغداد مركز التجارة فى العالم الاسلامى، حتى كانت هى والإسكندرية - كما رأينا - يتنافسان الزعامة التجارية ويقرران أسعار السلع فى ذلك الحين . وزاد من أهمية بغداد التجارية أنها كانت حاضرة العالم الإسلامى فى ذلك العصر وملتقى كثير من الطرق التجارية . وترجع شهرة دمشق باعتبارها من أهم المراكز التجارية إلى وقوعها على طريق قوافل الحجاج الرئيسى ، حتى إن الحجاج كانوا يجتمعون فيها عند ذهابهم إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وعند عودتهم إليها بعد أداء الفريضة ، مما ساعد على تدفق السلع إلى أسواقها (٤) . وكان كثير من حجاج المسلمين يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج فى مكة، فيتقابلون مع المسيحيين، وبذلك أصبحت هذه المدينة سوقا نافقة للتجارة بين الشرق والغرب .

واعتاد المسلمون أن يقيموا الأسواق فى أوقات معينة فى المدن التجارية الهامة . ومن المدن التى

---

(١) Heyd : Histoire du Commerce, tome I. pp. 43-4.

(٢) Ibid, p. 49.

(٣) كتاب التبصر بالتجارة للجاحظ ، نشره السيد حسن حسنى عبد الوهاب ، مقدمة ص ٣

(٤) Heyd : Histoire du Commerce du Levant, tome I. p.42.

اشتهرت بأسواقها أصبهان التى يحدثنا ناصرى خسرو أنه كان بسوق الصرافين فيها مائتا صراف يجلسون فى سوق عرفت بسوق الصرافين (١) ، والبصرة التى يقول فيها ابن الفقيه : «أبعد الناس بجعة فى الكسب بصرى وحميرى ، ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى(٢) فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو حميريا».(٣) .

وكانت التجارة تعتمد على إقامة الأسواق ، وتقيم كل طائفة من التجار فى قسم من أقسام هذه الأسواق ، ويمكثون إلى ما بعد الظهر ولا يعودون إلى منازلهم إلا فى المساء . أما أسواق المدن فكانت تقام فى أيام معينة من الأسبوع . وكانت الحوانيت فى مصر والشام وفلسطين تمتد على طول الشارع من الجانبين ، وخصصت فنادق للتجار الغرباء ، كانت أشبه بالأسواق الكبيرة . وكانوا يضعون بضائعهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها ، ويغلقون غرفهم بأقفال رومية . ويطلق على هذه الأسواق أو المخازن الفنادق أو القياصر(٤). وهناك خانات أو مخازن كبرى ، كدار البطيخ بالبصرة حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة (٥) . وأما فى بلاد المشرق فكانت الحوانيت تكون صفوفا فى مكان واحد .

وكانت العملة المستعملة فى الأسواق : العملة الذهبية وهى الدينار ، والفضية وهى الدرهم . وكان الدينار شائعاً فى البلاد الغربية للدولة الإسلامية ، وخاصة فى البلاد التى كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل استيلاء العرب عليها. أما الدرهم فكان استعماله شائعاً فى العراق وفارس . إلا أن استعمال الدنانير لم يلبث أن أصبح فى القرن الرابع الهجرى شائعاً فى بلاد العراق . ومع ذلك ظلت سائر البلاد الإسلامية الشرقية تتعامل بالدراهم . وكان الدينار يساوى أربعة عشر درهما فى ذلك العصر . ولكن الدينار كان يختلف من حين إلى حين ومن بلد إلى بلد : فتارة نرى الدينار يساوى ١٠ دراهم وتارة ١٣ درهما وتارة أخرى ١٥ درهما . ومن وسائل التعامل الصك ، وهو أشبه بالشيك الآن ، والمقايضة . وقد حرم الإسلام التعامل بالربا ، ولكن اليهود والنصارى أباحوه لأنفسهم فى بعض الأحيان(٦).

---

(١) Nasir-i Khusrau : Safar Nameh p. 253.

(٢) يقصد أقصى حدود المملكة الاسلامية شرقا وغربا (٣) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٥١

(٤) من الكلمة اليونانية pandokeion

(٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٦) انظر آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٣ ص ٣١٦ — ٣٢١ ، ٣٢٨ — ٣٣٠

الباب التاسع

الثقافة والفن

١ — الثقـــــــافة

تمهيد :

انتشرت الثقافة الإسلامية فى هذا العصر انتشاراً يدعو إلى الإعجاب ؛ بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية ، إلى العربية ، ونضج ملكات المسلمين أنفسهم فى البحث والتأليف ، وتشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء ، رجال العلم والأدب ، وكثرة العمران واتساع أفق الفكر الإسلامى بارتحال المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . ولاغرو ، فقد كان من أثر قيام كثير من الدول التى استقلت عن الخلافة العباسية ، أن نشطت الحركة الفكرية ، وراجت الثقافة ، وزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم . ومن ثم نرى صدى هذه النهضة المباركة فى بلاط كل من السامانيين والغزنونيين والبويهيين والحمدانيين فى الشرق ، وفى بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين فى مصر ، وفى بلاط الأمويين فى الأندلس . أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التى اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية . وخير مثل لذلك ما نشاهده من الآثار التى خلفها المعتزلة ودعاة الاسماعلية من العلماء والمتصوفين وغيرهم . وكان للجدل والنقاش الذى قام بين هذه الفرق من ناحية ، وبينها وبين العلماء من السنيين من ناحية أخرى ، أثر بعيد فى هذه النهضة العلمية التى يتميز بها هذا العصر ، وخاصة فى القرن الرابع الهجرى ، على الرغم مما انتاب العالم الإسلامى بوجه عام من تفكك وانحلال ، وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف ووهن . ولكن قيام هذه الدول ساعد على ازدياد الثروة وكثرة العمران ثم على ازهار العلم نتيجة لذلك . يقول ابن خلدون (١) فى الفصل الذى تكلم فيه على « أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة » : «إن تعليم العلم من جملة الصنائع ... وإن الصنائع إنما تكثر فى الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة ، لأنه أمر زائد على المعاش . فمتى فضلت (٢) أعمال أهل العمران عن معاشهم ، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف فى خاصية الإنسان وهى العلوم والصنائع . ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ فى القرى والأمصار غير المتمدنة ، فلا يجد فيها التعليم الذى هو صناعى ، لفقدان الصنائع فى أهل البدو كما قدمناه ، ولا بد له من الرحلة فى طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها . واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم ، وتفننوا فى اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا (٣) على المتقدمين وفاتوا المتأخرين . ولما تناقص عمرانها وابذعر (٤) سكانها ، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم ، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام » .

---

(١) مقدمة ص ٣٧٩ — ٣٨٠ (٢) زادت

(٣) زادوا (٤) تفرق

مراكز الثقافة :

كانت هناك فى هذا العصر عدة مراكز للثقافة جذبت إليها رجال الأدب منها :

١ — أصبهان أو الرى حيث أقام بوجه عام الصاحب إسماعيل بن عباد الذى تقلد الوزارة لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بعد أبى الفتح بن العميد . وكان بلاط بنى بويه هناك كعبة يؤمها العلماء ورجال الأدب .

٢ — البلاط السامانى فى بخارى التى وصفها الثعالبى (١) فى هذه العبارة فقال :

« كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد ، وكعبة الملك ، ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم دباء الأرض ، وموسم فضلاء الدهر . فحدثنى أبو جعفر محمد بن موسى الموسوى قال : اتخذ والدى أبو الحسن دعوة ببخارى فى أيام الأمير السعيد (نصر الثانى ابن احمد ٣٠١ - ٣٣٠ هـ) ، جمع فيها أفاضل غربائها : كأبى الحسن اللحام ، وأبى محمد بن مطران ، وابى جعفر بن العباس بن الحسن ، وأبى محمد بن أبى الثياب ، وأبى النصر الهرثمى ، وأبى نصر الظريفى ، ورجاء بن الوليد الأصبهانى ، وعلى ابن هرون الشيبانى ، وأبى إسحق الفارسى ، وأبى القاسم الدينورى ، وأبى على الزوزنى ، ومن ينخرط فى سلكهم . فلما استقر بهم مجلس الأنس ، أقبل بعضهم على بعض يتجاذبون أهداب المذاكرة ، ويتهادون ريحان المحاضرة ، ويفتقون نوافج الأدب (٢) ، ويتساقطون عقود الدر (٣) ، وينفثون فى عقد السحر (٤) . فقال لى أبى : يا ابنى ! هذا يوم مشهود مشهور ، فاجعله تاريخاً لاجتماع أعلام الفضل وأفراد الوقت ، واذكره بعدى فى أعياد الدهر وأعيان العمر ؛ فما أراك ترى على السنين أمثال هؤلاء مجتمعين . فكان الأمر على ما قال ، ولم تكتحل عينى بمثل ذلك المجمع » .

« وكانت مكتبة نوح بن نصر السامانى — كما يقول ابن خلكان — (٥) عديمة المثل ، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدى الناس وغيرها مما لا يوجد فى سواها ولا سمع باسمه ، فضلا عن معرفته » .

٣ — بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير فى طبرستان القريبة من بحر قزوين ؛ وقد وصفه الثعالبى (٦) فى هذه العبارة فقال : « خاتم الملوك وغرة الزمان ، ينبوع العدل والاحسان ، ومن جمع الله له إلى غرة الملك بسطة العلم ، وإلى فضل الحكمة نفاذ الحكم . فأوصافه لا تدرك بالعبارات ولا تدخل تحت العرف والعادات . وآن لى أن أعمل كتابا فى أخباره وسيره ، وذكر خصائصه ومآثره التى تفرد بها عن ملوك عصره ، فانى أتوج هذا الكتاب بلمع من ثمار بلاغته التى هى أقل محاسنه ومآثره ، وأكتب فصولا من عالى نثره مختومة ببعض ما ينسب إليه من شريف نظمه مما يجرى مجرى الأمثال من كلامه » .

---

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٩٥

(٢) أى يفتحون أوعية الأدب التى تشبه نوافج المسك (٣) يشبه ما يجرى فى المجالس من الحديث بمنثور الدر يتساقط من العقود .

(٤) يشبه الكلام الجميل فى قوة تأثيره بالعقد التى يعقدها الساحر وينفث فيها من فمه

(٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ (٦) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٥٦ — ٥٧

كان شمس المعالى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان من بيت قارن القديم العريق فى الشرف ؛ وهو أحد البيوتات السبعة من آل ساسان ببلاد فارس ، ويطلق مؤرخو العرب على أفراد هذه الأسرة « أهل البيوتات » . ويرجع نسبه ، على ما ذكره البيرونى(١) ، إلى قباذ والد أنو شروان أحد ملوك الساسانيين. ويقول ابن اسفنديار فى كتابه « تاريخ طبرستان » إن من يرغب فى تقدير عظمته وأخلاقه فليقرأ ما قاله عنه أبو منصور الثعالبى (٢) والعتبى (٣) . وقد جمع اليزدادى أقواله فى كتاب أسماه « قرائن شمس المعالى وكلام البلاغة » ، وهى تدل على بلاغة قابوس فى اللغة والبلاغة وعلى شجاعته ومهارته ، ومعرفته باللغة وعلم الفلك والنجوم ، حتى إنه كتب فى الأسطرلاب رسالة أطراها أبو إسحق الصابى . وكانت بينه وبين الصاحب بن عباد مراسلات ، كما راسل أبا نصر العتبى مؤرخ حياة السلطان محمود الغزنوى(٤). وقد وصفه ابن خلكان(٥) فقال إنه كان « من محاسن الدنيا وبهجتها ؛ غير أنه كان على ما خص به من المناقب والرأى والبصر بالعواقب ، من السياسة لا يساغ كأسه ولا يؤمن مجال سطوته وبأسه ، يقابل زلة القدم بإراقة الدم ، لا يذكر العفو عند الغضب . فما زال على هذا الخلق ، حتى استوحشت النفوس منه ، وانقلبت القلوب عنه ، فأجمع أعيان عسكره على خلعه ونزع الأيدى عن طاعته ، ولم يزالوا حتى قتل فى سنة ثلاث وأربعمائة » (٦) .

٤ ـ بلاط خوارزم فى خيوة ، وخاصة بلاط خوارزم شاه مأمون الثانى ابن مأمون الذى آلت بلاده إلى حكم محمود الغزنوى .

٥ ـ بلاط السلطان محمود الغزنوى فى غزنة ؛ وقد تمتع بشهرة واسعة ، فنقل كثيرا من المؤلفات الى غزنة . وكان من أحسن السلاطين ميلا إلى الأدب ، على الرغم من إساءته لرجاله . وقد أرسل إلى مأمون بن مأمون كتابا مع أحد أشراف دولته ، واسمه حسين بن على بن ميكائيل ، يقول فيه : قد علمت أن ببلاط خوارزم شاه كثيرين من العلماء الذين نبغ كل منهم فى فنه مثل فلان وفلان، وعليك أن ترسلهم إلى بلاطى ليكون لهم شرف المثول بين يدى ، ونقوى على الاستفادة من علمهم وحذقهم؛ وأرجو من أمير خوارزم أن يسدى إلينا هذا الجميل . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب أخرج فى قالب الود ، انطوى فى الوقت نفسه على الترهيب والتحذير ، وصيغ فى صيغة الأمر كما فهمه مأمون ، الذى لم ير بدا من أن يبعث فى طلب هؤلاء العلماء وينقل إليهم أوامر السلطان الغزنوى فى هذه الكلمات : السلطان قوى ، ويملك جيشاً من رجال الهند وخراسان إلى بلاد العراق . ولا أستطيع أن أرد له طلباً أو أخالف له أمرا ، فما قولكم ؟ وقد مال ثلاثة من هؤلاء العلماء إلى هذا الطلب ، إلا أن ابن سينا ومسيحى لم يميلا إلى تحقيق هذه الرغبة وعولا على الهرب بعلم مأمون . وهلك مسيحى تحت رمال الصحراء على أثر هبوب عاصفة ، ووصل ابن سينا إلى أيورد بعد أن صادف صعاباً جمة ، ثم

---

(١) الآثار الباقية ص ٣٩

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٥٦ — ٥٧

(٣) ج ٢ ص ١٤ — ١٧ ، ١٧٢ — ١٧٨

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧ — ٢٦ (٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٦

(٦) Browne : Lit. Hist. of Persia , vol II. pp. 103-4.

تابع السير إلى طوس ، ثم إلى نيسابور حتى وصل أخيرا إلى جرجان ، ونزل ببلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير (١).

ولكن فى العشرين سنة التى تخللت سنتى ٣٨٨ هـ (٩٩٧ م) ، ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ، مات الصاحب ابن عباد سنة ٣٩٨ هـ ، وزالت الدولة السامانية سنة ٣٨٩هـ (٩٩٩ م) ، واغتيل شمس المعالى على أيدى الثائرين من أشراف البلاد سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، كما قتل مأمون الثانى على أيدى الثوار ، وضم السلطان محمود الغزنوى بلاده إلى أملاكه فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧م) واستحوذ على رجال الأدب فى بلاد منافسيه .

٦ — بلاط الحمدانيين فى الموصل وفى حلب خاصة : فقد كانت حضرة سيف الدولة « مقصد الوفود وموسم الأدباء وحلبة الشعراء . ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر . وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به . فلو أدرك ابن الرومى زمانه لما احتاج إلى أن يقول :

ذهب الذين تهزهم مداحهم هز الكماة عوالى المران (٢)

٧ — بلاط الطولونيين والاخشيديين والفاطميين فى مصر : اشتهر عصر الطولونيين بمصر بطائفة كبيرة من العلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين . نذكر منهم على سبيل المثال : القاضى بكار بن قتيبة ، وأبا الفيض ذا النون المصرى المتصوف ، والربيع بن سليمان تليذ الإمام الشافعى ، وابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وأول مؤرخى مصر الإسلامية . وبلغ الأدب بمصر فى عهد الطولونيين درجة عظيمة من التقدم . فقد روى المقريزى (٣) عن القاضى أبى عمرو عثمان النابلسى ، الذى قال فى كتابه « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » أنه رأى كتابا لا يقل حجمه عن اثنتى عشرة كراسة ، يحوى فهرسة شعراء ميدان ابن طولون . فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة ، فكم يكون عددهم ؟ وكم يكون مقدار شعرهم وما يكافئون به من الأموال ؟(٤)

وقد عاد للفسطاط رونقها وبهاؤها بعد تخريب مدينة القطائع على أثر زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ، فنبغ فى عهد الإخشيديين كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين والشعراء . وكان مسجد عمرو وجامع أحمد بن طولون من أهم مراكز الثقافة فى عهد الطولونيين والإخشيديين . وبذت القاهرة الفسطاط والقطائع فى عهد الفاطميين ، وأصبحت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم مراكز هامة للثقافة ، ولا سيما بعد أن حول يعقوب بن كلس الأزهر فى سنة ٣٧٨ هـ إلى جامعة

---

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. II. pp. 96-7.

(٢) المران الرماح والكماة جمع كمى ، وهو البطل اللابس درعه ، وعالية الرمح مايركب فيه السنان ، وهى ضد سافلته ، والجمع العوالى .

يقول : ذهب الكرام الذين كان شعر الشعراء يطربهم فيهتزون له كما يهز البطل عالية الرمح حين يختبره .

أى من الأريحية الثعالبى : يتيمة الدهر ج ٢ ص ١١ (٣) ج ١ ص ٣٢٦

(٤) حسن ابراهيم حسن : المجمل فى التاريخ المصرى ص ١٥٢

تدرس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية .

وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة ، وألحقوا بها مكتبات تحتوى على مئات الألوف من المصنفات . فنرى فى مكتبة القصر الشرقى عدداً من الرفوف مقسما إلى أقسام لكل قسم منها باب . وكانت هذه المكتبة ، على ما رواه المقريزى (١) ، تحتوى على مائتى ألف مجلد ، عدا الكتب الأخرى . واشتملت هذه الكتب على مصنفات فى الفقه فى جميع المذاهب وفى اللغة العربية ، والحديث والتاريخ والسير ، والفلك والكيمياء ؛ هذا عدا المصاحف ومجموعة الفهارس المكتوبة بخط ابن مقلة وابن البواب (ت ٤١٣ هـ) وغيرهما من مشاهير الخطاطين . وروى المقريزى (٢) عن صاحب كتاب « الذخائر » أنه كان فى القصر أربعون خزانة ، من جملتها خزانة بها ١٨,٠٠٠ مجلد فى العلوم القديمة .

وقد وصف أبو شامة (٣) مكتبة القصر بأنها كانت من عجائب الدنيا فقال : «ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت فى القاهرة فى القصر . ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى إلى غير ذلك ؛ ويقال إنها كانت تشتمل على ألف (ألف) وستمائة ألف كتاب » .

وكان لبعض وزراء الفاطميين ولع شديد بجمع الكتب . فقد اتخذ يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز فى قصره جماعة ينسخون المصاحف وكتب الحديث والفقه والأدب والطب ، ويعارضون (٤) هذه الكتب وينقطونها . وصنف هذا الوزير نفسه كتابه فى العقائد الشيعية المعروف بالرسالة الوزيرية (٥)

وأسس الخليفة الحاكم فى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) « دار الحكمة » على مثال أكاديميات بغداد وقرطبة، وألحق بها مكتبة أطلق عليها « دار العلم » ، حوت ما لم يجتمع مثله فى مكتبة من المكتبات. وأجرى هذا الخليفة ومن جاء بعده من الخلفاء على موظفيها ومن بها من الفقهاء الأرزاق السنية ، وجعل فيها ما يحتاج إليه المطالعون والنساخ من الحبر والمحابر والأقلام والورق (٦) .

٨ ـ بلاط الأمويين فى قرطبة :

وكما نافس أمويو الأندلس العباسيين فى العراق والفاطميين فى المغرب ومصر ، نافست قرطبة بغداد والقاهرة وبخارى وغزنة وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية ، فأصبحت حاضرة

---

(١) خطط ج ١ ص ٤٠٩ (٢) المصدر نفسه

(٣) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (طبعة القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ) ج ١ ص ٢٠٠

(٤) أى يقابلون بين نسخ الكتاب الواحد

(٥) ابن منجب الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٢

(٦) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٥٨ ، ج ٢ ص ٣٤٢ . ذكر السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣) أن الوزير أبا نصر شابور أردشير ابتاع فى سنة ٣٨٢ هـ دارا بالكرخ وعمرها وسماها دار العلم ووقفها على العلماء واودع بها كثيرا من الكتب .

الأندلس سوقا نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب حتى جذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الاسلامية . ومن ثم ظهرت فيها طائفة من العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء وغيرهم . وكانت قرطبة - كما يقول المقرى (١) - « الغاية ، ومركز الراية ، وأم القرى ، وقرارة (٢) أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام وحضرة الإمام ، ودار صوب العقول (٣) وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح . ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائقة وصنفت التصنيفات الفائقة . والسبب فى تبريز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم ، أن أفقهم القرطبي لم يشتمل إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب » .

وقد زخرت مكتبة قرطبة بكثير من المصنفات فى مختلف العلوم والفنون. فقد جمع الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) « من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة ، حتى قيل إنها كانت أربعمائة ألف مجلد ، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر فى نقلها ... وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحى باذلا فيها ما أمكن من الأموال ، حتى ضاقت عنها خزائنه . وكان ذا غرام بها ، قد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ، ودق نظره ، وجمت استفادته . وكان فى المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذيا نسيج وحده . وكان ثقة فيما ينقله ... وقلما يوجد كتاب من خزائنه ، إلا وله فيه قراءة أو نظر فى أى فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن » (٤) .

ومما يدلنا على كثرة هذه الكتب وحسن ترتيبها أن فهارس دواوين الشعر التى حوتها مكتبة المستنصر بلغت ٤٤ كراسة ، كل منها فى عشرين ورقة . فإذا كان هذا العدد الكبير مقصوراً على الدواوين ، فكم يكون عدد فهارس المؤلفات فى العلوم والفنون الأخرى (٥) ؟

ولم يكن اقتناء الكتب فى الأندلس مقصوراً على الأمراء والخلفاء ، بل اهتم الأفراد باقتناء الكتب فى مكتباتهم الخاصة ، واعتبر ذلك العمل مظهراً من مظاهر المباهاة والافتخار . فقد روى المقرى (٦) عن أحد علماء الأندلس قال : « أقمت مدة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لى بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع ، وهو بخط فصيح وتفسير مليح ، ففرحت به أشد

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٨ (٢) مستقر أو مركز

(٣) يعنى الدار التى تصب فيها سحائب العقول مافيها من علم وفضل

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٦ — ١٨٧

ذكرنا قول المقرى هذا بما رأيناه عيانا فى مكتبة العلامة المغفور له أحمد تيمور باشا ، فطالما ترددنا على خزانة كتبه بدار الكتب المصرية ، وكلما رأينا كتابا نفيسا أو مخطوطا نادرا منها وجدنا له عليه تعليقا ممتعا وإضافات تصحح ماوقع فيه من أخطاء . هذا مع العناية بنظافة الكتب والمحافظة على جلدها وورقها محافظة نادرة .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٦ (٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٨

الفرح ، فجعلت أزيد فى ثمنه ، فيرجع إلى المنادى بالزيادة علىّ ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : ياهذا ! أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوى . قال : فأرانى شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ، فقال لى : لست بفقيه ، ولا أدرى ما فيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب . فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد ، استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه . والحمد لله على ما أنعم به من الرزق ، فهو كثير . قال الحضرمى : فأحرجنى وحملنى على أن قلت له : نعم ! لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطى الجوز من لا أسنان له . وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به ، فيكون الرزق عندى قليلا ، وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه » .

وقد ذكر ستانلى لينپول(١) عند كلامه على جمال مدينة قرطبة فى عهد الأمويين أن صحة أذهان أهلها لا تقل عن قصورها فى الحسن والروعة ، وأن علماءها وأساتذتها جعلوا منها مركزاً هاماً للثقافة الأوربية ، حتى إن الطلبة كانوا يفدون إليها من جميع أنحاء أوربا ليتلقوا العلم على أساتذتها الأعلام(٢). ولم يكن تشجيع العلم والعلماء مقصوراً على الخلفاء والأمراء وذوى اليسار ، بل كان للوزراء أثر كبير فى ذلك ، فقد كان ابن أبى عامر الذى تولى الحجابة فى عهد هشام المؤيد بن الحكم المستنصر محباً للعلوم والآداب ، مكرماً للمشتغلين بها . وكان يعقد فى كل أسبوع مجلساً بقرطبة يجتمع فيه العلماء والأدباء للمناظرة بحضرته . ووفد على الأندلس فى عهده أبو العلاء صاعد بن الحسن من أهل الموصل ، وكان عالماً باللغة والأدب والأخبار والشعر (٣) .

وقد أخذ المسلمون بحظ وافر من العلوم على اختلافها ، وميز علماؤهم بين العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم ، والعلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . وأطلقوا على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية ، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم ، أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة ، أو العلوم الدخيلة .

وتشمل العلوم النقلية : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة ، والبيان ، والأدب .

وتشمل العلوم العقلية : الفلسفة ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والطب ، والسحر ، والكيمياء والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا (٤) .

(أ) العلوم النقلية

١ — التفسير :

كان القرآن الكريم ، ولا يزال ، المصدر الأساسى والمنهل الذى يأخذ عنه المسلمون العلوم المختلفة.

---

(١) The Moors in Spain, p. 144.

(٢) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٩ (٣) المصدر نفسه ص ١٩ ، ٢٤

(٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٢ ص ٢٤١

وقد اتجه المفسرون فى تفسير القرآن اتجاهين : يعرف أولها باسم التفسير بالمأثور ، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة . ومن أشهر مفسرى هذا النوع ابن جرير الطبرى وابن عطية (١) الأندلسى والقرطبى (توفى سنة ٦٧١) . ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأى ، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل . ومن أشهر مفسرى هذا النوع المعتزلة والباطنية(٢) . ولم يتخذ التفسير هذه الطريقة المنظمة إلا فى العصر العباسى الثانى بوجه خاص ، فقد روى ابن النديم(٣) أن عمر بن بكير كان من أصحاب الفراء صاحب كتاب معانى القرآن المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، وأنه كتب إليه يقول « إن الأمير الحسن ابن سهل ربما سألنى عن الشىء بعد الشىء من القرآن ، فلا يحضرنى فيه جواب ؛ فإن رأيت أن تجمع لى أصولا أو تجعل فى ذلك كتابا أرجع اليه ، فعلت . فقال الفراء لأصحابه : اجتمعوا حتى أملى عليكم كتابا فى القرآن ، وجعل لهم يوما ؛ فلما حضروا خرج إليهم . وكان فى المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس فى الصلاة ، فالتفت إليه الفراء فقال له : اقرأ ! وبدأ بفاتحة الكتاب ففسرها ، ثم استوفى الكتاب كله ، فقرأ الرجل ، ويفسر الفراء ، فقال أبو العباس : لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه (٤) » . ولاشك أن الفراء فسر القرآن حسب ترتيب الآيات بهذه الطريقة التى رسمها لنفسه فى أربعة أجزاء ، وتوجد منه نسخة خطية فى مجلد واحد بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٠ ش تفسير (يعنى مجموعة الشنقيطى) .

ويمتاز ابن جرير الطبرى فى تفسيره الذى يقع فى ثلاثين مجلداً ، والذى وصفه أبو حامد الأسفرايني بقوله : لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير ابن جرير الطبرى لم يكن ذلك كثيراً ، بتحرى الدقة فى النقل عن الرسول والصحابة والتابعين ، ومعارضته أصحاب الرأى ، لأنهم كثيرا مايتبعون هواهم . ويقول جولدتسيهر(٥) عن كتاب تفسير الطبرى إنه دائرة معارف غنية فى التفسير المأثور . وقد أعطى — كذلك — فى تفسيره لإجماع الأمة سلطانا كبيراً . وعلى هذا النحو انتظم فى تفسيره ، آية بعد آية ، التفسير بالروايات المروية عن العلماء المعتبرين وحدهم ، وأيد ذلك بالأسانيد المختلفة بالرجال الذين وصلت إليه المعرفة عن طريقهم . ولم يسلك هذا الطريق على نحو آلى ، وإنما فعل ذلك على مثال ما كان يسير عليه العلماء المسلمون من وقت طويل ، من نقد الرجال جرحا وتعديلا . فعند ما يظهر له أن الحديث غير موثوق به ، فإنه يصرح بما يناسبه ، حتى آراء ابن عباس وقف حيالها موقفاً حراً صريحاً . وقال مرة عن مجاهد الذى كان يجب اتباعه ، إن رأيه « يخالف إجماع الحجة الذين لا يمكن نسبتهم إلى الكذب » . وفى مرة أخرى : « وما ذكر هنا عن مجاهد لا معنى له

---

(١) هو أبو محمد عبد الحق بن عطية (٤٨١ — ٥٤٦ هـ) . (٢) المصدر نفسه ص ٢٤٢

(٣) الفهرست ص ٩٩ — ١٠٠

(٤) المصدر نفسه ص ٩٩ — ١٠٠

أنظر أيضا ابن خلكان ج ٢ ص ٢٢٨

(٥) كتاب المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن — ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر (القاهرة سنة ١٩٤٤) ص ٨٦ — ٨٧

وفساد رأيه لا شك فيه » . وعلى هذا النحو كان يعالج أيضاً آراء الضحاك وغيره من الرواة عن ابن عباس .

وكذلك ألف الطبرى فى علم القراءات كتابا يقع فى ثمانية عشر مجلداً ، اشتمل على القراءات المعروفة والشاذة ، وتحرى الدقة فى نقدها ؛ فكان يجمع الروايات ويمحصها ويفندها ويخرج منها برأى خاص. وإذا لم تمس هذه القراءات المختلفة المعنى بشكل جوهرى فضل الأخذ بالقراءة الشائعة، وعارض فى شدة القراءات التى لا تعتمد على الأئمة الذين يعتبرون حجة فى نظره . وكان ابن جرير يهتم عند التفسير بالمعنى الواضح الذى لا يصح العدول عنه . أما إذا كانت هناك مواضع تستدعى تفسيراً آخر ، رجع إلى أقوال السلف ، أى إلى الصحابة والتابعين وعلماء الأمة . كما اعتمد كثيراً على القصص الإسرائيلية التى كان يستمدها من مراجع يهودية الأصل كالتى أخذت عن أقطاب اليهود من أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه . كما اعتمد أيضاً على بعض قصص النصارى التى استمدها من ابن إسحق عن أبى عتاب ، وكان نصرانياً من قبيلة تغلب ثم أسلم . وكان ابن جرير يهتم بالأمور الجدية ويتحاشى الدخول فى الجدل الذى لا طائل تحته ، فتراه فى تفسير قوله تعالى فى سورة يوسف (آية ٢٠) عن بيع إخوة يوسف له بدراهم معدودة يقول « إن الله أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة ، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن أو عدد ، ولا وضع عليه دلالة من كتاب ولا خبر من الرسول . . . وليس فى العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع فى دين ولا فى الجهل به دخول ضر فيه ، والايمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوع عنا تكليف علمه [1] » .

ويعتبر ابن جرير أول من اهتم فى تفسير القرآن بالرجوع إلى الشعر القديم . ولا غرو فقد كانت قدمه راسخة فى علوم اللغة والشعر القديم رسوخها فى الدين والتاريخ. ويقول جولدتسيهر[2] : « وقد احتوى على جملة كبيرة من المعالجات اللغوية ، فاكتسب الطبرى بذلك شهرة عظيمة . وإن ما قدمه فى تفسيره للقرآن من الناحية اللغوية ، يعد كنزاً ثميناً فى هذه الابحاث ، كما أنه يعد ما فى كتابه من الأبحاث النحوية والاختلافات بين المدرستين النحويتين (مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة) من أقدم المراجع لهذه المعرفة . وتظهر هذه البحوث اللغوية كأمر غير مقصود لذاته ، وإنما كانت عنده وسيلة للتفسير بالعلم . وهنا لم ينس أن يقصر استعمال هذه الطريقة على هذا المبدأ، وهو ألا يتناقض ذلك مع ما نعرفه من تفسير مأثور عن أهل العلم من الصحابة والتابعين . فهذه المسائل اللغوية لا تجعله يترك موقفه من تمسكه بالمأثور .

وبهذا كله كان تفسير الطبرى الكبير لب التفسير بالمأثور والقمة العالية التى وصل إليها هذا المذهب فى التفسير » .

ولكن الطبرى أثار عليه كراهة الحنابلة وبعض السنيين الذين اتهموه بالميل إلى الآراء التى كان السلف يقفون منها موقف الحيطة ، كما اتهموه أيضاً بأن آراءه تتفق مع آراء المعتزلة بعض الاتفاق ،

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٧ — ٩٠

(٢) المصدر نفسه ص ٩٢

مع أنه كان يرد على القدرية آراءهم فى القدر ، كما جادل علماء الكلام فى كثير من المسائل ، كرؤية الله رأى العين ، كما كان يخالف التفسير التنزيهى عند المعتزلة ، أى أن الله سبحانه منزه عن الصفات التى يتصف بها البشر ، وتمسك بروايات شيوخ المحدثين القدماء كالبخارى والقشيرى وأبى داود السجستانى . ولكن الحنابلة وبعض العامة حنقوا على ابن جرير ورموه بالرفض والإلحاد، وحالوا دون دفنه نهاراً، فدفن ليلا فى داره . وقد عزا ابن الأثير(١) قتل ابن جرير إلى « أن الطبرى جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء لم يصنف مثله ، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فقيل له فى ذلك فقال : لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً ، فاشتد ذلك على الحنابلة ، وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد ، فشغبوا عليه وقالوا ما أرادوا :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً إنه لذميم

. . . وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، فكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات ، بصيراً بالمعانى ، فقيها فى أحكام القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها ، صحيحها وسقيمها ، ناسخاً ومنسوخها ، عارفاً بأقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم فى الأحكام ، ومسائل الحلال والحرام ، خبيراً بأيام الناس وأخبارهم . وله الكتاب المشهور فى تاريخ الأمم والملوك ، والكتاب الذى فى التفسير لم يصنف مثله ، وله فى أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة وأخبار من أقاويل الفقهاء ، وتفرد بمسائل حفظت عنه . . . وقال ابن خزيمة حين طالع كتاب التفسير للطبرى : ما أعلم على أديم الأرض أعلم من أبى جعفر ، ولقد ظلمته الحنابلة . وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد الفرغانى بعد أن ذكر تصانيفه : وكان أبو جعفر ممن لا يأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يعدل فى علمه وتبيانه عن حق يلزمه لربه وللمسلمين إلى باطل ، لرغبة ولا رهبة، مع عظيم ما كان يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد . وأما أهل الدين والورع فغير منكرين علمه وفضله وزهده ، وتركه الدنيا مع إقبالها عليه ، وقناعته بما كان يرد عليه من قرية خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة » .

أما النوع الثانى من التفسير ، وهو التفسير بالرأى، الذى يخالف التفسير بالمأثور باعتماده على العقل أكثر من اعتماده على النقل ، فقد شغف به المعتزلة والباطنية بنوع خاص . فان المعتزلة لما كانوا يؤمنون بمبدأ التنزيه ، أو بالأحرى بمبدأ نفى الصفات عن الله سبحانه وتعالى، أخذوا يفسرون القرآن وفق مبادئهم ، مخالفين فى ذلك تفاسير مدرسة التفسير بالمأثور . لذلك نرى مفسرى المعتزلة يلجئون إلى التأويل إذا اعترضهم من الآيات القرآنية ما يخالف مبدأ نفى الصفات عندهم . وقد عالج المعتزلة رؤية الله يوم القيامة بطريقة تخالف ما قام به المفسرون بالمأثور . من ذلك تفسيرهم قوله تعالى فى سورة القيامة (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) (٢) أن رؤية الله إنما تكون على المجاز لا على الحقيقة؛

---

(١) ج ٨ ص ٤٥ — ٤٦
(٢) آية ٢١ — ٢٢

على حين يقول المفسرون بالمأثور إن الصالحين يرون ربهم عيانا ، مستدلين بقوله تعالى فى سورة الأنعام [١] (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) ، قائلين إن الأبصار لاتدركه فى الدنيا بدليل قوله تعالى على لسان موسى (رب أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى) [٢] . وإذا كانت رؤية الله فى الدنيا مستحيلة فهى فى الآخرة أحرى . « وإنه عن الخطأ فى الفرض أن نظن أن المعتزلة فى تفسيرهم القرآن قد فعلوا ذلك من أجل قصدهم الخروج على الحديث ، أو من أجل النقد الحر فى فهم القرآن . . . ولا يسعنا أن ننكر هذه الحقيقة : وهى أنهم لم يظهروا عن تفكير حر ، بل ظهروا عن تقوى وصلاح » [٣] .

ومن أشهر مفسرى المعتزلة أبو بكر الأصم المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، وأبو مسلم محمد بن بحر الأصفهانى المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، ويقع تفسيره فى أربعة عشر مجلداً ، وابن جرو الأسدى المتوفى سنة ٣٨٧هـ ؛ وقد قيل إنه كتب فى تفسير البسملة نحو ١٢٠ وجهاً ، وأبو يونس عبد السلام القزوينى المتوفى سنة ٤٨٣ هـ ، وقد فسر القرآن تفسيراً مطولا ، حتى إن تفسير الفاتحة وحدها شغل سبعة مجلدات . ويرجع السبب فى عدم ذيوعها بين الناس إلى ضخامتها وما بها من عقائد تخالف عقائد السنيين أحيانا . ومن هؤلاء أيضاً الشريف العلوى المعروف بعلم الهدى المرتضى أبى القاسم على بن الطاهر المتوفى سنة ٤٣٦هـ. وكانت له أمالى فى الشعر والأدب ، شرحها شرحاً لغوياً دقيقاً ، كما فسر الآيات القرآنية التى وردت فى هذه الأمالى تفسيراً يتمشى مع تفسير المعتزلة ، واقتبس كثيراً من تفاسير أئمة المعتزلة كالجبائى وغيره [٤] .

وكذلك اتخذ الباطنية التفسير وسيلة لنشر مبادئهم ولجئوا إلى التأويل غير المشروع ، أى الذى لا يوافق العقائد الإسلامية ، فتراهم يفسرون قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) [٥] بأن قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم) أى اسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطنى ، ومن قوله (يرسل السماء عليكم مدراراً) بأن السماء هى الإمام ، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم ، ومعنى (يمددكم بأموال وبنين) أن الأموال هى العلم والبنين هم المستجيبون ، ومعنى (يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) أن الجنات هى الدعوة السرية أو الباطنية والأنهار هى العلم الباطنى [٦] . وكذلك فسر الباطنية قوله تعالى فى سورة الحشر (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين) [٧] ، أن الشيطان هو عمر بن الخطاب، والإنسان هو أبو بكر الصديق. ومعنى اكفر لا تؤمن بإمامة على بن أبى طالب. وتفسيرهم قوله تعالى (الشمس والقمر بحسبان) [٨]

---

(١) آية ١٠١ (٢) سورة الأعراف آية ١٤٣

(٣) جولدتسيهر : المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن ص ١١٠ — ١١١

(٤) المصدر نفسه ص ١١٣ — ١١٥ (٥) سورة نوح آية ١٠ — ١٢

(٦) Guyard : Frâgments rèlatifs à la Doctrine des Ismaèlis (Paris, 1874), p. 209.

(٧) آية ١٦ (٨) سورة الرحمن آية ٥

أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين ، وأن إبليس وآدم المشهوران فى القرآن هما أبو بكر وعلى، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلى والطاعة له فأبى واستكبر (١) .

ظل القرآن منبع كثير من العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى هذا العصر ، فاستعان به علماء النحو على استنباط قواعد اللغة العربية ، كما اعتمد الفقهاء فى أحكامهم الفقهية على القرآن وألفوا كتباً كثيرة أسموها « أحكام القرآن » ، واستعانت الفرق الإسلامية بكتاب الله واتخذوه أساساً للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه .

٢ ـ الحديث :

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن الحديث من أهم مصادر التشريع الإسلامى، وأنه يأتى فى الأهمية بعد القرآن الكريم . وقد ظهر فى القرن الثانى للهجرة طائفة من أئمة الحديث من أشهرهم فى المدينة الإمام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وفى البصرة حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٧٦ هـ ، وفى الكوفة سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١ هـ ، وفى الشام الأوزاعى المتوفى سنة ١٥٦ هـ ، وفى مصر الليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ هـ ، وفى خراسان ابن المبارك المتوفى سنة ١٨١ هـ . واشتهر فى العصر العباسى الثانى من كبار أئمة الحديث الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ ، وقد خالف القائلين بخلق القرآن وناله من جراء ذلك كثير من العنت والاضطهاد . ويقول ابن خلكان (٢) : « ودعى إلى القول بخلق القرآن فلم يجب، فضرب وحبس ، وهو مصر على الامتناع . وكان ضربه فى العشر الأخير من شهر رمضان سنة عشرين ومائتين » . وقد ترك كتابه « المسند » الذى يشتمل على ٤٠,٠٠٠ حديث ، منها عشرة آلاف مكررة ، وجمع الأحاديث التى تمدح العلويين والأمويين ولم يخش فى ذلك بأس العباسيين . ويتفق مذهبه مع مذهب الإمام مالك بن أنس من حيث اعتماده على الحديث ، حتى اعتبره البعض محدثاً أكثر منه إماماً مشرعاً .

وقد أخذ عن ابن حنبل جماعة من فقهاء المسلمين من أمثال محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ . وفى أيامه أخذت أساليب جمع الحديث وترتيبه تأخذ مكانتها فى الدقة وشدة التحرى . وكان البخارى محدثاً ، وقد تفوق على من سبقه من المحدثين فى جمع الأحاديث ، فلم يكتف بجمع أحاديث البلاد التى نشأ فيها ، بل تنقل فى البلاد لجمع الحديث، حتى إن رحلاته استغرقت ستة عشر سنة . كما امتاز بقدرته النادرة فى التمييز بين الأحاديث الصحيحة الضعيفة (٣)، وساعده على ذلك قوة حافظته ومعرفته بأقدار الرجال . ويعد كتابه الجامع الصحيح والمصدر الأول للأحاديث الصحيحة . وقد جمع البخارى ٧٢٧٥ حديثاً فيها عدد من الأحاديث المكررة . فاذا حذفنا هذه الأحاديث المكررة منها وغير الموصولة السند ، أصبح عددها أقل من ثلاثة آلاف حديث ، اختارها البخارى ، على ما قيل ، من

(١) الغزالى : فضائح الباطنية (نشره جولد تسيهر — ليدن سنة) ص ١٣

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧

(٣) الحديث الصحيح هو الحديث المسند أى الذى يتصل إسناده من الراوى الى الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ ويشترط فى رواته العدل والضبط . أما الحديث الضعيف فهو الذى لا تتوافر فيه هذه الشروط .

ثلثمائة ألف حديث ، أى بنسبة ١ - ٢ ٪ . وهذا منتهى الدقة العلمية فى الاختيار والنقد لما جمع من الأحاديث الكثيرة فى رحلاته الطويلة . ويقول ابن خلدون (١) : « وجاء محمد بن إسماعيل البخارى إمام المحدثين فى عصره ، فخرّج أحاديث السنة على أبوابها فى مسنده الصحيح ، بجميع الطرق التى للحجازيين والعراقيين والشاميين ، واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه ، وكرر الأحاديث يسوقها فى كل باب ، بمعنى ذلك الباب الذى تضمنه الحديث ، فتكررت لذلك أحاديثه ، حتى يقال إنه اشتمل على تسعة آلاف حديث ومائتين ، منها ثلاثة آلاف متكررة (٢) ، وفرّق الطرق والأسانيد عليها مختلفة فى كل باب » (٣) .

وقد صنف البخارى صحيحه فى ٩٧ كتابا ، كل منها يحوى طائفة من الأحاديث تدور حول معنى واحد أو معان متقاربة مرتبط بعضها ببعض ، ككتاب الوضوء ، وكتاب الصلاة ، وكتاب بدء الوحى . ووضع له منهجاً وقواعد عرفت « بشروط البخارى » ، كانت نبراساً استضاء به من أتى بعده من علماء الحديث .

ثم جاء بعده تلميذه مسلم بن الحجاج القشيرى المتوفى سنة ٢٦١ هـ ، وكان من أهل نيسابور . وامتاز ، كالبخارى ، بكثرة رحلاته فى طلب الحديث ، فرحل إلى العراق والشام ومصر والحجاز ، وتكررت رحلاته إلى بغداد خاصة ، وأفاد من البخارى فى أثناء إقامته فى نيسابور مدة . وعرف مصنف مسلم بصحيح مسلم أو المسند الصحيح ، الذى يقول ابن خلدون (٤) إنه « حذا فيه حذو البخارى فى نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها ، وجمع الطرق والأسانيد ، وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه . ومع ذلك فلم يستوعبا (أى البخارى ومسلم) الصحيح كله . وقد استدرك الناس عليهما فى ذلك »

وقد وازن الدكتور على حسن عبد القادر (٥) بين صحيحى البخارى ومسلم بقوله : « وإذا ماقارناه (يعنى صحيح مسلم) بالبخارى (أى بصحيح البخارى) بالنسبة لمحتوياته فى مجموعها ، فإننا نرى بينهما اختلافا شكلياً . فهو مصنف كالبخارى (٦) ، وقد نظم حسب الأبواب مثله ، ولكن الأبواب عند مسلم لم يعنون لها . وقد كان غرضه كزميله أن يستخدم كتابه فى الفقه ، ولكنه ترك للقارىء أن يستنتج وحده ما يراه حقاً فيما يظهر له . وأمر آخر شكلى جاء عند العلماء المتأخرين : فكلاهما

---

(١) مقدمة ص ٣٨٦

(٢) مثال ذلك حديث : بنى الاسلام على خمس . . . الخ . فانه يذكر فى باب الايمان والاسلام ، ويذكر فى كتاب الصلاة ، وفى كتاب الزكاة ، وفى كتاب الصيام ، وفى كتاب الحج ، باعتبار أنه أصل لفرض هذه الفروض على المسلمين

(٣) بمعنى أنه يذكر الحديث فى كل باب بسند مخصوص عن الصحابى الذى رواه ، كأن يسنده إلى أبى هريرة أو إلى ابن عمر ، أو إلى عبد الله بن العاص . ولكل من هؤلاء الرواة سند ورجال مخصوصون .

(٤) مقدمة ص ٣٨٧ (٥) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٦) أى على صنوف وأبواب .

كان يروى الحديث بطرق مختلفة زيادة فى الإثبات ؛ ولكن البخارى كان يرويها فى أبواب مختلفة بسبب استعمال الحديث لهذه الأبواب . أما مسلم فكان يروى ذلك كله معا . ومن هنا نستطيع أن نستنتج أن مسلماً لم يكن يجعل نصب عينيه ، وفى الدرجة الأولى ، الحياة العملية واستعمالاتها (١) بل الحديث الخالص فقط »

وقد صنف بعض أئمة الحديث كتباً أخرى تعد فى المرتبة الأولى من بين كتب الحديث ، أطلق عليها اسم الصحاح . وهؤلاء المحدثون هم : أبو داود السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ صاحب السنن ، وأبو عيسى محمد بن عيسى السلمى الترمذى المتوفى سنة ٢٧٨ هـ صاحب الجامع ، وأبو عبدالله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ صاحبا السنن . ويقول ابن خلدن (٢) : « ثم كتب أبو داود السجستانى ، وأبو عيسى الترمذى ، وأبو عبد الرحمن النسائى فى السنن بأوسع من الصحيح ، وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل ، إما الرتبة العالية فى الأسانيد وهو الصحيح كما هو المعروف ، وإما من الذى دونه من الحسن وغيره ، ليكون ذلك إماماً للسنة والعمل . وهذه هى الأسانيد المشهورة فى الملة ، وهى أمهات كتب الحديث فى السنة ؛ فإنها وإن تعددت ترجع إلى هذه فى الأغلب ، ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هى علم الحديث » (٣)

٣ ـ الفقـه :

رأينا أن العصر العباسى الأول كان عصر أئمة مذاهب السنة الأربعة ، وهى مذهب أبى حنيفة ، ومذهب مالك ، ومذهب الشافعى ، ومذهب ابن حنبل . وقد ظهر فى العصر العباسى الثانى بعض أعلام الفقهاء الذين كونوا لهم مذاهب فى الفقه ، ولكنها لم يقدر لها الاستقرار والذيوع أمام هذه المذاهب الأربعة . ومن هؤلاء الفقهاء أبو سليمان داود بن على بن خلف القاشانى ، الذى ينسب إلى قاشان القريبة من أصبهان والمتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ هـ

كان أبو سليمان داود شافعى المذهب ؛ أخذ فقه الشافعى عن بعض تلاميذه ، وله طريقة خاصة تتلخص بالأخذ بظاهر نص القرآن ، وعدم قبول القياس والتأويل . وفى ذلك يقول ابن النديم (٤) :

---

(١) يريد بالحياة العملية حاجة الفقيه إلى الحديث فى باب من أبواب الفقه أو العلم ، كما فعل البخارى فى توزيع أحاديثه على الأبواب والكتب .

(٢) مقدمة ص ٣٨٧ .

(٣) هذه الدراسات الاسلامية تشبه إلى حد كبير قواعد علم التاريخ وفلسفته ونقده التى ظهرت حديثا بعد ابن خلدون فى الشرق على يد علماء فلسفة التاريخ ونقاده فى أوربا . وكانت هذه الدراسات الاسلامية الحديثة أساسا للدراسات العربية فى الادب واللغة وغيرها من علوم الرواية . فأول من فتح هذه الميادين هم علماء الحديث ولاريب ، ومنها دخل الباحثون فى علوم الرواية على اختلاف أنواعها فى المشرق والمغرب .

(٤) كتاب الفهرست ص ٣٠٣ .

« هو أول من استعمل قول الظاهر ، وأخذ بالكتاب والسنة ، وألغى ما سوى ذلك من الرأى والقياس » . ومن ثم سمى أبو سليمان داود الظاهرى ، ويعرف أتباعه بالظاهرية أى الذين أنكروا القياس وأبطلوا العمل به . ويقول فيهم ابن خلدون (١) : « والظاهرية جعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص والإجماع ، وردوا القياس الجلى والعلة المنصوصة إلى النص ، لأن النص على العلة نص على الحكم فى جميع محالها » . وبذلك خرج أبو سليمان داود على الأصول والقواعد الفقهية عند الشافعية أنفسهم ، فتصدى للرد عليه أبو العباس بن سريج المتوفى سنة ٣٠٥ هـ فى كتاب أسماه « الرد على المخالفين من أهل الرأى وأهل الظاهر » . وله مؤلفات كثيرة ذكرها ابن النديم (٢) تدلنا على سعة اطلاعه . وكان ابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ من أتباع المذهب الظاهرى ، ولذلك سمى ابن حزم الظاهرى .

ومن ائمة المذاهب أحمد بن حنبل (١٦٤ — ٢٤١ هـ) الذى تلمذ للامام الشافعى مدة سنتين (١٩٥ — ١٩٧ هـ) ، واعتبر كثير من الشافعية أنه واحد منهم . وقال فيه الامام الشافعى حينما خرج من بغداد الى مصر : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » (٣) . وقد لقى ابن حنبل كثيرا من ألوان الشدة والعنت فى عهد المأمون والمعتصم لعدم اتفاقه مع المعتزلة فى القول بخلق القرآن ، فامتحن فى هذه المسألة ، وسجن وعذب ، وبقى كذلك إلى عهد المتوكل الذى ترك القول بخلق القرآن ، وأطلق سراح ابن حنبل الذى توفى ببغداد .

وكان ابن حنبل - كما رأينا - من كبار المحدثين . ولم يختلف العلماء فى كونه محدثا ، وإنما اختلفوا فى كونه فقيها ، حتى إن ابن جرير الطبرى أثار حنق الحنابلة عليه لعدم اعتباره إياه من أئمة الفقه . وفى الحق أن مذهبه فى الفقه مبنى على الحديث ، إلا أنه ينبغى ألا نعتبر مسنده فى الحديث « كأنه مؤلف قائم بذاته فحسب ، بل نعتبره أيضا مؤلفا يضع الإمام أحمد فيه الأساس لمذهبه الفقهى » (٤) ، أى أنه كتاب يجمع بين الحديث والفقه ، كموطأ مالك بن أنس . وقد عرف عن ابن حنبل أنه كان يفضل الأحاديث الضعيفة على القياس الذى لا يجيزه إلا عند الضرورة أى عند فقد الحديث . ويختلف عن غيره من أئمة الفقه ، كأبى حنيفة والشافعى ، فى أنه لم يدون فى الفقه كتابا مفصلا ، بل روى عنه عدة مسائل فى الفقه كانت عبارة عن إجابات لأسئلة وجهت إليه . أما ترتيب مذهبه الفقهى وتدوينه وتبويبه ، فذلك من عمل تلاميذه وأتباعه . ويقول ابن خلدون (٥) : « فأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل ، لبعد مذهبه عن الاجتهاد ، وأصالته فى معاضدة الرواية (٦) وللأخبار (٧) بعضها

---

(١) مقدمة ص ٣٩٠ .
(٢) كتاب الفهرست ص ٣٠٣ — ٣٠٥
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧ .
(٤) على حسن عبد القادر : نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى ص ٢٧٥ .
(٥) مقدمة ص ٣٩٢ .
(٦) أى تعمقه فى الاعتداد بالرواية وتقديمها على الرأى .
(٧) أى وفى معاضدة الأخبار أى الأحاديث بعضها ببعض .

ببعض . وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها. وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث» .

ومن أشهر الحنابلة فى هذا العصر أبو القاسم الخرقى المتوفى سنة ٣٣٤هـ. وقد صنف كتاب المختصر فى الفقه ، وعبد العزيز بن جعفر المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، صاحب كتاب المقنّع .

ومن أصحاب المذاهب الفقهية من المجتهدين أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ — ٣١٠ هـ) ، وكان من أهل طبرستان . وقد درس فقه الشافعية ، ولذلك لم يختلف مذهبه المعروف بالمذهب الجريرى عن مذهب الإمام الشافعى . وقال فيه ابن خلكان (١) : « كان من الأئمة المجتهدين ، لم يقلد أحداً .. وكان ثقة فى نقله ... وذكره الشيخ أبو إسحق الشيرازى فى طبقات الفقهاء فى جملة المجتهدين ، ورأيت فى بعض المجاميع هذه الأبيات منسوبة اليه وهى :

إذا أعسرتُ لم يعلم شقيقى ... وأستغنى فيستغنى صديقى
حيائى حافظ لى ماء وجهى ... ورفقى فى مطالبتى رفيقى
ولو أنى سمحت ببذل وجهى ... لكنت إلى الغنى سهل الطريق

وكان الطبرى واسع الاطلاع كثير التأليف ، ومن كتبه كتاب الأمم والملوك فى التاريخ ، وكتابه فى التفسير ، وكتاب اختلاف الفقهاء (٢) ، وكتاب تبصير أولى النهى ومعالم الهدى الذى لايزال مخطوطا ، وكتاب شرح السنة ، وكتاب بشارات المصطفى (٣) ، وكتاب الرد على الحرقوسية أى الحنابلة لأن أحمد بن حنبل من بنى حرقوس (٤) .

وهناك مذاهب أخرى انقرضت ، كمذهب سفيان الثورى (٥) المتوفى سنة ١٦١ هـ . وقد أخذ الأوزاعى إمام أهل الشام (٦) ، ومذهب إسحق بن راهوية المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، حتى إننا نرى من المذاهب الشائعة فى القرن الثالث مذهب الشافعية والمالكية والثورية نسبة إلى سفيان الثورى ، والحنفية والداودية . وفى القرن الرابع نرى من المذاهب السائدة مذهب الحنفية والمالكية والداودية ، كما نرى مذاهب أخرى أقل انتشاراً كمذهب الحنابلة ، والراهوية والأوزاعية . إلا أنه على مر الزمن أصبحت السيادة للمذاهب الأربعة ، وهى الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى ، ووقف الاجتهاد عند هؤلاء الأربعة . ويقول ابن خلدون (٧) : « ووقف التقليد فى الأمصار عند هؤلاء الأربعة ، ودرس المقلدون لمن سواهم (٨) ، وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر من (٩)

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٦ .

(٢) نشر الدكتور يوسف شخت بعض أجزاء الكتاب تحت عنوان : « كتاب الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ليدن ١٩٣٣)

(٣) من ١٧ جزءا بعضها فى النجف والبعض الآخر فى طهران .

(٤) على حسن عبد القادر : نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٠ (٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٧٥ .

(٧) مقدمة ص ٣٩١ — ٣٩٢ (٨) أى لم يبق منهم أحد

(٩) سقطت هذه الكلمة من النسخ المطبوعة ، وهى موجودة بالنسخة المخطوطة رقم ١٥ بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية .

تشعب الاصطلاحات فى العلوم ، ولماعاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ، ولما خشى من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه ، فصرحوا بالعجز والإعواز ، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من (١) اختص به من المقلدين ، وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ،ولم يبق إلا نقل مذاهبهم ، وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية . لا محصول اليوم للفقه غير هذا ، ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه ، مهجور تقليده . وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة » .

٤ — علم الكلام

ذكر فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (٢) أن علم الكلام يقصد به الأقوال التى كانت تصاغ على نمط منطقى أو جدلى ، وعلى الأخص فى العقائد ، وأن المشتغلين بهذا العلم يسمون « المتكلمين » ؛ كما ذكرنا أن هذا اللفظ كان يطلق أول الأمر على من يشتغلون بالعقائد الدينية ، غير أنه أصبح يطلق على من يخالفون المعتزلة ويتبعون مذهب أهل السنة والجماعة . ويقول دى بور (٣) : « على أن ظهور الكلام فى الإسلام كان بدعة من أكبر البدع ؛ وقد شدد فى النكير على هذا العلم أهل الحديث الذين كانوا يرون أن ما جاوز البحث فى الأحكام الفقهية العلمية ابتداع ، لأن الايمان عندهم هو الطاعة ، لا كما يذهب إليه المرجئة والمعتزلة من أنه هو العلم . بل إن هؤلاء الأخيرين كانوا يعتبرون النظر العقلى من الواجبات المفروضة على المسلمين . وقد صادف هذا الرأى قبولا فى هذا العهد ، وفى الحديث أن النبى قال : أول ما خلق الله تعالى العلم ، أو العقل » .

ويقول ابن خلدون (٤) إن علم الكلام سمى بذلك « لما فيه من المناظرة على البدع ، وهى كلام صرف ، وليست براجعة إلى عمل ، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم فى إثبات الكلام النفسى » .

إلا أن بعض أهل الحديث كانوا يعيبون على المتكلمين ردهم على أهل البدع ، بحجة أن فى هذا الرد ترويجاً لعقائد هؤلاء المبتدعين ، وذلك لانهم — كما يقول الغزالى (٥) — «اعتمدوا على مقدمات تسلم (٦) من خصومهم ، واضطرهم إلى تسليمها ، إما التقليد أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار . وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم . وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا » .

---

(١) كذا فى نسخة المقدمة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب رقم ١٥ بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، وسقطت الواو من جميع النسخ المطبوعة .

(٢) ص ٢٤٨ — ٢٤٩ (٣) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة أبى ريدة ، ص ٥١ .

(٤) مقدمة ص ٤٠٦ .

(٥) المنقذ من الضلال ص ٧٩ — ٨٠

(٦) يعنى يعتقد صحتها .

على أننا نرى أن المتكلمين ، باستخدامهم أسلحة خصومهم ، قد نجحوا فى الرد عليهم، كما نجحوا فى دعم علم الكلام وتقويته . ويقول «نيبرج» فى مقدمة كتاب الانتصار والردعلى ابن الراوندى(١): « لحلت المعتزلة (وهم من المتكلمين) من تاريخ الإسلام محل المدافعين عن حوزة المسيحية فى أول أمرها من تاريخ المسيحية . فكما أنه لا ريب فى أن أولئك المدافعين هم الذين أسسوا علم اللاهوت ، بمناظراتهم فلاسفة الوثنيين واختلاسهم أسلحتهم من أيديهم عند ذلك ، كذلك أوجدت المعتزلة كلام الإسلام وأسسته » .

وكان للمعتزلة أثر كبير فى تطور علم الكلام ، فقد تم على أيديهم القول بخلق القرآن ، ونادوا بنفى الصفات ، مخالفين ذلك جمهور أهل السنة . واستمر الصراع والجدل بين طائفتى المعتزلة وأهل السنة والجماعة ، حتى ظهر أبو الحسن الأشعرى ، فتوسط بين الفريقين . وفى ذلك يقول ابن خلدون (٢) : « ثم لما كثرت العلوم والصنائع ، وولع الناس بالتدوين والبحث فى سائر الأنحاء ، وألف المتكلمون فى التنزيه ، حدثت بدعة المعتزلة فى تعميم هذا التنزيه فى أى السلوب(٣) » فقضوا بنفى صفات المعانى من العلم والقدرة والإرادة والحياة زائدة على أحكامها ، لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم ، وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها . وقضوا بنفى السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام ، وهو مردود لعدم اشتراط البنية فى مدلول هذا اللفظ . وإنما هو إدراك المسموع أوالمبصر . وقضوا بنفى الكلام لشبه ما فى السمع والبصر ، ولم يعقلوا صفة الكلام التى تقوم بالنفس ، فقضوا بأن القرآن مخلوق ، بدعة ، صرح السلف بخلافها ، وعظم ضرر هذه البدعة ، ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم (٤) ،فحمل الناس عليها ، وخالفهم أئمة السلف ، فاستحل لخلافهم أبشار (٥) كثير منهم ودماؤهم . وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد ، دفعا فى صدور هذه البدع . وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعرى إمام المتكلمين،فتوسط بين الطرق ، ونفى التشبيه ، وأثبت الصفات المعنوية ، وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف ، وشهدت له الأدلة المخصِّصة لعمومه ، فأثبت الصفات الأربع المعنوية ، والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ، ورد على المبتدعة فى ذلك كله ، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح ، وكمَّل للعقائد فى البعثة ، وأحوال الجنة والنار ، والثواب والعقاب، وألحق بذلك الكلام فى الإمامة ، لما ظهر حينئذ من بدعة الامامية من قولهم إنها من عقائد الايمان ، وأنه يجب على النبى تعيينها والخروج عن العهدة (٦) فى ذلك لمن هى له ،

---

(١) ص ٥٨ — ٥٩ .
انظر كتاب تاريخ الاسلام السياسى للمؤلف ج ٣ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .
(٢) مقدمة ص ٤٠٥ — ٤٠٦ .
(٣) أى فى أنواع النفى والسلب بتنزيه الله عن كل مالا يليق به من الصفات .
(٤) أخذها المأمون والمعتصم عن أحمد بن أبى دواد وبشر المريسى وغيرهما من متقدمى المعتزلة .
(٥) جمع بشر وهو الجلد ، يعنى استحل قتلهم وجلدهم . (٦) أى تبرئه الذمة ببيان من تكون له الخلافة .

وكذلك على الأمة (١) . وقصارى أمر الامامة أنها قضية مصلحية إجماعية ، ولا تلحق بالعقائد ؛ فلذلك ألحقوهما بمسائل هذا الفن ... وكثر أتباع الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، واقتفى طريقته من بعده تلاميذه ، كابن مجاهد (٢) وغيره ، وأخذ عنهم القاضى أبو بكر الباقلانى (٣) ، فتصدر للإمامة فى طريقتهم ، وهذبها ، ووضع المقدمات العقلية التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار ... وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الايمانية فى وجوب اعتقادها ، لتوقف تلك الأدلة عليها ، وإن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول . وجملت هذه الطريقة ، وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية . إلا أن صور الأدلة تعتبر بها الأقيسة (٤) ، ولم تكن حينئذ ظاهرة فى الملة ، ولو ظهر منها بعض الشىء فلم يأخذ به المتكلمون ، لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية بالجملة ، فكانت مهجورة عندهم لذلك » .

ومن أشهر متكلمى المعتزلة أبو الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥ هـ . وقد اشتهر بالجدل ، وأصبح على رأس المعتزلة فى أيامه ، وعرف أتباعه بالهذيلية . وقال أحمد بن يحيى بن المرتضى (٥) المتوفى سنة ٣٢٥ هـ ، وكان من أئمة الزيدية الذين يميلون إلى مذهب المعتزلة : « ما رأيت أفصح من أبى الهذيل والجاحظ . وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة ؛ شهدته فى مجلس وقد استشهد فى كلامه بثلثمائة بيت . وكان أبو الهذيل «حسن الجدال قوى الحجة ، كثير الاستعمال للدلالة والالزامات (٦) . ولأبى الهذيل كتاب يعرف بميلاس . وكان ميلاس رجلا مجوسياً فأسلم . وكان سبب إسلامه أنه جمع بين أبى الهذيل المذكور وجماعة من الثنوية ، فقطعهم (٧) أبو الهذيل ، فأسلم ميلاس عند ذلك » (٨) . وقد بلغ من قوة جدله الذى شغل كل حياته ، وخاصة مع الزنادقة والمجوس والثنوية ،

---

(١) يريد أنه من الواجب على الأمة تعيين الامام أو الخليفة إن لم يعينه سلفه .

(٢) هو ابو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد ، الطائى البصرى ثم البغدادى ، أحد شيوخ المالكية ، وصاحب أبى الحسن الاشعرى ، وناصر مذهب أهل السنة . غلب عليه علما الأصول والكلام ، وكان حسن الدين جميل الطريقة ، وعنه أخذ القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المالكى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ علم الكلام ، وهو الذى راوده الباقلانى على الخروج الى شيراز لمناظرة المعتزلة بحضرة فناخسرو ، كما أفاده المقرى فى أزهار الرياض .

وهو غير أبى بكر بن مجاهد شيخ القراء ، لأن هذا متقدم الوفاة ، وليس معاصرا للباقلانى (راجع ابن مجاهد المتكلم على طريقة الأشعرى فى تاريخ بغداد للخطيب ، الترجمة ٢٦١ ، وفى الديباج المذهب فى علماء المذهب لابن فرحون اليعمرى المالكى (انظر هامش المقرى : أزهار الرياض فى أخبار عياض ج ٣ ص ٨٥ ، ٨٦ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، باشراف الأستاذ مصطفى السقا وآخرين) .

(٣) ذكر ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨١) أنه كان على مذهب الأشعرى ، وأنه صنف كتبا كثيرة فى علم الكلام ، وكان « أوحد زمانه ، وانتهت اليه الرياسة فى مذهبه . . . وكان كثير التطويل فى المناظرة مشهورا بذلك عند الجماعة » . وتوفى فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٣ هـ .

(٤) يريد أن الأدلة تتوقف صحتها ونقدها على الأقيسة المنطقية ، ولم تكن هذه الصناعة المنطقية فاشية فى أهل الملة الاسلامية لذلك العهد ، وما وجد منها كان مجفوا من علماء الدين لاتصاله بعلوم الفلسفة .

(٥) كتاب المنية والأمل ص ٢٦ .

(٦) يريد أنه يكثر من الاستنباط واستعمال القياس الذى يؤدى إلى نتائج ملزمة للخصم .

(٧) أى أبطل حججهم وأسكتهم .

(٨) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٨٠

أن أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل .وهو — كما يقول دى بور[١] — أول المفكرين الذين فسحوا للفلسفة المجال لتؤثر فى مذاهبهم الكلامية » .

ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن سيار ، المعروف بالنظام والمتوفى سنة ٢٣١ هـ ، من تلاميذ أبى الهذيل العلاف ، وأستاذ أبى عمرو بن بحر الجاحظ ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، والذى تنسب إليه فرقة الجاحظية من المعتزلة [٢] . وقد نسب إليه فى علم الكلام كتب منها : الاعتزال وفضله على الفضيلة ، والاستطاعة وخلق الأفعال ، وخلق القرآن ، وفضيلة المعتزلة . وقد رمى الجاحظ من تأليفه إلى الثناء على المعتزلة من ناحية ، والرد على مخالفيهم ، وخاصة الرافضة، والطعن فيهم من ناحية أخرى . ويظهر أن هذا الكتاب أثار حنق الرافضة ، فردوا عليه ردوداً عنيفة . ويعتبر كتاب فضيحة المعتزلة لأحمد بن يحيى الراوندى ، وكان معتزلياً ثم أصبح رافضياً ، خير مثل لهذا . كما يعد كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى متمما لكتاب فضيلة المعتزلة للجاحظ [٣] . كما تناول فى كتابه البخلاء أخباراً تتصل بالمتكلمين والمعتزلة ، وأخذ فى كتابه الحيوان كثيراً من آراء أرسطاطاليس فى كتابه الحيوان [٤] .

وقد أثرت الفلسفة اليونانية فى ثقافة الجاحظ ، حتى عد من كبار أحرار الرأى . وعارضه السنيون فى كثير من آرائه . ومما يرمى به قوله: « إن الله لا يدخل النار أحداً ، وإنما النار تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها ، ثم تمسكهم فى نفسها على الخلود » . وقد رد عليه السنيون بقولهم إنه لو كان هذا الرأى صحيحاً لألزم الجاحظ « أن يقول فى الجنة إنها تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها ، وإن الله لا يدخل أحدا الجنة .فان ذل بذلك قطع الرغبة إلى الله فى الثواب وأبطل فائدة الدعاء ، وإن قال إن الله تعالى هو يدخل أهل الجنة الجنة ،لزمه القول بأن يدخل النار أهلها »[٥] .

ومن كبار متكلمى المعتزلة أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط الذى تنسب اليه طائفة الخياطية . وقد عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ومات فى أوائل القرن الرابع . واشتهر برده على ابن الراوندى فى كتاب أسماه «الانتصار والرد على ابن الروندى الملحد » [٦] . وقال نيبرج فى مقدمة هذا الكتاب [٧] عن الخياط إنه كان « فى غاية الشهرة ، بعلمه باختلاف المتكلمين ومذاهبهم وآرائهم وتراجمهم . ويشهد بشهرته بذلك كثرة ذكره فى كتاب ابن المرتضى ، ومروج الذهب للمسعودى ، وغيرهما من الكتب عند الرواية عن المعتزلة أو الحكاية عن رجالها ، ويشهد بواسع علمه كتاب الانتصار من أوله إلى آخره ، فإنه يفيدنا علما مفصلا بدقائق

(١) تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٥٧ (٢) انظر هذا الكتاب ج ٢ ص ٢٥٠ .
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ .
(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٦٢ .
(٤) نيبرج : الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ، مقدمة ص ٢٣ — ٢٤ .
(٥) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٦١ .
(٦) نشرة نيبرج (القاهرة سنة ١٩١٤) (٧) ص ١٩ — ٢٠ .

كلام المعتزلة وجلائله ، ويشتمل على أخبار عن المتقدمين منها وآرائهم ومناقشاتهم لا نجد مثلها فى كتاب آخر مما انتهى إلينا . ولقد اقتبس من قبس الخياط المتأخرون الموافق منهم والمخالف ؛ فقد ألف مثلا تلميذه أبو القاسم الكعبي البلخى كتابا فى رجال المعتزلة ومقالاتها استفاد ابن المرتضى منه فى كل صفحة من كتابه ، ولو استنتجنا أن التلميذ نقل قصص أستاذه لما أخطأنا . واقتبس من الخياط أيضا البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق » .

ومن أشهر متكلمى هذا العصر أبو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى المعتزلى المتوفى سنة ٣٠٣هـ[١] ، وتنسب إليه فرقة الجبائية . وكانت له مواقف رائعة مع أبى الحسن الأشعرى (٢٦٠ — ٣٢٢هـ) ، فقد قال الجبائى يوماً للأشعرى : « ما معنى الطاعة عندك ؟ فقال موافقة الأمر ، وسأله عن قوله فيها فقال الجبائى : حقيقة الطاعة عندى موافقة الإرادة ، وكل من فعل مراد غيره فقد أطاعه ، فقال شيخنا أبو الحسن رحمه الله : يلزمك على هذا الأصل أن يكون الله تعالى مطيعاً لعبده إذا فعل مراده فألزم ذلك ، فقال له شيخنا رحمه الله : خالفت إجماع المسلمين وكفرت برب العالمين[٢] » .

ولما مات الجبائى خلفه ابنه أبو هاشم فى زعامة الجبائية ، وعرفوا باسم البهشمية نسبة إليه . وكان تأثير أبى هاشم هذا بين المعتزلة عظيما ، حتى إن مبادئه استمرت إلى القرن الخامس الهجرى ، كما يتضح من عبارة البغدادى[٣] المتوفى سنة ٤٢٩ هـ : « وأكثر معتزلة عصرنا على مذهبه » .

٥ — علم اللغة :

تطور علم اللغة فى العصر العباسى الثانى تطورا ملحوظا بارتقاء النحو وتنظيم المعاجم . فقد رأينا كيف وضع أبو الأسود الدؤلى أساس علم النحو فى البصرة التى تعتبر مدرستها أقدم من مدرسة الكوفة بنحو مائة سنة ، وكيف نبغ فى هاتين المدرستين كثير من العلماء المبرزين : كأبى عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد الذى وضع علم العروض ، ووضع أول معجم عربى مرتب على الحروف الهجائية وهو « كتاب العين » ، وسيبويه صاحب الكتاب فى النحو الذى يجمع القواعد التى انتهت إليها مدرسة البصرة منذ عهد أبى الأسود الدؤلى ، إلى أن جاء الخليل بن أحمد ، فنظمها وشرحها وعللها وأملاها على تلاميذه ، وكان منهم سيبويه[٤] .

ومن أئمة مدرسة الكوفة على بن حمزة الكسائى المتوفى سنة ٢٨٣ هـ ، وهو أحد القراء السبعة ، ومن أئمة الكوفيين فى النحو ، ومن مؤدبى الأمين والمأمون . وقد أخذ عنه أبو زكريا يحيى بن زياد المعروف بالفراء ، « وكان — كما يقول ابن خلكان[٥] — أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب » ، وهو أحد رؤساء المذهب الكوفى بعد أستاذه الكسائى . وقال فيه تلميذه ثعلب :

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨٠ .
(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٦٩ .
(٤) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٠ .
(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٢٨ .

« لولا الفراء لما كانت عربية لأنه خلصها وضبطها » . وقد ألف كثيراً من الكتب منها كتاب معانى القرآن ، وهو تفسير لغوى شرح فيه دقائق النحو واللغة ، ويقع فى نحو ألف ورقة ، وهو أشهر كتبه (١) .

ومن مشهورى الكوفيين المفضل الضبى صاحب كتاب المفضليات فى الشعر . ومن مشهورى النحويين أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادى المصرى النحوى المعروف بالنحاس . وقد رحل إلى بغداد ، وأخذ عن أبى الحسن على بن سليمان الأخفش الأصغر وأبى إسحق الزجاج ، وابن الأنبارى ونفطويه وغيرهم من أعيان أدباء العراق ، وتوفى بمصر فى شهر ذى الحجة سنة ٣٣٨ هـ (وقيل سنة ٣٣٧ هـ) . ومن مؤلفاته « تفسير أبيات سيبويه » ، و « كتاب التفاحة فى النحو » ، و « كتاب الوقت والابتدا » ، و « شرح المعلقات السبع » و « طبقات الشعراء » (٢) .

ومن النحويين أيضاً أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن إسماعيل النجيرمى (٣٤٥ — ٤٢٣ هـ) اللغوى البصرى نزيل مصر . وقد نشأ فى بيت اشتهر بالعلم والأدب ، وكان يوسف أمثل أهل بيته . ومن طريقه روى فى مصر أكثر الكتب القديمة فى اللغة والشعر وأيام العرب ، فإنه كان راوية لها عارفا بها . وتوفى النجيرمى فى شهر المحرم سنة ٤٢٣ هـ (٣) .

ويعتبر القرن الثالث الهجرى عصر انتقال فى اللغة . فقد ظفرت نهاية القرن الثانى بأول محاولة فى ضبط اللغة وعمل المعاجم ، حين وضع الخليل بن أحمد منهج كتاب العين لتلميذه الليث بن المظفر . ولا ريب أن كتاب العين ، مع علو قدر الخليل ، لا يمثل علمه وضبطه للغة ، إذ وقع فيه كثير من الأخطاء التى أخذها عليه العلماء . ولذلك هب لغويو القرن الثالث لاستكمال ما فات كتاب العين من نقص واستدراك ما فيه من تصحيف وتحريف ، فوضعوا المعاجم الواسعة ، لكنها كانت على طريقة الخليل نفسها من حيث ترتيب حروف المعجم على المخارج الصوتية والابتداء بحروف الحلق ، وأولها حرف العين . وعلى هذا النظام أنشأ ابن دريد (٢٢٣ — ٣٢١ هـ) كتابه « جمهرة اللغة » (٤) ، وهو ، وإن خلا من كثير من العيوب التى وجدت فى كتاب العين ، لم يخل من مآخذ . فقد انتقد عليه العلماء بعض الألفاظ التى لم يروها الثقات وانفرد بها ابن دريد ، كما أن طريقته فى شرح الكلمة وتقليب صيغها طريقة فيها كثير من الصعوبة وخاصة على الباحث الذى يؤثر السرعة فى الوصول إلى غايته من كتب اللغة .

وكما كان ابن دريد إماما فى اللغة ، كان أديباً بارعا ينشىء النظم وينشىء النثر . ولعله أول من

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ . ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٠ ش تفسير

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان حـ ١ ص ٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٥١ .

(٤) ويقع فى ثلاثة مجلدات ضخام ، غير مجلد للفهارس . وقد طبع بحيدر أباد سنة ١٣٤٥ هـ ، ومنه نسختان مخطوطتان بدار الكتب المصرية .

اخترع فن المقامات فى اللغة العربية ؛ فقد تنبه نقاد العرب ومؤرخوهم إلى الأحاديث الكثيرة التى رواها عنه تلميذه أبو على القالى فى كتابه «الأمالى»(١) من أحاديث موضوعة شبيهة بالمقامات والقصص القصيرة ظهرت فيها براعة ابن دريد الأدبية واللغوية . وقد نبه على هذا الحصرى فى كتاب « زهر الآداب » ، وقال إنه مخترع هذا الفن من القصص ، وبه سبق أصحاب المقامات فيما أنشئوا من فنهم بعده . ولابن دريد شعر كثير كان يذهب فيه كل مذهب من الرقة والجزالة ومن الجد والهزل . وهو مشهور فى كتب الطبقات والتراجم . ومن مصنفاته كتاب « الاشتقاق فى الأسماء » ، وكتاب « زوار العرب (٢) .

وممن ألف فى اللغة معجما واسعاً على طريقة الخليل أبو على القالى البغدادى (٢٢٨ — ٣٥٦ هـ) صاحب كتاب «البارع فى اللغة » ، وكتاب « الأمالى» فى اللغة والأدب (٣) . وهو الذى غرس علوم اللغة وآدابها فى الأندلس ، وعليه تخرجت الطبقة الأولى من اللغويين وكبار الأدباء فى تلك البلاد .

ومن هؤلاء الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ — ٣٨٥ هـ) ؛ وقد ألف فى اللغة كتاب «المحيط» ، ويقع فى سبع مجلدات ، وابن فارس صاحب كتاب « المجمل » المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، وأبو منصور الأزهرى (٢٨٢ — ٣٧٠ هـ) صاحب كتاب « التهذيب » . وأشهر علماء اللغة فى القرن الرابع على الإطلاق إسماعيل بن حماد الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٢هـ وصاحب كتاب « الصحاح فى اللغة » . وقد اقتصر فيه على الألفاظ الصحيحة اقتداء بالبخارى الذى اقتصر على الأحاديث النبوية الصحيحة . ولهذا المعجم مزية أخرى ، فإنه ترك الطريقة التى سار عليها سلفه من اللغويين منذ عصر الخليل ، من حيث ترتيب الحروف الهجائية على المخارج الصوتية ، إلى ترتيبها على طريقة أخرى لا تزال مستعملة فى التعليم وفى أكثر الكتب اللغوية التى جاءت بعده ، مثل « لسان العرب» ، و « القاموس المحيط » ، وهى أن ترتب المادة اللغوية على الحروف ا ب ت ث ج الخ، مع ملاحظة أن يكون الحرف الأخير فى الكلمة هو الباب ، وعلى أن يكون الحرف الأول منها هو الفصل . وهذه الطريقة التى ابتكرها الجوهرى فى ترتيب المعاجم تسهل على الكتاب والشعراء العثور على الألفاظ التى يريدها الكاتب فى الأسجاع، والشاعر فى القوافى. وقد ذاعت هذه الطريقة بعده فى تأليف المعاجم فى المشرق والمغرب.

ولم يقتصر علماء اللغة على تأليف المعاجم ، وإنما ألفوا فى الاشتقاق والتصريف وأصول النحو واللغة كتباً كثيرة . وعلى رأس هؤلاء أبو على الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، وتلميذه ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ صاحب كتاب «الخصائص» الذى يعد أعظم الكتب فى أصول اللغة والنحو . ويقول الثعالبى (٤) فى ابن جنى : « هو القطب فى لسان العرب ، وإليه انتهت الرياسة والأدب » .

---

(١) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ وتقع فى ثلاثة مجلدات تشمل الطرف والنوادر والتنبيه .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٩٥ — ٤٩٦ .

(٤) يتيمة الدهر ج ١ ص ٨٩ .

ومن علماء اللغة من شرح الدواوين الأدبية ، كأبى زكريا يحيى بن على بن محمد الحسن بن بسطام الشيبانى التبريزى المعروف بالخطيب (٤٢١ — ٥٠٢ هـ) . وكان أحد أئمة اللغة فى عصره ، وقد تلمذ لأبى العلاء المعرى وقال ابن خلكان [١] « وصنف فى الأدب كتباً كثيرة مفيدة ، منها شرح الحماسة ، وكتاب شرح ديوان المتنبى ، وكتاب شرح سقط الزند وهو ديوان أبى العلاء المعرى ، وشرح المعلقات السبع ، وشرح المفضليات . وله تهذيب غريب الحديث ، وتهذيب إصلاح المنطق ، وله فى النحو مقدمات حسنة ، والمقصود منها أسرار الصنعة وهى عزيزة الوجود ، وله كتاب الكافى فى علم العروض والقوافى ، وكتاب فى إعراب القرآن سماه الملخص ، رأيته فى أربع مجلدات ، وشروحه لكتاب الحماسة ثلاثة : أكبر وأوسط وأصغر ، وله غير ذلك من التآليف . . . ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد » .

ولا بأس من أن نورد هنا ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته [٢] عن تطور تأليف المعاجم العربية ، قال : « إن كثيرا من العلماء اتخذوا كتاب العين أساسا لمعاجمهم ، وجاء أبو بكر الزبيدى ، وكتب لهشام المؤيد بالأندلس فى المائة الرابعة ، فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب ، وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل ، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص . وألف الجوهرى من المشارقة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم ، فجعل البداءة منها بالهمزة ، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس فى الأكثر إلى أواخر الكلم ، وحصر اللغة إقتداء بحصر الخليل . ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيده من أهل دانية فى دولة على بن مجاهد ، كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب ، وعلى نحو ترتيب كتاب العين ، وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها ، فجاء من أحسن الدواوين ، ولخصه محمد بن أبى الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس ، وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح فى اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها ، فكانا توأمى رحم وسليلى أبوه . هذه هى أصول كتب اللغة فيما علمناه » .

٦ — الأدب :

(ا) النظـــم

تمهيد :

كانت نزعة الأمويين فى الشعر ، كما رأينا ، جاهلية لا تميل إلى الفلسفة . وقد ظهر فى العصر العباسى كثير من الشعراء ، نهجوا بالشعر مناهج جديدة فى المعانى والموضوعات والأساليب . ومن أشهرهم بشار بن برد ، وأبو نواس الذى أنحى باللائمة على كل قديم ، وحذا حذوه فى هذا العصر ابن قتيبة (٢١٣ — ٢٧٦ هـ) فى القول بالتجديد ، ثم حذا حذوه من جاء بعده من الكتاب كالثعالبى وابن خلدون .

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٢٣ . (٢) ص ٥٠٢ — ٥٠٣ .

يقول ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « الشعر والشعراء »(١) : « ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر ، مختاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ؛ بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه . فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه » .

ومن العوامل التى ساعدت فى العصر العباسى على ظهور المناهج الجديدة فى الشعر ومعانيه وأخيلته وأساليبه وفى الأدب عامة :

١ — اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء فى الدولة العباسية عن نظائرها فى الحياة الجاهلية ، ففضائل العرب فى الجاهلية لم تعد فى نظر الذين عاشوا فى العصر العباسى الأول مما يتغنى به .

٢ — تطور الحياة المادية التى كانت فى أيام الجاهلية تقوم على السذاجة ، بسبب تعدد أعمال الناس ، وزيادة تجاربهم فى العصر العباسى .

٣ — انتشار الشعوبية التى قامت على حط شأن العرب ونقد أشعارهم ومعانيهم .

٤ — أثر الثقافة الأجنبية ، والفارسية خاصة ، فى الشعر والأدب العباسى . إلا أنه على الرغم من هذا كله ، لا يزال يوجد فى اللغة العربية بعض بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافى والأوزان(٢).

يقول نيكلسن(٣) : « لم يدخل الفرس على الشعر العباسى مثل تلك الفخامة التى كانت لأساليبه فى الشعر القديم ، ولكنهم أدخلوا عليه الخيال الحى اللطيف ، والتعبير الدقيق ، وعمق الإحساس ، وأمدوه بكثير من الآراء والأفكار . وقد ساعد على هذا التحول فى الشعر العربى ، عدا تأثير الثقافة الفارسية واليونانية ، شدة تأثير الإسلام فى الحياة العامة ، وظهور روح دينى قوى بين الناس ، بلغ أقصى مداه فى شعر أبى العتاهية فى الزهد والتهذيب » . فالشعر فى هـذا العصر يمتاز برقة العبارة ، والتعمق فى النقد ، والتفنن فى المعانى باختيار الألفاظ .

٥ — اعتماد الشعراء طوال أيام العباسيين — عدا فترات قليلة — على تشجيع الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة . ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه لم تكن هناك تجارة كتب منظمة ، كما لم يكن هناك أحد من الناشرين الذين يستطيعون نشر الكتب على نفقتهم . فكان كل اعتماد الشعراء فى كسب عيشهم ، على التقرب من الخلفاء والمقربين إليهم من العظماء ، بالقصائد الرنانة ابتغاء المنح والعطايا . ولهذا كان الإغراق فى المدح من أهم مميزات الشعر فى أيام العباسيين . أضف إلى ذلك دخول غير

---

(١) كتاب طبقات الشعراء لابن سلام (طبعة القاهرة) ص ٢ .
راجع Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs pp. 286-7 ، والجزء الثانى من هـذا الكتاب ص ٢٥٢ .

(٢) راجع هذا الكتاب ج ٢ ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

(٣) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 290

العرب ، وخاصة الفرس ، فى حلبة الشعراء . ولما كان الحكم فى الدولة العباسية استبداديا ، كان الإفراط فى المدح هو السبيل الوحيد إلى التقرب من الخلفاء ورجال دولتهم (١) .

١ — أمراء الشعر العباسى :

وقد ظهر فى هـــذا العصر كثير من أفذاذ الشعراء من أمثال أبى تمام والبحترى وابن الرومى والمتنبى والمعرى والشريف الرضى :

(ا) البحترى (٢٠٦ — ٢٨٥ هـ)

ولد أبو عبادة الوليد البحترى القحطانى الطائى بمدينة منبج ونشأ بها ، وزار بعض مدن الشام كالمعرة وحلب وحمص حيث لقى بها أبا تمام وأخذ عنه . ثم قصد العراق وأقام ببغداد وسامرا حيث ذاع صيته ، واتصل بالخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان وأمراء الدولة العباسية فى ذلك الوقت ، ومدحهم ونال جوائزهم . وقد حضر قتل المتوكل كما تقدم(٢) . ثم اتصل بحاشية بعض خلفاء هـذا الخليفة ومات فى عهد المعتضد وقد ناهز الثمانين من عمره .

وقد شهد كبار الشعراء بعلو كعبه فى الشعر ، فقد أنشد البحترى أستاذه أبا تمام شعرا . فقال له: « أحسنت ! أنت أمير الشعراء بعدى(٣) » . وقيل للبحترى: « أيما أشعر ، أنت أم أبو تمام ؟ فقال: جيده خير من جيدى ، ورديئى خير رديئه» . وكان يقـال لشعر البحترى سلاسل الذهب وهو فى الطبقة العليـا . ويقال إنه قيل لأبى العلاء المعرى : أى الثلاثة أشعر : أبو تمام ، أم البحترى ، أم المتنبى ؟ فقال : المتنبى وأبو تمام حكيمان ، وإنما الشاعر البحترى(٤) » .

وقيل فى شعر البحترى : « هذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة والسهل الممتنع ، فلله دره. ما أسلس قياده ، وأعذب ألفاظه ، وأحسن سبكه ، وألطف مقاصده ، وليس فيه من الحشو شىء، بل جميعه نخب » .(٥)

ومن أشهر قصائد البحترى القصيدة التى يمدح فيها الخليفة المتوكل ويصف موكبه فى يوم عيد الفطر :

الله مكن للخليفـة جعفر ... ملـكا يحسنه الخليفه جعفر
فانعم بيوم الفطر عينـا إنه ... يوم أغـر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيـه بمحفل ... لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت ... عدداً يسير بها العديد الأكثر
ذكروا بطلعتك النبى فهللوا ... لمـا طلعت من الصفوف وكبروا

---

(١) راجع هذا الـكتاب ج ٢ ص ٢٥٤
(٢) انظر ص ٢٧ من هذا الجزء .
(٣) ابن خلـكان : وفيات الأعيان ج ٢ ض ١٧٦ .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) المصدر نفسه ص ١٧٧ .

حتى انتهيت إلى المصلى لابسا نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهى ولا يتكبر (١)

ومن روائع قصائد البحترى هذه القصيد السينية التى وصف فيها إيوان كسرى:

صنتُ نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جَدا كل جبس (٢)
حضرتْ رحلى الهمومُ فوجهت إلى أبيض المدائن عنسى (٣)
أتسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس
ذكّرتنيهم الخطوب التوالى ولقد تُذكر الخطوب وتنسى
وهم خافضون (٤) فى ظل عال مشرف يحسر العيون ويخسى (٥)
حلل لم تكن كأطلال بُسعدى فى قفار من البسابس مُلس (٦)
نقل الدهر عهدهن عن الجدة حتى غدون أنضاء لِبس (٧)
فكأن الحرماز (٨) من عدم الإن س وإخلاله بَنيـة رمس
لو تراه علمت أن الليالى جعلت فيه مأتما بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس
فإذا ما رأيتَ صورة أنطا كية ارتعت بين روم وفرس (٩)
والمنايا مواثل وأنوشر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس (١٠)
عكست حظه الليالى وبات المشترى فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدى تجلداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسى (١١)
لم يعبه أن بُز من بُسط الديباج واستُلب من ستور الدمقس (١٢)
مشمخر تعلو له شرفات رفعت فى رؤوس رضوى وقدس (١٣)

---

(١) ديوان البحترى (طبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ) ص ١٠ — ١١ .
(٢) وترفعت عن عطية كل لئيم شحيح
(٣) فى هذا البيت وما بعده يقول حلت الهموم بساحتى فركبت جملى إلى قصر المدائن الأبيض ، لأتسلى عن حظى ، وآسى لما درس من قصور آل ساسان .
(٤) خافضون ، ناعمو العيش .
(٥) يرد النظر كليلا متعبا ، من قوله تعالى فى سورة الملك (ثم ارجع البصر مرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير)
(٦) أى هذه الأثار العظيمة ليست كأطلال البدو فى القفار الخلوية .
(٧) انضاء لبس أى ثياب بالية . (٨) الحرماز أحد القصور فى الايوان .
(٩) فى هذا وفى الستة الأبواب التالية من القصيدة (لم نذكر منها إلا البيت التالى وتركنا الأبيات الخمسة التى تليه خشية التطويل) يصف صورة على جدار القصر تمثل معركة دارت فى أنطاكية بين كسرى والروم .
(١٠) الراية الكبيرة . (١١) جاثم عليه خانق له
(١٢) لم ينقص من قيمته أن الدهر سلبه بسط الديباج وستور الدمقس .
(١٣) رضوى وقدس جبلان .

ليس يُدرى أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لإنس
عُمرت للسرور دهراً فصارت للتعزى رباعهم والتأسى
ذاك عندى وليست الدار دارى باقتراب منها ولا الجنس جنسى(١)
غير نعمى لأهلها عند أهلى غرسوا من ذكائها خير غَرس
أيدوا ملكنا وشدوا قواه بكماة تحت السنور حمس(٢)
وأعانوا على كتائب أرياطٍ بطعن على النحور ودَعْس(٣) .

(ب) ابن الرومى (٢٢١ — ٢٨٣ هـ)

ومن أشهر شعراء هذا العصر وأبرعهم فى توليد المعانى وأطولهم نفسا فى القصائد أبو الحسن على بن العباس المعروف بابن الرومى . ولد ببغداد سنة ٢٢١ هـ ، واستقر بها طول حياته ، ولم يتركها إلا قليلا . قيل إنه رحل مرة إلى سامرا ، ولكنه تشوق إلى بغداد وحن إليها فقال :

بلد صحبت بها الشبيبةَ والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل فى الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد(٤)

ولم يكن ابن الرومى عربى الأصل ، بل كانت أمه فارسية وأبوه من أصل رومى ، كما يتبين ذلك من قوله :

كيف أغضى على الدنية والفر س خئولى والروم أعمامى

وقد تأثر ابن الرومى بالفلسفة اليونانية حتى إنه ذهب فى شعره ، كما يقول المسعودى(٥) — إلى معانى فلاسفة اليونان .

وقد وصفه ابن خلكان(٦) فقال : هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة ، فيستخرجها من مكانها ، ويبرزها فى أحسن صورة . ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية » .

وكان لموت زوجته وأبنائه الثلاثة أثر بالغ فى حالته ، حتى قيل إنه لم يتزوج ، وأصبح رثاؤه مثالا يحتذى فى الجودة . من ذلك قصيدته التى رثى فيها ابنه الأوسط ، وتعد من أرق ما فاضت به عواطف أب على ولده ، ومنها :

---

(١) فهى جديرة أن أبكيها وان كنت غريبا لأمت لأصحابها بنسب .
(٢) إلا أنى أفعل ذلك ليد كانت للفرس عند أهلى (اليمنيين) ، فهم ساعدوا ملكنا (سيف بن ذى يزن) بأبطال تحت الدروع شجعان .
(٣) وأعانوه على جيوش أرياط قائد الجيش بطعن فى نحور الأعداء .
ديوان البحترى ص ١١٠ ، أنيس المقدسى : أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى ص ٢١٧ — ٢١٨ .
(٤) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٥١ (٥) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٩٥
(٦) جـ ١ ص ٣٥١ .

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى ... فجودا فقد أودى نظيركما عندى
ألا قاتل الله المنايا ورميها ... من القوم حباتِ القلوب على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتى ... فلله كيف اختار واسطة العقد!
على حين شِمْت(١) الخير من لمحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنى فأضحى مزاره ... بعيدا على قرب قريباً على بعد
ثكلتُ سرورى كله إذ ثكلته ... وأصبحت فى لذات عيشى أخا زهد
أريحانة العينين والأنف والحشا ... ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى؟
ألام لما أبدى عليك من الأسى ... وإنى لأخفى منك أضعاف ما أبدى(٢)

وتعتبر قصيدة ابن الرومى التى نظمها على أثر احتلال صاحب الزنج مدينة البصرة وما أحدثه فيها من التخريب والتدمير من أهم المصادر التاريخية عن ثورة الزنج التى شغلت الدولة العباسية نحو خمس عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ)، وفيها يقول:

لهف نفسى عليكِ أيتها البصـ ... ـرة لهفا كمثل لهب الضرام
لهف نفسى عليك يا قبة الإسـ ... ـلام، لهفا يطول منه غرامى
لهف نفسى عليك يا فرضة البلـ ... ـدان، لهفا يبقى على الأعوام
لهف نفسى لجمعك المتفانى ... لهف نفسى لعزك المستضام!
بينما أهلها بأحسن حال ... إذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليـ ... ـل إذا راح مدلهم الظلام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ... أين أسواقها ذوات الزحام؟
أين فلك فيها، وفلك إليها ... منشئات فى البحر كالأعلام(٣)؟
أين تلك القصور والدور فيها ... أين ذاك البنيان ذو الإحكام؟
بُدلت تلكم القصور تلالا ... من رمادومن تراب ركام(٤)
وخلت من حلولها، فهى قفر، ... لا ترى العِين(٥) بين تلك الإكام(٦)
إن قعدتم عن اللعين فأنتم ... شركاء اللعين فى الآثام
بادروه قبل الروية بالعز ... م، وقبل الإسراج بالإلجام(٧)

وقد عزا ابن خلكان(٨) موت ابن الرومى إلى حنق أبى الحسين القاسم بن عبد الله بن سليمان

---

(١) شمت الخير ارتقبته ونظرت إليه (٢) ديوان ابن الرومى (نشره كامل كيلانى فى ثلاثة أجزاء القاهرة ١٩٢٤) جـ ١ ص ٢٩
(٣) اشارة إلى أنها كانت فرضة عظيمة.
(٤) أى متراكم بعضه فوق بعض. (٥) جمع عيناء وهى المرأة الحسنة العينين (٦) جمع أكمة.
(٧) ديوان ابن الرومى جـ ٣ ص ٤٢٢ — ٤٢٧.
(٨) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٥١ — ٣٥٢

ابن وهب وزير المعتضد ، الذى كان يخاف هجوه ، « فدس عليه من سمه فى خشكنانة (١) وهو فى مجلسه . « فلما أكلها أحس بالسم ، فقام ، فقال له الوزير : إلى أين تذهب ؟ فقال : إلى الموضع الذى بعثتنى اليه ، فقال له : سلم على والدى ، فقال له : ما طريقى على النار . وخرج من مجلسه ، وأتى منزله ، وأقام أياماً ومات . وكان الطبيب يتردد اليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم ، فزعم أنه غلط فى بعض العقاقير ، وقال إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى المعروف بنفطويه : رأيت ابن الرومى يجود بنفسه ، فقلت له : ما حالك ؟ فأنشد :

غلط الطبيب علىّ غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار
والناس يلحون (٢) الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة المقدار »

(ج) أبو الطيب المتنبي (٣٠٣ — ٣٥٤ هـ)

ومن فحول شعراء هذا العصر أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفى المعروف بالمتنبى . ولد فى محلة كندة بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ . ويقال إنه كان فى أول أمره سقاء بالكوفة ، ثم رحل إلى الشام . وإلى هذا يشير أحد الشعراء فى هجائه له :

أىّ فضل لشاعر يطلب الفض ل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع فى الكوفة الما ء وحيناً يبيع ماء المحيا (٣)

اتصل المتنبى بسيف الدولة الحمدانى فى سنة ٣٣٧ هـ ، وأصبح لساناً ناطقاً يشيد بمديحه ، وكان — كما يقول الثعالبى (٤) — نادرة الفلك وواسطة عقد الدهر فى صناعة الشعر . ثم هو شاعر سيف الدولة المنسوب اليه المشهور به ، إذ هو الذى جذب بضبعه (٥) ، ورفع من قدره ، ونفق سعر شعره ، وألقى عليه شعاع سعادته ، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر ، وسافر كلامه فى البدو والحضر ، وكادت الليالى تنشده والأيام تحفظه ، كما قال وأحسن ما شاء :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمراً وغنىّ به من لا يغنى مغردا »

ومن إحدى قصائد المتنبى يعاتب سيف الدولة :

ما لى أكتم حباً قد برى جسدى وتدعى حب سيف الدولة الأمم ؟
إن كان يجمعنا حب لغرته فليت أنا بقدر الحب نقتسم
يا أعدل الناس إلا فى معاملتى فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
اذا نظرت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث مبتسم
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

---

(١) الخشكنان : نوع من الفطائر المحشوة : يعجن دقيق الحنطة بالشيرج ، ثم يبسط ويملأ بالسكر واللوز أو الفستق وماء الورد ، ويجمع ويخبز (عن تذكرة داود بتصرف) .

(٢) لحاه يلحاه لامه .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧

(٤) يتيمة الدهر ج ١ ص ٩٠

(٥) الضبع العضد كلها .

يا من يعز علينا أن نفارقهم ... وجداننا كل شيء بعدكم عدم
إذا ترحلتَ عن قوم وقد قدروا ... ألا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد بلاد لا صديق به ... وشر ما يكسب الانسانُ ما يصم
وشر ما قنصته راحتي قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم(١)

فارق المتنبي سيف الدولة مغاضباً ، وقصد مصر ، وامتدح كافورا بأحسن المدائح ، طمعاً فى أن يوليه بعض أعمال مصر . فخلع كافور عليه وأنزله فى داره وعين جماعة لخدمته ، وحمل إليه كثيرا من المال ، ولكنه لم يوله عملا من الأعمال ، معتذراً بأنه لا يستطيع أن يولى رجلا يدعى النبوة ؛ فانقلب مدح أبى الطيب هجاء ، وأسرف فى ذلك كما أسرف فى مدحه من قبل(٢) .

فمن مدائح المتنبي لكافور ، قوله فى أول قصيدة أنشدها إياه فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ هـ(٣):

قواصدَ كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسانَ عين زمانه ... وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

وأنشده فى هذه السنة أيضاً(٤) :

ترعرع الملك الأستاذ مكتهلا ... قبل اكتهالٍ أديباً قبل تأديب
مجرباً فهماً من قبل تجربة ... مهذَّبا كرماً من غير تهذيب
حتى أصاب من الدنيا نهايتها ... وهمه فى ابتداءات وتشبيب
يدبر الملك من مصرٍ إلى عدن ... إلى العراق فأرض الروم فالنوب
ولا تجاوزها شمس إذا شرقت ... إلا ومنه لها إذن بتغريب
يصرف الأمر فيها طينُ خاتمه ... ولو تطلس منه كل مكتوب

ولما لم ينل أبو الطيب المتنبي من كافور ما طلبه ، استعد للرحيل ، وأنشد فى يوم عرفة سنة ٣٥٠ هـ قبل مفارقته مصر بيوم واحد قصيدة طويلة هجا كافورا فيها أشد الهجاء ، ومنها(٥) :

عيد بأية حال عدتَ يا عيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟
لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد
من علم الأسود المخصى مكرمة ... أقوامه البيض أم آباؤه الصيد

قصد المتنبي بعد ذلك بلاد فارس حيث مدح عضد الدولة بن بويه ، فأجزل جائزته ، ومن مدائحه له قوله :

أروح وقد ختمت على فؤادى ... بحبك أن يحل به سواكا

---

(١) البرقوقى : شرح ديوان المتنبي جـ ٢ ص ٢٥٨ — ٢٦٦ .
(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٧٤ .
(٣) انظر شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقى جـ ٢ ص ٥١٤ جـ ١ ص ١١٨ — ١١٩ ، ٢٧٠ — ٢٧٦ .
(٤) نفس المصدر جـ ١ ص ١١٨ — ١١٩ .
(٥) المصدر نفسه ص ٢٧٠ — ٢٧٦ .

ولو أنى استطعت خفضت طرفى فلم أبصر به حتى أراكا
وكيف الصبر عنك وقد كفانى نداك المستفيض وما كفاكا(١)

ولما عاد من فارس قصد بغداد ، ثم الكوفة ، تعرضت له عصابة على رأسها فاتك بن أبى الجهل الاسدى ، فحاربها المتنبى وأصحابه ، وقد فكر فى الفرار فقال له غلامه : لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل :

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والحرب والضرب والقرطاس والقلم
فكر راجعاً حتى قتل(٢) .

(د) أبو العلاء المعرى (٣٦٣ — ٤٤٩ هـ)

ولد أبو العلاء فى سنة ٣٦٣ هـ بمعرة النعمان ، وهى بلدة صغيرة ببلاد الشام على مقربة من حماة وشيزر ، تنسب إلى النعمان بن بشير الأنصارى ، وسمى المعرى نسبة إلى هذه المدينة . وقد أصيب بالجدرى وهو فى السنة الرابعة من عمره ، وذهب الجدرى ببصره(٣) . وعاش معظم حياته فى المعرة فى عصر اضطربت فيه الأحوال السياسية : فكانت إمارة حلب صراعاً بين الحمدانيين والفاطميين تارة ، وبين قبائل البدو والروم تارة أخرى(٤). وكان لهذه الأحداث أثر فى شعر أبى العلاء النقدى.

تعلم أبو العلاء على أبيه ، فأخذ عنه النحو واللغة . وكان من أسرة تولى أكثر أفرادها منصب القضاء على المذهب الشافعى فى المعرة وما جاورها من البلاد مثل شيزر . وبقى القضاء فى هذا البيت إلى أن دخل الصليبيون المعرة سنة ٤٩٢ هـ ، واستمرت الفتيا على مذهب الإمام الشافعى فى هذا البيت أكثر من قرنين . وكان أبو العلاء كثير الترحال فى شبابه ؛ فقد زار المدن الشآمية المشهورة بالعلم و علماء كأنطاكية واللاذقية وطرابلس ، وأخذ العلم عن علمائها واختلف إلى مكتباتها(٥) ، كما زار بغداد مرتين : إحداهما فى سنة ٣٩٨ هـ ، والثانية فى سنة ٣٩٩ هـ ، ولكنه رجع إلى المعرة ولزم منزله ، وشرع فى التصنيف ، وسمى نفسه رهين المحبسين لزومه منزله وذهاب عينيه (٦) .

كان أبو العلاء شاعراً مطبوعاً منذ نعومة أظفاره ؛ فقد قرض الشعر وهو فى الحادية عشرة من عمره . وكان متضلعاً فى فنون الأدب والنحو واللغة ، حتى قيل إنه كان يحفظ كتاب الجمهرة لابن دريد ، « وأخذ عنه الناس وسار إليه الطلبة من الآفاق(٧) ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار (٨) » . وقد عدد ابن خلكان(٩) مصنفات أبى العلاء فقال : « وله التصانيف الكثيرة المشهورة والرسائل المأثورة ، وله من النظم « لزوم ما لا يلزم »(١٠) ، وهو كبير يقع فى خمسة أجزاء أو ما يقاربها . وله

---

(١) البرقوقى : شرح ديوان المتنبى ج ٢ ص ٩ — ١٨ ، الثعالبى : يتيمة الدهر ج ص ١٦٣
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧ انظر شرح ديوان المتنبى للبرقوقى ج ١ ص ٢٦٢ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣ — ٣٤ (٤) المصدر نفسه .
(٥) المقدسى : أمراء الشعر العربى ص ٣٢٦ — ٣٢٧
(٦) ابن خلكان : ج ١ ص ٣٣ — ٣٤
(٧) المصدر نفسه (٨) المصدر نفسه
(٩) المصدر نفسه (١٠) طبعة القاهرة سنة ١٨٩١

« سقط الزند » (١) أيضاً ، وشرحه بنفسه وسماه « ضوء السقط » . وبلغنى أنه له كتاباً سماه « الأيك والغصون » وهو المعروف بالهمزة والردف (الحرف الذى قبل الهمزة) يقارب المائة جزء فى الأدب أيضاً . ولما فرغ من تصنيف كتاب « اللامع العزيزى » فى شرح شعر المتنبى وقرىء عليه ، أخذ الجماعة فى وصفه ، فقال أبو العلاء : كأنما نظر المتنبى إلىّ بلحظ الغيب حيث يقول :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى مَنْ به صمم

واختصر ديوان أبى تمام وشرحه وسماه « ذكرى حبيب » ، وديوان البحترى وسماه « عبث الوليد » ، وديوان المتنبى وسماه « معجز أحمد » ، وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها ومآخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم ، وتولى الانتصار لهم والنقد فى بعض المواضع عليهم والتوجيه فى أماكن لحظهم » .

كانت لأبى العلاء آراء فلسفية عميقة ، فتراه فى لزومياته جريئاً مبتكراً ، وله آراؤه فى الأخلاق والنقد الاجتماعى . ولم يقنع بإظهار النقائص الاجتماعية والسياسية فى جرأة ، بل جعل الحياة الإنسانية كلها موضوعاً لبحثه ، وأخذ يتأمل فى أعمق معضلاتها (٢) . يؤيد هذا قوله فى لزومياته (٣) :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا فماتت سنة اللؤماء

وقوله :

قد حُجب النور والضياء وإنما ديننا رياء
يا عالم السوء ما علمنا أن مصليك أتقياء (٤)

وكان أبو العلاء يرى رأى الحكماء الذين لا يأكلون اللحم ، وبقى خمساً وأربعين سنة لا يأكل اللحم تديناً حتى لا يعذب الحيوانات بذبحها . وكان بيته كعبة العلماء ، فقد زاره عبد الوهاب بن نصر المالكى (٥) ، وكان من كبار الشعراء فأضافه عنده ، وشهد له بالتضلع فى الدين والشعر ، وأشار إلى ذلك فى قصيدته التى أرسلها إلى خازن دار العلم ببغداد حيث يقول :

والمالك ابن نصر زار فى سفر بلادنا فحمدنا النأى والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكا جدلا وينشر الملك الضليل (٦) إن شعرا (٧)

---

(١) طبعة بولاق سنة ١٢٨٦ هـ فى جزئين (٢) نيكلسن : انظر مادة « أبو العلاء » فى ترجمة دائرة المعارف الاسلاميه (٣) ص ٦٤ . (٤) ص ٥١ ، ٥٢ .

(٥) تولى عبد الوهاب بن نصر القضاء بمدينتى بادرايا وباكسايا الواقعتين على مقربة من النهروان ، وفى مدينة إسعرد الواقعة فى أرض الجزيرة على مقربة من دجلة أو على مسيرة يوم ونصف يوم جنوبى ميافارقين . وهجر بغداد فى أخريات أيامه بعد أن ضاقت به سبل العيش ، وقصد مصر فى عهد الخليفة الظاهر الفاطمى سنة ٤٢٢ هـ ، ولم يلبث أن مات فى تلك السنة . حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٦١ — ١٦٢ .

(٦) الملك الضليل لقب لامرىء القيس الذى عده النبى صلى الله عليه وسلم أشعر الشعراء . وقد روى الكتبى (كتاب فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٧) هذه الأبيات الأربعة التى ذكرها فى كلامه عن عبد الوهاب ابن نصر المالكى .

(٧) أبو العلاء المعرى : ديوان سقط الزند ص ١٣٤ ، حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٦٢

وكذلك زاره فى معرة النعمان ناصر خسرو الشاعر والرحالة الفارسى الذى أصبح داعيا للاسماعيلية(١) . وزاره المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الإسماعيلية فى فارس و داعى دعاة الفاطميين فى مصر وتحدث إليه فى مذهبه النباتى . وقد اعتز أبو العلاء بتقدير هؤلاء العلماء له وترددهم عليه فقال :

يزورنى الناس : هـذا أرضه يمن من البلاد وهذا داره الطبس(٢)

قال الدكتور طه حسين بك(٣) : إن أبا العلاء « هو الفيلسوف الفذ الذى التزم مالا يلزم عند المسلمين ، فى سيرته ولفظه ؛ فحرم الحيوان ، والتزم النبات ، وأبى الزواج والنسل ، وأراد اعتزال الناس . ولأبى العلاء ، مع أنه من أصحاب اللذة ، شدة غريبة فى رفض الخمر ، فقد حرمها من جهات ثلاث : من جهة العقل والصحة والدين ، وألف فى ذمها كتاباً خاصاً سماه « حماسة الراح » . وأبو العلاء هو الفيلسوف الفذ الذى أنكر النبوات ، واعترف بالإله ، وعرّض بالتكليف ، وعارض القرآن ، وهزىء بشىء من أحكامه ، ثم بقى مع ذلك سالماً لم يصبه أذى فى نفسه حتى مات » .

٢ — شعراء الفرس:

ارتقى الشعر الفارسى وبلغ أقصى مداه فى عهد السامانيين ؛ ويعد أبو عبد الله بن محمد الرودجى (١٨٥ — ٢٣٦ هـ) أشهر شعراء النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وغطت شهرته على شهرة من سبقه من الشعراء ، حتى لقب أبا الشعر الفارسى ، وأول شعراء الفرس ومن أصاب القدح المعلى والزعامة بين شعراء عصره . وكان البلعمى وزير إسماعيل بن أحمد السامانى ، والمتوفى سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٠م) يقول إن الرودجى لم يكن له نظير بين العرب والفرس ، وقد تقلد أبو على البلعمى ابن هذا الوزير الوزارة فى عهد الأمير منصور بن نوح السامانى ، ونقل كتاب تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى إلى اللغة الفارسية وتوفى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) (٤) .

واشتهر فى هذا العصر كثير من شعراء الفرس ، نخص بالذكر منهم عمر الخيام صاحب كتاب الرباعيات المشهور ، وابن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ) أحد فلاسفة المسلمين . وقد نظم كثيرا من القصائد بالفارسية ، كما روى له أيضاً قصائد بالعربية . من ذلك قوله فى النفس(٥) :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعـزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سـفرت ولم تتبرقع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضـاء الأوسع

---

(١) نيكلسون : راجع لفظ « أبو العلاء » فى ترجمة دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) قصبة ناحية بين نيسابور وأصبهان ، تسمى قوهستان قاين . وهما بلدتان كل واحدة منهما يقال لها طبس ، إحداهما طبس العناب ، والأخرى طبس التمر . انظر لفظ طبس فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) ذكرى أبى العلاء ص ٤٠٨ — ٤٠٩ .

(٤) Browne : Lit. Hist. of Persia. Vol. I. pp. 355-6, 9,369

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ١٥٣ .

وغدت تغرد فوق ذروة شاهق ... والعلم يرفع كل من لم يرفع
وتعود عالمة بكل خفية ... فى العالمين فخرقها لم يُرقع
فهبوطها إذ كان ضربة لازم (١) ... لتكون سامعة لما لم تسمع
فلأى شيء أهبطت من شاهق ... سام إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطها الإله لحكمة ... طويت عن الفطن اللبيب الأروع
إذ عاقها الشوك الكثيف فصدها ... قفص عن الأوج الفسيح الأرفع
فكأنها برق تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلمع (٢)

ومن شعراء الفرس الذين نظموا القصائد بالعربية مهيار الديلمى المتوفى سنة ٤٢٨ هـ . وقد تحول عن المجوسية إلى الإسلام فى سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) على يد الشريف الرضى نقيب العلويين فى بغداد (٣) . ومن شعراء الغزنويين الفردوسى الذى لا يعد أشهر شعراء عصره وحدهم ، بل أشهر شعراء الفرس فى كل العصور . ويأتى بعده العنصرى شاعر بلاط محمود الغزنوى والأسدى صديق الفردوسى الذى نشأ معه فى مدينة واحدة ، ومخترع ذلك النوع من القصائد الجدلية التى يطلق عليها «المناظرة» ، والعسجدى والفروخى السجستانى . ثم يأتى بعد قليل المنوشيرى ، والمنصورى ، واليمينى الذى قيل إنه ألف تاريخ عهد السلطان محمود الغزنوى بالشعر الفارسى ، والشاعرة ربيعة بنت كلب القصدارية . ومن هؤلاء الشعراء أبوسعيد بن أبى الخير الذى اشتهر برباعياته فى التصوف . (٤)

٣ — شعراء مصر والأندلس :

نبغ فى مصر والأندلس كثير من الشعراء ، ولا سيما فى العصر الفاطمى . وقد أكثر رجال الأدب فى قول الشعر لمدح الخلفاء الفاطميين، لما كان يدره هؤلاء من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق المخصصة لهم . ولقد دفعت الرغبة فى الحصول على هذه الجوائز والهبات الشعراء من أهل السنة إلى محاكاة الشعراء الشيعيين ، فاتصل بعضهم ببلاط الخلفاء الفاطميين . على أن الشعراء السنيين ، وإن كانوا فى مدحهم أكثر اعتدالا من الشيعيين ، كابن هانىء وغيره ، فقد انتشر الغلو فى شعرهم للاشادة بمجد الفاطميين ، وكثيرا ما دفعهم هذا الغلو إلى الكفر والإلحاد .

(١) ابن هانىء الأندلسى :

ومن أشهر هؤلاء الشعراء محمد بن هانىء الأندلسى ، وكان من قبيلة الأزد . وقد ولد فى إشبيلية ببلاد الأندلس حيث قضى أيام صباه . وكان أبوه هانىء من قرية من قرى مدينة المهدية التى بناها عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب . ولما انتقل هانىء إلى الأندلس ولد له ابنه محمد

---

(١) ضربة لازم أى أمرا حتما . (٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣ — ١٥٤ .
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٤٩ — ١٥٠ ، Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. II. pp. 113-4.
(٤) Browse : Lit. Hist. of Persia, Vol. II. pp. 115-7.

الذى اتصل فيما بعد بصاحب إشبيلية ، واتهم بمذهب الفلاسفة ، فنقم عليه أهل هذه المدينة الذين كانوا ينقمون على كل من يشتغل بالعلوم الفلسفية ، كما كان أهل الأندلس عامة منذ عصر المنصور بن أبى عامر ، فاضطر ابن هانىء إلى الرحيل عنها فى سنة ٣٤٧ هـ وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، فلقى جوهرا القائد ومدحه ، ثم قصد جعفر ويحيى ابنى على بن أحمد بن حمدان أمير المسيلة وإقليم الزاب ، ومن أنصار العلم والعلماء ، فبالغا فى إكرامه ، فنمى خبره إلى الخليفة المعز فطلبه منهما . فلما وفد عليه ابن هانىء بالغ فى الإنعام عليه . ثم توجه المعز إلى مصر ، فتبعه ابن هانىء ورجع إلى المغرب لأخذ عياله واللحاق بمولاه . وأعد العدة للرحيل وسار فى طريقه إلى مصر ، فلما بلغ برقة أضافه أحد أهليها (١) . ويقول ابن خلكان (٢) : « فأقام عنده أياما فى مجلس الأنس ، فيقال إنهم عربدوا عليه فقتلوه . . . وكان ذلك فى بكرة يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من رجب سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، وعمره ست وثلاثون سنة ، وقيل اثنتان وأربعون » (٣) .

وكان المعز يؤمل آمالا كبارا فى هذا الشاعر ، ويريد أن يباهى به شعراء المشرق . فإنه لما بلغت المعز وفاة ابن هانىء وهو بمصر ، أسف عليه أسفا شديدا وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » . ولا شك أن المعز أصاب فيما قاله ، لأننا إذا تصفحنا ديوان ابن هانىء (٤) ، ألفينا أكثره قد نظم فى مدح المعز وأسرته . وليس لدينا دليل تاريخى على أن ابن هانىء اعتنق مبادىء المذهب الشيعى فى صباه ، غير أنه لا بد أن تكون نفسه قد أشربت روح الحب لهذه العقائد التى أظهرها عند وصوله إلى المغرب . ويظهر لنا أن ابن هانىء أصبح شيعيا متحمسا لهذا المذهب استدرارا لكرم الفاطميين ، لا حبا فى عقائدهم واستمساكا بها ، حتى لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن ينسب لحسامه من صفات التشيع ما نسبه إلى نفسه ، كما يتبين ذلك من هذين البيتين :

لى صارم وهو شيعى كحامله يكاد يسبق كراتى إلى البطل
إذا المعز معز الدين سلطه لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل (٥)

وربما كان اعتناقه المذهب الشيعى راجعاً إلى ما لقيه من عطف المعز وكرمه ، كما يتبين ذلك من إحدى قصائده فى مدح هذا الخليفة ، حيث يذكر كيف أخذ يتلمس السبيل إليه طمعاً فى صلاته وعطاياه ، فيقول فى إحدى قصائده (٦) :

وطفقت أسأل عن أغر (٧) محجل (٨) فإذا الأنام جبلة (٩) دهماء (١٠)

---

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٥٢ .
(٢) كتاب وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤ — ٥ (٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٥
(٤) بيروت سنة ١٣٢٦هـ.
(٥) ديوان ابن هانىء ص ١٨٢ . (٦) المصدر نفسه ص ٧ .
(٧) الأغر الأبيض الوجه ، وهو كناية عن السيادة والشرف .
(٨) التحجيل بياض يكون فى قوائم الفرس ، وقيل هو أن يكون البياض فى ثلاث من دون الأخرى فى رجل ويدين .
(٩) الجبلة بمعنى الطبيعة . (١٠) من الدهمة وهى السواد .

حتى دفعت إلى المعـــز خليفة ... فعلمت أن المطلب الخلفاء
جود كأن أليم (١) فيه نفاثة (٢) ... وكأنما الدنيا عليه غثاء (٣)

وعلى هذا النحو نظم ابن هانىء مدائحه فى المعز ، معلياً مآثره مشيداً بأحقية الفاطميين بالخلافة . وغلا فى ذلك ، فنسب إلى مولاه بعض صفات النبوة والألوهية . ومهد بذلك ابن هانىء السبيل لمن جاء بعده من الشعراء . يدل على ذلك هذه القصيدة الطويلة التى أنشدها فى حضرة المعز ، ننقل منها هذه الأبيات :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ... ولعلة ما كانت الأشـــياء
ولك الجوارى المنشآت مواخرا (٤) ... تجرى بأمرك والرياح رخاء (٥)
فصفت (٦) لك الأبصار وانقادت لك الـ ... أقدار واستحيت لك الأنواء
لا تسألن عن الزمان فإنه ... فى راحتيك يدرو حيث تشاء (٧)

ولم يفتر ابن هانىء عن مواصلة مدحه للمعز ، والاغراق فى مدحه حتى جعله فى منزلة عيسى ومحمد ، بل نسب إليه بعض صفات الألوهية (٨) ، ونسب إليه القدرة على إتيان المعجزات (٩) . ويغلب على ظننا أنه تأثر فى عقائده بآراء الفلاسفة اليونان ، وأن كرم المعز أوحى إليه أن يشيد بذكر مآثر الفاطميين ، وأن يأخذ بنصيبه فيما قاموا به فى سبيل نشر دعوتهم ، كما يتجلى ذلك فى هذين البيتين من قصيدة قد تكون آخر ما نظمه هذا الشاعر ، وقد بعث بها إلى المعز وهو بمصر فيقول :

وروح هدى فى جسم نور يمده ... شعاع من الأعلى الذى لم يجسم
فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه ... عن الله لم يعقل ولم يتوهم (١٠)

(ب) أبو حامد الأنطاكي

ومن أشهر شعراء الفاطميين أبو حامد أحمد الأنطاكى من أهل أنطاكية ، وقد عاصر المعز والعزيز والحاكم ، وأشاد بذكر جوهر الصقلى ويعقوب بن كلس وغيرهما . ووصفه الثعالبى (١١) فقال : « هو نادرة الزمان وجملة الإحسان ، وممن تصرف بالشعر الجزل ، فى أنواع الجد والهزل ، وأجرز قصب السبق . وهو أحد المداح المجيدين والفضلاء المحسنين ، وهو بالشام كابن حجاج بالعراق . فمن قوله هذه الأبيات التى يمتدح فيها يعقوب بن كلس الذى يستمد نفوذه من الخليفة العزيز :

---

(١) اليم البحر .
(٢) النفاثة البصقة . (٣) الغثاء بضم الغين ، الزبد وما يحمله الماء على وجهه من أقذار .
(٤) مقتبسة من القرآن سورة ٥٥ آية ٢٤ . (٥) شرحه سورة ٣٧ آية ٣٦ .
(٦) مالت (٧) ديوان ابن هانىء ص ٧ — ١١ ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٥٥
(٨) ديوان ابن هانىء ص ٣٤ — ٣٦ . (٩) المصدر نفسه ص ١٦٤ .
(١٠) المصدر نفسه ص ١٨٨ . راجع كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ٥٣ ص ١ — ١٥٧ .
(١١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٦٩ .

إن يعقوب قد أفاد وأقنى ... وأعاد الندى (١) وأغنى الضعيفا
سل سيفاً من البصيرة والرأ ... ى فأغناه أن يسل السيوفا (٢)
باذلا للعزيز دون حماه ... مهجة حرة ورأياً حصيفاً
ناصحاً مشفقاً محباً ودوداً ... قائماً فى رضاه صعباً عسوفا (٣)
ما رايناه قط إلا رأينا ... خلقاً طاهراً وفعلا شريفاً (٤)

ومن قوله يمدح ابن كلس :

قد سمعنا مقاله واعتذاره ... وأقلناه ذنبه وعثاره
والمعانى لمن عنيت ولكن ... بك عرّضت فاسمعى يا جاره
سحرتنى ألحاظه وكذا كل ... مليح ألحاظه سحاره
لم أزل لاعدمته من حبيب ... اشتهى قربه وآنى نفاره
لم يدع للعزيز فى سائر الأر ... ض عدواً إلا وأخمد ناره
فلهذا اجتباه دون سواه ... واصطفاه لنفسه واختاره
كل يوم له على نوب الدهـ ... ـر وكر الخطوب بالبذل غاره
ذو يد شأنها الفرار من البخـ ... ـل وفى حومة الوغى كراره
قد أقلّت عن العزيز عداه ... بالعطايا وكثرت أنصاره
زاده الله بسطة وكفاه ... خوفه من زمانه وحذاره (٥)

(ب) النثر

تنوعت الكتابة لكثرة العلوم وتنوع الفنون فى العصر العباسى الثانى ، وأصبح فى المتكلمين كتاب ، وفى الفقهاء كتاب ، وللفلسفة كتاب ، وللأدب ، وخاصة النثر ، كتاب يجيدون الكتابة كل فى فنه . ويقول الدكتور طه حسين بك (٦) عن الكتاب فى القرن الثالث الهجرى إنهم « قد تقسموا فنوناً مختلفة ، وتخصص كل منهم فى فرع من هذه العلوم : فمنهم من تخصص فى الفلسفة والكلام ، ومنهم من تخصص فى اللغة والنحو ، وقليل منهم من جمع من هذه الأشياء شيئاً كثيراً . بل نرى أن هذه الحياة العقلية غلبت العقل العربى على الخيال العربى ، ورفعت شأن النثر على شأن الشعر ، وأكثرت الكتاب وقللت الشعراء » .

والذى يهمنا هنا هو النثر الأدبى .

---

(١) أى أحى الكرم وأعاده إلى سابق سيرته .
(٢) يعنى أنه استغنى بعقله ودهائه فى كبت أعداء خليفته فاستغنى عن قتلهم بالسيوف .
(٣) صعبا عسوفا يعنى يأخذ أعداءه بالشدة .
(٤) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢٧١ .
(٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .
(٦) صحيفة الجامعة المصرية ، ابريل ١٩٣١ ، ص ٥ .

١ — الجـــاحظ :

اهتم الأدباء بدراسة البيئة التي تحيط بهم ، فألف القاضي محمد بن إسحق الصيمري المتوفى سنة ٢٧٥ هـ كتاب مساوى العوام وأخبار السفلة والأغتام .(١)، ووصف الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، الحياة في المدن. ويعد أبا النثر العربي الجديد ، كما يعد أعظم كتاب النثر أثراً ، حتى قال ثابت بن قرة المترجم: « ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس : أولهم عمر بن الخطاب ، والثاني الحسن البصري ، والثالث أبو عثمان الجاحظ » (٢) ، وإن أسلوبه وما تحويه كتبه من معلومات غزيرة يؤهله لأن يوضع في المرتبة الأولى من متقدمي كتاب النثر العربي . (٣)

ويقول المسعودي (٤) في مؤلفات الجاحظ : « ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه مع قوله بالعثمانية (٥) . وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب ، إلا أن أبا الحسن المدائني كان يؤدي ما سمع . وكتب الجاحظ ، مع انحرافه المشهور ، تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة. وله كتب حسان منها : كتاب البيان والتبيين (٦) ، وهو أشرفها ، لانه جمع فيه المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ، ومستحسن الأخبار ، وبليغ الخطب مما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به ؛ وكتاب الحيوان ، وكتاب الطفيليين والبخلاء . وسائر كتبه في نهاية الكمال ما لم يقصد منها إلى نصب (٧) ولا إلى دفع حق . ولا يعلم ممن سبق وخلف من المعتزلة أفصح منه » .

ومن أشهر مؤلفات الجاحظ : رسالة التربيع والتدوير (٨) التي هجا فيها أحمد بن عبد الوهاب ، وتقع في نحو ١٥٠ صفحة (٩) .

ويمتاز القرن الرابع الهجري بنهضة أدبية مباركة . فقد ظهر فيه كثير من أعلام البيان، من بينهم

---

(١) يعني الأغبياء الجهال . (٢) ياقوت : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج ٦ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 351 (٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٣٩ — ٤٤٠ .

(٥) أي تشيعه لعثمان بن عفان كما هو مذهب أهل البصرة ، ومذهبهم مخالف لمذهب الشيعة العلوية في الكوفة

(٦) اعتبر ابن خلدون (مقدمة ص ٥٠٦) كتاب البيان والتبيين أحد أركان الأدب فقال : « وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي ، وما سوى هذه الأبواب الأربعة فتبع لها وفروع عنها » .

(٧) النصب التدين ببغض علي ، ويلقب أصحاب هذا المذهب بالنواصب والناصبة وأهل النصب ، لأنهم نصبوا لعلي أي عادوه . أنظر القاموس المحيط .

(٨) وهي الرسالة الرابعة من رسائل الجاحظ الاحدى عشرة (القاهرة ١٣٢٤ هـ) . وقد طبعت في ليدن سنة ١٩٠٣ ضمن ثلاث رسائل هي : رسالة الى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وكافة جند الخلافة ، وكتاب فخر السودان على البيضان ، كتاب التربيع والتدوير (ص ٨٦ — ١٥٧) .

(٩) أنظر محاضرة الدكتور طه حسين بك في تحليل هذه الرسالة ، في صحيفة الجامعة المصرية (ابريل ١٩٣١) ص ٧ — ١٠ .

طائفة من الوزراء ، وذاع استعمال السجع فى الرسائل . وقد وصف آدم متز (١) هذه الرسائل فى هذه العبارة فقال : « إن رسائل القرن الرابع الهجرى هى أجمل آية للفن الإسلامى ، ومادتها أنفس ما اشتغل به الفنانون ، وهى اللغة . ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التى صنعتها أيدى الفنانين فى ذلك العهد من الزجاج والمعادن، لاستطعنا أن نرى فى هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق ، وامتلاكهم لناصية البيان فى أصعب صوره ، وتلاعبهم بذلك تلاعباً . وليس من محض الاتفاق أن يكون كثير من وزراء ذلك العهد أساتذة البيان وأعلامه . ولذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليقة أن تنشر كتباً للناس . وكان من أولئك الوزراء : الخصيبى ، وابن مقلة ، والمهلبى ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والإسكافى وزير السامانيين» ، وإبراهيم بن هلال الصابى الذى تقلد ديوان الإنشاء فى بغداد سنة ٣٤٩ هـ .

٢ — أبو إسحق الصابى

ويعتبر أبو إسحق إبراهيم بن هلال الصابى الحرانى (٣٢٠ — ٣٨٤ هـ) من أشهر رجال الأدب فى هذا العصر . وقد ولد ببغداد ، ووصفه الثعالبى (٢) فى هذه العبارة فقال : « أوحد العراق فى البلاغة ، ومن به تثنى الخناجر فى الكتابة (٣) ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة » . وقد تقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ ، واستمر يتقلده فى عهد معز الدولة بن بويه وابنه عز الدولة بختيار . وأثار كراهة عضد الدولة برسائله اللاذعة على لسان بختيار ، فحقد عليه واعتقله بعد أن استولى على السلطنة بالعراق على أثر قتل بختيار سنة ٣٦٧ هـ ، ثم أطلقه فى سنة ٣٧١ هـ بشفاعة بعض أصدقائه ، وأمره أن يضع له فى أخبار بنى بويه كتاباً سماه « التاجى » . وقد قيل إن عمال السوء سعوا بالصابى عند عضد الدولة وأوغروا صدره وأثاروا سخطه وحركوا ضغنه عليه ، على الرغم من أنه أكب على تأليف هذا الكتاب ، وأخذ يتأنق فى تصنيفه وترصيفه ، وينفق من روحه على تقريظه وتشنيفه (٤) ، فرفع إلى عضد الدولة أن صديقاً للصابى دخل عليه يوماً فرآه فى شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبديل والتبييض ، فسأله عما يعمله من ذلك فقال : أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها . فأمر (عضد الدولة) بأن يلقى تحت أرجل الفيلة ، فأكب نصر بن هرون ومطهر بن عبد الله وعبد العزيز بن يوسف على الأرض يقبلونها بين يديه ويستشفعون إليه فى أمره ويتلطفون فى استيهاب دمه إلى أن أمر باستيحائه (٥) مع القبض عليه وعلى أشيائه واستئصال أمواله ، فبقى فى ذلك الاعتقال بضع سنين إلى أن تخلص فى آخر أيام عضد الدولة إلى أن رزحت حاله وتهتك ستره)(٦).

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٣٩٩ — ٤٠٠ .

(٢) يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢١٨ (٣) تثنى أى توضع فى الأغماد ، والمقصود هنا أنه يستغنى بقلمه عن استعمال السيف والخنجر كما يقول الشاعر :

قوم إذا راموا عداوة معشر سفكوا الدما بأسنة الأقلام

(٤) أى تزيينه بالشنوف وهى كالأقراط من الحلى . (٥) أى تركه حيا .

(٦) يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

وكان ابن الصابى متمسكا بدينه على الرغم مما بذله الخلفاء والسلاطين والوزراء من جهود لتحويله إلى الإسلام ، حتى إن عز الدولة بختيار عرض عليه الوزارة إن أسلم ، « فلم يهده الله للإسلام كما هداه لمحاسن الكلام » . وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة ، ويخدم الأكابر أرفع خدمة ، ويساعدهم على صيام شهر رمضان ، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه »[١] .

وكان الصاحب بن عباد يحبه أشد الحب ويواصل إرسال منحه وعطاياه إليه . قال أبو القاسم على بن محمد الكرخى ، وكان الصاحب يقول : « كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو إسحق الصابى ، ولو شئت لذكرت الرابع ، يعنى نفسه .... وكان الصاحب يكتب كما يريد ، والصابى يكتب كما يؤمر ، وبين الحالين بون بعيد . وكيف جرى الأمر فهما هما ، وقد وقف فلك البلاغة عندهما »[٢] .

٣ — الصاحب إسماعيل بن عباد :

وكذلك يعد الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ — ٣٨٥ هـ) وزير فخر الدولة بن ركن الدولة البويهى فى أصبهان والرى من أشهر رجال الأدب فى عصره . وقد وصفه الثعالبى[٣] وصفاً شائقاً فى هذه العبارة فقال : « هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان . ومن لا حرج فى مدحه بكل ما يمدح به مخلوق . ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق . وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأموالهم مصروفة إليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته فى مجد يشيده ، وإنعام يجدده ، وفاضل يصطنعه[٤] ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولما كان نادرة عطارد فى البلاغة ، وواسطة عقد الدهر فى السماحة ، جلب إليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب جزل وقوال فصل . وصارت حضرته مشرعاً[٥] لروائع الكلام وبدائع الأفهام وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح . فبلغ من البلاغة ما يعد فى السحر ، ويكاد يدخل فى حد الإعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب[٦] ، واحتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء لرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى وملك رقاب المعانى . فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين : كأبى نواس ، وأبى العتاهية ، والعتابى ، والنمرى ، ومسلم بن الوليد ، وأبى الشيص ، ومروان بن أبى حفصة ، ومحمد بن مناذر . وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والزهرى[٧] وجرجان مثل : أبى الحسين السلامى ، وأبى بكر الخوارزمى ،

---

(١) الثعالبى : ج ٢ ص ٢١٩

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ (٣) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٦٩ — ١٧٠

(٤) يصطفيه ويختاره (٥) الشريعة والمشرع مورد الماء

(٦) أى جمع فى تدبيره بين بلاد الشرق والغرب .

(٧) كذا فى كتاب يتيمة الدهر للثعالبى ولعلها الرى .

وأبى طالب المأمونى ، وأبى الحسن البديهى ، وأبى سعد الرستمى ، وأبى القاسم الزعفرانى ، وأبى العباس الضبى ، وأبى الحسن بن عبدالعزيز الجرجانى ، وأبى القاسم بن أبى العلاء ، وأبى محمد الخازن ، وأبى هاشم العلوى ، وأبى الحسن الجوهرى ، وبنى المنجم ، وابن بابك ، وابن القاشانى ، وأبى الفضل الهمذانى ، وإسماعيل الشاشى ، وأبى العلاء الأسدى ، وأبى الحسن الفويرى ، وأبى دلف الخزرجى ، وأبى حفص الشهرزورى ، وأبى معمر الإسماعيلى ، وأبى الفياض الطبرى ، وغيرهم ممن لم يبلغنى ذكرهم أو ذهب عنى اسمه . ومدحه مكاتبه الشريف الموسوى الرضى ، وأبو إسحق الصابى ، وابن حجاج ، وابن سكرة ، وابن نباتة ... وما أحسن وأصدق قول الصاحب :

إن خير المداح من مدحته شعراء البلاد فى كل نادى

وقد ذكر ابن خلكان(١) أنه « اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره » . وصنف الصاحب كثيراً من الكتب ، منها كتاب فى اللغة فى سبعة مجلدات أسماه « المحيط » ، وكتاب الكافى فى الرسائل ، وكتاب الأعياد وفضائل النيروز ، وكتاب الإمامه ذكر فيه فضائل على بن أبى طالب ، وأثبت إمامة من تقدمه ، وكتاب الوزراء ، وكتاب الكشف عن مساوىء شعر المتنبى ، إلى غير ذلك من الرسائل البديعة(٢) .

وكانت مكتبة الصاحب تزخر بالمصنفات، حتى إن نوح بن أسد السامانى لما كتب إليه « يستدعيه ليفوض إليه وزارته وتدبير أمر مملكته ، فكان من جملة أعذاره إليه ، أنه يحتاج لنقل كتبه خاصة ، إلى أربعمائة جمل »(٣) .

٤ — أبو بكر الخوارزمى

وقد تطور الأدب تطوراً ملحوظاً فى هذا العصر ، فبعد أن كانت المحسنات اللفظية مقصورة على الرسائل الرسمية ، تعدت إلى الرسائل الإخوانية (أو الشخصية) بوجه عام ، وأصبحت كتابة هذه الرسائل فى أواخر القرن الرابع الهجرى فناً من أرقى الفنون ، حتى استطاع كثير من الأدباء أن يتخذوا من كتابة هذه الرسائل الجيدة وسيلة للتكسب ، كما كان الشعراء من قبل . ومن أشهر هؤلاء الأدباء أبو بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ؛ وكان أبوه من خوارزم وأمه من طبرستان ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبرى . وقد قصد الصاحب بن عباد وهو بأرجان . وتنقل فى كور العراق والشام ، واتصل بسيف الدولة الحمدانى ، « وشرق بعد أن غرب ، وورد بخارى » ، ثم نيسابور ، ثم قصد سجستان وطبرستان ، ثم عاد إلى نيسابور وأقام بها ، وتوثقت الصلة بينه وبين الصاحب بن عباد فى أصبهان(٤) .

« ويحكى أنه قصد حضرة الصاحب بن عباد وهو بأرجان ؛ فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجابه :

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٧٥ (٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٧٦

(٤) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ١٩٢ — ١٩٤ ، ١٩٥ .

قل للصاحب على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن فى الدخول . فدخل الحاجب وأعلمه ، فقال الصاحب : قل له ، قد ألزمت نفسى أن لا يدخل علىّ أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ؛ فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك ، فقال له أبو بكر : إرجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال ، فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمى ، فأذن له فى الدخول فدخل عليه ، فعرفه وانبسط له(١) .

وقد وصفه الثعالبى(٢) فى هذه العبارة فقال : « باقعة الدهر(٣) وبحر الأدب ، وعلم النثر والنظم ، وعالم الفضل والظرف . وكان يجمع بين الفصاحة العجيبة والبلاغة المفيدة ، ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها ، ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر ، ويتكلم بكل نادرة ويأتى بكل فقرة(٤) ودرة ، ويبلغ فى محاسن الأدب كل مبلغ ، ويغلب على كل محسن بحسن مشاهدته وملاحة عبارته ونعمة(٥) نعمته وبراعة جده وحلاوة هزله » .

وكان لما حازه الخوارزمى من شهرة واسعة فى ميدان الأدب أن قصده الطلاب من كل حدب وصوب . فمن رسائله فى الفقر : « وإنما يكره الفقر لما فيه من الهوان ، ويستحب الغنى لما فيه من من الصبوان(٦) . فإذا نبغ الغم من تربة الغنى ، فالغنى هو الفقر ، واليسر هو العسر . لا بل الفقير على هذه القضية أحسن من الغنى وأقل منه أشغالا ؛ لأن الفقير خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رق . فلا يستبطئه إخوانه ولا يطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر فى الفطر صدقته ، ولا فى النحر أضحيته ، ولا فى شهر رمضان مائدته ، ولا فى الربيع باكورته(٧) ، ولا فى الخريف فاكهته ، ولا فى وقت الغلة شعيره وبره ، ولا فى وقت الجباية خراجه وعشره . وإنما هو مسجد يحمل إليه ولا يحمل عنه(٨) ، وعلوى يؤخذ بيده ولا يؤخذ عليه(٩) ؛ تتجنبه الشرط نهاراً ويتوقاه العسس ليلا ؛ فهو إما غانم وإما سالم . وأما الغنى فإنما هو كالغنم غنيمة لكل يد سالبة ، وصيد لكل نفس طالبة ، وطبق على شوارع النوائب(١٠) ، وعلم منصوب فى مدرجة المطالب(١١) ، تطمع فيه الإخوان ويأخذ منه السلطان ، وينتظر فيه الحدثان(١٢) ويحيف ملكه النقصان(١٣) » .

---

(١) أى سر به ورفع الكلفة بينه وبينه . ابن خلكان جـ ١ ص ٥٢٣ . (٢) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ١٨٢ .

(٣) الباقعة الرجل الداهية والذكى العارف لايفوته شىء ولا يدهى أى لا يحار فى أمر .

(٤) أى جملة قصيرة لكنها قوية جميلة تشبه الحكم والأمثال السائرة .

(٥) النعمة الترف والنعيم . (٦) أى صون الكرامة والنفس . (٧) باكورة الشىء أول مايظهر منه

(٨) أى أن الفقير يشبه المسجد فى أنه يوهب له ولايستوهب منه

(٩) لايؤخذ عليه أى لا يفتقد عليه شىء ، وفى الأصل « عنه » ، ولعله تحريف .

(١٠) يشبه الغنى بالطبق على الإناء لأنه يغطى بماله النوائب التى تنتاب الناس .

(١١) بمعنى أنه كالراية المنصوبة الظاهرة يقصد إليها كل طالب ، والمراد أن الغنى يكون ظاهرا فى قومه ، فاذا نزلت بهم المغارم والمطالب قصده الطالبون أولا .

(١٢) أى يرتقب نزول الحوادث به (١٣) أى يأتى على مملوكه النقص بالحوادث والعلل . الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ٤ ص ١٩٠ — ١٩١ .

وكان أبو بكر الخوارزمى شيعياً غالياً . وقد أبان عن عقيدته هذه فى إحدى رسائله إلى أهل نيسابور حين جار عليهم عاملها لاعتناقهم مذهب الشيعة ؛ فأتى فى هذه الرسالة بوصف مثير للنفوس على هذه الأعمال التى كان يقوم بها السنيون فى وجه الشيعيين منذ وفاة النبى عليه الصلاة والسلام(١).

ولو وازنا بين رسائل الخوارزمى ورسائل الصابى ، لوجدنا رسائل الصابى أكثر اتزاناً وأقل مبالغة وأقرب إلى الواقع . وكان أهم ماامتازت به رسائل الخوارزمى المحسنات البديعية والسلاسة ... وبين هذا الأسلوب وبين الأسلوب العربى القديم كثير من وجوه الشبه ، من شغف بالألفاظ الجزلة ذات الجرس(٢) ، والتشبيهات الحسنة وقلق نفس الكاتب . غير أن ما كانت تنطوى عليه الفروسية قديماً من نبل العاطفة قد تغير وصار موضع سخرية ؛ وهذه هى الصورة الوحيدة التى أتيحت له فى مجتمعات المدن . أما الصفات الرئيسية التى اتصف بها أسلوب الخوارزمى ، فهى أيضاً صفات الأسلوب الساخر : وهى المبالغة والتكرار ، وهو يعمد إليهما باعتبارهما طريقة فنية فى الكتابة(٣) .

٥ — بديع الزمان الهمذانى

وكان زعيم هذا النوع من الكتابة أحمد بن الحسين الهمذانى المعروف ببديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (٤) . وكان — كما وصفه الثعالبى (٥) — « معجزة همذان ونادرة الفلك ، وبكر عطارد (٦) ، وفرد الدهر وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وشرف النفس وصفاء الذهن وقوة النفس ، ومن لم يدرك قرينه فى ظرف النثر وملحه وغرره ودرر النظم ونكته . ولم ير ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره وجاء بمثل إعجازه وسحره ، فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب : فمنها أنه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط ، وهى أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لا يخرم حرفاً ولا يخل بمعنى ، وينظر فى الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ، ثم يهذها(٧) عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً . وهذه حاله فى الكتب الواردة عليه وغيرها .

وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة فى معنى بديع وباب غريب ، فيفرغ منها فى الوقت والساعة والجواب عنها فيها .

وربما كان يكتب الجواب المقترح عليه ، فيبتدىء بآخر سطر منه ثم هلم جرا إلى الأول ، ويخرجه كأحسن شىء وأملحه ، ويوشح القصيدة (٨) الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه ، ويقترح

---

(١) رسائل الخوارزمى (طبعة القسطنطينية سنة ١٢٩٧ هـ) ص ١٣٠ — ١٣٩ انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٢٣ .
(٢) الجرس الموسيقى والعذوبة .
(٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٤٠٤ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩ (٥) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٤٠
(٦) قال الأزهرى : « عطارد كوكب الكتاب » ، ومعناه أن الذين يولدون فى طلوع عطارد يكونون ذوى حظ فى الأدب والكتابة والشعر . (٧) الهذ سرعة القراءة .
(٨) التوشيح التزيين بالوشاح ، والمراد أنه يجمع بين صناعتى الشعر والنثر

عليه كل عويص وعسير من النثر ، فيرتجله فى أسرع من الطرف على ريق لا يبلعه ونفس لا يقطعه » .

اتصل بديع الزمان بالصاحب بن عباد وأخذ عنه ، كما اتصل بأبى بكر الخوارزمى . ومن رسائله إلى الخوارزمى : « أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه ، كما طرب النشوان مالت به الخمر ، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر ، ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب ، ومن الابتهاج بمرآه كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب »[1] .

ومن رقعة له : « يعز علىّ أيد الله الشيخ أن ينوب فى خدمته قلمى عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى قبل وصولى ، ويرد مشرع الأنس به كتابى قبل ركابى . ولكن ما الحيلة والعوائق جمة .

وعلىّ أن أسعى وليـ ـس على إدراك النجاح

وقد حضرت داره وقبلت جداره ، وما بى حب للحيطان ولكن شغف بالقطان ، ولا عشق للجدران ولكن شوق إلى السكان »[2] .

على أن بديع الزمان كان ، بخلاف الخوارزمى ، سنياً مغالياً فى عقائد هذا المذهب . فبينما نرى الخوارزمى يوجه حملاته ضد أعمال العنف الذى حل بأهل مذهبه ، نرى بديع الزمان يتلمس المعاذير لما أتاه العمال السنيون ، الذين قضت سياستهم بالقضاء على ما يعبرون عنه بخروج أهل الشيعة على الدين »[3] . وكان من أثر ذلك أن دب الخلاف بينهما ، فتقارعا وتساجلا ، وكانت الغلبة لبديع الزمان الذى ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق ، وخاصة بعد موت الخوارزمى . وكان بديع الزمان يضع من قيمة أسلوب الخوارزمى ويقول : إنه لا يجيد من الكتابة « إلا هذه الطريقة الساذجة ، وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم ، المتناول لكل يد وفم »[4] .

ومن قول بديع الزمان فى تعزية : « الموت خطب قد عظم حتى هان ، وأمر قد خشن حتى لان ، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها ، وجنت حتى صار الحمام أصغر ذنوبها . فلتنظر يمنة هل ترى إلا محنة ؟ ثم لتعطف يسرة هل ترى إلا حسرة ؟»[5] .

٦ — أبو الفتح البستى

وهناك رجل آخر من رجال الرسائل المشهورين ، هو أبو الفتح على بن محمد البستى الذى اشتهر بحذقه فى الشعر والنثر . وقد أمر سبكتكين أبو السلطان محمود الغزنوى بإحضاره حين فتح مدينة بست ، فدخل فى خدمة سبكتكين ، وأصبح كاتب الرسائل فى ديوانه وشاعر بلاطه ، ثم خدم ابنه محموداً بعد وفاته ، ثم مات فى منفاه ببخارى سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩م)[6] . وقد حذق الصناعة البديعية التى

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٢٨ — ١٢٩ . (٢) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٤٣ .
(٣) رسائل بديع الزمان الهمذانى ، شرح الشيخ إبرهيم الأحدب الطرابلسى (طبعة بيروت ١٨٩٠ م) ص ٤٢١ — ٤٢٧ . انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٢٤ .
(٤) رسائل بديع الزمان الهمذانى ص ٧٦ (٥) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٤٤
(٦) أبو نصر العتبى : تاريخ اليمينى ج ١ ص ٦٧ — ٧٢ .

اشتهرت فى زمانه على يد ابن العميد والصاحب وأضرابهما . وكانت له طريقة جميلة فى التجنيس خاصة. « فمن ألفاظه البديعية قوله : من أصلح فاسده أرغم حاسده ، من أطاع غضبه أضاع أدبه ، عادات السادات سادات العادات ، من سعادة جدك وقوفك عند حدك ، الرشوة رشاء الحاجات ، أجهل الناس من كان للإخوان مذلا وعلى السلطان مدلا ، الفهم شعاع العقل ، المنية تضحك من الأمنية ، حد العفاف الرضا بالكفاف ، مالخرق الرقيع ترقيع . ومن نادر شعره قوله :

إن هزّ أقلامه يوما ليعملها أنساك كل كمى هز عامله
وإن أقر على رق أنامله أقر بالرق كتاب الأنام له » (١)

وقد ذاعت أشعاره فى زمانه وحفظها الناس وتناقلوها .وكثير منها كان يروى على ألسنة الرواة فى مجالس القاهرة ومقاهيها . من ذلك القصيدة التى مطلعها :

زيادة المرء فى دنياه نقصان وربحه غيرَ محض الخير خسران
ومنها أحسنْ إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسان (٢)

(ب) العلوم العقلية

١ — الفلسفة :

تأثر المسلمون بالفلسفة اليونانية بعد أن ترجمت كتبهم إلى العربية فى عهد الرشيد والمأمون ، فاشتغل « كثير من المسلمين بدراسة الكتب التى ترجمت إلى العربية ، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلاطها . نخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن إسحق الكندى ، الذى نبغ فى الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم . وقد حذا فى تآليفه حذو أرسطو ، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها »(٣).

وقد انتقلت الثقافة اليونانية إلى المشرق عن طريق الكنائس المسيحية التى تأثرت بهذه الثقافة ، وخاصة الكنيسة النسطورية التى توغلت آراؤها فى بلاد المشرق عامة وفى فارس خاصة ، وآراء الكنيسة اليعقوبية والملكانية التى انتشرت فى سورية . كما كان لمدارس الرها أثر كبير فى نشر الثقافة اليونانية وفى مدارس نصيبين ، حيث كانت تدرس العقائد النسطورية والثقافة اليونانية التى نالت تشجيع آل ساسان من ملوك الفرس . ولا تقل مدارس حران فى بلاد الجزيرة عن مدارس الرها ونصيبين ؛ إذ كانت تدرس فيها الآراء الفلسفية اليونانية كالفيثاغورية والأفلاطونية الحديثة(٤) . «وكان الحرانيون — أو الصابئة ، وهذه هى التسمية التى أطلقت عليهم فى القرنين التاسع والعاشر (الثالث والرابع من الهجرة) — (٥) ينسبون حكمتهم الصوفية إلى هرمس المثلث الحكمة (٦)

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٧ .
(٢) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I. pp. 98- 100
(٣) أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢٥٨
(٤) دى بور . تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٥ — ١٧ (٥) المصدر نفسه ص ١٧ — ١٨ .
(٦) ذكر ابن النديم (الفهرست ص ٣٩٣ — ٤٩٤ ، ٤٩٦ — ٤٩٧) أن الكندى اطلع على مقالات لهرمس فى التوحيد « لا يجد الفيلسوف إذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها » .

وأغاثاذيمون (١) وأورانيوس(٢) وغيرهم . وقد أخذوا عن حسن نية بآراء موضوعة ترجع للعصر الإغريقى المتأخر، وربما يكون بعض هذه الآراء قد وضع بين ظهرانيهم . وقد نشط قليل منهم فى الترجمة وفى تأليف يدل على سعة العلم . وكان لكثيرين منهم اتصال علمى وثيق بعلماء الفرس والعرب من القرن الثامن إلى العاشر (الثانى إلى الرابع من الهجرة) (٣) .

وقد أسس كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) فى مدينة جنديسابور معهداً تدرس فيه الفلسفة والطب وغيرهما من العلوم ، وكان معظم أساتذته من المسيحيين النسطوريين . وكان لتسامح هذا الملك وشغفه بالثقافة العقلية أثر فى جذب العلماء ، لامن النسطوريين وحدهم ، بل من اليعقوبيين والسريانيين ، الذين ذاعت شهرتهم فى الطب ، سواء فى عهد الساسانيين أو فى عهد الخلفاء الراشدين. ويدل على هذا التسامح ما لقيه الفلاسفة الوثنيون من أنصار المذهب الأفلاطونى الحديث من وسائل التشجيع والتعضيد(٤) .

(١) أبو إسحق الكندى

وممن تأثر بالآراء الفلسفية اليونانية خاصة أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى ، من قبيلة كندة اليمنية التى ينسب إليها امرؤ القيس الشاعر . وهو — كما يظهر من اسمه — عربى الجنس ، ولذلك سمى فيلسوف العرب . وكان — كما يقول ابن النديم(٥) — « فاضل دهره وواحد عصره فى معرفة العلوم القديمة بأسرها ... وكتبه فى علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والأرثماطيق والموسيقى والنجوم وغير ذلك » .

نشأ الكندى فى الكوفة وتعلم فى البصرة ثم فى بغداد ، وكانت — كما نعلم — من مراكز الثقافة الإسلامية التى تأثرت بالثقافتين الفارسية واليونانية . واشتهر الكندى بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية وتنقيح ما يترجمه غيره من المترجمين . وتأثر بآراء المعتزلة ، كما تأثر بالفلسفة اليونانية ، وخاصة فلسفة أرسطو ، واشتغل بالرياضيات وما وراء الطبيعة . ومن أشهر تلاميذه أحمد بن محمد الطيب السرخسى المتوفى سنة ٢٨٦ هـ ، وكان مؤدب الخليفة المعتضد ، واتصل به إتصالا وثيقاً ، ثم قلده الحسبة ، وجعل يستشيره فى أمور خلافته ، واشتغل بالكيمياء والجغرافيا والتاريخ (٦) . ومن تلاميذ الكندى أيضاً أبو معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ هـ المنجم المشهور . كما تأثر بآراء إخوان الصفا(٧) .

---

(١) أو أوغاثو ذيمون ، وهو مصرى ، وكان أحد أنبياء اليونانيين والمصريين .
(٢) يسميه ابن النديم أرانى ويذكره مع أنبياء الحرانيين والكلدانيين .
(٣) راجع دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٧ ، ١٨ هامش (١) ، (٢) ، (٣) .
(٤) المصدر نفسه ص ١٨ — ١٩ .
(٥) كتاب الفهرست ص ٣٥٧ .
(٦) دى بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١٢٤ — ١٢٦
(٧) كتاب الفهرست ص ٣٦٦ .

وذكر ابن النديم[١] مؤلفات الكندى فى الفلسفة والمنطق والحساب ، والموسيقى والنجوم والهندسة ، والفلك والطب والجدل والنفس والسياسة وغيرها .

(ب) إخوان الصفا

ومن أشهر فلاسفة هذا العصر هذه الطائفة التى تعرف باسم « إخوان الصفا » . وكانت ذات نزعة شيعية متطرفة ، حتى قيل إنها إسماعيلية[٢] . « وكانت هذه الطائفة — كما يقول براون[٣] — موضع عطف بنى بويه الذين اشتهروا بأفكارهم الحرة ، وحلوا ردحاً من الزمن محل العنصر التركى ، وأصبح لهم النفوذ الفعلى التام فى بغداد حول منتصف القرن الرابع (٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م) . ومن ثم استطاعت هذه الطائفة أن تتمم ما بدأه المعتزلة ، وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والانسجام بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية ، وتوحيد الثقافة فى صورة دائرة معارف » .

وكان إخوان الصفا جماعة سرية تتألف من طبقات متفاوتة . وقد أخذوا كثيراً من مبادىء الفلسفة الطبيعية ، متأثرين بالفيثاغورية الحديثة ، ولجئوا إلى تأويل القرآن تأويلا مجازياً[٤] . وتعتبر رسائل إخوان الصفا أشبه بدائرة معارف ، أخذت من كل مذهب فلسفى بطرف ، وتدل فى الوقت نفسه على أن مؤلفيها نالوا حظاً موفوراً من الرقى العقلى . وتتألف دائرة المعارف هذه من إحدى وخمسين رسالة تقوم على دعائم من العلم الطبيعى ، ولها من وراء هذا أغراض سياسية . وتبدأ فلسفة إخوان الصفا بالنظر فى الرياضيات ، وبالتلاعب بالأعداد والحروف . ثم تنتقل إلى المنطق والطبيعيات . فترد كل شىء إلى النفس وما لها من قوى ، وتنتهى أخيراً إلى الاقتراب من معرفة الله على نمط صوفى ، وجملة القول فى آرائهم أنها مذهب جماعة مضطهدة ، تبدو النزعات السياسية من جميع أجزائه ، ونرى من خلاله بعض ماعاناه أصحاب هذه الرسائل من آلام وماقاموا به من كفاح ، وما استهدفوا له هم وأسلافهم من ظلم ؛ ونتبين منه ما كان يختلج فى نفوسهم من أمل ، وما تواصوا به من الصبر . وهم يلتمسون فى هذه الفلسفة الروحية سلوى لنفوسهم أو تطهيراً لها . وهذه الفلسفة هى دينهم ، وشعارهم المذكور أن يكون الواحد منهم مخلصاً حتى الموت ، لاعتقادهم أن ملاقاة الموت فى سبيل صلاح الإخوان هى الجهاد الصحيح . وكانوا يؤولون الحج إلى مكة بأنه مثل ضربه الله لطواف الإنسان على هذه الأرض[٥] ، فأوجبوا على الإنسان أن يساعد أخاه فى هذه الحياة بكل ما يتسع له جهده ، فيجب على ذى المال أن يجعل للفقير حظا من ماله ، وعلى ذى العلم أن يعلم أخاه

---

(١) كتاب الفهرست ص ٣٥٨ — ٣٦٥ .

(٢) يرى البعض أن إخوان الصفا جماعة من علماء القرامطة الإسماعيلية ، وأنهم اتخذوا البصرة مركزا لنشاطهم العلمى ، وكان لهم فرع فى بغداد .

(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I. p. 292.

(٤) دى بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٩٥ .

(٥) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ١١٩ .

الجاهل . غير أن العلم — كما نراه فى رسائل الإخوان — حبس على خاصة المستبصرين من أفراد الطبقة العليا (١) .

من هذا نرى أن الغرض الذى كان يرمى إليه مؤلفو هذه الرسائل هو محاولة التوفيق بين الدين والعلم . ولكنهم لم يستطيعوا إرضاء أهل الدين ولا أهل العلم ؛ فإن المتكلمين والفقهاء السنيين عابوا عليهم طريقتهم فى التأويل . كما أن الفلاسفة ، والمتأثرين منهم بفلسفة أرسطو بوجه خاص ، عابوا عليهم مبادئهم الفلسفية . ومع هذا استطاعت الفلسفة اليونانية أن تستقر فى الشرق بفضل هذه الطائفة ، كما تأثرت بكتاباتهم طوائف الإسماعيلية : كالدرزية والنزارية المشهورين بالحشيشية فى فارس والشام ، كما أفاد آخرون فى تأليف موسوعاتهم على غرار رسائل إخوان الصفا (٢) .

وقد ذكر الشهرزورى أسماء خمسة من العلماء من مؤلفى هذه الرسائل وهم : أبو سليمان محمد بن نصر البستى ، ويسمى أيضا المقدسى (أو المقدّسى) ، وأبو الحسن على بن هرون الزنجانى ، وأبو أحمد النهرجورى (أو المهرجانى) ، والعوفى ، وزيد بن رفاعة . ويظهر أن الثلاثة الأولين من هؤلاء من أصل فارسى كما يتضح من أسمائهم . وكان من بينهم أيضاً ابن سينا الطبيب والفيلسوف المشهور الذى «انتهت بموته (سنة ٤٢٨ هـ) — كما يقول Dietrici (٣) — حركة الفلسفة فى المشرق» (٤) .

(ج) أبو نصر الفارابى

ومن أشهر فلاسفة المسلمين فى هذا العصر أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى (٥) . وكان أبوه من كبار القواد ، وتنقل أبو نصر فى أمهات المدن الإسلامية ، واختلف إلى بغداد حيث أخذ المنطق على أبى بشر متى بن يونس الحكيم المشهور ، وإلى حران حيث أخذ عن يوحنا بن خيلان الحكيم ، ثم عاد إلى بغداد « وقرأ بها علوم الفلسفة ، وتناول جميع كتب أرسطاطاليس ، وتمهر فى استخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها . ويقال إنه وجد كتاب لأرسطاطيس وعليه مكتوب بخط أبى نصر الفارابى ، أنى قرأت هذا الكتاب مائة مرة . ونقل عنه أنه كان يقول : قرأت السماع الطبيعى لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة ، وأرى أنى محتاج لمعاودة قراءته » (٦) .

ويعتبر الفارابى أكبر فلاسفة المسلمين ، حتى لقب بفيلسوف المسلمين بالحقيقة وفيلسوف المسلمين غير مدافع (٧) .

وقد اتصل الفارابى ببلاط سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب وصحب سيف الدولة عند فتحه

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٩٨ — ٩٩ . (٢) المصدر نفسه .

(٣) نشر رسائل إخوان الصفا وترجمها إلى الالمانية بين سنتى ١٨٥٨ ، ١٨٨٦ م . ونشرت أيضا فى ثلاثة أجزاء (بمباى ١٣٠٥ هـ) فى ثلاثة أجزاء ، تصنيف أحمد بن عبد الله .

(٤) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I. p. 293.

(٥) سمى بذلك لأنه ولد فى محلة وسيج المنيعة الواقعة فى إقليم فاراب ببلاد ماوراء النهر .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٧٦ .

(٧) القفطى : إخبار الحكماء ص ١٨٢

مدينة دمشق ومات بها فى سنة ٣٣٩هـ . وترجع شهرته إلى شروحه الكثيرة على مؤلفات أرسطو ، حيث لقب «المعلم الثانى» ، تمييزاً له عن أرسطو الذى لقب «المعلم الأول» ،كما يمتاز برسائله الكثيرة فى علم النفس والإلهيات : ومنها العقل والمعقول ، والنفس ، وقوى النفس ،والواحد والوحدة ، والجوهر ، والزمان ، والخلاء ، والمكان ، والمقاييس . كما كتب عدة رسائل للتوفيق بين آراء أرسطو وأفلاطون منها : كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهى وأرسطاطاليس ، وأغراض أفلاطون وأرسطو ، وكتاب التوسط بين أرسطاطاليس وجالينوس ، كما نشرت له رسالة آراء أهل المدينة الفاضلة (١) ، وتقع فى أربعة وثلاثين فصلا ، وتبين مدى تأثر الفارابى بأفلاطون (٢). كما تكلم الفارابى فى الأخلاق والمنطق ، وفيما وراء الطبيعة ، فتكلم عن الموجود والله(٣)، وعن العالم العلوى ، والعالم السفلى ، وبحث فى النفس الإنسانية والعقل فى الإنسان ، وعن الحياة الآخرة (٤).

(د) أبو على بن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ)

ومن فلاسفة هذا العصر الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله المشهور بابن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨هـ) . وقد أحيى آثار أرسطو وأفلاطون فى الفلسفة وأبقراط وجالينوس فى الطب . ولهذا ذاع صيته فى هاتين الناحيتين فى العصور الوسطى ، ليس فى تفكير أهالى آسيا وحدها ، بل فى تفكير الأوربيين أيضاً (٥) .

ولد ابن سينا فى إحدى قرى مدينة بخارى ، وانتقل مع أسرته إلى هذه الحاضرة وهو فى الخامسة من عمره ، وحفظ القرآن ودرس الأدب وأصول الدين وحساب الهند والجبر ولما يتجاوز العاشرة من عمره ، ثم درس على أبى عبدالله الناتلى الفلسفة والمنطق ، ثم درس وحده الطبيعيات والإلهيات مستعيناً فى ذلك بمؤلفات الفارابى . ثم درس الطب ونبغ فيه ولما يتجاوز السابعة عشرة. ولما اضطربت أحوال الدولة السامانية خرج ابن سينا من بخارى وقصد خوارزم شاه على بن مأمون بن محمد ، ثم انتقل إلى نيسابور وأبيورد وطوس وغيرها . وكان يتردد على شمس المعالى قابوس بن وشمكير فى طبرستان ، ثم انتقل إلى الرى وقزوين وهمذان ، وتقلد الوزارة لشمس الدولة (٣٨٧—٤١٢هـ) ابن فخر الدولة . ولكن الجند ثاروا عليه ، فتوارى ، ثم أعيد لمداواة هذا الأمير الذى قلده الوزارة من جديد ، وظل فيها إلى أن مات . وتولى تاج الدولة ، فلم يستوزره ، فتوجه إلى أصبهان ، فأحسن إليه أميرها علاء الدولة (٦) .

---

(١) طبعة مصر سنة ١٣٢٣ هـ .

(٢) راجع مادة « أبو نصر الفارابى » فى ترجمة دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) يرى الفارابى أن كل موجود إما واجب الوجود أو ممكن الوجود ، وليس هناك بين هذين الضربين وجود

(٤) راجع دى بور : تاريخ الفلسفة ص ١٢٧ وما يليها .

(٥) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. II. p. 106

(٦) ابن خلكان جـ ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

وقد ألف ابن سينا فى المنطق مقتفيا فى ذلك أثر أبى نصر الفارابى . ويعتبر المنطق المدخل للفلسفة التى ألف فيها الكتب وتأثر بأرسطو ، كما بحث فى الإلهيات وشرح إلهيات أرسطو . وتكلم عن الطبيعة ، وكان يحاول ما استطاع أن يوفق بين فلسفته وعقيدة أهل السنة والجماعة ، كما تكلم فى الإنسان والنفس الإنسانية والعقل ، وانفرد فى العقل بآراء . ففى رسالته حى بن يقظان يرى أنه هو هادى النفوس الناطقة الانسانية ، وهو العقل الفعال آخر العقول الفلكية ، وهو الذى يؤثر فى العقل الإنسانى(١) .

وكان ابن سينا — كما يقول ابن خلكان(٢) — « نادرة عصره فى علمه وذكائه وتصانيفه ، وصنف كتاب الشفاء فى الحكمة والنجاة والإشارات والقانون ، وغير ذلك مما يقارب مائة مصنف ما بين مطول ومختصر » .

٢ — الطب :

تمهيد :

كان لتقدم الطب فى أواخر العصر العباسى الأول أثر كبير فى العصر العباسى الثانى . فقد نبغ فى عهد الواثق والمتوكل كثير من الأطباء من أمثال يحيى بن ماسويه المتوفى سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) ، وبختيشوع الذى دخل فى خدمة الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، وكانوا يثقون به فى معالجة نسائهم وأولادهم(٣) . ولكن المتوكل صادر ثروته الضخمة التى جمعها من اشتغاله بالطب ونفاه إلى البحرين فى سنة ٢٤٤ هـ لأسباب واهية(٤) . وممن نبغ فى الطب أيضاً حنين بن حنين (المتوفى سنة ٢٦٠ هـ) ، « وكان — كما يقول ابن خلكان(٥) — إمام وقته فى صناعة الطب » ، كما اشتهر بنقل كثير من الكتب من اليونانية . وترجم عن اليونانية كتاب إقليدس ، الذى نقحه فيما بعد ثابت بن قرة . ومن مؤلفاته فى الطب كتاب المسائل فى الطب للمتعلمين ، وكتاب علاج العين ، وكتاب الأسنان واللثة ، وكتاب تدبير الناقه ، وكتاب معرفة أوجاع المعدة وعلاجها ، وكتاب المولودين لثمانية أشهر عمله لأم ولد المتوكل ، وكتاب الأغذية ، وكتاب اللبن(٦) .

اعتمد العباسيون على أطباء العراق والهند ، كما اعتمدوا على الطب الذى خلفه اليونان . وقد نبغ فى عهد الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) من الأطباء ابن بختيشوع ، وابن ماسويه ، وميخائيل ، وحنين بن إسحق . وحذقوا صناعة الطب ومرنوا عليها ، واعتمدوا فى علاج مرضاهم على ما كسبوه من تجارب ، كما أفادوا من كتب اليونان ونظرياتهم فى تشخيص الأمراض ، حتى قالوا فى مداواة المريض : « إنه يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر ، أى الموجود فى الحال

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٨١ . (٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٥٣ .
(٣) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٤١١ ، ٤١٣ .
(٤) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I. pp. 344, 345
(٥) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٦٧ . (٦) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٤١٠ .

والوقت ، دون الأسباب الفاعلة التى عُدمت ، ودون الأزمان ... وزعموا أن من المعلومات الظاهرة التى لا ريب فيها أن الضدين لا يجوز اجتماعهما فى حال ، وأن وجود أحدهما ينفى الآخر فى الحال لا محالة ، وأن الطريق والقانون إلى معرفة الطب مأخوذ من مقدمات أولية : فمنها معرفة الأبدان والأعضاء وأفعالها ، ومنها معرفة الأبدان فى الصحة والمرض ومعرفة الأهوية واختلافها ، والأعمال والصنائع والعادات ، والأطعمة والأشربة ، والأسفار ، ومعرفة قوى الأمراض . وقالوا ثبت فى الشاهد أن الحيوان يختلف فى صورته وطباعه ، وكذلك أعضاؤه مختلفة فى طباعها وصورها ، وأن الأجساد الحيوانية تتغير بالأهوية المحيطة بها ، وبالحركة والسكون ، والأغذية من المأكول والمشروب والنوم واليقظة ، واستفراغ ما يخرج من الجسد واحتباسه من الأعراض النفسانية ، من الغم والحزن والغضب والهم . والغرض بالطب هو تدبير الأجسام ، وحفظ الصحة الموجودة فى البدن الصحيح ، واجتلابها للعليل .

فالواجب أن يكون حفظ الصحة إنما هو بمعرفة الأسباب المصححة . فالواجب على الطبيب لا محالة من هذه المقدمات التى قد صحت ، إذا أراد علاج المريض ، النظر فى طبائع الأمراض والأبدان والأغذية والعادات ، والأزمان والأوقات الحاضرة ، والأسباب ، ليستدل بجميع ذلك . وهذا يا أمير المؤمنين قول أبقراط وجالينوس فيمن تقدم وتأخر عنهم . وقد اختلفت هذه الطائفة فى كثير من الأغذية والأدوية ، مع اتفاقهم على ما وصفنا ، وذلك لاختلافهم فى كيفية الاستدلال . فمنهم من زعم أنه يستدل على طبيعة الشىء من الأغذية والأدوية ، بطعمه أو ريحه ، أو لونه أو قوامه أو فعله ، وتأثيره فى الجسد ، وزعموا أن الوثيقة فى الاستدلال بالأجزاء ، إذا كانت الألوان والأرايح وسائر ما ذكرنا من أفعال الطبائع الأربع ، كما أن الأسخان والتبريد والتليين فعل لها . وزعمت طائفة أخرى منهم أن أصح الشهادات وأثبت القضايا فى الحكم على طبيعة الدواء والغذاء ، ما أخذ من فعله فى الجسد دون الطعم والرائحة وما سوى ذلك ؛ فإن الاستدلال بما سوى الفعل والتأثير ، لا يقطع به ولا يعول على طبيعة الدواء المفرد والمركب »(١) .

كذلك وصف الأطباء فى هذا العصر ، الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها ، حتى لقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحق ، وطلب منه أن يصنف له كتاباً يذكر فيه جميع ما يحتاج إلى معرفته ، « فصنف له كتاباً جعله ثلاث مقالات ، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد »(٢) .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٦ .

(٢) مروج الذهب : جـ ٢ ص ٣٦٦ .

أورد المسعودى وصفا دقيقا للاسنان يعتبر فى الواقع وثيقة طبية هامة لا بأس من ذكرها هنا : قال الواثق لحنين من بين الجماعة : « ما أول آلات الغذاء من الانسان ؟ قال : أول آلات الغذاء الفم وفيه الأسنان . والأسنان اثنتان وثلاثون سنا ، منها فى اللحى الأعلى ستة عشر سنا ، وفى اللحى الأسفل كذلك . ومن ذلك أربعة فى كل واحد من اللحيين عراض محددة الأطراف ، تسميها الأطباء من اليونانيين القواطع ، =

ويعد أبو يعقوب إسحق بن حنين المتوفى سنة ٢٩٨ هـ (وقيل سنة ٢٩٩ هـ) من أشهر أطباء هذا العصر . وقد فاق أباه حنين بن إسحق فى النقل من اليونانية والسريانية إلى العربية . « وكان — كما يقول ابن النديم(١) — فصيحاً بالعربية ، يزيد على أبيه فى ذلك » . واتصل بالخلفاء وكبار رجال الدولة ، ثم انقطع إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد وأصبح من المقربين إليه(٢) . وله كثير من الكتب فى الطب غير ما نقله إلى العربية ، منها كتاب الأدوية المفردة على الحروف ، وكتاب تاريخ الأطباء(٣) .

(ا) أبو بكر الرازى

ويعتبر أبو بكر محمد بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣١١ هـ أشهر أطباء عصره ، ويعرف عند الأوربيين باسم Rhazes . وكان فى حداثة سنه مولعاً بالغناء ، ثم أقبل على دراسة الطب بعد أن جاوز الأربعين ، « فقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها ، فبلغ من معرفة غوابرها الغاية ، واعتقد الصحيح منها ، وعلل السقيم ، وألف فى الطب كتباً كثيرة . وقال غيره : كان إمام وقته فى علم الطب والمشار إليه فى ذلك العصر . وكان متقناً لهذه الصناعة حاذقاً بها ، عارفاً بأوضاعها وقوانينها ، تشد إليه الرحال لأخذها عنه ، وصنف فيها الكتب النافعة : فمن ذلك كتاب الحاوى ، وهو من الكتب الكبار يدخل فى مقدار ثلاثين مجلداً ، وهو عمدة الأطباء فى النقل منه والرجوع إليه عند الاختلاف ؛ ومنها كتاب الجامع ، وهو أيضاً من الكتب النافعة ، وكتاب الأعصاب وهو أيضاً كبير »(٤) .

وقد اتصل بمنصور بن إسحق بن أحمد بن نوح السامانى ، فألف له كتابه « المنصورى فى الطب » الذى يعد أشهر كتبه ، « وهو على صغر حجمه من الكتب المختارة ، جمع فيه بين العلم والعمل ، ويحتاج إليه كل أحد(٥) . »

وذلك أن بها يقطع مايحتاج الى قطعة من الأطعمة اللينة ، كما يقطع هذا النوع من المأكل بالسكين ، وهى الثنايا والرباعيات . وعن جنبى هذه الأربعة فى كل واحد من اللحيين سنان ، رءوسهما حادة وأصولهما عريضة وهى الأنياب . وبهما يكسر كل مايحتاج إلى تكسيره من الاشياء الصلبة مما يؤكل . وعن جنبى النابين فى كل واحد من اللحيين ، خمس أسنان أخر عوارض خشن ، وهى الأضراس ، ويسميها اليونانيون الطواحن ، لأنها تطحن مايحتاج إلى طحنه مما يؤكل . وكل واحد من الثنايا والرباعيات والأنياب له أصل واحد . وأما الأضراس فما كان منها فى اللحى الأعلى ، فله ثلاثة أصول خلا الضرسين الأقصيين ، فإنه ربما كان لكل واحد منهما أصول أربعة . وما كان من الاضراس فى اللحى الأسفل ، فلكل واحد منها أصلان ، خلا الضرسين الأقصيين ، فانما ربما كان لكل واحد منهما أصول ثلاثة . وإنما احتيج إلى كثرة أصول الأضراس دون سائر الأسنان ، لشدة قوة العمل بها ، وخصت العليا منها بالزيادة فى الأصول لتعلقها بأعلى الفم » .

أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢٦٢ — ٢٦٤ .

(١) الفهرست ص ٤١٥ . (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٦ — ٦٧ .

(٣) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٤١٥ .

(٤) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ٢ ص ٧٨ .

(٥) المصدر نفسه .

وقد ذكر ابن النديم[١] أسماء كتب الرازى ، فمنها : « كتاب الحاوى ، ويسمى الجامع الحاصر لصناعة الطب . ويقسم هذا الكتاب اثنى عشر قسما : القسم الأول منه فى علاج المرضى والأمراض ، القسم الثانى فى حفظ الصحة ، القسم الثالث فى الرئبة والجبر[٢] والجراحات ، القسم الرابع فى قوى الأدوية والأغذية وجميع ما يحتاج إليه من المواد فى الطب ، القسم الخامس فى الأدوية المركبة ، القسم السادس فى صناعة الطب ، القسم السابع فى صيدنة الطب : الأدوية وألوانها وطعومها وروائحها ، القسم الثامن فى الأبدان ، القسم التاسع فى الأوزان والمكاييل ، القسم العاشر فى التشريح ومنافع الأعضاء ، القسم الحادى عشر فى الأسباب الطبيعية من صناعة الطب ، القسم الثانى عشر فى المدخل إلى صناعة الطب مقالتان : فى الأولى الأسماء الطبية ، وفى الثانية أوائل الطب » .

ومن هذه الكتب كتاب فى أن الحمية المفرطة تضر بالأبدان ، وكتاب ما يقدم من الفواكه والأغذية وما يؤخر ، وكتاب الجدرى والحصبة ، وكتاب الحصى فى الكلى والمثانة ، وكتاب إلى من لا يحضره طبيب ، وكتاب الأدوية الموجودة بكل مكان ، وكتاب الطب الملوكى ، وكتاب اختصار النبض الكبير لجالينوس ، وكتاب الفالج ، وكتاب هيئة الكبد ، وكتاب النقرس[٣] وعرق المدينى ، وكتاب القلب ، وكتاب هيئة السماخ[٤] ، وكتاب أوجاع المفاصل اثنان وعشرون فصلا ، وكتاب أقراباذين[٥] ، وكتاب تقسيم الأمراض وأسبابها وعلاجاتها على الشرح ، وكتاب فى العلة التى لها يحدث الورم من الزكام فى رؤوس بعض الناس ، وكتاب فى التلطف فى إيصال العليل إلى بعض شهواته ، وكتاب دفع مضار الأغذية ، وكتاب ترتيب أكل الفواكه ، وكتاب ما يعرض فى صناعة الطب[٦] .

اشتهر الرازى بالكرم والعطف على الفقراء والمرضى ، حتى كان يعالجهم وينفق عليهم[٧] . ومن إرشاداته الطبية : « مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية ، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب ... وإذا كان الطبيب عالماً والمريض مطيعاً فما أقل لبث العلة . ومن كلامه : عالج فى أول العلة بما لا تسقط به القوة[٨] » .

ومن أشهر أطباء هذا العصر أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة المتوفى سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢م)[٩] ، وابنه ابراهيم المتوفى سنة ٣٣٦ هـ . وقد أراد الخليفة القاهر أن يحوله إلى الإسلام ، فهرب ، ثم اعتقد هذا الدين بعد ذلك[١٠] .

---

(١) الفهرست ص ٤١٧ . (٢) رأب الصدع أصلحه وشعبه ولعله فى صناعة جبر العظام .
(٣) بتشديد النون وسكون القاف وكسر الراء : ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ، ويسمى داء الملوك . (٤) يعنى تشريح سماخ الأذن . (٥) يعنى المادة الطبية .
(٦) راجع ابن النديم ص ٤١٧ — ٤١٩ حيث تجد كل ما ألفه الرازى فى الطب والمنطق والفلسفة والهندسة والكيمياء . (٧) المصدر نفسه ص ٤١٦ . (٨) ابن خلكان ج ٢ ص ٧٨ .
(٩) أبو بكر الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٤٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٤٣ .
(١٠) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٤٢١ .

(ب) على بن العباس المجوسى

وكان على بن العباس المجوسى المتوفى سنة ٣٨٤هـ (٩٩٤م) وطبيب عضد الدولة البويهى، ومؤلف كتاب «كامل الصناعات» أشهر أطباء عصره . وكان يقيم مع عضد الدولة فى مدينة شيراز . وقد ذكر نظامى عروضى السمرقندى فى كتابه «تشهار مقالة» الذى ترجمه براون (١) إلى الإنجليزية أن شهرة على بن العباس قد ذاعت على أثر معالجته حمالا اعتاد أن يحمل أحمالا ثقيلة ، وأصيب من جراء ذلك بصداع مزمن ، كان يقعده عن عمله من حين إلى حين . وقد أصيب بهذا المرض وحاول الانتحار أكثر من مرة بعد أن قاسى آلام هذا المرض سبعة أو ثمانية أيام . وتصادف أن مر هذا الطبيب ببيت المريض ، فحياه أخوه واستحلفه بالله سبحانه وتعالى وأخبره بحالة أخيه ، وطلب إليه أن يعوده . وكان هذا المريض بدينا يلبس حذاء ثقيلا ، فحلل بوله ، ثم أمر بنقله إلى جهة خلوية ، وأمر أحد خدمه بخلع حذائه وضربه على قفاه ، ثم أمره بخلع عمامته ولفها حول عنقه . وأمر المريض أن يمتطى صهوة جواده ويعدو به حول ذلك المكان الفسيح ، فبدأ الدم يتدفق من خياشيمه حتى ساءت حاله ، ونام نوماً عميقاً وسط هذه الدماء المتدفقة من أنفه ، وفقد ثلثمائة درهم من دمه . ثم حملوه إلى داره ونام يوماً وليلة ، وزال عنه الصداع ولم يعاوده أبداً . ولما سأل عضد الدولة طبيبه عن هذه الطريقة الغريبة فى معالجة هذا المريض ، أجابه أن الدم قد تجمد فى رأسه ، وأنه كان من المستحيل أن يخلصه من هذا الدم المتراكم بالحجامة ، فلجأ فى علاجه إلى هذه الطريقة التى صادفت هذا النجاح.

(جـ) أبو على بن سينا

ذكرنا من قبل أن ابن سينا درس المنطق والفلسفة على أبى على الناتلى ، وأخذ الفقه على إسماعيل الزاهد ، وأنه اشتغل بالطب بعد أن توجه الناتلى إلى خوارزم شاه مأمون بن محمد ، «وتأمل الكتب المصنفة فيه ، وعالج تأدباً لا تكسباً ، وعلمه هذا فاق الأوائل والأواخر فى أقل مدة ، وأصبح فيه عديم القرين فقيد المثل . واختلف إليه فضلاء هذا الفن وكبراؤه ، يقرءون عليه أنواعه والمعالجات المقتبسة من التجربة ، وسنه إذ ذاك نحو ست عشرة سنة . وفى مدة اشتغاله لم ينم ليلة واحدة بكمالها ، ولا اشتغل فى النهار بسوى المطالعة . وكان إذا أشكلت عليه مسألة ، توضأ وقصد الجامع وصلى ، ودعا الله عز وجل أن يسهلها عليه ويفتح مغلقها له . وذكر عند الأمير نوح بن نصر السامانى (٣٣١ — ٣٤٣هـ) صاحب خراسان فى مرض مرضه ، فأحضره وعالجه حتى برىء ، واتصل به وقرب منه ، ودخل إلى دار كتبه (٢) ... فظفر أبو على فيها بكتب من علم الأوائل وغيرها ، وحصل نُخَب فوائدها ، واطلع على أكثر علومها . واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة ، فتفرد أبو على بما حصله من علومها . وكان يقال إن أبا على توصل إلى إحراقها لينفرد بمعرفة ماحصله منها وينسبه إلى نفسه . ولم يستكمل ثمانى عشرة سنة من عمره إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم بأسرها التى عاناها(٣)».

---

(١) Chahar Maqala, trans. by E.G. Browne, Anecdote XXXVI, pp. 124-5

(٢) انظر ص ٥١٨ من هذا الكتاب . (٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

ولما اضطربت أمور الدولة السامانية خرج أبو على من بخارى وقصد قصبة خوارزم ،واختلف إلى خوارزم شاه على بن مأمون بن محمد ، ثم انتقل إلى نسا وأبيورد وطوس وغيرها من البلاد . وكان يقصد الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير فى طبرستان . وكان السلطان محمود الغزنوى قد بعث فى طلب العلماء الذين كانوا ببلاط خوارزم شاه ، فلما هرب ابن سينا أمر هذا السلطان بنشر صورته فى الآفاق . وقد مرض أحد أقرباء شمس المعالى قابوس بن وشمكير ، فعالجه ابن سينا وتم شفاؤه على يديه ، فاستدعاه قابوس إليه وعرف شخصه ، لكنه آثر بقاءه فى خدمته . وظل على ذلك مُديدة . ولما سجن قابوس بن وشمكير ومات ، ذهب ابن سينا إلى داهستان ،ثم عاد إلى جرجان وصنف بها كتابه الأوسط الجرجانى ، ثم انتقل إلى الرى ، ثم إلى قزوين وهمذان ، وتقلد الوزارة لشمس الدولة بن فخر الدولة (٣٨٧ — ٤١٢ هـ) .ولكن الجند ثاروا عليه فتوارى ، ثم أعيد لمداواة هذا الأمير ، وتقلد الوزارة من جديد ، وظل فيها إلى أن مات شمس الدولة ، وتولى تاج الدولة فلم يستوزره ، فتوجه إلى أصبهان ، فأحسن إليه أميرها علاء الدولة بن كاكوية الذى يقول فيه ابن الأثير (١) : « ولا شك أن أبا جعفر (بن كاكوية) كان فاسد الاعتقاد ؛ فلهذا أقدم ابن سينا على تصانيفه فى الإلحاد والرد على الشرائع فى بلده (٢) » .

(د) الطب فى مصر

١ — فى عهد الطولونيين

وكما زخرت بلاد المشرق بطائفة من الأطباء الذين ضربوا فى الطب بأوفر سهم ، كذلك حفل المغرب الإسلامى ، وخاصة مصر ، بطائفة من أشهر أطباء هذا العصر . ومن هؤلاء سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون ، وكان نصرانياً . ويقول ابن الداية (٣) إن ابن طولون شكا من الإسهال ، فنصح له هذا الطبيب أن يلزم الحمية يومين ، ولكنه خالفه وأكل ، فانقطع عنه الإسهال . ولما علم هذا الطبيب بذلك ، أيقن أن حياة ابن طولون قد آذنت بالأفول ، ووصف حاله فى هذه العبارة : « ضعف قوته الناهضة يقهر الغذاء ، وسيتحرك حركة منكرة » . وقد صدق هذا الطبيب ومات ابن طولون بعد يومين (٤) .

ومن الأطباء الذين اشتهروا بمصر إبراهيم بن عيسى الذى صحب أحمد بن طولون إلى مصر ومات بها فى سنة ٢٦٠ هـ ، والحسن بن زيرك ، وكان من أطباء ابن طولون أيضاً ، ومات قبله بيوم واحد(٥) .

ولاغرو فقد نبغ كثير من المصريين فى هذا العصر فى علم الطب وما يتصل به من صناعة الأدوية والعقاقير . وقد عمل ابن طولون فى مؤخر جامعه ميضأة وخزانة شراب ، بها الأدوية والأشربة التى

---

(١) جـ ٩ ص ١٧٠ — ١٥٢ — ١٥٤ (٢) أنظر ترجمة أبى على بن سينا فى ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص

(٣) سيرة ابن طولون ص ٨١ .

(٤) أنظر هذا الكتاب ص ٢٢٨ — ٢٢٩ ، وابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٨٢ — ٨٥ .

(٥) ابن أبى أصيبعة جـ ٢ ص ٨٣ .

قد يحتاج إليها المصلون ، وقرر لهذا المكان الخدم ، وعين للمسجد طبيبا خاصاً يقوم بتطبيب المرضى من المصلين . ويكاد هذا يشبه نظام الإسعاف اليوم .

وكان ابن طولون يعنى بالشئون الصحية . فقد بنى المارستان للمرضى فى أرض العسكر (سنة ٢٥٩ هـ) ، وجعل له حمامين ، خص أحدهما بالرجال والآخر بالنساء ، وأباحه للناس على اختلافهم من غير تمييز فى الأديان والمذاهب ، وأدخل فى هذا المارستان ضروباً من النظام جعلته فى مستوى أرقى المستشفيات فى الوقت الحاضر . فكان المريض إذا دخل نزعت ثيابه وأودع مامعه من المال فى عهدة أمين المارستان ، ثم قدمت له ثياب أخرى ، وأنزل فى مكان تتوافر فيه وسائل الراحة ؛ وقدمت له الأدوية والأغذية دون مقابل حتى يتم شفاؤه . فإذا قدمت له دجاجة ورغيف فأكلهما ، أذن له بمغادرة المارستان بعد أن ترد إليه ثيابه وماله . وبلغ من اهتمام ابن طولون بهذا المارستان وحرصه على راحة المرضى أنه كان يتفقده بنفسه فى يوم الجمعة ، فيطوف على خزائن الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء ، ويشرف على المرضى ، ويبالغ فى مواساتهم وإدخال السرور عليهم .

٢ — فى عهد الفاطميين :

وقد اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح ، وقلدوهم المناصب العالية ، وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط ، مما ساعد على تقدم دراسة الطب الذى أصبح يدرس نظرياً وعملياً فى المارستانات التى كانت أشبه بكليات للطب تخرج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والكحالين ، أى الذين يعالجون أمراض العيون . وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية ، وخاصة السريانية واليونانية ، بجانب إلمامه بالطب . وقد أورد القفطى وابن أبى أصيبعة تراجم كثير من الأطباء الذين نبغوا فى هذا العصر .

ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمى ، وقد نشأ فى بيت المقدس ، حيث درس الطب على راهب يقال له أنبا زخريا بن ثوابة ، وعلى أحمد بن أبى يعقوب ؛ ثم تنقل فى كثير من المدن فى طلب هذا العلم ، وتوفر على دراسته حتى نبغ فيه ، كما أتقن طريقة تركيب الأدوية . ثم اتصل بالحسن بن عبد الله بن طغج الإخشيدى والى الرملة ومايليها من البلاد الساحلية فى عهد الإخشيديين ، فقربه إليه ، ثم صحب يعقوب بن كلس وصنف له كتاباً فى عدة مجلدات سماه « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء » . ثم اتصل بالأطباء الذين وفدوا على مصر مع الخليفة المعز لدين الله الفاطمى . ولأبى عبد الله التميمى عدة مؤلفات فى الطب منها : كتاب مخلص النفوس الذى قال فيه : هذا ترياق ألفته بالقدس وأحكمت تركيبه ، مختصر نافع الفعل دافع لضرر السمومات القاتلة المشروبة والمصبوبة فى الأبدان بلسع ذوات السم من الأفاعى والثعابين وأنواع الحيات المهلكة السم والعقارب الجرارات[1] وغيرها ، وذوات الأربع والأربعين رجلا ، ومن لدغ الرتيلات[2]

---

(١) الجرارة (على وزن فعاله) عقيرب تجر ذنبها .

(٢) الرتيلاء أو الرتيلى أنواع من الهوام ، كالذباب الذى يطير حول السراج ولسعها مورم مؤلم .

والعظايات(١)، مجرب ليس له مثل . ثم ساق مفرداته وصورة تركيبه فى كتابه المسمى « مادة البقاء ». وله من الكتب أيضاً كتاب « الفحص والأخبار » ، ومقالة فى « ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه » . وقد عاش التميمى إلى ما بعد سنة ٣٧٠ هـ (٢) .

ومن أطباء المعز موسى بن العازار الإسرائيلى الذى حذق صناعة الطب ، كما اشتهر فى هذا العلم أيضاً ابنه إسحق بن موسى ، وكان مقرباً من المعز ، ولكنه مات فى شهر صفر سنة ٣٦٣ هـ ، فحزن الخليفة على وفاته لحذقه وكفايته ، وعين مكانه أخاه إسماعيل بن موسى وكان قد تحول إلى الإسلام ، وابنه يعقوب بن إسحق . ومن كتب موسى بن العازار فى الطب « الكتاب المعزى فى الطبيخ » الذى ألفه للخليفة المعز ، وكتاب الأقرباذين(٣) .

وممن نبغ فى الطب أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر النصرانى ، طبيب الخليفة الحاكم الخاص . وكان مقرباً منه كما كان مقرباً من أبيه العزيز . وكان لشفاعته عند الحاكم أثر كبير فى إطلاق سراح الكتاب من النصارى واليهود وإعادتهم إلى مراكزهم(٤) .

ومن أطباء هذا العصر رجل يهودى كان خامل الذكر يرتزق بمداواة الجراح . واتفق أن الحاكم أصيبت ساقه بعقر مزمن ، وبرغم عناية ابن مقشر وغيره من أطباء الحاكم بمداومة علاجه لم يبرأ من من هذا الجرح . ولما أحضر هذا الطبيب إليه وضع على الجرح دواء يابساً ، فشفى بعد ثلاثة أيام ، فمنحه الحاكم ألف دينار وخلع عليه ، ولقبه « بالحقير النافع » ، وجعله من أطباء الخاص(٥) .

على بن رضوان

وممن نبغ فى الطب فى عهد الخليفة العزيز أبو الحسن على بن رضوان . وقد خلف كثيراً من الكتب التى تبرهن على سعة فكره وعلو كعبه فى هذه الناحية ، كما أن له كتباً فى الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة(٦) . وقد أحصى له لكلرك(٧) ، نحو سبعين مؤلفا . نشأ هذا الطبيب فقيراً معدما ، لكنه أصبح بفضل جده ومثابرته رئيس الأطباء فى عصر تفوقت فيه القاهرة على غيرها من الحواضر الإسلامية ، كبغداد وقرطبة . وكان لعلم التنجيم شأن يذكر فى عصر الفاطميين ، حتى كان الخلفاء أنفسهم يعولون كثيراً على التنجيم ، ويعتقدون أن للطالع تأثيراً كبيراً فى صاحبه . ويرى على بن رضوان ، ذلك الفيلسوف المشهور والطبيب الماهر ، أن طالعه يدل على أنه خلق ليكون طبيبا ، فدفعته هذه العقيدة إلى تحصيل الطب .

---

(١) جمع عظاية (بفتح العين والظاء والياء) دويبة سامة كالبرص وجمعها عظاء وعظايات .

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٨٧ — ٨٩ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٨٦ .

(٤) يحى بن سعيد : صلة تاريخ أوتيخا جـ ١ ص ١٨٥ — ١٨٦ ، القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء (طبعة لايبسك ١٩٠٣) ص ١٧٨ ، ٤٣٨ .

(٥) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٧٨ .

(٦) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٩٩ — ١٠٥ .

(٧) Leclerie : Histoire de Medecine Arabe, tome II. pp. 552 et seq.

وكان على بن رضوان من المجددين فى صناعته ، ولو أن تجديده — على مايقول بعض خصومه — محدود إذا ما قورن بالفارابى وابن سينا مثلا . على أن عمله لم يكن مقصوراً على النقل والشرح لكتب من جاء قبله من الأطباء كجالينوس وأبقراط ، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار ، كما يتجلى ذلك من قوله فى ترجمة حياته : « وكنت منذ الثانية والثلاثين إلى يومى هذا أعمل تذكرة لى ، وأغيرها فى كل سنة ، إلى أن قررتها على هذا التقرير الذى أستقبل به السنة الستين . من ذلك أتصرف كل يوم فى صناعتى بمقدار ما يغنى من الرياضة التى تحفظ صحة البدن ، وأغتذى بعد الاستراحة من الرياضة غذاء أقصد به حفظ الصحة ، وأجتهد فى حال تصرفى فى التواضع والمداراة وغياث الملهوف وكشف كربة المكروب وإسعاف المحتاج[١] » .

من هذا يتبين أن علياً بن رضوان كان مجدداً فى صناعته ، فكان يدون مشاهداته ، ويغير مادلت التجربة على فساده ، ويظهر ما ظهر له صلاحه . ولم يكن هذا الطبيب جشعاً ، كل همه الكسب من صناعته ، بل كان طبيباً إنسانيا ، يصرف اهتمامه لإسعاف الملهوف ومساعدة الفقير والمحتاج ، ولا يفكر فيما وراء ذلك من طلب المال . وهذا أقصى ما تتجه إليه همة الطبيب الكامل[٢] . وكانت حياة ابن رضوان كلها حياة كد وكفاح وعمل متصل إلى أن مات حول سنة ٤٦٠ هـ[٣] .

٣ — علم الفلك والنجوم :

كان لعلم النجوم أثر كبير فى توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتمدون على التنجيم فى تنفيذ سياستهم . فقد رأينا كيف اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم فى تأسيس مدينة بغداد ، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسى للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم الذى أخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها[٤] .

وقد اختار الإسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم فى بلاد اليمن ، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون له شأن فى نشر هذه الدعوة فى تلك البلاد[٥] . ومن قصيدة الفهرى التى يقول فيها :

فعنـــد الست والتسعيـ ـن قطع القول فى العـــذر

ما يدلنا على عقيدة الإسماعيلية بأن دولتهم ستقوم فى سنة ست وتسعين ومائتين . وكان لهذه العقيدة أثر كبير فى انضواء كثير من الناس تحت لواء دعاة الإسماعيلية[٦] . وكذلك حذا الفاطميون حذو العباسيين فى الاعتماد على التنجيم . فقد ذكر ابن دقماق[٧] أن مدينة القاهرة التى بناها جوهر

---

(١) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ١٠٠ .
(٢) المصدر نفسه — أنظر ترجمة على بن رضوان فى ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٥ .
(٣) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .
(٤) أنظر هذا الكتاب ج ٢ ص ٢٦١ .
(٥) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن (طبعة هنرى كاسل ، لندن ١٨٩٢) ص ١٤٠ .
(٦) انظر هذا الكتاب ص ٣٣١ ، وكتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٧٧ .
(٧) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٦ ص ٣٥ .

الصقلى سميت بهذا الاسم لأن أساسها شق على طلوع كوكب المريخ الذى يسمى « القاهر » . وذكر المقريزى(١) « أن القائد جوهرا لما أراد بناءها ، أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبداً . فاختاروا طالعا لوضع الأساس وطالعا لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمال : إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة . فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك ، فاتفق أن غرابا وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الأجراس ، فتحركت كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا ، فصاح المنجمون : القاهر فى الطالع ، فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه . ويقال إن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك ، فسموها القاهرة » .

وكذلك اهتم الخليفة الحاكم الفاطمى بعلم النجوم ، حتى إنه أنشأ رصداً بسفح المقطم أطلق عليه « الرصد الحاكمى » . واستعان بأبى الحسن على بن يونس المنجم المصرى المتوفى سنة ٣٩٩ هـ صاحب الزيج الحاكمى(٢) المعروف بالزيج الحاكمى وزيج ابن يونس الذى يقول فيه ابن خلكان (٣) : « هو زيج كبير رأيته فى أربع مجلدات ، بسط القول والعمل فيه ، وما قصر فى تحريره . ولم أر فى الأزياج على كثرتها أطول منه . وذكر أن الذى أمره بعمله وابتدأ له العزيز أبو الحاكم صاحب مصر »(٤).

وقد ذكر أبو المحاسن(٥) عند كلامه على وفاة الحاكم أن « الحاكم كان ينظر فى النجوم ، فنظر مولده ، وكان قد حكم عليه بالقطع فى هذا الوقت ، فإن تجاوزه عاش نيفاً وثمانين سنة . وكان الحاكم لا يترك الركوب بالليل وطوف القاهرة ، فلما كان تلك الليلة قال لوالدته : علىّ فى هذه الليلة وفى غد قطع عظيم ، والدليل عليه علامة تظهر فى السماء طلوع نجم سماه ، وكأنى بك وقد انتهكت وهلكت مع أختى ، فإنى ما أخاف عليك أضر منها ... فقبلت الأرض وقالت : إذا كنت تتصور هذا فارحمنى واقض حقى ، ودع ركوبك الليلة ، وكان يحبها ، فقال : أفعل » .

وكان ضجر الحاكم وخروجه آخر الليل سبب قتله على ما تقدم (٦) .

وقد نبغ فى علم النجوم ، أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخى ، وكان فى بدء حياته من أصحاب الحديث ، ثم اشتغل بعلم النجوم ، ونبغ فيه بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره ، وعمر طويلا حتى جاوز المائة . وكان يضمر العداوة والبغضاء لأستاذه الكندى ، حتى إن هذا « حسن له النظر فى

---

(١) خطط جـ ١ ص ٣٧٧ .

(٢) الزيج بكسر الزاى هو كتاب يحسب فيه سير الكواكب ومنه يستخرج التقويم ، أعنى حساب الكواكب لسنة سنة وهو فارسى . أنظر كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٢٧ .

(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٧٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٧٩ .

(٤) كان ابن يونس فوق شهرته فى علم النجوم يجيد نظم الشعر ، ومن شعره :

أحمل نشر الريح عند هبوبه ... رسالة مشتاق لوجه حبيبه .

بنفسى من تحيا النفوس بقربه ... ومن طابت الدنيا به وبطيبه

(٥) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨٧ .

(٦) أنظر هذا الكتاب ص ٢٦٢ — ٢٦٣

علوم الحساب والهندسة ، فدخل فى ذلك فلم يكمل له ، فعدل إلى علم أحكام النجوم ، وانقطع شره عن الكندى بنظره فى هذا العلم لأنه من جنس علوم الكندى » (١) . وكان أبو معشر — كما يقول ابن خلكان (٢) — « إمام وقته فى فنه ، وله التصانيف المفيدة فى علم النجامة » . ومن أشهر كتبه فى النجوم: كتاب المدخل الكبير ، وكتاب المدخل الصغير ، وكتاب هيئة الفلك واختلاف طلوعه ، وكتاب السهمين وأعمار الملوك والدول ، وكتاب تفسير المنامات من النجوم ، وكتاب الأمطار والرياح وتغيير الأهوية (٣) .

وقد وضع أبو عبد الله محمد بن جابر البتانى الحرانى الصابى المتوفى سنة ٣١٩ هـ ، ويعرف عند الأوربيين باسم Albategnius (٤)، الزيج الصابى الذى أثبت فيه الكواكب الثابتة فى سنة ٢٩٩ هـ(٥). «وله الأعمال العجيبة والأرصاد المتقنة ... وكان أوحد عصره فى فنه ، وأعماله تدل على غزارة فضله وسعة علمه » (٦) . ومن أشهر كتبه أيضاً كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك (٧) .

وقد اشتهر بالنجامة بيت أبى الحسن على بن أبى عبد الله هارون بن على بن يحيى بن أبى منصور . وكان أبو منصور جد أبيه منجم أبى جعفر المنصور ، وابنه يحيى متصلا بالفضل بن سهل الذى كان يعمل برأيه ، ثم صار منجم المأمون ونديمه وأسلم على يديه . وتوفى بحلب عند خروج المأمون إلى طرسوس (٨). وكان أبو الحسن على (٢٧٧ — ٣٥٢ هـ) من أكبر علماء النجوم فى عصره ، وقد قربه الصاحب بن عباد إليه وأطلق عليه «جليس الخلفاء وأنيس الوزراء »(٩). ومن كتبه «كتاب النيروز والمهرجان» ، وكتاب شهر رمضان وقد أهداه للخليفة الراضى (١٠) .

وقد بلغ الاهتمام برصد الكواكب غايته فى القرن الرابع الهجرى . وقد قيل إن شرف الدولة بن عضد الدولة (٣٧٦ — ٣٧٩ هـ) لما استقرت قدمه فى العراق « أمر بأن ترصد الكواكب السبعة فى مسيرها وتنقلها فى بروجها على مثال ما كان المأمون يفعل » (١١) .

وقد ضرب أبو الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) بسهم وافر فى علم النجوم . وليس أدل على ذلك من مخاطراته فى بلاط غزنة على ما جاء فى المقالة الثالثة والعشرين من ترجمة كتاب « تشهار مقالة(١٢) » تأليف نظامى عروضى السمرقندى . ذلك أن السلطان محموداً الغزنوى بعث فى طلب البيرونى وهو فى حديقة قصره الصيفى وغرس فيها ألف شجرة ليمتحن البيرونى فى علم

---

(١) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٨٦ . (٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٢

(٣) ابن النديم ص ٣٨٦ — ٣٨٧

(٤) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 363

(٥) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٨٩ — ٣٩٠

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٠ (٧) ابن النديم ص ٣٩٠

(٨) ابن خلكان ج ٢ ص ١٩٤ (٩) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٠٢

(١٠) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٦ (١١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٢

(١٢) The Chahar Maqàla (Four Discourses), trus. by E. G. Browne (London, 1899), pp. 92 — 5.

النجوم ، فسأله : من أى الأبواب الأربعة سأخرج ؟ فأجاب البيرونى : اجمع رأيك واكتبه على قطعة من الورق وضعها تحت وسادتى . ثم طلب أبو الريحان أسطرلابا واختبر النجوم ، ثم دون قراره فى قطعة من الورق وضعها تحت الوسادة . وقال السلطان محمود : هل اهتديت إلى قرار ؟ فقال البيرونى : نعم ! وأمر السلطان أن يثقب أحد الحيطان ويتخذ منه باب خامس خرج منه ، ثم أمر بإحضار الورقة . ولما أحضرت قرأ ما فيها وهو أنه لن يخرج من أحد هذه الأبواب الأربعة ، إلا أنه ستفتح فتحة فى الحائط الشرقى ، وسيخرج من هذا الباب . ولما قرأ السلطان هذه الورقة أخذ الغضب منه كل مأخذ ، وأمر بأن يلقى أبو الريحان من فوق سطح القصر . ولكنه لم يصب بأذى ، لأنه سقط على شبكة أقيمت لطرد الذباب فتمزقت ، واستطاع أن يصل إلى الأرض ولم يلحق به أى ضرر . ولما أمر السلطان بإدخاله قال له : ياأبا الريحان ! هل تنبأت بهذا الحادث أيضاً ؟ فأبرز من جيبه كراسة « مذكرة » كتب فيها : سيلقى بى فى هذا اليوم من قصر السلطان ، ولكنى سأصل إلى الأرض بسلام وأنهض معافى الجسم . ولكن ذلك لم يجر على هوى السلطان الذى زاد غضبه وأمر باعتقاله فى قلعة غزنة ، حيث بقى ستة أشهر لم يجرؤ فيها أحد على أن يكلم السلطان فى أمره ، وأطلق بفضل تدخل الوزير أحمد بن حسن الميمندى[1] الذى انتهز إحدى الفرص المناسبة وقال له إن أبا الريحان البيرونى ، ذلك الرجل المسكين ، على الرغم من صدق نبوءته ، قد قيد وسجن بدلا من أن يخلع عليه ويجزل له العطاء ، فأجابه السلطان : اعلم ياسيدى أن هذا الرجل ليس له نظير فى الدنيا سوى ابن سينا ، ولكن كل تنبؤاته لم تتفق مع رغباتى . والملوك كالأطفال الصغار ، يجب على المرء أن يتكلم بما يتفق ورغباتهم ليفوز بمنحهم وعطاياهم . وكان من الخير له أن يخطىء فى إحدى هاتين النبوءتين . ومع ذلك مر بإحضاره فى الغد وأعطه جواداً محلى بالذهب وخلعة سلطانية وعمامة من الطيلسان ، وهب له ألف دينار وعبداً وأمة .

٤ — الرياضيات :

وممن اشتهر بالرياضيات ثابت بن قرة الحرانى (٢٢١ — ٢٨٨ هـ) ، وكان فى بدء أمره صيرفيا بحران ، واتصل بالخليفة المعتضد الذى أدخله فى عداد من اعتمد عليهم فى التنجيم . وبفضل ثابت ارتفع شأن الصابئة وعلت منزلتهم عند الخلفاء . ومن أشهر مؤلفاته فى الرياضيات : كتاب حساب الأهلة ، وكتاب فى استخراج المسائل الهندسية ، وكتاب الأعداد ، وكتاب شكل القطاع[2] . وكان سنان بن ثابت المتوفى سنة ٣٣١ هـ من كبار الرياضيين والمهندسين فى هذا العصر ؛ على أن شهرته فى الطب فاقت شهرته فى هذه النواحى[3] .

ومن أشهر الرياضيين أبو الوفا محمد بن محمد بن إسماعيل بن العباس[4] . وقد ولد فى نيسابور

---

(١) نسبة إلى ميمند ، وهى رستاق بفارس ، وبنواحى غزنة أيضا . أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت

(٢) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٨٠ (٣) المصدر نفسه ص ٣٨٠ ، ٤٢١

(٤) المصدر نفسه ص ٣٩٤

سنة ٣٢٨ هـ ، ووفد على العراق وهو فى العشرين من عمره . وتعلم الحساب على عمه أبى عمرو المغازلى وخاله أبى عبد الله محمد بن عنبسة . ومن مؤلفاته : كتاب ما يحتاج إليه العمال والكتاب من صناعة الحساب ، وهو سبعة أقسام ، كل قسم سبعة أبواب شملت جميع أنواع الرياضيات ، وكتاب تفسير كتاب الخوارزمى فى الجبر والمقابلة ، وكتاب المدخل إلى الأرثماطيقى ، وكتاب استخراج ضلع المكعب ، وكتاب معرفة الدائرة من الفلك .

ومن أشهر الرياضيين فى عهد الفاطميين أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم ، وقد نشأ فى البصرة ثم انتقل إلى مصر وأقام بها . « وكان — كما يقول ابن أبى أصيبعة[1] — فاضل النفس ، قوى الذكاء ، متفننا فى العلوم ، لم يماثله أحد من زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه . وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر الزهد محبا للخير . وقد لخص كثيراً من كتب أرسطاطاليس وشرحها ، وكذلك لخص كثيراً من كتب جالينوس فى الطب . وكان خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها الكلية ، إلا أنه لم يباشر أعمالها » .

ولما اتصل خبره بالحاكم الفاطمى ، تاقت نفسه إلى رؤيته ، ثم نمى إلى هذا الخليفة أنه قال : « لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص . فقد بلغنى أنه يتحدر من موضع عال هو فى طرف الإقليم المصرى . فازداد الحاكم إليه شوقا وأرسل إليه سرا جملة من المال وأرغبه فى الحضور ، فسار نحو مصر . ولما وصلها خرج الحاكم للقائه ، والتقيا بقرية على باب القاهرة المعزية تعرف بالخندق ، وأمر بإنزاله وإكرامه واحترامه ، وأقام ريثما استراح ، وطالبه بما وعد به من أمر النيل . فسار ومعه جماعة من الصناع المتولين للعمارة بأيديهم ليستعين بهم على هندسته التى خطرت له . ولما سار إلى الإقليم بطوله ، ورأى آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية ، وهى فى غاية من إحكام الصنعة وجودة الهندسة ، وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ومثالات هندسية وتصوير معجز ، تحقق أن الذى يقصده ليس بمحكم ؛ فإن من تقدمه فى العصور الخالية لم يعزب عنهم علم ما علمه ، ولو أمكن لفعلوه . فانكسرت همته ووقف خاطره ووصل إلى الموضع المعروف بالجناذل قبل مدينة إسوان ، وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل ، فعاينه وباشره واختبره من جانبيه ، فوجد أنه لا يمشى على موافقة مراده ، وتحقق الخطأ والغلبة عما وعد به ، وعاد خجلا منخذلا ، واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره ووافقه عليه . ثم إن الحاكم ولاه بعض الدواوين ، فتولاها رهبة لا رغبة ، وتحقق الغلط فى الولاية ؛ فإن الحاكم كان كثير الاستحالة مريقا للدماء بغير سبب أو بأضعف سبب من خيال يتخيله ، فأجال فكرته فى أمر يتخلص به ، فلم يجد طريقا إلى ذلك إلا إظهار الجنون والخبال ، فاعتمد ذلك وشاع ، فأحيط على موجوده له بيد الحاكم ونوابه ، وجعل برسمه من يخدمه ويقوم بمصالحه ، وقيد وترك فى موضع من منزله ، ولم يزل على ذلك إلى أن تحقق وفاة الحاكم . وبعد ذلك بيسير أظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه ، وخرج عن داره واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر أحد جوامع القاهرة ، وأقام بها متنسكا متعزبا

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٩٠

مقتنعا ، وأعيد إليه ماله من تحت يد الحاكم ، واشتغل بالتصنيف والنسخ والإفادة . وكان له خط قاعد فى غاية الصحة ، كتب به الكثير من علوم الرياضة ... ولم يزل على ذلك إلى أن مات بالقاهرة فى حدود سنة ثلاثين وأربعمائة أو بعدها بقليل » (١).

وكان ابن الهيثم غزير العلم واسع الاطلاع كثير التصنيف . فمن كتبه : كتاب السماع الطبيعى ، ويتناول ستة أمور هى : المبادىء الكونية والطبيعية ، والمكان ، والخلاء ، وما لا نهاية له ، والزمان والحركة والمحرك الأول ؛ وكتاب الكون والفساد ، وكتاب الآثار العلوية وهى التى تعرض فى الجو كالسحاب والضباب والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق ، وكتاب النبات والحيوان ، وكتاب السماء والعالم ، وكتاب النفس ، وكتاب فيما بعد الطبيعة ، فبين أن الإله واحد وأنه حكيم لا يجهل ، وقادر لا يعجز ، وجواد لا يبخل . ثم تفرغ لدراسة علوم الفلسفة وهى ثلاثة علوم : رياضية ، وطبيعية ، وإلهية (٢). وقد بين لنا ابن الهيثم نفسه آثاره فى الرياضيات فى هذه العبارة فقال: « فما صنعته فى العلوم الرياضية خمسة وعشرون كتابا (أجدها) شرح أصول إقليدس فى الهندسة والعدد وتلخيصه (والثانى) كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب إقليدس وأبولونيوس ، ونوعت فيه الأصول وقسمتها ، وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية ، حتى انتظم ذلك مع انتقاض توالى إقليدس وأبولونيوس (والثالث) شرح المجسطى (٣) وتلخيصه شرحا وتلخيصا برهانيا لم أخرج منه شيئا إلى الحساب إلا اليسير . وإن أخر الله فى الأجل وأمكن الزمان من الفراغ استأنفت الشرح المستقصى لذلك الذى أخرجه به إلى الأمور العددية والحسابية (والرابع) الكتاب الجامع فى أصول الحساب وهو كتاب استخرجت أصوله لجميع أنواع الحساب من أوضاع إقليدس فى أصول الهندسة والعدد ، وجعلت السلوك فى استخراج المسائل الحسابية بجهتى التحليل الهندسى والتقدير العددى ، وعدلت فيه عن أوضاع الجبريين وألفاظهم (والخامس) كتاب لخصت فيه علم المناظر من كتابى إقليدس وبطليموس ، وتممته بمعانى المقالة الأولى المفقودة من كتاب بطليموس (والسادس) كتاب فى تحليل المسائل الهندسية (والسابع) كتاب فى تحليل المسائل العددية بجهة الجبر والمقابلة مبرهنا (والثامن) كتاب جمعت فيه القول على تحليل المسائل الهندسية والعددية جميعا ، لكن القول على المسائل العددية غير مبرهن ، بل هو موضوع على أصول الجبر والمقابلة (والتاسع) كتاب فى المساحة على جهة الأصول (والعاشر) كتاب فى حساب المعاملات (والحادى عشر) مقالة فى إجارات الحفور والأبنية طابقت فيها جميع الحفور والأبنية بجميع الأشكال الهندسية حتى بلغت فى ذلك إلى أشكال قطوع المخروط الثلاثة : المكافىء والزائد والناقص (والثانى عشر) تلخيص مقالات أبولونيوس فى قطوع المخروطات (والثالث عشر) مقالة فى الحساب الهندى (والرابع عشر) مقالة فى استخراج سمت القبلة فى جميع المسكونة بجداول وضعتها ولم أورد البرهان على ذلك (والخامس عشر) مقالة فيما تدعو إليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور

(١) ابن أبى أصيبعة جـ ١ ص ٩٠ — ٩١ (٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٩٢ — ٩٣

(٣) وهو الكتاب الأعظم فى الفلك لبطليموس

الهندسية ولا يستغنى عنه بشيء سواه (والسادس عشر) رسالة إلى بعض الرؤساء فى الحث على عمل الرصد النجومى (والسابع عشر) كتاب فى المدخل إلى الأمور الهندسية (والثامن عشر) مقالة فى انتزاع البرهان على أن القطع الزائد والخطان اللذان لا يلقيانه (لا) يقربان أبداً ولا يلتقيان (والتاسع عشر) أجوبة سبع مسائل تعليمية سئلت عنها ببغداد فأجبت (والعشرون) كتاب فى التحليل والتركيب الهندسيين على جهة التمثيل للمتعلمين ، وهو مجموع مسائل هندسية وعددية حللتها وركبتها (والحادى والعشرون) كتاب فى آلة الظل اختصرته ولخصته من كتاب إبراهيم بن سنان فى ذلك (والثانى والعشرون) مقالة فى استخراج ما بين بلدين فى البعد بجهة الأمور الهندسية (والثالث والعشرون) مقالة فى أصول المسائل العددية الصم وتحليلها (والرابع والعشرون) مقالة فى حل شك على إقليدس فى المقالة الخامسة من كتابه فى الأصول الرياضية (والخامس والعشرون) رسالة فى برهان الشكل الذى قدمه أرشميدس فى قسمة الزاوية ثلاثة أقسام ولم يبرهن عليه » (١).

ويلى ذلك ما ألفه ابن الهيثم من علوم الطبيعة والإلهية وهى أربعة وأربعون كتابا(٢) ، ومن العلوم الطبية وهى ثلاثون كتابا(٣) .

٥ — التاريخ

زخر العصر العباسى الثانى بطائفة كبيرة من أعلام التاريخ . ولا غرو فإن هذه النهضة العلمية قد وضعت أسسها فى أواخر العصر العباسى الأول بعد أن نشطت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية ، وبدأ المسلمون يصنفون الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وساهم الفرس فى هذه الحركة بأوفر نصيب . ومن أشهر مؤرخى القرن الثالث الهجرى اليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) ، وكان شيعياً متحمسا لعقائد الشيعة . ولذلك أسهب فى الكلام على الأئمة ، ونقل كثيراً من الأقوال التى أثرت عنهم . ويعتبر كتابه فى التاريخ المعروف بتاريخ اليعقوبى(٤) من أعظم المصادر التاريخية ، كما يعد كتابه « البلدان » من أشهر الكتب الجغرافية(٥) .

ومن هؤلاء المؤرخين أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦هـ (٨٨٩ م)، الذى خلف كثيراً من الكتب ، منها كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إليه ، وكتاب المعارف(٦) الذى يعد بحق مجموعة معارف مفيدة ، وكتاب عيون الأخبار(٧) ويعد من خيرة كتب الأدب والتاريخ مادة وترتيبا(٨) .

---

(١) ابن أبى أصيبعة جـ ٢ ص ٩٣ — ٩٤ (٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٩٤ — ٩٥

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٩٥ — ٩٨

(٤) فى جزئين ed. Houtsma, Leyden, 1883

(٥) ed. De Goeje, Leyden, 1892.

(٦) طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م

(٧) فى أربعة أجزاء طبعت بدار الكتب المصرية بالقاهرة (١٣٤٣ — ١٣٤٩هـ = ١٩٢٥ = ١٩٣٠م)

(٨) ed de Goeje, Leyden, 1855. ، القاهرة سنة ١٣١٧ هـ (١٩٠٠ م)

ومن هؤلاء المؤرخين البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) ، ويعد كتابه فتوح البلدان من أحسن المصادر فى الفتوح الإسلامية . ومن هذه المصادر كتاب الأخبار الطوال[١] لأبى حنيفة الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) . وأول هؤلاء المؤرخين الأربعة من أصل عربى ، على حين يرجع الثلاثة الأخيرون إلى أصل فارسى .

ويعتبر كتاب الأمم والملوك[٢] لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٣م) من أمهات الكتب التاريخية الموثوق بصحتها . ولا غرو له فإن الطبرى أكثر تحقيقاً ممن سبقه من المؤرخين ، فضلا عن أنه انفرد بذكر حوادث لم يذكرها أحد قبله . وقد تكلم على الحوادث التاريخيـــة منذ بدء الخليقة إلى سنة ٣٠٢ هـ ، ثم جاء عريب بن سعد القرطبى المتوفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ — ٩٧٧ م) ، فوصل الحوادث فى كتابه المسمى « صلة تاريخ الطبرى[٣] من سنة ٢٩١ هـ إلى نهاية عهد الخليفة المقتدر العباسى سنة ٣٢٠ هـ [٤] .

وكان القرن الرابع غنياً بكثير من المؤرخين . ومن هؤلاء سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣١٧هـ (٩٢٩ م) ، واشتهر باسم أوتيخا Eutychius . وكان أحد بطارقة الاسكندرية . وقدخلف كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (بيروت ١٩٠٩) ، الذى ذيله يحيى بن سعيد الأنطاكى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) ، ويسمى « صلة كتاب أوتيخا » .

ومن مشهورى المؤرخين فى هـذا العصر أبو عبد الله محمد بن عبدوس المعروف بالجهشيارى صاحب كتاب الوزراء والكتاب . وهو « مؤرخ قديم من طبقة ابن جرير الطبرى (المتوفى ٣٠١هـ)، والمسعودى (المتوفى ٣٤٥ هـ[٥]) . وكان أبوه عبدوس الجهشيارى حاجب على بن عيسى وزير المقتدر العباسى ، ثم ولى ابنه محمد بن عبدوس هذه الحجابة لعلى بن عيسى لما انضم إلى حامد بن العباس حين تقلد الوزارة سنة ٣٠٦ هـ . وكان ابن عبدوس على جانب عظيم من حسن الخلق ؛ فكان يأبى الإسفاف فى القول ولا يتسع صدره للغو[٦] » .

وللجهشيارى كتب كثيرة أشهرها كتاب « الوزراء والكتاب » ، وهو أول ما ألف من نوعه فى تاريخ الوزراء . وقد حذا المؤرخون حذو الجهشيارى فى تاريخ الوزراء ، فألف هلال بن المحسن

---

(١) ed. Kratchkovsky, Leyden, 1892.

(٢) طبع هذا السفر الكبيردى غوية فى ١٣ مجلدا : منها مجلدان للمقدمة التاريخية والفهارس (١٨٧٩ ١٩٠١) . وقد طبع أيضا فى القاهرة عدة طبعات من أقدمها طبعة المطبعة الحسينية (١٣٢٦ هـ)

(٣) طبعة دى غوية سنة ١٨٩٨ م والمطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

(٤) ترجم أبو على محمد البلعمى وزير منصور بن نوح السامانى كتاب تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى بصورة موجزة الى الفارسية ، وقام بنقل هذه الترجمة الى الفرنسية كل من ديبيوه وزوتنبرج Dubeau and Zotenlerg (Paris, 1867-74)

انظر Browne : Lit. Hist of Persia, Vol. I. pp. 359, 368

(٥) انظر مقدمة كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ، حققه ووضع فهارسه الأساتذة مصطفى السقا ، وإبرهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى (الطبعة الأولى)

(٦) المصدر نفسه ص « و » ، « ز »

الصابى (٣٥٩ — ٤٤٨ هـ) كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء[١] » وصل به تاريخ الجهشيارى إلى سنة ٣٩٣ هـ ، كما استمد منه ابن الطقطقى فى كتابه « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية[٢]، وابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » .

ومن مؤرخى هذا العصر أبو بكر محمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) ، وكان مجوسياً من أهل جرجان ، وقد تتلمذ عليه الراضى بن المقتدر قبل أن يلى الخلافة[٣] . وكتابه « الأوراق[٤] » مجموعة نفيسة فى الأدب والتاريخ .

ويعتبر كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر[٥] لأبى الحسن على المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ (٩٥٦ م) والذى ينتسب إلى عبد الله بن مسعود الصحابى المشهور ، من أهم المصادر التاريخيه فى هذا العصر ، وخاصة فى الناحية الاجتماعية . ويتناول الكلام على الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة إلى أيامه . ومن كتبه أيضاً كتاب التنبية والإشراف ، وهو من الكتب الهامة فى تاريخ القرامطة وعلاقتهم بالعباسيين بوجه خاص . يقول ابن شاكر الكتبى[٦] عن المسعودى وعن مؤلفاته : « وكان إخباريا علامة ، صاحب غرائب وملح ونوادر . مات سنة ست وأربعين وثلثمائة ، وله من التصانيف : كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر فى تحف الأشراف والملوك ، وكتاب ذخائر العلوم وما كان فى سالف الدهور ، وكتاب الرسائل والاستذكار بما مر فى سالف الأعصار ، وكتاب التاريخ فى أخبار الأمم من العرب والعجم ، وكتاب التنبيه والإشراف ، وكتاب خزائن الملوك وسر العالمين ، وكتاب المقالات فى أصول الديانات ، وكتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ، وكتاب البيان فى أسماء الأئمة ، وكتاب الخوارج » .

ومن أهم المؤلفات التاريخية فى هذا العصر كتاب « البدء والتاريخ » ، الذى نسب فى وقت ما إلى أبى زيد البلخى المتوفى حول سنة ٣٥٥ هـ ، والذى كشف البحث الآن أن مؤلف هذا الكتاب هو مطهر بن طاهر المقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) . وهو جدير بالعناية ، وقد نشر مسيو هوبار الأحد عشر بابا الأولى من أبواب هذا الكتاب الاثنين والعشرين . ويتناول الباب التاسع عشر من هذا الكتاب الكلام على تاريخ الفرق الدينية[٧] .

---

(١) طبعة بيروت سنة ١٩٣٣ (٢) القاهرة سنة ١٩٣٣

(٣) أبو بكر الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٥ — ٦ ، ٢٦

(٤) نشر ج . هيورث دن من هذا الكتاب « كتاب أخبار الراضى بالله والمتقى لله » ، ويتناول تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢ هـ الى سنة ٣٣٣ هـ (القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م) . وكتاب أخبار الشعراء (القاهرة سنة ١٩٣٤ م) ، وكتاب أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم (القاهرة سنة ١٩٣٦ م)

(٥) نشره وترجمه الى الفرنسية بربيه دى مينار وبافت Barbier de Meynard et Pavet (Prairies d' Or), Paris, 1861-1877 ، ونشر فى القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ فى جزئين .

(٦) كتاب فوات الوفيات (القاهرة ١٢٩٩ هـ ج ٢ ص ٤٥)

(٧) J. R. A. S. vol. xxxVI. 1904, p. 571.

انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٣

ومن مؤرخى هذا العصر الحسن بن زولاق الذى عاصر الإخشيديين والفاطميين وامتدت حياته فى الدولة الفاطمية إلى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) . وقد أتى فى كتابه « فضائل مصر وأخبارها وخواصها » على تاريخ مصر منذ عصورها الأولى . وهو حجة فى تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين ، لأنه كان مصريا ، ولأن شهرته قد ذاعت لسعة اطلاعه فى مادة التاريخ .

وقد ألف ابن زولاق فى تاريخ مصر طائفة من الكتب ، منها كتاب فضائل مصر ، وهو عبارة عن خطط أو وصف طبوغرافى تناول فيه الكلام على هذا الموضوع من جميع نواحيه ، وكتاب « قضاة مصر » الذى جعله ذيلا لكتاب القضاة لأبى عمر الكندى إلى سنة ٢٤٦ هـ ، وأتمه فيما بعد ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) ، وكتاب العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج أو سيرة الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية فى مصر سنة ٣٢٣ هـ ، وقد نقلها ابن سعيد[١] المتوفى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٨٥ م) . وكتاب فضائل مصر مخطوط بالمكتبة الأهليه بباريس رقم ١٨١٧ ، وهو مختصر لهذا السفر الكبير الذى ألفه صاحبه عن تاريخ مصر . ومن آثار ابن زولاق كتاب « أخبار سيبويه المصرى [٢] » الذى أتقن النحو حتى لقب بسيبويه ، كما كان أديبا وشاعرا وواعظا ، واستقصى فيه نوادر سيبويه وفكاهاته التى شاعت بين المصريين فى زمانه . ومات سيبويه قبل الفتح الفاطمى بستة أشهر . وقد دون ياقوت أسماء الكتب التى ألفها ابن زولاق [٣] .

ومن المؤرخين الذين عاصروا الخليفة العزيز بالله الفاطمى أبو الحسن على الشابشتى من أولاد الشابشتى حاجب وشمكير بن زيار الديلمى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ (٩٨٨ م) ، وقد اتصل أبو الحسن بخدمة العزيز ، فولاه خزانة كتبه ، واتخذه من جلسائه وندمائه ، وترك فى كتابه « الديارات » أخبارا طريفة عن الأديار فى العراق والموصل وسورية والجزيرة ومصر ، وما قيل فيها من الأشعار وما جرى من حوادث وأمور . وقد أمدنا هذا الكتاب الذى لا يزال إلى اليوم من الكتب الخطية المودعة بمكتبة برلين (فيمار ١١٠٠) بمعلومات هامة عن حفلة زواج الخليفة المأمون العباسى بابنة وزيره الحسن بن سهل ، وبزواج هرون الرشيد بالسيدة زبيدة من قبله . وهناك كتاب آخر عن كنائس وأديرة مصر لأبى صالح الأرمنى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) ، اعتمد فيه على ما سمعه وشاهده بنفسه فى زياراته للكنائس والأديار فى القاهرة وضواحيها . والكتاب مملوء بكثير من الأمثلة التى تبين لنا مدى الخيرات التى أجزلها الخلفاء الفاطميون وغيرهم من رجالات الدولة للقبط ، وقد نشره مستر B.T.A. Evetts ، وزعم فى مقدمته أن كتاب الديارات للشابشتى قد ضاع ، وأنه لا يعرف إلا عن طريق العبارات التى اقتبسها منه غيره من الكتاب[٤] .

وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عز الملك محمد بن أبى القاسم المعروف بالمسبحى المتوفى

---

(١) كتاب المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق ص ٤ — ٤٥

(٢) إرشاد الأريب الى معرفة الأديب ج ٣ ص ٧ (٣) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٣

(٤) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٦

سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م)، كتب عن مصر كتابا مسهبا سماه تاريخ مصر . ويقول ابن خلكان[١] إنه يقع فى ثلاث عشرة ألف ورقة أى فى ستة وعشرين ألف صفحة ، ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعون بمكتبة الإسكوريال بأسبانيا ، وهذ الكتاب أحد تصانيف المسبحى التى بلغت الثلاثين ، والتى لم يعد لها الآن وجود إلا فى هذه المقتبسات التى نعثر عليها فى ثنايا الكتب .

وكان المسبحى يتزيا بزى الأجناد ، اتصل بخدمة الخليفة الحاكم الفاطمى ، وتقلد فى أيامه القيس والبهنسا من أعمال الصعيد ، ثم تقلد ديوان الترتيب ، الذى تنظم فيه الرواتب وتدفع لمستحقيها[٢] . ولا غرو فإن المسبحى حجة فى تاريخ مصر فى الصدر الأول من أيام الفاطميين . وقد ذكر تصانيفه من جاء بعده من المؤرخين كابن منجب الصيرفى ، وابن ميسر ، وابن خلكان ، والمقريزى ، وأبى المحاسن ، والسيوطى[٣] .

ولا ننسى ما كتبه ثلاثة من الكتاب المعاصرين وهم مسكويه[٤] المتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١م) ، وهلال الصابى[٥] المتوفى سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦م) ، وأبو شجاع[٦] المتوفى سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م).

أما تاريخ مسكويه المسمى « تجارب الأمم » ، فهو من أهم الكتب العلمية فى اللغة العربية . ويتناول جزء من هذا الكتاب الكلام على الحوادث المتممة لتاريخ الطبرى (وينتهى فى سنة ٣٦٩ هـ) . ولا يكتفى مسكويه فى تاريخه بذكر الحوادث ، بل يعنى بالشئون الاجتماعية وخاصة الأحوال الاقتصادية عناية كبيرة . وبذلك خطا خطوة جديدة نقل بها دراسة التاريخ من سرد الحوادث الجافة إلى معالجة الشئون الاجتماعية والعمرانية .

وقد نقل مسكويه أخبار الحوادث التاريخية رواية عمن تولوا الزعامة فى هذه الحوادث من أمثال المهلبى المتوفى سنة ٣٥٢هـ (٩٦٣ م) ، وأمين خزانته أبى الفضل بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧٠–٩٧١ م) فى الرى . « وكان لمسكويه ضلع فى كثير من الحوادث الهامة ، لأن المناصب التى تقلدها كانت تلقى على عاتقه كثيرا من المسئولية ، كما كان فى استطاعته الوقوف على أسرار الدولة من غير أن تكون له بها علاقة شخصية ذات شأن عظيم[٧] » .

---

(١) وفيات الاعيان جـ ١ ص ٥١٦ .

(٢) انظر دى سلين (De Slane) فى ترجمة كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (جـ ٣ ص ٩٠ حاشية رقم ١)

(٣) انظر كتاب « الفاطميون فى مصر للمؤلف » ص ٨

(٤) اختلف الكتاب فى صحة ثبوت اللقب له أو لأبيه ، فبعضهم كالتنوخى (نشوار المحاضرة ص ١٧٣) وحاجى خليفة (رقم ٢٤٣٠) يزعم أن اللقب متصل بأبيه ، على حين يقول غيرهم من أمثال بديع الزمان الهمذانى (ص ١٥٧ . وقد سماه مسكويه) ، وياقوت (ارشاد جـ ٢ ص ٨٨) ، وابن خلكان (جـ ٢ ص ٩٢) ، والقفطى (اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ٣٣١) ، ابن أبى أصيبعة (عيون الانباء فى أخبار الأطباء جـ ١ ص ٢٤٥) بأن اللقب متصل به هو .

(٥) ياقوت (ارشاد جـ ٧ ص ٢٥٥) ، وابن خلكان (جـ ٢ ص ٢٠٢ — ٢٠٣) ، ووستنفلد : Geschichle der Araber Litterateur, no. 198

(٦) ابن خلكان (جـ ٢ ص ٦٩ — ٧٠)

(٧) Mlrgoliouth: Preface to Miskawaih, p. III.

وقد أسهب مسكويه فى تاريخ الصدر الأول من أيام بنى بويه ، ولم يغفل أن يمدنا بتاريخ الأحوال الخارجية للعباسيين .

وقد ذيل ظهير الدين محمد بن الحسين الروذراورى وزير الخليفة العباسى المقتدى (٤٧٦ — ٤٨٧هـ = ١٠٨٢ — ١٠٩٣ م) المعروف بأبى شجاع ، تاريخ مسكويه بتاريخه الذى تناول فيه الكلام على المدة التى بين سنتى ٣٦٩ ، ٣٨٩ هـ . وتلاه هلال الصابى فى تاريخه الذى ذيل به أمدروز كتاب الوزراء إلى سنة ٣٩٣ هـ ونقله عنه مرجليوث (١) .

ومن المصادر التى ألفها جماعة من المؤرخين والأدباء فى هذا العصر كتاب : تاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . وهو من أمهات الكتب التى يعتمد عليها فى دراسة تاريخ الدولة العباسية منذ تأسيس مدينة بغداد فى عهد الخليفة المنصور سنة ١٤٥ هـ إلى سنة وفاة هذا المؤلف . ويشتمل هذا الكتاب على وصف ضاف لمدينة بغداد ، كما يمدنا بأخبار من عاش فيها من الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ممن عاش فيها أو رحل إليها من أهل العلم والفضل . ويقع هذا الكتاب فى أربعة عشر مجلدا ، ولا غنى عنه لطلاب البحث فى تاريخ الدولة العباسية فى أزهى عصورها إلى سنة وفاة المؤلف .

كذلك لا نغفل عن مؤلفات أبى الريحان البيرونى(٢) الخوارزمى المتوفى سنة ٤٤٠هـ (١٠٤٨م). وقد قضى حياته تحت كنف أمراء بيت مأمون بن مأمون أمير خوارزم ، ثم زار حول سنة ٣٩٠هـ (١٠٠٠ م) بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير الذى اشتهر فى طبرستان بتشجيع العلماء ، وأهدى إليه تاريخه المشهور « الآثار الباقية عن القرون الخالية(٣) » ، ويتناول الكلام على نظم الطوائف والجماعات المختلفة ، والاحتفال بالأعياد القومية والدينية بوجه خاص . ثم عاد إلى خوارزم حيث قضى بقية حياته فى بلاط محمود الغزنوى . وكذلك ألف البيرونى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » ، ويعرف باسم « تاريخ الهند » ، وقد نشر نسخته العربية وترجمتها إدوارد سخاو . ثم ألف البيرونى كتابه « التفهيم » ، وهو باللغة الفارسية ، كما وضع كتابه « التفهيم فى الفلك » الذى أهداه إلى الأميرة ريحانة الخوارزمية ، و « القانون المسعودى » وقد أهداه إلى السلطان مسعود بن محمود الغزنوى ، كما أهدى كتابه الذى ألفه فى الأحجار الكريمة إلى السلطان مودود بن مسعود .

وكان البيرونى غزير العلم ناقدا فذا ، صريحا فى الحق ، متصفا بالشجاعة التى لا تعرف خورا .

---

(١) انظر كتاب «الفاطميون فى مصر» للمؤلف ص ٩ ، ١٠ وقد طبعت هذه الكتب الثلاثة فى القاهرة (١٣٣٣ — ١٣٣٤ هـ = ١٩١٥ — ١٩١٦ م)

(٢) نسبة الى Bérùn أحد أحياء حاضرة هذه البلاد . أنظر
Sachau: Preface to Bérùni's Chronology of Ancient Nations, English Translation, p. VII

(٣) طبعة إدوارد سخاو الذى ترجمه إلى الانجليزية بعنوان
Chronology of Ancient Nations (Lond. 1879).

وقد ولد بخوارزم ، ويغلب على الظن أنه توفى بغزنة سنة ٤٤٠ هـ[١] .

وكتب فى هذا العصر فى تاريخ مكة كل من الأزرقى المتوفى سنة ٢٤٤ هـ (٨٥٨ م) ، والفاكهى المتوفى حول سنة ٢٧٢ هـ (٨٨٥ م)[٢] ، والنرشخى الذى وضع كتابه « تاريخ بخارى » حول سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) ، والصاحب إسماعيل بن عباد الذى وضع كتابه حول سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) . ومن هذه الكتب التاريخية أيضاً « تاريخ أصفهان » للسافروخى ، وتاريخ طبرستان للبزدادى ، وقد وضعا أول الأمر بالعربية ، ولكنهما لا يعرفان لنا إلا عن طريق الترجمة الفارسية. أضف إلى ذلك ما كتبه أبو نصر العتبى عن حياة السلطان محمود الغزنوى إلى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨م) ، مع أن هذا المؤلف عاش حتى سنة ٤٢٨ هـ ، ويسمى هذا الكتاب « تاريخ اليمينى[٣] » ، نسبة إلى يمين الدولة محمود الغزنوى[٤] .

٦ — الجغرافيا :

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب[٥] أنه « كان لاتساع نطاق التجارة فى العصر العباسى الأول ، واتصال مدينة بغداد حاضرة العباسيين براً وبحراً بالبلدان القاصية ، ثم تعبيد الطرق وجعلها آمنة ، أثر كبير فى تسهيل الأسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين والرحالين . فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة ، ووضعوا فى وصفها الكتب والأسفار ، ووصفوا ماشاهدوه فى البلدان التى اختلفوا إليها ، وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة . وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة هى خلاصة مشاهداتهم وتجاريبهم التى اكتسبوها من أسفارهم فى كثير من الأقاليم والممالك والبلدان » .

ولكن مما يسترعى النظر أن هذه الثروة الجغرافية العظيمة التى خلفها جغرافيو المسلمين لم تظهر ظهوراً واضحاً إلا فى العصر العباسى الثانى . ويعتبر ابن خرداذبة الفارسى الأصل الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى من أقدم جغرافيى المسلمين فى العصر العباسى ، فقد خلف لنا كتابه « المسالك والممالك[٦] » ، ويعتبر بحق من أقدم الكتب الجغرافية التى ظهرت فى اللغة العربية . وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون فى الاهتداء إلى الطريق البحرى الذى يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبلة ، ويصل إلى الهند والصين .

ومن جغرافيى هذا العصر اليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) صاحب كتاب « البلدان »،

---

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. II. p. 105.

(٢) Ibid. Vol. I. pp 345, 57

(٣) طبعة القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ ، ويقع فى جزئين

(٤) Ibid, Vol. II. pp. 114—5

(٥) ص ٢٦٠

(٦) نشره دى غوية فى ليدن سنة ١٨٨٩ م (ص٤ — ١٨٣) ، ويليه نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى ، ويشمل الباب الحادى عشر من هذا الكتاب وعنوانه : فى ديوان البريد والسكك والطرق إلى نواحى المشرق والمغرب (ص١٨٤ — ٢٦٦) .

وقد قام برحلات طويلة فى أرمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب ، ودون نتائج رحلاته فى كتابه ، والهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ (٩٧٣ م) ، وقد ألف كتابه «صفة جزيرة العرب » . وكان أبو الحسن على المسعودى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ (٩٥٦) من كبار الرحالين المسلمين ، وقد زار كل أرجاء العالم تقريبا ، فزار بلاد الفرس والهند وجزيرة سرنديب ، وصحب التجار إلى بحار الصين ، كما زار زنزبار وسواحل إفريقية الشرقية والسودان ، وقام برحلات فى إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى[١] وبلاد الشام وفلسطين ، وزار مصر فى عهد الإخشيد سنة ٣٣٠ هـ ، واهتم بوصف الأهرام وغيرها من الآثار أكثر من اهتمامه بوصف المبانى والبلاط وطبقات الشعب وحالة السكان . إلا أنه ، مع ذلك ، لم يغفل الكلام على وصف نظام الرى وجبر الخليج وقطع السدود وليلة الغطاس[٢] ، كما وصف ماقام به المصريون من أعمال البحث والتنقيب عن الآثار ، وكشفهم أقبية مملوءة بالهيا كل والموميات ، وما كان لذلك من أثر فى تنبيه الأذهان إلى أهمية البحث عن الآثار المصرية القديمة[٣] .

وقد ألف أبو إسحق الإصطخرى الفارسى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كتاب الأقاليم ، ووضحه بالخرائط ، كما ألف كتابه « المسالك والممالك » الذى وصف فيه نتائج مشاهداته فى الأقاليم التى زارها ، ونقل كثيراً من كتاب صور الملوك لأبى زيد البلخى تلميذ الكندى الفيلسوف المشهور ، واعتمد على ما دونه بوزرج بن شهريار أحد أهالى رامهرمز الذى كتب كتابه « عجائب الهند » باللغة العربية ، مستعينا فى ذلك بمشاهداته ومانقله عن غيره من الرحالة[٤] . ثم جاء ابن حوقل فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وراجع كتاب المسالك والممالك للإصطخرى وزاد عليه وأخرجه بنفس هذا الاسم[٥] . وكلا الكتابين قد ألف فى النصف الثانى من القرن الربع الهجرى ، ويحتوى كل منهما على وصف دقيق لكل جزء من أجزاء العالم الإسلامى وأشهر مدنه وأماكنه .

ومن أشهر الجغرافيين والرحالة فى القرن الرابع الهجرى شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشارى المقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧) ، وكتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم[٦] » ذو قيمة عظيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية[٧] .

وقد أودع ناصر خسرو (٤٨١ هـ = ١٠٨٨ م) الرحالة الفارسى كتابه سفرنامه[٨] (أو زاد المسافر) مشاهداته فى بلاد الفرس والعراق ، وفى بلاد الحجاز والشام وفلسطين ومصر ، التى زارها فى أيام الخليفة المستنصر الفاطمى وأقام فيها نحو سنتين (٤٣٩ — ٤٤١ هـ) ، ووصف لنا ثروة البلاط الفاطمى وأبهته ، وما كانت عليه القاهرة من يسر ورخاء . وكان ناصر خسرو وزيراً فى بلاط خراسان ،

---

(١) زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٣٦

(٢) مروج الذهب جـ ١ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ (٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩

(٤) Browne : Lit Hist. of Persia, vol. I. p. 368

(٥) نشره دى غويه فى المجموعة الجغرافية العربية (ليدن سنة ١٨٧٣ م)

(٦) نشره دى غوية (ليدن ١٩٠٦ م)

(٧) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٧

(٨) Safar Nameh, trans. by Charles Schefer (Paris, 1881)

ثم اعتزل السياسة ، فحج بيت الله ، وعينه الخليفة المستنصر كبيراً لدعاة الإسماعيلية فى خراسان ، فاعتبر القاهرة المركز الرئيسى للمذهب الذى يدين بعقائده ، كما اعتقد أن الفاطميين هم الأئمة حقا (١) .

٢ — الفن

(أ) العمارة فى المشرق

كثرت العمارة فى العصر العباسى الثانى ، فبنيت المدن التى امتلأت بالقصور والمساجد والمتنزهات . وعلى الرغم من أن المسلمين استعانوا بمهرة الصناع فى البلاد التى دخلت تحت حوزتهم ، احتفظت العمارة الإسلامية بطابعها الجديد ، وأصبحت تمتاز بمزايا خاصة بها . وتقدم فن الزخرفة فى العصر العباسى باستعمال النقوش الخطية العربية التى كانت تتألف من الآيات القرآنية والشعر وعبارات التحية والتهنئة ، وتدور حول حافات التحف الأثرية ، أو تكوّن شريطاً زخرفياً على أثر من الآثار . وكان تأثير الفن الفارسى فى الفن الإسلامى عظيما فى هذا العصر ، فأولع الخلفاء العباسيون والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة ببناء القصور الفخمة المحلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج ، وعليها صور من الجص المجسم ؛ كما كانت طبقاتها مغطاة بستور من الديباج ، مزينة بالرسوم التى كانت من مميزات الفن الفارسى (٢) .

ومن آيات فن الزخرفة فى العصر العباسى ، تلك الزخارف الجصية التى كانت تغطى الأجزاء السفلية من الجدران وتعرف بالوزرات . وقد كشفت الحفائر فى أطلال مدينة سامرا عن نماذج كثيرة منها . كما كان من آياته الصور الحائطية التى عثر عليها فى أطلال بعض القصور فى هذه المدينة . وقوام هذه الصور رسوم حيوانات وطيور وصور آدمية لأشخاص فى الصيد ، أو لنساء يرقصن . والمعروف أن أساليب العباسيين فى زخرفة المنسوجات والتحف المعدنية والخزفية والخشبية امتدت إلى شتى أجزاء الدولة الإسلامية فى عصرهم ، فوصلت إلى مصر وإفريقية وإيران (٣) .

والآن نأخذ فى الكلام على تأسيس المدن فى هذا العصر .

١ — العمارة عند العباسيين

(أ) تأسيس مدينة الجعفرية :

يقول الطبرى (٤) إن جعفر المتوكل أول خلفاء العصر العباسى الثانى عزم على نقل حاضرة ملكه من سامرا إلى دمشق ، أو بعبارة أخرى من العراق إلى الشام ، وعول على المقام بها ونقل دواوين دولته إليها ، وأمر الناس بإقامة الأبنية فيها . ولكنه « استوبأ البلد ، وذلك أن الهواء بها بارد ندى

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢١٣ ، ٢٤٨ — ٢٥٠

(٢) أنظر هذا الكتاب جـ ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ ، زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ص ١٧ ، ٢١١ — ٢١٦ ، ٢٣٧ — ٢٤١

(٤) جـ ١١ ص ٥٥ .

والماء ثقيل ، والريح تهب فيها مع العصر ، فلا تزال تشتد حتى يمضى عامة الليل . وهى كثيرة البراغيث ، وغلت فيها الأسعار ، وحال الثلج بين السابلة والميرة ».

ومن ثم عزم هذا الخليفة على أن يبنى مدينة جديدة يتخذها حاضرة لدولته ، فوضع أساس مدينة الجعفرية(١) فى مكان قريب من مدينة سامرا من ناحية الشمال . وبنى قصره الذى سماه الجعفرى نسبة إليه ، بموضع يقال له الماحوزة ، وشجع الأمراء والقواد وغيرهم على البناء . ويقول الطبرى (٢) إن المتوكل أمر بنقض قصرى المختار والبديع بسامرا وحمل ما فيهما من خشب الساج لاستعماله فى بناء قصره الجديد الذى يقول فيه البحترى :

قد تم حسن الجعفرى ولم يكن ... ليتم إلا بالخليفة جعفر
فى رأس مُشرفة حصاها جوهر ... وترابها مسك يشاب بعنبر
ملأت جوانبها السماء وعانقت ... شرفاتها قطع السحاب الممطر
أزرى(٣) على همم الملوك وغضّ من ... بنيان كسرى فى الزمان وقيصر
عال على لحظ العيون كأنما ... ينظرن منه إلى بياض المشترى
وتسير دجلة تحته ففناؤه ... من لجة غمر(٤) وروض أخضر
شجر تلاعبه الرياح فتثنى ... أعطافه فى سائح متفجر (٥)
واسم شققتَ له من اسمك فاكتسى ... شرف العلوبه وفضل المفخر (٦)

وكذلك بنى المتوكل فى هذه المدينة قصرا آخر سماه لؤلؤة ، امتاز بارتفاع بنائه ، كما أمر بحفر نهر يأخذ ماءه من دجلة ويصل إلى هذه المدينة ، عرف باسم جُبة دجلة ، وأنفق على شق هذه الترعة مائتى ألف دينار ، وكان يقوم بحفرها اثنا عشر ألف عامل ، كما بلغت نفقات قصر الجعفرى أكثر من مليون دينار .

ويقول ياقوت(٧) إن سامرا كادت تخرب وتخلو من أهلها على أثر انتقال المتوكل إلى الجعفرية ، وقد أنشد أحد الشعراء قصيدة يبكى فيها سامرا ويمتدح الجعفرية فقال :

أضحت قفارا سر من راما بها ... إلا لمنقطع به متلوّم
رحل الإمام فأصبحت وكأنها ... عرصات مكة حين يمضى الموسم
كانت معادا للعيون (٨) فأصبحت ... عظة ومعتبراً لمن يتوسم
وكأن مسجدها المشيد بناؤه ... ربع أحال ومنزل مترسّم

---

(١) وتسمى أيضا المتوكلية
(٢) ج ١١ ص ٥٦
(٣) أزرى عليه حط من قيمته
(٤) لجة غمر يعنى ماؤها كثير
(٥) يعنى أن الرياح تلاعب الشجر فتميل أغصانه على ماء جار
(٦) انظر لفظ الجعفرى فى معجم البلدان لياقوت .
(٧) أنظر لفظ الجعفرى فى معجم البلدان لياقوت
(٨) كانت موعدا لكل من يريد النظر إليها لجمالها وبهائها

وإذا مررت بسوقها لم تثن عن ... سنن الطريق ولم تجد من يزحم
فارحل إلى الأرض التى يحتلها ... خير البرية إنّ ذاك الأحزم
أرض تسالم صيفها وشتاؤها ... فالجسم بينهما يصح ويسلم
وصفت مشاربها وراق هواؤها ... والتذ برد نسيمها المتنسم
سهلية جبلية لا تحتوى ... حراً ولا قُرًّا ولاتستوخم

ولم تلبث هذه المدينة أن تخربت على أثر مقتل الخليفة المتوكل فى سنة ٢٤٧ هـ ، بعد أن هجرها ابنه وخليفته المنتصر ، وعاد إلى سامرا التى ظلت حاضرة الدولة العباسية إلى سنة ٢٧٩ هـ حيث عاد الخليفة المعتضد إلى بغداد ، فسقطت عمائر سامرا ولم يبق منها إلا المسجد الجامع (١) .

وكان المتوكل ولوعا بالعمارة وزخرفة الأبنية وتزيين جدرانها بالرسوم التى تمثل الحروب والمواقع الحربية . يقول المسعودى (٢) : «وأحدث المتوكل فى أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعووف بالحيرى والكمين والأروقة . وذلك أن بعض سماره حدثه فى بعض الليالى أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بنى نصر أحدث بنيانا فى دار قراره ، وهى الحيرة ، على صورة الحرب وهيئته للهجه (٣) بها وميله نحوها ، لئلا يغيب عنه ذكرها فى سائر أحواله . فكان الرواق مجلس الملك ، وهو الصدر والكمان ميمنة وميسره ، ويكون فى البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه ، وفى اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفى الشمال ما احتيج إليه من الشراب . والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق ، فسمى هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيرى والكمين إضافة إلى الحيرى . واتبع الناس المتوكل فى ذلك ائتماما بفعله ، واشتهر إلى هذه الغاية » .

(ب) العمارة فى عهد بنى بويه :

وكذلك حفل عصر بنى بويه بالعمارة . وكان معز الدولة ولوعا بها . فقد أنشأ فى سنة ٣٥٠ هـ فى شرقى بغداد قصرا فخما ، أنفق عليه ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، أى ما يقرب من مليون دينار . ونزع لذلك ملكية المبانى المجاورة لهذا المكان ، وأمر بخلع الأبواب الحديدية بمدينة بغداد والرصافة ونقلها إل قصره ، « ونقض دور الخلافة بسر من رأى ، وسور الحبس المعروف بالحديد ، وبنى به داره ، وبالآجر الذى استعمله وطبخه فى الأتاتين ، ووثق البناء ، واختيرت له الآلات والجص والنورة (٤) . وبالغ فى الإحكام وجلب له البناءون الحذاق المشهورون من جميع البلدان الكبار من الأهواز والموصل وأصبهان وبلدان الجبل وغيرها . ونزل (سفلا فى الأرض) لبعض الأساسات ستا وثلاثين ذراعا ، ورفعها إلى وجه الأرض بالنورة والآجر إلى أن ارتفع فوق الأرض بأذرع » (٥) .

وقد أصاب هذا القصر ما أصاب غيره من قصور الخلافة فى سامرا على يد بهاء الدولة الذى شرع

---

(١) وترى أنقاض هذا المسجد فى قرية لاتزال تحمل اسم سامرا .
انظر زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٢٥ وما بعدها .
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٩ . (٣) أى لشغفه .
(٤) نوع من الجير (المصيص) (٥) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ١٨٣ .

فى تخريبه واستعمال أنقاضه فى بناء قصره سنة ٤١٨ هـ[١] .

وكذلك كان عضد الدولة ولوعا بالعمارة ، وإليه يرجع الفضل فى تعمير مدينة بغداد بعد أن أصابها التدمير بسبب ثورات الجند وغيرهم وإهمال شأنها مدة طويلة ، حين اتخذ بعض الخلفاء مدينتى سامرا والجعفرية حاضرة للدولة . لذلك أعاد عضد الدولة بناء كثير من مساجدها ، وفرشها وأدر الأرزاق على القائمين بها من المؤذنين والأئمة والقراء ، كما أعاد بناء ما تخرب من أرباض هذه المدينة ، وأمر أصحاب العمارات التى أصابها الخراب بإعادتها إلى ما كانت عليه وتجميلها ، وأمد العاجزين منهم بما يحتاجون إليه من المال . كما عمل على تجميل الأحياء الواقعة على ضفتى نهر دجلة ، وأقام الميادين والمتنزهات ، « فامتلأت — على ما يقول مسكويه[٢] — هذه الخرابات بالزهر والخضرة والعمارة بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح[٣] الجيف والأقذار ، وجلبت إليها الغروس من فارس وسائر البلاد » . كما عمل عضد الدولة على تجديد مادثر من الأنهار وأعاد حفرها بعد أن أهملت زمنا طويلا ، وأقام جسر بغداد وحصنه بالدرابزينات ووكل به الحفظة والحراس[٤] . وأصلح الطريق من العراق إلى مكة ، وأعاد بناء مشهد على والحسين[٥] . وكذلك أنشأ عضد الدولة البيمارستان المنسوب إليه فى الجانب الغربى من بغداد (٣٧٢ هـ) ، وعين له الأطباء وغيرهم من الموظفين ، وأمده بكل ما يحتاج إليه[٦] .

وليس هذا كل ما قام به عضد الدولة من الأعمال العمرانية ، فقد بنى بفارس وخوزستان كثيرا من العمائر ، كما بنى البيمارستان العضدى المشهور ، « وعمل السكور[٧] وأنفق فيها الأموال ، وأعد عليها الآلات ، ووكل بها الرجال ، وألزمهم حفظها بالليل والنهار ، وراعى ذلك منهم أتم مراعاة فى آونة المدود الجوارف ، وأزمنة الغيوث الهواطل ، وأوقات الرياح العواصف[٨] » .

وكان البويهيون يعنون ببناء الأسوار حول المدن ؛ فقد أمر أبو كاليجار (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) ببناء سور مدينة شيراز فى سنة ٤٣٦ هـ لرد غارات السلاجقة الذين تفاقم خطرهم فى ذلك الحين . وبلغ طول هذا السور اثنى عشر ألف ذراع ، وعرضه ثمانية أذرع ، وجعل له أحد عشر بابا[٩] .

٢ — العمارة فى مصر :

(ا) تأسيس مدينة القطائع :

لما ضاقت مدينة العسكر التى أسسها صالح بن على العباسى سنة ١٣٢ هـ بسكانها من أتباع ابن طولون وحاشيته وعسكره ، اتخذ لإقامته قصرا فسيح الأرجاء ، واتخذ أمامه ميدانا فسيحا ، ثم اختط كبار

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٣٦ (٢) تجارب الأمم جـ ٢ ص ٤٠٥ — ٤٠٦ .
(٣) الأماكن التى تطرح فيها القمامات والجيف ونحوها .
(٤) مسكويه : نفس الجزء والصفحة (٥) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٥٥ (٦) أبو المحاسن جـ ٤ ص ١٤١
(٧) السكر (بتشديد السين وسكون الكاف) سد النهر .
(٨) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٣ ص ٦٨ — ٦٩ (٩) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٦٩

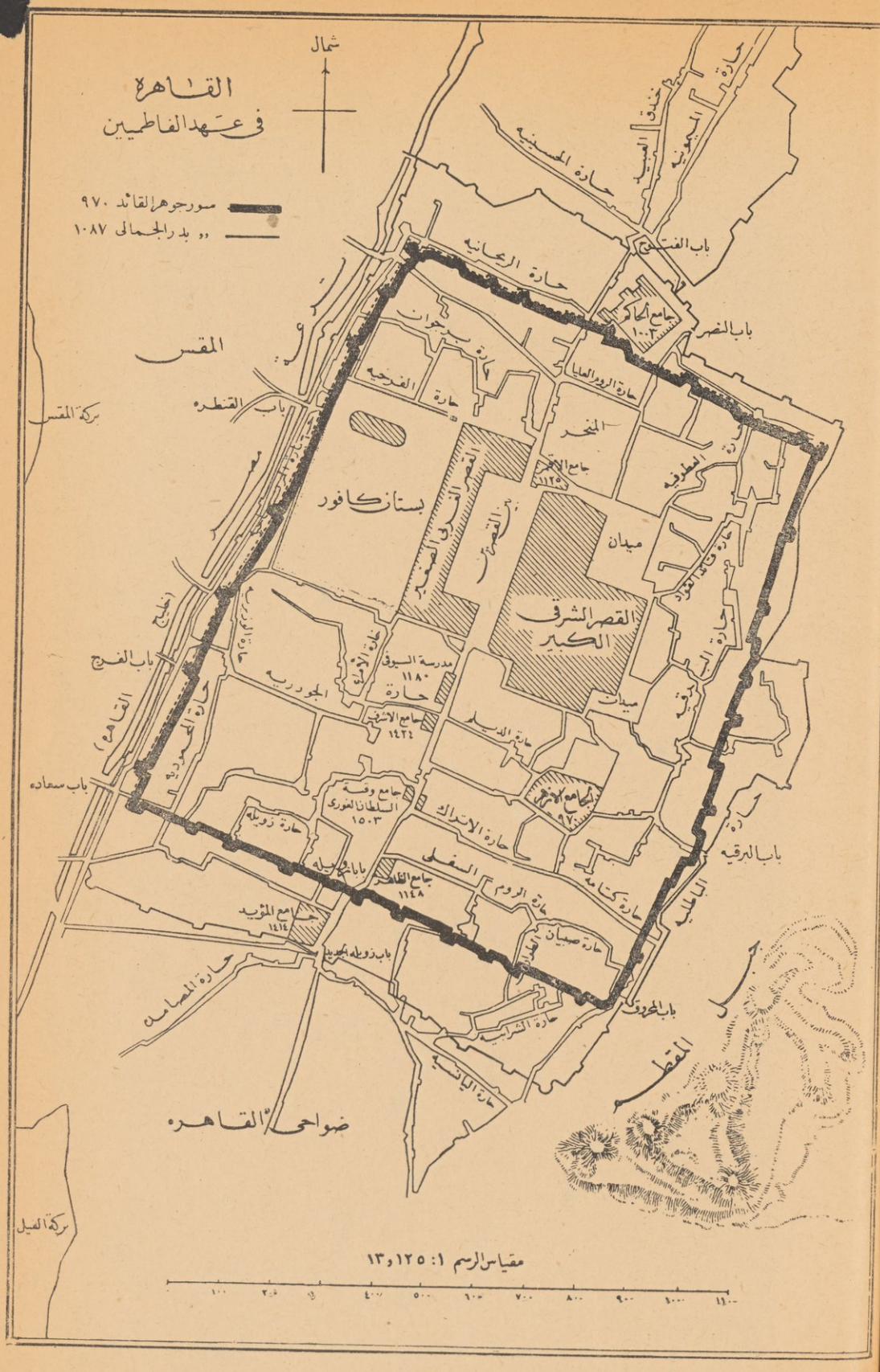

القاهرة
فى عهد الفاطميين
شمال
سور جوهر القائد ٩٧٠
,, بدر الجمالى ١٠٨٧
المقس
بركة المقس
باب القنطره
باب الفرج
باب سعاده
باب النصر
باب الفتوح
باب البرقيه
باب المحروق
حارة الحسينيه
حارة الريحانيه
حارة الروم العليا
حارة الفرخيه
حارة برجوان
المنخر
جامع الحاكم ١٠٠٣
بستان كافور
القصر الغربى الصغير
القصر الشرقى الكبير
ميدان
مدرسة السيوفى ١١٨٠
حارة الجودريه
جامع الاشرف ١٤٢٤
حارة الديلم
جامع وقبة السلطان الغورى ١٥٠٣
حارة الاتراك
حارة زويله
جامع الظاهر ١١٤٨
جامع المؤيد ١٤١٤
باب زويله الجديد
حارة الروم السفلى
حارة صبيان
حارة الشرابيه
حارة اليانسيه
حارة المصامده
ضواحى القاهره
بركة الفيل
جبل المقطم
مقياس الرسم ١: ١٢٥ و ١٣

رجال دولته وقواده وغلمانه وأتباعه دورهم حول هذا المكان ، واتخذ كل منهم قطيعة خاصة به ، فسميت هذه المدينة « القطائع » . وكانت تمتد غربى القلعة ، ويحدها من الشمال خط ينطبق عليه شارع الصليبة ، ومن الغرب نواحى المشهد الزينبى ، ومن الجنوب العسكر (١). وفى هذه المدينة أقامت الطوائف المختلفة من سودان ونوبيين وروم وغيرهم ، وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم الطائفة التى تسكنها . كذلك أفرد ابن طولون لأصحاب الحرف والصنائع والتجار قطائع خاصة بهم ، فعمرت المدينة وامتدت مبانيها حتى اتصلت بالفسطاط . وقد حدد المقريزى مدينة القطائع فى عهد أحمد بن طولون فقال : إنها كانت تمتد من قبة الهواء التى بنيت على أطلالها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون ، ومن الرميلة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين (٢) .

وكان ابن طولون يخرج وحده من الباب الأوسط ، ومن البابين الآخرين يخرج عسكره فى عدد عظيم ، وفى أتم نظام وأكمله . وكانت أبواب « الميدان » تفتح كلها فى يوم العيد ، وفى أيام عرض الجيش وتوزيع الصدقات ، وتفتح فى غير هذه الأيام بترتيب خاص وفى أوقات معلومة . وكان فى قصر ابن طولون مكان يشرف منه يوم عرض الجيش ويوم توزيع الصدقات ، وعلى باب السباع بناء يشرف منه فى ليلة العيد على القطائع ومن بها من غلمانه ، حتى إذا رأى أحدهم فى حاجة إلى إصلاح حاله ، أمر له بما يصلحها ، وبذلك يرفه عليهم جميعا (٣) .

عنى ابن طولون ببناء قصره وتجميله ، وجعل له ميداناً فسيحاً . وأصبح يطلق على القصر اسم « الميدان » ؛ وربما كان ذلك لاتساعه . وعمل ابن طولون للميدان أبواباً كثيرة : فباب الميدان خصص لدخول الجند وخروجه ، وباب الصوالجة (٤) ، وباب الخاصة لا يدخل منه إلا خاصة الأمير ، وباب الجبل لأنه كان يلى جبل المقطم ، وباب الدرامون وكان يجلس عنده حاجب أسود عهد إليه النظر فيما يرتكبه الغلمان السودان من الجرائم ، وباب دغناج لأنه كان يجلس عنده خادم أسود يقال له دغناج ، وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج ، وباب الصلاة لأنه كان فى الشارع الأكبر ، ومنه يتوصل إلى جامع ابن طولون . وكان على هذا الباب صورة سبعين من جبس ، ولهذا سمى باب السباع أيضاً . وكان لابن طولون طريق خاص ، به ثلاثة أبواب يتصل بعضها ببعض .

جامع ابن طولون :

وفى مدينة القطائع بنى أحمد بن طولون فى مصر ثالث المساجد الجامعة التى أقيمت فيها صلاة الجمعة منذ الفتح الإسلامى بعد جامعى عمرو والعسكر . وقد بنى هذا الجامع على جبل يشكر فى الجهة

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣١٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣١٥

(٤) والمراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الانجليز والفرنسيين باسم « پولو » ، وهى شبيهة بلعبة كرة القدم .

الجنوبية من القاهرة ، وهو أقدم آثار مصر الإسلامية التى بقيت على حالها الأولى بعد مقياس النيل بجزيرة الروضة (١) . ويحيط بهذا المسجد من الجهات الأربع شوارع ابن طولون جنوباً والزيادة غربا وبئر الوطاويط شرقا (٢) والخضيرى شمالا . وكانت هذه الجهات تعرف بخط المغاربة .

وقد دعت حالة ضيق مسجد العسكر بالمصلين لكثرة جند ابن طولون وخدمه وعبيده إلى شكوى الناس ، فرأى هذا الوالى أن يقوم بهذا العمل تحقيقا لرغبة الناس من جهة ، ورغبته هو فى الخير من جهة أخرى ، ولأن وجود القطائع من غير مسجد فيها نقص يجب تلافيه ، خصوصا وأن أول ما كان يعنى به الولاة عند إنشائهم المدن لاتخاذها حاضرة للبلاد أن يبنوا مسجداً يقيمون فيه شعائر الدين ، كما كانت الحال عند تأسيس الفسطاط والعسكر والقاهرة .

وكان ابن طولون يرمى من بناء هذا الجامع إلى إقامة الصلاة فيه لضيق جامع العسكر بالمصلين كما تقدم ، واتخاذه معقلا له إذا تهدده خطر خارجى أو داخلى ، وليكون أيضا أشبه بمعهد تدرس فيه العلوم الدينية ، ومكان تعلن فيه أمور الدولة ، وتعقد فيه المحاكم للفصل فى قضايا الأفراد أو فض المشاكل التى تنشأ بينهم وما إلى ذلك .

وبعد الفراغ من بناء هذا الجامع ، افتتحه ابن طولون سنة ٢٦٥ هـ ، وعهد فيه بالصلاة والخطبة إلى القاضى بكار بن قتيبة .

ولجامع ابن طولون أهمية خاصة بالنسبة إلى جوامع مصر ، لأنه هو المثال الأول الذى اتخذه بناة المساجد الجامعة فيما بعد . وبنى ابن طولون فى وسط الجامع فوارة مشبكة من جميع نواحيها ، عليها قبة مذهبة مقامة على عشرة أعمدة ، وفى جوانبها ستة عشر عموداً من الرخام . وأرض هذه الفوارة وقبتها محاطة كذلك بالرخام ، وعلى سطح هذه الفوارة علامات للزوال لتعيين أوقات الصلاة ، وقد صنعت من خشب الساج . أما المنارة فمراقيها (أى درجاتها) من ظاهرها ، يرى الرائى الصاعد من داخل المسجد وخارجه ، وتمتاز على غيرها من المنارات باتساع عرضها ؛ وهى على مثال منارة المسجد الذى بناه المتوكل فى مدينة سامرا .

(ب) تأسيس مدينة القاهرة :

لما تم لجوهر الصقلى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ عدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر حاضرة للفاطميين ، وفكر فى تأسيس مدينة جديدة تكون مقراً للفاطميين ، ومركزاً لنشر دعوتهم الدينية ، وحصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين أخذوا يهددون حدود مصر الشمالية . لذلك نرى جوهراً يضع أساس مدينة القاهرة فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، كما وضع أساس قصر مولاه المعز . وقد اختطت كل قبيلة من البربر حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها : فاختطت جماعة من برقة الحارة

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٥ ، وابن دقاق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ١١٤ — ١١٥

(٢) هذا الشارع تحول الآن إلى ميدان

البرقية) ، واختط الروم حارتين : إحداهما حارة الروم الآن والأخرى حارة الروم الجوانية بقرب باب النصر .

ويكاد يشبه موقف جوهر فى عدوله عن اتخاذ الفسطاط أو العسكر حاضرة لمصر وتفكيره فى تأسيس حاضرة جديدة تفى بأغراض الدولة الفاطمية ، موقف أبى جعفر المنصور عند ما فكر فى بناء مدينة بغداد . ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة ، وأقام حوله السور ، سمى المدينة كلها « المنصورية » نسبة إلى المنصور أبى المعز . وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز مصر ، فسماها « القاهرة المعزية » ، وتقع هذه المدينة شمالى الفسطاط . وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة ، وحدودها الشرقيه هى حدود القاهرة الحالية . أما الجهة الغربية فلم تتجاوز خليج أمير المؤمنين . وتحد شمالا بباب النصر ، وجنوباً بباب زويلة ، وشرقاً بباب البرقية والباب المحروق (الدراسة الآن) ، وغربا بباب السعادة وباب الفتوح وباب الخوخة .

وكانت القاهرة المعزية تشمل أحياء جامع الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق[١] . ويقال إن المعز لما قدمها فى أواخر سنة ٣٦٢ هـ ورأى أنه لا ساحل لها ، لم يعجبه موقعها وقال : « ياجوهر ! فاتتك عمارتها ههنا[٢] » ، يريد المقس[٣] .

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير من اللبن ضم الخطط التى تكونت منها القاهرة المعزية ، وكان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة . وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، على حين كان يعرف الجزء الواقع خارجها بظاهر القاهرة ، وهو خطط وأحياء جديدة تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل ، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وهى المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق والحسينية[٤] .

وقد وضع جوهر فى ليلة الأربعاء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ أساس القصر الذى بناه لمولاه المعز ، فى ذلك الفضاء الفسيح بداخل سور القاهرة من الناحية الشرقية . لذلك أطلق عليه اسم « القصر الكبير الشرقى » . ويسمى أيضاً القصر المعزى ، لأن المعز لدين الله هو الذى أمر جوهراً ببنائه حين سيره لفتح مصر ووضع له رسمه . وكان يقيم فيه الخليفة ويجلس للنظر فى أمور الدولة ، كما كانت به دواوين الحكومة وخزائن السلاح وغيرها والجند لحراسة الخليفة . ويحتوى هذا القصر على أربعة آلاف حجرة[٥] .

وقد وصف على مبارك باشا مدينة القاهرة على النحو الذى كانت عليه أيام المعز فى هذه العبارة : « شكل مدينة القاهرة فى أيام القائد جوهر كان مربعاً تقريباً ، ضلعه ألف ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فدانا : منها سبعون فدانا بنى فيها القصر الكبير ، وخمسة

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٢٧٣ (٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ص ٧٤

(٣) وكانت تقع عند جامع أولاد عنان الآن . (٤) المقريزى : خطط جـ ١ ص ١٠٩ .

(٥) G. Migeon : Art Musulmane, tome I. p. 42.

(٦) الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٨١

وثلاثون فداناً للبستان الكافورى ، ومثلها للميادين ، فيكون الباقى مائتى فدان هو الذى توزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين حارة بجانبى قصبة القاهرة . وكان سور المدينة الغربى بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين متراً . وفى سنة ست وثمانين وأربعمائة فى وزارة بدر الجمالى وخلافة المستنصر بالله الفاطمى ، هدم هذا السور وبنيت الأبواب من الحجر » .

ولما اختط جوهر مدينة القاهرة ، جعل لها عدة أبواب أشهرها : باب زويلة[1] ، وباب النصر ، وباب الفتوح ، وباب العيد . فلما تولى أمير الجيوش بدر الجمالى الوزارة سنة ٤٦٥ هـ ، أعاد بناء السور والأبواب بالحجر قريباً من مواضعها أولا ، وكانت مبنية باللبن ، فنقل باب النصر الذى بناه جوهر إلى المكان الذى يوجد به الآن ، كما بنى باب الفتوح حيث يبدأ شارع المعز لدين الله الفاطمى بجوار جامع الحاكم ، ونقل باب زويلة إلى حيث موضعه الآن ، وهو المعروف عند العامة « ببوابة المتولى[2] » . وكان باب زويلة يتكون من بابين متجاورين عند سبيل العقادين الآن ، ونقل باب النصر من جوار مدرسة القاصد إلى موضعه الحالى . وكانت هذه الأبواب الثلاثة ، التى جدد بناءها بدر الجمالى ، من عمل ثلاثة إخوة من مدينة الرها .

تأسيس الجامع الأزهر :

ولما تم لجوهر الصقلى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ، وأسس مدينة القاهرة فى نفس الليلة التى دخل فيها مدينة مصر (أى الفسطاط والعسكر) ، لم ير أن يفاجىء السنيين فى مساجدهم باقامة شعائر المذهب الفاطمى ، حتى لا يثير كراهة المصريين . لذلك وضع أساس الجامع الأزهر فى يوم السبت ١٤ من رمضان سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) ، وتم بناؤه فى سنتين تقريباً ، وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة فى ٧ من رمضان سنة ٣٦١ هـ [3] .

ويشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً ، عدا الملحقات التى تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها . أما المقصورة التى بناها جوهر ففيها ستة وسبعون عموداً من الرخام الأبيض اللون فى صفوف متوازية . وفى سنة ١١٦٧ هـ بنى الأمير عبد الرحمن كتخذا مقصورة ثانية بها خمسون عموداً من الرخام . وبذلك اصبح بهذا الجامع مقصورتان عدد أعمدتهما مائة وستة وعشرون عموداً . وإذا أضيف إلى هذا العدد الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع ، بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترتفع المقصورة الجديدة نحو ذراع عن المقصورة التى بناها جوهر القائد ، وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفى كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء . وأما صحن الجامع فهو مكان متسع غير

---

(١) نسبة إلى قبيلة زويلة (بوزن سفينة) إحدى قبائل المغرب التى قدمت إلى مصر على أثر الفتح

(٢) نسبة إلى متولى الحسبة فى مدينة القاهرة ، وقد أطلق عليه هذا الاسم فى العهد العثمانى ، إذ كان متولى الحسبة فى مدينة القاهرة يجلس على مقربة من هذا الباب .

(٣) المقريزى : خطط جـ ٢ ص٢٧٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٤ .

مسقوف ، مرصوف بالحجر ، يقيمون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين . ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائك مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو بن العاص، وزينت حيطانه بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفى الجميل .

وقد أنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محرابا يسمى الآن «القبلة القديمة»، ثم أقيمت به تسعة محاريب أخرى ، لم يبق منها جميعاً سوى ستة أشهرها اثنان : أحدهما بالمقصورة القديمة ، والآخر بالمقصورة الجديدة ، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه فى المذهب الفقهى .

وللجامع منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع . وقد نقل المنبر الأصلى الذى أنشأه جوهر إلى جامع الحاكم .

وأنشىء بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ، ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات، يؤذن عليها فى أوقات الصلوات الخمس ، وفى ليالى رمضان والمواسم .

وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتى ، ومهمته التنبيه على أوقات الصلوات . وكان يعرف الأوقات بالنظر فى المزولة التى لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر . وكانت مساجد القاهرة تتبع فى الأذان أصوات المؤذنين فى الأزهر .

وأهم خصائص الأزهر أنه بدأ كغيره من المساجد لإقامة الشعائر ، ولم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب مختلف العلوم والفنون . ففى سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية ، وسرعان ما أصبح الأزهر مثابة علمية . وقد عمل الخليفة العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين على جذب طلاب العلم إليه من كافة أرجاء البلاد الإسلامية ، بما كانوا يقدمونه إليهم من المأكل والمسكن وما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر .

وقد زاد فى بناء هذا الجامع كثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين ، وأنشئوا فيه مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع ، كما حبسوا عليه كثيراً من الأوقاف ، وأهدوا إليه الهبات الجليلة ، فاستغنى بذلك .

وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمى أول من بنى بجوار الأزهر دارا لجماعة من الفقهاء ، عدتهم خمسة وثلاثون ، كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر .

٣ — العمارة فى المغرب والأندلس

(١) تأسيس مدينتى المهدية والمنصورية :

أقام عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب بمدينة القيروان التى أسسها عقبة بن نافع ، واتخذها حاضرة لدولته إلى سنة ٣٠٣ هـ ، حيث وضع أساس مدينة جديدة سماها « المهدية » . وقد عزا البكرى (١) بناء هذه المدينة إلى محاولة أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس ومن معهم من

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٠ .

كتامة قتل المهدى والتنكيل بأهل القيروان .

خرج المهدى إلى تونس يرتاد لنفسه موضعاً يبنى فيه مدينة حصينة يعتصم بها إذا خرج عليه أحد الخوارج . وقيل إنه وجد فى بعض الكتب ما يدل على خروج أبى يزيد مخلد بن كيداد على دولته (١) . ووفق المهدى إلى موضع المهدية ، وهى متصلة بالبحر كهيئة كف متصلة بزند ، فتأملها ، فوجد فيها راهبا فى مغارة ، فقال له : بم يعرف هذا الموضع ؟ فقال هذا يسمى جزيرة الخلفاء . فأعجبه هذا الاسم ، فبناها وجعلها دار مملكته » (٢) .

تقع المهدية على بعد ستين ميلا جنوبى القيروان . وقد ذكر البكرى (٣) أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، وأنه يدخل إليها من الجانب الغربى . وقد شيدت مبانيها بالصخر ، واتخذ المهدى لهذه المدينة بابين من الحديد لا خشب فيهما ، زنة كل باب منهما ألف قنطار وطوله ثلاثون شبراً ، ووزن كل مسمار من المسامير التى استعملت فى تركيبه ستة أرطال . ونقش على هذين البابين صور لبعض الحيوانات . وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجا ، عدا ما كان يجرى فيها من القنوات . ولم تلبث هذه المدينة أن أصبحت مرفأ هاما وسوقا نافقة للسلع التى كانت تحملها السفن من الإسكندرية ، ومن الشام وصقلية والأندلس وغيرها (٤) . ومرسى المهدية « منقور فى حجر صلد يسع ثلاثين مركبا ، على طرفى المرسى برجان بينهما سلسلة من حديد . فإذا أريد إدخال سفينة فيه ، أرسل حراس البرجين أحد طرفى السلسلة حتى تدخل السفينة ، ثم مدوها كما كانت بعد ذلك لئلا يطرقها مراكب الروم (٥) .

وقد بنى المهدى بمدينة المهدية داراً للصناعة تسع أكثر من مائتى مركب ، وفيها قبوان كبيران مستطيلان ، لئلا تتأثر آلات المراكب وعددها بأشعة الشمس أو ماء المطر (٦) .

فرغ المهدى من بناء حاضرته الجديدة فى سنة ٣٠٥ هـ فقال : « اليوم أمنت على الفاطميات » ، يعنى بناته . ثم انتقل إليها فى شهر شوال سنة ٣٠٨ هـ ، وأقام بها ، ثم عمر فيها الدكاكين ورتب فيها أرباب المهن ، وجعل لكل طبقة سوقا خاصاً بها ، فنقلوا إليها أموالهم . وكان لهذه المدينة أرباض كثيرة آهلة عامرة ، منها ربض زويلة ، وكان أقرب أرباض المدينة إلى قصره ، وفيه الأسواق والحمامات ، وربض الحمى ، وقد أقام فيه أجناد إفريقية من العرب والبربر ، وربض قفصة (٧) .

وقد أمر المهدى ببناء مدينة أخرى بجوار مدينة المهدية ، وجعل بين المدينتين ميدانا فسيحا ، وأحاطها بسور وأبواب وحراس ، وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر ، وأسكنها أرباب

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٣٣ . (٢) انظر لفظ المهدية فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٩ .

(٤) المصدر نفسه

ذكر البكرى (ص ٨٤ — ٨٦) أن السفن التى كانت تخرج من المهدية كانت تمر فى طريقها إلى الإسكندرية بكثير من الموانىء كمدينة قابس ، ومرسى الاندلسيين ، ومرسى مدينة أطرابلس ، ولبدة ، وسرت وأجدابية ، وسوسة ، وبرقة ، وتينى ، وطبرق ، والزيتونة ، والسلوم ، والأندلسيين ، ثم تصل إلى الإسكندرية

(٥) البكرى ص ٣٠ (٦) المصدر نفسه

(٧) المصدر نفسه ص ٣٠ — ٣١ .

الدكاكين بحرمهم وأهاليهم وقال : « إنما فعلت ذلك لآمن غائلتهم ، وذاك أن أموالهم عندى ، وأهاليهم هناك . فإن أرادونى بكيد وهم بزويلة ، كانت أموالهم عندى فلا يمكنهم ذلك ، وإن أرادونى بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بينى وبينهم سوراً وأبواباً . فأنا آمن منهم ليلا ونهاراً ، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلا ، وبينهم وبين حرمهم نهارا (١) » .

ويظهر أن المهدى حذا فى ذلك العمل حذو أبى جعفر المنصور حين نقل أسواق حاضرة خلافته جنوباً إلى الكرخ (٢) .

وقد ظلت المهدية عامرة آهلة بالسكان حتى أرسل إليها رودجر صاحب صقلية أحد قواده سنة ٥٤٣ هـ ، فاضطر واليها الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس إلى الهرب . وبقيت هذه المدينة فى أيدى الفرنجة حتى قدم عبد المؤمن إلى إفريقية سنة ٥٥٥ هـ فاستولى عليها

وقد بقيت مدينة المهدية حاضرة للدولة الفاطمية حتى خرج أبو يزيد بن كيداد على الخليفة الفاطمى القائم ، وولى ابنه المنصور الخلافة سنة ٣٣٤ هـ وانتصر على أبى يزيد بالقرب من مدينة القيروان ، فاتخذ مدينة صبرة القريبة منها حاضرة لدولته سنة ٣٣٧ هـ ، فسميت المنصورية نسبة إليه

وكان لهذه المدينة خمسة أبواب : الباب القبلى ، والباب الشرقى ، وباب زويلة ، وباب كتامة ، وباب الفتوح . وكانت جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب الأخير . وقد نقل الخليفة المنصور إلى حاضرته الجديدة أسواق مدينة القيروان وأرباب الصناعات ، فازدهرت فيها الصناعة والتجارة ، وأصبحت على جانب عظيم من التقدم ، وغدت حاضرة الفاطميين إلى أن قدم الخليفة المعز بن المنصور مصر فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، فأصبحت مدينة القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية (٣) .

(ب) تأسيس مدينتى الزهراء والزاهرة :

لما ولى عبد الرحمن الناصر الحكم كانت قرطبة حاضرة بلاد الأندلس . وقد بلغ عدد سكانها خمسمائة ألف نسمة ، وعدد دورها ثلاثة عشر ألفاً ومائة ، غير قصورها الفخمة وضواحيها الثمانية والعشرين وحماماتها الثلثمائة ، ومساجدها التى بلغت ثلاثة آلاف على ما قيل . ولم يتفوق عليها فى الاتساع سوى مدينة بغداد ، وقد أولع أهل قرطبة بمقارنتها بها ، فقال بعضهم :

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها ولا تعظّم بلاد الفرس والصين
فما على الأرض قط مثل قرطبة وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

وكذلك بلغت شهرة قرطبة أهالى جرمانيا الذين أطلقوا عليها فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) «جوهرة العالم» (٤).

---

(١) انظر البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩ — ٣٢ ، ٨٤ .
أنظر لفظ المهدية فى معجم البلدان لياقوت . (٢) انظر هذا الكتاب جـ ٢ ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .
(٣) البكرى ص ٢٥ ، انظر لفظ المنصورية فى معجم البلدان لياقوت .
(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٦ ، Dozy : Spanish Islam, p. 449 .

أما مدينة عبد الرحمن الناصر فإنها لم تقل عن قرطبة روعة وبهاء . وقد ذكر المقرى[١] فى سبب بناء هذه المدينة « أن الناصر ماتت له سرية [٢] وتركت مالا كثيراً ، فأمر بأن يفك بذلك المال أسرى المسلمين ، وطلب فى بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد[٣] ، فشكر الله تعالى على ذلك ، فقالت له جاريته الزهراء ، وكان يحبها حباً شديداً : اشتهيتُ لو بنيتَ لى به مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة لى ، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمال قرطبة » .

على أن ما أدلى به المقرى لا يمكن أن يكون سبباً مباشراً لبناء هذه المدينة ، إذا عرفنا أن عبد الرحمن الناصر ولى الأندلس بعد فترة طويلة انتابها الضعف ، وذلك منذ وفاة عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ هـ ، أى فى عهد محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ — ٢٧٣هـ) وأبنيه المنذر (٢٧٣ — ٢٧٥هـ) ومحمد (٢٧٥ — ٣٠٠هـ) ، وظهرت دويلات وأسر من العرب والبربر تغلبت على كثير من أرجائها . فلما وطد عبد الرحمن الناصر دعائم ملكه ، ووحد بلاد الأندلس وأصبح خليفة للمسلمين ، فكر فى بناء مدينة يتخذها حاضرة لخلافته ، مقتدياً فى ذلك بأبى جعفر المنصور عند ما بنى مدينة بغداد ، وعبيد الله المهدى عند ما بنى مدينة المهدية ، وكما فعل بعد ذلك المعز لدين الله عند ما بنى مدينة القاهرة .

وضع الناصر أساس مدينة الزهراء فى أول المحرم سنة ٣٢٥ هـ فى الشمال الغربى من مدينة قرطبة وعلى بعد ثلاثة أميال منها . وتأنق فى بنائها ، وجلب اليها الرخام الأبيض من المرية ، والمجزع من رية ، والوردى والأخضر من إفريقية . وأهدى بعضه من الملوك والأمراء . وقد استعمل فى بناء هذه المدينة كل يوم ستة آلاف من الصخر المنحوت المعدل ، سوى الصخر غير المعدل والآجر[٤] . وأقيم بها أربعة آلاف سارية [٥] ، وعمل فى بناء المدينة كل يوم عشرة آلاف عامل وألف وخمسمائة دابة . واستمر العمل فى بنائها إلى نهاية عهد عبد الرحمن الناصر (سنة ٣٥٠هـ) ، وفى عهد ابنه الحكم المستنصر إلى سنة ٣٦٥هـ ، أى نحواً من أربعين سنة [٦] .

بنيت الزهراء على سفح جبل العروس ، وكانت تشتمل على ثلاث مدن متدرجة فى البناء « كما يتبين ذلك من عبارة الإدريسى[٧] حيث يقول : « وهى فى ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ . (٢) مملوكة . (٣) يقصد مملكتى ليون وناڤار

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٩ .

(٥) السارية هى الأسطوانة أو العمود . ذكر المقرى فى كتاب أزهار الرياض فى أخبار عياض (طبعة الأستاذ السقا وآخرين) جـ ٢ ص ٢٧٠ أن عدد السوارى المجلوبة من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية ، ومن بلاد الافرنج تسع عشرة سارية ، وأهدى اليه ملك الروم مائة وأربعين سارية ، وسائرها من مقاطع الأندلس : طركونة وغيرها . فالرخام المجزع من رية ، والأبيض من غيرها ، والوردى والأخضر من افريقية من كنيسة سفاقس .

(٦) ذكر المقرى (نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٩) أن الناصر كان ينفق على بناء مدينة الزهراء ثلثمائة ألف دينار مدة خمس وعشرين سنة ، أى سبعة ملايين ونصف مليون دينار فى هذه المدة عدا ما أنفقه ابنه الحكم من بعده مدة خمس عشرة سنة .

(٧) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والمغرب ص ٢١٢ .

فوق مدينة : سطح الثلث الأعلى يوازى الجزء الأوسط ، وسطح الثلث الأعلى يوازى على الثلث الأسفل . ولكل ثلث منها سور ؛ فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف على صفاتها ، والجزء الأوسط لبساتين وروضات ، والجزء الثالث الديار والجامع » .

بدأ الناصر ببناء قصره ، مقتدياً فى ذلك بجده الأمير محمد ، وأبيه عبد الرحمن الأوسط ، وجده الحكم ، الذين شيدوا قصورهم الفخمة كالمجلس الزاهر ، والبهو الكامل ، والقصر المنيف . فبنى الناصر إلى جانب المجلس الزاهر قصره العظيم الذى سماه «دار الروضة» ، ثم اختط مدينة الزهراء التى اتخذها داراً لإقامته ، وكرسياً لخلافته ، وبنى فيها دوراً فسيحة للوحوش ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، ودوراً لصناعة آلات الحرب ، والحلى للزينة (١).

وقد ذكر المؤرخون أن حيطان قصر الناصر كانت من الذهب والرخام السميك الصافى ، وأن قرامده من الذهب والفضة . ووضعت فى وسط المجلس «اليتيمة» التى أهداها إياه إمبراطور القسطنطينية. وفى وسط هذا القصر صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وفى كل جانب من جوانب القصر ثمانية أبواب ، انعقدت فى حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجواهر ، القائمة على سماريات من الرخام الملون والبلور الصافى . «وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب ، فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار . وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه ، أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لكل من فى المجلس أن المحل قد طاربهم ما دام الزئبق يتحرك . وقيل إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس » (٢) .

ومن عجائب قصر الزهراء الحوض المنقوش المذهب الذى جلب من القسطنطينية ، والحوض الصغير الأخضر (٣) المنقوش بتماثيل الإنسان . «وقالوا إنه لاقيمة له لفرط غرابته وجماله . وحمل من مكان إلى مكان حتى وصل إلى البحر . ونصبه الناصر فى بيت المنام ، فى المجلس المستشرف الشرقى المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالى ، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد إلى جانبه صورة غزال ، إلى جانبه صورة تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب . وفى المجنبتين حمامة ، وشاهين ، وطاوس ، ودجاجة ، وديك ... وكل هذا من ذهب مرصع بالجوهر النفيس . ويخرج الماء من أفواهها . وكان المتولى لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم ، لم يتكل الناصر على أمين غيره . وكان يخبز كل يوم برسم حيتان البحيرة ثمانمائة خبزة (وقيل اكثر) ، إلى غير ذلك مما يطول تتبعه » (٤) .

وقد أطنب المؤرخون والرحالة فى وصف قصر الزهراء ، فقال المقرى (٥) «إنه لم يبين مثله فى الإسلام

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٤ ص ١٤٤ (٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٠ ، ٢٥٦

(٣) وقد جلب من الشام ، وقيل من القسطنطينية .

(٤) المقرى : أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٧٠ — ٢٧١ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

(٥) أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

البتة ، وما دخل إليه أحد قط من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة ، من ملك وارد، ورسول وافد ، وتاجر وجهبذ ، وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة ، إلا وكلهم قطع أنه لم يرله شبيهاً ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى إنه كان من أعجب ما يؤمله القاطع (١) إلى الأندلس فى تلك العصور النظر إليه والتحدث عنه ... ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد المشرف على الروضة ، المباهى بمجلس الذهب والقبة ، وعجائب ما تضمنته من إتقان الصنعة وفخامة الهمة ، وحسن المستشرف (٢) ، وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب موضون ، وعمد كأنما أفرغت فى القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة ، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص ، لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها » .

وعلى الرغم من أن مدينة الزهراء لا تبعد كثيرا عن قرطبة ، أراد الناصر أن يستكمل مدينته الجديدة ببناء مسجد جامع فيها . ولا غرو فإن المسجد لم يكن مكانا للعبادة فحسب ، بل كان أيضا مركز الحركة السياسية والاجتماعية ، ومعهداً يجتمع فيه علماء التفسير والحديث وغيرهم .

ويعد مسجد الزهراء من آيات الفن الإسلامى . وقد عمل فى بنائه ألف رجل فى اليوم : منهم ثلثمائة بناء ومائتا نجار ، وخمسمائة من الصناع والفعلة . وطول المسجد من القبلة إلى الجوف (٣) ، سوى المحراب ، سبع وثلاثون ذراعاً ، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسع وخمسون ذراعاً . وأقيم فى المسجد منبر حوله مقصورة بديعة . وفرش بالرخام الخرى ، وأقيمت فى وسطه فوارة يجرى فيها الماء . وقد بنى تحت إشراف الحكم بن الناصر فى ثمانية وأربعين يوماً ، وتم بناؤه فى يوم الخميس لسبع بقين من شهر شعبان سنة ٣٢٩ هـ (٤) »

رأى الناصر أنه إذا انخفض ماء نهر الوادى الكبير ، الذى تقع عليه قرطبة والزهراء ، أصبح لا يصلح للشرب ، فحفر قناة تمر بالجبل طولها ثمانون كيلو متراً . وفى سنة ٣٢٩ هـ تم بناء هذه القناة الغريبة الصنعة التى لاتزال آثارها الهندسية باقية إلى الآن ، « وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة فى المناهر الهندسية ، وعلى الحنايا المعقودة يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصفة محكمة إلى بركة عظيمة ، عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة ، لم يشاهد أوفى منه ولا أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر ؛ مطلى بذهب إبريز ، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد . يجوز هذا الماء إلى عجز الأسد ، فيمجه فى تلك البركة من فيه ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبه (٥) ، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجنباته ، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه . فكانت هذه القناة وبركتها ، والتمثال الذهب الذى يصب فيها من أعظم آثار الملوك غابر الدهر ، لبعد مسافتها ، واختلاف مسالكها ، وفخامة بنيانها ، وسمو أبراجها ، التى يترقى الماء فيها ويتصوّب من أعاليها » (٦).

---

(١) يعنى المجتاز البحر إلى الأندلس . (٢) المنظر .

(٣) الجوف هو الفضاء المتسع غير المسقوف الذى يسمى الصحن .

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٨ ، أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٦٥ — ٢٦٦

(٥) ثج الماء بمعنى انصب . (٦) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٨ ، وأزهار الرياض ج ٢ ص ٢٦٦ — ٢٦٧

وقد أطنب المؤرخون والرحالة فى وصف مدينة الزهراء وجداولها المتدفقة، وبساتينها النضرة، ومبانيها الفخمة وقصورها الجميلة، ومساكن الموظفين ورجال البلاط وثكنات الجند، وغلمان الصقالبة الذين كانوا يغدون ويروحون فى شوارعها الواسعة بسراويلهم الحريرية الخالصة أو الموشاة بالذهب والفضة، وجماعة القضاة والفقهاء والشعراء الذين يسيرون فى جد ورزانة فى ردهات القصر الفخمة وأبهائه الفسيحة(١).

وإن هذا العمل الذى يشهد لأمويى الأندلس بالبراعة فى الهندسة والبناء كلف عبد الرحمن الناصر أموالا ضخمة، حتى قيل إنه خصص ثلث خراج دولته فى بناء هذه المدينة (٢)، وإنه لقى معارضة قوية تزعمها رجل اشتهر بالورع والتقوى والتفقه فى الدين، هو المنذر بن سعيد البلوطى الذى ولاه الخليفة الناصر إمامة الصلاة بقرطبة والزهراء بعد بناء مسجدها. وقد تحلى المنذر بالشجاعة التى جعلته ينقد تصرف الخليفة الذى بذل الأموال الضخمة فى بناء هذه المدينة، الذى شغله عن مباشرة أمور الدولة. وقد دخل المنذر على الخليفة يوما وهو مشغول ببحث خطط البناء ومقابلة المهندسين ومراقبة شئون العمال، فغض القاضى من أهمية هذا البناء، وذم تشييد البنيان والمبالغة فى زخرفته والإسراف فى الإنفاق عليه، ودعاه إلى الزهد فى هذه الدار الفانية، « فأسهب فى ذلك كله، وأضاف إليه من آى القرآن ما يطابقه، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله، حتى ادّكر من حضره من الناس، وخضعوا ورقوا، واعترفوا وبكوا، وضجوا ودعوا، وأعلنوا التضرع إلى الله والتوبة، والابتهال فى المغفرة. وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ، وقد علم أنه المقصود، فبكى وندم على ما سلف له من فرطه، واستعاذ بالله من سخطه. إلا أنه وجد على منذر بن سعيد، لغلظ ما تقرعه به، فشكا ذلك إلى ولده الحكم بعد انصرافه، وقال له: والله لقد تعمدنى منذر بخطبته، وما عنى بها غيرى، فأسرف علىّ وأفرط فى تقريعى، ولم يحسن السياسة فى وعظى، فزعزع قلبى، وكاد بعصاه يقرعنى. واستشاط غيظاً عليه، فأقسم ألا يصلى خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة، وبجانب الصلاة بالزهراء، وقال له الحكم: وما الذى يمنعك من عزل المنذر من الصلاة بك والاستبدال منه إذ كرهته؟ فزجره وانتهره وقال له: أمثل منذر بن سعيد فى خيره وفضله وعلمه — لا أم لك — يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون؛ وإنى لأستحيى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمعة شفيعا مثل منذر، فى ورعه وصدقه. ولكنه قد أحرجنى فأقسمت؛ ولوددت أنى أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى. بل يصلى بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى »(٣).

ولكن المنذر كان لا يخشى فى الحق لومة لائم إذا كان لا يتفق وما جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف. فانظر كيف ذم الإسراف فى زخرفة البناء. روى المقرى(٤) « أن الناصر كان قد

(١) Stanley Lane — Poole : The Moors in Spain, pp. 140 — 1

(٢) المقرى : أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٦٩ — ٢٧١

(٣) المقرى : أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٤) أزهار الرياض فى أخبار عياض جـ ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨٢

اتخذ سطح القبيبة المصغرة الاسم للخصوصية التى كانت ماثلة على الصرح الممرد المشهور شأنه بقصر الزهراء ، قراميد مغشاة ذهبا وفضة ، أنفق عليها مالا جسيما ، وقرمد سقفها به ، وجعل سقفها صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة ، فتستلب الأبصار بأشعة أنوارها ، وجلس فيها إثر تمامها يوما لأهل مملكته ، فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة ، مفتخراً عليهم بما صنعه من ذلك : هل رأيتم أو سمعتم ملكا كان قبلى فعل مثل هذا أو قدر عليه ؟ فقالوا : لا والله ياأمير المؤمنين ، وإنك لأوحد فى شأنك كله ، وما سبقك فى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ولا انتهى إلينا خبره ، فأبهجه قولهم وسره . فبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضى منذر بن سعيد واجما ناكس الرأى . فلما أخذ مجلسه ، قال له كالذى قال لوزرائه ، من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه ؛ فأقبلت دموع القاضى تتحدر على لحيته ، وقال له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين على ما آتاك الله من فضله ونعمته ، وفضلك به على العالمين ، حتى ينزلك منازل الكافرين . فانفعل عبد الرحمن لقوله وقال له : وكيف أنزلتنى منزلتهم ؟ فقال له : نعم ، أليس الله تعالى يقول (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون[1]) ؟ فوجم الخليفة ، وأطرق مليا ودموعه تتساقط خشوعا لله سبحانه . ثم أقبل على منذر وقال له : جزاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيراً وعن الدين والمسلمين أجمل جزائه ، وكثر فى الناس أمثالك ، فالذى قلت هو الحق . وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى ، وأمر بنقض سقف القبيبة ، وأعاد قومدها ترابا على صفة غيرها » .

يقول المقرى[2] إن أبا عثمان بن إدريس أنشد عبد الرحمن الناصر قصيدة يشيد فيها بما أقامه هذا الخليفة الأموى من المبانى الشاهقة فى مدينة الزهراء فقال :

« سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن مضيعاً وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج وأطرق منذ بن سعيد ساعة ، ثم قام منشداً :

يا بانى الزهراء مستغرقا أوقائه فيها أما تمهل ؟
لله ما أحسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تذبل !

فقال الناصر : إذا هب عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم ، لا تذبل إن شاء الله تعالى ، فقال : أشهد أنى قد بثثت ما عندى ولم آل نصحاً » .

وقد صدقت نبوءة المنذر ، فإن هذه المدينة لم تعمر طويلا ، بل ذبلت ودكت معالمها حين ولى الحجابة عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر الحاجب ، وهو الملقب بشنجول[3] .

فى سنة ٣٩٩ هـ خلع الخليفة المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن ، وتقلد الخلافة من بعده محمد

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٣٣ . (٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٣

(٣) شنجول تصغير شانجة ملك تشتالة الذى أهدى ابنته إلى المنصور فتزوجها وأنجب منها ولده عبد الرحمن الذى عرف باسم شنجول نسبة إلى جده لأمه . انظر ص ٦١٣

ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وهدم مدينة الزهراء ، واتخذ قرطبة حاضرة لخلافته[١].

ولم يقتصر بناء المدن على الخلفاء ، بل تعداه إلى الوزراء ؛ فقد بنى المنصور بن أبى عامر الحاجب بضواحى قرطبة مدينته الزاهرة على نهرها الأعظم وشيد فيها قصرا فخما . وفى سنة سبعين وثلثمائة انتقل المنصور إليها ، ونزلها بخاصة وعامته ، فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته ، واتخذ فيها الدواوين والأعمال وعمل فى داخلها الأهراء ، وأطلق بساحتها الأرحاء . ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور ، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة [٢] والمنازه المشيدة . وقامت بها الأسواق وكثرت بها الأرفاق[٣] ، وتنافس الناس بالنزول بأكنافها [٤] والحلول بأطرافها ، للدنو من صاحب الدولة . وتناهى العلو فى البناء حوله ، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، وكثرت بحوزتها العمارة ، واستقرت فى بحبوحتها الإمارة . وأفرد الخليفة من كل شىء إلا من الاسم الخلافى[٥]، وصير ذلك هو الرسم العافى . ورتب فيها جلوس وزرائه ورءوس أمرائه ، وندب إليها كل ذى خطة بخطته [٦] ، ونصب بها كرسى شرطته ، وأجلس عليها واليا على رسم كرسى الخلافة ، وفى صفة تلك المرتبة المنيفة . وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات وتقصدها أصحاب الولايات ، وينتابها طلاب الحوايج ، وحذر أن يعوج [٧] عنها إلى دار الخليفة عائج » . [٨]

---

(١) قال ابن خلدون (العبر جـ ٤ ص ١٤٩ — ١٥٠) إنه تلقب الناصر لدين الله ، وحجر على الخليفة هشام ، وطلب منه أن يوليه عهده ، وأحضر أهل الحل والعقد وكتب عهده . ولكن العامة غضبوا على عبد الرحمن لتعديه على حرمة الخلافة ، وخرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر فى سنة ٣٩٩ هـ ، وتلقب المهدى ، وخلع هشاما وحبسه ، وأسر شنجول وقتل .

(٢) أى الضياع التى تستغل (٣) الأرفاق الأعمال ووجوه الرزق

(٤) الأكناف الأرياض أى الضواحى

(٥) يعنى لم يجعل له شبيها فى شىء الا فى اسم الخلافة ، فإنه شاركه فيه بالفعل ، فصار الخليفة اثنين : أحدهما بالاسم والآخر بالعمل .

(٦) أى أنه ندب إليها كل رئيس عمل حكومى مع عماله (٧) أى يميل.

(٨) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٥ .

الباب العاشر

الحـــــالة الاجتماعية

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (١) أنه يقصد بالحالة الاجتماعية فى بلد من البلاد ، ذكر طبقات المجتمع فى هذا البلد من حيث الجنس والدين ، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض ، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها ، وما يتمتع به كل منهم من الحرية ، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء ، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات وأماكن النزهة ، ووصف المنازل وما فيها من أثاث وطعام وشراب ولباس ، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع .

١ — طبقات الشعب

(ا) فى عهد العباسيين :

كان الشعب فى أواخر العصر العباسى الأول يتألف من عدة عناصر ، هى العرب والفرس والمغاربة . وقد ظهر العنصر التركى على مسرح السياسة فى عهد الخليفة المعتصم الذى اتخذهم حرساً له ، وأسند إليهم مناصب الدولة العالية ، وأهمل العرب والفرس ، فأصبح الأتراك خطراً يهدد حياة الخلفاء أنفسهم ، حتى إن كثيرين من هؤلاء الخلفاء ذهبوا ضحية تآمرهم . على أن بعض الخلفاء أدركوا خطر هذا العنصر ، فاستعانوا بالمغاربة والفراغنة ، وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد ، والقرامطة الذين بدأت الدولة العباسية تستعين بهم منذ أيام الخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) . إلا أن الخلفاء العباسيين لم يسلموا من خطر هذه العناصر التى كانت تنضم إلى أمراء الأمراء تارة ، وإلى الخلفاء أخرى . ولما انتقلت السلطة إلى بنى بويه قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين كان البويهيون ينتسبون إليهم ويعتمدون عليهم فى إقرار نفوذهم . ووقع بنو بويه فيما وقع فيه العباسيون من قبل ، وأصبح الديلم خطراً يهدد كيان الدولة العباسية بسبب قيام المنافسة بينهم وبين الأتراك ، واستعانة البويهيين بهؤلاء تارة وأولئك تارة أخرى . وقد أدرك معز الدولة هذا الخطر فأوصى ابنه بختيار بمداراة الديلم والتودد إلى الأتراك . ولكن بختيار ، على الرغم من استعانته بالأتراك ، لم يسلم من شرهم فعزلوه وانضموا إلى ابن عمه عضد الدولة . ومهما يكن من شىء فقد كان الجيش فى عصر بنى بويه يتألف من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراغنة وغيرهم من المرتزقة (٢) .

وكان من أثر انقسام المسلمين فى هذا العصر إلى شيع وطوائف أن تعرض المجتمع الإسلامى إلى التفكك والتنازع . فهناك السنيون الذين كانوا يكونون السواد الأعظم ، ويتمتعون بقسط وافر من الحرية والطمأنينة فى عهد نفوذ الأتراك وفى عهد إمرة الأمراء . وهناك الشيعيون ، وقد قاسوا فى هذا العهد كثيراً من العنت والاضطهاد ، حتى استولى بنو بويه على العراق ، فتمتع الشيعيون بشىء غير قليل من الطمأنينة فى ظل هؤلاء البويهيين المتشيعين . ومن ثم قامت المنازعات بين الشيعيين والسنيين ، فضرب يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب وحبس فى بغداد سنة ٢٣٥ هـ (٣) . ولم ينج من عنت هذا الخليفة إلا العلويون الذين لجئوا إلى مصر . ومع ذلك فقد

(١) ص ٢٨٩ (٢) أنظر ص ٤٦٥ — ٤٦٧ من هذا الكتاب .

(٣) الطبرى جـ ١١ ص ٤٢ .

أمر هذا الخليفة واليه على هـذه البلاد بإخراج العلويين من مصر إلى العراق ثم أمر بإرسالهم إلى المدينـة . على أن يحيى بن عمر العلوى لم يلبث أن خرج على الدولة العباسية ، ولـكنه قتل فى عهد المستعين سـنة ٢٥٠ هـ(١). وكذلك ثار بطبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، واستولى عليها وعلى جرجان ، وحكم هذه البلاد عشرين سنة (٢٥٠ — ٢٧٠ هـ) إلى أن مات ، فخلفه أخوه . وكانا يدعوان إلى الرضا من آل محمد ، ثم خلفه الحسن بن على الحسنى المعروف بالأطروش(٢) .

بيد أن الشيعيين انتعشوا فى عهد بنى بويه ، وأصبحوا يقيمون شعائرهم فى شىء كثير من الطمأنينة ، وإن كانت مساكنهم لم تتعـد المـكان المحيط بسوق الكرخ غربى بغداد إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى . وفى سنة ٣٤٩ هـ قامت فتنة بين العامة ببغداد ، وتعطلت صلاة الجمعة فى مساجد السنيين على حين أقيمت فى مسجد براثا الشيعى ، ولم تلبث أن سكنت هذه الفتنة باعتقال معز الدولة جماعة من السنيين (٣) . وفى السنة التالية احتفل الشيعيون بيوم عاشوراء (٤) ، وأمر « معز الدولة الناس بغلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبخ ، ونصبوا القباب فى الأسواق وعلقوا عليها المسوح ، وأخرجوا النساء منشورات الشعور يقمن المأتم على الحسين بن على رضى الله عنه ... وكان ذلك فى صحيفة معز الدولة بن بويه ؛ ثم اقتدى به من جاء بعده من بنى بويه»(٥).

وفى الثامن عشر من شهر ذى الحجة من هذه السنة احتفل الشيعيون بيوم غدير خم (٦) ، وأمر « معز الدولة بإظهار الزينـة فى البلد ، وأشعلت النيران بمجلس الشرطة ، وأظهر الفرح ، وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالى الأعياد . فعل ذلك فرحا بعيد الغدير ، يعنى غدير خم ، وضربت الدبادب والبوقات ، وكان يوماً مشهوداً»(٧) .

ولم يكن هذا الاختلاف قائما بين السنيين والشيعيين وحدهم ، بل تعداه إلى بعض السنيين وبعض . فقد رأينا أن الحنابلة أصبحوا قوة يخشى بأسها ، حتى إنهم حالوا دون دفن محمد بن جرير الطبرى سنة ٣١٠ هـ ، لأنه جمع كتابا فى اختلاف الفقهاء لم يذكر فيه أحمد بن حنبل من بين هؤلاء .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠٩ — ٤١٥ ، ٤٧٤

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤١٣ — ٤١٤

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٢٣ .

(٤) وهو اليوم العاشر من شهر المحرم (سنة ٦١ هـ) الذى قتل فيه الحسين بن على فى موقعة كربلاء ، وقد جعل الشيعيون هذا اليوم من أيام الحزن عندهم .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٣٤

(٦) غدير خم على ثلاثة أميال من الجحفة ، يسرة عن الطريق . وهذا الطريق تصب فيه عين ، وحوله شجر كثير ملتف ، وهى الغيضة وهذا الطريق خم . وبين الغدير والعين مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهناك نخل ابن المعلى وغيره . وبغدير خم قال النبى لعلى : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وذلك منصرفه من حجة الوداع . ولذلك قال بعض الشيعة :

ويوما بالغدير غدير خم أبان له الولاية لو أطيعا

(٧) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٩٧

الفقهاء[١] ؛ كما رأينا كيف بلغ من تشددهم فى الدين أن قاموا فى وجه ذوى اليسار وكسروا أوانى الخمر وحطموا الآلات الموسيقية وضربوا المغنين [٢] . وذكر السيوطى[٣] أن الحنابلة ثاروا ببغداد سنة ٣١٨ هـ ، لاختلافهم مع غيرهم من السنيين فى تفسير قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا[٤]) ، فقال الحنابلة إن المقصود من هذه الآية أن يقعد الله نبيه على عرشه ، وقال غيرهم بل هى الشفاعة ، واحتدم الجدال بسبب ذلك واقتتل الحنابلة وخصومهم[٥] .

ومن طبقات الشعب طبقة الرقيق ، وكانت مصر وشمال إفريقية وشمال جزيرة العرب من أهم أسواق الرقيق الأسود . وكان كافور الإخشيدى — كما نعلم — عبدا حبشيا اشتراه محمد بن طغج الإخشيد فى سنة ٣١٢ هـ بثمانية عشر دينارا[٦] . وقد جلب إلى العراق كثير من الزنجيات لأنهن عرفن بكثرة النسل ، كما جلب كثير من الزنج لفلاحة الأرض وحراسة الدور . وبهذا كثر عدد الزنج فى العراق ، وأدت كثرتهم إلى قيام ثورة الزنج الخطيرة التى دامت أكثر من أربع عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، وكلفت الدولة العباسية كثيراً من الأموال والدماء[٧] .

وقد كثر شراء الرقيقات اللاتى أصبح منهن المغنيات وارتفع ثمنهن . وقد قيل إن ابن رائق اشترى حول سنة ٣٢٥ هـ جارية مولدة سمراء موصوفة بحسن الغناء بأربعة عشر ألف دينار[٨] . وارتفع ثمن الرقيق الأبيض بسبب انقطاع عبيد الأندلس فى القرن الرابع الهجرى وتخريب الثغور الغربية ، وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقى من الرقيق وهو بيزنطة وأرمينية . ويقول المقدسى[٩] : « والخدم الذين ترى على ثلاثة أنواع : جنس يحملون إلى مصر وهم أجود الأجناس ، وجنس يحملون إلى عدن وهم البربر وهم شر أجناس الخدم ، والجنس الثالث على شبه الحبش . وأما البيض فجنسان : الصقالبة وبلدهم خلف خوارزم ، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيخصون ثم يخوجون إلى مصر ، والروم يقعون إلى الشام وأقور[١٠] ، وقد انقطعوا بخراب الثغور » .

ومن الرقيق الأبيض الذين كانوا يسمون الغلمان ، الأتراك والديلم والأكراد ، وقد قاموا بدور هام فى السياسة والحرب فى هذا العصر . وكان هؤلاء الأرقاء يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٤٥ — ٤٦

(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٠٦ — ١٠٧ . أنظر هذا الكتاب ص ٩٣ (٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٥

(٤) سورة الأسرى آية رقم ٧٩ .

(٥) راجع كتاب الخليفة الراضى الى الحنابلة فى مسكويه : تجارب الامم جـ ١ ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٣١

(٧) راجع ماذكرناه عن ثورة الزنج فى هذا الكتاب ص ٣٧٥ — ٣٧٩ .

(٨) الصولى أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ١٠١ .

(٩) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٤٢ .

انظر آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٢٣٦ وما يليها .

(١٠) بضم القاف وسكون الواو اسم كورة بالجزيرة ، أو هى الجزيرة التى بين الموصل والفرات بأسرها . أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

الإسلامى فى العصر العباسى الأول ، إذ كان اتخاذ الرقيق منتشرا انتشارا كبيرا . وكانت سمرقند ، التى كانت تعد من أكبر أسواق الرقيق ، بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر ، كما كان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها(١) . ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان وازدراء ، لأن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق . وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب ، حتى إنهم كانوا يفضلونهن أحيانا على العربيات الحرائر(٢) .

ومن طبقات الشعب فى ذلك العصر أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود . وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الدينى ويقيمون شعائرهم الدينية فى أمن ودعة . وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعا من التسامح . ولم تتدخل الحكومة الإسلامية فى شعائر أهل الذمة ، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بحمايتهم .

وكانت الطوائف الدينية منفصلا بعضها عن بعض تمام الانفصال ؛ وكان لا يجوز للمسيحى أن يتهود ، ولا لليهودى أن يتنصر ، واقتصر تغيير الدين على الدخول فى الإسلام . ولم يكن النصرانى يرث اليهودى ولا اليهودى يرث النصرانى ، كما لم يكن اليهودى أو النصرانى يرث المسلم ولا المسلم يرث غير المسلم يهوديا كان أو نصرانيا . ولم يكن فى المدن الإسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها ، وإن كان أهل كل دين قد آثروا أن يعيشوا متقاربين»(٣).

وكان للنصارى بطريق يعين بعهد خاص من الخليفة كما يعهد لكبار العمال ، ويطلق عليه الجاثليق النسطورى أى رئيس المسيحيين الشرقيين ، وكان يتمتع بنفوذ كبير بين أبناء ملته بعد أن انتقل مركز الخلافة إلى بغداد(٤) ؛ وكذلك عومل بطريق اليعاقبة(٥) .

وكان لليهود رئيس خاص يلقب أحيانا بلقب الملك ، ويدفع له أهل ملته الضرائب فيأخذ نصفها ويرسل النصف الآخر إلا بيت المال ، بخلاف ما كانت عليه الحال بالنسبة إلى النصارى الذين كانوا يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة . ويطلق على رئيس اليهود ببغداد رأس الجالوت ، وقد امتد نفوذه على اليهود المقيمين فى البلاد الواقعة شرقى الفرات. وبلغ عدد اليهود بالعراق وحدها ٦٠٠,٠٠٠ وكلما تقدمنا شرقا زاد عدد اليهود ، ففى همذان مثلا بلغ عددهم ثلاثين ألفا ، وفى أصبهان خمسة عشر ألفا . وفى شيراز عشرة آلاف ، وفى غزنة ثمانين ألفا ، وفى سمرقند ثلاثين ألفا . ويظهر أن عددهم كان ضئيلا فى بلاد الشام ، وخاصة فى أثناء الحروب الصليبية ، حتى إن عددهم فى الحى الخاص بهم

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ٢٦٨ .

(٢) انظر هذا الكتاب ص ٢٩٢ .

(٣) انظر هذا الكتاب ج ٢ ص ٢٩١

(٤) متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٥٨ — ٥٩ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٦٠

راجع نسخة الجاثليق فى تذكرة ابن حمدون التى نشرها أمدروز فى المجلة الأسيوية الملكية سنة ١٩٠٨ ص ٤٦٧ وما يليها.

فى بيت المقدس لم يتجاوز أربعة أنفس أو مائتين على ماذكره بنيامين ، أو شخص واحد على ماذكره بتاحيا . أما فى دمشق فقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف ، وفى حلب خمسة آلاف[١]. ويقول المقدسى[٢] فى كلامه على خراسان إنه كان به « يهود كثيرة ونصارى قليلة »، ويقول عن بلاد الجبل : « واليهود به أكثر من النصارى[٣] » .

وفى القرن الرابع الهجرى اعترفت الدولة العباسية للمجوس الذين لم يكن قد تم التغلب عليهم فى البلاد البعيدة ، لتمسكهم بدينهم وتقاليدهم وكراهتهم للإسلام بأنهم أهل ذمة . وكان لهم — كما كان لليهود — رئيس دينى يلقب بألقاب الملوك ، وكان منصبه وراثيا . ويدفع له أبناء نحلته الضرائب كما يفعل اليهود[٤]. وقد كثر عددهم فى القرن الرابع فى العراق وجنوبى فارس[٥] .

(ب) فى عهد الفاطميين :

وكان الشعب المصرى فى عهد الفاطميين يتكون من أهل السنة الذين كانوا ، منذ أيام الطولونيين، يكونون السواد الأعظم من المصريين . وكانوا يختلفون مع الشيعيين أنصار الفاطميين ، الذين لم يدخروا وسعا فى نشر مذهبهم فى المساجد والقصور ، وفى دور العلم وغيرها . وقد فعلت هذه السياسة فعلها فى الناس ، فتحول كثير من السنيين إلى المذهب الفاطمى رغبة فى الهبات والعطايا والمناصب . واضطر كثير من الموظفين من أهل السنة إلى التحول إلى المذهب الفاطمى ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب

أما الطبقة الثانية فهى طبقة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم فى بلاد المغرب ثم فى مصر . وكان الفاطميون يعتمدون عليهم فى جيوشهم ، وخاصة الكتاميين الذين كانوا عصب الدولة الفاطمية وقوتها فى مصر .

والطبقة الثالثة هى طبقة أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود . وقد دفعت رغبة كثير منهم فى الحصول على الهبات والعطايا والمناصب إلى اعتناق المذهب الإسماعيلى لأغراض مادية . وقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، وأجمع المؤرخون على أن أبناء هاتين الطائفتين عوملوا فى عهد الفاطميين معاملة تتجلى فيها المحاباة ، وتقلدوا أرقى المناصب وأعلاها فى عهد الخليفة العزيز ، وشغلوا فى عهد المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية فى الدولة ، بل تقلدوا الوزارة أيضاً ، وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الدينى ، وهو أمر نستطيع تحقيقه من بناء عدد من الكنائس أو إعادتها إلى ما كانت عليه .

والطبقة الرابعة هى طبقة الأتراك الذين كثر عددهم منذ أيام الدولة الطولونية . فقد استعان أحمد بن

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٦٠ — ٦٢ .

(٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٣٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٩٤ (٤) متز : ج ١ ص ٥٨

(٥) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٢٦ .

طولون مؤسس هذه الدولة — وكان تركيا من بلاد ماوراء النهر — بعدد كبير من هؤلاء الأتراك . وظهر أمرهم فى مصر فى عهد الحاكمين بالغ ابن عمار فى محاباة المغاربة ، وأبطل أعطيات الأتراك ، واعتمد على معونة غلمان المغاربة الذين أثاروا عليهم الأتراك ، مما أدى إلى التطاحن بين الفريقين . وكان برجوان التركى ينافس ابن عمار ويناوئه العداء ، حتى اضطر زعيم المغاربة إلى الهرب وحل محله (١)

والطبقة الخامسة هى طبقة السودانيين الذين كثروا فى مصر منذ عهد كافور الإخشيدى . وقد ظهر أمرهم فى أيام الخليفة الحاكم الذى استعان بهم على الأتراك ، فأحرقوا القاهرة حنقاً منهم على المصريين الذين لم يرضوا عن سياسته المضطربة .

وقد ظهر أمر هؤلاء السودانيين من جديد فى أيام الخليفة الظاهر الذى تزوج بسيدة سودانية ، كانت من قبل أمة فى بيت أبى سعيد التسترى اليهودى . وتفاقم خطر هؤلاء الجند الذين بلغ عددهم خمسين ألفاً فى أيام المستنصر ، بسبب التشاحن الذى قام بينهم وبين الأتراك الذين طاردوهم إلى الصعيد ، حيث استقر منهم خمسة عشر ألفا . وكان من أمرهم أن أخافوا الأهلين ، وحالوا دون زراعة الأراضى (٤٥٤ هـ) ، واكتسح الفالة منهم ، وعددهم خمسة عشر ألفا ، الدلتا حتى وصلوا إلى الإسكندرية ، فاستقروا بها . وقد شل حركة الفلاحين ذلك الرعب الذى ألقته هؤلاء الجنود السودانية المشتتة فى جميع أنحاء البلاد(٢) .

على أن ذلك الانتصار الذى أحرزه الجند من الأتراك على الجند السودانى لم يؤد إلى فل شوكة العنصر السودانى نهائيا ، بل — على العكس من ذلك — نرى هذا العنصر من بين الطبقات التى كان يتكون منها الشعب المصرى فى أواخر عهد الدولة الفاطمية .

(ج) فى عهد الأمويين بالأندلس :

وكان الشعب فى بلاد الأندلس يتألف من عدة عناصر ، من بينها المسلمون من العرب ، والبربر الذين ساهموا فى فتح هذه البلاد بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير ، ومن مسيحيي الأندلس من الأسبان الذين دخلوا فى الإسلام بعد الفتح .

أما العرب فقد نزل كثير من القبائل الجنوبية أو اليمنيين والقبائل الشمالية أو المضريين ، وسكنوا فى أماكن كثيرة ، ونزل كثير من المضريين فى طليطلة وسرقسطة وإشبيلية وبلنسية وغيرها ، كما نزل اليمنيون بغرناطة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وبطليوس . وقام العرب فى الأندلس بدورهام فى تاريخ هذه البلاد ، فتدخلوا فى شئونها السياسية . وكان للنزاع بين هذه القبائل ، أثر كبير فى إضعاف الحكم الإسلامى فى هذه البلاد . وكان لاعتماد عبد الرحمن الداخل على البربر واتخاذ جنده منهم لعدم ثقته بالعرب ، أثر بعيد فى إضعاف الدولة الأموية بهذه البلاد ، وأتاح للمسيحيين الفرصة لشن غاراتهم على المسلمين والعمل على استرداد بلادهم .

وعلى الرغم من أن البربر بقيادة طارق بن زياد أبلوا البلاء الحسن فى فتح بلاد الأندلس

---

(١) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٠١ — ٢٠٢

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥١ ، ٢٥٢ — ٢٥٨

وتحملوا أكثر أعباء هذا الفتح ، نرى العرب يحرمونهم ثمار فتوحهم وينزلونهم الأقاليم الجبلية الوعرة المجدبة فى الشمال ، حيث استهدفوا لخطر حملات المسيحيين الذين أقاموا فى الأماكن الحصينة ، على حين نعم العرب بالوديان الخصبة البعيدة عن خطر عصابات المسيحيين . لهذا ثارت ثائرة البربر واستعرت حفائظهم على العرب (١) ، وأخذوا يناصبونهم العداء كما كانوا يناصبون العرب والروم من قبلهم فى بلاد المغرب .

والحق أن البربر كانوا إذا أنسوا من أمراء الأمويين وخلفائهم فى الأندلس قوة ، استكانوا وآثاروا العافية ، وعاشوا عيشة الهدوء والسكينة ، وإذا أنسوا من هؤلاء ضعفاً اتخذوا من ذلك فرصة لشق عصا الطاعة . فتراهم ينتهزون فرصة الاضطرابات فى عهد المنذر وعبد الله ابنى محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط ، ويستقلون فى أواخر القرن الثالث الهجرى بالولايات الغربية وجنوبى بلاد البرتغال ، ويحتلون بعض الأماكن الهامة فى الأندلس (٢) . ومن أشد هؤلاء البربر خطراً أسرة ذى النون التى دهمت الأندلس كلها — كما يقول ستانلى لينبول (٣) — بالسيف والنار وعاثت فى جميع أرجائها » .

ولكن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠هـ) استطاع أن يرغم هؤلاء البربر على الطاعة ، وأعاد وحدة البلاد . ولم يستطع هؤلاء البربر الظهور إلا بعد وفاة المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٣ هـ ، حيث غدت بلاد الأندلس مسرحا لفوضى القوى المتعادية المتنافسة ، ومن بينها البربر الذين اعتمد عليهم المنصور فى تحقيق سياسته ، حتى أصبحوا خطراً يهدد كيان الدولة (٤). وقد انفض هؤلاء البربر بعد وفاة الحاجب المتصور من حول أخيه عبد الرحمن وقتلوه وأزالوا دولة العامريين (٥) ، وساعدوا أفراد البيت الأموى بعضهم على بعض . ولذلك نرى البربر يلتفون حول محمد بن هشام بن عبدالجبار ابن عبد الرحمن الناصر الذى تلقب بالمهدى ، ويساعدونه فى الحروب التى قامت بينه وبين هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . ولما وجد محمد بن هشام حنق أهل قرطبة على البربر

---

(١) Stanley Lane — Poole : The Moors in Spain, pp. 53-5

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٤ ص ١٣٣ .

(٣) The Moors in Spain. pp. 100 —1

(٤) ابن خلدون . العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ص ١٥٠

(٥) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٤٩ — ١٥٠

خلف عبد الرحمن أخاه المظفر وتلقب الناصر ، وأعلن حقه فى وراثة العرش ، وأن الخليفة هشاما المؤيد اختاره دون سائر أهل بيته إذ لم يكن له ولد يطمع فى الخلافة ، وكتب له عهدا بذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ . وكان يلقب بشنجول « أو سانكول » ، ذلك الاسم الذى غلب عليه من قبل أمة عبدة بنت شانجة ملك نافار ، وكانت تدعوه فى صغره شانجول . وكان ينتسب الى الخليفة عن طريق الخئولة ، اذ أن أمهما بشكنسيتين (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ ، ٤٢) ، فانفض البربر من حوله لما وجدوه من سوء سياسته ، كما انفض الأمويون وزعماء هذه البلاد حين رأوه يعمل على نقل الخلافة الى بيته فى ذلك الوقت الذى تطرق الضعف الى الخلافة الأموية فى هذه البلاد .

لناصرتهم المنصور بن أبى عامر وأولاده ، طردهم من جيشه وجردهم من سلاحهم (١) . وقد تخلى البربر عن المهدى وناصروا هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر (شوال سنة ٣٩٩ هـ) وحثوه على الخروج على طاعة المهدى . ولكن أهل قرطبة فتكوا بهم فتكا ذريعاً وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . ولذلك ساعد البربر سليمان بن الحكم ولقبوه المستعين بالله ، وساروا معه إلى قرطبة التى أصبحت مسرحا للفوضى والنهب والإحراق ، حتى دخلها سليمان سنة ٤٠٠ هـ ، وفر المهدى ، واستعان بالنصارى على طرد البربر والمستعين ، وتم لهم ما أرادوا . وأدى ذلك إلى تفريق كلمة المسلمين وظهور ملوك الطوائف ، وقامت دولة بنى حمود بمساعدة البربر (٢).

وقد قام مسيحيو الأندلس الذين دخلوا الإسلام بدور هام فى سياسة هذه البلاد . فنراهم فى عهد المنذر وأخيه عبد الله ابنى محمد الأول يثورون على أمرائهم ويستولون على ولاية الجرف فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة ويستقلون بكثير من الولايات .

أما المسيحيون فى هذه البلاد فقد كانوا فريقين : فريق بقى متمسكا بدينه القديم ، وفريق آخر عرف باسم المستعربين . وعلى الرغم من أنهم ظلوا على عقيدتهم الأولى ، أظهروا ميلهم إلى تعلم اللغة العربية فتكلموا بها ، وألفوا الكتب ونظموا الشعر وتخلقوا بأخلاق العرب وعاداتهم (٣). وكان يحكمهم حاكم من بينهم يسمى الكونت يختاره الأمير أو الخليفة ، ولهم ممثل يمثلهم فى البلاط ، وآخر يقوم بجمع الخراج . ولهم قاض منهم ، ومحكمة استئنافية برياسة الكونت . وكثيراً ما كان هؤلاء المسيحيون يعينون فى أرقى المناصب المدنية والحربية ويتمتعون بقسط وافر من التسامح الدينى ويختلطون بإخوانهم فى حرية تامة .

وقد تمتع اليهود فى هذا العصر بشىء كثير من التسامح الدينى الذى لم يظفروا به تحت حكم القوط . ولا غرو فقد أسند إليهم كثير من مناصب الدولة ، وأصبح بعض الحرف ، وخاصة الطب ، مقصورة عليهم ، وغدوا عنصراً هاماً فى الإدارة والتجارة والثقافة ، وأضحت قرطبة مركز الدراسات العبرية ، وأصبح كثير من اليهود يتحدثون باللغة العربية الصحيحة ويكتبون بها .

وكان لليهود ، كما كان للمسيحيين ، نظام إدارى خاص بهم . وقد ذكر الإدريسى (٤) أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلا جنوبى قرطبة ، وأنهم كانوا « يسكنون بجوف المدينة ولا يداخلهم فيها مسلم البتة ، وأهلها أغنياء مياسير أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين » . وليس أدل على ما بلغه اليهود فى عهد الأمويين بالأندلس من نفوذ من اختيار حسداى بن شبروط اليهودى لاستقبال سفراء الدول الذين كانوا يفدون على البلاط الأموى فى هذه البلاد . وقد قام حسداى هذا بدور هام فى البعثة التى أوفدها قسطنطين الثانى إمبراطور الدولة البيزنطية إلى عبد الرحمن الناصر ،

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ٨٤ .

(٢) أنظر هذا الكتاب ص ٣٠٧ — ٣٠٩ (٣) المصدر نفسه ص ٢٩١

(٤) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ليدن ١٨٦٦) ص ٢٠٥ .

وفى البعثة التى أوفدها أوتو إمبراطور ألمانيا ، كما أسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية طبية لدى ملكة نافار(١) .

ومن أهم طبقات الشعب فى الأندلس « الصقالبة » ، وكانوا من المماليك الذين كان تجار الإغريق والبنادقة يجلبونهم إلى بلاد الأندلس ويبيعونهم صغارا فينشئون نشأة إسلامية(٢)، أو من أسرى الحروب أو ممن استولى عليهم القراصنة من السواحل الأوربية أو سواحل البحر الأبيض الغربية . ويسمون «الحشم(٣)» . ويشبه هؤلاء الصقالبة الأتراك فى الدولة العباسية منذ عهد المعتصم. وقد ذكر المقدسى(٤) عند كلامه على الخدم السود والبيض ، أن البيض جنسان : الصقالبة ، وبلدهم خلف خوارزم ، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيخصون . ثم يخرجون إلى مصر، والروم يقعون إلى الشام وأقور ، وقد انقطعوا بخراب الثغور » . وكان الصقالبة يكونون عنصرا هاما من عناصر الجيش ، ويقيمون عادة بقرطبة . وقد اتخذهم الحكم الأول بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) حرسا له ، ولم يلبث أن زاد نفوذهم وتفاقم شرهم . ولما ولى عبد الرحمن الناصر بلاد الأندلس فى سنة ٣٠٠ هـ قرب إليه الصقالبة ، ورأى أن روح العصبية العربية كانت مثار النزاع والانقسام ، فتخلص من العرب ، واعتمد على جماعة من الأرقاء والمماليك الذين اتخذهم حرسا له ، كما اتخذ منهم جنودا يعتمد عليهم فى إذلال العرب . وبلغ عدد الصقالبة بقصر الزهراء وحده ٣٧٥٠(٥).

ولكن هؤلاء الصقالبة لم يلبثوا أن انضموا إلى الثورات التى قامت بعد موت الحاجب المنصور الذى عمل على القضاء على العرب والصقالبة ، واعتمد على البربر كما تقدم . كما استعان بهم عبدالرحمن الناصر فى حروبه التى شنها على مسيحيى الأندلس الشماليين وعلى الفاطميين .

٢ — مجالس الغناء والطرب

(ا) فى الدولة العباسية :

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب(٦) أن العباسيين انغمسوا فى الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة ، وأن قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة كانت مضرب المثل فى حسن رونقها وبهائها ، كما امتازت بفخامة بنائها واتساعها وما يكتنفها من حدائق غناء وأشجار متكاثفة، وازدانت بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والتربيعات المرصعة والمذهبة . وكان العباسيون فى العراق والطولونيون والفاطميون فى مصر والأمويون فى الأندلس ينفقون عن سعة فى سبيل رفاهيتهم ، ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور . وحفلت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

(١) أنظر هذا الكتاب ص ٤١٢ — ٤١٦ . (٢) المصدر نفسه ص ٢٩٦

(٣) كانوا يسمون الخرس أيضاً لعجمتهم ، وقد بلغت عدتهم خمسة آلاف .
أنظر هذا الكتاب ص ٢٩٠

(٤) احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٤٢ . انظر هذا الكتاب ص ٦١١

(٥) وقيل ٣٧٨٧ وقيل ٦٠٨٧ . انظر كتاب نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٩ .

(٦) جـ ٢ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

وكبار رجال الدولة بالمغنين والموسيقيين ، كما كانت مجالسهم آية من آيات الروعة والجمال .

أخذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفرس كما نعلم . وعلى الرغم من ضعف الدولة فى العصر العباسى الثانى ، كان للخلفاء مجالس للطرب والغناء يحضرها الشعراء والأدباء والمغنون والموسيقيون والملهون. وقد ذكر المسعودى(١) أن مجلس المتوكل أول خلفاء العصر العباسى الثانى جمع مرة بين الشعراء والأدباء والملهين . وقد مدح البحترى هذا الخليفة بقصيدة قال فى مطلعها :

عن أى ثغر تبتسم ... وبأى طرف تحتكم ؟
حسن يضىء بحسنه ... والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر ال ... متوكل بن المعتصم
المرتضى ابن المجتبى ... والمنعم ابن المنتقم
أما الرعية فهى من ... أمنات عدلك فى حرم
يا بانى المجد الذى ... قد كان قوض فانهدم
إسلم لدين محمد ... فإذا سلمت فقد سلم
نلنا الهدى بعد العمى ... بك والغنى بعد العدم

فلما انتهى إلى ذلك مشى القهقرى للانصراف ، فوثب أبو العنبس الصيمرى الشاعر ، فقال : يا أمير المؤمنين تأمر برده ، فقد والله عارضته فى قصيدته هذه . فأمر برده ، فأخذ الصيمرى ينشد قصيدة له على مثل قافية البحترى ووزنها يهجوه فيها فقال :

فى أى سلح ترتطم ... وبأى كف تلتقم

ووصل ذلك بما أشبهه من الشتم ، فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، وفحص برجله اليسرى وقال : يدفع إلى أبى العنبس عشرة آلاف درهم ، فقال الفتح (بن خاقان) : يا سيدى ! البحترى الذى هُجى وأسمع المكروه ينصرف خائبا ! قال : ويدفع إلى البحترى عشرة آلاف درهم . قال : يا سيدى ! فهذا البصرى الذى أشخصناه من بلده لايشركهم فيما حصلوه ؟ قال : ويدفع إليه عشرة آلاف درهم . فانصرفنا كلنا فى شفاعة الهزل ، ولم ينفع البحترى جده واجتهاده وحزمه . ثم قال المتوكل لأبى العنبس : أخبرنى عن حمارك ووفاته وما كان من شعره فى الرؤيا التى رأيتها . قال : نعم يا أمير المؤمنين ، كان أعقل من القضاة ، ولم يكن له جرية ولا زلة ، فاعتل علة على غفلة ومات منها ، فرأيته فيما يرى النائم ، فقلت له: يا حمارى ! ألم أبرد لك الماء وأنق لك الشعير وأحسن إليك جهدى ؟ فلم مت على غفلة ؟ وما خبرك ؟ قال : نعم ! لما كان فى اليوم الذى وقفت على غلان الصيدلانى تكلمه فى كذا وكذا ، مرت بى أتان حسناء ، فرأيتها ، فأخذت بمجامع قلبى ، فعشقتها ، واشتد وجدى بها ، فمت كمدا متأسفا . فقلت له : يا حمارى ! هل قلت فى ذلك شعرا ؟ قال : نعم ! وأنشدنى:

هام قلبى بأتان ... عند باب الصيدلانى

---

(١) مروج الذهب (طبعة باريس) جـ ٨ ص ٢٠٢ — ٢٠٦ .

تيمتنى بدلال رضا بثنايا ها الحسان
وبخدين أسيلي ن كلون الشقران
وبخـــد ذى دلال مثل خد الشنفرانى
فبها مت ولو عشـ ـت ، إذاً طال هوانى

فقلت : يا حمارى ! فما الشقرانى ؟ قال : هذا من غريب الحمير . فطرب المتوكل ، وأمر الملهين المغنين أن يغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار ، وفرح ذلك اليوم فرحا شديدا وسر سرورا لم ير مثله ، وزاد فى تكرمة أبى العنبس وجائزته » .

وكان الخليفة المعتمد مشغوفا بالطرب والغناء والموسيقى . دخل عليه يوما جماعة من ندمائه فسأل عبد الله بن خرداذبة والد أبى القاسم عبيد الله الجغرافى المشهور صاحب كتاب « المسالك والممالك » عن نشأة الموسيقى والغناء وما طرأ عليهما من تغيير . فأجاد فى وصفهما فى البلاد الإسلامية منذ أقدم العصور ، فسر المعتمد وقال له : « قد قلت فأحسنت ، ووصفت فأطنبت ، وأقمت فى هذا اليوم سوقاً للغناء وعيداً لأنواع الملاهى . وإن كلامك لمثل الثوب الوشى ، يجتمع فيه الأحمر والأصفر والأخضر وسائر الألوان » . ثم سأل عن الصفات التى يجب أن تتوافر فى المغنى الحاذق ، فقال له : المغنى الحاذق يا أمير المؤمنين من تمكن من أنفاسه (١) ولطف فى اختلاسه (٢) وتفرع فى أجناسه . ثم سأله عن أنواع الطرب « قال : على ثلاثة أوجه يا أمير المؤمنين ، وهى طرب محرك مستخف لأريحية (٣) ، ينعش النفس ودواعى الشيم عند السماع ؛ وطرب شجن وحزن ، لاسيما إذا كان الشعر فى وصف أيام الشباب والشوق إلى الأوطان والمراثى لمن عدم من الأحباب ؛ وطرب يكون فى صفاء النفس ولطافة الحس (٤) لاسيما عند سماع جودة التأليف وإحكام الصنعة ، إذ كان من لايعرفه ولا يفهمه لايسره ، بل تراه متشاغلا عنه ؛ فذلك كالحجر الجلمد والجماد الصلد ، سواء وجوده وعدمه ، وقد قال ياأمير المؤمنين جمهور من الفلاسفة المتقدمين وكثير من حكام اليونانيين : من عرضت له آفة فى حاسة الشم كره رائحة الطيب ، ومن غلظ جسمه كره سماع الغناء فتشاغل عنه وعابه وذمه . قال المعتمد : فامنزلة الإيقاع وأنواع الطروق وفنون النغم ؟ : قال : قد قال فى ذلك يا أمير المؤمنين من تقدم ، إن منزلة الإيقاع من الغناء منزلة العروض من الشعر ؛ وقد أوضحوا الإيقاع ووسموه بسمات ولقبوه بألقاب . وهو أربعة أجناس : ثقيل الأول وخفيفه ، وثقيل الثانى وخفيفه ، والرمل الأول وخفيفه ، والهزج وخفيفه » (٥).

ثم أخذ ابن خرداذبة يصف الإيقاع فى كثير من الإفاضة حتى قال : « فهذه يا أمير المؤمنين

---

(١) أى من جمع نفسه لمد الصوت (٢) أى اختلس النفس دون أن يشعر الناس به
(٣) يحرك الارتياح للكرم من كثرة الطرب .
(٤) أى من أنواع الطرب ما هو استجابة للدواعى الفنية وحدها من إحكام صنعة الغناء وجودة الايقاع وحسن تأليف اللحن . وهذا النوع لا يطرب له الا الفنان القوى الحس .
(٥) المسعودى : مروج الذهب (طبعة باريس) ج ٨ ص ٩٥ — ٩٩ .

جوامع فى صفة الإيقاع ومنتهى حدوده . ففرح المعتمد فى هذا اليوم وخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضره من ندمائه ، وفضله عليهم . وكان يوم لهو وسرور » .

« وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس ، قد دونت فى أنواع من الأدب ، منها مدح النديم ، وذكر فضايله وذم ، التفرد بشرب النبيذ وما قيل فى ذلك من المنثور والشعر ، وما قيل فى أخلاق النديم وصفاته وعفافه ، وأمن عبثه والتداعى إلى المنادمات والمراسلات فى ذلك ، وعدد أنواع الشرب فى الكثرة ، وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه ، وأصول الغناء ومباديه فى العرب وغيرها من الأمم ، وأخبار الأعلام من مشهورى المغنين المتقدمين والمحدثين ، وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع ، وكيفية مراتبهم ، وتعبية مجالس الندماء والتحيات كما قال العطوى فى ذلك :

حى التحية أصحابَ التحيات ... القائلين إذا لم تسقهم : هات
أما الغداة فسكرى فى نعيمهم ... وبالعشى فصرعى غير أموات
وبين ذلك قصف لا يعادله ... قصف الخليفة من لهو ولذات (١)

وكذلك كان الخليفة يهتم بمجالس الطرب . روى المسعودى (٢) أن الراضى قد تملكه الهم يوم المهرجان لاستبداد بجكم بأمور الدولة ، وصكه النقود باسمه (٣) ، ولكنه أزال عن نفسه الهم وتمثل بقول المأمون :

صل الندمان يوم المهرجان ... بصاف من معتقة الدنان
بكأس خسروانى عتيق ... فإن العيد عيد خسروان
وجنبنى الزبيبيين طراً ... فشأن ذوى الزبيب خلاف شأنى
فأشربها وأزعمها حراما ... وأرجو عفو رب ذى امتنان
ويشربها ويزعمها حلالا ... وتلك على الشقى خطيئتان

فطرب وأخذته أريحية ، فقال لى : صدقتَ ، ترك الفرح فى مثل هذا اليوم عجز ، وأمر بإحضار الجلساء ، وقعد فى مجلس التاج على دجلة ، فلم أر يوما كان أحسن منه فى الفرح والسرور . وأجاز فى ذلك اليوم من حضر من الندماء والمغنين والملهين بالدنانير والدراهم والخلع وأنواع الطيب . وأتته هدايا بجكم وألطافه من أرض العجم ، فسر فى ذلك اليوم وجميع من حضره » .

ولم تقتصر هذه المجالس على الخلفاء وحدهم ، بل تعدتهم إلى الأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة . فقد وصف المبرد مجلس محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين فقال : « ارتاح محمد

---

(١) المسعودى (طبعة باريس) ج ٨ ص ١٠٠ — ١٠٣ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٢٩ — ٥٣٠ .

(٣) روى العروضى مؤدب الراضى أنه دخل عليه فى هذا اليوم « وبيده دينار ودرهم ، فى الدينار نحو من مثاقيل ، وفى الدرهم كذلك ، عليه صورة بجكم شاك فى سلاحه وحوله مكتوب : انما العز فاعلم ، للأمير المعظم سيد الناس بجكم ، ومن الجانب الآخر ، الصورة بعينها جالس فى مجلسه كالمفكر المطرق . المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٢٩ .

ابن عبد الله بن طاهر يوما للمنادمة ، وقد حضره ابن طالوت ، وكان وزيره وأخص الناس به ، وأحضرهم لخلواته . فأقبلا عليه وقال : لا بد لنا اليوم من ثالث تطيب لنا به المعاشرة وتلذ بمنادمته المؤانسة ؛ فمن ترى أن يكون ؟ وأعفنا أن يكون شرير الأخلاق أو دنس الأعراق أو ظاهر الإملاق . فأعمل ابن طالوت الفكر وقال : أيها الأمير ! خطر ببالى رجل ليس علينا من مجالسته من مؤنه ، وقد برىء من إبرام المجالسين(١)، وخلا من ثقل المؤانسين، خفيف الوطأة إذا أحببت، سريع الوثبة إذا أمرت(٢) . قال : ومن ذلك ؟ قال : مانى الموسوس . قال: أحسنت والله ، فليتقدم إلى أصحاب الثمانية والعشرين الرابع فى طلبه(٣)، يرفعوه رفعة. فما كان بأسرع من أن اقتنصه صاحب الكرخ ، فصار به إلى باب الأمير ، فأخذ وحذف ونظف ، وأدخل الحمام ، وألبس ثيابا نظافا ، وأدخل عليه ، فقال : السلام عليك أيها الأمير ! فقال محمد : وعليك السلام يا مانى ! أما آن لك أن تزورنا على حين توقان منا إليك ومنازعة قلوب منا نحوك ؟ فقال مانى : الشوق شديد ، والحب عتيد ، والمزار بعيد ، والحجاب صعب ، والبواب فظ . ولو سهل لنا فى الإذن لسهلت علينا الزيارة، فقال : ألطفت فى الاستئذان فليلطف لك فى الإذن . لا يمنع مانى أى وقت ورد من ليل أو نهار؛ ثم أذن له فى الجلوس فجلس ، ودعى بالطعام فأكل ، ثم غسل يديه وأخذ مجلسه . وكان محمد قد تشوق إلى السماع من مؤنسة جارية بنت المهدى ، فأحضرت ، فكان أول ما غنت به :

ولست بناس إذ غدوا فتحملوا دموعى على الأحباب من شدة الوجد
وقولى وقد زالت بليل حمولهم بواكر(٤) نجد لا يكن آخر العهد

فقال مانى : أحسنت وحق الأمير إلا ما زدت فيه ؟

وقمت أناجى الفكر والدمع حائر بمقلة موقوف على الضر والجهد
ولم يعدنى هذا الأمير بعزة(٥) على ظالم قد لج فى الهجر والصد

فاندفعت تغنيه فقال له محمد : أعاشق أنت يا مانى ؟ فاستحيا وغمزه ابن طالوت أن لا يبوح له بشىء فيسقط من عينيه ، فقال : بلغ طرب وشوق كان كامنا فظهر ، وهل بعد الشيب صبوة(٦) ؟ ثم اقترح محمد على مؤنسة هذا الصوت :

حجبوها على الرياح لأنى قلت ياريح بلغيها السلاما
لو رضوا بالحجاب هان ولكن منعوها عن الرياح الكلاما(٧)

---

(١) يعنى انه خفيف الروح لا يضايق الجالس معه .
(٢) أى إذا أردت منه قضاء أمر فى المجلس خف اليه وأسرع .
(٣) يريد بأصحاب الثمانية والعشرين الخ جماعة الشرط فى الربع الرابع من بغداد حيث كان يسكن ما فى الموسوس .
(٤) جمع باكرة أى ياساعة ارتحالهم لا تكونى آخر ساعات اللقاء بيننا وبينهم . يتمنى أن يعودوا الى أوطانهم مرة ثانية .
(٥) أى لم ينتصر لى بقوة (٦) يعنى ميلا مع الهوى .
(٧) أى منعوها أن ترفع صوتها بغناء أو بشدو لئلا تنقله الريح الى .

فغنته فطرب محمد ، ودعا برطل فشرب ، فقال مانى : ما على قائل هذا الشعر لو زاد فيه :

فتنعست ثم قلت لطيفى آه إن زرت طيفها إلماما
خصه بالسلام منى فأخشى يمنعوها لشقوتى أن تناما(١)

لكان أثقب لزند الصبابة(٢) بين الأحشاء وأشد تغلغلا إلى الكبد الصدى(٣) من زلال الماء ، مع حسن تأليف نظامه والانتهاء بالمعنى إلى نهاية تمامه . فقال محمد : أحسنت يامانى ،ثم أمر مؤنسة بإلحاقهما بالبيتين الأولين والغناء بهما ، ففعلت ثم غنت بهذين البيتين :

يا خليلى ساعة لا تريما(٤) وعلى ذى صبابة فأقيما
ما مررنا بدار زينب إلا هتك الدمع سرنا المكتوما

فاستحسنه محمد فقال مانى : لولا رهبة التعدى لأضفت إلى هذين البيتين بيتين لا يردان إلى سمع ذى لب ، فيصدران إلا عن استحسان لهما ، فقال محمد : يا مانى ! الرغبة فى حسن ما تأتى به حائلة دون كل رهبة ، فهات ما عندك فقال :

ظبية كالهلال لو تلحظ الصخ ر بطرف لغادرته هشيما
وإذا ما تبسمت خلت إيما ضَ بروق أو لؤلؤاً منظوما

فقال : أحسنت يا مانى فأجز هذا الشعر:

لم تطب اللذات إلا بمن طابت بها اللذات مانوسه
غنت بصوت أطلقت عبرة (٥) كانت بسجن الصبر محبوسه

فقال مانى :

وكيف صبر النفس عن غادة تظلمها إن قلت طاؤوسه (٦)
وجرت إن سميتها بانةً (٧) فى جنة الفردوس مغروسه ؟
وغير عدل إن عدلنا بها (٨) جوهرة فى البحر مغموسه

ثم سكت فقال محمد : ما عدا فى وصفه لها ، فقال مانى :

جلت عن الوصف فما فكرة تلحقها بالنعت محسوسه

فقال محمد : أحسنت ، فقالت مؤنسة : وجب شكرك يا مانى ، فساعدك دهرك ، وعطف عليك إلفك ، وقارنك سرورك ، وفارقك محذورك ، والله يديم لنا ذلك ببقاء من به اجتمع شملنا ، فقال لها مانى عند قولها وعطف عليك إلفك مجيباً :

---

(١) أى تظاهرت بالنوم وسألت خيالى أن يذهب لزيارة طيفها زيارة سريعة ، وأن يبلغها سلامى . وإنى لأخشى ان يمنعوها النوم حتى لا يزورها طيفى فى المنام

(٢) اى لكان اقوى لإشعال نار الغرام فى القلب (٣) العطشى (٤) لا تنصرفا

(٥) دمعة (٦) أى أن قلت انها تشبه الطاووس فى جمالها .

(٧) اى لو شبهت قدها بغصن البان لكنت جائرا لأنها أحسن قواما وتثنيا منه .

(٨) اى لو ساوينا بينها وبين درة البحر لظلمناها لأنها احسن من الدر صفاء وجمالا .

ليس لى إلف فيعطفنى فارقت نفسى الأباطيل (١)
أنا موصول بنعمة من حبله بالمجد موصول
أنا مغبوط بنعمة من طبعه بالخير مجبول (٢)

فأومأ إليه ابن طالوت بالقيام ، فنهض وهو يقول :

ملك قل النظير له زانه الغر البهاليل (٣)
طاهرى فى مواكبه (٤) عُرفه فى الناس مبذول (٥)
يا أبا العباس صن أدباً حده بالدهر مغلول

فقال محمد : وجب جزاؤك لشكرك على غير نعمة سبقت ، ثم أقبل على ابن طالوت فقال: ليست خساسة المرء ، ولا اتضاع المنظر ، ولا نبو العين عن الظاهر ، بمذهب جوهرية الأدب المركب فى الإنسان ؛ وما أخطأ صالح بن عبد القدوس حيث يقول :

لا يعجبنك من يصون ثيابه خوف الغبار وعرضه مبذول
فلربما افتقر الفتى فرأيته دنس الثياب وعرضه مغسول

قال ابن طالوت : فما رأيت أحضر ذهناً منه إذ تقول الجارية عطف عليك إلفك وإنشاده عند قولها ذلك :

ليس لى إلف فيعطفنى فارقت نفسى الأباطيل

قال : فلم يزل محمد مجرياً عليه رزقه حتى توفى (٦).

وكان انتشار الغناء فى هذا العصر راجعا إلى كثرة الجوارى ، وكان معظم القيان اللاتى يحترفن الغناء ببغداد فى أوائل القرن الرابع الهجرى من الجوارى ، وقليل منهن من الحرائر (٧) . وذكر السيوطى (٨) أن الخليفة القاهر أمر فى سنة ٤٢١ هـ بتحريم القيان والخمر ، وقبض على المغنين وكسر آلات اللهو ، كما فعل الحنابلة فى أوائل هذا القرن ، وأمر ببيع المغنيات من الجوارى على أنهن سوادج (٩) . ومن الغريب أن هذا الخليفة كان مولعا بالشراب وسماع المغنيات .

(ب) فى مصر والأندلس :

وقد عنى الطولونيون والفاطميون بالغناء والموسيقى ، يدلنا على ذلك بيت الذهب الذى بناه

---

(١) اى ذهب زمان العشق ولم يبق لدواعيه تأثير فى قلبى .
(٢) اى اننى مغبوط محسود على نعمة ملك طبعه يؤمل منه المجد .
(٣) اى زانه آباؤه البيض الوجوه الطيبو العناصر .
(٤) يشبه جده طاهر بن الحسين امير خراسان فى مواكب جيوشه المشهورة .
(٥) يعنى ان عطاءه مبذول للناس .
(٦) المسعودى : مروج الذهب (طبعة باريس) ج ٧ ص ٣٨٥ — ٣٩٢ .
(٧) متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٦٦ .
(٨) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧
(٩) أى أنهن غير مدربات على الغناء .

خمارويه بن أحمد بن طولون ، واتخذ على حيطانه صورا بارزة من الخشب تمثله وتمثل حظاياه ومغنياته بأشكال بلغت حد الكمال والبهاء ودقة الزخرف . وعلى رءوس تماثيل النساء أكاليل من الذهب الخالص وأكاليل من الكوادن[١] المرصعة بالجواهر، وعلى آذانها المثبتة فى الحيطان بمسامير، أجراس ثقال الوزن محكمة الصنع ، وقد لونت أجسادها بالأصباغ العجيبة التى تبدو للرائى كأنها ثياب حقيقية[٢] . وذكر المقريزى[٣] أيضا أن خمارويه كان إذا جلس لسماع الغناء وسمع المكبرين يكبرون ، أمر المغنيات بوقف الغناء ، وأخذ يسمع أصوات المكبرين فى سكون وخشوع . وذكر المقريزى فى مكان آخر [٤] أن الخليفة الحاكم الفاطمى أصدر بين سنتى ٣٩٨ ، ٤٠١ هـ قوانين تحرم الاجتماعات للهو واللعب على شواطىء الخليج ، أو أن تفتح الأبواب والنوافذ على هذه الشواطىء ، وتلتها قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها ، ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات . ويقول ابن خلكان [٥] إن النساء قبعن فى بيوتهن سبع سنين حتى ولى الخلافة الظاهر بن الحاكم . وقد ذكر المؤرخون أن أبا الحارث البساسيرى لما أقام الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر فى بغداد، أشادت إحدى المغنيات بهذا الحادث وغنت فى حضرة الخليفة الفاطمى هذين البيتين :

يا بنى العباس صُدوا ... ملك الأمـــر معد
ملككم كان مُعارا ... والعوارى تُسترد

فطرب الخليفة وأقطعها أرضا لا تزال تعرف إلى اليوم فى مدينة القاهرة باسم أرض الطبالة .

وقد أولع أمويو الأندلس بالغناء والموسيقى ، وأجزلوا العطاء للمغنين والموسيقيين . وقد قيل إن علون وزرقون أول من دخل هذه البلاد من المغنين ، وذلك فى عهد الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ) الذى اشتهر بالغناء فى زمانه منصور اليهودى . وفى عهد عبد الرحمن الأوسط بن هشام (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) وفد على الأندلس أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب [٦] . وقد روى المقرى قصة هذا المغنى ، وكيف تفوق على أستاذه إسحق بن إبراهيم الموصلى الذى خيره بين الموت والنفى، وكيف رحل إلى قرطبة فقربه عبد الرحمن إليه وأجزل له العطاء ، وكيف أصبح لفن الغناء على يديه مكان ملحوظ بين الفنون فى هذه البلاد .

كان زرياب مولى الخليفة المهدى العباسى فارسى الأصل ، وكان شاعراً مطبوعا وأديباً ملما بعلم النجوم وأخلاق الشعوب وطبائعها وسير الملوك ، حافظاً لكثير من الحكم والأمثال ، كما كان فصيحاً حسن الصوت حلو الحديث . وقد تعلم الغناء على إسحق الموصلى [٧] وتفوق عليه دون أن يشعر

---

(١) لعلها جمع كدن ، وهو — كما فى القاموس المحيط — ثوب للخدر (المنزل) ، أو ثوب توطىء به المرأة فى الهودج ، ويتعين أن يكون المراد به هنا ثوب الخدر ، وهو أشبه بالطرحة اليوم .

(٢) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣١٦ = ٣١٧ . (٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣١٧

(٤) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ، حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٢٨ .

(٥) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٢٧ .

(٦) أطلق عليه هذا اللقب لسواد لونه وفصاحة لسانه تشبيها له بطائر أسود حسن الصوت .

(٧) أنظر هذا الكتاب ص ٢٩٠ — ٢٩١ ، ٢٩٢ .

بذلك . وقد طلب هارون الرشيد من إسحق أن يأتى له بمغن غريب حذق الغناء وإن لم يكن قد اشتهر فى هذا الفن ، فذكر له تلميذه زرياب ، فقال الرشيد : « هذا طلبتى فأحضرنيه لعل حاجتى عنده ، فأحضره . فلما كلمه الرشيد ، أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب ، وسأله عن معرفته بالغناء فقال : نعم ! أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه مما لا يحسن إلا عندك ولا يدخّر إلا لك . فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك . فأمر بإحضار عود أستاذه إسحق . فلما أدنى إليه وقف عن تناوله وقال : لى عود نحته بيدى وأرهفته بإحكامى لا أرتضى غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لى أمير المؤمنين فى استدعائه . فأمر بإدخاله إليه ، فلما تأمله الرشيد ، وكان شبيهاً بالعود الذى دفعه ، قال له : ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ فقال : إن كان مولاى يرغب فى غناء أستاذى غنيته بعوده ، وإن كان يرغب فى غنائى فلا بد لى من عودى ، فقال له : ما أراهما إلا واحداً ، فقال : صدقت يا مولاى ولا يؤدى النظر غير ذلك . ولكن عودى ، وإن كان فى قدر جسم عوده ومن جنس خشبه ، فهو يقع من وزنه فى الثالث أو نحوه ، وأوتارى من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أنائة ورخاوة وبهاء ومثلها أتخذتهما من مصران شبل أسد ، فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها . فاستبرع الرشيد وصفه وأمره بالغناء ، فجلس ثم اندفع فغناه :

يا أيها الملك الميمون طائره ... هرون راح إليك الناس وابتكروا

فأتم النوبة ، وطار الرشيد طربا وقال لإسحق : والله لولا أنى أعلم من صدقك لى على كتمانه إياك لما عنده وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل ، لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامى بشأنه . فخذه إليك واعتن بشأنه حتى أفرغ فإن لى فيه نظراً . فسقط فى يد إسحق وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره ، فخلا بزرياب وقال : ياعلى ! إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها ، والدنيا فتانه والشركة فى الصناعة عداوة ، ولا حيلة فى حسمها . وقد مكرت بى فيما انطويت عليه من إجادتك وعلو طبقتك ، وقصدت منفعتك . فإذا أنا قد أتيت نفسى من مأمنها بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلتى وترقى أنت فوقى ، وهذا مالا أصاحبك عليه ولو أنك ولدى . ولولا رعيى لذمة تربيتك لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك ، يكون فى ذلك ما كان . فتخير فى ثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عنى فى الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطينى على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمى ، مستهدفا إلى . فخذ الآن حذرك ، والله لأبقى عليك ولأدعن اغتيالك ، باذلا فى ذلك بدنى ومالى ، فاقض قضاءك . فخرج زرياب لوقته وعلم قدرته على ما قال ، واختار الفرار قدامه ، فأعانه إسحق على ذلك سريعاً ، وراش جناحه . فوحل عنه يبغى مغرب الشمس ، واستراح قلب إسحق منه . وتذكره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمساً فيه ، فأمر إسحق بحضوره فقال : ومن لى به ياأمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به عن غنائه ، فما يرى فى الدنيا من يعدله ، وما هو إلا أن أبطأت عليه

جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته ، فقدر التقصير به والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضبا ذاهبا على وجهه مستخفياً عنى . وقد صنع الله تعالى فى ذلك لأمير المؤمنين ، فإنه كان به لمم يغشاه ، ويفرط خبطه فيفزع من رآه . فسكن الرشيد إلى قول إسحق وقال : على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير ».

اختار زرياب الرحيل إلى المغرب ، وتاقت نفسه للذهاب إلى بلاد الأندلس ، وكتب إلى الحكم كتابا يظهر فيه رغبته فى الاندماج فى سلك بلاطه ، فسر بكتابه ورحب به ، وأوفد منصوراً اليهودى المغنى لاستقباله . سار زرياب وأولاده ودخلوا بلاد الأندلس ، ولكنه علم بوفاة الحكم ، فعول على العودة إلى المغرب ، فأشار عليه منصور المغنى بقصد عبد الرحمن الأوسط الذى ولى بلاد الأندلس بعد أبيه الحكم ، وكتب إلى الأمير الجديد بخبر زرياب ، فكتب إليه كتاباً يرحب فيه بقدومه ، وكتب إلى عماله أن يحسنوا استقباله ويسهلوا له طريق الوصول إلى قرطبة ، وأنزله فى دار فخمة . ثم استقبله بعد أن استراح من عناء السفر ، وبالغ فى إكرامه وقرر له راتباً شهرياً قدره مائتا دينار ، ولكل من أولاده الأربعة عشرون ديناراً . وأغدق عليه الأرزاق ، فأجرى عليه ثلاثة آلاف دينار فى كل سنة : ألف لكل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدى النوروز والمهرجان ، عداما خصص له من الشعير والقمح ، وما وهب من الضياع والدور والبساتين التى قدرت بأربعين ألف دينار . ولما سمع عبد الرحمن غناء زرياب أعجب بمواهبه « واطرح كل غناء سواه ، وأحبه حباً شديداً وقدمه على جميع المغنين » . وزاد إعجاب هذا الأمير به حتى إنه كان يجلسه إلى جانبه ويؤاكله هو وأكابر ولده ، ويستمع إلى غنائه ، والى ما يقص عليه من أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء . ولم يلبث أن ملك زرياب قلب عبد الرحمن ، حتى إنه أمر بأن يفتح له باب خاص يستدعيه منه متى أراد(١) .

وقد أبدع زرياب فى تنسيق الألحان ، حتى توهم أن الجن هى التى تعلمه الأصوات . ولا غرو فقد ورث هذا الشعور عن أستاذه إسحق الموصلى الذى ورثه عن أبيه (٢) . وكان زرياب « يهب من نومه سريعا فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة ، فيأخذان عودهما ، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ثم يكتب الشعر ، ثم يعود عجلا إلى مضجعه (٣) . كما زاد زرياب على العود وتراً خامساً ، واتخذ مضراب العود من قوادم النسر بدل الخشب (٤) . وقد أثر عنه أنه كان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغانى بألحانها مقتدياً فى ذلك ببطليموس الذى ابتدع هذه العلوم . وقد ازدهرت الموسيقى والغناء فى بلاد الأندلس فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، الذى كان — كما يقول المقرى(٥) — مولعا بالغناء مؤثرا له على جميع لذاته . وقد أورث زرياب صناعة الغناء بالأندلس كما يقول ابن خلدون (٦) . وكانت له طريقة غريبة مع المبتدئين من تلاميذه ، « فيبدأ بالنشيد أول شدوه بأى نقركان ، ويأتى إثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والإهزاج تبعاً لمراسم زرياب .

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٧٥٠ — ٧٥١ .
(٢) أنظر هذا الكتاب جـ ٢ ص ٢٩٧
(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥١
(٤) المصدر نفسه
(٥) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٥
(٦) العبر جـ ص ١٢٧ .

وكان إذا تناول الإلقاء على تليذ يعلمه ، أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة ، وأن يشد صوته جداً إذا كان قوى الصوت . فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة ، فإن ذلك مما يقوى الصوت ولا يجد متسعاً فى الجوف عند الخروج على الفم . فإن كان ألص الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل فى فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع ، يبيتها فى فمه ليالى حتى ينفرج فكاه . وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع ، أمره أن يصيح بأقوى صوته : يا حجّام ، أو يصيح : آه ، ويمد بها صوته ، فإن سمع صوته بها صافياً نديا قوياً مؤدياً ، لا يعتريه غُنّه ولا حبسة ولا ضيق نفس ، عرف أن سوف ينجب وأشار بتعليمه ، وإن وجده خلاف ذلك أبعده » (١) .

ورث زرياب فى الأدب والغناء أولاده ، وكانوا ثمانية ذكور وبنتان هما علية وحمدونة ، وقد تعلموا الغناء ومارسوا صناعته ، وكان عبيد الله أعلاهم قدراً ، ثم يليه عبد الرحمن ، لكنه كان شديد الزهو بنفسه والعجب بغنائه والاستخفاف بالعظماء حتى أثار سخطهم عليه وكراهتهم له . وكذلك تفوقت حمدونة فى فن الغناء على أختها علية التى تزوجت من الوزير هشام بن عبد العزيز ، وتقدمت بها السن حتى لم يبق من بيت زرياب غيرها وأخذ الناس عنها فن الغناء (٢) . وإلى زرياب يرجع الفضل فى تعليم الجوارى الغناء فى عصره . وكانت له جوارى أدبهن وعلمهن الغناء والعزف على العود . ومن هؤلاء غزلان وهنيدة ، ومنفعة التى اشتهرت بفرط جمالها . وقد أعجب بها عبد الرحمن الأوسط ، فأهداها زرياب إليه ، فحظيت عنده (٣) .

ولم يكن زرياب مغنياً وموسيقياً فحسب ، بل كان شاعراً مطبوعا وأديباً ظريفا وعالماً بالنجوم . «وكان فى زيه مثالا يحتذيه أهل بلاد الأندلس فى ملابس الفصول المختلفة ، كما أدخل فى الطعام ألواناً جديدة » (٤) . وقد بلغ الذروة فى الجاه والثروة ، ونال الحظوة التامة عند عبد الرحمن الثانى ، وبذ الناس فى تهذيبه وفكاهته ، وأصبح أشهر رجال الأندلس ، «وتحكم فى الأزياء والعادات كما كان يتحكم فيها بيترونيس (٥) Petronius وبروميل الوسيم (٦) Beau Brummel» (٧) . وصفوة القول أن زرياب قد بلغ من الشهرة درجة عظيمة حتى إنه كان يركب فى مائة غلام (٨) .

٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

(أ) فى الدولة العباسية :

اتخذت دور بغداد وسامرا وغيرهما من أمهات المدن فى هذا العصر على مثال دور الفرس

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٥٢ . (٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٥٣ — ٧٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٥٣ — ٧٥٤ . (٤) انظر هذا الكتاب ص ٢٩١ .

(٥) هو كاتب قصصى رومانى اشتهرت كتابته بالتبكيت والسخرية المستورة ، وقد أعجب به نيرون ، ووصله بحاشيته .

(٦) هو جورج براون ، اشتهر بابتداع الأزياء ، وولد سنة ١٧٧٨ ومات سنة ١٨٤٠ م .

(٧) Stanley Lane - Poole : The Moors in Spain, p. 82 ، وترجمة على الجارم بك ص ٧٥ .

(٨) الأغانى ج ٤ ص ٣٥٤ .

والروم ، وكانت مبنية بالآجر ومغطاة بالكلس . وتنقسم دور الأغنياء ثلاثة أقسام هى : مقاصير الحرم ، وحجرات الخدم ، ومجالس السلام الخاصة بالضيافة . ويحيط بها حدائق غناء تزرع فيها الفاكهة والرياحين . وقد حليت جدرانها وسقوفها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة ، وزينت أسطحها بالقباب المرفوعة على عمد دقيقة تظهر للعين كأنها معلقة فى الفضاء . ويحيط بكل دار سور واحد . أما دور العامة فلم يكن لها أسوار تحيط بها ، وإنما كانت نوافذها تطل على الشوارع ، حتى إن المار ليستطيع أن يرى من بداخلها (١) .

وكانت قصور الخلفاء تشتمل على دور واسعة ، وقباب وأروقة وبساتين ومسطحات مظللة بالأشجار . وكانت الأروقة تسمى بالأربعينى أو الستينى أو التسعينى ، على قدر الغلمان الذين يجتمعون فى كل منها (٢) .

وقد ابتدع المتوكل — كما رأينا (٣) — نوعاً من القصور يسمى الحيرى ، ينقسم ثلاثة أقسام : أوسطها الباب الأكبر ، وإلى جانبيه البابان الصغيران . وكان هذا الخليفة يتخذ فى طريق الوصول إلى قصوره ثلاثة أبواب ضخمة يدخل منها الفارس برمحه ، وحذا الناس حذو المتوكل فى هذا النوع من البناء . ومن أشهر هذه القصور «قصر التاج» الذى وضع أساسه الخليفة المعتضد ، فى الجانب الشرقى من دجلة على مقربة من القصر الحسنى الذى كانت تقيم فيه بوران بنت الحسن بن سهل وزوج الخليفة المأمون ، ثم أتمه الخليفه المكتفى . ويقول ياقوت (٤) إن واجهة قصر التاج كانت على خمسة عقود أقيم كل عقد على عشرة أساطين من الرخام .

وكانت قصور الخلفاء أشبه بمدن كبيرة لاتساعها ؛ وكانت تشتمل على دور وبساتين ومسطحات تظللها الأشجار ، كما كانت تشتمل على قاعات ذات قباب وأروقة . ويزيد فى جمال هذه القصور البرك والأنهار الجارية ، وقد رأينا أن الخليفة القادر كان يجلس فى قصره المعروف ببيت الرصاص « وبين يديه نهر يجرى الماء فيه إلى دجلة » (٥) .

ومن أحسن البساتين التى كانت تلحق بقصور الخلفاء بستان القاهر المعروف ببستان النارنج الذى وصفه المسعودى (٦) فقال : وكان للقاهر . . . بستان من ريحان ، وغرس من النارنج قد حمل إليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند ، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من أحمر وأصفر ، وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر . وقد جعل مع ذلك فى الصحن أنواع الأطيار من القمارى والدباسى والشحارير (٧) والببغاء ، مما قد جلب إليه من الممالك والأمصار ، وكان فى غاية الحسن » .

---

(١) أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٦ .
(٣) أنظر الباب التاسع من هذا الكتاب ص ٥٩١ .
(٤) أنظر لفظ « التاج » فى معجم البلدان
(٥) هلال الصابى : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٤٢٠
(٦) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٢٨
(٧) هذه كلها أنواع من الحمام .

(ب) فى مصر :

وقد تأثر الطولونيون بالبناء الحيرى فى تشييد قصورهم ، فبنى احمد بن طولون قصره على مثال قصور الخلافة . ولما ولى ابنه خمارويه انتقل إلى قصر أبيه ، وزاد فيه ، وحول الميدان الفسيح الذى كان أمام القصر إلى بستان غرس فيه الرياحين على اختلافها ، والشجر بأنواعه الكثيرة ، ونقل إليه الودى (١) المختلف طولا وقصراً ، يتناول من ثمره القائم والجالس . وأمر خمارويه ، فحمل إلى هذا البستان أصناف الشجر المطعم وأنواع الورد ، وزرع فيه الزعفران . وتأنق فى هذا البستان فكسى النخل نحاساً مذهبا حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وجزوع النخل أنابيب الرصاص ، وأجرى فيها الماء . فكان يخرج من تضاعيف النخل عيون المـــاء منحدرة إلى نافورات يفيض منها الماء إلى مجار تسقى البستان على اتساعه .

أما الريحان فكان على صورة نقوش وكتابات يتعهدها البستانى بالمقراض ، حتى تظل هذه النقوش والكتابات على حالتها الأولى . وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر ، واستورد من جنوى عيدان النيلوفر العجيب الشكل ، كما أهدى إليه من خراسان وغيرها عيدان الثمار والزهور ، وطعّم شجر المشمش باللوز وغيره . وفى هذا البستان بنى خمارويه برجا من خشب الساج المنقوش بالحفر النافذ ، ليقوم مقام الأقفاص ، ودهنه ولونه بالأصباغ المختلفة ، وبلط أرضه ، وجعل فى تضاعيفه جداول يجرى فيها الماء من السواقى المدارة على الآبار العذبة ؛ ومن هذه الجداول يسقى البستان . وفى هذا البرج أصناف القمارى والدباسى والنونيات وغيرها من الطيور المشجية التى كانت تسبح فى القنوات الجارية فى البرج . وفى هذا المكان جعل أوكاراً فى قواديس حسنة الشكل ممكنة فى جوف الحيطان لتفرخ فيها الطيور ، وجعل فيها عيداناً مستعرضة فى جوانب البرج لتقف عليها إذا تطايرت ، فيجاوب بعضها بعضا بالتغريد . هذا عدا ما سرحه فى البستان من الطواويس ودجاج الحبش وغيرها من الطيور (٢) .

ومما زاده خمارويه فى هذا القصر « بيت الذهب » ، وكان من أعجب مبانى الدنيا . وهو إيوان فسيح يتصل برواق رحب ، طليت حيطانه بالذهب المحلول باللازورد ، ويمتاز بحسن النقش وجمال التنسيق . وكذلك بنى خمارويه فى هذا القصر بيتاً أطلق عليه « الدكة » على مثال قبة الهواء التى بناها حاتم بن هرثمة عامل الأمين العباسى فى مصر على جبل المقطم ، حيث قلعة الجبل الآن . وإلى هذه الدكة كان يختلف خمارويه ومن أتى بعده من الأمراء طلباً للراحة وتبديل الهواء (٣) . وكانت من أحسن ما بنى فى عهد الطولونيين ، ووضعت فيها الستائر لتقى الجالسين من الحر والبرد بحيث ترفع وتخفض عند اللزوم ؛ وفرشت أرضها بفاخر الفرش ، واتخذ لكل فصل من الفصول فرش يناسبه .

---

(١) الودى الشجر الصغار المنقولة .

(٢) الكندى : كتاب الولاه ص ١٤٧ .

(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣١٦

وكان خمارويه يجلس فى هذا المكان ، ويشرف على مافى قصره وبستانه ، فيشاهد النيل والجبل والصحراء وكافة جهات مدينة القطائع(١).

وفى وسط هذا القصر أقام خمارويه فسقية مملوءة بالزئبق . وكان سبب إنشائها أنه شكا إلى طبيبه ما كان يصيبه من الأرق ، فأشار عليه بعمل بركة مربعة طولها عشرون ذراعا فى عشرين (٢٢٥ مترا مربعا) ، وفى أركانها سكك من الفضة الخالصة ، جعل فيها زنانير من حرير محكمة الصنع فى حلقات من الفضة . وعمل فرشاً من أدم (جلد) يملأ بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ، ثم يلقى فى بركة الزئبق ويشد بزنانير الحرير التى فى حلقات الفضة بسكك الفضة . فإذا نام خمارويه ارتج الفراش وتحرك بتحرك الزئبق ، لأنه رجراج . وكان لهذه البركة منظر عجيب فى الليالى المقمرة إذا تألق نور القمر بنور الزئبق . ولم يسبق خمارويه إلى هذا العمل ملك من الملوك ولا جاء بعده من أشبهه إلا عبد الرحمن الناصر الأموى بالأندلس الذى اتخذ فى قصره بقرطبة فسقية تشبه فسقية خمارويه . وقد اختفت آثار بركة خمارويه بعد تخريب مدينة القطائع فى سنة ٢٩٢ هـ ، فجعل الناس يحفرون فى الأرض التماساً للزئبق المنساب بين شقوقها . (٢)

وفى هذا القصر بنى خمارويه داراً للسباع ، عمل فيها آزاجاً (٣) فى كل منها سبع ولبؤته ، وفى أعلى كل بيت باب يفتح بحركات معينة ، فى كل منها طاق صغير يدخل منه الحارس المنوط به خدمة البيت . وإلى جانب كل منها حوض من الرخام فيه ميزاب من النحاس ينصب منه الماء ، وأمام البيوت قاعة فسيحة مفروشة بالرمل ، وإلى جانبها حوض كبير من الرخام يصب فيه الماء من ميزاب كبير . فإذا أراد الخادم تنظيف أحد بيوت السباع أو وضع قطعة اللحم المخصصة لغذاء السبع ، رفع الباب وصاح بالسبع فيخرج إلى القاعة الفسيحة ، فينزل الخادم إلى البيت من طاقه العلوى ، فينظفه ويفرشه برمل جديد ، ويضع اللحم فى المكان المعد له بعد تقطيعه ، ثم يغسل الحوض ويملؤه بالماء ، ثم يخرج ويرفع باب البيت من أعلاه ، ويصيح بالسبع فيدخل ويأكل اللحم ويشرب من الماء (٤).

ومن أشهر القصور فى عهد الإخشيديين قصر المختار الذى بناه محمد بن طغج الإخشيد فى جزيرة الروضة ، كما اتخذ بستاناً عرف فيما بعد بالبستان الكافورى ، لأن كافورا اتخذه مكانا للتنزه فى أيام الجمعة والأحد والثلاثاء ، فنسب إليه .

تنزه محمد بن طغج الإخشيد مرة فى بستان يمتلكه أبو بكر المادرائى ، الذى تقلد خراج مصر ، واتسعت ثروته حتى بلغ خراج ضياعه أربعمائة ألف دينار فى السنة ؛ فقدم له من أفخر ألوان الطعام والشراب ، وفرشت أرض البستان بالبسط ، ونصب بين يدى ضيفه التماثيل المصنوعة من الذهب

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣١٧ .

(٢) المصدر نفسه

(٣) وردت فى المقريزى « بيوتاً بآزاج » . أما الآزاج فهى جمع أزج ، وهو ضرب من الأبنية يشبه الأقفاص التى توضع فيها السباع فى حدائق الحيوان .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٨

والفضة والكافور والعنبر ، ووضع بين يديه صينيتين من الفضة ملئت إحداهما دنانير ، وملئت الأخرى دراهم، لينثر منهما على من يشاء من رجال الدولة أو على المغنين والمغنيات .

وفى عهد الفاطميين بنى الخليفة العزيز كثيراً من القصور التى تدل على وفرة ثروة مصر فى عهده . من ذلك القصر الغربى ، وكان يقع غربى القصر الشرقى الذى بناه جوهر الصقلى للخليفة المعز شرقى مدينة القاهرة . وكان هذا القصر أصغر من القصر الشرقى ، لذلك أطلق عليه القصر الغربى الصغير تمييزاً له عن قصر المعز .

وفى عهد الخليفة العزيز بنت الملكة تغريد زوجة المعز قصر القرافة ، وكان يتصل به بستان وحمام . وقد وصف المقريزى (١) هذا القصر فقال إنه كان قصراً فخماً يسر الناظرين ، يتردد عليه أهلوه طلباً للراحة ، وبه قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس . كما بنت تغريد منازل العز (٢) ، وهو قصر فخم على شاطىء النيل ، واتخذه ابنها العزيز والخلفاء الفاطميون من بعده للتنزه .

وابتنى العزيز قصوراً أخرى فى عين شمس ، كما بنى فى عهده قصر البحر الذى يقول فيه ابن خلكان (٣) إنه لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب . وكذلك أسس العزيز قاعة الذهب التى يجتمع فيها مجلس الملك . وكانت مؤثثة أثاثاً فخما ، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، وكلها من رسم واحد ولون واحد . وفى صدر قاعة الذهب خشية عليها عرش الخليفة المحجوب بستور ، حتى إذا جلس الخليفة وانعقد المجلس رفعت تلك الستور .

وكانت العظمة الملكية تظهر بأجلى مظاهرها إذا انفرج الستران الحريريان بفعل اثنين من الأساتذة بأمر من رئيس القصر المعروف باسم زمام القصر ، فيظهر شخص الخليفة وحوله جماعة من القراء يأخذون فى ترتيل آيات القرآن الكريم بأنغام عالية . ثم يأتى حامل الدواة — وهو أستاذ محنك أيضاً — فيضعها على طرف الحشية المخصص لها . وكان زمام القصر ، وصاحب بيت المال ، والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب فى الوقت الذى يكون الحاضرون قد أخذوا أمكنتهم المخصصة لهم . عندئذ يأخذ أحد الأمناء فى تقديم الأشخاص الذين يرى تقديمهم للخليفة .

والوزير كان أول من يقدم للخليفة ، فيخطو إلى الإمام ، ثم يحيى الخليفة بلثم يديه وقدميه ، ويتراجع إلى مكانه ، ويظل واقفاً ؛ ثم يؤذن له بوسادة يجلس عليها إلى يمين الخليفة . ثم يتلوه قاضى القضاة فيقترب من الخليفة ، ويحييه برفع يده اليمنى ويشير بمسبحته قائلا : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! وكانت هذه التحية تميزه على سائر أعضاء المجلس اعترافا بمركزه الدينى الممتاز ، فما كان يقبل يد الخليفة ولا يركع أمامه كما يفعل غيره من كبار الموظفين . وكان يسمح لزعماء

---

(١) خطط جـ ١ ص ٤١٥

(٢) راجع وصف هذا المنزل فى المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤٨٥ ، والمقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٣٤ — ٢٣٥

(٣) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٥٢

الطوائف برفع التحيات إلى مقام الخليفة باسم جماعاتهم ، بعد أن يزودهم أحد الأمراء بالتعليمات التى تبين لهم ما يجب اتباعه عند المثول بين يدى الخليفة . وإذا رأى الوزير أن يشاور الخليفة فى أمر من الأمور ، اقترب منه ، واعتمد على سيفه ، ثم شرع فى محادثته .

وكان مجلس الملك ينعقد ثلاث ساعات فى العادة ، فتقدم فيه الأمور الهامة لبحثها واعتمادها من الخليفة . وللوزير أن يقترح خلع الخلع أو إسناد المناصب المختلفة إلى من يقدم أسماءهم .

فإذا انتثر عقد المجلس ، انصرف الحاضرون ، وانصرف الوزير فى آخرهم بعد أن يلثم يدى الخليفة ورجليه مرة ثانية . ثم يركب إلى داره يحف به سائر أعضاء المجلس ، ثم ينزل الخليفة عن سرير الملك ويغادر الإيوان ، فتسدل الستور ويقفل الباب (١) .

هكذا كانت الأبهة التى تحيط بالخليفة حينما يرأس مجلس الملك فى قصره .

ويمتاز الفاطميون ببناء المناظر ، وهى أماكن اتخذها الخلفاء فى القاهرة ومصر والروضة والقرافة وغيرها للنزهة والاحتفال ببعض الأعياد . وقد عدد المقريزى هذه المناظر (٢) ، ووصف الاحتفال فيها ببعض الأعياد . وهذه المناظر هى : الأزهر ، اللؤلؤة ، الدكة ، المقس ، باب الفتوح ، البعل ، التاج ، الخمس وجوه ، الصناعة ، دار الملك ، منازل العز ، الهودج ، بركة الحبش ، الأندلس ، قبة الهواء ، السكرة .

(ج) فى الأندلس :

ولم تكن قصور الأمويين فى الأندلس بأقل روعة وبهاء من قصور العباسيين والطولونيين والفاطميين . فقد اشتهرت قرطبة والزهراء وطليطلة وغيرها من مدن الأندلس بقصورها الفخمة . وقد ذكرنا أن أمراء الأمويين فى الأندلس ، كالحكم وعبد الرحمن الأوسط ومحمد ، شيدوا قصوراً فخمة كالمجلس الزاهر ، والبهو الكامل ، والقصر المنيف ، وقصر الدمشق ، وأن عبد الرحمن الناصر شيد بمدينة الزهراء قصره العظيم الذى سماه دار الروضة الذى أطنب المؤرخون والرحالة فى وصفه (٣) .

وقد وصف المقرى (٤) قصر قرطبة فى هذه العبارة فقال : « ابتدع الخلفاء من بنى مروان منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها ، فى قصرها البدائع الحسان ، وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المؤن الجسيمة ، حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه ، إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة . وفى هذا القصر القباب العالية السمو ، المنيفة العلو التى لم ير الراءون مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها » .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٩٨ — ٥٠٠ ، أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٢٦٩ — ٢٧٠

(٢) خطط جـ ١ ص ٤٦٥

(٣) أنظر هذا الكتاب ص ٦٠١

(٤) نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٩

ومن قصور الأمويين فى الأندلس القصر الذى بناه المأمون بن ذى النون بطليطلة ، وقد أنفق على بنائه أموالا ضخمة ، وجعل فى وسطه بحيرة فى وسطها قبه من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وجلب الماء إلى القبة بحيث كان ينزل من أعلاها ويحيط بها من جوانبها ، « فكانت قبة الزجاج فى غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شىء ولا يصله . وتوقد فيها الشموع ، فيرى لذلك منظر بديع عجيب . وبينما هو فيها مع جواريه ذات ليلة إذ سمع منشدا ينشد :

أتبنى بناء الخالدين وإنما ... مقامك فيها لو علمتَ قليل
لقد كان فى ظل الأراك كفاية ... لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فنغص عليه حاله وقال : إنا لله وإنا اليه راجعون ، أظن أن الأجل قد قرب ، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفى . . . وذلك سنة ٤٦٢ هـ » . (١)

٤ — الطعام والشراب

(ا) عند العباسيين :

أسرف المسلمون فى الطعام وتفننوا فى ألوانه ، واهتم به الخلفاء ، حتى إنهم أجازوا للشعراء وصفه . وقد روى المسعودى (٢) عند كلامه على الخليفة المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) عن محمد بن يحيى الصولى الشطرنجى قال : « كنا يوما نأكل بين يدى المكتفى ، فوضعت بين أيدينا قطائف رفعت من بين يديه فى نهاية النضارة ورقة الخبز وإحكام العمل ، فقال : هل وصفت الشعراء هذا ؟ فقال له يحيى : نعم ! قال أحمد بن يحيى فيها :

قطائف قد حشيت باللوز ... والسكر الماذى حشو الموز
تسبح فى آذى دُهن الجوز ... سررت لما وقعت فى حوزى

وكما كان المكتفى يطلب إلى الشعراء أن يصفوا له بعض الطعام ، كذلك كان يطلب إليهم أن يقولوا الشعر فى الشراب ، فقد قال أبو محمد بن حمدون أنه اجتمع بحضرة هذا الخليفة جماعة من الشعراء فقال لهم : هل فيكم من يحفظ فى نبيذ الدوشاب شيئا ؟ فأنشده ابن حمدون قول ابن الرومى :

إذا أخذت حبه ودبسه (٣) ... ثم أخذت ضربه ومرسـه
ثم أطلت فى الإناء حبسـه ... شربت منه البابلى نفسـه

فقال المكتفى : قبحه الله ما أشرهه ، لقد شوقنى فى هذا اليوم إلى شرب الدوشابى . وقدم الطعام ، فوضع بين أيدينا طيفورية (٤) عظيمة فيها هريسة ، وقد جعل فى وسطها مثل السكرجة (٥) الضخمة

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٥٠ — ٢٥١ (٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٩٨ .
(٣) الحب حب العنب ، والدبس مايسيل منه فى عسل (٤) وعاء .
(٥) بضم السين وتشديدها وضم الكاف والراء المشدودة المضمومة الإناء الصغير الذى يوضع فيه الخل والزيت والكامخ وما إلى ذلك .

فيها دسم الدجاج ؛ فضحكت ، وخطر ببالى خبر الرشيد مع أبان القارىء ، فلحظنى المكتفى وقال : ياأبا عبد الله ، ماهذا الضحك ؟ فقلت : خبر ذكرته فى الهريسة ياأمير المؤمنين ودهن الدجاج مع جدك الرشيد ، فقال : ماهو ؟ قلت : نعم ياأمير المؤمنين ، ذكر العتبى والمدائنى أن أبان القارىء تغدى مع الرشيد ، فجاءوا بهريسة عجيبة فى وسطها مثل السكرجة الضخمة على هذا المثال من دهن الدجاج . قال أبان : فاشتهيت من ذلك الدسم ، وأجللت الرشيد من أن أمد يدى فأغمس فيه ، ففتحت بإصبعى فيه فتحاً يسيرا ، فانقلب الدسم نحوى ، فقال الرشيد : ياأبان أخرقها لتغرق أهلها ؟ (١) فقال أبان : لا ياأمير المؤمنين ، ولكن سقناه لبلد ميت (٢) فضحك الرشيد حتى أمسك صدره . (٣)

وكان المستكفى (٣٣٣ — ٣٣٤هـ) يتخذ من نشيد الشعراء فى الطعام وسيلة للترويح عن النفس . فكان « فى سائر أوقاته فازعا من المطيع أن يلى الخلافة ويسلم إليه ، فيحكم فيه بما يريد . فكان صدره يضيق لذلك ، فيشكو ذلك فى بعض الأوقات إلى من ذكرنا ممن كان يألفه من ندمائه ، فيشجعونه ويهونون أمر المطيع إلى أن قال لهم فى بعض الأيام : قد اشتهيت أن نجتمع فى مكان كذا وكذا ، فنتذاكر أنواع الأطعمة وما قال الناس فى ذلك منظوما ، فاتفق معهم على ذلك . فلما كان فى اليوم الذى حضروا ، أقبل المستكفى فقال : هاتوا ماالذى أعده كل واحد منكم ، فقال واحد منهم : قد حضرنى ياأمير المؤمنين أبيات لابن المعتز يصف فيها سكارج سلة كوانخ فقال فى ذلك قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات :

أمتع بسلة قضبان أتتك وقد ... حفّت جوانبها الجامات أسطار (٤)
فيها سكارج (٥) أنواع مصففة ... حمر وصفر وما فيهن إنكار
وكانخ الدارَ صينى فليس له ... فى الطعم شبه ولا فى لونه عار
كأنه المسك ريحاً فى تنسمه (٦) ... حريف فى طعمه والريح معطار
وكانخ الزعتر البرى إن له ... لونا حكاه لدينا المسك والقار
وكانخ الثوم لما أن بصرت به ... أبصرت عطراً له بالأكل أمار (٧)

قال المستكفى : تحضر هذه الجونة (٨) بعينها على هذا الوصف ، وهاتوا فليس نأكل اليوم إلا ماتصفون ؛ فقال آخر من الجلساء : ياأمير المؤمنين ! لمحمود بن الحسين الكاتب المعروف بكشاجم فى صفة سلة نوادر :

---

(١) من سورة الكهف آية رقم ٧١ (فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا إمرا .

(٢) من سورة الأعراف آية رقم ٥٧ (وهو الذى يرسل السحاب بشرى بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات) .

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٩٩ — ٥٠٠ (٤) صفوف .

(٥) السكرجة (بتشديد السين وضم الكاف وتشديد الراء وفتح الجيم) جمعها سكارج ، وهى قصاع صغار تستعمل فى الكوامخ وأشباهها من الحوارش على الموائد حول الأطعمة للتشهى والهضم .

(٦) سمه (٧) جادت على الأكل (٨) السفط

متى تنشط لـــلأكل ... فقد أصلحت الجونة(١)
وقد زينها الطاهى ... لنا أحسن تزيينه
كما زين صوب الغيث ... للروض أفانينـــه
فجاءت وهى من أط ... يب ما يؤكل مشحونه
فمن جدى شويناه ... وعصّبنا مصارينـه(٢)
ونضدنا عليه نع ... نع البقـل وطرخونه(٣)
وفرخ وافـــر الزو ... ر أجدنا لك تسمينه
وطهيوج (٤) وفروج ... أجدنا لك تطجينه
وسنبوسجة مقلو ... ة فى إثر طرذينه
وحمراء من البيض ... إلى جانب زيتونه
وأوساط شطيرات ... بزيت الماء مدهونه
يولدن لذى الشهـ ... ـوة جوعا ويشهينه
بعرف ككسور النـ ... ـد بالعنبر معجونه
وحريف من الجبن ... به الأوساط مقرونه
وخل ترعف الآنا ... ف منه وهى مخنونه (٥)
وباذنجان بوران ... به نفسك مفتونه
وهليون(٦) وعهدى بك ... تستعذب هليـــونه
ولوزينجة(٧) فى الدهـ ... ـن والسكر مدفونه
وعندى لك دستيـ ... ـجة (٨) مطبوخ وقنينه
وساق وعدت بالعط ... ف عنه عطفه النونه
له شدة ألفاظ ... وفى ألحاظه لينه

---

(١) الجونة سلية مستديرة مغشاة أدما (بفتح الألف والدال) تكون مع العطارين ، والجمع جون (تاج العروس) .

(٢) أى لويناها وجعلناها فى حوية ثم شويناها . والحوية واحدة الحوايا ، وهى الأمعاء الملتوية (تاج العروس)

(٣) واحدة الطرخون ، وهو نبت طويل الورق دقيق الساق يعلو على الأرض من شبر الى ذراع ، وهو من بقول المائدة يقدم عليها من أطرافه الرخصة مع النعنع وغيره من البقول ، فينهض الشهوة ويطيب النكهة . وإذا شرب الماء على طيبه (كتاب المعتمد فى الأدوية المفردة تأليف يوسف بن عمر بن على الغسانى صاحب اليمن المتوفى سنة ٦٩٥ هـ) طبع مصطفى البابى الحلبى وإخوته .

(٤) الطيهوج طائر شبيه بالحجل الصغير ، غير أن عنقه أحمر ومنقاره ورجلاه حمر مثل الحجل ، وما تحت جناحيه أسود وأبيض (كتاب المعتمد) .

(٥) أصابها الخنان وهو داء يأخذ فى الأنف وسدد فى الحياشيم (٦) نبات .

(٧) اللوزينج من الحلواء شبيه القطائف تؤدم بدهن اللوز .

(٨) الدستينج وعاء يوضع فيه الشراب ونحوه .

وقمـرى يغنيـك لحوناً غير ملحونه
ألا يامن لمحزون نأى عن دار محزونه
فما عـذرك فى أن لا ترى من سكر طينه (١)

فقال المستكفى : أحسنت ، وأحسن القائل فيما وصف ، ثم أمر بإحضار كل ما يجرى فى وصفه مما يمكن إحضاره »(٢) .

ولم يقتصر وصف الشعراء على هذه الألوان وحدها ، بل وصفوا ألواناً أخرى غيرها ، فأنشد أحدهم قصيدة فى الهريسة ، ووصف آخر الأرز وغيرذلك (٣) .

وكذلك أولع الأمراء وغيرهم من الأغنياء بتنوع الطعام والإسراف فى إعداده . فقد ذكر المسعودى (٤) عند كلامه على يعقوب بن الليث الصفار مؤسس الدولة الصفارية « أنه كان يذبح له فى كل يوم عشرون شاة ، فتطبخ فى خمس قدور من الصفر الكبار ، وله قدور حجارة يتخذ له فيها بعض ما يشتهيه . وله أوزة كل قوم وخبيصة (٥) وفالوذج مع القدور الخمس ، وهى ألوان غليظة، فيأكل منها ويفرق الباقى فى الغلمان الذين فى داخل مضربه ، ثم أهل عسكره حول مضربه وقربهم منه على حسب مراتبهم عنده » .

وقد تأنق أبو جعفر محمد بن بسام فى إعداد مائدته وتزيينها بالورد والرياحين وألوان الطعام والشراب ، قال أبو عبد الرحمن العتبى : ودخلت عليه فى بعض الأيام وهو جالس فى موضع فى آخر داره ، وقد رفعه على بركة وفى صدره صفة(٦)،وهو يشرف منها على البستان وعلى حيز الغزلان وحظيرة القمارى (٧) وأشباهها . فقلت له : يا أبا جعفر ! أنت والله جالس فى الجنة . قال : ليس ينبغى لك أن تخرج من الجنة حتى تصطبح فيها . فما جلست واستقر بى المجلس حتى أتوه بمائدة جزع (٨) لم أر أحسن منها ، وفى وسطها جام جزع ملونة (٩) قد لوى على جنباتها الذهب الأحمر ، وهى مملوءة من ماء ورد ، وقد جعل سافا على ساف (١٠) كهيئة الصومعة من صدور الدجاج . وعلى المائدة سكرجات جزع فيها الأصباغ وأنواع الملح . ثم أتينا بشنبوشق بلور (١١)، وبعده جامات

---

(١) قوبلت هـذه القصيدة على نسخة مخطوطة من كتاب كشاجم فى حوزة الأستاذ مصطفى السقا الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، الذى تفضل بشرح الألفاظ المذكورة فى القصيدة .

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٤٤ — ٥٤٦ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٥٤٨ — ٥٥١ .

(٤) جـ ٢ ص ٤٤٥ (٥) رقاقة .

(٦) مكان عال ، قد يشبه البلكونة الآن (٧) جمع قمرى وهو الحمامة .

(٨) بفتح الجيم وكسرها وتسكين الزاى ، الخرز اليمانى الصينى فيه بياض وسواد . وكل ما فيه بياض وسواد فهو مجزع .

(٩) أى من زجاج ملون بسواد وبياض ، وهو وعاء بلور على هيئة الشمبوشك .

(١٠) أى طبقة فوق طبقة من لحم الدجاج كهيئة مخروط .

(١١) هو وعاء بلور على هيئة الشمبوشك .

اللوزينج . ورفعت المائدة وقمنا من فورنا إلى موضع الستارة ، فقدم بين أيدينا أجّانة(١) صيني بيضاء قد كرمت بالبنفسج والخيرى (٢) ، وغيرها مثلها قد عبىء فيها التفاح الشامى ، قدرنا مقدار ما حضر فيها ألف حبة . فما رأيت طعاما أنظف منه ، ولا ريحاً أظرف منه ، فقال لى : هذا حق الصبوح . فما أنسى إلى الساعة طيب ذلك اليوم » .

(ب) عند الطولونيين والإخشيديين :

كان أحمد بن طولون مضرب المثل فى الكرم والجود ، وكان كثير التصدق على الفقراء . فقد أثر عنه أنه كان يتصدق كل شهر بألف دينار . وكان إلى جانب ذلك يبذل فى أعمال الخير ألف دينار فى كل يوم . وقال المقريزى (٣) : « وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر وعلى الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة . وكان راتبه لذلك فى كل شهر ألفى دينار ، سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم ، وسوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم للصدقات فى داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس فى القدور الفخار والقصاع ، على كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة ، فى اثنين منها فالوذج ، والإثنان الآخران على القدر . وكانت تعمل فى دارة وينادى : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر — وتفتح الأبواب ، ويدخل الناس الميدان ، وابن طولون ينظر الناس فى المجلس الذى تقدم ذكره ، ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون ، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته » .

وقد حذا خمارويه بن أحمد بن طولون حذو أبيه فى الكرم والجود ، فبلغت نفقات مطبخه الذى عرف باسم مطبخ العامة ثلاثة وعشرين ألف دينار فى كل شهر . وذكر المقريزى (٤) عند كلامه على دار الحرم التى بناها خمارويه لنساء أبيه ، أنه عين لهذه الدار الخدم والطهاة ، وأدر عليهن الأرزاق والأطعمة التى بلغت من كثرتها ووفرتها ، أن الطهاة والخدم كانوا يعطون ما بقى منها للعامة . وذكر المقريزى من ألوان الطعام : الدجاج ولحوم الجدى والضأن والفالوذج واللوزينج والقطائف والهرائس من العصيدة التى كانت تعرف فى عهد المقريزى باسم المأمونية . وبلغ من وفرة هذه الأطعمة أنها أصبحت فى متناول العامة ، حتى كانت القطعة من الدجاج أو لحوم الضأن أو الجدى أو الحلوى الكبيرة تباع بدرهم واحد أو درهمين ، « بحيث أن الرجل إذا طرقه ضيف خرج من فوره إلى باب دار الحرم ، فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله ولا يتهيأ له من اللحوم والفراخ والدجاج والحلوى مثل ذلك » .

وكذلك كان الإخشيديون يعنون بالطعام وتنوع ألوانه واشتماله على العناصر الضرورية للتغذية . فقد ذكر ابن زولاق أن محمد بن طغج الإخشيد كان يميل إلى لون من ألوان الطعام يقال له حماضية ،

---

(١) طشت (٢) قد فرش فيها البنفسج والخير وهو نوع من الرياحين .
(٣) خطط جـ ١ ص ٣١٦ (٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣١٨ .
(٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣١٧ — ٣١٨ .

تعمل من الحماض الذى يستخرج من الأترج ، وهو نوع من البرتقال ، ويلقى به فى الحصرمية ، وهو العنب الأخضر الذى لم ينضج بعد ، ثم يلقى عليها ماء الورد والمسك والأفاويه ،[١]. وكان للإخشيد طبيب خاص يشرف على الطعام ويشير بما يصلح تقديمه منه للأمير . [٢] ولا يبعد أن يكون قد اتخذ هذا الطبيب ليحول دون تقديم طعام فاسد أو مسموم عن طريق من تحدثه نفسه باغتيال هذا الأمير.

وكان كافور ينفق على مائدته إلى حد التبذير . روى أبو المحاسن عن كتاب « كنز الدرر وجامع الغرر »[٣]، لأبى بكر بن عبد الله بن أيبك المتوفى فى القرن الثامن الهجرى ، « أنه بلغ ما كان يعمل فى مطبخ كافور — لما قوى سلطانه وكثرت أمواله — فى كل يوم من اللحم ألفان وسبعمائة رطل ، وخمسمائة طائر دجاج ، وخمسمائة طائر حمام ، ومائة طائر إوز ، وخمسون خروفا رميسا ، ومائة جدى سمين ، وعشرون فرخا سمكا ، وخمسمائة صحن حلوى فى كل صحن عشرون رطلا ، ومائتان وخمسون طبقاً فاكهة ، ، وعشرة أفراد نقل ، وخمسمائة كوز فقاع [٤] كبير ، ومائة قرابة سكر وليمون » .

وروى ابن خلكان [٥] عن وكيل كافور قال : « خدمت الأستاذ كافورا والجراية التى يطلقها ثلاث عشرة جراية فى كل يوم ، ومات وقد بلغت على يدى ثلاثة عشر ألفاً فى كل يوم »

وروى أبو المحاسن [٦] عن الذهبى : « وكان كافور يدنى الشعراء ويجيزهم ، وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وله ندماء . وكان عظيم الحرمة ، وله حجاب ، وله جوار ومغنيات » .

(ج) عند الفاطميين :

ومن العجب ما نقرؤه فى الثعالبى[٧] من دعوة بعض الشعراء أصدقاءهم إلى وليمة يصفونها فى قصائدهم ويضمنونها ألوان الطعام والشراب وما تتخلله الوليمة من ضروب اللهو والسرور وسماع الموسيقى والغناء ، وتزيين السماط بالورود والرياحين وكل ما يضفيه صاحب الدعوة على زائريه من مظاهر البهجة والسرور . فقد بعث محمد بن أبى الجرع الشاعر المعروف بهذه القصيدة إلى بعض أصدقائه يدعوهم فيها إلى تناول الطعام قبل حلول شهر رمضان فقال :

شعبان قد صار نضوا [٨] ولم نفد فيه لهوا

---

(١) كتاب المغرب فى حلى المغرب ص ٣١ . أنظر قاموس ستينجاس .

(٢) ابن زولاق : المغرب ص ٣٦ .

(٣) فهرست التاريخ بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨ .

(٤) وهو شراب يتخذ من الشعير ، سمى بذلك لما يرتفع فى رأسه ويعلوه من الزبد .

(٥) كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣١ (٦) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ .

أنظر حسن إبراهيم حسن : كافور الاخشيدى ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول ، المجلد السادس ، مايو ١٩٤٢ ص ٣٨ .

(٧) كتاب يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ (٨) هزيلا .

وليس ذلك منا جهلا ولا كان سهوا
فبالمودة إلا بكرت للقصف عدوا (١)
حتى نقوم فنرفو ماخرّق الدهر رفوا
من بعد تقديم جدى مسمن ظل يشوى
له ثلاثون يوما يحبو إلى الضرع (٢) حبوا
وأوفر الزور فى الخـ ـل قد تبوأ مثوى
لما انتزعت حشاه عوضته البقل حشوا
وقد عُنيت بجام ملأته لك حلوى
وقهوة بنت كرم صفت من الذم صفوا
ماشعشعت (٣) قط إلا سطت على الهم سطوا
جنبتها كل وغد يمحو المحاسن محوا
إلا إذا ما اقتنصنا عذب الخلائق حلوا
وشادن ذى دلال يشدو فيلهيك شدوا
إما غناء وإما عجائباً عنه تُروى
حتى تظل بما فيـ ـه من وقارك خلوا
وعندنا لك ورد يحدو المسرة حدوا (٤)
ريحانه لا يوازى لوناً وعطراً وسروآ (٥)
فما اعتذارك فى أن قمنى زمانك صحوا (٦)
وأنت بعد قليل بالصوم والله تطوى
أبا على ألا أسمع نصيحة ليس تُزوى (٧)
فإنما نحن سفر على محجة بلوى (٨)
ولا تعرج ذميما على معارج حزوى (٩)

وكان الفاطميون يقيمون الأسمطة فى الأعياد والمواسم ، وخاصة فى أول العام الهجرى ، وفى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى غرة رمضان ، وفى عيدى الفطر والأضحى حيث كانت تعم

(١) القصف اللهو ، والعدو الجرى
(٢) يعنى ثدى أمه (٣) أى مزجت بالماء .
(٤) أى يسوق إليك السرور سوقا
(٥) نبات ، يعنى لا يوازنه فى لونه وريحه وشرف نوعه نبات آخر .
(٦) يريد : ما الذى يجعلك تترك مثل هذا المجلس الذى فيه كل هذا السرور وتعيش صحوا غير سكران
(٧) تخبأ أو تستر وتكتم عنه .
(٨) أننا قوم مسافرون من هذه الحياة فى طريق مملوء بالمخاوف والمصائب
(٩) اسم موضع ، يعنى لاتفعل كما فعل الشعراء من قبل من البكاء على الأطلال والدمن فانه موقف مذموم عندى .

خيراتهم الناس فيها . وقد عنوا بالاحتفال بعيدى الفطر والأضحى احتفالا رائعا . ففى ليلة عيد الفطر كان يقام بالإيوان الكبير ، الذى يقابل مجلس الخليفة ، سماط ضخم طوله نحو ثلثمائة ذراع ، وعرضه سبع أذرع ، نثرت عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية ، مما أعد فى دار الفطرة الخليفية . فإذا انتهى الخليفة من صلاة الفجر ، عاد إلى مجلسه ، وفتحت أبواب القصر والإيوان ، وهرع الناس على اختلاف طبقاتهم إلى السماط الخليفى ، وتناولوا ما عليه من الطعام ، بمشهد من الخليفة ووزرائه . وإذا طلعت الشمس خرج الخليفة فى موكبه إلى الصلاة ، وفى ذلك يقول المقريزى (١) : وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد ، وبين يديه الجنائب والقباب والديباج بالحلى ، والعسكر فى زيه : من الأتراك ، والديلم ، والعزيزية ، والإخشيدية ، والكافورية ، وأهل العراق ، بالديباج المثقل ، والسيوف والمناطق الذهب . وعلى الجنائب السروج الذهب بالجواهر والسروج بالعنبر ، وبين يديه الفيلة ، وعليها الرجالة بالسلاح ، وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر ، وبيده قضيب جده عليه السلام ، فصلى على رسمه وانصرف .

وإذا عاد الخليفة من الصلاة ، أقيم سماط آخر أبهى وأروع ، فيجلس الخليفة وأمامه مائدة من فضة يقال لها «المدورة» ، عليها أوانى الذهب والفضة ، ملأى بأفخم ألوان الطعام وأشهاها . وقبالتها سماط ضخم ، يتسع لنحو خمسمائة مدعو نثرت عليه الأزهار والرياحين ، وصفت على جانبيه الأطباق الملأى بصنوف الشواء ، والطيور ، والحلوى البديعة ، ويجلس إليه رجال الدولة وعظماؤها . وأما عيد الأضحى ، فكان يحتفل به بركوب الخليفة إلى الصلاة ، على النحو الذى كان متبعاً فى صلاة عيد الفطر ، ثم يخص بسماط حافل يقام فى أول يوم ، بيد أنه يمتاز بركوب الخليفة فيه ثلاث مرات متواليات فى الأيام الثلاثة الأولى ، كما يمتاز أيضاً باشتراك الخليفة نفسه فى إجراءات النحر ، فبعد أن يفرغ من صلاة العيد ، يتشح ثوباً أحمر اللون ، ويركب إلى المذبح ، حيث يكون الوزير وقاضى القضاة والأستاذون المحنكون (٢) وغيرهم فى انتظاره . وإذا وصل الخليفة ذبح بيده بين تكبير المكبرين إحدى وثلاثين ناقة وبعيراً . وكان ينظم فى اليوم التالى نفس الموكب الخليفى إلى المنحر ، حيث يذبح الخليفة بيده سبعة وعشرين رأساً ، وفى اليوم الثالث ثلاثة وعشرين (٣) .

وكانت الاحتفالات الرسمية تقترن بالاحتفالات والمآدب الشعبية ، ويستقبل الشعب المصرى هذه المواسم بمظاهر الحبور والبهجة ، إلا يوم عاشوراء ، فقد كان يعتبر يوم حزن شامل تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ، حيث ينشدون الأناشيد المحزنه فى رثاء الحسين ، ويقام سماط يسمى سماط الحزن ، ينظم فى منتهى البساطة فى بهو صغير ، ويمد عليه خبز الشعير والعدس والجبن ، ويحضره الخليفة ملثما مرتديا الثياب القاتمة .

---

(١) خطط جـ ١ ص ٣٨٨ .

(٢) جمع أستاذ محنك ، وكان يتلثم بطرف عمامته ، بمعنى أن يجعل بعض عمامته تحت حنكه . ومن الأساتذة المحنكين من يتولى شد التاج ، وصاحب المجلس ، ويشبه كبير الأمناء ، وصاحب بيت المال ، وحامل الدواة ، وزمام الأقارب ، وزمام القصور ، ويعهد إليه بادارة شئون القصر .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥١٥ — ٥١٦ ، ٥٢٧ — ٥٢٨

وقد ابتدع زرياب فى بلاد الأندلس ألوانا من الطعام ، فأدخل بقلة الهليون المسماة عندهم الأسفراج Aspirago ، كما زاد فى الأطعمة لونا أطلقوا عليه «النقايا» ، ويصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب ، ولونا من التقلية أطلقوا عليها تقلية زرياب ، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب فى مرق كثير الأفاوية والتوابل . كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة ، وابتكر أسمطة الطعام من الأديم (الجلد) . وقد اتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤهم وخواصهم زرياب قدوة فيما سنه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التى نسبت إليه(١)

وقد ذكر المقرى (٢) عند كلامه على قصر عبد الرحمن الناصر أن عدد فتيان قصر الزهراء بلغ ١٣,٧٥٠ ، وأنه خصص لهم من اللحم كل يوم ١٣,٠٠٠ رطل ، عدا الدجاج والحجل والطيور والأسماك .

وقد رأينا كيف كان الخلفاء والأمراء وذوو اليسار كلفين بالحصول على بواكير الفواكه طرية سليمة بوساطة البريد الذى بلغ حد الكمال فى عهد بنى بويه فى المشرق وفى عهد الفاطميين فى مصر (٣).

٥ — الملابس

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (٤) أن اللباس الفارسى أصبح لباس البلاط الرسمى ، وأن أباجعفر المنصور أمر بلبس القلانس ، وهى القبعات السود الطويلة المخروطية الشكل ، بصفة رسمية ؛ كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة . يتبين لنا ذلك جليا من العملة التى ضربت فى عهد الخليفة المتوكل ، حيث تظهر صورته مرتديا ملابس فارسية . وكان اللباس العادى للطبقة الراقية فى العصر العباسى يشتمل على سروالة فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة . أما لباس العامة ، فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام ، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال .

غير أن الخليفة المتوكل أدخل نوعا جديدا من الملابس نسب إليه ، فأظهر لباس الملحم (٥) وفضل ذلك على سائر الثياب ، واتبعه من فى داره على لبس ذلك ، وشمل الناس لبسه ، وبالغوا فى ثمنه اهتماما بعمله واصطناع الجيد منها ، لمبالغة الناس فيها وميل الراعى والرعية إليها . فالباقى فى أيدى الناس إلى هذه الغاية من تلك الثياب يعرف بالمتوكلية ، وهى نوع من ثياب الملحم نهاية فى الحسن والصبغ وجودة الصنع » . (٦)

وكان لباس الخليفة العباسى فى المواكب القباء الأسود (٧) أو البنفسجى الذى يصل إلى الركبة ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة غالية . وكان

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥١ ، ٧٥٢ (٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٦٩ .
(٣) أنظر هذا الكتاب ص ٤٥٩ ، ٤٦٢ (٤) ص ٣١٠ — ٣١١ .
(٥) الملحم (٦) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٩ .
(٧) كان القباء مفتوحا عند الرقبة ، فيظهر القفطان زاهيا من تحته . وكانت أكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذى أمر بجعلها فضفاضة ؛ ويقال إن عرض الأكمام بلغ ثلاثة أذرع .

الأمراء والنبلاء يقلدون الخلفاء فى ملابسهم . أما الخلفاء والقضاة فكانوا يلبسون العمامة والطيلسان ، مقتدين فى ذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم ، كما كانوا يلبسون قلنسوة طويلة ، حولها عمامة ذات لون أسود ، وهو شعار العباسيين .

وكان لباس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لايتميز أحد عن أحد بلباسه . وكان الكتاب يلبسون الدراعات ، وهى ثياب مشقوقة من الصدر ، ويلبس القواد الأقبية الفارسية القصيرة . وأما غير العلماء فيلبسون فى داخل بيوتهم القلنسوة وحدها فوق كلوته[١] من الحرير الأبيض ، ثم استعاضوا عنها بكلوتة خفيفة بنفسجية اللون . وكان اللباس العادى للطبقة الراقية يتألف من سراويل فضفاضة وقميص ودراعة وقفطان وقباء وقلنسوة وعباءة أوجبة . وكان الأغنياء من الرجال والنساء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ، ويسمونها «الموزج»[٢] . وثمة فروق ملحوظة فى ملابس أصحاب المهن المختلفة . أما لباس العامة فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى «قربند» . وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال . أما الجنود فيلبسون الأحذية ، على حين ينتعل بعض الأعيان كليهما فى وقت واحد ، ويخلعون الحذاء الخارجى المسمى « الجرموق » عند دخول المساجد أو القصور [٣]

وقد أحدث الخليفة المستعين تغييرا فى الملابس ، فصغر القلانس بعد أن كانت طويلة ، وأمر بلبس الأكمام الواسعة التى أصبح عرضها ثلاثة أشبار[٤] . وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب ليحفظ فيها الإنسان كل مايحتاج إلى حفظه كالدنانير والكتب . فكان المهندس يضع فيها أدواته الهندسية ، ويضع الصيرفى رقاعه ، والخياط أدوات الخياطة ، والقاضى الكراسة التى يقرأ فيها الخطبة فى يوم الجمعة ، ويحفظ الكاتب الرقعة قبل عرضها [٥] .

وكان السواد شعار العباسيين الرسمى[٦] ، وكثيرا ما كان الأثرياء يلبسون الثياب البيض لما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلق الله الجنة بيضاء ، وخير ثيابكم تلبسونها فى حياتكم وتكفنون بها موتاكم » . وكانوا يلبسون الملابس ذات الألوان الطبيعية ، لأن الألوان غير الطبيعية

---

(١) بتشديد اللام ، هى كلمة فارسية معناها الطاقية الصغيرة من الصوف المضربة بالقطن .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٣٠ ، على ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص ص ٣١٥ .

(٢) الموزج شبه الجورب من الجلد يلبسه الفرسان ومن يشبههم . وكان الفتح بن خاقان إذا جلس فى حضرة الخليفة المتوكل وأراد أن يقوم إلى المتوضأ ، أخرج من ساق موزجه كتابا يطالعه فى ممره وعوده . فإذا وصل إلى الحضرة الخليفية أعاده إلى ساق موزجه . أنظر كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠ .

(٣) أنظر هذا الكتاب جـ ٢ ص ٣١١ ، ٣١٢ ، سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٣٠ .

(٥) متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(٦) راجع ما قيل عن اتخاذ العباسيين السواد شعارا لهم فى كتاب « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية » تأليف فان فلوتن وترجمة المؤلف (ص ١٢٤ — ١٢٦)

لايلبسها إلا الإماء والقيان والنبطيات . وكان اللون الأزرق فى المشرق واللون الأبيض فى الأندلس علامة الحداد .(١)

وكانت ملابس المرأة تتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة ، عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة فى البرد . وكانت المرأة العربية إذا خرجت من بيتها ترتدى ملاءة طويلة تغطى جسمها ، وتقى ملابسها من التراب ، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة .

وقد تطورت ملابس النساء فى العصر العباسى تطوراً ظاهرا عما كانت عليه فى العصر الأموى ؛ إذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس (البرنس) مرصعاً بالجواهر ، محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة . ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى علية بنت المهدى وأخت الرشيد . وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزنار البرنس للزينة . أما نساء الطبقة الوسطى فكن يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب ، يلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، ويلبسن الخلاخل فى أرجلهن والأساور فى معاصمهن وأزنادهن ؛ ولم يجهلن فن التجميل الذى أخذنه عن الفارسيات . وكان طابع الحسن ، الصناعى مما يتحلى به الأعرابيات . (٢)

واتخذ الناس من القماش المشمع المماطر فى البلاد التى يكثر فيها المطر (٣) . وقد ورد ذكر المماطر فى إحدى قصائد البحترى حين سأل أحد ممدوحيه أن يهب له ممطرا يقيه المطر (٤)

وفى عهد الفاطميين فى مصر كانت القاهرة من أهم مراكز النسيج ، وبلغ نظام الطراز مبلغاً عظيما من الرقى . واشتهرت مصر بأنواع خاصة من الثياب الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية . من ذلك القلونى ذى الألوان البراقة التى تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ، وكانت تصنع فى دمياط وتنيس خاصة ، والقرقبى الذى اشتهر بألوانه اللامعة التى تتغير إذا انعكست عليها أشعة الشمس ، والنصفية ، وتصنع من الحرير والقطن ، والدبيقى الذى ينسب إلى مدينة دبيق حيث كانت تصنع الثياب المثقلة والعمائم الشرب المذهبة . وفى دار الكسوة التى بناها الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى القاهرة كانت تفصل الثياب للخليفة والأمراء والوزراء وسائر موظفى الدولة ، على اختلاف مراتبهم ، والخلع التى كانت تمنح بسعة للوزراء والأمراء والأشراف فى عيد الفطر ، حتى سمى عيد الحلل .

وقد أمدنا المقريزى(٦) بعبارة طويلة بين فيها مخصصات الخليفة والأمراء والوزراء وسائر موظفى الدولة ونسائهم وأولادهم فى الشتاء والصيف من الملابس التى كانت تصنع بدار الكسوة ، كما بين مقدار وقيمة كل كسوة . ومن الطريف أن نعلم أنه كان يصنع للخليفة كسى مختلفة يصلح كل منها لاحتفال خاص ، كالاحتفال بآخر رمضان ، وإقامة صلاة العيد ، والجلوس على السماط فى أول يوم من أيام عيد الفطر ، وكانت موشاة بخيوط الذهب والفضة ، وبلغ ثمن بعضها خمسمائة دينار ، وأنفق

(١) متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ١٨٩

(٢) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٩ — ٣٩٠ ، انظر هذا الكتاب جـ ٢ ص ٣١١ — ٣١٢

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٩٦ . (٤) ديوان البحترى جـ ١ ص ١٨٥ .

(٥) انظر هذا الكتاب ص ٥٠٧ — ٥٠٩ . (٦) خطط جـ ١ ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

على المنديل الواحد خمسة دنانير . وكانت هناك مناسبات أخرى تقدم فيها الحلل المزركشة بالذهب للوزير وأخى الخليفه : كعيد أول رمضان ، والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه ، وجبر الخليج . كما كان الشعراء والكتاب والأعيان الذين يتفق وجودهم بالقاهرة فى هذه المناسبات يمنحون حللا مصنوعة من الحرير الخالص ، وبعضها مزركش بالذهب .

وفى بلاد الأندلس تحكم زرياب فى ابتداع الأزياء ، وحث الناس على تغيير الملابس لتكون مناسبة للفصول ، و « رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم الملون ، من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة ، الكائن فى ست بقين من شهر بؤنة الشمسى من شهورهم الرومية ، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسى ، منها ثلاثة أشهر متوالية ، ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة . ورأى أن يلبسوا فى الفصل الذى بين الحر والبرد المسمى عندهم الربيع من صبغهم جباب الخز والملحم والمحرر والدراريع التى لا بطائن لها ، لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر التى ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشى ثياب العامة . وكذا رأى أن يلبسوا فى آخر الصيف وعند أول الخريف المحاشى المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرس البرد فى الغدوات ، إلى أن يقوى البرد ، فينتقلوا إلى أثخن منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء[١] . كما أبطل زرياب عادة إعفاء الشعر وإسداله مفروقا إلى الحاجبين والصدغين[٢] .

٦ — المرأة :

(أ) فى الدولة العباسية :

كانت المرأة فى العصر العباسى الثانى كما كانت فى العصر العباسى الأول ، تتمتع بقسط وافر من الحرية . فقد تدخل بعض النساء فى شئون الدولة ، كقبيحة أم المعتز ، والسيدة أم المقتدر ، وقهرمانتها ثومال ، وأم موسى ، وست الملك أخت الخليفة العزيز الفاطمى ، والسيدة صبح أم هشام بن الحكم ابن عبد الرحمن الناصر فى الأندلس .

وقد قامت قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) بدور هام فى عزل الخليفة المستعين ، واتفقت مع الأتراك على قتله ليصفو الجو لابنها المعتز . واشتهرت قبيحة بالثراء ، حتى ذكر ابن الأثير[٣] أنهم وجدوا عندها مليون وثمانمائة ألف دينار ، ومع ذلك عرضت ابنها لعنت الأتراك الذين تأخرت رواتبهم المستحقة لهم وقدرها خمسون ألف دينار فقط ، ولم يلبث أن ذهب ضحية هذا البخل[٤] .

واستأثرت « السيدة » أم الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) بنفوذ كبير فى الدولة العباسية . وليس أدل على عظم نفوذها وتدخلها فى شئون الدولة ، وتمتعها بنفوذ أقوى من نفوذ الخليفة ، من

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥٢ . (٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٧٥١ — ٧٥٢ .
(٣) جـ ٧ ص ٧٠ . (٤) انظر هذا الكتاب ص ٣٤ — ٣٥ .

ذلك الكتاب(١) الذى بعث به إليها الوزير المصلح على بن عيسى يتنصل فيه من التبعات التى ألقتها عليه فى إدارة شئون الدولة المالية .

وعلى الرغم مما قام به هذا الوزير من إصلاح كان مصيره العزل . وفى ذلك يقول ابن الأثير(٢) : « لما كان آخر ذى القعدة (سنة ٣٠٤ هـ) جاءته أم موسى القهرمانة لتتفق معه على ما يحتاج حرم الدار والحاشية التى للدار من الكسوات والنفقات . فوصلت إليه وهو نائم ، فقال لها حاجبه إنه نائم ولا أجسر أن أوقظه ، فاجلسى فى الدار ساعة حتى يستيقظ ، فغضبت من هذا وعادت . واستيقظ على بن عيسى فى الحال ، فأرسل إليها حاجبه وولده يعتذر ، فلم تقبل منه ، ودخلت على المقتدر وتخرّصت على الوزير(٣) عنده وعند أمه ، فعزله عن الوزارة وقبض عليه ثامن ذى الحجة » .

وليس هذا كل ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ ، فقد اتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها « ثومال » صاحبة للمظالم . فكانت تجلس أيام الجمع فى مكان بنته « السيدة » فى الرصافة « وتنظر فى رقاع الناس ... وتحضر القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها(٤) » .

ومما يدل أيضا على مبلغ تدخل السيدة فى شئون الدولة هذه الحكاية التى قصها الصولى(٥) الذى تلمذ له الراضى بن المقتدر وهو أمير ، فإنها تبين لنا عدم اهتمام السيدة وقهرمانتها بتنشئه الأمراء تنشئة قوامها التوافر على العلم ، وتوجيههم وجهة صالحة فى الإلمام بنظم الحكم ، والوقوف على أحوال الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول ، بل على العكس من ذلك ، فإن النساء ، اللاتى غدون أصحاب الحل والعقد ، لم يأبهن أن يكون الأمير أو ولى العهد متعلما مثقفا ، وإنما يردنه ضعيفا غير ملم بشئون الحكم . فاستمع إلى حكاية الصولى(٦) حيث يقول : « وإنى لأذكر يوما فى إمارته وهو يقرأ على شيئا من شعر بشار ، وبين يديه كتب لغة وكتب أخبار ، إذ جاء خدم من خدم جدته « السيدة » ، فأخذوا جميع ما بين يديه من الكتب ، فجعلوه فى منديل دبيقى كان معهم . وما كلمونا بشى ومضوا ، فرأيته قد وجم لذلك واغتاظ ، فسكنت منه وقلت له : ليس ينبغى ان ينكر الأمير هذا(٧) ، فإنه يقال لهم إن الأمير ينظر فى كثير لا ينبغى أن ينظر فى مثلها ، فأحبوا أن يمتحنوا ذلك . وقد سرنى هذا ليروا كل جميل حسن ، ومضت ساعات أو نحو ذلك ثم ردوا الكتب بحالها ... ثم قلت للراضى بالله : قد أمرت أن تجلس فى غد ليُملك(٨) بحضرتك ابن الجواليقى بدار السيدة . وقد وعدوا جماعة فيهم الحسين بن إسماعيل المحاملى وسيبكر إلى ههنا فى غده ، فارفع مجلسه ، وأقبل عليه وانبسط فى مذاكرته . وإنى أحب أن يسمع الناس وصفك والثناء عليك من مثله ، ففعل جميع ذلك . ثم حضرت وانقضى أمر الإملاك ،

---

(١) راجع هذا الكتاب فى مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ . (٢) جـ ٨ ص ٣٧ .

(٣) يعنى كذبت .

أنظر أيضا Harold Bowen : The Life and Times of Ali Ibn Isa, p. 178

(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣ . (٥) أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٥ — ٦ .

(٦) المصدر نفسه ص ٥ — ٦ ، ٢٦ . (٧) فى الأصل أن ينكر للامير هذا .

(٨) أى يعقد عقد إملاك أى زواج .

فأخذ المحاملى بيد أبى بكر الخرقى وقال : ما رأيت فى أهل هذا البيت شيخا ولا كهلا ولا حدثا يشبه هذا الفتى . يقول حدثنا وأخبرنا ، وينشد ويعرب ، وهذا كله من فعل هذا — وأومأ إلى — فأحب أن تتحمل رسالتى إلى القهرمانة ريدان وتقول لها : ما الذى فعلتم بمن صير هذا الأمير فى هذا الحال ؟ فقلت أنا لأبى بكر : الله يعلم ، ما أفعل هذا إلا لله عز وجل ، لأنى أقول لعلهما أن يليا من أمور المسلمين شيئا ، فينفعهم الله بهما . وجعلت أقتضى أبا بكر الجواب ، فدفعنى أياما ثم قال لى : أنت فى طرف والقوم فى طرف . أديت الى ريدان قول القاضى فقالت لى : إن هذه المحاسن من هذا الرجل عند « السيدة » ومن يخدمها مساوىء ؛ فقل له عنى يا هذا : ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء . وهذا أبوهم قد رأينا كل ما نحب فيه وليس بعالم ؛ فاعمل على ذلك . فأتيت نصرا الحاجب فأخبرته بذلك ، فبكى وقال : كيف نفلح مع قوم هذه نياتهم ؟ » .

وإن تدخل « السيدة » فى شئون الدولة ساعد على ضعف الخلافة العباسية ، كما أن إلقاء القبض على الوزير المصلح على بن عيسى بسبب اعتذاره عن إجابة قهرمانتها أم موسى إلى ما طلبت ، حرم الخلافة الاستفادة بمواهبه الممتازة وسياسته الرشيدة ، كما كان من أثر تعيين « ثومال » قهرمانة « السيدة » صاحبة للمظالم ، أن استهتر العامة بالخلافة ونظروا إلى حكامها نظرة الاحتقار والازدراء .

ازداد نفوذ حُرم الخليفة فى عهد الوزير حامد بن العباس ، وأصبحن يتدخلن فى شئون الدولة ، على حين كان الخليفة قابعا فى داره ، فكن يجلسن للمظالم وينظرن فى رقاع الناس ، ويصدرن الأوامر مذيلة بتوقيعاتهن . كما عملت السيدة على عزل الوزير أبى العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الخصيب ، وصودرت أمواله فى سنة ٣١٤ هـ .

(ب) فى مصر والأندلس :

وكان للنساء شأن كبير فى الدولة الفاطمية ، فكن يتدخلن فى شئون الدولة ؛ واشتهر كثير منهن بالثراء والبذخ . وذكر المقريزى[1] أن بنتين للمعز قد تركت إحداهما ، واسمها رشيدة ، ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية (١,٧٠٠,٠٠٠ دينار أى ¾ مليون جنيه) ، وتركت الأخرى ، واسمها عبدة ، كثيرا من خزائن الحلى والصناديق التى تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد ، وثلثمائة قطعة فضية ، وثلاثين ألف ثوب صقلى ، وغير ذلك من الذخائر .

وفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) أنفقت السيدة تغريد زوجة المعز ، أموالا جمة على بناء مسجدها بالقرافة ، وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ، كما بنت هذه السيدة قصر القرافة كما تقدم .

وقد تزوج الخليفه الفاطمى العزيز بسيدة رومية نصرانية على المذهب الملكانى — مذهب كنيسة القسطنطينية — فولدت له ابنه الحاكم وابنته ست الملك . وكان لزوج العزيز هذه نفوذ كبير فى الدولة ،

---

(١) خطط ج ١ ص ٤١٥ . (٢) المصدر نفسه (٣) المصدر نفسه .

حتى إن الخليفة عين أخويها بطريرقين ملكيين : أحدهما فى الإسكندرية والآخر فى بيت المقدس(١).

وقد امتازت ست الملك بالحزم ورجاحة العقل ، واشتهرت بالكرم والحلم ، وعرفت بالتسامح الدينى ، وكثيراً ما كانت تعطف على النصارى . وكانت فى السادسة والعشرين من عمرها حين توفى أبوها ، وكانت مع أخيها الحاكم مسلوبة السلطة ، فأثار ذلك حفيظتها ، ولاسيما عند ما انتقد مسلكها ، فتآمرت على قتله بالاشتراك مع سيف الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة .

وقد تركت ست الملك ثروة ضخمة ، منها ثمانمائة جارية ، وثمان جرات ملأى بالمسك ، وكثير من الأحجار الكريمة ، من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل . وكانت مخصصات هذه الأميرة السنوية خمسين ألف دينار(٢) .

ومن نساء هذا العصر زوجة الظاهر وأم المستنصر ، وكانت سودانية ، على ما تقدم . واشتهرت بالعطف على أبناء جلدتها السودانيين ، الذين كثر عددهم وقوى بطشهم فى عهد المستنصر ، حتى بلغ عدد الجنود السودانيين خمسين ألفا .

ولم يظهر بين طبقة العامة فى ذلك العصر نساء كان لهن أثر فى الحياة السياسية أو فى ترقية المجتمع ، بل كان النشاط فى هذه النواحى مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة .

وكان للمرأة شأن كبير فى بلاد الأندلس ، وقامت الجوارى بدور هام فى قصور الخلفاء والأمراء ورجالات الدولة . وليس أدل على صحة هذا القول من قصة « طروب » جارية عبد الرحمن الأوسط ؛ فقد بلغ من شدة ميله إليها وكلفه بها أنها حين غضبت منه وأبت أن تقابله ، ترضاها ببدر المال والحلى الذى قدرت قيمته بمائة ألف دينار . وقد ذكر المقرى (٣) أن هذه الجارية كانت تبرم الأمور مع نصر الخصى ، وأن عبد الرحمن لم يرد لها شيئا مما أبرمته . وكذلك أولع عبد الرحمن بجارية أخرى تسمى مدثرة ، فأعتقها وتزوجها ، كما أولع بجوارى أخر منهن شفاء ، وقلم ، وكانت أديبة راوية للشعر حافظة للأخبار ، كما كانت حسنة الخط .(٤)

وكذلك تمتعت السيدة صبح زوجة الحكم الثانى وأم هشام المؤيد (٣٦٦ — ٣٩٩هـ) بنفوذ كبير فى الدولة الأموية بالأندلس ، وتغلبت على أمور ابنها الذى لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إليه ، وأصبحت تتمتع بالنفوذ المطلق والسلطان الذى لا يحد ، وأسندت أمور الدولة إلى المنصور بن أبى عامر الذى غدا ساعدها الأيمن ، ولكنه أصبح بعد قليل الحاكم المطلق للدولة الإسلامية فى الأندلس كما تقدم (٥)

(م) الإماء :

وكان كثير من الخلفاء من أمهات أولاد : فكانت شجاع أم المتوكل خوارزمية ، والسيدة أم

---

(١) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٤٤ — ١٤٥

(٢) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤١٥

راجع كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٢٤٤ ، ٢٤٧

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٦٥ .

(٥) انظر هذا الكتاب ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

المقتدر رومية ، وكذلك كانت أم المستكفى ، وكانت أم المطيع صقلبية [١]

وقد لعبت الإماء دوراً هاما فى تاريخ الدولة العباسية فى هذا العصر ، كما يتبين ذلك من هذه الرسالة الممتعة التى كتبها الشيخ أبو الحسن المختار بن الحسن بن عدون البغدادى المتطبب ، وذكر أنواع الجوارى [٢] فى البلاد الإسلامية ننقل بعضها عن كتاب آدم متز [٣] حيث يقول :

«فالهنديات لهن حسن القوام وسمرة الألوان وحظ وافر من الجمال ، مع صفرة وصفاء بشرة وطيب نكهة ولين نعمة ؛ لكن الشيخوخة تسرع إليهن . . . وهن يصلحن للولد ، ورجالهم لحسن النفوس والأموال وعمل الصنائع الدقيقة ، غير أن النزلات تسرع إليهن ... والقندهاريات فى معنى الهنديات ، ولهن فضيلة على كل النساء ، فإن الثيب منهن تعود كالبكر . والسنديات ينفردن بدقة الخصور وطول الشعور ، والمدنيات سمر الألوان معتدلات القوام ، قد اجتمع فيهن حلاوة القول ونعمة الجسم ، وملاحة دل وحسن شكل وبشر ، لاغيرة فيهن على الرجال ، قنوعات بالقليل ، لايغضبن ولايصخبن ويصلحن للقيان . . . والمكيات خنثات مؤنثات لينات الأرساغ ، ألوانهن البياض المشرب بسمرة ، قدودهن حسنة ، وأجسامهن ملتفة ، وثغورهن نقية باردة ، وشعورهن جعدة ، وعيونهن مراض [٤] فاترة ؛ والطائفيات سمر مذهبات مجدولات ، أخف خلق الله أرواحا ، وأحسنهن فكاهة ومزاحا ؛ لسن بأمهات أولاد ، يكسلن فى الحمل ويهلكن عند الولادة . . . والبربريات مطبوعات على الطاعة نشيطات للخدمة ، ويصلحن للتوليد ، لأنهن أحدب شىء على ولد [٥] . ويقول أبو عثمان (الجاحظ) وهو من سماسرة هذا الشأن [٦] : إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب وهى بنت تسع حجج ، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج ، ثم جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة ، فتأدبت بالعراق ، جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات وخنث المكيات وآداب العراقيات ، واستحقت أن تخبى (تخبأ على الأصح) فى الجفون وتوضع على العيون . والزنجيات مساويهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن قبحت صورتهن وتحددت أسنانهن ، وقل الانتفاع بهن ، وخيفت المضرة منهن . والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب ، وليس فى خلقهن الفهم ؛ والرقص والإيقاع فطرة لهن وطبع فيهن . ولعجومة ألفاظهن عدل بهن إلى الزمر والرقص . ويقال لو وقع الزنجى من السماء إلى الأرض ماوقع إلا بالإيقاع . وهم أنتن الناس ثغوراً لكثرة الريق ، وكثرة الريق لفساد الهضوم . وفيهن جلد على الكد ؛ فالزنجى إذا شبع فصب العذاب عليه صبا فإنه لايتألم ، وليس فيهن متعة لصنانتهن [٧] وخشونة أجسامهن . أما الحبشيات فالغالب عليهن نعمة الأجسام ولينها وضعفها ، يتعاهدهن السل

---

(١) انظر كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٣٧٠ — ٣٧١

(٢) وردت هذه الرسالة فى مخطوط رقم ٤٩٧٩ بمكتبه برلين ورقة ١٣٦ ب — ١٣٧ ا ، ١٤٥ ا — ١٥١ ب .

(٣) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٧١ — ٢٧٤ .

(٤) ذابلة مكسورة وهو من جمال النساء . (٥) أحسن وأعطف على الأولاد

(٦) أى من الخبيرين به . (٧) نتن الريح .

والدق(١) ، ولا يصلحن للغناء ولا للرقص ، دقاق لا يوافقهن غير البلاد التى نشأن فيها . وفيهن خيرية وسلاسة انقياد ، يصلحن للائتمان على النفوس ، يخصهن قوة النفوس وضعف الأجسام ، كما يخص النوبة قوة الأجسام وضعف النفوس ؛ فصار الأعمار لسوء الهضم . والبجاويات مذهبات الألوان ، حسنات الوجوه ، ملس الأجسام ، ناعمات البشرة ، جوارى متعة . إن جلبت الواحدة صغيرة وسلمت من أن ينكئل بها — لأنهن يثقبون ويمسح بالموسى أعلى فروجهن حتى يبدو العظم — فيصرن شهرة من الشهر(٢) . والشجاعة والسرقة فى رجال البجة طبع وغريزة ؛ ولهذا لا يؤمنون على مال ولا يصلحون أن يكونوا خزانا . والنوبيات من جملة أجناس السودان ، ذوات ترف ولطف ، وأبدانهن يابسة مع لين بشرة . وهواء مصر يوافقهن ، لأن ماء النيل شربهن فى بلادهن . وإذا انتقلن عن غير مصر تسلطت عليهن العلل الدموية والأمراض الحادة . والتركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعمة ، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة وقدودهن ما بين الربع والقصير ، والطول فيهن قليل . وهن كنوز الأولاد ومعادن النسل ، قل مايتفق فى أولادهن وحش ولا ردى التركيب. والروميات بيض شقر ، سباط الشعور(٣) ، زرق العيون ، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء وأمانة ، يصلحن للخزن ، لضبطهن وقلة سماحتهن(٤) ، ولا يخلو أن يكن يألفن صنائع دقيقة . أما الأرمنيات فالملاحة للأرمن لولا ما خصوا به من وحشة الأرجل مع صحة بنية وشدة أسر(٥) . والعفة فيهن قليلة أو مفقودة ، والسرقة فيهن فاشية ؛ وقل مايوجد فيهن بخل ، وفيهن غلظ طبع ولفظ ، وليست النظافة فى لغتهن . وهن عبيد كد وخدمة ، متى تركت العبد ساعة بغير شغل ، لم يدعه خاطره إلى خير ، لا يصلحون إلا على العصا والمخافة ، والواحد منهم إذا رأيته كسلان فليس ذلك عن عجز قوة ، بل دونك والعصا . وكن مع ضربه وانقياده لما تريده على حذر ، فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلا عن الغضب ، ونساؤهم لا يصلحن لمتعة . وجملة الأمر أن الأرمن أشر البيضان ، كما أن الزنج أشر السودان ، وما أشبه بعضهم ببعض فى قوة الأجساد وكثرة الفساد وغلظ الأكباد » .

وقد أمدنا الجاحظ فى كتابه « المحاسن والأضداد(٦) » بوثيقة أخرى تبين محاسن ومساوىء التزوج من الإماء فقال عند كلامه على محاسن الجوارى :

« قيل ... كان يقال : من أراد قلة المؤونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة ، فعليه بالإماء دون الحرائر . وكان مسلمة بن مسلمة يقول : عجبت لمن استمتع بالسرارى كيف يتزوج المهائر ، وقال : السرور باتخاذ السرارى ، وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإماء أمهات أولادهم ، حتى نشأ فيهم على بن الحسين بن على رضى الله عنهم ، وفاق أهل المدينة فقها وعلما وورعا ، فرغب الناس فى اتخاذ السرارى ، قال : وليس من خلفاء بنى العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة : السفاح والمنصور (؟)

---

(١) الهزال .
(٢) أى شناعة من الشناعات فى القبح
(٣) الشعر السبط هو الطويل المسترسل الناعم ، وهو ضد الجعد .
(٤) أى لحسن محافظتهن على ما تحت أيديهن وعدم تفريطهن فى شىء .
(٥) قوة البدن .
(٦) طبعة مصر سنة ١٣٢٤ هـ ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

والأمين ، والباقون كلهم أبناء الجوارى ، وقد علقت الجوارى لأنهن يجمعن بين عز العرب ودهاء العجم .وقال عند كلامه على مساوىء الجوارى :

إذا لم يكن فى منزل المرء حُرّة رأى خللا فيما تولى الولائد
فلا يتخذ منهن حر قعيدة فهن لعمر الله شر القعائد

وكان يقال : الجوارى كخبز السوق والحرائر كخبز الدور , ومن أمثال العرب : لا تمازح أمة ولا تبك على أكمة .

٧ — الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات :

(ا) الأعياد والمواسم :

عنى المسلمون منذ عهد بعيد بالاحتفال بالعيدين فى شىء كثير من الأبهة والعظمة . وكانوا يحتفلون برمضان احتفالا شائقا ، ويتخذون غرة رمضان من مواسمهم الدينية ؛ كما كانوا يحتفلون بالعيدين احتفالا دينيا ، فيؤم خلفاء المسلمين الناس فى الصلاة ويلقون عليهم خطبة فى فضائل العيد وما يجب على المسلمين مراعاته للمحافظة على شعائر الإسلام . ولا عجب فقد كانت مظاهر الإسلام تتجلى فى الاحتفال بالعيدين فى البلاد الإسلامية ، وخاصة فى بغداد وبيت المقدس ودمشق والقاهرة.

وكان الاحتفال بعيد الفطر يبلغ منتهى الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون فيها الشعور الإسلامى قوياً ، مثل طرسوس ، حيث كان يتوافد إليها غزاة المسلمين من أنحاء البلاد الإسلامية ، وترد إليها تبرعات أهل البر من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للغزو بأنفسهم . وقد قيل : «ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان إلى مصر والمغرب ، إلا بطرسوس لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة» . ولا يخفى ما كان هنالك من أثر واضح فى ظهور الأبهة الإسلامية بأجلى مظاهرها فى الاحتفال بالأعياد بطرسوس ، حتى أصبح عيدا الفطر والأضحى فى تلك المدينة من محاسن الإسلام، لتظهر قوة المسلمين أمام أعدائهم من الروم فى الثغور .

وكانت المدن الإسلامية ، خصوصاً بغداد فى عهد العباسيين ، والقاهرة فى عهد الفاطميين ، تسطع فى أرجائها الأنوار ليالى العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل ، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات ، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل ، وتتلألأ الأنوار الخاطفة للأبصار من قصور الخلافة . وقد لبست الجماهير فى بغداد وغيرها من المدن الإسلامية الطيالسة السود تشبها بالخلفاء العباسيين الذين اتخذوا السواد شعارا لهم كما تقدم . وكان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسواد ، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم[1]) .

ولم يقتصر احتفال الخلفاء العباسيين على العيدين ، بل شمل الأعياد الفارسية القديمة : كالنيروز

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٣٧

والمهرجان والرام التى أصبحت فى العصر العباسى من أهم أعيادهم الرسمية .

وكانت تتجلى عظمة الخلفاء العباسيين وأبهتهم فى الاحتفال بالعيد، واتجهت سياستهم إلى اجتذاب الشعب على اختلاف طبقاته بالعطايا والأرزاق والهبات والأسمطة التى كانوا يمدونها فى الأعياد والمواسم ، وخاصة فى أول العام الهجرى ، وفى مولد النبى صلى الله عليه وسلم، ومولد الخليفة الجالس على العرش ، وفى غرة رمضان ، وفى أيام النيروز والمهرجان والرام ؛ كما عنوا بالاحتفال بعيدى الفطر والأضحى احتفالا رائعا .

وكان للعيدين عند المسلمين ، ولا يزال ، روعة تتجلى فى قصائد الشعراء. من ذلك هذه القصيدة التى نظمها أبو إسحق الصابى يهنىء فيها عضد الدولة ومنها :

يا ماجدا يده بالجود مفطرة ... وفوه من كل هجر صائم أبدا
أسعد بصومك إذ قضيت واجبه ... نسكا ووفيته من شهره العددا
واسحب بذا العيد أذيالا مجددة ... واستقبل العيش فى إفطاره رغدا
وانعم بيومك من ماض قررت به ... عينا ومنتظر يفضى إليك غدا
وفز بعمرك ممددوا وملكك مو ... طودا ونل منهما الحدالذى بعدا[1]

ومن ذلك ما كتبه إلى صمصام الدولة يهنئه بعيد الأضحى :

أسعد بفطر مضى وأضحى ... وافاك باليمن والنجاح
وانحر أعادى بنى بويه ... بالسيف فى جملة الأضاحى
فالكل منهم ذوو قرون ... يصلح للذبح والنطاح[2]

وكان الخلفاء عامة والفاطميون خاصة يحتفلون بعيد الفطر ، الذى كانوا يتبركون به وتعم خيراتهم الناس فيه . فمن هذه الخيرات تفرقة الفطرة ، والكسوة ، وعمل السماط ، وركوب الخليفة لصلاة العيد . وكان هؤلاء الخلفاء يهتمون بالاحتفال بعيد الفطر فى العشر الأخير من شهر رمضان ، واتخذ الفاطميون فى القصر بابا أطلقوا عليه « باب العيد » ، لأن الخليفة كان يخرج منه فى يوم العيد إلى المصلى شرقى القصر الكبير فى الفضاء الذى تشغله الآن قرافة باب النصر وراء حى الحسينية . فإذا كان اليوم الأول من شوال ، سار صاحب بيت المال إلى المصلى ، وفرش الطراحات بمحرابه . وعلق سترين يمنة ويسرة : فى الأيمن الفاتحة ، وهل أتاك حديث الغاشية[3]، ويركز فى جانبى المصلى لواءين مشدودين على رمحين ملبسين بأنابيب الفضة ، وهما منشوران مرخيان . ويوضع على ذروة المنبر طراحة من شاميات أو ديبق ، ويفرش باقيه بستر من بياض ، على مقداره فى تقاطيع درجه مضبوطة لاتتغير بالمشى وغيره . ويجعل فى أعلاه لواءان مرقومان بالذهب يمنة ويسرة . ثم يسير الوزير من داره إلى قصر الخليفة على عادته فى صلاة أول رمضان والجمع الثلاث الأخيرة منه ، ويركب الخليفة

(١) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢٥٢ . (٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٥٥ .
(٣) سورة الغاشية آية رقم ١ .

بهيئة المواكب العظيمة فى أول العام . ويكون لباسه فى هذا اليوم الثياب البيض الموشحة . ويخرج من باب العيد على عادته فى ركوب المواكب ، إلا أن العساكر فى هذا اليوم من الأمراء والركبان والمشاة تكون أكثر من غيره . وينتظم القوم له صفين من باب القصر إلى المصلى ، فيدخل من شرقيها إلى مكان يستريح فيه قليلا . ثم يخرج محفوفا بحاشيته ، فيسير إلى المحراب ، والوزير والقاضى وراءه ، فيصلى صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة ، ويقرأ فى الركعة الأولى مافى الستر الذى على يمينه ، وفى الثانية مافى الستر الذى على يساره . فإذا فرغ وسلم صعد المنبر لخطابة العيد ، فإذا انتهى إلى ذروة المنبر جلس على تلك الطراحة بحيث يراه الناس ، ووقف أسفل المنبر الوزير وقاضى القضاة وصاحب الباب واسفهسلار[1] ، وصاحب السيف ، وصاحب الرسالة ، وزمام القصر ، وصاحب دفتر المجلس ، وصاحب المظلة ، وزمام الأشراف الأقارب ، وصاحب بيت المال ، وحامل الرمح ، ونقيب الأشراف الطالبيين[2] ، ووجه الوزير موازيا رجليه ، فيقبلهما بحيث يراه الناس ، ثم يقوم فيقف على يمنة الخليفة . فإذا وقف أشار إلى قاضى القضاة بالصعود ، فيصعد إلى سابع درجة ، ثم يتطلع إليه منتظرا ما يقول ، فيشير إليه ، فيخرج من كمه درجا قد أحضر إليه فى أمسه من ديوان الإنشاء بعد عرضه على الخليفة والوزير ، فيعلن بقراءة مضمونة ويقول بعد البسملة : « شرف بصعود هذا المنبر الشريف فى يوم كذا ، وهو عيد الفطر من سنة كذا ، من عبد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ، بعد صعود السيد الأجل (وهنا يذكر نعوت الوزير المقررة والدعاء له) . ثم يذكر من يشرفه الخليفة بصعود المنبر من أولاد الوزير ، ثم يذكر القاضى ، ولكنه يكون هو القارىء للثبت ، فلا يسعه ذكر نعوته فيقول : المملوك فلان بن فلان ونحو ذلك ، ثم الواقفين على باب المنبر بنعوتهم واحدا واحدا . وكلما ذكر واحدا استدعاه ، وطلع المنبر كل منهم يعرف مقامه فى المنبر يمنة ويسرة . فإذا لم يبق أحد ممن أطلع إلى المنبر ، أشار الوزير إليهم ، فأخذ كل من هو فى جانب بيده نصيباً من اللواء الذى بجانبه ، فيستتر الخليفة ويسترون ، وينادى فى الناس بالإنصات ، فيخطب الخليفة خطبة بليغة مناسبة لذلك المقام ، يقرؤها من السفط الذى يحضر إليه مسطراً من ديوان الإنشاء كما فى جمع رمضان . فإذا فرغ من الخطبة ، ألقى كل من فى يده شىء من اللواء خارج المنبر ، فينكشفون وينزلون القهقرى أولا بأول الأقرب فالأقرب . فإذا خلا المنبر للخليفة ، هبط ودخل المكان الذى خرج منه ، فيلبث قليلا ، ثم يركب فى هيئته التى أتى فيها إلى المصلى ويعود فى طريقه التى أتى منها . فإذا قرب من القصر تقدمه الوزير على العادة ، ثم يدخل من باب العيد الذى خرج منه ، فيجلس فى الشباك الذى فى الإيوان الكبير ، وقد مد منه سماط العيد على ماتقدم[3] .

وكذلك اهتم العباسيون بالنوروز فى أول العام ، والمهرجان فى آخره ، كما كانوا يحتفلون بسائر

---

(١) ورد فى القلقشندى (جـ ٣ ص ٤٨٣) أن صاحب الاسفهلارية يتولى أمر الجند ، وفى خدمته وخدمة صاحب الباب يقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم .

(٢) راجع ماذكره القلقشندى (جـ ٣ ص ٤٨٢ — ٤٨٩) عن أصحاب هذه الوظائف .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥١٢ — ٥١٤ .

الأعياد الفارسية القديمة التى أصبحت فى العصر العباسى من أهم أعياد المسلمين الرسمية .

وقد جعل العباسيون النوروز عيداً قومياً يتهادون فيه ، ويقيمون الولائم والحفلات ، كما اتخذوا من النوروز موعدا لجمع الخراج . ونقرأ فى هذا العصر كثيرا عن النوروز من حيث صلته بجمع الخراج . فقد كان الخليفة المتوكل أول من اهتم بتأخير موعد النوروز حتى يتمشى ذلك مع مصلحة الزارعين ، ولكن ابنه المنتصر أعاد ميعاد الخراج إلى ما كان عليه من قبل. ثم جاء الخليفة المعتضد فقدم ميعاد الخراج عما كان عليه فى عهد المتوكل بستة عشر يوما ، فأصبح فى ٢٠ يونية من كل سنة على ماتقدم .(١) ويظهر أن موعد الخراج شغل عمال الخراج ، فحاولوا أن يجمعوه فى موعده الأول الذى يعبر عنه بالنوروز الأول . ويقول الصولى(٢) إن أحد عمال الخراج بدأ يطالب الناس بأداء الخراج قبل الموعد الذى تحدد فى عهد المعتضد ، ولكن « بحكم أمر بتأخير الافتتاح إلى النوروز المعتضـــدى » .

وكما كان الشعراء يهتمون بنظم قصائدهم فى عيدى الفطر والأضحى ، اهتموا كذلك بعيدى النوروز والمهرجان . فنرى أبا إسحق الصابى يبعث الى عضد الدولة بهذه الأبيات يهنئه فيها بعيد النوروز :

تهن بهـــذا اليوم واحظ بخيره ... وكن أبداً بالعود منه على حـد
أرى الناس يهدون الهدايا نفيسة ... إليك ولم يترك لى الدهر ماأهدى
سوى سكر يحلو لك العيش مثله . ... وآس(٣) أخى عمر كعمرك ممتد
وبينهما من ضرب قومك درهم ... وأبيات شعر من ثنائى ومن حمدى
فإن كنت ترضى مابه انبسطت يدى ... وتقبله منى فهذا الذى عندى (٤)

ولمصر منذ القدم نوروز خاص يسمى النوروز القبطى، وهو أول السنة القبطية. وفى مستهل توت توفد النيران فى ليلة النوروز ويرش الماء فى يومه ، وتفرق الكسوة على رجال الدولة وعلى أولادهم ونسائهم ، وتوزع الرسوم التى جرت العادة بتوزيعها عليهم ، كما يتبادلون الهدايا فى هذا اليوم . واستمر الاحتفال بالنوروز فى العهد الإسلامى إلى أن فتح الفاطميون مصر ، فاهتموا بالاحتفال بالنوروز ، و« زاد اللعب بالماء ، ووقود النيران . وطاف أهل الأسواق ، وعملوا فيلة ، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم ، ولعبوا ثلاثة أيام ، وأظهروا السماجات والحلى فى الأسواق . ثم أمر المعز بالنداء بالكف ، وأن لا توقد نار ولا يصب ماء . وأخذ قوم فحبسوا ، وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال » . (٥)

وكذلك احتفل العباسيون بالمهرجان ، وكانوا يتهادون فيه بالهدايا الكثيرة كهدايا النوروز ،

---

(١) انظر ص ٤٨٠ من هذا الكتاب، وكتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٢٨٥ ، ومسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٥ ، ٢٤٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٧ حاشية رقم ١ ، ياقوت : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب جـ ٢ ص ١٢٨ .

(٢) أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ١٩٧ (٣) الآس نوع من الرياحين.

(٤) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢٥٧.

(٥) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤٩٣ . انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٢٥٦ .

ومنها السكر . يقول أبو الحسن العروضى مؤدب الخليفة الراضى : « اجتزت فى يوم مهرجان بدجلة بدار بجكم التركى ، فرأيت من الهرج والملاهى واللعب والفرح والسرور مالم أر مثله » .

وكتب أبو إسحق الصابى إلى عضد الدولة يهنئه بالمهرجان فى قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات :

وقل مرحباً بالمهرجان وحيه ... بطلعة بسام أغر مجيد
له زورة فى العام مازال يومها ... كفيلا بحظى سيد ومسود
فيحظى بفخر من علاك مجدد ... وتحظى بعمر فى مداه مديد
أتتك الهدايا فيه بين مُوَفَّر ... على قدر المهدى وبين زهيد(١)

وفى عهد الفاطميين فى مصر كانت هناك عدا مواكب الخلفاء أيام السبت والثلاثاء ، وأيام الجمع ويومى العيدين ، أيام دينية أخرى . وفيما يلى أسماء الأعياد والمواسم التى كان يحتفل بها الفاطميون وهى : رأس السنة ، أول العام ، يوم عاشوراء وهو يوم مقتل الحسين بن على (١٠ المحرم) ، مولد النبى صلى الله عليه وسلم (١٢ ربيع الأول) ، مولد على بن أبى طالب ، مولد الحسن ، مولد الحسين ، مولد فاطمة ، مولد الخليفة القائم بالأمر ، ليلة أول رجب ، ليلة نصف رجب ، ليلة أول شعبان ، ليلة نصف شعبان(٢) ، غرة رمضان ، جبر الخليج ، يوم النوروز ، يوم الغطاس(٣) ، يوم الميلاد ، عيد النصر (٤)، خميس العهد(٥).

(ب) المواكب :

رأينا أن مواكب الخلفاء العباسيين كانت أكثر روعة وبهاء من مواكب الأمويين ، وخاصة فى أيام الجمع ، وفى مواكب الحج التى تشبه فى مصر الاحتفال بسفر المحمل إلى الحجاز وعودته منها(٦) .

وقد وصف مسكويه(٧) موكب الخليفة الطائع (٣٦٣ — ٣٨١ هـ) لتقديم العزاء بوفاة شرف

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٢٩ .
يريد : كانت الهدايا نوعين : نفيسة غالية ورخيصة زهيدة ، وكل على قدر من أهداها لا على قدر المهدى اليه . الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢٥٦ .

(٢) كانت هذه الليالى الأربع الأخيرة تسمى ليالى الوقود ؛ وكان الناس يصومون فى هذه الأيام الأربعة كصومهم رمضان ، فكانوا يحتفلون بها كما يحتفلون برمضان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى يومنا هذا .

(٣) كان المصريون منذ عهد بعيد يحتفلون بليلة الغطاس . وقد وصف المسعودى (مروج الذهب جـ ١ ص ٢١٢ — ٢١٣) هذا الاحتفال فى عهد الاخشيد .

(٤) كان يقع يوم ١٦ من المحرم ، وهو اليوم الذى أطلق فيه الخليفة الحافظ الذى حبسه الوزير أبو على بن الأفضل بن بدر الجمالى .

(٥) هو الخميس الذى يحتفل فيه النصارى بأعيادهم ، وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام ، وهو من الأعياد التى بقيت فى العهد الفاطمى مشاركة للنصارى فى شعورهم . وأهل القاهرة يسمون ذلك اليوم خميس العدس خطأ .
راجع ما ذكره المقريزى (خطط جـ ١ ص ٤٩٠ — ٤٩٤) عن هذه الأعياد والمواسم .

(٦) أنظر ما ذكرناه عن هذه الاحتفالات فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢١٨ — ٣٢٠ .

(٧) تجارب الأمم جـ ٣ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

الدولة البويهى فى سنة ٣٧٩ هـ فقال : « قدم الطيار على باب الدرجة ، وفرش سطحه بديبقى ، وعليه مقرمة[١] ديباج حمراء منقوشة ، و (فرش) وسطه بديباج أصفر ، وعليه مقرمة دبيقية . ووقف الغلمان الأتراك الأصاغر بالسيوف والمناطق فى دائر المجلس الأوسط ، ووافى حجاب شرف الدولة الأتراك والمولدون فى الزبازب بالثياب السود والسيوف والمناطق . وكل منهم قائم فى زبزبه . واجتمع من السفن التى فيها العامة عدة كثيرة . وخرج الطائع لله من داره ، وتحته فرس صنابى[٢] بمركب خفيف وسرج مغرى[٣] أحمر ، وعليه قباء[٤] ملحم[٥] أسود وعمامة خز سوداء على رصافية[٦] ، وهو متقلد بسيف . وبين يديه خمسة أفراس[٧] فوق سروجها جلال الديباج[٨] . ونزل إلى الطيار[٩] ، فجلس فى المجلس الأوسط على المقرمة فى الدست[١٠] على خلاف عادة الخلفاء ، فإنهم كانوا يجلسون على سطح حراقة ، وبين يديه مجلس طيار . وقيل إنه فعل ذلك ، لأنه كان فى عقيب علة ، وأراد أن يخفى ما بوجهه من آثارها .

فوقف بين يديه أبو الحسن على بن عبد العزيز كاتبه ، ودجى خادمه ، والعباس حاجبه ؛ وسار الطيار إلى دار المملكة بالمخرم . فنزل الأمير أبو نصر متشحاً بكساء طبرى ، والديلم والأتراك بين يديه وحواليه إلى المشرعة[١١] التى قدم إليها الطيار ، وقبل الأرض وصعد أبو الحسن بن عبد العزيز إلى الأمير أبى نصر ، فأدى اليه رسالة عنه بالتعزية ، فقبل الأرض ثانياً ودعا وشكر . وعاد أبو الحسن إلى حضرة الطائع ، وأعلمه شكره ودعاءه ، وعاود الصعود إلى الأمير أبى نصر لوداعه عن الطائع ، فأعلمه شكره ودعاءه ، فقبل الأرض ثالثاً ، وانحدر الطيار على مثل ما أصعد ، وعاد الأمير أبو نصر إلى داره .

ثم ركب الأمير أبو نصر بعد خمسة أيام إلى حضرة الطائع لله ، فخلع عليه الخلع السلطانية ، ولقبه بهاء الدولة وضياء الملة ، وقرىء عهده بين يديه بالتقليد ، وقدم إليه فرس بمركب ذهب ، وقيد بين يديه آخر بمثل مركبه وسار ، وسار العسكر حواليه إلى باب الشماسية فى القباب المنصوبة ، ونزل إلى الطيار وانحدر إلى دار المملكة .

٢ — فى مصر :

كانت أعمال خمارويه بن أحمد بن طولون تدل على حبه للظهور ؛ وكان شخصه محاطاً بمظاهر العظمة والأبهة إذا خرج للصيد أو التنزه أو الاحتفال بعيد من أعياد الدولة . وكان موكب هذا الأمير حافلا ،

---

(١) المقرمة ثوب ملون فيه رقم ونقوش ويوضع فوق الفرش .
(٢) الصناب بوزن كتاب الطويل الظهر والبطن .
(٣) منسوب إلى المغرة (بضم الميم) وهى لون ليس بناصع الحمرة .
(٤) قفطان (٥) محشو بقطن أو صوف . (٦) أى على كمة (قلنسوة) مصنوعة فى الرصافة
(٧) فى الأصل أرؤس وهو تحريف (٨) الجلال جمع جل بالضم وبالفتح ما تلبسه الدابة لتصان به
(٩) الطيار ضرب من السفن سريع (١٠) الدست صدر المجلس .
(١١) المشرعة مدخل الماء إلى دار الملك .

يزيده هيبة أولاد الحوف(١) وشناترة الضياع ، وكانوا من قطاع الطرق ضخام الأجسام ، عرفوا بالشجاعة والبأس . فأدخلهم خمارويه فى خدمته وأدر عليهم الأرزاق والعطايا ، ومنع عن الناس أذاهم ، واتخذهم حرساً له . وكانوا يلبسون الأقبية وجواشن الديباج ، ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة ، ويتقلدون بالسيوف المحلاة . ويسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة يتلوهم ألف من السودان ، لهم درق (٢) من حديد محكم الصنعة ، وعليهم الأقبية والعمائم السود ، فيخالهم الناظر بحرا أسود لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم . ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم والبيض(٣) التى تلمع على رءوسهم من تحت العمائم . فإذا مضى السودانيون قدم خمارويه ، وسار منفرداً عن موكبه بمقدار نصف غلوة(٤) سهم . ويحف به حرسه المختار ، وهو ممتط فرساً ، فإذا سار ، سار الناس جميعاً وبينهم الجند فى صمت عميق كأن على رءوسهم الطير(٥)

وفى الاحتفال بصلاة الجمعة فى عهد الفاطميين مايدلنا على العظمة التى كانت تحيط بالخلفاء الفاطميين ، ويربنا الكرم الذى مكنهم من اجتذاب كثيرين من الأنصار إليهم .

كان الخلفاء الفاطميون يركبون فى الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهر وعمرو على التوالى لصلاة الجمعة . ويشرف صاحب بيت المال فى صبيحة كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تأثيث المسجد الذى يصلى فيه الخليفة صلاة الجمعة . فكانت توضع فى المقصورة ثلاث طنافس ديبقية أو سامانية بيضاء ، بعضها فوق بعض ، وتوضع فوق الجميع الحصيرة التى يقال إنها كانت لجعفر الصادق ، وأحضرت إلى مصر فى عهد الحاكم سنة ٤٠٠ هـ . وكان ينصب على جانب المنبر ستران ، يكتب على الأيمن البسملة والفاتحة وسورة الجمعة(٦) ، وعلى الأيسر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين(٧) .

وقبل وصول الخليفة بقليل يقف قاضى القضاة حاملا مبخرة ، فيبخر المنبر والقبة التى كان الخليفة يقف تحتها وقت إلقاء الخطبة . أما الخطبة فقد كان يضعها أحد الكتاب فى ديوان الإنشاء . وكان الخليفة يرتدى فى هذا اليوم ثوبا من الحرير الأبيض ، ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق ، ويحمل قضيب الملك بيده ، ويحف به عدد كبير من حرسه الخاص ، ومن الجنود الأخرى والأشراف . ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس . وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقراءة القرآن بنغمات مشجية حتى يصل إلى قاعة الخطابة ، وهى قاعة استقباله الخاصة ، ويحرسها قائد

---

(١) الحوف بمصر حوفان : الشرقى والغربى ، أول الشرقى من جهة الشام ، وآخر الغربى قرب دمياط ؛ يشتملان على بلدان وقرى كثيرة . ولعله يريد بذلك عرب الحوف .

(٢) معربة عن لفظ فارسى هو دريجة ، وهى درع بيضاوى الشكل غالباً ، وفى وسطه نتوءات ، وله مقبض فى ظاهره . ويتراوح طوله بين قدم ونصف وقدمين . وتصنع الدرقة غالبا من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السميكة ، وأحيانا من جلد التمساح .

أنظر Lane: Arabic - English Lexicon ، الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٢٤٧ (٢)

(٣) جمع بيضة وهى الخوذة الحديدية .

(٤) الغلوة رمية السهم (٥) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣١٨ .

(٦) سورة رقم ٦٢ (٧) سورة رقم ٦٣

القواد وكبير الأمناء ونخبة من حرس الخليفة ، ويظل فى هذه القاعة حتى ينتهى الأذان . وقد ذكر ابن ميسر(١) أن الخليفة المعز كان يحيط به فى موكب صلاة الجمعة جنده وأولاده الأربعة ، ممتطين الخيل ، وعليهم الخوذات والدروع ، وفيلان .

حينئذ يدخل قاضى القضاة ويقول : السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله ! فيخرج الخليفة وحوله الأستاذون المحنكون ، ويتبعه وزيره وجماعة من حرسه مدججين بالسلاح ، فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر . أما الخليفة فيستمر فى سيره حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر . ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة ؛ فإذا أومأ إليه ، صعد فقبل يدى مولاه ورجليه وزرر السترين عليه ، وبذلك يكون المنبر والقبة كالهودج . ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر . وقد ذكر المقريزى(٢) أن السبب فى زر الستور يرجع إلى أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا كسائر الخطباء يرتجلون الخطبة ، بل كانت تعد لهذا الغرض خاصة فى ديوان الإنشاء ؛ كما كان سبب كتابة آيات من القرآن بخيوط حريرية حمراء ظاهرة على سترين يوضعان على جانبى الخليفة ، أحدهما على يمينه ليقرأ ما فيه فى الركعة الأولى ، والآخر على يساره ليقرأ مافيه كذلك فى الركعة الثانية ، هو حفظه من النسيان أو التعلثم وقت إقامة الصلاة .

وكان الخليفة يختم خطبته بالدعاء للوزير ، وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين . فإذا فرغ من خطبته قال : « اذكروا الله يذكركم » . ثم يصعد الوزير فيحل السترين ؛ ويظل هو وقاضى القضاة على الباب ، ويقوم الأستاذون المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة.

بعد هذا يأخذ الخليفة فى الصلاة ، فيبلغ الوزير عنه ، ثم قاضى القضاة ، ثم المؤذنون . فاذا انتهت الصلاة خلا المسجد من الناس ، وخرج الخليفة ، يحيط به الوزير عن يمينه ، وقاضى القضاة وداعى الدعاة عن يساره ، وحرسه الخاص ، ويعود بموكبه إلى مقره على الهيئة التى اتخذها فى ذهابه إلى الجامع .

وفى أيام الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، كانت تزدان الدور والحوانيت والأسواق التى يمر بها الخليفة فى طريقه إلى الجامع — حيث يصلى الجمعة — كما يصطف كثير من الناس على جانبى الطريق .

وكان الاحتفال بوفاء النيل من أعظم الاحتفالات ، التى كانت تقام فى مصر فى العصر الفاطمى ، ولا يزال ذلك إلى اليوم . وقد ذكر ناصر خسرو(٣) ، الذى زار مصر فى عهد الخليفة المستنصر ، أنه كان يحتفل بوفاء النيل بحضور الخليفة ، وفى ركبه عشرة آلاف فارس ، يمتطون الخيول المطهمة الملجمة ، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة . ويلى هؤلاء صفوف من الجمال ، عليها هوادج مزركشة تقودها طائفة من جند الخليفة .

---

(١) تاريخ مصر ص ٤٤ . (٢) خطط جـ ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨٢ .

(٣) Safar Nameh, (ed. Charles Schefer), pp . 136 — 142.

حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

أما الجند فكانت تسير فى صفوف منتظمة ، فصيلة تلو فصيلة ، ميممين فم الخليج . والبربر من هؤلاء يسيرون فى عشرين ألفاً من أشداء قبيلة كتامة المغربية ، من سلالة جند المعز . ويلى هؤلاء خمسة عشر ألفا من المغاربة ، ومن المصامدة(١) عشرون ألفا . ويسير خلف هؤلاء وأولئك الأتراك والفرس فى عشرة آلاف ، ويطلق عليهم اسم المشرقيين ، ولو أن مسقط رأسهم هو مصر ، ويتبعهم من بدو الحجاز خمسة عشر ألفاً ، ومن السودان ثلاثون ألفاً ، وكان يطلق عليهم عبيد الشراء(٢) .

ويلى هؤلاء عدد غير قليـــل من الأرقاء ورجال الحاشية ، والموظفين على اختلاف مراتبهم ، والشعراء والعلماء والأمراء من مراكش ، واليمن ، وبلاد النوبة ، والحبشة ، وآسيا الصغرى ، وجرجان ، وتركستان ، حتى الأمراء من أبناء سلطان دهلى ، وكانت أمهم تقيم فى القاهرة .

ويتألف حرس الخليفة من ثلثمائة من الديلم المشاة ، مرتدين الحلل السندسية المصنوعة فى بلاد الروم ، حاملين المعاول والمزاريق . ويسير إلى جانب الخليفة حامل المظلة ، ويحف بهما خصيان يطلقون البخور على جانبى الطريق . حتى إذا وصل إلى الفسطاط المقام عند فم الخليج ، ووقف الناس له إكباراً وإجلالا ، قذف المزراق فى سد النيل ؛ ومن ثم ينطلق الناس يعملون فى هذا السد بمعاولهم فينساب الماء . وعندئذ يهرع الناس إلى زوارقهم فرحين جذلين ، يحملهم زورق يضم جماعة من الصم والبكم تيمنا وتفاؤلا .

(جـ) الحفلات :

وكان الخلفاء والأمراء يهتمون اهتماما بالغاً بإقامة الحفلات التى تتجلى فيها مظاهر الروعة والجلال. فقد أقام الخليفة العباسى المقتدر حفلة رائعة ، بمناسبة قدوم رسولى إمبراطور الروم بغداد فى سنة ٣٠٥هـ لطلب عقد الهدنة مع العباسيين . يقول ابن الأثير(٣) : « وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفداء ، فأكرما إكراما كثيرا ، وأدخلا على الوزير وهو فى أكمل أبهة . وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة ، وأديا الرسالة إليه . ثم إنهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما ؛ واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة ، فأجابهما المقتدر إلى ما طلب ملك الروم من الفداء ، وسير مؤنسا الخادم ليحضر الفداء ، وجعله أميراً على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج عنه ، وسير معه جمعا من الجنود ، وأطلق لهم أرزاقا واسعة ، وأنفذ معه مائة ألف وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين » .

وقد وصف الخطيب البغدادى(٤) دار الشجرة التى استقبل فيها رسولا إمبراطور الروم فقال : « ففرشت الدار بالفروش الجميلة ، وزينت بالآلات الجليلة ، ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشى على طبقاتهم ، على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومخترقاتها وصحونها ومجالسها . ووقف الجند صفين

---

(١) نسبة الى مصمودة قبيلة كبيرة من البربر بشمال إفريقية .

(٢) أى الأسارى الذين كانوا يشترون بالمال .

(٣) جـ ٨ ص ٣٧ . (٤) تاريخ بغداد جـ ١ ص ١٠٢ — ١٠٣ .

بالثياب الحسنة ، وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة ، وبين أيديهم الجنائب[١] على مثل هذه الصورة » . وقد وصف الخطيب أيضا شجرة الفضة التى وضعت فى الدار المسماة باسمها فقال: «وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، عليها أطيار مصوغة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها ، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده». ويقول عن الشجرة أيضا: « وفيها شجرة فى وسط بركة كبيرة مدورة ، فيها ماء صاف . وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع ، مذهبة ومفضضة . وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها مذهب . وهى تتمايل فى أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجرة . وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر . وفى جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفى أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد . . . فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد . وفى الجانب الأيسر مثل ذلك » .

وقد وصف السيوطى[٢] هذا الاحتفال فقال : « وفى سنة ٣٠٥ هـ قدمت رسل ملك الروم بهدايا وطلبت عقد هدنة ، فعمل المقتدر موكبا عظيما ، فأقام العسكر وصفهم بالسلاح ؛ وهم مائة وستون ألفا ، من باب الشماسية إلى دار الخلافة ، وبعدهم الخدام وهم سبعة آلاف خادم ، ويليهم الحجاب وهم سبعمائة حاجب . وكانت الستور التى نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج ، والبسط اثنين وعشرين ألفا ، وفى الحضرة مائة سبع فى السلاسل إلى غير ذلك » .

أما شخص الخليفة المقتدر فقد وصفه صاحب تاريخ بغداد[٣] فقال : « ووصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس فى التاج مما يلى دجلة ، بعد أن لبس بالثياب الديبقية المطرزة بالذهب على سرير آبنوس قد فرش بالديبق المطرز بالذهب ، وعلى رأسه الطويلة ، ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة ، ومن يسرته تسعة أخرى من أفخم الجواهر وأعظمها قيمة ، غالبة الضوء على ضوء النهار . وبين يديه خمسة من ولده ، ثلاثة يمنة واثنان ميسرة . ومثل الرسول وترجمانه بين يدى المقتدر بالله فكفر له[٤] ؛ وقال الرسول لمؤنس الخادم ونصر القشورى — وكانا يترجمان عن المقتدر : لولا أنى لا آمن أن يطالب صاحبكم بتقبيل البساط لقبلته ، ولكننى فعلت مالا يطالب رسولكم بمثله ، لأن التكفير من رسم شريعتنا . ووقفا ساعة ؛ وكانا شاباً وشيخاً : فالشاب الرسول المتقدم ، والشيخ الترجمان . وقد كان ملك الروم عقد الأمر فى الرسالة للشيخ متى حدث بالشاب حدث الموت . وناوله المقتدر بالله من يده جواب ملك الروم ، وكان ضخما كبيرا ، فتناوله وقبله إعظاماً له » .

وكذلك احتفل الحاكم الفاطمى باستقبال رسول إمبراطور الروم ، وذلك أنه لما اتصل به أنه فى طريقه إلى القاهرة ، أمر بتزيين القصر ؛ فكان من بين الأكياس التى تحتوى على الحرير المشغول

---

(١) جمع جنيبة وهى الدابة التى تمشى إلى جانب الدابة المركوبة لينتقل عليها الراكب إذا تعبت دابته .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٥٣ (٣) جـ١ ص ١٠٤

(٤) الكفر تعظيم الفارس ملكه بالسجود له .

بالذهب كيس عليه رقم ٣٣١ . وقد نقل ذلك كله إلى الإيوان المعد لاستقبال الرسول وعلق على حوائطه ، فغدا الإيوان كله يتلألأ ببريق الذهب . وقد وضعت أمام الإيوان قطعة على هيئة درقة مرصعة بالأحجار الكريمة ، فكان لانعكاس أشعة الشمس عليها بريق يخطف الأبصار ويضيء ماحواليها .(١)

ويتجلى اهتمام الأمويين بالأندلس بإقامة الحفلات والتأنق فيها ، من وصف استقبال الحكم المستنصر أردون ملك الجلالقة ، حين وفد على قرطبة فى سنة ٣٥١ هـ واستنجد بالحكم على منافسه وابن عمه شانجة ، فجاء به غالب الناصرى وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور ، فأنزلاهم ؛ ثم تحركا بهم ثانى يوم نزولهم إلى قرطبة . فأخرج المستنصر بالله إليهم هشام بن محمد بن عثمان المصحفى فى جيش عظيم كامل التعبية ، وقدموا إلى باب قرطبة ، فمروا بباب قصرها . فلما انتهى أردون إلى ما بين السدة وباب الجنان ، سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله ، فأشير إلى ما يوازى موضعه من داخل القصر فى الروضة ؛ فخلع قلنسوته ، وخضع نحو مكان القبر ودعا ، ثم رد قلنسوته إلى رأسه .

وأمر المستنصر بإنزال أردون فى دار الناعورة ، وقد كان تقدم فى فرشها بأنواع الغطاء والوطاء . وانتهى من ذلك إلى الغاية ، وتوسع له فى الكرامة ولأصحابه ، فأقام بها الخميس والجمعة . فلما كان يوم السبت ، تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه ، بعد إقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال فى ذلك من العدد والأسلحة والزينة . وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح ، وقعد الإخوة وبنوهم ، والوزراء ونظراؤهم صفاً فى المجلس ، فيهم القاضى منذر بن سعيد ، والحكام والفقهاء . فأتى محمد بن القاسم بن طملس بالملك أردون وأصحابه ، وعالى لبوسه ثوب ديباجى رومى أبيض ، وبليوال من جنسه وفى لونه ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر . وقد حفته جماعة من وجوه الذمة بالأندلس ، يؤنسونه ويبصرونه ، فيهم وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة ، وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما . فدخل بين صفى الترتيب ، يقلب الطرف فى نظم الصفوف ، ويجيل النظر فى كثرتها وتظاهر(٢) أسلحتها ورائق حليتها ، فراعهم ما أبصروه ، وصلبوا على وجوههم ، وتأملوا ناكسى رءوسهم ، غاضين من جفونهم ، قد سكرت أبصارهم(٣) ، حتى وصلوا إلى باب الأقباء ، أول باب قصر الزهراء . فترجل جميع من كان خرج إلى لقائه ، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم حتى انتهوا إلى باب السُّدة ، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشى على الأقدام ، فترجلوا ، ودخل الملك أردون وحده راكباً مع محمد ابن طملس ، فأنزل فى برَطل(٤) البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التى بدار الجند ، على كرسى مرتفع مكسو الأوصال(٥) بالفضة . وفى هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجة بن ردمير الوافد على الناصر لدين الله رحمه الله تعالى . فقعد أردون على الكرسى ، وقعد أصحابه بين يديه ، وخرج

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤١٥ . (٢) قوة

(٣) أى أصبحوا كالسكارى لا يستطيعون فتح عيونهم لروعة ما رأوا .

(٤) البرطل بفتح الباء والطاء المظلة الضيقة . (٥) الأجزاء أى أنه مغشى عند اتصال أجزائه بالفضة .

الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه ، فتقدم يمشى وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح . فلما قابل المجلس الشرقى الذى فيه المستنصر بالله ، وقف وكشف رأسه وخلع برنسه ، وبقى حاسراً إعظاماً لما كان له من الدنو إلى السرير ، واستُنهض ، فمضى بين الصفين المرتبين فى ساحة السطح إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو . فلما قابل السرير خر ساجداً سويعة ، ثم استوى قائماً ، ثم نهض خطوات ، وعاد إلى السجود ، ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدى الخليفة ، وأهوى إلى يده ، فناوله إياها ، وكر راجعاً مقهقراعلى عقبه ، إلى وساد ديباج مثقل بالذهب ، جعل له هنالك ، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير . فجلس عليه ، والبهر قد علاه ، وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممتثلين فعله فى تكرير الخنوع ، وناولهم الخليفة يده ، فقبلوها وانصرفوا مقهقرين ، فوقفوا على رأس ملكهم ، ووصل بوصولهم وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة ، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم . وأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده أمامه وقتا ريثما يُفرخ روعه[١] . فلما رأى أن قد خفض عليه[٢] افتتح تكليمه ...

فكرر أردون الخضوع ، وأسهب فى الشكر ، وقام للانصراف مقهقراً ، لا يولى الخليفة ظهره ، وقد تكنفه الحفدة من جلة الفتيان ، فأخرجوه إلى المجلس الغربى فى السطح ، وقد علاه البهر وأذهله الروع ، من هول ما باشره وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة . فلما أن دخل المجلس ، ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليا منه ، انحط ساجدا إعظاما له . ثم تقدم الفتيان به إلى البهو الذى بجوفى هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب . وأقبل نحوه الحاجب جعفر ، فلما بصر به قام إليه ، وخضع له ، وأومأ إلى تقبيل يده ، فقبضها الحاجب عنه ، وانحنى إليه ، فعانقه وجلس معه ، فغبّطه ، ووعده من إنجاز عدات[٣] الخليفة له بما ضاعف سروره . ثم أمر الحاجب جعفر ، فصُبت عليه الخلع التى أمر له بها الخليفة ، وكانت دراعة منسوجة بالذهب ، وبرنساً مثلها ، له لوزة[٤] مفرغة من خالص التبر ، مرصعة بالجواهر والياقوت ، ملأت عين العلج[٥] تجلة ، فخر ساجداً وأعلن بالدعاء . ثم دعا الحاجب أصحابه رجلا رجلا ، فخلع عليهم على قدر استحقاقهم ، فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم ، وخر جميعهم خاضعين شاكرين . ثم انطلق الملك أردون وأصحابه ، وقدم لركابه فى أول البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب ، عليه سرج حلى ، ولجام حلى مفرغ . وانصرف مع ابن طملس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه ، وقد أعد له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون . واستقر الملك أردون وأصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وإرغاد المعاش ، واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه ، ما أفاضوا فى التبجح به والتحدث عنه أياما .

---

(١) يطمئن
(٢) اطمأن فى المجلس
(٣) جمع عدة وهى الوعد
(٤) حلية على شكل اللوزة
(٥) العلج الرجل من كفار العجم

وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة فى هذا اليوم مقامات حسان ، وإنشادات لأشعار محكمة متان يطول القول فى اختيارها . فمن قول عبد الملك بن سعيد المرادى من قصيدة طويلة :

مُلك الخليفة آية الإقبال وسعوده موصولة بنوال
فالمسلمون بعزة وبرفعة والمشركون بذلة وسفال
ألقت بأيديها الأعاجم نحوه متوقعين لصولة الرئبال(١)

زواج قطر الندى من الخليفة المعتضد :

وكان المسلمون يهتمون بحفلات الزواج اهتماما بالغا ، فقد رأينا كيف بلغ إسراف خلفاء العصر العباسى الأول وبذخهم بما فعله الخليفة المهدى عند زواج ابنه هارون الرشيد من السيدة زبيدة ، وما أنفقه المأمون على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل(٢) الذى تجلى إسرافه وبذخه فى هذا الزواج.

وقد تجلى بذخ العباسيين والطولونيين فى زواج الخليفة العباسى المعتضد من أسماء المعروفة بقطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون .

وقد استطاع خمارويه ، بما هيأه له بيت مال مصر ، أن يبذل الأموال الضخمة بذل من لا يخشى فقرا ولا يهاب عوزا . فقد ذكر ابن دقاق(٣) أنه « حمل معها مالم ير مثله ، ولا سمع به إلا فى وقته » ، وذكر المقريزى(٤) « أنه لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس إلا حمله معها ». فمن هذا الجهاز دكة من أربع قطع من الذهب ، عليها قبة من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجوهر لا يعرف لها قيمة ، ومائة هون من الذهب لدق الطيب ، وألف تكة ثمن الواحدة منها عشرة دنانير . وقد أمر خمارويه بعد أن فرغ من الجهاز بأن يبنى لابنته على رأس كل مرحلة قصر أشبه بالنزل أو مكان الاستراحة تنزل فيه فى طريقها إلى بغداد ، وأعدت هذه القصور بكل ما تحتاج إليه ؛ فكانت فى سفرها ممتعة بجميع وسائل الراحة وأسباب الرفاهية كما لو كانت فى قصر أبيها . أما مبلغ نفقات هذا العرس فلم نقف عليه فى مصدر من المصادر التى رجعنا إليها . وقد ذكر ابن خلكان(٥) أن صداقها كان مليون درهم . وليس هذا بالشىء الكثير بجانب ما أنفق على تجهيزها ، إذا علمنا أن ابن الجصاص الجوهرى ، الذى عهد إليه بإعداد الجهاز ، نال جائزته وهى أربعمائة ألف دينار بقيت بعد إعداد كل ما تحتاج إليه العروس(٦) .

كل هذا يدلنا على مبلغ الرخاء الذى شمل مصر فى عهد خمارويه ، وما كان من تقدم الصناعة ، ورواج التجارة ، وعمارة الأسواق لدرجة لم تبلغها فى غضون القرن الخامس الهجرى ، وهو العصر الذى عاش فيه المؤرخ والفقيه القضاعى الذى يقول: « ولا يعرف اليوم فى أسواق القاهرة تكة بعشرة دنانير إذا طلبت توجد فى الحال »(٧). على أن هذا يدل من جهة أخرى على ما انطوى تحت هذا العمل

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص ١٨٣ — ١٨٦ ، أزهار الرياض جـ٢ ص ٢٨٨ — ٢٩٤ .
(٢) أنظر هذا الكتاب جـ٢ ص ٣٢١ — ٣٢٢ .
(٣) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ٤ ص ٦٧ . (٤) خطط جـ ١ ص ٣١٩
(٥) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٧٤ (٦) ابن دقاق : جـ ٤ ص ٦٧
(٧) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣١٩

وغيره من الأعمال من إفقار خمارويه للدولة من جراء زواج ابنته إلى الخليفة المعتضد العباسى . وقد ذكر لنا التنوخى (١) أن قطر الندى لما وصلت إلى بغداد كان خمارويه فى شدة وكرب شديدين بسبب تجهيز ابنته الذى استنفد كل ثروته . وليس أدل على صحة هذا القول من أنه احتاج مرة إلى شمعة فلم يوفق إلى إيجادها لوقته ، فلعن ابن الجصاص الذى عده مصدر فقره وبلائه .

وقد أقيمت فى قصر خمارويه الحفلات والمآدب بمناسبة هذا الزواج ، واجتمعت النساء فى أحسن ملابسهن الحريرية وظهرن فى أجمل حليهن ، وارتدت قطر الندى ثوباً من الحرير الأبيض ، ووضع على رأسها إكليل من الذهب وطرحة مرصعة بالجواهر ، وعلى أذنيها قرط ثقيل الوزن على شكل حلقة من الذهب ، وفى أصابعها الخواتم ، وفى معصمها سوار من الذهب المرصع بالجواهر ، وزين وجهها بالأصباغ المختلفة ، فبدت فى أحسن زينة .

ومد السماط ، وزين بالأزهار ذات الرائحة الزكية والألوان المختلفة . وجلست العروس فى صدر السماط ، وجلست أمها عن يمينها وجدتها مياس عن يسارها . ووضع فى طرفى السماط قطعتان كبيرتان من الحلوى ، وعليه صحاف ملأى بألوان الطعام المختلفة ، من بينها : لحم الضأن ، ولحم الجدى ، والدجاج ، والفطائر ، والفالوذج (٢) واللوزينج والقطائف والهرائس والفواكه ، وقد ظهر منها المشمش ، والبرتقال والموز والكمثرى والعنب . وأمر خمارويه بفتح أبواب مطابخه ، وبذبح البقر والغنم وتوزيعها على الناس فى القدور الفخار والقصاع .

ولما عزمت قطر الندى على الرحيل ، خرج الموكب من قصر خمارويه مخترقاً مدينة القطائع التى اشترك أهلها فى توديع ابنة خمارويه الذى تقدم الموكب ، يحفه حرسه المختار يلبسون الأقبية ويتقلدون السيوف المحلاة بالذهب ، وهو ممتط فرسه الأشهب ، متقلد سيفاً بحمائل ، تكسوه الهيبة ، ويتبعه جيشه من المصريين والأتراك يحملون الدروع والسهام ، ومن السودانيين يرتدون الأردية والعمائم السود .

ولما وصلت قطر الندى إلى بغداد نزلت فى قصر صاعد ، وأقيمت الحفلات ودعيت النساء من علية القوم ، وكن يرتدين أفخر الثياب ويتزين بأنفس الحلى . ومدت الأسمطة ، وعليها ألوان الطعام ، على النحو الذى مدت به فى مصر ، وأحضرت القيان والمغنيات .

وكان من أثر هذا الزواج أن ولى الخليفة المعتضد خمارويه جميع البلاد الممتدة من الفرات إلى برقة ، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء ، وخلع عليه اثنتى عشرة خلعة وسيفا وتاجا ووشاحا .

هذا ولم يحفل المؤرخون بنقل صور من الحفلات الشعبية للزواج وغيره . ولكن هذا يفهم ضمنا مما نقلوه من صور الحفلات الملكية ، لأن ما يفعله الملوك تحتذيه الشعوب فى صور متفاوتة على حسب أقدارهم ومنازلهم . وما زال الناس فى كل عصر يقلدون الرؤساء وكبار الناس وينسجون على منوالهم فى مظاهر حياتهم . والناس على دين ملوكهم .

(١) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (طبعة مرجليوث) ص ٢٦٢

(٢) وهى حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل ، معربة عن « پالوذة » .

٨ — أنواع التسلية

كان الناس فى هذا العصر يتلهون بلعبة الشطرنج التى عرفها المسلمون فى عهد الرشيد ثم انتشرت بين العرب . وكانوا يلعبون على قطعة مربعة حمراء من أدم . وقد نقل المسعودى[١] عن الجاحظ أن ما اتفق عليه الناس من صور رقعة الشطرنج ست صور ، ظهر منها فى عهد الراضى الجوارحية ، نسبة الى الجوارح . وتتألف رقعتها من سبعة أبيات فى ثمانية ، وأمثلتها اثنا عشر فى كل جهة منها ستة ، كل واحد من الستة يسمى باسم جارحة من جوارح الإنسان التى يميز وينطق ويسمع ويبصر ويبطن ويسعى ، وهى سائر الحواس ، والخامس المشترك ، وهو الذى من القلب .

وكذلك كان النرد من الألعاب التى اعتاد الناس أن يتلهوا بها فى العصر العباسى الأول . ويستعمل فى اللعب به ثلاثون حجرا وفصان ، على رقعة رسم اثنا عشر منزلا أو أربعة وعشرون منزلا . وقد شبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لسا كنها ، ومنازل الرقعة بساعات الليل والنهار ، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل ، وما يخرج من الفصين إذا رمى بهما بالقضاء الجارى على العباد .[٢] والمشهور أن الشطرنج اختراع هندى وأن النرد من اختراع الفرس .

وكان سباق الخيل من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والأمراء والولاة وكبار رجال الدولة فى هذا العصر . وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة ، على ألا يكون وسيلة للحصول على المال ، لما فيه من تهيئة الناس لركوب الخيل عند الحرب . وبلغ من شغف الناس بالسباق أن كان السابق يستولى فى بعض الأحيان على الحصان المسبوق .[٣]

وقد ورد فى المسعودى[٤] وصف شائق لخيل السباق والشروط التى يجب أن تتوافر فيها . وقد وصف تاج الدولة أبو الحسين أحمد بن عضد الدولة الصيد بالفهود فى هذه القصيدة التى رواها الثعالبى[٥] فقال :

سرنا مع الصباح بالفهود ... مردفة فوق متون القود
قد وطئت توطئة المهود ... بالقطف[٦] والجلال واللبود[٧]
فهى كقوم فوقها قعود ... قد ألبست وشيا على الجلود
يخالها الناظر كالأسود ... تبكى لشبل ضائع فقيد
بأدمع على الخدود سود ... فقابلت مرادها فى البيد
وقطعت حبائل المسود[٨] ... تفوت لحظ الناظر الحديد

---

(١) مروج الذهب جـ٢ ص ٥٢١ — ٥٢٢ .
(٢) أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٣٢٣ .
(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢١٥ ، سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٩٣ .
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٣٥ .
(٥) يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢٠٠ (٦) جمع قطيفة .
(٨) جمع لبد وهو ما يوضع على ظهر الحصان. (٨) المسود حبل ليف مضفور

ركضنا إلى اقتناص كل رود[١] فكم بها من هالك شهيد
معفر الخد على الصعيد بنحسها تظل فى السعود
جدنا بها والجود بالموجود فكثرت ولائم الجنود
وشبت النار بالوقود

وكانت السباحة والمصارعة من أهم أنواع التسلية عند العباسيين . ففى عهد الخليفة المستكفى (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ) « انهمك شباب بغداد فى تعلم المصارعة والسباحة ، حتى صار السباح يسبح وعلى يده كانون ، وفوقه قدرة ، فيسبح حتى ينضج اللحم[٢] » . وقد جعل أحمد بن طولون فى قصره بمدينة القطائع ميدانا فسيحا يضرب فيه بالصوالجة ، وهى لعبة الكرة المعروفة عند الإنجليز وغيرهم باسم پولو ، وهى شبيهة بلعبة كرة القدم[٣] .

وقد عنى أحمد بن طولون بحلبات السباق ، فبنى مكانا لعرض الخيل سماه « المنظر » . ووصف القضاعى المؤرخ هذا العرض ، فقال إنه من عجائب الإسلام الأربعة وهى : هذا العرض ، ورمضان بمكة ، والعيد بطرسوس ، والجمعة ببغداد . وأضاف هذا المؤرخ أنه بقى منها فى أيامه شهر رمضان بمكة ، والجمعة ببغداد ، وقل الاهتمام بالاحتفال بيوم الجمعة ببغداد بعد استيلاء هولاكو التتارى عليها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م[٤]) .

وكانت حلبة السباق عند الطولونيين بمثابة الأعياد ، لما كان يصحبها من إقامة معالم الزينة ، وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة التامة . وفى هذه الحلبات يجلس الناس لمشاهدة السباق ، كما جرت عادتهم بمثل ذلك فى الاحتفال بالأعياد . فإذا جاء وقت السباق ، أطلقت الخيل إلى غايتها ، فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضا حتى نهاية الشوط .

وقد أولع خمارويه بالصيد ولعا شديداً ، فكان يخرج فى جهات الأهرام والعقاب وغيرها ، ولا يكاد يسمع بسبع إلا قصده فى صحبة رجال عليهم اللبود ، فيدخلون فى الغابة ويتناولون الأسد بأيديهم وهو سليم ، ثم يضعونه فى قفص من الخشب محكم الصنعة يسعه وهو قائم . فإذا عاد خمارويه من صيده حمل بين يديه القفص الذى فيه السبع ، واجتمعت العامة لمشاهدة السبع[٥] .

وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمى ، كخمارويه بن أحمد بن طولون ، مشغوفا بجوارح الطير الغريبة ، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان . وكان مغرما أيضا بالصيد ، وخاصة صيد السباع[٦] . وولع بعض الخلفاء الفاطميين بالصيد ؛ وكان الخليفة الآمر يعطى الرهبان فى دير نهيا[٧] بالقرب من الجيزة عشرة آلاف درهم كلما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير[٨] .

---

(١) أى كل حسناء .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٤
(٣) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣١٥
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣١٨ — ٣١٩ .
(٥) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣١٨ .
(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٠٠
(٧) وصف الشابشتى (Aziz Suryal Atiya : Some Egyptian) Monasteries According to the Unpublished Ms. of al — Shabushti's Kitab Al—Diyarat, p. 17) أن دير نهيا بالجيزة « من أحسن الديارات وأنزهها وأطيبها ، عامر برهبانه وسكانه . وله فى النيل منظر عجيب ، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته . فاذا انصرف الماء وزرع ، أظهرت أراضيه غرايب النوار وأصناف الزهر ، فهو من المتنزهات الموصوفة والبقاع المشهورة . وله خليج يجتمع إليه ساير الطيور ، فهو أيضا متصيد حسن » .
(٨) أبو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ص ٧٧ — ٧٨ ، وناصر خسرو : Nasir - i Khusrau : Safar Nameh, pp. 155— 6 . أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٢١٧ ، ٢٤٦ .

مصادر الكتاب

نورد فى الثبت الآتى أهم مصادر الكتاب ، وقد رتبت أسماء المؤلفين على حسب أحرف الهجاء ، مع ذكر سنة وفاة المؤلف .

ابن الأثير (٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) : على بن أحمد بن أبى الكرم

١ — « الكامل فى التاريخ » ١٢ جزءا (بولاق ١٢٧٤ هـ)

الإدريسى (٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م) : محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوى

٢ — « نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان » (روما ١٥٩٢)

أرنولد : Arnold : Sir Thomas W. سير توماس و.

٣ — « The Preaching of Islam, » 3 rd. ed. by Reynold A. Nicholson (Lond. 1935).

٤ — « The Caliphate » (Oxford, 1924).

الأشعرى (٣٢٤ هـ = ٩٣٦ م) : الإمام أبو الحسن على بن إسماعيل

٥ — « مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين » ، نشره ريتر (اسطنبول ١٩٢٩)

الأصفهانى (٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م) : أبو الفرج

٦ — « كتاب الأغانى » ٢١ جزءا (القاهرة ١٢٨٥ هـ) ، (القاهرة ١٩٢٧ — ١٩٣٦)

ابن أبى أصيبعة (٦٦٧ هـ = ١٢٧٠ م) : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجى

٧ — « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » جزءان (القاهرة ١٢٩٩ — ١٣٠٠ هـ)

أمارى : ميشيل Amari : Michel.

٨ — « مكتبة صقلية العربية » Biblioteca Arabo—Sicula فى جزئين

أمدروز : هـ . ف . Amedroz : H. F.

٩ — « Three Years of Buwaihid Rule in Baghdad, A. H. 389—393 .Being a fragment of the History of Hilal — as — Sabi (+ A. H. 448) from a MS. in the Library of the British Museum.

أمير على : سيد Ameer Ali : Sayed

١٠ — « A Short History of the Saracens » (Lond. 1921)

«مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى» (القاهرة ١٩٣٨) نقله الى العربية : رياض رأفت

أوتيخا (٣١١ هـ = ٩٢٩ م) : سعيد بن البطريق

١١ — « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » (بيروت ١٩٠٩)

أوليرى : دى ليسى O' Leary, de Lacy

١٢ — « A Short History of the Fatimid Khalifate » (Lond. 1923).

بارتولد : ف Bartold : F

١٣ — « تاريخ الحضارة الإسلامية » ، نقله الى العربية حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٢)

بالمر : Palmer :

١٤ — « Haroun al — Raschid (Lond. 1881)

باون : هارولد Bowen : Harold

١٥ — « The Last Buwayhids », J.R. A. S. (April, 1929), pp. 225 — 45.

البحترى (٢٨٥ هـ = ٨٩٨ م) : أبو عبادة الوليد القحطانى

١٦ — « ديوان البحترى » (القسطنطينية ١٣٠٠ هـ)

بديع الزمان (٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) : أحمد بن محمد

١٧ — « رسائل بديع الزمان الهمذانى »، شرح الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسى (بيروت ١٨٩٠)

براون : إدوارد ج . Browne : Edward G.

١٨ — « A Literary History of Persia » (From the Earliest Times until Firdawsi) 4 vols. Vol. I (London, 1909), Vol. II. (London,1906) .

١٩ — « The Chahar Maqala (Four Discourses) of Nidhami —*i*— Samarqandi », trans. from Persian (Lond. 1899).

بروكلمان : كارل . Brockelmann : Carl.

٢٠ — « Geschichte der Arabischer Litteratur » 2 vols . (Weimar , 1898 — 1902)

ابن بسام (٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م) : أبو الحسن على الشنترينى

٢١ — « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، نشرت الأجـزاء الأربعة الأولى منه (القاهرة ١٣٥٨ — ١٣٦٤ هـ = ١٩٣٩ — ١٩٤٥ م)

البغدادى (٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبد القادر بن طاهر

٢٢ — « الفرق بين الفرق » (القاهرة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م)

البكرى (٤٨٧ هـ = ١٠٩٧ م) : أبو عبيد الله بن عبد العزيز

٢٣ — « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » (باريس ١٩١١ م)

البلاذرى (٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) : أحمد بن يحى بن جابر

٢٤ — « فتوح البلدان » (القاهرة ١٣١٨ هـ)

البلخى (٣٢٢ هـ = ٩٣٣ — ٩٣٤ م) : أبو زيد بن سهل

٢٥ — « كتاب البدء والتاريخ » وينسب حقيقة الى مطهر بن طاهر المقدسى ، ستة أجزاء

دى بور : ت . ج . De Boer : T.J.

٢٦ — « تاريخ الفلسفة فى الإسلام »، نقله الى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م)

البيرونى (٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) : أبو الريحان محمد بن أحمد

٢٧ — « الآثار الباقية عن القرون الخالية » (طبعة إدوارد سخاو) ليبزج سنة ١٨٧٨، ١٨٧٩.
وترجمه إلى الإنجليزية وعلق عليه إدوارد سخاو بعنوان:
The Chronology of Ancient Nations (London,1879).

بيمونت ومونود Bemont et Monod :

٢٨ — « Histoire de l'Europe au Moyen Age (395—1270) » (Paris,1921) .

التنوخى (٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م) : أبو على المحسن بن على بن محمد بن أبى الفهم

٢٩ — « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » (القاهرة ١٩١٨ — ١٩٢١) ، ترجمه إلى الإنجليزية د . س . مرجليوث (لندن ١٩٢٢)

تيمور : المغفور له أحمد باشا

٣٠ — « التصوير عند العرب » نشره وعلق عليه الدكتور زكى محمد حسن (القاهرة ١٩٤٢)

٣١ — « نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها » (القاهرة ١٣٥١ هـ)

الثعالبي (٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبد الملك
٣٢ — « يتيمة الدهر » ، أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م)
الجاحظ (٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م) : أبو عثمان عمرو بن بحر
٣٣ — « كتاب التاج فى أخلاق الملوك » (القاهرة ١٣٣٢ هـ = ١٩٢٤ م)
حققه المرحوم أحمد زكى باشا .
٣٤ — « كتاب البيان والتبيين » ، أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٢٨)
٣٥ — « كتاب التبصر بالتجارة » ، الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م)
نشره وصححه وعلق عليه السيد حسن حسنى عبد الوهاب التونسى .
٣٦ — ثلاث رسائل نشرت فى كتاب (القاهرة ١٣٤٤هـ) : الأولى فى الرد على النصارى ، والثانية فى ذم أخلاق الكتاب ، والثالثة فى القيان .
Gibbon : Edward. جبون : إدوارد
٣٧ — " The History of the Decline and Fall of the Roman Empire," 7 vols. ed. by G. B. Bury.
٣٨ — الجهشيارى (٣٣١ هـ = ٩٤٢ م) : أبو عبد الله محمد بن عبدوس
« كتاب الوزراء والكتاب » (القاهرة ١٩٣٨)
حققه ونشره الاساتذة مصطفى السقا ، وابراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبي
De Gobineau : دى جوبينو
٣٩ — " Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale (Paris, 1865).
Goldziher : Ignaz جولدتسيهر : إجنتس
٤٠ — « المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن »
ترجمه الدكتور على حسن عبد القادر (القاهرة ١٣٦٣ هـ = ١٩٤٤ م)
٤١ — " Vorlesungen über den Islams " (2nd ed., Heidelberg, 1910). trans. into French by Félix Arin under the title «Le Dogme et la Loi de l'Islam» (Paris, 1920)
Guyard : S. جويار : س
٤٢ — " Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis (Paris, 1874)
Hitti : Philip K. حتى : فيليب .ك.
٤٣ — " History of the Arabs " (London, 1940 , 1944) .
٤٤ — " The Origins of the Druze People and Religion " (Columbia, 1928).
ابن حزم (٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م) : أبو محمد على بن أحمد
٤٥ — « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ٣ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ)
حسن ابراهيم حسن :
٤٦ — « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢)
٤٧ — السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية » تأليف فان فلوتن Van Vloten ، ترجمه وعلق عليه بالاشتراك مع الشيخ محمد زكى إبراهيم (القاهرة ١٩٣٣)
٤٨ — « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » تأليف أدولف جروهمان ، وجه المؤلف الى العربية وعلق عليه . الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٤) ، وترجمة الجزء الثانى تحت الطبع .
٤٩ — « تاريخ الإسلام السياسى » الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥) والطبعة الثانية تظهر قريبا فى تسعة أبواب بدلا من خمسة
« تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ، الجزء الثانى (القاهرة ١٩٤٥) ، والجزء الثالث (القاهرة ١٩٤٦)
٥٠ — « النظم الإسلامية » بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن (القاهرة ١٩٣٩) .

٥١ — « مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى » ، بحث مستخرج من « كتاب المجمل فى التاريخ المصرى » (القاهرة ١٩٤٢) ص ١٢٧ — ٢٢٩) والطبعة الثانية من الكتاب ستظهر قريبا

٥٢ — « كافور الإخشيدى » ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول ، مايو ١٩٤١

٥٣ — « انتشار الإسلام فى الهند » ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول ، مايو ١٩٤٤

ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله

٥٤ — « كتاب المسالك والممالك » ، طبعة دى غويه (ليدن ١٨٨٩) ، وبذيله نبذ من كتاب « الخراج وصنعة الكتابة لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى »

الخضرى : محمد

٥٥ — « تاريخ الدولة العباسية » (القاهرة ١٩١٦)

الخطيب البغدادى (٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ — ١٠٧١م) : الحافظ أبو بكر أحمد بن على

٥٦ — « تاريخ بغداد أو مدينة السلام » ١٤ جزءا (القاهرة ١٣٤٩ هـ = ١٩٣١ م)

الخفاجى : شهاب الدين أحمد

٥٧ — « شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل (القاهرة ١٢٨٢ هـ)

ابن خلدون (٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد

٥٨ — « مقدمة ابن خلدون » (بيروت ١٨٨٦م) ، ونسخة مخطوطة بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٥

٥٩ — « العبر وديوان المبتدا والخبر » ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ)

ابن خلكان (٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى

٦٠ — « وفيات الأعيان » جزءان (بولاق ١٢٨٣ هـ) ، (المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠هـ) — ترجمه إلى الانجليزية دى سلان De Slane (باريس ١٨٤٢ — ١٨٤٨)

حاجى خليفة (١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م) : مصطفى كاتب شلبى

٦١ — « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » . طبع النسخة العربية وترجمها إلى الألمانية ج . فلوجل G. Flügel (ليبسك ولندن ١٨٣٥ — ١٨٥٨)

الحمادى اليمانى (من فقهاء السنة فى اليمن فى أواخط القرن الخامس الهجرى) : محمد بن مالك بن أبى الفضائل

٦٢ — « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » (مطبعة الأنوار ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م)

الخوارزمى (٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) : أبو بكر محمد بن العباس

٦٣ — « رسائل الخوارزمى » (القسطنطينية ١٢٩٧ هـ)

الخوارزمى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب

٦٤ — « كتاب مفاتيح العلوم » صنفه سنة ٣٦٦ هـ (القاهرة ١٣٤٤ هـ) ، (ليدن ١٨٩٥م)

الخياط (توفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى) : أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان المعتزلى

٦٥ — « كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد » ، مع مقدمة وتحقيق وتعليقات للدكتور نيبرج (القاهرة ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٥م)

ابن دقاق (٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ — ١٤٠٧ م) : إبراهيم بن محمد المصرى

٦٦ — « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » الجزءان الرابع والخامس (القاهرة ١٣٠٩ هـ = ١٨٩٣ م)

دوزى : ر.ب.ا Dozy : R. P. A.

٦٧ — « Histoire des Musulmans d'Espagne » (Leyden, 1861), trans. into English by F. G. Stokes «The Moslems in Spain» (London, 1913).

٦٨ — « Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes » (Amsterdam, 1845).

٦٩ — " Supplément au Dictionnaires Arabes", 2 vols. (Leyden, 1881).

٧٠ — " Essai sur l'Histoire de l'Islamisme", trans. du Hollandais par Victor Chauvin (Leyden—Paris, 1879).

الدينورى (٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) : أبو حنيفة أحمد بن داود

٧١ — « الأخبار الطوال » جزءان (ليدن ١٨٨٨)

« رسائل الحاكم بأمر الله »

٧٢ — كتبها كثير من دعاة الفاطميين فى سنة ٤٠٨ هـ ، وهى مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة (مذهب الشيعة رقم ٢٠)

الرضى (٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م) : الشريف أبو الحسن محمد بن موسى

٧٣ — « ديوان الشريف الرضى » (بيروت ١٣٠٧ هـ)

ابن الرومى (٢٨٣ هـ = ٨٩٦ م) : أبو الحسن على بن العباس

٧٤ — « ديوان ابن الرومى » ثلاثة أجزاء ، نشره كامل كيلانى (القاهرة ١٩٢٤)

زكى محمد حسن :

٧٥ — « الفن الإسلامى فى مصر » ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥)

٧٦ — « الفنون الإسلامية فى العصر الإسلامى » (القاهرة ١٩٤٠)

٧٧ — « كنوز الفاطميين » (القاهرة ١٩٤٠)

ابن زولاق (٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م) : أبو محمد الحسن بن إبراهيم

٧٨ — « العيون الدعج فى حلى دولة بنى طفج » ، نشره ابن سعيد المغربى (٦٧٣هـ=١٢٧٥م) فى كتاب المغرب فى حلى المغرب (ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩ م)

زيدان : جرجى

٧٩ — « تاريخ التمدن الإسلامى » ، خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦)

دى ساسى : س De Sacy, Silvestre :

٨٠ — «Exposé de la Religion des Druzes, précédé d'une Introduction et de la Vie du Khalife Hakim-Biamr-allah», 2 vols. (Paris, 1838).

٨١ — «Chrestomathie Arabe», 3 vols. (Paris, 1826—27).

٨٢ — «Recherches sur l'initiation à la Secte des Ismaéleens», Journal Asiatique, 1824.

لى سترينج : جاى Le Stange : Guy.

٨٣ — Baghdad During the Abbasid Caliphate (Oxford, 1924).

ابن سعيد (٦٧٣ = ١٢٧٥ م) : على بن موسى المغربى

٨٤ — « المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق » (ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩ م)

السلاوى : الشيخ أحمد بن خالد الناصرى

٨٥ — « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » ، فى أربعة أجزاء (القاهرة ١٣١٠ — ١٣١٢هـ)

السيوطى (٩١١ هـ = ١٦٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين

٨٦ — « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة » (القاهرة ١٣٥١ هـ)

٨٧ — « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ) . ترجمه إلى الإنجليزية ميجر هـ . س . جاريت Major H. S. Jarrett (كلكتا ١٨٨١ م)

٨٨ — « تفسير الجلالين » أربعة أجزاء

الشابشتى (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) : أبو الحسن على بن محمد

٨٩ — « كتاب الديارات » (مخطوط بمكتبة برلين Weimar, 1100) . وقد نشر الدكتور عزيز سوريال عطية الجزء الخاص « بديارات مصر التى يقصد للشرب فيها والتنزه بها »، وترجمها إلى الإنجليزية Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologie copte, t. v. (1939).

شتاينجاس : ف Steingass : F.

٩٠ — " Persian English Dictionary (Lond., 1930)

أبو شجاع (٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م) : محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم الوزير ظهير الدين الروذراورى

٩١ — « ذيل كتاب تجارب الأمم » ، نشره هـ . ف . أمدروز ، وترجمه إلى الإنجليزية د . س . مرجليوث (أكسفورد ١٩٢١)

شكيب أرسلان : الأمير

٩٢ — « تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط » (القاهرة ١٣٥٢ هـ)

الشهرستانى (٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم

٩٣ — « الملل والنحل » ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ)

الشيرازى (٤٧٠ هـ = ١٠٧٧ م) : المؤيد فى الدين هبة الله

٩٤ — « السيرة المؤيدية » ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة رقم ٢٦٠٥٦

الصولى (٣٣٥ هـ = ٩٤٦ م) : أبو بكر محمد بن يحى

٩٥ — « كتاب الأوراق » ، قسم أخبار الشعراء ، نشره ج . هيورث دن (القاهرة ١٩٣٤)

٩٦ — « أخبار الراضى بالله والمتقى لله » أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢ هـ إلى سنة ٣٣٣ هـ، نشره ج . هيورث دن (القاهرة ١٩٣٥)

٩٧ — « أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم » ، نشره ج . هيورث دن (القاهرة ١٩٣٦)

ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى

٩٨ — « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » (القاهرة ١٩٢٣)

الطبرى (٣١٠ هـ = ٩٢٢ م : أبو جعفر محمد بن جرير

٩٩ — « تاريخ الأمم والملوك » (طبعة دى غويه — ليدن ١٨٨١ م) ، (القاهرة ١٣٢٦ هـ)

١٠٠ — « تفسير محمد بن جرير الطبرى » فى ثلاثين مجلدا

١٠١ — « اختلاف الفقهاء » ، نشر يوسف شخت بعض أجزاء من هذا الكتاب تحت عنوان « كتاب الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لمحمد بن جرير الطبرى » (ليدن ١٩٣٣)

طه حسين بك

١٠٢ — « حديث الأربعاء » (القاهرة ١٩٢٥ م)

١٠٣ — « ذكرى أبى العلاء » (القاهرة ١٣٣٤ هـ = ١٩١٥)

الطوسى (٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ — ١٠٦٨ م) : محمد بن الحسن

١٠٤ — « فهرست كتب الشيعة » (كلكتا ١٨٥٥ م م)

طيفور (٢٨٠ هـ = ٨٩٣ — ٨٩٤ م) : أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر

١٠٥ — « تاريخ بغداد » الجزء السادس ، طبعة هـ . كار (H. Keller.) (لايبسك ١٩٠٨)

ابن عبد ربه (٣٤٩ هـ = ٩٤٠ م) : شهاب الدين أحمد

١٠٦ — « العقد الفريد » ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٨ م)

العتبي (٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ م) : أبو نصر محمد بن عبد الجبار

١٠٧ — « تاريخ اليميني » في جزئين (القاهرة ١٢٨٦ هـ) ، وبه شرح الشيخ أحمد بن علي الحنفي المنيني المتوفى سنة ١١٧٢ هـ) ، وسماه « الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي »

ابن عذارى (توفى في أواخر القرن السابع الهجرى) : أبو عبد الله محمد المراكشي

١٠٨ — « البيان المغرب في أخبار المغرب » نشره دوزي في ثلاثة أجزاء (ليدن ١٨٤٨—١٨٥١م وباريس ١٩٣٠)

عريب بن سعد (٣٦٦ هـ = ٩٧٦ — ٩٧٧ م) : القرطبي

١٠٩ — « صلة تاريخ الطبري » طبعة دي غوته (ليدن ١٨٩٧ م) ، القاهرة ١٣٢٠ م)

علي إبراهيم حسن : الدكتور

١١٠ — « تاريخ جوهر الصقلي » (القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٣ م)

١١١ — « دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص » (القاهرة ١٩٤٤)

علي حسن عبد القادر : الدكتور

١١٢ — « نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي » ، الجزء الأول (القاهرة ١٣٦١هـ=١٩٤٢م)

العمري (٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م) : شهاب الدين أحمد بن فضل الله

١١٣ — « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ، نشره وعلق عليه أحمد زكي باشا (القاهرة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م)

ابن العميد (٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م) الشيخ المكين جرجس بن العميد

١١٤ — « تاريخ المسلمين » (١٦٢٥ م)

العيني (٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م) بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى

١١٥ — « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ

الغزالي (✕ ٥٠٥ هـ = ١١١١ م) الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد

١١٦ — المنقذ من الضلال » (دمشق ١٣٤٣ هـ = ١٩٣٤ م)

١١٧ — « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » (القاهرة ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م)

١١٨ — « فضائح الباطنية » نشره جولدتسيهر (ليدن ١٩١٦)

دي غوية : م . ج De Goeje : M. G.

١١٩ — " Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides (Leyden, 1886).

ثاسيل إف ا . ا . Vasil, Ev. A. A.

١٢٠ — " Cambridge Mediaeval History," vol. IV. pp. 138-52.

أبو الفدا (٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) : إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه

١٢١ — « المختصر في أخبار البشر » ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ) ، (القاهرة ١٣٢٥م)

فنلي : جورج Finlay : George

١٢٢ — "History of the Byzantine Empire (716-1507 A. D.)" (London, 1856).

ابن قتيبة (٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) : أبو محمد عبد الله بن سلم .

١٢٣ — « المعارف » (١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م)

١٢٤ — « عيون الأخبار » أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٤٣ — ١٣٤٨ هـ)

قدامة (٢٣٧ هـ = ٩٤٨ م) : أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادى

١٢٥ — « نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة » (طبعة دى غويه — ليدن ١٨٨٩)

القزوينى (٦٢٨ هـ = ١٢٨٣ م) : أبو عبد الله زكريا الأنصارى

١٢٦ — « آثار البلاد وأخبار العباد » (جوتنجن ١٨٤٨ م)

القفطى (٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م) : جمال الدين على بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب

١٢٧ — « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » (ليبسك ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٣)

ابن القلانسى (٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) : أبو يعلى حمزة

١٢٨ — « ذيل تاريخ دمشق » ، مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارقى ، وسبط ابن الجوزى ، والذهبى (بيروت ١٩٠٨م)

القلقشندى (٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد

١٢٩ — « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧ م)

الكتبى (٧٦٤ هـ = ١٣٦٢ — ١٣٦٣ م) : محمد بن شاكر بن أحمد الحلبى

١٣٠ — « فوات الوفيات » ، جزءان (القاهرة ١٢٩٩ هـ)

كريزول : ك . ا . Creswell : K. A. C.

١٣١ — "Early Muslim Archictecture" 2 vols. (Oxford, 1930 and 1938).

كريمر : ألفرد فون Kremer : Alfred Von.

١٣٢ — "Culturgeschichte des Orients unter den chalifen" 2 vols. (Vienna, 1875), trans. by S. Khuda Bukhsh "The Orient under the Caliphs (Calcutta, 1920).

كشاجم : أبو الفتح محمود

١٣٣ — « ديوان كشاجم » . مخطوط ملك الأستاذ مصطفى السقا

الكندى (٣٥٠ هـ = ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف

١٣٤ — « كتاب الولاة وكتاب القضاة » (طبعة روفن جست) Rhuvon Guest, E. J. W. Gibb Memorial Series (London, 1912)

لويس : برنارد Lewis : Bernard.

١٣٥ — "The Origins of Ismailism" (Cambridge, 1940),

لينپول : ستانلى Lane-Poole : Stanley.

١٣٦ — "The Muhammadan Dynasties" (Paris, 1925)

١٣٧ — "The Moors in Spain" (London, 1887).

١٣٨ — "A History of Egypt in the Middle Ages" (Lond., 1924).

١٣٩ — "The Moors in Spain" (Lond., 1887).

ترجمه الى العربية على الجارم بك (القاهرة ١٩٤٤)

ماسنيو : لوى Massignon : Louis

١٤٠ — «La Passion D'Al-Hosayn-Ibn-Mansour Al-Hallaj,» 2 vols. (Paris, 1922).

مامور : الأمير Mamour : Prince

١٤١ — "Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs (Lond., 1934).

الماوردى (٤٥٠ هـ = ١٠٥٧ م) : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى

١٤٢ — « الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٨ هـ)

متز : آدم Metz : Adam.

١٤٣ — "The Renaissance of Islam", trans. into English by S. Khuda Bukhsh and D.S. Margoliouth (London, 1939).

وترجمه إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريده ، فى جزئين (القاهرة ١٣٥٩ — ١٣٦٠ هـ = ١٩٤٠ — ١٩٤١ م)

المتنبى (٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م) : أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفى

١٤٤ — « ديوان المتنبى » نشره وشرحه عبد الرحمن البرقوقى (القاهرة ١٣٤٨ هـ = ١٩٣٠ م)

المدور : جميل نخله

١٤٥ — « حضارة الإسلام فى دار السلام » (القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م)

أبو المحاسن (٨٧٤ هـ = ١٤٦٩ م) : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى

١٤٦ — « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » جزءان (طبعة جوينبل ، وليم پوپر) (ليدن ١٨٥١ — ١٨٥٥ م) ، ج ١ — ٩ (طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٣٤٨ — ١٣٦١ هـ = ١٩٢٩ م — ١٩٤٢ م)

المراكشى (٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ — ١٢٧١ م) : محيى الدين أبو محمد عبد الواحد بن على التميمى

١٤٧ — « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » (طبعة دوزى ، ليدن ١٨٨١) ، وترجمه وشرحه ا٠ فانيان E. Fagnan (الجزائر ١٨٩٣)

ابن المرتضى (٣٢٥ هـ = ٩٢٦ — ٩٣٧ م) : المهدى لدين الله أحمد بن يحيى

١٤٨ — « باب ذكر المعتزلة » من كتاب المنية والأمل ، طبعة الهند

المسعودى (٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م) : أبو الحسن على بن الحسين بن على

١٤٩ — « كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر » جزءان (القاهرة ١٣٤٦ هـ) ، وترجمه الى الفرنسية باربيه دى مينار Barbier de Meynard تحت عنوان Prairies d'Or (باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧)

١٥٠ — « كتاب التنبيه والإشراف » (طبعة دى غويه — ليدن ١٨٩٧)

مسكويه (٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م) : أبو على أحمد بن محمد

١٥١ — « كتاب تجارب الأمم » ، جزءان ، نشره هـ ف. أمدروز (القاهرة ١٣٣٢ — ١٣٣٣ هـ = ١٩١٤ — ١٩١٥ م) ، وترجمه إلى الانجليزية د. س. مرجليوث (أكسفورد ١٩٢١).

وذيله أبو شجاع وهلال الصابى (الجزء الثالث) القاهرة ١٣٣٤ هـ = ١٩١٦ م)

مسلم (٢٦١ هـ = ٨٧٥ م) : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى

١٥٢ — « الجامع الصحيح » ٨ أجزاء (القاهرة ١٣٢٩ — ١٣٣٢ هـ)

المعرى (٤٤٩ = ١٠٥٧ م) : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان

١٥٣ — « سقط الزند » (القاهرة ١٣١٩ هـ) ، (بولاق ١٢٨٦ هـ) فى جزئين

١٥٤ — « لزوم مالا يلزم » (القاهرة ١٨٩١ م)

١٥٥ — « آثار أبى العلاء المعرى » ، الجزء الأول ، باشراف الدكتور طه حسين بك (القاهرة ١٣٦٣ هـ = ١٩٤٤ م)

المقدسى (٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م) : شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعى المقدسى المعروف بالبشارى ٠

١٥٦ — « أحسن التقاسيم فى معرفه الأقاليم » طبعة دى غويه (ليدن ١٨٧٧)

المقدسى : أنيس

١٥٧ — « تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى » ، الجزء الأول (بيروت ١٩٣٥)

١٥٨ — « أمراء الشعر العربى » الطبعة الثانية (بيروت ١٩٣٦)

المقريزى (٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) : تقى الدين أحمد بن على

١٥٩ — « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » جزءان (القاهرة ١٢٧٠ هـ) .

١٦٠ — « اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا » (بيت المقدس ١٩٠٨)

المقّرى (١٠٤١ هـ = ١٦٣٣ م) : شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

١٦١ — « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » أربعة أجزاء (بولاق ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢م)

١٦٢ — « أزهار الرياض فى أخبار عياض » ثلاثة أجزاء ، ضبطه وحققه وعلق عليه الأساتذة مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى (القاهرة ١٣٥٨ — ١٣٦٠ هـ = ١٩٣٩ — ١٩٤١ م)

ابن منجب (٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م) : أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على الصيرفى المصرى .

١٦٣ — « الإشارة إلى من نال الوزارة » (القاهرة ١٩٢٤ م)

ميجون : ج . Migeon : G

١٦٤ — "Manuel d'Art Musulman", 2 vols. (Paris, 1927).

ميور : وليام تمپل Muir : William Temple

١٦٥ — "The Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall (Edinburgh, 1925)."

ابن ميسر (٦٧٧ هـ = ١٢٧٨ م) : محمد بن على بن يوسف بن جلب

١٦٦ — « تاريخ مصر » طبعة هنرى ماسيه (Henri Massé) (القاهرة ١٩١٩ م)

ناصر خسرو (٤٨١ هـ = ١٠٨٨ م) :

١٦٧ — سفر نامه (Safar Naméh) "Relation du voyage de Nasiri Khosrau en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse", trans. from Persian by Charles Schefer (Paris, 1881).

ابن النديم (٣٨٣ هـ = ٩٩٣م) : محمد بن اسحق

١٦٨ — « كتاب الفهرست » جزءان (لايبسك ١٨٧١ م) ، (القاهرة ١٣٤٨ هـ)

النسيبى :

١٦٩ — « كتاب مطالب السول فى غزوات الرسول » مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٩٧٩

النعمان (٣٦٣ هـ = ٩٧٣ م) : أبو حنيفة المغربى

١٧٠ — « المجالس والمسايرات » ، ثلاثة أجزاء ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة رقم ٢٦٠٦٠

نظام الملك (٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م) .

١٧١ — « كتاب سياسة نامه » Siasset Namèh, Traité de Gouvernement, composé pour le Sultan Melik-châh Par le Vizir Nizam oul-maulk. Texte Persan (ed. by Charles Schefer) 3 vols. (Paris, 1891—1897).

النوبختى (٢٠٢ هـ = ٩١٤ م) : أبو محمد الحسن بن موسى

١٧٢ — « كتاب فرق الشيعة » (استامبول ١٩٣١)

النويرى (٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م) : أحمد بن عبد الوهاب

١٧٣ — « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٠

نيكلسون ا . رينولد Nicholson : A. Reynold

١٧٤ — « Literary History of the Arabs» (Cambridge, 1930)

ابن هانىء (٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م) : أبو القاسم المكنى بأبى الحسن محمد

١٧٥ — « ديوان ابن هانىء » (بيروت ١٣٢٦ هـ) .

هل : يوسف Hell : Joseph.

"The Arab Civilsaiion", trans. from German by Khuda Bukhsh (Cambridge, 1936).

هلال الصابى (٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م) أبو الحسن بن المحسن بن أبى إسحق إبراهيم الكاتب

١٧٦ — « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » ، نشره ه . ف . أمدروز ، وذيله بفهرس ومذكرات (بيروت ١٩٠٤)

١٧٧ — « الجزء الثامن من تاريخ هلال الصابى » (٣٨٩ — ٣٩٣ هـ) ، نشره أمدروز (بيروت ١٩٠٤) ، وذيل به مرجليوث كتاب « تجارب الامم » لمسكويه (القاهرة ١٩١٩)

هيد : و . Heyd : W.

١٨٨ — "Histoire du Commerce du Levant au Moyen—âge" 2 vols. (Leipzig, 1925).

وستنفلد : ف . فون Wüstenfeld : F. Von.

١٧٩ — Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke" (Göttingen, 1882).

ياقوت (٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى

١٨٠ — « معجم البلدان » ١٠ أجزاء (القاهرة ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ م)

١٨١ — إرشاد الأريب إلى معرفه الأديب » ، طبعة ذكرى جب (القاهرة ١٩٠٧ — ١٩١١) .

يحيى بن سعيد الانطاكى (٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م)

١٨٢ — « صلة كتاب أوتيخا » ، جزءان (بيروت ١٩٠٩ م)

اليعقوبى (٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

١٨٣ — « تاريخ اليعقوبى » جزءان (طبعة M. Th. Houtsma ، ليدن ١٨٨٣)

١٨٤ — « كتاب البلدان » ، (طبعة دى غوبه — ليدن ١٨٩٢)

أبو يوسف (١٩٢ هـ = ٨٠٧ — ٨٠٨ م) يعقوب بن ابراهيم

١٨٥ — « كتاب الخراج » (بولاق ١٣٠٢ هـ) و المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦ هـ)

فهارس الكتاب

١ ـ الأعلام

(١) أسماء الرجال :

(ا)

إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل ـ عم نوح ابن نصر السامانى : ١٥٧

إبراهيم بن سيمجور ـ والى خراسان من قبل الحميد نوح بن نصر : ١٥٧

أبو إبراهيم إسماعيل ـ بن نوح السامانى : ١٦١

إبراهيم بن الأغلب : ١٤١ ، ٢٢٤ ، ٢٦٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٩

إبراهيم الثانى الأغلبى : ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٣٥

إبراهيم بن مسعود ـ أخو عبد الرشيد الغزنوى : ١٨٣

إبراهيم بن المرزبان : ١٩٨

إبراهيم بن المقتدر ـ انظر المقتدر العباسى

إبراهيم بن حمدان ـ تولى ديار ربيعه : ٢٠٤

إبراهيم بن ينال ـ أخو طغرلبك : ١٣٢

إبرهمن بن أنندبال ـ قائد هندى : ١٧٠

أتامش ـ من قواد الأتراك : ٣٢

أحمد بن بويه ـ انظر معز الدولة

أحمد بن بكير : ٢٨٤

أحمد بن الحارث اليمانى ـ الشاعر : ٣٢

أحمد بن حنبل : ٣٧٦ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣١ ، ٦١١

أحمد بن خاقان : ٤٥٠

أحمد بن الخصيب ـ وزير المنتصر العباسى : ٢٩ ، ٣٢ ، ٤٣ ، ٣١٩

أحمد بن أبى دؤاد ـ قاضى المعتز : ٢٢ ، ٥٤

أحمد بن أسد السامانى ـ والى فرغانة أيام المأمون : ١٥٢

أحمد بن أبى سعيد : ٣٤٢ ، ٣٤٥

أحمد بن إسماعيل السامانى : ١٥٠ ، ١٥٤

أحمد بن طولون : ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ ، ٤٠١ ، ٤٦٢ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٤ ، ٥٢٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٦٣٧ ، ٦٦٥

أحمد بن عبدالله بن إسحق ـ القاضى : ٨٤ ، ٨٥

أحمد بن على الكوفى ـ استأثر بالنفوذ أيام ناصر الدولة ووزيره أبى العباس أحمد الأصبهانى : ٧٩

أحمد بن عيسى بن الشيخ ـ ثار فى أيام المهتدى : ٣٧

أبو أحمد بن المتوكل ـ انظر الموفق العباسى

أحمد بن محمد الواسطى : ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٤٤١

أحمد بن محمد بن المعتصم ـ انظر المستعين بالله الخليفة العباسى

أبو أحمد الموسوى ـ والد الشريف الرضى : ١٨٨

أبو أحمد الموفق طلحة ـ انظر الموفق طلحة

أحمد بن يحيى ـ المنجم : ٦٤ ، ٧٢

أحمد بن ينال تكين ـ نائب الغزنويين فى فى الهند : ١٧٨

الإخشيد : ٦٨ ، ٧٣ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩

الأخرم حمزة — جهر بتأليه الحاكم : ٣٦٥ ، ٣٦٦
الأخفش الأصغر — أبو الحسن على بن سليمان : ٥٣٨
الأخفش الصغير — النحوى : ٥٧
إدريس بن عبد الله العلوى : ١٤١ ، ٢٧٩ ، ٣٠٢
إدريس الثانى : ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣١٢
أردون الثانى — ملك جليقه : ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٦٦٠ ، ٦٦١
أرسطو : ٣٦١
إسحق بن إبراهيم الموصلى : ٦٢٤
إسحق بن أحمد بن أسد السامانى : ١٥٤ ، ١٥٥
ابن إسحق — حنين : ٥٦٧ ، ٥٦٨
إسحق بن كنداج — عامل الموصل والجزيرة : ٢٦ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨
إسحق بن محمد بن عبد الحميد : ٢٨٠
الأسدى — ابن جرو : ٥٢٧ ، ٥٣٨
الأسدى — أبو العلاء : ٥٥٨
الإسرائيلى — موسى بن العازار : ٥٧٤
الأسفرايني — أبو حامد : ٥٢٤
إسفنديار — ابن أبى كاليجار : ١٣٥
إسماعيل بن أحمد السامانى : ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ٥٥٠
إسماعيل بن جعفر الصادق — إمام الإسماعيلية : ٤٠ ، ٢٤٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢
إسماعيل بن سبكتكين — أخو محمود الغزنوى : ١٦٦ ، ١٧٧
الإسماعيلى — أبو معمر : ٥٥٨
الأشعرى — أبو الحسن : ٣١٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٧
اشناس — القائد التركى : ٢٠
الأصبهانى — رجاء بن الوليد : ٥١٨
الإصطخرى — أبو إسحق ٥٨٨
الأصفر — أمير قزوين : ٦٣
الأصم — أبو بكر : ٥٢٧
الأصمعى — من العلماء : ٧٢
أغاثاذيمون — طبيب : ٥٦٣
الفارو — قسيس بالأندلس : ٢٩١
أفتكين : ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩
الأفشين — القائد التركى : ٢٠
ألب أرسلان بن داود السلجوقى : ١٦٨ ، ١٨١ ، ١٨٢
ألبتكين — من قواد الأتراك : ١٦٤
الفونس — أمير ليون : ٢٩١
أمير الأمراء — انظر ابن رائق
الأمين — الخليفة العباسى : ٢٦
أمين الدولة — انظر الحسن بن عماد الكتامى
أمرؤ القيس — الشاعر : ٥٦٣
الأندلسى — ابن حزم : ٥٣١
الأندلسى — ابن عطية : ٥٢٤
الأنطاكى — يحيى بن سعيد : ٥٨٢
أنندبال — بن جيبال ملك الهند : ١٧٠ ، ١٧١
أوتو الأكبر : ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٣٣
أنو شروان — كسرى : ٥٦٣
إلياس بن إسحق السامانى : ١٥٥
أيبك خان : ١٦٩ ، ١٧٠
إيتاخ : ٢٠

(ب)

بابك الخرمى : ٣٢٣ ، ٣٩٧
ابن بابك : ٥٥٨
باتى بن سعيد — من رجال الدولة البويهية : ٢٠٠
باديس — استقل بغرناطة ٣٠٨

باسل الأول : ٤٠١ ، ٤١٤
باسل الثانى : ٤٠٩
باغز التركى — أحد مدبرى قتل المتوكل : ٢٧ ، ٣٢
الباقلانى — أبو بكر : ١٢٥ ، ٥٣٥
باكباك — أحد قواد الأتراك أيام المهتدى : ٣٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
البتّانى أبو عبد الله الصابى المنجم : ٥٧٧
البحترى — أبو عبادة : ٢٧ ، ٤٩ ، ٥٤٢ ، ٦١٨
بجكم — من غلمان مرداويج الديلمى : ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ١٤١ ، ١٩٤
البخارى : ٤٦ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠
بختيار بن معز الدولة : ٣٥٤ ، ٤٢٧ ، ٤٦٧
بختيشوع — الطبيب : ٥٦٧
بدر الجمالى : ٢٦٦ ، ٥٩٥
بدر بن حسنويه — انظر مهذب الدولة صاحب البطيحة
بدر الكبير — من قواد الدولة العباسية : ٥١ ، ٥٢ ، ١٥٠ ، ٣٢٨
بديع الزمان الهمذانى : ٥٦٠
البرازلى — استقل بقرمونة : ٣٠٨
برجوان — تولى الوصاية على الخليفة الحاكم : ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٤٤٤
ابن برد — بشار : ٤٥٠
برفكتوس — قسيس بالأندلس : ٢٩١
البريدى — صاحب الأهواز : ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٠١
البزاز : ٥٣
البساسيرى : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٩٤ ، ٦٢٤
البستى — أبو سليمان محمد : ٥٦٥
البستى — أبو الفتح : ٥٦١ ، ٥٦٦
البشارى — أبو عبد الله محمد : ٥٨٨
بشر بن صفوان : ٢٧٣
ابن البطريق — المشهور باسم أوتيخا Eutychius : ٥٨٢
بغا الصغير : ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٢٢
بغا الكبير : ٢٦ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤٢٢
البغدادى — أبو بكر أحمد بن على الخطيب : ٥٨٦
بغراجق — عم محمود الغزنوى : ١٦٦
بغراخان التركى — صاحب بلاد تمتد من حدود الدولة السامانية شرقاً حتى حدود الصين : ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٧
ابن بقية — وزير عز الدولة بختيار : ١١٠
بكتوزون — أمير الجيش فى أيام أبى الحارث منصور السامانى : ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٧
أبو بكر الصديق : ٢٢ ، ٢٣ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨
أبو بكر المادرائى : ٤٧٨
بكر بن مالك — قائد عبد الملك بن نوح السامانى ١٥٨
أبو بكر محمد بن جعفر النقيب — صاحب الشرطة أيام المتقى ببغداد : ٨٥
أبو بكر محمد بن رستم : ٤٤١
أبو بكر محمد بن طغج أنظر الإخشيد ،
ابن بكير — عمر : ٥٢٤
البلاذرى : ٤٩
البلخى — أبو زيد : ٥٨٣
البلخى — أبو القاسم : ٥٣٧
البلخى — أبو معشر : ٥٦٣ ، ٥٧٦
بلكاتكين — مملوك إسحق بن ألبتكين : ١٦٤
بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى : ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٥٧
بهاء الدولة البويهى : ١١٥ ، ١٢١ ، ١٨٩ ، ١٩٠

١٩١ ، ١٩٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٥٩١
بهرذا — صاحب الزنج : ٣٧٨
بهرام جور — أحد ملوك الفرس : ٩٤ ، ١١٤ ، ١٥٢
بهيم — صاحب إقليم أنهلوارة بالهند : ١٧٣
بورق — كبير الفتيان فى قصر أبى عامر : ٣٠٥
البيرونى — أبو الريحان : ٥٧٧ ، ٥٨٦
بويه — ابن أبى كاليجار : ١٣٥
بيرى — أحد أهالى غزنة — تولى حكمها بعد بلكاتكين الغزنوى : ١٦٤

(ت)

الترمذى : ١٣ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ١٣٠
أبو تغلب الحمدانى : ١١٠ ، ١١١ ، ٣٥٤ ، ٤٠٨
تكينك التركى : ٧٤ ، ٧٥
تميم بن المعز بن باديس : ٤١٥
التميمى : أبو عبد الله محمد بن أحمد : ٥٧٣
توزون التركى : ٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ٢٠٤
ابن توفيل — سعيد : ٥٧٢
توماس الصقلى : ٣٩٧
تيوفيلس : ٣٩٧

(ث)

ثابت بن قرة الحرانى — الرياضى المشهور : ٤٩
الثعالبى : ٥١٨ ، ٥٤٠
ثعلب — إمام العربية : ٥٣
ابن أبى الثياب — أبو محمد : ٥١٨

(ج)

الجاحظ — أبو عمرو بن بحر : ٥٣٥ ، ٥٣٩ ، ٥٥٥
جان دى جورتزا : ٤١٧
الجبائى — شيخ المعتزلة : ٥٧ ، ٥٢٧ ، ٥٣٧
ابن جنى — من علماء اللغة : ٥٣٩
الجرجانى — أبو الحسن بن عبد العزيز : ٥٥٨
الجرجرائى — نجيب الدولة على : ٢٦٤ ، ٢٦٥
الجرجرائى أبو جعفر محمد بن الفضل : ٢٣
جستنيان : ٣٤١
أبو جعفر السامانى — القاضى : ١٢٨
أبو جعفر بن شيرزاد — انظر ابن شيرزاد أمير الأمراء
جعفر الصادق : ٣١٧ ، ٣٢٠
جعفر بن عثمان : ٢٢٨
جعفر بن فلاح : ٢٥٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧
أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخى — وزير الراضى : ٦٥ ، ٧٧
أبو جعفر محمد بن نصر بن أحمد — أخو الأمير نوح بن نصر : ١٥٨
جعفر بن المعتمد — انظر المفوض إلى الله
أبو جعفر المنصور : ٢٢٨
جعلان — أحد قواد الترك : ٣٣٧
جلال الدولة — أخو سلطان الدولة البويهى : ١٩١
جلال الدولة — انظر محمد بن محمود الغزنوى
جلال الدولة — بن بهاء الدولة : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١
جلال الدولة — بن بهاء الدولة : ١٩٢
جمال الدولة — انظر عبد الرشيد الغزنوى
جندبال — صاحب قلعة آسى بالهند : ١٧٢
جندراى — صاحب قلعة شروة بالهند : ١٧٢
الجنيد — شيخ الصوفية : ٥٧ ، ٣٨٦
جوهر الصقلى : ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ — ٢٥٨ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٤٥٠ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦
الجوهرى — أبو الحسن صاحب كتاب الصحاح فى اللغة : ٥٣٩ ، ٥٥٨
جون زيمسيس : ٤٠٧ ، ٤٠٨

جيبال — أحد ملوك الهند : ١٦٥ ، ١٦٩

(ح)

حاتم بن زيرك بن سلام — رسول المعتمد العباسى إلى يعقوب بن الليث الصفارى : ١٤٣
أبو الحارث أرسلان البساسيرى — انظر البساسيرى
أبو الحارث منصور السامانى : ١٦١
أبو حازم — قاضى الشرقية : ٥٢
الحاكم — أبو سليمان : ٣٠٠
الحاكم الفاطمى : ٣٥١ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٥٢١ ، ٦٥٩
حامد بن العباس : ٣٩٢ ، ٤٣٨
أبو حامد الأنطاكى — شاعر : ٢٥٨ ، ٥٥٣
حبيب بن أبى عبيدة : ٢٧٣
ابن حجاج : ٥٥٨
حسام الدولة سيد الأمة — انظر أبو القاسم ابن بختيار
حسداى بن شبروط اليهودى : ٦١٦
أبو الحسن الأبهرى — أحد رجال بهاء الدولة ابن بويه : ١٢٩
الحسن بن بويه — انظر ركن الدولة
الحسن البصرى : ٥٥٥
حسن بن جعفر النوبختى : ٣١٨
أبو الحسن جوهر — انظر جوهر الصقلى
الحسن بن حيدرة الفرغانى : ٣٦٤ ، ٣٦٥
الحسن بن زيد العلوى — مؤسس الدولة العلوية بطبرستان : ٣٧ ، ١٤٣ ، ١٤٦
الحسن بن عبد الله الحمدانى — انظر ناصر الدولة ابن حمدان
أبو الحسن على الإخشيدى : ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧
الحسن الأعصم : ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩
أبو الحسن على البويهى — انظر فخر الدولة
الحسن العسكرى — الإمام الحادى عشر عند الإمامية الاثنا عشرية : ٣١٨
الحسن بن على : ٣٢٠ ، ٣٢١
أبو الحسن على بن عيسى — من رجال المتقى العباسى : ٧٧
الحسن — أبو محمد زعيم الكتاميين : أنظر ابن عمار
أبو الحسن على بن محمد بن الفرات — انظر ابن الفرات
أبو الحسن على بن مسعود الأول الغزنوى : ١٨٢
الحسن بن القاسم اللواتى : ٢٨٤
الحسن القرمطى : ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
الحسن بن الفيرزان — من رجال السامانيين : ١٥٩
الحسن بن محمد : ٢٨٣
الحسن بن إدريس — المعروف بالحجام : ٨٣
الحسن بن مخلد وزير المعتمد وكاتب الموفق : ٤٦ ، ٤٣٦
أبو الحسين أحمد بن بويه — انظر معز الدولة
أبو الحسين أحمد بن عضد الدولة — أخو صمصام الدولة : ١٨٩
أبو الحسين أحمد بن ميمون وزير المتقى — انظر ابن ميمون الوزير
أبو الحسين الأهوازى : ٣٢٤ ، ٣٤٠
أبو الحسين الأنبارى — الشاعر : ١١٠ ، ٥٣٨
أبو الحسين البريدى : ٧٦
الحسين بن حمدان : ١٥٠ ، ٢٠٣ ، ٣٧٤
الحسين بن زكرويه : من القرامطة : ٥٢ ، ٣٢٨
الحسين بن طغج — أخو الإخشيد : ٦٨ ، ٥٧٣
الحسين بن على : ٢٣ ، ٣٠ ، ١٠٤ ،

الحسين بن على — من قواد جيش المكتفى : ٥٢
الحسين بن على المروروذى : ٣٤١ ، ٣٤٢
الحسين بن على بن النعمان : ٤٩٦
الحسين القدورى — الفقيه : ٣٥١
حفص بن حميد الصالح : ١٧١
حماد بن سلمة : ٥٢٨
ابن حفصون : ٢٩٢
الحكم الأول الأندلسى : ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٥٧
الحكم الثانى ـ المستنصر : ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٤٣٣
الحلاج — الحسين بن منصور : ٣٨٨ — ٣٩٢
الحلوانى : ٣٤٤
حمدان قرمط : ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٤٦١
حمديس — ثار على إبراهيم بن الأغلب : ٢٦٩
حمزة بن على الزوزنى — من غلاة الإسماعيلية : ٣٦٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩
حمزة بن اللباد الأعجمى : ٣٦٥
حمود بن ميمون : ٢٨٦
ابن حنزابة — انظر الفضل بن جعفر بن الفرات
ابن حميد الوزير : ٢٧٥
حمويه بن على — من قواد السامانيين : ١٥٥
أبو حنيفة النعمان المغربى : ٣٦٣
أبو حنيفة الدينورى — انظر الدينورى
أبو حنيفة الإمام : ٢١٩
ابن حنين — أبو يعقوب إسحق : ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩
ابن حوشب — داعى الشيعة فى اليمن : ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٦١
ابن حوقل : ٥٨٨

(خ)

الخازن — أبو محمد : ٥٥٨
ابن خاقان — الفتح : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٤٢
خاقان المفلحى : ٥١
ختكين — داعى الدعاة فى عهد الحاكم الفاطمى : ٣٦٥ ، ٣٦٧
خرخيز — نائب الغزنويين فى الهند : ١٨٢
ابن خرداذبه — الجغرافى : ٥٨٧ ، ٦١٩
الخزرجى — أبو دلف : ٥٥٨
ابن خلدون : ٥٤٠
خلف بن أحمد — أمير سجستان من قبل السامانيين : ١٥٨ ، ١٦٧
الخليل بن أحمد : ٥٢٧ ، ٥٢٨
خمارويه بن أحمد بن طولون : ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٧ ، ٦٢٤ ، ٦٢٩ ، ٦٣١ ، ٦٥٥ ، ٦٦٣ ، ٦٦٥
الخوارزمى — أبو بكر : ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٦١
خواشاذه : ١١٩
الخياط — أبو الحسين عبد الرحيم : ٥٢٦
خيران — من البربر الثائرين على المستعين بالله : ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١
ابن خيلان — يوحنا : ٥٦٥

(د)

داذا بن منومهر بن قابوس بن وشمكير — والى مسعود الأول على جرجان وطبرستان : ١٧٨
داود — أخو طغرلبك السلجوقى : ١٨٢
أبو داود — السجستانى : ٤٦ ، ٥٢٦ ، ٥٣٠
داود بن حمدان — مولى ديار ربيعة : ٢٠٤
داود بن محمد بن أبى العباس الطوسى — من رجال المتوكل : ٢٦٠
دبيس بن عفيف الأسدى — قائد كردى : ١٩٩
الدرزى — محمد بن إسماعيل أنوشتكين : ٣٦٤ ، ٣٦٦
ابن دريد : ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٨
الدمستق : ٤٠٥ ، ٤٠٦

الدؤلى — أبو الأسود : ٥٣٧
ابن أبى دينار — من أساتذة المكتفى : ٤٩ ، ٥٣
الدينورى : ٤٩ ، ٥١٨ ، ٥٨٢

(ذ)

ذو النون المصرى — أبو الفيض : ٥٢٠

(ر)

راجا إليار — من قواد الهنود : ١٧٠ ، ١٧٣
راجا أوجين — من قواد الهنود : ١٧٠
راجا كالنجار : ١٧٠ ، ١٧٣
راجا مهبان — صاحب قلعة كلجند بالهند : ١٧٢ ، ١٧٣
الرازى — أبو بكر : ٤٩٠ ، ٥٦٩
الرازى — أبو حاتم : ٣٤١
الراضى بالله : ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٠٠ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٥٧٧ ، ٥٨٣ ، ٦٢٠
رافع بن هرثمة — نائب محمد بن طاهر فى خراسان : ١٤٨
ابن راهويه — إسحق : ٥٣٢
الراوندى — أحمد بن يحيى : ٥٣٦
الربيع بن سليمان — تلميذ الإمام الشافعى : ٢٣٣ ، ٢٨٢ ، ٥٢٠
ردمير — خليفة أردون : ٢٩٧
رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب : ٢٤٧
رستم بن المرزبان — خال مجد الدولة بن فخر الدولة : ٢٠٠
ابن رضوان — أبو الحسن على : ٥٧٤
ابن رفاعه — زيد : ٥٦٥
ركن الدولة : ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٥٥٧
أبو ركوه : ٢٦١
روجر النرمندى : ٢٤٩ ، ٢٦٥ ، ٥٤٦ ، ٥٩٩
الروذراورى — محمد بن الحسن : ٥٨٦
رومانوس : ٤٠٣ ، ٤٠٦
ابن الرومى : ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٤٤
ريحان — زعيم الأتراك : ٢٦٥
ريحان الكتامى : ٢٨٣

(ز)

الزبيدى — أبو بكر : ٥٤٠
الزجاج — النحوى : ٥٧ ، ٥٣٨
زرعة بن نسطورس : ٢٦١ ، ٤٤٤
زرياب — على بن نافع المغنى مولى الخليفة المهدى : ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٤١ ، ٦٤٤
الزعفرانى — أبو القاسم : ٥٥٨
زكرويه — من علماء القرامطة : ٥٢ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩
ابن زكريا — الطبيب : ٥٧
أبو زكريا السامانى — عم عبد الملك بن نوح السامانى : ١٦١
الزنجانى — أبو الحسن على : ٦٦٥
الزوزنى — أبو على : ٥١٨
ابن زولاق — الحسن : ٢٥٨ ، ٥٨٤
الزيات — محمد بن عبد الملك الوزير : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٣٤ ، ٤٤٩
زياد بن سهل : ٢٧٢
زيادة الله بن الأغلب : ٢٤٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢
زيادة الله الثانى والثالث : ٢٧٥ ، ٢٧٨
زيد بن على زين العابدين : ٣١٧
ابن زيرك — الحسن : ٥٧٢
زيرى بن مناد الصنهاجى : ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٨٥

(س)

أبو السائب القاضى : ٨٨

سابور — خادم وأم المقتدر : ٥٩
سابور بن طاهر : ٣٤٤ ، ٣٤٥
ابن أبى الساج — محمد أحد قواد المعتمد : ٥٨ ، ٢٣٠
ابن ابى الساج — يوسف : ٦٣ ، ١٥٦
سالم بن غلبون — أمير الزاب : ٢٧٥
سامان — جد السامانيين : ١٥٢
سانشو : ٢٩٦ ، ٢٩٧
سبكتكين — أبو محمود الغزنوى : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ٥٦١
السجستانى — أبو داود : ٥٢٦ ، ٥٣٠
سخبال — قائد هندى : ١٨١
ابن سريج — أبو العباس : ٥٣١
ابن سعد — الليث : ٥٢٨
سعد الدولة — بن سيف الدولة : ٣٥٥
أبو سعد — من أصحاب القائم : ١٣٦ ، ٤٤٧
أبو سعد خسرو شاه — بن أبى كاليجار : ١٣٥
ابن سعيد : ٥٨٤
أبو سعيد التسترى — ناظر خاصة أم الخليفة المستنصر : ٢٦٥
سعيد التنوخى : ٤٩٠
أبو سعيد الجنابى — مؤسس دوله القرامطة بالبحرين : ٤٧ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٤٣٧
سعيد بن حمدان — والى نهاوند : ٢٠٤
سعيد الخادم — قاتل المستعين بالله : ٣٤
أبو سعيد عبد الله بن أبى ثوبان المغربى : ٤٩٥
أبو سعيد العمرى — رئيس الإمامية الاثنا عشرية : ٣١٨
سعيد بن نوفل : ٢٢٨ ، ٢٢٩
سفيان الثورى : ٥٢٨ ، ٥٣٢
أبو سفيان : ٣٣٤
ابن سكره : ٥٥٨
سلامة — حاجب القاهر : ٥٨
سلطان الدولة : ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٩٠ ، ١٩١
سليمان بن جرير : ٢٨٠
سليمان السامانى — عم عبد الملك بن نوح السامانى : ١٦١
سليمان بن الحسن بن مخلد — وزير الراضى : ٦٥
ابن سليمان — أنظر الربيع
سليمان بن وهب — أحد وزراء المهتدى : ٣٧ ، ٤٣٥
ابن سهل — الحسن : ٥٢٤
أبو سهل الحمدونى — قائد مسعود الأول : ١٧٨
أبو سهل بن مقشر النصرانى — طبيب الحاكم ٢٦١
ابن سيار — أبو إسحق ابراهيم : أنظر النظام
سيف الدولة الحمدانى : ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٣٢٢ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥ ، ٥٢٠ ، ٥٤٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦٥
سيف الدولة — انظر محمود بن سبكتكين
سيف الدولة — انظر ابن عبد الرشيد
سيف الدولة بن دواس — مدبر قتل الحاكم الفاطمى : ٢٦٢ ، ٢٦٣
سيمجور — غلام أحمد بن إسماعيل السامانى : ١٥٤ ، ١٥٦
ابن سيمجور — أبو القاسم من رجال الدولة السامانية : ١٥٩ ، ١٦١
ابن سينا — أبو على : ٥١٩ ، ٥٥٠ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٧١ ، ٥٧٦
السيوطى : ٥٨٥

(ش)

الشابشتى — أبو الحسن على : ٥٨٤
الشاشى — اسماعيل : ٥٥٨
أبو شامة : ٥٢١
ابن شبروط — مترجم : ٥١٤
أبو شجاع بن بهاء الدولة — انظر سلطان الدولة
أبو شجاع بويه — جد البويهيين : ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠١

شرلمان : ٢٩٠ ، ٤١٢
شرف الدولة بن بويه : ١١٩، ١٨٨، ٦٥٤
ابن شريح — شيخ الشافعية : ٥٧
الشريف الرضى — الشاعر : ١٢٢ ، ٣٥١
شفيع اللؤلؤى — صاحب بريد مصر : ٤٦٢
أبو الشلعلع — أحمد بن ميمون القداح : ٣٢٤
الشلمغانى — من المتصوفة : ٣٩٣
الشماخ — انظر سليمان بن جرير
شمس الدولة بن فخر الدولة بن بويه — صاحب
شمس المعالى قابوس — بن وشمكير : ٥١٦ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٧٢ ، ٥٨٦
شمس المعالى قابوس بن وشمكير : ٢٠٠، ٢٠١
الشهرزورى — أبو جعفر : ٥٥٨
شهريار بن شروين — الإصبهبذ : ٢٠٠
ابن أبى الشوارب — من رجال المعتز : ٣٥، ٤٩٣
شيبان بن أحمد بن طولون : ٢٣١ ، ٢٣٣
الشيبانى — على بن هارون : ٥١٨
ابن شيرزاد — أمير الأمراء : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ — ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١٠٤
الشيرازى — أبو إسحق : ٥٣٢

(ص)

الصابى — أبو إسحق إبراهيم : ٥١٩ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٦٥٤
الصابى — هلال بن المحسن بن إبراهيم : ٥٨٢
أبو صالح — عبد الله محمد : ٣٤٥
صالح بن مخلد — من رجال الموفق : ٤٣
أبو صالح منصور السامانى : ١٥٥
صالح بن وصيف — أحد قواد الأتراك : ٣٥ ، ٣٦
الصليحى — على بن محمد : ٢٣٨ ، ٣٥٦
صمصام الدولة : ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨
الصيمرى — محمد بن إسحق القاضى : ٥٥٥

(ض)

الضبى — أبو العباس : ٥٣٨ ، ٥٥٨

(ط)

طارق بن زياد : ٢٦٨ ، ٦١٤
أبو طالب بن بنت الزيدى الحسينى : ٤٩٦
أبو طالب كامرو — ابن أبى كاليجار : ١٣٤
أبو طاهر — قاضى قضاة مصر زمن الفتح الفاطمى : ٤٩٥ ، ٤٩٦
أبو طاهر — انظر جلال الدولة
طاهر بن الحسين : ٢٠ ، ١٤٢
طاهر بن خلف — صاحب سجستان : ١٩١
أبو طاهر الجنابى القرمطى — من زعماء القرامطة بالبحرين : ٦٣ ، ٧٣
طاهر بن هلال بن بدر بن حسنويه — من رجال البويهيين : ٢٠١
أبو طاهر فيروز شاه : ١٨٩
أبو طاهر القرمطى : ٣٣٩
الطائع العباسى : ١٩٩ ، ٦٥٤
الطبرى — محمد بن جرير : ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٨٢
طغج الإخشيدى : ٣٢٧
طغرلبك السلجوقى — زوج أخت مودود الغزنوى ومغتصب العرش بعد مقتل عبد الرشيد : ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ — ١٣٨ ، ١٩٣ .
طوقا الزهيرى — من الخوارج : ٣٧٣
ابن طيفور — طبيب المنتصر : ٣١

(ع)

ابن عائشة — من العلماء فى عصر الراضى : ٧٢
عامر بن عبد الله الرواحى : ٣٥٦
عامر بن نافع : ٢٧٢
ابن عباد — الصاحب إسماعيل الكاتب : ١١٩ ، ١٩٩ ، ٤٤٠ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ،

٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٧٧
ابن عباد — المعتمد : ٣١٤
العباس بن أحمد بن طولون : ٢١٩ - ٢٢٣ ، ٢٢٦
أبو العباس أحمد بن عبدالله الأصبهانى - وزير ناصر الدولة الحمدانى : ٧٩
العباس بن الحسن — وزير المكتفى : ٥٣ ، ٥٤
أبو العباس خوارزم شاه مأمون — صاحب بلاد الخزر : ١٧١ ، ٥١٩ ، ٥٧١
العباس بن عمرو الغنوى — من رجال المكتفى : ٥١ ، ٣٢٩
ابن أبى عامر — المنصور الحاجب : ٢٨٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٤٣٢ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٦٠٥ ، ٦١٦
أبو العباس بن الموفق — أنظر المعتضد بالله
عبدان — صهر حمدان قرمط : ٣٢٦ ، ٣٢٧
ابن عبد الحكم — المؤرخ : ٢٣٣ ، ٥٢٠
أبو عبد الرحمن العمرى : ٢٢٢
عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح — وزير الراضى بالله : ٦٥
عبد الرحمن بن محمد بن محمود الغزنوى : ١٨٢ ، ١٨٣
عبد الرحمن الناصر الأموى : ٧٣ ، ١٤١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ — ٢٩٩ ، ٣٩٧ ، ٤١٧ ، ٤٤٨ ، ٤٦٥ ، ٤٨٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦١٥ ، ٦١٧ ، ٦٤٧
عبد الرحمن الأوسط : ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٦٤١ ، ٦٢٦
عبد الرحيم بن محمد بن محمود الغزنوى : ١٧٩ ، ١٨٠
عبد الرشيد بن محمود الغزنوى : ١٨٢ ، ١٨٣
عبد الله بن أحمد بن حنبل — من العلماء : ٥٣
أبو عبد الله أحمد بن على الكوفى — كاتب أبى بكر بن رائق : ٧٧
أبو عبد الله البريدى — صاحب الأهواز : انظر البريدى
عبد الله بن تومرت — مؤسس دولة الموحدين : ٣٥٧
أبو عبد الله الحسين بن محمد — أنظر العميد
أبو عبد الله بن سعدان — من رجال عضد الدولة : ١١٢
أبو عبد الله الشيعى : ٤٧ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦
عبد الله بن طاهر : ٢٠ ، ٥٠١
عبد الله بن طباطبا العلوى : ٢٢١
عبد الله بن العباس : ٤٦
عبد الله بن عباس الشاورى : ٣٣٨
عبد الله بن عزيز - وزير نوح الثانى السامانى : ١٦٠
أبو عبدالله بن قبيحة — انظر المعتز الخليفة العباسى
أبو عبدالله محمد — والد أبى الفضل بن العميد : ١٨٤
أبو عبدالله محمد بن عيسى — القاضى : ٨٠
عبد الملك الأول بن نوح السامانى : ١٥٨ ، ١٥٩
عبد الملك الثانى بن نوح السامانى : ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧
عبد الواحد بن المتقى : ٨١
عبد الوهاب بن المنتصر العباسى : ٢٩
عبدون - وزير الحاكم الفاطمى : ٢٦١ ، ٤٤٤
عبيد الله بن سليمان بن وهب - وزير المعتضد : ٤٧
عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : ٣٤
عبيد الله : انظر المهدى
عبيد الله بن يحيى بن خاقان : ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٤٣٥
عز الدولة — انظر عبد الرشيد الغزنوى
عز الدولة بختيار : ١٠٣ ، ١١١ ، ١٢٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٣٥٤ ، ٤٢٧ ، ٤٦٧
عزيز بن السرى : ١٤٣
العزيز بالله الفاطمى : ١١١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ — ٢٥٩ ، ٣٤٨ — ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٤٠٩ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٧٤ ، ٥٧٦
عسلوج بن الحسن : ٤٨٨

أبو عصام — ثار على إبراهيم بن الأغلب : ٢٦٩
عضد الدولة : ١٠٦ — ١٠٩، ١١٩، ١٦٠، ١٨٧ — ١٩٠، ١٩٥ — ١٩٨، ٢٠٣، ٣٥٠، ٤٢٦، ٤٦٠، ٥٧١
عقبة بن نافع : ٢٦٨، ٣٣٥، ٥٩٧
عقيل بن أبي طالب : ٣٢٣
ابن العلاء — عمرو : ٥٣٧
ابن أبي العلاء — أبو القاسم : ٥٥٨
أبو العلاء صاعد قاضي نيسابور : ٤٩٠
علاء الدولة أبو جعفر بن كاكويه — والي أصبهان من قبل مجد الدولة البويهي : ١٧٨، ٢٠١، ٢٠٢، ٥٦٦، ٥٧٢
العلاف — أبو الهذيل : ٥٣٥
أبو علي بن إسماعيل — من زعماء الديلم : ١٩٠، ١٩١
علي بن بويه — انظر عماد الدولة
أبو علي التميمي : ٤٠٩
علي بن جعفر بن فلاح : ٤٤٤، ٤٤٩
علي بن حمود بن أبي عيسى : ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١
علي بن أبي حنيفة : ٤٩٥
علي بن الجعد — من العلماء في عهد الراضي : ٧٢
أبو علي خويشاذة — من رجال الغزنويين : ١٧٩
أبو علي رستم — من رجال البويهيين بفارس : ١٨٤
علي بن رضوان — نبغ في الطب : ٢٥٨، ٥٧٤-٥٧٥
أبو علي بن سينا : ٣٨٣، ٥٧١ — ٥٧٢
علي بن الشيخ : ٢٢٤، ٢٢٥
علي بن عيسى — وزير المقتدر : ٥٤، ٥٥، ٣٥٩، ٣٩٢، ٣٩٣، ٤٣٧، ٤٣٨
علي بن الفضل اليمني : ٣٣٢، ٣٣٧
أبو علي فناخسرو — أخو الملك الرحيم : ١٣٥
أبو علي بن محتاج — والي بخارى من قبل السامانيين : ١٥٧، ١٥٨، ١٩٤، ١٩٥
علي بن محمد — الملقب بحيدرة : ٢٨١
علي بن محمد بن مقلة — انظر ابن مقلة
علي بن محمد — قائد الزنج : ٣٧٥
أبو علي محمد بن إلياس : ٧٣، ١٥٦
علي بن هارون — المنجم : ٦٤
علي بن يحيى — المنجم : ٣٠، ٣١، ٣٣٩
عماد الدولة علي بن بويه : ٧٣، ٨٥، ٨٩، ٩٣، ٩٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٥، ١٠٦، ١١٩، ١٦٥، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٤، ١٩٥
ابن عمار — أبو محمد الحسن المغربي : ٢٦٠، ٤٤٣، ٤٤٧
عمر بن حفصون : ٢٤٥
عمر بن الخطاب : ٢٢، ٥٠٠، ٥٢٧، ٥٢٨
عمر الخيام : ٥٥٠
عمران بن شاهين — من رجال البويهيين : ١٩٦
عمر بن عبد العزيز : ٢٣، ٣٨، ١٢٣
عمرو بن الليث الصفار : ٤٧، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤
العميد — أبو عبدالله الحسين : ٩٩، ٢٣٩، ٤٤٠
ابن العميد — أبو الفتح : ٩٩، ١٠١، ١١١، ١٩٦، ١٩٧، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٦٥
عيسى بن إدريس : ٢٨١
عيسى بن المنكدر : ٥٠١
عيسى المالكي — من رجال الراضي : ١٠٠
عيسى بن فرخان شاه — أحد وزراء المهتدي : ٣٧
عيسى بن نسطورس : ٢٥٩، ٢٦٠، ٤٤٣

(غ)

الغالب بالله — انظر ابن المعتز
الغالب بالله — انظر أبو الفضل بن القادر
أبو غالب — مؤدب الراضي وهارون : ٧١
أبو الغرانيق — محمد بن أحمد الأغلبي : ٢٧٥، ٢٧٦
غريب الخال — من رجال المقتدر : ٥٤
الغزالي : ٣١٧، ٣٨٣، ٣٩٣، ٥٣٣
أبو الغنائم — من أصحاب القاآ : ١٣٦
غياث داعي الإسماعيلية في اليمن : ٣٤١، ٣٤٢

(ف)

فائق الخاصة — غلام نوح بن نصر : ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧
الفارابى — أبو نصر : ٥٦٥—٥٦٧ ، ٥٧٥
الفارسى — أبو إسحق من علماء بخارى فى عهد نصر بن أحمد السامانى: ٥١٨
الفارسى — أبو على : ٥٣٩
الفاكهى : ٥٨٧
أبو الفتح البستى — انظر البستى
أبو الفتوح المؤرخ داود — صاحب الملتان : ١٧٠ ، ١٧١
فخر الدولة الحسن بن بويه : ١٨٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٥٥٧
الفراء — صاحب كتاب معانى القرآن : ٥٢٤
ابن الفرات — جعفر الوزير المصرى: ٢٥٣، ٢٥٥
ابن الفرات — وزير المقتدر : ٥٣، ٥٤، ٦٧، ٤٣٦—٤٣٨
أبو الفرج الأصفهانى : ٣٠١
الفردوسى : ١٨٣ ، ٥٥١
فروخ زاد الغزنوى : ١٨٢
أبو الفضل جعفر بن المعتصم : انظر المتوكل
أبو الفضل محمد بن العباس بن الحسين — كاتب معز الدولة بن بويه : ١٠٦
أبو الفضل بن القادر العباسى : ١٢٤
الفضل بن المقتدر — أنظر المطيع : ٨٩
ابن فضل اليمنى : داعى الشيعة فى البحرين: ٣١٩
ابن الفقيه الهمدانى — الجغرافى : ٤٩
فهد بن إبراهيم النصرانى : ٢٦٠
أبو الفوارس أحمد : ٢٤٤
أبو الفوارس بن بهاء الدولة — انظر قوام الدولة
أبو الفوارس بن عضد الدولة : ١٨٧
الفونس الرابع : ٣١٤

(ق)

قابوس بن وشمكير — نائب السامانيين فى جرجان وطبرستان : ١٦٠
القادر بالله العباسى : ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٨
القاسم نوح — انظر نوح الثانى السامانى
أبو القاسم بن بختيار : ١٩٠
أبو القاسم بن بنت منيع — من العلماء : ٧١ ، ٧٢
أبو القاسم سليمان بن الحسن — وزير الراضى: ٧٣
أبو القاسم عبد الله البريدى — انظر البريدى
أبو القاسم المطهر بن عبد الله — وزير عضد الدولة : ١١٢
ابن القاشانى — أبو سليمان داود بن على : ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٥٨
القالى — أبو على : ٣٠١ ، ٤١٣ ، ٥٣٧ ، ٥٣٩
القاهر بالله : ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ٨٥ ، ٥٧٠
القائم بأمر الله العباسى: ١٢٩ ، ١٣٨ ، ٤٠٥
القائم بن المهدى: ٢٣٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٩٨ ، ٣٣٩
ابن قتيبة : ٤٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٨١
قدامة بن جعفر — الكاتب : ٥٧
القراريطى — وزير المتقى : ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٦
القرطبى المفسر : ٥٢٤ ، ٥٨٢
ابن قرة — ثابت : ٥٧٨
قوغلوش — قائد الأمويين بالأندلس : ٢٧٣
قرواش بن المقلد — أمير بنى عقيل : ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣١
القزوينى — أبو عبد الله محمد بن يزيد : انظر ابن ماجه
القزوينى — أبو يونس عبد السلام : ٥٢٧
قسطنطين السابع : ٤١٣
قسطنطين الثامن : ٤١٠
قسطنطين التاسع : ٤١١
القشيرى : ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠
قوام الدولة — بن بهاء الدولة : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣

القضاعى — أبو عبد الله المؤرخ : ٢٦٤ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٥٠

(ك)

ابن كاكويه — انظر علاء الدولة
أبو كاليجار — ابن سلطان الدولة بويه: ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٤٢٨ ، ٥٩٢
كافور الإخشيدى : ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٣٤٤ ، ٤٧٣ ، ٥٤٧ ، ٦١١ ، ٦٣٨
كلباتكين — قائد تركى : ٣٣
الكسائى — على بن حمزة : ٥٣٧
ابن كلس — انظر يعقوب بن كلس
ابن كنداج : انظر إسحق بن كنداج
الكندى — أبو عمر : ٥٨٤
الكندى — يعقوب بن إسحق : ٢٨٣ ، ٥٦٢ ، ٥٧٦
كورتكين — أمير الجيش : ٢٧
الكوفى — كاتب بحكم : ٧٣

(ل)

اللحام — أبو الحسن من علماء بخارى فى عهد نصر بن أحمد السامانى : ٥١٨
لؤلؤ — والى الرملة من قبل أحمد بن طولون: ٤٢
الليث بن سعد — من أئمة الحديث : ٢٦٩
الليث بن على الصفارى : ١٥٤
الليثى — يحيى بن يحيى القاضى بالأندلس: ٤٩٧

(م)

ابن ماجة — الفقيه : ٤٦ ، ٥٣٠
ابن ماجور : ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٢٢٦
ابن ماسويه — يحى الطبيب : ٥٦٧
ماكرد — من التاجيه : ٦٥
ماكان بن كالى — الديلمى : ٦٣ ، ٧٥ ، ٩٩ ، ١٥٦ ، ١٩٤
مالك بن أنس : ٥٢٨
المأمون : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٧١ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ٢٩٩ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٥٦٢ ، ٥٧٧ ، ٥٨٤
ابن المبارك — من أئمة الحديث فى خراسان : ٥٢٨
المبرد — اللغوى : ٤٩ ، ٦٢٠
ابن محتاج — أبو على محمد بن المظفر ، والى نصر بن أحمد السامانى على خراسان : ٦٤
المتأيد بالله — انظر إدريس بن على
المتوكل على الله : انظر على بن حمود
المتقى — الخليفة العباسى: ٧٣ ، ٨٦ ، ١٠١ ، ١٠٥
المتنبى — أبو الطيب الشاعر : ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٥٤٦ ، ٥٥٨
المتوكل على الله العباسى : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ — ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٣٨٣ ، ٥٤٢ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٦٤١
أبو المثنى أحمد بن يعقوب — القاضى : ٥٤
ابن مجاهد : ٥٣٥
مجد الدولة بن فخر الدولة البويهى : ٢٠٢
المجوسى — على بن عباس : ٥٧١
محمد — رسول الله صلى الله عليه وسلم : ١٠٤
محمد الأول بن إدريس بن على — المهدى: ٣١٣
محمد بن إدريس الثانى — العالى : ٣١٣
محمد بن إدريس : ٢٨١
محمد بن إسماعيل الصادق : ٣٢٢ ، ٣٢٧
محمد الباقر : ٣١٩
محمد بن بشير القاضى : ٣٠٢
محمد بن بقية — ثار على بختيار : ١٩٦
محمد الجواد : ١١٩
محمد بن الحسن — الملقب دندان : ٣٢٣
محمد بن داود الجراح — وزير المرتضى : ٥٤
محمد بن داود الظاهرى — الفقيه : ٥٧
محمد الديباج بن جعفر الصادق : ٣٢٢
محمد بن رائق — انظر ابن رائق
محمد بن سالم — مؤسس الدولة الغورية فى أفغانستان : ١٧٥
محمد بن سليمان الكاتب : ٥٢ ، ٣٢٨

محمد بن طاهر بن الحسين : ٥٤ ، ١٤٣ ، ١٤٨
محمد بن طغج الإخشيد — انظر الإخشيد
محمد بن عبد الله بن طاهر : ٣٣ ، ٣٤ ، ٦٢٠
أبو محمد على بن المعتضد — انظر المتقى
محمد بن كشمير — من رجال المكتفى : ٥١
محمد بن محمود الغزنوى : ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠
محمد بن المظفر — والى فرغانة : ١٥٥
أبو محمد بن معروف — القاضى : ١٨٨
محمد بن المغيث — أحد الخارجين على المتوكل : ٢٤ ، ٥٥
محمد بن المنتصر — بن المتوكل : ٢٥ ، ٣٢ ، ٣٩٢
محمد بن نصر المروذى — الإمام : ٥٣
محمد بن النعمان — القاضى : ٢٦٠
محمد النفس الزكية : ٣٢١
أبو محمد المهلبى — وزير معز الدولة : ١٠٤
أبو محمد هبة الله بن المأمون — رسول القائم إلى طغرلبك : ١٥٧
محمد بن الواثق : ٢٢
محمد بن ياقوت — رئيس شرطة بغداد أيام الظاهر : ٥٨
محمود الغزنوى بن سبكتكين : ١٢٦ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٩١ ، ٤٢٧ ، ٥١٢ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٦١ ، ٥٨٦ ، ٥٧٢ ، ٥٧٧
المدائنى — أبو الحسن : ٥٥٥
ابن المدبر — أحمد : ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٤٨٦
المرتضى بالله — انظر ابن المعتز
ابن المرتضى — أحمد بن يحيى : ٥٣٥
مرداويج بن زيار الديلمى : ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٨٤ — ١٨٦ ، ١٩٤ ، ٣٤٢ ، ٤٣٩
مرداويج السلمى — انظر مرداويج بن زيار
مروان بن أبى حفصة : ٥٥٧
مساور الشاورى — زعيم الخوارج فى أيام المهتدى : ٣٧ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤
المستظهر بالله — انظر عبد الرحمن بن هشام ابن عبد الجبار
المستعين بالله — الخليفة العباسى : ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٢٢٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
المستكفى العباسى : ٥٩ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ١٠٢ ، ١٨٦ ، ١٩٤
المستنصر بالله الفاطمى : ١٣٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٣٣٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٥٠٩ ، ٥٢٢ ، ٥٨٨ ، ٥٩١ ، ٦٦٠ ، ٦٦١
مسرور الخصى — قائد القائم الفاطمى : ٢٨٤
مسعود الثانى بن مودود الغزنوى : ١٨٢
المسكين — صاحب بريد مصر : ٢٧٩
مسعود الأول بن محمود الغزنوى : ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨١
مسلم — الإمام : ٤٦
مسلمة بن الحجاج النيسابورى : ٤٩١
مشرف الدولة — أخو سلطان الدولة : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٩١
المطيع — الخليفة العباسى : ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١٩٤ ، ٤٠١ ، ٤٩٣
أبو المظفر بهرام : ١٣٥
ابن المظفر — الليث : ٥٣٨
معاوية بن أبى سفيان : ٢٦١
المعتصم : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢١٩ ، ٤٦٥ ، ٥١٣
المعتضد بالله : ٤٦ ، ٤٧ — ٥١ ، ٥٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٣ ، ٤٠ ، ٢١٨ ، ٢٣١ ، ٥٦٣ ، ٥٨٧
المعتز — الخليفة : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ — ٣٦ ، ٣٧ ، ٢٢٠
ابن المعتز — الشاعر : ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٤
المعتمد على الله — الخليفة : ٣٩ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٣٩٨ ، ٥٩١ ، ٦١٩ ، ٦٢٠

معز الدولة : ٧٩، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٤، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ — ١٠٦، ١٠٧ ، ١٥٨ ، ١٨٥، ١٨٧، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧، ١٩٨، ٤٢٥ ، ٥٥٦ ، ٥٩١
المعز بن باديس : ٤٩٠
المعز لدين الله الفاطمى : ٢٤٢، ٢٥١، ٢٥٤ — ٢٥٧، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤
المفوض إلى الله جعفر بن المعتمد: ٤٧، ٢٢٦، ٢٢٧ ، ٢٢٨
المقتدر : ٥٣ — ٥٧، ٦٣ ، ٦٦ ، ١٤٩، ١٥٦، ٢٠٤ ، ٦٥٩
ابن مقشر النصرانى — أبو الفتح منصور: ٥٧٤
ابن مقلة — الوزير : ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٨٥ ، ١٨٦ ، ٥٠٦
المكتفى — العباسى : ٤٩ ، ٥١ — ٥٣، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٥٤ ، ٦٣٣
ابن منبه — وهب : ٥٢٥
منشا — اليهودى : ٢٥٩
المنصور الفاطمى : ٢٣٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠، ٢٦٣
المنصور العباسى — انظر أبو جعفر المنصور
المنصور بن أبى عامر : ٢٨٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٤٢٨، ٤٣٣، ٤٥٢، ٥٢٢ ، ٦٠٥
أبو منصور نزار — انظر العزيز الفاطمى
أبو منصور بختيار — انظر عز الدولة
أبو منصور فلادستون — بن أبى كاليجار : ١٣٤ ، ١٩٤
منصور اليمن — انظر ابن حوشب
أبو المنجى القرمطى : ٣٤٨
المهتدى — الخليفة العباسى : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩، ٢٢٤ ، ٤٢٤ ، ٤٩٩
المهدى — عبيد الله الفاطمى : ٦٤ ، ١٥٧ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ — ٢٤٩ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠
مهذب الدولة — صاحب البطيحة : ١٢٤ ، ١٦٩ ، ١٨٩ ، ١٩٠، ١٩١ ، ٢٠١
ابن مهران : ٣٤٢
مهر نرسى — كبير وزراء بهرام جور : ٩٤
مودود بن مسعود : ١٧٨، ١٧٩ — ١٨٢
موسى بن بغا : ٣٥، ٣٧ — ٤٢، ٢٢٦، ٤٢٣
موسى بن أبى العافية : ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٧، ٢٩٨
موسى بن عبد الله بن سليمان بن وهب الكاتب: ٣٩
موسى بن عيسى : ٢١٨
موسى بن نصير : ٦١٤
الموفق — أبو أحمد طلحة العباسى : ٣٣، ٣٩، ٤٦ ، ٤٨ ، ١٤٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣١ ، ٣٧٨ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣، ٤٢٦ ، ٤٩٥
مؤنس الخادم : ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٦٦، ٧٨، ١٤٩، ١٥٠ ، ٤٢٤ ، ٦٥٩
مؤنس الخازن — من أنصار المقتدر : ٥٤
مهيار — الديلمى : ٥٥١
المؤيد فى الدين — انظر هبة الله الشيرازى
المؤيد بن المتوكل العباسى : ٢٥، ٢٩، ٣٠، ٥٥٠
مؤيد الدولة بن ركن الدولة : ١٨٨ ، ١٩٩
ابن ميخائيل — حسين بن على : ٥١٩
ميكائيل الثانى — إمبراطور الدولة البيزنطية : ٢٧٣

(ن)

نازوك — من قواد المقتدر : ٥٥ ، ٦٦
ناصر الدولة — انظر سبكتكين
ناصر الدولة بن حمدان : ٧٤، ٧٨، ٧٩، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨، ١٠٤، ١٠٥، ٢٠٤ ، ٢٠٦
ناصر الدولة بن عبد الله — حافظ عباد الله — انظر مسعود الأول الغزنوى
ناصر خسرو : ٥١٤ ، ٥٨٨

ابن نباته : ٥٥٨
النسائى — صاحب كتاب السنن : ٥٣٠،٥٧
نصر بن أحمد السامانى — السعيد : ١٥٤،١٥٧
أبو نصر التمار — من العلماء فى عهد الراضى : ٧٢
أبو نصر بن بختيار : ١٩٠
نصر الحاجب : ٣٦٢
أبو نصر خواشاذة — من رجال البويهيين : ١٨٨
أبو نصر خسرو فيروز — انظر أبو نصر الملك الرحيم
أبو نصر الفارابى — انظر الفارابى
أبو نصر فناخسرو الملك الرحيم — ابن أبى كاليجار : ١٣٤،١٣٨،١٩٣،١٩٤
نصر بن هارون النصرانى — وزير عضد الدولة : ١٨٨
النظام — أبو إسحق إبراهيم : ٥٣٦
نقفور فوكاس : ٤٠٦ ، ٤١٥
النهرجورى — أبو أحمد : ٥٦٥
أنندا — انظر راجا كالنجار
أبو نواس : ٥٤٠،٥٥٧
ابن نوبخت — سهل : ٥٧٥
نور الدولة ومحيى الأمة — انظر أبو نصر ابن بختيار
نوح بن أسد السامانى — والى سمرقند فى أيام المأمون : ١٥٢
نوح بن نصر بن أحمد السامانى : ٦٤ ، ٨٥ ، ١٥٦ — ١٥٨،١٦٥،١٩٥،٥٥٨،٥٧١
نوح الثانى بن منصور السامانى : ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٦
نيقولا الراهب : ٤١٤

(هـ)

الهادى العباسى : ٢٧٩
هارون — أخو الراضى بالله : ٧١
هارون البجلى : ٣٧٤
هارون بن خمارويه : ٢٣١،٢٣٢،٢٢٨
هارون الرشيد : ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٤١٢ ، ٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٨٤
هارون الشارى الخارجى : ٢٠٣
هارون بن غريب — من رجال الدولة فى عهد المقتدر : ٥٥ ، ٦١
أبو هاشم العلوى : ٥٥٨
ابن هانىء الأندلسى — محمد : ٢٥٣،٢٥٦،٥٥١
هبة الله الشيرازى — داعى الفاطميين فى فارس : ١٣٢،١٣٣،١٣٤،١٣٦،٣٥٢،٣٦٤،٤١٢
هرثمة بن أعين : ٢٦٨ ، ٢٦٩
الهرثمى — أبو النصر : ٥١٨
هشام الأول الأندلسى : ٢٨٨ ، ٥٢٣
هشام الثانى المؤيد الأندلسى : ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٤٣٣
هشام الثالث المعتد بالله ٣١٢
هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر : ٣٠٧
هلال الصابى : ٥٨٥
الهمذانى — أبو الفضل : ٥٥٨
هودب — انظر راجا باران
ابن الهيثم — أبو على محمد : ٥٧٩ ، ٥٨٠
أبو الهيجاء الهمذانى — من قواد المقتدر : ٥٥ ، ٦٦

(و)

الواثق العباسى : ٢١،٢٢،٢٣،٥٦٧،٥٥٦
الواسطى — كاتب أحمد بن طولون : ٤٥ ، ٢٣٠
ابن واصل : ثار على بهاء الدولة : ١٢٤،١٢٥
ابن واضح — انظر اليعقوبى
ابن وجيه — والى عمان : ١٠٦
وشمكير بن زيار — أخو مرداويج بن زيار : ٦٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥
وصيف التركى : ٢٠،٣٢،٤٥،٤٩،٣٩٩
أبو الوزير — كاتب المتوكل : ٢٣

الوليد بن طريف الشارى : ٣٧٣
ابن الوليد — مسلم : ٥٥٧
ابن وهب — أبو القاسم وزير المكتفى : ٥١، ٥٢

(ى)

يارجوخ : ٢٢١
ياقوت — والى فارس أيام بنى بويه : ١٠٠
ابن ياقوت : المظفر أبو الفتح محمد : ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦
يحيى بن أسد السامانى — والى الشاس أيام المأمون : ١٥٢
يحيى الرابع بن إدريس : ٢٨٢، ٢٨٣
يحيى بن زكرويه — من زعماء القرامطة : ٥٢، ٣٢٧
يحيى بن محمد بن إدريس : ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣
يحيى بن على بن حمود : ٣١١
يحيى بن المنجم الشاعر : ٤٨
أبو يزيد مخلد بن كيداد : ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٨٢، ٣٧٥، ٥٤٩
يزيد المهلبى الشاعر : ٣٠
يعقوب بن كلس : ٢٥٣، ٢٥٨، ٤٤٢، ٤٤٣، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٧٣، ٦٨٨
يعقوب بن الليث الصفار : ١٤٢، ١٤٩، ٤٥٣
اليعقوبى — الجغرافى : ٤٩، ٥٨١، ٥٨٧
يمين الدولة — انظر محمود بن سبكتكين
يوسف بن تاشفين : ٣٢٤
ينال تكين — نائب محمود الغزنوى فى الهند : ١٧٤
يوسف بن عمر قاضى المتقى : ٧٥
يولوجيوس — قسيس بالأندلس : ٢٩١
يوفيموس : ٢٧٣
ابن يونس — أبو بشر متى : ٥٦٥
ابن يونس — أبو الحسن على : منجم مصرى : ٥٧١

أسماء النساء

(ا)

أروى السيدة الحرة الصليحية — زوجة المكرم — ٣٥٦
أسماء — بنت خمارويه — انظر قطر الندى
أملح الناس — أم المستكفى العباسى : ٨٥
أيرينى : ٣٩٧

(ب)

بدر الدجى — أم القائم بأمر الله : ١٢٩
بوران — بنت الحسن بن سهل : ٦٢٨، ٦٦٢

(ت)

تغريد — زوجة العزيز الفاطمى : ٢٥٨، ٢٥٩، ٦٣١، ٦٤٦
تيودورا — ٤١١

(ث)

ثومال — قهرمانة السيدة أم المقتدر : ٥٥، ٤٩٩، ٦٤٤

(ج)

جيجك — أم المكتفى : ٥١

(ح)

حفصة — زوجة الرسول : ٢٢٠

(د)

دريرة — جارية المكتفى : ٤٩

(ر)

رابعة العدويه — من المتصوفة : ٣٨٦
رشيده — بنت المعز الفاطمى : ٦٤٦

(س)

ست الملك — اخت الحاكم الفاطمى : ٦٤٤ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧
سكينه — بنت بهاء الدولة : ١٢٣
السيده — أم المقتدر : ٥٥ ، ٧١ ، ٤٢٣ ، ٤٩٩ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧

(ش)

شجاع — أم المتوكل العباسى : ٢١ ، ٢٢ ، ٦٤٧

(ص)

صبح — أم هشام الثانى المؤيد : ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧
صقيل — زوجة الحسن العسكرى : ٣١٨

(ط)

طروب — جارية عبد الرحمن الأوسط : ٢٩٧ ، ٦٤٧
طوطة — جدة شانجة : ٢٩٧

(ع)

عائشة أم المؤمنين : ٢٢
عبدة — بنت المعز الفاطمى : ٦٤٦
علية — أخت الرشيد : ٦٤٣

(غ)

غزلان — جارية زرياب المغنى : ٦٢٦

(ف)

فاطمة الزهراء : ١٠٤ ، ٣١٧

(ق)

قبيحة — أم المعتز : ٢٤ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٦٤٤
قراطيس — أم الواثق : ٢١
قطر الندى : ٤٨ ، ٤٦٢ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣
قمر — جارية حاكم بن حجاج حاكم إشبيلية : ٢٩٤

(م)

محبوبة — من جوارى المتوكل : ٢٤
مدثرة — جارية عبد الرحمن الأوسط : ٦٤٧
مرتة — أم عبد الرحمن الناصر الثالث : ٢٩٤ ، ٢٩٥

(ن)

نرجس — زوجة الحسن العسكرى : انظر صقيل

(ه)

هنيدة — جارية زرياب المغنى : ٦٢٦

أسماء الأماكن

(ا)

الأبله : ٣٧٧ ، ٥١١
الأهواز : ٧٤ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٥٩١
الأنبار : ١٢٥ ، ١٩٢
أبهر : ١٥٦
أبيورد : ٥١٩ ، ٥٦٦
أجمر — موقع بالهند : ١٧٣
أذربيجان : ١٤٢ ، ١٩٨ ، ٤١٨
الأربس : ٢٦٨
أرجان — مدينة كبيرة على ستة فراسخ من الأهواز : ١٠٠ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢

الأردن : ٣٧
أرغونة — مدينة بالأندلس : ٢٦٠
أرمينية : ٢٧ ، ٣٩
الإسكندرية : ٢٢١، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٨٩، ٢٧٣، ٥١٣ ، ٥٨٢
سان استبان — بالأندلس : ٢٩٦
أستجة — بالأندلس : ٣١٢
آسى — قلعة بالهند على نهر الكنج : ١٧٢
إشبيلية : ٣١١، ٣١٢، ٣١٤، ٥٥١
أصبهان : ٦٣، ٦٤، ٧٣، ٩٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٦، ١٠٨، ١٣٢، ١٤٨، ١٦٦ — ١٦٨ ، ١٧٧، ١٧٨، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٩، ٥١٤، ٥١٨، ٥٢١، ٥٥٧، ٥٧٢، ٥٩١، ٦١٢
إصطخر : ١٠٠ ، ١٩٢
اصفهان — أنظر أصبهان
إفريقية : ٣٩، ٥٦، ٧٣، ٢٢٤، ٢٢٧
أفغانستان : ١٧٤
إقريطش : ٢٨٩
ألياكى — حصن ببلاد المغرب : ٢٨١
أنطاكية : ٤٩، ٢٢٨، ٤٧٤، ٥١١، ٥١٣، ٥٣٣ ، ٥٤٨
أنهلوارة — موقع بالهند : ١٧٣ ، ١٧٤
أوال — جزيرة بالبحرين : ٣٤٤ ، ٣٤٩
أيلة : ٥١٣

(ب)

بادية السماوة : ٥٢
بجاية : ٤٧٥
البحرين : ٣٩ ، ٤٧ ، ٦٣ ، ٧٣، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٨، ٣٧٧، ٣٧٨
بخارى : ١٤٢ ، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤ — ١٥٥ ، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٢، ٥١٨، ٥٢١، ٦٦١، ٥٦٦
برزعة — مدينة بأذربيجان . ٤١٨
برشلونة : ٢٩٠، ٣٠٠، ٣٠٣
برغواتة : ٣٧٢
برقة : ٤٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٤٩٦ ، ٥٠٦، ٥١٣
بروفانس : ٤١٦ ، ٥٦١
بست — من بلاد الغزنويين : ١٦٤، ١٦٦
بشاور : ١٦٤
البصرة : ٢٣ ، ٣٩ ، ٥٢ ، ٧٣، ٧٥، ٧٧، ٨٠، ١٠٥، ١٠٩، ١١٩، ١٢٠، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٠، ١٣١، ١٣٥، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ٣٢٣، ٣٢٩، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٧، ٥٢٥ ، ٥٢٨، ٥٤٥، ٥٦٣، ٥٧٩
بصرى : ٥١٤
بغداد : ٢٣، ٢٥، ٣٢، ٣٣، ٣٧، ٤٢، ٤٥، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٨، ٦٣، ٦٦، ٦٧، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩ ، ٨٤، ٨٩، ٩٣ ، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٩، ١٢٠، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٩٧، ٤٥٣ ، ٥١٣ ، ٥٢١ ، ٥٨٧ ، ٥٩١، ٥٩٢
بلاد الجبل : ٤٥، ٦٤، ٧٣، ١٥٨
بلخ : ١٦٧، ١٧٠، ٣٢٢، ٥٠٦
بلنسية : ٢٩٠
البنجاب : ٦٦، ١٦٩ ، ١٧٤، ١٧٨
بهيم نغر — قلعة فى بلاد الهند : ١٧٠
بوشنج — من بلاد خراسان : ١٤٢
بيت المقدس : ٤٠٨، ٥١٣، ٦١٣
بيروت : ٤٠٧
البيضاء — من بلاد فارس : ١٩٢، ٣٩٧
بين — نهر بالعراق : ١٣٨

(ت)

تاهرت : ٢٥٠، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٧٨
تستر — مدينة بخوزستان : ٥١١
تكريت : ٨٠، ٨١، ٨٣، ١٠٤، ١١٠
تكساس : ٢٨١
تلمسان : ٣٧٢

تنيس : ٣٤٦، ٤٧٣، ٥٠٧
تورينو : ٤١٦
تونس : ٢٧٨، ٥٩٨

(ج)

جدة : ٥١٣
جرجان: ٦٣، ٦٤، ٧٣، ٩٩، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٥، ١٦٠، ٢٠٠، ٥٢٠، ٥٥٧، ٥٧٢
الجرف : ولاية بالأندلس : ٢٩٢
الجزيرة الخضراء — فى جنوب الأندلس: ٣٠١
الجزيرة — بالعراق : ٣٩، ٤٣، ١٠٥، ١٤٢، ٢٢٧، ٢٣٠
جزيرة الروضة : ٤٢
جليقية — بالأندلس : ٣٠٠
الجند : ٣٣٣
جنديسابور : ١٤٥، ٥٦٣
جوجرات — إقليم بالهند : ١٧٤
جيان — ببلاد الأندلس : ٢٩٢، ٣١١
الجيزة : ٤٢، ٢٥٥
جيشان : ٣٣٣
جيلوم — نهر قرب قشمير ١٧١

(ح)

الحجاز : ٢٥٥، ٣٤٨، ٥٠٦
حجر النسر — قلعة ببلاد المغرب : ٢٨٤
الحديثة : ٤٣
حران : ١١١، ٥٦٢، ٥٦٥، ٥٧٨
حلب : ٢٥٧، ٤٠٩، ٤٧٤، ٥٠٦، ٥٢٠، ٥٦٥
حلوان : ٦٣، ١٥٦، ١٦٢
حماه : ٢٥٧
حمص : ٤٠٩
حوران : ٢٥٤
الحيرة : ٥٩١

(خ)

خراسان : ٦٤، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ١٠٥، ١٢٤، ١٢٦، ١٤١، ١٤٢، ١٧٨، ٣٢٢، ٣٤٣، ٥١٢، ٥٧١، ٥٨٨
الخزر : ٤١٨
خوارزم : ٥١٩، ٥٥٨، ٥٦٦
خوزستان : ٧٣، ١١١، ١١٩، ١٣٥، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٧٧، ٣٧٨، ٤٦٠، ٥٠٦

(د)

داهستان : ٥٧٢
داود أباذ — من أطراف نيسابور : ١٤٣
دجلة : ٧٦، ٧٧، ٨٧
الدكة بالشام : ٣٤٦
دلهى : ١٧٥
دمشق : ٢٦، ٣٧، ٤٢، ٤٤، ٦٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٤، ٢٥٤، ٢٥٨، ٣٤٦، ٣٤٨، ٤٠٨، ٥١٢، ٥١٣، ٥٨٩
دمياط : ٢٣، ٣٣٢، ٤٧٣، ٥٠٧
دمياط الأعاجم : انظر كازرون
دماوند : ٣٢٢
ديار بكر — بآسيا الصغرى: ٧٣، ١١١، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٥٤، ٤٩٤
ديار مضر : ١١١، ٤٩٤
ديالى — نهر بالعراق : ٧٦
دبيق : ٥٠٧
الديلم : ٣٤٩، ٤٧٦
دينور : ١٥٦، ١٨٠

(ر)

رامهرمز : ١٩٠، ٣٧٧
راميثا : ٤١٥
رباح : ٣٥٧
الرصافة: ٤٥، ٤٩٩، ٥٨١
الرخج — قرب خراسان :١٤٣
رقادة : ٢٤٨، ٢٧٨، ٣٣٦
الرقة : ٤٢، ٤٣، ٥١، ٨١، ٨٧، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣٧
الرملة — بفلسطين : ٦٨، ٢٠٤، ٢٥٧، ٣٠٦، ٣٤٦، ٥١٢

الرها : ٤٠٣ ، ٤٠٧
الرهاب : ١٤٢
الرى : ٦٣، ٦٤، ٧٣، ٩٥، ٩٩، ١٠١، ١٠٦ ،
١٠٨، ١٣٨، ١٤٣، ٤، ١، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٩،
١٦٧، ١٦٩، ١٧٨، ١٨٣، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٣،
١٩٤، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٣٢٢،
٤٤٩، ٥٥٧، ٥٧٠

(ز)

زابلستان : قرب خراسان : ١٤٣
الزاهرة — بالأندلس : ٣٠٥ ، ٦٠٥
الزهراء — بالأندلس : ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٣ ،
٥٩٩، ٦٠٢، ٦٣٢
الزهرى — بلدة : ٥٥٧
زامورة — قلعة فى شمال الأندلس : ٢٩٦
زنجان — من بلاد فارس : ٩٩

(س)

سابور : ٥١٠
سامرا : ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٩، ٧٢،
٧٨، ١٤٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٥٣، ٥٨٩، ٥٩٠ ،
٥٩١
ساوة — من بلاد الغزنويين : ١٦٧
سبتة — بالمغرب : ٣١٣
سجستان : ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٧، ١٥٠،
١٥٤، ١٥٥، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٤، ١٦٧، ١٩١
سجلماسة : ٢٥، ٢٤٨، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٧، ٣٣٦
سرخس : ١٧٩

(س)

سردانية : ٢٥٥، ٢٧١
سرستى — قلعة جنوب قشمير بالهند : ١٧٨
سرقسطة : ٢٩٣
سرنديب : ١٧٠
سلمية — مركز الإسماعيلية بالشام ٣٢٤
سمنان — حصن بالهند ١٧٣
سمرقند ٢٦٦ ، ٥١٠
سمندو — بآسيا الصغرى ٤١٥
سنجار — اسم موقعة : ٣٥٣ ، ٣٧٤
السند ١٤٤، ١٤٧، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٩، ٥١٢
سورية ٥٢ ، ١٤٢ ، ٢٥٥
سونيبات — من بلاد الهند ١٧٨
سيحون ١٧١

(ش)

الشام : ٢٤، ٣٧، ٣٩، ٤١، ٤٢، ٤٥، ٥٢، ٦٨،
٧٠، ٧٣، ٧٦، ٨٢، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨ ،
٣٤٩، ٤٦٩، ٥١٢، ٥١٣
شروة — قلعة بالهند ١٧٢
شطا : ٥٠٧
شهرزور : ٣٧٤
شيراز : ١٠٠، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٨٥
١٨٦، ١٩٠، ١٩٢، ٥٧١، ٦١٢ .
شيزر — بالشام ٢٥٧ ، ٤٠٩

(ص)

صفين : ٢٢٧
صقلية : ٢٣٩، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٦٥، ٢٧١، ٢٧٥،
٢٧٦، ٤١٤، ٤١٥، ٤٩٦، ٥١٢ .
صنعاء : ٣٣٣
صيدا : ٤٠٨

(ط)

الطالقان — بخراسان : ١٩٠
طبرستان : ٦٣، ٦٤، ٧٣، ٩٩، ١٤٣، ١٤٤،
١٥٣، ١٥٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٩٥، ٤٤١، ٥١٨،
٥٢٦، ٥٣٢، ٥٥٨، ٥٦٦
طبرية : ٢٣٥، ٢٥٤، ٤١٠
الطبسين — قرب خراسان : ١٤٣
طبنة — ببلاد المغرب : ٣٣٦
طرابلس : ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٥١٣، ٥٤٨
طرسوس : ٤٢، ١٢٩، ٢٢٨، ٢٣٥، ٦٥٠

طليطلة : ٢١٦، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٥، ٦٣٢
طنجة : ٢٨١، ٢٨٤، ٣١٣، ٥١٢
الطواحين — نهر : ٣٤٩
طوس : ٥٦٦

(ع)

العدوة : ٢٩٢
عدن : ٣٠٦
العراق : ٢٣، ٢٤، ٣٧، ٥٢، ٥٣، ٩٥، ١٠١، ١٠٢، ١٠٦، ١١٠، ١١١، ١١٩، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٦، ١٤٢، ١٥٩، ١٧٨، ٥٠٦، ٥٠٧
العريش : ٤١، ٦٨
عسقلان : ٢٥٨، ٣٤٩
العسكر : ٢٥٤، ٤٦٤، ٤٧٢
عكبرة — بلدة قرب سامرا : ٣٣، ٨٠، ١٠٤، ١٠٥، ٢٠٤
عمان : ١٠٦، ٢٣٦، ٣٧٥
عين زربة — مدينة : ٣٩٨
عيذاب : ٥١٣

(غ)

غزنة : ١٦٤، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ٥١٩، ٥٢١، ٥٧٨
غليفقة — على ساحل البحر الأحمر : ٣٢٢

(ف)

فاس : ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٥١٢
فارس : ٥١، ٥٢، ٦٣، ٧٣، ٩٣، ٩٥، ١٠٠، ١٠١، ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١١٩، ١٢٠، ١٢٤، ١٣٣، ١٣٥، ١٤١، ١٤٤، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٩، ١٨٤، ١٩٥، ٣٤٠
فتح أباذ — بلد بالهند ١٨٠
فخ : ٢٧٩، ٣٢١
فج الأخيار — ببلاد كتامة ٣٣٤
الفرات : ٤٨، ١٤٢، ٢٣١
فرغانة : ٥٥، ٢٣٤، ٢٣٦، ٥١٤
الفرما : ٣٤٦، ٥١١، ٥١٣
الفسطاط : ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٥٣، ٤٦٤، ٥١١، ٥٢٠
فلسطين : ٣٧، ٥٢
فم الصلح — على نهر دجلة على مقربة من واسط : ٢١
الفيوم : ٥٠٧

(ق)

القادسية : ٣٧٧
قاشان : ٣٤٠
قاليقلا — قيليقيا فى آسيا الصغرى ٢٣
القاهرة : ١٤٢، ٢٥٦، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٩، ٥٠٨، ٥٢١، ٥٦٢، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٩٤، ٦٥٠
قرطبة : ١٤٢، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٣، ٣٠٦، ٣١٢، ٤١٧، ٥١٧، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٩٩، ٦١٥، ٦١٦، ٦٢٦
قسطلونة : ٢٩٢
القسطنطينية : ٣٩٧، ٥١١
قشمير : ١٧١
قصدار — بالقرب من غزنة : ١٦٤
القطائع : ٢٣٣، ٥٩٣
القطيف : ٣٢٨، ٣٣٠
القلزم : ٣٤٦، ٥١١، ٥١٣
قلورية — بإيطاليا : ٤١٥
قم — من بلاد فارس : ٩٩، ١٥٦، ٣٤٠
قندهار : ٣٢٤
قنسرين : ٢٣٧
قورم — ببلاد الأفغان : ١٦٩
قوهستان — من بلاد الدولة السامانية : ١٦١
القيروان : ٢٤٨، ٣٣٥، ٥١٣، ٥١٧، ٥٩٧

(ك)

كابل : ١٦٥، ١٦٩، ١٨٠، ٥٠٨
كازرون — بفارس ٥٠٨

كاشغر — من مدن فارس ١٥٥
الكرخ : ٨٤، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٨٤، ٣٥٣
كرمان : ٧٣، ٩٥، ١٠١، ١١١، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٤، ١٥٦، ١٥٩، ١٧٨، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠١، ٤٥٣، ٦٥٠
كلجند — قلعة بالهند : ١٧٢
كلواذا — أحد روافد دجلة : ٣٢٥
كنوج — قلعة بالهند : ١٧٢
الكوفة : ٢٣، ٤٧، ٨٢، ١٢٥، ١٩٢، ٣١٧، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٠، ٣٥٥، ٥١٠، ٥١٧، ٥٢٥، ٥٢٨، ٥٦٣
كيكى : من قلاع الغزنويين بالهند : ١٧٩

(ل)

اللاذقية : ٥٤٨
لاهور — مقر الغزنويين بالهند : ١٧٥، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣
ليجوريا — بإيطاليا : ٤١٦
ليون : ٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٤

(م)

ماردين — قلعة : ٢٠٣
مالقة : ٣١٢، ٣١٣
ماوراء النهر : ٤٧، ٧٣، ١٢٣، ١٤١، ٥١٢
المختارة : ٣٧٧، ٣٧٨
المدائن : ١٢٥
المدينة المنورة : ٢٢١، ٢٣٧، ٢٥٢، ٣٢٢
المذار — بين واسط والبصرة : ٧٥
مراغة : ٤١٨
مراكش : ٥١٣
مرسية — بالأندلس : ٢٩٣
مرو : ١٥٥، ١٥٧، ١٦٧، ١٧٩
مرو الروذ ١٥٥
المذيخرة : ٣٣٧
مشهد على بالكوفة : ١٢٥
مصر : ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٥٦، ٦٨، ٧٣، ٨٢، ٣٣٤، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٠، ٤٣٠، ٥٠٦، ٥١١، ٥١٢
المصيصة : ٣٩٨
معرة النعمان : ٥٤٨
المغرب : ٤٧، ٦٤، ٧٣
المقس : ٤٧٤
مكران : ١٧٨
مكة : ٣٩، ٥٢، ٢٣٧، ٣٢٢، ٣٣٤، ٥١٣
الملتان — مركز مشهور للحجاج الهنود : ١٤٣، ١٧٠، ١٧٨، ١٨٠
المحرم : مكان إقامة ابن المعتز المرتضى بالله: ٥٤
المنصورية : ٢٥٥، ٢٥٦
المهدية : ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٨٤، ٢٨٥، ٥١٣، ٥٩٧، ٥٩٩
الموصل: ٣٧، ٣٩، ٤٣، ٤٥، ٥٦، ٧٢، ٧٦، ٧٩، ٨٠، ٨١، ١٠٤، ١٠٥، ١١٠، ١٢٥، ١٩٥، ٢٠٣، ٢١٠، ٣١٥، ٣٧٢، ٤٠١، ٤٥٤، ٥٢٠، ٥٢٣
ميافارقين : ١١١، ١٣٢، ١٤٢، ٤٠٣، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٩
ميناو — حصن : ٢٧٢

(ن)

نابلس : ٥٠٦
ناردين — فى بلاد الهند : ١٧١، ١٧٣
نرسى — من أعظم مدن الهند : ١٧٥
ترمذ — من بلاد السامانيين : ١٦٧، ١٨١
نصيبين : ٨٠، ٨١، ١٤٢، ٢٠٤، ٤٠٣، ٤٠٧، ٥٦٢
نهاوند : ١٥٦
النوبة : ٢٤١، ٢٥٧
نيسابور : ١٤٢، ١٤٣، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٠، ١٦١، ١٦٦، ١٧٩، ٥٦٦، ٥٧٨

(هـ)

الهارونية — حصن : ٤٠٦
هانسى — من بلاد الغزنويين بالهند : ١٧٨
هجر : ٣٩، ١٠٥، ٣٢٨
هراة : ١٤٢، ١٤٣، ١٦٤، ١٦٧، ١٧٨
همذان : ٦٣، ١٠١، ١٠٦، ١٠٨، ١١٢، ١٢٦، ١٣٢، ١٥٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٩١، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٤٤٩، ٥٦٦، ٥٧٢
الهند : ٣٢٣

(و)

وادى القصارين بالمغرب : ٢٧١
واسط : ٣٤، ٤١، ٥٢، ٧٠، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٨٠، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ١٠٦، ١١٠، ١١٩، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٥، ١٥٦، ١٨٩، ١٩١، ١٩٤، ١٩٦، ٣٤١، ٣٧٧، ٤٩٤
لورقة — ببلاد الأندلس : ٢٩٢
وليلى : ٢٨٠
وهران — ببلاد المغرب : ٢٨٦
ويهند — فى بلاد الهند : ١٧٠

(ى)

يافع : ٣٣٣
يزيد — نهر بالشام : ٣٤٦
اليمامة : ٧٣، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠
اليمن : ٤٧، ٥٢، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٥٤

الكلمات التى تدل على حوادث تاريخية هامة

(ا)

الإباضية — من الخوارج : ٢٢٤، ٣٧٢
الأتراك : ١٦١، ١٦٤، ١٦٨، ١٩٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٨، ٢١٩، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٦١٤
الأتراك الغزية — أصحاب أرسلان بن سلجوق فى صحارى بخارى — ١٦٨
إخوان الصفا : ٣١٧، ٥٦٤
ازكوتكينية — فرقة من الفرسان المماليك فى جيش العباسيين : ٤٨٣
الإسماعيلية : ١٣٤، ١٥٧، ١٦٨، ٣١٧، ٣٢١، ٣٣١، ٣٥٦، ٤٩١، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٧٥، ٥٨٩
الأشروسنية — من طوائف العصر العباسى الثانى : ٣٢
الأكراد : ١١٢، ١٢٧، ١٩٢، ٦١١
الأفلاطونية الحديثة : ٣٨٧، ٣٨٨
إمام : ٣٧١
الإمامية الموسوية — هم الاثناعشرية : ٣١٩، ٣٢٠، ٣٣١، ٤٩١
أهل الذمة : ٦١٢
أوربة — قبيلة : ٢٨١
الأوارج — أعراب أوارة ومعناها بالفارسية المنقول : ٤٧٦

(ب)

الباطنية : ١٦٩
البرامكة : ٤٣٤
البربر : ٤٥، ٦١٤، ٦١٥
البريديون : ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٩٤، ٢٠٤
البنادقة : ٦١٧
البندار — كاتب السلعة، من مساعدى الوالى : ٤٥٤
بنو أمية : ١٩، ٣٨، ٤٧
بنو جهور بقرطبة : ٣١٤
بنو هاشم : ٢٥، ٣٨
البويهيون بالعراق : ٦٣، ٧٤، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٦، ٩٤، ٩٩، ١١٠، ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٣٩، ٤٦٧

أصلهم : ٩٤، ٩٥، ١٠٢، ١٥٧، ١٥٩، ١٦١، ١٧٨، ١٨٣، ٥٩١
البويهيون بفارس : ١٨٤ — ١٩٤
البويهيون فى الرى وهمذان : ١٩٤، ٢٠٢، ٢٠٤
البيزنطيون : ٤٠١ — ٤٠٥

(ت)

التتار : ١٩
التلجأة — معناها نقل الأرض إلى حماية شخص قوى : ٤٨٠
الترقين — من القوانين التى كانت مستعملة فى خراسان : ٤٧٧

(ج)

الجامع الأزهر : ٥٩٥، ٥٩٧
الجاندار — حرس الخليفة : ٤٦٨
الجثمانيين — طائفة من الدرزية : ٣٦٨
الجمازات — من وسائل نقل البريد : ٤٦٠
الجهال طائفة من الجثمانيين من الدرزية : ٣٦٨

(ح)

الحاجب فى الأندلس — يشبه الوزير : ٤٤٧
الحسبة : ٤٥٥، ٥٠٠، ٥٠١
الحمدانيون : ٧٨ — ٨١، ٨٢، ٨٦، ٩٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١١٠، ٢٠٣، ٢١٧، ٣٤٥، ٤٠٥
الحيرى — اسم للقصر الذى ابتدعه المتوكل العباسى : ٦٢٨

(خ)

خازن المال — يشرف على الخزانة فى الأندلس : ٤٨٩
الخبيث — انظر على بن محمد
الختمة — سجل للمال : ٤٧٦
الخسروانى — نوع من الحرير : ٥٠٩
الخشب — اسم للمنار لهداية السفن : ٤٧٣
الخراج : ٤٧٨
الخراسانيون : ٣٧، ١٩٥
الخرمية : ١٨، ١٨٤
الخطابية — يؤلهون جعفر الصادق : ٣٩٣
ابن الخلائف — لقب الخليفة الأموى بالأندلس : ٤٣١
الخوارج : ٣٧، ٣١٧، ٣٧٢، ٣٧٣، ٤٣٠، ٤٥١
الخوارج الصفرية ٢٨٢

(د)

دار الحكمة : ٣٦٥
داعى الدعاة — وظيفة فاطمية : ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤
الدرزية : ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٨
الدعاء : اسم رسالة شيعية : ٣٧١
دعى آل على — انظر صاحب الزنج
الديلم : ١٠٢، ١٠٦، ١٠٧، ١١٩، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٧، ١٥٨، ١٦٩، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ٢٠٢، ٤٥٥، ٦٠٩
ديوان الإنشاء والمراسلات : ٤٥٦، ٦٥٢
ديوان الدار : ٤٥٥
ديوان الأحباس — يشبه وزارة الأوقاف : ٤٥٦
ديوان السواد — أى العراق : ٤٥٦
ديوان الماء — يشرف على الرى : ٥٠٥
ديوان المظالم : ٤٩٨

(ر)

الراذانية — نسبة إلى نهر الرون : ٥١١
الرافضة : ١٦٨، ٣٥٤
الراوندية : ١٩، ٣٩٣
الربضيين — نسبة إلى ربض وهى مدينة قرطبة : ٢٨٢
الرجعة : ٤٧٧
الرزنامج : ٤٧٦
الركاز : ٤٨١
رؤساء — قسم من الروحانيين : ٣٦٨
الروحانيين — من الدرزية : ٣٦٨
الروس : ٤١٨
الروم : ٢٤٢، ٣٢٣، ٤٧٢، ٥١٥

(ز)

الزط : ٢٤، ١٩٠، ٣٩٨
زواغة — قبيلة : ٢٨٠
زغبة — قبيلة : ٣٥٧
الزكاة : ٤٧٧
زناتة — قبيلة : ٢٥٠، ٢٨٠
الزنادقة : ١٩
الزنج : ٣٧، ٤٠، ٤٣، ١٨٧، ٣١٧، ٣٧٥، ٣٧٦
الزمام — ديوان بيت المال : ٤٥٥
زمام القصر — وظيفة فاطمية : ٤٣١
الزيج : ٢٢٦

(س)

الساجية — أتباع ابن أبي الساج : ٥٨
آل ساسان : ٥٦٢، ٥٦٣
السامانيون : ٥٢، ١٥١ — ١٦٢، ١٦٤، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠٠، ٥١٢
السبئية — يؤلهون على بن أبي طالب : ٣٩٣
سفطس — اسم للمتصوفة : ٣٨٥
السلاجقة: ٦٣، ١٣٢، ١٣٥، ١٧٨، ١٨٢، ١٩٤، ٣٥١، ٥٩٢
أهل السنة: ٢٢، ١٠٣، ١٠٨، ١٢٥، ١٣٦، ٦٠٩
بنو سهل : ٤٣٤
السودان : ٢٢٥، ٤٧٢، ٦١٣
سيد الملوك والسلاطين — أنظر يمين الدولة

(ش)

الشدة العظمى — فى عهد المستنصر الفاطمى: ٢٦٦
الشرطة الكبرى — فى بلاد الأندلس : ٤٦٤
الشرطة الصغرى — فى بلاد الأندلس : ٤٦٤
الشرطة الوسطى — فى بلاد الأندلس : ٤٦٥
الشيعة : ١٠٢، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٢٥ ، ١٣٦ ، ٦٠٩، ٦١٠

(ص)

صاحب الباب : ٤٥٧
صاحب البريد : ٤٥٧
صاحب الدية — يشرف على دخل الخليفة بالأندلس : ٤٨٩
صاحب الزمان — لقب أئمة الإسماعيلية: ٤٣١
صاحب الزنج — انظر على بن محمد
صاحب السوق — انظر الحسبة
الصفرية — من الخوارج : ٢٨١
الصفوية — أنصار إسماعيل الصفوى بفارس: ٣١٩
الصقالبة : ٦١٧
الصك : ٤٧٧
الصليحيين : ٣٥٤

(ط)

الطائيون : ٣٤٨
الطغزغز — قبيلة تركية : ٢١١
الطولونيون : ١٤١، ٣٢٧، ٤٤١، ٦٢٣

(ع)

العامل — لقب لصاحب الخراج : ٤٥٣
العبيديين : ٣٣٧، ٣٥١
عبيد الشراء — السودانيون فى الجيش الفاطمى : ٦٥٨
العتابية — نوع من الثياب : ٥٠٩
العذاقرة — يؤلهون أبا جعفر الشلمغانى : ٣٩٣
العقلاء — من الروحانيين: ٢٦٨
العقيليون : ٣٥٤
العلويون : ١٩، ٢٣، ٣٠، ٣٧، ٣٩، ٤٧، ٧٣، ١٠٣، ٢٢١

(غ)

غدير خم — عيد شيعى : ٦١٠
الغز — أقوام فى خراسان: ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١
الغزنويون : ١٦٢ — ١٨٣
الغنيمة : ٤٧٧
الغور — قوم فى بلاد أفغانستان — ١٦٦ ،

١٦٧، ١٧٠، ١٧١، ١٧٨، ١٨٣
الغيبة الكبرى : ٣١٨

(ف)

الفاطميون : ١٠٨، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٦٨، ١٩٣، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٧، ٤٢٩
بنو الفرات : ٤٣٤
الفراغنة — أهل فرغانة : ٣٣، ٣٥، ٤٦٦
الفرس : ١٩، ٢٠، ٢١٨، ٢٢٣
الفيوج — سعاة البريد : ٤٦١
الفيء : ٤٧٧

(ق)

قاضى القضاة : ٤٩١
قاعة الذهب : ٤٣٠، ٤٣١
القرامطة : ٤٧، ٥٢، ٥٦، ٥٨، ٨٢، ٩٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٥٦، ١٦٨، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٣١٧، ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٦٠٩
القلمونى — قماش براق ٥٠٩

(ك)

الكاتب — كاتب الرسائل بالأندلس : ٤٥٠
كاتب الجهبذة — كاتب الزمام بالأندلس : ٤٥١
كتامة : ٢٤١، ٢٤٨، ٣٣٤، ٦١٣
الكرمية — مذهب : ٣٨٣
بنو كلب — قبيلة على مقربة من الرقة : ٣٢٧
الكغلغية — من فرسان الجيش العباسى : ٤٨١

(ل)

اليانسية — من مماليك الجيش : ٤٨٣

(م)

المتصوفة : ٣٨٥، ٣٨٦
متولى السوافى — مشرف على ضياع السلطان : ٤٥٤
مجالس الدعاة : ٣٦٣
مجلس التقدير — ينظر فى رواتب الجند : ٤٦٧
مجلس الشورى بالأندلس ٤٤٨
مجلس المقابلة — لمراجعة سجلات الجيش ٤٦٧
مسدد خاصة — قاضى بالأندلس : ٤٩٧

(م)

المرجئة : ٤٩١
المسرورية : ٤٨٣
المشبهة — طائفة دينية فى بلاد الفرس ١٦٨
المعتزلة : ١٩، ١٢٣، ١٦٨، ١٦٩، ١٨٣، ٣٧٩، ٣٨٢
ذومعه — كلمة شيعية : ٣٧١
المغاربة : ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٩٤، ٤٦٦
المهرجان : ٦٥٠
المناجاة — اسم رسالة شيعية ٣٧١
ميثاق ولى الزمان : ٣٦٩
الميدان — اسم قصر أحمد بن طولون : ٥٩٣

(ن)

النسطوريون : ٥٦٢، ٥٦٣
النصيرية — طائفة من غلاة الإمامية
نقيب : ٤٦٧
النوروز : ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣

(هـ)

هادى المستجيبين — انظر حمزة بن على
البيت الهاشمى : ٣٥٦
الهجرة — ضريبة فرضها حمدان قرمط على كل بالغ : ٣٢٥
الهلالى — ضرائب تؤخذ على الكلأ وصيد السمك : ٤٨٣

(و)

الواسطة : لقب يشبه الوزارة فى عهد الفاطميين : ٤٤٣

كتب المؤلف

١ — « تاريخ عمرو بن العاص » الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٢٦) .

٢ — « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢) . وضعه المؤلف بالإنجليزية The Fatimids in Egypt, considered Chieffy in connection with their Politico—Religious Activities وترجمه إلى العربية.

٣ — « تاريخ العصور الوسطى فى الشرق والغرب » للسنة الثانية الثانوية (بالاشتراك مع الأستاذ أحمد صادق الطنطاوى المفتش بوزارة المعارف) الطبعة الثانية سنة ١٩٣٣ .

٤ — « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » تأليف الدكتور أودلف جروهمان Adolfe Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library. أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة براغ — ترجمه المؤلف إلى العربية (دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٤) . وترجمة الجزء الثانى تحت الطبع .

٥ — « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية » تأليف فان فلوتن Van Vloten : Recherches sur la Domination arabe, le Chi' itisme et les croyances messianiques sous le Chilafat des Omayades.
ترجمه المؤلف عن الفرنسية إلى العربية وعلق عليه ، بالاشتراك مع الأستاذ محمد زكى إبراهيم (القاهرة ١٩٣٤) .

٦ — « تاريخ الإسلام السياسى » الجزء الأول ، ويبحث فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية ، والحضارة العربية فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين (القاهرة ١٩٣٥) — الطبعة الثانية ستظهر قريبا فى عشرة أبواب بدلا من خمسة مع إدخال كثير من الإضافات والتعديلات الجوهرية .

٧ — « النظم الإسلامية » بالاشتراك مع الدكتور على ابراهيم حسن ، مدرس التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة ١٩٣٩) .

٨ — « المجمل فى التاريخ المصرى » نشره المؤلف (القاهرة ١٩٤٢) وكتب فيه الباب الذى عنوانه « مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى » ص ١٢٧ — ٢٢٩ .

٩ — « النظم الإسلامية للسنة التوجيهية » قررت وزارة المعارف استعمال هذا الكتاب لطلبة السنة التوجيهية ، الطبعة الثالثة (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٤٥) .

١٠ — « تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ، الجزء الثانى — العصر العباسى الأول ١٣٢ — ٢٣٢ هـ = ٧٥٠ — ٨٤٧ م (القاهرة ١٥٤٥) فى ٣٨٤ صفحة من القطع الكبير .

١١ — « تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ، الجزء الثالث ١٣٢ — ٤٤٧ هـ = ٨٤٧ — ١٠٥٥ م . فى ٧٠٤ صفحة من القطع الكبير
والجزء الرابع يظهر قريبا إن شاء الله ويتناول تاريخ العالم الإسلامى من سنة ٤٤٧ هـ إلى زوال الدولة العباسية من بغداد على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

تصحيحات

نعتذر للقارىء عن وقوع بعض أخطاء مطبعية لاتخفى على فطنته ، راجين أن يتفضل باصلاحها قبل قراءة الكتاب .

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٠	٢٣	٣٥٦	٢٥٦
٢٦	١٢	عبيد بن يحي	عبيد الله بن يحي
٢٩	٢٧	فأخذا	فأخذوا
٣٠	٨	وأوما	وأومى
٣٨	١١	المعتمد	المهتدى
٥١	١٤	أبو	أبو الحسن
٥٢	٢٢	واليمن	تحذف
٥٢	٢٧	يحي بن	تحذف
٥٨	٧	الجرية	الحجرية
٥٨	١٤	حضر	حفر
٥٨	٢٢	بحجته	بحجبته
٦٣	٢٣	مردوايج	مرداويج
٦٧	١١	يتفقد	ينعقد
٧٢	٢	علومه	علوه
٨٤	٢	لأمير	للأمير
١٠٣	١	عز	معز
١٠٧	١٢،١٣	معز	عز
١١٥	٤	خلعه	خلفه
١٢١	٢	روائى	ورائى
١٢٤	١٥	الذين	الذين
١٢٥	٢١	عهد	عهد إليه
١٣٤	١	والفاطميين	الفاطميين
١٣٥	١٨	المطيع	القائم
١٣٦	٢	صاحبا	صاحبى
١٤٣	١٠	٣٥٩	٢٥٩
١٥٠	١٤	١٩٨	٢٨٩
١٥٩	١٨	وابنه	وبين
١٧٠	١٧	وكالنجار	وكالنجار
١٧١	١٧	قشير	قشمير
١٧٤	٢٢	نيال	ينال
١٧٥	٣	والذى	والذين
١٨٠	١٢	٤٤٠	٤٤١
١٨٠	٢٢	٣٣٢	٤٣٢
١٨٤	١١	مرادويج	مرداويج
١٩٠	٢٥	والف	والتف
١٩٢	٣٠	١٢٥ — ١٢٣	١٢٥ — ١٢٦
٢١٥	١	٥٦٣	٩٦٣
٢١٨	١٦	اتياخ	ايتاخ
٢٢٢	١	التى	الذين

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٣٢	٢٢	الفساط	الفسطاط
٢٧١	١	١٧١	٢٧١
٢٨٨	٢	٢٠٦	١٣٨
٢٩٠	٢٤	ابراهيم	إسحق
٢٩١	١٨	اضهاد	اضطهاد
٢٩٦	٧	فى عده	فى عهده
٢٩٦	١٠	سانشو	سانشو أو شانجة
٣٠١	١٤	وصف	وصفه
٣٣١	٣٢	Qutremere	Quatremère
٣٣٥	٨	معادضة	معاضدة
٣٤٩	١١	الملويين	العلويين
٣٨٠	٢٥	زار بن معد	نزار بن معد
٣٥٦	١	جداده	أجداده
٣٦٨	١	يسنهم	يسلبهم
٣٧٩	١٨	آرائهم	ارائهم
٣٨١	٢٢	ماخفقت	ماخلقت
٣٨٢	٥	فر	فسر
٤١٨	١٣	اذبيجان	اذربيجان
٤٣٨	١	مسوب	مسلوب
٤٦٤	٣	ح	حتى
٤٦٧	١٠	عصر	فى عصر
٤٦٧	٢٦	ابن المميد	ابن العميد
٤٨٦	٢٦	فصرف	فصرفه
٤٩٥	٢٠	وألزمعه	وألزمه
٥١٨	١١	الدينوى	الدينورى
٥٢٨	٢٨	سنة	سنة ١٩١٦
٥٣١	١٠	واعتبر	واعتبره
٥٤٨	٢١	والمالك	والمالكى
٥٥١	٢٩	Browse	Browne
٥٧١	٢	وطبيب	طبيب
٥٨٢	٣٢	الطعيه	الطبعة
٥٨٥	٣٣	Mirgoliouth	Margoliouth
٥٩١	١١	المعووف	المعروف
٦٠٤	٢١	منذ	منذر
٦٠٤	٣٠	تشتالة	قشتالة
٦١٢	١١	مفصلا	منفصلة
٦٥٥	٢٢	٢ —	تحذف
٦٦٨	٣٨	تسعة أبواب	عشرة أبواب

F

HISTORY OF ISLAM

Political, Religious, Cultural and Social

VOLUME III.

The Second Abbasid Period

In the East, Egypt, North Africa and Spain
From the Accession of Al-Mutawakkil to the Establishment
of the Seljuke Dynasty
(232—447 A.H. = 847—1055 A.D.)

By

Hassan Ibrahim Hassan

D. Litt. (Cairo), Ph.D., D.Lit. (London)
Prof. of Islamic History, Head of the Department of History,
Fouad I. University, Cairo.

Published by :
The Renaissance Bookshop
9, Adly Pacha St., Cairo, Tel. 51394

AL-ETTEMAD PRINTING PRESS, CAIRO.

Date Due

Demco 38-297

54 F